

(١١٦٦)

إن من الناس

من أقوال وأوصاف الناس

في كتب التراث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٥هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

" ٣١ - (٩٣٦) حدثنى أبو الربيع الزهرانى، حدثنا حماد، حدثنا أيوب عن محمد، عن أم عطية قالت: أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع البيعة ألا ننوح، فما وفت منا امرأة إلا خمس: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ، أو ابنة أبى سبرة وامرأة معاذ.

٣٢ - (...) حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا أسباط، حدثنا هشام عن حفصة، عن أم عطية، قالت: أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيعة ألا تنحن، فما وفت منا غير خمس، منهن أم سليم.

ذلك: أى لا تقدر عليه، وإنك عاجز عنه، ألا تراها كيف قدمت لذلك قولها: " أرغم الله أنفك "، ولم ترد الاعتراض على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقيل: " ما أنت بفاعل ": أى ما تقدر على منعهن من البكاء جملة، إذ منه المباح لهن الذى لا صوت فيه ولا منكر، والأول أظهر. ووقع فى رواية العذرى عندنا من طريق الأسدى فى حديث ابن أبى شيبة: الغى - بالمعجمة وتشديد الياء - الذى هو ضد الرشد مكان العناء، وعند الطبرى مثله، إلا أنه بالمهملة ولا وجه لهذا اللفظ، والأول أليق بالمعنى وأصح، وكذلك رواه البخارى (١).

وقول أم عطية: " أخذ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى البيعة ألا ننوح ": دليل على تحريم ذلك وشدته، والمعنى فى ذلك لأنه (٢) يستجلب الحزن، ويصد عن الصبر الذى أمر الله به وحض عليه نبيه.

وقولها: " فما وفت منا امرأة إلا خمس ": دليل على أن من الناس من كان يعصى أمر النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته، وأن مثل هذا [وبكاء] (٣) نساء جعفر وشبهه لا يستدل به على الرخصة فى النوح، ويدل على ما قلناه الحديث المتقدم: " أربع فى أمتى من أمر الجاهلية ". وسمت من الخمس فى كتاب مسلم: أم سليم، وأم العلاء، وابنة أبى سبرة امرأة معاذ، أو امرأة معاذ (٤) فذكر ثلاثا أو أربعا، وقد عدهن فى كتاب البخارى (٥)

---

(١) ك الجنائز، ب من جلس عند المصيبة فيعرف فيه الحزن ٢/ ١٠٤.

(٢) فى الأصل: أنه.

(٣) ساقطة من س.

(٤) قال فى الفتح: والذى يظهر لى أن الرواية بواو العطف أصح؛ لأن امرأة معاذ - وهو ابن جبل - هى أم عمرو بنت خلاد بن عمرو السلمية، ذكرها ابن سعد، فعلى هذا فابنة أبى سبرة غيرها. ووقع فى الدلائل لأبى موسى من طريق حفصة: " عن أم عطية. وأم معاذ " بدل قوله: " وامرأة معاذ " قال: ولعل بنت أبى سبرة يقال لها: امرأة معاذ. ٣/ ٢١١.

(٥) البخارى، ك الجنائز، ب ما ينهى من النوح والبكاء والزجر عن ذلك ٢/ ١٠٦.." [1]

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم القاضي عياض ٣/٣٧٩

"أتخشى أن أثب عليك؟.

١٩٣ - (١٢٣٧) وحدثنى هارون بن سعيد الأيلى، وأحمد بن عيسى، قالا: حدثنا ابن وهب، أخبرنى عمرو عن أبى الأسود؛ أن عبد الله مولى أسماء بنت أبى بكر - رضى الله عنهما - حدثه؛ أنه كان يسمع أسماء، كلما مرت بالحجون تقول: صلى الله على رسوله وسلم، لقد نزلنا معه هاهنا، ونحن يؤمئذ خفاف الحقائب، قليل ظهرنا، قليلة أزوادنا، فاعتمرت أنا وأختى عائشة والزبير وفلان وفلان، فلما مسحنا البيت أحللنا، ثم أهللنا من العشى بالحج.

قال هارون فى روايته: أن مولى أسماء. ولم يسم: عبد الله.

أخيها عبد الرحمن، وأما قول من قال: لعلها أرادت فى غير حجهم مع النبى، فخطأ؛ لأن فى الحديث النص أن ذلك كان فى حجهم مع النبى - عليه السلام. قال الإمام: ومعنى " مسحوا ": طافوا؛ لأن الطائف يمسح الركن، فعبر عن الطواف ببعض ما يفعل (١) فيه، ومنه قول ابن أبى ربيعة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان منهن ماسح

فكنى بالمسح عن الطواف، ويحتمل أن يكون " مسحوا بالركن ": أى طافوا وسعوا، وحذف ذكر السعى اختصارا لما كان مرتبطا بالطواف، ولا يصح دونه، ويؤيد هذا التأويل: أنها قالت قيما ذكره عنها بعد: " ما أتم الله حج امرئ ولا عمرته لم يطف بالبيت [ولا بين الصفا] (٢) والمروة ": إلا أن يتأول عليها أنها إنما أرادت بالإتمام الكمال لا الصحة، ويحتمل أن يكون ذلك على رأى من رأى أن السعى غير واجب، وفيه اختلاف بين الناس، وقد رأيت بعض أهل العلم أشار إلى أن من الناس من ذهب إلى أن المعتمر إذا دخل الحرم حل، وإن لم يطف ويسع، وله أن يلبس ويتطيب، ويفعل ما يفعل الحلال، ويكون طوافه وسعيه كأنه عمل خارج عن الإحرام، كما يكون رمى الجمار، والمبيت بمنى عملا خارجا عن الإحرام.

قال القاضى: لا حجة فى هذا لمن لم يوجب السعى؛ لأن هذا الحديث إنما هو عما فعلوا مع النبى - عليه السلام - فى حجة الوداع، والذى جاء فيه مفسرا: أنهم طافوا معه وسعوا، فيحمل ما أجمل وأشكل على ما فسر وبين.

وقولها: " ونحن خفاف الحقائب ": جمع حقيبة، وهو كل ما حمل فى مؤخر الرحل أو القتب (٣)، ومنه احتقب فلان كذا. والحجون، بفتح الحاء وضم الجيم مخفف، هو الجبل المشرف عند المحصب.

---

(١) فى س: يدخل.

(٢) سقط من س.

(٣) فى الأصل: والقتب، والمثبت من س.." [1]

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم القاضي عياض ٤/٣١٦

"الجمل، وعن بيع الماء والأرض لتحرث. فعن ذلك نهى النبى صلى الله عليه وسلم.

٣٦ - (١٥٦٦) حدثنا يحيى بن يحيى، قال: قرأت على مالك. ح وحدثنا قتيبة، حدثنا ليث كلاهما عن أبى الزناد، عن الأعرج، عن أبى هريرة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لايمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ ".

٣٧ - (...) وحدثنى أبو الطاهر وحرملة - واللفظ لحرملة - أخبرنا ابن وهب، أخبرنى يونس، عن ابن شهاب، حدثنى سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن؛ أن أبا هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تمنعوا فضل الماء لتمنعوا به الكلأ ".

نحن إنما نجيز إجارته، وهذا إنما نهى عن بيعه وقد يكون هذا مخالفا لذلك، كما يجيز إجارة الظئر للرضاع ويمنع بيع لبنها، فكذلك يجوز إجارة الفحل للنزو بخلاف بيعه، ولعل هؤلاء يرون أن لفظة " البيع " لا تتضمن إنزاء محدودا ولا أمرا معلوما ينتفع به، فيحملون الحديث على المنع على ذلك.

وقد تعلق المخالف بقوله: " نهى عن عسب الفحل " لأجل أنه لم يذكر فيه لفظة البيع، وهذا - أيضا - فيه إضمار محذوف. ولأصحابنا أن يقولوا فيه ما قالوا فى الأول، واعتمد المخالف فى المنع على أن المقصود غير معلوم ولا محصل، وذلك يلحقه بالغرر والخطر فيمنع. وأصحابنا لا يسلمون ذلك ويجعلون المعاوضة وقعت على معلوم، والضرورة تدعو لجواز إجارته، فوجب حمل الحديث على ما تأولناه، أو يحمل على الحث على مكارم الأخلاق والندب إلى إعارته لذلك؛ ليكثر التناسل فى الحيوان.

وأما نهيه عن بيع الماء، وفى الطريق الآخر: عن فضل الماء، فاعلم **أن من الناس من** زعم أن الإجماع قد حصل على أن من أخذ من دجلة ماء فى إنائه وحازه دون الناس أن له بيعه، إلا قولا شاذا ذكر فى ذلك لا يعتد بخلافه عنده، ومحمل النهى عن بيع الماء مطلقا أنه باع مجهولا منه، أو باع ما لا يحتفره فى أرضه واحتفره للسبيل، أو على أن النهى ندب للإسعاف به لاحتقار ثمنه وعظيم حاجة الناس إليه.

وقد اختلف الناس فيمن حفر بئرا للماشية فى الفيافى، هل له منع فضله؟ فعندنا ليس له منع ذلك بل يبذله بغير عوض، ومن الناس من قال: لا يمنعه، ولكن ليس عليه بذله بغير عوض بل بقيمته، قياسا على المضطر لطعام غيره لإحياء نفسه، فإنه لا يحل له منعه، ولكن لا يلزمه بذله بغير عوض، وما وقع هاهنا من نهيه عن بيع فضل الماء يدل على صحة ما قلناه: إن الفضلة لا تمنع.." (١)

"قال: ثم انطلق، فلبثت مليا، ثم قال: يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم).

زاد البرقاني: (٦٢/ ب) فيه عن عمر عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: التقى آدم وموسى فقال موسى: أنت آدم الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم من الجنة؟ فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالته وكلامه، وأنزل عليك

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم القاضي عياض ٥/٢٣٧

التوراة؟ قال: نعم. قال: فوجدته قدره لي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. قال: فحج آدم موسى، فحج آدم موسى].

* في هذا الحديث من الفقه أن من الناس من يقرأ القرآن ويتقفر العلم إلا أنه إذا كان ذا خلل في عقيدته أو ذاهبا في بدعة في الدين فإنه لا يصعد له عمل، وإن نفقتهم غير مقبولة، والذي منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم سوءاء عقائدهم؛ لأن العقائد هي الأس، ولا يرفع بناء ليس أسه على تقوى من الله ورضوان.

وفي قوله: (تقوى من الله ورضوان)، دليل على أن التقوى رهن على أن تقبل فيضم إليها الرضوان.

* وفيه أيضا من الفقه أن كل قائل (إن الأمر أنف وأن لا قدر)، أي لم يسبق قدر الله وعلمه؛ فإنه ضال.

* وفيه أيضا أنه ينبغي للعالم أن يبسط السائل ويدينه ليتمكن من السؤال غير هائب ولا متقبض؛ ألا تراه يقول: (فأسند ركبتيه إلى ركبتيه).

* وفيه أيضا أن من توفيق السائل إذا سأل في ملأ أن يسأل عن مسألة تعمه وتعم الحاضرين، كما سأل جبريل فقال: ما الإسلام؟ فلما أخبره بأركانه قال:." (١)

"بعبادة غير عبادة الحيض لذلك وجب ألا يحكم له بحكم الحيض إلا أن يجمعوا على شيء فيكون موقوفا على ذلك وإنما أجمعوا على غسله كسائر الدماء

وأما قول مالك وكذلك النفساء إذا بلغت أقصى ما يمسك النساء الدم فإن العلماء قد اختلفوا قديما وحديثا في مدة دم النفاس الممسك للنساء عن الصلاة والصوم فكان مالك يقول أقصى ذلك شهران ثم رجع فقال يسأل عن ذلك النساء

وأصحابه على أن أقصى مدة النفاس شهران ستون يوما وبه قال عبيد الله بن الحسن وهو قول الشافعي وأبي ثور

وقال الأوزاعي تجلس كامرأة من نسائها فإن لم يكن لها نساء كأمهاتها وأخواتها فأربعون يوما

وروي ذلك عن عطاء وقتادة على اختلاف عن عطاء

وقال أكثر أهل العلم أقصى مدة النفاس أربعون يوما وروي ذلك عن عمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وعثمان بن أبي العاصي وأنس بن مالك وعائذ بن عمر والمزني وأم سلمة زوج النبي عليه السلام

وهؤلاء كلهم صحابة لا مخالف لهم فيه وبه قال سفيان الثوري والليث بن سعد وأبو حنيفة وأصحابه وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود

وقد حكي عن الليث بن سعد أن من الناس من يقول سبعون يوما

وروي عن الحسن أنه قال لا يكاد النفاس يجاوز أربعين يوما فإن جاوز خمسين يوما فهي مستحاضة

وحكى الأوزاعي عن أهل دمشق أن أجل النفاس من الغلام ثلاثون يوما ومن الجارية أربعون يوما

وروي عن الضحاك قول شاذ أيضا أن النفساء تنتظر سبع ليال وأربع عشرة ليلة ثم تغتسل وتصلي وهذا لا وجه له

وأما أقل النفاس فقال مالك إذا ولدت المرأة ولم تر دما اغتسلت وصلت

وهو قول الأوزاعي والشافعي وأبي عبيد ومحمد بن الحسن وأبي ثور

---

(١) الإفصاح عن معاني الصحاح ابن هبيرة ١٩٩/١

ولم يحد الثوري وأحمد وإسحاق في أقل النفاس حدا

وروي عن الحسن البصري عشرين يوما وعن أبي حنيفة خمسة وعشرين يوما وعن أبي يوسف أحد عشر يوما." (١)

"٤٤٩ - وأما حديث مالك أنه بلغه أن عبد الله بن عمر مكث على سورة البقرة ثماني سنين يتعلمها

فهو من قول بن مسعود رضي الله عنه إنك في زمان كثير فقهاؤه قليل قراؤه إنه كان يتعلمها بأحكامها ومعانيها وأخبارها فكذلك طال مكثه فيها

ومعلوم **أن من الناس من** يتعذر عليه حفظ القرآن ويفتح له في غيره

وكان بن عمر فاضلا وقد حفظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في جماعة منهم عثمان وعلي وأبي بن كعب وبن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمرو بن العاص وغيرهم

(٥ باب ما جاء في سجود القرآن)

٤٥٠ - ذكر فيه مالك عن عبد الله بن يزيد مولى الأسود بن سفيان عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن أبا هريرة قرأ لهم (إذا السماء انشقت) فسجد فيها فلما انصرف أخبرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد فيها

وهذا حديث طرقه عن أبي هريرة كثيرة صحاح كلها قد ذكرنا في التمهيد كثيرا منها

ومنها ما رواه أبو داود الطيالسي قال حدثنا قرة بن خالد قال حدثنا محمد بن سيرين قال حدثنا أبو هريرة قال سجد أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) في (إذا السماء انشقت) الانشقاق ١ و (اقرأ باسم ربك الذي خلق) العلق ١ ومن هو خير منهما

وذكره النسائي عن إسحاق بن راهويه عن المعتمر عن قرة عن أبي بكر عن أبي هريرة مثله سواء وتابع بن سيرين على زيادة (اقرأ باسم ربك) العلق ١

وفي هذا الحديث عن أبي هريرة أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وعطاء بن ميناء والأعرج." (٢)

"وروي عن سعيد بن المسيب وعطاء وطاوس ومجاهد وعمر بن عبد العزيز وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وأبي سلمة ومصعب بن سعد نصف صاع من بر

قال أبو حنيفة يؤدي نصف صاع من بر أو دقيق أو سويق أو زبيب أو صاعا من تمر أو شعير

قال أبو يوسف ومحمد الزبيب بمنزلة التمر والشعير وما سوى ذلك يخرج بالقيمة قيمة نصف صاع من بر أو قيمة صاع من شعير أو تمر

وروينا عن أبي حنيفة أنه قال لو أعطيت في زكاة الفطر عدل ذلك أجزاك يعني بالقيمة

وقال الأوزاعي يؤدي كل إنسان مدين من قمح بمد أهل بلده

وقال الليث بن سعد يخرج مدين من قمح بمد هشام أو أربعة أمداد من التمر أو الشعير أو الأقط

---

(١) الاستذكار ابن عبد البر ٣٥٤/١

(٢) الاستذكار ابن عبد البر ٥٠٢/٢

وقال أبو ثور يخرج صاعا من تمر أو شعير أو زبيب وسكت عن البر

وقال أشهب سمعت مالكا يقول لا يؤدي الشعير إلا من هو أكله يؤده كما يأكله قيل له **إن من الناس من** يقول مدين من بر قال إنما القول ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم (صاع) قال فذكرت له الأحاديث التي تروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في المدين من الحنطة فأنكرها

وأما قوله في حديث بن عمر على كل حر أو عبد ذكر أو أنثى من المسلمين فقد تقدم القول فيمن تجب عليه زكاة الفطر من المالك والمملوك والصغير والكبير

وأما قوله من المسلمين فإنه لم يقله من ثقات أصحاب نافع غيره ورواه أيوب السختياني وعبيد الله بن عمر وموسى بن عقبة وغيرهم عن نافع عن بن عمر لم يقولوا فيه من المسلمين

وقد ذكرنا فيه في التمهيد من قال عن عبيد الله من المسلمين ومن تابع مالكا على ذلك وذكرنا في الباب قبل هذا أيضا حكم قوله من المسلمين وما للعلماء في ذلك من المذاهب وبالله التوفيق

وأما قوله في آخر هذا الباب والكفارات كلها وزكاة الفطر وزكاة العشور كل ذلك بالمد الأصغر مد النبي صلى الله عليه وسلم إلا الظهار فإن الكفارة فيه بمد هشام وهو المد الأعظم فلم يختلف العلماء بالمدينة وغيرها أن الكفارات كلها بمد النبي صلى الله عليه وسلم إلا." (١)

"سبيل إلى استيطان مكة لما تقدم ذكرنا له فمن هنا لم نجد لمكة ذكرا في حديث عمر والله أعلم

وفي هذا الباب عند أكثر رواة الموطأ حديث جابر بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ((الشهداء سبعة سوى القتل في سبيل الله)) فذكر المطعون والمبطون والغريق والحريق وصاحب ذات الجنب والذي يموت تحت الهدم والمرأة تموت بجمع

وقد مضى القول في هذا المعنى من رواية يحيى في الموطأ

ويدخل في هذا الباب لأنه مما تكون فيه الشهادة

ويدخل فيه قول عمر الشهيد من احتسب نفسه على الله

ذكر عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال ((مر عمر بقوم وهم يذكرون سرية هلكت فقال بعضهم هم شهداؤهم في الجنة وقال بعضهم لهم ما احتسبوا فقال عمر **إن من الناس من** يقاتل رياء ومنهم من يقاتل حمية ومنهم من يقاتل إذا دهمه القتال ورهقه ومنهم من يقاتل ابتغاء وجه الله فأولئك الشهداء وإن كل نفس تبعث على ما تموت عليه ولا تدري نفس ما يفعل بها إلا الذي قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر)) - يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم

وروى أبو العجفاء عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبة خطبها تقولون في مغازيكم قتل فلان شهيدا ولعله قد أوقر دابته غلولا لا تقولوا ذلك ولكن قولوا من قتل في سبيل الله فهو في الجنة

وروى الثوري عن صالح عن أبي عاصم عن أبي هريرة قال إنما الشهيد الذي لو مات على فراشه دخل الجنة يعني الذي

---

(١) الاستذكار ابن عبد البر ٢٧٠/٣

يموت على فراشه ولا ذنب له

٩٥٩ - وذكر مالك في هذا الباب عن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال كرم المؤمن تقواه ودينه حسبه ومروءته خلقه والجرأة والجبن غرائز يضعها الله حيث شاء فالجبان يفر عن أبيه وأمه والجريء يقاتل عما لا يؤوب به إلى رحله والقتل حتف من الحتوف والشهيد من احتسب نفسه على الله

قال أبو عمر أما قوله كرم المؤمن تقواه فمن قول الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) الحجرات وأما قوله ودينه حسبه فإنه أراد أن الحسب الرفيع حقيقة الدين فيمن انتسب إلى أب ذي دين فهو الحسب وهذا أولى منه على." (١)

"صلى الله عليه وسلم تختلفون في هذا فكيف بمن بعدكم فقال علي إنها لا تكون موءودة حتى يأتي عليها الحالات السبع فقال له عمر صدقت أطال الله بقاءك قال ابن لهيعة انها لاتكون موءودة حتى تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما ثم تظهر ثم تستهل فحينئذ إذا دفنت فقد وئدت **لأن من الناس من** قال إن المرأة إذا أحست بحمل فتداوت حتى تسقطه فقد وأدته ومنهم من قال العزل الموءودة الصغرى فأخبر علي رضي الله عنه أن ذلك لا يكون موءودة إلا بعد ما وصف وقد قيل في) قول الله عز وجل نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم إن شئت فاعزل وإن شئت فلا تعزل قاله جماعة من العلماء وإن كان في ذكر الآية قولان غير هذا ذكر إسمعيل بن أبي أويس عن مالك قال لا يعزل عن الحرة إلا بإذنها وإن كانت تحته أمة لقوم تزوجها فلا يعزل عنها إلا بإذن أهلها وإن كانت أمته فليعزل إن شاء واختلف الفقهاء في العزل عن الزوجة الأمة فقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما الإذن في العزل عن الزوجة الأمة إلى مولاها (وعن الثوري روايتان إحداهما لا يعزل عنها الا بامرها والاخرى بأمر مولاها) (د)." (٢)

"يصلى خلفه قيل له فتراه أنت جائزا قال لا نحن لا نراه جائزا لقول النبي صلى الله عليه وسلم لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب ولكنه إذا كان يتأول فلا بأس أن يصلى خلفه فقيل له كيف وهو مخطيء في تأويله فقال وإن كان مخطئا في تأويله ليس من تأول كمن لا يتأول ثم قال كل من تأول شيئا جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه أو عن أحدهم فيذهب إليه فلا بأس أن يصلى خلفه وإن قلنا نحن خلافه من وجه آخر لأنه قد تأول قيل له **فإن من الناس من** يقول ليس جلد الثعالب بإهاب فنفض يده وقال ما أدري أي شيءهذا القول ثم قال أبو عبد الله من تأول فلا بأس أن يصلى خلفه يعني إذا كان تأويله له وجه في السنة (قال أبو عمر ما أنكره أحمد من قول القائل إن جلود الثعالب لا يقال للجلد منها إهاب هو قول يحكى عن النضر بن شميل أنه قال إنما الإهاب جلد ما يؤكل لحمه من الأنعام وأما ما لا يؤكل لحمه فإنما هو جلد ومسك (١) وقد أنكرت طائفة من أهل العلم قول النضر بن شميل هذا وزعمت أن العرب تسمي كل جلد إهابا واحتجت بقول عنترة ... فشككت بالرمح الطويل إهابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم." (٣)

---

(١) الاستذكار ابن عبد البر ٥/١١٤

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٣/١٤٩

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٤/١٧٠

"أحدا قال بهذا إنما أعرف **أن من الناس من** قال أنا أقطع وإن كنت خلف الإمام وأصلي التي ذكرت لقول النبي صلى الله عليه وسلم فليصلها إذا ذكرها قال وهذا شنيع أن يقطع وهو خلف الإمام قيل له فما تقول أنت قال يتمادى مع الإمام وإن كان وحده قطع وذكر الأثرم قال حدثنا الحكم بن موسى قال حدثنا هقل قال حدثنا الأوزاعي قال سمعت الزهري يقول في الذي ينسى الظهر ولا يذكرها حتى يدخل في العصر قال يمضي في صلاة الإمام فإذا انصرف استقبل الظهر فصلاها ثم يصلي العصر قال أبو عمر هذا ابن شهاب يفتي بقول ابن عمر وهو الذي يروي قول رسول الله صلى الله عليه وسلم من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها فإن الله يقول وأقم الصلاة لذكري وقد رأى تماديه مع الإمام ثم رأى إعادتها (لا) أدري إن كان استحبابا أو إيجابا وقد يحتمل." (١)

"العلم يسلم تسليمتين الأولى عن يمينه يقول فيها السلام عليكم ورحمة الله وممن قال بهذا كله سفيان الثوري وأبو حنيفة وأصحابه والشافعي وأصحابه والحسن بن حي وأحمد بن حنبل وأبو ثور وأبو عبيد وداود بن علي وأبو جعفر الطبري وقال ابن وهب عن مالك يسلم تلقاء وجهه السلام عليكم بتسليمة واحدة وقال أشهب عن مالك أنه سئل عن تسليم المصلي وحده فقال يسلم واحدة عن يمينه فقيل له وعن يساره فقال ما كانوا يسلمون إلا واحدة **وإن من الناس من** يفعله وقال مرة أخرى إنما حدثت التسليمتان من زمن بني هاشم فقال مالك والمأموم يسلم تسليمة عن يمينه وأخرى عن يساره ثم يرد على الإمام وروي عن سعيد بن المسيب مثله وقال عنه ابن القاسم من صلى لنفسه يسلم عن يمينه ويساره وقال وأما الإمام فيسلم تسليمة واحدة تلقاء وجهه يتيامن بها قليلا واختلف قوله في موضع رد المأموم على الإمام فمرة قال يسلم عن يمينه ويساره ثم يرد على الإمام ومرة قال يرد على الإمام بعد أن يسلم عن يمينه قال أبو عمر الذي تحصل من مذهب مالك رحمه الله أن الإمام يسلم واحدة تلقاء وجهه ويتيامن بها قليلا والمصلي لنفسه يسلم اثنتين والمأموم يسلم ثلاثا إن كان عن يساره أحد." (٢)

"وقال الثوري أقل ما بين الحيضتين من الطهر خمسة عشر يوما وذكر أبو ثور أن ذلك لا يختلفون فيه وحكاه عن الشافعي وأبي حنيفة وأما اختلاف الفقهاء في أقل النفاس وأكثره فلا أعلمهم يختلفون أعني فقهاء الحجاز والعراق أن النفساء إذا رأت الطهر ولو بعد ساعة أنها تغتسل واختلفوا في أكثر مدته فقال مالك وعبيد الله بن الحسن والشافعي أكثره ستون يوما ثم رجع مالك فقال يسأل النساء عن ذلك وأهل المعرفة فذكر الليث **أن من الناس من** يقول سبعين يوما وقال الثوري وأبو حنيفة والأوزاعي أكثره أربعون يوما قال أبو عمر ما زاد عندهم على أكثر مدة الحيض وأكثر مدة النفاس فهو استحاضة لا يختلفون في ذلك فقف على أصولهم في هذا الباب لتعرف الحكم في المستحاضة وتعرف من قلد أصله منهم ومن خالفه إن شاء الله فأما أقاويل الصحابة والتابعين في صلاة المستحاضة فإن ابن سيرين روى عن ابن عباس في المستحاضة قال إذا رأت الدم البحراني فلا تصلي وإذا رأت الطهر ولو ساعة فلتغتسل ولتصل وقال مكحول

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٦/٤٠٧

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٢٠٦/١١

إن النساء لا تخفى عليهن الحيضة إن دمها أسود غليظ فإذا ذهب ذلك وصارت صفرة رقيقة فإنها الاستحاضة فلتغتسل ولتصل." (١)

"وروى ابن وهب عن ابن لهيعة عن بكر بن الأشج عن القاسم بن محمد أن رجلا قال له عجيب من عائشة كانت تصلي أربعا في السفر ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين فقال له القاسم عليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم **فإن من الناس من** لا يعاب وذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة أنها كانت تتم في السفر قال وأخبرنا الثوري عن هشام بن عروة عن أبيه عروة عن عائشة أنها كانت تتم في السفر قال أبو عمر رد الذين ذهبوا إلى أن القصر في السفر مع الأمن سنة مسنونة غير فريضة حديث عائشة حيث قالت فرضت الصلاة ركعتين ركعتين فزيد في صلاة الحضر وأقرت صلاة السفر فردوه بأن قالوا قد صح عنها أنها كانت تتم في السفر وهذا من فعلها يرد قولها ذلك وإن صح قولها ذلك عنها ولم يدخله الوهم من جهة النقل فهو على غير ظاهره وفيه معنى مضمر باطن وذلك والله أعلم كأنها قالت فأقرت صلاة السفر لمن شاء أو نحو هذا قالوا ولا يجوز على عائشة أن تقر بأن القصر فرض في السفر وتخالف الفرض هذا ما لا يجوز لمسلم أن ينسبه إليها قالوا وغير جائز تأويل من تأول عليها أن إتمامها كان من أجل أنها كانت أم المؤمنين." (٢)

"وأما إسناد مالك عن أبي حازم فصحيح وليس في شيء من الأسانيد عن أبي إدريس ولا عن أبي مسلم مثله ولا ما يحلق به وحديث أبي مسلم الخولاني إنما يدور على حبيب بن أبي مرزوق وليس ممن يعارض بمثله حديث لمالك عن أبي حازم وكذلك حديث يعلى بن عطاء عن الوليد أيضا ليس بحجة على حديث مالك عن أبي حازم وقد روى أبو إدريس الخولاني عن أبي مسلم الخولاني عن عوف بن مالك الأشجعي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث تبايعوني بتمامه وهو يدخل في رواية النظير عن النظير حدثناه أحمد بن فتح قال حدثنا أبو علي الحسن بن عبد الله بن الخضر حدثنا محمد بن صالح الدمشقي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الوليد بن مسلم عن سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي مسلم الخولاني قال حدثني الحبيب الأمين أما هو إلي فحبيب وأما هو عندي فأمين عوف بن مالك الأشجعي قال كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية فقال ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسطنا أيدينا فبايعناه ثم قال قائل يا رسول الله على م نبايعك قال على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وتصلوا الصلوات الخمس وتسمعوا وتطيعوا وأشد كلمة ولا تسألوا الناس شيئا فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فلا يسأل أحدا يناوله إياه وهذا حديث مشهور ليس من هذا الباب ولكني ذكرته لرواية أبي إدريس له مع حديث مشهور ليس من هذا الباب ولكني ذكرته لرواية أبي إدريس له مع جلالته عن أبي مسلم **فإن من الناس من** جعل أبا مسلم الخولاني مجهولا وهذا جهل بهذا الشأن وحسبك برواية أبي إدريس وهو من أجل تابعي الشاميين عنه وأما حديثه في

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٧٤/١٦

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٣١٠/١٦

هذا الباب فمعروف عن معاذ وعن عبادة أيضا وهو عن معاذ أشهر وكلاهما محفوظ وحدثناه عبد الوارث بن سفيان قال حدثنا قاسم بن أصبغ قال حدثنا بكر بن حماد قال حدثنا مسدد بن مسرهد قال حدثنا حماد بن زيد عن." (١)

"فلان قتلني فأخذ بقوله ورد المخالف هذا بأن تلك آية لبني إسرائيل لا سبيل إليها اليوم وبأن شريعتنا فيها أن الدماء والأموال لا تستحق بالدعاوى دون البينات ولم نتعبد بشريعة من قبلنا لقوله عز وجل لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا

وقتيل بني إسرائيل لم يقسم أحد عليه مع قوله هذا قتلني وهذا لا يقوله أحد من علماء المسلمين أن المدعى عليه يقتل بقول المدعي دون بينة ولا قسامة فلا معنى لذكر قتيل بني إسرائيل ههنا وقد أجمع العلماء على أن قول الذي تحضره الوفاة لا يصدق على غيره في شيء من الأموال فالدماء أحق بذلك وقد علمنا **أن من الناس من** يحب الاستراحة من الأعداء للبنين والأعقاب ونحو هذا مما يطول ذكره

وقال مالك إذا كان القتل عمدا حلف أولياء المقتول خمسين يمينا على رجل واحد وقتلوه قال ابن القاسم لا يقسم في العمد إلا اثنان فصاعدا كما أنه لا يقتل بأقل من شاهدين وكذلك لا يحلف النساء في العمد لأن شهادتهن لا تجوز فيه ويحلفن في الخطأ من أجل أنه مال وشهادتهن جائزة في الأموال

وعند الشافعي يقسم الولي واحدا كان أو أكثر على واحد مدعى عليه وعلى جماعة مدعى عليهم ومن حجة الشافعي أنه ليس في قول رسول الله يقسم منكم خمسون على رجل منهم فيدفع إليهم برمته ما يدل على أنه لا يجوز قتل أكثر من واحد وإنما فيه التنبيه." (٢)

"العقلي يقتضي أربعة أقسام ذكر قسمين ترغيبا وترهيبا، وترك قسمين إذ لا ترغيب ولا ترهيب. (حم ت هب) (١) عن أبي هريرة رمز المصنف بالصحة على أحمد، قال الذهبي في المهذب (٢): سنده جيد.

٢٨٤٣ - " ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله عز وجل على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه حتى يأتيه الموت وإن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه". (حم ن ك) عن أبي سعيد.

(ألا أخبركم بخير الناس وشر الناس) أي من هو خير الناس إذ الغازي ليس خيرا من كل أحد والفاجر شر منه الكافر ولذا قال: (إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله عز وجل) أي في جهاده لأعدائه.

(على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره أو على قدميه) وخص الفرس والبعير لأنهما غالب مركوب العرب وإلا فراكب الحمير والبغل مثله. (حتى يأتيه الموت وإن من شر الناس رجلا فاجرا جريئا) بالهمز أي: هجام قوي الإقدام. (يقرأ كتاب الله لا يرعوي) أي لا ينزجر ويرجع. (إلى شيء منه) من مواعظه وزواجره وأحكامه، وفي الفردوس الأرعوي: الندم على الشيء

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ١٣٣/٢١

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ابن عبد البر ٢٢٠/٢٣

والانصراف عنه.

واعلم: أن هذا وما قبله أفاد **أن من الناس من** هو خير بالطبع ومنهم من هو شر بالطبع ومنهم من هو متوسط وجرى على هذا طائفة مستدلين بهذا الحديث وقال آخرون: الناس يخلقون أخيارا بالطبع ثم يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشر والميل إلى الشهوات الردية التي لا تنقمع النفس عنها بالتأديب واستدلوا

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨)، والترمذي (٢٢٦٣)، وابن حبان (٥٢٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٠٣).

(٢) انظر: المهذب في اختصار السنن الكبير (٣/ ١٣٠١) رقم (٥٧٩٩) عن جابر.." [1]

"الحافظ: بقيت بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دهرا طويلا، فهو متصل.

وأباه الخطيب وقال: العجب من الحربي كيف خفي عليه سؤال مسروق لها مع علو قدره في العلم.

وأحسب العلة التي دخلت عليهما اتصال السند وثقة رجاله فلم يفكر فيما وراء ذلك فهي العلة التي دخلت على البخاري حتى خرجه.

وأما مسلم فلم يخرجه ورجاله على شرطه وأحسبه فطن لاستحالته فتركه. وقول الحربي سألها وله خمس عشرة سنة.

فعلى هذا كان له وقت وفاة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضع عشرة سنة، فما الذي منعه أن يسمع من رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

قلت: لكن البخاري لما ذكر رواية علي بن زيد بن جدعان، عن القاسم: ماتت أم رومان زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، قال: فيه نظر -أي: لضعف علي وانقطاع حديث القاسم- وحديث مسروق أسند (١).

قال الخطيب: لم يزل حديث مسروق هذا يختلج في صدري وأستنكره سنين فلا أعرف له علة لثقته واتصال سنده حتى رأيت في رواية لحصين، عن مسروق، عن أم رومان فجوزت أن يكون مسروق أرسل الرواية عنها، وقد ذكر أن حصينا اختلط في آخر عمره، فلعله روى الحديث في حال اختلاطه. وفي رواية عن مسروق: سئلت أم رومان. وهذا أشبه بالصحة؛ **لأن من الناس من** يكتب الهمزة ألفا في جميع أحوالها: الرفع والنصب والخفض ولعل بعض النقلة كتب سئلت بالألف فقرأه الراوي سألت ودون عليه ورواه. ووقع في كتابه:

---

(١) "التاريخ الصغير" ١/ ٣٨، وانظر لزاما "تهذيب التهذيب" ٤/ ٦٩٦.." [2]

"ونقله ابن التين عن الشافعي أيضا فأغرب؛ قال: ودليلنا قوله - عليه السلام -: "ليس منا من حلق" ولأن فيه جمالا للوجوه وزينة، وفي حلقه مثلة.

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣٥٧/٤

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٤٣٨/١٩

قال الطبري: فإن قلت: ما وجه قوله: "أعفوا اللحى" وقد علمت أن الإعفاء الإكثار، **وأن من الناس من** إن ترك شعر لحيته اتباعا منه لظاهر هذا الخبر تفاحش طولا وعرضا، وسمج حتى صار للناس حديثا ومثلا.

قيل: قد ثبتت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على خصوص هذا الخبر، وأن من اللحية ما هو محظور إعفاؤه، وواجب قصه على اختلاف في السلف من قدر ذلك وحده؛ فقال بعضهم: حد ذلك أن يزداد على قدر القبضة طولا، وأن ينتشر عرضا فيقبح ذلك، فإذا زادت على قدر القبضة كان الأولى جز ما زاد على ذلك من غير تحريم منهم ترك الزيادة على ذلك.

وروي عن عمر – رضي الله عنه – أنه رأى رجلا قد ترك تحت لحيته حتى كثرت فاتخذ يجذبها ثم قال: ائتوني بحلمتين، ثم أمر رجلا فجز ما تحت يده ثم قال: اذهب فأصلح شعرك أو أفسده، يترك أحدكم نفسه حتى كأنه سبع من أسباع، وكان أبو هريرة يقبض على لحيته فيأخذ ما فضل، وعن ابن عمر مثله.

وقال آخرون: يأخذ من طولها وعرضها ما لم يفحش أخذه، ولم يحدوا في ذلك حدا، غير أن معنى ذلك عندي: ما لم يخرج من عرف الناس، وهذا قدمناه، وروي عن الحسن أنه كان لا يرى بأسا أن يأخذ من (طول) (١) لحيته وعرضها ما لم يفحش الأخذ منها، وكان إذا ذبح أضحيته يوم النحر أخذ منها شيئا.

---

(١) في الأصل: (طرف).." (١)

"قال المهلب: فأخبر – عليه السلام – أن الباري خالق لحول العبد وقدرته على مقدوره، وإذا كان خالقا للقدرة فلا شك أنه خالق للشيء المقدور، فيكون المقدور كسبا للعبد خلقا لله، بدليل قوله تعالى: ﴿خالق كل شيء﴾ [الرعد: ١٦]، وقوله: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩)﴾ [القمر: ٤٩]، قال محمد بن كعب القرظي: نزلت هذه الآية الأخيرة تعييرا لأهل القدر (١)، والدليل على أن أفعالهم خلق لله أن أيديهم التي عندهم هي خالقة لأعمال الشر من الظلم والتعدي، وفروجهم التي هي خالقة للزنا، قد توجد عاطلة من الأعمال عاجزة عنها.

ألا ترى **أن من الناس من** يريد الزنا، وهو يشتهيه بعضو لا (آفة) (٢) فيه، فلا يقدر عليه عند إرادته للزنا، ولو كان العبد خالقا لعمله لما عجزت أعضاؤه عند إرادته ومستحكم شهوته، فثبت أن القدرة ليست لها، وأنها لمقدر يقدرها إذا شاء، ويعطلها إذا شاء، لا إله إلا هو.

فصل:

وإنما أمرهم بالربع على أنفسهم على جهة الرفق بهم، وقد سلف هذا المعنى في الجهاد في باب ما يكره من رفع الصوت بالتكبير. وعرفهم – عليه السلام – أن ما يعلنون به من التكبير ويجتهدون فيه من الجهاد، هو فضل الله عليهم، إذ لا حول لهم ولا قوة (في شيء منه) (٣) إلا بالله الذي أقدرهم عليه، وحببه إليهم، وإن كان فيه تلاف نفوسهم، رغبة في جزيل الأجر وعظيم الثواب.

---

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١١٦/٢٨

(١) رواه الطبري في "تفسيره" ١١/ ٥٦٩ (٣٢٨٣٨).

(٢) في الأصل: أثر، والمثبت من (ص٢).

(٣) من (ص٢).." [1]

"(فصل) (١):

قال المهلب: قوله: "لا يقدم شيئا ولا يؤخره" يعني: من قدر الله ومشيئته.

وقوله: "يستخرج به من البخيل" يعني: **أن من الناس من** لا يسمح بالصدقة والصوم إلا إذا نذر شيئا لخوف أو طمع، فكأنه لولا ذلك الشيء الذي طمع فيه أو خافه لم يسمح بإخراج ما قدره الله تعالى ولا يفعله، فهو بخيل.

وقوله: "فيؤتي عليه" يعني: فعل ما يجعله الناذر على نفسه لله مما لم يكن يفعله لغير نذر (٢).

(١) من (ص٢).

(٢) انظر: "شرح ابن بطال" ٦/ ١٥٤ - ١٥٥.." [2]

"(اللهم إني أسألك من خير هذا ثلاثا) ثم يقول (اللهم إني أسألك من خير هذا الشهر وخير القدر) بالتحريك (وأعوذ بك من شره) أي من شر كل منهما يقول ذلك (ثلاث مرات) فيه ندب الدعاء عند ظهور الآيات وتقلب أحوال النيرات (طب عن رافع بن خديج) // بإسناد حسن //

(كان إذا رأى الهلال قال اللهم أهله علينا باليمن) أي البركة (والإيمان) أي بدوامه (والسلامة والإسلام) اليمن السعادة والإيمان الطمأنينة بالله كأنه سأل دوامها والسلامة والإسلام أن يدوم له الإسلام ويسلم له شهره وزاد قوله (ربي وربك الله) **لأن من الناس من** يعبد القمرين (حم ت ك عن طلحة) بن عبيد الله // بإسناد حسن //

(كان إذا رأى الهلال قال الله أكبر الله أكبر) أي يكرر التكبير (الحمد لله لا حول ولا قوة إلا بالله اللهم إني أسألك من خير هذا الشهر وأعوذ بك من شر القدر ومن شر يوم المحشر) موضع الحشر وهو بمعنى المحشور أي المجموع فيه الناس (حم طب عن عبادة بن الصامت) ورجاله ثقات لكن فيه راو لم يسم

(كان إذا رأى الهلال قال اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق) أي خلق قدرة الطاعة فينا (لما تحب وترضى ربنا وربك الله) تنزيه للخالق أن يشاركه في تدبير ما خلق (طب عن ابن عمر) // بإسناد ضعيف //

(كان إذا رأى الهلال قال اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والسكينة والعافية والرزق الحسن) أي الحلال الهنئ الحاصل بلا كد وتعب (ابن السني عن حدير) بن أنس (السلمي) قال الذهبي لا صحبة له فكان على المؤلف أن يقول مرسلا

(١) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ١٥١/٣٠

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح ابن الملقن ٣٧٥/٣٠

(كان إذا رأى الهلال قال هلال خير الحمد لله الذي ذهب بشهر كذا وجاء بشهر كذا أسألك) التفات (من خير هذا الشهر ونوره وبركته وهداه وطهوره (ومعافاته) فيه دلالة على عظم شأن الهلال حيث جعله وسيلة لمطلوبه وسؤاله من بركته وطهوره (ابن السني عن عبد الله بن مطرف) الأزدي الشامي وهو غير ثابت

(كان إذا رأى سهيلا) الكوكب المعروف (قال لعن الله سهيلا فإنه كان عشارا) أي مكاسا يأخذ العشور (فمسخ) وفي رواية للدارقطني كان عشارا من عشارى اليمن يظلمهم فمسخ شهابا (ابن السني عن علي) // بإسناد واه بل قالوا موضوع //

(كان إذا رأى ما يحب قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا رأى ما يكره قال الحمد لله على كل حال رب أعوذ بك من حال أهل النار) بين به أن شدائد الدنيا يلزم العبد الشكر عليها لأنها نعم بالحقيقة إذ هي تعرضه لمنافع عظيمة وثواب جزيل وعوض كريم في العاقبة (هـ عن عائشة) // بإسناد جيد //

(كان إذا راعه شئ قال الله الله الله ربي لا شريك له) أي لا مشارك له في ملكه (ن عن ثوبان) // بإسناد حسن //

(كان إذا رضى شيأ) من قول أحد أو فعله (سكت) عليه لكن يعرف الرضا في وجهه كما في خبر (ابن منده عن سهيل بن سعد الساعدي أخي سهل) بن سعد // وإسناده غريب //

(كان إذا رفا) بفتح الراء وشد الفاء وبهمز وبدونه (الإنسان) وفي رواية إنسانا أي هنأه (إذا تزوج قال بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير) قال الزمخشري معناه أنه كان يضع الدعاء له بالبركة موضع الترفية المنهي عنها وهي قولهم للمتزوج بالرفاء والبنين (حم ٤ ك عن أبي هريرة) // وأسانيده صحيحة //

(كان إذا رفع يديه في الدعاء لم يحطهما حتى ايمسح بهما ما وجهه) تفاؤلا بإصابة المراد وحصول الإمداد (ت ك عن ابن عمر) // وإسناده ضعيف //

(كان إذا رفع رأسه من." (١)

"(طب) ، وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يبعث مناد عند حضرة كل صلاة ، فيقول: يا بني آدم، قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون فيتطهرون ، وتسقط خطاياهم من أعينهم، ويصلون ، فيغفر لهم ما بينهما، ثم يوقدون فيما بين ذلك، فإذا كان عند صلاة الأولى نادى: يا بني آدم، قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون ، فيتطهرون ويصلون ، فيغفر لهم ما بينهما، فإذا حضرت العصر فمثل ذلك، فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك، فإذا حضرت العتمة (١) فمثل ذلك، فينامون وقد غفر لهم، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فمدلج في خير، ومدلج في شر (٢) " (٣)

---

(١) أي: العشاء.

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير المناوي ٢/٢٥٠

(٢) الإدلاج: السير أول الليل ، والمراد هنا: أن من الناس من ينام على طاعة ، ومنهم من ينام على معصية. ع
(٣) (طب) ١٠٢٥٢ ، الصحيحة: ٢٥٢٠ ، صحيح الترغيب والترهيب: ٣٥٩." [١]

"المتضمن التقريع والتهديد.

قال المفسرون: معنى الآية: أنه – صلى الله عليه وسلم – قال: بعثني الله برسالته فضقت بها ذرعا، وعرفت أن من الناس من يكذبني، فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك، وضمن لي العصمة فقويت.

المعنى: بلغ ما أنزل إليك غير مراقب ولا خائف أحدا ينالك مكروهه، وإن لم تبلغ جميعه كما أمرت فما بلغت رسالتي. أي: أن تترك بعضها فيكون كمن لم يبلغها. وقيل: بلغها الناس ولا تخف.

وإنما جاز كون قوله: "فما بلغت رسالته" جوابا للشرط الذي هو: "وإن لم تفعل" لأنه إذا كان مأمورا بتبليغ المنزل إليه جميعه فبلغ بعضه، لم يكن قد بلغ ما أمر به، فجاز أن يكون جوابا للشرط.

والروح الأمين: جبريل (عليه السلام)، سمي روحا: لأنه روحاني والملائكة روحانيون، وسمي أمينا: لأنه ملك الوحي إلى الأنبياء، والرسول إليهم بأمر الله ونهيه، فكان أمينا على وحيه.

والنفث: شبيه بالنفخ، نفث ينفث وينفث وقد شبه ما يلقيه الملك في نفسه من الوحي بالنفث كأنه نفخ في قلبه، لأن الكلام إنما يكون باللسان والفم، والنفخ لما كان بالفم والشفتين شبهه بالكلام لأنهما يخرجان من الفم.

وقد جاء في بعض الروايات: "ألقى" بدل "نفث".

والروع –بالضم– القلب والعمل.

وقوله: "ألا فاتقوا الله" هذه التي تبعث على جماع الخير، لأن مع التقوى تنكف النفس عن أكثر المطالب، وترتفع عن الشهوات، وتترك معظم المطامع، ولذلك قال: "فأجملوا في الطلب" أي: اطلبوا الرزق طلبا جميلا لا حرص ولا تكالب ولا إسفاف على الدنايا فلا إشراف على الأموال، فإن الرزق الذي قدر." [٢]

"٨٧٢ – حدثني إسحاق، ثنا أبو حذيفة، ثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، أن أبا موسى قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن من الناس من يقاتل رياء، ومنهم من يقاتل حمية، ومنهم من يقاتل محتسبا، فأي هؤلاء الشهيد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو شهيد»." [٣]

"٤٠٠ – وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، نا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: سمعت العباس بن محمد الدوري ، يقول: سمعت يحيى بن معين ، يقول: قال النضر بن شميل: ﷺ«والشر ليس إليك تفسيره والشر لا يتقرب به إليك» وذكر أبو عبد الله الحليمي رحمه الله أن معناه أن الإحسان منك وإليك أي أن ما يصيبنا من خير وحسنى فأنت موليه والمنعم به ، وما يكون منا من طاعة وفعل حسن فأنت المقصود وعبادتك هي مرادة منه ، فأما ما يصيبنا من شر وسوء

---

(١) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد صهيب عبد الجبار ٤٧/٧
(٢) الشافي في شرح مسند الشافعي ابن الأثير، أبو السعادات ٥٤٧/٥
(٣) الفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي أبو بكر الشافعي ٦٤٧/١

فإنه وإن كان منك أيضا فإن شرور أنفسنا وهي ما يقع في أعمالنا من سيئ وقبيح ، فلست المقصود به ، أي ليس غرض المسيء منا في إساءته خلافك وعصيانك ، كما أن غرض المحسن منا في إحسانه طاعتك وعبادتك ، وإنما هو غفلة تعرض فيتبع المسئ فيها شهوته من غير أن يكون العصيان قصده وإرادته ، ولو قصد ذلك لضاهى إبليس وكان من المتكبرين ، فإنما هذا -[٢٧٧]- الكلام تبرؤ من الشقاق والعناد ، لا أنه نفي للشر أصلا وإنكارا أن يقدر شرا. قال الشيخ: وفي نفس الخبر دلالة على صحة ما ذكروا من تأويله ، لأنه قال: «والمهدي من هديت» وفيه دلالة على أنه يهدي قوما ولا يهدي آخرين حتى يكون المهدي من هداه ، والمعصوم من عصمه ، والذي لم يهده ولم يعصمه ولم يصرف عنه السوء لم يرد به خيرا ، قال الله عز وجل: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ [المائدة: ٤١] وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما علم ابن ابنته من الدعاء «اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت» وفيه دلالة على أن من الناس من هداه الله ، ومنهم من لم يهده ، كما أن من الناس من عافاه الله ، ومنهم من لم يعافه ، وأنه سأل أن يجعله فيمن هداه وعافاه ، جعلنا الله برحمته فيمن هداه وعافاه." (١)

"٢٢٠ - حدثني محمد بن إدريس بن المنذر الرازي حدثني يوسف بن يعقوب الصفار ثنا عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد حدثني أبي عن طاوس قال: إن من الناس من تجري محبة الله على لسانه، فإن عجب من شيء ذكر الله، وإن فزع من شيء، ذكره تعالى، فتحفظ ملائكة الله عليه خيرا. وإن من الناس من تجري اللعنة على لسانه، فإن عجب من شيء لعن، وإن فزع من شيء لعن، فيكون فزعه وعجبه إلى اللعنة، فتحفظ ملائكة الله عليه شرا.." (٢)

"ومعلوم (١) أن من الناس من يتعذر عليه حفظ القرآن ويفتح عليه (٢) في غيره، وكان ابن عمر فاضلا قد حفظ القرآن على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في جماعة (٣)، منهم: عثمان، وعلي، وأبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاصي.

ما جاء في سجود القرآن

قال الإمام (٤): الأصل في هذا الباب قوله تعالى: ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا﴾ (٥). وآيات السجود في القرآن مدارها على أربع مسائل:

المسألة الأولى: في معرفة عزائم السجود من غير عزائم السجود.

الثانية: معرفة وجوب السجود فيها، ومعرفة من يجب عليه السجود فيها ممن لا يجب.

الثالثة: في معرفة أحكام السجود وشرائطه.

الرابعة: في محل وقت فعلها والسجود فيها.

المسألة الأولى (٦):

---

(١) القضاء والقدر للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/٢٧٦

(٢) المحبة لله لأبي إسحاق الختلي الختلي، إبراهيم بن عبد الله ص/٩٠

قال مالك (٧) - رحمه الله -: "الأمر عندنا أن عزائم السجود إحدى عشرة سجدة، ليس في المفصل منها شيء". كذا رواه يحيى عن مالك، وهذه الرواية أولى من رواية من روى عن مالك في الموطأ: الأمر المجتمع عليه عندنا (٨)، كذلك (٩)

---

(١) من هنا إلى آخر الفقرة مقتبس من الاستذكار: ٨/ ٩١.

(٢) في الاستذكار: "له".

(٣) غ، ج: "وجماعة" والمثبت من الاستذكار.

(٤) هذه المقدمة مقتبسة من المقدمات الممهدات لابن رشد: ١/ ١٩٠.

(٥) مريم ٥٨.

(٦) الفقرة الأولى من هذه المسألة مقتبسة من الاستذكار: ٨/ ٩٧.

(٧) في الموطأ (٥٥٣) رواية يحيى.

(٨) غ: " ... شيء". ورواية يحيى بن يحيى في قوله: "الأمر عندنا" أصح ممن روى: "الأمر المجتمع عليه عندنا".

(٩) غ: "وهي رواية كذا".." [١]

"قال الإمام: هذا مخصوص عندي بحديث كعب بن مالك كما تقدم (١)، وقال الناس فيه كلاما لبابه ما أشرت إليه.

تتميم (٢):

ورويناـ (٣) عن سفيان الثوري أنه قال: "الظن ظنان: ظن فيه إثم، وظن ليس فيه إثم، فالظن الذي فيه الإثم ما يتكلم المرء به، والظن الذي لا إثم فيه مالم يتكلم به" (٤).

وقال عمر: "لا يحل لامرىء مسلم سمع من أخيه كلمة أن يظن شرا وهو يجد لها من الخير مصدرا" (٥).

ومن حديث معاوية أنه قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم، أو كدت أن تفسدهم". قال أبو الدرداء: كلمة سمعها معاوية فنفعه الله بها (٦).

ما جاء في المصافحة

حديث مالك (٧)؛ عن عطاء الخراساني، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "تصافحوا يذهب الغل، وتهادوا تحابوا، وتذهب الشحناء".

---

(١) صفحة: ١٢٩ من هذا الجزء.

---

(١) المسالك في شرح موطأ مالك ابن العربي ٤١٠/٣

(٢) هذا التتميم مقتبس من الاستذكار: ٢٦/ ١٥١ - ١٥٢.

(٣) ورد مسندا عند ابن عبد البر في التمهيد: ١٨/ ٢٠. وأورده أيضا الترمذي في جامعه: ٣/ ٥٢٨ قال: "وسمعت عبد بن حميد يذكر عن بعض أصحاب سفيان، قال: قال سفيان ... " الأثر.

(٤) يقول ابن العربي في العارضة: ٨/ ١٥٦ معلقا على قول سفيان: "وقال غيره: ذلك في الزمان الأول، حيث كان الغالب على الناس الخير، فأما اليوم، فهم أهل كل ظن. وقيل: ذلك يختلف بحال المظنون، وهو الصحيح عندي؛ **لأن من الناس من** تتطرق إليه التهمة، ومنهم من لا تتطرق، فكل من تعرض للتهم، فلا يلومن من أساء به الظن، والصيانة ترفع ذلك عن الصائن، فإن ظن به أحد ذلك أثم".

(٥) أورده ابن عبد البر في التمهيد: ١٨/ ٢٠ من رواية أشهب.

(٦) ورد مسندا عند ابن عبد البر في التمهيد: ١٨/ ٢٣، والحديث أخرجه أبو داود (٤٨٥٢)، والطبراني في الكبير: ١٩/ ٣٧٩ (٨٩٠)، ومسند الشاميين: ١/ ٢٧٢ (٤٧٣).

(٧) في الموطأ (٢٦٤١) رواية يحيي، ورواه عن مالك: أبو مصعب (١٨٩٦)، وسويد (٦٨٢).." [1]

"وليس هذا بمخالف لشريعتنا؛ **فإن من الناس من** يصلحه هذا فيندب إليه، ومنهم من يصلحه غير هذا فيأخذ به، والله أعلم.

تنبيه (١):

قوله: "فإنكم لن تقوموا بشكره" يعارض قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إذا قال العبد على طعامه: الحمد لله، فقد شكر تلك النعمة" (٢) هذا مما يعارض حديث عيسى، وحديث جابر أنه قال: "أفضل الشكر الحمد لله" (٣).

وقوله: "فإنكم لن تقوموا بشكره" وكيف يقوم بشكر فرضه؟ فإنه يقال: إنه لن يصل إليه حتى يدور على يد ثلاث مئة وستين صانعا، أولهم ميكائيل وآخرهم الخباز.

وقوله: "لن تقوموا بشكره" كلام صحيح (٤)؛ فإن سد الجوع وستر العورة على الإطلاق والجملة، بأول درجات الحاجة نعمة عظيمة، إذا أراد المرء أن يعلم مقدارها فلينظرها في سواه، وليقدرها في نفسه، فكيف أن يضم إلى ذلك الإسراف، حتى تنكسر الشهوة في لذة الطعام وفي ريشة الثياب في التمتع باللباس، فإذا استرسل العبد على ذلك هلك ولم يتأت له أمل؛ فإنه أمد لا غاية له، فلهذا المعنى قيل للنبى - صلى الله عليه وسلم -: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم﴾ الآية (٥).

الطريق الثاني (٦): في الكلام على زهده

---

(١) الفقرة الأولى من هذا التنبيه مقتبسة من الاستذكار: ٢٦/ ٣٢١.

---

[1] المسالك في شرح موطأ مالك ابن العربي ٢٧٣/٧

(٢) لم نجد هذا الحديث بهذا اللفظ.

(٣) لم نجده بهذا اللفظ من حديث جابر، والذي وجدناه ما رواه الترمذي في جامعه الكبير (٣٣٨٣) عن جابر قال: سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول:"أفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله" قال الترمذي: "هذا حديث حسن غريب"كما أخرجه ابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان (٨٤٦)، والحاكم: ١/ ٤٩٨.

(٤) انظر الكلام التالي في القبس: ٣/ ١١١٨ – ١١١٩.

(٥) طه: ١٣١.

(٦) هذا الطريق مقتبس من المقدمات الممهدات: ٣/ ٣٩٣ – ٣٩٦ مع تصرف يسير.." [1]

"المسألة الثانية (١):

قال مالك (٢):" وترك الصبغ كله واسع" (٣) يريد أن الصبغ ليس بأمر لازم (٤)، وقد ترك الصبغ جماعة من الصحابة، منهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب.

قال الإمام الحافظ: وذلك عندي يتصرف على وجهين:

أحدهما: أن يكون أمرا معتادا ببلد الإنسان، فيسوغ له ذلك؛ فإن الخروج عن الأمر المعتاد يشهر ويسقبح.

والثاني: **أن من الناس من** يجمل شيبه، فيكون ذلك. أليق به من الصبغ، ومن الناس من لا يجمل شيبه ويستبشع منظره، فيكون الصبغ أجمل به.

المسألة الثالثة (٥):

سئل مالك عن نتف الشيب؟ فقال: ما علمته حراما، وتركه أحب إلي.

وقال ابن القاسم: أكره (٦) أن يقرض من أصله، وهو عندي شبيه بالنتف.

المسألة الرابعة (٧): الخضاب بالوشمة

سئل عنه سعيد بن جبير فقال: يكسو الله العبد في وجهه النور ثم يطفئه بالسواد (٨)

---

(١) هذه المسألة مقتبسة من المنتقى: ٧/ ٢٧٠.

(٢) في الموطأ (٢٧٣٥) رواية يحيى، ورواه عن مالك: أبو مصعب (١٩٩٧).

(٣) وقال في العتبية: ١٧/ ١٦٦ "وسئل مالك عن الصبغ بالحناء والكتم، قال: ذلك واسع".

(٤) يرى ابن رشد في البيان والتحصيل: ١٨/ ١٦٧ أنه لا اختلاف بين أهل العلم في جواز صبغ الشعر وتغير الشيب بالحناء والكتم.

(٥) هذه المسألة مقتبسة من المنتقي: ٧/ ٢٧٠، ونقلها الباجي بدوره من العتبية: ١٧/ ٣٩٩، سماع أشهب ابن عبد العزيز عن مالك.

---

(١) المسالك في شرح موطأ مالك ابن العربي ٧/٤١٣

(٦) في المنتقى: "ما أحب نتفه، وأكره ... "، وفي العتبية: "ولا أحب نتفه ... "

(٧) هذه المسألة مقتبسة من الاستذكار: ٢٧/ ٨٩ - ٩٠.

(٨) أخرجه ابن سعد في الطبقات: ٦/ ٢٦٧، وابن أبي شيبة (٢٥٠٣٢)، ومن طريقه ابن عبد البر في الاستذكار: ٢٧/ ٨٩، وذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء: ٤/ ٣٣٧.." [1]

"- وحدثني عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مروا أبا بكر فليصل للناس فقالت عائشة إن أبا بكر يا رسول الله إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصلي للناس قال مروا أبا بكر فليصل للناس قالت عائشة فقلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل للناس ففعلت حفصة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل للناس فقالت حفصة لعائشة ما كنت لأصيب منك خيرا ، (ط) ٤٧٣

- نا محمد بن يحيى، ومحمد بن رافع قال: محمد بن يحيى: سمعت عبد الرزاق، وقال ابن رافع، نا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح فأعهد إلى الناس". قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس، وسكبنا عليه الماء منهن حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج حدثنا به محمد بن يحيى مرة، نا عبد الرزاق مرة، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة بمثله، غير أنه لم يقل من نحاس، ولم يقل ثم خرج ، (خز) ١٢٣

- نا محمد بن يحيى، نا معاوية بن عمرو قال: نا زائدة، نا موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: بلى، ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أصلى الناس؟ " فقلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: "ضعوا لي ماء في المخضب". قالت: ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أصلى الناس؟ " فقلنا: لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: "ضعوا لي ماء في المخضب" ففعلنا قالت: فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال: "أصلى الناس؟ " فقلنا: لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ثم ذكر الحديث بطوله ، (خز) ٢٥٧

- نا محمد بن رافع، نا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة أو عمرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح فأعهد إلى الناس ". قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس ، وسكبنا عليه الماء منهن حتى طفق يشير

---

(١) المسالك في شرح موطأ مالك ابن العربي ٤٨٩/٧

إلينا أن قد فعلتن ، ثم خرج نا به محمد بن يحيى نحوه وقال: سمعت عبد الرزاق يذكره، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة نحوه. غير أنه لم يقل: "من نحاس" حين جعل الحديث، عن عروة بلا شك ، (خز) ٢٥٨

– نا القاسم بن محمد بن عباد بن عباد المهلبي، وزيد بن أخزم الطائي، ومحمد بن يحيى الأزدي قالوا: ثنا عبد الله بن داود، ثنا سلمة بن نبيط، عن نعيم بن أبي هند، عن نبيط بن شريط، عن سالم بن عبيد قال: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أحضرت الصلاة؟ " قلت: نعم قال: "مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس" – فذكروا الحديث، وقالوا في الحديث – وأذن وأقام، وأمروا أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم أفاق فقال: "أقيمت الصلاة؟ " قلت: نعم قال: " جيئوني بإنسان أعتمد عليه، فجاءوا ببريرة ورجل آخر، فاعتمد عليهما، ثم خرج إلى الصلاة، فأجلس إلى جنب أبي بكر، فذهب أبو بكر يتنحى، فأمسكه حتى فرغ من الصلاة ثم ذكروا الحديث وهذا حديث القاسم، (خز) ١٥٤١ قال الألباني: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات

– نا سلم بن جنادة، ثنا وكيع، ح وثنا سلم أيضا، نا أبو معاوية كلاهما عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه جاءه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، قلنا: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، ومتى يقم مقامك يبك، فلا يستطيع، فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس قال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" – ثلاث مرات – "فإنكن صواحبات يوسف" قالت: فأرسلنا إلى أبي بكر، فصلى بالناس، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم خفة، فخرج يهادى بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض، فلما أحس به أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم: أن مكانك قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس إلى جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يأتم بالنبي صلى الله عليه وسلم، والناس يأتمون بأبي بكر رضوان الله عليه هذا حديث وكيع وقال في حديث أبي معاوية: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا، وأبو بكر قائما، قال أبو بكر: قال قوم من أهل الحديث: إذا صلى الإمام المريض جالسا صلى من خلفه قياما إذا قدروا على القيام، وقالوا: خبر الأسود وعروة عن عائشة ناسخ للأخبار التي تقدم ذكرنا لها في أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالجلوس إذا صلى الإمام جالسا. قالوا: لأن تلك الأخبار عند سقوط النبي صلى الله عليه وسلم من الفرس وهذا الخبر في مرضه الذي توفي فيه قالوا: والفعل الآخر ناسخ لما تقدم من فعله وقوله. قال أبو بكر: وإن الذي عندي في ذلك – والله أسأل العصمة والتوفيق – أنه لو صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه لكان الأمر على ما قالت هذه الفرقة من أهل الحديث، ولكن لم يثبت عندنا ذلك؛ لأن الرواة قد اختلفوا في هذه الصلاة على فرق ثلاث ، (خز) ١٦١٦

– ففي خبر هشام عن أبيه، عن عائشة، وخبر الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان الإمام، وقد روي بمثل هذا الإسناد عن عائشة أنها قالت: من الناس من يقول: كان أبو بكر

المقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم المقدم بين يدي أبي بكر، (خز) ١٦١٧ قال الأعظمي: إسناده صحيح

- ثنا بذلك محمد بن بشار، ثنا أبو داود، نا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة.، (خز) ١٦١٨ قال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم

- وروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، ومسروق بن الأجدع، عن عائشة، أن أبا بكر، صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف، (خز) ١٦١٩ قال الألباني: إسناده صحيح

- نا بندار، نا بكر بن عيسى صاحب البصري، ثنا شعبة، عن نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل، عن مسروق، عن عائشة، أن أبا بكر، صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه، (خز) ١٦٢٠ قال الألباني: إسناده صحيح

- نا بندار، ثنا بدل بن المحبر، ثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة، أن أبا بكر صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه قال أبو بكر: فلم يصح الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه في الصلاة التي كان هو فيها قاعدا، وأبو بكر والقوم قيام؛ لأن في خبر مسروق، وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة أن أبا بكر كان الإمام، والنبي صلى الله عليه وسلم مأموم، وهذا ضد خبر هشام، عن أبيه، عن عائشة، وخبر إبراهيم عن الأسود عن عائشة، على أن شعبة بن الحجاج قد بين في روايته عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة **أن من الناس من** يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم المقدم بين يدي أبي بكر، وإذا كان الحديث الذي به احتج من زعم أن فعله الذي كان في سقطته من الفرس، وأمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بالأئمة وقعودهم في الصلاة إذا صلى إمامهم قاعدا، منسوخ غير صحيح من جهة النقل، فغير جائز لعالم أن يدعي نسخ ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم بالأخبار المتواترة بالأسانيد الصحاح من فعله وأمره بخبر مختلف فيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زجر عن هذا الفعل الذي ادعته هذه الفرقة في خبر عائشة الذي ذكرنا أنه مختلف فيه عنها، وأعلم أنه فعل فارس والروم بعظمائها، يقومون وملوكهم قعود، وقد ذكرنا هذا الخبر في موضعه، فكيف يجوز أن يؤمر بما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الزجر عنه استنانا بفارس والروم من غير أن يصح عنه صلى الله عليه وسلم الأمر به وإباحته بعد الزجر عنه؟ ولا خلاف بين أهل المعرفة بالأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى قاعدا وأمر القوم بالقعود، وهم قادرون على القيام، لو ساعدهم القضاء، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المأمومين بالاقتداء بالإمام والقعود إذا صلى الإمام قاعدا، وزجر عن القيام في الصلاة إذا صلى الإمام قاعدا، واختلفوا في نسخ ذلك، ولم يثبت خبر من جهة النقل بنسخ ما قد صح عنه صلى الله عليه وسلم مما ذكرنا من فعله وأمره، فما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفق أهل

العلم على صحته يقين، وما اختلفوا فيه ولم يصح فيه خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم شك، وغير جائز ترك اليقين بالشك، وإنما يجوز ترك اليقين باليقين. فإن قال قائل غير منعم الروية: كيف يجوز أن يصلي قاعدا من يقدر على القيام؟ قيل له إن شاء الله: يجوز ذلك أن يصلي بأولى الأشياء أن يجوز به، وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أمر باتباعها، ووعد الهدى على اتباعها، فأخبر أن طاعته صلى الله عليه وسلم طاعته عز وجل، وقوله كيف يجوز لما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر به، وثبت فعله له - بنقل العدل عن العدل موصولا إليه بالأخبار المتواترة - جهل من قائله وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم عند جميع أهل العلم بالأخبار الأمر بالصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا، وثبت عندهم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صلى قاعدا بقعود أصحابه لا مرض بهم، ولا بأحد منهم. وادعى قوم نسخ ذلك، فلم تثبت دعواهم بخبر صحيح لا معارض له، فلا يجوز ترك ما قد صح من أمره صلى الله عليه وسلم، وفعله في وقت من الأوقات، إلا بخبر صحيح عنه، ينسخ أمره ذلك وفعله. ووجود نسخ ذلك بخبر صحيح معدوم، وفي عدم وجود ذلك بطلان ما ادعت، فجازت الصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا اقتداء به على أمر النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، والله الموفق للصواب، (خز) ١٦٢١ قال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري لكن لفظه مخالف لروايته في الصحيح قال الأعظمي: انظر البخاري: الأذان ٥١ من طريق ابن أبي عائشة وفيه: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم

- نا القاسم بن محمد بن عباد بن عباد المهلبي، وأبو طالب زيد بن أخزم الطائي، ومحمد بن يحيى الأزدي قالوا: ثنا عبد الله بن داود، نا سلمة بن نبيط، عن نعيم بن أبي هند، عن نبيط بن شريط، عن سالم بن عبيد قال: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أحضرت الصلاة؟ " قلنا: نعم قال: "مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس"، ثم أغمي عليه ثم أفاق فقال: " أحضرت الصلاة؟ قلنا: نعم قال: مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس "، ثم أغمي عليه، ثم أفاق، فقالت عائشة: إن أبي رجل أسيف، فلو أمرت غيره، ثم أفاق فقال: "أحضرت الصلاة"؟ قلنا: نعم، فقال: "مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس" قالت عائشة: إن أبي رجل أسيف، فلو أمرت غيره، فقال: "إنكن صواحبات يوسف، مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس"، ثم أغمي عليه، فأمروا بلالا فأذن، وأقام، وأمروا أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم أفاق فقال: "أقيمت الصلاة؟ " قلت: نعم قال: "جيئوني بإنسان أعتمد عليه"، فجاءوا ببريرة، ورجل آخر، فاعتمد عليهما، ثم خرج إلى الصلاة، فأجلس إلى جنب أبي بكر، فذهب أبو بكر يتنحى، فأمسكه حتى فرغ من الصلاة. هذا حديث القاسم بن محمد، (خز) ١٦٢٤ قال الأعظمي: إسناده صحيح

- أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلت على عائشة فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: بلى، ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أصلى الناس؟ " فقلت: لا هم ينتظرونك يا رسول الله قال: "ضعوا لي ماء في المخضب" قالت: ففعلنا فاغتسل، ثم ذهب لينوي فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال:

"أصلى الناس؟ " فقلت: لا هم ينتظرونك يا رسول الله والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق أن صل بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلي بالناس فقال أبو بكر وكان رجلا رقيقا: يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، قال: فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام، قالت: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، قالت: فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، وقال لهما: "أجلساني إلى جنبه" فأجلساه إلى جنب أبي بكر فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة، عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هات فعرضت حديثها عليه، فما أنكر منه شيئا. (رقم طبعة با وزير: ٢١١٣) ، (حب) ٢١١٦ [قال الألباني]: صحيح.

- أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف، قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة العبسي، قال: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن عاصم *، عن شقيق، عن مسروق، عن عائشة، قالت: أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أفاق فقال: "أصلى الناس؟ " قلنا: لا قال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس؟ " فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، - قال عاصم: والأسيف الرقيق الرحيم - قال: "مروا أبا بكر أن يصلي بالناس" قال ذلك ثلاث مرات كل ذلك أرد عليه قالت: فصلى أبو بكر بالناس، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد خفة من نفسه فخرج بين بريرة ونوبة إني لأنظر إلى نعليه تخطان في الحصا وأنظر إلى بطون قدميه، فقال لهما: "أجلساني إلى جنب أبي بكر" فلما رآه أبو بكر ذهب يتأخر، فأومأ إليه أن اثبت مكانك فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قالت: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم "يصلي وهو جالس وأبو بكر قائم يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بصلاة أبي بكر". [رقم طبعة با وزير] = (٢١١٥) ، (حب) ٢١١٨ [قال الألباني]: حسن - انظر التعليق. * [عن عاصم] قال الشيخ: هو ابن بهدلة، أبي النجود، وهو حسن الحديث، كما تقدم - مرارا - وقد توبع كما يأتي، وبقية الرجال ثقات معروفون. وعثمان بن أبي شيبة العبسي: هو صاحب "المسند" المعروف به، وهو أخو أبي بكر بن أبي شيبة صاحب "المصنف" المشهور به. وقد تابعه فيه، فقال فيه (٢/ ٣٣١): حدثنا حسين بن علي به. ويأتي الحديث (٢٢٢١) من طريق نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل (وهو شقيق) - أحسبه - عن مسروق به. ومن هذا الوجه أخرج الجملة الأخيرة، وهي مخالفة لرواية ابن بهدله؛ لأنها صريحة بأنه صلى الله عليه وسلم صلى خلف أبي بكر: أخرجه البيهقي (٣/ ٨٢)، وأحمد (٦/ ١٥٩)، وكذا ابن أبي شيبة (٢/ ٣٣٢). وفي رواية ابن بهدلة: أن أبا بكر صلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم يقتدي به، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر. وقد جمع المؤلف بين الروايتين على أنهما صلاتان فراجعه.

- أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، وعمر بن محمد بن بجير، قالا: حدثنا سلم بن جنادة، قال: حدثنا وكيع، عن

الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه جاءه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" قلنا: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف ومتى يقم مقامك يبك فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس قال: "مروا أبا بكر ليصلي بالناس" ثلاث مرات، "فإنكن صواحبات يوسف"، قالت: فأرسلنا إلى أبي بكر فصلى بالناس فوجد النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة فخرج يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض، فلما حس * به أبو بكر ذهب يتأخر، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن مكانك قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنب أبي بكر فكان أبو بكر يأتم بالنبي صلى الله عليه وسلم والناس يأتمون بأبي بكر. [رقم طبعة با وزير] = (٢١١٧) ، (حب) ٢١٢٠ [قال الألباني]: صحيح - مضى (٢١١٥). * [حس]: قال الشيخ: في الأصل: "أحس".

- أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ بن معاذ، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال: حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل، أحسبه عن مسروق، عن عائشة، أنها قالت: أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أفاق قال: "هل نودي بالصلاة؟ " فقلنا: لا فقال: "مري بلالا فليبادر بالصلاة وليصل بالناس أبو بكر" قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك قالت: فنظر إلي حين فرغ من كلامه، ثم أغمي عليه فلما أفاق قال: "هل نودي بالصلاة؟ " قالت: فقلت: لا قال: "مري بلالا فليناد بالصلاة وليصل بالناس أبو بكر" قالت: فأومأت إلى حفصة فقالت: يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق لا يستطيع أن يقرأ إلا يبكي قال: فنظر إليها حين فرغت من كلامها، ثم أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أفاق قال: "هل نودي بالصلاة؟ " قالت: فقلت: لا فقال: "مري بلالا فليناد بالصلاة وليصل بالناس أبو بكر، فإنكن صواحبات يوسف"، ثم أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فأقام بلال الصلاة وصلى بالناس أبو بكر، ثم أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بنوبة، وبريرة فاحتملاه قالت عائشة: فكأني أنظر إلى أصابع قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم تخط في الأرض قالت: فلما أحس أبو بكر بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستأخر فأومأ إليه أن يثبت قالت: وجيء بنبي الله صلى الله عليه وسلم فوضع بحذاء أبي بكر في الصف. [رقم طبعة با وزير] = (٢١٢١) ، (حب) ٢١٢٤ [قال الألباني]: صحيح - مضى (٢١١٥).

- أخبرنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس *، قال: أخبرني أخي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن أبي عتيق، عن ابن شهاب، أخبرني سعيد بن المسيب، أنه سمع أبا هريرة، يقول: دخل أبو بكر المسجد وعمر يكلم الناس حين دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه، وهو بيت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فكشف عن وجهه برد حبرة كان مسجى به، فنظر إلى وجهه، ثم أكب عليه، فقبله، وقال: "بأبي أنت، فوالله لا يجمع الله عليك موتتين، لقد مت الموتة التي لا تموت بعدها" (رقم طبعة با وزير: ٣٠١٩) ، (حب) ٣٠٣٠ [قال الألباني]: حسن صحيح - انظر التعليق. * [إسماعيل بن أبي أويس] قال الشيخ: هذا

مع كونه من رجال الشيخين، ففيه كلام من قبل حفظه. وأخوه اسمه: عبد الحميد، أبو بكر بن عبد الله بن أبي أويس، ثقة من رجالهما. ومحمد بن أبي عتيق نسب إلى جده، واسم أبيه: عبد الله، وهو ثقة؛ خلافا للحافظ. وسائر الرجال ثقات رجال الشيخين؛ فالإسناد حسن. وهو صحيح، فقد توبع إسماعيل فقال ابن سعد (٢/ ٢٦٨): أخبرنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي أويس به. وهذا إسناد صحيح. ثم روى له شاهدا من حديث عائشة نحوه: رواه البخاري وغيره، وهو مخرج في "أحكام الجنائز" (٢٠ - ٢١).

- أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا عمرو بن هشام الحراني، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة، قالت: رجع إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، قال: "بل أنا يا عائشة، وا رأساه"، ثم قال: "وما ضرك لو مت قبلي، فغسلتك، وكفنتك، وصليت عليك، ثم دفنتك؟ "، قلت: لكأني بك أن لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بدئ في وجعه الذي مات فيه (رقم طبعة با وزير: ٦٥٥٢) ، (حب) ٦٥٨٦ [قال الألباني]: حسن - "أحكام الجنائز" (٥٠)، "الإرواء" (٧٠٠)، "دفاع عن الحديث" (٥٣ - ٥٤).

- أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، قال: سألت عائشة قلت: أخبريني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: "اشتكى، فعلق ينفث، فجعلنا نشبه نفثه بنفث آكل الزبيب، قالت: وكان يدور على نسائه، فلما ثقل استأذنهن أن يكون عندي ويدرن عليه، قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين رجلين تخطان رجلاه الأرض، أحدهما عباس" قال: فحدثت به ابن عباس، فقال لي: "ما أخبرتك بالآخر؟ قلت: لا، قال: هو علي" (رقم طبعة با وزير: ٦٥٥٤) ، (حب) ٦٥٨٨ [قال الألباني]: صحيح: خ (٦٨٧).

- أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع السختياني، حدثنا محمد بن عبد الله العصار، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، أو عمرة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح، فأعهد إلى الناس" قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس، وسكبنا عليه من الماء حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج فحمد الله، وأثنى عليه، واستغفر للشهداء الذين قتلوا يوم أحد (رقم طبعة با وزير: ٦٥٦٢) ، (حب) ٦٥٩٦ [قال الألباني]: صحيح: خ (١٩٨).

- أخبرنا الفضل بن الحباب، حدثنا علي بن المديني، حدثنا هشام بن يوسف، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي قبض فيه: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن

لعلي أعهد إلى الناس"، قالت: فأجلسناه في مخضب لحفصة، فما زلنا نصب عليه حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن [رقم طبعة با وزير] = (٦٥٦٥) ، (حب) ٦٥٩٩ [قال الألباني]: صحيح - مضى قريبا (٦٥٦٢).

- أخبرنا محمد بن الحسن بن قتيبة، حدثنا ابن أبي السري، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، أخبرني عروة، وعمرة، أحدهما أو كلاهما، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح، فأعهد إلى الناس"، قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة بنت عمر من نحاس، فسكبنا عليه الماء حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى المسجد (رقم طبعة با وزير: ٦٥٦٦) ، (حب) ٦٦٠٠ [قال الألباني]: صحيح - انظر ما قبله.

- أخبرنا عبد الله بن محمد الأزدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فقلت مثلها، فقال صلى الله عليه وسلم: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر، ففعلت حفصة، فقال صلى الله عليه وسلم: "مروا أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحبات يوسف"، فقالت حفصة: ما رأيت منك خيرا قط، قالت: فخرج أبو بكر يؤم الناس، فلما كبر أبو بكر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب أبو بكر يتأخر، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امكث مكانك، فمكث مكانه، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بحذائه، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس يصلون بصلاة أبي بكر حتى قضى الصلاة [رقم طبعة با وزير] = (٦٥٦٧) ، (حب) ٦٦٠١ [قال الألباني]: صحيح - "الإرواء" (٢/ ٣٣٥ / ٥٤٨): ق، سيأتي برقم (٦٨٣٤).

- أخبرنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا أبو أسامة، حدثنا زائدة، حدثني موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلت على عائشة، فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: بلى، ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أصلى الناس؟ "، فقلت: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك، فقال: "ضعوا لي ماء في المخضب"، ففعلنا، فاغتسل صلى الله عليه وسلم، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه ثم أفاق، فقال: "أصلى الناس؟ "، قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك، قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فأتاه الرسول، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلا رقيقا أو رفيقا -: يا عمر، صل بالناس، فقال عمر: أنت أحق بذلك، ففعل وصلى بهم أبو بكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس بن عبد المطلب، وأبو بكر يصلي

بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، فقال لهما: "أجلساني إلى جنب أبي بكر"، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قالت: فجعل أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم، والناس يصلون بصلاة أبي بكر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد، قال عبيد الله: فدخلت على ابن عباس، فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "نعم"، فحدثته بحديثها عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أنكر منه شيئا غير أنه قال: "لم تسم لك الرجل الذي كان مع العباس؟ "، فقلت: لا، فقال: "هو علي" (رقم طبعة با وزير: ٦٥٦٨) ، (حب) ٦٦٠٢ [قال الألباني]: صحيح.." [١]

"فكنى بالمسح عن الطواف. ويحتمل أن يكون مسحوا بالركن، أي طافوا وسعوا، وحذف ذكر السعي اختصارا لما كان مرتبطا بالطواف ولا يصح دونه. ويؤيد هذا التأويل أنها قالت فيما ذكره عنها بعد: "ما أتم الله حج امرىء ولا عمرته لم يطف بالبيت والمروة" (٧١)، إلا أن يتأول عليها أنها إنما أرادت بالإتمام الكمال لا الصحة. ويحتمل أن يكون ذلك على رأي من رأى أن السعي غير واجب. وفيه اختلاف بين الناس، وقد رأيت بعض أهل العلم أشار إلى **أن من الناس من** ذهب إلى أن المعتمر إذا دخل الحرم حل وإن لم يطف ويسع وله أن يلبس ويتطيب ويفعل ما يفعل الحلال ويكون طوافه وسعيه كأنه عمل خارج عن الإحرام كما يكون رمي الجمار والمبيت بمنى عملا خارجا عن الإحرام.

٤٩١ - قول معاوية رضي الله عنه: "قصرت من رأس النبيء - صلى الله عليه وسلم - عند المروة (٧٢) بمشقص" (ص ٩١٣).

احتج به من قال: إن النبيء - صلى الله عليه وسلم - كان في حجة الوداع متمتعا. ويحتمل عندنا أن يكون ذلك في غير حجة الوداع وإنما كان في بعض عمره -عليه السلام-.

قال أبو عبيد وغيره: نصل السهم إذا كان طويلا ليس بعريض فهو مشقص وجمعه مشاقص، فإذا كان عريضا فهو معبلة وجمعه معابل.

٤٩٢ - قال الشيخ: خرج مسلم بعد هذا: "حدثنا محمد بن حاتم

---

(٧١) ما أثبت هو ما في (ب) و (ج)، وفي (أ) "لم يطف بالصفا والمروة" وبعد "الصفا" علامة تصحيح لكن ممحوة، وفي (د) "لم يطف بالبيت وبين الصفا والمروة".

(٧٢) "عند المروة" ساقطة من (ج).." [٢]

"وأما "نهيه عن بيع الماء" وفي الطريق الآخر "عن فضل الماء". فاعلم **أن من الناس من** زعم أن الإجماع قد حصل على أن من أخذ من دجلة ماء في إنائه وجازه دون الناس أن (٢٤) له بيعه إلا قولا شاذا ذكر في ذلك لا يعتد بخلافه عنده. ومحمل النهي عن بيع الماء مطلقا أنه باع مجهولا منه أو باع ما لم يحتفره (٢٥) في أرضه واحتفره

---

(١) المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة صهيب عبد الجبار ٢٣١/٢٠

(٢) المعلم بفوائد مسلم المازري ٩٠/٢

للسبيل، أو على أن النهي ندب للإسعاف به لاحتقار ثمنه وعظيم حاجة الناس إليه.
وقد اختلف الناس فيمن حفر بئرا للماشية في الفيافي هل له منع فضله؟ فعندنا ليس له منع ذلك بل يبذله بغير عوض. ومن الناس من قال: لا يمنعه ولكن ليس عليه بذله بغير عوض بل بقيمته قياسا على المضطر لطعام غيره لإحياء نفسه فإنه لا يحل له منعه ولكن لا يلزمه بذل بغير عوض. وما وقع ها هنا من نهيه عن بيع فضل الماء يدل على صحة ما قلناه: ان الفضلة لا تمنع، وأما إلزام المخالف بذلها بالقيمة قياسا على ما قالوه في الطعام فقياس غير صحيح لأن الطعام يضر به بذله ولا يخلف ما بذله إلا بسعي ومشقة والماء ما ذهب منه عاد إليه مثله وتفجرت به الأرض فافترق الأصلان.
وقوله: "لا يباع فضل الماء ليباع به الكلأ" (٢٦). وقوله أيضا: "لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ".
معناه أن أصحاب الماشية إذا منعوا الماء لم يردوا عليه، وإذا لم يردوا عليه امتنعوا من رعي ما حوله لعدم الشرب فيكون منعه الماء قصدا لمنع الكلأ الذي لا حق له فيه إضرارا بالمسلمين ومنعا لهم من حقوقهم، وذلك

---

(٢٤) "أن" ساقطة من (ج).
(٢٥) في (أ) "ما لا يحتفره".
(٢٦) جاء أولا في (ج) "ليمنع به الكلأ" ثم صحح بالهامش بقوله: "ليباع به الكلأ".." [١]

"بذلك من الفعل والمفعول فكأنه يقول: فاغفر: ثم عاد إلى رجل ينبهه فقال: فداء لك ثم عاد إلى الأول فقال ما اقتفينا وهذا تأويل يصح معه اللفظ والمعنى لولا أن فيه تعسفا اضطر إليه تصحيح الكلام إن صحت الرواية وقد يقع في لسان العرب من هذه الفواصل بين الجملة المعلق بعضها ببعض ما يسهل هذا التأويل.
٨٥١ - وأما ما وقع بعد هذا من قوله - صلى الله عليه وسلم -: "على أي شيء توقدون؟ قالوا: على لحم. قال: أي لحم؟ قالوا: لحم الحمر الإنسية فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أهريقوها واكسروها فقال رجل أو يهرقونها ويغسلونها فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو ذاك" (ص ١٤٢٧).
فإن من الناس من تأول في ذلك أنهم أخذوها من المغنم قبل القسمة ومنهم من يقول: أراد استبقاءها للحاجة إليها ومنهم من يقول لأنها حرام لحمها.
٨٥٢ - قوله: [مجزوء الرجز]
أنا ابن الاكوع ... واليوم يوم الرضع (ص ١٤٣٢)
معناه يوم هلاك اللئام من قولهم لئيم راضع. ومعنى لئيم راضع أي
رضع اللؤم في ثدي (٦٩) أمه وقيل: إنه يمتص الدر حتى لا يسمع للبن وقع في الحلاب فيستقرى.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم المازري ٢/٢٨٨

(٦٩) في (أ) في ثدي أمه بكسر الثاء.." [١]

"(ص) : (سئل مالك عن قوم حضور أرادوا أن يجمعوا المكتوبة فأرادوا أن يقيموا ولا يؤذنوا قال ذلك مجزئ عنهم وإنما يجب النداء في مساجد الجماعات التي تجمع فيها الصلاة) .

ـــــــــــــــــــص اليوم والشهر ومراعاتهم له فإذا رأينا الجماعة الذين شهدوا بالأمس الأذان قد سمعوه اليوم ولم يكن لأحد منهم إنكار لشيء منه علم أنه هو الأذان الذي كان بالأمس ولو جاز أن يكون هذا حكمه من التكرار والانتشار ويصح مع ذلك عليه التبديل والتغيير ويذهب ذلك على جميعهم جاز أن يذهب عليهم تبديل مسجد النبي – صلى الله عليه وسلم – وهو ما لا يقوله عاقل فكيف أن يرضى بالتزامه مسلم وهذا أمر طريقه القطع والعلم وهو أشهر من أن يحتاج فيه إلى الاستدلال بأخبار الآحاد التي مقتضاها غلبة الظن.

وقد استدل أصحابنا في ذلك بما أخرجه مسلم من «حديث أبي محذورة أن نبي الله – صلى الله عليه وسلم – علمه هذا الأذان الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله» إلى آخره.

(أما المسألة الثانية) فإن الترجيع مسنون وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة ليس بمسنون والدليل على ما نقوله النقل المستفيض بالمدينة والخبر المتواتر بها على حسب ما قدمناه وبيناه ودليل آخر وهو «حديث أبي محذورة في الأذان وفيه ثم يعود فيقول أشهد أن لا إله إلا الله» .

(وأما المسألة الثالثة) فهي أن قوله الصلاة خير من النوم مسنون في الأذان لصلاة الصبح وبه قال الشافعي في أحد قوليه وقال أبو حنيفة ليس ذلك بمسنون والدليل على ما نقوله النقل المستفيض بالمدينة والعمل المتصل على ما قدمناه وبيناه.

(فرع) إذا ثبت ذلك فهل يقال الصلاة خير من النوم مرة أو مرتين قال مالك يقال مرتين وقال ابن وهب يقال مرة واحدة فوجه قول مالك – رحمه الله – العمل المستفيض بالمدينة وما روى أنس «أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة» ومن جهة المعنى أن هذا أحد النداءين فوجب أن يكون اللفظ المختص به من جنسه في شفع أو وتر أصله قوله قد قامت الصلاة في الإقامة.

ووجه قول ابن وهب أنه لفظ يختص بأحد النداءين فوجب أن تكون سنته الإفراد أصل ذلك كله قد قامت الصلاة في الإقامة.

(وأما المسألة الرابعة) فهي أن الإقامة لا تثنى في قول مالك وبه قال الشافعي وقال أبو حنيفة تثنى كالأذان والدليل على ما نقوله نقل أهل المدينة المتواتر وعلمهم المستفيض على ما تقدم والدليل على ذلك ما أخرجه البخاري من حديث أنس «أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة» وهذا نص في موضع الخلاف.

(وأما المسألة الخامسة) فإن المشهور من المذهب أن المقيم يقول قد قامت الصلاة مرة واحدة وروى عنه المصريون في مختصر ابن شعبان يقول ذلك مرتين وبه قال الشافعي.

---

(١) المعلم بفوائد مسلم المازري ٤٣/٣

وجه القول الأول عموم قول أنس أمر بلال أن يشفع الأذان ويوتر الإقامة.

١ -

(فصل) :

وقوله وأما قيام الناس حين تقام الصلاة فلم أسمع في ذلك بحد يقام له يعني أنه لم يرد فيه حد لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه وإنما ذلك على قدر أحوال الناس فمنهم الخفيف فلا حرج عليه في التقديم ومنهم الثقيل فلا حرج عليه في التأخير وإنما يراد أن يتكامل الناس قياما في صفوفهم في آخر الإقامة.

وقال الشافعي أن القيام يكون إذا قال المؤذن قد قامت الصلاة وما احتج به مالك - رحمه الله - بين **لأن من الناس من** يخف عليه القيام فيدرك الإمام قبل التكبير ومنهم من يثقل عليه ويحتاج فيه إلى التأني والتكلف فلا حرج عليه في أن يشرع القيام قبل ذلك ليدرك التكبير مع الإمام.

(ش) : وهذا كما قال وهو أن الأذان ليس بشرط في صحة الصلاة وبه قال جمهور الفقهاء وقال عطاء من صلى دون أذان ولا إقامة أعاد.

وقال داود الأذان والإقامة فرض في الجماعة وليس على الفذ ولا على." (١)

"(ص) : (مالك أنه بلغه أن عيسى ابن مريم - عليه السلام - كان يقول يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره) .

(ص) : (مالك أنه بلغه «أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دخل المسجد فوجد فيه أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب فسألهما فقالا: أخرجنا الجوع فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأنا أخرجني الجوع فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري فأمر لهم بشعير عنده يعمل وقام يذبح لهم شاة فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نكب عن ذات الدر فذبح لهم شاة واستعذب لهم ماء فعلق في نخلة، ثم أتوا بذلك الطعام فأكلوا منه وشربوا من ذلك الماء فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: لتسئلن عن نعيم هذا اليوم») .

ـــــــQعليهم بذلك ويحتمل أن يريد به الخبر عما حكم الله تعالى به عليهم من ذلك ولفظة قاتل وإن كان أصلها أن يكون الفعل من اثنين ولذلك يقال تلاعن الزوجان إذا وجدت الملاعنة من كل واحد منهما وقد تجيء في كلام العرب المفاعلة من الواحد يقال قاتله الله بمعنى فعل الله به ذلك ومنه سافر الرجل وعالجت المريض.

(فصل) :

ثم ذكر - صلى الله عليه وسلم - فعلهم الذي عوقبوا عليه بذلك فقال: نهوا عن أكل الشحم فباعوه فأكلوا ثمنه، والنهي عن أكل الشحم لا يتناول النهي عن أكل ثمنه إلا من جهة القياس والرأي وأن ما لا يجوز أكله مما معظم منفعته الأكل

---

(١) المنتقى شرح الموطإ سليمان بن خلف الباجي ١٣٥/١

لا يجوز أكل ثمنه فلا يجوز أكل ثمن الخمر ولا ثمن الخنزير ولا الميتة وما جرى مجرى ذلك وأما ما له منفعة فإنه يجوز أكل ثمنه وإن لم يجز أكله كالعبيد والإماء، والله أعلم وأحكم.

(ش) : قول عيسى ابن مريم – عليه السلام – يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح وهو الخالص الذي لم يمازجه شيء والبقل البري يريد الذي لم يتقدم عليه ملك لأحد فهو مباح كماء الأنهار وقوله وخبز الشعير يريد فتقوتوا به واقتصروا عليه فهو أقل ما يمسك الرمق وتبقى به الحياة؛ لأن الشعير أقل الأقوات وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره فنهاهم عن البر خاصة حضا على القليل من الدنيا والزهد فيما زاد على يسير الأقوات منها وإن كان قد علم أنهم ولا سواهم لا يقوم بشكر الماء والبقل ولكنه حضهم على أقل ما يمكن منه ويحتمل – والله أعلم – أن ينصرف الضمير في قوله – عليه الصلاة والسلام –: فإنكم لن تقوموا بشكره إلى البر ويحتمل أن ينصرف إلى الماء والبقل والشعير فيكون معناه ما تقدم، والله أعلم وليس هذا مخالفا لشريعتنا فإن من الناس من يصلحه هذا فيندب إليه ومنهم من يصلحه غير هذا فيأخذ به، والله أعلم وأحكم.

(ش) : سؤاله – صلى الله عليه وسلم – لأبي بكر الصديق – رضي الله عنه – وعمر – رضي الله عنهما – معناه – والله أعلم – ما أخرجكما ويقتضي أن يكون ذلك خروجا أنكره؛ لأنه لم يكن في وقت خروج معتاد، أو كان في وقت تخوف عليهم فيه ما أخبرا به عن أنفسهما من أن الذي أخرجهما الجوع وأخبرهما هو عن نفسه بذلك وهذا يقتضي جواز الإخبار عما يلحق الإنسان من شدة ألم الجوع، أو المرض لا سيما إذا أخبره بذلك من يعلم إشفاقه عليه، أو يرجو منفعة من عنده من دعاء، أو غيره، أو من يريد إعلامه بحاله ليأخذ لذلك أهبته وقد قالت عائشة – رضي الله عنها –: وارأساه فقال النبي – صلى الله عليه وسلم –: بل أنا وارأساه، وقال – صلى الله عليه وسلم – لعبد الله بن مسعود: إني أوعك كما يوعك رجلان منكم فقال عبد الله بن مسعود: ذلك بأن لك الأجر مرتين وإنما يكره من ذلك ما كان على وجه التشكي والجزع وقلة الرضى عن الله عز وجل فيما قضى به، والله أعلم وأحكم.

(فصل) :

وقوله فذهبوا إلى أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري، وأبو الهيثم هو مالك ويقتضي أنهم ذهبوا إليه ليطعمهم ما به يسد جوعتهم فدل ذلك على جواز قصد المؤمن إلى صديقه الذي يعلم سروره." (١)

"في ذلك ضيق قال: وسمعت مالكا يقول في هذا الحديث بيان أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يصبغ ولو صبغ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لأرسلت بذلك عائشة إلى عبد الرحمن بن الأسود) .

ما يؤمر به من التعوذ (ص) : (مالك عن يحيى بن سعيد قال: بلغني «أن خالد بن الوليد قال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إني أروع في منامي فقال: له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه

---

(١) المنتقى شرح الموطإ سليمان بن خلف الباجي ٧/٢٤٦

وعقابه

ـــــــ ص [ما جاء في صبغ الشعر]

(ش) : قوله إن عبد الرحمن بن الأسود كان أبيض الرأس واللحية يريد من الشيب وقوله فغدا عليهم وقد حمرهما يريد خضبهما بالحمرة فاستحسن القوم ذلك منه وفضلوه على البياض فأعلمهم عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أقسمت عليه ليصبغن وأخبرته أن أبا بكر الصديق كان يصبغ وذلك أنه روي عن أبي بكر أنه خضب بالحناء والكتم، وكذلك روي عن عثمان بن عفان وأنس بن مالك وجماعة وهذا يدل على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يخضب ولو خضب كان تعلقها بفعله أبين وأوضح من تعلقها بفعل أبيها - رضي الله عنها - وإنما ذكرت له عائشة في ذلك أفضل ما علمته وندبته إلى اتباعه.

وقد قال: مالك - رحمه الله - في غير الموطأ لم يصبغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عمر بن الخطاب ولا علي بن أبي طالب ولا أبي بن كعب ولا السائب بن يزيد ولا سعيد بن المسيب ولا ابن شهاب.

وقال: عثمان بن موهب «رأيت شعر النبي - صلى الله عليه وسلم - أخرجته إلي أم سلمة مخضوبا بالحناء والكتم» وقيل لمحمد بن علي «أكان علي يخضب قال: قد خضب من هو خير منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -» فيحتمل - والله أعلم - أن يزيد بهذه الآثار أنه كان يجعل من ذلك في شعره بما يحسنه ويلينه دون أن يكون شعره يحتاج إلى ذلك لبياض ومعنى الآثار التي نفت الخضاب أنه لم يكن شعره أبيض يغيره الخضاب فلم يكن يجعل من ذلك ما يجعله على وجه الخضاب الذي يغير البياض، وقد قال: عبد الله بن همام قلت لأبي الدرداء «أكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخضب فقال: يا ابن أخي ما بلغ منه الشيب بالخضب ولكنه كان منه هاهنا شعرات بيض وكان يغسلها بالحناء والسدر» .

(فصل) :

وقول مالك - رحمه الله - في صبغ الشعر بالسواد لم أسمع فيه شيئا معلوما وروى عنه أشهب في العتبية ما علمت أن فيه النهي، وغير ذلك من الصبغ أحب إلي يريد أنه صبغ لم يستعمله النبي - صلى الله عليه وسلم - في شعره.

وقد روي عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «في أبي قحافة غيروه وجنبوه السواد» ، والحديث ليس بثابت رواه ليث بن أبي سليم وقد خضب بالسواد من الصحابة عقبة بن عامر والحسن والحسين وخضب به محمد بن علي بن أبي طالب وجماعة من التابعين والأول أكثر، والله أعلم.

(فصل) :

وقول مالك وترك الصبغ كله واسع يريد أن الصبغ ليس بأمر لازم وقد ترك الصبغ جماعة من الصحابة منهم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وعلي بن أبي طالب قال: القاضي أبو الوليد - رضي الله عنه - وذلك عندي ينصرف إلى وجهين:

أحدهما: أن يكون أمرا معتادا ببلد الإنسان فيسوغ له ذلك فإن الخروج عن الأمر المعتاد يشهر ويستقبح والثاني **أن من**

الناس من يجمل شيبه فيكون ذلك أليق به من الصبغ ومن الناس من لا يجمل شيبه ويستشنع منظره فكان الصبغ أجمل به، والله أعلم وسئل مالك عن نتف الشيب فقال: ما علمته حراما وتركه أحب إلي وقال: ابن القاسم ما أحب نتفه وأكره أن يقرض من أصله وهو يشبه عندي النتف.

[ما يؤمر به من التعوذ]

(ص) : (مالك عن يحيى بن سعيد قال: بلغني «أن خالد بن الوليد قال لرسول الله – صلى الله عليه وسلم –: إني أروع في منامي فقال: له رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: قل أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه." (١)

"ولعله أراد ما أراد أبوه في التراويح انتهى ملخصا (فمن أدرك ذلك) أي زمن الاختلاف الكثير (فعليه بسنتي) أي فليلزم سنتي (وسنة الخلفاء الراشدين المهديين) فإنهم لم يعملوا إلا بسنتي فالإضافة إليهم إما لعملهم بها أو لاستنباطهم واختيارهم إياها قاله القارىء

وقال الشوكاني في الفتح الرباني إن أهل العلم قد أطالوا الكلام في هذا وأخذوا في تأويله بوجوه أكثرها متعسفة والذي ينبغي التعويل عليه والمصير إليه هو العمل بما يدل عليه هذا التركيب بحسب ما تقتضيه لغة العرب فالسنة هي الطريقة فكأنه قال الزموا طريقتي وطريقة الخلفاء الراشدين وقد كانت طريقتهم هي نفس طريقته فإنهم أشد الناس حرصا عليها وعملا بها في كل شيء

وعلى كل حال كانوا يتوقون مخالفته في أصغر الأمور فضلا عن أكبرها

وكانوا إذا أعوزهم الدليل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عملوا بما يظهر لهم من الرأي بعد الفحص والبحث والتشاور والتدبر وهذا الرأي عند عدم الدليل هو أيضا من سنته لما دل عليه حديث معاذ لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بما تقضي قال بكتاب الله

قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيي

قال الحمدلله الذي وفق رسول رسوله أو كما قال

وهذا الحديث وإن تكلم فيه بعض أهل العلم بما هو معروف فالحق أنه من قسم الحسن لغيره وهو معمول به وقد أوضحت هذا في بحث مستقل

فإن قلت إذا كان ما عملوا فيه بالرأي هو من سنته لم يبق لقوله وسنة الخلفاء الراشدين ثمرة قلت ثمرته أن من الناس من لم يدرك زمنه صلى الله عليه وسلم وأدرك زمن الخلفاء الراشدين أو أدرك زمنه وزمن الخلفاء ولكنه حدث أمر لم يحدث في زمنه ففعله الخلفاء فأشار بهذا الإرشاد إلى سنة الخلفاء إلى دفع ما عساه يتردد في بعض النفوس من الشك ويختلج فيها من الظنون

فأقل فوائد الحديث أن ما يصدر عنهم من الرأي وإن كان من سننه كما تقدم ولكنه أولى من رأي غيرهم عند عدم الدليل

---

(١) المنتقى شرح الموطإ سليمان بن خلف الباجي ٧/٢٧٠

وبالجملة فكثيرا ما كان صلى الله عليه وسلم ينسب الفعل أو الترك إليه أو إلى أصحابه في حياته مع أنه لا فائدة لنسبته إلى غيره مع نسبته إليه لأنه محل القدرة ومكان الأسوة فهذا ما ظهر لي في تفسير هذا الحديث ولم أقف عند تحريره على ما يوافقه من كلام أهل العلم فإن كان صوابا فمن الله وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان وأستغفر الله العظيم

انتهى كلام الشوكاني

وقد ذكرنا كلام صاحب سبل السلام في بيان معنى هذا الحديث في باب آذان الجمعة

وقال القارىء في المرقاة قيل هم الخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم لأنه عليه الصلاة والسلام قال الخلافة بعدي ثلاثون سنة وقد انتهى بخلافة علي كرم الله وجهه

قال بعض المحققين وصف الراشدين بالمهديين لأنه إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح." (١)

"ومنها ما ليس فيه نص صريح، وإنما يؤخذ من عموم أو مفهوم أو قياس، فتختلف أفهام العلماء في هذا كثيرا. ومنها ما يكون فيه أمر، أو نهي، فتختلف العلماء في حمل الأمر على الوجوب أو الندب، وفي حمل النهي على التحريم أو التنزيه، وأسباب الاختلاف أكثر مما ذكرنا. ومع هذا فلابد في الأمة من عالم يوافق الحق، فيكون هو العالم بهذا الحكم، وغيره يكون الأمر مشتبها عليه ولا يكون عالما بهذا، فإن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الحق مهجورا غير معمول به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا «قال صلى الله عليه وسلم في المشتبهات: لا يعلمهن كثير من الناس» فدل على **أن من الناس من** يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء. وقد يقع الاشتباه في الحلال والحرام بالنسبة إلى العلماء وغيرهم من وجه آخر، وهو أن من الأشياء ما يعلم سبب حله وهو الملك المتيقن ومنها ما يعلم سبب تحريمه وهو ثبوت ملك الغير عليه، فالأول لا تزول إباحته إلا بيقين زوال الملك عنه، اللهم إلا في الأبضاع عند من يوقع الطلاق بالشك فيه كمالك، أو إذا غلب على الظن وقوعه كإسحاق بن راهويه والثاني: لا يزول تحريمه إلا بيقين العلم بانتقال الملك فيه. وأما ما لا يعلم له أصل ملك كما يجده الإنسان في بيته ولا يدري: هل هو له أو لغيره فهذا مشتبه، ولا يحرم عليه تناوله، لأن الظاهر أن ما في بيته ملكه لثبوت يده عليه، والورع اجتنابه، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون من الصدقة فألقيها»." (٢)

"هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة، ولا يظهر أهل باطلها على أهل حقها، فلا يكون الحق مهجورا غير معمول به في جميع الأمصار والأعصار، ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المشتبهات: ((لا يعلمهن كثير من الناس)) فدل على **أن من الناس من** يعلمها، وإنما هي مشتبهة على من لم يعلمها، وليست مشتبهة في نفس الأمر، فهذا هو السبب المقتضي لاشتباه بعض الأشياء على كثير من العلماء.

---

(١) تحفة الأحوذي عبد الرحمن المباركفوري ٧/٣٦٧

(٢) جامع العلوم والحكم ت الأرنؤوط ابن رجب الحنبلي ١/١٩٧

وقد يقع (١) الاشتباه في الحلال والحرام بالنسبة إلى العلماء وغيرهم من وجه آخر، وهو أن من الأشياء ما يعلم سبب حله وهو الملك المتيقن. ومنها ما يعلم سبب تحريمه وهو ثبوت ملك الغير عليه، فالأول لا تزول إباحته إلا بيقين زوال الملك عنه، اللهم إلا في الأبضاع عند من يوقع الطلاق بالشك فيه كمالك، أو إذا غلب على الظن وقوعه كإسحاق بن راهويه. والثاني: لا يزول تحريمه إلا بيقين العلم بانتقال الملك فيه.

وأما ما لا يعلم له أصل ملك كما يجده الإنسان في بيته ولا يدري: هل هو له أو لغيره فهذا مشتبه، ولا يحرم عليه تناوله؛ لأن الظاهر أن ما في بيته ملكه لثبوت يده عليه، والورع اجتنابه، فقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي فأرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها)) خرجاه في " الصحيحين " (٢) .

---

(١) زاد بعدها في (ص) : ((كثير)) .

(٢) صحيح البخاري ٣/١٦٤ (٢٤٣٢) ، وصحيح مسلم ٣/١١٧ (١٠٧٠) (١٦٢) و (١٦٣) .

وأخرجه: عبد الرزاق (٦٩٤٤) ، وأحمد ٢/٣١٧، وأبو عوانة كما في " إتحاف المهرة " ١٥/٦٧٤ (٢٠١٣١) ، والطحاوي في " شرح المعاني " ٢/١٠، وابن حبان (٣٢٩٢) ، وأبو نعيم في " الحلية " ٨/١٨٧، والبيهقي ٧/٢٩-٣٠ وفي " شعب الإيمان "، له (٥٧٤٣) من حديث أبي هريرة، به.." [1]

"١٤٣٣ - أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، نا عبد الحميد بن أحمد الوراق نا الخضر بن داود قال: حدثني أحمد بن محمد بن هانئ أبو بكر الأثرم قال: سمعت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل، وقد عاوده السائل في عشرة دنانير ومائة درهم ، فقال أبو عبد الله: " ﷺبرأي أستعفي منها، وأخبرك أن فيها اختلافا **فإن من الناس من** قال: يزكي كل نوع على حدة ومنهم من يرى أن يجمع بينهما -[٧٧٥]- وتلح علي تقول: فما تقول أنت فيها؟ ما تقول أنت فيها؟ وما عسى أن أقول فيها وأنا أستعفي منها كل قد اجتهد ، فقال له رجل: لا بد أن نعرف مذهبك في هذه المسألة لحاجتنا إليها فغضب وقال: أي شيء بد إذا هاب الرجل شيئا يحمل على أن يقول فيه ثم قال: وإن قلت فإنما هو رأي وإنما العلم ما جاء من فوق ولعلنا أن نقول القول ثم نرى بعده غيره ثم ذكر أبو عبد الله حديث عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد أنه قيل له: يكتبون رأيك قال: يكتبون ما عسى أن أرجع عنه غدا " قال: أبو بكر الأثرم: «ولم يزل به السائل حتى جعل يجنح لقول من لا يرى الجمع بينهما وكأني رأيت مذهبه أن يزكى كل نوع منهما على حدته»." [2]

---

(١) جامع العلوم والحكم ت ماهر الفحل ابن رجب الحنبلي ١/٢٠٥

(٢) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ١/٧٧٤

"١٨٨٥ – وحدثنا محمد بن إبراهيم، ثنا أحمد بن مطرف، ثنا سعيد بن -[٩٨٩]- عثمان، وسعيد بن خمير، قالا: نا يونس بن عبد الأعلى، ثنا سفيان بن عيينة، قال: اضطجع ربيعة مقنعا رأسه وبكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ﷺ«رياء ظاهر وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم، ما نهوهم عنه انتهوا وما أمروهم به ائتمروا»

١٨٨٦ – وقال أيوب رحمه الله: «ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره»

١٨٨٧ – وقال عبد الله بن المعتز: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد» وهذا كله لغير العامة؛ فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة، والله أعلم، ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله عز وجل ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣] وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم، -[٩٩٠]-

١٨٨٨ – وقد نظمت في التقليد وموضعه أبياتا رجوت في ذلك جزيل الأجر لما علمت **أن من الناس من** يسرع إليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لي:
[البحر الكامل]

يا سائلي عن موضع التقليد خذ ... عني الجواب بفهم لب حاضر
واصغ إلى قولي ودن بنصيحتي ... واحفظ علي بوادري ونوادري
لا فرق بين مقلد وبهيمة ... تنقاد بين جنادل ودعاثر
تبا لقاض أو لمفت لا يرى ... عللا ومعنى للمقال السائر
فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة ... المبعوث بالدين الحنيف الطاهر
ثم الصحابة عند عدمك سنة ... فأولاك أهل نهى وأهل بصائر
وكذاك إجماع الذين يلونهم ... من تابعيهم كابرا عن كابر
إجماع أمتنا وقول نبينا ... مثل النصوص لذي الكتاب الزاهر
وكذا المدينة حجة إن أجمعوا ... متتابعين أوائلا بأواخر
وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمل بهم وافر

وعلى الأصول فقس فروعك لا تقس ... فرعا بفرع كالجهول الحائر

والشر ما فيه فديتك أسوة ... فانظر ولا تحفل بزلة ماهر." (١)

"٢٣٧٤ - أخبرنا عبد الوارث بن سفيان، نا قاسم بن أصبغ، نا ابن وضاح، نا دحيم، نا ابن وهب، ثنا ابن لهيعة، عن بكير بن الأشج، " أن رجلا قال -[١٢٠٨]- للقاسم بن محمد: ﷺعجبا من عائشة كيف كانت تصلي في السفر أربعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين؟ فقال: يا ابن أخي عليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وجدتها، **فإن من الناس من** لا يعاب." (٢)

"[باب الرجل يعتق أمته ثم يتزوجها]

١٩٥٦ - حدثنا عبد الله بن سعيد أبو سعيد الأشج حدثنا عبدة بن سليمان عن صالح بن صالح بن حي عن الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى قال «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كانت له جارية فأدبها فأحسن أدبها وعلمها فأحسن تعليمها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد فله أجران وأيما عبد مملوك أدى حق الله عليه وحق مواليه فله أجران» قال صالح قال الشعبي قد أعطيتكها بغير شيء إن كان الراكب ليركب فيما دونها إلى المدينة

ـــــــ

قوله (أعتقها وتزوجها فله أجران) أي فتزوجه زيادة في الإحسان إليها فيستحق به مضاعفة الأجر وليس هو من باب العود إلى صدقته حتى ينقص به الأجر ثم لعل المراد أن لهؤلاء أجرين في كل عمل أو في الأعمال التي عملوها في هذه الأحوال وليس المراد أن لهؤلاء أجرين لما فعلوا من عملين وإلا لما اختص الأجران بهؤلاء بل كل من يعمل عملين في مقابلتهما أجران قوله (قال الشعبي) كأنه قال له ذلك حثا على أن يحفظها ويعرف قدرها ولا يضيعها **فإن من الناس من** لا يعتني بما يحصل له بلا تعب وإن كان عظيما وقوله إن كان كلمة إن مخففة." (٣)

""عن أبي ذر جندب بن جنادة" الصحابي الشهير الزاهد المعروف "وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل" أعلم الصحابة بالحلال والحرام "-رضي الله تعالى عنهما- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: ((اتق الله حيثما كنت)) " التقوى امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، وهي وصية الله للأولين والآخرين، اجتنب ما نهاك الله عنه، وامتثل ما أمرك به حيثما كنت، أينما وجدت، في كل مكان، فوق كل أرض، وتحت كل سماء، في الخلوة والجلوة، في الغيبة والحضور والشهود، يكون مستوى التقوى عندك واحد، سواء كنت عند الناس أو في خلوتك؛ **لأن من الناس من** يكون بين الناس ممتثلا مستقيما ثم إذا خلا بمحارم الله انتهكها، وقد جاء فيه الوعيد الشديد، وقد يكون على حال في بلد، ثم إذا انتقل إلى بلد آخر كان على حال تختلف عن هذه الحال، وهذا لوحظ على كثير ممن يسافرون إلى البلدان سواء

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ٩٨٨/٢

(٢) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ١٢٠٧/٢

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه السندي، محمد بن عبد الهادي ٦٠٣/١

كانت بلاد كفر، أو بلاد أهلها مسلمون وتكثر فيها المعاصي والمنكرات، تجد بعض من يسافر إلى هذه البلدان يتخفف من كثير من الأمور التي كان يلتزم بها في بلده، هذا خالف هذا الأمر: ((اتق الله حيثما كنت)) لماذا؟ لأن المنظور إليه أولا وآخرا في الفعل والترك هو الله -جل وعلا-، ونظره إليك في بلدك وبين أهلك وعشيرتك كنظره إليك في أقصى البلدان؛ لأن بعض من يسافر حتى من بعض من ينتسب إلى العلم وطلبه إذا سافروا إلى بلدان أخرى يلاحظ عليهم بعض الأشياء من إخلال ببعض المأمورات، أو تساهل في بعض المحرمات.." (١)

"التقوى والله -جل وعلا- يقول: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: ١٦] الحديث ما فيه تقييد بالنسبة لاجتناب النواهي بالاستطاعة، فهل في النواهي ما لا يستطاع؟ **لأن من الناس من** لا يستطيع الثبات أمام بعض المعاصي، هل نقول أن هذا مثل ما جاء من قيد في اتباع الأوامر؟ الحديث ما فيه قيد فيه جزم ما فيه، ﴿فاجتنبوه﴾ من غير تقييد بالاستطاعة، لكن التقوى وهي فعل الأوامر واجتناب النواهي ﴿اتقوا الله ما استطعتم﴾ الآن الآية فيها معارضة مع الحديث أو ما فيها معارضة؟ يعني عموم التقوى يشمل فعل الأوامر وترك النواهي، وكلاهما المعبر عنه بالتقوى معلق بالاستطاعة، والحديث ليس فيه التقييد بالاستطاعة بالنسبة لاجتناب النواهي، فهل نقول: إنه لا يعذر أحد في ارتكاب المحرم؟ اللهم إلا مع الإكراه، والمراد بالإكراه الإكراه الخارجي، وإلا قد يوجد إكراه داخلي تكرهه نفسه الأمارة بالسوء وشيطانه يلجئانه إلى ارتكاب هذا المحرم، لكن ليس هذا هو الإكراه المنصوص عليه بما استكرهوا عليه ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾ [سورة النحل: ١٠٦] هذا لا بد أن يكون المكره أمر خارجي، القيد: ((ما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم)) والتفريق بين الأوامر والنواهي ظاهر، باعتبار أن النواهي مطلوبة الترك، والترك لا يحتاج إلى أن يقيد بالاستطاعة لا يعجز عنه أحد، وإن كان فيه عسر على كثير من الناس، لكن ليس فيه عدم استطاعة منهي عن شرب الخمر يستطيع أن يترك الخمر، ما في أحد يقول إنه لا يستطيع أن يترك الخمر، مأمور بترك الزنا، أو منهي عن مباشرة الزنا، ولا في أحد يقول إنه مكره على الزنا بغير إكراه خارجي على الخلاف بين أهل العلم في إمكان الإكراه على الزنا بالنسبة للرجل، فما يطلب تركه هذا لا يعجز عنه، وما يطلب إيجاده وفعله هذا يتصور العجز عنه ولذا قال: ((فافعلوا منه ما استطعتم)) ، وإن كان العموم النواهي والأوامر داخلة في مسمى التقوى، والتقوى معلقة بالاستطاعة، ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [سورة التغابن: ١٦] لو تذرع شخص قال: أنا لم أستطع أن أملك نفسي عن هذه المعصية والله -جل وعلا- يقول:." (٢)

"الفائدة الثامنة عشر: هل النفس واحدة أم أكثر؟

وقع كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: نفس مطمئنة، ونفس لوامة، ونفس أمارة، **وأن من الناس من** يغلب عليه واحدة من الثلاث، واستدل القائل بالثلاث بذكر الله لها في كتابة العزيز بقوله تعالى: يا أيتها النفس المطمئنة [الفجر: ٢٨] .

وقوله: لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة [القيامة ١، ٢] .

---

(١) شرح الأربعين النووية - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١٣/١٢

(٢) شرح الأربعين النووية - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١٤/٩

وقوله: إن النفس لأمارة بالسوء [يوسف: ٥٣] .

قال ابن القيم: والتحقيق أنها نفس واحدة، ولكن لها صفات فتسمى باعتبار كل صفة باسم.

فتسمى مطمئنة باعتبار طمأنينتها إلى ربها بعبوديته ومحبته، والإنابة إليه والتوكل عليه، والرضا به والسكون إليه (١) .

ولله در القائل فيها:

إلا يا نفس ويحك ساعديني ... بسعي منك في ظلم الليالي

لعلك في القيامة أن تفوزي ... بطيب العيش في تلك العوالي

وتسمى لوامة إما لأنها كثيرة التقلب والتلون، تتقلب وتتلون في الساعة الواحدة فضلا عن اليوم والشهر والعام والعمر ألوانا متلونة أي: تحب وتكره، وتفرح وتحزن، وترضى وتغضب، وتسخط وتطيع، وتعصي وتتقي، وغير ذلك في كل وقت، وإما لأنها توقع الإنسان في الذنب ثم تلومه عليه، وهذا اللوم لا يكون إلا من السعيد، بخلاف الشقي فإنه لا يلوم نفسه عن ذنب، بل يلومها وتلومه في فواته.

وقالت طائفة: إن هذا اللوم يقع من النوعين السعيد والشقي، فالسعيد يلومها على ارتكاب معصية الله وترك طاعته، والشقي لا يلومها إلا على فوات حظها وهواها، وإما لأن كان واحد يلوم نفسه يوم القيامة إن كان مسيئا يلوم نفسه على إساءته، وإن كان محسنا يلوم على تقصيره.

قال ابن القيم: وهذه الأقوال والأوجه كلها حق، فإن النفس موصوفة بهذا كله، باعتباره سميت لوامة ملومة، ولوامة غير ملومة، أما اللوامة الملومة: فهي النفس الجاهلة الظالمة التي تلوم صاحبها في تقصيره في معصية الله، أما الغير ملومة: فهي التي تلومه في تقصيره في طاعة الله مع بذله جهده، فهذه غير ملومة.

---

(١) انظر: الروح لابن القيم (١/٢٢٠) .." [1]

"هذا حديث حسن غريب.

البطاقة: الورقة.

طاشت: أي: خفت، والطيش: خفة العقل.

وروي عن أبي هريرة، قال: «إن من الناس من يقتل يوم القيامة ألف قتلة بضروب ما قتل».

باب من يدخل الجنة بغير حساب

٤٣٢٢ - أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، نا محمد بن إسماعيل البخاري، نا مسدد، نا حصين بن نمير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: " عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه

---

(١) شرح البخاري للسفيري = المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية شمس الدين السفيري ٢/٢٢٥

الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فرجوت أن يكون أمتي، فقيل: هذا موسى عليه السلام في قومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادا كثيرا سد." (١)

"" ((حتى يأكل تمرات)) وقال مرجى بن رجاء: حدثني عبيد الله قال حدثني: أنس عن النبي –عليه الصلاة والسلام– قال: ((ويأكلهن وترا)) " وتر، إما أن يقتصر على واحدة، لا سيما إذا خشي أن يتضرر؛ **لأن من الناس من** يتضرر بأكل التمر، أو يأكل ثلاث أو خمس أو سبع إذا كان لا يضره، لكن يقطع العدد على وتر؛ لأنه قال: ((ويأكلهن وترا)) والتمر جاءت السنة بأنه يفطر عليه الصائم، التمر، فإن لم يجد فالماء؛ لأن التمر غذاء وفاكهة، نافع جدا للمعدة الفارغة الخالية، ونافع للبصر، وفوائده كثيرة جدا.

((يأكلهن وترا)) لا يغدو –عليه الصلاة والسلام– فالمفضل أن يأكل في بيته قبل أن يخرج، قبل أن يغدو إلى صلاة العيد، وبعض الناس يجلس بعد صلاة الصبح في مصلاه حتى ترتفع الشمس ليحصل الأجر الثابت في طول العام، ثم يغدو إلى المصلى فليأكل في المسجد قبل أن يغدو إلى المصلى، وإذا كانت صلاة العيد تصلى في المسجد الذي يجلس فيه كالحرم مثلا، إذا أكل في المسجد قبل أن يتجهز لصلاة العيد .. ، هو مطالب بوظائف وعبادات يصلي الفجر، ثم يجلس في مجلسه، ثم إذا ارتفعت الشمس انتهت وظيفة، الوظيفة الأولى، يبدأ بالوظيفة الثانية، ثم بين الوظيفتين يأكل التمر، وإذا أكل التمر بعد طول الفجر وقبل غدوه إلى المسجد الذي يصلي فيه الفجر ويجلس فيه حتى يصلي العيد يصح أنه طبق السنة "لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل تمرات" رواه البخاري تعليقا" تعليقا يعني أنه حذف من مبادئ إسناده واحدا أو أكثر.

وإن يكن أول الإسناد حذف ... مع صيغة الجزم فتعليقا عرف

قال: "وقد أسند الإسماعيلي هذه الرواية المعلقة" الإسماعيلي في مستخرجه على البخاري أسند هذه الرواية المعلقة، وهذه من وظائف المستخرجات، من وظائف المستخرجات وصل المقاطيع والمعلقات.

قال: "وعن ثواب بن عتبة عن عبد الله بن بريدة عن أبيه –رضي الله عنه– قال: "كان النبي –صلى الله عليه وسلم– لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم" كما تقدم أنه لا يغدو ولا يخرج حتى يأكل تمرات وترا، ولا يطعم يوم الأضحى حتى يصلي؛ لأن يوم الأضحى متعقب لصيام أو لفطر؟

طالب: لفطر.

يوم عرفة.

طالب: لصيام.

نعم؟." (٢)

---

(١) شرح السنة للبغوي البغوي ، أبو محمد ١٣٥/١٥

(٢) شرح المحرر في الحديث - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١٤/٤٨

"فالأذان إنما شرع لجمع الناس، فإذا تعارف الناس أن الصلاة تؤخر في هذا الوقت لظرف من الظروف ولأمر من الأمور عرفوا ذلك، وبلغ بعضهم بعضا، وصارت عادة مطردة، ما يمنع أن يقدم الأذان ولا تقام الصلاة إلا بوقتها؛ **لأن من الناس من** لا يعرف دخول الوقت، وقد يترتب على ذلك في رمضان من يؤخر صلاة المغرب إلى قبيل أذان العشاء، وأذان العشاء في رمضان يتأخر عن وقته نصف ساعة، فيكون قد صلاها بعد خروج وقتها؛ لأنه اعتاد أن الوقت أن الأذان على الوقت.

المقصود أنه لو كان الأذان في وقته، والصلاة تؤخر حسب ما تقتضيه المصلحة، والسنة فيها -أعني صلاة العشاء- التأخير.

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-:." (١)

"إلينا غدا، فيبيتهم الله، ويضع العلم، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة)). رواه البخاري. وفي بعض نسخ ((المصابيح)): ((الحر)) بالحاء والراء المهملتين، وهو تصحيف، وإنما هو بالخاء والزاي المعجمتين، نص عليه الحميدي وابن الأثير في

أقول: أما قوله: أولا قد صحف .. إلخ. فجوابه ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين في هذا الحديث بعد ما روى: ((يستحلون الخز)) بالخاء والزاي المعجمتين. قال: والذي ذكره أبو إسحاق الحربي في باب الحاء والراء ليس من هذا في شيء، إنما هو حديث آخر عن أبي ثعلبة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((أول دينك نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة وخيرة، ثم ملك عض يستحل فيه المر والحرير))، يريد استحلال الحرام من الفروج. وهذا لا يتفق مع الذي أخرجه البخاري. وكذلك أخرجه أبو داود في السنن في كتاب اللباس في باب الخز ولباسه، وإنما ذكرنا ذلك **لأن من الناس من** يتوهم في ذلك شيئا فبيناه. وحديث أبي ثعلبة ليس من شرط الصحيح، تم كلامه. وقريب منه ما ذكره صاحب النهاية في باب الحاء والراء المهملتين.

وأما قوله ثانيا: والخز لم يحرم حتى يستح ... فجوابه ما ذكره ابن الأثير في النهاية في حديث علي: ((أنه نهى عن ركوب الخز والجلوس عليه)): الخز المعروف أولا أي في الزمان الأول ثياب تنسج من صوف وإبريسم وهي مباحة، وقد لبسها الصحابة والتابعون، فيكون النهي عنها لأجل التشبه بالعجم وزي المترفين. وإن أريد بالخز النوع الآخر، وهو المعروف الآن فهو حرام؛ لأن جميعه معمول من الإبريسم، وعليه يحمل الحديث الآخر يعني هذا الحديث: ((يستحلون الخز والحرير)). تم كلامه.

فإن قيل: كيف يعطف الحرير على الخز والأول مكروه والثاني حرام على المعنى الأول، وعلى الثاني يلزم عطف الشيء على نفسه أو كيف يحرم وإنه لم يكن مصطلحا حينئذ؟ والجواب عن الأول أنه صلى الله عليه وسلم ذهب إلى التغليب إرادة التغليظ. والجواب عن الثاني أنه عطف بيان كقول الحماسي:

---

(١) شرح المحرر في الحديث - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١١/٥

الكاعب الحسناء ترفـل في الدمقس وفي الحرير

فإن الدمقس هو الحرير وإنه إخبار عن الغيب وكان معجزة.

وأما قوله ثالثا: سقط منه فاعل ((يروح)) فالتبس المعنى، فجوابه أنه ما التبس منه بل رواه البخاري كما في المصابيح، ولكن الحميدي والخطابي وصاحب جامع الأصول ذكروا ((تروح عليهم سارحة)) بالتاء المقيدة بالنقطتين، ويرفع ((سارحة)) على الفاعلية فوجب أن يقال: إن الباء زائدة في الفاعل لتتفق الروايتان ويستقيم المعنى، ويستدل بهذه الرواية على أن الباء تزاد في الفاعل كما استدل بقول امرئ القيس:." (١)

"يقول: "وإنما أرخص في الإقالة والشرك والتولية ما لم يدخل شيئا من ذلك زيادة أو نقصان أو نظرة" لكن هو حفظ أصل الثمن، قال: شوف يا .... ، أحيانا زيادة ونقصانا يحصل الخداع، يقول: أبى أبيعك مثلما اشتريت، هذه الفاتورة قدامك، والفاتورة مع مجموعة فواتير وبضائع ثانية، وفي النهاية في آخر فاتورة حسم خمسين بالمائة، ووراه الفاتوة الأولى، هذا لا شك أنه ليست تولية، وإنما هو خداع هذا، وتغرير بالمشتري، ومثل هذا لو حسب عليه أشياء ندم عليها، حسب عليه أشياء حملها بسيارة، السيارة صار عليها حادث، وصلحت السيارة بثلاثمائة بعد بيحسب عليه هذه؟ السيارة ما حركت من جدة إلى الرياض إلى من أجل هذه البضاعة، بثلاثمائة ريال نقلت من جدة إلى الرياض، وصار على السيارة حادث وضمنه بثلاثمائة ريال، بعد إلى متى؟ بيحاسب عليه كل شيء؟ وش لون؟

طالب:. . . . .

إي لكن هناك أمور ليست من أصل البيع ولا الشراء.

طالب: هي ليس من أصله، لكن هو دخل معي دخل في كل شيء، في غنمي وغرمي، هو له الغنم وأنا علي الغرم؟

طيب لو تسلسلت المسألة؟

طالب: هو يدخل معي. . . . .

صدم رجال بعد، وقال: عليك.

طالب:. . . . .

أو السيارة احترقت.

طالب: فيما يتعلق ....

السيارة اللي تحمله احترقت.

طالب: فيما يتحمله في داخل السلعة ذي ....

لا ما في أكثر من نقلها إلى محل البيع، لكن نقله واستأجر له مستودع وخزنه لو سنة بعد.

طالب: لا هذا على حسب ....

يقول: أنا بعد منفق جوالات، أنا كلمت المكاتب العقارية بالمستودع، وكهرب، وما أدري ويش؟

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٣٣٨١/١١

في مثل هذه الصورة لا بد من إخباره بالمبلغ، يقول: والله أنا مكلفتنا السلعة كذا، تدخل مداخلي وإلا بكيفك؟ أما أن يقول: تدخل مدخلي وتشتري بما اشتريت، وأبيعك برأس مالي، ثم يضيف عليها هذه الإضافات، لا، لا بد من إخباره؛ لأن من الناس من يثق، من الناس من عنده ثقة مطلقة، لا سيما إذا كان الطرف الثاني معروف بخبرته ومهارته.

طالب: وينتفي الغرر بينهما.

لكن هم يقولون: إذا كان تولية خلاص ما يلزمه يخبره بالثمن، ما يلزم إذا كان تولية، لكن الكلام وش هو عليه؟ إذا كان هذه القيمة الأصلية للسلعة، أما إضافات لا بد من إخباره بها.." (١)

"حدثني عن مالك أنه بلغه أن أم سلمة زوج النبي -صلى الله عليه وسلم- قالت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((نعم إذا كثر الخبث)).

وحدثني عن مالك عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: "كان يقال: إن الله -تبارك وتعالى- لا يعذب العامة بذنب الخاصة، ولكن إذا عمل المنكر جهارا استحقوا العقوبة كلهم".

يقول المؤلف -رحمه الله تعالى-:

باب: ما جاء في عذاب العامة بعمل الخاصة

عموم الناس ولو لم يفعلوا المعاصي، يعني إنما فعله بعضهم وسكت الباقون، أو أنكر بعضهم وسكت بعضهم على ما جاء في آية الأعراف؛ لأن من الناس من يفعل المعاصي، ومنهم من ينكر، ومنهم من يسكت، الذين أنكروا ﴿أنجينا الذين ينهون عن السوء﴾ والذين فعلوا المعاصي ﴿وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس﴾ [(١٦٥) سورة الأعراف] فماذا عن الذين سكتوا؟ ابن عباس يقول: سكتوا فسكت عنهم، فهل نجوا وإلا أخذوا؟ نعم؟

طالب: أخذوا؟

أخذوا، لماذا؟ لأنهم عصاة؛ لأنهم تركوا فريضة من فرائض الإسلام، وهي الأمر والنهي، هذا الذي يظهر من القواعد العامة، ومن النصوص الأخرى، لكن مقتضى بعضهم أنا أخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس فقط، التنصيص عليهم يدل على أن من عاداهم سلم.

على كل حال الساكت مع إمكانه أن ينكر بيده أو بلسانه لن ينجو؛ لأن بني إسرائيل إنما لعنوا بتركهم الإنكار، ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ [(٧٩) سورة المائدة] فاستحقوا اللعن، ومسخوا قردة وخنازير؛ لأنهم فعلوا المنكر علنا، ولم ينكر بعضهم على بعض، والذين أنكروا نجوا.." (٢)

"المقصود نية الدخول في النسك، أما مجرد لبس الإحرام فلا بأس أن يلبسه قبل صعوده الطائرة؛ لأنه في الطائرة يصعب عليه أن يغير ملابسه ويخلع ملابسه، ويلبس ثياب الإحرام، لكن هنا شيء ينبغي أن ينتبه له، شيء، في المدينة

---

(١) شرح الموطأ - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١٥/١٠٦

(٢) شرح الموطأ - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٢١/١٨١

مثلا يلاحظ الجالس في المسجد النبوي يلاحظ أن من الناس من يدخل المسجد وعليه الإحرام، ويصلي فيه ركعتين، ويذهب ليصلي على النبي -عليه الصلاة والسلام- وصاحبيه، باعتبار أنهم أحرموا في مكان سكنهم في المدينة، ولا يريدون الوقوف في الميقات، أو يتصورون أن أماكن الاغتسال فيها زحام، أو شيء من هذا في المواسم، مع أنه وجد هذا بكثرة في الإجازات، ولا يوجد زحام ولا شيء، أقول: مثل هؤلاء ينبغي أن يمنعوا، ولو على الأقل من دخول المسجد؛ لئلا يظن جاهل أن المسجد يحتاج إلى إحرام، المسجد النبوي، أو السلام على النبي -عليه الصلاة والسلام- يحتاج إلى إحرام، فمثل هذا يمنع سدا للذريعة، وكان يوجد يعني في اليوم الواحد أو أشبه الآن زادوا، والمظنون بهم أنهم تجهزوا للعمرة في بيوتهم، وفي سكنهم، ولم يدخلوا في النسك، وإنما أرادوا أن يتأهبوا لها من بيوتهم، وهذا أسهل عليهم، لكن ينبغي أنه إذا لبس إحرامه من سكنه أن لا ينوي الدخول بالنسك من جهة، الأمر الثاني: أن لا يزور المسجد ويسلم على النبي -صلى الله عليه وسلم- بعد أن يلبس؛ لئلا يظن الرائي أن دخول المسجد النبوي يحتاج إلى إحرام، أو أن السلام على النبي -عليه الصلاة والسلام- وعلى صاحبيه يحتاج إلى إحرام، فيدخل في حيز الابتداع.." (١)

"الإنسان بحضرة امرأة من محارمه إذا كان يحول بينه وبينها ساتر من ثوب وغيره قولها (ثم صلى ثمان ركعات سبحة الضحى) هذا اللفظ فيه فائدة لطيفة وهي أن صلاة الضحى ثمان ركعات وموضع الدلالة كونها قالت سبحة الضحى وهذا تصريح بأن هذا سنة مقررة معروفة وصلاها بنية الضحى بخلاف الرواية الأخرى صلى ثمان ركعات وذلك ضحى فإن من الناس من يتوهم منه خلاف الصواب فيقول ليس في هذا دليل على أن الضحى ثمان ركعات ويزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في هذا الوقت ثمان ركعات بسبب فتح مكة لا لكونها الضحى فهذا الخيال الذي يتعلق به هذا القائل في هذا اللفظ لايتأتى له في قولها سبحة الضحى ولم تزل الناس قديما وحديثا يحتجون بهذا الحديث على أثبات الضحى ثمان ركعات والله أعلم والسبحة بضم السين وإسكان الباء هي النافلة سميت بذلك للتسبيح الذي فيها قوله (فصلى ثمان سجدات) المراد ثمان ركعات وسميت الركعة سجدة لاشتمالها عليها وهذا من باب تسمية الشيء بجزئه قوله (أخبرنا موسى القارئ) هو بهمز آخره منسوب إلى القراءة والله أعلم." (٢)

"هذه) فيه دلالة لما قاله الشافعي وموافقوه أنه يستحب لمن وصل منى راكبا أن يرمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا ولو رماها ماشيا جاز وأما من وصلها ماشيا فيرميها ماشيا وهذا في يوم النحر وأما اليومان الأولان من أيام التشريق فالسنة أن يرمي فيهما جميع الجمرات ماشيا وفي اليوم الثالث يرمي راكبا وينفر هذا كله مذهب مالك والشافعي وغيرهما وقال أحمد وإسحاق يستحب يوم النحر أن يرمي ماشيا قال بن المنذر وكان بن عمر وبن الزبير وسالم يرمون مشاة قال وأجمعوا على أن الرمي يجزيه على أي حال رماه إذا وقع في المرمى وأما قوله صلى الله عليه وسلم (لتأخذوا مناسككم (فهذه اللام لام الأمر ومعناه خذوا مناسككم وهكذا وقع في رواية غير مسلم وتقديره هذه الأمور التي أتيت بها في حجتي من الأقوال والأفعال والهيئات هي أمور الحج وصفته وهي مناسككم فخذوها عني واقبلوها وحفظوها واعملوا بها

(١) شرح الموطأ - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٦/٦٧

(٢) شرح النووي على مسلم النووي ٢٩/٤

وعلموها الناس وهذا الحديث أصل عظيم في مناسك الحج وهو نحو قوله صلى الله عليه وسلم في الصلاة صلوا كما رأيتموني أصلي وقوله صلى الله عليه وسلم (لعلي لا أحج بعد حجتي هذه) فيه إشارة إلى توديعهم وإعلامهم بقرب وفاته صلى الله عليه وسلم وحثهم على الاعتناء بالأخذ عنه وانتهاز الفرصة من ملازمته وتعلم أمور الدين وبهذا سميت حجة الوداع والله أعلم

[١٢٩٨] قولها (حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فرأيته حين رمى جمرة العقبة وانصرف وهو على راحلته ومعه بلال وأسامة أحدهما يقود به راحلته والآخر يرفع ثوبه على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس) فيه جواز تسميتها حجة الوداع وقد سبق **أن من الناس من** أنكر." [١]

"عمر رضي الله عنهما الثابت في الصحيح (١)

وللعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال سلكوا منها مسلكين: فمنهم من سلك مسلك الترجيح ومنهم من سلك مسلك الجمع.

فالذين سلكوا مسلك الترجيح بعضهم رجح الإحرام من حين أن يصلي وبعضهم رجح الإحرام إذا استوى على ناقته إذا ركب وبعضهم قال: إذا استوت به على البيداء.

أما من سلك مسلك الجمع وهو المروي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما رواه الحاكم وغيره فقال: إنه لا منافاة بين هذه الأمور الثلاثة **لأن من الناس من** سمع النبي صلى الله عليه وسلم يلبي حين صلى فقال: إنه لبى حين صلى ومنهم من سمعه يلبي حين ركب فقال: لبى حين ركب ومنهم من سمعه يلبي حين استوت به على البيداء فقال: لبى حين استوت به على البيداء) (٢) .

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الحج / باب من أهل حين إستوت به راحلته قائمة (١٥٥٢) ولفظه (أهل النبي صلى الله عليه وسلم حين استوت به راحلته قائمة) . وأخرجه مسلم في الحج / باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٤) ولفظه: (ثم استوت به الناقة قائمة عند مسجد الحليفة أهل بهؤلاء الكلمات) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١/٢٦٠ وأبو دادو في المناسك / باب في وقت الإحرام (١٧٧٠) وضعفه المنذري في تهذيب السنن (١٦٩٦) .." [٢]

"الدين﴾ ، وقال: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ ، وهي عبادة مالية نفعها متعد، وقد أوجبها الله في أموال الأغنياء على وجه ينفع الفقير ولا يضر الغني؛ لأنها شيء يسير من مال كثير.

---

(١) شرح النووي على مسلم النووي ٩/٤٥

(٢) شرح حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم ابن عثيمين ص/٨٨

الخامسة: صوم رمضان عبادة بدنية، وهي سر بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى؛ **لأن من الناس من** يكون في شهر رمضان مفطرا وغيره يظن أنه صائم، وقد يكون الإنسان صائما في نفل وغيره يظن أنه مفطر، ولهذا ورد في الحديث الصحيح أن الإنسان يجازى على عمله، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: "إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به" رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١٦٤) ، أي: بغير حساب، والأعمال كلها لله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ ، وإنما خص الصوم في هذا الحديث بأنه لله لما فيه من خفاء هذه العبادة، وأنه لا يطلع عليها إلا الله.

السادسة: حج بيت الله الحرام عبادة مالية بدنية، وقد أوجبها الله في العمر مرة واحدة، وبين النبي فضلها بقوله صلى الله عليه وسلم: "من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه" رواه البخاري (١٨٢٠) ، ومسلم (١٣٥٠) ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة" رواه مسلم (١٣٤٩) .

والاستطاعة في الحج تكون بدنية ومالية، ويحج عن الميت، وأما الحي فلا يحج عنه إلا في حالتين:." [١]

"المعصية؛ فإن توبته لا تنفعه، بل إنها أشبه ما تكون بالاستهزاء بالله عز وجل!

كيف تقول أتوب إلي الله من معصية وأنت مصر عليها، أو تقول أتوب إلي الله من معصية وأنت عازم علي فعلها؟ الإنسان لو عامل بشرا مثله بهذه المعاملة لقال هذا يسخر بي، ويستهزئ بي!! كيف يتنصل من أمر عندي وهو متلبس به؟ ما هذا إلا هزو ولعب، فكيف برب العالمين؟

إن من الناس من يقول إنه تائب من الربا، ولكنه- والعياذ بالله مصر عليه!! يمارس الربا صريحا، ويمارس الربا مخادعة، وقد مر بنا كثيرا أن الذي يمارس الربا مخادعة أعظم إثما وجرما من الذي يمارس الربا بالصراحة. لأن الذي يمارس الربا بالمخادعة جنى علة نفسه مرتين:

أولا: الوقوع في الربا.

وثانيا: مخادعة الله- عز وجل - وكان الله- سبحانه وتعالي- لا يعلم. وهذا يوجد كثيرا في الناس اليوم الذين يتعاملون في الربا صريحا، أمرهم واضح، لكن من الناس من يتعامل في الربا خيانة ومخادعة؛ تجد عنده أموالا لها سنوات عديدة في الدكان، فيأتي الغني بشخص فقير يوقده للمذبحة والعياذ بالله!! فيأتي إلي صاحب الدكان الذي عنده هذه البضاعة، ويبيعها على الفقير بالدين بيعا صوريا. وكل يعلم أنه ليس بيعا حقيقيا؛ لأن هذا المشتري - المدين- لا يقلب المال، ولا

---

(١) شرح حديث جبريل في تعليم الدين عبد المحسن العباد ص/٢٣

ينظر إليه، ولا يهمه، بل لو كان أكياسا من الرمل ويبعث عليه علي أنها رز أو سكر أخذها؛ لأنه لا يهمه؛ الذي يهمه أن يقضي حاجة فيبيعها عليه – مثلا–." (١)

"تقول له إن ابنها قد احتضر، أي: حضره الموت. وأنها تطلب من النبي صلي الله عليه وسلم أن يحضر، فبلغ الرسول رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال له النبي صلي الله عليه وسلم ((مرها فلتصبر ولتحتسب، فإن لله ما أخذ وله ما أعطي، وكل شيء عنده بأجل مسمي)) .

أمر النبي عليه الصلاة والسلام الرجل الذي أرسلته ابنته أن يأمر ابنته– أم هذا الصبي– بهذه الكلمات:

قال: ((فلتصبر)) أي: تحتسب الأجر على الله بصبرها؛ **لأن من الناس من** يصبر ولا يحتسب، يصبر على المعصية ولا يتضجر، لكنه ما يؤمل أجرها على الله فيفوته بذلك خير كثير، لكن إذا صبر واحتسب الأجر على الله، يعني: أراد بصبره أن يثيبه الله ويأجره، فهذا هو الاحتساب ((مرها فلتصبر)) يعني على هذه المصيبة ((ولتحتسب)) أجرها على الله عز وجل. قوله: ((فإن لله ما أخذ وله ما أعطي)) هذه الجملة عظيمة؛ إذا كان الشيء كله لله، إن أخذ منك شيئا فهو ملكه، وإن اعطاك شيئا فهو ملكه، فكيف تسخط إذا أخذ منك ما يملكه هو؟

عليك إذا أخذ لله منك شيئا محبوبا لك؛ أن تقول: هذا لله، له أن يأخذ ما شاء الله، وله أن يعطي ما شاء.

ولهذا يسن للإنسان إذا أصيب بمصيبة أن يقول ((إنا لله وإنا إليه راجعون)) يعني: نحن ملك لله يفعل بنا ما يشاء، وكذلك ما نحبه إذا أخذه من بين أيدينا فهو له– عز وجل– له ما أخذ وله أعطي، حتى الذي يعطيك أنت لا تملكه، هو لله، ولهذا لا يمكن أن تتصرف فيما أعطاك الله إلا على الوجه الذي أذن لك فيه؛ وهذا دليل على أن ملكنا لما يعطينا الله ملك." (٢)

"تعالى: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات) (الأنبياء: ٩٠) ، وهذا يدل على أن الخيرات ليست خيرا واحدا، بل طرق كثيرة.

ثم ذكر المؤلف آيات تشير إلى الخير له طرق، قال تعالى: (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) (البقرة: ١٩٧) ، (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) (البقرة: ٢١٥) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) (الزلزلة: ٧) ، والآيات في هذا كثيرة، تدل على أن الخيرات ليست صنفا واحدا، أو فردا واحدا، أو جنسا واحدا.

ويدل لما قلنا **أن من الناس من** تجده يألف الصلاة، فتجده كثير الصلوات، ومنهم من يألف قراءة القرآن، فتجده كثيرا يقرأ القرآن، ومنهم من يألف الذكر، والتسبيح، والتحميد، وما أشبه ذلك، فتجده يفعل ذلك كثيرا، ومنهم الكريم الطليق اليد الذي يحب بذل المال فتجده دائما يتصدق، ودائما ينفق على أهله ويوسع عليهم في غير إسراف.

ومنهم من يرغب العلم وطلب العلم، الذي هو في وقتنا هذا قد يكون أفضل أعمال البدن؛ لأن الناس في الوقت الحاضر،

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ١/٩٩

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ١/٢٠٧

في عصرنا، هذا محتاجون إلى العلم الشرعي، لغلبة الجهل، وكثرة المتعالمين الذين يدعون أنهم علماء، وليس عندهم من العلم إلا بضاعة مزجاة، فنحن في حاجة إلى طلبة علم، يكون عندهم علم راسخ ثابت مبني على الكتاب والسنة، من أجل أن يردوا هذه الفوضى التي أصبحت منتشرة في القرى والبلدان والمدن؛ كل إنسان عنده حديث أو حديثان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتصدى للفتيا، ويتهاون بها، وكأنه شيخ الإسلام ابن تيمية، أو الإمام." (١)

"لأعلى المفسدتين بأدناهما.

ثم إنه يجب على الآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر أن ينوي بهذا إصلاح الخلق. لا الانتصار عليهم، لأن من الناس من يأمر بالمعروف أو ينهي عن المنكر لينفذ سلطته وينتصر لنفسه، وهذا نقص كبير. قد يحصل فيه خير من جهة درء المنكر وفعل المعرف، ولكنه نقص كبير فأنت إذا أمرت بالمعروف، أو نهيت عن المنكر، فانو بقلبك أنك تريد إصلاح الخلق، لا أنك تتسلط عليهم، وتنتصر عليهم، حتى تؤجر، ويجعل الله في أمرك ونهيك بركة. والله المستعان.

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم: (وفي بضع أحدكم صدقة) يعني أن الرجل إذا أتى امرأته، فإن ذلك صدقة، قالوا يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في الحرام، أكان عليه وزر؟) يعني لو زنى ووضع الشهوة في الحرام، هل يكون عليه وزر؟ قالوا: نعم. قال: (فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر) والحمد لله. ومعنى ذلك: أن الرجل إذا استغنى بالحلال عن الحرام، كان له بهذا الاستغناء أجر.

ومن ذلك أيضا: إذا أكل الإنسان طعاما، فإنه ينال شهوته بالأكل والشرب، ومع ذلك ـ لكونه يستغني به عن الحرام ـ فإنه يكتب له به أجر.

ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ لسعد بن أبي وقاص: (واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعله في فم." (٢)

"بخطاب واحد، ولا تدعوهم بكيفية واحدة، بل أجعل لكل إنسان ما يليق به.

فلابد أن يكون الإنسان على علم بحال من يدعوه؛ لأن المدعو له حالات: إما أن يكون جاهلا، أو معاندا مستكبرا، أو يكون قابلا للحق ولكنه قد خفي عليه مجتهدا متأولا، فلكل إنسان ما يليق به.

ثم ذكر المؤلف قوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وسبيل الله هي دينه وشريعته التي شرعها الله لعباده، وأضافها إلى نفسه لسببين:

السبب الأول: أنه هو الذي وضعها عز وجل للعباد، ودلهم عليها.

السبب الثاني: أنها موصلة إليه، فلا شيء يوصل إلى الله إلا سبيل الله التي شرعها لعباده على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢/١٤٩

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢/١٦٥

وقوله: (بالحكمة والموعظة) الحكمة قال العلماء: إنها من الأحكام وهو الإتقان، إتقان الشيء أن يضعه الإنسان في موضعه فهي وضع الأشياء في مواضعها، وأما الموعظة فهي التذكير المقرون بالترغيب أو الترهيب، فإذا كان الإنسان معه شيء من الأعراض فإنه يوعظ وينصح، فإن لم يفد فيه ذلك فيقول تعالى: (وجادلهم بالتي هي أحسن) فإذا كان الإنسان عنده شيء من المجادلة فيجادل، والمجادلة بالتي هي أحسن أي من حيث المشافهة، فلا تشدد عليه ولا تخفف عنه، انظر ما هو أحسن، بالتي هي أحسن أيضا من حيث الأسلوب، والإقناع، وذكر الأدلة التي يمكن أن يقتنع بها؛ **لأن من الناس من** يقتنع بالأدلة الشرعية أكثر مما يقتنع." (١)

"وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) (البقرة: ٢١٧) ، أما إذا عمل خيرا ثم أسلم فإنه يسلم على ما أسلف من خير ويعطى أجره.

الوصف الثاني: الأمين يعني الذي أدى ما ائتمن عليه، فحفظ المال، ولم يفسده، ولم يفرط فيه، ولم يعتد فيه.

الوصف الثالث: الذي ينفذ ما أمر به يعني يفعله؛ **لأن من الناس من** يكون أمينا لكنه متكاسل، فهذا أمين ومنفذ يفعل ما أمر به، فيجمع بين القوة والأمانة.

الوصف الرابع: أن تكون طيبة به نفسه، إذا نفذ وأعطى ما أمر به أعطاه وهو طيبة به نفسه، يعني لا يمن على المعطى، أو يظهر أن له فضلا عليه بل يعطيه طيبة به نفسه، فهذا يكون أحد المتصدقين مع أنه لم يدفع من ماله فلسا واحدا.

مثال ذلك: رجل عنده مال، وكان – أمين صندوق للمال– مسلما أمينا، ينفذ ما أمره به، ويعطيه صاحبه طيبة به نفسه، فإذا قال له صاحب الصندوق: يا فلان أعط هذا الفقير عشرة آلاف ريال، فأعطاه على الوصف الذي قال النبي صلي الله عليه وسلم فإنه يكون كالذي تصدق بعشرى آلاف ريال من غير أن ينقص من أجر المتصدق شيئا، ولكنه فضل من الله عز وجل.

ففي هذا الحديث دليل على فضل الأمانة، وعلى فضل التنفيذ فيما وكل فيه وعدم التفريط فيه، ودليل على أن التعاون على البر والتقوى يكتب لمن أعان مثل ما يكتب لمن فعل، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، والله الموفق.." (٢)

"حوله وإنما يبعد، كما لو أراد الإنسان أن يصلى في المسجد وحوله حلقة ذكر أو حلقة قرآن، ويخشى أن يشوشوا عليه إذا دنا منهم، فليبعد، وأما إذ لم يشوشوا فلا بأس أن يسمع بخلاف الاستماع فإن المصلي لا يستمع إلا إلى قراءة إمامه.

وعلى هذا إذا كنت تصلي وجاء القارئ يقرأ حديثا أو موعظة، فلا تشد سمعك إليه، لا تستمع؛ لأن هذا غير مشروع، ولا تجعل تركيزك معه، أما إذا سمعته ولكنك ماض في صلاتك لم تهتم به ولم تلتفت إليه فلا بأس.

خامسا: ومن فوائد هذا الحديث أنه يجوز للمصلي أن يغير نيته من تطويل إلى تخفيف أو بالعكس، إذا وجد سبب

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢/٣٥٠

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢/٣٨١

لذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدخل في الصلاة يريد أن يطيلها فيخفف.
فإذا دخل الإنسان في صلاته وهو يريد أن يطيل، ثم جاءه شخص وقال له: عند الباب ضيوف أو ما أشبه ذلك؛ فلا بأس أن يخفف ليذهب إلى ضيوفه كما كان الرسول عليه الصلاة والسلام يفعل هذا.
سادسا: ومن فوائد هذا الحديث:

أنه لا حرج على الإنسان إذا شق عليه بكاء ابنه أو ما يؤذي ابنه من ألم أو شبهه؛ لأن هذا من الأمور الفطرية الطبيعية، فإن كل إنسان يشق عليه أن يسمع بكاء أبنه؛ بل **إن من الناس من** يشق عليه أن يسمع بكاء الصبي مطلقا حتى ولو لم يكن أبناء له رحمة بالصبيان، ولا شك أن الرحمة بالصبيان ومراعاتهم واتقاء ما يؤذيهم من أسباب الرحمة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم من." (١)

"المطاع مع جنوده، فالملك المطاع مع جنوده إذا أمرهم بشيء أطاعوه، ولكن بعض العلماء قال: إن هذا المثال أنقص من قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا صلحت صلح الجسد كله" وذلك لأن الملك مع جنوده وإن كان مطاعا فإنهم لا يصلحون بصلاحه، لكن القلب إذا صلح صلح الجسد، وإذا اتقي اتقى الجسد.
واعلم **أن من الناس من** يجادل بالباطل بهذا الحديث، فإذا أمرته بمعروف، أو نهيته عن منكر، قال، التقوى هاهنا تقول له: لا تحلق لحيتك فحلق اللحية حرام، وحلق اللحية من طريقة المجوس والمشركين، وإعفاء اللحية من هدي النبيين والمرسلين وأولياء الله الصالحين. إذا قلت له هذا قال: التقوى هاهنا. التقوى ها هنا. نقول له: كذبت وإنه ليس في قلبك تقوى، لو كان في قلبك تقوى لاتقيت الله؛ لأن القلب إذا اتقى اتقت الجوارح، وإذا انهمك في معصية الله انهمكت الجوارح.
وفي قوله: "التقوى ها هنا " وإشارته على صدره دليل على أن العقل في القلب الذي في الصدر، وهذا هو المطابق للقرآن تماما، قال الله تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (الحج: ٤٦) ، فقال: (قلوب يعقلون بها) ، ثم قال (ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) .
وليس القلب هو الخ كما يظنه بعض الجهال، فالعقل في القلب. ولكن المخ لا شك أن له اثرا في أعمال العبد، في حركاته، وفي سكناته، لكنهم قالوا: إن المخ مثل الخادم، يهيئ الأشياء ويطبخها، ثم يبعث بها." (٢)

"السلعة؛ لأنه يرى أنها رخيصة، فإذا زادت قيمتها تركها، فهذا ليس عليه بأس. كما **أن من الناس من** يزيد في السلعة يريدها ويزيد في ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيرا.
فالناس على زيادتهم في السلعة على ثلاث أقسام:

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢/٥٦٣

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢/٥٧٣

القسم الأول: نجش وهو حرام.

الثاني: يزيد فيها لأنه يرى أنها رخيصة، وأنها ستكسبه، وليس له قصد في عين السلعة ولا يريدها بعينها، لكن لما رأي أنها رخيصة وأنها ستكسبه جعل يزيد، فلما ارتفعت قيمتها تركها، فهذا لا بأس به.

الثالث: أن يكون له غرض في السلعة، يريد أن يشتري هذه السلعة، فيزيد حتى يطيب خاطره ويظفر بها، فهذا أيضا لا بأس به.

وقوله صلى الله عليه وسلم: " ولا تباغضوا" أي لا يبغض بعضكم بعضا، وهذا بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض، فلا يجوز للإنسان أن يبغض أخاه أي: يكرهه في قلبه؛ أنه أخوه، ولكن لو كان هذا الأخ من العصاة الفسقة، فإنه يجوز لك أن تبغضه من أجل فسقه، ولا تبغضه بغضا مطلقا، لكن أبغضه على ما فيه من المعصية، وأحبه على ما فيه من الإيمان. ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلا مسلما يشرب الخمر، ويشرب الدخان، ويجر ثوبه خيلاء، فإننا لا نبغضه كما نبغض الكافر، فمن أبغضه كما يبغض الكافر انقلب على وجهه، كيف تسوي بين مؤمن عاص فاسق، وبين الكافر؟ هذا خطأ عظيم. ربما بعض الناس يكره المؤمن الذي عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر، وهذا – والعياذ بالله – من انقلاب." (١)

"EXهذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله، كلها أحاديث تفيد الخوف من يوم القيامة ومن عذاب النار، فذكر أحاديث منها:

أنه يؤتى يوم القيامة بجهنم، لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، وهذا يدل على هول هذه النار . نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين منها، ومن هول ذلك اليوم .؛ لأن الله تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم والعياذ بالله. فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيم والخطر جسيم.

وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن أهون أهل النار عذابا، من يوضع في قدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه. وهو يرى أنه أشد الناس عذابا، وأنه لأهونهم؛ لأنه لو رأى غيره؛ لهان عليه الأمر، وتسلى به، ولكنه يرى أنه أشد الناس عذابا والعياذ بالله، فحينئذ يتضجر ويزداد بلاء ومرضا نفسيا والعياذ بالله، ولذلك ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث تحذيرا لأمته من عذاب النار.

وذكر أيضا **أن من الناس من** تبلغ النار إلى كعبيه وإلى ركبتيه وإلى حجزته.

وذكر أيضا أن الناس في يوم القيامة يبلغ العرق منهم إلى الكعبين، وإلى الركبتين، والحقوين، ومن الناس من يلجمه العرق. فالأمر خطير، فيجب علينا جمعيا أن نحذر من أهوال هذا اليوم، وأن نخاف الله سبحانه وتعالى، فنقوم بما أوجب علينا، وندع ما حرم علينا.." (٢)

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٥٨٠/٢

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٢٩٧/٣

"الرجاء ما فيها، فمن ذلك أن الصلوات الخمس تكفر السيئات التي قبلها، كما في قصة الرجل الذي أصاب من امرأة قبلة، والذي أصاب حدا وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيمه عليه، فإن الصلاة هي أفضل أعمال البدن وهي تذهب السيئات، قال الله تعالى: (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات) [هود: ١١٤].

ولكن لابد أن تكون الصلاة على الوجه الذي يرضاه الله عز وجل، كما في حديث عمرو بن عبسة حينما أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ وأرشده إلى أن لها لأوقات محدودة، وهناك أوقات ينهى الإنسان أن يصلي فيها.

ثم أرشد النبي صلى اله عليه وسلم عمرو بن عبسة إلى صفة الوضوء الصحيحة؛ لأن الإنسان إذا توضأ على هذه الصفة خرجت خطاياه، وإذا صلى وقد فرغ قلبه لله كفر الله عنه.

فلابد من ملاحظة هذا القيد؛ **لأن من الناس من** يصلي ولكنه ينصرف من صلاته ما كتب له إلا عشرها أو أقل؛ لأن قلبه غافل وكأنه ليس في صلاة؛ بل كأنه يبيع ويشتري أو يعمل أعمالا أخرى حتى تنتهي الصلاة.

ومن وساوس الشيطان أن الإنسان يصلي فإذا كبر للصلاة؛ انفتحت عليه الهواجس من كل مكان، فإذا سلم زالت عنه، مما يدل على أن هذا من الشيطان، يريد أن يخرب عليه صلاته حتى يحرم من هذا الأجر العظيم.

وفي حديث عمرو بن عبسة فوائد كثيرة منها: أن النبي صلى الله عليه وسلم بدأ غريبا خائفا متخفيا عليه الصلاة والسلام، جاءه عمرو بن عبسة وقد رأى ما عليه." (١)

"أنكم كنتم تعلمون) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون) (المؤمنون: ٩٩-١١٥)

EXقال المؤلف رحمه الله محيي الدين النووي في كتابه رياض الصالحين في باب ذكر الموت وقصر الأمل قوله تعالى: (وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) (المنافقون: ١٠-١١) .

أمر الله بالإنفاق مما رزقنا، أي مما أعطانا، وحذرنا مما لابد منه: (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) وحينئذ يندم الإنسان على عدم الإنفاق ويقول: (رب لولا أخرتني إلى أجل قريب) يتمنى أن الله يؤخره إلى أجل قريب (فأصدق وأكن من الصالحين) يعني: فبسبب تأخيرك إياي أتصدق وأكن من الصالحين.

قال الله عز وجل: (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون) (المنافقون: ١١) إذا جاء الأجل لا يمكن أن يتأخر الإنسان ولا لحظة واحدة، بل لابد أن يموت في المدة التي عينها الله عز وجل على حسب ما تقتضيه حكمته. فمن الناس من يطول بقاؤه في الدنيا، ومن الناس من يقصر، كما **أن من الناس من** يكثر رزقه، ومنهم من يقل، ومنهم من يكثر علمه، ومنهم من يقل، ومنهم من يقوى فهمه، ومنهم من يضعف، ومنهم من." (٢)

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٣/٣٣١

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٣/٤٤٥

"كف الأذى بألا يؤذي الناس لا بلسانه ولا بجوارحه، وبذل الندى يعني العطاء، يبذل العطاء من مال وعلم وجاه وغير ذلك، وطلاقة الوجه بأن يلاقي الناس بوجه منطلق، ليس بعبوس، ولا مصعر خده، وهذا هو حسن الخلق.
ولا شك أن الذي يفعل هذا؛ فكيف الأذى ويبذل الندى ويجعل وجه منطلقا؛ لا شكل أنه سيصبر على أذى الناس أيضا، فإن الصبر على أذى الناس لا شك أنه من حسن الخلق، **فإن من الناس من** يؤذي أخاه، وربما يعتدي عليه بما يضره؛ بأكل ماله، أو جحد حق له، أو ما أشبه ذلك، فيصبر ويحتسب الأجر من الله سبحانه وتعالى، والعاقبة للمتقين، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس.

ثم صدر المؤلف رحمه الله تعالى هذا الباب بقوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم (وإنك لعلى خلق عظيم) (القلم: ٤) ، وهذا معطوف على جواب القسم (ن والقلم وما يسطرون) (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) (وإن لك لأجرا غير ممنون) (القلم: ١-٤) . إنك: يعني يا محمد، لعلى خلق عظيم لم يتخلق أحد بمثله، في كل شيء؛ خلق مع الله، خلق مع عباد الله، في الشجاعة والكرم وحسن المعاملة وفي كل شيء، وكان عليه الصلاة والسلام خلقه القرآن يتأدب بآدابه؛ يمتثل أوامره ويجتنب نواهيه.
ثم ساق المؤلف جزءا من آية آل عمران في قوله: (والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) (آل عمران١٣٤) ، وهذه من صفات المتقين الذين أعد الله لهم الجنة، كما قال تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من." (١)
"دعا أبا طلحة رضي الله عنه الأنصاري وأعطاه شعر الشق الأيمن كله ثم حلق بقية الرأس ودعا أبا طلحة وأعطاه إياه وقال: اقسمه بين الناس فقسمه فمن الناس من ناله شعرة واحدة ومنهم من ناله شعرتان ومنهم من ناله أكثر حسب ما تيسر وذلك لأجل التبرك بهذا الشعر الكريم شعر النبي صلى الله عليه وسلم وكون أبا طلحة خصه الرسول بالجنب الأيمن كله يدل على **أن من الناس من** يختص بخصيصة يخص الله بها وإن كان في الصحابة من هو أفضل منه فأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وكثير من الصحابة أفضل من أبي طلحة لكن فضل الله عز وجل يؤتيه من يشاء وكان الصحابة يتبركون بشعر النبي صلى الله عليه وسلم وبثيابه وبعرقه لكن غيره لا يتبرك بشعره ولا بثيابه ولا بعرقه وكان عند أم سلمة رضي الله عنها إحدى زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم شعرات من شعر الرسول صلى الله عليه وسلم وضعتها في جلجل يعني طابوق من الفضة وجعلته من الفضة تكريما لشعر الرسول صلى الله عليه وسلم فكان الناس إذا مرض عندهم مريض جاءوا إليها فصبت على الشعر ماء وحركته به ثم أعطته المريض فيشفى بإذن الله ببركة شعر النبي صلى الله عليه وسلم ولكن هذا ليس لغير النبي صلى الله عليه وسلم فإن الصحابة لم يتبركوا بشعر أبي بكر وهو أفضل الأمة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بشعر عمر." (٢)

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٥٥٧/٣
(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ١٨٥/٤

"الصحابة رضي الله عنهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم واسترشادهم بإرشاده وأنهم كانوا يتسابقون إلي تنفيذ ما يقول وهذا علامة الإيمان أما المتباطئ في تنفيذ أمر الله ورسوله، فإن فيه شبها من المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، تجده مثلا يخبر عن حكم الله ورسوله في شيء، ثم يتباطأ ويتثاقل وكأنما وضع رأسه صخرة والعياذ بالله ثم يذهب إلى كل عالم لعله يجد رخصة مع أن العلماء قالوا إن تتبع الرخص من الفسق والعياذ بالله والمتتبع للرخص فاسق حتى إن بعضهم قال: إن من تتبع الرخص فقد تزندق أي صار زنديقا فعلى الإنسان إذا بلغه أمر الله ورسوله من شخص يثق به في علمه وفي دينه ألا يتردد، وأقول في علمه ودينه **لأن من الناس من** هو دين ملتزم متق لكن ليس عنده علم، تجده يحفظ حديثا من أحاديث الرسول ثم يقوم يتكلم في الناس وكأنه إمام من الأئمة، وهذا يجب الحذر منه ومن فتاواه، لأنه قد يخطئ كثيرا لقلة علمه ومن الناس من يكون عنده علم واسع لكن له هوى والعياذ بالله، يفتي الناس بما يرضى الناس لا بما يرضي الله، وهذا يسمى عالم الأمة.

فالعلماء ثلاثة أقسام: عالم دولة، وعالم أمة.." (١)

"إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة يقاتل من امتنع عن واحدة من هذه الأربع: من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ومن إقامة الصلاة ومن إيتاء الزكاة يقاتلهم حتى يذعنوا ويرضخوا لهذه الأربع فإذا فعلوا ذلك يعني شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل يعني: إذا فعلوا ذلك فقد استسلموا ظاهرا فيعصمون دماءهم وأموالهم وحسابهم على الله، **لأن من الناس من** يقول أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة وقلبه منطوي على الكفر ولهذا قال: حسابهم على الله فالمنافقون يقولون: لا إله إلا الله لكن لا يذكرون الله إلا قليلا ويقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم نشهد إنك لرسول الله ويقيمون الصلاة ولكن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ويتصدقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون ومع ذلك قلوبهم منطوية على الكفر نسأل الله العافية ولهذا قال: وحسابهم على الله عز وجل.

ثم ذكر رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه في تحاور أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر بن الخطاب الخليفة الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم في مسألة دينية مع أن كل واحد منهما يحب الآخر حبا عظيما لكن هذه المحبة لا تمنع من المحاورة والمراجعة الدينية لأن الدين فوق كل شيء لما كان أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم باختيار الصحابة له أن يكون الخليفة بعد الرسول." (٢)

"انظر الأول عبد خميصة وخميلة أما الثاني ما يبالي بنفسه أهم شيء عنده هو عبادة الله ورضا الله أشعث رأسه مغبرة قدماه إن كان في الساقة كان في الساقة يعني معناه أنه لا يبالي أية منزلة ينزلها إذا كانت فيها مصلحة الجهاد فإنه يكون فيها هذا هو الذي ربح الدنيا والآخرة فالحاصل **أن من الناس من** يشرك بالله وهو لا يعلم وأنت يا أخي إذا رأيت

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٤/٣٠٧

(٢) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٥/٢٤٧

الدنيا قد ملأت قلبك وأنه ليس لك هم إلا هي تنام عليها وتستيقظ عليها فاعلم أن في قلبك شركا لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: تعس عبد الدينار ويدل لهذا أنه يحرص على الحصول على المال سواء بالحلال أو بالحرام والذي يعبد الله حقا لا يمكن أن يأخذ المال بالحرام إطلاقا لأن الحرام فيه سخط الله والحلال فيه رضا الله عز وجل والإنسان الذي يعبد الله حقا يقول لا يمكن أن أخذ المال إلا بطريقة ولا أصرفه إلا بطريقة فالحاصل أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا وما هن قال: الشرك بالله وإن شاء الله يأتي بقية الكلام على بقية الحديث والله الموفق." (١)

"((مع الماء)) يعني مع انفصال الماء ((أو مع أخر قطر الماء)) وهذا أيضا شك من الراوي "أو نحو ذلك" ألا يحتمل أن يكون تقسيم **وأن من الناس من** تخرج خطاياه مع الماء يعني مع أوله أو في أثنائه، ومن الناس من لا تخرج خطاياه إلا مع أخر قطر الماء لعظمها بالنسبة للآخر يحتمل التقسيم وإن نص أهل العلم على أنها للشك.

((وإذا غسل يديه خرجت من يديه كل خطيئة)) وهذا كسابقه يحتمل الصغائر والكبائر، والجمهور على أنها الصغائر فقط ((بطشتها يداه)) يعني زاولت هذه الخطيئة يداه، سواء كان بالضرب أو بالأخذ ((مع الماء أو مع آخر قطر الماء)) الخروج هذا للخطايا والذنوب المراد به غفران هذه الذنوب، والتعبير عن الغفران بالخروج الذي هو في الأصل للمحسوسات ليبين أن هذه الذنوب وهذه المعاصي نظرا لتأثيرها في فاعلها مثل تأثير الأمور الحسية عبر عنها بما يعبر به عن الأمور الحسية، وإن كان بعضهم يرى أنه لا مانع من أن يكون الخروج حسيا، فتأثير الذنوب حسي، فالذنب يؤثر في القلب نكتة سوداء، نكتة سوداء لا بد من خروج هذه النكتة، وخروجها ما دام وجودها حسيا فخروجها حسي، حتى يخرج نقيا من الذنوب، يعني إذا انتهى من وضوئه انتهى من ذنوبه، والمراد بالوضوء الذي يؤتى به على وجه الشرعي.." (٢)

"يعني هذا رأفة بالكسالى؛ لأن بعض الناس إذا انتهى من الدوام نام، ينام ثم يجد مسجد فيه جماعة تقام بعد أن يأخذ قسط من الراحة يكفيه، ولا شك أن التعاون مع مثل هؤلاء يعينهم على الكسل من جهة، لا شك أن فيه إحسان إليهم من جهة، وفيه أيضا إعانة على الكسل، فالذي لا يرى رأي الحنفية ولا يقتدي بالإمام أبي حنيفة بتأخير هاتين الصلاتين ليس له أن يؤخر لحجة أن يدرك الناس الصلاة، نعم الرفق بالمأمومين مطلوب، فإذا كانت هذه رغبتهم لكن لا يصل إلى هذا الحد، لا يصل إلى هذا، ((أيكم أم الناس فليخفف)) فمن التخفيف على الناس مراعاة الأوقات، وسيأتي في حديث الإسفار أن من أهل العلم من قال: إن الإسفار إنما يكون إذا قصر الليل؛ ليعان الناس على إدراك صلاة الجماعة، هذا قال ... ، وله ما يدل عليه من حديث معاذ حينما بعثه النبي -عليه الصلاة والسلام-، وسيأتي الكلام فيه، لكن يبقى أنه وإن كان فيه مراعاة لأناس إلا أن فيه ضرر بالنسبة لآخرين، في المنطقة الشرقية والصلاة صلاة الصبح تتقدم فيها عن نجد فضلا عن الحجاز، تتقدم والليل قصير، والناس مبتلون بالسهر، بعض المساجد يؤخر الإقامة خمسين

---

(١) شرح رياض الصالحين ابن عثيمين ٣١٤/٦

(٢) شرح سنن الترمذي - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٢٢/٢

دقيقة، فدخل وقت ليصلي وهو ما نام الليل كله كل الليل سهران، وجاء رجاء أن تصلى الصلاة على الوقت المعتاد، صبر صبر التفت يمين شمال ما في فائدة، تكلم بكلام شديد وخرج ترك الصلاة، فلا شك أن من الناس من يتضرر، لكن الإجزاء والصحة صحيحة والصلاة في وقتها ما لم تصفر الشمس، ليس فيه وعيد، لكن مع ذلك المطلوب أن تصلى الصلوات في أوائل الأوقات ما عدا الظهر إذا اشتد الحر، والعشاء إذا لم يشق.." (١)

"٥٧ - باب: إعفاء اللحى

) عفوا (: كثروا وكثرت أموالهم. / ٨٦ - فيه: ابن عمر، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (خالفوا المشركين، وفروا اللحى، وأحفوا الشوارب) . وكان ابن عمر إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته، فما فضل أخذه. / ٨٧ - فيه: ابن عمر، قال: قال النبى، عليه السلام: (انهكوا الشوارب، وأعفوا اللحى) . وقال الطبرى: إن قال قائل: ماوجه قوله عليه السلام: (أعفوا اللحى) وقد علمت أن الإعفاء الإكثار، وأن من الناس من إن ترك شعر لحيته اتباعا منه لظاهر هذا الخبر تفاحش طولا وعرضا، وسمج حتى صار للناس حديثا ومثلا؟ قيل: قد ثبت الحجة عن النبى عليه السلام على خصوص هذا الخبر وأن من اللحية ماهو محظور إحفاؤه وواجب قصة على اختلاف من السلف فى قدر ذلك وحده، فقال بعضهم: حد ذلك أن يزداد على قدر القبضة طولا، وأن ينتشر عرضا فيقبح ذلك، فإذا زادت على قدر القبضة كان الأولى، جز مازاد على ذلك، من غير تحريم منهم ترك الزيادة على ذلك. وروى عن عمر أنه راى رجال قد ترك لحيته حتى كثرت فأخذ بحديها ثم قال: ائتونى بجلمين ثم امر رجلا فجز ما تحت يده ثم قال: اذهب فأصلح شعرك أو أفسده، يترك أحدكم نفسه حتى كأنه سبع من السباع.." (٢)

"هذا باب جليل فى الرد على القدرية، وذلك أن معنى لا حول ولا قوة إلا بالله: لا حول للعبد، ولا قوة له إلا بالله أى: بخلق الله له الحول والقوة، التى هى القدرة على فعله للطاعة والمعصية. قال المهلب: فأخبر (صلى الله عليه وسلم) أن البارئ خالق لحول العبد وقدرته على مقدوره، وإذا كان خالقا للقدرة، فلا شك أنه خالق للشيء المقدور، فيكون المقدور كسبا للعبد خلقا لله تعالى بدليل قوله تعالى: (خالق كل شيء) [الأنعام: ١٠٢] ، وقوله تعالى: (إنا كل شيء خلقناه بقدر) [القمر: ٤٩] ، وقال محمد بن كعب القرظى: نزلت هذه الآية يعنى الأخيرة تعبيرا لأهل القدر. والدليل على أن أفعالهم خلق لله أن أيديهم التى هى عندهم خالقة لأعمال الشر من التعدى والظلم وفروجهم التى هى خالقة للزنا قد توجد عاطلة عن الأعمال، عاجزة عنها، ألا ترى أن من الناس من يريد الزنا وهو يشتهيه بعضو لا آفة فيه، فلا يقدر عليه عند إرادته للزنا، ولو كان العبد خالقا لأعماله لما عجزت أعضاؤه عند إرادته ومستحكم شهوته؛ فثبت أن القدرة ليست لها، وأنها لمقدر يقدرها إذ شاء، ويعطلها إذا شاء، لا إله إلا هو. وإنما أمرهم (صلى الله عليه وسلم) بالربع على أنفسهم على جهة الرفق بهم، وقد بينا هذا المعنى فى باب: ما يكره من رفع الصوت بالتكبير فى كتاب الجهاد،

---

(١) شرح سنن الترمذي - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٢٤/٢٨

(٢) شرح صحيح البخارى لابن بطال ابن بطال ١٤٦/٩

وعرفهم أن ما يعلنون به من التكبير ويجتهدون فيه من الجهاد هو من فضل الله عليهم إذ لا حول لهم ولا قوة في شيء." (١)

"((ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح الشام فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم)): في الرواية الأولى قال: ((يفتح الشام ثم يفتح اليمن)): وهنا قال: ((يفتح اليمن ثم يفتح الشام)): العطف بـ (ثم) يقتضي الترتيب في الموضعين، فما الأول من القطرين الشام أو اليمن؟ أيهما الذي فتح أولا؟

طالب:. . . . .

نعم في حياته، وهل تم فتحها بكاملها؟ أو نقول: إنه فتح بعضها، بحيث يصح تقديمه على الشام وأخر بعضها -تأخر بعضها- بحيث يصح تأخيره على الشام، ويكون العطف ماشي بـ (ثم).

((ثم يفتح الشام فيأتي قوم يبسون أو يبسون فيتحملون بأهليهم ومن ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، ثم يفتح العراق فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)): وهذا معجزة من معجزات النبي -عليه الصلاة والسلام- وعلم من أعلام نبوته؛ حيث أخبر عن أمور مستقبلة، وقد حصلت كما أخبر، ووجد من يبس، ووجد .. ، وقد يوجد من سمع مثل هذا الخبر ويفعل، قد يسمع مثل هذا الخبر، يسمع هذا الخبر ومع ذلك يفعل -يطبق- يبسون ويخرجون والمدينة خير لهم!

ولا شك **أن من الناس من** يسمع مثل هذه الأخبار ولا تحرك به ساكن، وإلا لا شك أن هذه الأخبار التي تقدمت وما سيأتي دليل على فضل المدينة وعلى سكناها والله المستعان.

حدثني زهير بن حرب قال: حدثنا أبو صفوان عن يونس بن يزيد ح وحدثني حرملة بن يحيى واللفظ له قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني يونس عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب أنه سمع أبا هريرة -رضي الله عنه- يقول: "قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- للمدينة: ((ليتركنها أهلها على خير ما كانت مذللة للعوافي)) يعني السباع والطير. قال مسلم: أبو صفوان هذا هو عبد الله بن عبد الملك، يتيم ابن جريج عشر سنين كان في حجره.." (٢)

"وحديث جعفر عن أبيه عن جابر أخرجه مسلم (١) عن قتيبة عن عبد العزيز بن محمد.

وحديث حميد عن أنس معاد قد سبق (٢) في الكتاب من رواية الشافعي عن مالك عن حميد.

وفي حديث ابن عباس وما بعده ما يبين أنه لا بأس للمسافر بأن يصوم أياما ثم يفطر.

وقوله: "وكانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -" من كلام الزهري، كذلك بينه معمر ويونس بن يزيد، وكأنه مال إلى أن الإفطار أفضل؛ لأن فطره كان بعد الصوم والأخذ بآخر الأمرين أولى، وقد قدمنا **أن من الناس من** قال: يتعين الإفطار في السفر، وإن من المجوزين للصوم اختلفوا في أن الصوم أفضل أو الإفطار في السفر، وعلى أن من أصبح صائما في السفر جاز له أن يفطر، وعلى أن من أنشأ السفر في رمضان يجوز له أن يفطر

---

(١) شرح صحيح البخارى لابن بطال ابن بطال ٣٠٩/١٠

(٢) شرح كتاب الحج من صحيح مسلم - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ٢٥/٢٨

كمن دخل شهر رمضان وهو مسافر، وخالف فيه بعض أهل العلم.

وفيها ما يبين أن قوله: "ليس من البر الصيام في السفر" أراد به من يجهده الصوم ويشق عليه، وأن ترغيبهم في الإفطار عام الفتح كان ليتقووا على العدو، ولما لم تطب نفسهم بالإفطار وهو صائم وافقهم فيه، ولما أخبر بأن قوما صاموا بعد ذلك سماهم عصاة؛ لمخالفتهم ما رغب فيه ووافقهم عليه، ورغبتهم عن الأخذ بالرخصة.

والكديد: يقال أنه على اثنين وأربعين ميلا من مكة، والعرج: أول تهامة وهي قرية [جامعة] (٣) من عمل فرع (٤) على نحو من ثمانية

---

(١) "صحيح مسلم " (١١١٤/ ٩١).

(٢) سبق برقم (٤٨٣).

(٣) في الأصل: جامة. تحريف.

(٤) كذا، والجادة: الفرع.." [1]

"ذوي القربى؟

وجواب ابن عباس يتضح من بعد في حديث عن علي رضي الله عنه مروي في الكتاب [.. (١) ..] لتعريف مقصوده **أن من الناس من** ذهب إلى سقوط سهم ذوي القربى وفيهم أبو حنيفة، وقالوا: يقسم خمس الغنيمة اليوم على ثلاثة أسهم: لليتامى والمساكين وابن السبيل، وكأنه أنكر عليهم، وروى أبو داود في "السنن" (٢) عن عثمان بن أبي شيبة عن ابن نمير عن [هاشم] (٣) بن البريد عن حسين بن ميمون عن عبد الله بن عبد الله عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: سمعت عليا يقول: اجتمعت أنا والعباس وفاطمة وزيد بن حارثة عند النبي - صلى الله عليه وسلم - فقلت: يا رسول الله أرأيت أن (تولينا) (٤) حقنا من هذا الخمس في كتاب الله فأقسمه في حياتك كيلا ينازعني أحد بعدك فافعل.

قال: ففعل ذلك، فقسمته حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم ولانيه أبو بكر رضي الله عنه حتى كان آخر سنة من سنة عمر رضي الله عنه فإنه أتاه مال كثير فعزل حقنا ثم أرسل إلي فقلت: بنا عنه العام غنى وبالمسلمين إليه حاجة فاردده عليهم، فرده عليهم ثم لم يدعني إليه أحد بعد عمر، فلقيت العباس بعدما خرجت من عند عمر، فقال: يا علي حرمت الغداة شيئا لا يرد علينا أبدا وكان رجلا داهيا.

الأصل

[١٤٨٢] أبنا الربيع، أبنا الشافعي، أبنا أنس بن عياض، عن

---

(١) كلمة غير مقروءة في "الأصل".

---

(١) شرح مسند الشافعي الرافعي، عبد الكريم ٢١/٣

(٢) "سنن أبي داود" (٢٩٨٤).

(٣) في "الأصل": هشام. خطأ، والمثبت من "السنن".

(٤) في "السنن": توليني.." [1]

"حمى أخذتها قال: "فلعله من أجل حديث تحدث به" قالت: فقعدت فقالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم مثل يعقوب وبنيه ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨] قالت: وأنزل الله عليه ما أنزل فأخبرها فقالت: بحمد الله لا بحمد أحد١. [٣: ٨]

---

١ رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيته أم رومان، فقد روى لها البخاري.

ابن فضيل: هو محمد بن فضيل بن غزوان، وحصين: هو ابن عبد الرحمن السلمي أبو الهذيل الكوفي، وشقيق: هو أبو وائل شقيق بن سلمة، ومسروق: هو ابن الأجدع.

قلت: وقد استشكل قول مسروق: سألت أم رومان ... فإن أم رومان ماتت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسروق ليست له صحبة، لأنه إنما قدم المدينة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر أو عمر؟ قال الخطيب فيما نقله عنه المزي في "الأطراف" ١٣/٧٩: هذا حديث غريب من رواية أبي وائل، عن مسروق، عن أم رومان، لانعلم رواه عنه غير حصين بن عبد الرحمن، وفيه إرسال، لأن مسروقا لم يدرك أم رومان، وكانت وفاتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مسروق يرسل رواية هذا الحديث عنها، ويقول: "سئلت أم رومان"، فوهم حصين فيه، إذ جعل السائل لها مسروقا، اللهم إلا أن يكون بعض النقلة كتب: "سألت" بالألف، **فإن من الناس من** يجعل الهمزة في الخط ألفا وإن كانت مكسورة أو مرفوعة، فيبرأ حينئذ حصين من الوهم فيه، على أن بعض الرواة قد رواه عن حصين على الصواب. قال: وأخرج البخاري هذا الحديث في "صحيحه" لما رأى فيه "عن مسروق" قال: "سألت أم رومان"، ولم تظهر له علته.

وقد تعقب كلام الخطيب هذا غير واحد من الأئمة، فقالوا: بل الذي. . . . .=." [2]

"١٦٢١ - نا بندار، ثنا بدل بن المحبر، ثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة، أن أبا بكر ﷺصلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه قال أبو بكر: فلم يصح الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه في الصلاة التي كان هو فيها قاعدا، وأبو -[٥٦]- بكر والقوم قيام؛ لأن في خبر مسروق، وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة أن أبا بكر كان الإمام، والنبي صلى الله عليه وسلم مأموم، وهذا ضد خبر هشام، عن أبيه، عن عائشة، وخبر إبراهيم عن الأسود عن عائشة، على أن شعبة بن الحجاج

---

(١) شرح مسند الشافعي الرافعي، عبد الكريم ٤/١١٠

(٢) صحيح ابن حبان - محققا ابن حبان ١٦/٢٣

قد بين في روايته عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة **أن من الناس من** يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم المقدم بين يدي أبي بكر، وإذا كان الحديث الذي به احتج من زعم أن فعله الذي كان في سقطته من الفرس، وأمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بالأئمة وقعودهم في الصلاة إذا صلى إمامهم قاعدا، منسوخ غير صحيح من جهة النقل، فغير جائز لعالم أن يدعي نسخ ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم بالأخبار المتواترة بالأسانيد الصحاح من فعله وأمره بخبر مختلف فيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زجر عن هذا الفعل الذي ادعته هذه الفرقة في خبر عائشة الذي ذكرنا أنه مختلف فيه عنها، وأعلم أنه فعل فارس والروم بعظمائها، يقومون وملوكهم قعود، وقد ذكرنا هذا الخبر في موضعه، فكيف يجوز أن يؤمر بما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الزجر عنه استنانا بفارس والروم من غير أن يصح عنه صلى الله عليه وسلم الأمر به وإباحته بعد الزجر عنه؟ ولا خلاف بين أهل المعرفة بالأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى قاعدا وأمر القوم بالقعود، وهم قادرون على القيام، لو ساعدهم القضاء، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المأمومين بالاقتداء بالإمام والقعود إذا صلى الإمام قاعدا، وزجر عن القيام في الصلاة إذا صلى الإمام قاعدا، واختلفوا في نسخ ذلك، ولم يثبت خبر من جهة النقل بنسخ ما قد صح عنه صلى الله عليه وسلم مما -[٥٧]- ذكرنا من فعله وأمره، فما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفق أهل العلم على صحته يقين، وما اختلفوا فيه ولم يصح فيه خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم شك، وغير جائز ترك اليقين بالشك، وإنما يجوز ترك اليقين باليقين. فإن قال قائل غير منعم الروية: كيف يجوز أن يصلي قاعدا من يقدر على القيام؟ قيل له إن شاء الله: يجوز ذلك أن يصلي بأولى الأشياء أن يجوز به، وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أمر باتباعها، ووعد الهدى على اتباعها، فأخبر أن طاعته صلى الله عليه وسلم طاعته عز وجل، وقوله كيف يجوز لما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر به، وثبت فعله له - بنقل العدل عن العدل موصولا إليه بالأخبار المتواترة - جهل من قائله وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم عند جميع أهل العلم بالأخبار الأمر بالصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا، وثبت عندهم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صلى قاعدا بقعود أصحابه لا مرض بهم، ولا بأحد منهم. وادعى قوم نسخ ذلك، فلم تثبت دعواهم بخبر صحيح لا معارض له، فلا يجوز ترك ما قد صح من أمره صلى الله عليه وسلم، وفعله في وقت من الأوقات، إلا بخبر صحيح عنه، ينسخ أمره ذلك وفعله. ووجود نسخ ذلك بخبر صحيح معدوم، وفي عدم وجود ذلك بطلان ما ادعت، فجازت الصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا اقتداء به على أمر النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، والله الموفق للصوابK١٦٢١ - قال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري لكن لفظه مخالف لروايته في الصحيح

قال الأعظمي: انظر البخاري: الأذان ٥١ من طريق ابن أبي عائشة وفيه: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم." (١)

---

(١) صحيح ابن خزيمة ابن خزيمة ٥٥/٣

"١٦٢١ - أخبرنا أبو طاهر، نا أبو بكر، نا بندار، ثنا بدل بن المحبر (١)، ثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة:

أن أبا بكر صلى بالناس، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الصف خلفه.

قال أبو بكر: فلم يصح الخبر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه في الصلاة التي كان هو فيها قاعدا، وأبو بكر والقوم قيام، لأن في خبر مسروق وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة: أن أبا بكر كان الإمام، والنبي - صلى الله عليه وسلم - مأموم، وهذا ضد خبر هشام، عن أبيه، عن عائشة، وخبر إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة.

على أن شعبة بن الحجاج قد بين في روايته عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، **أن من الناس من** يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومنهم من قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - المقدم بين يدي أبي بكر.

وإذا كان الحديث الذي به احتج من زعم أن فعله الذي كان في سقطته من الفرس، وأمره - صلى الله عليه وسلم - بالاقتداء بالأئمة، وقعودهم في الصلاة إذا صلى إمامهم قاعدا منسوخ، غير صحيح من جهة النقل، فغير جائز لعالم أن يدعي نسخ ما قد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأخبار المتواترة بالأسانيد الصحاح من فعله وأمره بخبر مختلف فيه. على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد زجر عن هذا الفعل الذي ادعته هذه الفرقة في خبر عائشة الذي ذكرنا أنه مختلف فيه عنها، وأعلم أنه فعل فارس والروم بعظمائها، يقومون وملوكهم قعود، وقد ذكرنا هذا الخبر في موضعه، فكيف يجوز أن يؤمر بما قد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من الزجر عنه استنانا بفارس والروم، من غير أن يصح عنه - صلى الله عليه وسلم - الأمر به وإباحته بعد الزجر عنه.

[١٦٢١] (قلت: إسناده صحيح على شرط البخاري، لكن لفظه مخالف لروايته في "الصحيح" - ناصر). انظر: خ الأذان ٥١ من طريق ابن أبي عائشة وفيه: "فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي - صلى الله عليه وسلم -".

(١) في الأصل: "المجمر"، والتصحيح من كتب الرجال.." [١]

"مطابقته للترجمة ظاهرة مثل مطابقة الحديث السابق. (بيان رجاله) وهم أربعة. الأول مسدد بن مسرهد. الثاني معتمر بن سليمان بن طرخان التيمي البصري لم يكن من بني تيم وإنما كان نازلا فيهم وهو مولى بني مرة روى عن أبيه ومنصور وغيرهما وعنه ابن مهدي وغيره وكان ثقة صدوقا رأسا في العلم والعبادة كأبيه ولد سنة ست ومائة ومات سنة سبع وثمانين ومائة بالبصرة ويقال كان أكبر من سفيان بن عيينة بسنة روى له الجماعة. الثالث أبوه سليمان التيمي وكان ينزل في بني مرة فلما تكلم بالقدر أخرجوه فقبله بنو تميم وقدموه وصار إماما لهم قال شعبة ما رأيت أصدق من سليمان كان إذا حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم تغير لونه وكان من العباد المجتهدين يصلي الليل كله بوضوء العشاء الآخرة

---

(١) صحيح ابن خزيمة ط ٣ ابن خزيمة ٢/٧٧٨

كان هو وابنه معتمر يدوران بالليل في المساجد فيصليان في هذا المسجد مرة وفي ذلك أخرى مات بالبصرة سنة ثلاث وأربعين ومائة وكان مائلا إلى علي رضي الله تعالى عنه. الرابع أنس بن مالك رضي الله عنه (بيان لطائف إسناده) منها أن فيه التحديث والسماع مكررا ومنها أن رواته كلهم بصريون ومنها أن فيه رواية الابن عن الأب ومنها أنه من الرباعيات العوالي وهذا حديث لم يخرجه غير البخاري. (بيان الإعراب والمعاني) قوله قال ذكر لي الضمير في قال يرجع إلى أنس وهي جملة في محل النصب على الحال وقوله ذكر على صيغة المجهول ولم يسم أنس من ذكر له ذلك رواه عن معاذ رضي الله عنه وكذلك جابر بن عبد الله قال أخبرني من شهد معاذا حين حضرته الوفاة الحديث كما بيناه عن قريب ولم يسم من ذكر له وذلك لأن معاذا رضي الله عنه إنما حدث به عند موته بالشام وجابر وأنس حينئذ كانا بالمدينة ولم يشهداه وقد حضر في ذلك من معاذ عمرو بن ميمون الأودي أحد المخضرمين كما سيأتي في كتاب الجهاد إن شاء الله تعالى ورواه النسائي من طريق عبد الرحمن بن سمرة الصحابي أنه سمع ذلك من معاذا أيضا فيحتمل أن يكون الذاكر لأنس رضي الله عنه إما عمرو بن ميمون وإما عبد الرحمن بن سمرة والله أعلم وقال الكرماني فإن قلت لفظ ذكر يقتضي أن يكون هذا تعليقا من أنس ولما لم يكن الذاكر له معلوما كان من باب الرواية عن المجهول فهل هو قادح في الحديث قلت التعليق لا ينافي الصحة إذا كان المتن ثابتا من طريق آخر وكذا الجهالة إذ معلوم أن أنسا لا يروي إلا عن العدل سواء رواه عن الصحابي أو غيره ففي الجملة يحتمل في المتابعات والشواهد ما لا يحتمل في الأصول قلت هذا ليس بتعليق أصلا والذاكر له معلوم عنده غير أنه أبهمه عند روايته وليس ذلك قادحا في رواية الصحابي قوله من لقي الله مقول القول وكلمة من موصولة في محل الرفع على الابتداء وقوله دخل الجنة خبره والمعنى من لقي الأجل الذي قدره الله يعني الموت قوله لا يشرك به شيئا جملة وقعت حالا والمعنى من مات حال كونه موحدا حين الموت وبهذا يجاب عما قيل الإشراك لا يتصور في القيامة وحق الظاهر أن يقال ولم يشرك به أي في الدنيا وجواب آخر أن أحكام الدنيا مستصحبة إلى الآخرة فإذا لم يشرك في الدنيا عند الانتقال إلى الآخرة صدق أنه لا يشرك في الآخرة فإن قلت التوحيد بدون إثبات الرسالة كيف ينفعه فلا بد من انضمام محمد رسول الله إلى قوله لا إله إلا الله قلت هو مثل من توضأ صحت صلاته أي عند حصول شرائط الصحة فمعناه من لقي الله موحدا عند الإيمان بسائر ما يجب الإيمان به أو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم **أن من الناس من** يعتقد أن المشرك أيضا يدخل الجنة فقال ردا لذلك الاعتقاد الفاسد من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة فإن قلت هل يدخل الجنة وإن لم يعمل عملا صالحا قلت يدخل وإن لم يعمل إما قبل دخول النار وإما بعده وذلك بمشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه ثم أدخله الجنة وقال بعضهم قوله لا يشرك به اقتصر على نفي الإشراك لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم إذ من كذب رسل الله فقد كذب الله ومن كذب الله فهو مشرك قلت هذا تصور لا يوجد معه التصديق فإن أراد بالاقتضاء على اصطلاح أهل الأصول فليس كذلك على ما لا يخفى وإن أراد به على اصطلاح غير أهل الأصول فلم يذهب أحد منهم إلى هذه العبارة في الدلالات وقوله أيضا ومن كذب الله فهو مشرك ليس كذلك فإن المكذب لا يقال له إلا كافر قوله قال أي معاذ إلا أبشر الناس أي بذلك وإلا للتنبيه وأبشر الناس جملة من الفعل والفاعل والمفعول قوله قال أي النبي صلى الله تعالى عليه

وسلم إني أخاف أن يتكلوا وهذه رواية كريمة أعني بإثبات إني وفي رواية غيرها قال لا أخاف بغير إني فكلمة لا للنهي وليست داخلة على أخاف وإنما المعنى لا تبشر ثم استأنف فقال أخاف وفي رواية الحسن بن سفيان في مسنده عن عبيد الله بن معاذ عن معتمر قال لا دعهم فليتنافسوا في الأعمال فإني أخاف أن يتكلوا." (١)

"ولا يرعى ولا يقرب، وفي (الصحاح) : حميته حماية أي: دفعت عنه، وهذا شيء حمى على فعل أي: محظور لا يقرب. قلت: دل هذا أن لفظ: حمى، اسم غير مصدر، وهو على وزن فعل بكسر الفاء بمعنى مفعول، أي: محمي محظور، هذا معناه اللغوي، ومعناه الاصطلاحي: ما يحمي الإمام من الموات لمواش يعينها ويمنع سائر الناس من الرعي فيها. وقال ابن الأثير: قيل: كان الشريف في الجاهلية إذا نزل أرضا في حيه استعوى كلبا فحمى مدى عواء الكلب لا يشرك فيه غيره، وهو يشارك القوم في سائر ما يرعون فيه، فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وأضاف. الحمى إلى الله ورسوله إلا ما يحمى للخيل التي ترصد للجهاد والإبل التي يحمل عليها في سبيل الله، وإبل الزكاة وغيرها، كما حمى عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، النقيع، بالنون: لنعم الصدقة والخيل المعدة في سبيل الله. قيل: فيه نظر من حيث إن الملوك والأشراف كانوا يحمون بما شاؤا، فلم يحك أحد أنهم كانوا يحمون بالكلب إلا ما نقل عن وائل بن ربيعة التغلبي، فغلبت عليه اسم كليب، لأنه حمى الحمى بعواء كلب كان يقطع يديه ويدعه وسط مكان يريده، فأي موضع بلغ عواؤه لا يقربه أحد وبسببه، كانت حرب البسوس المشهورة. وقال ابن بطال: أصل الحمى المنع، يعني: لا مانع لما لا مالك له من الناس من أرض أو كلأ إلا الله ورسوله، قال: وذكر ابن وهب أن النقيع الذي حماه سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قدره ميل في ثمانية أميال، والنقيع بالنون المفتوحة والقاف المكسورة بعدها ياء آخر الحروف ساكنة وفي آخره عين مهملة: على عشرين فرسخا من المدينة، وقيل: على عشرين ميلا، ومساحته بريد في بريد، قال ياقوت: وهو غير نقيع الخضمات الذي كان عمر بن الخطاب، رضي الله تعالى عنه، حماه، وعكس ذلك أبو عبيد البكري، وزعم الخطابي **أن من الناس من** يقوله بالباء الموحدة، وهو تصحيف، والأصل في النقيع أنه: كل موضع يستنقع فيه الماء، وزعم ابن الجوزي أن بعضهم ذهب إلى أنهما واحد، والأول أصح.

٠٧٣٢ – حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن يونس عن ابن شهاب عن عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الصعب بن جثامة قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لا حمى إلا لله ولرسوله. (الحديث ٠٧٣٢ طرفه في: ٣١٠٣) .

الحديث عين الترجمة فلا مطابقة أقوى من هذا، ورجاله سبعة كلهم قد ذكروا، ويونس بن يزيد الأيلي، والصعب ضد السهل ابن جثامة، بفتح الميم وتشديد الثاء المثلثة: الليثي، مر في جزاء الصيد ورواية الليث عن يونس من الأقران، لأن الليث قد سمع من شيخه ابن شهاب أيضا. وفي هذا الإسناد تابعيان: ابن شهاب وعبيد الله، وصحابيان: عبد الله بن

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٢/٢٠٩

عباس والصعب بن جثامة.
وهذا الحديث من أفراده، ووقع في (الإلمام) للشيخ تقي الذين القشيري: أنه من المتفق عليه، وهو وهم، بل ربما يكون من الناسخ، وأخرجه البخاري أيضا في الجهاد عن علي بن عبد الله عن سفيان. وأخرجه أبو داود في الخراج عن ابن السرح عن ابن وهب عن يونس به. وأخرجه النسائي في الحمى وفي السير عن أبي كريب عن ابن إدريس عن مالك عن ابن شهاب.
قوله: (لا حمى إلا لله ولرسوله) ، أي: لا حمى لأحد يخص نفسه يرعى فيه ماشيته دون سائر الناس، وإنما هو لله ولرسوله ولمن ورد ذلك عنه من الخلفاء بعده إذا احتاج إلى ذلك لمصلحة المسلمين، كما فعل الصديق والفاروق وعثمان لما احتاجوا إلى ذلك، وعاب رجل من العرب عمر، رضي الله تعالى عنه، فقال: بلاد الله حميت لمال الله، وأنكر أيضا على عثمان أنه زاد في الحمى، وليس لأحد أن ينكر ذلك، لأنه صلى الله عليه وسلم قد تقدم إليه ولخلفائه الاقتداء به والاهتداء، وإنما يحمى الإمام ما ليس بملك لأحد مثل بطون الأودية والجبال والموات، وإن كان ينتفع المسلمون بتلك المواضع فمنافعهم في حماية الإمام أكثر. وقال ابن التين: معنى الحديث: لا حمى إلا على ما أذن الله لرسوله أن يحميه، لا ما كان يحميه العرب في الجاهلية. قيل: الأرجح عند الشافعية أن الحمى مختص بالخليفة، ومنهم من ألحق به ولاة الأقاليم، وقال بعضهم: استدل به الطحاوي لمذهبه في اشتراط إذن الإمام في إحياء الموات، وتعقب بالفرق بينهما، فإن الحمى أخص من الإحياء. انتهى. قلت: حصر الحمى لله ولرسوله يدل على أن حكم الأراضي إلى الإمام، والموات من الأراضي، ودعوى أخصية الحمى من الإحياء." (١)
"أصله من الواقدي وفيه مقال، ورد عليه بأن الحميدي قال: كان بعض من لقينا من البغداديين الحفاظ يقولون: الإرسال في هذا الحديث بين. وقال الخطيب: وقع في كتاب في رواية: رواه مسروق عن أبي مسعود عن أم رومان، قال: وهو الأشبه، وكذا قاله ناصر السلامي، وقال الخطيب أيضا: الصواب أن يقال: سئلت أم رومان على صيغة المجهول من الماضي وهذا أشبه بالصحة، **لأن من الناس من** يكتب الهمزة ألفا في جميع أحوالها الرفع والنصب والخفض، فلعل بعض النقلة كتب على صورة سألت بالألف ودون عليه ورواه؟ وقال الكرماني: لا ينفعه هذا العذر لما جاء في حديث الإفك من المغازي، قال مسروق: حدثتني أم رومان، قلت: قيل: إنه وهم فيه، وقال الداودي: فيه من الوهم أن أم مسطح من قريش، وقالت: ولجت علينا امرأة من الأنصار، وقال الخطيب: الراوي عن شقيق عن مسروق هو حصين، وحصين قد اختلط في آخر عمره، فلعله روى الحديث في حال اختلاطه؟ قال الخطيب أيضا: وفي رواية عن مسروق: سئلت أم رومان، وهذا هو الأشبه بالصحة، والله أعلم.
ذكر معناه: قوله: (عما قيل فيها) ، أي: في عائشة، ما قيل من الإفك. قوله: (إذا ولجت) ، أي: دخلت. قوله: (فعل الله بفلان وفعل) ، أرادت الأنصارية المذكورة بفلان: مسطحا، بكسر الميم، وهو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي المطلبي، يكنى أبا عباد، وقال أبو عمر: اسمه عوف لا اختلاف في ذلك، وغلب عليه

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٢١٣/١٢

مسطح، وأمه سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة، وهي ابنة خالة أبي بكر، رضي الله تعالى عنه، وقيل: أم مسطح سلمى بنت صخر بن عامرة خالة أبي بكر الصديق، شهد مسطح بدرا ومات سنة أربع وثلاثين وهو ابن ست وخمسين سنة، وقد قيل: إنه شهد صفين مع علي، رضي الله تعالى عنه، وهو الأكثر، ولما خاض في الإفك على عائشة ونزلت براءتها جلده رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فيمن جلد في ذلك، وكان أبو بكر ينفق عليه لقرابته وفقره، فتألى أن لا ينفق عليه، فنزلت: ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة ... ﴾ (النور: ٢٢) . الآية، فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها عنه أبدا. قوله: (إنه نمى) ، بتشديد الميم من التنمية، وهي رفع الخبر، يقال: نميت الحديث أنميه: إذا بلغته على وجه الإصلاح وطلب الخير، فإذا بلغته على وجه الإفساد والنميمة، قلت: نميته، بالتشديد، كذا قاله أبو عبيد وابن قتيبة وغيرهما من العلماء، وقال الحربي: نمى، مشددة وأكثر المحدثين يقولونها مخففة، قال ابن الأثير: وهذا لا يجوز، يعني ههنا. وفي (المطالع) : وفي رواية أبي ذر بالتخفيف. قوله: (ينافض) ، أي: ملتبسة بارتعاد، والنافض من الحمى هو ذات الرعدة، والنفض التحريك. قوله: (من أجل حديث) ، وهو حديث الإفك. قوله: (تحدث به) ، على صيغة المجهول صفة لحديث. قوله: (ومثلي) أي: صفتي كصفة يعقوب، عليه الصلاة والسلام، حيث صبر صبرا جميلا، وقال: ﴿والله المستعان﴾ (يوسف: ٨١) . قوله: (ما أنزل) ، وهو قوله تعالى: ﴿إن الذين جاؤا بالإفك عصبة منكم ... ﴾ (النور: ١١) . العشر الآيات، فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: (يا عائشة أما الله فقد برأك، فقالت أمها: قومي إليه، فقالت: والله لا أقوم إليه فإني ولا أحمد إلا الله، عز وجل) وهو معنى قولها: (بحمد الله لا بحمد أحد) .

٩٨٣٣ - حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب قال أخبرني عروة أنه سأل عائشة رضي الله تعالى عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت قوله حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا أو كذبوا قالت بل كذبهم قومهم فقلت والله لقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم وما هو بالظن فقالت يا عرية لقد استيقنوا بذالك قلت فلعلها أو كذبوا قالت معاذ الله لم تكن الرسل تظن ذالك بربها وأما هاذه الآية قالت هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأست ممن كذبهم من قومهم وظنوا أن أتباعهم كذبوهم جاءهم نصر الله. .." [(١)]

"٧ - (باب: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ (المائدة: ٦٧)

أي: هذا باب في قوله تعالى: ﴿يا أيها الرسول﴾ الآية، ذكر الواحدي من حديث الحسن بن محمد قال: حدثنا علي بن عباس عن الأعمش وأبي الحجاف عن عطية عن أبي سعيد، قال: نزلت هذه الآية: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ يوم غدير خم في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وقال مقاتل: قوله: ﴿بلغ ما أنزل إليك﴾ وذلك

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٢٨٠/١٥

أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى الإسلام فأكثر الدعاء فجعلوا يستهزؤن به ويقولون: أتريد يا محمد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى عليه الصلاة والسلام، حنانا؟ فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك سكت عنهم، فحرض الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على الدعاء إلى دينه لا يمنعه تكذيبهم إياه واستهزاؤهم به عن الدعاء، وقال الزمخشري: نزلت هذه الآية بعد أحد، وذكر الثعلبي عن الحسن: قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: لما بعثني الله عز وجل برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني، وكان يهاب قريشا واليهود والنصارى، فنزلت، وقيل: نزلت في عيينة بن حصين وفقراء أهل الصفة، وقيل: في الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوه وكرهه أيضا بعض المؤمنين، فكان النبي صلى الله عليه وسلم، يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما يعرف من كراهية القوم له، فنزلت: وقيل: ﴿بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ في أمر زينب بنت جحش، وهو مذكور في البخاري. وقيل: ﴿بلغ ما أنزل إليك﴾ أي: في أمر نسائك، وقال أبو جعفر محمد بن علي بن حسين معناه بلغ ما أنزل إليك من ربك في فضل علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه فلما نزلت هذه الآية أخذ بيد علي، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، وقيل: بلغ ما أنزل إليك من حقوق المسلمين، فلما نزلت هذه الآية خطب صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ثم قال: اللهم هل بلغت؟ وعند الجوزي: بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص.

٤٦١٢ – ح دثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن إسماعيل عن الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل عليه فقد كذب والله يقول: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

مطابقته للترجمة ظاهرة. ومحمد بن يوسف هو الفريابي صرح به أبو نعيم وسفيان هو الثوري وإسماعيل هو ابن أبي خالد البجلي الكوفي، والشعبي هو عامر، ومسروق هو ابن الأجدع. والحديث أخرجه البخاري مطولا ومختصرا وأخرجه في التوحيد مقطعا. وأخرجه مسلم في الإيمان عن ابن نمير وغيره. وأخرجه الترمذي في التفسير عن أحمد بن منيع وعن ابن أبي عمرو. وأخرجه النسائي فيه عن محمد بن المثنى مطولا. وفيه الزيادة، وأخرجه عن آخرين أيضا.

٨ – (باب قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ (البقرة: ٢٢٥)

أي: هذا باب في قوله تعالى: ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وليس لفظ: باب، إلا في رواية أبي ذر واللغو في اليمين هو قولك: لا والله، ويلي والله، وقيل: معنى اللغو الإثم، والمعنى لا يؤاخذكم الله بالإثم في الحلف إذا كفرتم، وقال ابن جبير: هو الرجل يحلف على المعصية، وقال إبراهيم: هو أن ينسى، وقال زيد بن أسلم: هو قول الرجل: أعمى الله بصري إن لم أفعل كذا وكذا ونحوه، وقال ابن عباس: هو أن يحرم ما أحل الله له فليس عليه كفارة، وقال طاوس والقاضي إسماعيل: هو أن يحلف وهو غضبان، وعند الشافعي، هو سبق اللسان من غير قصد، وقال أبو الوليد بن

رشيد، ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنها اليمين على شيء يظن الرجل أنه على يقين منه فيخرج الشيء على خلاف ما حلف عليه. وقال الشافعي: لغو اليمين ما لم تنعقد النية عليه مثل ما جرت به العادة من قول الرجل في أثناء المخاطبة، لا والله وبلى والله من غير أن يعتقد لزومه انتهى، يقال: لغا في القول يلغو ويلغى لغوا ولغى لغا ولغاة، اخطأ، وكلمة لاغية فاحشة، ولغا يلغو لغوا، تكلم، وقال الجوهري: لغا يلغو، لغوا: أي قال باطلا يقال: لغوت باليمين، ونباح الكلب لغو أيضا، ولغى: بالكسر يلغى لغى مثله، واللغي الصوت مثل الوغي، ويقال أيضا: لغى به يلغى لغا أي: لهج به، واللغة." (١)

"ذلك عن الغزالي وقال: وأما الحديث الذي ذكره الغزالي فلا أصل له ثم، اعلم أن تقليم الأظفار لا يتوقت والضابط في ذلك الاحتياج فأي وقت يحتاج إلى تقليمه يقلمه، وأخرج البيهقي من مرسل أبي جعفر الباقر، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يأخذ من أظفاره يوم الجمعة، وروى ابن الجوزي من حديث عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قلم أظفاره يوم السبت خرج منه الداء ودخل فيه الشفاه، ومن قلم أظفاره يوم الأحد خرجت منه الفاقة ودخل فيه الغنى، ومن قلم أظفاره يوم الإثنين خرجت منه العلة ودخلت فيه الصحة، ومن قلم أظفاره يوم الثلاثاء خرج منه البرص ودخل فيه العافية، ومن قلم أظفاره يوم الأربعاء خرج منه الوسواس والخوف ودخل فيه الأمن والصحة، ومن قلم أظفاره يوم الخميس خرج منه الجذام ودخل فيه العافية، ومن قلم أظفاره يوم الجمعة دخلت فيه الرحمة وخرجت منه الذنوب. ثم قال: هذا حديث موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو من أقبح الموضوعات وأبردها، وفي سنده مجهولون ومتروكون وضعفاء.

٥٨٩ - حدثنا أحمد بن أبي رجاء: حدثنا إسحاق بن سليمان قال: سمعت حنظلة عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من الفطرة حلق العانة وتقليم الأظفار وقص الشارب. (انظر الحديث ٥٨٨٨) .

مطابقته للترجمة في قوله: (وتقليم الأظفار) . وأحمد بن أبي رجاء بالجيم وللمد واسمه عبد الله بن أيوب أبو الوليد الحنفي الهروي مات بهراة في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين، وقبره مشهور يزار، وإسحاق بن سليمان الراوي كوفي الأصل مات سنة مائتين، وحنظلة بن أبي سفيان وقد مر عن قريب. قوله: (من الفطرة) ونقل النووي أنه وقع بلفظ: من السنة. قوله: (وقص الشارب) وقع في رواية الإسماعيلي: وأخذ الشارب.

٥٨٩٢ - حدثنا محمد بن منهال حدثنا يزيد بن زريع حدثنا عمر بن محمد بن زيد عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب.
وكان ابن عمر إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته، فما فضل أخذه.

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٢٠٦/١٨

محل هذا الحديث في الباب الذي قبله ولا يناسب ذكره هنا، ومحمد بن منهال بكسر الميم وسكون النون البصري الضرير، وعمر بن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والحديث أخرجه مسلم في اللباس عن سهل بن عثمان عن يزيد بن زريع.

قوله: (خالفوا المشركين) أراد بهم المجوس، يدل عليه رواية مسلم: خالفوا المجوس لأنهم كانوا يقصرون لحاهم، ومنهم من كان يحلقها. وقوله: (وفروا) بتشديد الفاء، أمر من التوفير وهو الإبقاء أي: اتركوها موفرة، واللحى بكسر اللام وضمها بالقصر والمد جمع لحية بالكسر فقط وهي إسم لما نبت على الخدين والذقن، قاله بعضهم. قلت: على الخدين ليس بشيء، ولو قال: على العارضين لكان صوابا. قوله: (واحفوا) أمر من الإحفاء في القص، قد مر عن قريب. وقال الطبري: فإن قلت: ما وجه قوله: اعفوا اللحى؟ وقد علمت أن الإعفاء الإكثار **وأن من الناس من** إذا ترك شعر لحيته اتباعا منه لظاهر قوله: اعفوا اللحى، فيتفاحش طولا وعرضا ويسمج حتى يصير للناس حديثا ومثلا، قيل: قد ثبتت الحجة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، على خصوص هذا الخبر وأن اللحية محظور إعفاؤها، وواجب قصها على اختلاف من السلف في قدر ذلك وحده، فقال بعضهم: حد ذلك أن يزاد على قدر القبضة طولا، وأن ينتشر عرضا فيقبح ذلك، وروي عن عمر رضي الله." (١)

"٦٠٨٧ – حدثنا موساى حدثنا إبراهيم أخبرنا ابن شهاب عن حميد بن عبد الرحمان أن أبا هريرة رضي الله عنه، قال: أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هلكت ﴿وقعت على أهلي في رمضان. قال: أعتق رقبة. قال: ليس لي. قال: فصم شهرين متتابعين، قال: لا أستطيع. قال: فأطعم ستين مسكينا، قال: لا أجد، فأتي بعرق فيه تمر قال إبراهيم: العرق المكتل فقال: أين السائل؟ تصدق بها قال: على أفقر مني؟ والله ما بين لأبتيها أهل بيت أفقر منا، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجده، قال: فأنتم إذا.

مطابقته للترجمة في قوله: (فضحك النبي صلى الله عليه وسلم، حتى بدت نواجذه) .

وموسى هو ابن إسماعيل، وإبراهيم هو ابن سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف، روى هنا عن ابن شهاب الزهري بلا واسطة، ويروي عنه أيضا بواسطة مثل صالح بن كيسان وغيره، وحميد بن عبد الرحمن الحميري.

والحديث مضى في كتاب الصوم في: باب المجامع في رمضان.

قوله: (قال إبراهيم) هو إبراهيم بن سعد وهو موصول بالسند الأول وفيه بيان لما أدرجه غيره فجعل تفسير العرق من نفس الحديث، والعرق بفتح العين المهملة والراء: السعيفة المنسوجة من الخوص، قال الكرماني: فإن صحت الرواية بالفاء فالمعنى أيضا صحيح إذا العرق مكيال يسع خمسة عشر رطلا. قوله: (لأبتيها) أي: لأبتي المدينة، واللابة بتخفيف الباء الموحدة الحرة بفتح الحاء المهملة وتشديد الراء وهي أرض ذات حجارة سود، والمدينة بين الحرتين. قوله: (تصدق بها) أمر. قوله: (حتى بدت نواجذه) النواجذ بالذال المعجمة أخريات الأسنان الأضراس، أولها في مقدم الفم الثنايا ثم

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٤٦/٢٢

الرباعيات ثم الأنياب ثم الضواحك ثم النواجذ. فإن قلت: بين هذا وبين حديث عائشة الذي يأتي عن قريب: ما رأيته صلى الله عليه وسلم، مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته، تعارض ومنافاة؟ قلت: لا تعارض ولا منافاة، لأن عائشة إنما نفت رؤيتها وأبو هريرة أخبر بما شاهده، والمثبت مقدم على النافي، أو نقول: عدم رؤية عائشة رضي الله تعالى عنها، لا تستلزم نفي رؤية أبي هريرة، وكل واحد منهما أخبر بما شاهده، والخبران مختلفان ليس بينهما تضاد، وفيه وجه آخر: **أن من الناس من** يسمي الأنياب والضواحك النواجذ، ووقع في الصيام: حتى بدت أنيابه، فزال الاختلاف بذلك، وهذا يرد ما روي عن الحسن البصري أنه كان لا يضحك، وكان ابن سيرين يضحك ويحتج على الحسن ويقول: الله هو الذي أضحك وأبكى، وكانت الصحابة يضحكون، وروي عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: سئل ابن عمر: هل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يضحكون؟ قال: نعم﴾ والإيمان في قلوبهم أعظم من الجبال. انتهى، ولا يوجد أحد زهده كزهد سيد الخلق، وقد ثبت عنه أنه ضحك، وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه المهديين الأسوة الحسنة. وأما المكروه من هذا الباب فهو الإكثار من الضحك، كما قال لقمان عليه السلام، لابنه: إياك وكثرة الضحك فإنها تميت القلب والإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهي عنه، وهو من أهل السفه والبطالة. قوله: (فأنتم إذا) ، جواب وجزاء أي: إن لم يكن أفقر منكم فكلوا أنتم حينئذ منه.

٦٠٨٨ - حدثنا عبد العزيز بن عبد الله الأويسي حدثنا مالك عن إسحاق بن عبد الله ابن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة، قال أنس: فنظرت إلى صفحة عانق النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء. (انظر الحديث ٣١٤٩ وطرفه)
.

مطابقته للترجمة في قوله: (فضحك) وإسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة واسمه زيد بن سهل الأنصاري ابن أخي أنس." (١)

"فحرم على نفسه بظن، صدقهما. قال الكرماني: كيف جاز على أزواجه صلى الله عليه وسلم أمثال ذلك؟ ثم أجاب بقوله: هو من مقتضيات الغيرة الطبيعية للنساء، وهو صغيرة معفو عنها، ثم قال: فإن قلت: تقدم في كتاب الطلاق أنه صلى الله عليه وسلم، شرب في بيت حفصة، والمتظاهرات هي عائشة وسودة وزينب.
قلت: لعل الشرب كان مرتين. قوله: (ولن أعود له) أي: قال: والله لا أعود له، فلذلك كفره. قوله: (لعائشة) أي: الخطاب لعائشة وحفصة. قوله: (وإذ أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى بعض أزواجه حديثا) لقوله: (بل شربت عسلا) أي: الحديث المسر كان ذلك القول.
قوله: وقال لي إبراهيم بن موسى، وفي رواية أبي ذر: وقال إبراهيم، بغير لفظ: لي، وقد تقدم في التفسير بلفظ: حدثنا

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ١٥٠/٢٢

إبراهيم بن موسى وهو أبو إسحاق الرازي يعرف بالصغير يروي عن هشام بن يوسف وصرح به في التفسير، وقد اختصر هنا بغير السند ومراده أن هشاما رواه عن ابن جريج بالسند المذكور والمتن إلى قوله: قوله: (ولن أعود) فزاد: (وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحدا) .

٦٢ - (باب الوفاء بالنذر)

أي: هذا باب في بيان حكم وفاء الناذر بنذره، وفي بيان فضل الوفاء بالنذر.
وقوله تعالى: ﴿يوفون بالنذر﴾ (الإنسان: ٧)
أورد هذه الآية إشارة إلى أن الوفاء بالنذر مما يجلب الثناء على فاعله، ولكن المراد هو نذر الطاعة لا نذر المعصية، وقام الإجماع على وجوب الوفاء إذا كان النذر بالطاعة، وقد قال الله تعالى: ﴿أوفوا بالعقود﴾ (المائدة: ١) وقال ﴿يوفون بالنذر﴾ فمدحهم بذلك، واختلف في ابتداء النذر فقيل: إنه مستحب، وقيل: مكروه وبه جزم النووي، ونص الشافعي على أنه خلاف الأولى، وحمل بعض المتأخرين النهي على نذر اللجاج، واستحب نذر التبرر.

٢٩٦٦ - حدثنا يحياى بن صالح حدثنا فليح بن سليمان حدثنا سعيد بن الحارث أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما، يقول: أو لم ينهوا عن النذر؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن النذر لا يقدم شيئا ولا يؤخر، وإنما يستخرج بالنذر من البخيل) . (انظر الحديث ٨٠٦٦ وطرفه) .

مطابقته للترجمة ظاهرة. ويحيى بن صالح الوحاظي بضم الواو وتخفيف الحاء المهملة وبعد الألف ظاء معجمة، وفليح مصغر فلح وسعيد بن الحارث الأنصاري المدني قاضي المدينة. والحديث من أفراده.
قوله: (أو لم ينهوا عن النذر) على صيغة المجهول. وقال الكرماني بلفظ المعروف والمجهول، وفيه حذف بينه الحاكم في (المستدرك) : والإسماعيلي عن سعيد بن الحارث قال: كنت عند ابن عمر فأتاه مسعود بن عمرو أحد بني عمرو بن كعب فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿إن ابني كان مع عمر بن عبيد الله بن معمر بأرض فارس، فوقع فيها وباء وطاعون شديد، فجعلت على نفسي لئن الله سلم ابني ليمشين إلى بيت الله تعالى، فقدم علينا وهو مريض ثم مات، فما تقول؟ فقال ابن عمر: أو لم ينهوا عن النذر؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم ... فذكر الحديث المرفوع، وزاد: أوف بنذرك، وقال أبو عامر. فقال: يا أبا عبد الله﴾ إنما نذرت أن يمشي ابني. فقال: أوف بنذرك، قال سعيد بن الحارث: فقلت له: أتعرف سعيد بن المسيب؟ قال: نعم. قلت له: إذهب إليه ثم أخبرني ما قال لك. قال: فأخبرني أنه قال له: امش عن ابنك.
قلت: يا أبا محمد! وترى ذلك مقبولا؟ قال: نعم. أرأيت لو كان على ابنك دين لا قضاء له فقضيته أكان ذلك مقبولا؟ قال: نعم. قال: فهذا مثل هذا. انتهى. وأبو عبد الرحمن كنية عبد الله بن عمر، وأبو محمد كنية سعيد بن المسيب.

وقال الكرماني: فإن قلت: ليس في الحديث ما يدل على كونهم منهيين.

قلت: يفهم من السياق أو لما كان مشهور بينهم لم يذكره ههنا وجاء صريحا في الحديث بعده. قوله: (لا يقدم شيئا ولا يؤخر) ويروى: ولا يؤخره، بضمير المنصوب ومعناه: لا يقدم شيئا من قدر الله ومشيئته، ولا يؤخره، وفي رواية عبد الله بن مرة: لا يرد شيئا، وهي أعم على ما يأتي الآن. وكذلك يأتي في حديث أبي هريرة: لا يأتي ابن آدم النذر بشيء لم يكن قدر له، وفي رواية: لا يقرب من ابن آدم شيئا لم يكن الله قدره له. قوله: (وإنما يستخرج بالنذر من البخيل) يعني: **أن من الناس من** لا يسمح." (١)

"عن أنفسكم شيئا جرى القضاء به عليكم فإذا فعلتم ذلك فاخرجوا عنه بالوفاء به فإن الذي نذرتموه لازم لكم

هذا معنى الحديث ووجهه

وقوله عليه السلام إنما يستخرج به من البخيل فثبت بذلك وجوب استخراجه من ماله ولو كان غير لازم له لم يجز أن يكره عليه والله أعلم (لا يرد شيئا) قال الخطابي فيه دليل على أن النذر إنما يصح إذا كان معلقا بشيء كما يقول إن شفى الله مريضي فلله علي أن أتصدق بألف درهم وإن قدم غائبي أو سلم مالي في نحو ذلك من الأمور

فأما إذا قال علي أن أتصدق بألف درهم فليس هذا بنذر وإلى هذا ذهب الشافعي في أحد قوليه وهو غالب مذهبه

وحكي عن أبي العباس أحمد بن يحيى أنه قال النذر وعد بشرط

وقال أبو حنيفة النذر لازم وإن لم يعلق بشرط والله أعلم (وإنما يستخرج به) أي بسبب النذر (من البخيل) لأن غير البخيل يعطي باختياره بلا واسطة النذر

قال العيني يعني **أن من الناس من** لا يسمح بالصدقة والصوم إلا إذا نذر شيئا لخوف أو طمع فكأنه لو لم يكن ذلك الشيء الذي طمع فيه أو خافه لم يسمح بإخراج ما قدره الله تعالى ما لم يكن يفعله فهو بخيل انتهى

قال المنذري والحديث أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وبن ماجه انتهى

قال المزي في الأطراف حديث عبد الله بن مرة الهمداني الحارثي الكوفي عن بن عمر أخرجه البخاري في القدر وفي النذر ومسلم في النذور والنسائي فيه وبن ماجه في الكفارات وأبو داود في النذور عن عثمان بن أبي شيبة عن جرير وعن مسدد عن أبي عوانة عن منصور عن عبد الله بن مرة

وحديث مسدد في رواية أبي الحسن بن العبد وأبي بكر بن داسة ولم يذكره أبو القاسم انتهى كلامه

فجرير وأبو عوانة كلاهما يرويان عن منصور والله أعلم

[٣٢٨٨] (لا يأتي بن آدم) منصوب لأنه مفعول (النذر) بالرفع فاعل لا يأتي (القدر) مفعول ثان (بشيء لم أكن قدرته)

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري بدر الدين العيني ٢٠٦/٢٣

أي الشيء والجملة صفة لقوله بشيء وهو من الأحاديث القدسية ولكنه ما صرح برفعه إلى الله تعالى (له) أي لابن آدم (ولكن يلقيه) بضم الياء من الإلقاء أي بن آدم." [١]

"رواية الشيخين ومعناه أنه كان يسترخي أحد جانبي إزاره إذا تحرك يمشي أو غيره بغير اختياره فإذا كان محافظا عليه لا يسترخي لأنه كلما كاد يسترخي شده (قال) أي رسول الله (إنك لست ممن يفعله خيلاء) قال القارىء المعنى أن استرخاءه من غير قصد لا يضر لا سيما ممن لا يكون من شيمته الخيلاء ولكن الأفضل هو المتابعة وبه يظهر أن سبب الحرمة في جر الإزار هو الخيلاء كما هو مقيد في الشرطية من الحديث المصدر به انتهى

والحديث يدل على تحريم جر الثوب خيلاء والمراد بجره هو جره على وجه الأرض وهو الموافق لقوله ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار كما سيأتي

وظاهر الحديث أن الإسبال محرم على الرجال والنساء لما في صيغة من في قوله من جر من العموم ولكنه قد أجمع المسلمون على جواز الإسبال للنساء كما صرح بذلك بن رسلان في شرح السنن

وظاهر التقييد بقوله خيلاء يدل بمفهومه أن جر الثوب لغير الخيلاء لا يكون داخلا في هذا الوعيد

قال بن عبد البر مفهومه أن الجار لغير الخيلاء لا يلحقه الوعيد إلا أنه مذموم وقال النووي لا يجوز الإسبال تحت الكعبين إن كان للخيلاء فإن كان لغيرها فهو مكروه

قال بن العربي لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه ويقول لا أجره خيلاء لأن النهي قد تناوله لفظا ولا يجوز تناوله لفظا أن يخالفه إذ صار حكمه أن يقول لا أمتثله لأن تلك العلة ليست في فإنها دعوى غير مسلمة بل إطالة ذيله دالة على تكبره انتهى

وحاصله أن الإسبال يستلزم جر الثوب وجر الثوب يستلزم الخيلاء ولو لم يقصده اللابس

ويدل على عدم اعتبار التقييد بالخيلاء قوله إياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة كما سبق في حديث جابر بن سليم وحديث أبي أمامة قال بينما نحن مع رسول الله إذ لحقنا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة إزار ورداء قد أسبل فجعل يأخذ بناحية ثوبه ويتواضع لله عز وجل ويقول عبدك وبن عبدك وأمتك حتى سمعها عمرو فقال يا رسول الله إني أحمش الساقين فقال يا عمرو إن الله تعالى أحسن كل شيء خلقه يا عمرو إن الله لا يحب المسبل أخرجه الطبراني ورجاله ثقات

قال الشوكاني في النيل إن قوله لأبي بكر إنك لست ممن يفعل ذلك خيلاء تصريح بأن مناط التحريم الخيلاء وأن الإسبال قد يكون للخيلاء وقد يكون لغيره فلا بد من حمل قوله فإنها من المخيلة في حديث جابر بن سليم على أنه خرج مخرج الغالب فيكون الوعيد المذكور في حديث بن عمر متوجها إلى من فعل ذلك اختيالا

والقول بأن كل إسبال من المخيلة أخذا بظاهر حديث جابر ترده الضرورة فإن كل أحد يعلم **أن من الناس من** يسبل إزاره مع عدم خطور الخيلاء بباله ويرده ما تقدم من قوله لأبي بكر لما عرفت وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث وعدم

---

(١) عون المعبود وحاشية ابن القيم العظيم آبادي، شرف الحق ٧٩/٩

إهدار قيد الخيلاء المصرح به في الصحيحين قال وأما حديث أبي أمامة فغاية ما فيه التصريح بأن الله لا يحب المسبل وحديث بن عمر مقيد." (١)

"إن من وجد عنه صريح النفي يقدم عليه من وجد منه صريح الإثبات وقال بن عبد البر قد روى هذا الحديث جماعة كثيرة من الصحابة وروى ذلك عنهم أمثالهم من التابعين ثم نقله عنهم الجم الغفير إلى أن انتهى إلينا ويؤيد ذلك بالآية الكريمة فلم يبق لاستبعاد من استبعد وقوعه عذر ثم أجاب بنحو جواب الخطابي وقال وقد يطلع على قوم قبل طلوعه على آخرين وأيضا فإن زمن الانشقاق لم يطل ولم تتوفر الدواعي على الاعتناء بالنظر إليه ومع ذلك فقد بعث أهل مكة إلى آفاق مكة يسألون عن ذلك فجاءت السفار وأخبروا بأنهم عاينوا ذلك وذلك لأن المسافرين في الليل غالبا يكونون سائرين في ضوء القمر ولا يخفى عليهم ذلك وقال القرطبي الموانع من مشاهدة ذلك إذا لم يحصل القصد إليه غير منحصرة ويحتمل أن يكون الله صرف جميع أهل الأرض غير أهل مكة وما حولها عن الالتفات إلى القمر في تلك الساعة ليختص بمشاهدته أهل مكة كما اختصوا بمشاهدة أكثر الآيات ونقلوها إلى غيرهم اه وفي كلامه نظر لأن أحدا لم ينقل أن أحدا من أهل الآفاق غير أهل مكة ذكروا أنهم رصدوا القمر في تلك الليلة المعينة فلم يشاهدوا انشقاقه فلو نقل ذلك لكان الجواب الذي أبداه القرطبي جيدا ولكن لم ينقل عن أحد من أهل الأرض شيء من ذلك فالاقتصار حينئذ على الجواب الذي ذكره الخطابي ومن تبعه أوضح والله أعلم وأما الآية فالمراد بها قوله تعالى اقتربت الساعة وانشق القمر لكن ذهب بعض أهل العلم من القدماء ان المراد بقوله وانشق القمر أي سينشق كما قال تعالى أتى أمر الله أي سيأتي والنكتة في ذلك إرادة المبالغة في تحقق وقوع ذلك فنزل منزلة الواقع والذي ذهب إليه الجمهور أصح كما جزم به بن مسعود وحذيفة وغيرهما ويؤيده قوله تعالى بعد ذلك وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر فإن ذلك ظاهر في أن المراد بقوله وانشق القمر وقوع انشقاقه لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة وإذا تبين أن قولهم ذلك إنما هو في الدنيا تبين وقوع الانشقاق وأنه المراد بالآية التي زعموا أنها سحر ووقع ذلك صريحا في حديث بن مسعود كما بيناه قبل ونقل البيهقي في أوائل البعث والنشور عن الحليمي **أن من الناس من** يقول إن المراد بقوله تعالى وانشق القمر أي سينشق قال الحليمي فإن كان كذلك فقد وقع في عصرنا فشاهدت الهلال ببخارى في الليلة الثالثة منشقا نصفين عرض كل واحد منهما كعرض القمر ليلة أربع أو خمس ثم اتصلا فصار في شكل أترجة إلى أن غاب قال وأخبرني بعض من أثق به أنه شاهد ذلك في ليلة أخرى اه ولقد عجبت من البيهقي كيف أقر هذا مع إيراده حديث بن مسعود المصرح بأن المراد بقوله تعالى وانشق القمر أن ذلك وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فإنه ساقه هكذا من طريق بن مسعود في هذه الآية اقتربت الساعة وانشق القمر قال لقد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ساق حديث بن مسعود لقد مضت آية الدخان والروم والبطشة وانشقاق القمر وسيأتي الكلام على هذا الحديث الأخير في تفسير سورة الدخان إن شاء الله تعالى." (٢)

---

(١) عون المعبود وحاشية ابن القيم العظيم آبادي، شرف الحق ١١/٩٦

(٢) فتح الباري لابن حجر ابن حجر العسقلاني ٧/١٨٦

"احتاج الماشي أن يتوقى لإحدى رجليه ما لا يتوقى للأخرى فيخرج بذلك عن سجية مشيه ولا يأمن مع ذلك من العثار وقيل لأنه لم يعدل بين جوارحه وربما نسب فاعل ذلك إلى اختلال الرأي أو ضعفه وقال بن العربي قيل العلة فيها أنها مشية للشيطان وقيل لأنها خارجة عن الاعتدال وقال البيهقي الكراهة فيه للشهرة فتمتد الأبصار لمن ترى ذلك منه وقد ورد النهي عن الشهرة في اللباس فكل شيء صير صاحبه شهرة فحقه أن يجتنب وأما ما أخرج مسلم من طريق أبي رزين عن أبي هريرة بلفظ إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في نعل واحدة حتى يصلحها وله من حديث جابر حتى يصلح نعله وله ولأحمد من طريق همام عن أبي هريرة إذا انقطع شسع أحدكم أو شراكه فلا يمش في إحداهما بنعل والأخرى حافية ليحفهما جميعا أو لينعلهما جميعا فهذا لا مفهوم له حتى يدل على الإذن في غير هذه الصورة وإنما هو تصوير خرج مخرج الغالب ويمكن أن يكون من مفهوم الموافقة وهو التنبيه بالأدنى على الأعلى لأنه إذا منع مع الاحتياج فمع عدم الاحتياج أولى وفي هذا التقرير استدراك على من أجاز ذلك حين الضرورة وليس كذلك وإنما المراد أن هذه الصورة قد يظن أنها أخف لكونها للضرورة المذكورة لكن لعلة موجودة فيها أيضا وهو دال على ضعف ما أخرجه الترمذي عن عائشة قالت ربما انقطع شسع نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى في النعل الواحدة حتى يصلحها وقد رجح البخاري وغير واحد وقفه على عائشة وأخرج الترمذي بسند صحيح عن عائشة أنها كانت تقول لأخيفن أبا هريرة فيمشي في نعل واحدة وكذا أخرجه بن أبي شيبة موقوفا وكأنها لم يبلغها النهي وقولها لأخيفن معناه لأفعلن فعلا يخالفه وقد اختلف في ضبطه فروي لأخالفن وهو أوضح في المراد وروي لأحنثن من الحنث بالمهملة والنون والمثلثة واستبعد لكن يمكن أن يكون بلغها أن أبا هريرة حلف على كراهية ذلك فأرادت المبالغة في مخالفته وروي لأخيفن بكسر المعجمة بعدها تحتانية ساكنة ثم فاء وهو تصحيف وقد وجهت بأن مرادها أنه إذا بلغه أنها خالفته أمسك عن ذلك خوفا منها وهذا في غاية البعد وقد كان أبو هريرة يعلم **أن من الناس من** ينكر عليه هذا الحكم ففي رواية مسلم المذكورة من طريق أبي رزين خرج إلينا أبو هريرة فضرب بيده على جبهته فقال أما إنكم تحدثون أني أكذب لتهتدوا وأضل أشهد لسمعت فذكر الحديث وقد وافق أبا هريرة جابر على رفع الحديث فأخرج مسلم من طريق بن جريج أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابرا يقول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لا يمش في نعل واحدة الحديث ومن طريق مالك عن أبي الزبير عن جابر نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يأكل الرجل بشماله أو يمشي في نعل واحدة ومن طريق أبي خيثمة عن أبي الزبير عن جابر رفعه إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في نعل واحدة حتى يصلح شسعه ولا يمشي في خف واحد قال بن عبد البر لم يأخذ أهل العلم برأي عائشة في ذلك وقد ورد عن علي وبن عمر أيضا أنهما فعلا ذلك وهو إما أن يكون بلغهما النهي فحملاه على التنزيه أو كان زمن فعلهما يسيرا بحيث يؤمن معه المحذور أو لم يبلغهما النهي أشار إلى ذلك بن عبد البر والشسع بكسر المعجمة وسكون المهملة بعدها عين مهملة السير الذي يجعل فيه إصبع الرجل من النعل والشراك بكسر المعجمة وتخفيف الراء وآخره كاف أحد سيور النعل التي تكون في وجهها وكلاهما يختل المشي بفقده وقال عياض روي عن بعض السلف في المشي في نعل واحدة أو خف واحد أثر لم يصح أوله تأويل في المشي

اليسير بقدر ما يصلح الأخرى والتقييد بقوله لا يمش قد يتمسك به من أجاز الوقوف بنعل واحدة إذا عرض للنعل ما يحتاج إلى إصلاحها وقد اختلف في ذلك فنقل عياض." (١)

"وكذا السحر والقذف بشرب الخمر وترك الصلاة تكاسلا والفطر في رمضان والتعريض بالزنا وذهب بعضهم إلى أن المراد بالحد في حديث الباب حق الله قال بن دقيق العيد بلغني أن بعض العصريين قرر هذا المعنى بأن تخصيص الحد بالمقدرات المقدم ذكرها أمر اصطلاحي من الفقهاء وأن عرف الشرع أول الأمر كان يطلق الحد على كل معصية كبرت أو صغرت وتعقبه بن دقيق العيد أنه خروج عن الظاهر ويحتاج إلى نقل والأصل عدمه قال ويرد عليه أنا إذا أجزنا في كل حق من حقوق الله أن يزاد على العشر لم يبق لنا شيء يختص المنع به لأن ما عدا الحرمات التي لا يجوز فيها الزيادة هو ما ليس بمحرم وأصل التعزير أنه لا يشرع فيما ليس بمحرم فلا يبقى لخصوص الزيادة معنى قلت والعصري المشار إليه أظنه بن تيمية وقد تقلد صاحبه بن القيم المقالة المذكورة فقال الصواب في الجواب أن المراد بالحدود هنا الحقوق التي هي أوامر الله ونواهيه وهي المراد بقوله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون وفي أخرى فقد ظلم نفسه وقال تلك حدود الله فلا تقربوها وقال ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا قال فلا يزاد على العشر في التأديبات التي لا تتعلق بمعصية كتأديب الأب ولده الصغير قلت ويحتمل أن يفرق بين مراتب المعاصي فما ورد فيه تقدير لا يزاد عليه وهو المستثنى في الأصل وما لم يرد فيه تقدير فإن كان كبيرة جازت الزيادة فيه وأطلق عليه اسم الحد كما في الآيات المشار إليها والتحق بالمستثنى وإن كان صغيرة فهو المقصود بمنع الزيادة فهذا يدفع إيراد الشيخ تقي الدين على العصري المذكور إن كان ذلك مراده وقد أخرج بن ماجه من حديث أبي هريرة بالتعزير بلفظ لا تعزروا فوق عشرة أسواط وقد اختلف السلف في مدلول هذا الحديث فأخذ بظاهره الليث وأحمد في المشهور عنه وإسحاق وبعض الشافعية وقال مالك والشافعي وصاحبا أبي حنيفة تجوز الزيادة على العشر ثم اختلفوا فقال الشافعي لا يبلغ أدنى الحدود وهل الاعتبار بحد الحر أو العبد قولان وفي قول أو وجه يستنبط كل تعزير من جنس حده ولا يجاوزه وهو مقتضى قول الأوزاعي لا يبلغ به الحد ولم يفصل وقال الباقون هو إلى رأي الإمام بالغا ما بلغ وهو اختيار أبي ثور وعن عمر أنه كتب إلى أبي موسى لا تجلد في التعزير أكثر من عشرين وعن عثمان ثلاثين وعن عمر أنه بلغ بالسوط مائة وكذا عن بن مسعود وعن مالك وأبي ثور وعطاء لا يعزر إلا من تكرر منه ومن وقع منه مرة واحدة معصية لا حد فيها فلا يعزر وعن أبي حنيفة لا يبلغ أربعين وعن بن أبي ليلى وأبي يوسف لا يزاد على خمس وتسعين جلدة وفي رواية عن مالك وأبي يوسف لا يبلغ ثمانين وأجابوا عن الحديث بأجوبة منها ما تقدم ومنها قصره على الجلد وأما الضرب بالعصا مثلا وباليد فتجوز الزيادة لكن لا يجاوز أدنى الحدود وهذا رأي الإصطخري من الشافعية وكأنه لم يقف على الرواية الواردة بلفظ الضرب ومنها أنه منسوخ دل على نسخه إجماع الصحابة ورد بأنه قال به بعض التابعين وهو قول الليث بن سعد أحد فقهاء الأمصار ومنها معارضة الحديث بما هو أقوى منه وهو الإجماع على أن التعزير يخالف الحدود وحديث الباب يقتضي تحديده بالعشر فما دونها فيصير مثل الحد وبالإجماع على أن التعزير موكول إلى رأي الإمام فيما يرجع إلى

---

(١) فتح الباري لابن حجر ابن حجر العسقلاني ٣١٠/١٠

التشديد والتخفيف لامن حيث العدد لأن التعزير شرع للردع ففي الناس من يردعه الكلام ومنهم من لا يردعه الضرب الشديد فلذلك كان تعزير كل أحد بحسبه وتعقب بأن الحد لا يزاد فيه ولا ينقص فاختلفا وبأن التخفيف والتشديد مسلم لكن مع مراعاة العدد المذكور وبأن الردع لا يراعى في الأفراد بدليل **أن من الناس من** لا يردعه الحد ومع ذلك لا يجمع." (١)

"ولا نعلم خلافا أنه لو حلف لا يجلس على بساط، فجلس على الأرض لم يحنث، وقد سماها الله بساطا، وكذلك لو حلف لا يجلس تحت سقف فجلس تحت السماء، وقد سمى الله السماء سقفا، وكذلك لو حلف لا يجلس في ضوء سراج فجلس في ضوء الشمس.

فإن هذه الأسماء غير مستعملة في العرف، والأيمان إنما تنصرف إلى ما يتعارفه الناس في مخاطباتهم دون ما يصدق عليه الاسم بوجه ما في اللغة على وجه التجوز. والله أعلم.

وإنما قال أصحابنا: لو حلف ليرين امرأته عارية لابسة أنه يبرأ برؤيتها في الليل عارية؛ لأن جمعه بين عريها ولبسها قرينة تدل على أنه لم يرد لبسها لثيابها؛ فإن ذلك لا يجتمع مع عريها.

وأما نضح الحصير: فاختلف في معناه:

فقيل: هو تطهير له، وإزالة لما يتوهم فيه من إصابة النجاسة له مع كثرة استعماله وطول عهده في بيته يتربى فيه أولاد صغار.

وعلى هذا؛ فقيل: أن النضح هو الغسل، وقيل: بل هو الرش.

وهذا يستدل به على تطهير ما شك في نجاسته بالنضح، وقد سبق ذكر ذلك في ((كتاب: الوضوء)) ، وأن عمر وغيره فعلوه، **وأن من الناس من** خالف فيه، وقال: لا يزيده النضح إلا شرا.

وقيل: بل النضح هو تنظيف له من الوسخ، وتليين له.

وعلى هذا؛ فالمراد بالنضح فيه بالرش على ظاهر اللفظ.

وهو." (٢)

"وقد نص عليه أحمد في الشهادة بالجنة للصحابة الذين روي أنهم في الجنة؛ **فإن من الناس من** قال: يقال: إنهم في الجنة، ولا نشهد، فقال أحمد: إذا قال فقد شهد.

وسوى بين القول والشهادة في ذلك.

وأمافي أداء الشهادة عند الحاكم، فاعتبر أكثر أصحابنا لفظ الشهادة، وذكر القاضي أبو يعلي في موضع احتمالا آخر، بأنه لا يشترط ذلك.

وكان ابن عباس يروي – أحيانا –، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ما شهده وسمعه منه، ويقول: أشهد على رسول

---

(١) فتح الباري لابن حجر ابن حجر العسقلاني ١٧٨/١٢

(٢) فتح الباري لابن رجب ابن رجب الحنبلي ١٦/٣

الله – صلى الله عليه وسلم –، كما قال ذلك في روايته لخطبة العيد، وقد سبق حديثه بهذا في (كتاب العلم) في (باب: عظة الإمام النساء وتعليمهن) .

وقوله: (نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس) ، أول هذا الوقت المنهي عن الصلاة فيه إذا طلع الفجر، وهو المراد بقوله في هذه الرواية: (بعد الصبح) ؛ فإن الصبح هو الفجر، كما قال تعالى: ﴿والصبح إذا تنفس﴾ [التكوير: ١٨] ، وقال: ﴿إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب﴾ [هود: ٨١] .

وفي رواية لمسلم في هذا الحديث: نهى عن الصلاة بعد الفجر حتى تطلع الشمس

وهذا قول جمهور العلماء: أن أول وقت النهي عن الصلاة إذا طلع الفجر.

وروي معنى ذلك عن ابن عمر وابن عباس وعبد الله بن عمرو وأبي هريرة.

وقال النخعي: كانوا يكرهون ذلك.

وكرهه سعيد." (١)

"آخر ما يفقد من الدين، وأول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، انظر: السلسلة الصحيحة للألباني (١٧٣٩) ، (١٣٥٨) ، (١٧٤٨) ، وأن بها التمييز بين المسلم والكافر، رواه مسلم (١٣٤) ، وإقامتها تكون على حالتين: إحداهما واجبة، وهو أداؤها على أقل ما يحصل به فعل الواجب وتبرأ به الذمة، ومستحبة، وهو تكميلها وتتميمها بالإتيان بكل ما هو مستحب فيها.

٦ الزكاة هي قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال الله عز وجل: ﴿إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم﴾ ، وقال تعالى: ﴿فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين﴾ ، وقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة﴾ وهي عبادة مالية نفعها متعد، وقد أوجبها الله في أموال الأغنياء على وجه ينفع الفقير ولا يضر الغني؛ لأنها شيء يسير من مال كثير.

٧ صوم رمضان عبادة بدنية، وهي سر بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله سبحانه وتعالى؛ **لأن من الناس من** يكون في شهر رمضان مفطرا وغيره يظن أنه صائم، وقد يكون الإنسان صائما في نفل وغيره يظن أنه مفطر، ولهذا ورد في الحديث الصحيح أن الإنسان يجازى على عمله، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: "إلا الصوم فإنه لي، وأنا أجزي به"رواه البخاري (١٨٩٤) ، ومسلم (١٦٤) ، أي: بغير حساب، والأعمال كلها لله عز وجل، كما قال الله عز وجل: ﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾ ، وإنما." (٢)

---

(١) فتح الباري لابن رجب ابن رجب الحنبلي ٢٩/٥

(٢) فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله عبد المحسن العباد ص/٣١

"الموت يسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة أو يعمل بعمل أهل النار.

٩ أن الإنسان يجب أن يكون على خوف ورجاء؛ لأن من الناس من يعمل الخير في حياته ثم يختم له بخاتمة السوء، وأنه لا ينبغي له أن يقطع الرجاء؛ فإن الإنسان قد يعمل بالمعاصي طويلا، ثم يمن الله عليه بالهدى فيهتدي في آخر عمره.

١٠ قال النووي في شرح هذا الحديث: "فإن قيل: قال الله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ ، ظاهر الآية أن العمل الصالح من المخلص يقبل، وإذا حصل القبول بوعد الكريم أمن مع ذلك من سوء الخاتمة، فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يكون ذلك معلقا على شروط القبول وحسن الخاتمة، ويحتمل أن من آمن وأخلص العمل لا يختم له دائما إلا بخير.

ثانيهما: أن خاتمة السوء إنما تكون في حق من أساء العمل أو خلطه بالعمل الصالح المشوب بنوع من الرياء والسمعة، ويدل عليه الحديث الآخر: "إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس"، أي فيما يظهر لهم من إصلاح ظاهره مع فساد سريرته وخبثها، والله تعالى أعلم".

١١ مما يستفاد من الحديث:

١ بيان أطوار خلق الإنسان في بطن أمه.

٢ أن نفخ الروح يكون بعد مائة وعشرين يوما، وبذلك يكون إنسانا.." [(١)]

"٢٨٥٨ – (ألا أخبركم بخير الناس) أي بمن هو من خير الناس إذ ليس الغازي أفضل من جميع الناس مطلقا وكذا قوله (وشر الناس) إذ الكافر شر منه (إن من خير الناس رجلا عمل في سبيل الله عز وجل) أي جاهد الكفار لإعلاء كلمة الله (على ظهر فرسه أو على ظهر بعيره) أي راكبا على واحد منهما وخصهما لأنهما مراكب العرب غالبا إن لم يكن دائما فالراكب على بغل أو برذون أو حمار أو فيل في الفضل المذكور كذلك (أو على ظهر قدميه) أي ماشيا على قدميه ولفظ الظهر مقحم ويستمر ملازما على ذلك (حتى يأتيه الموت) بالقتل في سبيل الله أو بغيره (وإن من شر الناس رجلا فاجرا) أي منبعثا في المعاصي (جريئا) بالهمز على فعيل اسم فاعل من جرؤ جراءة مثل ضخم ضخامة –[١٠٣]– والاسم الجرأة كالغرفة وجرأته عليه بالتشديد فتجرأ واجترأ على القول أسرع بالهجوم عليه من غير توقف والمراد هنا هجام قوي الإقدام (يقرأ كتاب الله) القرآن (لا يرعوى) أي لا ينكف ولا ينزجر (إلى شيء منه) أي من مواعظه وزواجره وتقريعه وتوبيخه ووعيده. [(٢)]قد أشار هذا الخبر وما قبله إلى أن من الناس من هو خير بالطبع ومنهم من هو شر بالطبع أو ومنهم متوسط وجرى عليه طائفة مستدلين له بهذا الحديث ونحوه. وقال قوم: الناس يخلقون أخيارا بالطبع ثم يصيرون أشرارا بمجالسة أهل الشره والميل إلى الشهوات الرديئة التي لا تنقمع بالتأديب واستدلوا بخبر كل مولود يولد على الفطرة

---

(١) فتح القوي المتين في شرح الأربعين وتتمة الخمسين للنووي وابن رجب رحمهما الله عبد المحسن العباد ص/٣٧

(٢) تنبيه

وقال آخرون: الناس خلقوا من الطينة السفلى وهي كدر العالم فمنهم باعتبار ذلك أشرار بالطبع لكن فيهم أخيار بالتأديب ومنهم من لا ينتقل عن الشر مطلقا واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ قال في الفردوس: الارعواء الندم على الشيء والانصراف عنه والترك له

(حم ن ك عن أبي سعيد) الخدري قال: كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يخطب عام تبوك وهو مسند ظهره إلى راحلته فذكره." (١)

"٤٣٢٥ - (ذروني) أي اتركوني من السؤال (ما تركتكم) أي مدة تركي إياكم من الأمر بالشيء والنهي عنه فلا تتعرضوا لي بكثرة البحث عما لا يعينكم في دينكم مهما أنا تارككم لا أقول لكم شيئا فقد يوافق ذلك إلزاما وتشديدا وخذوا بظاهر ما أمرتكم ولا تستكشفوا كما فعل أهل الكتاب ولا تكثروا من الاستقصاء فيما هو مبين بوجه ظاهر وإن صلح لغيره لإمكان أن يكثر الجواب المرتب عليه فيضاهي قصة بقرة بني إسرائيل شددوا فشدد عليهم فخاف وقوع ذلك بأمته ومن ثمة علله بقوله (فإنما هلك من كان قبلكم) من أمم الأنبياء (بكثرة سؤالهم) إياهم عما لا يعنيهم (واختلافهم) بالضم لأنه أبلغ في ذم الاختلاف إذ لا تقييد حينئذ بكثرة السؤال بخلاف ما لو جر هذا ما جرى عليه بعض الشارحين وقال بعضهم: واختلاف عطف على الكثرة لا على السؤال لأن الاختلاف على الأنبياء حرام قل أو كثر وأثر تركتكم على ذرتكم ماضي ذروني لأن العرب لم تستعمله إلا في الشعر اغتناء عنه بترك كودع ماضي يدع (على أنبيائهم) فإنهم استوجبوا بذلك اللعن والمسخ وغير ذلك من البلايا والمحن وكثرة السؤال لتفرق القلوب ووهن الدين ومشعر بالعنت وأكثره مما ألبس فتنة أو شرب وأعقب عقوبة فلا ملجأ لما قيل إن النهي يخص زمن النبي صلى الله عليه وسلم من خوف تحريم أو إيجاب يشق لا يقال السؤال مأمور به بنص ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ فكيف يكون مأمورا منهيا لأنا نقول إنما هو مأمور فيما يأذن المعلم في السؤال عنه والحاصل أن من الناس من فرط فسد باب المسائل حتى قل فهمه وعلمه ومنهم من أفرط فتوسع حتى أكثر الخصومة والجدل بقصد المغالية وصرف وجوه الناس إليه حتى تفرقت القلوب وانشحنت بالبغضاء ومنهم من اقتصد فبحث عن معاني الكتاب والسنة والحلال والحرام والرقائق ونحوها مما فيه صفاء القلوب والإخلاص لعلام الغيوب وهذا القسم محبوب مطلوب والأولان مذمومان وبذلك عرف أن ما فعله العلماء من التأصيل والتفريع والتمهيد والتقرير في التأليفات مطلوب مندوب بل ربما كان واجبا شكر الله سعيهم قال ابن حجر: وكان ينبغي تلخيص ما يكثر وقوعه مجردا عما يندر سيما في المختصرات ليسهل تناوله (فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه) وجوبا في الواجب وندبا في المندوب (ما استطعتم) أي أطقتم لأن فعله هو إخراجه من العدم إلى الوجود وذلك -[٥٦٣]- يتوقف على شرائط وأسباب كالقدرة على الفعل ونحوها وبعضه لا يستطاع وبعضه له فلا جرم يسقط التكليف بما لا يستطاع إذ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها وبدلالة الموافقة له يخص عموم ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾ ويؤخذ منه كما قال النووي في الأذكار: ينبغي لمن بلغه شيء من فضائل الأعمال أن يعمل به ولو مرة ليكون من أهله ولا يتركه مطلقا بل يأتي بما تيسر منه لهذا الخبر (وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) أي دائما على كل تقدير ما دام منهيا عنه حتما في الحرام وندبا في

---

(١) فيض القدير المناوي ١٠٢/٣

المكروه إذ لا يتمثل مقتضى النهي إلا يترك جميع جزئياته وإلا صدق عليه أنه عاص أو مخالف وهذا موافق لآية ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وأما ﴿اتقوا الله حق تقاته﴾ فقيل نسخ وقيل تلك مفسرة لهذه. قال النووي: هذا الحديث من جوامع الكلم وقواعد الإسلام ويدخل فيه كثير من الأحكام كالصلاة لمن عجز عن ركن أو شرط فيأتي بمقدوره وكذا الوضوء وستر العورة وحفظ بعض الفاتحة وإخراج بعض زكاة الفطر لمن لم يقدر على الكل والإمساك في رمضان لمفطر بعذر قدر في أثناء النهار إلى غير ذلك

(حم م ن هـ عن أبي هريرة) قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره وظاهر صنيع المصنف أن ذا مما تفرد به مسلم عن صاحبه وليس كذلك بل رواه البخاري في الاعتصام عن أبي هريرة قال المناوي: وألفاظهما متقاربة." (١)

"من أفراد المسلمين منكر لا يخالف فيه مسلم إذا كان على طريق الغيبة أو البهتان، أو على طريق الشتم مواجهة، ومكافحة.

فكيف بمن جاء بما هو من أعظم البهتان، وأقبح الشتيمة للشريعة المحمدية، والدين الإسلامي، ولعلماء المسلمين سابقهم ولاحقهم؟ ﴿. فيالله وللمسلمين يالله وللمسلمين؟﴾ ! .

فإن هؤلاء لما رأوا كثيرا من العلماء يداهنونهم ويدارونهم اتقاء لشرهم ما زادهم ذلك إلا شرا، [ولا] اثر فيهم إلا تجرئا على ما هم فيه.

ولو تكلم أهل العلم بما يجب عليهم من نصر الشريعة والذب عن أهلها بما يجب عليهم لكانوا أقل شرا وأحقر ضرا.

وأقل حال أن يعرفوهم بأنهم من أهل الجهل [الذين] لا يستحقون خطايا ولا يستوجبون جوابا، فإن في هذا كفا لبعض ما صاروا عليه من الظن بأنفسهم الباطل، والخيال المختل لما يرونه من سكوت أهل العلم عنهم والصبر على ما يسمعونه منهم، ويبلغهم عنهم.

وقد يتسبب عن هذه الإهانة لهم بالتجهيل، والتضليل فائدة يندفع بها ببعض تجرئهم على كتاب الله وسنة رسوله، وعلماء أمته، **فإن من الناس من** يصلح بالهوان ويفسد بالإكرام، كما هو معلوم لكل من يعرف أحوال الناس واختلاف طبائعهم.." (٢)

"عند حضور الموت، فقال: ﴿ذوا عدل منكم﴾ يعني عدلين من المسلمين. وعلم **أن من الناس من** يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، ويحضره الموت فلا يجد من يشهده من من المسلمين، فقال: ﴿أو آخران من غيركم﴾ أي من غير أهل ملتكم. فالذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما تحبسونها من بعد الصلاة - بعد صلاة العصر - إن ارتبتم في شهادتهما وخشيتم أن يكونا قد خانا أو بدلا، فإذا حلفا مضت شهادتهما، فإن ظهر على أنهما استحقا إثما أي حنثا في اليمين بكذب أو خيانة فآخران، أي قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت، وهما الوليان، فيحلفان لقد ظهرنا على خيانة الذميين وكذبهما، وما اعتدينا عليهما، ولشهادتنا أصح لكفرهما وإيماننا، فيرجع

---

(١) فيض القدير المناوي ٣/٥٦٢

(٢) قطر الولي على حديث الولي = ولاية الله والطريق إليها الشوكاني ص/٣٤١

على الذميين بما اختانا، وينقض ما مضى من الحكم بشهادتهما تلك.
٩٤٢ - / ١١٣٠ وفي الحديث التاسع والخمسين: ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ [مريم: ٦٤] . [١٥] وللمفسرين في ذلك قولان: أحدهما: ما بين أيدينا الآخرة، وما خلفنا الدنيا، قاله سعيد بن الجبير. والثاني: على عكس هذا، قاله مجاهد.." (١)

"١٨٥١ - / ٢٢٩٥ - وفي الحديث الثامن والعشرين بعد المائة: ((من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة)) .

اعلم أن المملوك عبد لله كما أن المالك عبد له، والحق عز وجل عادل، فإذا لم يجلد لموضع قذفه له في الدنيا من جهة استعلائه عليه بالملكة جلد له في القيامة. أخبرنا المبارك بن أحمد الأنصاري قال: أخبرنا أبو الحسين بن عبد الجبار قال: أخبرنا محمد بن علي ابن الفتح قال: أخبرنا علي بن الحسين بن سكينة قال: أخبرنا محمد ابن القاسم بن مهدي قال: أخبرنا علي بن أحمد بن أبي قيس قال: أنبأنا أبو بكر القرشي قال: حدثني هارون بن سفيان قال: أخبرنا محمد بن عمر عن إسماعيل بن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال: من الناس من يقتل يوم القيامة ويقطع، يقتص منه. وعن إسماعيل بن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة قال: **إن من الناس من** يقتل يوم القيامة ألف قتلة، يعني: يقتص منه.

١٨٥٢ - / ٢٢٩٦ - وفي الحديث التاسع والعشرين بعد المائة: ((من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلا)) .
النزل: ما يهيأ للنزيل، والنزيل: الضيف.
١٨٥٣ - / ٢٢٩٧ - وفي الحديث الثلاثين بعد المائة: ((ليس المسكين بالذي ترده التمرة والتمرتان، إنما المسكين الذي يتعفف)) .." (٢)

"تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة)) . رواه أحمد، وأبوداود،

طريقتي وطريقة الخلفاء الراشدين، وقد كانت طريقهم هي نفس طريقته، فإنهم أشد الناس حرصا عليها، وعملا بها في كل شيء، وعلى كل حال، وكانوا يتوقون مخالفته في أصغر الأمور فضلا عن أكبرها، وكانوا إذا أعوزهم الدليل من كتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - عملوا بما يظهر لهم من الرأي بعد الفحص والبحث والتشاور والتدبر، وهذا الرأى عند عدم الدليل هو أيضا من سنته لما دل عليه حديث معاذ لما قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((بما تقضى؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد. قال: فبسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. قال: فإن لم تجد. قال: أجتهد رأيي. قال: الحمدلله الذي وفق رسول رسوله)) . أو كما قال. وهذا الحديث وإن تكلم فيه بعض أهل العلم

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين ابن الجوزي ٤١٧/٢
(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين ابن الجوزي ٤٠٢/٣

بما هو معروف فالحق أنه من قسم الحسن لغيره، وهو معمول به، فإن قلت: إذا كان ما عملوا فيه بالرأي هو من سنته لم يبق لقوله: "وسنة الخلفاء الراشدين" ثمرة. قلت: ثمرته **أن من الناس من** لم يدرك زمنه - صلى الله عليه وسلم - وأدرك زمن الخلفاء الراشدين، أو أدرك زمنه وزمن الخلفاء، ولكنه حدث أمر لم يحدث في زمنه، ففعله الخلفاء، فأشار بهذا الإرشاد إلى سنة الخلفاء إلى دفع ما عساه يتردد في بعض النفوس من الشك، ويختلج فيها من الظنون، فأقل فوائد الحديث أن ما يصدر عنهم من الرأي وإن كان من سنته كما مر ولكنه أولى من رأي غيرهم عند عدم الدليل. وبالجملة فكثيرا ما كان - صلى الله عليه وسلم - ينسب الفعل أو الترك إليه وإلى أصحابه في حياته مع أنه لا فائدة لنسبته إلى غيره مع نسبته إليه؛ لأنه محل القدوة ومكان الأسوة -انتهى. وقيل المعنى في ذكر سنة الخلفاء مع سنته: أن يعلم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - مات وهو على تلك السنة، وأنه لايحتاج مع قول النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى قول أحد، فلا زائد إذا على ما ثبت في السنة النبوية، إلا أنه قد يخاف أن تكون منسوخة بسنة أخرى، فافتقر العلماء إلى النظر في عمل الخلفاء بعده ليعلموا أن ذلك هو الذي مات عليه النبي - صلى الله عليه وسلم - من غير أن يكون له ناسخ؛ لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث فالأحدث من أمره (تمسكوا بها) أي بالسنة (وعضوا) بفتح العين (عليها) أي على السنة (بالنواجذ) بالذال المعجمة، وهي الأضراس جمع ناجذة أراد به الجد في لزوم السنة، كفعل من أمسك الشيء بين أضراسه، وعض عليه منعا من أن ينتزع، أو الصبر على ما يصيب من التعب في ذات الله كما يفعله المتألم بالوجع يصيبه ولا يرد أن يظهره. (وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة) فيه تحذير للأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وأكد ذلك بقوله: (وكل بدعة ضلالة) والمراد بالبدعة ما أحدث في الدين ما لا أصل له في الشريعة يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعة شرعا وإن كان بدعة لغة. وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع فإنما ذلك في البدع اللغوية لا الشرعية، فمن ذلك قول عمر - رضي الله عنه - لما جمع الناس في قيام رمضان على إمام واحد في المسجد، وخرج ورآهم يصلون كذلك فقال: نعمت البدعة هذه. فالبدع الشرعية كلها مذمومة؛ لأنها موجبة للضلال والغواية، وارجع إلى الاعتصام (ج١:ص١٤٧، ١٦٧) وشرع الأربعين لابن رجب (ص١٨٥-١٩٣) (رواه أحمد) (ج٤:ص١٢٦، ١٢٧) (وأبوداود) في السنة." [(١)]

"٤٩٩٣ - وعنه قال: «إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف على ناس جلوس فقال: " ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ " قال: فسكتوا فقال ذلك ثلاث مرات فقال رجل: بلى يا رسول الله! أخبرنا بخيرنا من شرنا فقال: " خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره» ". رواه الترمذي، والبيهقي في " شعب الإيمان ". وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٤٩٩٣ - (وعنه) أي: عن أبي هريرة - رضى الله عنه - (قال: «إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقف على ناس جلوس») أي: جالسين أو ذوي جلوس («فقال: ألا أخبركم بخيركم من شركم») ؟ أي: مميزا منه حال من

---

(١) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح عبيد الله الرحماني المباركفوري ١/٢٦٤

المتكلم (قال) أي: الراوي (فسكتوا) أي: متوقفين في أن السؤال أولى أو السكوت أحرى خوفا من أن يكون من باب: " ﴿لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم﴾ [المائدة: ١٠١] " وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم: " «وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها» ". (فقال ذلك) أي: الكلام السابق (ثلاث مرات) : فلما أفاد التكرار أنه لا بد من الاختيار أجاب بعضهم (فقال رجل) أي: كل الرجل شديد القلب فتنوينه للتعظيم («بلى يا رسول الله! أخبرنا بخيرنا من شرنا») . وفيه بسط الكلام بمقتضى انبساط المقام (فقال) أي: بطريق الإبهام احترازا من فضيحة الأنام («خيركم من يرجى خيره») : فخير الأول بمعنى الأخير، والثاني مفرد الخيور أي: من يرجو الناس منه إحسانه إليهم (ويؤمن شره) ، أي: من يأمنون عنه عن إساءته عليهم («وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره») . وترك ذكر من يأتي منه الخير والشر ونقيضه، فإنهما ساقطا الاعتبار حيث تعارضا تساقطا، ونظيره ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر ما معناه: أن من الناس من هو سريع الغضب سريع الفيء، فهذا بذاك، ومنهم بطيء الغضب بطيء الفيء، فكذلك وخيرهم من يكون بطيء الغضب سريع الرجوع، وشرهم عكس ذلك، هذا وقال الطيبي: ولما توهموا معنى التمييز وتخوفوا من الفضيحة سكتوا حتى كرر ثلاثا، ثم أبرز البيان في معرض العموم، لئلا يفضحوا فقال: (خيركم) . والتقسيم العقلي يقتضي أربعة أقسام ذكر منها اثنتين ترغيبا، وترهيبا، وترك قسمين ؛ لأنه ليس فيهما ترغيب وترهيب. (رواه الترمذي، والبيهقي في شعب الإيمان وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح) .

وفي الجامع الصغير: " «خيركم من يرجى خيره» " الحديث. رواه أبو يعلى في مسنده عن أنس، وأحمد والترمذي عن أبي هريرة، ورواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة بلفظ: " «ألا أخبركم بخيركم من شركم؟ خيركم من يرجى خيره» " إلخ. وروى ابن عساكر عن معاذ بلفظ: " «ألا أنبئكم بشر الناس؟ من أكل وحده ومنع رفده، وسافر وحده وضرب عبده، ألا أنبئكم بشر من هذا؟ من يبغض الناس ويبغضونه. ألا أنبئكم بشر من هذا؟ من يخشى شره: لا يرجى خيره. ألا أنبئكم بشر من هذا؟ من باع آخرته بدنيا غيره. إلا أنبئكم بشر من هذا؟ من أكل الدنيا بالدين» ".." (١)

"لم يعلم. ومنها: قوله أيضا في قوله: تروح عليهم بسارحته، سقط منه فاعل تروح، فالتبس المعنى على من لم يعلم به، وإنما الصواب: يروح عليهم رجال بسارحة لهم، كذا رواه مسلم في كتابه، وإنما السهو من المؤلف ؛ لأنا وجدنا النسخ سائرها على ذلك، ومنها قوله: ويضع العلم سقط كلمة وهي (عليهم) ، انتهى.

ويؤيده ما ذكره صاحب المفاتيح من شراح المصابيح، من أن الحر بحاء مهملة مكسورة وراء مهملة مخففة، وأصله الحرح، فحذفت الحاء الأخيرة، وجمعه أحراح، والحر: الفرج، يعني: قد يكون جماعة في آخر الزمان يزنون ويعتقدون أنه إذا رضي الزوج والمرأة حل منها جميع أنواع الاستمتاعات، ويقولون: المرأة مثل البستان، فكما أن لصاحب البستان أن يبيح ثمرة بستانه لمن شاء، فكذلك للزوج أن يبيح زوجته لمن شاء، والذين لهم هذا الاعتقاد هم الحرفيون والملاحدة، وأما لبس الحرير فهو حرام على الرجال، ومن اعتقد حله فهو كافر، وفي هذا الحديث اختلف نسخ المصابيح في موضعين لأحدهما في الحر فإنه في بعض النسخ بالخاء والزاي المعجمتين، والصواب ما قلنا فإنه ذكر في سنن أبي داود

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القاري ٣١٢٧/٨

بالحاء والراء المهملتين، والموضع الثاني قوله: يروح عليهم رجل بسارحته لهم، ففي بعض النسخ هكذا، وفي بعضها يروح عليهم من غير لفظ رجل، والرجل مذكور في سنن أبي داود، وأفاد هذا الحديث أنه يكون في آخر الزمان نزول الفتن، ومسخ الصور، فليجتنب المؤمن المعاصي ؛ كيلا يقع في العذاب ومسخ الصور.

قال الطيبي – رحمه الله – بعد نقله كلام الشارح الأول: أما قوله أولا فقد صحف إلى آخره، فجوابه ما ذكره الحميدي في الجمع بين الصحيحين في هذا الحديث، بعد ما روى: يستحلون الخز، بالخاء والزاي المعجمتين، قلت: معارضة الخصم لا تصلح أن تكون جوابا، قال: والذي ذكره إسحاق الحربي في باب الحاء والراء ليس من هذا في شيء، إنما هو حديث آخر عن أبي ثعلبة عن النبي – صلى الله تعالى عليه وسلم – قال: " «أول دينكم نبوة ورحمة، ثم ملك ورحمة وخيرة، ثم ملك غض يستحل فيه الحر والحرير» "، يريد استحلال الحرام من الفروج، وهذا لا يتفق مع الذي أخرجه البخاري، وكذلك أخرجه أبو داود في السنن في كتاب اللباس في باب الخز ولباسه، وإنما ذكرنا ذلك **لأن من الناس من** يتوهم في ذلك شيئا فبيناه، وحديث أبي ثعلبة ليس من شرط الصحيح، ثم كلامه أي: كلام أبي إسحاق، وقريب منه ما ذكره صاحب النهاية في باب الحاء والراء المهملتين، قلت: كونه حديثا آخر مسلم، لكنه مؤيد للمنازع فيه، بل نص في المعنى المراد، ولا يضره أنه ليس على شرط الشيخين إذا ثبت صحته، والأصل توافق الأحاديث لأن بعضها يفسر بعضا، لا سيما والخز بالزاي ليس من المحرمات حتى يكون استحلاله من الكفريات، ثم رأيت في الجامع الصغير أن ابن عساكر روى عن علي مرفوعا: «أوشك أمتي أن تستحل فروج النساء والحرير» .

وأما قوله ثانيا: والخز لم يحرم حتى يستحل، فجوابه ما ذكره ابن الأثير في النهاية في حديث علي، أنه نهى عن ركوب الخز والجلوس عليه، والخز المعروف في الزمن الأول ثياب تنسج من صوف وإبريسم، وهي مباحة، وقد لبسها الصحابة والتابعون فيكون النهي عنها لأجل التشبه بالعجم وزي المترفين، وإن أريد بالخز النوع الآخر، وهو المعروف الآن، فهو حرام، لأن جميعه معمول من الإبريسم، وعليه يحمل الحديث الآخر معنى هذا الحديث يستحلون الخز والحرير، تم كلامه، أي: كلام ابن الأثير، وفيه أن كون الركوب على الخز وفراشه مكروها، مع أن الحرير كذلك لا يقتضي أن استباحته كفر يوجب العذاب، لا سيما والخز لغة واصطلاحا في زمنه – صلى الله تعالى عليه وسلم – كان من جملة المباحات، فكيف يصح أن يحمل عليه؟ وأما على ما تعورف عند بعض الناس من حمل الخز على الإبريسم، فيعد كلامه – صلى الله تعالى عليه وسلم – أن يفسر به، لا سيما مع وقوع تكراره مع صريح لفظ الحرير، والأصل التغاير بين المتعاطفين.

قال الطيبي – رحمه الله –: فإن قلت: كيف يعطف الحرير على الخز، والأول مكروه، والثاني حرام على المعنى الأول، وعلى الثاني يلزم عطف الشيء على نفسه، أو كيف يحرم وأنه لم يكن مصطلحا حينئذ؟ والجواب." (١)

"لبيد] (١)، وابن لبيد هذا (٢) هو الذي عقل المجة (٣)، وذكر البخاري **أن من الناس من** قال فيه: محمود بن رافع، ومحمد بن رافع، ثم ذكر محمود بن لبيد (٤) عن رافع.

ووقع في كتاب مسلم في حديث الكسوف: " ورأيت فيها عمرو بن لحي يجر قصبه" (٥) هذا هو المعروف، وفي بعض

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح الملا على القاري ٣٣٤٨/٨

نسخه: "عمرو بن يحيى" وكذا ذكره محمد بن أبي نصر الحميدي في اختصاره الصحيحين (٦)، وهو خطأ محض.
وفي باب إذا قال المكاتب اشترني وأعتقني: "كنت لعتبة بن أبي لهب" (٧) كذا لهم، وعند الأصيلي: "لعتبة بن أبي وهب" وهو خطأ (٨).

(١) ساقطة من النسخ الخطية، والمثبت من "المشارق" ١/ ٣٧٠.

(٢) ساقط من (س، د، ظ)، وفي (د): (هو).

(٣) وقع كذلك في النسخ، وإنما الذي عقل المجة محمود بن الربيع كما في "المشارق" ١/ ٣٧٠ والحديث في البخاري (٨٣٩)، ومسلم (٣٣/ ٢٦٥).

(٤) في (س، د): (ربيع).

(٥) مسلم (٩٠١/ ٣) من حديث جابر بنحوه، والحديث في البخاري (١٢١٢) أيضا بنحوه.

(٦) "الجمع بين الصحيحين" ٤/ ٧٠، والذي في مطبوعه: "ابن لحي" على الصواب.

(٧) البخاري (٢٥٦٥) من حديث عائشة.

(٨) في (أ): (وهم). وجاء فيها بعد هذه الكلمة: والله تعالى أعلم، والحمد لله وحده، تم الجزء الأول، يتلوه إن شاء الله تعالى في الجزء الثاني: حرف الميم مع الهمزة، (مئنة) قد تقدم على يد العبد الفقير إلا الله تعالى محمد بن علي الدموشي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، بتاريخ الثامن والعشرين من شهر شعبان المكرم سنة ثمان وسبعين وسبعمائة. قلت [المحقق]: قد سقط من هذه النسخة في أول الجزء الثاني المذكور: من: (حرف الميم مع الهمزة) حتى قوله في آخر حرف الضاد: (في البخاري في حديث مدعم).." [١]

"وكان بعض أصحاب الشافعي يقول إذا كان السارق ضعيف البدن فخيف عليه من القطع التلف لم يقطع.
وقال بعضهم هذا الحديث أصل في وجوب القصاص على من قتل رجلا مريضا بنوع من الضرب لو ضرب بمثله صحيحا لم يهلك فإنه يعتبر خلقة المقتول في الضعف والقوة وبنيته في احتمال الألم **فإن من الناس من** لو ضرب الضرب المبرح الشديد لاحتمله بدنه وسلم عليه، ومنهم من لا يحتمله ويسرع إليه التلف بالضرب الذي ليس بالمبرح الشديد فإذا مات هذا الضعيف كان ضاربه قاتلا له وكان حكم الآخر بخلافه لقوة هذا وضعف ذلك.

قلت وهذا قول فيه نظر وضبط ذلك غير ممكن واعتباره متعذر والله أعلم.

وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابه لا نعرف الحد إلا حدا واحدا الصحيح والزمن فيه سواء.

قالوا ولو جاز هذا لجاز مثله في الحامل أن تضرب بشماريخ النخل ونحوه، فلما أجمعوا أنه لا يجري ذلك في الحامل كان الزمن مثل ذلك.

(١) مطالع الأنوار على صحاح الآثار ابن قرقول ٣/٤٨٣

ومن باب الحد في الخمر

قال أبو داود: حدثنا الحسن بن على ومحمد بن المثنى وهذا حديثه قالا: حدثنا أبو عاصم عن ابن جريج عن محمد بن علي بن ركانة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقت في الخمر حدا. وقال ابن عباس شرب رجل فسكر فلقي يميل في الفج فانطلق به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فلما حاذى بدار العباس رضي الله عنه انفلت فدخل على العباس فالتزمه فذكر." (١)

". . . . .

ـــــــــoالشافعي: لا يجوز السدل في الصلاة ولا في غيرها للخيلاء، ولغيرها خفيف، لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر انتهى. قال ابن العربي: لا يجوز للرجل أن يجاوز بثوبه كعبه ويقول: لا أجره خيلاء، لأن النهي قد تناوله لفظا ولا يجوز لمن تناوله لفظا أن يخالفه إذ صار حكمه أن يقول: لا أمتثله، لأن تلك العلة ليست في. فإنها دعوى غير مسلمة، بل إطالة ذيله دالة على تكبره انتهى.

وحاصله أن الإسبال يستلزم جر الثوب وجر الثوب يستلزم الخيلاء ولو لم يقصده اللابس. ويدل على عدم اعتبار التقييد بالخيلاء ما أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي، وصححه من حديث جابر بن سليم من حديث طويل فيه «وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنها من المخيلة وإن الله لا يحب المخيلة» .

وما أخرج الطبراني من حديث أبي أمامة قال: «بينما نحن مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذ لحقنا عمرو بن زرارة الأنصاري في حلة إزار ورداء قد أسبل، فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يأخذ بناحية ثوبه ويتواضع لله عز وجل ويقول: عبدك وابن عبدك وأمتك حتى سمعها عمرو فقال: يا رسول الله إني أحمش الساقين، فقال: يا عمرو إن الله تعالى قد أحسن كل شيء خلقه، يا عمرو إن الله لا يحب المسبل» . والحديث رجاله ثقات

وظاهره أن عمرا لم يقصد الخيلاء، وقد عرفت ما في حديث الباب من قوله - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر: " إنك لست ممن يفعل ذلك خيلاء " وهو تصريح بأن مناط التحريم الخيلاء، وأن الإسبال قد يكون للخيلاء، وقد يكون لغيره فلا بد من حمل قوله " فإنها المخيلة " في حديث جابر بن علي أنه خرج مخرج الغالب، فيكون الوعيد المذكور في حديث الباب متوجها إلى من فعل ذلك اختيالا، والقول بأن كل إسبال من المخيلة أخذا بظاهر حديث جابر ترده الضرورة، فإن كل أحد يعلم **أن من الناس من** يسبل إزاره مع عدم خطور الخيلاء بباله، ويرده ما تقدم من قوله - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر لما عرفت.

وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث وعدم إهدار قيد الخيلاء المصرح به في الصحيحين، وقد جمع بعض المتأخرين رسالة طويلة جزم فيها بتحريم الإسبال مطلقا، وأعظم ما تمسك به حديث جابر. وأما حديث أبي أمامة فغاية ما فيه التصريح بأن الله لا يحب المسبل، وحديث الباب مقيد بالخيلاء وحمل المطلق على المقيد واجب وأما كون الظاهر من عمرو أنه لم يقصد الخيلاء فما بمثل هذا الظاهر تعارض الأحاديث الصحيحة، وسيأتي ذكر المقدار الذي يعد

---

(١) معالم السنن الخطابي ٣/٣٣٧

إسبالا، وذكر عموم الإسبال لجميع اللباس. ومن الأحاديث الدالة على أن الإسبال من أشد الذنوب ما أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي ذر عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم، قلت: من هم يا رسول الله فقد خابوا وخسروا؟ فأعادها ثلاثا، قلت." (١)

"٩٦٨ – (وعن ربيعة بن كعب قال: «كنت أبيت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – آتيه بوضوئه وحاجته، فقال: سلني، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ فقلت: هو ذاك، فقال: أعني على نفسك بكثرة السجود» رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود)

٩٦٩ – (وعن جابر أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: «أفضل الصلاة طول القنوت» . رواه أحمد ومسلم وابن ماجه والترمذي وصححه) .

ــــــــQرسول الله – صلى الله عليه وسلم – " فذكر الحديث، وهو يدل على أن كثرة السجود مرغب فيها والمراد به، السجود في الصلاة

وسبب الحث عليه ما تقدم في الحديث الذي قبل هذا " إن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد " وهو موافق لقوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾ [العلق: ١٩] كذا قال النووي.

وفيه دليل لمن يقول: إن السجود أفضل من القيام وسائر أركان الصلاة.

وفي هذه المسألة مذاهب: أحدها: أن تطويل السجود وتكثير الركوع والسجود أفضل حكاه الترمذي والبغوي عن جماعة. وممن قال بذلك ابن عمر

والمذهب الثاني: أن تطويل القيام أفضل لحديث جابر الآتي، وإلى ذلك ذهب الشافعي وجماعة وهو الحق كما سيأتي.

والمذهب الثالث: أنهما سواء، وتوقف أحمد بن حنبل في المسألة، ولم يقض فيها بشيء

وقال إسحاق بن راهويه: أما في النهار فتكثير الركوع والسجود أفضل، وأما في الليل فتطويل القيام إلا أن يكون للرجل جزء بالليل يأتي عليه فتكثير الركوع والسجود أفضل، لأنه يقرأ جزأه ويربح كثرة الركوع والسجود. قال ابن عدي: إنما قال إسحاق هذا لأنهم وصفوا صلاة النبي – صلى الله عليه وسلم – بالليل بطول القيام ولم يوصف من تطويله بالنهار ما وصف من تطويله بالليل.

٩٦٨ – (وعن ربيعة بن كعب قال: «كنت أبيت مع النبي – صلى الله عليه وسلم – آتيه بوضوئه وحاجته، فقال: سلني، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، فقال: أو غير ذلك؟ فقلت: هو ذاك، فقال: أعني على نفسك بكثرة السجود» رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبو داود) . قوله: (سلني) فيه جواز قول الرجل لأتباعه ومن يتولى خدمته: سلوني حوائجكم

قوله: (مرافقتك) فيه دليل على **أن من الناس من** يكون مع الأنبياء في الجنة.

وفيه أيضا جواز سؤال الرتب الرفيعة التي تكبر عن السائل قوله: (أعني على نفسك بكثرة السجود) فيه أن السجود من

---

(١) نيل الأوطار الشوكاني ٢/١٣٣

أعظم القرب التي يكون بسببها ارتفاع الدرجات عند الله إلى حد لا يناله إلا المقربون

وبه أيضا استدل من قال: إن السجود أفضل من القيام كما تقدم.

٩٦٩ - (وعن جابر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «أفضل الصلاة طول القنوت» . رواه." [١]

"باب من

مجاري أواخر الكلم من العربية

اعلم أن أبا الحسن قال في قول الراجز:

خالط من سلمى خياشم وفا

إن التقدير: وفاها، فحذف المضاف إليه، وكذلك قال في قولهم: لتيس غير؛ إن التقدير: ليس غيره.

وحكى بعضهم **أن من الناس من** قد لحنه، والتلحين ليس بشيء؛ لاحتماله ما قال أبو الحسن.

وفيه قول آخر: وهو أنه جاء به على قول من لم يبدل من التنوين الألف في النصب، ولكن جعل النصب؛ في أن لم يبدل من التنوين فيه الألف، كالجر والرفع، كما جعلوا النصب في نحو:

كفى بالنأي من أسماء كاف." [٢]

"التي كانت تجب للياء التي حذفتها في ذوين كما حذفتها من عمين.

ونظير ذلك قولهم: كسرت في، أتبعت الفاء التي هي فاء، الحركة التي كانت تجب للياء المنقلبة عن الواو، التي هي عين فم.

فإن قلت: أفتجد شيئا من هذه الأشياء التي يسميها قوم، المعربة من مكانين قد أتبع

في موضعين، مرة أتبع الفاء العين، ومرة أتبع العين اللام، حتى يجوز ما قدرته من هذا التقدير، في الذوينا.

قلنا: قد أرينا ذلك في امرئ، والمرء قد اتبعا من موضعين أيضا. وفي هذا الجمع شيء آخر، وهو أن عامة هذه الجموع، إذا جاء من غير ألفاظ أحادها، لم يجمع نحو رجل وقوم، وامرأة ونساء، وشاة وشاء، وجمل وجامل، وألو وألات، جمع ذا وذوات، على هذا الحد وقد جمع بالألف والتاء والواو والنون، وقد قالوا: نسوة ونساء، فكأنهم لما استجازوا تكسيره في نساء، كذلك استجازوا جمعه بالواو والنون، والألف والتاء.

وحكى بعض البغداديين، **أن من الناس من** يعيب على الكميت قوله: الذوينا، ووجه العيب عندي أنه أفرد ما قد لزمته

---

(١) نيل الأوطار الشوكاني ٣/٩١

(٢) كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، أبو علي الفارسي ص/١١٠

الإضافة ولم يفرد، وكأنه أفرده، لأن الإضافة لما كانت قد لزمته، علم أنه وإن أفرد، كان المراد به الإضافة، كما أن كلا كذلك، والقياس." (١)

"ما صدقت عيني معنى قول جران العود.

سقيا لزورك من زور أتاك به ... حديث نفسك عنه وهو مشغول

وأظهر منه قول ذي الرمة:

أراني إذا هومت يا مي زرتني ... فيا نعمتا لو أن رؤياي تصدق

وقد قال البحتري:

سرى من أعالي الشام يجلبه الكرى ... هبوب نسيم الريح تجلبه الصبا

ولو كان حقا ما أتته لأطفأت ... غليلا ولا فكت أسيرا معذبا

وقد ملح بعض المحدثين في هذا المعنى مع إكثارهم فيه:

قد جاد طيفك لي بوعدك ... وأذالني من طول صدك

ودنا إلي معا نقا ... ومصافحا خدي بخدك

وظفرت منك بما هويت ... بحمد طيفك لا بحمدك

وحللت عقد إزاره ... حل الخيانة عقد ودك

وإنما أوردنا هذا البيت ومعناه ظاهر، **لأن من الناس من** يظن أن." (٢)

"منه،

والسلام: الحجارة، الواحدة سلمة، و (خلقا) منصوب على الحال من الرسم، والكاف منصوبة بعرى، وما: مصدرية، ويروى (كما ضمن الوحي) بفتح الواو، وأصلاه الموحو، فصرف عن مفعول إلى فعيل، كما قالوا مقدور وقدير، ومقتول وقتيل.

(دمن تجرم بعد عهد أنيسها ... حجج خلون حلالها وحرامها)

الدمن: جمع دمنة، وهي الآثار وما سودوا بالرماد وغير ذلك، وتجرم: تقطع، وقيل تكمل، وحول مجرم: مكمل، وقوله (بعد عهد أنيسها) أي بعد نزول الأنيس فيها، والحجج: السنون، الواحدة حجة بكسر الحاء، ويقال (حج حجة) بكسر الحاء، أي عمل عمل سنة، ولا يقال: حجة بالفتح لانك لا تريد قصدة واحدة، فإن أردت المصدر قلت: حججت حجا، و (حلالها) يريد به الشهور الحلال، و (حرامها) يريد الشهور الحرم، ورفع حلالها على إنه بدل من حجج، وحرامها معطوف عليه، ويروى (دمنا تجرم) بالنصب على الحال من الديار والمنازل المذكورة، والحجج رفع بتجرم.

إن قيل: حجج يقع للقليل والكثير، ولا يدري حقيقة ما أراد من المدد، فما معنى تكمل سنين لا يعرف كم هي؟

---

(١) كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، أبو علي الفارسي ص/١٦٧

(٢) الفتح على أبي الفتح، ابن فورجة ص/٥٦

فالجواب على ما حكاه ابن كيسان عن بندار **أن من الناس من** يتجنب دخول الديار في شهور الحل، وهي ثمانية، ويدخلها في الشهور الحرم، وهي أربعة: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأنه آمن، وهذا يصف أن هذه الديار لا يدخلها آمن ولا خائف لخرابها، فقد تكملت لها أحوال على هذا يؤكد بها محو آثارها.

(رزقت مرابيع النجوم، وصابها ... ودق الرواعد جودها فرهامها)." (١)

"كناية عن علمه بالأشياء ووضعها في مواضعها؛ **لأن من الناس من** لا يشفي من الداء كيه لجهله بالداء وبمواضع الكي، وهو مثل يدخل تحته علمه بالحرب وغيرها.

وإن جعل من قولهم: آخر الطب الكي، فمعناه إنه صبور على الأعداء، حليم عنهم، غير مستعجل بهلاكهم لعلهم يرجعون عن خلافه إلى طاعته فيسلمون، وفي ذلك بقيا عليهم، فإن أبوا إلا تماديا ولجاجا، كان آخر أمرهم معه هلاكهم.

وقوله: الطويل

قبائعها تحت المرافق هيبة ... وأنفذ مما في الجفون عزائمه

قال: يقول: قاموا متكئين على قبائع سيوفهم هيبة له وتعظيما.

وأقول: هذا التفسير ليس بشيء! لأنهم إذا كانوا متكئين عليها لا تكون تحت مرافقهم، وإنما تكون كذلك إذا كانت مشدودة في أوساطهم أو معلقة في حمائلهم. ويحتمل أن يكون إنما يفعل بها ذلك لأنها على اسمه؛ لأنه سيف وهي سيوف فتختفي تحت مرافق حامليها هيبة له، ويجعل الفعل لها على طريق المجاز، أو لحامليها. وهذا التفسير ما علمت أحدا سبقني إليه!

وقوله: الطويل

له عسكرا خيل وطير إذا رمى ... بها عسكرا لم تبق إلا جماجمه." (٢)

"أن ينقب عن آثار الأقدمين القواعد التي يجب أن يسير عليها من يريد النجاح في هذه الحلبة التي تصطرع فيها الغيلان من الناس، ويضعها في صورة مرحة ولكنها مهلكة قاتلة (٢٩). وهو يسخر من النهمين الذين يملئون بطونهم بشهي الطعام، ولكنهم لا يستطيعون المشي على أرجلهم لأنهم مصابون بالرثية (٣٠)، ويذكر من "يمتدح الأيام الماضية" بأنه إذا جاءه إله ليعبده إلى تلك الأيام أبى وتمنع (٣١)، ويقول إن أحسن ما في الماضي هو علم الإنسان أنه لن يضطر إلى أن يحيا مرة أخرى. وهو يعجب كما يعجب لكريشيوس من ذوي الأرواح القلقة الذين إذا كانوا في المدن تاقوا إلى سكنى الريف، فإذا سكنوا الريف تاقوا إلى المدن، والذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بما عندهم، **لأن من الناس من** عنده أكثر منهم؛ والذين لا يقنعون بزوجاتهم ويهيمون بخيالهم المفرط في العظمة وفي الحقارة معا بجمال غيرهن من النساء اللائي أصبحن في نظر غيرهم من الرجال ولا جمال لهن. ويختتم نصائحه بقوله إن جنون المال هو مرض رومة القتال، ويسأل من يقضي أيامه في جمع الذهب: "لم تسخر من تنتلس لأن الماء يبتعد عن شفتيه الظامئتين على الدوام؟ ليس

---

(١) شرح القصائد العشر، التبريزي، أبو زكريا ص/١٣١

(٢) المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، المهلبي، أبو العباس ١٧٩/٥

عليك إلا أن تبدل الأسماء فتنطبق القصة عليك أنت (٣٢) " ثم يهجو نفسه أيضا؛ فهو يصور عبده يقول له في وجهه إنه، وهو الداعي إلى أحسن الخلق، رجل أحمق حاد الطبع لا يعرف قط ما يدور في عقله أو ما يهدف أليه، وأنه عبد شهواته ككل إنسان آخر. وما من شك في أنه يوصي نفسه، كما يوصي غيره، بسلوك الطريقة الوسطى الذهبية إذ يقول: "إن للأشياء حدا ومقياسا (٣٤) " لا يقصر الرجل الذكي عنه ولا يتجاوزه. وهو في بداية كتاب الهجاء الثاني يشكو إلى صديق له أن المجموعة الأولى قد انتقدت أشد النقد، فقيل فقيل إنها مفرطة في الخشونة وفي الضعف، ثم يستنصح الصديق فيقول له: "استرح" فيعترض عليه الشاعر بقوله: "ماذا؟ ألا أكتب الشعر قط"؟ فيجيبه "نعم" فيقول "ولكني لن أستطيع النوم (٣٥) ".." (١)

"وكثيرا ما كانت تؤثر تأثيرا كبيرا في خططها؛ وكانت في نظير هذه المزايا وهذا التأثير تعمل كأنها أعضاء في الإدارة القومية، فكانت تساعد الحكومة على وسائل من الإشراف الحكومي شبيهة بهذه الوسائل في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع إلى مصانع الأسلحة القائمة في الولايات، وإلى صناعة الأطعمة والملابس. وفي ذلك يقول بول-لوي Paul Louis: " وكان كل ولاية رقيب خاص يشرف على نواحي النشاط الصناعي، وأصبحت الدولة في كل مدينة كبيرة صاحب عمل وذات قوة كبيرة ... تسيطر على جميع المصانع الخاصة التي كانت ترزح تحت أعباء الضرائب الفادحة" (٤٩).

ولم يكن مستطاعا أن يسيطر هذا النظام إلا إذا سيطرت الدولة على أثمان السلع، ولهذا أصدر دقلديانوس وزملاؤه في عام ٣٠١ قانون الأثمان الذي حددت به أقل الأثمان والإجور التي يجيزها القانون لجميع السلع أو الخدمات العامة في جميع أنحاء الإمبراطوري. وهاجم القرار في مقدمته الاحتكارات التي منعت البضائع من السوق في الوقت الذي "قلت فيه السلع" لكي ترتفع أثمانها.

"ومن ذا الذي ... خلا قلبه من العاطفة الإنسانية فلا يرى أن ارتفاع الأسعار ظاهرة عامة في أسواق مدننا، وأن شهوة الكسب لا يحد منها وفرة السلع ولا أعوام الرخاء؟ - ولهذا ... يرى أشرار الناس أنهم يخسرون إذا ما توافرت الحاجات ... **إن من الناس من** يجعلون همهم الوقوف في وجه الرخاء العام ... والجري وراء الأرباح الباهظة القاتلة ... لقد عم الشره جميع الجشعون الأثمان، ولم يكتفوا بالحصول على سبعة أضعاف الثمن المعتاد أو ثمانية أضعافه، بل زادوه إلى الحد الذي تعجز الألفاظ عن وصفه، حتى لقد يضطر." (٢)

"المتفق عليه حين صلى ببعض أصحابه قاعدا، وقد وقع عن فرس فجحش شقه فصلوا وراءه قياما فأشار إليهم أن اجلسوا، فلما انصرف قال: "كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم ؛ يقومون على عظمائهم وهم جلوس. وقال إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون " قالوا: ثم إنه، عليه الصلاة والسلام، أمهم قاعدا، وهم قيام في مرض الموت، فدل على

---

(١) قصة الحضارة، ول ديورانت ٧٢/١٠

(٢) قصة الحضارة، ول ديورانت ٣٦٤/١١

نسخ ما تقدم. والله أعلم.

وقد تنوعت مسالك الناس في الجواب عن هذا الاستدلال على وجوه كثيرة، موضع ذكرها كتاب " الأحكام الكبير " إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وملخص ذلك **أن من الناس من** زعم أن الصحابة جلسوا لأمره المتقدم، وإنما استمر أبو بكر قائما لأجل التبليغ عنه صلى الله عليه وسلم. ومن الناس من قال: بل كان أبو بكر هو الإمام في نفس الأمر كما صرح به بعض الرواة كما تقدم، وكان أبو بكر لشدة أدبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبادره بل يقتدي به، فكأنه عليه الصلاة والسلام، صار إمام الإمام، فلهذا لم يجلسوا لاقتدائهم بأبي بكر، وهو قائم ولم يجلس الصديق لأجل أنه إمام، ولأنه يبلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم الحركات والسكنات والانتقالات. والله أعلم. ومن الناس من قال فرق بين أن يبتدئ." (١)

"بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " خلافة نبوة ثلاثون عاما ثم يؤتي الله الملك من يشاء " فقال معاوية: رضينا بالملك. وهذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة، وعلى النواصب من بني أمية ومن تبعهم من أهل الشام في إنكار خلافة علي بن أبي طالب، فإن قيل: فما وجه الجمع بين حديث سفينة هذا وبين حديث جابر بن سمرة المتقدم في " صحيح مسلم ": " لا يزال هذا الدين قائما ما كان في الناس اثنا عشر خليفة كلهم من قريش؟ فالجواب: **إن من الناس من** قال: إن الدين لم يزل قائما حتى ولي اثنا عشر خليفة، ثم وقع تخبيط بعدهم في زمان بني أمية، وقال آخرون: بل هذا الحديث فيه بشارة بوجود اثني عشر خليفة عادلا من قريش، وإن لم يوجدوا على الولاء، وإنما اتفق وقوع الخلافة المتتابعة بعد النبوة في ثلاثين سنة، ثم كانت بعد ذلك خلفاء راشدون، فمنهم عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، رضي الله عنه، وقد نص على خلافته وعدله وكونه من الخلفاء الراشدين غير واحد من الأئمة، حتى قال أحمد بن حنبل، رضي الله عنه: ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز. ومنهم من ذكر من هؤلاء المهتدي بأمر الله العباسي، والمهدي المبشر بوجوده في آخر الزمان منهم أيضا، بالنص." (٢)

" وموسى بن عقبة وخفي ذلك على أنس بن مالك أو أنه ذكر بعض الخبر وسكت عن آخره وهذا الذي [ذكره] أيضا بعيد جدا لان أنسا قال فلم يقدر عليه حتى مات وفي رواية قال فكان ذلك آخر العهد به وقول الصحابي مقدم على قول التابعي والله أعلم] والمقصود أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قدم ابا بكر الصديق أماما للصحابة كلهم في الصلاة التي هي أكبر اركان الإسلام العملية قال الشيخ ابو الحسن الاشعري وتقديمه له أمر معلوم بالضرورة من دين الاسلام قال وتقديمه له دليل على انه أعلم الصحابة واقرؤهم لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء ان رسول الله صلى الله عليه و سلم قال يؤم القوم اقرؤهم لكتاب الله فان كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواء فأكبرهم سنا فان كانوا في السن سواء فأقدمهم مسلما قلت من كلام الاشعري رحمه الله مما ينبغي أن يكتب بماء

---

(١) البداية والنهاية (٧٧٤)، ٥٩/٨

(٢) البداية والنهاية (٧٧٤)، ١٥٤/٩

الذهب ثم قد اجتمعت هذه الصفات كلها في الصديق رضي الله عنه وارضاه وصلاة الرسول صلى الله عليه و سلم خلفه في بعض الصلوات كما قدمنا بذلك الروايات الصحيحة لا ينافي ما روى في الصحيح ان ابا بكر ائتم به عليه السلام لان ذلك في صلاة اخرى كما نص على ذلك الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله عز و جل

فائدة استدل مالك والشفعي وجماعة من العلماء ومنهم البخاري بصلاته عليه السلام قاعدا وأبو بكر مقتديا به قائما والناس بابي بكر على نسخ قوله عليه السلام في الحديث المتفق عليه حين صلى ببعض أصحابه قاعدا وقد وقع عن فرس فجحش شقه فصلوا وراءه قياما فأشار اليهم أن اجلسوا فلما انصرف قال كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم يقومون على عظمائهم وهم جلوس وقال إنما جعل الإمام ليؤتم به فاذا كبر فكبروا واذا ركع فاركعوا واذا رفع فارفعوا واذا سجد فاسجدوا واذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون قالوا ثم انه عليه السلام أمهم قاعدا وهم قيام في مرض الموت فدل على نسخ ما تقدم والله أعلم وقد تنوعت مسالك الناس في الجواب عن هذا الاستدلال على وجوه كثيرة موضع ذكرها كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان وملخص ذلك أن من الناس من زعم أن الصحابة جلسوا لأمره المتقدم وإنما استمر أبو بكر قائما لأجل التبليغ عنه صلى الله عليه و سلم ومن الناس من قال بل كان أبو بكر هو الامام في نفس الامر كما صرح به بعض الرواة كما تقدم وكان أبو بكر لشدة ادبه مع الرسول صلى الله عليه و سلم لا يبادره بل يقتدي به فكأنه عليه السلام صار إمام الامام فلهذا لم يجلسوا لاقتدائهم بابي بكر وهو قائم ولم يجلس الصديق لأجل انه امام ولأنه يبلغهم عن النبي صلى الله عليه و سلم الحركات والسكنات والانتقالات والله أعلم ومن الناس من قال فرق بين أن يبتدأ الصلاة خلف الامام في حال القيام فيستمر فيها قائما ." (١)

" ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه و سلم قال إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة وكائنا خلافة ورحمة وكائنا ملكا عضوضا وكائنا عزة وجبرية وفسادا في الأمة يستحلون الفروج والخمور والحرير وينصرون على ذلك ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله عز و جل وهذا كله واقع وفي الحديث الذي رواه الامام أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكا وفي رواية ثم يؤتى الله ملكه من يشاء وهكذا وقع سواء فإن أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة ايام وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثنا عشر يوما وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين قلت وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحوا من ستة اشهر حتى نزل عنها لمعاوية عام اربعين من الهجرة كما سيأتي بيانه وتفصيله وقال يعقوب بن سفيان حدثني محمد بن فضيل ثنا مؤمل ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول خلافة نبوة ثلاثون عاما ثم يؤتي الله ملكه من يشاء فقال معاوية رضينا بالملك وهذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة وعلى النواصب من بني أمية ومن تبعهم من أهل الشام في إنكار خلافة علي بن أبي طالب فان قيل فما وجه

---

(١) البداية والنهاية، ٢٣٦/٥

الجمع بين حديث سفينه هذا وبين حديث جابر بن سمرة المتقدم في صحيح مسلم لا يزال هذا الدين قائما ما كان في الناس اثنا عشر خليفة كلهم من قريش فالجواب **إن من الناس من** قال إن الدين لم يزل قائما حتى ولي اثنا عشر خليفة ثم وقع تخبيط بعدهم في زمان بني أمية وقال آخرون بل هذا الحديث فيه بشارة بوجود اثني عشر خليفة عادلا من قريش وإن لم يوجدوا على الولاء وإنما اتفق وقوع الخلافة المتتابعة بعد النبوة في ثلاثين سنة ثم كانت بعد ذلك خلفاء راشدون فيهم عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي رضي الله عنه وقد نص على خلافته وعدله وكونه من الخلفاء الراشدين غير واحد من الأئمة حتى قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز ومنهم من ذكر من هؤلاء المهدي بأمر الله العباسي والمهدي المبشر بوجوده في آخر الزمان منهم أيضا بالنص على كونه من أهل البيت واسمه محمد بن عبد الله وليس بالمنتظر في سرداب سامرا فإن ذاك ليس بموجود بالكلية وإنما ينتظره الجهلة من الروافض وقد تقدم في الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال لقد هممت أن أدعو أباك وأخاك وأكتب كتابا لئلا يقول قائل أو يتمنى متمن ثم قال رسول الله صلى الله عليه و سلم يأبى الله والمؤمنون إلا ." (١)

" خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة ورآءه حبشي يمشي فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال هكذا رحمكما الله حتى صعد المنبر فخطب فقرأ إذا الشمس كورت فقال وما شأن الشمس وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت فبكى وبكى أهل المسجد وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكي معه ودخل عليه أعرابي فقال يا أمير المؤمنين جاءت بي إليك الحاجة وانتهيت إلى الغاية والله سائلك عني فبكى عمر وقال له كم أنتم فقال أنا وثلاث بنات ففرض له على ثلاثمائة وفرض لبناته مائة مائة وأعطاه مائة درهم من ماله وقال له اذهب فاستنفقها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم

وجاءه رجل من أهل أذربيجان فقام بين يديه وقال يا أمير المؤمنين اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غدا بين يدي الله حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق من يوم بلقاه بلا ثقة من العمل ولا براءة من الذنب قال فبكى عمر بكاءا شديدا ثم قال له ما حاجتك فقال إن عاملك بأذربيجان عدا على فأخذ مني اثنى عشر ألف درهم فجعلها في بيت المال فقال عمر اكتبوا له الساعة إلى عاملها فليرد عليه ثم أرسله مع البريد وعن زياد مولى ابن عياش قال دخلت على عمر بن عبد العزيز في ليلة باردة شاتية فجعلت أصطلي على كانون هناك فجاء عمر وهو أمير المؤمنين فجعل يصطلي معي على ذلك الكانون فقال لي يا زيادظ قلت نعم يا أمير المؤمنين

قال قص علي قلت ما أنا بقاص فقال تكلم فقلت زياد فقال ماله فقلت لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة فقال صدقت ثم بكى حتى أطفأ الجمر الذي في الكانون وقال له زياد العبدي يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف واعملها في المخرج مما وقعت فيه فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه ما بلغت كنه ما أنت فيه ثم قال له زياد يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله

(١) البداية والنهاية، ١٩٨/٦

قال سيء الحال قال فإن كانا خصمين ألدين قال فهو اسوأ حالا قال فإن كانوا ثلاثة قال ذاك حيث لا يهنئه عيش قال فو الله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمةمحمد (ص) إلا وهو خصمك قال فبكى عمر حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة وأهل البصرة أما بعد **فإن من الناس من** شاب في هذا الشراب ويغشون عنده أمورا انتهكوها عند ذهاب عقولهم وسفه أحلامهم فسفكوا له الدم الحرام وارتكبوا فيه الفروج الحرام والمال الحرام وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال فمن انتبذ فلا ينتبذ إلا من أسقية الأدم واستغنوا بما أحل الله عما حرم فإنا من وجدناه شرب شيئا مما حرم الله بعد ما تقدمنا إليه جعلنا له عقوبة شديدة ." (١)

" حتى لو أمرت بقتله قتله أصحابك ولو وليت رجلا من العلويين اعتقدت أنت وأصحابك ولايته صحيحة فلو أمرت بقتله لم تطع بذلك ولو أمر بقتلك لقتلك أصحابك فلما فهم ذلك صرفه عن رأيه الأول وترك ما كان عزم عليه للدنيا لا لله عز و جل ثم نشبت الحرب بين ناصر الدولة بن حمدان وبين معز الدولة بن بويه فركب ناصر الدولة بعد ما خرج معز الدولة والخليفة إلى عكبرا فدخل بغداد فأخذ الجانب الشرقي ثم الغربي وضعف أمر معز الدولة والديلم الذين كانوا معه ثم مكر به معز الدولة وخدعه حتى استظهر عليه وانتصر أصحابه فنهبوا بغداد وما قدروا عليه من أموال التجار وغيرهم وكان قيمة ما أخذ أصحاب معز الدولة من الناس عشرة آلاف ألف دينار ثم وقع الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل واستقر أمر معز الدولة ببغداد ثم شرع في استعمال السعاة ليبلغ أخاه ركن الدولة أخباره فغوى الناس في ذلك وعلموا أبناءهم سعاة حتى **أن من الناس من** كان يقطع نيفا وثلاثين فرسخا في يوم واحد وأعجبه المصارعون والملاكون وغيرهم من أرباب هذه الصناعات التي لا ينتفع بها إلا كل قليل العقل فاسد المروءة وتعلموا السباحة ونحوها وكانت تضرب الطبول بين يديه ويتصارع الرجال والكوسان تدق حول سور المكان الذي هو فيه وكل ذلك رعونة وقلة عقل وسخافة منه ثم احتاج إلى صرف أموال في أرزاق الجند فأقطعهم البلاد عوضا عن أرزاقهم فأدى ذلك إلى خراب البلاد وترك عمارتها إلا الأراضي التي بأيدي أصحاب الجاهات وفي هذه السنة وقع غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والسنانير والكلاب **وكان من الناس من** يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم وكثر الوباء في الناس حتى كان لا يدفن أحد أحدا بل يتركون على الطرقات فيأكل كثيرا منهم الكلاب وبيعت الدور والعقار بالخبز وانتجع الناس إلى البصرة فكان منهم من مات في الطريق ومنهم من وصل إليها بعد مدة مديدة وفيها كانت وفاة القائم بأمر الله أبي القاسم محمد بن عبدالله المهدي وولى الأمر من بعده ولده المنصور إسماعيل وكان حازم الرأي شديدا شجاعا ما ذكرنا ذلك في السنة الماضية وكانت وفاته في شوال من هذه السنة على الصحيح وفيها توفي الأخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية كانت وفاته بدمشق وله من العمر بضع وستون سنة وأقيم ولده أبو القاسم أبو جور وكان صغيرا وأقيم كافور الأخشيد أتابكه وكان يدبر المالك بالبلاد كلها واستحوذ على الأمور كلها وسار إلى مصر

(١) البداية والنهاية، ٢١٨/٩

فقصد سيف الدولة بن حمدان دمشق فأخذها من أصحاب الأخشيد ففرح بها فرحا شديدا واجتمع بمحمد ابن محمد بن نصر الفارابي التركي الفليسوف بها وركب سيف الدولة يوما مع الشريف العقيلي في ." (١)

"القول في الحس والمحسوس، أقول أن الحواس طرق وآلات مهيأة لقبول التأثيرات كما وضعها الله عز وجل عليه فإذا باشرت الحاسة المحسوس أثرت فيه بقدر قبوله وقبلت منه بقدر تأثيره فبدرت به النفس وأدته إلى القلب واستقر فيه ثم تنازعته أنواع العلم من الفهم والوهم والظن والمعرفة وبحث عنه العقل وميزه فما حققه صار يقينا وما نفاه صار باطلا والحواس الخمس أولا لا يوجد شيء لا يمكن وجوده بشيء من الحواس فيحتاج إلى حاسة سادسة ويزعم قوم أنها أربع ويجعلون الذوق ضربا من اللمس وبعض يقول ست ويعدون فعل القلب حاسة سادسة وهذا سهل واسع بعد أن اقروا بصحة وجود فعل الحواس **لأن من الناس من** ينكر حقيقة فعلها تتغير أحوالها ويحتج برؤية من يؤدي وجهه في السيف طويلا وقامته في الماء الذي لا يكون مساحة عمقه كمساحة قامته منكسة ويرى الصغير كبيرا والكبير صغيرا والواقف سائرا وهذا من رأى المعاندين والمموهين إذ لا توجد هذه التغيرات في غير حاسة البصر وذلك للعلل العارضة من بعد المسافة وتكاثف الهواء فيقع الغلط من جهة الكيفية والكمية لأن الحاسة لا تضبط الهيئة إذا بعدت فأما الاينية فلا يقع فيها غلط ما لم يفرط بعدها فلا تحصر شخصها الحاسة وأما سائر الحواس التي فعلها بالمضامة والمباشرة فلا يقع فيها اختلاف ما صحت وسلمت وأهون ما يقابل به صاحب الرأي إنكار الحواس نفسها عروضا لإنكار فعل الحواس وما أعلم أنا عقلا يشتغل برد هذا الرأي وإنكاره ولظهور فساده وفحش خطابه القول في درجات العلوم أقول أن الأشياء كلها في العقول على ثلاثة أضرب واجب وسالب وممكن فالواجب في العقل بنفس العقل واستدلاله كعلمنا بأن البناء يقتضي بانيا والكتابة يقتضي كاتبا ولابد لكل صنعة من صانع وأن الواحد والواحد اثنان وأن الشيخ كان شبابا والصغير كان رضيعا وما أشبه ذلك والسالب الممتع المستحيل في العقل بنفس العقل واستدلاله وهو أن يوجد كتاب بغير كاتب وصنعة من غير صانع فإن هذا لا يوجبه العقل ولا يتصوره الوهم ولا يستقر عليه الطبع والممكن الجائز الموهوم في العقل بنفس العقل كما حكى عن القرون السالفة والبلدان النائية وما يذكر أنه سيكون بعد فإن ذلك مما يجوز في العقل أنه كذلك ويجوز أنه ليس كذلك لأنه لا يدل خاطر على تحقيق شيء من ذلك ألا ويجوز أن يدل خاطر على إبطاله لدخوله في حد الجواز والإمكان فلما تكافأت الأدلة به قصر على حد الوقوف فلا شيء ألا وهو معقول معلوم أو معروف أو موهوم أو محسوس." (٢)

"ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم و أهل الأرض كفار على اختلاف ما بينهم من اليهودية و النصرانية و الشرك و الإلحاد إلا بقايا متفرقين بقيت منهم بقية من الذين يمسكونها و أفراد يدكوا ما هم فيه من الضلالة و جعلوا يطلبون دينا فمنهم من لم يخترم حتى أدرك ما طلب مثل أبو الهيثم بن التيهان و أسعد بن زرارة و أبي ذر الغفاري و سلمان الفارسي و أبي قيس صرمة بن أبي أنس و منهم من مات على هدى مثل زيد بن عمرو بن نفيل و ورقة بن نوفل و قس

---

(١) البداية والنهاية، ٢١٣/١١

(٢) البدء والتاريخ، ص/٤

بن ساعدة و بحيرا وأرباب و عداس سمعوا مناديا ينادي قبل مبعث النبي صله خير أهل الأرض أرباب و بحيرا الراهب وآخر لم يأت بعد يعني النبي صلى الله عليه وسلم و منهم من طلب و تنصر ثم غلب عليه الشقاوة فارتكس و عاد إلى الضلالة مثل أبي عامر الراهب و أبي حنظلة العقيلي و أمية بن أبي الصلت الثقفي و لكل واحد قصة نذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى، فلما خرج رسول الله صله و دعا الخلق إلى الله آمن من أجابه و كفر من رده و صاروا فرقتين مؤمن و كافر ثم لما خرج إلى المدينة حسده قوم فنافقوه فأظهروا الإسلام و أسروا الكفر فصار الناس ثلاث فرق كافر و مؤمن و منافق و ارتد قوم في عهد النبي صلى الله عليه وسلم مثل عبد الله بن أبي سرح القرشي و مقيس بن صبابة الفهري و كعب بن الأشرف و ادعى قوم النبوة مثل مسيلمة الكذاب و الأسود العنسي هذا ما كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وكله باق إلى يومنا هذا الكفر و النفاق و التنبي فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الإمامة فتنازعها المهاجرون و الأنصار ثم رجعوا إلى قول أبي بكر رضي الله عنه أن الأيمة من قريش إلا سعد بن عبادة فإنه قال و الله لا أبايع قرشيا أبدا و بقي ذلك الاختلاف إلى يومنا هذا فمنهم من يجيز الإمامة من أفناء الناس و منهم من يقصرها على قريش ثم الخلاف الثاني و قع في شأن الردة فرأى أبو بكر رضي الله عنه جهادهم بالسيف و رأى المسلمون خلاف ذلك ثم رجع أكثرهم إلى قول أبي بكر وبقي الخلاف فإن من الناس من يقول كان قتالهم خطأ ثم الخلاف الثالث زمن عثمان رضي الله عنه أعانه قوم و قعد عن نصرته قوم و رأوا قتله حقا فهذا الخلاف باق و من العثمانية من يفضلونه على أبي بكر و عمر ثم الخلاف الرابع وقع في خروج طلحة و الزبير و عائشة و أم حبيبة وزيد بن ثابت و النعمان بن بشير وكعب بن عجرة و أبو سعيد الخدري و محمد بن مسلمة و الوليد بن عقبة و عمرو بن العاص في بيعة علي عليه السلام و قولهم لا نراك أهلا لهذا الأمر فلما انقضى أمر الجمل و قتل طلحة و الزبير بن العوام بايعوه كلهم إلا معاوية و عمرو كان من أمرهم ما كان .

ذكر فرق الشيعة منهم الغالية، و الغرابية، و الكرنبية، و الروندية، و المنصورية، و الربعية، و الزيدية، و اليعفورية، و الشمطية، و السراجية، و الكيسانية، والسبائية، و القحطبية، و الخطابية، و الجعفرية، و البيانية، و القطعية، و الطيارة، و الحلاجية، و المختارية، و الخشبية، و الكاملية، و الواقفية، و المسلمية، و منهم الباطنية، و الاسماعيلية، و القرامطة و الشرامحة، و الكاغذية، و الرمية، و المبيضة، و الكيالية، و يجمعهم كلهم الزيدية و الإمامية و لقبهم المذموم الرافضة. تفصيل هذه المراتب و تفسيرها أعلم أن الشيعة أتوا في حياة علي بن أبي طالب ثلاث فرق فرقة على جملة أمرها في الاختصاص به و الموالات له مثل عمار بن ياسر و سلمان و المقداد و جابر و أبي ذر الغفاري و عبد الله بن العباس و عبد الله بن عمر و جرير بن عبد الله البجلي و دحية بن خليفة و نظرائهم من الصحابة الذين لا يظن بهم غير الحق و لا نجد للطعن فيهم موضعا و فرقة تغالوا قليلا في أمر عثمان و تميل إلى الشيخين رضوان الله عليهم بعض الميل مثل عمرو بن الحمق و محمد بن أبي بكر و مالك الأشتر و قد قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يخيب الوليد

بن عقبة

وكان ولي الأمر بعد محمد ... علي و في كل المواطن صاحبه." (١)

"لأهلوا و استهلوا فرحا ... و لقالوا يا يزيد لا تسل

فقام أبو برزة الأسلمي رضي الله عنه فقال أما و الله لقد أخذ قضيبك من ثغره مأخذا لربما رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يرشفه و قتل الحسين عليه السلام سنة إحدى و ستين من الهجرة يوم عاشوراء و هو يوم الجمعة و كان بلغ من السن ثمانيا و خمسين سنة و كان يخضب بالسواد رضي الله عنه ثم بعث يزيد عليه اللعنة بأهله و بناته إلى المدينة و رثته ابنة عقيل بن أبي طالب

ماذا تقولون أن قال المليك لكم ... ماذا فعلتم و أنتم آخر الأمم

بعترتي و بأهلي بعد مفتقدي ... منهم أسارى و قتلى ضرجوا بدمي

قال و سمع أهل المدينة ليلة قتل الحسين في نهارها هاتفا يهتف

مسح الرسول جبينه ... فله بريق في الخدود

أبواه من عليا قريش ... و جده خير الجدود

و اعلم أن للروافض في هذه القصة من الزيادات و التهاويل شيئا غير قليل و في مقدار ما بيناه سقط كثير **لأن من الناس من** ينكر أن يكون يزيد أمر بقتله أو رضي به و الله أعلم بذلك قصة عبد الله بن الزبير بن العوام و هو ابن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم و أول مولود ولد بالمدينة في الإسلام . قالوا و لما بويع يزيد تلكأ الحسين و عبد الله بن الزبير عن بيعته و لحقا بمكة فأما الحسين فخرج إلى الكوفة حتى استشهد بكربلا و أما عبد الله بن الزبير فامتنع بمكة و لاذ بالكعبة و دعا الناس إلى الشورى و جعل يلعن يزيد و سماه الفاسق المتكبر و قال لا يرضى الله بعهد معاوية إلى يزيد و إنما ذاك إلى عامة المسلمين فأجابه الناس إلى ذلك و رأوا الحق فيه و أظهر ابن الزبير التألد و التنسك و جعل يصوم و يصلي حتى أثر فيه و مال الناس إليه و كتب إلى أهل المدينة أن اخرجوا بني أمية من أظهركم فأخرجوهم و بلغ الخبر يزيد فبعث مسلم بن عقبة المرى في جيش كثيف و جعل يرتجز

أبلغ أبا بكر إذا الجيش سرى ... و مرت الخيل على وادي القرى

عشرين ألف بين كهل وفتى ... أجمع نشوان من القوم ترى

وقعة الحرة قال فجاء مسلم بن عقبة فأوقع بالمدينة و قتل أربع آلاف رجل من أفناء الناس و سبعين رجلا من الأنصار و بقر عن بطون النساء و أباح الحرم و أنهب المدينة ثلاثة أيام و بايعهم على أنه فيء ليزيد و جعل يفعل فيهم ما شاء و كانت الوقعة بالحرة و هي ضاحي المدينة و بتلك سميت الحرة و سموا مسلم بن عقبة مسرف بن عقبة و كان يسمى ابن الزبير الملحد و قد قال محمد بن أسلم الساعدي

فإن يقتلونا يوم حرة واقم ... فنحن على الإسلام أول من قتل

---

(١) البدء والتاريخ، ص/٢٩٥

ثم سار مسلم نحو مكة يريد ابن الزبير فطعن بقديد لدعوة أهل المدينة و استخلف على الجيش الحصين بن نمير اليشكري أوصاه يزيد بذلك و قال له يا برذعة الحمار لولا أن أمير المؤمنين أمرني باستخلافك ما استخلفتك فإذا أنا مت فامض بالجيش عني حتى تواقى الملحد و لا تجعل أذنك قمعا لقريش فأنهم سحرة بالكلام و لكن عليك إذا وافيت بالوقاف ثم النقاف ثم الانصراف و مات مسرف فسار الحصين حتى أتى مكة و حاصر ابن الزبير أياما و رمى بالمنجنيق و النفاطات الركن فأحرق الأستار فبعث الله على أصحاب المنجنيق صاعقة فأحرقت منهم بضعة عشر رجلا و كان المختار بن أبي عبيد الثقفي بايع ابن الزبير على أن لا ينفرد برأي و لا يقضي أمرا دونه فوجه المختار إلى الحصين و قاتله فردهم عن مكة فبيناهم كذلك إذ أتاهم نعي يزيد فانصرفوا إلى الشام و كان يزيد ولى سلم بن زياد بن أبيه خراسان و سجستان فغزا ما وراء النهر و امرأة تملك بخارا يقال لها خاتون فكتبت إلى طرخان ملك الترك تستمده و تستنجده على أن تزوجه نفسها و جاء طرخان في جيش عظيم من الترك و السغد و ناهضهم القتال فهزمهم و غنم من أموالهم و أولادهم ما يفوت الإحصاء و في سلم يقول يزيد بن معاوية

عتبت على سلم فلما فقدته ... و جربت أقواما بكيت على سلم

موت يزيد بن معاوية." (١)

"المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف أو أن يكون أحد رآها وقد وافق عمر بن عبد العزيز في جلدها إن لم يكن لها بينة وافقه الزهري وقتادة وربيعة ويحي بن سعيد الأنصاري (١).

٩ ـ قطع السارق قبل خروجه بسرقته:

ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت (٢).

١٠ ـ النباش سارق يستحق القطع:

إن من الناس من يأتي أمورا تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كما سرق من الأحياء (٣)، فعن معمر قال بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشا (٤).

١١ ـ عقوبة شرب الخمر للمرة الثانية:

عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلا حدا في خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تحدث خيرا. قال يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبدا فتركه عمر (٥).

---

(١) البدء والتاريخ، ص/٣٣٢

١٢ . عقوبة ساقي الخمر:
إن من يوفر الخمر أو يقدمها لم يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ساقي الشراب مع الذين يشربون (٦)، فعن ابن التميمي أن عمر بن عبد العزيز وجد قوما على شراب، ووجد معهم ساقيا، فضربه معهم (٧).

١٣ . إتلاف أواني الخمر مع الخمر:
عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن تكسر (٨).

---

(١) المحلى (١١/ ٢٩١ . ٢٩٢).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٦).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٤٧).
(٤) مصنف بن أبي شيبة (١٠/ ٣٤).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٥)، فقه عمر (٢/ ١٥٧).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٥٩).
(٧) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٢٣٠).
(٨) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٦٥).." (١)

"والحق أن هذا ربما لم يحدث منه إلا مرة واحدة أثناء تناوله لقصة أصحاب الكهف، حيث لم يستشهد بآيات القرآن فيها برغم شهرتها في القرآن وتسمية السورة بالكهف. (١)

٩. تناقض المقدسي مع نفسه

جاء ذلك في بعض آرائه، وبعض معلوماته، فأما التناقض في المعلومات فقد سبق بيانه في قصة عثمان بن مظعون.
وأما التناقض في الآراء: فإن المقدسي قد أشبع يزيد بن معاوية سبا ولعنا، وذلك بالطبع لأنه المسئول عن قتل الحسين بن علي – رضي الله عنهما – ومع ذلك يقول في قصة مقتل الحسين " واعلم أن للروافض في هذه القصة من الزيادات والتهاويل شيئا غير قليل، وفي مقدار ما بيناه سقط كثير؛ **لأن من الناس من** ينكر أن يزيد أمر بقتله، أو رضي به، والله أعلم بذلك "(٢) فإذا كان المقدسي يقر بتهاويل الشيعة، ويقر أيضا بوجود من يقول إن يزيدا لم يأمر بقتل الحسين رضي الله عنه وهو لم ينتقد هذا القول كما انتقد أقوال الرافضة.... فكان أولى بالمقدسي ألا يتخذ ذلك الموقف المتشدد

---

(١) الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ٢/٣٣٦

من يزيد خاصة أنه لم يكذب قول من برأ ساحته من دم الحسين رضي الله عنه.

١٠. خطؤه أحيانا في محاولة التوفيق بين الأقوال والروايات

---

(١) المرجع السابق، ج٣ ص١٢٨.

(٢) البدء والتاريخ، ج٦ ص١٣.." (١)

"ولما كان ذلك اليوم أصبح الملك على عزم الرحيل وأحضر أرباب الرأي وشاورهم في جواب رسالة القوم وعرض عليهم حديثه وذكر ما عندهم في ذلك وأحضر الرسل وكان ابن الهنغري يترجم بينه وبين البحرين واستقرت القاعدة على أن ينفذ معهم رسولين: رسولا من جانبه ومن جانب العادل الآخر لأن الحديث كان يتعلق به وكان من جملة من رسالتهم أن البابا إن أذن في هذا العقد تم، وإن لم يأذن زوجنا الملك العادل بابنة أخي الملك وهي بكر وذكروا أن من ينهم أن البابا إنما يحتاج إلى إذنه في تزويج الثيب من بنات الملوك وأما الأبكار فيزوجها أهلها. وانفصل الحال على ذلك وسارت الرسل إلى خيم الملك العادل ليجهز رسول السلطان ويلحقه، ثم وصل بعد ذلك من اليزك من أخبر أن الفرنج قد انتشر منهم راجل كثير وخرجوا عن الأسوار التي لهم ولم يظهر لخروجهم غائلة، وسار رحمة الله عليه إلى تل الجزر لارتياد اليزك وتبعه الناس في الرحيل فما كان الظهر إلا ورحل الناس إلى السلطان ونزلنا بتل الجزر. ولما عرف الإفرنج بعود السلطان رحلوا عائدين وأقام السلطان بتل الجزر ثم رحل إلى جهة القدس الشريف ورحل الإفرنج إلى جهة بلادهم واشتد الشتاء واعظمت الأمطار وسار السلطان إلى القدس الشريف وأعطى العسكر دستورا وأقمنا بالقدس في ذلك الشتاء أجمع. وعاد العدو إلى بلادهم ووصل الأنكتار عساكره إلى يافا وعاد إلى عكا ينظر في أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول إني أوثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بلغني أن السلطان فوض أمر الصلح إلى أخيه الملك العادل فاتفق الرأي في مضي الملك العادل على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وتلك النواحي ويحدثه ويقول له أن الحديث جرى بيننا مرارا وما أسفر عن مصلحة فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلا حاجة إلى الحديث، وإن كان الغرض بت حال فقارب الحال وأنا لا أجتمع بك إلا أن رأي ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل أن رأى ما يمكن معه فصل الحال وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء ما ينفصل الحال عليه فكتب تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها وأن نعطي صليب الصلبوت ويكون لهم في القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان **فإن من الناس من** كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه.

ذكر مسير الملك العادل

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابه من كيسان

---

(١) المطهر المقدسي ومنهجه التاريخي في كتاب البدء والتاريخ، ص/٣١٣

يخبر أنه لقيه الهنغري مع الحاجب أبي بكر رسولا من الأنكتار يقوا إنا قد وافقنا على قسمة البلاد وأن كل من في يده شيء فهو له، فإن كان ما في أيدينا زائدا أخذتم في مقابله ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة. هكذا كان مضمون الكتاب. فأوقف السلطان عليه الأمراء فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ورأى من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة. وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك.

ولما كان حادي عشر ربيع الأول وصل الحاجب أبو بكر صاحب الملك العادل يخبر أن الأنكتار سار إلى يافا من عكا وأن الملك العادل ما رأى أن يجتمع بخ إلا عن قاعدة منفصلة وأنه جرى بين هذا الحاجب وبين الأنكتار مفاوضات كثيرة حاصلها أنه نزل على أن تكون الصخرة لنا والقلعة في أيدينا والباقي مناصفة وأن لا يكون في البلد منهم مذكور وأن تكون قرى القدس وباطنه مناصفة ثم قدم الملك العادل في سادس عشر ربيع الأول من الغور ولقيه السلطان وحكى ما سبق من الخبر.

وفي بقية ذلك اليوم وصل من أخبر أن الإفرنج أغاروا على حلة عرب قريبة من الدارون وأنهم أخذوا منهم جماعة وأنهم أخذوا منهم زهاء ألف رأس غنم فعظم ذلك على السلطان وشق عليه فسير جماعة فلم تلحقهم.

ذكر انفصال رسول المركيس." (١)

" **إن من الناس من** يأتي أمورا تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كما سرق من الأحياء(١)، فعن معمر قال بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشا(٢).

١١ . عقوبة شرب الخمر للمرة الثانية:

عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلا حدا في خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تحدث خيرا. قال يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبدا فتركه عمر(٣).

١٢ . عقوبة ساقي الخمر:

إن من يوفر الخمر أو يقدمها لم يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ساقي الشراب مع الذين يشربون(٤)، فعن ابن التميمي أن عمر بن عبد العزيز وجد قوما على شراب، ووجد معهم ساقيا، فضربه معهم(٥).

١٣ . إتلاف أواني الخمر مع الخمر:

عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن تكسر(٦).

---

(١) النوادر السلطانية، ص/٩٣

١٤ . إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين:

---

(١) المصدر نفسه (١٤٧/٢) .

(٢) مصنف بن أبي شيبة (٣٤/١٠) .

(٣) الطبقات الكبرى (٣٦٥/٥) ، فقه عمر (١٥٧/٢) .

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١٥٩/٢) .

(٥) المصنف لعبد الرزاق (٢٣٠/٩) .

(٦) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣٦٥/٥) .." [١]

" حدثني رسول الله صلى الله عليه و سلم حدثني جبريل عليه السلام قال : يقول الله عز وجل : لا إله إلا الله حصني فمن دخله أمن من عذابي

مات في يوم الخميس لليلتين خلتا من شوال سنة سبع وثمانين وثلاثمئة

إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن الحسين

ابن عبد الله أبو إسحاق الحنائي سمع بدمشق ومصر وكتب الكثير وحدث بشيء يسير . كان أديبا . خير أديب تراه النفس ثقة مأمونا

روى عن عبد الوهاب بن الحسن بسنده عن البراء بن عازب قال : كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يمسح مناكبنا في الصلاة ويقول : " استووا ولا تختلفوا إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول "

توفي يوم السابع عشر من ذي الحجة سنة عشرين وأربعمئة

إبراهيم بن محمد بن الأزهر الدمشقي

روى عن وريزة بن محمد الغساني بسنده عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " نعم الإدام الخل "

إبراهيم بن محمد بن أسد

ابن عبد الملك أبو محمد الحافظ سمع بدمشق

روى عن محمد بن عون الوحيدي بسنده عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " عشرة من قريش في الجنة : أبو بكر في الجنة وعمر في الجن وعثمان في الجنة وعلي في الجنة وطلحة في الجنة والزبير في الجنة وسعد في الجنة وسعيد في الجنة وعبد الرحمن بن عوف في الجنة وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة "

إبراهيم بن محمد بن أمية أبو إسحاق

---

(١) عمر بن عبد العزيز معالم الإصلاح والتجديد، ١٤٠/٤

روى عن محمد بن كثير بسنده عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجن من الأولين والآخرين ما خلا النبيين والمرسلين "

مات بدمشق يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة اثنتين وسبعين ومئتين

إبراهيم بن محمد بن أبي حصن الحارث

ابن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر أبو إسحاق الفزاري أحد أئمة المسلمين وأعلام الدين روى عن جماعة وروى عنه جماعة

حدث عن أبي إسحاق سليمان الشيباني بسنده عن البراء : أنهم كانوا يصلون مع رسول الله صلى الله عليه و سلم فإذا ركع ركعوا وإذا رفع رأسه من الركوع فقال : سمع الله لمن حمده لم نزل قياما حتى نراه قد وضع وجهه بالأرض ثم نتبعه

وروى عن الأعمش بسنده عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : " إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام "

قال أبو مسهر : قدم علينا إبراهيم بن محمد الفزاري قال : فاجتمع الناس يسمعون منه ؛ قال : فقال لي : اخرج إلى الناس فقل لهم : من كان يرى رأي القدرية فلا يحضر مجلسنا ومن كان يرى فلان فلا يحضر مجلسنا ومن كان يأتي السلطان فلا يحضر مجلسنا ؛ قال : فخرجت فأخبرت الناس

قال ابن سعد : وكان ثقة فاضلا صاحب سنة وغزو كثير الخطأ في حديثه ؛ مات بالمصيصة سنة ثمان وثمانين ومئة في خلافة هارون

وقال النسائي : ثقة مأمون أحد أئمة الإسلام كان يكون بالشام

قال أبو صالح : سمعت الفزاري غير مرة يقول : **إن من الناس من** يحسن الثناء عليه وما يساوي عند الله جناح بعوضة

وقال عطاء الخفاف : كنت عند الأوزاعي فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق فقال للكاتب اكتب إليه وابدأ به فإنه والله خير مني

وقال أبو صالح : لقيت فضيل بن عياض فغزاني بأبي إسحاق وقال لي : والله لربما اشتقت إلى المصيصة ما بي فضل الرباط إلا لأرى أبا إسحاق

وقال العجلي : إبراهيم بن محمد كوفي ثقة وكان رجلا صالحا قائما بالسنة ؛ وقال في موضع آخر : نزل الثغر بالمصيصة وكان ثقة رجلا صالحا صاحب سنة وهو الذي أدب أهل الثغر وعلمهم السنة وكان يأمر وينهى وكان ذا دخل الثغر رجل مبتدع أخرجه وكان كثير الحديث وكان له فقه وكان عربيا فزاريا ؛ أمر سلطانا يوما ونهاه فضربه مئتي سوط فغضب الأوزاعي فتكلم في أمره ." (١)

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – مفهرس، ص/٤٨٥

" يا بني إذا مر بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك وجسمك ومالك وعيالك فأكثر الشكر الله تعالى . فكم من مسلوب دينه ومنزوع ملكه ومهتوك ستره ومقصوم ظهره في ذلك اليوم وأنت في عافية . وفيه أقول : " السريع "

لو أنني أعطيت سؤلي لما ... سالت إلا العفو والعافية

فكم فتى قد بات في نعمة ... فسل منها الليلة الثانية

قال صالح : أصل المروءة الحزم وثمرها الظفر وإذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة

قال صالح بن جناح : اعلم أن من الناس من يجهل إذا حلمت عنه ويحلم إذا جعلت عليه ويحسن إذا أسأت به ويشسيء إذا أحسنت إليه وينصفك إذا ظلمته ويظلمك إذا انصفت . فمن كان هذا خلقه فلا بد من خلق ينصفك من خلقه ثم قحة تنصف من جهته وجهالة تقدع من جهالته . وإلا أذلك لأن بعض الحلم إذعان وقد ذل من ليس له سفيه يعضده وضل من ليس له حليم يرشده . وفي الجهالة وبعضها للأخيار أقول : " الطويل "

لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فمن شاء تقومي فإن مقوم ... ومن شاء تعويجي فإني معوج

وما كنت أرضى الجهل خدنا ولا أخا ... ولكنني أرضى به حين أحوج

فإن قال بعض الناس فيه سماجة ... فقد صدقوا والذل بالحر أسمج

وفي رواية أخرى زيادة على هذا الشعر ولم يسم قائله :

الا ربما ضاق الفضاء بأهله ... وأمكن من بين الأسنة مخرج

قال صالح بن جناح : اعتبر ما لم تره من الأشياء بما قد رأيته ولم تسمعه بما قد سمعته وما لم يصبك بما قد أصابك وما بقي من عمرك بما قد مضى وما لم يبل منك بما قد بلي واعلم " مجزوء الرمل "

إنما أنت نهار ... ضوؤه ضوء معار

بينما غصنك غض ... ناضر فيه اخضرار

إذ رماه زمناه ... فإذا فيه اصفرار

وكذاك الليل يأتي ... ثم يمحوه النهار

فهذه صفتها وما لا أصف أدهى وأمر . فما أصنع بأمر إذا أقبل غر وإذا أدبر ضر وأنشد : " الطويل "

نموت وننسى غير أن ذنوبنا ... إذا نحن متنا لا تموت ولا تنسى

ألا رب ذي عينين لا تنفعانه ... وهل تنفع العينان من قلبه أعمى ؟

صالح بن رستم أبو عبد السلام

مولى بني هاشم من أهل دمشق

حدث شيخ يكنى أبا عبد السلام عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : " توشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل : يا رسول الله ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ولينزعن الله من صدوركم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن . قال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؛ قال : حب الدنيا وكراهية الموت "

صالح بن سويد

ويقال : ابن عبد الرحمن – أبو عبد السلام القدري من حرس عمر بن عبد العزيز : حدث عمرو بن مهاجر قال : ". (١)

" أن من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار . فقال كعب : صدق فقال علي : ومنهم من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فقال كعب : صدق . ومن يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة . فقال كعب : صدق . فقال الحبر : وكيف تصدقه ؟ ! قال : أما قوله : من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو المؤمن بالكتاب الأول ولا يؤمن بالكتاب الآخر . وأما قوله : منهم من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو الذي لا يؤمن بالكتاب الأول ولا الآخر . وأما قوله من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة فهو ما يقبل الله من الصدقات قال : وهو مثل رأيته بين . قالوا : وجاء كعباص سائلا فأعطاه حلته – ومضى الحبر مغضبا

ومثلت بين يدي كعب امرأة تقول : من يبادل راحلة براحلة ؟ فقال كعب : وزيادة حلة ؟ قالت : نعم . فأخذ كعب وأعطى وركب الراحلة ولبس الحلة وأسرع المسير حتى لحق الحبر وهو يقول : من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة ! قال كعب الأحبار : لما قدم علي اليمن لقيته فقلت : أخبرني عن صفة محمد صلى الله عليه و سلم فجعل يخبرني عنه وجعلت أتبسم فقال : مم تتبسم ؟ فقال : مما يوافق ما عندنا في صفته فقلت : ما يحل وما يحرم ؟ فأخبرني فقلت : هو عندنا كما وصفت . وصدقت برسول الله صلى الله عليه و سلم وآمنت به ودعوت من قبلنا من أحبارنا وأخرجت إليهم سفرا فقلت : هذا كان أبي يختمه علي ويقول : لا تفتحه حتى تسمع بنبي يخرج بيثرب . قال : فأقمت باليمن على إسلامي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه و سلم وتوفي أبو بكر فقدمت في خلافة عمر بن الخطاب ويا ليت أني كنت تقدمت في الهجرة ! عن كعب قال : يلومني أحبار بني إسرائيل أني دخلت في أمة فرقهم الله أولا ثم جمعهم فأدخلهم الجنة جميعا . ثم تلا هذه الآية : " ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه " حتى بلغ " جنات عدن يدخلونها "

قال ابن جريج : سمعت عطاء يقول : " فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات " وزعم أن هؤلاء الأصناف الثلاثة نحن أمة محمد صلى الله عليه و سلم وزعم أن قوله : " جنات عدن يدخلونها " في هؤلاء الأصناف الثلاثة وأن كعبا قال : هم أمة محمد هؤلاء الأصناف الثلاثة . فأنا أقيم على اليهودية وأدع هذا الدين ! ؟ عن أبي المتوكل الناجي قال : أتى حبر من أحبار اليهود إلى كعب فقال : تركت دين موسى وتبعت دين محمد ؟ قال : أنا

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – مفهرس، ص/١٤٨٠

على دين موسى وتبعت دين محمد صلى الله عليه و سلم قال : ولم ذاك ؟ قال : إني وجدت أمة محمد صلى الله عليه و سلم يقسمون يوم القيامة ثلاثة أثلاث : ثلثا يدخلون الجنة بغير حساب وثلثا يحاسبون حسابا يسيرا ويدخلون الجنة وثلثا يقول الله لملائكته : قلبوا عبادي ما كانوا يعملون فيقلبوهم فيقولون : يا ربنا نرى ذنوبا كثيرة وخطايا عظيمة . ثم يقول ذلك ثلاث مرات . ثم يقول : قلبوا ألسنتهم فانظروا ما كانوا يقولون فيقلبون ألسنتهم فيقولون : يا ربنا نراهم كانوا يخلصون لك لا يشركون بك شيئا فيقول : اشهدوا ملائكتي أني قد غفرت لهم فيما أخلصوا ولم يشركوا بي شيئا . فقال له الحبر : فإن كنت صادقا ما كسوت رب العالمين ؟ - وذكر الحكاية إلى أن قال : - قال : فقال له الحبر : صدقت وأسلم

قال كعب الحبر : لولا كلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت لجعلني اليهود كلبا نباحا أو حمارا نهاقا من سحرهم فأدعوا بهن أسلم من سحرهم : " أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر أعوذ بوجه الله العظيم الجليل الذي لا يخفر جاره والذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه من شر السامة والعامة ومن شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شرما ينزل من السماء وما يعرج فيها ومن شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم "

حدث كعب أن عمر قال له : ." (١)

"(٢) صالح بن جناح اللخمي الشاعر أحد الحكماء أدرك الأتباع وكلامه مستفاد في الحكمة قال صالح بن جناح الدمشقي لابنه يا بني إذا مر بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك وجسمك ومالك وعيالك فأكثر الشكر لله تعالى فكم من مسلوب دينه ومنزوع ملكه ومهتوك ستره ومقصوم ظهره في ذلك اليوم وأنت في عافية وفيه أقول السريع لو أنني أعطيت سؤلي لما سالت إلا العفو والعافية فكم فتى قد بات في نعمة فسل منها الليلة الثانية قال صالح أصل المروءة الحزم وثمرها الظفر وإذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة قال صالح بن جناح اعلم **أن من الناس من** يجهل إذا حلمت عنه ويحلم إذا جعلت عليه ويحسن إذا أسأت به ويشسيء إذا أحسنت إليه وينصفك إذا ظلمته ويظلمك إذا انصفت فمن كان هذا خلقه فلا بد من خلق ينصفك من خلقه ثم قحة تنصف من جهته وجهالة تقدع من جهالته وإلا أذلك لأن بعض الحلم إذعان وقد ذل من ليس له سفيه يعضده وضل من ليس له حليم يرشده وفي الجهالة وبعضها للأخيار أقول الطويل لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل مسرج فمن شاء تقومي فإن مقوم ومن شاء تعويجي فإني معوج وما كنت أرضى الجهل خدنا ولا أخا ولكنني أرضى به حين أحوج فإن قال بعض الناس فيه سماجة فقد صدقوا والذل بالحر أسمج وفي رواية أخرى زيادة على هذا الشعر ولم يسم قائله ﷺ." (٣)

---

(١) مختصر تاريخ دمشق - مفهرس، ص/٢٨٦٦

(٢) ٢٨

(٣) مختصر تاريخ دمشق - موافق ومحقق، ٢٨/١١

"[(١)] عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال لما قدم علي اليمن خطب بها وبلغ كعب الأخبار قيامه بخطبته فأقبل على راحلته في حلة ومعه حبر من أحبار يهود حتى استمعا له فوافقاه وهو يقول **أن من الناس من** يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فقال كعب صدق فقال علي ومنهم من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فقال كعب صدق ومن يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة فقال كعب صدق فقال الحبر وكيف تصدقه قال أما قوله من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو المؤمن بالكتاب الأول ولا يؤمن بالكتاب الآخر وأما قوله منهم من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو الذي لا يؤمن بالكتاب الأول ولا الآخر وأما قوله من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة فهو ما يقبل الله من الصدقات قال وهو مثل رأيته بين قالوا وجاء كعباص سائلا فأعطاه حلته ومضى الحبر مغضبا ومثلت بين يدي كعب امرأة تقول من يبادل راحلة براحلة فقال كعب وزيادة حلة قالت نعم فأخذ كعب وأعطى وركب الراحلة ولبس الحلة وأسرع المسير حتى لحق الحبر وهو يقول من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة قال كعب الأحبار لما قدم علي اليمن لقيته فقلت أخبرني عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم فجعل يخبرني عنه وجعلت أتبسم فقال مم تتبسم فقال مما يوافق ما عندنا في صفته فقلت ما يحل وما يحرم فأخبرني فقلت هو عندنا كما وصفت وصدقت برسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنت به ودعوت من قبلنا من أحبارنا وأخرجت إليهم سفرا فقلت هذا كان أبي يختمه علي ويقول لا تفتحه حتى تسمع بنبي يخرج بيثرب قال فأقمت باليمن على إسلامي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفي أبو بكر فقدمت في خلافة عمر بن الخطاب ويا ليت أني كنت تقدمت في الهجرة ﷺ." (٢)

"[(٣)] حدث عن أبي إسحاق سليمان الشيباني بسنده عن البراء أنهم كانوا يصلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا ركع ركعوا وإذا رفع رأسه من الركوع فقال سمع الله لمن حمده لم نزل قياما حتى نراه قد وضع وجهه بالأرض ثم نتبعه وروى عن الأعمش بسنده عن عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام قال أبو مسهر قدم علينا إبراهيم بن محمد الفزاري قال فاجتمع الناس يسمعون منه قال فقال لي اخرج إلى الناس فقل لهم من كان يرى رأي القدرية فلا يحضر مجلسنا ومن كان يرى فلان فلا يحضر مجلسنا ومن كان يأتي السلطان فلا يحضر مجلسنا قال فخرجت فأخبرت الناس قال ابن سعد وكان ثقة فاضلا صاحب سنة وغزو كثير الخطأ في حديثه مات بالمصيصة سنة ثمان وثمانين ومئة في خلافة هارون وقال النسائي ثقة مأمون أحد أئمة الإسلام كان يكون بالشام قال أبو صالح سمعت الفزاري غير مرة يقول **إن من الناس من** يحسن الثناء عليه وما يساوي عند الله جناح بعوضة وقال عطاء الخفاف كنت عند الأوزاعي فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق فقال للكاتب اكتب إليه وابدأ به فإنه والله خير مني وقال أبو صالح لقيت فضيل بن عياض فعزاني بأبي إسحاق وقال لي والله لربما

(١) ١٨٣

(٢) مختصر تاريخ دمشق – موافق ومحقق، ١٨٣/٢١

(٣) ١١٤

اشتقت إلى المصيصة ما بي فضل الرباط إلا لأرى أبا إسحاق وقال العجلي إبراهيم بن محمد كوفي ثقة وكان رجلا صالحا قائما بالسنة وقال في موضع آخر نزل الثغر بالمصيصة وكان ثقة رجلا صالحا صاحب ﷺ." (١)

"قال الفضيل: رأيت رسول الله في المنام وإلى جنبه فرجة، فذهبت لأجلس فيها. فقال: هذا مجلس أبي إسحاق الفزاري. فقلت لأبي أسامة: أيهما كان أفضل فقال: كان فضيل رجل نفسه وكان أبو إسحاق رجل عامة.

قال الفراء: لقيت الفضيل ابن أبي عياض فعزاني في أبي إسحاق وقال: لربما اشتقت إلى المصيصة ما بي فضل الرباط إلا أرى أبا إسحاق.

قال أبو إسحاق الفزاري: **إن من الناس من** يحسن عليه الثناء، وما يساوي عند الله جناح بعوضة.

قال أبو إسحاق: من قال: الحمد لله على كل حال فإن كانت نعمة كان لها كفاء وإن كانت مصيبة كان لها عزاء.

لما مات أبو إسحاق بكى عطاء ثم قال: ما دخل على الإسلام من موت أحد ما دخل عليه من أبي إسحاق.

عيسى بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي يكنى أبا عمرو

وهو من الكوفة تحول إلى الثغر فنزل الحديث.

عن جعفر بن يحيى بن خالد قال: ما رأينا في القراء أحدا مثل عيسى بن يونس، أرسلنا إليه فأتانا بالرقة فاعتل قبل أن يرجع. فقلت: يا أبا عمرو قد أمر لك بعشرة آلاف فقال: هي، فقلت: هي خمسون ألفا. قال: لا حاجة لي فيها. فقلت: لم أما والله لأهنئنكها هي والله مائة ألف. قال: لا والله لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنة ثمنا، ألا كان هذا قبل أن ترسلوا إلي فأما على الحديث فلا والله ولا شربة ماء ولا هليلجة.

أبو بكر المروزي قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل، وذكر ورع عيسى بن يونس، فحدثهما. فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم. فأبى أن يقبلها فظن أنه استقلها. فأمر له بعشرين ألفا. فقال عيسى: لا والله ولا إهليلجة ولا شربة ماء على حديث رسول الله ولو ملأت لي هذا المسجد ذهبا إلى السقف.

يوسف بن أسباط من قرية يقال لها الشيح." (٢)

"" اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد "(١) ؛ فعلم أن نهيه عن ذلك كنهيه عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ سدا للذريعة؛ لئلا يصلى في هذه الساعة، وإن كان المصلي لا يصلي إلا لله، ولا يدعو إلا الله؛ لئلا يفضي ذلك إلى دعائها والصلاة لها، وكلا الأمرين قد وقع؛ **فإن من الناس من** يسجد للشمس وغيرها من الكواكب، ويدعوها بأنواع الأدعية، وهذا من أعظم أسباب الشرك الذي ضل به كثير من الأولين والآخرين، حتى شاع ذلك في كثير ممن ينتسب إلى الإسلام، وصنف بعض المشهورين فيه كتابا على مذهب المشركين؛ مثل أبي معشر البلخي، وثابت بن قرة، وأمثالهما ممن دخل في الشرك وآمن بالطاغوت والجبت، وهم ينتسبون إلى الكتاب؛ كما قال تعالى:

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ﴾ (٢) انتهى كلام الشيخ رحمه الله(٣).

---

(١) مختصر تاريخ دمشق – موافق ومحقق، ٤/١١٤

(٢) مختصر صفة الصفوة، ١/٤٩٦

ويختار الشيخ تحليلات جيدة للأمور التي ضل فيها من ضل من المشركين وأشباههم من المتفلسفة، حيث جعلوا ما يجري بين الخلق بعضهم مع بعض من الأسباب هو مثل ما بينهم وبين الخالق تعالى الله
عن ذلك.

---

(١) موطأ مالك : كتاب النداء للصلاة (٤١٦).

(٢) سورة النساء آية : ٥١.

(٣) "مؤلفات الشيخ" (القسم الأول، العقيدة)، "مفيد المستفيد" (ص ٢٨٦ – ٢٨٨)، وقد نقل الشيخ هذا الكلام من "اقتضاء الصراط المستقيم" لشيخ الإسلام ابن تيمية كما ذكر، وقد اختصره من مواضع من الكتاب. انظر: (ص ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٨، ٤٠٤، ٤٠٥).." [١]

"وأرشد رحمه الله إلى ما دل عليه الكتاب وسنة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وساق الأدلة الشرعية التي يتميز بها كل فريق، ويعتمدها أهل الايمان والتحقيق؛ فإن الله جل ذكره وصف الأبرار ونعتهم بما يمتازون به ويعرفون؛ بحيث لا يخفى حالهم ولا يلتبس أمرهم، وكذلك وصف تعالى أولياء الشيطان
من الكفار والفجار، ونعتهم بما لا يخفى معه حالهم ولا يلتبس أمرهم على من له أدنى نظر في العلم وحظ من الإيمان.
وكذلك قام بالنكير على أجلاف البوادي وأمراء القرى والنواحي فيما يتجاسرون عليه ويفعلونه؛ من قطع السبيل، وسفك الدماء، ونهب الأموال المعصومة، حتى ظهر العدل واستقر، وفشا الدين واستمر، والتزمه كل من كانت عليه الولاية من البلاد النجدية وغيرها، والحمد لله على ذلك(١).

أسباب زوال الدولة وتسليط العدو

ثم إنه حصلت ذنوب من الناس بعد ذلك، وأمور من التقصير والاختلاف، فكانت سببا في تسليط الأعداء على المسلمين؛ ابتلاء وامتحانا، وتمحيصا واختبارا؛ كما هي سنة الله تعالى العزيز الحكيم.

وقد تنبه إليها أبناء الشيخ– وهم حسين وإبراهيم وعبد الله وعلي– منذ حدوثها، واستنكروها، ونصحوا كافة المسلمين بمنشورهم إليهم، وحثوا على التوبة منها قبل أن تحل العقوبة وتنزل الكارثة؛ فلا ينفع حينئذ ندم نادم.

ومن هذه الأمور المخالفة: ترك المحافظة على الصلوات الخمس، وهي عمود الإسلام، من حفظها وحافظ عليها؛ حفظ دينه، ومن ضيعها؛ فهو لما سواها أضيع.

ومنها الغفلة عن التفقه في دين الإسلام، حتى **إن من الناس من**
ينشأ وهو ما يعرف دين الإسلام، ومنهم من يدخل فيه وهو ما يعرفه ولا يفعله؛ ظنا منه أن الإسلام هو العهد، ومعرفة الإسلام والعمل به واجب على كل أحد، ولا ينفع فيه التقليد.

---

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، ص/٤٢

(١) "مجموعة الرسائل والمسائل النجدية" (ج ٤، ص ٤٤٠- ٤٤١).." [١]

"ومنها أن من الناس من يمنع الزكاة، والذي ما يقدر على المنع يحبسها، والزكاة ركن من أركان الإسلام.

ومنها ظهور عقوق الوالدين وقطيعة الرحم من كثير من الناس.

ومنها ما يجري من بعض الأمراء والعامة من الغلول من المغانم، ومن لم يستطع؛ يتحيل على الغلول بالشراء، ولا ينقد الثمن.

ومنها ظلم بعض الأمراء؛ يأخذون من أموال الناس بصورة الجهاد، ولا يصرفه في الجهاد، بل يأكله، وبعض الأمراء يأخذ جميع الزكاة ولا يعطي المساكين منها شيئا، وربما يجري من هؤلاء تحميل الناس ما لا يستطيعون.

ومنها اختلاط الجيد بالرديء، وصاحب الدين بالمنافق، ولا يميز هذا من هذا، ووقع بسببه ظهور الكلام الباطل، والذي لو يظهر من أحد في أول أمر هذه العقيدة ؛ أدب أدبا بليغا، وعرف أن قائله منافق.

ومنها الظلم، والوقوع فيما حرم الله؛ من الدماء، والأموال، والأعراض، والغيبة، والنميمة، وقول الزور، وبهت المسلم بما ليس فيه، وصار هذا ما يستنكر، فإذا بان كذبه وتزويره؛ ما سقط من العيون.

ومنها الجسرة على ذمة المسلم، فإذا أعطى أحد من المسلمين أحدا من الكفار ذمته؛ خفر في دمه أو ماله، والعجب أن بعض الجهال يفعل هذا ديانة، ويظن أنه معاداة للكفار، واستحلال المحرم أعظم من ارتكابه مع معرفة تحريمه.

ومنها أن بعض الناس يغضب إذا أنكر على رجاله أو من له علاقة إذا فعل المنكر وأنكر عليه، وهذا أمر ما يحل.

ومنها التعاطي بمعاملات من الربا، ويمحق الله الربا.

ومنها التثاقل عن الجهاد، ومعصية الإمام في ذلك وغيره، وقد فرض الله الجهاد على المسلمين، وبهذا الجهاد أعزهم الله بعد الذلة، وقواهم بعد أن كانوا مقهورين.

ومنها ما يجري من تطليق على غير السنة؛ يطلق الرجل زوجته بطريقة مخالفة لكتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وغير ذلك من الأمور التي تجري من الناس قبيل نكبتهم على يد إبراهيم باشا.." [٢]

"لا يسمح الدين للناس بأن يتركوا الحرث والزرع ويدعوا الله تعالى أن يخرج لهم الحب من الأرض بغير عمل منهم أخذا بظاهر قوله: ﴿أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون﴾ ٢ وإنما يهديهم إلى القيام بجميع الأعمال الممكنة لإنجاح الزراعة...وأن يتكلوا على الله تعالى بعد ذلك فيما ليس بأيديهم..." ٣.

وتتعلق مشيئة الله تعالى بالأسباب والسنن، وتنفذ على وفقها، فإذا أراد الله تعالى شيئا خلق له أسبابا، بها يقع، وعلى وفقها يكون، وهذا على عكس ما يظنه كثير من الناس. يقول الشيخ رشيد في هذا: "إن من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى هو أن الله تعالى يفعل بلا سبب ولا جريان على سنة من سننه في نظام خلقه، وليس

(١) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، ص/٢٠١

(٢) عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية وأثرها في العالم الإسلامي، ص/٢٠٢

كذلك، فإن كل شيء بمشيئة الله تعالى ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ ٤ أي: بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل، فإيتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سننه إنما يكون بجعله مستعدا للملك في نفسه، وبتوفيق الأسباب

----

١ المصدر نفسه (٤/ ١٤١)

٢ سورة الواقعة، الآية (٦٤)

٣ تفسير المنار (٢/ ٦٦)

٤ سورة الرعد، الآية (٨)

لسعيه في ذلك..." ١. "نعم إذا أراد الله إسعاد أمة جعل ملكها قويا لما فيها من الاستعداد للخير حتى يغلب خيرها على شرها فتكون سعيدة، وإذا أراد الله إهلاك أمة جعل ملكها مقويا لدواعي الشر فيها حتى يغلب شرها على خيرها، فتكون شقية وذليلة، فتعدو عليها أمة قوية، فلا تزال تنقصها من أطرافها، وتفتات عليها في أمورها، أو تناجزها الحرب، حتى تزيل سلطانها من الأرض، يريد الله تعالى ذلك فيكون بمقتضى سننه في نظام الاجتماع، فهو يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء بعدل وحكمة، لا بظلم وعبث..." ٢.." [(١)]

"وبعد؛ فهذا الموقف من الشيخ رشيد تجاه التأويل عموما، وقانونه الذي وضعه المتكلمون خصوصا، هو الحق الموافق لمنهج أهل السنة والجماعة، ويكون إذا ما ذهب إليه صاحب "أصول المبتدعة" ١، من حشر اسم الشيخ رشيد ضمن أسماء أنصار هذا القانون بعد اسم شيخه، هو بسبب الاستقراء الناقص، فإن هذا الذي ذكرته عن الشيخ هو الموقف الذي استقر عليه، وقد كان أول أمره يردد العبارات المشتهرة على الألسنة آنذاك، ومنها عبارات هذا القانون الفاسد ٢. ولكن ها أنت ترى هذا الموقف المؤيد لمذهب السلف، والذي ينقل فيه الشيخ عن شيخ الإسلام نقولا طويلة تصل إلى عشرات الصفحات لتقريره، وهو الموقف الأخير والصحيح أيضا.

انتقاد على الشيخ رشيد:

فإن قيل: إنه قد وجد في كلام الشيخ بعض تأويل ٣، فكيف يتفق هذا مع ما ذكرته عنه من موقفه العام من رفض للتأويل؟

قلت: الجواب ما يقوله الشيخ رشيد نفسه.

يقول الشيخ: "إن ما أدين الله تعالى به في صفات الله تعالى وأخبار عالم الغيب وغيرهما من كل ما كان عليه السلف من أمر الدين هو اتباع جمهورهم في إثبات ما أثبته الله تعالى ورسوله، ونفي ما نفياه من غير تعطيل و لا تأويل، وإنني إن ذكرت لبعض الآيات في ذلك تأويلا فإنما أذكره لما أعلم بالاختبار من **أن من الناس من** لا يقتنع بحقية النص بدونه،

----

١ هو أخي الدكتور عبد القادر عطا صوفي ـ متخرج في قسم العقيدة ـ الجامعة الإسلامية ومؤلفه هذا من أحسن ما كتب.

(١) منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، ص/١٣٥

وانظر الموضع المنتقد في (١/ ١٦٧) ط.الأولى ١٤١٨هـ. وأرجو أن يتم التصحيح في الطبعات التالية إن شاء الله ويحذف اسم الشيخ رشيد منها.

٢ انظر: مجلة المنار (١/ ٢٩٣. ٢٩٤ و٢/ ٤٥٧ . ٤٥٨ و٢/ ٦٠٣ و٥/ ٨٠٩ و ٦/ ٢٥٢ و ٧/ ٣٩٠) وكل هذه المواضع لم يتجاوز " عام التمييز" وهو العام السابع للمنار.

٣ أحمد بن عبد الرحمن القاضي: مذهب أهل التفويض (ص: ٢٧٦) ط. دار العاصمة الرياض، الأولى ١٤١٦هـ.." (١)

"الحكمة من تقديم الأشراط . ليس صحيحا على إطلاقه هذا، **فإن من الناس من** يوفقه الله تعالى للاعتبار، فإذا رأى من أشراط الساعة شيئا مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم تنبه من غفلته وقام من رقدته، وأصلح من شأنه، لا يألو جهدا في التوبة ولا يتوانى في الحوبة، كالمريض إذا ظهر له قرب أجله فإنه يسارع في الإحسان، وينظر لنفسه وورثته وأصحاب الحقوق عنده، وينقطع عن الدنيا إلى الآخرة. ومنهم من طبع الله على قلبه وتمكنت منه الغفلة فهو على حد قوله تعالى: ﴿ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون﴾ ١.

وأما الأشراط الكبرى وخوف الشيخ رشيد أن تتعارض مع ما تقرر من عدم علم أحد بالساعة إلا الله تعالى، ومن أن العالم بهذه الأشراط يكون في مأمن من الساعة، فالجواب عنه أيضا من وجوه:

أحدها: أن يقال فيه ما قيل فيما قد سبق من صنفي الناس، فمنهم حي القلب، العالم الذي ينفعه ذلك، ومنهم دون ذلك.

الثاني:أن الله تعالى ورسوله قد أخبرا مع وجود الأشراط وظهور العلامات أن الساعة لا تكون إلا بغتة، كما قال تعالى: ﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ ٢، فالعلم بأشراطها لا يورث العلم بوقوعها، ومع أن السنة قد بينت أن الساعة تكون في آخر ساعة من يوم الجمعة، فلا تكون في يوم آخر ولا ساعة أخرى، إلا أنها كذلك قد بينت أنها لا تكون إلا فجأة. ومما يؤيد هذا الوجه اختلاف أهل العلم في بعض الأشراط والعلامات هل وقعت أم لا، كاختلافهم في الدخان ٣، والمهدي هل هو عمر بن عبد العزيز أم

----

١ سورة هود، الآية (٣٤)

٢ سورة الأعراف، الآية (١٨٧)." (٢)

"فقد ذهب الأغلب من فقهاء الحنفية المتأخرين إلى : أنه يشتغل بالتسبيحات فذلك أولى ، وقال أبو الليث السمرقندي(١)معللا : [.. **لأن من الناس من** لا يرى الثناء ، وهو قول الإمام مالك ..](٢).

مسألة المعتدة الممتدة الطهر ، فهم في خلاف في استبراء رحمها .

فمذهب أبي حنيفة : عدم التوقيت ، ويدعها حتى يعلم أنها ليست بحامل(٣).

---

(١) منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، ص/١٧٣

(٢) منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، ص/٣٣٨

ومذهب تلميذه محمد بن الحسن الشيباني : تقديرها بعدة الوفاة ، وهي أربعة أشهر وعشرة أيام ، وفي رواية عنه .. أنها تقدر بشهرين وخمسة أيام(٤).

وذهب أبو مطيع البلخي(٥)إلى : أن عدتها تسعة أشهر ، لأنه المعتاد في مدة الحمل .

وقالوا : حقيقة ما ذهب إليه أبو مطيع البلخي هو قول للإمام مالك رضي الله عنه ، واختلفوا في جواز الأخذ بمذهب الغير على أقوال ، لكن فريقا كبيرا منهم .. قال : [يجوز العمل بمذهب الغير إذا أفتى به مالكي](٦).

وفي مسألة ادعاء الأجنبي على المتوفى دينا ، فأقر بعض الورثة وكذبه البعض ، فما يستحق من دينه ؟

---

(١) هو : نصر بن محمد السمرقندي الحنفي [ت سنة ٣٧٣ هـ أو ٣٧٦ هـ] ، فقيه مشهور ، ومحدث ، ومفسر ، له مؤلفات جليلة أهمها : تفسيره ، وكتاب النوازل الذي جمع فيه فتاوى المتأخرين من الحنفية بعد عصر إمامهم وتلامذته . [راجع : مخطوطة النوازل – باب التأويلات ، الجواهر المضية في تراجم الحنفية – ٢ / ١٩٦ ، التحبير في المعجم الكبير لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني [ت سنة ٥٦٢ هـ] / بتحقيق منيرة سالم / بغداد .

(٢) مخطوطة النوازل لأبي الليث السمرقندي –كتاب الصلاة .

(٣) رد المحتار على الدر المختار لمحمد أمين بن عابدين الشامي [ت سنة ١٢٥٢ هـ] – ٣ / ٥٠٧ إلى ٥٠٨ .

(٤) رد المحتار – الموضع السابق ، الفتاوى البزازية – ١ / ٤٤٤ .

(٥) تقدمت ترجمته .

(٦) المراجع السابقة ، والمختار للفتوى لأبي الفضل عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي الحنفي [ت سنة ٦٨٣ هـ] – ٢ / ١٣ .." (١)

"الفصل الثالث

المبحث الثاني: تحقيق الحق من علم أصول الفقه

المطلب الأول: مبررات تجديد علم الأصول عند الشوكاني:

لقد كان الأساس الثاني الذي أقام عليه الشوكاني تجديد المنهج الفقهي هو تجديد علم أصول الفقه بتحقيق الحق منه. وتمثلت مبررات هذا العمل المنهجي في أمرين:

الأول: أن أصول الفقه هو منهج استنباط الأحكام الفقهية، وأي تجديد في الفقه يقتضي تجديدا في أصوله.

الثاني: أن التراث الأصولي صار يؤخذ مسلمات لا مجال لنقاشها، وبالتحقيق والتمحيص يتبين أن منه ما لا مستند له من الشرع، وقد عبر عن ذلك بقوله: «علم أصول الفقه لما كان هو العلم الذي يأوي إليه الأعلام، والملجأ الذي يلجأ إليه عند تحرير المسائل وتقرير الدلائل في غالب الأحكام، وكانت مسائله المقررة وقواعده المحررة تؤخذ مسلمة عند كثير من الناظرين، كما تراه في مباحث الباحثين وتصانيف المصنفين، فإن أحدهم إذا استشهد لما قاله بكلمة من كلام

---

(١) وشائج الصلة المتميزة بين مذهبي الإمامين أبي حنيفة ومالك رحمهما الله، ص/٢٧

أهل الأصول، أذعن له المنازعون وإن كانوا من الفحول، لاعتقادهم أن مسائل هذا الفن قواعد مؤسسة على الحق الحقيق بالقبول، مربوطة بأدلة علمية من المعقول والمنقول، تقصر عن القدح في شيء منه أيدي الفحول وإن تبالغت في الطول»([٦٩]).

وقد نتج عن هذا التصور الذي استقر في العقل الفقهي والأصولي عن علم أصول الفقه تكريس التقليد، وهو ما جعل الرأي البحث في نظر الشوكاني يحل محل الدليل في التفكير الأصولي والفقهي حيث قال: «....هذا الفن الذي رجع كثير من المجتهدين بالرجوع إليه إلى التقليد من حيث لا يشعرون، ووقع غالب المتمسكين بالأدلة بسببه في الرأي البحت وهم لا يعلمون»([٧٠]).

فهذه المبررات حملت الشوكاني على تصنيف كتابه "إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول"، والذي التزم فيه منهجا خاصا قوامه عدم ذكر «المبادئ التي يذكرها المصنفون في هذا الفن، إلا ما كان لذكره مزيد فائدة يتعلق بها تعلقا تاما وينتفع بها فيه انتفاعا زائدا»([٧١]).

المطلب الثاني: مجالات تجديد علم الأصول عند الشوكاني:

لقد أفصح الإمام الشوكاني في مقدمة كتابه إرشاد الفحول عن المقصد الذي توخاه من تحقيق علم أصول الفقه، وعن مجالات هذا التحقيق فقال: «حملني ذلك بعد سؤال جماعة لي من أهل العلم على هذا التصنيف في هذا العلم الشريف قاصدا به إيضاح راجحه من مرجوحه، وبيان سقيمه من صحيحه، موضحا لما يصلح منه للرد إليه وما لا يصلح للتعويل عليه، ليكون العالم على بصيرة في علمه، يتضح له بها الصواب، ولا يبقى بينه وبين درك الحق الحقيق بالقبول حجاب»([٧٢]).

وهذه المقالة تبين أن تجديد علم أصول الفقه عنده هو تحقيقه وتمحيصه، وأنه يكون من خلال مجالين اثنين:

المجال الأول: بيان الراجح من المرجوح والسقيم من الصحيح.

والمجال الثاني: بيان ما يصلح للرد إلى علم أصول الفقه وما لا يصلح.

وفي الآتي تفصيل المجالين:

المجال الأول: بيان الراجح من المرجوح والسقيم من الصحيح:

وأهم ما قام به الشوكاني في هذا المجال تحقيق بعض المفردات الأصولية نظرا لأهميتها، ويمكن الاكتفاء في هذا المقام بالتمثيل لأهم المفردات التي تساعد على تصور فكره الأصولي.

المفردة الأولى: نظرية الاجتهاد:

وتناولها من زوايا متعددة أهمها:

أولا: ضبط مفهوم الاجتهاد والمجتهد:

لقد أورد الشوكاني في تحديده لمفهوم الاجتهاد تعريفات عديدة، منها تعريف ابن الحاجب: استفراغ الفقيه الوسع لتحصيل ظن بحكم شرعي»([٧٣])، وتعريف الآمدي: «استفراغ الوسع في طلب الظن بشيء من الأحكام الشرعية على وجه يحس من النفس العجز عن المزيد عليه»([٧٤]) وغيرها من التعريفات التي اشتملت على قيود مانعة من

دخول أفراد غير المعرف فيها.

لكن التعريف الذي ارتضاه الإمام الشوكاني وتولى شرح قيوده قيدا قيدا هو: «بذل الوسع في سبيل حكم شرعي عملي بطريق الاستنباط»([٧٥]). والفارق بين التعريفات التي ساقها وبين هذا التعريف الذي تبناه أن الأولى ليست شاملة لجميع أفراد المعرف، إذ أنها ركزت على عنصرين: المستثمر للحكم، أي المجتهد، وثمرة الاجتهاد، ولم تتضمن طرق استثمار الأحكام أي الاستنباط، وهو ما اشتمل عليه التعريف الذي تبناه. وقد استثمر الشوكاني هذا القيد في ضبط مفهوم المجتهد حيث قال: «ويخرج بطريق الاستنباط نيل الأحكام من النصوص ظاهرا، أو حفظ المسائل، أو استعلامها من المفتي، أو بالكشف عنها في كتب العلم، فإن ذلك وإن كان يصدق عليه الاجتهاد اللغوي، فإنه لا يصدق عليه الاجتهاد الاصطلاحي»([٧٦]).

وفحوى كلامه هذا أن المجتهد هو الذي يستطيع نيل الحكم الشرعي بطريق الاستنباط من الكتاب والسنة، وأن مجرد حفظ فروع الفقه ومسائله في مذهب ما، لا يجعل من صاحبه مجتهدا. من هذا المنطلق لم يعد الشوكاني ما اصطلح على تسميته – بعد استقرار المذاهب وشيوع التقليد– بمجتهدي المذهب (وهم نوعان: مجتهدو التخريج ومجتهدو الفتيا) من أهل الاجتهاد.

والسبب في ذلك أن النوع الأول يقتصر عمله على تطبيق العلل الفقهية التي استخرجها إمامه فيما لم يعرض له من مسائل، وليس له أن يجتهد في مسائل قد نص عليها في المذهب إلا في دائرة معينة، وهي أن يكون استنباط الإمام فيها مبنيا على اعتبارات لا وجود لها في عرف المتأخرين([٧٧]).فالاستنباط عند هذا النوع من العلماء لا يكون من الكتاب والسنة، بل من أقوال الإمام المتبع. أما النوع الثاني أي مجتهدو الفتيا فعملهم يقتصر على ترجيح بعض الأقوال على بعض بقوة الدليل أو بغيره مما لا يعد استنباطا أصلا([٧٨]).

ثانيا: ضبط شروط الاجتهاد:

تعرض الإمام الشافعي في كتابه "الرسالة" إلى شروط الاجتهاد بشكل إجمالي([٧٩])، ثم توسع الأصوليون بعده في تفصيل هذه الشروط، ويعد عمل الإمام الغزالي خلاصة ما انتهى إليه العلماء السابقون في ضبط شروط الاجتهاد، كما أصبح قدوة لمن بعده في اعتماد منهج التخفيف في الشروط الأساسية. وبعد استقرار المذاهب وشيوع التقليد توسعت كتب المتأخرين في الحديث عن شروط الاجتهاد، وسبب ذلك أن العلماء قسموا الاجتهاد بالنسبة إلى المجتهد إلى: اجتهاد مطلق، واجتهاد مقيد، وقسموا هذا الأخير إلى مراتب، الأمر الذي اقتضى منهم بيان شروط كل مرتبة.

أما الشوكاني فقد اعتمد منهجا خاصا في بيان شروط الاجتهاد يتوافق ونظريته العامة في التقليد والاجتهاد، ويخدم دعوته التجديدية للفقه وأصوله.. ويمكن تحديد معالم هذه المنهجية في النقاط الآتية:

– حصر حديثه في شروط الاجتهاد على المجتهد المطلق، لأنه لا يدرج باقي الأقسام والمراتب ضمن دائرة الاجتهاد.

– تأكيده الشروط التأهيلية الأساسية التي يجب تحققها في المجتهد، بحيث إذا تخلف أحدها لم يكن أهلا لهذا المنصب، وهي: العلم بنصوص الكتاب والسنة؛ معرفة مسائل الإجماع لمن يقول بحجيته؛ العلم باللغة العربية؛ العلم بأصول الفقه؛ العلم بالناسخ والمنسوخ؛ وأعرض عن الشروط التي لا يتوقف عليها وجود ملكة الاجتهاد، وبلوغ درجة

المجتهد، وإنما تسمو بصاحبها إلى درجة الكمال. وهي شروط أدى التمسك بها عند المتأخرين إلى الحكم باستحالة تحقيق جميعها في عالم واحد، ومن ثم الإعلان عن شغور منصب الاجتهاد.

– عدم الإطناب في شرح الشروط غير المكتسبة، كالبلوغ، والعقل، والاكتفاء بذكرها فقط لأنها شروط التكليف فهي بدهية.

– النظر الاجتهادي في مناقشة الشروط الأساسية، وتحقيق ما يراه الحق بعد مناقشة آراء العلماء في تفاصيل هذه الشروط.

ففي الشرط الأول، وهو العلم بنصوص الكتاب والسنة، وافق ما استقر عليه العلماء من تخفيف فقال: «ولا يشترط معرفته بجميع الكتاب والسنة بل بما يتعلق منهما بالأحكام»([٨٠])، ولكن كانت له بعض الاعتراضات في التفاصيل. ففي العلم بالكتاب، اعترض على الغزالي وابن العربي تقديرهما آيات الأحكام بخمسمائة آية فقال: «ودعوى الانحصار في هذا المقدار إنما هي باعتبار الظاهر للقطع بأن في الكتاب العزيز من الآيات التي تستخرج منها الأحكام الشرعية أضعاف أضعاف ذلك، بل من له فهم صحيح، وتدبر كامل يستخرج الأحكام من الآيات الواردة لمجرد القصص والأمثال»([٨١]).

وفي العلم بالسنة، علق على اختلاف العلماء في القدر الذي يكفي المجتهد من السنة، إذ قيل خمسمائة، وقيل ألف ومائتين، وقيل غير ذلك، فقال: «ولا يخفاك أن كلام أهل العلم في هذا الباب من قبيل الإفراط، وبعضه من قبيل التفريط. والحق الذي لا شك فيه، ولا شبهة أن المجتهد لابد أن يكون عالما بما اشتملت عليه مجاميع السنة التي صنفها أهل الفن، كالأمهات الست وما يلحق بها، مشرفا على ما اشتملت عليه المسانيد، والمستخرجات، والكتب التي التزم مصنفوها الصحة، ولا يشترط في هذا أن تكون محفوظة له مستحضرة في ذهنه، بل يكون ممن يتمكن من استخراجها من مواضعها بالبحث عنها عند الحاجة إلى ذلك»([٨٢]).

وقد رد الشوكاني بكلامه هذا على ما ذهب إليه الغزالي، وجماعة من الأصوليين، من أن المجتهد يكفيه أن يكون عنده أصل يجمع أحاديث الأحكام كسنن أبي داود([٨٣]). كما عد الشوكاني من مستلزمات العلم بالسنة، العلم بمصطلح الحديث فقال: «وأن يكون ممن له تمييز بين الصحيح منها والحسن والضعيف، بحيث يعرف حال رجال الإسناد معرفة يتمكن بها من الحكم على الحديث بأحد الأوصاف المذكورة»، وذكر تخفيفا في هذا الشرط فقال:

«وليس من شرط ذلك أن يكون حافظا لحال الرجال عن ظهر قلب، بل المعتبر أن يتمكن بالبحث في كتب الجرح والتعديل من معرفة حال الرجال مع كونه ممن له معرفة تامة بما يوجب الجرح وما لا يوجبه من الأسباب، وما هو مقبول منها، وما هو مردود، وما هو قادح من العلل، وما هو غير قادح»([٨٤]).

وفي الشرط الثالث وهو العلم باللغة العربية، أكد أنه على المجتهد «أن يكون عالما بلسان العرب، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة من الغريب ونحوه»([٨٥])، ولا يشترط في نظره «أن يكون حافظا لها عن ظهر قلب، بل المعتبر أن يكون متمكنا من استخراجها من مؤلفات الأئمة المشتغلين بذلك»([٨٦])، ولكنه رفض التخفيف الذي هو محل اتفاق جميع الأصوليين، وهو أنه يكفي المجتهد أن يعلم من اللغة والنحو القدر الذي يفهم به خطاب العرب،

وعاداتهم في الاستعمال، ولا يشترط أن يبلغ درجة الخليل والمبرد([٨٧]). وإنما اشترط على المجتهد في الأحكام أن يبلغ درجة الاجتهاد في العربية وعلومها إذ قال:
«وإنما يتمكن من معرفة معانيها، وخواص تراكيبها، وما اشتملت عليه من لطائف المزايا، من كان عالما بعلم النحو والصرف والمعاني والبيان، حتى يثبت له في كل فن من هذه ملكة يستحضر بها كل ما يحتاج إليه عند وروده عليه، فإنه عند ذلك ينظر في الدليل نظرا صحيحا، ويستخرج منه الأحكام استخراجا قويا»([٨٨]).
ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا الرأي لم يذهب إليه من الأصوليين غير الإمام الشوكاني والإمام الشاطبي([٨٩]).وإذا حاولنا فهم خلفية هذا الموقف من خلال كلامه السابق يتبين أن الشوكاني اشترط الاجتهاد في علم اللغة للمجتهد، لأن ذلك يمكنه من النظر المستقل في الأدلة، ويعصمه من التقليد. ذلك لأنه إذا وقع نزاع، أو خلاف في معنى، أو حكم توقف عليه فهم نص شرعي، تعين عليه بذل الوسع في معرفة الحق بين المختلفين، ولا يسوغ له أن يعمل على أحد المذاهب النحوية، أو البيانية في تقرير حكم إلا أن يستبين له رجحانه بدليل، وإلا كان مقلدا. فالتقليد في اللغة في نظر الشوكاني يخل بحقيقة الاجتهاد.
ومما ترتب على موقفه هذا، رفض ما ذهب إليه بعض الأصوليين، كابن عرفة وابن الوزير([٩٠])من جواز اكتفاء المجتهد بقراءة مختصر في اللغة العربية، فقال: «ومن جعل المقدار المحتاج إليه من هذه الفنون – النحو والصرف والبيان – هو معرفة مختصراتها أو كتاب متوسط من المؤلفات الموضوعة فيها فقد أبعد، بل الاستكثار من الممارسة لها والتوسع في الإطلاع على مطولاتها مما يزيد المجتهد قوة في البحث، وبصرا في الاستخراج، وبصيرة في حصول مطلوبه. والحاصل أنه لابد أن تثبت له الملكة القوية في هذه العلوم، وإنما تثبت هذه الملكة بطول الممارسة وكثرة الملازمة لشيوخ هذا الفن».
واستثنى الشوكاني من علوم اللغة علم البلاغة، فلم ير ضرورة الإحاطة به لفهم كتاب الله تعالى، لأنها ليست لازمة لاستخراج الأحكام، وإنما هي لمعرفة بلاغة القرآن الكريم وما عليه من إعجاز([٩١]).
أما في الشرط الرابع وهو العلم بأصول الفقه، فقد أكد الشوكاني أنه على المجتهد «أن يكون عالما بعلم أصول الفقه؛ لأنه عماد الاجتهاد، وأساسه الذي تقوم عليه أركان بنائه»([٩٢]).. ومقصوده بالعلم هنا هو النظر المستقل وعدم التقليد، وهو ما جعله يقول: «وعليه أن ينظر في كل مسألة من مسائله نظرا يوصل إلى ما هو الحق فيها، فإنه إذا فعل ذاك تمكن من رد الفروع إلى أصولها بأيسر عمل، وإذا قصر في هذا الفن صعب عليه الرد وخبط فيه وخلط»([٩٣]).
وفحوى كلام الشوكاني أنه من كان مقلدا في القضايا الأصولية، لن يكون مستقلا في استنباطه للفروع الفقهية، ذلك لأن النتائج تتبع المقدمات، فمن لم يكن مجتهدا في إحدى مقدمات الاجتهاد، فليس بمجتهد.
إن الدراسة التحليلية لشروط الاجتهاد عند الشوكاني تبين أن العلوم التي ضمنها تلك الشروط هي المطلوبة لبلوغ رتبة الاجتهاد، وأن التبحر في غيرها ليس مرادا للقدرة على الاجتهاد، ولا مانع منه عند الإمكان، فإن به فقط يظهر التفاوت بين المجتهدين، وهذا يؤكد قناعة أساسية في فكر الشوكاني التجديدي، وهي أن الاجتهاد يسره الله تعالى لعباده وشروطه مقتدر على تحصيلها، فلا رخصة في التزام التقليد، ولا مبرر للحكم بغلق باب الاجتهاد بدعوى عدم وجود من هو أهل

لممارسته، وهو ما لخصه بقوله:

«والذي أدين الله به أنه: لا رخصة لمن علم لغة العرب، ما يفهم به كتاب الله، بعد أن يقيم لسانه بشيء من علم النحو والصرف، وشطر من مهمات كليات أصول الفقه في العمل بما يفهمه من آيات الكتاب العزيز، أو السنة المطهرة، ولا يحل التمسك بما يخالفه من الرأي، سواء كان قائله واحدا أو جماعة أو الجمهور» ([٩٤]).

ثالثا: مراتب الاجتهاد:

فرق الشوكاني في حديثه عن شروط الاجتهاد بين نوعين من العلوم: علوم مطلوبة لبلوغ رتبة الاجتهاد، وهي التي ضمها شروط الاجتهاد الخمسة، وعلوم ليست شرطا لبلوغ رتبة الاجتهاد، ولكن يظهر بها التفاوت بين المجتهدين. من هذا المنطلق جعل مراتب الاجتهاد مرتبتين:

المرتبة الأولى: هو المجتهد الذي كملت له جميع أنواع علوم الدين، وصار قادرا على استخراج الأحكام من الأدلة متى شاء، وكيف شاء، فيصير ببلوغه هذه المرتبة من العلم إماما مرجوعا إليه، مستفادا منه مأخوذا بقوله، مدرسا ومفتيا ومصنفا، وهذه الطبقة العالية من طبقات المجتهدين([٩٥]).

وعلو هذه المرتبة تقتضي في نظر الشوكاني الإحاطة بعلوم أخرى غير تلك التي حوتها شروط الاجتهاد، منها علم المنطق الذي يمكن المجتهد من إدراك الحجج العقلية واستيعاب المباحث المنطقية التي يوردها المؤلفون في علوم الاجتهاد([٩٦]).ومنها علم الكلام لمعرفة حقيقة الاعتقادات وإنصاف كل فرقة بالترجيح أو التجريح على بصيرة([٩٧])،كما يفيد في حسن فهم علوم أخرى كعلم التفسير وعلم تفسير الحديث. ومنها علم التاريخ، عده من العلوم المطلوبة لهذه الطبقة من المجتهدين([٩٨]).وكثيرا ما يوظف الشوكاني هذا العلم في تحقيق بعض المسائل الفقهية أو الأصولية، كما فعل في مسألة خلو العصر عن المجتهد، إذ أثبت بالدليل التاريخي عدم وقوع الخلو، كما سيأتي بيانه([٩٩]).ومنها العلوم الفلسفية كالعلم الرياضي والطبيعي والهندسة والهيئة والطب.

هذا، وقد حذر المجتهد من أن يثنيه تنفير بعض أهل العلم من هذه العلوم عن الاشتغال بها قائلا: « ودع عنك ما تسمعه من التشنيعات، فإنها كما قدمنا لك من التقليد، وأنت بعد العلم بأي علم من العلوم حاكم عليه بما لديك من العلم، غير محكوم عليك، واختر لنفسك ما يحلو، وليس يخشى على من قد ثبت قدمه في علم الشرع من شيء»([١٠٠]).

كما رفض أن يحصر مجتهد هذه المرتبة نفسه في دائرة العلوم الشرعية دون التفتح على باقي العلوم، فقال: « ولقد وجدنا لكثير من العلوم التي ليست من علم الشرع نفعا عظيما وفائدة جليلة في دفع المبطلين، والمتعصبين، وأهل الرأي البحت، ومن لا اشتغال له بالدليل». وقرر في الأخير أن « العلم بكل فن خير من الجهل به بكثير، ولا سيما من رشح نفسه للطبقة العلية والمنزلة الرفيعة»([١٠١]).

المرتبة الثانية: المجتهد الذي بإمكانه معرفة ما طلبه منه الشارع من أحكام التكليف والوضع على وجه يستقل فيه بنفسه، ولا يحتاج إلى غيره، ودون أن تتعدى فوائد معارفه إلى غيره كما هو الحال عند مجتهد المرتبة الأولى([١٠٢]). وشروط هذا الصنف من المجتهدين هي شروط الاجتهاد الخمسة التي حددها الشوكاني، إذ قال:

«فمن علم بهذه العلوم علما متوسطا يوجب ثبوت مطلق الملكة في كل واحد منها صار مجتهدا مستغنيا عن غيره، ممنوعا من العمل بغير دليل، وعليه أن يبحث عند كل حادثة يحتاج إليها في دينه عن أقوال أهل العلم وكيفية استدلالهم في تلك الحادثة، وما قالوه، وما رد عليهم به، فإنه ينتفع بذلك انتفاعا كاملا، ويضم إلى علمه علوما، وإلى فهمه فهوما، وهو وإن قصر عن أهل الطبقة الأولى فليس بمحتاج فيما يتعلق به من أمر الدين إلى زيادة على هذا المقدار([١٠٣])».

رابعا: إشكالية جواز خلو العصر عن المجتهد:

لقد أخذت إشكالية جواز خلو العصر عن المجتهد حيزا كبيرا في نظرية الاجتهاد عند الشوكاني، وذلك لاعتبارات ثلاثة:

الاعتبار الأول: أنها كانت المقدمة النظرية التي أسست عليها دعوى غلق باب الاجتهاد. فقد ادعى من قال بخلو العصر عن المجتهد بجواز ذلك شرعا وعقلا([١٠٤]). من هنا أقام الشوكاني استدلاله ببطلان هذه الدعوى على عدم جوازها شرعا وعقلا.

أما الأول فقد استفاده من الحكم الشرعي للاجتهاد، وهو أنه فرض كفاية إذا لم يوجد من يقوم به أثم الجميع، فهو إذن واجب على الأمة الإسلامية، وقد لخص هذا في قوله: «لا يخفاك أن القول بكون الاجتهاد فرضا يستلزم عدم خلو الزمان عن مجتهد، ويدل على ذلك ما صح عنه e من قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين حتى تقوم الساعة». وأما عدم الجواز العقلي فاحتج له بأن من طبيعة العلوم والمعارف أن تزداد وتتطور، فقال معترضا على من ادعوا جواز خلو العصر من مجتهد:

«إن قالوا ذلك باعتبار أن الله عز وجل رفع ما تفضل به على من قبل هؤلاء من هذه الأئمة من كمال الفهم، وقوة الإدراك، والاستعداد للمعارف، فهذه دعوى من أبطل الباطلات، بل هي جهالة من الجهالات، وإن كان ذلك باعتبار تيسر العلم لمن قبل هؤلاء المنكرين وصعوبته عليهم، وعلى أهل عصورهم، فهذه أيضا دعوى باطلة، فإنه لا يخفى على من له أدنى فهم أن الاجتهاد قد يسره الله للمتأخرين تيسيرا لم يكن للسابقين، لأن التفاسير للكتاب العزيز قد دونت، وصارت في الكثرة إلى حد لا يمكن حصره، والسنة المطهرة قد دونت، وتكلم الأئمة على التفسير والتخريج والتصحيح والترجيح بما هو زيادة على ما يحتاج إليه المجتهد، وقد كان السلف الصالح من قبل هؤلاء المنكرين، يرحل للحديث الواحد من قطر إلى قطر. فالاجتهاد على المتأخرين أيسر وأسهل من الاجتهاد على المتقدمين، ولا يخالف في هذا من له فهم صحيح وعقل سوي» ([١٠٥]).

الاعتبار الثاني: تغير مضمون الإشكالية من جواز الخلو وعدمه إلى جواز وجود المجتهد وعدمه. ذلك لأن الذين قالوا بجواز خلو العصر عن مجتهد لم يكتفوا به، بل تجاوزوا ذلك في الواقع إلى عدم جواز وجود مجتهد في عصرهم، وما بعده، فقد نقل الشوكاني عن الرافعي قوله: «الخلق كالمتفقين على أنه لا مجتهد اليوم»([١٠٦])، كما نقل عن القفال والغزالي والرازي أنه قد خلا العصر عن المجتهد([١٠٧]).

والملاحظ هنا أن الإشكالية قد أخذت بعدا آخر، إضافة إلى الإمكان الشرعي والعقلي، وهو الوقوع التاريخي، وما دام الأمر تعلق بالوقوع الفعلي، لم يجد الشوكاني بدا من الاستناد إلى علم التاريخ لإبطال هذه الدعوى فقال: «إن قالوا ذلك باعتبار المعاصرين لهم فقد عاصر القفال والغزالي والرازي والرافعي من الأئمة القائمين بعلوم الاجتهاد على الوفاء والكمال

جماعة منهم. ومن كان له إلمام بعلم التاريخ والإطلاع على أحوال علماء الإسلام في كل عصر لا يخفى عليه مثل هذا، بل قد جاء بعدهم من أهل العلم من جمع الله له من العلوم فوق ما اعتده أهل العلم في الاجتهاد»([١٠٨]).

وزيادة في البيان والتأكيد، لم يقف الشوكاني عند حد استقراء التاريخ الإسلامي عموما، بل انتقل إلى تاريخ المذهب الشافعي، باعتبار أن العلماء الذين صرحوا بعدم وجود مجتهد شافعية، فقال:

«ولما كان هؤلاء الذين صرحوا بعدم وجود المجتهدين شافعية فها نحن نصرح لك من وجد من الشافعية بعد عصرهم ممن لا يخالف مخالف في أنه جمع أضعاف علوم الاجتهاد، فمنهم ابن عبد السلام، وتلميذه ابن دقيق العيد، ثم تلميذه ابن سيد الناس، ثم تلميذه زين الدين العراقي، ثم تلميذه ابن حجر العسقلاني، ثم تلميذه السيوطي. فهؤلاء ستة أعلام، كل واحد منهم تلميذ من قبله، قد بلغوا من المعارف العلمية ما يعرفه من يعرف مصنفاتهم حق معرفتها، وكل واحد منهم إمام كبير في الكتاب والسنة، محيط بعلوم الاجتهاد إحاطة متضاعفة، عالم بعلوم خارجة عنها. ثم في المعاصرين لهؤلاء كثير من المماثلين لهم، وجاء بعدهم من لا يقصر عن بلوغ مراتبهم، والتعداد لبعضهم فضلا عن كلهم يحتاج إلى بسط طويل»([١٠٩]).

كما حاول الشوكاني أن يفند دعوى عدم وجود مجتهد من داخل المذهب الشافعي ذاته، إذ نقل عن الزركشي قوله: «ولم يختلف اثنان في أن ابن عبد السلام بلغ رتبة الاجتهاد، وكذلك ابن دقيق العيد»، ثم علق قائلا: «وهذا الإجماع من هذا الشافعي يكفي في مقابلة حكاية الاتفاق من ذلك الشافعي الرافعي»([١١٠]). يقصد قول الرافعي: «الخلق كالمتفقين على أنه لا مجتهد اليوم».

الاعتبار الثالث: إن القول بعدم جواز وجود مجتهد اقتضى القول بوجوب تقليد المذاهب المبتدعة وحصر الحق فيها وحدها واستقر في العقل الفقهي، كما قال الشوكاني: «أنه لا اجتهاد بعد استقرار المذاهب وانقراض أئمتها» ([١١١]).فأصبح التقليد أمرا واجبا، والاجتهاد أمرا منكرا.

يؤكد هذا ما نقله الشوكاني على لسان أنصار المذاهب إذ قال: «فقالت طائفة منهم ليس لأحد أن يجتهد بعد أبي حنيفة، وأبي يوسف، وزفر، والهذيل، ومحمد بن الحسن الشيباني، والحسن ابن زياد اللؤلؤي، وإلى هذا ذهب غالب المقلدة من الحنفية، وقال بكر بن العلاء القشيري المالكي: "ليس لأحد أن يجتهد بعد المائتين من الهجرة"، وقال آخرون: ليس لأحد أن يجتهد بعد الأوزاعي، وسفيان الثوري، ووكيع بن الجراح، وعبد الله بن المبارك، وقال آخرون ليس لأحد أن يجتهد بعد الشافعي»([١١٢]).

والملاحظ في هذا الاستشهاد أن الشوكاني ركز على مدعي خلو العصر عن المجتهد المطلق المستقل، لأنه لا يعتبر غيره من مجتهدي المذاهب من أهل الاجتهاد كما سبق بيانه. ولكن في الحقيقة، الأمر تعدى الحكم بانعدام المجتهد المطلق إلى الحكم بانعدام مجتهد المذهب أيضا. قال صاحب "فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت": «ثم **إن من الناس من** حكم بوجوب الخلو من بعد العلامة النسفي، واختتم الاجتهاد به، وعنوا الاجتهاد في المذهب. وأما الاجتهاد المطلق، فقالوا اختتم بالأئمة الأربعة، حتى أوجبوا تقليد واحد من هؤلاء الأربعة»([١١٣]).

وقال عالم الأقطار الشامية ابن أبي الدم، بعد سرده شروط الاجتهاد المطلق: «هذه الشرائط يعز وجودها في زماننا في شخص من العلماء، بل لا يوجد في البسيطة اليوم مجتهد مطلق... بل ولا مجتهد في مذهب إمام تعتبر أقواله وجوها مخرجة على مذهب إمامه»([١١٤]).

والحاصل أن الشوكاني بعد دراسته التحليلية لأبعاد ومرتكزات إشكالية جواز خلو العصر عن المجتهد، خلص إلى أن وقوع الخلو ممنوع شرعا وعقلا وواقعا، و أنها دعوى باطلة لا يلزم بها أحد فقال:

«وبالجملة فتطويل البحث في مثل هذا لا يأتي بكثير فائدة، فإن أمره أوضح من كل واضح، وليس ما يقوله من كان من أسراء التقليد بلازم لمن فتح الله عليه أبواب المعارف، ورزقه من العلم ما يخرج به عن تقليد الرجال.. ومن حصر فضل الله على بعض خلقه، وقصر فهم هذه الشريعة المطهرة على من تقدم عصره، فقد تجرأ على الله عز وجل، ثم على شريعته الموضوعة لكل عباده، ثم على عباده الذين تعبدهم الله بالكتاب وبالسنة»([١١٥]).

خامسا: تجزؤ الاجتهاد:

من المسائل التي ميزت نظرية الاجتهاد عند الشوكاني وجعلتها أساس التجديد الفقهي، قضية تجزؤ الاجتهاد. والمقصود بتجزؤ الاجتهاد أن يجتهد العالم في استنباط بعض الأحكام دون بعض([١١٦]).وأول من أثار هذه الإشكالية وحكم بجوازها الإمام الغزالي في كتابه المستصفى([١١٧]) وتبعه في ذلك جمهور الأصوليين كالآمدي، والقرافي، وابن القيم، وابن الهمام، وابن دقيق العيد، وابن السبكي، وابن قدامة، وغيرهم([١١٨]).حجتهم في ذلك أنه قد تمكن العناية بباب من الأبواب الفقهية حتى تحصل المعرفة بمأخذ أحكامه، وإذا حصلت المعرفة بالمآخذ أمكن الاجتهاد([١١٩]).

أما الإمام الشوكاني فقد ذهب إلى عدم جواز تجزئة الاجتهاد لسببين: أولهما: تعلق علوم الاجتهاد بعضها ببعض.. وثانيهما: أن ثبوت ملكة الاجتهاد تجعل العالم قادرا على الاجتهاد في جميع أبواب ومسائل الفقه. وهو ما سطره في قوله:

«إن من لا يقتدر على الاجتهاد في بعض المسائل لا يقتدر عليه في البعض الآخر، وأكثر علوم الاجتهاد يتعلق بعضها ببعض، ويأخذ بعضها بحجزة بعض، ولا سيما ما كان من علومه مرجعه إلى ثبوت الملكة، فإنها إذا تمت كان مقتدرا على الاجتهاد في جميع المسائل، وإن احتاج بعضها إلى فريد بحث، وإن نقصت لم يقتدر على شيء من ذلك، ولا يثق من نفسه لتقصيره، ولا يثق به الغير. لذلك فإن ادعى بعض المقصرين بأنه قد اجتهد في مسألة، فتلك الدعوى تبين بطلانها بأن يبحث معه من هو مجتهد اجتهادا مطلقا، فإنه يورد عليه من المسالك والمآخذ ما لا يتعقله»([١٢٠]).

ثم إن شدة تمسك الشوكاني بمنع تجزء الاجتهاد جعلته يرفض التفريق بين معرفة باب من أبواب الفقه، وبين معرفة مسألة من مسائله، إذ أجاز بعض العلماء الاجتهاد في الأول ومنعوا من الثاني. وقد سجل هذا الرفض بقوله:

«ولا فرق عند التحقيق في امتناع تجزؤ الاجتهاد، فإنهم قد اتفقوا على أن المجتهد لا يجوز له الحكم بالدليل حتى يحصل له غلبة الظن بحصول المقتضى وعدم المانع، وإنما يحصل ذلك للمجتهد المطلق، وأما من ادعى الإحاطة بما يحتاج إليه في باب دون باب، أو في مسألة دون مسألة، فلا يحصل له شيء من غلبة الظن بذلك، لأنه لا يزال يجوز الغير ما قد بلغ إليه علمه، فإن قال قد غلب ظنه بذلك فهو مجازف، وتتضح مجازفته بالبحث معه»([١٢١]).

إن محاولة فهم موقف الشوكاني هذا فهما يحقق الارتباط العضوي والانسجام الداخلي بين هذا العنصر والعناصر السابقة في نظرية الاجتهاد، يؤكد أن رفض الإمام الشوكاني لمبدأ تجزؤ الاجتهاد سببه أمرين: أولهما: إزالة فكرة صعوبة الاجتهاد وتعذره، وتأكيد يسر شروطه، وتحصيل ملكته، فإذا ثبتت ملكة الاجتهاد، تمكن العالم من الاجتهاد في كل الأحكام. ثانيهما: أن الاجتهاد الجزئي كان هو المنفذ الذي يتنفس منه العلماء بعد غلق باب الاجتهاد. قال الزحيلي: «.... كان – الاجتهاد الجزئي– هو النافذة التي استطاع بها العلماء تخفيف غلو أو سد باب الاجتهاد، نزولا تحت عامل الضرورة أو الحاجة التي تصادف العلماء في كل زمن للإفتاء في حكم الحوادث المتجددة»([١٢٢]).

وحيث إن الإمام الشوكاني قد أبطل هذه الدعوى وفند مرتكزها الشرعي، وهو جواز خلو العصر عن المجتهد، فما الداعي إلى فتح هذا المنفذ – القول بتجزؤ الاجتهاد – خاصة وأنه لا يرى قيام فرض الاجتهاد إلا بالمجتهد المطلق، وغيره ليس معدودا من أهل الاجتهاد؟

المفردة الثانية والثالثة: الإجماع والقياس:

من المفردات الأصولية التي راجعها الشوكاني وحقق مباحثها: الإجماع والقياس. أما الإجماع، فلم يعده دليلا شرعيا، لعدم ورود دليل على حجيته، حيث قال: «إنه ليس بدليل شرعي على فرض إمكانه، لعدم ورود دليل يدل على حجيته»([١٢٣]). وهذا الموقف جعله يركز في دراسته التحقيقية للإجماع على موضوع الحجية أكثر من تركيزه على إمكانية الإجماع في نفسه، وإمكان العلم به، وإمكان نقله.

ومرتكزه في نفي حجية الإجماع أنه لم يرد دليل على حجيته، وأن أدلة القائلين بحجيته خارجة عن محل النزاع ولا تدل على مطلوب المستدلين بها، وهو اعتبار قول المجمعين حجة شرعية تصير دينا ثابتا على كل الأمة إلى يوم القيامة. إذ علق على استدلالهم بقوله تعالى: ((وكذلك جعلنكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على لناس)) (البقرة:١٤٣) بقوله: «ليس في الآية دلالة على محل النزاع أصلا، فإن ثبوت كون أهل الإجماع بمجموعهم عدولا لا يستلزم أن يكون قولهم حجة شرعية تعم بها البلوى، فإن ذلك أمر إلى الشارع لا إلى غيره، وغاية ما في الآية أن يكون قولهم مقبولا إذا أخبرونا عن شيء من الأشياء، وأما كون اتفاقهم على أمر ديني يصير دينا ثابتا عليهم وعلى من بعدهم إلى يوم القيامة فليس في الآية ما يدل على هذا، ولا هي مسوقة لهذا المعنى، ولا تقتضيه بمطابقة ولا تضمن ولا التزام»([١٢٤]).

كما علق على استدلالهم بحديث النبي e: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون» بقوله: «إن غاية ما فيه أنه e أخبر عن طائفة من أمته بأنهم يتمسكون بما هو الحق، ويظهرون على غيرهم، فأين هذا من محل النزاع؟»([١٢٥]).

وقد استند الشوكاني في موقفه الرافض لعد الإجماع مصدرا من مصادر التشريع الإسلامي بعدم إمكان وقوعه، لعدة موانع أهمها: اتساع البلاد الإسلامية، وكثرة الحاملين للعلم، وتعذر الاستقراء التام لما عند كل واحد منهم، فإن الأعمار الطويلة – كما قال– لا تتسع لذلك فضلا عن الأعمار القصيرة([١٢٦]).

وأما القياس: فلم يعده الإمام الشوكاني – خلافا لما ذهب إليه الجمهور من الصحابة والتابعين والفقهاء والمتكلمين – أصلا من أصول الشريعة يستدل به على الأحكام التي يرد بها السمع، حيث قال: «فالقياس الذي يذكره أهل الأصول

ليس بدليل شرعي تقوم به الحجة على أحد من عباد الله، ولا جاء دليل شرعي يدل على حجيته، وإن زعم ذلك من لا خبرة له بالأدلة الشرعية ولا بكيفية الاستدلال بها»([١٢٧]).

والإمام الشوكاني لم ينف كل ما يسمى قياسا، بل استثنى ما كان منصوصا على علته، أو مقطوعا فيه بنفي الفارق، أو كان من فحوى الخطاب، أو لحن الخطاب، فقال: «فاعلم أن القياس المأخوذ به هو ما وقع النص على علته، وما قطع فيه بنفي الفارق، وما كان من باب فحوى الخطاب، أو لحن الخطاب، على اصطلاح من يسمى ذلك قياسا، وقد قدمنا أنه من مفهوم الموافقة»([١٢٨]).

إن الدراسة المستفيضة لنظرية القياس عند الإمام الشوكاني تبين أنه رفض القياس على مستويين. أولا: رفضه كدليل شرعي، أي بوصفه مصدرا للأحكام.. ثانيا: رفضه كمنهج للبحث عن الحكم الشرعي.

أما رفضه للقياس كدليل شرعي مستقل فيعود إلى سببين:

السبب الأول: أن المثبتين للقياس قد استدلوا بآيات لا تدل في نظره على حجيته، لا بمطابقة، ولا تضمن، ولا التزام([١٢٩]) منها قوله تعالى: ((فعتبروا يأولى لابصر)) (الحشر:٢)، وقوله تعالى: ((فجزاء مثل ما قتل من لنعم)) (المائدة: ٩٥)، وقوله عز وجل: ((ولو ردوه إلى لرسول وإلى أولى لامر منهم لعلمه لذين يستنبطونه منهم)) (النساء: ٨٣) ، كما استدلوا بأحاديث خارجة عن محل النزاع؛ مثل: حديث النبي e لمعاذ بن جبل عندما بعثه إلى اليمن، إذ اعتبروا قوله «أجتهد رأيي ولا آلوا» دليل على حجية القياس، لكن الشوكاني فسر الاجتهاد بالرأي بأنه استفراغ الجهد في الطلب للحكم من النصوص الخفية؛ وعلى التسليم بأنه يدل على القياس فإنه كما قال:

«لا دلالة للحديث إلا على العمل بالقياس في أيام النبوة، لأن الشريعة إذ ذاك لم تكمل، فيمكن عدم وجدان الدليل في الكتاب والسنة، وأما بعد أيام النبوة فقد كمل الشرع لقوله تعالى: ((ليوم أكملت لكم دينكم)) (المائدة:٣)، ولا معنى للإكمال إلا وفاء النصوص بما يحتاج إليه أهل الشرع، إما بالنص على كل فرد، أو باندراج ما يحتاج إليه تحت العمومات الشاملة، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى: ((ما فرطنا فى لكتب من شىء)) (الأنعام:٣٨) »([١٣٠]).

كما رد الإمام الشوكاني استدلالهم بما ثبت عن النبي e من قياسات قائلا: «هذه الأقيسة صادرة عن الشارع المعصوم، الذي يقول الله سبحانه فيما جاءنا به عنه: ((إن هو إلا وحى يوحى)) (النجم:٤)، ويقول في وجوب اتباعه: ((وما ءاتكم لرسول فخذوه وما نهكم عنه فنتهوا)) (الحشر:٧)، وذلك خارج عن محل النزاع، فإن القياس الذي كلامنا فيه إنما هو قياس من لم تثبت له العصمة، ولا وجب اتباعه، ولا كان كلامه وحيا، بل من جهة نفسه الأمارة وبعقله المغلوب بالخطأ. وقد قدمنا أنه وقع الاتفاق على قيام الحجة بالقياسات الصادرة عنه e»([١٣١]).

أما استدلالهم بإجماع الصحابة على حجية القياس، فقد نفى الإمام الشوكاني حصوله، وأكد أنه لوحدث «لكان ذلك إنما هو على القياسات التي وقع النص على علتها، والتي قطع فيها بنفي الفارق، فما الدليل على أنهم قالوا بجميع أنواع القياس الذي اعتبره كثير من الأصوليين وأثبتوه بمسالك تتغلغل فيها العقول حتى تأتي بما ليس من الشرع في ورد ولا صدر؟»([١٣٢]).

السبب الثاني: أن الأقيسة الثلاثة التي استثناها من النفي العام، وقال بحجيتها، مدلول عليها بدليل الأصل، مشمولة به،

مندرجة تحته، حيث قال في بيان ذلك:

«وأما ما كانت العلة فيه منصوصة، فالدليل هو ذلك النص على العلة، لأن الشارع كأنه صرح باعتبارها إذا وجدت في شيء من المسائل من غير فرق بين كونه أصلا أو فرعا. وهكذا ما وقع القطع فيه بنفي الفارق، فإنه بهذا القدر قد صار الأمران اللذان لا فارق بينهما شيئا واحدا، ما دل على أحدهما دل على الآخر من دون تعدية، ولا اعتماد أصلية ولا فرعية. وأما فحوى الخطاب ولحنه، فهذان راجعان إلى المفهوم والمنطوق، وإن سماهما بعض أهل العلم بقياس الفحوى»([١٣٣]).

من هنا استنتج الشوكاني أن تسمية هذا النوع بالقياس إنما هو مجرد اصطلاح فقال: «وإن كان – القياس– مع القطع بنفي الفارق، أو كان بثبوت الفرق بفحوى الخطاب أو كانت العلة منصوصة، فهذا وإن أطلق عليه اسم القياس فهو داخل دلالة الأصل، مشمول بما دل عليه، مأخوذ منه، وتسميته قياسا إنما هو مجرد اصطلاح»([١٣٤]).. وبهذا الاعتبار لم يعد الشوكاني القياس دليلا شرعيا مستقلا، بل صرح في موضع آخر بأنه من مفهوم الموافقة([١٣٥]).

أما رفضه للقياس كمنهج للبحث عن الحكم الشرعي، فيرجع كذلك إلى سببين:

السبب الأول: أن المسائل الأصولية تستفاد من لغة العرب، أو من دليل شرعي، أو من علم من العلوم المعتبرة في الترجيح، وما لا يرجع من مسائل هذا الفن إلى هذه الأصول الثلاثة فهو من علم الرأي المذموم([١٣٦]).

ومدلول مصطلح الرأي المذموم عند الشوكاني هو ما «كان في معارضة أدلة الكتاب والسنة، أو كان بالخرص والظن مع التقصير عن معرفة النصوص، أو كان متضمنا تعطيل أسماء الله تعالى وصفاته، أو كان مما أحدثت به البدع وغيرت به السنن»([١٣٧]). وما دام العلم هو معرفة الحق بدليله، وكل ما لا يبنى على دليل فهو من علم الرأي المذموم([١٣٨])، فإن مسالك العلة التي أثبت بها الأصوليون القياس – إلا ما كان راجعا منها إلى العلة المنصوصة، والقطع بنفي الفارق، وفحوى الخطاب – فهي في نظر الشوكاني «شعبة من شعب الرأي، ونوع من أنواع الظنون الزائفة، وخصلة من خصال الخيالات المختلفة" لأنه "لم يدل عليها دليل من الشرع»([١٣٩]).

السبب الثاني: أن القياس قد اتخذ ذريعة عند كثير من أهل الرأي للتلاعب بنصوص الكتاب والسنة، فلم يعد بهذا المنحى الذي اتخذه منهجا سليما في استنباط الأحكام الشرعية. قال الشوكاني:

«ولقد تلاعب كثير من أهل الرأي بالكتاب والسنة تلاعبا لا يخفى إلا على من لا يعرف الإنصاف بهذه الذريعة القياسية، وعولوا على ما هو منه أوهن من بيت العنكبوت، وقدموه على آيات قرآنية وأحاديث نبوية (...) ومن أنكر هذا، فلينظر المصنفات في الفقه، ويتتبع مسائلها المبنية على مجرد القياس، المبني على غير أساس، مع وجود أدلة نيرة، وبراهين مرضية، ومن هذا الباب دخل أهل الرأي، وإليه خرجوا من أبواب الأدلة الثابتة في كتاب الله وسنة رسوله»([١٤٠]).

مما سبق، يتبين أن الإمام الشوكاني رفض القياس من منطلقين، منطلق نقلي، لأنه لم يثبت دليل شرعي يدل على حجيته، ومنطلق منهجي لأن جل مسالك العلة التي أثبت بها الأصوليون القياس هي –في نظر الشوكاني – مجرد خيال ليس على ثبوتها إشارة من علم.

تعليق:

إن دراسة الشوكاني الأصولية التحقيقية لمفردة القياس كشفت عن التزامه بثلاثة مبادئ في الاجتهاد الأصولي التجديدي:
المبدأ الأول: عدم الاعتداد بمجرد الاسم دون النظر في معاني المسميات وحقائقها. فقد نظر الشوكاني في معاني مفردة القياس وحققها، وأثبت ما رآه صوابا منها، وفند ما لم يكن كذلك. وهذا المبدأ يعصم الأصولي المحقق من التسليم المسبق بكل مسائل هذا الفن، ويساعده على النظر المستقل فيها.
المبدأ الثاني: دفع النزاع بإيجاد مخرج من الخلاف، ومن ثم تصحيح بعض المفاهيم التي أنتجتها حدة الخلاف. فقد حاول الشوكاني تضييق الهوة بين النافين للقياس، والمثبتين له، فقال:
«ثم اعلم أن نفاة القياس لم يقولوا بإهدار كل ما يسمى قياسا، وإن كان منصوصا على علته، أو مقطوعا فيه بنفي الفارق، بل جعلوا هذا النوع من القياس مدلولا عليه بدليل الأصل، مشمولا به، مندرجا تحته، وبهذا يهون عليك الخطب، ويصغر عندك ما استعظموه، ويقرب لديك ما بعدوه، لأن الخلاف في هذا النوع الخاص صار لفظيا، وهو من حيث المعنى متفق على الأخذ به والعمل عليه، واختلاف طريقة العمل لا يستلزم الاختلاف المعنوي، لا عقلا ولا شرعا ولا عرفا»([١٤١]).
وبناء على هذا الموقف التقريبي، هون الشوكاني من بعض المواقف الأصولية التي أفرزها الخلاف الحاد بين نفاة القياس ومثبتيه، التي منها عدم الاعتداد بخلاف من أنكر القياس؛ وقد نسب هذا القول إلى القاضي أبي بكر، والغزالي، والأستاذ أبي إسحاق الذي نسبه بدوره إلى الجمهور. حجتهم في ذلك أن من أنكر القياس لا يعرف طرق الاجتهاد، وإنما هو متمسك بالظواهر، فهو كالعامي الذي لا معرفة له([١٤٢])، وكذلك قول الجويني: «إن منكري القياس ليسوا من علماء الأمة ولا من حملة الشريعة، لأن معظم الشريعة صادرة عن الاجتهاد، ولا تفي النصوص بعشر معشارها»([١٤٣]).
ولقد انتقد الإمام الشوكاني هذا الرأي وتعليلاته قائلا: «ولا يخفاك أن هذا التعليل يفيد خروج من أنكر القياس وأنكر العمل به كما كان من كثير من الأئمة، فإنهم أنكروه عن علم به لا عن جهل له»([١٤٤])، ثم أكد أن دعوى نصوص الشريعة لا تفي بعشر معشارها لا تصدر إلا عمن لم يعرف نصوص الشريعة حق معرفتها»([١٤٥]).
المبدأ الثالث: إن المعرفة الحقة لمفردات الأصول هي السبيل السليم لاتخاذ موقف علمي تجاهها، وأن رفض أي دليل من الأدلة لا يعني بحال من الأحوال الزهد أو التزهيد في العلم به، هذا ما أكده الشوكاني في قوله: «وإني وإن حذرته – أي طالب العلم – عن العمل بهذا القياس، فلا أحذره عن العلم به، وتطويل الباع في معرفته، والإحاطة بما جاء به المصنفون من أهل الأصول في مباحثه، فإنه لا يعرف صحة ما قلته إلا من عرفه حق معرفته»([١٤٦]).
المجال الثاني: بيان ما يصلح للرد إلى علم أصول الفقه وما لا يصلح(—) .
لقد بين الشوكاني أن فرز القضايا الأصولية الأصيلة عن القضايا الدخيلة على هذا العلم، تفيد في معرفة المسائل التي يصلح رد الفروع إليها وتحكيمها عند تعارض الأدلة، فقال عند حديثه عن التباس ما هو من الرأي البحت بشيء من العلوم التي هي مواد الاجتهاد:
«وكثيرا ما يقع ذلك في أصول الفقه، فإنه قد اختلط فيها المعروف بالمنكر، والصحيح بالفاسد، والجيد بالردئ، فربما يتكلم أهل هذا العلم على مسائل من مسائل الرأي ويحررونها ويقررونها وليست منه في شيء، ولا تعلق لها به بوجه،

فيأتي الطالب لهذا العلم إلى تلك المسائل فيعتقد أنها منه، فيرد إليها المسائل الفروعية، ويرجع إليها عند تعارض الأدلة، ويعمل بها في كثير من المباحث، زاعما أنها من أصول الفقه ذاهلا عن كونها من علم الرأي»([١٤٧]).

أما الضابط المنهجي الذي تعرف به المسائل التي هي من علم الأصول، والمسائل التي هي عارية عليه، فيتمثل في رد مسائل هذا الفن إلى المصادر المستفادة منها، ذلك أن مسائل الأصول تستفاد في نظر الشوكاني من لغة العرب، أو من دليل شرعي، أو من علم من العلوم التي لها دخل في الترجيح، فيرد المسألة إلى الأصل المستفادة منه فيتبين هل هي من علم أصول الفقه أم دخيلة عليه.

لقد حاول الشوكاني تطبيق هذا الضابط المنهجي على المباحث الأساسية في علم الأصول، مبتدئا بمبحث الدلالات، مبينا أن من مسائله ما هو راجع إلى لغة العرب رجوعا ظاهرا، ومثل لذلك بقوله:

« كبناء العام على الخاص، وحمل المطلق على المقيد، ورد المجمل إلى المبين، وما يقتضيه الأمر والنهي، ونحو هذه الأمور، فالواجب على المجتهد أن يبحث عن مواقع الألفاظ العربية، وموارد كلام أهلها، وما كانوا عليه في مثل ذلك. فما وافقه فهو الأحق بالقبول والأولى بالرجوع إليه... هذا على فرض عدم وجود دليل شرعي يدل على ذلك، فإن وجد فهو المقدم على كل شيء»([١٤٨]).

ومنها ما هو مختلف فيه مثل: هل يبنى العام على الخاص مطلقا، أم مشروطا بشرط أن يكون الخاص متأخرا؟ وهل يحمل المطلق على المقيد مع اختلاف السبب أم لا؟ ومعنى الأمر الحقيقي، هل هو الوجوب أم غيره؟ ومعنى النهي الحقيقي، هل هو التحريم أم غيره؟([١٤٩])

في مثل هذه القضايا قال: « فإذا أردت الوقوف على الحق في بحث من هذه الأبحاث فانظر في اللغة العربية، واعمل على ما هو موافق لها، مطابق لما كان عليه أهلها، واجتنب ما خالفها، فإن وجدت ما يدل على ذلك من أدلة الشرع، كما تقف عليه في الأدلة الشرعية – من كون الأمر يفيد الوجوب، والنهي يفيد التحريم– فالمسالة أصولية، لكونها قاعدة كلية شرعية لكون دليلها شرعيا، كما أن ما يستفاد من اللغة من القواعد الكلية أصولية لغوية».

ثم أضاف: « فهذه المباحث، وما شابهها من مسائل النسخ ومسائل المفهوم والمنطوق، الراجعة إلى لغة العرب، المستفادة منها على وجه يكون قاعدة كلية، هي مسائل الأصول، والمرجع لها، الذي يعرف به راجحها من مرجوحها، هو العلم الذي هي مستفادة منه، مأخوذة من موارده ومصادره»([١٥٠]).

كما طبق الشوكاني الضابط نفسه على مباحث القياس واستخلص أن المعتبر منه هو ما كان راجعا إلى الشرع، أو معلوما من لغة العرب فقال: «وأما مباحث القياس فغالبها من بحت الرأي، الذي لا يرجع إلى شيء مما تقوم به الحجة.. وبيان ذلك أنهم جعلوا للعلة مسالك عشرة لا تقوم الحجة بشيء منها إلا ما كان راجعا إلى الشرع، كمسلك النص على العلة، أو ما كان معلوما من لغة العرب كالإلحاق بمسلك إلغاء الفارق، وكذلك قياس الأولى المسمى عند البعض بفحوى الخطاب»([١٥١]).

وعن مباحث الكتاب والسنة والإجماع قال: « فما كان من تلك المباحث الكلية مستفادا من أدلة الشرع، فهو أصولي شرعي، وما كان مستفادا من مباحث اللغة فهو أصولي لغوي، وما كان مستفادا من غير هذين، فهو من علم

الرأي»([١٥٢]). كما اعتبر من محض الرأي، الاستحسان، والاستصحاب، والتلازم([١٥٣]).

وأما المباحث المتعلقة بالاجتهاد والتقليد، وشرع من قبلنا، وقول الصحابي، فهي في نظره «... شرعية، فما انتهض عليه دليل الشرع منها فهو حق، وما خالفه فباطل» ([١٥٤]).. وأما المباحث المتعلقة بالترجيح فيرى أنه: « إن كان المرجح مستفادا من علم من العلوم المدونة، فالاعتبار بذلك العلم، فإن كان له مدخل في الترجيح، كعلم اللغة، فإنه مقبول، وإن كان لا مدخل له إلا لمجرد الدعوى كعلم الرأي فإنه مردود»([١٥٥]).

إن استيعاب هذا الضابط المنهجي، وحسن تطبيقه على مباحث علم أصول الفقه، يمكن الباحث في نظر الشوكاني من فائدتين: الأولى: تنبيهه إلى أن بعض ما دونه أهل الأصول في الكتب الأصولية ليس من الأصول في شيء، الثانية: إرشاده إلى العلوم التي تستمد منها المسائل المدونة في الأصول، ليرجع إليها عند النظر في تلك المسائل، حتى يكون على بصيرة ويصفو له هذا العلم([١٥٦]).

([٨٧]) أبو حامد الغزالي، المستصفى، ط٢ (لبنان: دار الكتب العلمية،١٩٨٣م)٣٥٢/٢.

([٨٨]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٥١.٢٥٢.

([٨٩]) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، ١١٤/٤- ١١٧.

([٩٠])الوافي المهدي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ط١ (المغرب:دار الثقافة،١٩٨٤م) ص٤٣١.

([٩١]) إبراهيم إبراهيم هلال، الإمام الشوكاني والاجتهاد والتقليد، تحقيق القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٧٩م) ص٥٤.

([٩٢]) محمد بن علي الشوكاني، المرجع السابق، ص٥٢.

([٩٣]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([٩٤]) محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع،٨٤/٢،وما بعدها.

([٩٥]) محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الأرب، ص١٢٦.١٥٢.

([٩٦]) المرجع السابق، ص١٤٣.

([٩٧]) المرجع السابق، ص١٤٥.

([٩٨]) المرجع السابق، ص١٥١.

([٩٩]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٥٣.٢٥٤.

([١٠٠]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([١٠١]) المرجع السابق، ص١٥٦.

([١٠٢]) المرجع السابق، ص١٧٠.

([١٠٣]) المرجع السابق، ص١٧٣.

([١٠٤]) نادية شريف العمري، الاجتهاد في الإسلام، ص٢٢٣.٢٢٤.

([١٠٥]) المرجع السابق، ص٢٥٤.

([١٠٦]) المرجع السابق، ص٢٥٣.

([١٠٧]) نفسه.

([١٠٨]) نفسه.

([١٠٩]) المرجع السابق، ص٢٥٤.

([١١٠]) نفسه.

([١١١]) محمد بن علي الشوكاني، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، ص٦٣.

([١١٢]) محمد بن علي الشوكاني، قطر الولي على حديث الولي، ص٣٤٦.

([١١٣]) محمد بن نظام الدين الأنصاري، فواتح الرحموت شرح مسلم الثبوت (لبنان: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣م) ٣٩٩/٢.

([١١٤]) يوسف القرضاوي، الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، ط٢ (الكويت: دارالقلم،١٩٨٩م) ص٩٤.

([١١٥]) محمد بن علي الشوكاني،إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص٢٥٤.

([١١٦]) نادية شريف العمري، الاجتهاد في الإسلام، ص١٦٤.

([١١٧]) أبو حامد الغزالي، المستصفى، ٣٥٣/٢.

([١١٨]) نادية شريف العمري، الاجتهاد في الإسلام، ص١٦٦.

([١١٩]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص٢٥٥.

([١٢٠]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([١٢١]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([١٢٢]) وهبة الزحيلي، الوسيط في أصول الفقه، ط٢(دمشق:المطبعة العلمية،١٩٦٩م) ص٥٢٧.

([١٢٣]) محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، ص٢٠٤.

([١٢٤]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٧٧.

([١٢٥]) المرجع السابق، ص٧٨.

([١٢٦]) محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، ص٢٠٤.

([١٢٧]) محمد بن علي الشوكاني،أدب الطلب، ص٢٠٨.

([١٢٨]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٠٣-٢٠٤.

([١٢٩]) المرجع السابق، ص٢٠١.

([١٣٠]) المرجع السابق، ص٢٠٢-٢٠٣.

([١٣١]) المرجع السابق، ص٢٠٣.

([١٣٢]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([١٣٣]) محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، ص٢٠٨.٢٠٩.

([١٣٤]) محمد بن علي الشوكاني، قطر الولي على حديث الولي، ص٣٢٠.

([١٣٥]) محمد بن علي الشوكاني،إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص٢٠٤.

([١٣٦]) انظر: محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، ص١١٩.١٢٠.

([١٣٧]) محمد بن علي الشوكاني، قطر الولي على حديث الولي، ص٣٢٠.

([١٣٨]) المرجع السابق ص٣٢١.

([١٣٩]) محمد بن على الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٠١.٢٠٢.

([١٤٠]) محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، ص٢٠٩.

([١٤١]) محمد بن علي الشوكاني، إرشاد الفحول، ص٢٠٤.

([١٤٢])المرجع السابق، ص٨٠.

([١٤٣]) المرجع السابق، ص٢١٠.

([١٤٤]) المرجع السابق، ص٨١.

([١٤٥]) المرجع السابق، ص٢١٠.

([١٤٦]) محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب، ص٢١٠.

(—) لقد التزم الشوكاني مبدأ بيان ما ليس من علم الأصول، في كتابه إرشاد الفحول، لكن في كتابه "أدب الطلب ومنتهى الأرب" بين أهمية هذا النوع من التحقيق، ووضع الضابط المنهجي لمعرفة ما يصلح للرد إلى علم الأصول وما لا يصلح، وحاول تطبيقه على المباحث الأساسية في علم أصول الفقه.

([١٤٧]) المرجع السابق، ص١١٩-١٢٠.

([١٤٨]) المرجع السابق، ص١٢٠.

([١٤٩]) المرجع السابق، ص١٢٠-١٢١.

([١٥٠]) المرجع السابق، ص١٢١.

([١٥١]) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

([١٥٢]) المرجع السابق، ص١٢١.١٢٢.

([١٥٣]) المرجع السابق، ص١٢٢.

([١٥٤]) نفسه.

([١٥٥]) نفسه.

([١٥٦]) نفسه.." (١)

---

(١) معالم تجديد المنهج الفقهي نموذج الشوكاني، ص/٨

""""" صفحة رقم ٧٩ """"

ثم قال في التعزير بالحبس إن من الناس من يحبس يوما ومنهم من يحبس إلى غاية لا تقدر لكن بحسب تأدية الاجتهاد ويراد بها المصلحة

وقال الزبيري من أصحابنا تقدر غايته بشهور الاستبراء والكشف وبستة أشهر للتأديب والتقويم

والمرتبة الثالثة النفي اختلف في غايته ظاهر المذهب أن أكثره ما دون السنة انتهى

وهذا منه ومن الشاشي قبله تصريح بجواز التعزير بالنفي والإخراج عن البلد وقد صنعه عمر رضي الله عنه ولا شك في جوازه وأشار إلى جوازه أيضا القاضي الحسين غير أنه وقع في عبارة الرافعي أما جنسه يعني التعزير من الحبس أو الضرب جلدا أو صفعا فهو إلى رأي الإمام ولم يصرح بالنفي فصار كثير من الطلبة يستغرب مسألة النفي ولا غرابة فيها والحق أن ولي الأمر إذا رآه مصلحة جاز له التعزير به وقد صرح به الشاشي ومجلي وهو واضح ثم رأيته مصرحا به أيضا في الحاوي للماوردي والبحر للروياني وكلهم صرحوا بأن ظاهر المذهب أن النفي ينقص عن سنة قال الماوردي في الحاوي حتى لا يصير مساويا للتغريب في الزنا

قال في الذخائر بعد أن ذكر قبول رجل وامرأتين في المال في كتاب الشهادات ما نصه ويقبل الرجل والمرأتان مع وجود الرجلين ومع عدمهما وحكى في الحاوي أنه لا يقبل الرجل والمرأتان إلا مع عدم الرجلين والمذهب الأول انتهى

والواقف على هذا يتوهم أن صاحب الحاوي حكاه عن مذهبنا لقوله والمذهب الأول وذلك غير معروف في مذهبنا ولا حكاه الماوردي عنه إنما حكاه عن مالك." (١)

"١_ أنها تتحدث عن سيرة لإمام دنت له قطوف العلوم، ودانت له نواصي الحكمة؛ فهو أمة في الخير، وقدوة في الهدى والتقى.

٢_ أن جوانب العظمة في سيرة هذا الإمام لا تكاد تحصى كثرة_كما مر_مما يجعل هذه السيرة ميدانا فسيحا لمن أراد التأسي والاقتداء؛ فالرئيس يجد فيها بغيته، والعالم يجد فيها ضالته، والوالد والمربي، والقاضي، والعامي، والعابد، ونحوهم كل يجد في هذه السيرة ما قد يكون سببا في فلاحه.

٣_ أنها تمثل صورة حية للإسلام، والاقتداء بسيد المرسلين، وسلف هذه الأمة الصالح.

٤_ أن صاحب هذه السيرة عاش عمرا مديدا، وشاهد أحوالا متباينة، وعاصر طبقات إثر طبقات، ومع ذلك أثر وأثرى، وأفاد وأجاد، وامتاز بحسن التعامل مع المتغيرات، واختلاف الطبقات.

٥_ أن هذه السيرة تحمل في طياتها لفتات تربوية عملية عظيمة (١).

٦_ أن صاحبها رجل عاش بين ظهرانينا، ورحل من بيننا منذ وقت قريب؛ فهو ممن عاش في القرون المتأخرة؛ ومع ذلك نال ما نال من مجد، وفضل، وسؤدد؛ مما يجعل صدى هذه السيرة أوسع، وتأثيرها في النفوس أوقع؛ لأن من الناس من إذا حدث عن السلف ومآثرهم قال: أين نحن من أولئك فـ:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى - موافق للمطبوع، ٧/٨٠

لا تعرضن بذكرهم مع ذكرنا ... ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

فإذا شاهد هذا الإمام وقد تحلى بما تحلى به، وقبس من سيرة السلف ما قد قبس_كان ذلك داعية إلى السعي في الكمال، وطرد شبح اليأس من القلوب.

---

(١) _ لعل الله ييسر الفرصة لكتابة مفصلة عن الدروس التربوية، والعبر المستفادة من سيرة الإمام الفقيد.." [١]

"وقال أدب الله القرآن وأدب رسوله السنة وأدب الصالحين الفقه.

وقال لا يستكمل الرجل الإيمان حتى يحرز لسانه.

وقال لبعض أصحابه لا تكثر الشخوص من بيتك إلا لأمر لا بد منه، ولا تجلس في مجلس لا تستفيد منه علما.

وقال سفيان دخلت على مالك فقلت له إن العلم كثير.

فقال العلم شجرة أصلها بمكة وأغصانها بالمدينة وأوراقها بالعراق وثمرتها بخراسان فقال اكتب يا غلام فهذه من طرائف مالك.

قال الزبيري: قلت لمالك: **إن من الناس من** إن أمرتهم ليطيعونني ومنهم من إن أمرتهم أتأذى منهم.

الشعراء يهجونني والشاطرون يضربونني ويحبسونني فكيف أصنع.

فقال إن خفت وظنت أنهم لا يطيعونك فدع، وأنكر بقلبك، ولك في ذلك سعة.

ومن لم تخش منه فأمره وانهه وخاصة إذا أردت به الله تبارك وتعالى، فإذا كنت كذلك لم تر إلا خيرا وبخاصة إذا كان فيك شيء من لين.

ألا ترى قول الله تعالى إلأى موسى وهارون فقولا قولا لينا....

الآية.

ينظر في أمرك ويقبل منك.

تعوضت وخرجت من جملة أهل القرآن، وقال في سماع أشهب وابن القاسم من صدق في حديثه متع بعقله ولم يصبه ما يصيب الناس من الهرم والخرف.

وقال له رجل خرفت فقال له إنما يخرف الكذابون.

وقال ابن المبارك سمعته يقول لا يصلح الرجل حتى يترك ما لا يعنيه، فإذا كان كذلك أوشك أن يفتح الله في قلبه.

وروى ابن أبي أويس عنه أنه قال بغيتك منها ما يكفيك، فأقل عيشها يغنيك، وما قل وكفي خير مما أكثر وألهى.

قال ابن وهب سمعه يقول ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة.

وقال خالد بن حميد: سمعته يقول عليك بمجالسة من يزيد في علمك قوله، ويدعوك لحال الآخرة فعله، وإياك ومجالسة من يعللك قوله ويعيبك دينه ويدعوك إلى الدنيا فعله.

---

(١) تراجم لتسعة من العلماء، ص/٢٩٠

وقال ابن القاسم ذكر مالك القصد وفضله ثم قال إياك من القصد ما تحب أن ترفع به.
قيل له لم؟ قال تعجب به.
قال مطرف: قال رجل لمالك أوصني قال: إذا هممت بأمر من طاع الله فلا تحبسه إن استطعت فواقا حتى تمضيه، فإنك لا تأمن الأحداث، فإذا هممت بغير ذلك فإن استطعت أن لا تمضه فواقا فافعل، لعل الله يحدث له تركه، ولا تستحي إذا دعيت لأمر ليس بحق أن تقول قال الله تعالى في كتابه: والله لا يستحي من الحق.
وطهر ثيابك وأنقها عن معاصي الله وعليك بمعالي الأمور وكرائمها واتق رذائلها وما سفسف منها فإن الله يحب معالي الأخلاق ويكره سفافها، وأكثر تلاوة القرآن واجتهد أن تأتي عليك ساعة من ليل أو نهار إلا ولسانك رطب في ذكر الله.
ولا تمكن الناس من نفسك، واذهب حيث شئت.
وقال ما أسر عبد سريرة خير إلا ألبسه الله رداءها.
ولا أسر سريرة سوء إلا ألبسه الله رداءها.
وقال مالك للقعنبي مهما تلاعبت بشيء فلا تلعبن بدينك.
وقال لابن أخيه إن أحببتما أن ينفعكما الله بهذا الأمر فأقلا منه وتفهما فيه.
وقال ما أكثر أحد قط فأفلح.
قال ابن وهب: قال لي مالك إنه لم يكن يسلم رجل حدث بكل ما سمع.
ولا يكون إماما ابدا.
ومن أذل إهانة العلم عند من لا يطيعك.
قال ابن نافع قال مالك كل شيء ينفع فضله إلا الكلام.
قال مطرف وكان مالك إذا ودعه أحد من طلبة العلم عنده، يقول لهم: اتقوا الله في هذا العلم ولا تنزلوا به دار مضيعة، وبثوه ولا تكتموه.
قال مصعب كان مالك إذا أتاه موت أحد قال الحمد لله رب العالمين الذي أبقانا بعده، اللهم لا تجعله لنا فتنة.
قال ابن عبد الحكم وابن وهب سمعت مالكا يقول أول المعاصي الكبر والحسد والشح.
حسد إبليس وتكبر فقال خلقتني من نار وخلقته من طين وقال الله تعالى فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة. فشح آدم حتى أكل منها.
وقال أبو قرة: سمعت مالكا يقول من علم أن قوله من عمله قل كلامه.
والقول من العمل.
قال أبو قرة هو أشد من العمل، به يكون الإيمان والكفر.
وقال ابن وهب سمعت مالكا يقول من رضي بشيء كفاه وفيه يعني القناعة منفعة لأهل الورع.
وقال مالك: خرق المرء أشد من العدم.

والخرق لا ينمي له شيئا.

قال ابن وهب وقال لمالك رجل أوصني.

فقال: أوصيك أن تعمل صالحا وتأكل طيبا.

وقال سمعته يقول: من أراد الله به خيرا أجمع عليه شمله ومن نعم الله تعالى على العبد أن يجمع عليه أمره ومن بلواه عليه أن يشتت عليه أمره.." (١)

" منك مثل هذه الكلمة منذ صحبتك فقال ما أفلتت مني كلمة منذ فارقت رسول الله صلى الله عليه و سلم إلا مخطومة أو مزعومة غير هذه وأيم الله لا تنفلت

وعن أسد بن وداعة عن شداد بن أوس أنه كان إذا دخل الفراش يتقلب على فراشه لا يأتيه النوم فيقول اللهم إن النار أذهبت مني النوم فيقوم فيصلي حتى يصبح

وعنه قال كان شداد بن أوس إذا أوى إلى فراشه كأنه حبة على مقلى فيقول اللهم إن النار قد أسهرتني ثم يقوم إلى الصلاة

وعن زياد بن ماهك قال كان شداد بن أوس يقول إنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه ولن تروا من الشر إلا أسبابه الخير كله بحذافيره في الجنة والشر بحذافيره في النار وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر ولكل بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا

وقال أبو الدرداء **وإن من الناس من** يؤتى علما ولا يؤتى ." (٢)

"فالإنسان من تكوينه الظاهري والباطني يشبه ذلك القصر، فهو مكون من عناصر روحية المنشأ والمصدر، وفي غاية من السمو والشفافية، ومن عناصر مادية غاية في اللطافة والرقة، جعلته يرتبط بعلاقات واسعة ومتشعبة مع مخلوقات العالم المختلفة، وبعلاقات خاصة مع نفسه جعلت رغباته ومحبوباته وآماله لا حدود لها.

حب البقاء

إن يقين الإنسان المتأصل في نفسه بموته في كل وقت وحين، وحتمية مفارقته لأهله وأحبته، يدفعه للتشبث بأي شكل من أشكال البقاء. وتلك نزعة طبيعية متأصلة هي الأخرى في كيانه، ولكن هناك من لا يعرف كيف يستغلها ويوجهها التوجيه الذي يحقق له فعلا البقاء. وعن أولئك تحدث النورسي قائلا:

" هناك بعض الحمقى يتوجه بحبه إلى المرآة إذا ما رأى الشمس فيها. وذلك لعدم معرفته الشمس نفسها، فيحافظ على المرآة بحرص شديد لاستبقاء الشمس. ولكيلا تضيع ولكن إذا تفطن أن الشمس لا تموت بموت المرآة، ولا تفنى بانكسارها توجه بمحبته كله إلى الشمس التي في السماء، وعندئذ يعلم أن الشمس التي تشاهد في المرآة ليست تابعة

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، ٥٨/١

(٢) صفة الصفوة، ٧٠٩/١

للمرآة، ولا يتوقف بقاؤها ببقاء المرآة. بل أن بقاء حيوية المرآة وتلألأها إنما هو ببقاء تجليات الشمس ومقابلتها لها فبقاء المرآة تابع لبقاء الشمس".(١)

والمعنى **أن من الناس من** بلغ به ضعف العقل وفساد الرأي والجهل حدا يدفعه للاعتقاد بأن صورة الشمس المنعكسة على المرآة هي الشمس. ووجودها في المرآة مرهون بوجودها في السماء. فيقصر حبه كله على الصورة في المرآة، لا على الشمس نفسها، وإذا فهم طبيعة العلاقة بينهما، وأيا منهما الأصل وأيهما الفرع، ومن منهما يملك أهلية البقاء، وأيهما الزائل، عندئذ تتغير نظرته، فيتجه مباشرة صوب الباقي الذي لا يزول، ومن ثم يمنحه حبه كله، أما الفاني الزائل فلا محل له في قلبه.

بعد ذلك خاطب النورسي ذلك الإنسان العاشق للبقاء قائلا:

---

(١) اللمعات – النورسي ص ٢٠٦." (١)

" لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز و جل ولرسوله صلى الله عليه و سلم فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه

حدثني عمر قال حدثنا أبو الحسن قال حدثنا حبان بن موسى عن طلحة بن الأعلم وبشر بن عاصم عن ابن أبي ليلى عن أبيه قال بعث محمد بن أبي بكر إلى الكوفة ومحمد بن عون فجاء الناس إلى أبي موسى يستشيرونه في الخروج فقال أبو موسى أما سبيل الآخرة فأن تقيموا وأما سبيل الدنيا فأن تخرجوا وأنتم أعلم وبلغ المحمدين قول أبي موسى فبايناه وأغلظا له فقال أما والله إن بيعة عثمان في عنقي وعنق صاحبكما الذي أرسلكما إن أردنا أن نقاتل لا نقاتل حتى لا يبقى أحد من قتلة عثمان إلا قتل حيث كان وخرج علي من المدينة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين فقالت أخت علي بن عدي من بني عبد العزى ابن عبد شمس ... لا هم فاعقر بعلي جمله ... ولا تبارك في بعير حمله ... ألا علي بن عدي ليس له ...

حدثني عمر قال حدثنا أبو الحسن عن أبي مخنف عن نمير بن وعلة عن الشعبي قال لما نزل علي بالربذه أتته جماعة من طيء فقيل لعلي هذه جماعة من طيء قد أتتك منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك قال جزى الله كلا خيرا وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ثم دخلوا عليه فقال علي ما شهدتمونا به قالوا شهدناك بكل ما تحب قال جزاكم الله خيرا فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين ووافيتم بصدقاتكم المسلمين فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال يا أمير المؤمنين **إن من الناس من** يعبر لسانه عما في قلبه وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني وسأجهد وبالله التوفيق أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية وأقاتل عدوز في كل موطن وأرى لك من الحق مالا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك قال رحمك الله قد أدى لسانك عما يجن ضميرك فقتل معه بصفين رحمه الله

---

(١) رسائل عن النورسية، ١٨٠/٤

كتب إلي السري عن شعيب عن سيف عن محمد وطلحة قالا لما قدم علي الربذة أقام بها وسرح منها إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وكتب إليهم إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخوانا ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه

فمضى الرجلان وبقي علي بالربذه يتهيأ وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمره وقام في الناس فخطبهم وقال إن الله عز و جل أعزنا بالإسلام ورفعنا به وجعلنا به إخوانا بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرى الناس على ذلك ما شاء الله الإسلام دينهم والحق فيهم والكتاب إمامهم حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة ألا إن هذه الأمة لا بد مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن ثم عاد ثانية فقال إنه لا بد مما هو كائن أن يكون ألا وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهدوا بهدي نبيكم صلى الله عليه و سلم واتبعوا سنته واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكره فردوه وارضوا بالله جل وعز ربا وبالإسلام دينا وبمحمد صلى الله عليه و سلم نبيا وبالقرآن حكما ." (١)

"**...إن من الناس من** يأتي أمورا تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كما سرق من الأحياء٦٧٧٠، فعن معمر قال بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشا٦٧٧١.

١١ . عقوبة شرب الخمر للمرة الثانية:

...عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلا حدا في خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تحدث خيرا. قال يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبدا فتركه عمر٦٧٧٢.

١٢ . عقوبة ساقي الخمر:

...إن من يوفر الخمر أو يقدمها لم يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ساقي الشراب مع الذين يشربون٦٧٧٣، فعن ابن التميمي أن عمر بن عبد العزيز وجد قوما على شراب، ووجد معهم ساقيا، فضربه معهم٦٧٧٤.

١٣ . إتلاف أواني الخمر مع الخمر:

...عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن

---

(١) تاريخ الأمم والرسل والملوك- الطبري، ٢٣/٣

تكسر ٦٧٧٥.

١٤ . إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين:." (١)

"اعلم: أن القدماء من الفرس والصفد وقبط مصر الأول لم يكونوا يستعملون الأسابيع من الأيام في الشهور، وأول من استعملها أهل الجانب الغربي من الأرض لا سيما أهل الشام، وما حواليه من أجل ظهور الأنبياء عليهم السلام فيما هنالك، وأخبارهم عن الأسبوع الأول وبدء العالم فيه، وإن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام من الأسبوع، ثم انتشر ذلك منهم في سائر الأمم، واستعملته العرب العاربة بسبب تجاوز ديارهم، وديار أهل الشام، فإنهم كانوا قبل تحولهم إلى اليمن ببابل، وعندهم أخبار نوح عليه السلام، ثم بعث الله تعالى إليهم هودا، ثم صالحا عليهما السلام، وأنزل فيهم إبراهيم خليل الرحمن ابنه إسماعيل عليهما السلام، فتعرب إسماعيل، وكانت القبط الأول تستعمل أسماء الأيام الثلاثين من كل شهر، فتجعل لكل يوم منها اسما، كما وهو العمل في تاريخ الفرس، ومازالت القبط على هذا إلى أن ملك مصر أغشطش بن بوحس، فاراد أن يحملهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبدا فيها، فوجدوا الباقي حينئذ إلى تما السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين، فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين، ثم حملهم على كبس الشهور في كل أربع سنين بيوم، كما تفعل الروم، فترك القبط من حينئذ استعمال أسماء الأيام الثلاثين، لاحتياجهم في يوم الكبس إلى اسم يخصه، وانقرض بعد ذلك مستعملو أسماء الأيام الثلاثين، من أهل مصر، والعارفون بها، ولم يبق لها ذكر يعرف في العالم بين الناس، بل دثرت كما دثر غيرها من أسماء الرسوم القديمة، والعادات الأول سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكانت أسماء شهور القبط في الزمن القديم: توت، بؤوني، أتور، سواق، طوبى، ماكيرن فامينوت، برموتي، باحون، باوني، افيعي، ابيقا، وكل شهر منها ثلاثون يوما، ولكل يوم اسم يخصه، ثم أحدث بعض رؤساء القبط بعد استعمالهم الكبس الأسماء التي هي اليوم متداولة بين الناس بمصر، إلا **أن من الناس من** يسمى كيهك كياك، ويقول في برمهات برمهوط، وفي بشنس بشانس، في مسري ماسوري، ومن الناس من يسمى الخمسة الأيام الزائدة أيام النسيء، ومنهم من يسميها أبو عمنا، ومعنى ذلك الشهر الصغير، وهي كما تقدم تلحق في آخر مسرى، وفيه يزداد اليوم الكبيس، فيكون أبو عمنا ستة أيام حينئذ، ويسمون السنة الكبيسة النقط، ومعناه العلامة، ومن خرافات القبط أن شهورهم هي شهور سني نوح وشيث وآدم منذ ابتداء العالم، وإنها لم تزل على ذلك إلى أن خرج موسى ببني إسرائيل من مصر، فعملوا أول سنتهم خامس عشر نيسان، كما أمروه به في التوراة إلى أن نقل الإسكندر رأس سنتهم إلى أول تشرين، وكذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أول سنتهم إلى أول يوم من ملكه، فصار أول توت عندهم يتقدم أول يوم خلق فيه العالم بمائتين وثمانية أيام أولها يوم الثلاثاء، وآخرها يوم السبت، وكان توت أوله في ذلك الوقت يوم الأحد، وهو أول يوم خلق الله فيه العالم الذي يقال له الآن: تاسع عشري برمهات وذلك أن أول من ملك على الأرض بعد الطوفان نمرود بن كنعان بن حام بن نوح، فعمر بابل، وهو أبو الكلدانيين، وملك بنو مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام، متش فبنى منف بمصر على النيل، وسماها باسم جده مصرايم، وهو ثاني ملك ملك على الأرض، وهذان الملكان استعملا تاريخ جدهما نوح عليه السلام،

(١) الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار، ٤٤٩/٣

واستن بسنتهم من جاء بعدهم حتى تغيرت كما تقدم.

؟؟؟؟؟أعياد القبط

من النصارى بديار مصر روى يونس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: اجتنبوا عيد اليهود والنصارى، فإن السخط ينزل عليهم في مجامعهم، ولا تتعلموا رطانتهم فتخلقوا ببعض خلقهم.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: " والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما " " الفرقان ٧٢ " قال: أعياد المشركين، فقيل له: أو ما هذا في الشهادة بالزور، فقال لا إنما أية شهادة الزور، ولا تقف ما ليس له به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا.

اعلم: أن نصارى من القبط ينحلون مذهب اليعقوبية كما تقدم ذكره، وأعيادهم الآن التي هي مشهورة بديار مصر أربعة عشر عيدا في كل سنة من سنيهم القبطية منها سبعة أعياد يسمونها أعيادا كبارا، وسبعة يسمونها أعيادا صغارا. فالأعياد الكبار عندهم: عيد البشارة، وعيد الزيتونة، وعيد الفصح، وعيد خميس الأربعين، وعيد الخميس، وعيد الميلاد، وعيد الغطاس.." (١)

"وحدثني الفاضل الرئيس تقي الدين عبد الوهاب، ناظر الخواص الشريفة، ابن الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن أبي شاكر، أنه كان يشتري في كل ليلة من بين القصرين بعد العشاء الآخرة، برسم الوزير الصاحب فخر الدين عبد الله بن خصيب، من الدجاج المطجن والقطا وفراخ الحمام والعصافير المقلاة بمبلغ مائتي درهم، وخمسين درهما فضة، يكون عنها يومئذ نحو من اثني عشر مثقالا من الذهب، وأن هذا كان دأبه في كل ليلة، ولا يكاد مثل هذا من كثرته لرخاء الأسعار يؤثر نقصه، فيما كان هنالك من هذا الصنف، لعظم ما كان يوضع في بين القصرين من هذا النوع وغيره، ولقد أدركنا فيكل ليلة من بعد العصر يجلس الباعة بصنف لحمان الطيور التي تقلى صفا، من باب المدرسة الكاملية إلى باب المدرسة الناصرية، وذلك قبل بناء المجرسة الظاهرية المستجدة، فيباع لحم الدجاج المطجن، ولحم الأوز المطجن، كل رطل بدرهم، وتارة بدرهم وربع، وتباع العصافير المقوة كل عصوفر بفلس، حسابا عن كل أربعة وعشرين بدرهم، والمشيخة تقول إنا حينئذ في غلاء، لكثرة ما تصف من سعة الأرزاق ورخاء الأسعار في الزمن الذي أدركوه قبل الفناء الكبير، ومع ذلك فلقد وقع في سنة ست وثمانين شيء لا يكاد يصدقه اليوم من لم يدرك ذلك الزمان، وهو أنه: كان لنا من جيراننا بحارة برجوان، شخص يعاني الجندية، ويركب الخيل، فبلغني عن غلامه أنه خرج في ليلة من ليالي رمضان، وكان رمضان إذ ذاك في فصل الصيف، ومعه رقيق له من غلمان الخيل، وأنهما سرقا من شارع بين القصرين، وما قرب منه، بضعا وعشرين بطيخة خضراء، وبضعا وثلاثين شقفة جبن، والشقفة أبدا من نصف رطل إلى رطل، فما منا إلا من تعجب من ذلك، وكيف تهيأ لاثنين فعل هذا، وحمل هذا القدر يحتج إلى دابتين، إلى أن قدر الله تعالى لي بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين، وسألته عن ذكل فاعترف لي به، قلت: صف لي كيف عملتما، فذكر أنهما كانا يقفان على حانوت الجبان، أو مقعد البطيخي، وكان غذ ذاك يعمل من البطيخ في بين القصرين مرصات كثيرة جدا،

---

(١) المواعظ والاعتبار، ٣٣٠/١

في كل مرض ما شاءالله من البطيخ، قال: إذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة وقلب الآخر أخرى، فلشدة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخته بخفة يد وصناعة ويقوم، فلا يفطن به. أو يقلب أحدنا ورفيقه قائم من ورائه، والبياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين، وما في ذلك الشارع من غزير الناس، فيحذفها من تحته وهو جالس القرفصا، فإذا أحس بها رفيقه تناولها ومر. وكذلك كان فعلهم من الجبانين، وكانوا كثيرا، فانظر – أعزك الله – إلى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر ولا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع ولعظم الخلق.

ولقد حدثني غير واحد ممن قدم مع قاضي القضاة عماد الدين أحمد الكركي، أنذه لما قدموا من الكرك في سنة اثنين وتسعين وسبعمائة، كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين. وقال لي ابنه محب الدين محمد: أول ما شاهدت بين القصري، حسبت أن زفة أو جنازة كبيرة تمر من هنالك، فلما لم ينقطع المارة، سألت ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا؟ فقيل لي: هذا دأب البلد دائما، ولقد كنا نسمع أن من الناس من يقوم خلف الشاب أو المرأة عند التمشي بعد العشاء بين القصرين ويجامع حتى يقضي وطره وهما ماشيان، من غير أن يدركهما أحد لشدة الزحام، واشتغال كل أحد بلهوه،. وما برحت أجد من الازدحام غير أني أدركهما أحد لشدة الزحام، واشتغال كل أحد بلهوه. وما برحت أجد من الازدحام مشقة، حتى أفادني بعض من أدركت أن من الرأي في المشي أن يأخذ الإنسان في مشيه نحو شماله، فإنه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام، فاعتبرت ذلك آلاف مرات في عدة سنين، فما أخطأ معي، ولقد كنت أكثر من تأمل المارة بين القصرين، فإذا هم صفان، كل صف يمر من صوب شماله كالسيل إذا اندفع، وعلل هذا الذي أفادني، أن القلب من يسار كل أحد، والناس تميل إلى جهة قلوبهم، فلذلك صار مشيهم من صوب شمائلهم، وكذا صح لي مع طول الأعتيار. ولما حدثت هذه المحن بعد سنة ست وثمانين وثمانمائة، تلاشى أمر بين القصرين، وذهب ما هناك، ما أخوفني أن يكون أمر القاهرة كما قيل:

هذه بلدة قضى الله يا صا ... ح عليها كما ترى بالخراب." (١)

"@ ١١٧ @ عظيما # فلما دخلوا عليه قال لهم ما شهدتمونا به قالوا شهدناك بكل ما تحب فقال جزاكم الله خيرا فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين ووافيتم بصدقاتكم المسلمين فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال يا أمير المؤمنين إن من الناس من يعبر لسانه عما في قلبه وإني والله ما أجد لساني يعبر عما في قلبي وسأجهد وبالله التوفيق أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية وأقاتل عدوك في كل موطن وأري من الحق لك ما لا أراه لأحد غيرك من أهل زمانك لفضلك وقرابتك فقال رحمك الله قد أدي لسانك عما يجن ضميرك فقتل معه بصفين وسار علي من الربذة وعلي مقدمته أبو ليلي بن عمر بن الجراح والراية مع محمد بن الحنفية وعلي علي ناقة حمراء يقود فرسا كميتا # فلما نزل بفيد أتته أسد وطيئ فعرضوا عليه أنفسهم فقال الزموا قراركم في المهاجرين كفاية وأتاه رجل بفيد من الكوفة فقال له من الرجل قال عامر بن مطر الشيباني قال أخبر عما وراءك فأخبره فسأله عن أبي موسى فقال إن أردت الصلح فأبو موسى صاحبه وإن أردت القتال فليس بصاحبه فقال علي والله ما أريد إلا الصلح حتى يرد علينا ولما نزل علي الثعلبية أتاه الذي

---

(١) المواعظ والاعتبار، ١٦٤/٢

لقي عثمان بن حنيف وحرسه فأخبر أصحابه الخبر فقال اللهم عافني مما ابتليت به طلحة والزبير فلما انتهي إلي الإساد أتاه ما لقي حكيم بن جبلة وقتلة عثمان فقال الله أكبر ما ينجيني من طلحة والزبير إن أصابا ثأرهما وقال # (دعا حكيم دعوة الزماع ٪ حل بها منزلة النزاع) # فلما انتهي إلي ذي قار أتاه فيها عثمان بن حنيف وليس في وجهه شعرة وقيل أتاه بالربذة وكانوا قد نتفوا شعر رأسه ولحيته علي ما ذكرناه فقال يا أمير المؤمنين بعثتني ذا لحية وقد جئتك أمرد فقال أصبت أجرا وخيرا إن الناس وليهم قبلي رجلان فعملا بالكتاب والسنة ثم وليهم ثالث فقالوا وفعلوا ثم بايعوني وبايعني طلحة والزبير ثم نكثا بيعتي وألبا الناس علي ومن العجب انقيادهما لأبي بكر وعمر وعثمان وخلافهما علي والله إنهما ليعلمان أني لست بدون رجل ممن تقدم اللهم فاحلل ما عقدا ولا تبرم ما أحكما في أنفسهما وأرهما المساءة فيما قد عملا وأقام بذي قار." (١)

"وأرض الكويت، مثل سائر أرض العروض، كانت موطن شعوب قديمة، فيظهر. إن "Bukae" أو "Abucaei" أو "Abukae"، وعاصمتهم مدينة "Coromanis"، هم أسلاف بني عبد القيس، وأن "Coromanis"، المصدر اللغوي الذي اشق منه "القرين"، الاسم القديم للكويت.

ولعل "Idicare" هي "قارة" من مواضع الكويت، وان "Jucara" هي "الجهرة" من أخصب مناطق الكويت في الزمن الحاضر،وكانت من المواضع المأهولة قبل الإسلام.

وقد عرف "ياقوت" البحرين بأنها الأرضون التي على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، وذكر **إن من الناس من** يزعم إن البحرين قصبة هجر، و أن منهم من يرى العكس، أي إن هجرا هي قصبة البحرين.

أما "أبو الفداء" فذكر إن البحرين هي ناحية على "شط بحر فارس"، وهي ديار القرامطة ولها قرى كثيرة، وبلاد البحرين هي هجر. وذكر أيضا **إن من الناس من** يرى إن هجرا اسم يشتمل جميع البحرين كالشام والعراق، وليس هو مدينة بعينها. ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عن البحرين إن رأيهم في حدودها كان متباينا، وأنهم لم يكونوا على اتفاق في تحديدها، فتارة يوسعونها، وتارة يقلصونها.

ومن مواضع البحرين "محلم" وبه نهر اشتهر بنخله، و إليه أشار "بشر بن أبي ختزم ألاسدي" بقوله: كأن حد وجهم لما استقلوا نخيل "محلم" فيها ينوع

اليمامة." (٢)

"وورد في القرآن الكريم: "والخيل والبغال والحمر لتركبوها وزينة.."، مما يدل على **إن من الناس من** استعمل البغال للركوب وللزينة. قد كان من الأشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطرق الوعرة. أما من هم دونهم في المنزلة، فكانوا يتخذون الحمير.

وقد ورد في شعر ل "بشر بن أبي خازم الأسدي" ما يفيد إن البغال كانت معروفة في بعض المواضع، وأن أبولها كانت

(١) الكامل في التاريخ، ١١٧/٣

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٨٥/١

تترك وقيعا أي أثرا على الأرض. والظاهر انه قصد بعض الأرضين الوعرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب وترفع الأثقال.

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحل عند الحضر وأهمها، هي للحضري مثل الجمال للبدوي، وهي مركب مريح لا يسبب ازعاجا، ولا سيما إذا كان اتانا، لأنها أهدأ وآمن من العثار. هذا، إلى أنها صبور تتحمل المشقات، ولعل صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها، قد حمل كل الناس على وسمها بالبلادة. فشبه البليد بالحمار، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه "حمار". ليس ذلك عند العرب وحدهم، بل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين، والبعيدة عنهم فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالية. ويقال للحمار "حامور" "Hamor" في العبرانية. أما الأنثى، فإنها "أتون" "Athon" أي "أتان" في العربية. و أما الحمار الصغير، وهو ما يقال له "الكر" أو "الجحش"، فإنه "عير" "Ayir" في العبر انية.

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين إن الحمار في جزيرة العرب هو اقدم عهدا من الجمل ومن الخيل والبغال، إذ كان واسطة الركوب والتنقل في اوائل الألف الثانية قبل الميلاد. فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير.." (١)

"وما هذا الالحاح الذي يؤكد أيمان التبابعة بإله واحد وتسليمهم برسالة الرسول وتدينهم بدينه، وفي عدم جواز سب التبابعة أو لعنهم أقول ما هذا الالحاح الا دليل ظاهر محسوس على **إن من الناس من** كان يلعن التبابعة ويسبهم ويشتمهم، ولم يكن هذا الشتم أو اللعن موجها إلى التبابعة بالذات بالطبع، بل كان موجها لليمن وللقحطانيين عامة، وللرد صليهم وضعت تلك الأحاديث وأمثالها على لسان الرسول. وقد ظهر أجداد أهل اليمن فيها احسن وأخير من أجداد قريش، وأهل مكة، ظهروا فيها مؤمنين موحدين، كسوا البيت الحرام، وكانوا هم أول من كسوه، وعنوا بالبيت اذ عمروه مرارا، وقدروا مكانته قبل الإسلام بزمان طويل خير تقدير.

وذكر "المسعودي" إن "تبعا" المعروف ب "تبع الأول" عن أول من حكم بعد "الهدهاد بن شرحبيل بن عمرو بن الرائش"، وقد ملك–على زعمه– أربعمائة سنة، ثم ملكت بعده بلقيس بنت الهدهاد. ولم يشر إلى صلة "تبع الأول" بالهدهاد، والظاهر من قوله: "وذكر كثير من الناس أن بلقيس قتلته"، أنه كان على رأي أهل الأخبار وأصحاب "كتب التبابعة"، مغتصبا للعرش ليست به بالهدهاد صلة ونسب. فأول من حكم باسم "تبع" على رواية المسعودي هو تبع المذكور.

وكلمة "تبع" لم ترد في نصوص المسند، لا بمعنى ملك، ولا بمعنى آخر له علاقة بحكم أو بوظيفة أو بملك. وقد أطلقت تلك النصوص على اختلاف لهجاتها لقب "ملك" على الملوك، أي على نحو إطلاقنا لها في عربيتنا، ولهذا يرى المتشرقون أن كلمة "تبع" هي "بتع" القبيلة التي تحدثت عنها من "همدان". وحرفت الكلمة فصارت "تبع".." (٢)

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٢١٠/١

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٧٥/٣

"ولتحمل الإبل الجوع والعطش ولصلاحها على المشي في البوادي صارت خير أليف للعرب. وقد اشتهر بعض منها، لاشتراكه في الغزو والحروب. وكانوا يسابقون بين الإبل. وسابق الرسول بين،الإبل، وكانت ناقته القصواء سريعة الجري فسبقت مرارا. وتعد لحوم الإبل من اللحوم الطيبة عند الجاهليين. أما أليهود، فكهانوا يحرمون عليهم أكل لحومها. وذكر "النويري" أن من الناس من قال:"إن العرب إنما اكتسبت الأحقاد لأكلها لحوم الجمال ومداومتها "، لاتهامهم الجمل بالحقد واللؤم، وبعدم نسيانه الإساءة.

والجمل من الحيوانات القانعة الصابرة. وهو الحيوان الوحيد الذي رضي بمرافقته الأعراب ومصادقتهم منذ آلاف السنين. ولولا هذا الجمل لما كان في استطاعة العرب اختراق جزيرتهم، والتنقل فيها من مكان إلى مكان. وبفضله اتصل عرب جزيرة العرب بعضهم ببعض وقامت المستوطنات في مواضع نائية منعزلة من بلاد العرب وقهر العربي ظهر باديته. وتكونت فيها تجارة برية. وطرق برية طويلة يخترقها الجمل بغير كلل ولا ملل صابرا على العطش حتى يصل إلى مرحلة بعيدة فيها يكون فيها ماء وفي استطاعة الجمل تحمل العطش مدة أربعة أو خمسة أيام في الصيف، ومدة خمسة وعشرين يوما في الشتاء. لانه بختزن الماء في جوفه ويعيش.عليه. حتى صار هذا الماء المخزون في جوف البعير سندا للاعراب وأملهم الوحيد في انقاذ حياتهم عند اشتداد العطش بهم، وانقطاع الماء عنهم. ولما عبر خالد بن الوليد البادية لفتح بلاد الشام اختزن الماء في اجواف الابل، لقلة الماء في البادية، فلما اشتد العطش بجيشه، ذبح بعض الابل واسقى من الماء المخزون في اجوافها، وبفضله تمكن الجيش من الصمود امام اهوال العطش ومن الوصول إلى بلاد الشام بسلام. وهكذا ساهم هذا الحيوان في انتصار خالد على جيش الروم.." (١)

"وقد رأينا أن من الناس من كان يثور حتى على آلهته، إذا وجد أنها لم تلب طلباته. وأنه كان يتوسل اليها ويلوذ بها لمساعدته عند الشدة، ثم يهددها ويتوعدها بالابتعاد عنها وبترك زيارتها وبنبذها، إن هي صمت آذانها عنه، ولم تجب ما طلبه منها. وقد قصصنا حكاية امرئ القيس مع صنمه، اذ رمي السهام في وجهه وعنفه وشتمه، لأن جواب الاستقسام لم يكن على نحو ما كان يريد. ولم يكن ذلك من عمل أهل الجاهلية م وحدهم، بل في وقوع مثل هذه الحوادث في الإسلام أيضا.

وقد رأينا أن في الجاهليين – كما في كل قوم – أناس كانوا لا يقيمون وزنا لحلال أو حرام، فكانوا يستحلون المظالم، ولا يجعلون للحرمات حرمة،ويعتدون في الأشهر الحرم. كانوا إذا حضروا الأسواق، أباحوا لأنفسهم الاعتداء فيها على أموال الناس فسموا: "المحلون". ومنهم قبائل من أسد و طيء وبني بكر ابن عبد مناة بن كنانة، وقوم من بني عامر بن صعصعة. فهؤلاء لا يعرفون الحلال ولا الحرام، والشهور والأيام عندهم سواء بسواء، يغزون فيها متى شاؤوا،حتى في الأشهر الحرم، اذا لا حرمة عندهم لشهر.

وكان فيهم من ينكر ذلك وينصب نفسه لنصرة المظلوم والمنع من سفك الدماء وارتكاب المنكر، فيسمون الذادة المحرمون. وهم من بني عمرو بن تميم،وبني حنظلة بن زيد مناة،وقوم من هذيل،وقوم من بني شيبان،وقوم من بني كلب

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٠٩/٧

بن وبرة. فكانوا يلبسون السلاح لدفعهم عن الناس. وكان العرب جميعا بين هؤلاء تضع أسلحتهم في الأشهر الحرم.." (١)

"وعاد العدو إلى بلادهم ووصل الأنكتار عساكره إلى يافا وعاد إلى عكا ينظر في أحوالها فأقام مدة ثم وصل منه رسول يقول إني أوثر الاجتماع بالملك العادل ففيه مصلحة تعود على الطائفتين فقد بلغني أن السلطان فوض أمر الصلح إلى أخيه الملك العادل فاتفق الرأي في مضي الملك العادل على أنه يمضي بحيث يجتمع بعساكرنا التي في الغور وكوكب وتلك النواحي ويحدثه ويقول له أن الحديث جرى بيننا مرارا وما أسفر عن مصلحة فإن كانت هذه الدفعة كتلك الدفعات فلا حاجة إلى الحديث وإن كان الغرض بت حال فقارب الحال وأنا لا أجتمع بك إلا أن رأي ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل أن رأى ما يمكن معه فصل الحال وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء ما ينفصل الحال عليه فكتب تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها وأن نعطي صليب الصلبوت ويكون لهم في القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان **فإن من الناس من** كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه .

ذكر مسير الملك العادل:

وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابه من كيسان يخبر أنه لقيه الهنغري مع الحاجب أبي بكر رسولا من الأنكتار يقوا إنا قد وافقنا على قسمة البلاد وأن كل من في يده شيء فهو له فإن كان ما في أيدينا زائدا أخذتم في مقابله ما يقابل الزيادة مما يخصنا وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة .

هكذا كان مضمون الكتاب .

فأوقف السلطان عليه الأمراء فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ورأى من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة .

وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك .." (٢)

"وأما لسان بخاري فإنه لسان السغد إلا أنه يحرف بعضه، ولهم لسان الدرية، وأهلها يرجعون من الأدب إلى ما يفضلون به ما وراء النهر. ونقودهم الدرهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم وهي كالعرض، إلا أن لهم درهما يسمونه الغطريفي، وهي دراهم من حديد وصفر وآنك وغير ذلك من جواهر مختلفة قد ركبت، فلا يجوز هذا الدرهم إلا في عمل بخاري وحده، وسكته تصوير وهو من ضرب الإسلام، وكذلك المسيبية والمحمدية من ضرب الإسلام. وأما زيهم فالغالب عليهم الأقبية والقلانس على زي أهل ما وراء النهر، ولهم داخل الحائط وخارجه أسواق متصلة معلومة في أوقات من

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٤٧/٩

(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص/١٩٤

الشهر دارة، يجري فيها من الشراء والبيع للثياب والرقيق والمواشي وغبر ذلك مما يتسع به أهلها. ويرتفع من بخاري ونواحيها من ثياب القطن ما ينقل إلى الآفاق وكذلك البسط والمصليات وثياب من الصوف تستحسن. ويتحدث أهل بخاري أن من بركة القلعة أنه لم تخرج منها جنازة وال قط، وما عقدت فيها راية خرجت فهزمت، وهذا من الاتفاق العجيب إن صح، ويقال إن أصل أهل بخاري في قديم الأيام ناقلة اصطخر، وسكن ولاة خراسان من السامانية مدينة بخاري، لأنها أقرب مدن ما وراء النهر إلى خراسان، فمن كان بها فخراسان أمامه وما وراء النهر وراءه، ولهم من حسن الطاعة وقلة الخلاف على الولاة ما يؤدي إلى اختيار المقام بيهم على سائر ما وراء النهر. وأول ولاة خراسان من آل سامان إسماعيل بن أحمد، جاءته ولاية خراسان وهو ببخاري فاستدام المقام بها، فبقيت الولاية بها في أولاده، وقد كان ولاة ما وراء النهر يقيمون قبل ذلك إما بسمر قند وإما بالشاشي وفرغانة في وجوه الترك، وكان عمل ولاة بخاري يحزر مفردا من خراسان إلى أن زالت أيام آل طاهر. وأما خجاده فهي على يمين الذاهب من بخاري إلى بيكند على ثلاثة فراسخ، وبيها وبين الطريق نحو فراسخ. وأما زندنة فإنها من المدينة على أربعة فراسخ، شمالي المدينة. وأما تومجكث فإنها على يسار الذاهب إلى الطواويس على أربعة فراسخ، وبينها وبين الطريق نحو نصف فراسخ، ومن كرمينية إلى خد يمنكن فرسخ فيما يلي السغد، وبين خد يمنكن وطريق سمر قند غلوة عن يسار الذاهب إلى سمر قند. ومذيامجكث وراء وادي السغد أعلى من خديمنكن بمقدار فرسخ. وخرغانكث بحذاء كرمينية على فرسخ من وراء الوادي. ويتصل ببخاري من شرقيها السغد، وأولها إذا جرت كرمينية الدبوسية ثم ربنجن والكشانية واشتيخن وسمرقند، وكل هذا قلب السغد، على أن من الناس من يزعم أن بخاري وكشي ونسف من السغد، ولكنا أفردياها. وقصبة السغد سمرقند، وهي مدينة على جنوبي وادي السغد، مرتفعة علية، ولها قهندر ومدينة وربض، فإما القهندز ففية الحبس ودار الإمارة عامران، وأما المدينة فلها سور وأربعة أبواب: باب الصين في جهة المشرق، وباب نوبهار في جهة المغرب، وباب بخاري في جهة الشمال، وباب كش في جهة الجنوب، ولها أسواق ومساكن وماء جار يدخل إليها في نهر من رصاص، وهو نهر بنيت له مسناة عالية من حجارو، يجري عليها الماء من الصفارين حتى يدخل من باب كش، ووجه هذا النهر رصاص كله، وذلك أن حوالي المدينة خندقا قد تسفل، لأنه استعمل طينه في سور المدينة، فبقي حواليها خندق عظيم، فاحتيج إلى مسناة في هذا الخندق يجري الماء عليها إلى المدينة، وهو نهر جاهلي في وسط السوق بموضع يعرف برأس الطاق، وهو أعمر موضع بسمرقند، وعلى جنبات هذا النهر غلال موقوفة على مرمات هذا النهر، وعليه حفظه من المجوس عليهم حفظه شتاء وصيفا، والمسجد الجامع في المدينة بينه وبين القهندز عرض الطريق، وفي المدينة مياه من هذا النهر وبساتين، وفيها دار الإمارة لآل سامان غير دار الإمارة بالقهندز والمدينة من الربض على جانبه، قريب من وادي السغد الذي هو بين الربض والمدينة، وذلك أن سور الربض ممتد من وراء وادي السغد، من مكان يعرف بافشينه على باب كوهك حتى يطوفبورسنين، ثم يطوف على باب فنك، وعل باب ديودد ثم إلى باب فرخشيذ، ثم إلى باب غداود ثم يمتد إلى الوادي، والوادي للربض كالخندق مما يلي الشمال، ويكون قطر السور المحيط بربض سمرقند فرسخين، غير

أن الربض شر به ومجمع أسواقه رأس الطاق، ثم تتصل به الأسواق والسكك والمحال، وفي تضاعيف ذلك قصور وبساتين، فليس من ولادار وفيها ماء جار إلا القليل، وقل دار تخلو من بستان،حتى إنك إذا." (١)

"وأما لسان بخاري فإنه لسان السغد إلا أنه يحرف بعضه، ولهم لسان الدرية، وأهلها يرجعون من الأدب إلى ما يفضلون به ما وراء النهر. ونقودهم الدرهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم وهي كالعرض، إلا أن لهم درهما يسمونه الغطريفي، وهي دراهم من حديد وصفر وآنك وغير ذلك من جواهر مختلفة قد ركبت، فلا يجوز هذا الدرهم إلا في عمل بخاري وحده، وسكته تصوير وهو من ضرب الإسلام، وكذلك المسيبية والمحمدية من ضرب الإسلام. وأما زيهم فالغالب عليهم الأقبية والقلانس على زي أهل ما وراء النهر، ولهم داخل الحائط وخارجه أسواق متصلة معلومة في أوقات من الشهر دارة، يجري فيها من الشراء والبيع للثياب والرقيق والمواشي وغبر ذلك مما يتسع به أهلها. ويرتفع من بخاري ونواحيها من ثياب القطن ما ينقل إلى الآفاق وكذلك البسط والمصليات وبثاب من الصوف تستحسن. ويتحدث أهل بخاري أن من بركة القلعة أنه لم تخرج منها جنازة وال قط، وما عقدت فيها راية خرجت فهزمت، وهذا من الاتفاق العجيب إن صح، ويقال إن أصل أهل بخاري في قديم الأيام ناقلة اصطخر، وسكن ولاة خراسان من السامانية مدينة بخاري، لأنها أقرب مدن ما وراء النهر إلى خراسان، فمن كان بها فخراسان أمامه وما وراء النهر وراءه، ولهم من حسن الطاعة وقلة الخلاف على الولاة ما يؤدي إلى اختيار المقام بيهم على سائر ما وراء النهر. وأول ولاة خراسان من آل سامان إسماعيل بن أحمد، جاءته ولاية خراسان وهو ببخاري فاستدام المقام بها، فبقيت الولاية بها في أولاده، وقد كان ولاة ما وراء النهر يقيمون قبل ذلك إما بسمر قند وإما بالشاشي وفرغانة في وجوه الترك، وكان عمل ولاة بخاري يحزر مفردا من خراسان إلى أن زالت أيام آل طاهر. وأما خجاده فهي على يمين الذاهب من بخاري إلى بيكند على ثلاثة فراسخ، وبيها وبين الطريق نحو فراسخ. وأما زندنة فإنها من المدينة على أربعة فراسخ، شمالي المدينة. وأما تومجكث فإنها على يسار الذاهب إلى الطواويس على أربعة فراسخ، وبينها وبين الطريق نحو نصف فراسخ، ومن كرمينية إلى خد يمنكن فرسخ فيما يلي السغد، وبين خد يمنكن وطريق سمر قند غلوة عن يسار الذاهب إلى سمر قند. ومذيامجكث وراء وادي السغد أعلى من خديمنكن بمقدار فرسخ. وخرغانكث بحذاء كرمينية على فرسخ من وراء الوادي. ويتصل ببخاري من شرقيها السغد، وأولها إذا جرت كرمينية الدبوسية ثم ربنجن والكشانية واشتيخن وسمرقند، وكل هذا قلب السغد، على أن من الناس من يزعم أن بخاري وكشي ونسف من السغد، ولكنا أفرديانا. وقصبة السغد سمرقند، وهي مدينة على جنوبي وادي السغد، مرتفعة علية، ولها قهندر ومدينة وربض، فإما القهندز ففية الحبس ودار الإمارة عامران، وأما المدينة فلها سور وأربعة أبواب: باب الصين في جهة المشرق، وباب نوبهار في جهة المغرب، وباب بخاري في جهة الشمال، وباب كش في جهة الجنوب، ولها أسواق ومساكن وماء جار يدخل إليها في نهر من رصاص، وهو نهر بنيت له مسناة عالية من حجارو، يجري عليها الماء من الصفارين حتى يدخل من باب كش، ووجه هذا النهر رصاص كله، وذلك أن حوالي المدينة خندقا قد تسفل، لأنه استعمل طينه في سور المدينة، فبقي حواليها خندق عظيم، فاحتيج

---

(١) المسالك والممالك – الإصطخري، ص/١١٠

إلى مسناة في هذا الخندق يجري الماء عليها إلى المدينة، وهو نهر جاهلي في وسط السوق بموضع يعرف برأس الطاق، وهو أعمر موضع بسمرقند، وعلى جنبات هذا النهر غلال موقوفة على مرمات هذا النهر، وعليه حفظه من المجوس عليهم حفظه شتاء وصيفا، والمسجد الجامع في المدينة بينه وبين القهندز عرض الطريق، وفي المدينة مياه من هذا النهر وبساتين، وفيها دار الإمارة لآل سامان غير دار الإمارة بالقهندز والمدينة من الربض على جانبه، قريب من وادي السغد الذي هو بين الربض والمدينة، وذلك أن سور الربض ممتد من وراء وادي السغد، من مكان يعرف بافشينه على باب كوهك حتى يطوفبورسنين، ثم يطوف على باب فنك، وعل باب ديودد ثم إلى باب فرخشيذ، ثم إلى باب غداود ثم يمتد إلى الوادي، والوادي للربض كالخندق مما يلي الشمال، ويكون قطر السور المحيط بربض سمرقند فرسخين، غير أن الربض شر به ومجمع أسواقه رأس الطاق، ثم تتصل به الأسواق والسكك والمحال، وفي تضاعيف ذلك قصور وبساتين، فليس من ولادار وفيها ماء جار إلا القليل، وقل دار تخلو من بستان،حتى إنك إذا." (١)

")ومنها(ما جرى في قولهم)ما وراء محدد الجهات وهو الفلك الأطلس وفلك الأفلاك بلسان الفلسفة والعرش بلسان الشرع على ما يزعمه بعض الخلفيين لا خلاء ولا ملاء(وذلك أنه أورد عليه أن لو فرض ثاقب للمحدد فأما أن لا يصادف مانعا فيخرج. وأما أن يصادف ذلك فلا يخرج وعلى الأول يلزم الخلاء وعلى الثاني يلزم الملاء. فقال سلمه الله تعالى أنهم اختاروا في الجواب الشق الأول ومنعوا لزوم الملاء بجواز كون المانع في المحدب نفسه وهو السطح الأعلى المحدد. فقلت ونحو هذا ما قيل في الاعتراض أنه لو فرض شخص عند منتهى العالم فأراد أن يمد يده مثلا فيلزم الخلاء وأما أن لا تمتد لمانع يصادمها فيلزم الملاء. وما قيل في الجواب من اختيار عدم الامتداد والتزام أن النقد الشرط لا لوجود المانع الصادم. **وأن من الناس من** اعترض على قولهم ذلك بأنه يلزم عليه عجزه سبحانه وتعالى عن توسيع هذا العالم أو خلق عالم مثله مع بقائه وهو باطل. فلا بد من القول بأن وراء هذا العالم بعدا غير متناه يصلح لأن يوسع العالم فيه أو يخلق عز وجل فيه ما لا يتناهى من العوالم. لكن على نحو عدم تناهي مراتب الأعداد الذي لا يأباه برهان التطبيق وغيره من البراهين المقامة على امتناع وجود ما لا يتناهى بالفعل. وهذا الخلاء من حيث الصلاحية للخلق فيه نحو الخلاء والبعد الذي خلق فيه هذا العالم)وأجيب(بأنه قد قام الدليل على امتناع الخلاء وذلك على تقدير عدم الخلاء محال. وهو لا يصلح متعلقا للقدرة ليلزم العجز. ومثل ذلك خلق عالم فيما شغله هذا العالم بل خلق بعوضة في هذا العالم مع بقاء جميع أجزائه على حالها. فإنه أيضا محال للزوم تداخل الجواهر المبرهن على محاليته فلا تتعلق به قدرته عز وجل. ولا يلزم من ذلك عجزه تعالى عن ذلك علوا كبيرا)والحاصل(أن ما ذكره المعترض من لزوم عجزه تعالى ممنوع. ثم قلت يا مولاي أنا بعد هذا كله لا أرى محذورا في القول بأن وراء العالم مثل ما العالم فيه. إلا أنه خالفه في سعته وعدم تناهيه. وأدلة استحالة الخلاء. مدخولة عند محققي العلماء. بل لا يبدو وقوعه في هذا العالم إذا وضع جسم ذو سطح صقيل مستو استواء حقيقيا على آخر مثله بحيث لا يتخللهما هواء ثم رفع الفوقاني دفعة. فإن الوسط يبقى خاليا إلى أن يصل إليه الهواء من الجوانب تدريجيا حسب ما تقتضيه الحركة. وكلما كان الجسمان المذكوران متسعين كانت مدة بقاء

---

(١) المسالك والممالك – الإصطخري، ص/١٤٠

الخلاء أطول لطول زمن الوصول إلى الوسط. وبلغني أن بعض الطبيعيين من الفلاسفة المحدثين يخرجون الهواء من بعض الظروف كقارورة كبيرة ببعض الآلات بحيث إذا ألقوا فيه رصاصة وريشة مثلا معا يصلان إلى المقر في آن واحد. وهو ظاهر في الخلاء دون بقاء هواء تلطف وانتشر حتى ملأ الظرف وإلا لعاق الريشة عوقا ما فلم يتحد آن الوصول. وإن لم يسلم شيء من ذلك كفانا إن أدلة استحالة الخلاء. أوهن من بيت عنكبوت في خلاء. ويفهم من كلام بعض الأجلة السلفيين إن الله تعالى شأنه لم يخلق العالم يوم خلقه في ذاته بأن جعل ذاته محلا له ولا أنه سبحانه كان فيه ككون الصورة في الهيولي ولا أنه خلقه عليه جل وعلا بأن جعل نسبته إليه نسبة خيمة الملك إلى الملك. وتعالى الله أن يكون كدودة القز تبني على نفسها ما يحيط بها من القز بل كأن عز شأنه لا في مكان وخلق العالم دونه وبقي هو على ما كان فما وراء العالم لا العالم)الرحمن على العرش استوى(.)أأمنتم من في السماء(.)إليه يصعد الكلم الطيب(.)ذو المعارج تعرج الملائكة والروح إليه(فهو جل شأنه. وعز سلطانه. في جهة العلو على الوجه اللائق به مع نفي اللوازم المستحيلة عليه سبحانه وتعالى. وأدلة كونه تعالى كذلك من الآيات والأحاديث والآثار أكثر من أن تحصى. وأوفر من أن تستقصى. وفيما يجده كل أحد في نفسه من الميل الطبيعي الضروري إلى جهة العلو في الاستمداد حالتي الرغبة والرهبة شاهد قوي لذلك. حتى قيل أن الفخر الرازي لما أورد عليه ذلك الهمداني بعد أن فرغ من تقرير الأدلة العقلية على نفي الجهة قام من مجلسه وهو يقول حيرني الهمداني حيرني الهمداني. ولم يزل يقولها حتى دخل بيته. فعلى هذا يصح أن يقال ما وراء العالم لا خلاء ولا ملاء. لكن بغير المعنى الذي أراده الحكماء. ويجامع ذلك القدرة على توسعة هذا العالم وعلى خلق عوالم مثله أما عظم منه." (١)

"٣٩١ . أحدها: أن من الناس من ذهب إلى أن الإمام يأخذ ما يأخذه في معرض الاقتراض على بيت المال على كل حال، فإن ثابت مداره ومحالبه، تعين رد ما اقترض. والمقرض يطالبه.

٣٩٢ . وقال قائلون: إن عمم بالاستيداء مياسير البلاد؛ والمثرين من طبقات العباد، فلا مطمع في الرد والاسترداد، وإن خصص بعضا، لم يكن ذلك إلا قرضا.

ونحن نذكر ما يتعلق به كل فريق، ثم نذكر مسلك التحقيق.

٣٩٣ . فمن قال: الإمام يستقرض، استمسك بأن أقدار الواجبات مضبوطة الجهات في قواعد الدين، ومذاهب المسلمين؛ وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا أضاق المحاويج والفقراء، استسلف من الأغنياء، وربما استعجل الزكوات، فلو كان يسوغ الأخذ من غير اقتراض، لكان عليه السلام بينه ليتقدي به نم بعده عند فرض الإضاقة، وربما تعلق هؤلاء بأن مآخذ الأموال لو تعدت الطرق المضبوطة، والمسالك الموضحة في الشريعة، لنبسطت الأيدي إلى الأموال، ولجر ذلك فنونا من الخبال، ولم يثق ذو مال بماله لا في حاله ولا في مآله، وهذا خروج عن ضبط الدين، وحل لعصام الإسلام عن أموال المسلمين.

٣٩٤ . والمرتضى عندي أن ذلك جبن وخور، وذهول عن سنن النظر؛ فإن للإمام أن يأخذ من الجهات التي ذكرناها ما

---

(١) غرائب الاغتراب، ص/١٨٥

يراه سادا للحاجة على ما قدمنا منهاجه، ولا يلزمه الاستقراض سواء فرض أخذه من معينيين، أو من المياسير أجمعين. والدليل عليه أنا لو فرضنا خلو الزمان عن مطاع، لوجب على المكلفين القيام بفرائض الكفايات، من غير أن يرتقبوا مرجعا، فإذا وليهم إمام فكأنهم وله أن يدبرهم تعيينا وتبيينا، فيما كان من وظائفهم فوضى، ولولاه لأوشك أن يتخاذلوا، ويحيل البعض الأمر فيه على البعض، ثم تنسحب المآثم على كافتهم. والإمام القوام يدفع التخاذل والتغالب، ويحمل الأعيان على التناوب فيما على الكافة الخروج عن عهدته.." (١)

"

الاستصواب ما أراه وعمم أهل الاقتدار واليسار في أقاصي البلاد ورتب على كل ناحية في تحصيل المراد ذا كفاية ودربة وسداد وان عسر التبليغ إلى الاستيعاب ورأى في وجه الصواب أن يخصص اقواما ثم يجعل الناس في ذلك فئاما فيستأدى عند كل ملمة من فرقة أخرى وأمة اتبع في ذلك فئاما فيستأدى عند كل ملمة من فرقة أخرى وأمة اتبع في ذلك كله اوامره واجتنب زواجره ثم ليكن في ذلك علي اكمل نظر وأسد فكر وعبر فان اقتضى الرأي تعيين اقوام على التنصيص يعرض لهم على التخصيص ونر إلى من كثر ماله وقل عياله وقد يتخير من خيف عليه من كثرة ماله أن يطغى ولو ترك لفسد ولو غض من غلوائه قليلا لأوشك أن يقتصد ويستد وإذا لم يخل المتصدى للامامة والاستقامة عن تحديد النظر وتسديد الفكر ففيما ذكرناه تصريحا أو رمزا اليه تلويحا له معتبر ثم إذا قد لاحت المراشد ووضحت القاصد فنذكر بعدها ثلاثة فصول بعد تمهيد ما سبق من الاصول

أحدها أن من الناس من ذهب إلى أن الأمام يأخذ ما يأخذه في معرض الاقتراض على بيت النمال على كل حال فإن تأتت مداره ومجالبه تعين ردما

". (٢)

" المؤمنين فاستعظم ذلك ولم يمتثل المراسم النبوية فكان في جواب ذلك التقدم بالقبض على ابن العطار ونقله إلى التاج العتيق فعذب بأنواع العذاب ومات بعد أيام فحمل ليلا إلى دار أخته فجعلته في تابوت وأرادت إخراجه خفية لئلا يعلم به أحد فجعل أستاذ الدار على إخراجه عينا من حيث لا يعلم به ونبه الأعوام على إخراجه وأوقف جماعته على باب النوبي ينتظرون خروجه وكان الناس يبغضونه لما كان يبدو منه في سنى المحل من منع البيع العام على الناس والضمانات الجارية في أيامه وما كان يجري منه في حق الأجناد والمماليك فلما خرج تابوت ابن العطار وليس وراءه أحد يؤبه له ووصل خارج باب النوبى من دار الخليفة أشار بعض من كان العين على خروجه إلى العوام والمماليك هذا تابوت ابن العطار فتكاثرت العوام على أخذه وألقى من رءوس الحمالين وكسر وأخرج من التابوت ومزقت أكفانه وربطوا

---

(١) غياث الأمم في التياث الظلم، ص/١٣٠

(٢) غياث الأمم والتياث الظلم، ص/٢٠١

في إحدى رجليه حبلا من ليف وجعلوا يسحبونه في الأسواق والدروب بمدينة السلام وكانوا ينادون عليه وفعل به كما فعل بابن القرايا المشد حتى **إن من الناس من** قطع خنصره وأذنه وكان ذلك في الخامس عشر من ذي القعدة كما ذكرنا

استدعاء فخر الدولة بن المطلب بين يدي الناصر لدين الله ليستوزر وذلك في الشهر المذكور من السنة

كان فخر الدولة بن المطلب رجلا عالما زاهدا ورعا كثير المعروف مشهورا بالصلاح والتقى فلما كانت الأيام المستنجدية سقى الله عهودها

---

(١) ".

" بقية يومهم حتى أتاهم سواد الليل فيه يراوغونا يقول بصيرهم لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا

آسيا بكسر السين المهملة وياء وألف مقصورة كذا وجدته بخط أبي الريحان البيروني كلمة يونانية

قال أبو الريحان كان اليونان يقسمون المعمور من الأرض بأقسام ثلاثة لوبية وأورفى وقد ذكرا في موضعهما

ثم قال وما استقبل هاتين القطعتين من المشرق يسمى آسيا ووصف بالكبرى لأن رقعتها أضعاف الأخريين في السعة ويحدها من جانب الغرب النهر والخليج المذكوران الفاصلان إياها عن أورفى ومن جهة الجنوب بحر اليمن والهند ومن المشرق أقصى أرض الصين ومن الشمال أقصى أرض الترك وأجناسهم

وأصل هذه القسمة من أهل مصر وعليه بقيت عادتهم إلى الآن فإنهم يسمون ما عن أيمانهم إذا استقبلوا الجنوب مغربا وما عن شمائلهم مشرقا وهو كذلك بالإضافة إليهم إلا أنهم رفعوا الإضافة وأطلقوا الاسمين فصار المشرق لذلك أضعاف المغرب ولما اخترق بحر الروم قسم المغرب بالطول سموا جنوبي القسمين لوبية وشماليهما أورفى وأما المشرق فتركوه على حاله قسما واحدا من أجل أنه لم يقسمه شيء كما قسم البحر المغرب وبعدت ممالكه أيضا عنهم فلم يظهر لهم ظهور المغربية حتى كانوا يعلنون تحديدها

ونسب جالينوس في تفسيره لكتاب الأهوية والبلدان هذه القسمة ألى أسيوس

هكذا حال القسمة الثلاثية أنها التي يظن بها أنها الأولى بعد الاجتماع وذكر جالينوس في تربيعها **أن من الناس من** يقسم آسيا إلى قطعتين فتكون آسيا الصغرى هي العراق وفارس والجبال وخراسان وآسيا العظمى هي الهند والصيين والترك

وحكي عن أروذطس أنه قسم المعمورة إلى أورفى ولوبية وناحية مصر وآسيا وهو قريب مما تقدم

والأرض بالممالك منقسمة بالأرباع فقد كان يذكر كبارها فيما مضى أعني مملكة فارس ومملكة الروم ومملكة الهند ومملكة الترك وسائرها تابعة لها

---

(١) مضمار الحقائق وسر الخلائق، ص/١٢

آشب بشين معجمة وباء موحدة صقع من ناحية طالقان الري كان الفضل بن يحيى نزله وهو شديد البرد عظيم الثلوج عن نصر

وآشب بكسر الشين كانت من أجل قلاع الهكارية ببلاد الموصل خربها زنكي بن آق سنقر وبنى عوضها العمادية بالقرب منها فنسبت إليه كما نذكره في العماديه

آغزون الغين معجمة ساكنة يلتقي معها ساكنان والزاي معجمة مضمومة والواو ساكنة ونون من قرى بخارى ينسب إليها أبو عبد الله عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن أيمن بن عبد الله بن مرة بن الأحنف بن قيس التميمي الآغزوني

هكذا ذكره أبو سعد وقد خلط في هذه الترجمة في عدة مواضع فذكرها تارة الآغزوني كما ههنا وتارة الأغذوني بالذال المعجمة من غير مد وتارة ." (١)

"ذكر عدة من رواة أخبار العرب أن نزار بن معد ولد أربعة أولاد: إيادا، وبه كان يكنى، وأنمارا – وبجيلة وخثعم من ولده على ما قيل، إذ كان فيما ذكرنا تنازع **لأن من الناس من** ألحقهم باليمن، ومن الناس من ذكر فيهم ما وصفنا أنهم من ولد أنمار بن نزار – وربيعه، ومضر، فلما حضرت نزارا الوفاة دعا بنيه ودعا بجارية له شمطاء، فقال لإياد: هذه الجارية وما أشبهها من مالي ذلك، ثم أخذ بيد مضر فأدخله قبة له حمراء من أدم، ثم قال: هذه القبة وما أشبهها من مالي ذلك، ثم أخذ بيد ربيعه وقال له: هذا الفرس الأدهم والخباء الأسود وما أشبهها من مالي ذلك،. ثم أخذ بيد أنمار وقال له: هذه البحرة والمجلس وما أشبهها من مالي ذلك، فإن أشكلت عليكم هذه القسمة فأتوا الأفعى بن الأفعى الجرهمي – وكان ملك نجران – حتى يقسم بينكم وتراضوا بقسمته، فلم يلبث نزار إلا قليلاً حتى هلك، وأشكلت القسمة على ولده، فركبوا رواحلهم ثم قصدوا نحو الأفعى، حتى إذا كانوا منه على يوم وليلة من أرض نجران، وهم في مفازة، إذا هم بأثر بعير فقال إياد، إن هذا البعير الذي ترون أثره أعور، فقال أنمار: وإنه لأبتر، قال ربيعه: وإنه لأزور، قال مضر: وإنه لشرود، فلم يلبثوا أن رفع إليهم راكب توضع به راحلته، فلما غشيهم قال لهم: هل رأيتم من بعير ضال في وجوهكم، قال إياد أكان بعيرك أعور؟ قال: فإنه لأعور، قال أنمار: أكان بعيرك أبتر؟ قال: فإنه لأبتر، قال ربيعه: أكان بعيرك أزور؟ قال: فإنه لأزور، قال مضر: أكان بعيرك شرودا؟، قال: إنه لشرود، ثم قال لهم: فأين بعيري؟ دلوني عليه، قالوا: والله ما أحسسنا لك ببعير ولا رأيناه، قال: – أنتم أصحاب بعيري وما أخطأتم من نعته شيئا، قالوا: ما رأينا لك بعيرا، فتبعهم حتى قدموا نجران، فلما أناخوا بباب الأفعى أستأذنوا عليه، فأذن لهم، فدخلوا، وصاح الرجل من وراء الباب: أيها الملك، هؤلاء أخذوا بعيري ثم حلفوا أنهم ما رأوه، فدعا به الأفعى فقال: ما تقول؟ فقال: أيها الملك، هؤلاء ذهبوا ببعيري وهم أصحابه، فقال لهم الأفعى: ما تقولون؟ قالوا: رأينا في سفرنا هذا إليك أثر بعير، فقال إياد: إنه لأعور، قال: وما يمريك أنه أعور؛ قال: رأيته مجتهدا في رعي الكلأ من شق قد لحسه والشق الأخر واراف كثير الإلتفاف لم يمسه فقلت: إنه أعور، وقال أنمار: رأيته يرمى ببعره مجتمعا ولو كان أهلب لمصع به فعلمت أنه أبتر، وقال ربيعه: رأيت أثر

---

(١) معجم البلدان، ١/٥٤

إحدى يديه ثابتا والأخر فاسدا فعلمت أنه أزور، وقال مضر: رأيته يرعى الشقة من الأرض ثم يتعداها فيمر بالكلأ الملتف الغض فلا ينهش منه حتى يأتي ما هو أرق منه، فيرعى فيه، فعلمت أنه شرود، فقال الأفعى: صدقوا، قد أصابوا أثر بعيرك وليسوا بأصحابه، التمس بعيرك ثم قال الأفعى للقوم: من أنتم؟ فأخبروه بحالهم، وانتسبوا إليه فرحب بهم وحياهم ثم قال: ما خطبكم؟ فقصوا عليه قصة أبيهم، قال الأفعى: وكيف تحتاجون إلي وأنتم على ما أرى. قالوا: أمرنا بذلك أبونا، ثم أمر بهم فأنزلوا، وأمر خادما له على دار." (١)

"وحيث يكون القطب الشمالي مرتفعا عن الأفق أجزاء الربع بأسره وهي تسعون جزءا فهناك النصف بأسره من الدوائر التي تمر بأوساط البروج الذي هو أميل إلى الشمال عن دائرة معدل النهار لا يصير في وقت من الأوقات تحت الأرض، والنصف الذي هو أميل إلى الجنوب بأسره لا يصير في وقت من الأوقات فوق الأرض حتى يكون كل سنة يوما واحدا وليلة واحدة كل واحد منهما قريبا من ستة أشهر، ويكون أظلال المقاييس في جميع الأوقات تدور حولها. ومن خواص هذا الميل إلى القطب الشمالي أن يكون على سمت الرؤوس الوتد – يريد القطب – وأن يكون دائرة معدل النهار يقوم هناك مقام الدائرة الأبدية الظهور، ومقام الدائرة الأبدية الخفاء ومقام دائرة الأفق إذ كانت تجعل النصف بأسره من الكرة الذي هو أميل منها إلى الشمال فوق الأرض في جميع الأوقات، والنصف الذي هو أميل إلى الجنوب تحت الأرض – يريد أن نقطة القطب الشمالي هي موسط سماء الموضع ونقطة قطب الجنوب هي وتده الأسفل.

فجميع هذا الذي ذكره عنده على أحد عشر صنفا وإحدى عشرة طريقة، الطريقة الأولى: الكرة المنتصبة وساعاتها اثنتا عشرة ساعة مستوية وهي مدار خط الاستواء، والطريقة الثانية: الخليج المسمى أواليطيس وساعاتها اثنتا عشرة ساعة ونصف وعرضها ثماني درجات وثلث درجة ونصف سدس، وهذا ما بين خط الاستواء ومبدأ الإقليم الأول، وقد جعل هذه الطريقة منه، والطريقة الثالثة: الجزيرة المسماة مارويى وهي اليمن الإقليم الأول وساعاتها ثلاث عشرة ساعة وعرضها ستة عشر جزءا وربع وخمس، والطريقة الرابعة الجزيرة المسماة سويني يريد الحجاز وساعاتها ثلاث عشرة ونصف، وعرضها مقطع الميل وهو ثلاث وعشرون درجة وإحدى وخمسون دقيقة، والطريقة الخامسة: أسافل بلاد مصر وساعاتها أربع عشرة ساعة، وعرضها ثلاثون جزءا وخمس وسدس جزء. والطريقة السادسة: الجزيرة المسماة رودس وهي بابل وساعاتها أربع عشرة ساعة ونصف عرضها ستة وثلاثون جزءا، والطريقة السابعة: البلاد المسماة ألسبنطس وساعاتها خمس عشرة وعرضها أربعون جزءا وتسعة أعشار وثلث عشر من جزء، والطريقة الثامنة: بوسط بحر بنطس وساعاتها خمس عشرة ونصف خمسة وأربعون جزءا، والطريقة التاسعة: بمغايض النهر المسمى بورسطانس وساعاتها ست عشرة وعرضها ثمانية وأربعون جزءا ونصف وثلث عشر، والطريقة العاشرة بأقاصي الجنوب من بلاد برطانيا وساعاتها ست عشرة ساعة ونصف وعرضها واحد وخمسون جزءا ونصف، والطريقة الحادية عشرة: بمغايض طانايس وساعاتها سبع عشرة وبعدها أربعة وخمسون جزءا وسدس عشر. والأقاليم من هذه الطرائق السبع الجزيرة المسماة مارويى وهي اليمن من الإقليم الأول، والثاني الجزيرة المسماة سويني والثالث أسافل أرض مصر، والرابع جزيرة رودس والخامس البلاد المسماة السبنطس

---

(١) مروج الذهب، ٢١٤/١

والسادس وسط بحر بنطس والسابع مخرج النهر المسمى بورسطانس.

اختلاف الناس في العرض والطول

أما العرض **فإن من الناس من** يعد الإقليم الأول من حد وتر خط الاستواء إلى أقصى حده من الشمال، ومنهم من يجعل البحر الزنجي حاجزا بين الإقليم الأول بين وسط خط الاستواء، وذلك ما عرضه ثماني درجات وخمس وعشرون دقيقة وساعاته اثنتا عشرة ونصف ومن الخلفة في عرضه ما يخالف به حساب صنعاء في عرضها وعرض مأرب وظلهما، وذلك أنهم يذكرون أن ظل رأس الحمل بصنعاء ثلاث أصابع وعشر، وعرضها أربع عشرة ونصف، ومأرب سبأ يكون مثل ذلك لأنها محاذية لها على خط السمت الطولي فهي مشرق صنعاء وصنعاء مغربها وبينهما مسافة يومين للمفرد، وارتفاع سهيل عليها حساب صنعاء، وأما قياس طوله المأموني فقد يخالفهم شيئا، وهذا دليل على أن وسط هذا الإقليم وادي نجران من أرض اليمن ومكة آخر حد اليمن، ومما يعدل قولهم أنا نجد عرض مدينة سبأ لبطليموس ستة عشر جزءا وربعا وخمسا من جزء، وهي على ما ذكرناه، ثم نجده جعل عرض ظفار أربعة عشر جزءا، وهذا من قياسه بظفار يشهد لحساب صنعاء لأن ظفار على ذائرة انتصاف نهار صنعاء من جهة الجنوب وبينهما بالتقريب ثلاثة أيام، ولعل بطليموس أراد فلاة مأرب أرض سبأ فهي فلاة يشرع عليها بيحان ومأرب والجوف ونجران والهجيرة وأعراض ترج وبيشة وتبالة، وكان أشهر هذه المواضع الشارعة على هذه الفلاة مدينة سبأ.." (١)

"ولم يزل فيها من كتبة الديوان بلغاء غير مولدي الكلام ولا مستخفي المعاني ومعبدي الاستعارات مثل بني أبي رجا وغيرهم. وكان بشر ابن أبي كبار البلوي من أبلغ الناس وكانت بلاغته تتهادى في البلاد وكان له فيها مأخذ لم يسبقه إليه أحد ولم يلحقه فيه، وتعجب بلاغته ونفاستها وأنه فيها أوحد وأنه لا يشابه بلاغته البلغاء وإنه منفرد بحسن اختلاس القرآن اثبتنا منها عشر رسائل ليستدل بها على ما وراءها واقل الأثر دليل على قدر المؤثر. كتب بشر إلى إبراهيم بن عبد الله الحجبي وإلى صنعاء لهرون الرشيد – وكان قدم صنعاء سنة اثنتين وثمانين ومئة فأقام بها سنة وشهرا ثم صرف – في بغي هشام الأبناوي عليه وكان قد عزم على أن يولي بشرا بعض نواحي اليمن فكسر غلته هشام بن يوسف: أما بعد فإن رآى الأمير أمتع الله به أن لا يعلم هشاما ما يريد من صلتي فإنه لم يردني وآلي قط بخير ولم يفتح لي باب صلة فتكون منه خالصة لا يريد بها إلا وجه الله وحده، ولا يرجو بها إلا ثوابه إلا عرض هشام من دونها فثقلها وكرهها وأدار القياس فيها وضرب لها الأمثال وألقى الحيلة فيها إلى الكاتب والحاجب وقاسمهما بالله إني لكما لمن الناصحين ومدحني بما لا يسمع به من أخلاقي وانتقصني فيما لا يطمع بغيره مني ليكون ما أظهر من المدحة مصدقا لما أسر من العيبة ثم زخرف ذلك بالموعظة وزينه بالنصيحة وقاربه بالمودة وأغراه من ناحية الشفقة وشهد عليه أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين والخامسة إن غضب الله عليه إن كان من الكاذبين فإذا الحاجب يزلقني ببصره وإذا الكاتب يسلقني بلسانه وإذا الخادم يعرض عني بجانبه وإذا الوالي ينظرني نظر المغشي عليه من الموت فصارت وجوه النفع مردودة، وأبواب الطمع مسدودة، وأصبح الخير الذي كنت أرجوه هشيما تذروه الرياح والصلة التي كنت أشرفت ليها صعيدا زلقا وأصبح

---

(١) صفة جزيرة العرب، ص/١٤

ماؤها غورا فما أستطيع له طلبا فأسأل الذي جعل لكل نبي عدوا من المجرمين أن يكفيني شره ويصرف عني كيده فإنه يراني هو وقبيله من حيث لا أراهم. والسلام.

وله إلى يزيد بن منصور – عامل أبي جعفر المنصور على اليمن وقدم إلى صنعاء في أول سنة أربع وخمسين ومئة فأقام بها باقي خلافة المنصور وسنة من خلافة المهدي وكان قدومه بعد الفرات بن سالم: أما بعد فإنه قدم علي كتاب من الأمير حفظه الله مع رسوله نعمان الهمداني يأمرني أن أبعث إليه بفرض الفرات بن سالم – يريد بالفرض شيئا كان فرضه على أهل اليمن – وأنا أخبر الأمير أكرمه الله أنه كان قدم علينا قبل كتابه كتاب الله تعالى مع رسوله محمد صلى الله عليه وسلم يأمرنا فيه أن نفرق ما جمع الفرات وأن نهدم ما بنى، وأن نوالي من عادى وأن نعادي من والى، ونظرت في الرسالتين وقست بين الرسولين بغير تحيز عرض ولا لشبهة بحمد الله دخلت فرأيت أن لا انقض ما جاء به محمد بن عبد الله لما قدم به النعمان لعنه الله وغضب عليه. وعلمت أنه من يزغ منا عن أمر الله يذقه من عذاب السعير، فليقض الأمير حفظه الله في ما كان قاضيا ثم ليعجل ذلك ولا ينظرني فوالله إن العافية لفي عقابه وإن العقاب لفي عافيته وإن الموت لخير من الحياة معه، إذا كان هذا الجد منه والحق عنده والسلام.

ولبشر أيضا: أما بعد فإن من الناس من تحمل حاجته أهون من فحش طلبه، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته، ومنهم من إفراط لائمته أحسن من قدر مدحته، وإن الله خلق فلانا ليغم الدنيا ويقذر به أهلها فهو على قذره فيها من حجج الله على أهلها، فأسأل لذي فتن الأرض بحياته وغم أهلها ببقائه أن يديل بطنها من ظهرها والسلام.." (١)

"الدبوسية ثم اربنجن و الكشانية و سمرقند و كل هذا بلد السغد على أن من الناس من يزعم أن بخارا و كش «٢» و نسف من السغد و هى فى أعمال الديوان مفردة، و قصبة السغد سمرقند و هى مدينة على جنوبى وادى سغد مرتفعة عليه و لها قهندز و مدينة و ربض و قد جعل فى وقتنا هذا الحبس فى القهندز و كانت دار الإمارة فيه فخربت و علوته فرأيت أحسن منظر عاينه مبصر و تمتع به ناظر شجر أخضر و قصور تزهر و أنهار تطرد و عمارة تتقد «٦» لا يقع الطرف منه على مكان إلا ملأه و على باغ إلا استملحه و استصباه قد فصلت ميادينها و تناهت تحاسينها و قصصت به أشجار السرو فجعل منها طرائف الحيوان من الأفيلة «٩» و الإبل و البقر و الوحوش المقبل بعضها على بعض كالمتناجيه و المطالب بعضها لبعض كالمتقابلة المتعاتبة، فيا له منظرا ما أتلفه للأموال و آخذه بمجامع قلوب الرجال، هذا الى أنهار تطرد و برك مسجورة لا تزال ترتعد ظريفة المغانى و قصور و مستشرفات سامقة المبانى قد رصفت فهى مساكن جليلة و مجالس نفيسة و أحوال تدل على ملوك جلة، «١٣» (٢٩) و أما سمرقند فيشتمل عليها حصن و لها أربعة أبواب باب مما يلى المشرق يقال له باب الصين مرتفع عن وجه الأرض ينزل عنه بدرج كثيرة العدد مطل على نفس وادى السغد و مما يلى المغرب باب النوبهار و هو على نشز من الأرض و مما يلى الشمال باب بخارا و مما يلى الجنوب باب كش «١٨»، و هى مدينة فيها أسواق [كبار] «٢١» و فيها ما فى المدن العظام من المحال و الحمامات

---

(١) صفة جزيرة العرب، ص/٣١

و الخانات و المساكن، و لها مياه جارية تدخل اليها فى نهر بعضه رصاص معلق و هو نهر قد بنى عليه مسناة عالية من الأرض و فى «٢٠»

صورة الارض، ج ٢، ص: ٤٩٣." (١)

"مما أصابه من الخشبة. قال دمنة: قد سمعت ما ذكرت، ولكن اعلم أن كل من يدنو من الملوك ليس يدنو منهم لبطنه، وإنما يدنو منهم ليسر الصديق ويكبت العدو. **وإن من الناس من** لا مروءة له؛ وهم الذين يفرحون بالقليل ويرضون بالدون؛ كالكلب الذي يصيب عظما يابسا فيفرح به. وأما أهل الفضل والمروءة فلا يقنعهم القليل، ولا يرضون به، دون أن تسموا به نفوسهم إلى ما هم أهل له، وهو أيضا لهم أهل؛ كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير، ألا ترى أن الكلب يبصبص بذنبه. حتى ترمى له الكسرة، وأن الفيل المعترف بفضله وقوته إذا قدم إليه علفه لا يعتلفه حتى يمسح ويتملق له. قمن عاش ذا مال وكان ذا فضل وإفضال على أهله وإخوانه فهو وإن قل عمره طويل العمر. ومن كان في عيشه ضيق وقلة وإمساك على نفسه وذويه." (٢)

"وتعطف عليه، ولا يوئسنك من مناصحته ما فرط منك إليه من الإساءة: **فإن من الناس من** لا ينبغي تركه على حال من الأحوال، وهو من عرف بالصلاح والكرم وحسن العهد والشكر والوفاء والمحبة للناس والسلامة من الحسد والبعد من الأذى والاحتمال للإخوان والأصحاب وإن ثقلت عليه منه المئونة. وأما من ينبغي تركه فهو من عرف بالشراسة ولؤم العهد وقلة الشكر والوفاء والبعد من الرحمة والورع، واتصف بالجحود لثواب الآخرة وعقابها. وقد عرفت ابن آوى وجربته وأنت حقيق بمواصلته. فدعى الأسد بابن آوى وأعتذر إليه مما كان منه ووعده خيرا، وقال: إني معتذر إليك ورادك إلى منزلتك. فقال ابن آوى: إن شر الأخلاء من التمس منعة نفسه بضر أخيه، ومن كان غير ناظر له كنظره لنفسه، أو كان يريد أن يرضيه بغير الحق لأجل إتباع هواه. وكثيرا ما يقع ذلك بين." (٣)

"١٧٨-[ما قيل في السبع من الأمثال]

وهو المضروب به المثل في النجدة والبسالة، وفي شدة الإقدام والصولة، فيقال: «ما هو إلا الأسد على براثنه» «١» و «هو أشد من الأسد» «٢» و «هو أجرا من الليث العادي» «٣» و «فلان أسد البلاد» «٤» و «هو الأسد الأسود» «٥» . وقيل لحمزة بن عبد المطلب أسد الله. فكفاك من نبل الأسد أنه اشتق لحمزة بن عبد المطلب من اسمه. ويقال للملك أصيد إذا أرادوا أن يصفوه بالكبر وبقلة الالتفات «٦» ، وبأن أنفه فيه أسلوب «٧» ولأن الأسد يلتفت معا لأن عنقه من عظم واحد. وقال حاتم: [من البسيط]

هلا إذا مطر السماء عليكم ... ورفعت رأسك مثل رأس الأصيد «٨»

وقال الآخر: [من الطويل]

---

(١) صورة الارض، ٤٨٤/١

(٢) كليلة ودمنة ابن المقفع ص/٩٧

(٣) كليلة ودمنة ابن المقفع ص/٢٧٢

يذودون كلبا بالرماح وطيئا ... وتغلب والصيد النواظر من بكر

وقال الآخر: [من المتقارب]

وكم لي بها من أب أصيد ... نماه أب ما جد أصيد

وبعد فإن الذي يأكل الجيفة لم يبعد من طبع كثير من الناس؛ **لأن من الناس من** يشتهي اللحم الغاب، ومنهم من يشتهي النمكسود. وليس بين النمكسود وبين المصلوب اليابس كبير فرق، وإنما يذبحون الديكة والبط والدجاج والدراج من أول الليل، ليسترخي لحمها، وذلك أول التجييف.

فالأسد أجمع لهذه الخصال من الكلب، فهلا ذكرتم بذلك الأسد وهو أنبه ذكرا وأبعد صيتا.." (١)

"في أدب، ولا في اعتدال من الأخلاط، والصحة من المزاج، ثم لا يعرض من ذلك إلا ما لا حيلة له فيه، كما كان يعرض لبشر بن أبي عمرو بن العلاء النحوي المازني وكما عرض لعبد الرحمن ومنصور الأسديين، فما زالا كذلك حتى ماتا، ولم يبلغنا أنهما صرعا.

٤٣٢-[الموتة]

والموتة «١» جنس من الصرع، إلا أن صاحبه إذا أفاق عاد إلى كمال عقله كالنائم والسكران والمغشي عليه، وإن عاش صاحب الموتة في ذلك مائة عام.

وليس يلقى شيء من الحيوان في هذا الباب كما يلقى الورشان.

٤٣٣-[تباين درجات السكر لدى الحيوان]

وأما السكر فليس شيء من الحيوان إلا وهو يسكر، واختلاف سكره كاختلاف سكر الإنسان، **فإن من الناس من** تراه يتحدث وهو يشرب فلا تنكر منه شيئا، حتى يغلب عليه نوم السكر ضربة واحدة، ومنهم من تراه والنبيذ يأخذ منه الأول فالأول، وتراه كيف تثقل حركته، ويغلظ حسه ويتمحق، حتى يطيش عليه السكر بالعبث، ويطبق عليه النوم. ومنهم من يأخذه بالعبث لا يعدوه. ومنهم من لا يرضى بدون السيف، وإلا بأن يضرب أمه ويطلق امرأته. ومنهم من يعتريه البكاء، ومنهم من يعتريه الضحك، ومنهم من يعتريه الملق والتفدية، والتسليم على المجالس، والتقبيل لرؤوس الناس، ومنهم من يرقص ويثب، ويكون ذلك على ضربين: أحدهما من العرض «٢» وفضل الأشر «٣» ، والآخر تحريك المرارة، وهي علة الفساد وهيجان الآفة.

وكل هذه الحالات والصور، والعنوت، والأجناس، والتوليد، الذي يختلف في طبائع الناس، وطبائع الأشربة؛ وطبائع البلدان والأزمان والأسنان، وعلى قدر الأعراق والأخلاق، وعلى قدر القلة والكثرة، وعلى قدر التصريف والتوفيق، قد وجدوه في جميع أصناف الناس والحيوان، إلا أن في الناس واحدة لم توجد في سائر الحيوان قط، فإن في الناس من لا يسكر البتة، كان [منهم] محمد بن الجهم وأبو عبد الله العمي.." (٢)

---

(١) الحيوان الجاحظ ١/١٥٠

(٢) الحيوان الجاحظ ٢/٣٦٩

"٧١٥ - عبد الله بن وردان وكان أول من حج من أهل مصر، سمع عائشة ومعاوية رضى الله عنهما.
عبد الله (١) بن أحمد وإبراهيم وعامر ابن سعد أبو حفص وحدثنا ابن وهب عن جبلة بن عمران عن عبد الله ابن وردان:
قال معاوية: **إن من الناس من** لا يرد عليه أمره وإن عائشة رضي الله عنها منهم.

٧١٦ - عبد الله بن وهبان، سمع ابن عباس رضى الله عنهما قوله، روى عنه عبد العزيز بن رفيع.

٧١٧ - عبد الله بن وديعة بن خدام (٢) الأنصاري أخو يزيد بن وديعة المديني، سمع سلمان (٢) .

٧١٨ - عبد الله بن ورد (٤) عن عامر بن عبد الله بن الزبير عن أبيه (٥) باب هـ
٧١٩ - عبد الله بن هارون بن ابى عيسى الشامي، سكن البصرة

---

(١) كذا في الاصل ولم نظفر به وسقط هنا من الاصل بعض الكلمات نحو " و " أو " روى عنه " - والله اعلم (٢) وكان في الاصل: خذام، والصواب بالدال المهملة راجع الجرح والتعديل والتهذيب (٣) روى عنه سعيد المقبرى، قاله ابن ابى حاتم (٤) وفي الجرح والتعديل: عبد الله بن الورد (٥) روى عنه
ابراهيم بن عيينة اخو سفيان بن عيينة وقال لقيته بأرمينية، قاله ابن ابى حاتم.
(*)."[١]

"٧١٥- عبد الله بن وردان.
وكان أول من حج من أهل مصر.
سمع عائشة، ومعاوية، رضي الله عنهما.
عبد الله بن أحمد، وإبراهيم، وعامر بن سعد أبو حفص.
وحدثنا ابن وهب، عن حرملة (١) بن عمران، عن عبد الله بن وردان؛ قال معاوية: **إن من الناس من** لا يرد عليه أمره،
وإن عائشة، رضي الله عنها، منهم.

---

(١) تصحف في المطبوع إلى: "جبلة"، وأثبتناه عن "تهذيب الكمال" ١١٦٥، ولا يوجد في رواة الحديث من اسمه جبلة بن عمران.." [٢]

"ولقد شربت من المدا ... مة بالصغير وبالكبير [١]
(وشربت بالخيل الإنا ... ث وبالمطهمة الذكور) [٢]

---

(١) التاريخ الكبير للبخاري بحواشي المطبوع البخاري ٥/٢٢٠
(٢) التاريخ الكبير للبخاري بحواشي محمود خليل البخاري ٥/٢٢٠

فإذا سكرت فإننى ... رب الخورنق والسدير

وإذا صحوت فإننى ... رب الشويهة والبعير

يا هند هل من نائل ... يا هند للعانى الأسير

وأحبها وتحبنى ... ويحب ناقتها بعيرى [٣]

٦٨٢* وقتله عمرو بن هند، وقال قبيل قتله:

طل وسط العباد قتلى بلا جر ... م، وقومى ينتجون السخالا [٤]

(لا رعيتم بطنا خصيبا، ولا زر ... تم عدوا، ولا رزأتم قبالا [٥]

فى أبيات.

---

[١] قال التبريزى: «يعنى بصغير ماله وكبيره ولم يرد إناء صغيرا وإناء كبيرا» واستدل بالبيت الذى بعده.

[٢] يريد أنه شرب بثمنها.

[٣] البيت ذكر صاحب الأغانى ١٨: ١٥٦ أن من الناس من يزيده فى هذه القصيدة، قال: «ولم أجده فى رواية صحيحة» ! ومن عجب أنه ذكره فيها فى موضعين آخرين، ولم يعقب على إثباته! وهو ثابت فى مراجع معتمدة، من أوثقها هذا الكتاب، والأصمعيات والحماسة.

[٤] طل: أهدر ولم يثأر به. السخال: ولد الشاء من المعز والضأن، الواحدة «سخلة» والبيت فى الأغانى ١٨: ١٥٤ وشرح الحماسة ٢: ١٠٨.

[٥] رزأتم: نقصتم وأخذتم. القبال، بكسر القاف وتخفيف الباء الموحدة: زمام النعل، يقال «ما قطعت له قبالا ولا رزأته زبالا» أى: أدنى شيء، والزبال، بكسر الزاى وتخفيف الباء: ما تحمله النملة بفيها.." (١)

"٤٧١٩- حدثنا أحمد، قال: حدثني بعض أصحابنا، عن أبي صالح الفراء، قال: مات الفزاري سنة خمس وثمانين ومئة.

٤٧٢٠- وحدثني هذا الرجل، عن أبي صالح، قال: قال أبو إسحاق: لو صلح قلبي بخراسان أتيت خراسان.

قال أبو صالح: سألت ابن عيينة، قلت: حديثا سمعت أبا [ق/١٩/ ب إسحاق رواه عنك أحببت أن أسمعه منك؟ فغضب علي وانتهرني وقال: لا يقنعك أن تسمعه من أبي إسحاق؟ والله ما رأيت أحدا أقدمه على أبي إسحاق.

قال أبو صالح: وسمعت علي بن بكار يقول: لقيت الرجال الذين لقيهم أبو إسحاق: ابن عون وغيره، والله ما رأيت فيهم أفقه منه.

قال أبو صالح: وسمعت الفزاري غير مرة يقول: إن من الناس من يحسن الثناء عليه وما يساوي عند الله جناح بعوضة.

قال أبو صالح: قال عطاء الخفاف: كنت عند الأوزاعي فأراد أن يكتب إلي أبي إسحاق فقال للكاتب: اكتب إليه وابدأ

---

(١) الشعر والشعراء الدينوري، ابن قتيبة ٣٩٣/١

به فإنه والله خير مني.

قال: وكنت عند الثوري فأراد أن يكتب إلي أبي إسحاق الفزاري، فقال للكاتب: اكتب وابدأ به فإنه والله خير مني.

قال أبو صالح: لقيت فضيل بن عياض فعزاني بأبي إسحاق، وقال لي: والله لربما اشتقت إلى المصيصة ما بي فضل الرباط إلا لأرى أبا إسحاق.

هذه الأحاديث كلها عن صاحب لي كان معي بالبصرة يقال له: محمد ب." (١)

"عثمان إلا قتل حيث كان وخرج علي من المدينة في آخر شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين، فقالت أخت علي بن عدى من بنى عبد العزى ابن عبد شمس:

لاهم فاعقر بعلي جمله ... ولا تبارك في بعير حمله

ألا علي بن عدي ليس له

حدثني عمر، قال: حدثنا أبو الحسن، عن ابى مخنف، عن نمير ابن وعلة، عن الشعبي، قال: لما نزل علي بالربذة اتته جماعه من طيئ، فقيل لعلى: هذه جماعه من طيئ قد أتتك، منهم من يريد الخروج معك ومنهم من يريد التسليم عليك، قال: جزى الله كلا خيرا وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما ثم دخلوا عليه [فقال علي: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكل ما تحب، قال: جزاكم الله خيرا! فقد أسلمتم طائعين وقاتلتم المرتدين ووافيتم بصدقاتكم المسلمين] فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: يا أمير المؤمنين، **إن من الناس من** يعبر لسانه عما في قلبه، وإني والله ما كل ما أجد في قلبي يعبر عنه لساني وسأجهد وبالله التوفيق، أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية وأقاتل عدوك في كل موطن وأرى لك من الحق ما لا أراه لأحد من أهل زمانك لفضلك وقرابتك قال: رحمك الله! قد أدى لسانك عما يجن ضميرك فقتل معه بصفين رحمه الله.

كتب إلي السري، عن شعيب، عن سيف، عن محمد وطلحة، قالا: لما قدم علي الربذة أقام بها وسرح منها إلى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر، وكتب إليهم: إني اخترتكم على الأمصار وفزعت إليكم لما حدث، فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد، لتعود الأمة إخوانا، ومن أحب ذلك وآثره فقد أحب الحق وآثره، ومن أبغض ذلك فقد أبغض الحق وغمصه.

فمضى الرجلان وبقي علي بالربذة يتهيأ، وأرسل إلى المدينة فلحقه ما أراد." (٢)

"الناس فان عمر (٢٥ ك) بن الخطاب رضي الله عنه قال: إياكم والطمع فإن الطمع فقر واليأس غنى وفي العزلة راحة من خلاط السوء وكان سعيد بن المسيب يقول: العزلة عبادة.

وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض فأما اليوم فقد ذهب ذلك والنجاة (١) في تركهم فيما نرى، وإياك والأمراء والدنو منهم وأن تخالطهم في شئ من الأشياء، وإياك أن تخدع فيقال لك: تشفع فترد عن مظلوم أو مظلمة - فإن تلك

---

(١) التاريخ الكبير = تاريخ ابن أبي خيثمة - السفر الثالث ابن أبي خيثمة ٣/٢٥٥

(٢) تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري الطبري، أبو جعفر ٤/٤٧٨

خدعة إبليس وإنما اتخذها فجار القراء سلما.

وكان يقال: اتقوا فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وما كفيت المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم، وإياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله وينشر قوله أو يسمع منه، وإياك وحب الرياسة فإن من الناس من تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة، وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير (٢) من العلماء السما سمرة، واحذر الرئاء فإن الرئاء أخفى من دبيب النمل.

وقال حذيفة: سيأتي على الناس زمان يعرض على الرجل الخير (٢ م) والشر فلا يدرى أيما (٣) يركب.

وقد ذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم [قال - ٤] :

لا تزال يد الله عزوجل على هذه الأمة وفي كنفه وفي جواره وجناحه ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم وما لم ير خيارهم أشرارهم وما لم يعظم أبرارهم فجارهم فإذا فعلوا ذلك رفعها عنهم وقذف في قلوبهم [الرعب - ٥] وانزل بهم الفاقة وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب، وقال: إذا كان ذلك لا يأتيهم أمر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم (٦) عن ذلك.

---

(١) م " فالنجاة " (٢) د " البصراء " (٣) د " ايهما " (٤) من ك (٥) من م (٦) م " لا ياتيكم امر تضجون منه الا اردفه آخر يشغلكم ".

(*)".[١]

"أما العرض فإن من الناس من يعد الإقليم الأول من حد وتر خط الاستواء إلى أقصى حده من الشمال، ومنهم من يجعل البحر الزنجي حاجزا بين الإقليم الأول بين وسط خط الاستواء، وذلك ما عرضه ثماني درجات وخمس وعشرون دقيقة وساعاته اثنتا عشرة ونصف ومن الخلفة في عرضه ما يخالف به حساب صنعاء في عرضها وعرض مأرب وظلهما، وذلك أنهم يذكرون أن ظل رأس الحمل بصنعاء ثلاث أصابع وعشر، وعرضها أربع عشرة ونصف، ومأرب سبأ يكون مثل ذلك لأنها محاذية لها على خط السمت الطولي فهي مشرق صنعاء وصنعاء مغربها وبينهما مسافة يومين للمفرد، وارتفاع سهيل عليها حساب صنعاء، وأما قياس طوله المأموني فقد يخالفهم شيئا، وهذا دليل على أن وسط هذا الإقليم وادي نجران من أرض اليمن ومكة آخر حد اليمن، ومما يعدل قولهم أنا نجد عرض مدينة سبأ لبطليموس ستة عشر جزءا وربعا وخمسا من جزء، وهي على ما ذكرناه، ثم نجده جعل عرض ظفار أربعة عشر جزءا، وهذا من قياسه بظفار يشهد لحساب صنعاء لأن ظفار على ذائرة انتصاف نهار صنعاء من جهة الجنوب وبينهما بالتقريب ثلاثة أيام، ولعل بطليموس أراد فلاة مأرب أرض سبأ فهي فلاة يشرع عليها بيحان ومأرب والجوف ونجران والهجيرة وأعراض ترج وبيشة وتبالة، وكان أشهر هذه المواضع الشارعة على هذه الفلاة مدينة سبأ.." [٢]

---

(١) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي، ابن أبي حاتم ٨٨/١

(٢) صفة جزيرة العرب الهمداني ص/

"عليه. وعلمت أنه من يزغ منا عن أمر الله يذقه من عذاب السعير، فليقض الأمير حفظه الله في ما كان قاضيا ثم ليعجل ذلك ولا ينظرني فوالله إن العافية لفي عقابه وإن العقاب لفي عافيته وإن الموت لخير من الحياة معه، إذا كان هذا الجد منه والحق عنده والسلام.

ولبشر أيضا: أما بعد **فإن من الناس من** تحمل حاجته أهون من فحش طلبه، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته، ومنهم من إفراط لائمته أحسن من قدر مدحته، وإن الله خلق فلانا ليغم الدنيا ويقذر به أهلها فهو على قذره فيها من حجج الله على أهلها، فأسأل لذي فتن الأرض بحياته وغم أهلها ببقائه أن يديل بطنها من ظهرها والسلام.

ومن بشر إلى الشافعي في عبد الله بن مصعب: أما بعد فإنك تسألني عن عبد الله كأنك هممت به إذ سرك القدوم عليه فلا تفعل يرحمك الله، فإن الطمع بما عنده لا يخطر على القلب إلا من سوء التوكل على الله عز وجل، وإن رجاء ما في يده لا يكون إلا بعد اليأس من روح الله، لأنه يرى الإفتار الذي نهى الله عنه هو إسراف الذي يعذب الله عليه، وإن الصدقة منسوخة، وأن الضيافة مرفوعة، وأن إيثار المرء على نفسه عند الخصاصة إحدى الكبائر الموجبة الهلكة، وكأنه لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الأولى الذي قطع الله دابرهم ونهى المسلمين عن اتباع آثارهم، وكأن الرجفة لم تصب أهل مدين عنده إلا لسخاء كان فيهم، ولم يهلك الريح العقيم عادا إلا لتوسع ذكر منهم، وهو يخاف العقاب على الإنفاق، ويرجو الثواب على الإقتار، ويعد نفسه الفقر، ويأمرها بالبخل، خيفة أن ينزل به بعض قوارع الظالمين، ويصيبه ما أصاب القوم المجرمين، فأقم يرحمك الله على مكانك، واصطبر على عسترك وتربص به الدوائر، عسى الله أن يبدلنا وإياك خيرا منه زكاة وأقرب رحما والسلام.

ومنه إلى بشار بن رضابة: أما بعد فإني رأيتك في أول زمانك تغدو." (١)

"إنها لا تكون موؤدة حتى يأتي عليها الحالات السبع. فقال عمر: صدقت أطال الله بقاءك.

قال ابن لهيعة: المعنى لا تكون موؤدة حتى تكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظما ثم لحما، ثم يظهر مستهلا، إذا دفنت فقد وئدت، **لأن من الناس من** قال: إن المرأة إذا أحست بحمل فتداوت لتسقطه فأسقطته فقد وأدته. فأخبر أن ذلك لا يكون موؤدة، حتى يأتي عليها الحالات السبع.

وقد ذكر الله عز وجل: الموؤدة فقال: " وإذا الموؤدة سئلت، بأي ذنب قتلت ".

وكانت العرب إذا ولد لأحدهم ابنة، دفنها حية. فيقال: وأدها يئدها وأدا. فدى صعصعة ابن ناجية المجاشعي خلقا من البنات، بإبل دفعها إلى آبائهن لأنهم كانوا يفعلون ذلك للضر والفقر فقال الفرزدق يفخر بهذا:

وجدي الذي منع الوائدا ... ت فأحيا الوئيد ولم يوأد

حدثنا علي بن الصباح قال: حدثنا أبو مسلم السعدي قال: حدثني ابن علية، عن سوار بن عبد الله العنبيري، عن الحسن

---

(١) صفة جزيرة العرب الهمداني ص/٦٠

قال: دخل الزبير على النبي صلى الله عليه وسلم وهو عليل فقال: ما الذي بعدك جعلني الله فداؤك؟ فقال: " يا زبير أما تركت إعرابيتك بعد؟ "." (١)

"آرائهم واعتمادهم على إشارتهم وتمنيهم درجاتهم والاستخفاف بمن ذل عقله وبدا سخفه ولم يفعلوا [٧] ذلك بمن استقامت طباعه وكملت أخلاطه فعلمنا أنه معنى غير معنى الطبع وهو العقل

القول في الحس والمحسوس،

أقول أن الحواس طرق وآلات مهيأة لقبول التأثيرات كما وضعها الله عز وجل عليه فإذا باشرت الحاسة المحسوس أثرت فيه بقدر قبوله وقبلت منه بقدر تأثيره فبدرت به النفس وأدته إلى القلب واستقر فيه ثم تنازعته أنواع العلم من الفهم والوهم والظن والمعرفة وبحث عنه العقل وميزه فما حققه صار يقينا وما نفاه صار باطلا والحواس الخمس أولا يوجد شيء لا يمكن وجوده بشيء من الحواس فيحتاج إلى حاسة سادسة ويزعم قوم أنها أربع ويجعلون الذوق ضربا من اللمس وبعض يقول ست ويعدون فعل القلب حاسة سادسة وهذا سهل واسع بعد أن اقروا بصحة وجود فعل الحواس **لأن من الناس من** ينكر حقيقة فعلها تتغير أحوالها ويحتج برؤية من يرى وجهه في السيف طويلا وقامته في الماء الذي لا يكون مساحة عمقه كمساحة قامته منكسة ويرى الصغير كبيرا والكبير." (٢)

"النبي صلى الله عليه وسلم وكله باق إلى يومنا هذا الكفر والنفاق والتنبي فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم اختلفوا في الإمامة فتنازعها المهاجرون والأنصار ثم رجعوا إلى قول أبي بكر رضي الله عنه ان الأئمة من قريش إلا سعد ابن عبادة فإنه قال والله لا أبايع قرشيا [١] أبدا وبقي ذلك الاختلاف إلى يومنا هذا فمنهم من يجيز الإمامة من أفناء الناس ومنهم من يقصرها على قريش ثم الخلاف الثاني وقع في شان الردية فرأى أبو بكر رضي الله عنه جهادهم بالسيف ورأى المسلمون خلاف ذلك ثم رجع أكثرهم إلى قول أبي بكر وبقي الخلاف **فإن من الناس من** يقول كان قتالهم خطاء ثم الخلاف الثالث زمن عثمان رضي الله عنه أعانه قوم وقعد عن نصرته قوم ورأوا قتله حقا فهذا الخلاف باق ومن العثمانية من يفضلونه على أبي بكر وعمر ثم الخلاف [F؟ ١٧٨ v؟] الرابع وقع في خروج طلحة والزبير وعائشة وأم حبيبة وزيد بن ثابت والنعمان بن بشير [٢] وكعب بن عجرة وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والوليد بن عقبة وعمرو بن العاص في بيعة علي عم وقولهم لا نراك أهلا لهذا الأمر فلما

---

[١] . قراشياMS.

[٢] . البشير ms, Corr.marg.." (٣)

---

(١) أدب الكتاب للصولي الصولي ص/١٧٣

(٢) البدء والتاريخ المقدسي، المطهر بن طاهر ٢٧/١

(٣) البدء والتاريخ المقدسي، المطهر بن طاهر ١٢٣/٥

"يهتف [كامل]

مسح الرسول جبينه ... فله بريق في الخدود

أبواه من عليا قريش ... وجده خير الجدود

واعلم أن للروافض في هذه القصة من الزيادات والتهاويل شيئا غير قليل وفي مقدار ما بيناه سقط كثير **لأن من الناس من** ينكر أن يكون يزيد أمر بقتله أو رضي به والله أعلم بذلك،،،

قصة عبد الله بن الزبير بن العوام

وهو ابن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأول مولود ولد بالمدينة في الإسلام قالوا ولما بويع يزيد تلكأ الحسين وعبد الله بن الزبير عن بيعته ولحقا بمكة فأما الحسين فخرج إلى الكوفة حتى استشهد بكربلاء وأما عبد الله بن الزبير فامتنع بمكة ولاذ بالكعبة ودعا الناس إلى الشورى وجعل يلعن يزيد وسماه الفاسق المتكبر وقال لا يرضى الله بعهد معاوية إلى يزيد وإنما ذاك إلى عامة المسلمين فأجابه الناس إلى ذلك ورأوا الحق فيه وأظهر ابن الزبير التألد والتنسك وجعل يصوم ويصلي حتى أثر فيه ومال الناس إليه وكتب إلى أهل المدينة أن اخرجوا بني أمية من أظهركم فأخرجوهم وبلغ الخبر يزيد فبعث مسلم بن." (١)

"الدبوسية ثم اربنجن والكشانية وسمرقند وكل هذا بلد السغد على **أن من الناس من** يزعم أن بخارا وكش «٢» ونسف من السغد وهى فى أعمال الديوان مفردة، وقصبة السغد سمرقند وهى مدينة على جنوبى وادى سغد مرتفعة عليه ولها قهندز ومدينة وربض وقد جعل فى وقتنا هذا الحبس فى القهندز وكانت دار الإمارة فيه فخربت وعلوته فرأيت أحسن منظر عاينه مبصر وتمتع به ناظر شجر أخضر وقصور تزهر وأنهار تطرد وعمارة تتقد «٦» لا يقع الطرف منه على مكان إلا ملأه وعلى باغ إلا استملحه واستصباه قد فصلت ميادينها وتناهت تحاسينها وقصصت به أشجار السرو فجعل منها طرائف الحيوان من الأفيلة «٩» والإبل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض كالمتناجيه والمطالب بعضها لبعض كالمتقابلة المتعاتبة، فيا له منظرا ما أتلفه للأموال وآخذه بمجامع قلوب الرجال، هذا الى أنهار تطرد وبرك مسجورة لا تزال ترتعد ظريفة المغانى وقصور ومستشرفات سامقة المبانى قد رصفت فهى مساكن جليلة ومجالس نفيسة وأحوال تدل على ملوك جلة، «١٣» (٢٩) وأما سمرقند فيشتمل عليها حصن ولها أربعة أبواب باب مما يلى المشرق يقال له باب الصين مرتفع عن وجه الأرض ينزل عنه بدرج كثيرة العدد مطل على نفس وادى السغد ومما يلى المغرب باب النوبهار وهو على نشز من الأرض ومما يلى الشمال باب بخارا ومما يلى الجنوب باب كش «١٨» ، وهى مدينة فيها أسواق [كبار] «٢١» وفيها ما فى المدن العظام من المحال والحمامات والخانات والمساكن، ولها مياه جارية تدخل اليها فى نهر بعضه رصاص معلق وهو نهر قد بنى عليه مسناة عالية من الأرض وفى «٢٠»." (٢)

---

(١) البدء والتاريخ المقدسي، المطهر بن طاهر ١٣/٦

(٢) صورة الأرض ابن حوقل ٤٩٢/٢

"ذلك الكلام بين مراتب ثلاث: في الغاية التي لا غاية وراءها، وفي الوسط الذي يعتدل فيه، وفي الطرف الأدنى، وفيما بين ذلك كله بالأرجح والأنقص والأقل والأكثر. والتأويل يركب منشورها، والظن يسري في أطرافها، والقلة تجد سبيلا إلى التشنيع عليه. فلذلك وأشباهه يكون ذلك. على أن هذا إذا تؤمل بالنصفة مقيسا إلى الطبائع المختلفة، والعادات المتباينة، والأعراض المتشعبة، كان في نصاب الحكمة ثابتا، وعلى مدارجها جاريا، وإلى أصولها وفروعها نازعا. ولولا ضيق أعطعان الناظرين في هذه الغوامض عن التبت والإنصاف لكان يتجلى هذا كل التجلي، ويزول عنه الخلاف كل الزوال.

قلت لأبي سليمان: أليس لو صفت الحال ها هنا من عارض خطأ وسانح تأويل ومضروب مثل، كانت أبلغ في المعنى وأنفى للتهمة من القذى؟ قال: بلى، ولكن ليس كل ما شهد به العقل بصفائه وطهارته وبعده من الدنس والدرن في أفقه وعالمه، يجوز أن يوجد ذلك على كماله في عالم الحس المشوب الكدر الذي لا ثبات له ولا مستقر. وكيف يجوز أن يوجد كل ما هو بالقوة في كل شيء بالفعل في حال واحدة؟ كأنك تريد أن تعري البشرية! وهذا ما لا يكون ولا يجوز أن يكون. بل تتفاوت مراتب أصحاب هذه القوة بحسب أنصابهم منها حين انقسمت عليهم فتحلوا بها على مقادير مزاجهم وطباعهم ونهوضهم واحتمالهم، وذلك التفاوت هو الذي يعلي حال هذا عن هذا، ويحط شأن هذا عن هذا، إلى أخر أفق الإنسانية المحتملة لغاية هذه القوة العالية الشريفة. ثم إن الأخلاق والألفاظ تابعة لها على ما يبدو به من ضعف العقل والقوة والبيان واللغز والتوسط.

ثم قال: والبلاء الأعظم في أمر الأنبياء **أن من الناس من** يظن بهم أنهم كذبة أصحاب حيل، ومنهم من يظن أنه لا يجوز أن يقع منهم شيء من القول والفعل يتعلق بما يوجب التهمة ويجلب الشك، وكان وراء هذين." (١)

"مركب، وهذه القسمة بحسب الوجود الطبيعي. ويقال: منه هيولى ومنه صورة، وهذا بحسب حالها في ذاتها وإضافة بعضها إلى بعض. ويقال: منه كائن وفاسد، ومنه غير كائن ولا فاسد، وهذه القسمة بحسب حالها فيما يقبل من التأثير ولا يقبل. ويقال: منه سرمدي ومنه حادث، وهذا بحسب امتداد وجودها في الزمان، ويقال: منه محسوس ومنه معقول، وهذا بحسب حالها عند الإدراك. ومنه أول وهو الشخص، ومنه ثان وهو الأجناس والأنواع. وهذه القسمة بحسب اعتيادنا في باب العموم والخصوص. وهذا الصنف هو الذي الواحد منه بالعدد قابل للمتضادات بتغيره في ذاته. على أن في هذا الصنف شكا وهو هل الأشخاص العلوية، أعني الأفلاك والكواكب، هل يصدق عليها الرسم أم لا؟ **فإن من الناس من** رأى أن هذا الرسم مشتمل على جميع الجواهر الشخصية، ومنهم من قال أنه يخص الجواهر الشخصية المركبة من المادة والصورة التي تحت الكون والفساد.

المقابسة السابعة والثمانون

في مناظرة منامية بين أبي سليمان وبين ابن العميد

---

(١) المقابسات أبو حيان التوحيدي ص/٢٢٩

سمعت أبا سليمان يقول: رأيت فيما يرى النائم كأني أناظر ابن العميد أبا الفضل في مسائل من السماع الطبيعي، وبقينا نقسم الموجودات فقلت: الموجود أيضا ينقسم بنوع آخر أن يكون إما خفي الذات خفي الفعل، أو ظاهر الذات ظاهر الفعل، أو خفي الذات ظاهر الفعل، أو ظاهر الذات خفي الفعل. ثم قلت: الأول هو الباري جل وعز، والثاني الحرارة والبرودة وما أشبههما، والثالث الطبيعة، والرابع الكواكب.." (١)

"إليه -: يسألك الله عن سوء ظنك. قال: بل يسألك عن سوء مصرعك. نظر بعضهم إلى غلام أمرد وهو يتكلم بقحة، ورقاعة. فقال: هذا وجه من يشم التراب. أخذ رجل مع غلام، فرفع إلى صاحب الشرطة، فأدبه، ثم وجد بعد ذلك مع امرأة وعوقب. وبعد ذلك مع مخنث فأدب، ثم وجد في خربة ينيك أنانا. فقال له صاحب الشرطة: ويلك ﴿﴾ لم لا تعمد أيرك؟ قال: يا سيدي هذا غمده، ولكن لستم تتركونني أن أغمده. فضحك وخلاه. قيل للوطي: ويحك؟ ؟ **إن من الناس من** يسرق، ويزني، ويعمل العظائم سنين كثيرة، وأمره مستور، وأنت إنما لطت منذ شهور. وقد شهرت وافتضحت. فقال: من يكون سره عند الصبيان، كيف يكون حاله؟ نظر بعضهم إلى غلام وأدمن النظر. قال: فقال الغلام: لم هذا النظر؟ فقلت: سيدي: أين منزلكم؟ قال: في النار، تطلب أثرا بعد عين أن تؤخر اليوم لغد، وتتبع مالا تأمن السائق عليه. دخل بعضهم الحمام فرأى فيه غلاما صبيحا، فأراده على نفسه فامتنع، فكابر، وأخذه وأفلت الغلام، وصاح، فدخل القيم وجماعة معه، فقالوا للرجل: ألا تستحي سوءة لك؟ قال: قلت له: صب الماء علي فامتنع. قالوا: فما بال أيرك قائما؟ ؟ قال: قام من شدة الغضب. قيل للوطي: متى عهدك بالحر؟ قال: مذ خرجت منه. ذكر يونس بعض اللاطة فقال: يضرب ما بين الكركي إلى العندليب يقول: لا يدع رجلا ولا صبيا إلا عفجه. حكى بعضهم قال: رأيت بعض اللاطة يضرب غلاما له ضرب التلف، ويدعى عليه فسألته عن ذنبه. قال: ليس قلبه في العمل، نكته اليوم وكان أيره نائم.." (٢)

"الجيب وإن صغر يساوي قوسه، وإنما يكون ذلك في الأجزاء المفروضة للاستعمال وأما في اجزائها فمرهيا وهلم جرا إلى اقصى الصين؛ وأما قول بلس في الأرض: إن المحور يمسكها، فليس يعني به أن محورا هناك لو لم يكن لسقطت الأرض وكيف يقول هذا وهو يرى المدن الأربع حول الأرض مسكونة، وذلك موجبات نزول الأثقال إلى الأرض من جميع الجوانب؟ ولكنه ذهب فيه إلى أن حركه ما على المحيط علة لسكون ما في المركز والحركة في الكرة لا تكون إلا على قطبين والخط الواصل بينهما وهما هو المحور، فكأنه يقول: إن حركة السماء ماسكة للأرض في مكانها، مصيرة إياه طبيعيا لها لا يمكن أن تكون في غيره، وهي على محور الحركة ثم على وسطه لأن سائر أقطار الكرة ممكن أن تتوهم «١» محاور فإنها كذلك بالقوة ولو لم تكن في الوسط لأمكن وجود محور عنها فكأنها في الصورة مدعمة بالمحاور؛ وأما سكون الأرض وهو أيضا أحد مبادئ علم الهيئة الذي يعسر حل الشبه العارضة فيه فإنهم أيضا على اعتقاده، قال «برهمكوبت» في «براهم سدهاند» : **إن من الناس من** زعم أن الحركة الأولى ليست في معدل النهار

---

(١) المقابسات أبو حيان التوحيدي ص/٢٩٢

(٢) نثر الدر في المحاضرات الآبي ٥/٢٠١

وإنما هي للأرض، فرد عليهم «براهمهر» بأن ذلك يوجب ان لا يرجع طائر إلى وكره مهما طار عنه نحو المغرب، وهو كما قال، ثم قال برهمكوبت في موضع آخر منه: إن اصحاب «آرجبهد» يقولون: إن الأرض متحركة والسماء ساكنة، فقيل في الرد عليهم: إن ذلك لو كان لسقطت عنها الأحجار والأشجار، ولم يرض برهمكوبت ذلك وقال: إنه لا يلزمهم، وكأنه عني بذلك من جهة أن الأثقال منجذبة إلى مركزها قال: بل لو كان ذلك لم تسارق دقائق السماء «بران» الأزمان؛ وربما كان التخليط في هذا الفصل من جهة المترجم فإن دقائق السماء هي: ٢١٦٠٠ «٢» وتسمى برانات أي انفاس لأنهم يزعمون أن كل دقيقة من معدل." (١)

"الكسوف طالبا حصته، فكثر لذلك ذكر الناس اياه وقتئذ ونسبوا الكسف اليه وليس إليه من جهته فيه شيء وإنما هو من استواء طريقة القمر أو انحرافه؛ وهذا من براهمهر معما تقدم من دلائل تحققه هيئة العالم مستنكر، لولا أنه يمالئ البراهمة احيانا فإنه منهم ولا بد له من جملتهم، ثم لا يعاب مع ثبوت قدمه على الحق وتصريحه به، مثل ما حكينا عنه أيضا في كيفية «سند» ، وليت جميع الفضلاء يقتدون به! ولكن انظر الى «برهمكوبت» وهو أفضل هذه الطبقة منهم، فإنه لما كان من البراهمة الذين يقرءون من براناتهم سفول الشمس عن القمر فيحتاجون الى رأس يعض على الشمس حتى يكسفها رفض الحق وعاضد الباطل وإن كان من الممكن أن يكون من شدة الامتعاض بهم هازئا أو مضطرا كالمغشي عليه من الموت، وهذا كلامه في المقالة الأولى من «براهم سدهاند» : **أن من الناس من** يرى أن الكسوف ليس من الرأس، وذلك رأي محال فإنه الكاسف وجمهور أهل العالم يقولون أن الرأس هو الذي يكسف، وفي «بيذ» الذي هو كلام الله من فم «براهم» أن الرأس يكسف وكذلك هو في كتاب «سمرت» الذي عمله «من» وفي «سنكهت» الذي عمله «كرك بن براهم» ، فأما «براهمهر» و «اشريخين» و «آرجبهد» و «بشنجندر» فإنهم يزعمون أن الكسوف ليس من الرأس وإنما هو من القمر ومن ظل الأرض، وهذا منهم مخالفة للجمهور ومعاداة للكلام المذكور، فإن الرأس اذا لم يكن الكاسف كان ما يعمله البراهمة من الاطلاء بالدهن المسخن وسائر رسوم العبادات المرسومة لوقت الكسوف هدرا لا ثواب عليه، وفي ابطال ذلك خروج عن الإجماع وهو غير جائز، وقد قال من في سمرت: إذا أخذ الرأس أحد النيرين بالكسف طهر جميع ما على الأرض من المياه وصارت كماء «كنك» في الطهارة، وفي بيذ: أن الرأس هو ابن امرأة من بنات «ديت» اسمها «سينك» ، ولأجل هذا يعمل ما يعمل من أعمال البر فواجب على هؤلاء ترك عناد الجمهور لأن جميع ما في «بيذ» و «سمرت» و «سنكهت» صحيح؛ وإذا كان «برهمكوبت» في هذا الموضع ممن قال الله تعالى فيهم «وجحدوا بها واستيقنتها." (٢)

"وإنما أراد السلوقي مع ما فيه من الجسد وما تحت لابسه زعموا من السرج والفرس، فعدا عن الجميع، وجاء بما يتبعه، ويستغني به عن ذكره، إذ كانت لا تقد السلوقي إلا أن تقد ما فيه، ولا تنتهي إلى الصفاح على ما فسروا من أنه يريد الفارس بأداته إلا بعد أن تأتي على السرج والفرس، على **أن من الناس من** رد يوقدن على الخيل.. وإلى مثل هذا

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة البيروني ص/٢٠٥

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة البيروني ص/٣٩٥

الإفراط ذهب النمر بن تولب في صفة السيف الذي شبه به نفسه فقال:

تظل تحفر عنه إن ضربت به ... بعد الذراعين والساقين والهادي

وروى الحذاق " القينين والهادي " وهو واضح في المعنى.

ومن التتبيع قول زهير:

وملجمنا ما إن ينال قذاله ... ولا قدماه الأرض إلا أنامله

فأشار إلى طول عنقه وقوائمه بذكر تطاول الملجم إشارة عجيبة، وتبعه ابن مقبل فقال:

تمطيت أخليه اللجام فبذني ... وشخصي يسامي شخصه وهو طائله." (١)

"في أخذه، على أن من الناس من بعد ذهنه إلا عن مثل بيت امرئ القيس وطرفة حين لم يختلفا إلا في القافية؛ فقال أحدهما وتحمل، وقال الآخر وتجلد ومنهم من يحتاج إلى دليل من اللفظ مع المعنى، ويكون الغامض عندهم بمنزلة الظاهر، وهم قليل.

والسرق أيضا إنما هو في البديع المخترع الذي يختص به الشاعر، لا في المعاني المشتركة التي هي جارية في عاداتهم ومستعملة في أمثالهم ومحاوراتهم، مما ترتفع الظنة فيه عن الذي يورده أن يقال إنه أخذه من غيره.

قال: واتكال الشاعر على السرقة بلادة وعجز، وتركه كل معنى سبق إليه جهل، ولكن المختار له عندي أوسط الحالات.

وقال بعض الحذاق من المتأخرين: من أخذ معنى بلفظه كما هو كان سارقا، فإن غير بعض اللفظ كان سالخا، فإن غير بعض المعنى ليخفيه أو قلبه عن وجهه كان ذلك دليل حذقه.

وأما ابن وكيع فقد قدم في صدر كتابه على أبي الطيب مقدمة لا يصح لأحد معها شعر إلا الصدر الأول إن سلم ذلك لهم، وسماه كتاب المنصف مثل ما سمي اللديغ سليما، وما أبعد الإنصاف منه.

والاصطراف: أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر فيصرفه إلى نفسه، فإن." (٢)

"وقال لبعض بني أخيه: إذا تعلمتم علما من طاعة الله فلير عليك أثره، ولير فيك سمته، وتعلم لذلك العلم الذي علمته السكينة والحلم والوقار، وقال حقا على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية، وأن يكون متبعا لآثار من مضى، وينبغي لأهل العلم أن يخوا أنفسهم من المزاح وبخاصة إذا ذكروا الله.

وقال أدب الله القرآن وأدب رسوله السنة وأدب الصالحين الفقه.

وقال لا يستكمل الرجل الإيمان حتى يحرز لسانه.

وقال لبعض أصحابه لا تكثر الشخوص من بيتك إلا لأمر لا بد منه، ولا تجلس في مجلس لا تستفيد منه علما.

وقال سفيان دخلت على مالك فقلت له إن العلم كثير.

فقال العلم شجرة أصلها بمكة وأغصانها بالمدينة وأوراقها بالعراق وثمرتها بخراسان فقال اكتب يا غلام فهذه من طرائف

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ٣١٧/١

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ابن رشيق القيرواني ٢٨١/٢

مالك.

قال الزبيري: قلت لمالك: إن من الناس من إن أمرتهم ليطيعونني ومنهم من إن أمرتهم أتأذى منهم.

الشعراء يهجونني والشاطرون يضربونني ويحبسونني فكيف أصنع.

فقال إن خفت وظنت أنهم لا يطيعونك فدع، وأنكر بقلبك، ولك في ذلك سعة.

ومن لم تخش منه فأمره وانهه وخاصة إذا أردت به الله تبارك وتعالى، فإذا كنت كذلك لم تر إلا خيرا وبخاصة إذا كان فيك شيء من لين.

ألا ترى." (١)

"وقال للصاحب: إن هذا رجل مأبون معروف الطريقة بالفساد، وجميع ما تصله به وتوصله إليه ينفقه على من يرتكب منه الفضيحة، وأفرط في ذم الرجل والدلالة على قبائحه حتى ظن أنه قد أفسد حاله، فلما رد الصك إليه للتوقيع فيه لم يشك الساعي أنه يبطله أو يمزقه، فلما نظر فيه كتب تحت ما كان قرر [١] له في كل شهر: ولغلام يخدمه ويستعين به خمسون درهما، ووقع في الصك ورده إليه.

«٦٤٣» - اجتمع ثلاثة حساد فقال أحدهم لصاحبه: ما بلغ من حسدك؟ فقال ما اشتهيت أن أفعل بأحد خيرا قط، قال الثاني: أنت رجل صالح، ولكني ما اشتهيت أن يفعل أحد بأحد خيرا قط، قال الثالث: ما في الأرض أصلح منكما، ولكني ما اشتهيت أن يفعل بي أحد خيرا قط.

«٦٤٤» - قال المدائني: تذاكر قوم من ظراف أهل البصرة الحسد، فقال رجل منهم: إن من الناس من يحسد على الصلب، فأنكروا ذلك عليه، ثم جاءهم بعد أيام فقال: الخليفة قد أمر أن يصلب الأحنف ومالك بن مسمع وقيس بن الهيثم وحمدان الحجام، فقال الحاضرون: هذا الخبيث يصلب مع هؤلاء؟! فضحك وقال: ألم أقل إن من الناس من يحسد على الصلب؟! ٦٤٥- قال إبراهيم الموصلي: كنت عند الرشيد يوما فرفع إليه في الخبر أن رجلا أخذه صاحب الجسر، رفع في قصته أنه يجمع بين الرجال والنساء في منزله، وأنه سئل عما رفع عليه فأقر بذلك على نفسه وذكر أنه يجمع بينهم على

---

[١] ر م: قدر.." (٢)

"«٤٩٩» - وقال آخر: [من الوافر]

وأمنع جارتي من كل خير ... وأمشي بالنميمة بين صحبي

«٥٠٠» - ضرط رجل بحضرة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، فلما حضرت الصلاة قال عمر: عزمت على من كانت هذه الضرطة منه إلا توضأ، فقال جرير بن عبد الله البجلي: لو عزمت علينا جميعا أن نتوضأ كان أستر للرجل

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك القاضي عياض ٢/٦٣

(٢) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ٢/٢٤٩

وأكرم في الفعل. فقال عمر: جزاك الله خيرا، فلقد كنت سيدا في الجاهلية، وأنت سيد في الاسلام، عزمت عليكم إلا توضأتم. ثم قاموا جميعا، وسترت على الرجل.

«٥٠١» – وضرط أبو الأسود الدؤلي بحضرة معاوية فقال: اكتمها علي، وكانا خاليين. ثم دخل عليه الناس فأحب أن يضع منه فأشاعها، فقال أبو الأسود: إن رجلا اؤتمن على ضرطة فلم يكتمها لحري أن لا يؤتمن على أمر الأمة.

«٥٠٢» – كان المتوكل على بركة يصيد السمك وعنده عبادة المخنث، فتحرك المتوكل فخرجت منه ريح، فقال لعبادة: اكتمها علي فإنك إن ذكرتها ضربت عنقك. ودخل الفتح فقال: أي شيء صدتم اليوم؟ فقال له عبادة: ما صدنا شيئا، والذي كان معنا أفلت.

«٥٠٣» – قيل للوطي: ويحك، إن من الناس من يسرق ويزني ويعمل العظائم سنين كثيرة وأمره مستور، وأنت إنما لطت منذ شهور، وقد شهرت." (١)

"لهذه الأمة من ينظر لها ويختار لها ما اخترت لها غيرك يعني الأوزاعي قال وقلت أنا في نفسي لو خيرت لهذه الأمة من ينظر لها ويختار لها ما اخترت لها غيرك يعني أبا إسحاق الفزاري أنبأنا أبو علي الحداد أنا أبو نعيم الحافظ نا إبراهيم بن عبد الله نا محمد بن إسحاق نا أبو يحيى محمد بن عبد الرحيم قال سمعت عبيدا يعني ابن جناد قال سمعت محمد بن يوسف الاصبهاني يقول حدث الأوزاعي بحديث فقال رجل من حدثك يا أبا عمرو قال حدثني به الصادق المصدوق أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفزاري قرأنا على أبي عبد الله بن البنا عن أبي تمام علي بن محمد بن الحسن عن أبي عمر بن حيوية أنا أبو الطيب محمد بن القاسم الكوكبي نا أبو بكر بن أبي خيثمة حدثني بعض أصحابنا قال قال أبو صالح يعني محبوب بن موسى الفراء سألت ابن عيينة قلت حديثا سمعت أبا إسحاق رواه عنك أحببت أن اسمعه منك فغضب علي وانتهرني وقال لا يقنعك أن تسمعه من أبي إسحاق والله ما رأيت أحدا أقدمه على أبي إسحاق وقال أبو صالح وسمعت علي بن بكار يقول لقيت الرجال الذين لقيهم أبو إسحاق ابن عون وغيره والله ما رأيت فيهم أفقه منه (١) قال أبو صالح وسمعت الفزاري غير مرة يقول إن من الناس من يحسن الثناء عليه وما يساوي عند الله جناح بعوضة (٢) قال أبو صالح قال عطاء الخفاف كنت عند الأوزاعي فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق فقال للكاتب اكتب إليه وابدأ به فإنه والله خير مني (٣) قال وكنت عند الثوري فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق فقال للكاتب اكتب وابدأ به فإنه والله خير مني

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ٥٤٢ وتذكرة الحفاظ ١ / ٢٧٤

(٢) مختصر ابن منظور ٤ / ١١٤ وحلية الاولياء ٨ / ٢٥٥ وفيها " من يحب " بدل " من يحسن "

---

(١) التذكرة الحمدونية ابن حمدون ١٦٤/٣

(٣) سير أعلام النبلاء ٨ / ٥٤٢ تذكرة الحفاظ ١ / ٢٧٣ ومختصر ابن منظور ٤ / ١١٤ وتهذيب التهذيب ١ / ٩٩." (١)

"* فكم فتي قد بات في نعمة * فسل منها الليلة الثانية * أخبرنا أبو نصر أحمد بن عبد الله بن رضوان أنا أبو محمد الجوهري نا أبو عمر بن حيوية أنا محمد بن خلف بن المرزبان قال وقال صالح بن جناح أصل المروءة الحزم وثمرها الظفر إذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة أخبرنا أبو القاسم زاهر بن طاهر أنبأ أبو بكر البيهقي أنا أبو عبد الله الحافظ أنا أبو زكريا يحيى بن محمد بن عبد الله العنبري نا الحسين بن محمد بن زياد القباني (١) حدثني أبو بكر محمد بن الحسين أنه سمع صالح بن جناح يقول أعلم أن من الناس من يجهل إذا حكمت (٢) عنه ويحكم إذا جهلت عليه ويحسن إذا أسأت به وبسيء إذا أحسنت إليه وينصفك إذا ظلمته ويظلمك إذا أنصفته فمن كان هذا خلقه فلا بد من خلق ينصفك من خلقه ثم قحة تنصف من قحته (٣) وجهالة تقدع من جهالته وإلا أذلك لأن بعض الحلم إذعان وقد ذل من ليس له سيفه يعضده وضل من ليس له حكيم يرشده وفي الجهالة وبعضها للأخيار (٤) أقول (٥) * لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني * إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج ولي فرس للحلم بالحلم ملجم * ولي فرس للجهل بالجهل مسرج فمن شاء تقويمي فإني مقوم * ومن شاء تعويجي فإني معوج وما كنت أرضى الجهل خدنا (٦) ولا أخا * ولكنني أرضى به حين أحوج فإن قال بعض الناس فيه سماجة * فقد صدقوا والذل بالحر أسمج * أخبرنا أبو القاسم علي بن إبراهيم أنا رشأ بن نظيف أنا الحسن بن إسماعيل أنا أحمد بن مروان أنا أحمد بن علي المروزي أنشدني المازني لبعضهم * لئن كنت محتاجا إلى الحلم إنني * إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

---

(١) ترجمته في سير الأعلام ١٣ / ٤٩٩

(٢) في مختصر ابن منظور ١١ / ٢٨: إذا حلمت

ويحلم

(٣) في المختصر: جهته

(٤) عن المختصر وبالأصل: " الأحيان "

(٥) الأبيات في الوافي بالوفيات ١٦ / ٢٥٥

(٦) في الوافي: خلا." (٢)

"الواقدي (١) قال فحدثني سعيد بن عبد العزيز التنوخي عن يونس بن ميسرة بن حلبس (٢) قال لما قدم على اليمن خطب بها وبلغ كعب الأحبار قيامه بخطبته فأقبل على راحلته في حلة ومعه حبر من أحبار يهود حتى استمعا له فوافقاه (٣) وهو يقول إن من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فقال كعب صدق فقال علي ومنهم من لا يبصر

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٢٤/٧

(٢) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ٣٢٦/٢٣

بالليل ولا يبصر بالنهار فقال كعب صدق ومن يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة فقال كعب صدق فقال الحبر وكيف تصدقه قال أما قوله من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو المؤمن بالكتاب الأول ولا يؤمن بالكتاب الآخر وأما قوله منهم من لا يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو الذي لا يؤمن بالكتاب الأول ولا الآخر وأما قوله من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة فهو ما يقبل الله من الصدقات قال وهو مثل رأيته بين قالوا وجاء كعبا سائل فأعطاه حلته ومضى الحبر مغضبا ومثلت بين يدي كعب امرأة تقول من يبادل (٤) راحلة براحلة فقال كعب وزيادة حلة قالت نعم فأخذ كعب وأعطى وركب الراحلة ولبس الحلة وأسرع المسير حتى لحق الحبر وهو يقول من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة أخبرنا أبو الحسن علي بن المسلم الفرضي أنبأنا أبو القاسم بن أبي العلاء أنبأنا أبو محمد بن أبي نصر أنبأنا أبو القاسم بن أبي العقب أنبأنا أبو عبد الملك أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عائذ حدثنا الوليد قال فحدثنا سعيد بن عبد العزيز عن يونس بن ميسرة ابن حلبس (٥) أو غيره إن علي بن أبي طالب مضى حتى قام بذلك خطيبا بناحية اليمن وبلغ كعب الاحبار قيامه بخطبته فأقبل على راحلته في حلة ومعه حبر من أحبار يهود حتى استمعا له فوافياه وهو يقول إن من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فقال كعب صدق قال علي ومن الناس من يبصر بالليل والنهار فقال كعب صدق ومن (٦) الناس من لا يبصر بالليل ولا بالنهار فقال كعب صدق قال علي ومن يعط باليد القصيرة يعط (٧) بيد

---

(١) رواه الواقدي في مغازيه ٣ / ١٠٨٢

(٢) صحفت في مغازي الواقدي إلى: " حليس

" وفي م: " جليس "

(٣) في مغازي الواقدي: فوافقاه

(٤) الأصل: " بادل " والمثبت عن م و " ز " والمغازي

(٥) في " ز " وم: " جليس " تصحيف

(٦) كذا بالأصل و " ز " وهو من كلام علي Bه فثمة سقط أوله الخلل بالمعنى

(٧) بالأصل و " ز ": يعطى." [1]

"وقالت الزيدية: لا تثبت الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بشهادة أربعة رجال من أهل العدالة، قياسا على شهادة الزنا.

وقالت الخوارج كلها – إلا الفضيلة –: الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة عدلين، لقول الله عز وجل: (وأشهدوا ذوي عدل منك) .

وقال النظام: لا تعقل الحجة عند الاختلاف من بعد النبي صلى الله عليه وسلم وآله وسلم إلا من ثلاثة أوجه: أ – من

---

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر ابن عساكر، أبو القاسم ١٦٣/٥٠

نص من تنزيل لا يعارض بالتأويل.

ب – أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه.

ج – أو من جهة العقل وضرورته.

وبقوله: قال أكثر المعتزلة.

وقال أبو الهذيل: الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشهادة عشرين رجلا من أهل العدالة، لقوله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين) .

وقال واصل بن عطاء، وغيلان بن عمرو بن عبيد: لا تعقل الحجة إلا بالإجماع، إما في إجماع الأمة على الخطأ والكذب من بطلان الدين وعدم الإسلام.

وحكى الجاحظ في كتاب الأخبار: **إن من الناس من** يقول: إن الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شهادة سبعين رجلا لميقاتنا) .

وقالت الحشوية: كل ثقة من العلماء يأتي بخبر مسند عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فهو حجة.

وقالت الفضيلة من الخوارج: لا تعقل الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا بتقليد أهل الثقة من العلماء الصالحين.." (١)

"متقابلة، وهي طريقة أمير المؤمنين علي صلوات الله عليه، وطريقة ابن المقفع، وسهل بن هرون وغيره.

ولا يجعل كل الكلام فنا واحدا شريفا قبل أن يفصله فإن الكلام كالقعد إن كان كله ثمينا لم يكمل حسنه. أرصف كلامك لتكون كل كلمة مكانها وإلا كان كالجسد المنكوء من الأعضاء.

واعلم أن الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح، فإذا قويت الألفاظ، فلتقوا المعاني؛ ليحمل بعضها بعضا.

واقصد القوافي الحسنة، ولا تقصد المستهجنة، فإنها حوافر الشعر.

واقصد الأوزان الحلوة دون المهجورة؛ فإنها أحلى في القلوب، واجعل كلامك في التوقيعات وعليك بالمقطعات فإنها في القلوب أجود وفي المجالس أجول وبالأسماع أعلق وبالأفواه أعبق. وإذا نثرت منظوما فغير قوافي شعره عن قوافي سجعه؛ وإذا سرقت معنى فغير الوزن والقافية ليخفى ولا يظهر.

وإذا أخذت شعرا فزد على معناه، وانقص من لفظه، كما يطعن به عليه، فحينئذ تكون أحق به.

وإذا تقاربت الديار تقاربت الأفكار، ولهذا قالوا: الشعر محجة يقع فيها الحافر على الحافر.

واعلم **أن من الناس من** شعره في البديهة أحسن منه بالروية وبالعكس. وفي الناس من إذا خاطب أبدع، وإذا كاتب قصر، وبضد ذلك؛ ومن إذا قوي نظمه ضعف نثره وبالضد، وقلما يتساويان؛ وقد يبرز الشاعر في معنى دون غيره، وكما قالوا:

---

(١) الحور العين الحميري، نشوان ص/٢٧٣

أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب، وزهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا شرب.

وامدح بأخلاق النفس دون أخلاق الجسم؛ وامدح كل واحد بما يليق به.." (١)

"فمن ذلك/ أنه قال [فيه] [١] : يا طالب العلم والأدب اعرف الأصول والفصول، ٢٥/ **أفإن من الناس من** يطلب الفصول مع إضاعة الأصول، فلا تكون دركهم دركا، ومن أحرز الأصول اكتفى بها من الفصول، فإن أصاب الفصل بعد إحراز الأصل فهو أفضل، وأفضل الأمر أن تعقد على الإيمان، وتجتنب الكبائر، وتؤدي الفريضة، فإن قدرت أن تجاوز إلى الفقه والعبادة، فهو أفضل، وأصل الأمر في إصلاح البدن أن لا يحمل عليه من المآكل والمشارب والباءة إلا خفا، ثم إن قدرت أن تعلم عن جميع منافع الجسد ومضاره فهو أفضل. وأصل الأمر في المعيشة أن لا تني عن طلب الحلال، وتحسن التقدير لما تفيد وتنفق، ولا تغرنك سعة تكون فيها، فإن أعظم الناس خطرا أحوجهم إلى التقدير، والملوك أحوج الناس إليه من السوقة، فإن السوقة قد يعيشون بغير مال، والملوك لا قوام لهم إلا بالمال.

وإن ابتليت بالسلطان فتغوث بالعلماء، واعلم أن قائل المدح كمادح نفسه، والراد له ممدوح، والقائل له معيب، إنك إن تلتمس رضا الناس تلتمس ما لا يدرك، فعليك بالتماس رضا الأخيار ذوي العقول، احرص الحرص كله على أن تكون خابرا بأمور عمالك، فإن المسيء يفرق من خبرتك قبل أن يصيبه وقعك، وإن المحسن يستبشر بعلمك قبل أن يأتيه معروفك، تعرف الناس فيما يعرفون من أخلاقك، إنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب، فإن ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي.

واعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء، فدعه للمهم، فإن مالك لا يغني الناس كلهم، فاخصص به أهل الحق، وكرامتك لا تطيق العامة، فتوخ بها أهل الفضل.

واعلم [٢] إنما شغلت من رأيك في غير [٣] المهم أزرى بك في المهم، ليس للملك أن يغضب، لأن القدرة من وراء حاجته، ولا/ أن يكذب، لأنه لا يقدر أحد على استكراهه ٢٥/ ب على ما لا يريد، ولا أن يبخل، لأنه أول الناس عذرا في خوف الفقر، ولا أن يكون حقودا، لأن خطره قد جل عن المجازاة، وليتفقد الوالي حاجة الأحرار فيسد بها طغيان السفلة فيقمعه [٤] وليتق حرم الكريم الجائع، واللئيم الشبعان، فإنما يصول الكريم إذا

---

[١] ما بين المعقوفتين ساقط من الأصل وأثبتناه من ت.

[٢] في الأصل: «والعلم» وما أثبتناه من ت.

[٣] في الأصل: «في رأي المهم» وما أثبتناه من ت.

[٤] في الأصل: «فليقمعه» وما أثبتناه من ت.." (٢)

---

(١) البديع في نقد الشعر أسامة بن منقذ ص/٢٩٦

(٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ابن الجوزي ٥٣/٨

"المؤمنين فاستعظم ذلك ولم يمتثل المراسم النبوية فكان في جواب ذلك التقدم بالقبض على ابن العطار ونقله إلى التاج العتيق فعذب بأنواع العذاب ومات بعد أيام فحمل ليلا إلى دار أخته فجعلته في تابوت وأرادت إخراجه خفية لئلا يعلم به أحد فجعل أستاذ الدار على إخراجه عينا من حيث لا يعلم به ونبه الأعوام على إخراجه وأوقف جماعته على باب النوبي ينتظرون خروجه وكان الناس يبغضونه لما كان يبدو منه في سنى المحل من منع البيع العام على الناس والضمانات الجارية في أيامه وما كان يجري منه في حق الأجناد والمماليك فلما خرج تابوت ابن العطار وليس وراءه أحد يؤبه له ووصل خارج باب النوبى من دار الخليفة أشار بعض من كان العين على خروجه إلى العوام والمماليك هذا تابوت ابن العطار فتكاثرت العوام على أخذه وألقى من رءوس الحمالين وكسر وأخرج من التابوت ومزقت أكفانه وربطوا في إحدى رجليه حبلا من ليف وجعلوا يسحبونه في الأسواق والدروب بمدينة السلام وكانوا ينادون عليه وفعل به كما فعل بابن القرايا المشد حتى **إن من الناس من** قطع خنصره وأذنه وكان ذلك في الخامس عشر من ذي القعدة كما ذكرنا استدعاء فخر الدولة بن المطلب بين يدي الناصر لدين الله ليستوزر وذلك في الشهر المذكور من السنة

كان فخر الدولة بن المطلب رجلا عالما زاهدا ورعا كثير المعروف مشهورا بالصلاح والتقى فلما كانت الأيام المستنجدية سقى الله عهودها." (١)

"بقية يومهم، حتى أتاهم سواد الليل فيه يراوغونا يقول بصيرهم، لما أتاهم بأن القوم ولوا هاربينا: أألفا مؤمن فيما زعمتم، ويقتلهم بآسك أربعونا؟ كذبتم ليس ذلك كما زعمتم، ولكن الخوارج مؤمنونا هم الفئة القليلة، غير شك، على الفئة الكثيرة ينصرونا

آسيا:

بكسر السين المهملة وياء وألف مقصورة، كذا وجدته بخط أبي الريحان البيروني: كلمة يونانية.

قال أبو الريحان: كان اليونان يقسمون المعمور من الأرض بأقسام ثلاثة: لوبية، وأورفى، وقد ذكرا في موضعهما. ثم قال: وما استقبل هاتين القطعتين من المشرق يسمى آسيا، ووصف بالكبرى، لأن رقعتها أضعاف الأخريين في السعة، ويحدها من جانب الغرب، النهر والخليج المذكوران الفاصلان إياها عن أورفى، ومن جهة الجنوب بحر اليمن والهند، ومن المشرق أقصى أرض الصين، ومن الشمال أقصى أرض الترك وأجناسهم.

وأصل هذه القسمة، من أهل مصر، وعليه بقيت عادتهم إلى الآن، فإنهم يسمون ما عن أيمانهم إذا استقبلوا الجنوب مغربا، وما عن شمائلهم مشرقا، وهو كذلك بالإضافة إليهم، إلا أنهم رفعوا الإضافة وأطلقوا الاسمين، فصار المشرق لذلك أضعاف المغرب، ولما اخترق بحر الروم قسم المغرب بالطول، سموا جنوبي القسمين لوبية، وشماليهما أورفى، وأما المشرق فتركوه على حاله قسما واحدا من أجل أنه لم يقسمه شيء كما قسم البحر المغرب، وبعدت ممالكه أيضا عنهم، فلم يظهر لهم ظهور المغربية حتى كانوا يعلنون تحديدها. ونسب جالينوس في تفسيره لكتاب الأهوية والبلدان هذه

---

(١) مضمار الحقائق وسر الخلائق الملك المنصور ص/١٢

القسمة، إلى أسيوس.

هكذا حال القسمة الثلاثية أنها التي يظن بها أنها الأولى بعد الاجتماع، وذكر جالينوس في تربيعها **أن من الناس من** يقسم آسيا إلى قطعتين فتكون آسيا الصغرى، هي العراق وفارس والجبال وخراسان، وآسيا العظمى هي الهند والصين والترك. وحكي عن أروذطس أنه قسم المعمورة إلى: أورفى، ولوبية، وناحية مصر، وآسيا، وهو قريب مما تقدم. والأرض بالممالك، منقسمة بالأرباع، فقد كان يذكر كبارها فيما مضى، أعني: مملكة فارس، ومملكة الروم، ومملكة الهند، ومملكة الترك، وسائرها تابعة لها.

آشب:

بشين معجمة وباء موحدة: صقع من ناحية طالقان الري، كان الفضل بن يحيى نزله، وهو شديد البرد عظيم الثلوج عن نصر. وآشب، بكسر الشين، كانت من أجل قلاع الهكارية ببلاد الموصل، خربها زنكي بن آق سنقر، وبنى عوضها العمادية بالقرب منها، فنسبت إليه كما نذكره في العمادية.

آغزون:

الغين معجمة ساكنة يلتقي معها ساكنان والزاي معجمة مضمومة والواو ساكنة ونون: من قرى بخارى، ينسب إليها أبو عبد الله عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن أيمن بن عبد الله بن مرة بن الأحنف بن قيس التميمي الآغزوني.

هكذا ذكره أبو سعد، وقد خلط في هذه الترجمة في عدة مواضع، فذكرها تارة الأغزوني كما ههنا، وتارة الأغذوني بالذال المعجمة من غير مد، وتارة." (١)

"١٦٩١- رفاعة بن عبد المنذر

ع س: رفاعة بن عبد المنذر بن رفاعة بن دينار الأنصاري عقبي، بدري.

روى أبو نعيم، وأبو موسى، بإسنادهما، عن عروة فيمن شهد العقبة من الأنصار، ثم من بني ظفر، واسم ظفر كعب بن الخزرج: رفاعة بن عبد المنذر بن رفاعة بن دينار بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف، وقد شهد بدرا. وأخرج أبو نعيم، وأبو موسى أيضا، عن ابن شهاب في تسمية من شهد بدرا، من الأنصار، من الأوس، ثم من بني عمرو بن عوف، من بني أمية بن زيد: رفاعة بن المنذر.

أخرجه أبو نعيم، وأبو موسى، وقال أبو موسى: كذا أورده أبو نعيم في ترجمة مفردة، عن أبي لبابة، وتبعه أبو زكرياء بن منده، وإنما فرق بينهما، لأن أبا لبابة قيل: لم يشهد بدرا، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سار إلى بدر، وأمره على المدينة، وضرب له بسهمه، وهذا الرجل الذي في هذه الترجمة ذكر عروة بن الزبير وابن شهاب أنه شهد بدرا، وهذا يحتمل أن من قال: إنه شهد بدرا أنه أراد حيث ضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهدها، والله أعلم.

---

(١) معجم البلدان الحموي، ياقوت ١/٥٤

قلت: الحق مع أبي موسى، وهما واحد على قول من يجعل اسم أبي لبابة رفاعة، وسياق النسب يدل عليه، فإن أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس، وهو النسب الذي ذكراه في هذه الترجمة، إلا أنهما صحفا زنبر الذي في هذا النسب، وهو بالزاي والنون والباء الموحدة، بدينار، فإن من الناس من يكتب دينارا بغير ألف، وإذا جعلنا دينارا بغير ألف زنبرا صح النسب، وصار واحدا، فإنه ليس في الترجمتين اختلاف في النسب إلا هذه اللفظة الواحدة.

وقال أيضا أبو نعيم، عن عروة في تسمية من شهد بدرا من بني ظفر: رفاعة بن عبد المنذر، وساق النسب كما ذكرناه أولا، وليس فيه ظفر، وذكر ظفر وهم.

وقد جعل أبو موسى اسم أبي لبابة: رفاعة، وهو أحد الأقوال في اسمه، وأما ابن الكلبي فقد جعل رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر أخا أبي لبابة، وأخا مبشر بن عبد المنذر، وأن رفاعة ومبشرا شهدا بدرا، وقاتلا فيها، فسلم رفاعة، وقتل مبشر ببدر، وأما أبو لبابة، فقال: اسمه بشير، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رده من الطريق أميرا على المدينة، ويصح بهذا قول من جعلهما اثنين، وأن رفاعة شهد بدرا بنفسه، وأن أخاه أبا لبابة ضرب له رسول الله بسهمه وأجره، فهو كمن شهدها، وما أحسن قول الكلبي عندي، فإنه يجمع بين الأقوال.

ولا شك أن أبا نعيم إنما نقل قوله عن الطبراني، وهو إمام عالم متقن، ويكون قول عروة وابن شهاب إنه شهد بدرا حقيقة لا مجازا، بسبب أنه ضرب له بسهمه وأجره.

والظاهر من كلام ابن إسحاق موافقة ابن الكلبي، فإنه قال في تسمية من شهد بدرا من الأنصار، ومن بني أمية بن زيد بن مالك بن عوف: مبشر بن عبد المنذر، ورفاعة بن عبد المنذر، ولا عقب له، وعبيد بن أبي عبيد، ثم قال: وزعموا أن أبا لبابة بن عبد المنذر، والحارث بن حاطب ردهما رسول الله من الطريق، فقد جعل أبا لبابة غير رفاعة، مثل الكلبي.

هذه رواية يونس.

ورواه ابن هشام، عن ابن إسحاق، فذكر مبشرا، ورفاعة، وأبا لبابة، مثله.

وذكره غيرهم، وقال: وهم تسعة نفر فكانوا مع مبشر ورفاعة، وأبي لبابة تسعة.

وهذا مثل قول الكلبي صرح به، فظهر بهذا أن الحق مع أبي نعيم، إلا على قول من يجعل رفاعة اسم أبي لبابة، وهم قليل، وقد تقدم في بشير، ويرد في الكنى إن شاء الله تعالى، وبالجملة فذكر دينار في نسبه وهم.

والله أعلم.." (١)

"منا وأجابونا إليه. قال: فإن لم يجيبونا إليه؟ قال: ندعهم بعذرهم ونعطيهم الحق ونصبر. قال: فإن لم يرضوا؟ قال: ندعهم ما تركونا.

قال: فإن لم يتركونا؟ قال: امتنعنا منهم. قال: فنعم إذا. وقام الحجاج بن غزية الأنصاري فقال: لأرضينك بالفعل كما أرضيتني بالقول، وقال:

---

(١) أسد الغابة ط العلمية ابن الأثير، أبو الحسن ٢/٢٨٣

دراكها دراكها قبل الفوت ... فانفر بنا واسم بنا نحو الصوت

لا وألت نفسي إن كرهت الموت ... والله لننصرن الله كما سمانا أنصارا

! ثم أتاه جماعة من طيء وهو بالربذة، فقيل لعلي: هذه جماعة قد أتتك، منهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يريد التسليم عليك. قال: جزى الله كليهما خيرا، ﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما﴾ [النساء: ٩٥] . فلما دخلوا عليه قال لهم: ما شهدتمونا به؟ قالوا: شهدناك بكل ما تحب. فقال: جزاكم الله خيرا، فقد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين. فنهض سعيد بن عبيد الطائي فقال: يا أمير المؤمنين **إن من الناس من** يعبر لسانه عما في قلبه، وإني والله ما أجد لساني يعبر عما في قلبي، وسأجهد وبالله التوفيق، أما أنا فسأنصح لك في السر والعلانية، وأقاتل عدوك في كل موطن، وأرى من الحق لك ما لا أراه لأحد غيرك من أهل زمانك لفضلك وقرابتك. فقال: رحمك الله! قد أدى لسانك عما يجن ضميرك. فقتل معه بصفين.

وسار علي من الربذة وعلى مقدمته أبو ليلى بن عمر بن الجراح، والراية مع محمد بن الحنفية، وعلي على ناقة حمراء يقود فرسا كميتا.

فلما نزل بفيد أتته أسد وطيء، فعرضوا عليه أنفسهم، فقال: الزموا قراركم، في المهاجرين كفاية. وأتاه رجل بفيد من الكوفة، فقال له: من الرجل؟ قال: عامر بن مطر." (١)

"١٦٩١- رفاعة بن عبد المنذر

(ع س) رفاعة بن عبد المنذر بن رفاعة بن دينار الأنصاري، عقبي، بدري.

روى أبو نعيم وأبو موسى بإسنادهما، عن عروة فيمن شهد العقبة من الأنصار، ثم من بني ظفر، واسم ظفر كعب بن الخزرج: رفاعة بن عبد المنذر بن رفاعة بن دينار بن زيد بن أمية بن مالك بن عوف بن عمرو بن عوف، وقد شهد بدرا.

وأخرج أبو نعيم وأبو موسى أيضا، عن ابن شهاب في تسمية من شهد بدرا، من الأنصار، من الأوس، ثم من بني عمرو بن عوف، من بني أمية بن زيد: رفاعة بن عبد المنذر.

أخرجه أبو نعيم وأبو موسى، وقال أبو موسى: كذا أورده أبو نعيم في ترجمة مفردة، عن أبي لبابة وتبعه أبو زكريا بن منده، وإنما فرق بينهما لأن أبا لبابة قيل لم يشهد بدرا، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رده من الطريق، لما سار إلى بدر، وأمره على المدينة، وضرب له بسهمه، وهذا الرجل الذي في هذه الترجمة ذكر عروة بن الزبير وابن شهاب أنه شهد بدرا، وهذا يحتمل أن من قال إنه شهد بدرا أنه أراد حيث ضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهدها، والله أعلم.

قلت: الحق مع أبي موسى، وهما واحد على قول من يجعل اسم أبي لبابة رفاعة [١] ، وسياق النسب يدل عليه، فإن أبا لبابة رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر بن زيد بن أمية بن زيد بن مالك بن عوف بن عمرو ابن عوف بن مالك بن الأوس، وهو النسب الذي ذكراه في هذه الترجمة، إلا أنهما صحفا زنبر الذي في هذا النسب، وهو بالزاي والنون والباء الموحدة، بدينار، **فإن من الناس من** يكتب دينارا بغير ألف، وإذا جعلنا دينارا بغير ألف زنبرا صح النسب، وصار واحدا، فإنه ليس

---

(١) الكامل في التاريخ ابن الأثير، أبو الحسن ٢/٥٨٥

في الترجمتين اختلاف في النسب إلا هذه اللفظة الواحدة.
وقال أيضا أبو نعيم، عن عروة في تسمية من شهد بدرا من بني ظفر: رفاعة بن عبد المنذر، وساق النسب كما ذكرناه أولا، وليس فيه ظفر، وذكر ظفر وهم.
وقد جعل أبو موسى اسم أبي لبابة: رفاعة. وهو أحد الأقوال في اسمه، وأما ابن الكلبي فقد جعل رفاعة بن عبد المنذر بن زنبر أخا أبي لبابة، وأخا مبشر بن عبد المنذر، وأن رفاعة ومبشرا شهدا بدرا وقاتلا فيها، فسلم رفاعة وقتل مبشر ببدر، وأما أبو لبابة فقال: اسمه بشير، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم رده من الطريق أميرا على المدينة. ويصح بهذا قول من جعلهما اثنين، وأن رفاعة شهد بدرا بنفسه، وأن أخاه أبا لبابة ضرب له رسول الله بسهمه وأجره، فهو كمن شهدها، وما أحسن قول الكلى عندي، فإنه يجمع بين الأقوال.
ولا شك أن أبا نعيم إنما نقل قوله عن الطبراني، وهو إمام عالم متقن، ويكون قول عروة وابن شهاب إنه شهد بدرا حقيقة لا مجازا، بسبب أنه ضرب له بسهمه وأجره.

---

[١] في الأصل والمطبوعة: رافعا.." (١)

"بك إلا أن رأي ما يقارب فصل الحال وقرر مع الملك العادل أن رأى ما يمكن معه فصل الحال وإلا طاوله وماطله إلى أن تصل العساكر من الأطراف فالتمس الملك العادل تذكرة تتضمن إنهاء ما ينفصل الحال عليه فكتب تذكرة فيها المناصفات وذكر فيها من أمر بيروت أنه أصر على طلبها وأن نعطي صليب الصلبوت ويكون لهم في القمامة قس ويفتح لهم باب زيارتها بشرط أن لا يحملوا السلاح وكان الحامل على ذلك ما أخذ الناس من تعب مواظبة الغزاة وكثرة الديون والبعد عن الأوطان **فإن من الناس من** كان لا يفارق السلطان ولا يمكنه طلب دستور منه.

ذكر مسير الملك العادل
وكان مسيره من القدس الشريف عصر الجمعة رابع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ثم وصل كتابه من كيسان يخبر أنه لقيه الهنغري مع الحاجب أبي بكر رسولا من الأنكتار يقوا إنا قد وافقنا على قسمة البلاد وأن كل من في يده شيء فهو له، فإن كان ما في أيدينا زائدا أخذتم في مقابله ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك ويكون القدس لنا ولكم فيه الصخرة. هكذا كان مضمون الكتاب. فأوقف السلطان عليه الأمراء فاستصوب ذلك الأمير أبو الهيجاء ورأى من حال هذا المقال أن يوافق عليه الملك العادل وهو مصلحة. وسار الجواب إلى الملك العادل في ذلك.
ولما كان." (٢)

---

(١) أسد الغابة ط الفكر ابن الأثير، أبو الحسن ٧٧/٢
(٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية = سيرة صلاح الدين الأيوبي بهاء الدين بن شداد ٣٠٦/١

"قال: وحشرناهم قبل ذلك؛ لأن الحشر هو المهم؛ **لأن من الناس من** ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي.

ومما يجري هذا المجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي، وقد سبق الكلام عليه.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود﴾ ١.

فإنه إنما آثر اسم المفعول الذي هو: ﴿مجموع﴾ ، على الفعل المستقبل الذي هو "يجمع" لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه الموصوف بهذه الصفة، وإن شئت فوازن بين قوله تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع﴾ ٢، فإنك تعثر على صحة ما قلت.

---

١ سورة هود: الآية ١٠٣.

٢ سورة التغابن: الآية ٩.." (١)

"وعليه ورد قول الشاعر:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي١

وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد إثباته.

وعليه ورد الحديث النبوي، وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليا، فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن إلا أن يطلق علي ابنتي وينكح ابنتهم".

فقوله: "لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن" من التكرير الذي هو أشد موقعا من الإيجاز، لانصباب العناية إلى تأكيد القول في منع علي رضي الله عنه من التزويج بابنة أبي جهل بن هشام.

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى﴾ ٢.

ومن أجل ذلك نقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"؛ لأن قولنا: "لا إله إلا الله" مثل قولنا: " وحده لا شريك له" وهما في المعنى سواء، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته؛ وذاك **لأن من الناس من** يخالف فيه كالنصارى والثنوية.

---

١ صدر بيت وعجزه:

ثلاث تحيات وإن لم تكلمي

والبيت في ديوان الحماسة ٢/ ١٣٧.

والبيت ثالث ثلاثة أبيات رواها أبو تمام، ولم ينسبها لصاحبها، والأبيات هي:

ولا غرو إلا ما يخبر سالم ... بأن بني أشباهها نذروا دمي

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ابن الأثير، ضياء الدين ٢/١٥٠

وما لي من ذنب إليهم علمته ... سوى أنني قد قلت يا سرحة اسلمي

نعم فاسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي ... ثلاث تحيات وإن لم تكلمي

٢ سورة القيامة: الآيتان ٣٤ و٣٥.." (١)

"والفرق بينه وبين الإخبار بالفعل المستقبل عن الماضي أن الغرض بذاك تبيين هيئة الفعل واستحضار صورته، ليكون السامع كأنه يشاهدها، والغرض بهذا هو الدلالة على إيجاد الفعل الذي لم يوجد.

فمن أمثلة الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل قوله تعالى: ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض

فإنه إنما قال ففزع

بلفظ الماضي بعد قوله ينفخ

وهو مستقبل للإشعار بتحقيق الفزع، وأنه كائن لا محالة؛ لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعا به.

وكذلك جاء قوله تعالى: ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا

وإنما قيل وحشرناهم

ماضيا بعد نسير

وترى

وهما مستقبلان للدلالة على أن حشرهم قبل التسير والبروز ليشاهدوا تلك الأحوال، كأنه قال: وحشرناهم قبل ذلك؛ لأن الحشر هو المهم؛ **لأن من الناس من** ينكره كالفلاسفة وغيرهم، ومن أجل ذلك ذكر بلفظ الماضي.

ومما يجري هذا المجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي، وقد سبق الكلام عليه.

فمن ذلك قوله تعالى إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود

فإنه إنما آثر اسم المفعول الذي هو (مجموع) على الفعل المستقبل الذي هو يجمع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم، وأنه الموصوف بهذه الصفة، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى: يوم يجمعكم ليوم الجمع

فإنك تعثر على صحة ما قلت.." (٢)

"على وجه التوكيد والتخصيص المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه.

وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض، وبه تعريف موقع التكرير، والفرق بينه وبين غيره؛ فافهمه إن شاء الله تعالى.

الفرع الثاني من الضرب الأول:

إذا كان التكرير في اللفظ والمعنى يدل على معنى واحد، والمراد به غرض واحد؛ كقوله تعالى: فقتل كيف قدر ثم قتل

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت الحوفي ابن الأثير، ضياء الدين ١٠/٣

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد ابن الأثير، ضياء الدين ١٦/٢

كيف قدر

والتكرير دلالة [على] التعجب من تقديره وإصابته الغرض، وهذا كما يقال:

قتله الله ما أشجعه! أو ما أشعره! وعليه ورد قوله الشاعر:

ألا يا اسلمي ثم اسلمي ثمت اسلمي «١»

وهذا مبالغة في الدعاء لها بالسلامة، وكل هذا يجاء به لتقرير المعنى المراد وإثباته.

وعليه ورد الحديث النبوي؛ وذاك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليا فلا آذن ثم لا آذن إلا أن يطلق علي ابنتي وينكح ابنتهم» فقوله: «لا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن» من التكرير الذي هو أشد موقعا من الإيجاز؛ لانصباب العناية إلى تأكيد القول في منع علي رضي الله عنه من التزوج بابنة أبي جهل بن هشام.

وهذا مثل قوله تعالى: أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى

ومن أجل ذلك نقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ لأن قولنا: «لا إله إلا الله» مثل قولنا:

«وحده لا شريك له» وهما في المعنى سواء، وإنما كررنا القول فيه لتقرير المعنى وإثباته، وذاك لأن من الناس من يخالف فيه كالنصارى والثنوية، والتكرير في مثل هذا المقام أبلغ من الإيجاز، وأحسن، وأسد موقعا.

ومما جاء في مثل هذا قوله تعالى: الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا." (١)

"وصف نفسه بالعدل فعلق فن الفخر بفن الأدب، إذ ظاهر الآية التأدب والموعظة، ووصف نفسه تعالى بالعدل فخر متعلق بذلك، مع ما في لفظ هذا الكلام من الملاءمة التي حصل بها ائتلاف اللفظ بالمعنى، لأن الركون إلى الظالم دون فعل الظالم نفسه، ومس النار دون إحراقها والدخول فيها، والعدل يقتضي أن يكون العقاب على قدر الذنب، فكان ذلك المساس ملائما للركون دون غيره، فانظر ما انطوى عليه نظم هذه الألفاظ السبع من المعاني، وأنواع البديع، والائتلاف الذي دلت عليه الملاءمة، والإدماج، والتعليق والافتنان، والبسط، إذ عدل عن قوله " إلى الظالمين " إلى قوله " إلى الذين ظلموا " لما يحتمل الأول من الاستمرار في الظلم على سبيل الندور، ليلائم المعنى لفظ الركون ولفظ المساس، والمبالغة، لأنه إذ نهى عن الركون إلى من وقع منه الظلم في وقت دون وقت كان النهي عن الركون لمن استمر منه الظلم بطريق أولى، لترى ما تحت نظم هذا الكتاب العزيز من الخبايا التي هذا بعضها، وما خفي منها أكثر مما ظهر، والله أعلم.

وإذا تقاربت الديار، تقاربت الأفكار، ولهذا قيل: الشعر محجة يقع فيها الخاطر على الخاطر، كوقوع الحافر على الحافر.

واعلم أن من الناس من شعره في البديهة أبدع منه في الروية، ومن هو مجيد في رويته وليست له بديهة، وقلما يتساويان،

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ت محيي الدين عبد الحميد ابن الأثير، ضياء الدين ٢/١٥٠

ومنهم من إذا خاطب أبدع، وإذا كاتب قصر، ومنهم من بضد ذلك، ومن قوى نظمه ضعف نثره، ومن قوى نثره ضعف نظمه، وقلما يتساويان، وقد يبرز الشاعر في معنى." (١)

"صالح بن جناح اللخمي الشاعر

أحد الحكماء. أدرك الأتباع، وكلامه مستفاد في الحكمة.

قال صالح بن جناح الدمشقي لابنه:

يا بني، إذا مر بك يوم وليلة قد سلم فيهما دينك، وجسمك، ومالك، وعيالك فأكثر الشكر الله تعالى. فكم من مسلوب دينه، ومنزوع ملكه، ومهتوك ستره، ومقصوم ظهره في ذلك اليوم، وأنت في عافية. وفيه أقول: " السريع ".

لو أنني أعطيت سؤلي لما ... سالت إلا العفو والعافية

فكم فتى قد بات في نعمة ... فسل منها الليلة الثانية

قال صالح: أصل المروءة الحزم، وثمرها الظفر، وإذا طلب رجلان أمرا ظفر به أعظمهما مروءة.

قال صالح بن جناح: اعلم **أن من الناس من** يجهل إذا حلمت عنه، ويحلم إذا جعلت عليه، ويحسن إذا أسأت به، ويشيىء إذا أحسنت إليه، وينصفك إذا ظلمته، ويظلمك إذا انصفت. فمن كان هذا خلقه فلا بد من خلق ينصفك من خلقه، ثم قحة تنصف من جهته، وجهالة تقدع من جهالته. وإلا أذلك، لأن بعض الحلم إذعان، وقد ذل من ليس له سفيه يعضده، وضل من ليس له حليم يرشده. وفي الجهالة وبعضها للأخيار أقول: " الطويل "

لئن كنت محتاجا إلى العلم إنني ... إلى الجهل في بعض الأحايين أحوج

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم ... ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فمن شاء تقومي فإن مقوم ... ومن شاء تعويجي فإني معوج

وما كنت أرضى الجهل خدنا ولا أخا ... ولكنني أرضى به حين أحوج

فإن قال بعض الناس فيه سماجة ... فقد صدقوا والذل بالحر أسمج

وفي رواية أخرى زيادة على هذا الشعر، ولم يسم قائله:." (٢)

"عن يونس بن ميسرة بن حلبس قال: لما قدم علي اليمن خطب بها، وبلغ كعب الأخبار قيامه بخطبته فأقبل على راحلته في حلة ومعه حبر من أحبار يهود حتى استمعا له، فوافقاه وهو يقول:

أن من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار. فقال كعب: صدق، فقال علي: ومنهم من لا يبصر بالليل، ولا يبصر بالنهار، فقال كعب: صدق. ومن يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة. فقال كعب: صدق. فقال الحبر: وكيف تصدقه؟! قال: أما قوله: من الناس من يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار فهو المؤمن بالكتاب الأول، ولا يؤمن بالكتاب الآخر. وأما قوله: منهم من لا يبصر بالليل، ولا يبصر بالنهار، فهو الذي لا يؤمن بالكتاب الأول ولا الآخر. وأما قوله من يعط باليد

---

(١) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر ابن أبي الأصبع ص/٤١٨

(٢) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ٢٨/١١

القصيرة يعط باليد الطويلة فهو ما يقبل الله من الصدقات، قال: وهو مثل رأيته بين. قالوا: وجاء كعباص سائلا فأعطاه حلته – ومضى الحبر مغضبا.

ومثلت بين يدي كعب امرأة تقول: من يبادل راحلة براحلة؟ فقال كعب: وزيادة حلة؟ قالت: نعم. فأخذ كعب وأعطى، وركب الراحلة، ولبس الحلة، وأسرع المسير حتى لحق الحبر وهو يقول: من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة! قال كعب الأحبار: لما قدم علي اليمن لقيته، فقلت: أخبرني عن صفة محمد صلى الله عليه وسلم، فجعل يخبرني عنه، وجعلت أتبسم، فقال: مم تتبسم؟ فقال: مما يوافق ما عندنا في صفته، فقلت: ما يحل وما يحرم؟ فأخبرني، فقلت: هو عندنا كما وصفت. وصدقت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمنت به، ودعوت من قبلنا من أحبارنا، وأخرجت إليهم سفرا فقلت: هذا كان أبي يختمه علي ويقول: لا تفتحه حتى تسمع بنبي يخرج بيثرب. قال: فأقمت باليمن على إسلامي حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتوفي أبو بكر فقدمت في خلافة عمر بن الخطاب، ويا ليت أني كنت تقدمت في الهجرة!." (١)

"حدث عن أبي إسحاق سليمان الشيباني، بسنده عن البراء: أنهم كانوا يصلون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا ركع ركعوا، وإذا رفع رأسه من الركوع فقال: سمع الله لمن حمده، لم نزل قياما حتى نراه قد وضع وجهه بالأرض، ثم نتبعه.

وروى عن الأعمش، بسنده عن عبد الله بن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام ".

قال أبو مسهر: قدم علينا إبراهيم بن محمد الفزاري، قال: فاجتمع الناس يسمعون منه؛ قال: فقال لي: اخرج إلى الناس فقل لهم: من كان يرى رأي القدرية فلا يحضر مجلسنا، ومن كان يرى فلان فلا يحضر مجلسنا، ومن كان يأتي السلطان فلا يحضر مجلسنا؛ قال: فخرجت فأخبرت الناس.

قال ابن سعد: وكان ثقة فاضلا، صاحب سنة وغزو، كثير الخطأ في حديثه؛ مات بالمصيصة سنة ثمان وثمانين ومئة، في خلافة هارون.

وقال النسائي: ثقة مأمون، أحد أئمة الإسلام، كان يكون بالشام.

قال أبو صالح: سمعت الفزاري غير مرة يقول: **إن من الناس من** يحسن الثناء عليه وما يساوي عند الله جناح بعوضة.

وقال عطاء الخفاف: كنت عند الأوزاعي فأراد أن يكتب إلى أبي إسحاق، فقال للكاتب، اكتب إليه وابدأ به فإنه والله خير مني.

وقال أبو صالح: لقيت فضيل بن عياض فغزاني بأبي إسحاق، وقال لي: والله لربما اشتقت إلى المصيصة ما بي فضل الرباط، إلا لأرى أبا إسحاق.

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ١٨٣/٢١

وقال العجلي: إبراهيم بن محمد كوفي ثقة، وكان رجلا صالحا، قائما بالسنة؛ وقال في موضع آخر: نزل الثغر بالمصيصة، وكان ثقة رجلا صالحا، صاحب." (١)

"هذه الأمة ستفترق [١] على ثلاث وسبعين فرقة، شرها فرقة تنتحلنى [٢] ولا تعمل بعملى، وقد أدركتم ورأيتم [٣] ، فالزموا دينكم، واهدوا بهديي، فإنه هدى نبيكم، واتبعوا سنته، وأعرضوا عما أشكل عليكم حتى تعرضوه على القرآن، فما عرفه القرآن فالزموه، وما أنكره فردوه، وارضوا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد نبيا، وبالقرآن حكما وإماما. قال: ثم أتاه جماعة من طيىء، وهو بالربذة، فقيل له: هذه جماعة قد أتتك، منهم من يريد الخروج معك، ومنهم من يريد التسليم عليك. فقال: جزى الله كلا خيرا وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما

[٤] . فلما دخلوا عليه قال لهم: ما شهدتمونا قال به؟ قالوا: شهدناك بكل ما تحب. فقال: «جزاكم الله خيرا! قد أسلمتم طائعين، وقاتلتم المرتدين، ووافيتم بصدقاتكم المسلمين» . فنهض سعيد بن عبيد الطائى فقال: «يا أمير المؤمنين، **إن من الناس من** يعبر لسانه عن قلبه، وإني- والله- ما كل [٥] ما أجد فى قلبى يعبر عنه لسانى، وسأجهد وبالله التوفيق، أما أنا فسأنصح

---

[١] هذا مأخوذ من حديث النبى صلى الله عليه وسلم،

فقد روى أحمد بن حنبل وأبو داود عن معاوية بن أبى سفيان أنه قام فقال: ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال: «ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين، اثنتان وسبعون فى النار، وواحدة فى الجنة، وهى الجماعة»

. انظر معالم السنن ج ٤ ص ٢٩٥.

[٢] تنتحلنى: تنتسب إلى.

[٣] كذا جاء فى المخطوطة مثل الذى رواه ابن جرير. وجاء فى الكامل لابن الأثير:

«وقد أدركتهم ورأيتهم» .

[٤] من الآية ٩٥ من سورة النساء.

[٥] كذا جاء عند الطبرى. وفى المخطوطة هذه العبارة: «وإني والله ما أجد لسانى يعبر عما فى قلبى» .." (٢)

"عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مسروق يرسل رواية هذا الحديث عنها ويقول: سئلت أم رومان، فوهم حصين فيه إذ جعل السائل لها مسروقا، اللهم إلا أن يكون بعض النقلة كتب" سألت" بالألف، **فإن من الناس من** يجعل الهمزة في الخط ألفا وإن كانت مكسورة أو مرفوعة، فتبرأ حينئذ حصين من الوهم فيه. على أن بعض الرواة قد رواه عن حصين على الصواب. قال: وأخرج البخاري هذا الحديث في " صحيحه" لما رأى فيه عن مسروق قال: سألت أم

---

(١) مختصر تاريخ دمشق ابن منظور ١١٤/٤

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب النويري ٤٤/٢٠

روحان ولم يظهر له عليه وقد بينا ذلك في كتاب"المراسيل"، وأشبعنا القول بما لا حاجة لنا إلى إعادته (١) .

٧٩٧٧ - خ: أم زفر السوداء.

لها ذكر في "الصحيح" (٢) . في حديث عمران أبي بكر (خ م) ، عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أصرع وإني أتكشف، فذكر الحديث. قال: وقال (٣) ابن جريج (خ) : أخبرني عطاء أنه رأى أم زفر تلك المرأة طويلة سوداء على سلم الكعبة.

٧٩٧٨ - دس: أم زياد الأشجعية جدة حشرج بن زياد، لها صحبة.

---

(١) لكن انظر لزاما تعقيب الحافظ ابن حجر في التهذيب: ١٢ / ٤ ٦٨ - ٤٦٩ على الخطيب.

(٢) البخاري: ٦ / ١٥٠ - ١٥١.

(٣) الذي في "الصحيح": حدثنا محمد، قال: أخبرنا مخلد، عن ابن جريج.." [1]

"البحث الثالث فى مراعاة المحاسن المتعلقة بمفردات الألفاظ

اعلم أن هذا البحث متعلقه اللفظة الواحدة على انفرادها، وهو مخالف لما سبق مما أودعناه البحث الثانى، لأنه نظر يختص مفردات الحروف، وكيفية تأليفها فلا جرم كان مخالفا لما قبله، واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لا قبيح فى الألفاظ وأنها كلها حسنة لأن الواضع لا يضع إلا الحسن، وهذا فاسد لأمرين أما أولا فلأنه لو كان الأمر كما زعموه لكان لا تقع التفرقة بين الألفاظ فى الأبنية، والأوزان، والخفة، والثقل، ولما عرفنا تفاوتها فى ذلك تحققنا أن منها ما يكون فى غاية الرقة واللطافة، ومنها ما يكون فى نهاية الثقل والبشاعة، وأما ثانيا: فلأنه كان يلزم أن لا تقع التفرقة بين الشاذ، والمألوف، والنادر، والمستعمل، من جهة الوضع، فلما كان الأمر فى ذلك ظاهرا بطل ما توهموه. ولنضرب فى ذلك أمثلة ثلاثة توضح المقصود:

المثال الأول: أسماء الخمر كثيرة ترتقى إلى خمسين اسما كلها متفاوتة فلفظ الخمر أحسن من قولنا زرجون وإسفنط، ولفظ السلافة أعجب من قولنا قرقف وخندريس.

المثال الثانى: فى أسماء الأسد وهى كثيرة فقولنا: أسد أحسن من قولنا: فدوكس، وهرماس، وقولنا: ورد، وهزبر، أحسن من قولنا غضنفر وما ذاك إلا من أجل اختصاص بعض الألفاظ برقة ورشاقة تخالف اللفظ الآخر.

المثال الثالث: فى أسماء السيف فإن لفظ الصارم، والمهند، والسيف، أحسن من لفظ خنشليل فمثل هذا كيف يمكن دفعه، وأنت إذا تأملت جميع ما ورد من ألفاظ التنزيل والسنة الشريفة وجدتهما على نهاية الكمال فى مراعاة الألفاظ الرقيقة والخفيفة والمألوفة، فإذا تمهدت هذه القاعدة فاعلم أن الفصاحة فى الألفاظ المفردة يجب أن تكون مختصة بخصائص:

---

(١) تهذيب الكمال في أسماء الرجال المزي، جمال الدين ٣٦١/٣٥

الخاصة الأولى: أن تكون اللفظة عربية قد تواضع عليها أهل اللغة، لأن الفصاحة والبلاغة مخصوصان بهذا اللسان العربى دون سائر اللغات من الفارسية والرومية والتركية فلا مدخل لهذه الألسنة فى فصاحة وبلاغة، نعم ليس بمنكر استعمال شيء من هذه اللغات على جهة التعريب له، وقد ورد فى القرآن الكريم استعمالها، وحسن موقعها لما." (١)

"وخامسها «المستوى»

وهو الذى من أوله وآخره على جهة الاستواء، وهو قليل نادر صعب المسلك، وعر المرتقى لا يكاد يأتى به إلا من أفلق فى البلاغة، وتقدم فى الفصاحة، وقد يأتى فى النثر والنظم، فمما جاء فى كتاب الله تعالى قوله: كل في فلك يسبحون (٣٣)

[الأنبياء: ٣٣] وقوله تعالى: وربك فكبر (٣)

[المدثر: ٣] ومنه قول بعضهم مودتى لعلى تدوم، وقال آخر دام على العماد، وفى الحريريات قوله: من يرب إذا بر ينم، وقوله سكت كل من نم لك تكس، وقوله كبر رجاء أجر ربك، ومن الشعر قوله «١» :

أس أرملا إذا عرا ... وارع إذا المرء أسا

أسند أخا نباهة ... أبن إخاء دنسا

اسل جناب غاشم ... مشاغب إن جلسا

أسر إذا هب مرا ... وارم به إذا رسا

اسكن تقو فعسى ... يسعف وقت نكسا

وأعجب الحسن فى هذه الأمور أن تكون الألفاظ تابعة للمعانى، فعند هذا تروق وتحسن، فأما إذا جاءت على العكس من هذا نزل قدره ولم يكن معجبا كل الإعجاب

الصنف السابع: التسميط

اعلم **أن من الناس من** يعد هذا النوع من أنواع التسجيع، والحق ما قاله الخليل بن أحمد رحمه الله تعالى: إنه مخالف لأنواع السجع، وهو أن يؤتى بالبيت من الشعر على أربعة مقاطع، فثلاثة منها على سجع واحد مع مراعاة القافية فى الرابعة إلى أن تنقضى القصيدة على هذه الصفة، واشتقاقه من قولهم: عقد مسمط إذا روعى فيه هذه الحال، ومن أمثلته قول جنوب الهذلية:

وحرب وردت وثغر سددت ... وعلج شددت عليه الحبالا

ومال حويت وخيل حميت ... وضيف قريب يخاف الوكلا

وكقول امرىء القيس يصف رجلا قتله «٢» :

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤيد العلوي ٦١/١

ومستلئم كشفت بالرمح ذيله ... أقمت بعضب ذى سفاسق ميله

فجعتبه فى ملتقى الحى خيله ... تركت عتاق الطير تحجل حوله." (١)

"فقد فصل ابن عامر بين المصدر وفاعله المضاف إليه، وهو غير ما قرره النحاة. وأفرطوا في الشناع عليه، وهو جائز. وقد جاء عن العرب كثيرا في شعورهم، واستشهد له الشيخ جمال الدين بن مالك رحمه الله في شرح الكافية بشواهد عديدة ومنع الخصم بأن هذا الباب جائز في ضرورة الشعر، وليس في القرآن ضرورة. وانتصر الكواشي لابن عامر في تفسيره وأيد هذه القراءة.

وهذا شأن الفقهاء، أكثر تعليلاتهم لما ورد في أحكام الشرع الشريف في غاية الحسن والقوة، وفي بعض ذلك تسامح. كمن أراد تعليل بعض مناسك الحج فإنه ليس بقوي قوة غيره. والغزالي في الإحياء تكلم في هذا كلاما حسنا، وكذلك شأن المتكلمين، فإن بعض أدلتهم لا تبلغ القوة فيما أتوا به. من حدوث العالم والنفس وإثبات الوحدانية وعدم الجهة. فقد تجيء معهم مسائل قليلة أدلتها عليلة لا تبلغ في القطع والجزم وإلزام الخصم مبلغ تلك. ولولا ذلك لما وقع في النحو خلاف بين البصريين والكوفيين، ولا بين أصحاب المذاهب في الفروع، كالأئمة الأربعة ومن عداهم من الفقهاء التابعين وأصحاب الظاهر رضي الله عنهم أجمعين، ولا بين المتكلمين في أصول الدين من الأشاعرة والمعتزلة والإمامية والخوارج والحشوية. وكأنه نظر إلى قول ابن فارس صاحب المجمل:

مرت بنا هيفاء مجدولة ... تركية تعزى لتركي

ترنو بطرف فاتن فاتر ... أضعف من حجة نحوي

ألم يعلم أن الشعر والخطابة يروج فيهما أدنى شبهة، وتضيء فيهما أقل لمعة. وقول الشاعر هنا إنما هو بالنسبة إلى الأمور الضرورية، كتنافي الضدين، وأن الواحد نصف الاثنين، وأن الجسم الواحد لا يشغل الحيزين معا في وقت واحد وما أشبه ذلك، على **أن من الناس من** أنكر هذه البديهيات وطعن في صحتها واعترف بالحسيات. ومن الناس من أنكر الحسيات وطعن فيها وجزم بالبديهيات. ومن الناس من طعن فيهما وأنكر الحسيات والبديهيات وهم السوفسطائية.

حكي أن صالح بن عبد القدوس مات له ولد فمضى إليه أبو الهذيل ومعه النظام وهو غلام حدث، فرأى من جزعه فقال له: لا أعلم لجزعك وجها إذ كان الناس عندك كالزرع! فقال صالح: يا أبا الهذيل، إنما أجزع عليه لأنه لم يقرا كتاب الشكوك فقال وما هو؟ قال: كتاب وضعته، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان. فقال له النظام: فشك أنت في ابنك أنه لم يمت وإن كان مات واعمل على أنه عاش إلى أن قرا الكتاب وإن كان ما عاش إلى أن قرأه. فبهت صالح وحصر.

وإذا كان الأمر وصل في المكابرة إلى هذا الحد، فما ظنك بمن يعلل رفع الفاعل ونصب المفعول وعمل لم الجزم وإن جزم الشرط والجزاء وغير ذلك. وباب الجدل مفتوح لكل من أراد أن يمنع شيئا. ولهذا يقال: إذا ناظرت المعتزلي في مسألة الرؤية الزم جانب المنع، ومن أراد أن ينكر شيئا أنكره وأتعب خصمه، فلا يستطيع أن يقهره.

---

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز المؤيد العلوي ٥٤/٣

وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

نعم إذا لزم خصمك الحق وقصده ظفرت منه بالمراد، وجذبته بعد العناد إلى الصواب سلس القياد وإذا كان متعنتا أو جاهلا أو جاحدا، فإنما تضرب في حديد بارد وقد ضيعت نفخك في الرماد.

وما يقوم لأهل الحب بينة ... على بياض صباح أو سواد دجا

ويابن الأثير: إن كانت تعليلات النحاة واهية لم تثبت على محك النظر، فماذا الذي يثبت على محك النظر من تعليلات أصحاب المعاني وهي ما هي؟ أكثر ما يستندون إليه شبه خطابية لا يقطع بها. ولو عورضوا فيها وقفوا في الكثير منها. وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد رحمه الله تعالى يقول: علم المعاني والبيان إلى الآن بعد ما أنضجته الطبيعة. حكى لي ذلك عنه الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس بالديار المصرية في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، فإنه تلميذه الخاص به.

وما أشك أن الكثير من الحجج أقوى وأقطع وأقرب إلى الجزم من الكثير من حجج أرباب المعاني، بل ما بينهما صيغة أفعل. فأت في ذلك بحجة قاطعة:

أو فدع الأشياء مستورة ... وادخل بنا في النسب الواسع

ما يشترك فيه الكاتب والشاعر

قال في الفصل التاسع في أركان الكتابة: إن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، أو يكون مبنيا على مقصد الكتاب. ثم قال: وهذا يشترك فيه الكاتب والشاعر.." (١)

"ثم قال في التعزير بالحبس **إن من الناس من** يحبس يوما ومنهم من يحبس إلى غاية لا تقدر لكن بحسب تأدية الاجتهاد ويراد بها المصلحة

وقال الزبيري من أصحابنا تقدر غايته بشهور الاستبراء والكشف وبستة أشهر للتأديب والتقويم

والمرتبة الثالثة النفي اختلف في غايته ظاهر المذهب أن أكثره ما دون السنة انتهى

وهذا منه ومن الشاشي قبله تصريح بجواز التعزير بالنفي والإخراج عن البلد وقد صنعه عمر رضي الله عنه ولا شك في جوازه وأشار إلى جوازه أيضا القاضي الحسين غير أنه وقع في عبارة الرافعي أما جنسه يعني التعزير من الحبس أو الضرب جلدا أو صفعا فهو إلى رأي الإمام ولم يصرح بالنفي فصار كثير من الطلبة يستغرب مسألة النفي ولا غرابة فيها والحق أن ولي الأمر إذا رآه مصلحة جاز له التعزير به وقد صرح به الشاشي ومجلي وهو واضح ثم رأيته مصرحا به أيضا في الحاوي للماوردي والبحر للروياني وكلهم صرحوا بأن ظاهر المذهب أن النفي ينقص عن سنة قال الماوردي في الحاوي حتى لا يصير مساويا للتغريب في الزنا

قال في الذخائر بعد أن ذكر قبول رجل وامرأتين في المال في كتاب الشهادات ما نصه ويقبل الرجل والمرأتان مع وجود الرجلين ومع عدمهما وحكى في الحاوي أنه لا يقبل الرجل والمرأتان إلا مع عدم الرجلين والمذهب الأول انتهى

---

(١) نصرة الثائر على المثل السائر الصفدي ص/١٤

والواقف على هذا يتوهم أن صاحب الحاوي حكاه عن مذهبنا لقوله والمذهب الأول وذلك غير معروف في مذهبنا ولا حكاه الماوردي عنه إنما حكاه عن مالك." (١)

"رفع فارفعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون.

قالوا: ثم إنه عليه السلام أمهم قاعدا وهم قيام في مرض الموت فدل على نسخ ما تقدم.

والله أعلم.

وقد تنوعت مسالك الناس في الجواب عن هذا الاستدلال على وجوه كثيرة موضع ذكرها كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان.

وملخص ذلك **أن من الناس من** زعم أن الصحابة جلسوا لأمره المتقدم وإنما استمر أبو بكر قائما لأجل التبليغ عنه صلى الله عليه وسلم.

ومن الناس من قال: بل كان أبو بكر هو الإمام في نفس الأمر كما صرح به بعض الرواة كما تقدم.

وكان أبو بكر لشدة أدبه مع الرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يبادره بل يقتدي به فكأنه عليه السلام صار إمام الإمام فلهذا لم يجلسوا لاقتدائهم بأبي بكر وهو قائم، ولم يجلس الصديق لأجل أنه إمام ولأنه يبلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم الحركات والسكنات والانتقالات والله أعلم.

ومن الناس من قال: فرق بين أن يبتدئ الصلاة خلف الإمام في حال القيام فيستمر فيها قائما وإن طرأ جلوس الإمام في أثنائها كما في هذه الحال وبين أن يبتدي الصلاة خلف إمام جالس فيجب الجلوس للحديث المتقدم.

والله أعلم.

ومن الناس من قال: هذا الصنيع والحديث المتقدم دليل على جواز القيام والجلوس وإن كلا منهما سائغ جائز الجلوس لما تقدم والقيام للفعل المتأخر.

والله أعلم.

احتضاره ووفاته عليه السلام قال الإمام أحمد: ثنا أبو معاوية، ثنا الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن الحارث بن سويد، عن عبد الله هو ابن مسعود.

قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فمسسته.

فقلت: يا رسول الله إنك لتوعك وعكا شديدا.

قال: أجل! إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم قلت: إن لك أجرين.

قال: " نعم! والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه إلا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها ".

وقد أخرجه البخاري ومسلم من طرق متعددة عن سليمان بن مهران الأعمش به.

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي السبكي، تاج الدين ٧/٧٩

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، ثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن زيد بن أسلم، عن رجل، عن أبي سعيد الخدري.

قال: وضع يده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء كما يضاعف لنا الأجر، إن كان النبي من الأنبياء ليبتلى بالقمل حتى يقتله، وإن كان الرجل ليبتلى بالعري حتى يأخذ العباءة فيجوبها، وإن كانوا ليفرحون بالبلاء كما يفرحون بالرخاء " فيه رجل مبهم لا يعرف بالكلية.

فالله أعلم.

وقد روى البخاري ومسلم من

حديث سفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج زاد مسلم - وجرير - ثلاثتهم عن الأعمش، عن أبي وائل، شقيق بن سلمة عن مسروق، عن عائشة.

قالت: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي صحيح البخاري: من حديث يزيد بن الهاد، عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه، عن عائشة.

قالت: مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين حاقنتي وذاقنتي، فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث الآخر الذي رواه [البخاري]- في صحيحه - قال: قال رسول الله:." (١)

"خمس سنين إلا شهرين، قلت: وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحوا من ستة أشهر، حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة، كما سيأتي بيانه وتفصيله * وقال يعقوب بن سفيان: حدثني محمد بن فضيل، ثنا مؤمل، ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة (١) قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: خلافة نبوة ثلاثون عاما ثم يؤتي الله ملكه من يشاء، فقال معاوية: رضينا بالملك (٢) * وهذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة، وعلى النواصب من بني أمية ومن تبعهم من أهل الشام، في إنكار خلافة علي بن أبي طالب، فإن قيل: فما وجه الجمع بين حديث سفينة هذا وبين حديث جابر بن سمرة المتقدم في صحيح مسلم: لا يزال هذا الدين قائما ما كان في الناس اثنا عشر خليفة كلهم من قريش؟ فالجواب: **إن من الناس من** قال: إن الدين لم يزل قائما حتى ولي اثنا عشر خليفة، ثم وقع تخبيط بعدهم في زمان بني أمية، وقال آخرون: بل هذا الحديث فيه بشارة بوجود اثني عشر خليفة عادلا من قريش، وإن لم يوجدوا على الولاء، وإنما اتفق وقوع الخلافة المتتابعة بعد النبوة في ثلاثين سنة، ثم كانت بعد ذلك خلفاء راشدون، فيهم عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي رضي الله عنه، وقد نص على خلافته وعدله وكونه من الخلفاء الراشدين، غير واحد من الأئمة، حتى قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، ومنهم من ذكر من هؤلاء المهدي بأمر الله

---

(١) البداية والنهاية ط إحياء التراث ابن كثير ٥/٢٥٧

العباسي، والمهدي المبشر بوجوده في آخر الزمان منهم أيضا بالنص على كونه من أهل البيت، واسمه محمد بن عبد الله، وليس بالمنتظر في سرداب سامرا، فإن ذاك ليس بموجود بالكلية، وإنما ينتظره الجهلة من الروافض * وقد تقدم في الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد هممت أن أدعو أباك وأخاك وأكتب كتابا لئلا يقول قائل، أو يتمنى متمن، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر (٣) * وهكذا وقع، فإن الله ولاه وبايعه المؤمنون قاطبة كما تقدم * وفي صحيح البخاري: أن امرأة قالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ - كأنها تعرض بالموت -

فقال: إن لم تجديني فأت أبا بكر * وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر وأبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: بينا أنا نائم رأيتني على قليب، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوبا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف والله يغفر له، ثم أخذها ابن الخطاب فاستحالت غربا (٤) ، فلم أر عبقريا من الناس يفري فريه، حتى ضرب الناس بعطن (٥) ، قال الشافعي رحمه

---

(١) في دلائل البيهقي ٦ / ٣٤٢ زاد: عن أبيه.

(٢) رواه أبو داود في السنة ٤ / ٢١١ والترمذي في الفتن ٤ / ٥٠٣ والامام أحمد في المسند ٤ / ٢٧٣.

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١) باب ح (١١) ص (١٨٥٧) .

(٤) الذنوب: الدلو المملؤة.

والغرب: الدلو العظيمة.

(٥) ضرب الناس بعطن: أي أرووا إبلهم ثم أووها إلى عطنها وهو الموضع الذي تساق إليه بعد السقي لتستريح.

(*)."[١]

"وجاءه رجل من أهل أذربيجان فقام بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين اذكر بمقامي هذا بين يديك مقامك غدا بين يدي الله، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق، من يوم تلقاه بلائقة من العمل، ولا براءة من الذنب، قال: فبكى عمر بكاءا شديدا ثم قال له: ما حاجتك؟ فقال: إن عاملك بأذربيجان عدا علي فأخذ مني اثني عشر ألف درهم فجعلها في بيت المال.

فقال عمر: اكتبوا له الساعة إلى عاملها، فليرد عليه، ثم أرسله مع البريد.

وعن زياد مولى ابن عياش قال: دخلت على عمر بن عبد العزيز في ليلة باردة شاتية، فجعلت أصطلي على كانون هناك، فجاء عمرو هو أمير المؤمنين فجعل يصطلي معي على ذلك الكانون، فقال لي: يا زياد؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: قص علي، قلت ما أنا بقاص، فقال: تكلم، فقلت زياد، فقال: ما له؟ فقلت: لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار، ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة، فقال: صدقت، ثم بكى حتى أطفأ الجمر الذي في الكانون.

---

(١) البداية والنهاية ط إحياء التراث ابن كثير ٢٢١/٦

وقال له زياد العبدي: يا أمير المؤمنين لا تعمل نفسك في الوصف واعملها في المخرج مما وقعت فيه، فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه ما بلغت كنه ما أنت فيه، ثم قال له زياد: يا أمير المؤمنين أخبرني عن رجل له خصم ألد ما حاله؟ قال: سئ الحال، قال: فإن كانا خصمين ألدين؟ قال: فهو أسوأ حالا، قال: فإن كانوا ثلاثة؟ قال: ذاك حيث لا يهنئه عيش.

قال: فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا وهو خصمك، قال: فبكى عمر حتى تمنيت أني لم أكن حدثته ذلك.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة وأهل البصرة: أما بعد **فإن من الناس من** شاب في هذا الشراب، ويغشون عنده أمورا انتهكوها عند ذهاب عقولهم، وسفه أحلامهم، فسفكوا له الدم الحرام، وارتكبوا فيه الفروج الحرام، والمال الحرام، وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال، فمن انتبذ فلا ينتبذ إلا من أسقية الأدم، واستغنوا بما أحل الله عما حرم، فإنا من وجدناه شرب شيئا مما حرم الله بعد ما تقدمنا إليه، جعلنا له عقوبة شديدة، ومن استخف بما حرم الله عليه فالله أشد عقوبة له وأشد تنكيلا.

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويع له بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك أن يكون ولي الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز، فلما توفي عمر في رجب من هذه السنة - أعني سنة إحدى ومائة - بايعه الناس البيعة العامة، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة، فعزل في رمضان منها عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس، فجرت بينه وبين أبي بكر بن حزم منافسات وضغائن، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة فحده حدين فيها (١) .

---

(١) حده في خلاف سابق بينه وبين عثمان بن حيان دون أن يسأله عبد الرحمن شيئا.

(انظر الطبري ٨ / ١٤٢ وابن الاثير ٥ / ٦٧) .

(*)."[١]

"سرير بين يدي الخليفة، وجاء رجلان من الديلم فمدا أيديهم إلى الخليفة فأنزلاه عن كرسيه، وسحباه فتحربت عمامته في حلقه، ونهض معز الدولة واضطربت دار الخلافة حتى خلص إلى الحريم، وتفاقم الحال، وسيق الخليفة ماشيا إلى دار معز الدولة فاعتقل بها، وأحضر أبو القاسم الفضل بن المقتدر فبويع بالخلافة وسملت عينا المستكفي وأودع السجن فلم يزل به مسجونا حتى كانت وفاته في سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة كما يأتي ذكر ترجمته هناك.

خلافة المطيع لله

لما قدم معز الدولة بغداد وقبض على المستكفي وسمل عينيه.

استدعى بأبي القاسم الفضل بن المقتدر بالله، وقد كان مختفيا من المستكفي وهو يحث على طلبه ويجتهد، فلم يقدر

---

(١) البداية والنهاية ط إحياء التراث ابن كثير ٢٤٤/٩

عليه، ويقال إنه اجتمع بمعز الدولة سرا فحرضه على المستكفي حتى كان من أمره ما كان، ثم أحضره وبويع له بالخلافة ولقب بالمطيع لله، وبايعه الأمراء والأعيان والعامة، وضعف أمر الخلافة جدا حتى لم يبق للخليفة أمر ولا نهي ولا وزير أيضا، وإنما يكون له كاتب على أقطاعه، وإنما الدولة مورد المملكة

ومصدرها راجع إلى معز الدولة، وذلك لأن بني بويه ومن معهم من الديلم كان فيهم تعسف شديد، وكانوا يرون أن بني العباس قد غصبوا الأمر من العلويين، حتى عزم معز الدولة على تحويل الخلافة إلى العلويين واستشار أصحابه فكلهم أشار عليه بذلك، إلا رجلا واحدا من أصحابه، كان سديد الرأي فيهم، فقال لا أرى لك ذلك.

قال: ولم ذاك؟ قال: لأن هذا خليفة ترى أنت وأصحابك أنه غير صحيح الإمارة حتى لو أمرت بقتله قتله أصحابك، ولو وليت رجلا من العلويين اعتقدت أنت وأصحابك ولايته صحيحة فلو أمرت بقتله لم تطع بذلك، ولو أمر بقتلك لقتلك أصحابك.

فلما فهم ذلك صرفه عن رأيه الأول وترك ما كان عزم عليه للدنيا لا لله عز وجل.

ثم نشبت الحرب بين ناصر الدولة بن حمدان وبين معز الدولة بن بويه، فركب ناصر الدولة بعدما خرج معز الدولة والخليفة إلى عكبرا فدخل بغداد فأخذ الجانب الشرقي ثم الغربي، وضعف أمر معز الدولة والديلم الذين كانوا معه، ثم مكر به معز الدولة وخدعه حتى استظهر عليه وانتصر أصحابه فنهبوا بغداد وما قدروا عليه من أموال التجار وغيرهم، وكان قيمة ما أخذ أصحاب معز الدولة من الناس عشرة آلاف ألف دينار، ثم وقع الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة، ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقر أمر معز الدولة ببغداد، ثم شرع في استعمال السعاة ليبلغ أخاه ركن الدولة أخباره، فغوى الناس في ذلك وعلموا أبناءهم سعاة، حتى **أن من الناس من** كان يقطع نيفا وثلاثين فرسخا في يوم واحد.

وأعجبه المصارعون والملاكمون.

وغيرهم من أرباب هذه الصناعات التي لا ينتفع بها إلا كل قليل العقل فاسد المروءة، وتعلموا السباحة ونحوها، وكانت تضرب الطبول بين يديه ويتصارع الرجال والكوسات تدق حول سور المكان الذي هو فيه، وكل ذلك رعونة وقلة عقل وسخافة منه.

ثم احتاج إلى صرف أموال في أرزاق الجند فأقطعهم البلاد عوضا عن." (١)

"حتى لو أمرت بقتله قتله أصحابك، ولو وليت رجلا من العلويين اعتقدت أنت وأصحابك ولايته صحيحة فلو أمرت بقتله لم تطع بذلك، ولو أمر بقتلك لقتلك أصحابك. فلما فهم ذلك صرفه عن رأيه الأول وترك ما كان عزم عليه للدنيا لا لله عز وجل.

ثم نشبت الحرب بين ناصر الدولة بن حمدان وبين معز الدولة بن بويه، فركب ناصر الدولة بعد ما خرج معز الدولة والخليفة إلى عكبرا فدخل بغداد فأخذ الجانب الشرقي ثم الغربي، وضعف أمر معز الدولة والديلم الذين كانوا معه، ثم مكر به معز الدولة وخدعه حتى استظهر عليه وانتصر أصحابه فنهبوا بغداد وما قدروا عليه من أموال التجار وغيرهم. وكان

---

(١) البداية والنهاية ط إحياء التراث ابن كثير ١١/٢٤٠

قيمة ما أخذ أصحاب معز الدولة من الناس عشرة آلاف ألف دينار، ثم وقع الصلح بين ناصر الدولة ومعز الدولة، ورجع ابن حمدان إلى بلده الموصل، واستقر أمر معز الدولة ببغداد، ثم شرع في استعمال السعاة ليبلغ أخاه ركن الدولة أخباره، فغوى الناس في ذلك وعلموا أبناءهم سعاة، حتى **أن من الناس من** كان يقطع نيفا وثلاثين فرسخا في يوم واحد. وأعجبه المصارعون والملاكمون. وغيرهم من أرباب هذه الصناعات التي لا ينتفع بها إلا كل قليل العقل فاسد المروءة، وتعلموا السباحة ونحوها، وكانت تضرب الطبول بين يديه ويتصارع الرجال والكوسان تدق حول سور المكان الذي هو فيه، وكل ذلك رعونة وقلة عقل وسخافة منه.

ثم احتاج إلى صرف أموال في أرزاق الجند فأقطعهم البلاد عوضا عن أرزاقهم، فأدى ذلك إلى خراب البلاد وترك عمارتها إلا الأراضي التي بأيدي أصحاب الجاهات.

وفي هذه السنة وقع غلاء شديد ببغداد حتى أكلوا الميتة والسنانير والكلاب، **وكان من الناس من** يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم. وكثر الوباء في الناس حتى كان لا يدفن أحد أحدا، بل يتركون على الطرقات فيأكل كثيرا منهم الكلاب، وبيعت الدور والعقار بالخبز، وانتجع الناس إلى البصرة فكان منهم من مات في الطريق ومنهم من وصل إليها بعد مدة مديدة.

وفيها كانت وفاة القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن عبد الله المهدي، وولي الأمر من بعده ولده المنصور إسماعيل، وكان حازم الرأي شديدا شجاعا كما ذكرنا ذلك في السنة الماضية، وكانت وفاته في شوال من هذه السنة على الصحيح.

وفيها توفي الإخشيد محمد بن طغج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية، كانت وفاته بدمشق وله من العمر بضع وستون سنة، وأقيم ولده أبو القاسم أبو جور- وكان صغيرا- وأقيم كافور الإخشيد أتابكه، وكان يدبر الممالك بالبلاد كلها، واستحوذ على الأمور كلها وسار إلى مصر فقصد سيف الدولة بن حمدان دمشق فأخذها من أصحاب الإخشيد، ففرح بها فرحا شديدا، واجتمع بمحمد ابن محمد بن نصر الفارابي التركي الفيلسوف بها. وركب سيف الدولة يوما مع الشريف العقيلي في." (١)

"وموسى بن عقبة وخفي ذلك على أنس بن مالك أو أنه ذكر بعض الخبر وسكت عن آخره. وهذا الذي [ذكره] أيضا بعيد جدا لأن أنسا قال: فلم يقدر عليه حتى مات. وفي رواية قال: فكان ذلك آخر العهد به. وقول الصحابي مقدم على قول التابعي والله أعلم [[١]] . والمقصود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم أبا بكر الصديق إماما للصحابة كلهم في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام العملية.

قال الشيخ أبو الحسن الأشعري: وتقديمه له أمر معلوم بالضرورة من دين الإسلام. قال: وتقديمه له دليل على أنه أعلم الصحابة وأقرؤهم لما ثبت في الخبر المتفق على صحته بين العلماء. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأكبرهم سنا، فإن كانوا في السن سواء فأقدمهم مسلما [٢] قلت وهذا من كلام الأشعري رحمه الله مما ينبغي أن يكتب بماء الذهب ثم قد اجتمعت هذه الصفات كلها في الصديق رضي الله عنه وأرضاه وصلاة الرسول صلى الله عليه وسلم خلفه في بعض

---

(١) البداية والنهاية ط الفكر ابن كثير ٢١٣/١١

الصلوات كما قدمنا بذلك الروايات الصحيحة لا ينافي ما روي في الصحيح أن أبا بكر ائتم به عليه السلام لأن ذلك في صلاة أخرى كما نص على ذلك الشافعي وغيره من الأئمة رحمهم الله عز وجل.

فائدة: استدل مالك والشافعي وجماعة من العلماء ومنهم البخاري بصلاته عليه السلام قاعدا وأبو بكر مقتديا به قائما والناس بأبي بكر على نسخ قوله عليه السلام في الحديث المتفق عليه حين صلى ببعض أصحابه قاعدا. وقد وقع عن فرس فجحش شقه فصلوا وراءه قياما فأشار إليهم أن اجلسوا فلما انصرف. قال: كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم يقومون على عظمائهم وهم جلوس. وقال إنما جعل الإمام ليؤتم به فإذا كبر فكبروا وإذا ركع فاركعوا وإذا رفع فارفعوا وإذا سجد فاسجدوا وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون. قالوا ثم إنه عليه السلام أمهم قاعدا وهم قيام في مرض الموت فدل على نسخ ما تقدم والله أعلم. وقد تنوعت مسالك الناس في الجواب عن هذا الاستدلال على وجوه كثيرة موضع ذكرها كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله وبه الثقة وعليه التكلان. وملخص ذلك أن من الناس من زعم أن الصحابة جلسوا لأمره المتقدم وإنما استمر أبو بكر قائما لأجل التبليغ عنه صلى الله عليه وسلم. ومن الناس من قال: بل كان أبو بكر هو الإمام في نفس الأمر كما صرح به بعض الرواة كما تقدم. وكان أبو بكر لشدة أدبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبادره بل يقتدي به فكأنه عليه السلام صار إمام الإمام فلهذا لم يجلسوا لاقتدائهم بأبي بكر وهو قائم ولم يجلس الصديق لأجل أنه إمام ولأنه يبلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم الحركات والسكنات والانتقالات والله أعلم. ومن الناس من قال: فرق بين أن يبتدأ الصلاة خلف الإمام في حال القيام فيستمر فيها قائما

---

[١] ما بين المربعين سقط من التيمورية.

[٢] المحفوظ من كتب الفقه فأقدمهم إسلاما.." (١)

"ليث عن عبد الرحمن بن سابط عن أبي ثعلبة الخشني عن أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله بدأ هذا الأمر نبوة ورحمة، وكائنا خلافة ورحمة، وكائنا ملكا عضوضا، وكائنا عزة وجبرية وفسادا في الأمة، يستحلون الفروج والخمور والحرير، وينصرون على ذلك، ويرزقون أبدا حتى يلقوا الله عز وجل، وهذا كله واقع وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي- وحسنه- والنسائي من حديث سعيد بن جهمان عن سفينة مولى رسول الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الخلافة بعدي ثلاثون سنة، ثم تكون ملكا وفي رواية: ثم يؤتي الله ملكه من يشاء، وهكذا وقع سواء، فإن أبا بكر رضي الله عنه كانت خلافته سنتين وأربعة أشهر إلا عشر ليال، وكانت خلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان اثنتا عشرة سنة إلا اثنا عشر يوما، وكانت خلافة علي بن أبي طالب خمس سنين إلا شهرين، قلت: وتكميل الثلاثين بخلافة الحسن بن علي نحوا من ستة أشهر، حتى نزل عنها لمعاوية عام أربعين من الهجرة، كما سيأتي بيانه وتفصيله وقال يعقوب بن سفيان: حدثني محمد بن فضيل، ثنا مؤمل، ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال: سمعت رسول الله صلى الله

---

(١) البداية والنهاية ط الفكر ابن كثير ٥/٢٣٦

عليه وسلم يقول: خلافة نبوة ثلاثون عاما ثم يؤتى الله ملكه من يشاء، فقال معاوية: رضينا بالملك وهذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة، وعلى النواصب من بني أمية ومن تبعهم من أهل الشام، في إنكار خلافة علي بن أبي طالب، فإن قيل: فما وجه الجمع بين حديث سفينة هذا وبين حديث جابر بن سمرة المتقدم في صحيح مسلم: لا يزال هذا الدين قائما ما كان في الناس اثنا عشر خليفة كلهم من قريش؟ فالجواب: إن من الناس من قال: إن الدين لم يزل قائما حتى ولي اثنا عشر خليفة، ثم وقع تخبيط بعدهم في زمان بني أمية، وقال آخرون: بل هذا الحديث فيه بشارة بوجود اثني عشر خليفة عادلا من قريش، وإن لم يوجدوا على الولاء، وإنما اتفق وقوع الخلافة المتتابعة بعد النبوة في ثلاثين سنة، ثم كانت بعد ذلك خلفاء راشدون، فيهم عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي رضي الله عنه، وقد نص على خلافته وعدله وكونه من الخلفاء الراشدين، غير واحد من الأئمة، حتى قال أحمد بن حنبل رضي الله عنه: ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز، ومنهم من ذكر من هؤلاء المهدي بأمر الله العباسي، والمهدي المبشر بوجوده في آخر الزمان منهم أيضا بالنص على كونه من أهل البيت، واسمه محمد بن عبد الله، وليس بالمنتظر في سرداب سامرا، فإن ذاك ليس بموجود بالكلية، وإنما ينتظره الجهلة من الروافض وقد تقدم في الصحيحين من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لقد هممت أن أدعو أباك وأخاك وأكتب كتابا لئلا يقول قائل، أو يتمنى متمن، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يأبى الله والمؤمنون إلا." (١)

"المتفق عليه «حين صلى ببعض أصحابه قاعدا، وقد وقع عن فرس فجحش شقه فصلوا وراءه قياما فأشار إليهم أن اجلسوا، فلما انصرف قال: "كذلك والذي نفسي بيده تفعلون كفعل فارس والروم ؛ يقومون على عظمائهم وهم جلوس. وقال إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإذا صلى جالسا فصلوا جلوسا أجمعون» قالوا: ثم إنه، عليه الصلاة والسلام، أمهم قاعدا، وهم قيام في مرض الموت، فدل على نسخ ما تقدم. والله أعلم.

وقد تنوعت مسالك الناس في الجواب عن هذا الاستدلال على وجوه كثيرة، موضع ذكرها كتاب " الأحكام الكبير " إن شاء الله، وبه الثقة وعليه التكلان.

وملخص ذلك أن من الناس من زعم أن الصحابة جلسوا لأمره المتقدم، وإنما استمر أبو بكر قائما لأجل التبليغ عنه صلى الله عليه وسلم. ومن الناس من قال: بل كان أبو بكر هو الإمام في نفس الأمر كما صرح به بعض الرواة كما تقدم، وكان أبو بكر لشدة أدبه مع الرسول صلى الله عليه وسلم لا يبادره بل يقتدي به، فكأنه عليه الصلاة والسلام، صار إمام الإمام، فلهذا لم يجلسوا لاقتدائهم بأبي بكر، وهو قائم ولم يجلس الصديق لأجل أنه إمام، ولأنه يبلغهم عن النبي صلى الله عليه وسلم الحركات والسكنات والانتقالات. والله أعلم. ومن الناس من قال فرق بين أن يبتدئ." (٢)

---

(١) البداية والنهاية ط الفكر ابن كثير ١٩٨/٦

(٢) البداية والنهاية ط هجر ابن كثير ٥٩/٨

"بن سلمة، عن علي بن زيد، عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خلافة نبوة ثلاثون عاما ثم يؤتي الله الملك من يشاء» " فقال معاوية: رضينا بالملك. وهذا الحديث فيه رد صريح على الروافض المنكرين لخلافة الثلاثة، وعلى النواصب من بني أمية ومن تبعهم من أهل الشام في إنكار خلافة علي بن أبي طالب، فإن قيل: فما وجه الجمع بين حديث سفينة هذا وبين حديث جابر بن سمرة المتقدم في " صحيح مسلم ": «لا يزال هذا الدين قائما ما كان في الناس اثنا عشر خليفة كلهم من قريش؟» فالجواب: **إن من الناس من** قال: إن الدين لم يزل قائما حتى ولي اثنا عشر خليفة، ثم وقع تخبيط بعدهم في زمان بني أمية، وقال آخرون: بل هذا الحديث فيه بشارة بوجود اثني عشر خليفة عادلا من قريش، وإن لم يوجدوا على الولاء، وإنما اتفق وقوع الخلافة المتتابعة بعد النبوة في ثلاثين سنة، ثم كانت بعد ذلك خلفاء راشدون، فمنهم عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي، رضي الله عنه، وقد نص على خلافته وعدله وكونه من الخلفاء الراشدين غير واحد من الأئمة، حتى قال أحمد بن حنبل، رضي الله عنه: ليس قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز. ومنهم من ذكر من هؤلاء المهتدي بأمر الله العباسي، والمهدي المبشر بوجوده في آخر الزمان منهم أيضا، بالنص." (١)

"كم ذا رقصت على السماع بذكره والأذن قبل العين قالوا تعشق وحاصل القضية **أن من الناس من** يعشق على السماع ويفني في محبة من لا رآه لكن وصف له ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن تنعت المرأة لغير زوجها حتى كأنه ينظر إليها والحديث في الصحيح قال في الواضح المبين ومنهم من يعشق أثرا رآه يحكى أن رجلا عشق أثر كف امرأة رآه في حائط فلما آيس أهله من صلاحه تركوه حتى مات ومنهم من يحب في النوم شكلا لا يعرفه فيهم به كما قيل.

يا ليت شعري من ... كانت وكيف سرت

أطلعة الشمس ... كانت أم هي القمر

أظنها العقل ... أبداها تدبره

أو صورة الروح ... أبدتها الفكر

فقد تحير في ... إدراكها البصر

أولم يكن كل هذا فهي حادثة ... أتى بها سببا في حتفي القدر

ومنهم من يعشق باللمس قيل وهو رأس الشهوة ومنهم من يعشق بالشم كما قيل:

والعين تعشق ما تهوى وتبصره ... كذلك يعشق فيك الأنف والأذن

ومنهم من أخبرني أنه دخل إلى حمام فرأى فيه شعرة طويلة سوداء لبعض النساء ولم يعلم لمن هي فأخذها وأقامت عنده زمانا وأصابه من حب صاحبتها، ما أشرف به على التلف كما قيل:

تلفت بشعرة وسمعت غيري ... يقول سملت من تلفى بشعره

---

(١) البداية والنهاية ط هجر ابن كثير ٩/١٥٤

ومنهم من يعشق جنية رآها في نومه ووصفت نفسها له وجاءته غير مرة على زعمه كما حكى أبو الفرج الأموي أن جعفر المنصور كان يتعشق من الجن حتى كثر ولعه بذلك فصار يصرع في النوم مرات حتى مات من ذلك فحزن عليه أبو جعفر حزنا شديدا وكان جعفر خليعا ماجنا ولما نهى المنصور مطيع بن أياس عن صحبة ابنه جعفر قال وأي مستصلح فيه وأي غاية لم يبلغها في الفساد فقال ويلك وبأي شيء هذا قال يزعم أنه يعشق امرأة من الجن وهو مجتهد في خطبتها ودأبه جمع أصحاب العزائم عليها وهم يعدونه ويمنونه فوالله ما فيه فضل لغير ذلك جد ولا هزل ولا كفر ولا إيمان ومن شعره فيها:

لإبنة الجنى في الحي تطل ... دارس الآيات عاف كالخلل

قلت هذا الذي يقال في حقه الجنون فنون.

ومثل هذا ما أخبرني به صاحبنا جمال بن عبد الله قال: قال الثعالبي في فقه اللغة زعموا أن التناكح قد وقع بين الأنس والجن لقوله تعالى وشاركهم في الأموال والأولاد لأن الجنيات إنما تصرع الرجال من الأنس على العشق وطاب الفساد وكذلك رجال الجن لنساء بني آدم.

فصل

ذكر ما ينخرط في سلك العشق

على السماع والشهاه على الغائب

كقول ديك الجن وقيل عبد المحسن الصوري:

بأبي فم شهد الضمير له ... قبل المذاق بأنه عذب

كشهادتي لله خالصة ... قبل العيان بأنه رب

وما أحسن قول الآخر:

أهم إلى العذب من ريقه ... كما هيم العاشقين العذيب

شهدت عليه وما ذقته ... بقينا ولكن من الغيب غيب

وقال بشار بن برد:

يا أطيب الناس وقار غير مختبر ... إلا شهادة أطراف المساويك

وقال المتوكل الليثي:

كأن مدامة صهباء صرفا ... ترقرق بين رواق ودن

تعل به الثنايا من سليمى ... فراسة مقلتي وصحيح ظني

وقال امرؤ القيس:

وثغر لها طيب واضح ... لذيذ المقبل والمبتسم

وما ذقته غير ظني به ... وبالظن يقضي على ما أكتم

وقال ابن حمد الصقلي:

وما ذقت فاها ولكنني ... نقلت شهادة عود الإدراك

وقال البهاء زهير:

فتنت به حلوا مليحا فحدثوا ... بأعجب شئ كيف يحلو ويملح

وقد شهد المسواك عندي بطيبه ... ولم أرى عدلا وهو سكران يطفح

وقال ابن النقيب:

قالوا فلان يصوغ كذبا ... يكسوه من لفظه طلاوة

حلو حديث فقلت من لي ... لو أنه صادق الحلاوة." (١)

"وما زالت القبط على هذا إلى أن ملك مصر أغشطش بن بوحس، فأراد أن يحملهم على كبس السنين ليوافقوا الروم أبدا فيها، فوجدوا الباقي حينئذ إلى تمام السنة الكبيسة الكبرى خمس سنين، فانتظر حتى مضى من ملكه خمس سنين، ثم حملهم على كبس الشهور في كل أربع سنين بيوم، كما تفعل الروم، فترك القبط من حينئذ استعمال أسماء الأيام الثلاثين، لاحتياجهم في يوم الكبس إلى اسم يخصه، وانقرض بعد ذلك مستعملو أسماء الأيام الثلاثين من أهل مصر، والعارفون بها، ولم يبق لها ذكر يعرف في العالم بين الناس، بل دثرت كما دثر غيرها من أسماء الرسوم القديمة، والعادات الأول سنة الله في الذين خلوا من قبل، وكانت أسماء شهور القبط في الزمن القديم: توت، بؤوني، أتور، سواق، طوبى، ماكير، فامينوت، برموتي، باحون، باوني، افيعي، ابيقا؛ وكل شهر منها ثلاثون يوما، ولكل يوم اسم يخصه، ثم أحدث بعض رؤساء القبط بعد استعمالهم الكبس الأسماء التي هي اليوم متداولة بين الناس بمصر، إلا أن من الناس من يسمى كيهك كياك، ويقول في برمهات برمهوط، وفي بشنس بشانس، وفي مسري ماسوري، ومن الناس من يسمى الخمسة الأيام الزائدة أيام النسيء، ومنهم من يسميها أبو عمنا، ومعنى ذلك الشهر الصغير، وهي كما تقدم تلحق في آخر مسرى، وفيه يزاد اليوم الكبيس، فيكون أبو عمنا ستة أيام حينئذ، ويسمون السنة الكبيسة النقط، ومعناه العلامة، ومن خرافات القبط أن شهورهم هي شهور سني نوح وشيث وآدم منذ ابتداء العالم، وإنها لم تزل على ذلك إلى أن خرج موسى ببني إسرائيل من مصر، فعملوا أول سنتهم خامس عشر نيسان، كما أمروه به في التوراة إلى أن نقل الإسكندر رأس سنتهم إلى أول تشرين، وكذلك المصريون نقل بعض ملوكهم أول سنتهم إلى أول يوم من ملكه، فصار أول توت عندهم يتقدم أول يوم خلق فيه العالم بمائتين وثمانية أيام أولها يوم الثلاثاء، وآخرها يوم السبت، وكان توت أوله في ذلك الوقت يوم الأحد، وهو أول يوم خلق الله فيه العالم الذي يقال له الآن: تاسع عشري برمهات وذلك أن أول من ملك على الأرض بعد الطوفان نمرود بن كنعان بن حام بن نوح، فعمر بابل، وهو أبو الكلدانيين، وملك بنو مصرايم بن حام بن نوح عليه السلام: متش فبنى منف بمصر على النيل، وسماها باسم جده مصرايم، وهو ثاني ملك ملك على الأرض، وهذان الملكان استعملا تاريخ جدهما نوح عليه السلام، واستن بسنتهم من جاء بعدهم حتى تغيرت كما تقدم.

ذكر أعياد القبط من النصارى بديار مصر

---

(١) ديوان الصبابة ابن أبي حجلة ص/٢٤

روى يونس عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: اجتنبوا عيد اليهود والنصارى، فإن السخط ينزل عليهم في مجامعهم، ولا تتعلموا رطانتهم فتخلقوا ببعض خلقهم.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا." (١)

"يوضع في بين القصرين من هذا النوع وغيره، ولقد أدركنا في كل ليلة من بعد العصر يجلس الباعة بصنف لحمان الطيور التي تقلى صفا، من باب المدرسة الكاملية إلى باب المدرسة الناصرية، وذلك قبل بناء المدرسة الظاهرية المستجدة، فيباع لحم الدجاج المطجن، ولحم الأوز المطجن، كل رطل بدرهم، وتارة بدرهم وربع، وتباع العصافير المقوة كل عصفور بفلس، حسابا عن كل أربعة وعشرين بدرهم، والمشيخة تقول إنا حينئذ في غلاء، لكثرة ما تصف من سعة الأرزاق ورخاء الأسعار في الزمن الذي أدركوه قبل الفناء الكبير، ومع ذلك فلقد وقع في سنة ست وثمانين شيء لا يكاد يصدقه اليوم من لم يدرك ذلك الزمان، وهو أنه: كان لنا من جيراننا بحارة برجوان، شخص يعاني الجندية، ويركب الخيل، فبلغني عن غلامه أنه خرج في ليلة من ليالي رمضان، وكان رمضان إذ ذاك في فصل الصيف، ومعه رقيق له من غلمان الخيل، وأنهما سرقا من شارع بين القصرين، وما قرب منه، بضعا وعشرين بطيخة خضراء، وبضعا وثلاثين شقفة جبن، والشقفة أبدا من نصف رطل إلى رطل، فما منا إلا من تعجب من ذلك، وكيف تهيأ لاثنين فعل هذا، وحمل هذا القدر يحتاج إلى دابتين، إلى أن قدر الله تعالى لي بعد ذلك أن اجتمعت بأحد الغلامين المذكورين، وسألته عن ذلك فاعترف لي به، قلت: صف لي كيف عملتما، فذكر أنهما كانا يقفان على حانوت الجبان، أو مقعد البطيخي، وكان إذ ذاك يعمل من البطيخ في بين القصرين مرصات كثيرة جدا، في كل مرص ما شاء الله من البطيخ، قال: فإذا وقفنا قلب أحدنا بطيخة وقلب الآخر أخرى، فلشدة ازدحام الناس يتناول أحدنا بطيخته بخفة يد وصناعة ويقوم، فلا يفطن به. أو يقلب أحدنا ورفيقه قائم من ورائه، والبياع مشغول البال لكثرة ما عليه من المشترين، وما في ذلك الشارع من غزير الناس، فيحذفها من تحته وهو جالس القرفصا، فإذا أحس بها رفيقه تناولها ومر. وكذلك كان فعلهم مع الجبانين، وكانوا كثيرا، فانظر – أعزك الله– إلى بضاعة يسرق منها مثل هذا القدر ولا يفطن به من كثرة ما هنالك من البضائع ولعظم الخلق.

ولقد حدثني غير واحد ممن قدم مع قاضي القضاة عماد الدين أحمد الكركي، أنه لما قدموا من الكرك في سنة اثنين وتسعين وسبعمائة، كادوا يذهلون عند مشاهدة بين القصرين.

وقال لي ابنه محب الدين محمد: أول ما شاهدت بين القصرين، حسبت أن زفة أو جنازة كبيرة تمر من هنالك، فلما لم ينقطع المارة، سألت ما بال الناس مجتمعين للمرور من ههنا؟

فقيل لي: هذا دأب البلد دائما، ولقد كنا نسمع **أن من الناس من** يقوم خلف الشاب أو المرأة عند التمشي بعد العشاء بين القصرين ويجامع حتى يقضي وطره وهما ماشيان، من غير أن يدركهما أحد لشدة الزحام، واشتغال كل أحد بلهوه. وما برحت أجد من الازدحام مشقة، حتى أفادني بعض من أدركت أن من الرأي في المشي أن يأخذ الإنسان في مشيه

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المقريزي ٢/٢٦

نحو شماله، فإنه لا يجد من المشقة كما يجد غيره من الزحام، فاعتبرت ذلك آلاف مرات في عدة سنين، فما أخطأ معي، ولقد كنت أكثر من تأمل المارة بين القصرين، فإذا هم صفان." (١)

"أعمامه. وقوله: لما ضاع فيها)

من قروء نسائكا يعني الغزوة التي شغلته عن وطء نسائه في الطهر.

وهذه القصيدة تشبه أشعار المحدثين والمولدين في الرقة والانسجام ولهذا أوردنا أكثرها.

وترجمة الأعشى تقدمت في الشاهد الثالث والعشرين من أوائل الكتاب.

وأنشد بعده وهو خالط من سلمى خياشيم وفا على ان أصله وفاها فحذف المضاف إليه.

قال أبو علي في إيضاح الشعر: اعلم أن أبا الحسن الأخفش قال في قول الراجز: خالط من سلمى خياشيم وفا إن التقدير: وفاها فحذف المضاف إليه. وكذلك قال في قوله: ليس غير: إن التقدير ليس غيره. وحكى بعضهم أن من الناس من قد لحنه. والتلحين ليس بشيء لاحتماله ما قال أبو الحسن وفيه قول آخر: انه جاء على قول من لم يبدل من التنوين الألف في النصب ولكن جعل النصب في عدم إبدال التنوين ألفا كالجر والرفع كما جعلوا النصب في نحو:." (٢)

"والزباب بالزاي وباءين موجودتين والواحدة زبابة: فارة صماء عظيمة تسرق ويضرب بها المثل في السرقة وشبه بها الجاهل. قال الشاعر:

وقد رأيت معاشرا ... جمعوا لهم مالا وولدا

وهم زباب حائر ... لا تسمع الآذان رعدا

أي لا تسم آذانهم رعدا لصممهم. وحذف الضمير من اللفظ أو استغنى عنه بالألف واللام على ما عرف في المذهبين. ويعني أن من الناس من رزق أموالا وأولادا وهو ما هو في الجهل والحيرة والدناءة. وذلك من الدليل على أن الله تعالى هو مستند الأرزاق لا العقول والحيل وإنه تعالى لم يجعل الدنيا الدنية مقصورة على العقل الشريف ولا كفأا له.

أسرى من جندب.

السرى بوزن الهدى: سير الليل. يقال: سرى يسري سرى ومسرى وأسرى إذا مشى فيه؛ والجندب بضمتين ويجوز فتح الدال ضرب من الجراد الجمع جنادب. قال كعب رضي الله عنه:

وفال للقوم حاديهم وقد جعلت ... ورق الجنادب يركض الحصا قيلوا

أسرى من قنفذ

السرى تقدم؛ والقنفذ بالذال المعجمة بوزن جندب معروف والأنثى قنفذة ويقال له الأنقذ وتقدم في حرف الباء وأنه

---

(١) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المقريزي ٣/٥٥

(٢) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب للبغدادي عبد القادر البغدادي ٣/٤٤٢

يسري الليل ولا يكاد يظهر إلا فيه.

أسعد أم سعيد؟

هذا يقولنه مثلا في السؤال أي هذا الشيء مما يحب أم مما يكره؟ وأصل ذلك أن سعدا وسعيدا أبني ضبة بن أد خرجا في طلب إبل لهما. فرجع سعد وفقد سعيد وتقدمت الحكاية في هذا الباب فصار سعيد يتشاءم به.." (١)

") ومنها (ما جرى في قولهم) ما وراء محدد الجهات وهو الفلك الأطلس وفلك الأفلاك بلسان الفلسفة والعرش بلسان الشرع على ما يزعمه بعض الخلفيين لا خلاء ولا ملاء (وذلك أنه أورد عليه أن لو فرض ثاقب للمحدد فأما أن لا يصادف مانعا فيخرج. وأما أن يصادف ذلك فلا يخرج وعلى الأول يلزم الخلاء وعلى الثاني يلزم الملاء. فقال سلمه الله تعالى أنهم اختاروا في الجواب الشق الأول ومنعوا لزوم الملاء بجواز كون المانع في المحدب نفسه وهو السطح الأعلى المحدد. فقلت ونحو هذا ما قيل في الاعتراض أنه لو فرض شخص عند منتهى العالم فأراد أن يمد يده مثلا فيلزم الخلاء وأما أن لا تمتد لمانع يصادمها فيلزم الملاء. وما قيل في الجواب من اختيار عدم الامتداد والتزام أن النقد الشرط لا لوجود المانع الصادم. وأن من الناس من اعترض على قولهم ذلك بأنه يلزم عليه عجزه سبحانه وتعالى عن توسيع هذا العالم أو خلق عالم مثله مع بقائه وهو باطل. فلا بد من القول بأن وراء هذا العالم بعدا غير متناه يصلح لأن يوسع العالم فيه أو يخلق عز وجل فيه ما لا يتناهى من العوالم. لكن على نحو عدم تناهي مراتب الأعداد الذي لا يأباه برهان التطبيق وغيره من البراهين المقامة على امتناع وجود ما لا يتناهى بالفعل. وهذا الخلاء من حيث الصلاحية للخلق فيه نحو الخلاء والبعد الذي خلق فيه هذا العالم) وأجيب (بأنه قد قام الدليل على امتناع الخلاء وذلك على تقدير عدم الخلاء محال. وهو لا يصلح متعلقا للقدرة ليلزم العجز. ومثل ذلك خلق عالم فيما شغله هذا العالم بل خلق بعوضة في هذا العالم مع بقاء جميع أجزائه على حالها. فإنه أيضا محال للزوم تداخل الجواهر المبرهن على محاليته فلا تتعلق به قدرته عز وجل. ولا يلزم من ذلك عجزه تعالى عن ذلك علوا كبيرا) والحاصل (أن ما ذكره المعترض من لزوم عجزه تعالى ممنوع. ثم قلت يا مولاي أنا بعد هذا كله لا أرى محذورا في القول بأن وراء العالم مثل ما العالم فيه. إلا أنه خالفه في سعته وعدم تناهيه. وأدلة استحالة الخلاء. مدخولة عند محققي العلماء. بل لا يبدو وقوعه في هذا العالم إذا وضع جسم ذو سطح صقيل مستو استواء حقيقيا على آخر مثله بحيث لا يتخللهما هواء ثم رفع الفوقاني دفعة. فإن الوسط يبقى خاليا إلى أن يصل إليه الهواء من الجوانب تدريجيا حسب ما تقتضيه الحركة. وكلما كان الجسمان المذكوران متسعين كانت مدة بقاء الخلاء أطول لطول زمن الوصول إلى الوسط. وبلغني أن بعض الطبيعيين من الفلاسفة المحدثين يخرجون الهواء من بعض الظروف كقارورة كبيرة ببعض الآلات بحيث إذا ألقوا فيه رصاصة وريشة مثلا معا يصلان إلى المقر في آن واحد. وهو ظاهر في الخلاء دون بقاء هواء تلطف وانتشر حتى ملأ الظرف وإلا لعاق الريشة عوقا ما فلم يتحد آن الوصول. وإن لم يسلم شيء من ذلك كفانا إن أدلة استحالة الخلاء. أوهن من بيت عنكبوت في خلاء. ويفهم من كلام بعض

---

(١) زهر الأكم في الأمثال والحكم الحسن اليوسي ١٦٧/٣

الأجلة السلفيين إن الله تعالى شأنه لم يخلق العالم يوم خلقه في ذاته بأن جعل ذاته محلا له ولا أنه سبحانه كان فيه ككون الصورة في الهيولي ولا أنه خلقه عليه جل وعلا بأن جعل نسبته إليه نسبة خيمة الملك إلى الملك. وتعالى الله أن يكون كدودة القز تبني على نفسها ما يحيط بها من القز بل كأن عز شأنه لا في مكان وخلق العالم دونه وبقي هو على ما كان فما وراء العالم لا العالم) الرحمن على العرش استوى (.) أأمنتم من في السماء (.) إليه يصعد الكلم الطيب (.) ذو المعارج تعرج الملائكة والروح إليه (فهو جل شأنه. وعز سلطانه. في جهة العلو على الوجه اللائق به مع نفي اللوازم المستحيلة عليه سبحانه وتعالى. وأدلة كونه تعالى كذلك من الآيات والأحاديث والآثار أكثر من أن تحصى. وأوفر من أن تستقصى. وفيما يجده كل أحد في نفسه من الميل الطبيعي الضروري إلى جهة العلو في الاستمداد حالتي الرغبة والرهبة شاهد قوي لذلك. حتى قيل أن الفخر الرازي لما أورد عليه ذلك الهمداني بعد أن فرغ من تقرير الأدلة العقلية على نفي الجهة قام من مجلسه وهو يقول حيرني الهمداني حيرني الهمداني. ولم يزل يقولها حتى دخل بيته. فعلى هذا يصح أن يقال ما وراء العالم لا خلاء ولا ملاء. لكن بغير المعنى الذي أراده الحكماء. ويجامع ذلك القدرة على توسعة هذا العالم وعلى خلق عوالم مثله أما عظم منه." (١)

"قد ماتت فسكت ساعة ثم قال. قد حزنت عليها كما حزنت على موت أمي. الله يبعثها إلى الجنة هي وزوجها حالا. وقال يوما لوالده أن معلمنا اليوم قد أشترى قضيبا ليضرب به الأولاد ولكنهم يغضبونه عمدا حتى يضربهم به فينكسر فأستريح أنا أيضا. وقال لأمه وقد مرضت إذا جئناك بالطبيب ولم يشأ الله أن يشفيك فما الحاجة إلى دواء. لها مرة أخرى استعملي هذا الدواء فلعلك تمرضين. وأراد يوما أن يوقد النار فقال أردت أن أطفئها فما انطفأت. وقالت له أمه سر إلى فلانة وقل لها لأي شيء تخافين من أمي إنما هي بشر من بني آدم مثلك. فقال أقول لها تقول لك أمي لأي شيء تنفرين منها إنما هي من بني الحيوانات مثلك. وقال مرة في شيء أعجبه تبارك الله من كل عين. وقيل له يوما أن فلانا يريد أن يأخذك إلى مدرسته ليلمك. فقال بعثه الله إلى الجنة قال له أبوه أتريد أن تميته. قال فكيف أقول إذا. قال أطال الله عمره. قال طوله الله. وقال لأمه أتعطينني الليلة من تلك الحلواء. فقالله أن عشنا إلى الليلة. قال نحن نعيش إلى غد فكيف لا نعيش إلى الليل– انتهى.

فطالع بذلك أحد الألباء في بلاده وقال له قد ظهر لي أن هذا الكلام أبله مأموه. أو مدله توه. أو مسمه مسبوه. أو عمه مشدوه. أو نمه معتوه. فكيف صار بعد ذلك شاعرا. فقال له يحتمل أن كلامه هذا كان قد تعمده ليضحك به أبويه. أو أنه كان بليد البادرة ولكنه حديد الفاكرة. **فإن من الناس من** يدهش للسؤال فلا يكاد يجيب إلا خطأ. فإذا أعمل فكرة في خلوة أحسن كل الإحسان. أو أنه قصد بذلك أن يكون نبها مشهورا بين الناس ولو بحماقة ورقاعة. فإن أكثر الناس يحاول الشهرة بأي وجه كان. فمنهم من يتعاطى الترجمة للكتب والتعليم وهو لا يدري شيا. ولكنه يفرح بأن يضع اسمه في أول الكتاب وبأن يحشيه بعبارات ركيكة وأقوال سخيفة من عنده أو بأن يروي عنه فيقال فلان كذا وكذا ويكون قوله خطأ وهذرا. ومنهم من يتربع في صدر المجلس بين إخوانه وإقرانه ويطفق يحكي لهم حكايات عن بلاد بعيدة ويخلط

---

(١) غرائب الاغتراب الألوسي، شهاب الدين ص/١٨٥

كلامه ببعض ألفاظ تعلمها من لغة العجم. فيقول لهم مثلا صان فاصون. وباردون موسيو. ودنكوي. وفاري ول. إشارة إلى إنه أطال السياحة في بلاد فرنسا وإيطاليا وإنكلترا وتعلم لغاتهم وهو يجهل لغته التي نشأ عليها. ومنهم من يتخذ له عمامة كبيرة يضاهي بها بعض العلماء. فإن كبر العمامة يدل على كبر الرأس. وكبر الرأس يدل على جودة العقل وصواب الرأي. ومنهم من يتكلف محاكاة لهجة ما ممن عرفوا بالفصاحة فتراه يتشدف ويجعم ويستعمل ألفاظا في غير محلها. وبعد فلا ينبغي أن يكون الشاعر عاقلا أو فيلسوفا. فأن كثيرا من المجانين كانوا شعراء. أو كثيرا من الشعراء كانوا مجانين. وذلك كأبي العبر وبهلول وعليان وطويس ومزبد. وقد قالت الفلاسفة إن أول الهوس الشعر وأحسن الشعر ما كان عن هوس وغرام. فأن الشعر العلماء المتوقرين لا يكون إلا مكرزما.." (١)

"وأنه بعد جولان عدة قرى ليس فيها من مأوى ولا قرى. وبعد مجادلات مع الشارين طويلة. ومحاولات ومصولات وبيلة قنع الفارياق وشريكه من الغنيمة بالإياب. ورضيا باللقاء والعود إلى المآب. وعلما إن البئر الفارغة لا تمتلئ من الندى. وإن التعب في تجارتهما يذهب سدى. فتسببا في بيع البضاعة بقيمتها كيلا يشمت بهما من ينظرهما راجعين بماهيتها. وباتا تلك الليلة خالي البال من القليل والقال. **فإن من الناس من** لا يعجبه شراء شيء إلا بعد تقليبه. وبعد تحميق بائعة وتكذيبه. فلا بد للبائع من أن يكون عن مثل هؤلاء متصاما متغافلا متعاميا متساهلا. وتلك خلة لم تكن في الفارياق ولا في صاحبه. فإن كلا منهما كان يحاول استمالة الكون إلى جانبه. ثم إنهما رجعا بثمن البضاعة وبالحمار وسلما المال لصاحبه. فعرض عليهما سلعة أخرى فأبيا. وتواعدا أن يجتمعا مرة أخرى للشركة في مصلحة أهم. وآثرا أن تكون في البيع والشراء. وقد جرت العادة بين الناس بأنه إذا تعاطى أحد عملا ولم ينجح به أول مرة لج به الشره إلى معاطاته مرة أخرى. إذ ليس أحد يرضى لنفسه نحس الطالع وشؤم الجد. وإنما ينسب حرفه فيما احترف به إلى بعض عوارض وطوارئ حدثت له. فيقول في نفسه لعل هذه العوارض لا تقع هذه المرة. وعلة ذلك كله اعتماد الإنسان على رشد نفسه وثقته بسعيه والركون إلى حدسه. وقد تهور في ذلك كثير من الخلق. وأكثرهم جنى على نفسه في التهافت على الرزق.

خان وإخوان وخوان

ثم إنه بعد مذاكرة طويلة بين الفارياق وصاحبه قرر رأيهما على أن يستأجرا خانا مدينة الكعيكات. حيث ترد القافلة منها إلى مدينة الركاكات فاستبضعا ما يلزم لهما من الميرة والأدوات ولبثا قسه يبيعان ويشتريان بما تيسر لهما من رأس المال وذنبه. فلم تمض عليهما وجيزة حتى انتشر صيتهما عند الواردين والصادرين. وعرف رشدها جميع المسافرين. فكان الناس يقصدونهما لاقتصادهما. وكثيرا ما أنتاب خانهما أهل الفضل والبراعة، والوجاهة والاستطالة. حتى كأنه كان حديقة يتفرج فيها الميكروب.." (٢)

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/١٢

(٢) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٢٣

"الرهبانية فذهبت إلى دير ما وقلت للرئيس. وقد أقدمني الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. فإن الدنيا لا تغني عن الآخرة شيئا. وأن اللبيب من اتخذ دنياه هذه مجازا إلى تلك. إذ لو كانت هذه وطننا الذي شاءه لنا خالقنا لكنا نعمر فيها طويلا. على أنا نرى **أن من الناس من** يولد فيها ويعيش يوما واحدا فهذا دليل على أنا لم نخلق لها. وأشباه ذلك من الكلام الذي جرى على ألسنة العباد. فقبلني الرئيس وأعتقد في الفضل. واتفق في اليوم القابل أنه حاول التسور على حائط لينفذ منه إلى بعض بيوت الشركاء فدخلت في إحدى عينيه قاصدة من غصن شجرة فذهبت بها. فرجع غضبان وقد تشاءم بقدومي إلى الدير. إذ كان قد ألف التسور قبل مجيئي بمدة طويلة ولم يعرض له شيء قط فمن ثم طردني من الدير فدخلت ديرا آخر واعدت الكلام الأول. فقبلني رئيسه فأقمت ثم أياما أقاسي فيها من قشف المعيشة والوسخ ما لا يرضي الله ولا أحدا من العالمين. هذا ما عدا ما كنت أرى من عناد الرهبان وتفرق آرائهم. وطعن بعضهم في بعض وشكواهم الدائمة للرئيس من أمور باطلة. وتكبر هذا عليهم وأثرته بأشياء استخصها لنفسه من دونهم. وتنافسهم فيما يهدي إليهم النساء من نحو منديل وكيس وتكة. وزد على ذلك كله جهل الجميع إذ لم يكن في الدير كله من يحسن كتب رسالة في معنى من المعاني. حتى أن الرئيس نفسه أدام الله عزه لم يكن يعرف أن يكتب سطرا واحدا بالعربية وإنما كان يخط هذه الحروف السريانية المعروفة عندهم باسم كرشوني. وكان هذا الجاهل يتبجح بمعرفته لها ويحمل كل من دخل صومعته على إعظامها. حتى أنه كان يدعو أيا ما كان لزيارته. فكانت الأغرار من الرهبان تعتقد أن ذلك من حسن أخلاقه وكرم طباعه. وكان قد كتب بها على بابه سطرا وعلى الحائط سطرا آخر. فكنت حين انظر ذلك اضحك. وهو من غفلته يظن أني أضحك إعجابا بها. ومن كان خبا مخاتلا من الرهبان على جهله فإن كثيرا من الناس قد جمعوا بين الختل والجهل كان يقترب غليه استجلابا لرضاه بان يقول له وهو حاسر الرأس تواضعا وخشوعا أكرم علي يا سيدي بنسخة من خطك اصلح عليها خطي. فكان ذلك من أحسن ما يدل به عليه. فلما اشتد علي الخطب من عشرتهم وخصوصا من رداءة الطعام أدمدم وأتضجر. فسمعني يوما طباخ الدير أشكو من قلة السمن في الأرز الذي كان يطبخه في بعض الأعياد العظيمة. وكان عتلا زنيما. فاستشاط مني غيظا وحملني على كتفه كما يحمل الرجل ولده ولكن بلا شفقة. ثم ذهب بي إلى ممار الدير وغطسني في خابية السمن وهو يقول. هذا السمن الذي أطبخ به الأرز الذي لم يعجبك يا صاحب الخرطوم. يا سليل البوم. يا نصيب المحروم. يا ابن اللوم. يا أبا الكبائر والجروم. يا رائحة الثوم. يا ربح السموم. يا علجوم. يا منهوم. يا لهوم. يا وخوم. وصب علي قوافي كثيرة غير هذه. فبلغ مني تغطيسه عرضي في السب أكثر من تغطيسة رأسي في السمن. فتملصت منه بعد جهد ودخلت صومعتي حتى أغسل وإذا به يطرق الباب ويعج ويقول. لابد من أن أعصر أنفك فقد دخل فيه من السمن ما يكفي الرهبان أياما. ثم أهوى بيديه على منخري كأنهما كلبتا حداد وجعل يعصرهما أشد العصر. حتى ظننت أن قد زهقت نفسي منهما. فإن الأنف وحده دون سائر ثقوب الجسد محل دخول النفس وخروجها خلافا لقوم. ولذلك يقال تنفس الإنسان. فلما شق علي ما قاسيته ولم أجد في الدير من أشكو إليه. إذ الرهبان كلهم يتملقون ويتوددون إليه حتى يشبعهم ولو من الثرتم.." (١)

---

(١) الساق على الساق في ما هو الفارياق الشدياق ص/٤٦

"إن الناس من تكون عنده المعونة الصالحة للبر والإحسان فلا يفعل، فإذا مشى مشى متدفعا مندلثا١ لا يلوي على شيء مما حوله من المناظر المؤثرة المحزنة، وإذا وقع نظره على بائس لا يكون نصيبه منه إلا الإغراب في الضحك سخرية به، وببذاذة ثوبه ودمامة خلقه، **وإن من الناس من** إذا عاشر الناس عاشرهم ليعرف كيف يحتلب درتهم٢ ويمتص دماءهم، ولا يعاملهم إلا كما يعامل شويهاته وبقراته، لا يقربها ولا يطعمها ولا يسقيها إلا لما يترقب من الربح في الإتجار بألبانها وأصوافها، ولو استطاع أن يهدم بيتا؛ ليربح حجر لفعل، **وإن من الناس من** لا حديث له إلا الدينار، وأين مستقره وكيف الطريق إليه، وما السبيل إلى حبسه والوقوف في وجهه والحيطة لفراره، يبيت ليله حزينا كئيبا لأن خزانته ينقصها درهم كان يتخيل في يقظته أو يرى في منامه أنه سيأتيه فلم يقيض له، **وإن من الناس من** يؤذي الناس لا يجلب بذلك لنفسه منفعة أو يدفع عنها مضرة بل لأنه شرير يدفعه طبعه إلى ما لا يعرف وجهه أو ليضري٣

---

١ اندلث في الأمر: اندفع فيه.

٢ الدرة اللبن إذا كثر وسال.

٣ يقال أضرى فلان كلبه بالصيد وضراه إذا أغراه به وعوده متابعته.." (١)

"نفسه بالأذى مخافة أن ينساه عند الحاجة إليه، حتى لو لم يبق في العالم شخص غيره لكانت نفسه مدب عقاربه وغرض سهامه، **وإن من الناس من** إذا كشف لك عن أنيابه رأيت الدم الأحمر يترقرق فيها أو عن أظافره رأيت تحتها مخالب حادة لا تسترها إلا الصورة البشرية أو عن قلبه رأيت حجرا صلدا من أحجار الغرانيت لا يبض١ بقطرة من الرحمة، ولا تخلص إليه نسمة من العظة.

فيا أيها الإنسان احذر الحذر كله من أن تكون واحدا من هؤلاء، فإنهم سباع مفترسة وذئاب ضارية، بل أعظك ألا تدنو من أحدهم أو تعترض طريقه، فربما بدا له أن يأكلك فأكلك غير حافل بك ولا آسف عليك.

أيها الإنسان: ارحم الأرملة التي مات عنها زوجها، ولم يترك لها غير صبية صغار، ودموع غزار، إرحمها قبل أن ينال اليأس منها ويعبث الهم بقلبها فتفضل الموت على الحياة.

إرحم المرأة الساقطة لا تزين لها خلالها، ولا تشتر منها عرضها علها تعجز عن أن تجد مساوما يساومها فيه، فتعود به إلى كسر بيتها.

---

١ بض الدم سال.." (٢)

"جديدة محدثة، وإنما هي من تتمة حرب السبعين. ولذا كنت ترى حينا بعد حين في الصحف الإخبارية والمجلات العلمية أقوال المنجمين والمتكهنين المنذرة بهذه الحرب قبل ظهورها بعدة أعوام.

---

(١) النظرات المنفلوطي ١٠٢/١

(٢) النظرات المنفلوطي ١٠٣/١

هذا، وفي أوائل هذه السنة وهي سنة ١٣٣٢ بدأ بعض الناس في حلب يتحدثون سرا بأنه عما قريب تشتعل نار حرب حامية بين عامة الدول، مع أنه كان لا يوجد في صحف الأخبار ما يدل على ذلك. وكان هذا التحدث السري يتفشى بين الناس يوما فيوما حتى شاع بين جميع الطبقات غير **أن من الناس من** كان يستبعد الحرب، ومنهم من يرى أنها قريبة الوقوع. وكان أمراء العسكرية وضباطها يحضرون في بعض الأيام إلى خانات الغلات، ويسجلون مقادير ما يجدونه فيها من الحبوب والذخائر، ويأمرون الخاني «١» بعدم بيعها أحيانا، ويرخصون له به أخرى. وربما طافوا في خانات التجار وأحصوا ما عند كل واحد منهم من الأقمشة والبضائع المأكولة وغيرها. فكان الناس يرتابون من هذه الأعمال لأنها مما لم يسبق لها نظير، وبسببها كانت تقوى عندهم صحة الشائعات المنتشرة فيما بينهم بخصوص الحرب العالمية.

تتمة حوادث سنة ١٣٣٢ هـ

سباق الخيل:

وفي شهر جمادى الثانية من هذه السنة جرى في أرض الحلبة- ظاهر حلب- سباق خيل حافل، حضره كبار الموظفين من ملكيين وعسكريين وألوف من الأهليين «٢» . وأجازت الحكومة الحائزين قصب السبق بجوائز نقدية.

دعوة العرفاء إلى الثكنة العسكرية:

وفي هذه الأيام دعت جهة العسكرية إلى ثكنتها جميع عرفاء المحلات المعروفين بالمخاترة وأعطتهم المغلفات السالفة الذكر.." (١)

"الحفظ في الإسلام:

بسطنا في أول الكلام ما حضرنا من أسباب حفظ العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ونريد هنا أن نذكر تأريخ الحفظ بعد ذلك؛ فإنه كان مادة الرواية ومدارها. ولقد رأينا كثيرا من أهل عصرنا يمضغون علماء العرب مضغا، ويلوون ألسنتهم بعبارات من الإزراء على ما وردت به الرواية من أنباء حفظهم، لا يعجبون في أنفسهم من أن يكون ذلك صدقا فحسب، ولكنهم يعجبونك من كذبه، وينبهونك على سخافة المغالاة فيه بزعمهم؛ لما يشق عليهم من النزوع إلى مثله والأخذ في ناحيته، ولقصر نظرهم عن الطموح إلى بعض مراتبه! فيأتونك بالكلام اعتسافا، ويتخرصون بالأحكام جزافا، ويزعمون أن أكثر ما روي عن علمائنا من الحفظ فهو إما تنفيق لهم في سوق التاريخ، أو تلفيق عليهم في مساقه؛ ولو أنك اعترضت الحجة في مدارج أنفاسهم لرأيتها هواء، أو كلاما هراء: فهم يقيسون على ما في طباعهم من الكلال، وما في أنفسهم من الهوينا والوكال؛ ثم هم قوم لا يكشفون عن أسباب الحوادث العربية، ولا ينفذون بين معاقد تلك الأمور ومصادرها؛ وقد جهلوا تاريخ الرواية، وجهلوا معه الأسباب التي بعثت من تلك الهمم سوابق غاياتها، وأظهرت لها معجزات الحفظ خوارق آياتها، ورفعت للأجيار على قمة التاريخ العقلي خوافق راياتها؛ فهؤلاء لا نزيد على أن نقول فيهم: هؤلاء.

وليس تاريخ العرب وحدهم هو الذي امتاز بنوابغ الحفاظ، بل الحفظ موجود من أقدم أزمنة التاريخ؛ لأن الحافظة كانت وحدها عند القدماء كتاب التاريخ والتقاليد والشرائع والآداب وما إليها؛ فكانت هي صورة الفكر الإنساني على الحقيقة؛

---

(١) نهر الذهب في تاريخ حلب كامل الغزي ٣/٤٣٥

وقد ذكروا من قدماء الحفاظ "متيريداتس" الكبير الذي كان مالكا على الشمال من غربي آسيا الصغرى في القرن الأول قبل الميلاد، فقالوا إن هذا الملك كان يحكم على اثنتين وعشرين أمة مختلفة، وزعموا أنه كان يخطب على كل منها بلغتها، ويدعو كل واحد من جنده باسمه، وذكروا مثل ذلك عن "قورش" ملك الفرس و"سيبيون" الآسيوي، والإمبراطور أدريان وغيرهم؛ وهذا أمر لا ينقطع في عصر من العصور، **فإن من الناس من** تكون أذناه وعيناه أبوابا للتاريخ، فلا يسمع أو يقرأ شيئا إلا حفظه ثم لا ينساه؛ وفي أوروبا وأمريكا لعهدنا شواهد كثيرة لا نطيل باستقصائها فإن أحدا لا ينكرها.

بيد أن تاريخ العرب إنما امتاز بسعة مادة المحفوظ وتنوعها، وبالأسباب الدينية التي بعثتهم على الحفظ، مما أومأنا إليه في محله؛ ومن القواعد المطردة التي تبنيناها من البحث في التاريخ العربي، أن كل شيء للعرب إذا تعلق به سبب من الدين جاءوا فيه بالمعجزات التي يبزون فيها الأمم كافة ويجعلونها من أنفسهم طبقة التاريخ وحدها، ولم نر هذه القاعدة تخلفت في أمر من أمورهم؛ وهي بعض ما خص به هذا الدين الحنيف الذي وجد العالم في كتابه الكريم معجزته الخالدة.

وبعد: فإن الحافظة نفسها تتفاوت درجاتها في الناس؛ وتتفاوت في أدوار الحياة للشخص." (١)

"الحسن والأدب والرونق، وما أرى مثلهما يكونان في موضع إلا كان حولهما جلال الملك ووقاره، مما يكون حولهما من نور تلك الأم.

فقال مسلم: وأنت على ذلك غير مصدق إذا قلت لك: إني أحب المرأة الجميلة التي تصف، وليس بي هوى إلا في امرأة دميمة هي بدمامتها أحب النساء إلي، وأخفهن على قلبي، وأصلحهن لي، ما أعدل بها ابنة قيصر ولا ابنة كسرى.

فبقي ابن أيمن كالمشدوه من غرابة ما يسمع، ثم ذكر **أن من الناس من** يأكل الطين ويستطيبه لفساد من طبعه، فلا يحلو السكر في فمه وإن كان مكررا خالص الحلاوة؛ ورثى أشد الرثاء لأم الغلامين أن يكون هذا الرجل الجلف قد ضارها١ بتلك الدميمة أو تسرى بها عليها؛ فقال وما يملك نفسه: أما والله لقد كفرت النعمة، وغدرت وجحدت وبالغت في الضر، وإن أم هذين الغلامين لامرأة فوق النساء، إذ لم يتبين في ولديها أثر من تغير طبعها وكدور نفسها، وقد كان يسعها العذر لو جعلتهما سخنة عين لك وأخرجتهما للناس في مساوئك لا في محاسنك، وما أدري كيف لا تند عليك، ولا كيف صلحت بمقدار ما فسدت أنت، واستقامت بمقدار ما التويت، وعجيب والله شأنكما! إنها لتغلو في كرم الأصل والعقل والمروءة والخلق، كما تغلو أنت في البهيمية والنزق والغدر وسوء المكافأة.

قال مسلم: فهو والله ما قلت لك، وما أحب إلا امرأة دميمة قد ذهبت بي كل مذهب، وأنستني كل جميلة في النساء، ولئن أخذت أصفها لك لما جاءت الألفاظ إلا من القبح والشوهة والدمامة؛ غير أنها مع ذلك لا تجيء إلا دالة على أجمل معاني المرأة عند رجلها في الحظوة والرضى وجمال الطبع؛ وانظر كيف يلتئم أن تكون الزيادة في القبح هي زيادة في الحسن وزيادة في الحب وكيف يكون اللفظ الشائه، وما فيه لنفسي إلا المعنى الجميل، وإلا الحس الصادق بهذا المعنى، وإلا الاهتزاز والطرب لهذا الحس؟

قال ابن أيمن: والله إن أراك إلا شيطانا من الشياطين، وقد عجل الله لك من هذه الدميمة زوجتك التي كانت لك في

(١) تاريخ آداب العرب الرافعي ، مصطفى صادق ١/١٩٦

الجحيم، لتجتمعا معا على تعذيب تلك الحوراء الملائكية أم هذين الصغيرين، وما أدري كيف يتصل ما بينكما بعد هذا الذي أدخلت من القبح والدمامة في معاشرتها ومعايشتها، وبعد أن جعلتها لا تنظر

---

١ المضارة: اتخاذ الضرة على الزوجة.." (١)

"إليها أن يموت مسلما إذا قتل نفسه كالمضطر أو المكره، فأشفقت أن أكسر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته؛ وقلت: هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا؛ وكان إمامنا "الشعبي" حكيما لحنا فطنا، سفر ين أمير المؤمنين "عبد الملك" وعاهل الروم، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله. وقلت: لعل الله يحدث به أمرا. فأخذت بيد الفتى إليه، ومشيت أكلمه وأرفه عن نفسه. وقلت له: أما تدري أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرروها أيضا، وأنا الزاهد المنقطع في عرعرة الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا، ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟

يا بني: إن الزاهد يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كان فيمن انقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وايم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعا، لهو الخالي من الفضائل جميعا.

يا بني: **إن من الناس من** يختارهم الله فيكونون قمح هذه الإنسانية؛ ينبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائله. وما أرك أنت وأباك إلا من المختارين، كأن في أعراقكم دم نبي يقتل أو يصلب!

قال المسيب: وانتهينا إلى دار الشعبي، فطرقت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمنا وسلم، ثم بدرت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كيت وكيت، فترادفت عليه المصائب، وتوالت النكبات، وتواترت الأسقام ... ثم اقتصصت ما قال ابنه حرفا حرفا، ثم قلت؛ وإنه الآن موشك أن يزهق نفسه وسيتبعه ابنه هذا؛ وقد "هداه الله إليك فجاء يسلك، أيموت مسلما من ألجئ وأكره واضطر واستضاق واختل، فتحسى سما فهلك، أو توجأ بحديدة فقضى، أو ذبح نفسه بنصل فخفت، أو حز في يده بسكين فما رقأ دمه حتى مات، أو اختنق في حبل ففاضت نفسه، أو تردى من شاهق فطاح!

وأدرك الشيخ معنى قولي: "هداه الله إليك" ومعنى ما أكثرت من الألفاظ المرادفة على القتل وما استقصيت من وجوهه؛ فعلم أن لم أسأله الفتيا والنص، ولكني سألته الحكمة والسياسة؛ فقال: هذا -والله- رجل كريم، أخذته الأنفة وعزة النفس، وما أنا الساعة بمعزل عن همه، فنذهب نكلمه والله المستعان.

ومشينا ثلاثتنا، فلما شارفنا الدار قال الفتى: إنه لا يفتح لي إذا رآكما، وربما." (٢)

---

(١) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ١٣٨/١

(٢) وحي القلم الرافعي ، مصطفى صادق ٧٨/٢

"عمل الله، في سبيل الله، وقع أجرهم على الله. وقال قائلنا: يبعثهم الله على ما أماتهم عليه. فقال عمر: أجل – والذي نفسي بيده – ليبعثم الله على ما أماتهم عليه؛ **إن من الناس من** يقاتل رياء وسمعة، ومنهم من يقاتل ينوي الدنيا؛ ومنهم من يلحمه القتال فلا يجد من ذلك بدا. ومنهم من يقاتل صابرا محتسبا فأولئك هم الشهداء، مع أني لا أدري ما هو مفعول بي ولا بكم؛ غير أني أعلم أن صاحب هذا القبر – يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم. قد غفر له ما تقدم من ذنبه.

وعند ابن شيبة عن مسروق قال: إن الشهداء ذكروا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقال عمر للقوم: ما ترون الشهداء؟ قال: القوم: يا أمير المؤمنين هم من يقتل في هذه المغازي. فقال عند ذلك: إن شهداؤكم إذا لكثير، إني أخبركم عن ذلك: إن الشجاعة والجبن غرائز في الناس يضعها الله حيث يشاء، فالشجاع يقاتل من وراء لا يبالي أن يؤوب إلى أهله. والجبان فار عن حليلته، ولكن الشهيد من احتسب بنفسه، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده. كذا في كنز العمال.

قصة عبد الله بن الزبير وأمه

وأخرج نعيم بن حماد في «الفتن «عن ضمام: أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما أرسل إلى أمه أن الناس قد انفضوا عني وقد دعاني هؤلاء إلى الأمان. فقالت: إن خرجت لإحياء كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمت على الحق، وإن كنت إنما خرجت على طلب الدنيا فلا خير فيك حيا ولا ميتا. كذا في الكنز.." (١)

"ولن يتيسر للصحافة الحديثة شيء من ذلك حتى تزود "رجل الشارع" بقدر من المعلومات، يفهم به التيارات أو المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية.

ومعنى ذلك باختصار: أن مهمة الصحافة الحديثة ليست مجرد سرد الأخبار، مهما غلب عليها الطابع الإنساني، ولكن سردها والتعليق عليها، وشرحها "لرجل الشارع" شرحا يبصره دائما بما يجري حوله الآن، وما سيجري حوله في المستقبل. ومن هنا تتضح ضرورة الهدف الأول من أهداف "قسم التحرير والترجمة والصحافة" وهو الهدف العلمي، أو الثقافي، كما يتضح السبب الذي من أجله ينظر بعناية خاصة إلى موضوع "ثقافة الصحفي".

"٦"

وأما المستوى الفني فمبني عندنا كذلك على أساس من الفهم الصحيح للصحافة، باعتبارها فنا من الفنون الحديثة، وإذا قلنا: "الفن" فنحن نعني الموهبة والاستعداد من جهة، كما نعني التدريس والممارسة من جهة ثانية.

ذلك **أن من الناس من** هو موهوب بالطبيعة: موهوب في الموسيقي، أو موهوب في الأدب، أو موهوب في الصحافة، وهكذا، وهؤلاء الموهوبون من حقهم على الدولة دائما أن تعينهم على الظهور في المجتمع، كأن تيسر لهم سبيل الدخول في المعاهد الخاصة، وتنفق عليهم بسخاء في هذه الناحية، وتمنحهم أعظم الفرص الممكنة لإظهار المواهب التي خصهم الله بها.

---

(١) حياة الصحابة محمد يوسف الكاندهلوي ٢/١٠٤

والفرق كبير –على أية حال– بين موهوب حرم حظا من التعليم، وآخر نال حظا أو حظوظا من التعليم. وتطبيق ذلك على الصحافة واضح كل الوضوح، فهناك طرق خاصة لتحرير الخبر الداخلي، وهناك طرق خاصة لكتابة العمود أو المقال الصحفي، وهناك طرق خاصة لكتابة." (١)

"ليحمي السواد من غزو الأعراب، كان ينتهي في البحر عند "خليج كاظمة" في شمال الإمارة١.

وأرض الكويت، مثل سائر أرض العروض، كانت موطن شعوب قديمة، فيظهر أن "Bukae" أو "abucaei" أو "abukae"، وعاصمتهم مدينة "coromanis"، هم أسلاف بني عبد القيس، وأن "coromanis"، المصدر اللغوي الذي اشتق منه "القرين"، الاسم القديم للكويت٢.

ولعل "idicare" هي "قارة" من مواضع الكويت٣، وأن "jucara" هي "الجهرة" من أخصب مناطق الكويت في الزمن الحاضر، وكانت من المواضع المأهولة قبل الإسلام٤.

وقد عرف "ياقوت" البحرين بأنها الأرضون التي على ساحل بحر النهد بين البصرة وعمان، وذكر **أن من الناس من** يزعم أن البحرين قصبة هجر، وأن منهم من يرى العكس، أي أن هجرا هي قصبة البحرين٥.

أما "أبو الفداء" فذكر أن البحرين هي ناحية على "شط بحر فارس"، وهي ديار القرامطة ولها قرى كثيرة، وبلاد البحرين هي هجر. وذكر أيضا **أن من الناس من** يرى أن هجرا اسم يشتمل جميع البحرين كالشام والعراق، وليس له مدينة بعينها٦. ويظهر من دراسة ما ذكره العلماء عن البحرين أن رأيهم في حدودها كان متباينا، وأنهم لم يكونوا على اتفاق في تحديدها، فتارة يوسعونها، وتارة يقلصونها.

ومن مواضع البحرين "محلم"، وبه نهر اشتهر بنخله، وإليه أشار "بشر بن أبي خازم الأسدي" بقوله:

كأن حد وجهم لما استقلوا ... نخيل "محلم" فيها ينوع٧

---

١ ency, ٢ p, ١١٧٣.

٢ تاريخ الكويت، لعبد العزيز الرشيد "بغداد ١٩٢٦"، "١/ ٢٣"، forster, vol, ٢ p, ٢١٣.

٣ وهبة ص٧٩، forster, vol, ٢ p, ٢١٤

٤ forster, vol, ٢ p, ٢١٤

٥ البلدان "١/ ٣٤٦" "دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٥٥".

٦ تقويم البلدان "ص٩٩".

٧ ديوان بشر "ص١٣٠".." (٢)

---

(١) المدخل في فن التحرير الصحفي عبد اللطيف محمود حمزة ص/٤٠

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ١٧٧/١

"وورد في القرآن الكريم: ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة......﴾ ١؛ مما يدل على أن من الناس من استعمل البغال للركوب وللزينة. وقد كان من الأشراف والوجهاء من يتخذ البغال للركوب في الطرق الوعرة. أما من هم دونهم في المنزلة، فكانوا يتخذون الحمير.

وقد ورد في شعر ل "بشر بن أبي خازم الأسدي" ما يفيد أن البغال كانت معروفة في بعض المواضع، وأن أبوالها كانت تترك وقيعا أي أثرا على الأرض٢. والظاهر أنه قصد بعض الأرضين الوعرة التي كان من الصعب على غير البغال السير بها، وذلك مثل بلاد اليمن التي كانت تستعمل البغال للركوب ولرفع الأثقال.

والحمير هي أول واسطة للركوب وللحمل عند الحضر وأهمها، هي للحضري مثل الجمال للبدوي، وهي مركب مريح لا يسبب إزعاجا، ولا سيما إذا كان أتانا؛ لأنها أهدأ وآمن من العثار. هذا، إلى أنها صبور تتحمل المشقات، ولعل صبرها وتحملها وسكوتها عند ضربها، قد حمل كل الناس على وسمها بالبلادة. فشبه البليد بالحمار، فإذا أريد تعبير شخص بالبلادة وعدم الفهم قيل إنه "حمار". ليس ذلك عند العرب وحدهم، بل عند غيرهم من الشعوب القريبة منهم مثل العبرانيين، والبعيد عنهم. فشهرة الحمار بالبلادة شهرة عالمية٣. ويقال للحمار "حامور" "hamor" في العبرانية. أما الأنثى. فإنها "أتون" "athon" أي "أتان" في العربية. وأما الحمار الصغير، وهو ما يقال له "الكر" أو "الجحش"؛ فإنه "عير" "ayir" في العبرانية٤.

ويظهر من ملاحظات بعض الباحثين أن الحمار في جزيرة العرب هو أقدم عهدا من الجمل ومن الخيل والبغل؛ إذ كان واسطة الركوب والنقل في أوائل الألف الثانية قبل الميلاد. فلما حل الجمل محله خفف من واجباته وأعماله، وصار عند العرب في منزلة هي دون منزلة الجمل بكثير.

---

١ النحل، الآية: ٨.

٢

وقد جاوزن من غمدان أرضا ... لأبوال البغال بها وقيع.

وفي بعض الكتب "عيدان" في مكان "غمدان" ديوان بشر "ص١٣٢".

٣ Hastings, p. ٥٩

٤ Hastings, p., ٥٩." (١)

"فهو يشهد برسالة الرسول، ويؤمن بها قبل مبعثه بنحو من سبعمائة سنة، ويرجو لو مد في عمره، فوصل إلى أيام الرسول، إذن لجاهد وحارب معه، وفرج عنه كل هم؛ لأنه كان يعلم بما سيلاقيه الرسول من قومه من أذى وعذاب، ولصار له وزيرا وابن عم١.

ويذكر بعض الأخباريين، أن تبعا قال للأوس والخزرج: كونوا هنا حتى يخرج هذا النبي -صلى الله عليه وسلم-، أما أنا

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٢٠٢/١

لو أدركته لخدمته وخرجت معه٢.

إلى غير ذلك من قصص يحاول أن يجعل للتبابعة علما سابقا قديما برسالة الرسول باسمه وبمكان ظهوره، وبتهيؤ القحطانيين ومنهم أهل المدينة لتأييده وللذب عنه، ولنشر دينه على رغم قريش أهل مكة، وهم لب العدنانيين.

ونجد في كتب أهل الأخبار بعض التبابعة وقد صيروا مسلمين حنفاء يدعون إلى الدين الحق وينهون قومهم عن عبادة الأصنام. وتجد فيها أحاديث قيل: إن رسول الله قالها في حق التبابعة مثل قوله: "لا تسبوا تبعا؛ فإنه كان قد أسلم"، أو "لا تسبوا تبعا؛ فإنه كان رجلا صالحا" و"لا تسبوا تبعا؛ فإنه أول من كسا الكعبة"، أو "ما أدري أكان تبع نبيا أم غير نبي"٣. وتجد فيها أكثر من ذلك فقد بلغ الحال ببعض أهل الأخبار أن صيروا بعض التبابعة أنبياء وفاتحين، بلغت فتوحاتهم الصين في المشرق و"روما" في المغرب. وهذا القصص كله هو بالطبع من حاصل ذلك النزاع السياسي الذي كان بين القحطانيين والكتلة المعادية لها، كتلة العدنانيين.

وما هذا الإلحاح الذي يؤكد إيمان التبابعة بإله واحد وتسليمهم برسالة الرسول وتدينهم بدينه، وفي عدم جواز سب التبابعة أو لعنهم أقول: ما هذا الإلحاح إلا دليل ظاهر محسوس على أن من الناس من كان يلعن التبابعة ويسبهم ويشتمهم، ولم يكن هذا الشتم أو اللعن موجها إلى التبابعة بالذات بالطبع، بل كان موجها لليمن وللقحطانيين عامة، وللرد عليهم وضعت تلك الأحاديث وأمثالها على لسان

---

١ أخبار مكة "ص٨٤"، تفسير ابن كثير "٤/ ١٤٢"، البداية والنهاية "٢/ ١٦٣" وما بعدها".

٢ تفسير الطبري "٢٥/ ١١٥ وما بعدها".

٣ اللسان "٨/ ٣١" "صادر"، تفسير الخطيب الشربيني "٣/ ٥٥٣"، تفسير الطبري "٢٦/ ١٥٤ وما بعدها"، لباب التأويل في معاني التنزيل والمعروف بتفسير الخازن "٤/ ١١٥، ١٧٥" "مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٥٥م".." (١)

"سمك يصطاد من بحر عمان ١. وذكروا أن "الحوشى" الوحشي من الإبل وغيرها منسوب إلى بلاد الجن من وراء رمل "يبرين"، لا يمر بها أحد من الناس. وقيل: هم من بني الجن. وقيل: هي فحول جن، تزعم العرب أنها ضربت في نعم بني مهرة بن حيدان فنتجت النجائب المهرية من تلك الفحول الوحشية، فنسبت إليها، فهي لا يكاد يدركها التعب٢.

ولتحمل الإبل الجوع والعطش ولصلاحها على المشي في البوادي صارت خير أليف للعرب. وقد اشتهر بعض منها؛ لاشتراكه في الغزو والحروب. وكانوا يسابقون بين الإبل. وسابق الرسول بين الإبل، وكانت ناقته القصواء سريعة الجري فسبقت مرارا. وتعد لحوم الإبل من اللحوم الطيبة عند الجاهليين. أما اليهود، فكانوا يحرمون عليهم أكل لحومها. وذكر "النويري" أن من الناس من قال: "إن العرب إنما اكتسبت الأحقاد لأكلها لحوم الجمال ومداومتها"٣، لاتهامهم الجمل بالحقد واللؤم، وبعدم نسيانه الإساءة.

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ١٦٧/٤

والجمل من الحيوانات القانعة الصابرة. وهو الحيوان الوحيد الذي رضي بمرافقته الأعراب ومصادقتهم منذ آلاف السنين. ولولا هذا الجمل لما كان في استطاعة العرب اختراق جزيرتهم، والتنقل فيها من مكان إلى مكان. وبفضله اتصل عرب جزيرة العرب بعضهم ببعض وقامت المستوطنات في مواضع نائية منعزلة من بلاد العرب، وقهر العربي ظهر باديته. وتكونت فيها تجارة برية. وطرق برية طويلة يخترقها الجمل بغير كلل ولا ملل. صابرا على العطش حتى يصل إلى مرحلة بعيدة فيها يكون فيها ماء، وفي استطاعة الجمل تحمل العطش مدة أربعة أو خمسة أيام في الصيف، ومدة خمسة وعشرين يوما في الشتاء؛ لأنه يختزن الماء في جوفه ويعيش عليه. حتى صار هذا الماء المخزون في جوف البعير سندا للأعراب وأملهم الوحيد في إنقاذ حياتهم عند اشتداد العطش بهم، وانقطاع الماء عنهم. ولما عبر خالد بن الوليد البادية لفتح بلاد الشأم اختزن الماء في أجواف الإبل، لقلة الماء في البادية، فلما اشتد العطش بجيشه، ذبح بعض الإبل وأسقى من الماء المخزون في أجوافها، وبفضله تمكن الجيش من الصمود أمام أهوال العطش ومن الوصول

---

١ نهاية الأرب "١٠/ ١٠٩ وما بعدها".

٢ تاج العروس "٤/ ٣٠٢"، "حاش".

٣ نهاية الأرب "١٠/ ١١".." (١)

"تنفيذ الأحكام:

ولم يكن تنفيذ الأحكام الدينية إلزاميا، إنما كان عن طاعة وموافقة. ثم إن العرب لم يكونوا على دين واحد يرجع إلى شرائعه، حتى يلزم المرء بتنفيذ ما جاء في حكمه١. فكان أمر إطاعة أحكام. رجال الدين رهنا بمكانة رجل الدين وبما له من هيبة ونفوذ بين قومه.

وقد رأينا أن من الناس من كان يثور حتى على آلهته إذا وجد أنها لم تلب طلباته، وأنه كان يتوسل إليها ويلوذ بها لمساعدته عند الشدة، ثم يهددها ويتوعدها.

---

١ اليعقوبي "١/ ٢٢٧"، "حكام العرب".." (٢)

"الفأل:

والفأل ضد التشاؤم والطيرة. ويكون برؤية شيء أو سماع أمر أو قول أو غير ذلك يتفاءل منه، كأن يسمع مريض رجلا يقول يا سالم فيقع في ظنه إنه يبرأ من مرضه، أو يسمع طالب حاجة رجلا يقول يا واجد فيخال إنه يجد ضالته، فيتوقع صحة هذه البشرى، ويقال لذلك في الإنكليزية I , .Omen، وهو معروف عند العبرانيين وقد ذكر في التوراة١.

وأصل كلمة "الفأل" على ما يظهر للتشاؤم والتفاؤل، أي إنها كالطيرة أريد بها الحالتان، ثم تخصصت بالحسن، كما

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ١١/١٠

(٢) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٢٢٢/١١

تخصصت الطيرة بالشؤم٢. وقد نهى في الحديث عن الطيرة. أما الفأل، فقد ورد أن الرسول كان يتفاءل ولا يتطير لما في التفاؤل من أثر طيب في أعمال الإنسان٣.

وضد "الشؤم" "اليمن"، ومن معاني اليمن "البركة" و"الميامين" على نقيض "المشائيم"، و"الميمون" ضد المشؤوم"٤. وورد "ميمون النقيبة"٥ و"ميمون الناصية". ويلاحظ أن للناصية علاقة متينة بالشؤم والتمين، فكما يقال "ميمون الناصية" قيل "شؤم الناصية" كذلك، وهي كناية عن الإنسان فقد كان في رأيهم أن من الناس من هم شؤم. ويجلبون الشؤم على من يراهم،

---

١ جامع الأصول "٨/ ٤٦٨"، "كتاب الطيرة"، اللسان "١٤/ ٢٧"، إرشاد الساري "٨/ ٣٩٧"، Ency., II, p. ٤٦ .S ,Reste ,ff٢٠٣ ..

٢ في الحديث: "أصدق الطيرة الفأل"، النهاية "٣/ ١٩٥".

٣ النهاية "٣/ ١٩٥"، جامع الأصول "٨/ ٤٦٧".

٤ تاج العروس "٩/ ٣٧١".

٥ تاج العروس "١٠/ ٤٩١"..". (١)

"الجاهليين، وتجاسر بعض الكفار على الرسول، فوصفوه بأنه شاعر. ووصفه بهذه الصفة دليل على ما كان الشعر من أثر في نفوس القوم. وقد ورد في الحديث: أن الرسول قال: "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما"، أو "إن من الشعر لحكمة"١. وفي الأخبار أنه كان يرفع أناسا ويذل آخرين، وأن من الناس من كان يشتري ألسنة الشعراء. وورد في الحديث، أن الرسول ذكر الشعر فقال: "إن من الشعر لحكمة، فإذا ألبس عليكم شيء من القرآن فالتمسوه في الشعر، فإنه عربي"٢. ووردت عنه أحاديث أخرى في حق الشعر٣.

وورد في خبر آخر أن "العلاء بن الحضرمي"، لما وفد على رسول الله، قال له الرسول: أتقرأ شيئا من القرآن؟ فقرأ سورة عبس، ثم زاد فيها من عنده: "وهو الذي أخرج من الحبلى نسمة، تسعى بين شراسيف وحشى، فقال رسول الله كف فإن السورة كافية، ثم قال: أتقول شيئا من الشعر؟ فأنشده:

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم ... تحيتك الأدنى فقد يدبغ النعل

فإن دحسوا بالكره فاعف تكرما ... وإن أخنسوا عنك الحديث فلا تسل

فإن الذي يؤذيك منه استماعه ... وإن الذي قالوا وراءك لم يقل

فقال النبي: "إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما ٤ ".

وورد أن الرسول كان يسأل الصحابة أن يسمعوه شعرا، سأل مرة "الشريد بن سويد الثقفي" أن ينشده شيئا من شعر أمية بن أبي الصلت، فأنشده مائة بيت، فقال الرسول: كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم، أو أن كاد ليسلم٥. وكان الرسول

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٣٧٨/١٢

يقول: أشعر كلمة تكلمت بها العرب كلمة لبيد: ألا كل شيء

---

١ بلوغ الأرب "٣/ ١٣٤".

٢ اللسان "٤/ ٤١٠"، "شعر". العمدة "ص٢٧"، "إذا اشتبه عليكم شيء من القرآن فاطلبوه في الشعر"، مجالس ثعلب "٣١٧".

٣ العمدة "ص٢٧".

٤ بلوغ الأرب "٣/ ١٣٣ وما بعدها"، "إن من الشعر حكما، وإن من البيان سحرا". وفي هذه الأبيات روايات متباينة، عيون الأخبار "٢/ ١٨"، "طبعة دار الكتب المصرية"، كنز العمال "٢/ ١٧٨".

٥ إرشاد الساري "٩/ ١٠٠ وما بعدها"، الإصابة "٢/ ١٤٦"، "رقم٣٨٩٢"، المزهر "٢/ ٣٠٩"، "مائة قافية"، ابن سعد "٥/ ٣٧٦"، صحيح مسلم "٧/ ٤٨"، "كتاب الشعر"." (١)

"وفيما ذكرناه يتبين لك حال هذا الرجل، وحال كتابه، في إحياء علوم الدين وهذا غاية ما نعتقده فيه، لا نرفعه فوق منزلته فعل الغالين، ولا نضعه من درجته كما وضعه بعض المقصرين فإن من الناس من يغلوا فيه، وفي كلامه الغلو العظيم ومنهم من يذمه، فيهدر محاسنه ويرى تحريق كتابه، وسمعنا أن منهم من يقول ليس هذا إحياء علوم الدين، بل إماتة علوم الدين، والصراط المستقيم حسنة بين سيئتين، وهدي بين ضلالتين١.

وورد على الإمام محمد بن عبد الوهاب سؤال هذا نصه:

بلغنا أنكم تكفرون أناسا من العلماء المتقدمين، مثل ابن الفارض وغيره، وهو مشهور بالعلم من أهل السنة. فأجاب:

أما ما ذكرت أنا نكفر ناسا من المتقدمين وغيرهم فهذا من البهتان الذي أشاعه عنا أعداؤنا ليجتالوا به على الناس عن الصراط المستقيم، كما نسبوا إلينا غير ذلك من البهتان أشياء كثيرة، وجوابنا عنها أن نقول: "سبحانك هذا بهتان عظيم" ونحن لا نكفر إلا رجلا عرف الحق وأنكره بعد ما قامت عليه الحجة، ودعي إليه فلم يقبل وتمرد وعاند، وما ذكر عنا من أنا نكفر غير من هذا حاله فهو كذب علينا وأما "ابن الفارض" وأمثاله من الاتحادية فليسوا من أهل السنة بل لهم مقالات شنع بها عليهم أهل السنة، وذكروا أن هذه الأقوال المنسوبة إليهم كفريات منها قول ابن الفارض في التائية شعرا:

وإن خر للأصنام في البيت عاكف ... فلا تعني بالإنكار للعصبية

وإن عبد النار المجوس فما انطفت ... كما جاء بالأخبار من ألف حجة

فما عبدوا غيري وما كان قصدهم ... سواي وإن لم يضمروا عقد نية

فمن أهل العلم من أساء به الظن بهذه الألفاظ وأمثالها، ومنهم من تأول ألفاظه وحملها على غير ظاهرها وأحسن فيه الظن، ومن أهل العلم والدين من أجرى

---

(١) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام جواد علي ٦٤/١٧

١ وهذا ما صنعته، فقد لخصت "الإحياء" فأبقيت ما فيه من الخير ومن أحاديث صحيحة وحذفت غير ذلك، ولعلي أول من صنع هذا الصنيع، وقد وجدت جميع من لخصوا هذا الكتاب كالإمام ابن الجوزي والمقدسي وجمال الدين القاسمي أبقوا فيه بعض الأحاديث الضعيفة والآراء الصوفية الخرافية ولله الحمد والمنة.." [١]

"أضعافه فكل هذا من الكذب والبهتان، الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله.

وإذا كنا لانكفر من عبد القبور من العوام لأجل جهلهم، وعدم من ينبههم، فكيف نكفر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يقاتل معنا، نقول: ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ أ. هـ.

يريد الشيخ رحمه الله بقوله: إنهم لا يكفرون العوام الجهال الذين لم تبلغهم الحجة من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأما من بلغته الحجة وعاند وأصر على شركه من دعاء الموتى والاستغاثة بهم، وطلب النفع منهم أو دفع الضر، فلاشك في شركه، بل وفي كفر من لا يكفره.

ثانيا: إن هؤلاء المنتقدين يصدق عليهم ما قيل: حفظت شيئا وغابت عنك أشياء.

حفظوا أن من يشهد بالشهادتين من الكفار، فقد دخل دين الإسلام وأصبح مسلما له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، ولكن جهلوا أو تجاهلوا أن كلمة الشهادتين لها شروط ونواقض، فإذا ما أتى بالشهادتين مستوفيتين للشروط ولم يأت بالنواقض التي تبطل شهادته، فذاك هو المسلم.

أما من أتى بالشهادتين ثم أتى بما يبطل شهادته، وكان عارفا أو بين له فلم يرجع عن رأيه أو عن قوله، فيحكم عليه بالشرك أو بالكفر، ولو كان يقول أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولو صلى وصام.

شروط لا إله إلا الله سبعة

١- العلم المنافي للجهل: فمن لم يعرف المعنى فهو جاهل بمدلولها، ومعناها البراءة من كل ما يعبد من دون الله وإخلاص العبادة لله وحده.

٢- اليقين المنافي للشك: لأن من الناس من يقو لها وهو شاك فيما دلت عليه من معناها.." [٢]

"عامة وما يندرج تحتها من عدل وعفة وضبط للسان وغير ذلك كما تشجب الغضب والحسد والعجب والنقمة والعداوة والنميمة والكذب، وفيها مجموعة عن الصداقة والأصدقاء ومجموعة أخرى عن الغربة والغرباء، ومما يندرج تحت هذه المجموعة الأخيرة (١) :

١ - إذا كنت غريبا فسر بسيرة سنن البلد.

٢ - إذا رأيت مسكينا غريبا فلا تخدعهم [كذا] .

٣ - إن الغربة صعبة لوجوه كثيرة.

٤ - إن أحسنت إلى الغرباء فاعلم أنك تكافأ في بعض الأوقات.

---

(١) الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مرآة علماء الشرق والغرب محمود مهدي الإستانبولي ص/٩٣

(٢) الشيخ محمد بن عبد الوهاب المجدد المفترى عليه أحمد بن حجر آل بوطامي ص/٩١

٥ – أعن بصيانة الغرباء ولا تقصر في ذلك.

٦ –كن صديقا صالحا للغرباء الصلحاء.

٧ – إذا أمكنك الزان فلا تكلم غريبا البتة.

٨ – إن العفة صالحة وهي للغرباء نافعة جدا.

٩ – إذا كنت غريبا فقلل من الفضول فإن ذلك خير لك.

١٠ – **إن من الناس من** شأنهم الإحسان إلى الغرباء.

١١ – إن السكوت أصلح للغريب من الكلام.

١٢ – إذا كنت غريبا فأكرم من يضيفك.

١٣ – أنصف الغرباء فلعلك تكون غريبا يوما ما.

وموضوع الغربة والغريب قد طغى على تفكير مثقفي القرن الرابع (عصر أبي سليمان المنطقي ناقل هذه الحكم) وخاصة على كتابات التوحيدي، غير أن هذه النصائح العملية الموجهة إلى الغريب نفسه حينا وإلى من يعامل الغريب تقف موقف المفارقة مما صار إليه الموضوع لدى التوحيدي، فهو هنالك قد أصبح محاولة لتحديد الغريب، ومبلغ ما يلقاه من تجهم ورد وإذلال في الحياة العملية، وتصويرا للغربة الصوفية في علاقة الإنسان بالله (٢) .

---

(١) تحتل هذه الأقوال الأرقام ٢٢١ – ٢٣٣ في مجموعة أوالمان (ص ٤٤ – ٤٥) .

(٢) انظر مثلا الإشارات الإلهية: ٨١ وما بعدها.." (١)

"٨ . قذف المرأة للرجل بنفسها:

عن عمر بن عبد العزيز أنه أتته امرأة فقالت: إن فلانا استكرهني على نفسي، فقال: هل سمعك أحد أو رآك؟ قالت: لا، فجلدها بالرجل (١). هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنا، وإنما هي خاصة بالقذف، فالمرأة التي تدعى على الرجل أنه استكرهها على الزنا، هي بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها وعليه حد القذف إلا أن تأتي ببينة تدرأ عنها هذا الحد، فسماع صياح المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف أو أن يكون أحد رآها وقد وافق عمر بن عبد العزيز في جلدها إن لم يكن لها بينة وافقه الزهري وقتادة وربيعة ويحي بن سعيد الأنصاري (٢).

٩ . قطع السارق قبل خروجه بسرقته:

ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت (٣).

١٠ . النباش سارق يستحق القطع:

إن من الناس من يأتي أمورا تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر

---

(١) ملامح يونانية في الأدب العربي إحسان عباس ص/٥٣

القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كما سرق من الأحياء (٤)، فعن معمر قال بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشا (٥).

١١ ـ عقوبة شرب الخمر للمرة الثانية:

عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلا حدا في خمر فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تحدث خيرا. قال يا أمير المؤمنين أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبدا فتركه عمر (٦).

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٠).

(٢) المحلى (١١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٦).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٤٧).

(٥) مصنف بن أبي شيبة (١٠/ ٣٤).

(٦) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٥)، فقه عمر (٢/ ١٥٧).." [1]

"الفصل الثاني: الأصوات اللغوية

كيف يحدث الصوت

...

الأصوات اللغوية:

كيف يحدث الصوت

خلق المولى الإنسان وعلمه البيان وجعل له لسانا وشفتين ومده بأحبال صوتية وأجهزة دقيقة أحكم الباري -سبحانه- صنعها، والعجيب **أن من الناس من** يتكلم ولا يشعر أنه يأتي حدثا مهما في حياته وهو النطق، بالكلمات عبر جهاز صوتي ضخم دقيق؛ ولذا نراه يتحدث وكأنه يأتي حدثا غير عادي لا يستحق التأمل والدرس، ومن الناس من يحسن التكلم، ويتأمل فيما أودع الله فيه من أعضاء للنطق تعينه على البيان والإفصاح فيأتي كلامه وكأنه نغم حلو أحسن قوله وانسجم معناه.

وكثير منا من يبذل الجانب الأكبر من حياته في تعلم اللغة المكتوبة وكيفية كتابة الحرف وكيفية التصاقه بالآخر حتى تتكون الكلمات، ولا يبذل جانبا من حياته ليتعلم النطق السليم للغة التي يتحدث بها مع الناس، أو حتى يتعرف على

---

(١) عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة علي محمد الصلابي ٢٩٩/١

أعضاء النطق وهذا أمر ضروري لكل من يحاول الاتصال بالناس أو يتحدث إليهم وخاصة إذا علم أن الكلمة المنطوقة تتميز بأنها وليدة الكلام، فهي لغة صوتية.." (١)

"فيا إخواني الله الله. فالأمر أعظم من ذلك فلو خرجنا نجأر إلى الله في الفلوات وعدنا الناس من السفهاء والمجانين في ذلك لما كان ذلك بكثير منا.

وأنتم رؤساء الدين والدنيا في مكانكم أعز من الشيخ والعوام كلهم تبع لكم. فاحمدوا الله على ذلك ولا تعتلوا بشيء من الموانع.

وتعلمون أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يرى ما يكره ولكن أرشدكم في ذلك إلى الصبر كما حكى عن العبد الصالح لقمان في وصيته لابنه فلا أحق من أن تحبوا لله وتبغضوا لله وتوالوا لله وتعادوا لله.

وترى يعرض في هذا أمور شيطانية: وهي **أن من الناس من** ينتسب لهذا الدين وربما يلقى الشيطان لكم أن هذا ما هو بصادق ، وأن له ملحظ دنيوي وهذا أمر ما يطلع عليه إلا الله فإذا أظهر أحد الخير فاقبلوا منه ووالوه فإذا ظهر من أحد شر وإدبار عن الدين فعادوه واكرهوه ولو أحب حبيب.

وجامع الأمر في هذا: أن الله خلقنا لعبادته وحده لا شريك له ومن رحمته بعث لنا يأمرنا بما خلقنا له وبين لنا طريقه وأعظم ما نهانا عنه الشرك بالله وعداوة أهله وأمرنا بتبيين الحق وتبيين الباطل فمن التزم ما جاء به الرسول فهو أخوك ولو أبغض بغيض. ومن نكب عن الصراط المستقيم فهو عدوك ولو ولدك أو أخوك.

وهذا شئ أذكركموه مع أني بحمد الله أعلم أنكم تعلمون ما ذكرت لكم ومع هذا فلا عذر لكم عن التبيين الكامل الذي لم يبق معه لبس وأن تذاكروا دائما في مجالسكم ما جرى منا ومنكم أولا وأن تقوموا مع الحق أكثر من قيامكم مع الباطل فلا أحق من ذلك ولا لكم عذر لأن اليوم الدين والدنيا ولله الحمد مجتمعه في ذلك فتذاكروا ما كنتم فيه أولا في أمور الدنيا من." (٢)

"قد تكون في هذا العصر أكثر شيوعا، وإنما نحن أشد شعورا بها؛ لأننا نعيش في وسطها، ويجبهنا وجهها المخادع أنى توجهنا، فإذا أنت طلبت من الصداقة شيئا غير تلك الفوائد المتداولة، إذا طلبت العاطفة الخالصة، والفائدة الأدبية المجردة، وتلك اللذة البريئة التي تجدها في محادثة الصديق بالكلام أو بالسكوت، وشعرت باحتياج ملح إلى ذلك، كاحتياج الدم إلى النور وإلى الهواء، إذا أنت طلبت هذا من الصداقة وعند الصديق فما أنت في نظر تلك الفصيلة من الناس إلا من أهل الشذوذ والغباوة ... على الأقل".

"وعلى رغم كل ذلك فموضوع الصداقة من الموضوعات التي نقبل عليها في اهتمام ولهفة، ولو جاز لي أن أشير إلى خلو خالص في قلت: إني أشعر بشيء غير قليل من الأسف كلما انتهى إلي أن صديقين كريمين تجافيا بعد التصافي، وقد يكون أسفي ناجما عن نوع خاص من الأثرة لا أدركه تمام الإدراك، قد يكون ذلك، إن انفصام عرى الصداقة بين

---

(١) فن الإلقاء طه عبد الفتاح مقلد ص/٢٥

(٢) تصحيح خطأ تاريخي حول الوهابية محمد بن سعد الشويعر ص/١٢٣

الآخرين، كأنما ينال من إيماني بالصداقة ويزعزع من رجائي فيها، لسنا في حاجة إلى دهور نعيشها لتدرك كم في هذه الحياة البشرية من خبث ومراوغة ونفاق، اختيارات قليلة تكفي لتدلنا على أن بعض المثل العليا تخذلنا وتصرعنا بلا رحمة ثم تنقلب مسوخا ساخرة مزرية، لا تلبث أن تكثر عن أنيابها -مهددة متوعدة- وهي التي تجلب في نفوسنا من قبل جلباب القدسية والعبادة".

"اختيارات قليلة في أحوال معينة وأحوال مفاجئة، تكفي لتظهر لنا **أن من الناس من** يتاجر بكل عاطفة صالحة لتنفيذ أغراض غير صالحة، ومن يستغل كل استعداد كريم لنتيجة غير كريمة، ومن لا يكتفي بالظلم والإجحاف، بل لا يتورع عن إيذاء الذين أخلصوا النية في معاملته، ولم ينله منهم إلا الخير، وكم من مذيع أنباء الصداقة لا لسبب آخر سوى التوغل في الإيذاء باسم الصداقة في أساليب سلبية أو إيجابية لا يعلم إلا هو كم هي خبيثة وكم هي مغالة"١.

---

١ راجع: الرسالة في ٢٢ فبراير ١٩٣٥ السنة الثالثة، نتعرف ٨٤.." (١)

"شكرت فإن الشكر حظ من التقى ... وما كل من أوليته نعمة يقضي (١)

وقد رأى بعض الشعراء أن محاولة الزيادة عند الله والناس لا تكون إلا بالشكر، لأن الناس لا يحمدون من لا يحسن إليهم فقال:

الناس أكيس من أن يحمدوا أحدا ... حتى يروا عنده أثار إحسان (٢)

غير أن هناك من يرى **أن من الناس من** لا يحمد الفضل فزهده ذلك في فعل الخير فقال:

يزهدني في كل خير فعلته ... إلى الناس ما جربت من قلة الشكر (٣)

وقال احمد شوقي:

لا تمنح المحبوب شكرك كله ... واقرن به شكر الأجير المجهد

أما المتنبي فهو يقول:

إذا الفضل لم يرفعك عن شكرناقص ... على هبة فالفضل فيمن له الشكر

وفي الحديث النبوي: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إذا أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا) (٤) .

---

(١) المقال وتطوره في الأدب المعاصر السيد مرسي أبو ذكري ص/٢١١

(١) – الأمالي لأبي علي القالي ج١ص٣٠.
(٢) – هذا البيت للشاعر عبد الملك الحارثي من قصيدة مطلعها:
يا أخت كندة عافي شرب عثمان ... وأزمعي لبني عوف بهجران
(٣) – هذا البيت ليحيى بن طالب، وقد ورد مستشهدا به في: الأمالي لأبي علي القالي ج١ص١٢٣ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة ج٣ص١٦٢ ، والموسوعة الشعرية ص٤١٠.
(٤) – رواه الترمذي في البر باب ما جاء في الإحسان والعفو حديث (٢٠٠٧) .." [1]

"ألا يقبل منه ويرد عليه، أو يخاف أن يكون قد قصر عن شكر كثير من النعم، وغفل عنها.
والأصل أنه ما من أحد ينظر في أمره وحاله إلا وهو يرى على نفسه من الله تعالى نعما لو أجهد نفسه ليقوم بشكر واحد منها لقصر عن ذلك، ولم يتهيأ له القيام بوفائها، فمن كان هذا وصفه، فأنى يقع له الأمن من عذابه، ويوجد منه الوفاء بالأسباب التي يؤمن بها إلا أن يكون من الخاسرين.

وقوله – عز وجل –: (والذين هم لفروجهم حافظون (٢٩) ذكر حفظ الفرج، ولم يذكر بم يحفظ؟ وحفظه يكون بخصال:
أحدها: أن يسكن في قلبه جلال الله وهيبته، ويخشى عقابه في المعاد.
والثاني: بما جعله الله سببا للتعفف، من النكاح وملك اليمين؛ فيمنعه ذلك عن الزنى ويحفظ الفرج.
والثالث: يجيع بطنه بالصيام كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: " من لم يقدر على الباه فليصم؛ فإن الصوم له وجاء ".
والرابع: بما يترك النظر إلى النساء ولا يخلو بهن، ويدع مجالسة الفجار وأهل الريبة.

وقوله – عز وجل –: (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين (٣٠) ولو لم يقل: (فإنهم غير ملومين)، لكنا نعلم بقوله: (إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم) أنهم لا يلامون؛ لأنه قد أباح لهم الاستمتاع بمن ملكت أيمانهم ومن كان تحتهم بملك النكاح، ولا يجوز أن تلحق اللائمة باستعمال المباح المطلق، ولكن فيه فوائد:
أحدها: **أن من الناس من** يحرم الاستمتاع بملك النكاح وملك اليمين، فيخبر أنهم عند من اعتقد الإيمان بالرسل غير ملومين، وإنما يلومهم من أنكر الرسالة، وهم الثنوية والبراهمة.
وجائز أن يكون معناه: أنهم وإن منعوا النساء عن الجماع بما هو خير لهم من الصيام." [2]

---

(١) صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال حسين بن محمد المهدي ٣٨٥/١
(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٢٠٩/١٠

"ولفعله فضل فزع في القلوب بوجود ذلك، ومعلوم أن ذلك بالعواقب لا بنفس الفعل- ثبت أنه لا يجب خلود من ليس بكافر فيها حتى يكون ممن أعدت له، ولغير أثر وتحذير لا تحقيق ذلك كله، والله أعلم.

وإن التأويل هو الثاني من اتقاء جميع المعاصي؛ فيكون لذلك بعد عبارتان:

إحداهما: أن قد ظهر أهل الجنة وأهل النار، وبينهم قوم لم تبلغ بهم الذنوب الشرك، فيدخلون في الوعيد بالنار المعدة لهم، ولا اتقوا جميع المعاصي؛ فيكونون في الوعد المطلق فيمن أعدت له الجنة؛ فحقه الوقف فيه حتى يظهر ذلك في قوله: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وفي قوله: (أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم)، وقوله: (وآخرون اعترفوا بذنوبهم)، الآية، وغير ذلك من آيات العفو والمغفرة، وما كان ذلك واجبا في الحكمة، فيكون القائم به يستحق وصف العدل لا العفو والمغفرة – ثبت أن ذلك فيما قد وجب، أو يكون فيمن يجزيهم جزاءهم ويدخلهم الجنة؛ إذ أخبر أنه لا يجزي السيئة إلا بمثلها، وبالتخليد مضاعفة ذلك من وجهين:

أحدهما: أنه عذاب الكفر، وهذا دونه.

والثاني: منع لذة الحسنة بكليتها، بل حق ذلك أن يكون كقوله: (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره) الآية، أن يجزي بالأمرين جميعا، ولا قوة إلا بالله.

والثاني: أنه قد جاء بمقابل السيئة من الحسنات، ومقابل كل أنواع من المعاصي من الطاعات، وقد وعد على الحسنة عشر أمثالها؛ فمحال أن يقابل مثل الذي دون الشرك من السيئات – الشرك في إحباط العمل، ولا يقابل مثل الذي دون الإيمان الإيمان في إحباط الذنوب، ويجب له الجنة، ثم مع ذلك الإيمان الذي لا أرفع منه، وهو الذي بعثه على الخوف والرجاء وقت الإساءة، وعلى أنه لو خشي على نفسه كل بلاء ورجا كل نفع في الكفر بربه – لم يؤثر ذلك مع ما وعد على الحسنة عشر أمثالها، ثم يبطل لذة ذلك كله، ويلزم الخلق القول فيه بالكرم والعفو والرحمة، ولا قوة إلا بالله.

وقوله: (وأطيعوا الله والرسول ... (١٣٢)

ذكر – والله أعلم – طاعة الرسول؛ لأن من الناس من لا يرى طاعة الرسول؛ فأمر – عز وجل – بطاعة رسوله – لئلا يخالفوا أمر الله ولا أمر رسوله، وأن من أطاع الله ولم ير طاعة رسوله فهو لم يطع الله في الحقيقة.

ويحتمل: (وأطيعوا الله) في أمره ونهيه، وأطيعوا الرسول فيما بين في سننه أو دعا أو." (١)

"وتأويل الآية – والله أعلم – في قوله: (إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته. . .) الآية، أي: إنهم وإن لم تكن لهم حاجة إلى المأكل والمشرب وأنواع الحاجات لا يستكبرون عن عبادته، فأنتم مع حاجتكم إلى الأكل والشرب وأنواع الحوائج أحرى وأولى ألا تستكبروا عن عبادته.

أو أن يقول: إن الذين تعبدون من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته، فأنتم أحق ألا تستكبروا عن عبادته؛ لأن من الناس من يعبد الملائكة، فخرج هذا جواب ذلك، والله أعلم.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٤٧٨/٢

وقوله – عز وجل –: (ويسبحونه).

التسبيح: هو وصف الرب – عز وجل – بالرفعة، والعظمة والجلال، والتعالي عن الأشباه والأمثال، وعما وصفه الملحدون.

والتسبيح: هو تنزيه الرب وتبرئته عن جميع معاني الخلق.

وقوله – عز وجل –: (وله يسجدون).

السجود: هو الخضوع في الغاية، وليس في الآية دليل وجوب السجدة على من تلاها أو سمعها، إنما فيها الإخبار عن الساجدين أنهم سجدوا غير مستكبرين، وفي ذلك." (١)

"وهذا على المعتزلة في قوله: (إن الإنسان لكفور)؛ لأنه يقول: هو الذي سخر الفلك، وهم يقولون: لم يسخر الفلك، ولكن إنما سخر الخشب الذي منه تتخذ الفلك؛ لأنهم لا يرون لله في فعل العباد تدبيرا ولا صنعا، وهم يكفرون نعمة ربهم فيما ذكر من تسخير الفلك لنا، وهم داخلون في ظاهر هذه الآية على الوجه الذي ذكرنا.

* * *

قوله تعالى: (لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم (٦٧) وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون (٦٨) الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون (٦٩) ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير (٧٠)

وقوله: (لكل أمة جعلنا منسكا).

اختلف في المنسك:

قال بعضهم: (منسكا)، أي: جعلنا لكل أمة دينا يدعون إليه، أي: كل أمة تدعى إلى دين واحد وهو دين الإسلام، وهو قول الحسن.

وقال بعضهم: (لكل أمة جعلنا منسكا)، أي: شريعة، فهذا على الاختلاف، أي: جعلنا لكل أمة شريعة على حد).

(هم ناسكوه) ذلك كقوله: (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا).

وقال عامة أهل التأويل: (منسكا): أي ذبائح وعيدا، قالوا: ذكر هذا – والله أعلم – **لأن من الناس من** ينكر أن يكون الذبح شريعة الله، فأخبر أن الذبح سنة الله وشريعته في الأمم كلها، ليس على ما قالت الثنوية.

وقوله: (فلا ينازعنك في الأمر) على تأويل من يقول: إن المنسك هو الدين، أي: لا يخالجنك في نفسك أن الذي أنت عليه هو دين الله وادع الناس إليه.

وعلى تأويل من يقول: هو الذبح، يقول: (فلا ينازعنك)، أي: لا يصدنك عن الذبح من ينكر ذلك، كقوله: (ولا يصدنك عن آيات الله).

(وادع إلى ربك) أي: ادع إلى توحيد ربك.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ١٣٦/٥

أو أن يكون قوله: (وادع إلى ربك): إلى عبادة ربك، وانههم عن عبادة من دونه.
وقوله: (إنك لعلى هدى مستقيم) هذا يدل أن التأويل الذي ذكرنا في المنسك - وهو." [١]
"الدين - أشبه وأقرب؛ لأنه ذكر (إنك لعلى هدى مستقيم) فلا يتخالجن في نفسك شك في ذلك، والله أعلم.

وقوله: (وإن جادلوك ... (٦٨)
في أمر الذبيحة، أو في الدين، وقد جادلوه في الذين كثيرا، لكن قال ذلك - والله أعلم - عند إياسه عن توحيدهم وإسلامهم، يقول - والله أعلم -: (وإن جادلوك) في الدين والتوحيد فقل: (الله أعلم بما تعملون)، وهو كقوله: (لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير)، فعلى ذلك قوله: (الله أعلم بما تعملون) من الذين.
قال بعض أهل التأويل: هذه الآية منسوخة، نسختها آية القتال؛ لأن فيها حظرا عن القتال، والترك على ما هم عليه، وتسليم الأمر إلى الله يحكم بينهم يوم القيامة.
لكن جائز ما ذكرنا أنه إنما قال ذلك عند الإياس منهم عن توحيدهم.

وقوله: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض (٧٠) قد ذكرنا في غير موضع أن حرف (ألم) حرف يتوجه إلى وجوه: إلى التعجب مرة، وإلى التنبيه والإيقاظ ثانيا، وإلى إيضاح الحجج والبراهين ثالثا.
وقوله: (إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير).

وقوله: (ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطانا وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير (٧١) حججا وبراهين، (وما ليس لهم به علم) يخبر عن سفههم أنهم يعبدون غير الله ولا سلطان ولا حجة لهم، ولا لهم بذلك علم؛ لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول يخبرهم، ولا كان لهم كتاب فيعلمون به، فيقول: إنهم يقولون: الله أمرهم بذلك، ولا حجة لهم في ذلك ولا علم.
وفيه أنه إنما بعث الرسل إليهم على علم منهم أنهم يكذبون الرسل؛ **لأن من الناس من** ينكر بعث الرسل إلى من يعلم أنه يكذبهم ويترك إجابتهم كمن لا يبعث في الشاهد رسولا إلى من يعلم أنه يكذبه ولا يجيبه، فعلى ذلك يقولون: لا يجوز أن يكون الله يبعث الرسول إلى من يعلم أنه يكذبه ولا يجيبه، لكن الله أخبر أنه على علم منهم بالتكذيب وترك الإجابة منهم، حيث قال: (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض).
وأما قولهم: إن من علم في الشاهد تكذيب المرسل إليه رسوله فإنه لا يبعثه إليه؛ لأن المرسل إنما يبعثه لحاجة نفسه ومنافعه، فإذا علم منه تكذيبه وترك الإجابة لم يبعثه، فأما الله - سبحانه وتعالى - إنما يرسل الرسول لحاجة المرسل إليه

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٧/٤٣٩

ومنافعه، لا لحاجة نفسه ومنفعته، فلا ضرر يلحقه في تكذيبه وجحوده، فجائز أرسله على علم منه بالتكذيب.

وقوله: (إن ذلك في كتاب) قال بعضهم: إن ذلك العلم في الكتاب الذي عنده.." [1]

"سورة النمل

وهي مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: (طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤) أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦)

قوله - عز وجل -: (طس): قد ذكرنا فيما تقدم تأويل الحروف المعجمة وأقاويل الناس فيها؛ وكذلك الآيات قد ذكرناها.

وقوله: (وكتاب مبين): يحتمل قوله: (مبين) أي: بين واضح؛ لأن (أبان) قد يستعمل في موضع (بان)، يقال: بان وأبان.

ويحتمل: (وكتاب مبين) أي: يبين أنه رسول من الله، أو يبين ما لله عليهم، أو ما لبعضهم على بعض، أو ما لهم وما عليهم.

وقوله: (هدى وبشرى للمؤمنين (٢)

قوله: (هدى) يحتمل وجهين:

أحدهما: دعاء؛ كقوله: (ولكل قوم هاد) أي: داع يدعو الخلق إلى توحيد الله تعالى؛ فعلى ذلك يحتمل قوله: (هدى) أي: دعاء، يدعوهم إلى توحيد الله تعالى، فإن كان هذا فهو للناس كافة.

والثاني: جائز أن يريد بالهدى: الهدى الذي هو نقيض الضلال وضده، فهو للمؤمنين خاصة، وإن كان أراد به البيان والدعاء فهو للكل.

وقوله: (هدى وبشرى للمؤمنين) أي: يدعوهم إلى الإيمان بالله وبرسوله، فإذا آمنوا كان لهم بشرى.

ثم نعت المؤمنين ووصفهم فقال: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ... (٣) يحتمل قوله: (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة) أي: يقرون بهما ويؤمنون؛ **لأن من الناس من** كان يؤمن بالله وبرسوله، لكنهم أبوا الإيمان بالصلاة والزكاة؛ كقوله: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم). لا يحتمل أن يأمرهم بحبسهم إلى أن تمضي السنة فتجب الزكاة عليهم فيؤتون، فحينئذ يخلون سبيلهم، ولكن الأمر بحبسهم إلى أن يقروا بها ويؤمنوا، فيخلون عند ذلك سبيلهم.." (٢)

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٤٤٠/٧

(٢) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٩٥/٨

"وقوله – عز وجل –: (لينذر يوم التلاق).

اختلف فيه: قال بعضهم: يوم يلقى أهل الأرض أهل السماء.

وقال بعضهم: يوم يلقى الآخرون الأولين.

وجائز أن يكون هو يوم يلقى الإنسان عمله وأفعاله التي عملها، والله أعلم.

وقالت الباطنية: أي: يوم يلقى الصور المتولدة من الأجساد بأعمال الخير والشر التي كانت لهم في الدنيا الصور التي كانت لهم روحانية؛ لأن من مذهبهم أن من مات منهم يحدث ويتولد بالأعمال التي كانت لهم من الخير صورا روحانية تلقى هذه الصورة الحادثة المتولدة من الأجساد بعد الموت، ويكون البعث عندهم للأرواح فتتصل هذه الأرواح النورانية بالنور الصرف، ويستدلون بقوله: (يوم هم بارزون)، أي: تبرز تلك الصور الروحانية من الأجساد؛ إذ الخلائق كلهم في جميع الأحوال والأوقات بارزون ظاهرون لله تعالى لم يكونوا في وقت مستورين عنه.

ولكن هذا فاسد؛ لأنه لو كان الأمر على ما يقوله الباطنية لكانت الأنفس إذا نامت وخرجت منها الصور الروحانية، فرأت رؤيا كانت تراها مختلطة غير متحققة، وفي حالة اليقظة تراها متحققة غير مختلطة؛ دل أن الإدراك للأجساد بواسطة الصور الروحانية، فيجب أن يكون البعث للكل، والله أعلم.

ولكن الوجه في ذلك ما ذكرنا، وأصله أنه سمي ذلك اليوم على ما سمي: يوم الجمع، ويوم التغابن، ويوم الحشر، وغير ذلك، سمي ذلك اليوم على أسماء مختلفة، كل اسم من ذلك لمعنى غير المعنى الآخر، والله أعلم.

وقوله – عز وجل –: (يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦)

قال بعضهم: أي: ظاهرون، لا شيء هنالك يسترهم، أي: يرتفع يومئذ جميع السواتر؛ وهو كقوله تعالى: (فيذرها قاعا صفصفا (١٠٦) لا ترى فيها عوجا ولا أمتا). أي: لا شيء فيها، يذكر هذا **لأن من الناس من** يقول: يستر الأشياء عن الله تعالى بالسواتر ردا لقولهم.

ويحتمل أن يكون قوله: (يوم هم بارزون) سمي ذلك اليوم: يوم البروز؛ لما يتفقون جميعا ويقرون بالكلمة التي اختلفوا في الدنيا فيها، فيبرزون جميعا متفقين مقرين على تلك الكلمة يومئذ وهي كلمة التوحيد، والله أعلم.." (١)

"ينفعه إيمان مؤمن، ولا يزيد في ملكه، ولا يضره كفر كافر، ولا ينقص من ملكه.

ويحتمل أن يكون قوله: (لله ملك السماوات والأرض) كقوله: (قل اللهم مالك الملك. . .) الآية.

ويحتمل أن يقول: له ملك السماوات والأرض؛ أي: هو يؤتي الملك من له الملك في الدنيا، وهو ينزع عمن يشاء؛ على ما ذكر في آية أخرى: (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء. . .) الآية.

وفيه نقض قول المعتزلة في خلق أفعال العباد منهم، وإنكارهم أن يكون فعل الله – تعالى – مخافة وقوع الشرك في ذلك بينهم وبين الله – تعالى – فيكون ذلك فعل الله – تعالى – وفعل العبد؛ إذ هو تفسير الشركة في الشاهد.

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٩/١٣

فيقال لهم: إن الله – تعالى – قال: له ملك السماوات والأرض، وقال في آية أخرى: (ولم يكن له شريك في الملك)، وقد رأينا الملوك في الدنيا، ثم لم يوجب ذلك الشركة في ملكه؛ لاختلاف المعنى والجهات؛ إذ حقيقة الملك له، ولغيره ليست حقيقة الملك، إنما له ملك الانتفاع، لا على الإطلاق؛ فعلى ذلك أفعال العباد من الخيرات خلقا لله تعالى، فيكون على قولهم غير خالق لأكثر الأشياء مما شاء؛ وهذا لأن قوله: (يخلق ما يشاء) إما أن خرج على الوصف بالربوبية لله تعالى والألوهية، أو على وجه الوعد والخبر بأنه يخلق ما يشاء.

فإن كان على الوصف له بالربوبية؛ فلا يكون ذلك وصف الربوبية؛ إذ لا يكون خالقا لجزء من عشرة آلاف من الأشياء التي شاء أن يخلقها، وإن كان على الوعد والخبر فيخرج كذبا على قولهم، فنعوذ بالله تعالى من السرف في القول، والله الموفق.

وقوله – عز وجل –: (يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور) يخبر – تعالى – أن الأولاد جميعا من الذكور والإناث مواهب الله – تعالى – وهداياه، فيجب أن يقبلوها منه قبول الهدايا والهبات على الشكر له والمنة، ثم بدأ بذكر الإناث ثم بالذكور؛ **لأن من الناس من** إذا ولد له الإناث يعدها مصيبة، ويثقل ذلك عليه، وعلى ذلك ما أخبر عن الكفرة أنهم إذا بشروا بالأنثى ظلت وجوههم مسودة بقوله – تعالى –: (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم)، يخبر عن ثقل ذلك عليهم، وغيظهم على ذلك فبدأ بذكر ذلك؛ لئلا يعد أهل الإسلام الأولاد الإناث مصيبة وبلاء على ما عدها الكفرة، والله أعلم.

وقوله – عز وجل –: (أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما إنه عليم قدير (٥٠) التزويج: هو الجمع بين الشكلين." (١)

"قوله تعالى: (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) الضمير في" تركنا" لله تعالى، أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج" يومئذ" أي وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض. واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم في بعض، كالمولهين من هم وخوف، فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم. قلت: فهذه ثلاثة أقوال أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الأول، لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى:" فإذا جاء وعد ربي". والله أعلم. قوله تعالى: (ونفخ في الصور) تقدم في (الأنعام) «١». (فجمعناهم جمعا) يعني الجن والإنس في عرصات القيامة. (وعرضنا جهنم) ١٠٠ أي أبرزناها لهم. (يومئذ للكافرين عرضا) ١٠٠ (الذين كانت أعينهم) في موضع خفض نعت" للكافرين". (في غطاء عن ذكري) ١٠ أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى. (وكانوا لا يستطيعون سمعا) ١٠ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى، فهم بمنزلة من صم. قوله تعالى: (أفحسب الذين كفروا) ١٠ أي ظن. وقرأ علي وعكرمة ومجاهد وابن محيصن:" أفحسب" بإسكان السين وضم الباء، أي كفاهم. (أن

---

(١) تفسير الماتريدي = تأويلات أهل السنة، أبو منصور الماتريدي ٩/١٤٠

يتخذوا عبادي) ١٠ يعني عيسى والملائكة وعزيرا. (من دوني أولياء) ١٠ ولا أعاقبهم، ففي الكلام حذف. وقال الزجاج: المعنى، أفحسبوا أن ينفعهم ذلك. (إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا) ١٠. قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) ١٠ إلى قوله: (وزنا) فيه مسألتان: الاولى- قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) ١٠ - الآية- فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر. روى البخاري عن مصعب قال:

(١). راجع ج ٧ ص ٢٠ فما بعد.." [1]

"تسبيح، حكاه النقاش. وقيل: التسبيح هاهنا ما يرى في المخلوق من أثر الصنعة. ومعنى" صافات" مصطفات الأجنحة في الهواء. وقرأ الجماعة" والطير" بالرفع عطفا على" من" وقال الزجاج: ويجوز" والطير" بمعنى مع الطير. قال النحاس: وسمعته يخبر" قمت وزيدا" بمعنى مع زيد. قال: وهو أجود من الرفع. قال: فإن قلت قمت أنا وزيد، كان الأجود الرفع، ويجوز النصب. (كل قد علم صلاته وتسبيحه) يجوز أن يكون المعنى: كل قد علم الله صلاته وتسبيحه، أي علم صلاة المصلي وتسبيح المسبح. ومن هذه الجهة يجوز نصب" كل" عند البصريين والكوفيين بإضمار فعل يفسره ما بعده. وقد قيل: المعنى قد علم كل مصل ومسبح صلاة نفسه وتسبيحه الذي كلفه. وقرأ بعض الناس" كل قد علم صلاته وتسبيحه" غير مسمى الفاعل. وذكر بعض النحويين أن بعضهم قرأ" كل قد علم صلاته وتسبيحه"، فيجوز أن يكون تقديره: كل قد علمه الله صلاته وتسبيحه. ويجوز أن يكون المعنى: كل قد علم غيره صلاته وتسبيحه، أي صلاة نفسه، فيكون التعليم الذي هو الإفهام والمراد الخصوص، لأن من الناس من لم يعلم. ويجوز أن يكون المعنى كل قد استدل منه المستدل، فعبر عن الاستدلال بالتعليم، قاله المهدوي. والصلاة هنا بمعنى التسبيح، وكرر تأكيدا، كقوله" يعلم السر والنجوى". والصلاة قد تسمى تسبيحا، قاله القشيري. (ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير) تقدم في غير موضع.

[سورة النور (٢٤): الآيات ٤٣ الى ٤٤]

ألم تر أن الله يزجي سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار (٤٣) يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار (٤٤)." [2]

"اشتقاقهما في" البقرة". وقال في سورة الحجر:" الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين «١» " فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة، وذلك لأن القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦٥/١١

(٢) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٨٧/١٢

صفة. ووصفه بالمبين لأنه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده، وقد تقدم. قوله تعالى: (هدى وبشرى للمؤمنين) " هدى" في موضع نصب على الحال من الكتاب، أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة. ويجوز فيه الرفع على الابتداء، أي هو هدى. وإن شئت على حذف حرف الصفة، أي فيه هدى. ويجوز أن يكون الخبر" للمؤمنين" ثم وصفهم فقال:" الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون" وقد مضى في أول" البقرة" «٢» بيان هذا. قوله تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة) أي لا يصدقون بالبعث. (زينا لهم أعمالهم) قيل: أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة. وقيل: زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها. وقال الزجاج: جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه. (فهم يعمهون) أي يترددون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم. عن ابن عباس. أبو العالية: يتمادون. قتادة: يلعبون. الحسن: يتحيرون، قال الراجز:

ومهمه أطرافه في مهمه ... أعمى الهدى بالحائرين العمه «٣»

قوله تعالى: (أولئك الذين لهم سوء العذاب) وهو جهنم. (وهم في الآخرة هم الأخسرون) " في الآخرة" تبيين وليس بمتعلق بالأخسرين **فإن من الناس من** خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر. قوله تعالى: (وإنك لتلقى القرآن) أي يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه. (من لدن حكيم عليم) " لدن" بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة، لأنها لا تتمكن، وفيها لغات ذكرت في" الكهف" «٤». وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الأقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

---

(١). راجع ج ١٠ ص ٣٥٢ طبعه [.....]

(٢). راجع ج ١ ص ١٦٢ طبعه

(٣). البيت لرؤبة، ويروى: بالجاهلين العمه.

(٤). راجع ج ١٠ ص ٣٥٢.." [(١)]

"أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحي فقد كذب، والله تعالى يقول:" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته" وقبح الله الروافض حيث قالوا: إنه صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أوحى إليه كان بالناس حاجة إليه. الثانية- قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) دليل على نبوته، لأن الله عز وجل أخبر أنه معصوم، ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئا مما أمره الله به. وسبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نازلا تحت شجرة فجاء أعرابي فاخترط «١» سيفه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: من يمنعك مني؟ فقال:" الله"، فذعرت يد الأعرابي وسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، ذكره المهدوي. وذكره القاضي عياض في كتاب الشفاء قال: وقد رويت هذه القصة في الصحيح، وأن غورث ابن الحارث صاحب القصة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنه، فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس. وقد تقدم

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ١٣/١٥٥

الكلام في هذا المعنى في هذه السورة عند قوله:" إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم" «٢» [المائدة: ١١] مستوفى، وفي" النساء" أيضا في ذكر صلاة الخوف. وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: غزونا مع وسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في واد كثير العضاه «٣» فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف مصلتا «٤» في يده فقال لي من يمنعك مني- قال- قلت الله ثم قال في الثانية من يمنعك مني- قال- قلت الله قال فشام «٥» السيف فها هو ذا جالس" ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني

---

(١). اخترط سيفه: استله.

(٢). راجع ص ١١١ من هذا الجزء. وج ٥ ص ٣٧٢.

(٣). العضاه: شجر عظيم له شوك، وقيل: أعظم الشجر.

(٤). صلتا: أي مجردا من غمده. وفي ك: صلت.

(٥). شام السيف. أي غمده ورده في غمده، يقال: شام السيف إذا سله وإذا أغمده، فهو من الأضداد. والمراد هنا أغمده.." (١)

"أي من مر حجج ومن مر دهر. وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن" من" لا يجر بها الأزمان، وإنما تجر الأزمان بمنذ، تقول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم، ولا تقول: من شهر ولا من سنة ولا من يوم. فإذا وقعت في الكلام وهي يليها زمن فيقدر مضمر يليق أن يجر بمن، كما ذكرنا في تقدير البيت. ابن عطية. ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقدير، وأن تكون" من" تجر لفظة" أول" لأنها بمعنى البداءة، كأنه قال: من مبتدأ الأيام. السادسة- قوله تعالى: (أحق أن تقوم فيه) أي بأن تقوم، فهو في موضع نصب. و" أحق" هو أفعل من الحق، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لأحدهما في المعنى الذي اشتركا فيه مزية على الآخر، فمسجد الضرار وإن كان باطلا لا حق فيه، فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للمسجدية، لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله، والآخر حق باطنا وظاهرا، ومثل هذا قوله تعالى:" أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا" «١» [الفرقان: ٢٤] ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير، إذ كل حزب بما لديهم فرحون. وليس هذا من قبيل: العسل أحلى من الخل، فإن العسل! وإن كان حلوا فكل شي ملائم فهو حلو، ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل «٢» مفردا بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف. السابعة- قوله تعالى: (فيه) من قال: إن المسجد يراد به مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فالهاء في"

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٦/٢٤٣

أحق أن تقوم فيه" عائد إليه. و" فيه رجال" له أيضا. ومن قال: إنه مسجد قباء، فالضمير في" فيه" عائد إليه على الخلاف المتقدم. الثامنة- أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة، وهي مروءة آدمية ووظيفة شرعية، وفي الترمذي عن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت: مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإني أستحييهم. قال: حديث صحيح. وثبت أن

---

(١). راجع ج ١٣ ص

(٢). كذا في الأصول.." [1]

"قال ابن عرفة: فتقدير (السببية) على هذا إما أنهم نهوا عن الاقتصار (في الدعاء) بمصالح الدنيا فقط وأمروا بالشعور بالآخرة واستحضار وجودها.

قال: ويحتمل (تقدير) السببية بوجهين آخرين. أحدهما: أن في الآية اللف والنشر من «يقول ربنآ آتنا في الدنيا» راجع لقوله «كذكركم آبآءكم» وقوله تعالى ﴿ومنهم من يقول ربنآ آتنا في الدنيا حسنة﴾ راجع إلى قوله «أو أشد ذكرا».

قيل لابن عرفة: (يعكر) عليه قوله «وما له في الأخرة من خلاق» (يدل على أنه كافر فيكف يذكر الله كذكره أباه؟ فقال: قد تقرر أن «وما له في الأخرة من خلاق» (معتبر) بأمرين لأن الواو فيه واو الحال فيحتمل أن يراد أنه في نفس الأمر ليس له نصيب في الآخرة، ويحتمل (أن) يريد من الناس المؤمنين من يطلب أمور الدنيا، ولم يتعلق له بال بطلب الثواب في الآخرة عليه، فقد يعمل العمل الصالح، ويطلب المعونة عليه، ولم يخطر بباله طلب الثواب عليه في الآخرة بوجه (أو بطلب الرزق الحلال من نعيم الدنيا ومستلذاتها، ويصرفه في وجهه وهو مع ذلك طائع، ولا يتشوق إلى طلب الآخرة بوجه) بل (يغفل) عن ذلك.

الوجه الثاني في تقرير السببية: أنه لما تقدم الأمر بذكر الله عقبه بهذا تنبيها على **أن من الناس من** لا يمتثل هذا الامر ولا يقبله، ومنهم من يمتثله ويعمل بمقتضاه فهو الذي يقول: ﴿ربنآ آتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة﴾ أو يرجع إلى القبول والأجر. وتقرر أن القبول أخص، فمن الناس من يفعل العبادة فلا يجزيه ويخرجه من عهدة التكليف فقط ولا يثاب عليها كمن يصلي رياء ومنهم من يفعلها بالإخلاص ونية فتقبل منه، ويثاب عليها في الدار الآخرة.

قال ابن عرفة: وعادتهم يختلفون في الألف واللام في «الناس» فمنهم من كان يقول إنها للعهد والمراد بها الناس الحجاج (ومنهم من جعلها للجنس فعلى أنها للعهد يكون التقسيم مستوفيا لأن الحجاج) لا بد أنهم يدعون إما بأمر دنيوي أو بأخروي (وعلى أنها للجنس لايكون مستوفيا) لأن بعض الناس قد لا يدعون بشيء أصلا لا دنيوي ولا أخروي.

قيل لابن عرفة: وكذلك على أنها للعهد لأن بعض الحجاج يدعو أيضا بأمر الآخرة فقط؟ ...

قال أبو حيان: ومفعول «آتنا» الأول محذوف.." [2]

---

(١) تفسير القرطبي، شمس الدين القرطبي ٢٦١/٨

(٢) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٢٤٦/١

"ابن عرفة: يحتمل أن يكون جميع المؤمنين بالنسبة إلى المنفوق المتفق عليه، فهل المراد أنهم ينفقون في يسرهم وعسرهم، أو أنهم ينفقون على الموسر والمعسر، والأول أدخل في مقام المجد والثناء.

قوله تعالى: (والعافين عن الناس).

ابن عرفة: إذا عفى الإنسان عمن قتل ابنه فإنه يصح عفوه، ولا يجوز عفو عمن قطع الطريق عن ابنه.

ابن عرفة: والمراد مجموع هؤلاء بحسب الإمكان فإن من الناس من لا يعمل له أحد ما يوجب غضبه.

قال الزمخشري: وعن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم "إن هؤلاء في أمتي قليل إلا من عصمه الله، وقد كانوا كثيرا في الأمم كلها إلا في الأمة التي مضت".

قيل لابن عرفة: كيف وهذه الأمة أفضل من سائر الأمم، فأجاب بوجهين: إما أن يراد أن هذه الأوصاف فيهم أقل مما هي في مجموع سائر الأمم كلها لا في أحد كل أمة على انفرادها، وإما أن يكون المراد أنهم لفضلهم وشرفهم الفساد فيهم، والعصيان بالنسبة قليل إليه في أحد كل أمة على حدتها، والعفو فيهم قليل بالنسبة إليه مع كل أمة على حدتها لعله لقلة سببها.

قوله تعالى: (والله يحب المحسنين).

قال الزمخشري: يجوز أن يكون الاسم للجنس، فيتناول كل محسن، ويدخل تحته هؤلاء المذكورون، ويجوز أن يكون للعهد والمراد به هؤلاء فقط.

ابن عرفة: فإن كانت للعهد فيكون المحسن مرادفا للنفي، وإن كان للجنس فيكون المحسن أعم من المتقي، كما تقول: كل إنسان حيوان والحيوان أعم، وكذلك هنا كل متق محسن.

قوله تعالى: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة ... (١٣٥)﴾

الزمخشري: أي فعلة زائدة القبح: (أو ظلموا أنفسهم) معناه أذنبوا ذنبا أي ذنب كان.." [١]

"النبي (- صلى الله عليه وسلم -) لتزوجت عائشة، فنزلت. وعن أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم قال: نزلت في طلحة لأنه قال إذا توفي النبي (- صلى الله عليه وسلم -) تزوجت عائشة. قال ابن عطية: وهذا عندي لا يصح على طلحة.

قال القرطبي: قال شيخنا الإمام أبو العباس وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله، وإنما الكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا القول بالمنافقين الجهال.

وعن ابن عباس قال: قال رجل من أصحاب النبي (- صلى الله عليه وسلم -) لو قد مات رسول الله (- صلى الله عليه وسلم -) تزوجت عائشة وأم سلمة فأنزل الله: (وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) الآية وعنه أن رجلا أتى بعض أزواج رسول الله (- صلى الله عليه وسلم -) فكلمها وهو ابن عمها فقال النبي (- صلى الله عليه وسلم -): [لا تقومن هذا

---

(١) تفسير ابن عرفة النسخة الكاملة، ابن عرفة ٤١٣/١

المقام بعد يومك هذا] فقال: يا رسول الله إنها ابنة عمي والله ما قلت لها منكرا، ولا قالت لي. قال النبي (– صلى الله عليه وسلم –): [قد عرفت ذلك إنه ليس أحد أغير من الله وأنه ليس أحد أغير مني] فمضى ثم قال: يمنعني من كلام ابنة عمي لأتزوجنها من بعده. فأنزل الله هذه الآية فأعتق ذلك الرجل رقبة وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله وحج ماشيا توبة من كلمته.

وعن أسماء بنت عميس قالت: خطبني علي فبلغ ذلك فاطمة فأتت النبي (– صلى الله عليه وسلم –) فقالت: إن أسماء متزوجة عليا فقال لها النبي (– صلى الله عليه وسلم –)، ما كان لها أن تؤذي الله ورسوله، والذي جرى عليه الرملي في شرح المنهاج أن من عقد عليها النبي (– صلى الله عليه وسلم –) تحرم على غيره سواء دخل بها صلى الله عليه وسلم أو لا، وأما حكم إمائه فمن دخل بها منهن حرمت على غيره وإلا فلا.

(إن ذلكم) أي نكاح أزواجه من بعده (كان عند الله عظيما) أي ذنبا عظيما، وخطبا هائلا شديدا وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله – صلى الله عليه وسلم – وإيجاب حرمته حيا وميتا، وإعلامه بذلك مما طيب نفسه، وسر قلبه، واستفرغ شكره **فإن من الناس من** تفرط غيرته على حرمته حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده.." (١)

"أرسلني الله به من إثبات التوحيد لله، وإيفاء المكيال والميزان، وعدم بخس الناس أشياءهم، وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، ونحو ذلك.

﴿وطائفة﴾ أخرى ﴿لم يؤمنوا﴾ بي بل كفروا، وصارت الطائفتان طائفتين مختلفتين كل منهما تقول: إننا على الحق والأخرى على الباطل ﴿فاصبروا﴾ انتظروا قضاء الله وحكمه حتى يحكم بيننا وهو خير من يحكم. وفي هذا أعظم تهديد، فالكفار يرون حكم الله سيأتي بإهلاك الظالم الكافر وإنجاء المسلم، وقد حكم الله بينهم هذا الحكم المنتظر في قوله: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ ثم قال: ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود (٩٥)﴾ [هود: الآيتان ٩٤، ٩٥] هذا حكم الله جاء مبينا في سورة هود، وستأتي الإشارة إليه هنا في سورة الأعراف (١). وهذا معنى قوله: ﴿فاصبروا﴾ [الأعراف: آية ٨٧] أي: انتظروا وتربصوا.

﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ حتى حرف غاية، والفعل المضارع بعدها منصوب بـ (أن) مضمرة، وهو في محل جر بمعنى ﴿حتى يحكم الله﴾ إلى أن يحكم الله ﴿بيننا﴾ إلى أن يأتي حكم الله بيننا. فالمقصود أن حكم الله عاقبته لنا فيهلك الكافر وينجي المسلم كما لا يخفى.

﴿وهو خير الحاكمين﴾ [الأعراف: آية ٨٧] جل وعلا. (خير) هنا صيغة تفضيل؛ **لأن من الناس من** يحكم، في الدنيا حكام

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٣١/١١

(١) انظر: الأضواء (٢/ ٣٢٧).." [(١)]

"والطيب هو الذي تستطيبه النفوس، وينميها ويغذيها غذاء صالحا، ولا يكون طيبا إلا إذا كان كسبه من حلال ولا يكون من حرام، ولا يكون حلالا إذا كان من الرشوة أو من السحت أو الربا أو من غلول، وفي الجملة أن يكون كسبه خبيثا، ولو كان في أصله طيبا. روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سمع قوله تعالى: (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا) فقال عليه الصلاة والسلام: " والذي نفسي بيده، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما، وأيما عبد نبت لحمه من السحت أو الربا، فالنار أولى به " (١).

وبعد الأمر بالحلال نهى عن كل حرام بألا يطيع الشيطان، فقال تعالى: (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) وهذا يصل الكلام بالآية السابقة التي بينت **أن من الناس من** اتخذ أندادا بوسوسته وإغرائه.

الخطوات جمع خطوة بضم الخاء وهي الأفصح، ويجوز فيها خطوة بفتحها والخطوة ما بين القدمين عند انتقالهما، والخطوات ما بينهما متتابعا، وهذا كناية عن السير في طريق، وتتبع السير فيه، باتباع حركاته، وسيرها، وكأنما شبهت حال أتباعه بحال من يتبع سيره خطوة بعد خطوة، فلو سار به في ضلال سار معه، وانهوى به في هاوية من الفساد، وإن السير وراءه هو سير وراء عدو واضح العداوة، ولذا قال تعالى معللا النهي بقوله تعالى: (إنه لكم عدو مبين)، بمعنى بين العداوة لا يخفيها ولا يطويها، فمبين بمعنى إن عداوته جلية واضحة؛ لأنه يبينها ولا يخفيها من يوم أن عارض آدم كما قال تعالى: (اهبطوا بعضكم لبعض عدو. . .)، وكما قال تعالى: (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير)، وكما قال تعالى: (إنه عدو مضل مبين)، وكما قال تعالى: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء. . .).

(١) رواه بهذا اللفظ الطبراني في الصغير عن ابن عباس رضي الله عنهما. [راجع مجمع الزوائد (١٠١٨١)، والترغيب والترهيب (٢٦٦٤) وتخريج أحاديث الإحياء للعراقي ج ٢ ص ٩٠ (الحلبي)].." [(٢)]

"ثانيهما – أنه قد يقول بعض الجاهلين **إن من الناس من** يضر ومن ينفع، ونقول: إنه نفع جزئي، وضرر جزئي، ولا يكون إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى عليك، لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم ينفعوك، وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته: (والله هو السميع العليم).

أي أنهم يتركون عبادة الله تعالى وحده وهو العالم بكل شيء الذي لا يغيب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو العالم علم من يسمع ويرى، وهو بهذا العلم المحيط الدقيق الذي أحاط بكل الوجود يكون هو وحده الذي يضرهم

(١) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير، الشنقيطي، محمد الأمين ٥٩٣/٣

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٤٩٩/١

وينفعهم، يتركونه ليعبدوا ما لا ينفع ولا يضر، ولكنه ضلال العقول.
* * *". (١)

"(فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (٤٥)
* * *

الفاء هنا للتفريع على ما قبلها، و (دابر القوم) أي آخر. والدابر هو الآخر وإذا قطع الدابر، فإن معنى ذلك أن القطع سرى من الأول حتى وصل إلى الدابر، وإطلاق الدابر بمعنى الآض جاء في كلام العرب، ومن ذلك قول بعضهم: " إن من الناس من لا يأتي الصلاة إلا دابرا " أي آخر الوقت والدابر تجيء بمعنى الأصل.

والمؤدى واحد في النص الكريم، أي قطع الذين ظلموا عن آخرهم، وذلك بسبب." (٢)

"و الكتاب جميعه أمثلة على ما قلناه آخذ بعضها برقاب بعض حتى إن الناظر فيه لا يجد أي صعوبة في تلقف الأمثلة في سياق أي جملة أو عبارة قرآنية. و مع أن نقل نماذج في هذا المقام مؤد إلى التطويل بسبب كثرة التداخل و التفريع و الاستطراد و طول النفس فإننا رأينا أن نورد بعض المقتطفات الموضوعية مع مثال أسلوبي واحد: التفسير الحديث، ج ١، ص: ٢٥٢

(١) تساءل المؤلف في سياق جملة أو كصيب من السماء [البقرة:
١٩]، عن فائدة ذكر السماء مع أن الصيب لا يكون إلا من السماء و أجاب بقوله إن ذلك لئلا يظن احتمال نزول الصيب من بعض جوانب السماء دون بعض، فلما ذكرت السماء دل على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء جميعها. ثم استطرد فقال إن من الناس من قال إن المطر يحصل من ارتفاع أبخرة من الأرض إلى الهواء فتنعقد هناك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة أخرى فذاك هو المطر فأبطل الله ذلك المذهب حيث بين أن الصيب نزل من السماء، و أكده في آيات أخرى مثل و أنزلنا من السماء ماء طهورا [الفرقان: ٤٨]، و و ينزل من السماء من جبال فيها من برد [النور: ٤٣]، و التكلف في التساؤل واضح كما أنه ربط في استطراداته نظرية ماهية المطر بنصوص قرآنية و في هذا تعريض للقرآن للنقاش الجدلي.
.)" (٣)

"الجدل و الاحتجاج، و تبرير ما هم عليه من شرك و تقاليد باطلة و مما علقنا عليه تعليقا يغني عن التكرار. و الرد الوارد عليهم في الآيات موجه إلى العقل و القلب معا، و فيه إنذار للكفار و تطمين و تسلية للنبي عليه السلام. فهذا القول ليس جديدا فقد كان يقوله الكفار المشركون من الأمم السابقة. و لقد أرسل الله إلى كل أمة رسولا لبيان الحق و الباطل و الحلال و الحرام، و عبادة الله وحده و اجتناب الشرك و الأوثان لأن الناس قد لا يدركون هذا من

---

(١) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢٣١٥/٥

(٢) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة ٢٥٠١/٥

(٣) التفسير الحديث، ص/٣١٤

أنفسهم فكان منهم المهتدي و منهم الضال. و ليس على الرسل إلا البلاغ فمن هداه الله اهتدى و من حقت عليه الضلالة ضل. و في الآية الأخيرة التفات للنبي على سبيل التطمين فالله يعلم أنه حريص على هداية الجميع و لكن الله لا يمكن أن يهدي من حقت عليه الضلالة و ضل فلا محل للاغتمام و الحزن، و لن يجد هؤلاء لهم ناصرا و لا منقذا. و قد آمن معظم الذين ضلوا و كفروا برسالة النبي صلى الله عليه و سلم في مكة فيما بعد و حسن إسلامهم مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الآيات على سبيل تطمين النبي صلى الله عليه و سلم، و مما ينطوي فيه ما ذكرناه في مناسبة سابقة مماثلة من قصد تقرير واقع الكفار الضالين حين نزول الآيات، و ليس قصد التأبيد في الإضلال الذي قد يعني عدم التوفيق و السداد و الذي ليس إلا بالنسبة للذين كفروا و ضلوا و ماتوا على ذلك.

و بالنسبة لما احتوته الآيات من كون الذين يهديهم الله يهتدون و من يضلهم الله يضلون، و **إن من الناس من** هدى الله و منهم من حقت عليهم الضلالة.

نقول إنه إذا لحظ التخصيص الذي احتوته آية البقرة [٢٦]: يضل به كثيرا و يهدي به كثيرا و ما يضل به إلا الفاسقين و آية إبراهيم [٢٧]:." (١)

"التفسير الحديث، ج ٩، ص: ١٨١

المقصود بها تطمينه من قريش الذين كان يهابهم. و روي عن محمد بن كعب القرظي أن جملة و الله يعصمك من الناس نزلت في مناسبة مجيء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه و سلم و هو وحده في ظل شجرة فاخترط سيفه ثم قال من يمنعك مني؟ قال:

الله، فرعدت يد الأعرابي و سقط السيف منه و ضرب رأسه بالشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله الجملة. و روى ابن كثير عن عكرمة عن ابن عباس قال «كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال: إن الله قد عصمني من الجن و الإنس». و روى البغوي عن الحسن أن الله لما بعث رسوله ضاق ذرعا و عرف **أن من الناس من** يكذبه فأنزل الله الآية. و قال البغوي بعد هذه الرواية و قيل إنها نزلت في عتب اليهود حيث دعاهم النبي صلى الله عليه و سلم فاستهزأوا به و قالوا تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى فسكت عنهم فنزلت.." (٢)

"٢- إبراز جهنم إبرازا ظاهرا واضحا للكفار بعد الحشر بسبب عدم النظر في دلائل الله تعالى على وجوده ووحدانيته ، وعدم إطاقتهم سماع كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة العمي والصم. وفي هذا نوع من العقاب النفساني المؤلم بسبب ما ينتابهم حينئذ من الغم والكرب العظيم.

٣- يخطئ الكفار حين يظنون أن اتخاذهم معبودين من دون الله ، كعيسى وعزير والملائكة ينفعهم يوم القيامة ، وأن الله لا يعاقبهم على ذلك ، كلا ، فإن الله أعد لهم جهنم منزلا ومأوى.

---

(١) التفسير الحديث، ص/٢٩٨٦

(٢) التفسير الحديث، ص/٥٦٧١

٤- إن أشد الناس خسارة يوم القيامة هم الذين ضل سعيهم في الدنيا ، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا في عبادة من سوى الله ، فهم الأخسرون أعمالا ، روى

ج ١٦ ، ص : ٣٨

البخاري عن مصعب قال : سألت أبي : قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا أهم الحرورية ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ، والحرورية (أي الخوارج) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وكان سعد يسميهم الفاسقين.

والحقيقة أن الآية تشمل جميع أهل الضلال سواء من أهل الكتاب أو من المشركين.

٥- في هذه الآية : قل : هل ننبئكم .. دلالة على أن من الناس من يعمل العمل ، وهو يظن أنه محسن ، وقد حبط سعيه ، والذي يوجب إحباط السعي : إما فساد الاعتقاد أو المراءاة.

٦- إن سبب خسارة أعمال أهل الضلال هو الكفر بآيات الله وبالبعث ، وهذا يشمل مشركي مكة عبدة الأوثان ، وأهل الكتاب أيضا لأن إيمان هؤلاء بالبعث مشوة غير صحيح.." (١)

"و ختمت السورة بتصنيف الناس إلى سعداء أبرار ، وأشقياء فجار ، وجزاء كل بما يستحق خيرا أو شرا ، وإعلام المشركين بوجوب عبادة الله وحده ، والتخلي عن عبادة الأصنام والأوثان ، والالتزام بمنهج القرآن ودستوره في الحياة لأنه نور وهداية ، ومن اهتدى فلنفسه ومن ضل فعليها ، وتعريفهم بآيات الله العظمى في وقت لا ينفعهم فيه شيء غير الإيمان بالله وحده ، وتعرضهم للجزاء الحتمي عن جميع أعمالهم.

والخلاصة : أن ما ذكر في هذه السورة يدعو إلى المبادرة إلى الإيمان بالله تعالى ربا وإلها لا شريك له ، والتصديق بالبعث طريقا لإنصاف الخلائق ، واتخاذ القرآن نبراسا ودستورا للحياة الإنسانية.

ج ١٩ ، ص : ٢٥٥

رسالة القرآن [سورة النمل (٢٧) : الآيات ١ الى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤)

أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦)

الإعراب :

هدى .. إما منصوب على الحال من الكتاب ، أي تلك آيات القرآن هاديا ، وبشرى عطف عليه ، أي مبشرا وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي هو هدى ، أو خبر بعد خبر ، فإن قوله تعالى : تلك مبتدأ ، وآيات القرآن خبره ، وهدى خبر بعد خبر.

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٧/١٦

في الآخرة هم الأخسرون في الآخرة تبيين ، وليس بمتعلق بالأخسرين ، فإن من الناس من خسر الدنيا وربح الآخرة ، وهؤلاء خسروا الآخرة.

البلاغة :." (١)

"إذا أطلقتها من مكانها ، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا كامل المدارك. ويرى الأطباء أن من الناس من يبقى حيا زمنا طويلا ، لكنه يكون فاقد الحس والشعور ، وهو المسمى لديهم بالسبات : وهو النوم المستغرق ، ومرد كل ذلك إلى قدرة الله بالحفظ مائة سنة أو ثلثمائة سنة أو أكثر أو أقل ، وقال القرطبي : وظاهر هذه الإماتة أنها بإخراج الروح من الجسد. طعامك التين وشرابك العصير لم يتسنه لم يتغير مع طول الزمان ، والهاء إما للسكت من سانيت ، وإما من أصل الكلمة وهي سانهت وانظر إلى حمارك كيف هو ، فرآه ميتا وعظامه باقية ولنجعلك فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية على البعث ، أي علامة على قدرة

ج ٣ ، ص : ٣٣

الله ننشزها نرفعها من الأرض ثم نردها إلى أماكنها من الجسد وقرئ « ننشرها » أي نحييها ثم نكسوها لحما فنظر إليها وقد تركبت وكسيت لحما ، ونفخ في الجسد الروح ، وظهرت عليه علائم الحياة أعلم علم مشاهدة.

المناسبة :

القصة السابقة لإثبات وجود الله ، وهذه القصة والتي تليها في قوله تعالى :

وإذ قال إبراهيم لإثبات الحشر والبعث بعد الفناء.

التفسير والبيان :

أ رأيت مثل هذا الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، أي ساقطة جدرانها على سقوفها « ١ » ، وهي معطوفة على قوله تعالى : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه وهي بمعنى قوله : هل رأيت مثل الذي حاج في ربه. وما هي القرية ؟ ومن هو المار ؟ قيل : إنه بيت المقدس ، والمار : هو عزير بن شرخيا ، وهو القول المشهور ، وقيل : هي دير هرقل على شط الدجلة ، والمار :

هو أرميا من سبط هارون عليه السلام. وقيل : إنه الخضر عليه السلام ، وقيل :

اسمه حزقيل بن بوار ، وقال مجاهد : هو رجل من بني إسرائيل.." (٢)

"و اللام في لله تتعلق بشركاء. ويجوز أن نجعل الجن بدلا من شركاء ، واللام في لله تتعلق ب (جعل). أو قرئ الجن بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هم الجن.

المفردات اللغوية :

وخرقوا مثل اختلفوا ، والخرق والاختلاق للكلام : ابتداع الكذب. وأما الخلق : فهو فعل الشيء بتدبير ورفق. وأما الإبداع

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٢٦١/١٩

(٢) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٢/٣

فهو إنشاء الشيء بلا اقتداء بأحد ، والبديع من أسمائه تعالى :

أي مبدع الأشياء ومحدثها على غير مثال سابق ، ومنه البدعة في الدين لأنه لا نظير لها فيما سلف.

لا تدركه الأبصار أي لا تراه ، والإدراك : اللحاق والوصول إلى الشيء ، والبصر : حاسة الرؤية ، اللطيف الرفيق بعباده وأوليائه الخبير بشؤون خلقه.

المناسبة :

بعد أن ذكر تعالى البراهين الخمسة على ثبوت الألوهية ، وكمال القدرة والرحمة ، ذكر عقب ذلك **أن من الناس من** أثبت لله شركاء من عالم الجن ، أو من اختراع نسل له من البنين والبنات.

التفسير والبيان :

هذه الآيات رد على مشركي العرب الذين عبدوا مع الله غيره ، وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن ، فجعلوهم شركاء له في العبادة ، وأما عبادتهم الأصنام فلم تكن إلا بطاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك ، كقوله تعالى : إن يدعون من دونه إلا إناثا ، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا. لعنه الله ، وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله ، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر

ج ٧ ، ص : ٣١٤

خسرانا مبينا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا

[النساء ٤/ ١١٧- ١٢٠]..". (١)

"ج ٣ ، ص : ٣٣

بين الحق والباطل ، وكان لا بد من عقاب العصاة وإثابة المؤمنين ، فكان الهلاك والتدمير لبعض الأمم ، ونزعت البركة من الناس ، وعوقبوا بنقص في الأموال والأنفس والثمرات كي يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم ، وهذا معنى قوله تعالى : ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون فكان القحط ونزع البركة وحلول بعض الآفات جزاء في الدنيا لأعمال الكفار والعصاة لعلهم يرجعون عماهم فيه ، **فإن من الناس من** لا يستقيم أمره إلا بإيقاع العذاب عليهم سريعا.

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله حيث كلفهم بأن يسيروا في الأرض لينظروا كيف أهلك الله الأمم السابقة ، وأذاقهم سوء العذاب لطغيانهم وسوء أعمالهم وكأن قوله - سبحانه وتعالى - : كان أكثرهم مشركين كالبرهان على أن الشرك وحده لم يكن سبب التدمير وإيقاع العذاب ، بل قد يكون ما دونه مما تحقر من الأعمال هو سبب البلاء والعذاب ، نعم فالمسلمون الآن يؤمنون بالله ، ولكنهم يأتون أعمالا هي سبب خذلانهم وضعفهم وإيقاع العذاب بهم ، فهل من مدكر ؟ ! لما نهى الكافر عما هو عليه ، أمر المؤمن بالواجب عليه فقال مخاطبا الرسول إيذانا بخطر المأمور به ، وعناية به :

---

(١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج، ٣٢٥/٧

إذا كان الأمر كذلك فأقم وجهك ، واجعل قصدك خالصا للدين القيم الذي هو الإسلام فهو دين الفطرة الإنسانية ، ولا تلتفت لغيره أبدا من قبل أن يأتى يوم الحساب والجزاء ، وهو يوم لا يرده راد ، ولا يتهيأ لأحد دفعه من دون الله. يومئذ يصدعون ويتفرقون ، فريق في الجنة وفريق في السعير ، وهذا شحذ للهمة ، وتحريض على انتهاز الفرصة من قبل هذا اليوم.

من كفر فعليه وزر كفره وعاقبته ، ومن عمل صالحا بعد الإيمان فلنفسه طلب الخير ، ولها مهد مقعدا كريما وهيأ لها مسكنا مناسبا يتناسب مع ما قدم من العمل.

كل ذلك ليجزي ربك الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إذ لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، ولكن بمحض فضل الله.

أما الكفار فإن ربك لا يحبهم ، وناهيك بعدم المحبة فهي عنوان العذاب الدائم والألم الشديد بما كانوا يكسبون ، وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ..." (١)

"هو إشارة إلى هذه المشاعر اليقظى ، وتلك الأحاسيس المرهفة ، التي ينبغى أن يكون عليها المؤمن ، فإنه بقدر ما يكون عليه المؤمن من هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ، بقدر ما تكون منزلته فى الإنسانية ..

والإيمان من شأنه أن يربى هذه المشاعر ، وينمى هذه الأحاسيس ، وبمقياس الإيمان ، تقاس هذه المشاعر وتلك الأحاسيس ..

والعلم ، شأنه فى هذا شأن الإيمان ، فى رفع إنسانية الإنسان ، وإعلاء منزلته .. فالإيمان ، هو فى حقيقته علم ، والعلم فى حقيقته إيمان .. وإن إيمانا لا يقوم على علم ، هو إيمان هزيل باهت ، لا يؤثر أثرا ، ولا يطلع زهرا ولا ثمرا ..

وإن علما لا يفتح للعقل والقلب طريقا إلى الإيمان ، ولا تنقدح منه شرارات مضيئة ، تضى ء للإنسان طريقه إلى الله ، هو نار تحرق ، أو دخان يعمى العيون ، ويزكم الأنوف ، ويخنق الصدور ..

وقد جمعت الآية الكريمة بين الإيمان والعلم ، وجعلت كلا منهما صفة لموصوف ، كما يقول سبحانه : « يرفع الله الذين آمنوا منكم ، و الذين أوتوا العلم » ولم يجى ء النظم هكذا : يرفع الله الذي آمنوا منكم وأوتوا العلم » .. وذلك **أن من الناس من** يبدأ الطريق بالعلم ، ثم يقوده هذا العلم إلى الإيمان .. ومنهم من يبدأ الطريق بالإيمان ثم ، يقوده الإيمان إلى العلم.

فالمؤمن حق الإيمان .. عالم ..

والعالم حق العلم .. مؤمن ..

قوله تعالى :

«يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم و أطهر فإن لم تجدوا فإن الله

---

(١) التفسير الواضح ـ موافقا للمطبوع، ٣/٣٣

غفور رحيم » .

التفسير القرآني للقرآن ، ج ١٤ ، ص : ٨٣٤." (١)

" صفحة رقم ٥٨٩

لقوله (كذكركم آبآءكم) وقوله تعالى) ومنهم من يقول ربنآ آتنا في الدنيا حسنة (راجع إلى قوله (أو أشد ذكرا).

قيل لابن عرفة : (يعكر) عليه قوله (وما له في الأخرة من خلاق) (يدل على أنه كافر فيكف يذكر الله كذكره أباه ؟

فقال : قد تقرر أن (وما له في الأخرة من خلاق) (معتبر) بأمرين لأن الواو فيه واو الحال فيحتمل أن يراد أنه في نفس الأمر ليس له نصيب في الآخرة ، ويحتمل (أن) يريد من الناس المؤمنين من يطلب أمور الدنيا ، ولم يتعلق له بال بطلب الثواب في الآخرة عليه ، فقد يعمل العمل الصالح ، ويطلب المعونة عليه ، ولم يخطر بباله طلب الثواب عليه في الآخرة بوجه (أو بطلب الرزق الحلال من نعيم الدنيا ومستلذاتها ، ويصرفه في وجهه وهو مع ذلك طائع ، ولا يتشوق إلى طلب الآخرة بوجه) بل (يغفل) عن ذلك.

الوجه الثاني في تقرير السببية : أنه لما تقدم الأمر بذكر الله عقبه بهذا تنبيها على **أن من الناس من** لا يمتثل هذا الامر ولا يقبله ، ومنهم من يمتثله ويعمل بمقتضاه فهو الذي يقول :) ربنآ آتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة (أو يرجع إلى القبول والأجر.

وتقرر أن القبول أخص ، فمن الناس من يفعل العبادة فلا يجزيه ويخرجه من عهدة التكليف فقط ولا يثاب عليها كمن يصلي رياء ومنهم من يفعلها بالإخلاص ونية فتقبل منه ، ويثاب عليها في الدار الآخرة .." (٢)

"[النازعات:٤١]، والعبادة إذا أضيف إلى اسم الجلالة يراد به عباد مقربون قال تعالى: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ [الحجر:٤٢] في سورة الحجر.

ومناسبة هذا التذييل للجملة أن المخبر عنهم قد بذلوا أنفسهم لله وجعلوا أنفسهم عبيده فالله رءوف بهم كرأفة الإنسان بعبده فإن كان ما صدق "من" عاما كما هو الظاهر في كل من بذل نفسه لله، فالمعنى والله رءوف بهم فعدل عن الإضمار إلى الإظهار ليكون هذا التذييل، وليدل على أن سبب الرأفة بهم أنهم جعلوا أنفسهم عبادا له، وإن كان ما صدق "من" صهيبا رضي الله عنه فالمعنى والله رءوف الذين صهيب منهم، والجملة تذييل على كل حال. والمناسبة أن صهيبا كان عبدا للروم ثم لطائفة من قريش وهم بنو كلب وهم لم يرأفوا به، لأنه عذب في الله فلما صار عبد الله رأف به.

وفي هذه الآية وهي قوله: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ [البقرة:٢٠٤] إلى قوله: ﴿رؤوف بالعباد﴾ معان معاني أدب النفوس ومراتبها وأخلاقها تعلم المؤمنين واجب التوسم في الحقائق ودواخل الأمور وعدم الاغترار نالظواهر إلا بعد التجربة والامتحان، **فإن من الناس من** يغر بحسن ظاهره وهو منطو على باطن سوء ويعطي من لسانه حلاوة تعبير وهو يضمر الشر والكيد قال المعري:

---

(١) التفسير القرآني للقرآن، ٣٨٥/١

(٢) تفسير ابن عرفة ترقيم الشاملة موافق للمطبوع، ٥٨٩/٢

وقد يخلف الإنسان ظن عشيرة ... وإن راق منه منظر ورواء

وقد شمل هذا الحال قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا" بأحد معنييه المحتوي عليهما وهو من جوامع الكلم وتبغ هلهلة دينه إلى حد أن يشهد الله على أن ما يقوله صدق وهو بعكس ذلك يبيت في نفسه الخصام والكراهية.

وعلامة الباطن تكون في تصرفات المرء فالذي يحب الفساد ويهلك الحرث والنسل ولا يكون صاحب ضمير طيب، وأن الذي لا يصغي إلى دعوة الحق إذا دعوته إليه ويظهر عليه الاعتزاز بالظلم لا يرعوي عن غيه ولا يترك أخلاقه الذميمة، والذي لا يشح بنفسه في نصرة الحق ينبئ خلقه عن إيثار الحق والخير على الباطل والفساد ومن لا يرأف فالله لا يرأف به.

[٢٠٨، ٢٠٩] ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم." (١)

"معصية الله ورسوله والإعراض عن كتابه وهدي نبيه صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾ أي لجعلهم يسمعون آيات الله وما تحمله من بشارة ونذارة وهذا من باب الفرض لقوله تعالى ﴿ولو أسمعهم لتولوا عنه وهم معرضون﴾ هؤلاء طائفة من المشركين١؟ توغلوا في الشر والفساد والظلم والكبر والعناد فحرموا لذلك هداية الله تعالى فقد هلك بعضهم في بدر وبعض في أحد ولم يؤمنوا لعلم الله تعالى أنه لا خير فيهم وكيف لا وهو خالقهم وخالق طباعهم، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾.

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- وجوب طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، وحرمة معصيتهما.

٢- حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال وفي كل شيء من سلوكهم.

٣- بيان أن من الناس من هو شر من الكلاب والخنازير فضلا عن الإبل والبقر والغنم أولئك البعض كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا.

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون(٢٤) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خآصة واعلموا أن الله شديد العقاب(٢٥) واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون(٢٦)

---

(١) التحرير والتنوير، ٢/٢٥٨

١ في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار، والآية عامة في من تلك حالهم.." (١)

"لما ذكر سبحانه وتعالى فيما تقدم ما أعد لأعدائه من الأشقياء الكافرين به ورسله من العذاب والنكال، وكان في ذلك أبلغ التخويف والإنذار عقب بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة جريا على السنة الإلهية، من شفع الترغيب بالترهيب، والوعد بالوعيد؛ **لأن من الناس من** لا يجذبه التخويف ولا يجديه، وينفعه اللطف، ومنهم العكس، ومنهم من لا يفيد فيه إلا اجتماع الأمرين، فكان وما بعده معطوف على سابقه عطف القصة على القصة، والتناسب بينهما باعتبار أنها بيان لحال الفريقين المتباينين، وكشف عن الوصفين المتقابلين، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصح قولي العلماء، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه، أو حال السعداء ثم حال الأشقياء، أو عكسه، وحاصله ذكر الشيء ومقابله، وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك التشابه.

المعنى:

أخبر أيها الرسول، ومن قام مقامك، الذين آمنوا بقلوبهم وصدقوا المرسلين، وعملوا الصالحات بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة أن لهم جنات... إلخ، ووصفت أعمال الخير بالصالحات؛ لأن بها تصلح أحوال أمور الدين والدنيا، ويزول عن العامل بالصالحات فساد الأحوال ويكون من الصالحين الذي يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته.." (٢)

"٥٣٧- من هدي القرآن للتي هي أقوم: **أن من الناس من** ليس له ثبات في أمر دينه، بل هو مضطرب مذبذب يعبد الله على وجه التجربة إنتظارا للنعمة والغنى والعافية، فإن أصابه خير بقي مؤمنا وإن أصابه مكروه من سقم أو ضياع مال أو فقد محبوب ترك دينه وارتد كافرا، قال الله جل وعلا وتقدس: ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾ ، وقال: ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ﴾ .

٥٣٨- من هدي القرآن للتي هي أقوم: تحذير الناس من الإقامة على المعاصي والمنكرات والاستعداد لما أمامهم، قال تعالى: ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾ ، وقال: ﴿ اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ﴾ ، وقال: ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ .

٥٣٩- من هدي القرآن للتي هي أقوم: التنبيه على الأمور والأحداث التي ستقع وتذهل الإنسان وتنسيه ما عداها، قال

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري، ٢/٢٩٦

(٢) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، ١/٤٤

الله جل وعلا وتقدس: ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ .." (١)

"﴿ أندادا ﴾ : جمع ند ، وهو مثل الشيء الذي يضاده وينافره ويتباعد عنه . وأصله من ند البعير يند ندا وندادا وندودا ، أي : نفر وذهب على وجهه شاردا . ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله ، وقيل : المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم . والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله – تعالى – من نحو التحليل ، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التي انفرد بها الخالق – D – .

والمعنى : **أن من الناس من** لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله وقدرته ، وبلغفت بهم الجهالة أنهم يخضعون لبع المخلوقات خضوعهم لله بزعم أنها مشابهة ومماثلة ومناظرة له – سبحانه – في النفع والضر ، ويحبون تعظيم تلك المخلوقات وطاعتها والتقرب إليها والانقياد لها حبا يشابه الحب اللازم عليهم نحو الله – تعالى – أو يشابه حب المؤمنين لله ، و ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ ومن الناس ﴾ للتبعيض ، والجار والمجرور خبر مقدم و ﴿ من ﴾ في قوله : ﴿ من يتخذ ﴾ في محل رفع مبتدأ مؤخر ، و " من دون الله ، حال من ضمير يتخذ و ﴿ أندادا ﴾ مفعول به ليتخذ .

قال الجمل : وجملة ﴿ يحبونهم كحب الله ﴾ فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن تكون في محل رفع صفة لمن في أحد وجهيها ، والضمير المرفوع يعود عليها باعتبار المعنى بعد اعتبار اللفظ في يتخذ .

والثاني : أن تكون في محل نصب صفة لأندادا والضمير المنصوب يعود عليهم والمراد بهم الأصنام ، وإنما جمعوا جمع العقلاء لمعاملتهم معالمة العقلاء . أو أن يكون المراد بهم من عبد من دون الله عقلاء وغيرهم ثم غلب العقلاء على غيرهم .

الثالث : أن تكون في محل نصب على الحال من الضمير في يتخذ ، والضمير المرفوع عائد على ما عاد عليه الضمير في يتخذ وجمع حملا على المعنى .

ثم مدح – سبحانه – عبادة المؤمنين فقالك ﴿ والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾ .

أي : والذين آمنوا وأخلصوا لله العبادة أشد حبا له – سبحانه – من كل ما سواه ، ومن حب المشركين للأنداد ، ذلك لأن حب المؤمنين لله متولد عن أدلة يقينية ، وعن علم تام ، ببديع حكمته – سبحانه – وبالغ حجته ، وسعة رحمته ، وعدالة أحكامه ، وعزة سلطانه ، وتفرده بالكمال المطلق ، والحب المتولد عن هذا الطريق يكون أشد من حب المشركين لمعبوداتهم لأن حب المشركين لمعبوداتهم متولد عن طريق الظنون والأوهام والتقاليد الباطلة .

---

(١) الأنوار الساطعات لآيات جامعات، ١١٨/٣

والتصريح بالأشدية في قوله : ﴿ أشد حبا لله ﴾ أبلغ من أن يقال أحب لله؟ إذ ليس المراد الزيادة في أصل الفعل – كما يقول الآلوسي – بل المراد الرسوخ والثبات .." (١)

"قال الإمام الرازى ما ملخصه : اعلم أن من الناس من قال : إن الله – تعالى – لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم فى أمر الدين وفى أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل فى الأمر والنهى والترغيب والترهيب فقال : ﴿ يآ أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ﴾ .

وقال القفال : يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين فى غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربان ولعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على المعسكر ، ويتمكنوا من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك .

وكان الرجل فى الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم – مثلا – إلى أجل ، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال : زدنى فى المال حتى أزيد فى الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله ﴿ أضعافا مضاعفة ﴾ .

وقد ابتدأ – سبحانه – الآية بالنداء بقوله ﴿ يآ أيها الذين آمنوا ﴾ لبيان أن أكل الربا ليس من شأن المؤمنين ، وإنما هو من سمات الكافرين والفاسقين .

وإذا كان الكافرون يستكثرون من تعاطى الربا فعلى المؤمنين أن يجتنبوا هذا الفعل القبيح ، وأن يتحروا الحلال فى كل أمورهم .

وخصه بالنهى لأنه كان شائعا فى ذلك الوقت ، ولأنه – كما يقول القرطبى – هو الذى أذن فيه بالحرب فى قوله – تعالى – ﴿ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴾ والحرب يؤذن بالقتل ، فكأنه يقول لهم : إن لم تتقوا الربا هزمتم وقتلتم .

والمراد من الأكل الأخذ ، وعبر عنه بالأكل لما أنه معظم ما يقصد بهن ولشيوعه فى المأكولات مع ما فيه من زيادة التشنيع .

والربا معناه الزيادة ، والمراد بها هنا تلك الزيادة التى كانت تضاف على الدين .

قال الإمام ابن جرير : عن عطاء قال : كانت ثقيف تداين بنى المغيرة فى الجاهلية ، فإذا حل الأجل قالوا : نزيدكم وتؤخرون .

وقال ابن زيد : كان أبى – زيد بن ثابت – يقول : إنما كان ربا الجاهلية فى التضعيف . يكون للرجل على الرجل دين فيأتيه إذا حل الأجل فيقول له : " تقضينيى أو تزيدنى " .

وقوله ﴿ أضعافا ﴾ حال من الربا ، وقوله ﴿ مضاعفة ﴾ صفة له .

والأضعاف جمع ضعف . وضعف الشيء مثلاه ، وأضعافه أمثاله .

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/٢٦٣

وهذا القيد وهو قوله " أضعافا مضاعفة " ليس لتقييد النهى به ، أى ليس النهى عن أكل الربا فى هذه الحالة وإباحته فى غيرها ، بل هذا القيد لمراعاة الواقع ، ولبيان ما كانوا عليه فى الجاهلية من التعامل الفاسد المؤدى إلى استئصال المال ، ولتوبيخ من كان يتعاطى الربا بتلك الصورة البشعة .." [(١)]

"﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله . . ﴾ وقول مجاهد : حسن ، لأن أحكام الله – D – لا يقال فيها إنها منسوخة إلا بخير يقطع العذر ، أو حجة من معقول . .

ثم بين – سبحانه – موقف الناس من هذا الكتاب الذى أنزله على نبيه A – فقال : ﴿ وكذلك أنزلنآ إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به . . ﴾ .

والكاف بمعنى مثل : واسم الإشارة يعود إلى المصدر المفهوم من أنزلنا . أى : ومثل ذلك الإنزال المعجز البديع ، أنزلنا إليك الكتاب – أيها الرسول الكريم – ليكون هداية للناس ، فالذين آتيناهم الكتاب الشامل للتوراة والإنجيل وعقلوه وفتحوا قلوبهم للحق ، يؤمنون بهذا الكتاب الذى نزل عليك ، وهو القرآن .

فالمراد بالذين أوتوا الكتاب : المؤمنون منهم كعبد الله بن سلام وأمثاله . والمراد بالكتاب جنسه . والضمير فى " به " يعود إلى القرآن الكريم الذى أنزله الله على رسوله محمد A وخص هؤلاء المؤمنين منهم بإيتاء الكتاب ، على سبيل المدح لهم . لأنهم انتفعوا بما أوتوه من علم وعملوا بمقتضاه ، أما غيرهم من بقى على كفره ، فلكونه لم ينتفع بما فى الكتاب من هدايات ، فكأنه لم يره أصلا .

وقوله : ﴿ ومن هؤلاء من يؤمن به ﴾ : ومن هؤلاء العرب الذين أرسلت إليهم – أيها الرسول الكريم – من يؤمن بهذا القرآن الذى أنزلناه إليك .

و " من " للتبعيض ، لأنه ملم يؤمنوا جميعا ، وإنما من منهم من هداه الله – تعالى – إلى الصراط المستقيم .

﴿ وما يجحد بآياتنآ ﴾ الدالة على وحدانيتنا وقدرتنا ، وعلى صدقك فيما تبلغه عنا ، ﴿ إلا الكافرون ﴾ أى : إلا الموغلون فى الكفر ، المصرون عليه إصرارا تاما .

والجحود : إنكار الحق مع معرفة أنه حق .

وعبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها فى غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله – تعالى – ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار .

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت **أن من الناس من** قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران .

ثم ساق – سبحانه – أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده – تعالى – ، فقال : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ .

أى : أنت – أيها الرسول الكريم – ما كنت فى يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن – تاليا لكتاب من الكتب

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/٧٣٧

، ولا عارفا للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون فى شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين .

و ﴿ من ﴾ فى قوله ﴿ من كتاب ﴾ لتأكيد نفى كونه A قارئا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه .." (١)

"والماء الآسن : هو الماء الذى تغير طعمه وريحه ، لطول مكثه فى مكان معين . يقال : أسن الماء يأسن - كضرب - يضرب ، إذا تغير .

﴿ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ﴾ أى : وفيها - أيضا - أنهار من لبن لم يتغير طعمه لا بالحموضة ولا بغيرها مما يجرى على الألبان التى تشرب فى الدنيا .

﴿ وأنهار من خمر لذة للشاربين ﴾ أى : وفيها كذلك أنهار من خمر فى غاية اللذة لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع .

وقال - سبحانه - ﴿ لذة للشاربين ﴾ للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا **فإن من الناس من** ينفر منها ويعفها حتى ولو كان على غير دين الإسلام .

﴿ وأنهار من عسل مصفى ﴾ أى : وفيها - أيضا - أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره .

﴿ ولهم ﴾ أى : للمؤمنين ﴿ فيها ﴾ أى : فى الجنة فضلا عن كل ذلك ﴿ من كل الثمرات ﴾ التى يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها : ﴿ ومغفرة من ربهم ﴾ أى : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم ذنوبهم ، وأزالها عنهم ، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه .

وقوله - سبحانه - : ﴿ كمن هو خالد في النار وسقوا مآء حميما فقطع أمعآءهم ﴾ أى : أمثل جزاء المؤمنين الذى هو الجنة التى فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل . . كمثل عقاب الكافرين والمتمثل فى نارهم خالدين فيها أبدا ، وفى ماء فى أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم؟

لا شك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين .

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار فى المنهج والسلوك ، وفى المصير الذى يصير إليه كل فريق .

وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين وعن مصير كل فريق . انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين ، وعن موقفهم من النبى - A - ومن القرآن الكريم الذى أنزله الله - تعالى - عليه ، فقال - سبحانه - : ﴿ ومنهم من يستمع . . . يعلم متقلبكم ومثواكم ﴾ .." (٢)

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/٣٣١٨

(٢) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/٣٨٨٩

"وقوله : ﴿ مبشرا ﴾ من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر .

وقوله : ﴿ ونذيرا ﴾ من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف ، لكى يجتنب ويحذر .

أى : ﴿ إنآ أرسلناك ﴾ - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون ﴿ شاهدا ﴾ لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا .

ولتكون ﴿ مبشرا ﴾ للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ﴿ ونذيرا ﴾ للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم .

والحكمة فى جعله - A - شاهدا مع أن الله - تعالى - لا يخفى عليه شئ : إظهار العدل الإلهى للناس فى صورة جلية واضحة ، وتكريم النبى - A - بهذه الشهادة .

وجمع - سبحانه - بين كونه - A - ﴿ مبشرا ونذيرا ﴾ **لأن من الناس من** ينفعه الترغيب فى الثواب ، ومنهم من لا يزجره إلى التخويف من العقاب . وانتصاب ﴿ شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ على الحال المقدرة .

وفى معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهدآء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا . . ﴾ وقوله - سبحانه - ﴿ ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاءآء . . . ﴾ وقوله - D - : ﴿ ياأيها النبي إنآ أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا ﴾ ثم بين - سبحانه - الحكمة من إرساله - A - فقال : ﴿ لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا ﴾ .

وقوله : ﴿ وتعزروه ﴾ من التعزيز بمعنى النصرة مع التعظيم والتفخيم .

وقوله : ﴿ وتوقروه ﴾ أى : تعظموه وتقدروه .

وقوله : ﴿ وتسبحوه ﴾ من التسبيح بمعنى التنزيه . تقول : سبحت الله - تعالى - أى : نزهته عما لا يليق به ، و ﴿ بكرة ﴾ أول النهار ، و ﴿ أصيلا ﴾ آخره ، المراد ظاهرهما ، أو جميع أوقات النهار ، كما يقال : شرقا وغربا لجميع الجهات .

والخطاب للرسول - A - ولأمته ، كقوله - تعالى - : ﴿ ياأيها النبي إذا طلقتم النسآء . . . ﴾ والقراءة بتاء الخطاب ، هى قراءة الجمهور من القراء .

قال الآلوسى : وهو من باب التغليب ، غلب فيه المخاطب على الغائب فيفيد أن النبى - A - مخاطب بالإيمان برسالته كأمته . .

أى : أرسلناك - أيها الرسول الكريم - شاهدا ومبشرا ونذيرا ، لتكون على رأس المؤمنين بما أرسلناك به ، وليتبعك فى ذلك اصحابك ومن سيأتى بعدهم ، بأن يؤمنوا بالله ورسوله إيمانا حقا ، ولينصروك ويعظموك ، وليسبحوا الله - تعالى - فى الصباح والمساء . وعلى هذا يكون الضمير فى قوله - تعالى - : ﴿ وتعزروه وتوقروه ﴾ يعود إلى الرسول - A - وفى قوله ﴿ وتسبحوه ﴾ يعود إلى الله - تعالى - .." (١)

---

(١) الوسيط لسيد طنطاوي، ص/٣٩٠٧

" ﴿ يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم ﴾ نزلت هذه الآية في قصة تميم وعدي وبديل خرجوا تجارا إلى الشام فمرض بديل ودفع إليهما متاعه وأوصى إليهما أن يدفعاه إلى أهله إذا رجعا فأخذا من متاعه إناء من فضة وردا الباقي إلى أهله فعلموا بخيانتهما ورفعوها إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم فأنزل الله تعالى هذه الآيات ومعنى الآية : ليشهدكم ﴿ إذا حضر أحدكم الموت ﴾ وأردتم الوصية ﴿ اثنان ذوا عدل منكم ﴾ من أهل ملتكم تشهدونهما على الوصية ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ من غير دينكم إذا ﴿ ضربتم ﴾ سافرتم ﴿ في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ علم الله أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين ويحضره الموت فلا يجد من يشهده على وصيته من المسلمين فقال : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ فالذميان في السفر (خاصة) إذا لم يوجد غيرهما (تقبل شهادتهما في ذلك) وقوله : ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا ﴾ أي : ارتبتم في شهادتهما وشككتم وخشيتم أن يكونا قد خانا حبستموهما على اليمين بعد صلاة العصر فيحلفان بالله ويقولان في يمينهما : لا نبيع الله بعرض من الدنيا ولا نحابي أحدا في شهادتنا ﴿ ولو كان ذا قربى ﴾ ولو كان المشهود له ذا قربى ﴿ ولا نكتم شهادة الله ﴾ أي : الشهادة التي أمر الله بإقامتها ﴿ إنا إذا لمن الأثمين ﴾ إن كتمناها ولما رفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم ونزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه و سلم أن يستحلفوهما وذلك أنهما كانا نصرانيين وبديل كان مسلما فحلفا أنهما ما قبضا غير ما دفعا إلى الورثة ولا كتما شيئا وخلى سبيلهما ثم اطلع على الإناء في أيديهما فقالا : اشتريناه منه فارتفعوا إلى النبي صلى الله عليه و سلم فنزل قوله : ." (١)

"قال ابن جبير : ما كان في غير إسراف ولا تقتير.

قال ابن عباس : في غير إسراف ولا تقتير.

وقال الضحاك : يعني النفقة على العيل وعلى نفسه ، وليس النفقة في سبيله الله.

قال مجاهد في قوله : ﴿ فهو يخلفه ﴾ : أي : إن كان خالفا فمنه ، وربما أنفق الرجل ماله كله ولم يخلف حتى يموت.

قال مجاهد : إذا كان بيد الرجل ما يقيمه فليقتصد في النفقة ، ولا تؤول هذه الآية فإن الرزق مقسوم ، ولا يدري لعل رزقه قليل . يعني : وأجله قريب.

ثم قال تعالى : ﴿ وهو خير الرازقين ﴾ أي : خير من يرزق . وجاز ذلك لأن من الناس من يسمى برازق على المجاز ، أي : رزق غيره مما رزقه الله ، والله يرزق عباده لا من رزق رزقه غيره ، فليس رازق مرزوق كرازق غير مرزوق.

ثم قال تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة ﴾ الآية أي : واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء الكفار ، ثم نقول للملائكة : أهؤلاء الكفار كانوا يعبدونكم من دوني ؟ فتبرأ منهم الملائكة ، فقالوا : ﴿ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم ﴾ أي : تنزيها لك وبراءة من السوء الذي أضافه هؤلاء إليك ، " أنت ولينا من دونهم " أي : لا نتخذ وليا من دونك .." (٢)

---

(١) الوجيز للواحدي، ص/٣٣٩

(٢) الهداية الى بلوغ النهاية، ٩/٥٩٣٣

" صفحة رقم ٣٠٦

) إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون (يحتمل وجهين :

أحدهما : يتفكرون في أن لهم خالقا معبودا .

الثاني : يتفكرون في البعث بعد الموت . (الروم : (٢٢ - ٢٣) ومن آياته خلق . . . . .

" ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون " (قوله :) ومن ءاياته خلق السموات والأرض (فيه وجهان

: أحدهما : لما فيهما من الآيات والعبر .

الثاني : لإعجاز الخلق عن إحداث مثلهما .

) واختلاف ألسنتكم وألوانكم (فيه وجهان

: أحدهما : اختلاف ألسنتكم بالكلام ، فللعرب كلام وللفرس كلام وللروم كلام . وألوانكم أبيض وأسود وأحمر ، قاله السدي ، وحكى وهب بن منبه في المبتدأ أن جميع الألسنة اثنان وسبعون لسانا منها في ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانا ، وفي ولد حام سبعة عشر لسانا ، وفي ولد يافث ستة وثلاثون لسانا .

والوجه الثاني : اختلاف ألسنتكم : النغمة والصوت حتى لا يشتبه صوتان من أخوين لأم وأب ، وألوانكم : الصورة حتى لا يشتبه الناس في المعارف والمناكح والحقوق .

) إن في ذلك لآيات للعالمين (قال ابن عيسى : الجن والإنس . وروى حفص عن عاصم) للعالمين (بكسر اللام يعني جميع العلماء .

قوله :) ومن ءاياته منامكم بالليل والنهار وابتغؤكم من فضله (فيه وجهان :

أحدهما : أن الليل والنهار معا وقت للنوم ووقت لابتغاء الفضل ، **لأن من الناس من** يتصرف في كسبه ليلا وينام نهارا .

الثاني : أن الليل وقت النوم والنهار وقت لابتغاء الفضل ، ويكون تقدير الكلام :." (١)

"٢ . ومنها الخروج من دائرة نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني القائمة على دراسة التراكيب النحوية وأهميتها في بلاغة القرآن ، إلى دائرة أوسع وهو الكلام على تآلف الآيات القرآنية فيما بينها وتناسبها ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، وهو تركيزه على إبراز وجه التناسب بين سور القرآن الكريم كلها ، مع التسليم بتوقيفية ترتيبها .

فمن الأمثلة على مراعاة وجه التناسب بين الآيات القرآنية ما يأتي :

في تفسر قوله تعالى : "وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار .." سورة البقرة : ٢٤

قال أبو حيان : (ومناسبة قوله تعالى " وبشر " لما قبله ظاهرة ، وذلك أنه لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه

---

(١) النكت والعيون . موافق للمطبوع، ٣٠٦/٤

حالهم في الآخرة ، وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار ، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم ، وما أعد لهم في الآخرة من النعيم السرمدي . وهكذا جرت العادة في القرآن غالبا ، متى جرى ذكر الكفار ومآلهم ، أعقب بالمؤمنين ومآلهم ، وبالعكس لتكون الموعظة جامعة ، بين الوعد والوعيد ، واللطف والعنف ، **لأن من الناس من** لا يجذبه التخويف ، ويجذبه اللطف ، ومنهم من هو العكس .)(١)

ويرى أبو حيان في تناسب الآيات وترابطها نوعا من أنواع الفصاحة ، من حيث أداؤه الغرض وإقناع المخاطبين ، وقد صرح بذلك في تفسير قوله تعالى : " يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ...واركعوا مع الراكعين " سورة البقرة : ٣٩ . ٤٢

---

(١) . البحر المحيط : ١/١١٠." [١]

"" صفحة رقم ٩١ "

وقال أنس : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يحرس ، قال : وقالت عائشة : فكنت ذات ليلة إلى جنبه فسهر تلك الليلة ، فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ فقال : (ليت رجل صالح يحرسني الليلة) قالت : فبينما نحن في ذلك حتى سمعت صوت السلاح . فقال : من هذا ؟ قال : سعد وحذيفة جئنا نحرسك ، فنام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى سمعت غطيطه فنزلت الآية فأخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأسه من قبة أديم وقال : (إنصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل) .

وروى الحسن مرسلا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : (لما بعثني الله برسالته فضقت بها ذرعا وعرفت **إن من الناس من** يكذبني) وكان عتابه قريشا واليهود والنصارى فأنزل الله الآية ، قلت : ولما نزل قوله) ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله (سكت النبي (عليه السلام) عن عيب الهتهم فأنزل الله تعالى) يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك (يعني معايب آلهتهم .

وقيل : نزلت فى عيب اليهود وذلك إنه (عليه السلام) دعا اليهود إلى الإسلام وقالوا : أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون : تريد أن نتخذك عيانا كما اتخذت النصارى عيانا عيسى ، فلما رأى النبي (عليه السلام) ذلك سكت فحرضه الله على دعائهم إلى الإسلام وأمره أن يقول لهم .

) يا أهل الكتاب لستم على شيء (الآية .

قال الحسين بن الفضل : وهذا أولى الأقاويل لأنه ليس بين قوله بلغ ما أنزل إليك وبين قوله لستم على شيء فصل .

فلما نزلت الآية قال (عليه السلام) : (لا يأتي من عندي ومن نصرني) .

وقيل : نزلت في قصة عيينة بن حصين وفقراء أهل الصفة وقيل : بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص ومر في قصة .

وقيل : بلغ ما أنزل إليك من أمر نسائك . وذلك أن رسول الله لما نزلت آية التخيير لم يكن يعرضها عليهن خوفا من

---

(١) الموازنة بين تفسير الكشاف الزمخشري وتفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، ص/٤٦

اختيارهن الدنيا فأنزل الله ، وقيل : بلغ ما أنزل إليك في أمر زينب بنت جحش ، وقيل : نزلت في الجهاد ، وذلك إن المنافقين كرهوه ، قال الله) فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال (الآية وكرهه أيضا بعض المؤمنين قال الله) ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم (الآية ، وكان (عليه السلام) يمسك في بعض المسلمين عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة القوم فأنزل الله الآية." (١)

"" " صفحة رقم ٥٣٧ " "

والملائكة كانوا موجودين ، فيلزم أن يكون الله – تعالى – قد اصطفى هؤلاء على الملائكة ، وأيضا فهب أن تلك دخلها التخصيص لقيام الدليل ، وها هنا فلا دليل يوجب ترك الظاهر ، فوجب إجراؤه على ظاهره في العموم .

وخامسها : قوله تعالى : (ومآ أرسلناك إلا رحمة للعالمين ([الأنبياء : ١٠٧] والملائكة من جملة العالمين ، فكان محمد – عليه الصلاة والسلام – رحمة لهم ، فوجب أن يكون أفضل منهم .

وسادسها : أن الآدمي له شهوة تدعوهم إلى المعصية ، وهي شهوة الرئاسة .

قلنا : هب أن الأمر كذلك ، لكن البشر لهم أنواع كثيرة من الشهوات مثل شهوة البطن والفرج ، وشهوة الرئاسة والملك ليس إلا شهوة واحدة ، وهي شهوة الرئاسة ، والمبتلى بأنواع كثيرة من الشهوات تكون الطاعة عليه أشق من المبتلى بشهوة واحدة . وأيضا الملائكة لا يعملون إلا بالنص لقوله : (لا علم لنآ إلا ما علمتنآ ([البقرة : ٣٢] وقوله : (لا يسبقونه ب القول وهم بأمره يعملون ([الأنبياء : ٢٧] والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس ، والعمل بالاستنباط أشق من العمل النص ، وأيضا فإن الشبهات للبشر أكثر منها للملائكة ؛ لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السيارة أسبابا لحوادث هذا العالم ، فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة ، والملائكة لا يحتاجون إليها ، لأنهم ساكنون في عالم السماوات ، فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبر الصانع ، وأيضا فإن الشيطان لا سبيل له إلى وسوسة الملائكة ، وهو مسلط على البشر في الوسوسة ، وذلك تفاوت عظيم . إذا ثبت أن طاعتهم أشق ، فوجب أن يكونوا أكثر ثوابا للنص والقياس .

فأما النص قوله عليه الصلاة والسلام : " أفضل العبادات أحمزها " أي : أشقها ، وأما القياس فإن الشيخ الذي ليس له ميل إلى النساء إذا امتنع عن الزنا ليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنه مع النيل الشديد ، والشوق العظيم .

وسابعها : أن الله – تعالى – خلق للملائكة عقولا بلا شهوة ، وخلق للبهائم شهوة بلا عقل ، وخلق الآدمي وجمع فيه الأمرين ، فصار الأدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجة ، فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة ، ثم وجدنا الآدمي هواه عقله ، فإنه بصير دون البهيمة على ما قال : " أولئك كالأنعام بل هم أضل " فيجب أن يقال : إذا غلب عقله هواه أن يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر .

---

(١) الكشف والبيان . موافق للمطبوع، ٩١/٤

وثامنها : أن الملائكة حفظة ، وبنو آدم محفوظون ، والمحفوظ أشرف من الحافظ ، أجاب القائلون بتفضيل الملك عن الأول ، فقالوا : قد سبق بيان **أن من الناس من** قال :." [1]

"" " صفحة رقم ٢٦٦ " "

أن أبا البقاء حمل التوفي على الموت ، وذلك إنما هو بعد رفعه ، ونزلوه إلى الأرض وحكمه بشريعة محمد (صلى الله عليه وسلم) كما ثبت في الحديث . فعلى الأول ففيه وجوه :

أحدها : إني متمم عمرك ، وإذا تم عمرك فحينئذ أتوفاك كما قدمناه .

الثاني : إني مميتك ، والمقصود منه ألا يصل أعدؤه من اليهود إلى قتله . وهو مروي عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق ، وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه :

الأول : قال وهب : توفي ثلاث ساعات ، ثم رفع وأحيي .

الثاني : قال محمد بن إسحاق : توفي سبع ساعات ، ثم أحياه الله ورفعه . الثالث : قال الربيع بن أنس : إنه – تعالى – أنامه حال رفعه إلى السماء ، قال تعالى) الله يتوفى لأنفس حين موتها ([الزمر : ٤٢] .

وثالثها : أن الواو لا تفيد الترتيب ، فالأمر فيه موقوف على الدليل ، وقد ثبت أنه حي ، وأنه ينزل ويقتل الدجال ثم يتوفاه الله بعد ذلكز

رابعها : إني متوفيك عن شهواتك ، وحظوظ نفسك ، فيصير حاله كحال الملائكة – في زوال [الشهوات] والغضب والأخلاق الذميمة – .

خامسها : أن التوفي اخذ الشيء وافيا ، ولما علم الله **أن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه ، لا جسده ، ذكر ذلك ؛ ليدل على أنه – عليه السلام – رفع بتمامه إلى السماء – بروحه وجسده .

وسادسها : إني متوفيك ، أي جاعلك كالمتوفى ؛ لأنه إذا رفع إلى السماء ، وانقطع خبره ، وأثره عن الأرض كان كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن .

وسابعها : أن التوفي هو القبض ، يقال : فلان وفاني دراهمي ، ووافاني ، وتوفيتها منه ، كما يقال سلم فلان دارمي إلي ، وتسلمتها منه . فإن قيل : فعلى هذا يكون التوفي في عين الرفع ، فيصير قوله : (ورافعك إلي (تكرارا ، فالجواب : أن قوله) إني متوفيك (يدل على حصول التوفي ، وهو جنس تحته أنواع ، بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد ، فلما قال : (ورافعك إلي (صار تعيينا للنوع ، فلم يكن تكرارا .

ثامنها : أن يقدر حذف مضاف ، أي : متوفي عملك ، بمعنى مستوفي عملك ، ." [2]

"" " صفحة رقم ٤٣٧ " "

على الديمومة ؛ كقوله : (ى ا أيها النبي اتق الله ([الأحزاب : ١]) يا أيها الذين آمنوا آمنوا ([النساء : ١٣٦] .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٥٣٧/١

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ٢٦٦/٥

وقوله : " ما " يحتمل أن تكون اسمية بمعنى " الذي " ولا يجوز أن تكون نكرة موصوفة ؛ لأنه مأمور بتبليغ الجميع كما مر ، والنكرة لا تفي بذلك ؛ فإن تقديرها : " بلغ شيئا أنزل إليك " ، وفي " أنزل " ضمير مرفوع يعود على ما قام مقام الفاعل ، وتحتمل على بعد أن تكون " ما " مصدرية ؛ وعلى هذا ؛ فلا ضمير في " أنزل " ؛ لأن " ما " المصدرية حرف على الصحيح ؛ فلا بد من شيء يقوم مقام الفاعل ، وهو الجار بعده ؛ وعلى هذا : فيكون التقدير : بلغ الإنزال ، ولكن الإنزال لا يبلغ فإنه معنى ، إلا أن يراد بالمصدر : أنه واقع موقع المفعول به ، ويجوز أن يكون المعنى : " اعلم بتبليغ الإنزال " ، فيكون مصدرا على بابه .

والمعنى أظهر تبليغه ، كقوله تعالى : (ف اصدع بما تؤمر ([الحجر : ٩٤] .

فصل

روي عن مسروق [قال] : قالت عائشة - رضي الله عنها - : " من حدثك أن محمدا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كتم شيئا مما أنزل الله ، فقد كذب " وهو سبحانه وتعالى يقول : (ي أيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك (الآية .

وروي عن الحسن : أن الله لما بعث رسوله ، وعرف أن من الناس من يكذبه ، فنزلت هذه الآية ، وقيل : نزلت في عيب من اليهود وذلك أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - دعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : أسلمنا قبلك ، وجعلوا يستهزئون به فيقولون : تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذ النصارى عيسى حنانا ، فلما رأى النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ذلك سكت ، فنزلت هذه الآية ، فأمره أن يقول لأهل الكتاب : (لستم على شيء ([المائدة : ٦٨] الآية .

وقيل : بلغ الإنزال ما أنزل إليك من الرجم والقصاص في قصة اليهود ، وقيل : نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها .." (١)

"" صفحة رقم ٢٧٥ " "

عليه الصلاة والسلام : " إن غم عليكم فاقدروا له " أي : فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة ، ثم يقال لمن عرف شيئا : هو يقدر قدره ، وإن لم يعرفه بصفاته : إنه لا يقدر قدره ، فقوله : " وما قدروا الله حق قدره " صحيح في كل المعاني المذكورة ولما حكى عنهم أنهم ما قدروا الله حق قدره بين السبب فيه ، وهو قولهم : (مآ أنزل الله على بشر من شيء (.

واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته ، وتقديره من وجوه :

الأول : أن منكر البعث والرسالة إما أن يقول : إنه - تبارك وتعالى - ما كلف أحدا من الخلق [تكليفا أصلا] أو يقول : إنه - تبارك وتعالى - كلفهم ، والأول باطل ؛ لأن ذلك يقتضي أنه - تبارك وتعالى - أباح لهم جميع المنكرات والقبائح ، نحو [شتم] الله ووصفه بما لا يليق به والاستخفاف بالأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - والرسل ، والإعراض

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٤٣٧/٧

عن شكر الله – تعالى – ومقابلة الإنعام بالإساءة ، وكل ذلك باطل .

وإن سلم أنه – تعالى – كلف الخلق بالأمر [والنهي فهاهنا لا بد] من مبلغ وشارع مبين ، وما ذلك إلا للرسول . فإن قيل لم لا يجوز أن يقال : العقل كاف في إيجاب الموجبات ، واجتناب المقبحات ؟

فالجواب : هب أن الأمر كما قلتم إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – فصبت أن كل من منع من البعثة والرسالة ، فقد طعن في حكمة الله – تعالى – وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية ، وحينئذ يصدق في حقه قوله تبارك وتعالى : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا) .

والوجه الثاني في تقرير هذا المعنى : **أن من الناس من** يقول : إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ لأن يمتنع [إظهار] المعجزة على وفق دعواه تصديقا له ، والقائلون بهذا القول لهم مقامات .

أحدها : أن يقولوا : إنه ليس في الإمكان خرق العادات ، ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة .

والثاني : يسلمون إمكان ذلك ، إلا أنهم يقولون : إن بتقدير حصول هذه الأفعلا الخارقة للعادات ، فلا دلالة لها على صدقه من الرسالة ، وكلا القولين يوجب القدح في كمال قدرة الله – تعالى – .." (١)

"" صفحة رقم ٣٣٢ " "

وقال الليث بعكس هذا ، أي بكسرها في الماضي ، وبفتحها في المستقبل وأينعت فهي تينع وتونع إيناعا وينعا بفتح الياء وينعا بضم الياء ، والنعت يانع ومونع .

فإن قيل هذا في أول حال حدوث الثمرة ، وقوله : " وينعه " أمر بالنظر في حال تمامها وكمالها ، والمقصود منه أن هذه الثمار في أول حدوثها على صفات مخصوصة عند مالها تنتقل إلى أحوال متضادة للأحوال السابقة .

قيل : إنها كانت موصوفة بالخضرة ، فتصير سوداء ، أو حمراء ، أو صفراء ، أو كانت موصوفة بالحموضة ، وربما كانت في أول الأمرر باردة بحسب الطبيعة ، فتصير في آخر الأمر حار ة بحسب الطبيعة ، فحصول هذه التبدلات والتغيرات لا بد له من سبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك ؛ لأن نسبة هذه الأفعال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن ان تكون سببا لحدوث الحوادث المختلفة ، ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والأنجم والأفلاك ، وجب إسنادها إلى القادر الحكيم العليم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة ، فناسب ختام هذه الآية الكريمة بقوله : (إن في ذ الكم لآيات لقوم يؤمنون (للدلالة على ما تقدم في وحدانيته ، وإيجاد المصنوعات المختلفة من أنها نابتة من أرض واحدة ، وتسقى بماء واحد ، وهذه الدلائل إنما تنفع المؤمنين دون غيرهم ، كقوله تبارك وتعالى : (هدى للمتقين ([البقرة : ٢]

قال القاضي رحمه الله : المراد لمن يطلب الإيمان بالله – تبارك وتعالى – ؛ لأنه لمن آمن ولمن لا يؤمن فإن قيل : لم أوقع الاختلاف بين الخلق في هذه المسألة مع وجود مثل هذه الدلالة [الجلية القوية ؟] .

أجيب عنه بأن قولة الدليل لا تفيد ولا تنفع إلا إذا قدر الله للعبد حصول الإيمان ، فكأنه قيل : هذه الدلالة على قوتها

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٢٧٥/٨

وظهورها دلالة لمن سبق قضاء الله تعالى في حقه بالإيمان .
فأما من سبق قضاء الله له بالكفر لم ينفع بهذه الدلالة ألبتة أصلا فكان المقصود من هذه التخصيص التنبيه على ما ذكرنا .
(وجعلوا لله شركآء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (
لما ذكر البراهين الخمسة من دلائل العالم الأعلى والأسفل على ثبوت الإلهية ، وكمال القدرة الحكمة ، ذكر بعد ذلك **أن من الناس من** أثبت لله شركاء ، وهذه المسألة تقدم ، إلا أن المذكور هنا غير ما تقم ذكره ؛ لأن مثبتي الشريك طوائف منها عبدة." [1]
"" " صفحة رقم ٤١ " "
العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية ، والثاني أيضا باطل ، وإلا لزم إما التسلسل وإما اغلدور ، والثالث هو المقصود .
فصل في المراد من الإقعاد
المراد من قوله : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم (أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ، ولهذا المعنى ذكر القعود ؛ لأن من أراد المبالغة في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال ، فيمكنه إتمام المقصود . ومواظبته على الإفساد ، هي مواظبته على الوسوسة بحيث لا يفتر عنها .
قال المفسرون : معنى) لأقعدن لهم صراطك المستقيم (أي : بالصد عنه وتزيين الباطل ؛ حتى يهلكوا كما هلك ، أو يضلوا كما ضل ، أو يخيبوا كما خاب .
فإن قيل : هذه الآية دلت على أن إبليس كان عالما بالدين الحق ؛ لأنه قال) لأقعدن لهم صراطك المستقيم (وصراطه المستقيم هو دينه الحق ، ودلت أيضا على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من الإعتقاد هو محض الغواية والضلال لأنه لو لم يكن كذلك لما قال : (رب بمآ أغويتني ([الحجر : ٣٩] ، وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية ، وبكونه مضادا للدين الحق ، ومنافيا للصراط المستقيم ، فإن المرء إنما يعتقد الاعتقاد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا ، فأما من علم أنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ، ويرضى به ، ويعتقده .
فالجواب : **أن من الناس من** قال : إن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل ، ومنهم من قال : كفره كفر جهل . وقوله : (فبمآ أغويتني (، وقوله : (لأقعدن لهم صراطك المستقيم (يريد به في زعم الخصم ، وفي اعتقاده .
فصل في بيان هل على الله رعاية المصالح
احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه." [2]

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٣٣٢/٨
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ٤١/٩

"" " صفحة رقم ٢٢٣ " "

والثاني : أن من الناس من حمل قوله : (ما كان للنبي والذين آمنوا ا أن يستغفروا للمشركين (على صلاة الجنازة لا على هذا الطريق ، قالوا : ويدل عليه قوله : (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ([التوبة : ٨٤] .

فصل

اختلفوا في السبب الذي تبين إبراهيم به أن أباه عدو لله . فقيل : بالإصرار والموت وقيل : بالإصرار وحده . وقيل : بالوحي . فكأنه تعالى يقول : لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه ؛ فكونوا كذلك ، لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله : (اتبع ملة إبراهيم ([النحل : ١٢٣] . قوله : (إن إبراهيم لأواه حليم) . الأواه : الكثير التأوه ، وهو من يقول : أواه ، وقيل : من يقول : أوه ، وهو أنسب ؛ لأن " أوه " بمعنى : أتوجع ، ف " الأواه " : فعال مثال مبالغة من ذلك ، وقياس فعله أن يكون ثلاثيا ؛ لأن أمثله المبالغة إنما تطرد في الثلاثي وقد حكى قطرب فعله ثلاثيا ، فقال : يقال : آه يئوه ، ك " قام يقوم ، " أوها " .

وأنكر النحويون هذا القول على قطرب ، وقالوا : لا يقال من " أوه " بمعنى : أتوجع ، فعل ثلاثي ، إنما يقال : أوه تأويها ، وتأوه تأوها ؛ قال الراجز : [الرجز]

٢٨٥٠ - فأوه الراعي وضوضى أكلبه

وقال المثقب العبدي : [الوافر]

٢٨٥١ - إذا ما قمت أرحلها بليل

تأوه آهة الرجل الحزين

وقال الزمخشري : " أواه : فعال ، من أوه ، ك : " لئال " من اللؤلؤ ، وهو الذي يكثر التأوه " .

قال أبو حيان " وتشبيه " أواه " من " أوه " ك " لئال " من اللؤلؤ ليس بجيد ؛ لأن مادة " أوه " موجودة في صورة " أواه " ، ومادة " لؤلؤ " مفقودة في " لئال " ؛ لاختلاف التركيب إذ " لئال " ثلاثي ، و " لؤلؤ " رباعي ، وشرط الاشتقاق التوافق في الحروف الأصلية " .

قال شهاب الدين : " لئال " ، و " لؤلؤ "كلاهما من الرباعي المكرر ، أي : إن الأصل لام وهمزة ثم كررنا ، غاية ما في الباب أنه اجتمع الهمزتان في " لئال " فأدغمت أولاهما في الأخرى ، وفرق بينهما في " لؤلؤ " وقال ابن الأثير في قوله عليه السلام : " أوه عن الربا "كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع وهي ساكنة الواو ومكسورة الهاء ، وربما." (١)

"" " صفحة رقم ٢٥٦ " "

إن الكفار كلهم مغفور لهم ؛ لأن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة .

وعن الثاني : أن الله تمدح بهذا ، التمدح إنما يصحل بالتفضيل ، أما أداء الواجب ، فلا تمدح فيه ، وعندكم يجب

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ١٠/٢٢٣

غفران الصغائر .

وعن الثالث : أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة ؛ فسقطت الأسئلة .

قوله : (على ظلمهم (حال من " الناس " والعامل فيها ، قال أبو البقاء " مغفرة " يعني : أنه هو العامل في صاحبها .

قوله تعالى : (ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه (الآية شلما بين تعالى أنهم طعنوا في النبوة بسبب طعنهم في الحشر والنشر ثم طعنوا في النبوة أيضا بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول العذاب ، بين أيضا أنهم طعنوا في نبوته ، وطلبوا منه المعجزة .

والسبب في كونهم أنكروا كون القرآن معجزة : أنهم قالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب ، وإتيان الإنسان بتصنيف معين لا يكون معجزا ، وإنما يكون المعجز مثل معجزات موسى .

واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لم يظهر معجزة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) سوى القرآن ، قالوا : لأن هذا الكلام إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا ولم يظهر معجزا غيره ؛ لأنه لو ظهر معجزة مغيره لم يحسن أن يقال : (لولا أأنزل عليه آية من ربه (وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ما كان له معجزة سوى القرآن .

والجواب : عنه من وجهين :

الأول : لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها من حينين الجزع ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير الطعام القليل ؛ فطلبوا منه معجزاتن قاهرة غير هذه ، مثل : فلق البحر لموسى ، وقلب العصا ثعبانا .

فإن قيل : فما السبب في أن ا لله منعهم ، وما أعطاهم ؟ .

فالجواب : أن الله تعالى لما أظهر المعجزة الواحدة ، فقد تم الغرض ، فيكون طلب الثاني تحكما ، وظهور القرآن معجزةم ، فما كان من ذلك حاجة إلى معجزات آخر .

وأيضا : فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور المعجزة الملتمسة وكونهم يصيرون حينئذ يستوجبون عذاب الاستئصال ، فلهذا السبب ما أعطاهم ملطوبهنم ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : (ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ([الأنفال : ٢٣] فبين أنه لم يعطهم مطلوبهم ، لعلمه أنهم لا ينتفعون به .

وأيضا : ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له ، وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء آخر ، وطلب معجزة أخرى ، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو باطل .." (١)

"" " صفحة رقم ٢٠٠ " "

السابع : **أن من الناس من** يقول : إن الحيوان إنما يبصر المرئيات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمرئيات ، فإذا فتحنا العين ، ونظرنا إلى شخص ، رأيناه ، فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى الشخص في تلك اللحظة اللطيفة ، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات ، فثبت

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٢٥٦/١١

بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه .
المقدمة الثانية : في بيان أن هذه الحركة ، لما كانت ممكنة الوجود في نفسها ، وجب ألا يمتنع حصولها في جسم محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ لأنه ثبت بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهيتها ، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام ، وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام ، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد (صلى الله عليه وسلم) أمر ممكن الوجود في نفسه .
وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد (صلى الله عليه وسلم) ممكن ؛ فوجب كونه تعالى قادرا عليه ، فلزم من مجموع هذه المقامات : أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه ، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب ، إلا أن التعجب غير مخصوص بهذا المقام ، بل هو حاصل في جميع المعجزات ، فانقلاب العصا ثعبانا يبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي ، ثم تعود في الحال عصا صغيرة ، كما كانت أمر عجيب ، وخروج الناقة من الجبل الأصم أمر عجيب ، وإظلال الجبل في الهواء أمر عجيب ، وكذا سائر المعجزات ، فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع ، لزم الجزم بفساد القول بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام ، لكن القول بإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة ، وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال ، فكذا هنا .
فصل في ترجيح القول بالإسراء بالجسد والروح
قال المحققون : إنه تعالى أسرى بروح محمد (صلى الله عليه وسلم) وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى ؛ ويدل عليه القرآن والخبر : أما القرآن ، فهذه الآية ؛ وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح ، قال تعالى : (أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ([العلق : ٩ - ١٠] وقال تعالى : (وأنه لما قام عبد الله يدعوه ([الجن : ١٩] .
وأما الخبر ، فما روى أنس بن مالك : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل - عليه السلام - ففرج صدري ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا ، ففرغه في صدري ، ثم أطبقه " .." (١)
"" " صفحة رقم ١٨٣ " "
هذه الآية على أنه " أحسن الخالقين " في اعتقادكم وظنكم كقوله : (وهو أهون عليه ([الروم : ٢٧] .
وجواب ثان ، وهو أن الخالق هو المقدر ، لأن الخلق هو التقدير ، فالآية تدل على أنه تعالى أحسن المقدرين ، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان ، وذلك في حق الله تعالى محال ، فتكون الآية من المتشابه .
وجواب ثالث : أن الآية تقتضي كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت إنه خالق بمعنى كونه موحدا .
فصل
قالت المعتزلة : الآية تدل على أن كل ما خلقه الله حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين ،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٢٠٠/١٢

وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقا للكفر والمعصية ، فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما .
وأجيب بأن من الناس من حمل الحسن على الأحكام والإتقان في التركيب والتأليف ، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله كل الأشياء ، لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعا له عن فعل شيء .
فصل
روى الكلبي عن ابن عباس أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما انتهى إلى قوله : " خلقا آخر " عجب من ذلك فقال : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اكتب فهكذا نزلت " فشك عبد الله وقال : إن كان محمد صادقا فيما يقول ، فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه ، وإن كان كاذبا فلا خير في دينه ، فهرب إلى مكة ، فقيل : إنه مات على الكفر ، وقيل : إنه أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب : فتبارك الله أحسن الخالقين . فقال رسول الله : " هكذا أنزل يا عمر " .
وكان عمر يقول : وافقني ربي في أربع : الصلاة خلف المقام ، وضرب الحجاب على النسوة ، وقولي لهن : أو ليبدله الله خيرا منكن ، فنزل قوله : (عسى ربه إن طلقكن ([التحريم : ٥] ، والرابع قوله : (فتبارك الله أحسن الخالقين (قال العارفون : هذه الواقعة." [1]
"" " صفحة رقم ٢٢ " "
الرابع : أنه منصوب بإضمار فعل أي سخرنا له الطير . قاله أبو عمرو ، وقرأ السلمي والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وأبو يحيى وعاصم – في رواية – والطير بالرفع ، وفيه أوجه : النسق على لفظ " الجبال " وأنشد :
٤١١٤ – ألا يا زيد والضحاك سيرا
فقد جوزتما خمر الطريق
بالوجهين ، وفي عطف المفرف بأل على المنادى المضموم ثلاثة مذاهب ، الثاني : عطفه على الضمير المستكن في " أوبي " وجاز ذلك ، للفصل بالظرف ، والثالث : الرفع على الابتداء والخبر مضمير أي والطير كذلك أي مؤوبة . فصل لم يكن الموافقون له في التأويب منحصرا في الطير والجبال ولكن ذكر الجبال لأن الصخور للجمود والطير للنفور وكلاهما مستبعد منه الموافقة ، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة .
قال المفسرون كان داود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير على من فوقه فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم من ذلك وقيل : كان داود إذا تخلل الجبال." [2]

(١) اللباب في علوم الكتاب، ١٨٣/١٤
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ٢٢/١٦

"" " صفحة رقم ٨١ " "

ثم قال : (هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (والمعنى أنه تعالى لما ذكر انتقال الأجسام من كونها ترابا إلى أن بلغت الشيخوخة ، واستدل بهذه التغييرات على وجود الإله القادر قال بعده : (هو الذي يحيي ويميت (أي كما أن الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس ، يدل على الإله القادر .

(و) قوله : (فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون (فيه وجوه :

الأول : معناه أنه لم ينقل هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى بآلة تعينه إنما يقول له كن فيكون .

الثاني : أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقوله : (كن فيكون (فكأنه قيل : الانتقال من كونه ترابا إلى كونه نطفة إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا . وأما صيرورته حيا فهي إنما تحصل بتعليق جوهر الروح ، وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا عبر عنه بقوله : "كن فيكون " .

الثالث : **أن من الناس من** يقول : إن الإنسان إنما يتكون من المني والدم في الرحم في مدة معينة بحسب الانتقالات من حال إلى حال ، فكأنه قيل : إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر ؛ لأن التسلسل محال ، ووقوع الحادث في الأزل محال فلا بد من الاعتراف بإنسان هو الناس وحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم بل بإيجاد الله تعالى ، ابتداء ، فعبر الله تعالى عن هذه المعنى بقوله : (كن فيكون) .

(/ ٦ ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون الذين كذبوا بالكتاب وبمآ أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (

قوله تعالى : (ألم تر إلى لذين يجادلون فى آيات الله (الآيات . اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله ، أي في إنكار آيات الله ودفعها والتكذيب بها ، فعجب تعالى منهم بقوله : (أنى يصرفون (؟ كيف صرفوا عن دين الحق وهذا كما." (١)

"" " صفحة رقم ٤٢٨ " "

عمل له فهو همج إعدامه خير من وجوده .) فإذا لقيتم الذين كفروا (بعد ظهور أن لا حرمة لهم بعد إبطال عملهم فاضربوا أعناقهم قال البغوي : فضرب الرقاب نصب على الإغراء .

الثاني : إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين بأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال (عند التحزب) فإذا لقيتموهم فاقتلوهم .

الثالث : **أن من الناس من** يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان . فيقال ردا عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فلمن يقتل في سبيل الله لتعظيم الله وبأمره

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٨١/١٧

له (من) الأجر ما للمصلى والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة . فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل .

فصل

والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء ، لأن المؤمن هنا ليس بدافع ، إنما هو مدافع وذلك لأن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله ، بل يتدرج ويضرب غير المقتل فإن اندفع فذاك ، ولا يرقى إلى درجة الإهلاك ، فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم عن وجه الأرض بالكلية ، وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ؟ فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل . والرقبة أظهر المقاتل ، لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت ، بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحرب . وفي قوله " لقيتم " ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل ، لأن قوله : " لقيتم " يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا " لقيكم " ، ولذلك قال في غير هذا الموضع) واقتلوهم حيث ثقفتموهم ([النساء : ٩١] .

فإن قيل : ما الفائدة في قوله ههنا : (فضرب الرقاب (بإضمار الفعل وإظهار." (١)

"" " صفحة رقم ٢٩٦ " "

فصل

لما ذكر خلق الإنسان وإنعامه عليه لتعليمه البيان ، ذكر نعمتين عظيمتين ، وهما : الشمس والقمر ، وأنهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران ، وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ، ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من المنافع الظاهرة ، بخلاف غيرهما من الكواكب ، فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما ، وأنهما بحساب لا يتغير أبدا ، ولو كان مسيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ، ومعرفة فصول السنة .

ثم لما ذكر النعم السماوية وذكر في مقابلتها أيضا نعمتين ظاهرتين من الأرض ، وهما : النبات الذي لا ساق له ، وما له ساق ؛ لأن النبات أصل الرزق من الحبوب والثمار ، والحشيش للحيوان .

وقيل : إنما ذكر هاتين النعمتين بعد تعليم القرآن إشارة إلى **أن من الناس من** لا تكون نفسه زكية ، فيكتفي بأدلة القرآن ، فذكر له آيات الآفاق ، وخص الشمس والقمر ؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على الفاعل المختار . ولو اجتمع العالم ليبينوا سبب حركتهما على هذا التقدير المعين لعجزوا ، وقالوا : إن الله حركهما بالإرادة كما أراد .

وقيل : لما ذكر معجزة القرآن بإنزاله أنكروا نزول الجرم من السماء وصعوده إليها ، فأشار تعالى بحركتهما إلى أنها ليست بالطبيعة .

وهم يقولون بأن الحركة الدورية من أنواع الحركات لا يكون إلا اختياريا ، فقال تعالى : من حركهما على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة ، والثقيل على مذهبكم لا يصعد ، وصعود النجم والشجر إنما هو بقدرة الله تعالى ، فحركة الملك كحركة الفلك جائزة .

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ١٧/٤٢٨

فصل في جريان الشمس والقمر

قال المفسرون : [المعنى] يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر .

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : يجريان بحساب في منازل لا تعدوها ولا يحيدان عنها .." [1]

"يوعدون] نهاية السورة الكريمة ، وهو ختم يناسب موضوع السورة ، في عقاب الكفرة المجرمين ، المكذبين بالبعث والنشور . (١)

مقصودها إثبات القيامة وأنذار من كفر بها وتصوير عظمتها بعظمة ملكها وطول يومها وتسلية المنذر بها بما لمن كذبه بما له من الصغار والذل والتبار ، ودل على وجوب وقوعها سابقا بما ختمه بتسميتها في السورة الماضية بالحاقة تنبيها على أنه لا بد منها ولا محيد عنها ، ودل على ذلك بالقدرة في أولها والعلم في أثنائها والتنزه عما في إهمالها من النقص في آخرها ولا خفاء بما أخبر من أنه أرسل جميع رسله بالتحذير منها فأرسل نوحا عليه السلام في الزمان الأقدم كما ذكر في سورته عند ما اختلف الناس بعدما كانوا عليه في زمان أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام من الاتفاق على الدين الحق فافترقوا إلى مصدق ومكذب ، فعلم منه أن من بعده أولى بذلك لقربهم منها وأتبع ذلك الإعلام أنه دعا إلى ذلك الجن الذين كان سبيلهم فيها سبيل الآدميين ، وأتبع ذلك بعد إرسال أول الرسل بها زمانا – آخرهم زمانا وأولهم نبوة حين كان نبيا وآدم بين الروح والجسد ، فبدأ بسورة المزمل بنبوته ومزيد تزكيته وتقديسه ورفعته والإخبار عن رسالته والتحدي من مخالفته ، وأتبع ذلك الإنذار بها بالصدع بالرسالة بمحو كل ضلالة ، فلما تقررت نبوته وثبتت رسالته على أجمل الوجوه وأجلاها وأبينها وأعلاها ، اشرفها وأولاها ، جعل سبحانه سورة القيامة كلها لها إعلاما بأن الأمر عظيم جدا يجب الاعتناء به والتأهب له والاجتهاد بغاية القوة وإفراغ الجهد ، ثم اتبع ذلك الإنسان دلالة على أنه المقصود بالذات من الأكوان ، فلا يسوغ في الحكمة أن يجعله سبحانه سدى وبين كثيرا من أحوالها ثم أقسم في المرسلات أن أملاها حق لا بد منه ولا مندوحة عنه ، ثم عجب في " عم " منهم في تساؤلهم عنها وتعجيبهم منها ثم أقسم على وقوعها في النازعات وصور من أمرها وهزاهزها ما أراد ، ثم أولى ذلك الدلالة في سورة عبس على أن من الناس من طبع على قلبه فلا حيلة في تصديقه بها مع ما تبين بالسورة الماضية وغيرها من أمرها ، ثم صورها في "كورت " تصوير صارت من رأي عين لو كشف الغطاء ما ازداد الموقنون بها يقينا ، ثم بين في الانفطار أن الأمور فيها ليست على منهاج الأمور هنا ، بل الأسباب كلها منقطعة والأنساب مرتفعة ، والكل خاضعون مخبتون خاشعون ، أعظمهم في الدنيا تجبرا أشدهم هنالك صغارا وتحسرا ، ثم أتبع ذلك من يستحق هنالك النكال والسلاسل والأغلال ، ثم أولاه رفعة أهل الإيمان الذين طبعهم على الإقرار بها والعرفان ، واستمر على هذا إلى آخر القرآن قل أن تأتي سورة إلا وهي معرفة بها غاية المعرفة إلى أن ختمت بالدين إشارة بذلك إلى أن معرفتها هي الدين وأشار في " تبت " إليها وأتبعها الإخلاص إشارة إلى أنه لا يسلم فيها إلا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ٢٩٦/١٨

(١) – صفوة التفاسير . للصابونى – (٣ / ٣٩٨)." [١]

"يوفقه الله لفضلها ، **لأن من الناس من** يغفل عنها ويعرضها للضياع فيصليها قضاء وهيهات الأجر بين القضاء والأداء ، وإنما رجح كونها الصبح لأنها تصلى بمفردها سفرا وحضرا لا تقصر ولا تجمع مع غيرها ولأنها واقعة بين جمعين الظهر والعصر والمغرب والعشاء ،

(٢٠٣/٥)

بيان المعاني ، ج ٥ ، ص : ٢٠٤

و لأنها في وقت يتكاسل فيه الناس للذة النوم ورطوبة الهواء في الصيف وشدة البرد بالشتاء وفتور الأعضاء وتمادي النعاس وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين المقدرين عظيم ثوابها فهي عليهم خفيفة سهلة يسرة يأتونها برغبة وطيب نفس ، وهناك أقوال بأنها العصر أو الظهر وقد بيناها في الآية ٧٩ من سورة الإسراء في ج ١ فراجعها.

وحجة من قال إنها العصر وقوعها بين صلاتي نهار وليل : الصبح والظهر ، والمغرب والعشاء.

وحجة من قال إنها الظهر وقوعها وقت اشتغال الناس ولأنها أول صلاة صلاها جبريل بالنبي محمد عليهما الصلاة والسلام ولأن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين كما ذكره بعضهم ، إلا أنه لا يتجه لأن الصلاتين اللتين قبلها وبعدها مختلفتان.

وحجة من قال إنها المغرب لضيق وقتها وانشغال الناس عنها بالأعمال والطعام والنزهة.

وحجة من قال إنها العشاء كراهية الحديث بعدها إلا بخير وسنية تأخيرها إلى ثلث الليل لما فيه من قطع السمر المنهي عنه.

ولكل وجهة وأحسنها أو لها لقوله تعالى (إن قرآن الفجر كان مشهودا) الآية المارة من الإسراء ، أي يدونها ملائكة الليل والنهار لرؤيتهم لها بخلاف سائر الأوقات ، وقال الشيخ محي الدين في فتوحاته إنها الوتر لقوله صلى الله عليه وسلم : إن الله زادكم صلاة وهي الوتر ألا فصلوها إلخ ، وقوله : الوتر حق فمن لم يوتر فليس مني وكره ، ولختمه تعالى الآية بقوله :

(وقوموا لله قانتين) وفيها القنوت في بحث مطول فراجعه.." [٢]

"قال تعالى «وأشرقت الأرض بنور ربها» حين تجلى لفصل القضاء بين خلقه «ووضع الكتاب» الذي فيه صحائف أعمال الخلق ليحاسب كلا بمقتضي عمله وجيء باللوح المحفوظ لمقابلته بكتب الأعمال التي دونها الحفظة ليظهر للمنكرين أن كل شيء وقع من خلقه ثابت عنده في علمه ومدون في كتابه قبل وقوعه «وجي ء بالنبيين» ليسألهم عن

---

(١) المفصل في موضوعات سور القرآن، ص/١٣٢٣

(٢) بيان المعاني، ٢٩/١

تبليغ رسالتهم وعما أجابهم به قومهم ويستشهدهم عليهم وهو أعلم بذلك كله ، وإنما ليطلع عباده على ذلك وليعلموا أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم لا غير «والشهداء» يؤتى بهم أيضا ليشهدوا عليهم وهو أعلم بما اقترفوه هذا إذا كان المراد بالشهداء الشهود ، أما إذا أريد بهم شهداء الحرب الذين قتلوا في سبيل الله تعالى فيكون إحضارهم لإكرامهم وسرورهم بالفوز والنعيم الدائم ،

(٥٦١/٣)

بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٦٢

و إذا أريد بهم الحفظة أو الموكلون بأعمال الخلق الكاتبون لحسناتهم وسيئاتهم فيكون إحضارهم ليتلى عليهم ما دونوه ليسألوا عنه بحضور المكتوب عنهم ليتبين لهم هل ظلموهم بشيء من ذلك أم لا ، وإذا أريد بهم الرجال العدول الأبرار من كل أمة فيكون حضورهم لسؤالهم هل أن الرسل بلغوا أممهم رسالة ربهم أم لا ، **لأن من الناس من** يجحد مجيء الرسل ، وإذا أريد بهم أمة محمد يكون المراد من حضورهم أن يشهدوا على الأمم السالفة بأن رسلهم بلغوهم أوامر الله ونواهيه عند ما يقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيقال لهم من أين علمتم أنهم بلغوهم وأنتم بعدهم ولم تجتمعوا معهم ؟ فيقولون من كتاب أنزله الله علينا ذكر فيه أن الرسل بلغوا أممهم وهو حق وصدق ، ومن أقوال رسولنا محمد الذي أخبرت يا ربنا أنه لم ينطق عن هوى ، وان قوله وحي منك يوحى إليه ، وقد علمنا أنه حق وأن رسالته صدق ، ومما يدل على أن هذه الأمة تشهد يوم القيامة على الأمم التي قبلها قوله تعالى :

.) " (١)

"ولهذا نفى عنه عليه السلام هذه الصفة الخبيثة «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» ٣٣ تقدم تفسير مثلها في الآية ١٥ المارة ، وقد أخبر بهذه الآية قومه بأنه عليه السلام آمن عند ربه في هذه المواطن الثلاثة التي قل من يأمن منها ، وفي بدء جوابه عليه السلام لقومه اعتراف على نفسه بالعبودية لله ، كأنه نفت في روعه **أن من الناس من** يتخذه إلها فنبه قومه مقدما بأنه عبد الله من جملة عيده تبرأ مما سيقوله المتوغلون في حبه واعتذارا مقدما إلى ربه ليكون حجة له عنده وحجة على الذين يتخذونه إلها فمن قومه من قنع وصدق ، ومنهم من استعظم وكذب ، ونشأ صلى الله عليه وسلم على أكمل الأوصاف في غاية من التواضع ونهاية في الأدب يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ولم يتخذ مسكنا له ويتصدر لقومه ويقول سلوني عن أموركم فإني لين القلب صغير النفس ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية ٤٥ فما بعدها من آل عمران في ج ٣ ، قال تعالى «ذلك» الذي خلقناه من روحنا على الوجه المار ذكره والذي وصف نفسه بتلك الصفات هو «عيسى ابن مريم» نبينا

(١٥٣/٢)

---

(١) بيان المعاني، ٣١/١

بيان المعاني ، ج ٢ ، ص : ١٥٤

و رسولنا وعبدنا لا إله ولا جزء من الإله ولا شريك معه ، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.." [١]

"فهؤلاء ومن كان على شاكلتهم من المختلفين في أمر الدين المنزل عليك يا أكمل الرسل لا تعبا بهم الآن «إن الله يفصل بينهم» وبينك وأتباعك ومن اقتفى أثرك ومشى على طريقك «يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد» (١٧) تقدم تفسير مثله في الآية ٦٢ من سورة البقرة المارة وسيأتي ما يقاربها في الآية ٧٧ في المائدة عدا كلمة المجوس قال تعالى «أ لم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب» كل بما يناسبه بما أراده الله منه ، وبما أن من الناس من يسجد قولا وفعلا ، قال جل قوله «وكثير من الناس» لأن بعضهم يتركه ظاهرا وتكبرا وتمردا وهو في الحقيقة ساجد خاضع منقاد لله تعالى بكليته.

سئل الحجاج هل قتلت أحدا بحق ؟

قال بلى ، قتلت ثلاثة وإني لأرجو أن أدخل الجنة بسبب قتلهم ، وعد منهم رجلا أمره بالصلاة فقال ما يمنعني منها إلا سجودها وركوعها لما يبدو من ذلك من تمثل العورة ، أي أنه يأنف من ذلك ولو كان أمام الله ، فقتله لذلك وما ذلك على الله بعزيز إذا حسنت نية الحجاج «وكثير حق عليه العذاب» لكفرهم وابائهم عن السجود مثل هذا الذي ذكره الحجاج لأن من يستكبر أن يسجد لله فهو كافر «ومن يهن الله» بالشقاوة الواقعة منه عن رغبة واختيار «فما له من مكرم» بالسعادة التي أعرض عن أسبابها فسببت له الذل ، ومن يذله الله لا يكرمه الناس ولا يصيرونه مكرما عندهم ، لأنه مهان عند ربه «إن الله يفعل ما يشاء» (١٨) من إكرام أناس وإهانة آخرين بمقتضى أعمالهم ومنهم يسجد قولا ويأنف فعلا كالمار ذكره ، ومنهم من لا يسجد قولا ولا فعلا كالكفرة ، أما الطيور والحيوانات والكواكب والجبال والأشجار والنبات فتسجد

(٦/١٦٤)." [٢]

"بيان المعاني ، ج ١ ، ص : ١٧٦

ابن مسعود دخل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فقال له نابذ يا ابن مسعود ، فقرأ هذه السورة في الركعة الأولى ، ثم قال له في الركعة الثانية أخلص ، فقرأ سورة الإخلاص ، فلما سلم قال يا ابن مسعود سل تجب.

وهذه السورة محكمة غير منسوخة لأن القصر المستفاد من تقديم المستند قصر إفراد حتما ، لأن المعنى فيه أن دينكم هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول إلي ، فلا تعلقوا فيه أمانيكم الفارغة فإن ذلك محال وان ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لما لا يتجاوزه الى الحصول لكم ، لأن الله تعالى ختم على قلوبكم فلا تنالونه ، وقد مر أنهم كفار مخصوصون سبق في علم الله عدم إيمانهم وهم على ما قيل قيس السهمي والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والأسود بن عيد يغوث والأسود بن عبد المطلب بن أسد وأمية بن خلف وأضرابهم كأبي جهل وأبي

---

(١) بيان المعاني، ١/١١٣

(٢) بيان المعاني، ١/١٤٣

لهب الذين ماتوا وقتلوا على كفرهم.

واعلم أن من الناس من يتمثل بالآية الأخيرة على معنى المتاركة وهو غير جائز لأن القرآن نزل ليتدبر ويعمل فيه لا ليتمثل به ، راجع سورة الكوثر المارة وسورة الطارق الآتية لنقف على مثل هذا ، وأعلم أن هذه السورة المبدوءة بلفظ قل يجوز قراءتها بغير قصد القرآن بلا لفظ قل ، كأن يقول عند الخطاب يا أيها الكافرون ، هو الله أحد ، أعوذ برب الفلق ، أعوذ برب الناس ، لأن الخطاب فيها وإن كان لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم فهي عامة لجميع المؤمنين ، أما قل أوحي فلا ، لأنها خاصة بحضرة الرسول فقط لأن الله خاطبه بها ليقصها على الجن والإنس و

إذا سأله قومه عما ذكر فيها يقول لهم إن الله تعالى أوحى إلي بها ، تأمل هذا ، والله أعلم ، وأستغفر الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة الفيل

عدد ١٩- ١٠٥

نزلت بعد (الكافرون) بمكة وهي خمس آيات ، وثلاث وعشرون كلمة ، وستة وتسعون حرفا ، لا ناسخ ولا منسوخ فيها ، لأنها من الاخبار ولا يدخلها النسخ.." (١)

"موقع لنكتة

لا تجدها في الموضع الآخر كما سيتضح لك من إنعامك النظر فيما سيأتي من هذا القبيل إذا تذكرت وأبقيت هذا في فكرك.

وأن العرب من مذاهبهم التكرار ارادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبهم الاختصار وارادة التخفيف ولا يجاز.

روي أن

(١٧٥/١)

بيان المعاني ، ج ١ ، ص : ١٧٦

ابن مسعود دخل المسجد والنبي صلى الله عليه وسلم جالس فقال له نابذ يا ابن مسعود ، فقرأ هذه السورة في الركعة الأولى ، ثم قال له في الركعة الثانية أخلص ، فقرأ سورة الإخلاص ، فلما سلم قال يا ابن مسعود سل تجب.

وهذه السورة محكمة غير منسوخة لأن القصر المستفاد من تقديم المستند قصر إفراد حتما ، لأن المعنى فيه أن دينكم هو الإشراك مقصور على الحصول لكم لا يتجاوزه الى الحصول إلي ، فلا تعلقوا فيه أمانيكم الفارغة فإن ذلك محال وان ديني الذي هو التوحيد مقصور على الحصول لما لا يتجاوزه الى الحصول لكم ، لأن الله تعالى ختم على قلوبكم فلا تنالونه ، وقد مر أنهم كفار مخصوصون سبق في علم الله عدم إيمانهم وهم على ما قيل قيس السهمي والعاص بن وائل والوليد بن المغيرة والأسود بن عيد يغوث والأسود بن عبد المطلب بن أسد وأمية بن خلف وأضرابهم كأبي جهل وأبي

---

(١) بيان المعاني، ١٧٦/١

لهب الذين ماتوا وقتلوا على كفرهم.

واعلم **أن من الناس من** يتمثل بالآية الأخيرة على معنى المتاركة وهو غير جائز لأن القرآن نزل ليتدبر ويعمل فيه لا ليتمثل به ، راجع سورة الكوثر المارة وسورة الطارق الآتية لنقف على مثل هذا ، وأعلم أن هذه السورة المبدوءة بلفظ قل يجوز قراءتها بغير قصد القرآن بلا لفظ قل ، كأن يقول عند الخطاب يا أيها الكافرون ، هو الله أحد ، أعوذ برب الفلق ، أعوذ برب الناس ، لأن الخطاب فيها وإن كان لسيد المخاطبين صلى الله عليه وسلم فهي عامة لجميع المؤمنين ، أما قل أوحي فلا ، لأنها خاصة بحضرة الرسول فقط لأن الله خاطبه بها ليقصها على الجن والإنس و." (١)

"قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا إن المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنبت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.

واعلم **أن من الناس من** يموت فيخلص الناس من شره ، ومنهم من يموت فتبكيه الناس أجمع ، فاحرص أيها العبد أن تكون الثاني.

قال أبو الحسن الأسدي : مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان فلما حمل في النعش على أعناق الرجال حصل له صرير فقال رجل في الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أعناق قوم تقصف

و ليس فنيق المك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلف." (٢)

"بيان المعاني ، ج ٢ ، ص : ١٥٣

لا عبادة فيها ، والصلاة والزكاة عبادة تنقطع بالموت ، لذلك جعل نهايتها الحياة وهذان الفرضان تعبد الله بهما كل أنبيائه وأممهم وكذلك الصوم والقصاص إلا أنها كانت مفرقة على الأنبياء على غير هذه الصفة والقدر المبين في شريعتنا ، لأن نبينا صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة جامعة لما تشتت من شرائع الأنبياء قبله ، ولم تجمع الصلوات الخمس إلا له ولأمته ، فالصلاة والزكاة من حيث الأصل فرضت على جميع الأنبياء وأممهم كما يفهم من الآية ١٨٣ من سورة البقرة في ج ٣ ، ولكن تختلف في الكيفية والكمية عما فرض علينا «وبرا بوالدتي» أوقرها وأكرمها وأعظمها على سائر الناس ، وفي تخصيص بره بوالدته اشعار صريح بأنه لا والد له وإيذان ببراعتها مما رموها به ، وإشارة بطهارتها وعفافها ، ولهذا استحقت البر منه «ولم يجعلني» ربي الذي من علي بما ذكرته لكم «جبارا شقيا» ٣٢ متكبرا عاقا عاصيا ، وفي قوله جبارا إعلام بنزاهة أمه أيضا مما وصمت به بسببه ، قال بعض العلماء لا تجد العلق أي ابن الزنا إلا جبارا.

ولهذا نفى عنه عليه السلام هذه الصفة الخبيثة «والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» ٣٣ تقدم تفسير مثلها في الآية ١٥ المارة ، وقد أخبر بهذه الآية قومه بأنه عليه السلام آمن عند ربه في هذه المواطن الثلاثة التي قل من

---

(١) بيان المعاني، ١/٢٣٠

(٢) بيان المعاني، ١/٣٩٨

يأمن منها ، وفي بدء جوابه عليه السلام لقومه اعتراف على نفسه بالعبودية لله ، كأنه نفت في روعه أن من الناس من يتخذه إلها فنبه قومه مقدما بأنه عبد الله من جملة عيده تبرأ مما سيقوله المتوغلون في حبه واعتذارا مقدما إلى ربه ليكون حجة له عنده وحجة على الذين يتخذونه إلها فمن قومه من قنع وصدق ، ومنهم من استعظم وكذب ، ونشأ صلى الله عليه وسلم على أكمل الأوصاف في غاية من التواضع ونهاية في الأدب يأكل الشجر ويلبس الشعر ويجلس على التراب ولم يتخذ مسكنا له ويتصدر لقومه ويقول سلوني عن أموركم فإني لين القلب صغير النفس ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية ٤٥ فما بعدها من آل عمران في ج ٣ ، قال تعالى «ذلك» الذي خلقناه من روحنا على الوجه المار ذكره والذي وصف نفسه بتلك الصفات هو «عيسى ابن مريم» نبينا." (١)

"بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٤٠

قال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا إن المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، قال المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنبت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذت من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.

واعلم أن من الناس من يموت فيخلص الناس من شره ، ومنهم من يموت فتبكيه الناس أجمع ، فاحرص أيها العبد أن تكون الثاني.

قال أبو الحسن الأسدي : مات رجل كان يعول اثني عشر ألف إنسان فلما حمل في النعش على أعناق الرجال حصل له صرير فقال رجل في الجنازة :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ولكنه أعناق قوم تقصف

و ليس فنيق المك ما تجدونه ولكنه ذاك الثناء المخلف

قال تعالى «فمن أظلم ممن كذب على الله» فأضاف له شريكا فجعل له بنين وبنات «وكذب بالصدق» الأمر الذي هو الصدق نفسه وهو ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الصادق المصدوق «إذ جاءه» على لسان نبينا وأميننا من لدنا فانتبهوا يا قوم «أ ليس في جهنم مثوى للكافرين ٣٢» أمثال هؤلاء بلى فيها منازل كثيرة لهم أجارنا الله منهم ومنها «والذي جاء بالصدق» الوحي الحق من عندنا «وصدق به» آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن تبعه مؤمنا وهذا المراد من ضمير به كما هو المراد في قوله تعالى (وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون) الآية ٥٤ من سورة البقرة في ج ٣ أي هو وقومه ، وهذا التفسير أولى وأنسب بالمقام لأن الأوجه في العربية أن يكون جاء وصدق لفاعل واحد لأن التغاير يستدعي إضمار الذي وهو غير جائز في العربية ويستدعي أيضا إضمار الفاعل من غير تقدم الذكر له وهذا بعيد أيضا في النصيح ، وقال بعض المفسرين إن ضمير به يعود إلى أبي بكر رضي الله عنه ، وعليه يكون المعنى والذي جاء بالصدق يعني محمدا وصدق به يعني أبا بكر كما قال أبو العالية والكلبي وجماعة ويروونه عن علي عليه السلام وقال السدي وجماعة أيضا : إن ضمير به يعود إلى محمد صلى الله عليه وسلم وضمير جاء إلى جبريل عليه

---

(١) بيان المعاني، ١٥٣/٢

السلام.

وقال مجاهد وجماعة : إن ضمير به يعود إلى علي كرم الله وجهه وضمير." (١)

"بيان المعاني ، ج ٣ ، ص : ٥٦٢

و إذا أريد بهم الحفظة أو الموكلون بأعمال الخلق الكاتبون لحسناتهم وسيئاتهم فيكون إحضارهم ليتلى عليهم ما دونوه ليسألوا عنه بحضور المكتوب عنهم ليتبين لهم هل ظلموهم بشيء من ذلك أم لا ، وإذا أريد بهم الرجال العدول الأبرار من كل أمة فيكون حضورهم لسؤالهم هل أن الرسل بلغوا أممهم رسالة ربهم أم لا ، **لأن من الناس من** يجحد مجيء الرسل ، وإذا أريد بهم أمة محمد يكون المراد من حضورهم أن يشهدوا على الأمم السالفة بأن رسلهم بلغوهم أوامر الله ونواهيه عند ما يقولون ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فيقال لهم من أين علمتم أنهم بلغوهم وأنتم بعدهم ولم تجتمعوا معهم ؟ فيقولون من كتاب أنزله الله علينا ذكر فيه أن الرسل بلغوا أممهم وهو حق وصدق ، ومن أقوال رسولنا محمد الذي أخبرت يا ربنا أنه لم ينطق عن هوى ، وان قوله وحي منك يوحى إليه ، وقد علمنا أنه حق وأن رسالته صدق ، ومما يدل على أن هذه الأمة تشهد يوم القيامة على الأمم التي قبلها قوله تعالى :

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) الآية ١٤٣ من البقرة في ج ٣ ، ومثلها الآية الأخيرة من سورة الحج في ج ٣ أيضا «وقضي بينهم بالحق» لكل ما يستحقه بموجب عمله «وهم لا يظلمون ٦٩» شيئا فلا يزاد على سيئات المسي ء ، ولا ينقص من حسنات المحسن وينال كل جزاء ما عمله إذا عاملهم بعدله ، أما إذا عاملهم بفضله الواسع الذي يدخل فيه من يشاء جنته عمل أو لم يعمل فهو أهل لذلك فقد يعفو عن المسيء ويضاعف للمحسن أضعافا كثيرة وهو جل عطفه لا يسأل عما يفعل «ووفيت كل نفس» جزاء «ما عملت» في دنياها من خير أو شر «وهو أعلم بما يفعلون ٧٠» قبل محاسبتهم وقبل الإطلاع على كتبهم والاستشهاد عليهم إذ ليس هو بحاجة إلى كتاب أو شاهد ، ولكن ليعترفوا أنفسهم بما وقع منهم ، وليعلموا أن الله ما ترك لهم مثقال ذرة مما عملوه ، وأنه قضى عليهم ولهم بما يستوجبونه ، لأن الحاكم إذا أفهم المحكوم عليه جرمه وأسبابه وأدلته التي أدانته به ووجه ثبوته عليه بالبراهين التي لا تقبل التأويل والحجج القاطعة لرد دفاعه يوقع الحق على نفسه ويلومها ويبرأ الحاكم من الحيف والجور والخصومة ، ولا يوقر بقلبه غلا عليه ، ." (٢)

"بيان المعاني ، ج ٥ ، ص : ٢٠٣

من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف»

أي يلزمكم نصف «ما فرضتم» على أنفسكم

من المهر المسمى عند العقد لا مهر المثل لأنه لا يرجع إليه إلا عند عدم التسمية «إلا أن يعفون» عنكم أو يسامحونكم به أنفسهن أو أولياؤهن برضائهن والنون في (يعفون) ضمير جمع المؤنث ولهذا لم يسقطها الناصب إذ يستوي فيه الرفع

---

(١) بيان المعاني، ٥٤٠/٣

(٢) بيان المعاني، ٥٦٢/٣

والنصب ، ومن قال إنه ضمير الرجال قال إن النون علامة الرفع ولم يسقطها الناصب لأن الفعل مبني لا يؤثر فيه الناصب كما لم تسقط الواو التي هي ضمير المذكر وإنما سقطت الواو التي هي لام الفعل وإسناده للنساء أولى بالمقام ، يؤيده قوله تعالى «أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح» من أوليائهن إن كن قاصرات أو غير حائزات شروط التصرف لأن الولي هو القيم عليها وقد يكون هو الذي زوجها وهو الذي ألزم الزوج مهرها ولذلك له أن يعفو عن المهر وغيره «وأن تعفوا» أيها الأولياء والنساء البالغات الحائزات حق التصرف عن نصف المهر المذكور أو عن بعضه فتبرئوا ذمة الأزواج منه فهو «أقرب للتقوى » من أن تأخذوه وفي حالة العفو ينبغي للزوج أن يمتعها بما تسمح به نفسه تطييبا لخاطرها ، ثم بين سبب العفو بقوله عز قوله «ولا تنسوا الفضل بينكم» لأنكم تقاربتم بسبب هذا الزواج فليدم بينكم الإحسان لأن في الأخذ قطيعة له وسبب للتخاصم وفيه حث الطرفين على كرم الأخلاق وإذا عفى الزوج وترك المهر كله فهو أولى والفضل لمن تسمح نفسه بما يستديم به مودة الآخر إذ قد يؤدي هذا التسامح إلى الرجعة فلا يبقى محل للحقد والبغضاء والمشاحنة وهذا هو المعروف والإحسان المطلوبين في التفريق «إن الله بما تعملون بصير» (٢٣٧) لا يضيع عمل عامل منكم فاعملوا خيرا لأنفسكم لتجدوا ثوابه عند ربكم القائل «حافظوا على الصلوات» المكتوبات «والصلاة الوسطى » خاصة وهي صلاة الصبح على أصح الأقوال لمزيد الاعتناء بها ولزوم المحافظة عليها لأنها ثقيلة على من لم يوفقه الله لفضلها ، **لأن من الناس من** يغفل عنها ويعرضها للضياع فيصليها قضاء وهيهات الأجر بين القضاء والأداء ، وإنما رجح كونها الصبح لأنها تصلى بمفردها سفرا وحضرا لا تقصر ولا تجمع مع غيرها ولأنها واقعة بين جمعين الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ." (١)

"بيان المعاني ، ج ٦ ، ص : ١٦٤

و هؤلاء أصحاب الأديان الستة الموجودون على وجه الأرض عند نزول القرآن لا غيرهم ، أما الفرق الأخرى الموجودون الآن فقد افترقوا بعد وانشقوا بعضهم على بعض وتشعبوا من هذه الأديان الستة كما أخبر حضرة الرسول ، وقد ذكرهم صاحب المواقف في أواخر الجزء الثالث على وجه التفصيل فمن أراد الاطلاع عليهم ومعرفة أديانهم وأهلها والوقوف على كنههم فليراجعه.

فهؤلاء ومن كان على شاكلتهم من المختلفين في أمر الدين المنزل عليك يا أكمل الرسل لا تعبا بهم الآن «إن الله يفصل بينهم» وبينك وأتباعك ومن اقتفى أثرك ومشى على طريقك «يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد» (١٧) تقدم تفسير مثله في الآية ٦٢ من سورة البقرة المارة وسيأتي ما يقاربها في الآية ٧٧ في المائدة عدا كلمة المجوس قال تعالى «أ لم تر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب» كل بما يناسبه بما أراده الله منه ، وبما **أن من الناس من** يسجد قولا وفعلا ، قال جل قوله «وكثير من الناس» لأن بعضهم يتركه ظاهرا وتكبرا وتمردا وهو في الحقيقة ساجد خاضع منقاد لله تعالى بكليته.

سئل الحجاج هل قتلت أحدا بحق ؟

---

(١) بيان المعاني، ٥/٢٠٣

قال بلى ، قتلت ثلاثة وإني لأرجو أن أدخل الجنة بسبب قتلهم ، وعد منهم رجلا أمره بالصلاة فقال ما يمنعني منها إلا سجودها وركوعها لما يبدو من ذلك من تمثل العورة ، أي أنه يأنف من ذلك ولو كان أمام الله ، فقتله لذلك وما ذلك على الله بعزيز إذا حسنت نية الحجاج «وكثير حق عليه العذاب» لكفرهم وابائهم عن السجود مثل هذا الذي ذكره الحجاج لأن من يستكبر أن يسجد لله فهو كافر «ومن يهن الله» بالشقاوة الواقعة منه عن رغبة واختيار «فما له من مكرم» بالسعادة التي أعرض عن أسبابها فسببت له الذل ، ومن يذله الله لا يكرمه الناس ولا يصيرونه مكرما عندهم ، لأنه مهان عند ربه «إن الله يفعل ما يشاء» (١٨) من إكرام أناس وإهانة آخرين بمقتضى أعمالهم ومنهم يسجد قولا ويأنف فعلا كالمار ذكره ، ومنهم من لا يسجد قولا ولا فعلا كالكفرة ، أما الطيور والحيوانات والكواكب والجبال والأشجار والنبات فتسجد." (١)

"﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل﴾. اختلف في معنى السجيل هنا .

فقال قوم : هو السجين ، أبدلت النون لاما ، والسجين النار .

وقيل : إن السجيل من السجل ، كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجينا لديوان أعمالهم واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وهي حجارة مرسلة لقوله : ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾.

وقوله : إن سجينا ، عن الديوان أعمالهم ، يعني قوله تعالى : ﴿كلا إن كتب لفجار لفى سجين﴾.

وقيل : معنى سجيل ستك وطين ، يعني بعض حجر وبعض طين .

وقيل : معناه الشديد .

وقيل : السجيل اسم لسماء الدنيا .

وتقدم للشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه ، ترجيح أنها من طين شديد القوة .

وهذا ما يشهد له القرآن لما في سورة الذاريات ﴿قالوا إنآ أرسلنآ إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسومة عند ربك للمسرفين﴾ فنص على أنها من طين.

والحجارة من الطين : هي الآجر وهو الطين المطبوخ حتى يتحجر .

وجاء النص الآخر أنها من سجيل منضوض في قوله : ﴿فلما جآء أمرنا جعلنا عليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾.

وقيل فيها : كالحمصة والعدسة ، والضمير في عليهم راجع لأصحاب الفيل ، وقصتهم طويلة مشهورة .

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل ، وترجيح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه : أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيها

---

(١) بيان المعاني، ١٦٤/٦

على ما قيل من استبعاد ذلك ، وردا على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة .
أما من استبعدها ، فقد حكاه الفخر الرازي بقوله : واعلم أن من الناس من أنكر ذلك .." [1]
"ص : ٢١٩

فإن عثر على أنهما استحقا إثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا إنا إذا لمن الظالمين (١٠٧) ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم واتقوا الله واسمعوا [المائدة :
١٠٦ ، ١٠٨].
قد اختلف الناس قديما في تأويل هذه الآية والسبب الذي نزلت فيه.
وأنا مخبر من تلك المذاهب والتأويلات ، بأشبهها بلفظ الكتاب ، وأولاها بمعناه.
وأراد الله عز وجل أن يعرفنا كيف نشده بالوصية عند حضور الموت ، فقال : يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أي : رجلان عدلان من المسلمين تشهدونهما على الوصية.
وعلم الله سبحانه أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين ، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم ، ويحضره الموت فلا يجد من يشهده من المسلمين ، فقال : أو آخران من غيركم أي : من غير دينكم إذا ضربتم في الأرض أي : سافرتم فأصابتكم مصيبة الموت وتم الكلام. فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر خاصة إن أمكن إشهادهما في السفر. والذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما.
ثم قال : تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم أراد : تحبسونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما وشككتم ، وخشيتم أن يكونا قد غيرا ، أو بدلا وكتما وخانا.
وخص هذا الوقت ، لأنه قبل وجوب الشمس «١» ، وأهل الأديان يعظمونه ويذكرون الله فيه ، ويتوقون الحلف الكاذب وقول الزور ، وأهل الكتاب يصلون لطلوع الشمس وغروبها.
فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا أي : لا نبيعه بعرض ، ولا نحابي في شهادتنا أحدا ولو كان ذا قربى ، ولا نكتم شهادة علمناها.
فإذا حلفا بهذه اليمين على ما شهدا به ، قبلت شهادتهما ، وأمضي الأمر على قولهما.

---

(١) وجوب الشمس : يقال : وجبت الشمس وجبا ووجوبا : غابت.." [2]

"النبي صلى الله عليه وسلم تغير وجه زيد قال : (يا زيد إن الله جل وعلا قد قبل صدقتك منك) . موضع الشاهد أن المقصود إخراج حب المال من القلوب ، أما أين يقع المال مسألة لا تهم إذا اجتهد الإنسان وبذل جهده ،

---

(١) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية محمد سالم، ٢/٣٣٣

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص/٢١٩

قد يقع في قرابة قد يقع في غير قرابة يجتهد الإنسان ، والإنسان مأمور أن يجتهد أين يضع ماله لكن المهم إخراج الدنيا من القلوب .

ينبغي على الإنسان أن يتبع السنة بفهم للسنة لا بفهمه هو :

وليس معنى ذلك أن يأتي الإنسان لشيء يتقوت به وينفق به على عياله ولا يملك غيره ثم ينفقه كما نسمع بين الحين والآخر فإن هذا قد يكون في بعض الأحايين مخالفا للصواب قال الله جل وعلا : ((ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴿٢٩﴾ إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴿٣٠﴾)) سورة الإسراء . فالإنفاق أن ينفق الإنسان من أحب ما لديه نعم ، ولكن ينظر نظرة توازن في أهله وذويه وأبناءه ومن لهم حق عليه ، والناس في هذا يختلفون اختلافا جذريا ، ليس معنى أنهم يختلفون في الإيمان ، نعم هم كذلك لكن في هذا الشأن لا ، إنما يختلفون في قضية **أن من الناس من** يستطيع أن يعوض ومن الناس من لا يستطيع أن يعوض ، ولو ذهب ليقترض لا يقرضه أحد . فهذا لو أنفق ماله كله أصبح أشد ممن أنفق عليه وأشد ممن طلبه مالا فأعطاه ولا يقول بهذا عاقل لكن يوجد إنسان له جاه و له قدره أن يستدين يحبه الناس و معروف ، إمام مسجد ، خطيب ، مدير ، موظف كبير هذا لو أعطى ماله كله يستطيع أن يعوضه ، أو رجل تاجر حتى لو أنفق اليوم ماله كله غدا يكسب شيء آخر . على هذا يحمل ما فعله الصحابة ، لا يأتي إنسان يقول أبو بكر رضي الله عنه أنفق ماله كله . نعم أبو بكر رضي الله عنه أنفق ماله كله لكن أبو بكر رضي الله عنه كان تاجرا ما ينفقه." [1]

" بمصرخكم

يقول : بمغن عنهم شيئا وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل قال : فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم سورة غافر ١٠ الآية

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن – رضي الله عنه – قال إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال : إن الله وعدكم وعد الحق

إلى قوله : وما أنتم بمصرخي قال : بناصري إني كفرت بما أشركتمون من قبل قال : بطاعتكم إياي في الدنيا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي – رضي الله عنه – في هذه الآية قال : خطيبان يقومان يوم القيامة إبليس وعيسى بن مريم فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول هذا القول

وأما عيسى عليه السلام فيقول : ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد

؟ ؟ سورة المائدة آية ١١٧ وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : **إن من الناس من** يذلله الشيطان كما يذلل أحدكم قعوده من الأبل

---

(١) تأملات قرآنية للمغامسي، ٤/٥

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي اله عنه – في قوله : ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي قال : ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي إني كفرت بما أشركتمون من قبل قال : شركة عبادته

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله : ما أنا بمصرخكم قال : ما أنا بمغيثكم

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله : بمصرخي قال : بمغيثي

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله : إني كفرت بما أشركتمون من قبل يقول : عصيت الله فيكم ." (١)

"قضي الأمر﴾ الآية ، قال إبليس يخطبهم فقال : ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم﴾ إلى قوله : ﴿ما أنا بمصرخكم﴾

يقول : بمغن عنهم شيئا ﴿وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال : فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) (سورة غافر ١٠) الآية.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الحسن – رضي الله عنه – قال إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال : ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ إلى قوله : ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ قال : بناصري ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال : بطاعتكم إياي في الدنيا.

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر عن الشعبي – رضي الله عنه – في هذه الآية قال : خطيبان يقومان يوم القيامة إبليس وعيسى بن مريم فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول هذا القول.

وأما عيسى عليه السلام فيقول : (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد) ، (سورة المائدة آية ١١٧).

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : **إن من الناس من** يذلله الشيطان كما يذلل أحدكم قعوده من الأبل.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي اله عنه – في قوله : ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم." (٢)

"وفي صحيح ومسلم " عن جابر بن عبد الله قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صلتا في يده فقال لي: من يمنعك مني . قال . قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني . قال . قلت: الله قال: فشام السيف فها هو ذا جالس» " ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١) ، وقال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " لما بعثني الله

---

(١) الدر المنثور، ١٩/٥

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، ٥٠٨/٨

برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية " وكان أبو طالب يرسل كل يوم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزل: ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " يا عماه إن الله قد عصمني من الجن والإنس فلا أحتاج إلى من يحرسني "(٢)

---

(١) – صحيح مسلم(٨٤٣)

(٢) – باطل.أخرجه الواحدي عن ابن عباس رضي الله عنهما.." [١]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١ ، ص : ٣٣٦

لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.

ورحم الله القائل : ألا إن لله كتابين : كتابا مخلوقا وهو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن.

وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذاك بما أوتينا من العقل. فمن أطاع فهو من الفائزين ، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون.

وبعد أن ذكر – سبحانه – جانبا من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين ، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال – تعالى – :

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٦٥ الى ١٦٧]

ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب (١٦٥) إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦) وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار (١٦٧)

الأنداد : جمع ند ، وهو مثل الشيء الذي يضاده وينافره ويتباعد عنه. وأصله من ند البعير يند ندا ونداد ونودا ، أى : نفر وذهب على وجهه شاردا. ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله ، وقيل : المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم. والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله – تعالى – من نحو التحليل ، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التي انفرد بها الخالق – عز وجل – .

والمعنى : أن من الناس من لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله وقدرته ، وبلغت." [٢]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ٢ ، ص : ٢٥٨

قال الإمام الرازي ما ملخصه : اعلم أن من الناس من قال : إن الله – تعالى – لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما

---

(١) بحث في التفسير بين السنة والشيعة الإمامية الاثنى عشرية، ١٩٧/١

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٣٣٦/١

يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهى والترغيب والترهيب فقال : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة.

وقال القفال : يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا ، ولعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر ، ويتمكنوا من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك.

وكان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم - مثلا - إلى أجل ، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال : زدني في المال حتى أزيد في الأجل ، فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله أضعافا مضاعفة « ١ ».

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٣. طبعة عبد الرحمن محمد. [.....]." (١)

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١١ ، ص : ٤٧

و عبر عن الكتاب بالآيات ، للإشعار بأنها في غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله - تعالى - ، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت **أن من الناس من** قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان ، ومنهم من قابله بالجحود والنكران.

ثم ساق - سبحانه - أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده - تعالى - ، فقال : وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ، ولا تخطه بيمينك ، إذا لارتاب المبطلون.

أى : أنت - أيها الرسول الكريم - ما كنت في يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن - تاليا لكتاب من الكتب ، ولا عارفا للكتابة ، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة ، لارتاب المبطلون في شأنك ، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين.

ومن في قوله من كتاب لتأكيد نفى كونه صلى الله عليه وسلم قارئا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه.

وقوله : ولا تخطه بيمينك لتأكيد نفى كونه صلى الله عليه وسلم يعرف الكتابة أو الخط.

قال الإمام ابن كثير : وهكذا صفته صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة ، كما قال - تعالى - : الذين يتبعون الرسول النبي الأمي ، الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل .. وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه - إلى يوم القيامة ، لا يحسن الكتابة ، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده ، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم ... » « ١ ».

والمراد بالمبطلين ، كل من شك في كون هذا القرآن من عند الله - تعالى - ، سواء أكان من مشركي مكة أم من غيرهم.

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٢٥٨/٢

وسماهم – سبحانه – مبطلين ، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة ، يعرفون حسبه ونسبه ، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة.

ثم بين – سبحانه – حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال : بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ....

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩٥.." [١]

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٣ ، ص : ٢٣١

و أنهار من خمر لذة للشاربين أى : وفيها كذلك أنهار من خمر هي في غاية اللذة لمن يشربها ، إذ لا يعقبها ذهاب عقل ، ولا صداع.

وقال – سبحانه – لذة للشاربين للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا **فإن من الناس من** ينفر منها ويعافها حتى ولو كان على غير دين الإسلام.

و أنهار من عسل مصفى أى : وفيها – أيضا – أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره.

و لهم أى : للمؤمنين فيها أى : في الجنة فضلا عن كل ذلك من كل الثمرات التي يشتهونها ، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها : مغفرة من ربهم أى : لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم ، حيث ستر لهم ذنوبهم ، وأزالها عنهم ، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه.

وقوله – سبحانه – : كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم أى :

أمثل جزاء المؤمنين الذي هو الجنة التي فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل ..

كمثل عقاب الكافرين والمتمثل في نارهم خالدين فيها أبدا ، وفي ماء في أشد درجات الحرارة ، يشربونه فيقطع أمعاءهم؟

لا شك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا ، بين حسن عاقبة المؤمنين ، وسوء عاقبة الكافرين.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار في المنهج والسلوك ، وفي المصير الذي يصير إليه كل فريق.

وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين وعن مصير كل فريق. انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين ، وعن موقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم الذي أنزله الله – تعالى – عليه ، فقال – سبحانه – :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٦ الى ١٩]

ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ما ذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (١٦) والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧) فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٤٧/١١

أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم (١٨) فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم (١٩)." (١)

"التفسير الوسيط للقرآن الكريم ، ج ١٣ ، ص : ٢٦٤

و قوله : مبشرا من التبشير ، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر.

وقوله : ونذيرا من الإنذار ، وهو الإخبار بالأمر المخيف ، لكي يجتنب ويحذر.

أي : إنا أرسلناك - أيها الرسول الكريم - إلى الناس ، لتكون شاهدا لمن آمن منهم بالإيمان ، ولمن كفر منهم بالكفر ، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا.

ولتكون مبشرا للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ونذيرا للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم.

والحكمة في جعله صلى الله عليه وسلم شاهدا مع أن الله - تعالى - لا يخفى عليه شيء : إظهار العدل الإلهى للناس في صورة جلية واضحة ، وتكريم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الشهادة.

وجمع - سبحانه - بين كونه صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا لأن من الناس من ينفعه الترغيب في الثواب ، ومنهم من لا يزجره إلا التخويف من العقاب. وانتصاب شاهدا ومبشرا ونذيرا على الحال المقدرة.

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة ، منها قوله - تعالى - : وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ... « ١ ».

وقوله - سبحانه - ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء .. « ٢ ».

وقوله - عز وجل - : يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا « ٣ ».

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣.

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٥.." (٢)

"[٦٧] قوله عز وجل : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ قالت عائشة : من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب ، وهو يقول : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ (١) ، روى الحسن : أن الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف أن من الناس من يكذبه ، فنزلت هذه الآية (٢) ، وقيل : نزلت في عيب اليهود ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون به ، فيقولون له : تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا ، فلما رأى النبي صلى الله

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٢٣١/١٣

(٢) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، ٢٦٤/١٣

عليه وسلم ذلك سكت فنزلت هذه الآية ، وأمره أن يقول لهم : ﴿ يا أهل الكتاب لستم على شيء ﴾ الآية . وقيل : بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص ، نزلت في قصة اليهود ، وقيل : نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها ، وقيل : في الجهاد ، وذلك أن المنافقين كرهوه ، كما قال الله تعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨ / ٢٧٥ ، ومسلم في الإيمان رقم (١٧٧) ١ / ١٥٩ .

(٢) أسباب النزول للواحدي ص (٢٣٢ – ٢٣٣) ، الدر المنثور (٣ / ١١٦–١١٧) .." [(١)]

"وتنازعوا في القرآن هل يقال : إنه حال في المصحف والصدور أم لا يقال ذلك ؟ على قولين . فقيل : هو ظاهر في المحدث ليس بحال فيه . وقيل : بل القرآن حال في الصدور والمصاحف، فهؤلاء الخلقية والحادثية، والاتحادية والاقترانية، أصل قولهم : أن مالا يسبق الحوادث فهو حادث مطلقا . ومن قال بهذا الأصل . فإنه يلزمه بعض هذه الأقوال أو ما يشبه ذلك، **فإن من الناس من** يجعله حادثا، يريد أنه كائن بعد أن لم يكن، ويجعل الحادثات إرادات وتصورات لا حروف وأصوات . والداربي وغيره يميلون إلى هذا القول؛ فإنه إما أن يجعل كلام الله حادثا أو قديما، وإذا كان حادثا فإما أن يكون حادثا في غيره، وإما أن يكون حادثا في ذاته، وإذا كان قديما فإما أن يكون القديم المعنى فقط، أو اللفظ فقط، أو كلاهما، فإذا كان القديم هو المعنى فقط لزم ألا يكون الكلام المقروء كلام الله . تعالى . ثم الكلام في ذلك المعنى قد عرف .

وأما قدم اللفظ فقط، فهذا لم يقل به أحد، لكن من الناس من يقول : إن الكلام القديم هو اللفظ، وأما معناه فليس هو داخلا في مسمى الكلام، بل هو العلم والإرادة وهما قديمان، لكن ليس ذلك داخلا في مسمى الكلام، فهذا يقول : الكلام القديم هو اللفظ / فقط إما الحروف المؤلفة وإما الحروف والأصوات، لكنه يقول : إن معناه قديم . [(٢)] ".

"وقد يزعمون أن حقيقة العلم بالله تؤخذ من غيرما جاء به الرسول، **وأن من الناس من** يكون أعلم بالله منه أو أفضل منه، ونحو ذلك من المقالات، وهذا الضرب ما زال موجودا، لا سيما مع القرامطة الباطنية، من الإسماعيلية والنصيرية والملوك العبيدية، الذين كانوا يدعون الخلافة، ومع الخرمية، والمزدكية، وأمثالهم من الطوائف، وهؤلاء خواصهم أكفر من اليهود والنصارى، ومن الغالية الذين يقولون بإلهية علي ونحوه من البشر أو نبوته، وهم منافقون زنادقة، لكن في كثير من أتباعهم من يظن أنه مؤمن بالكتب والرسل لما لبسوا عليه أصل قولهم، أو وافقهم في قول بعضهم دون بعض، وأكثر هؤلاء يميلون إلي الرافضة، ومنهم / من ينتسب إلي التصوف، ومنهم من ينتسب إلي الكلام، ومنهم من يدخل مع الفقهاء في مذاهبهم .

---

(١) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل، ٣٧١/٢

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ١٣٤/١

وهذا الضرب يكثر في الدول الجاهلية البعيدين عن معرفة الإسلام والتزامه، كما كانوا كثيرين في دولة الديلم والعبيديين ونحوهم، وكما يكثرون في دولة الجهال من الترك ونحوهم من الجهال الذين آمنوا بالرسالة من حيث الجملة من غير علم بتفاصيل ما جاء به الرسول؛ لأن الجهال من الترك وغيرهم بهذا الضرب أشبه منهم بغيرهم؛ فإن هؤلاء لا يوجبون اتباع الرسول علي جميع أهل الأرض، لكنهم قد يرون اتباعه أحسن من اتباع غيره فيتبعونه علي سبيل الاستحباب، أو يتبعون بعض ما جاء به، أو لا يتبعونه بحال، وهم في ذلك مقرون له ولأتباعه .

". (١)

"ومن هؤلاء من يقول : هو قديم، ولا يفهم معنى القديم . فإذا سئل عن ذلك قال : هي قديمة في العلم، ولا يعلم أن المخلوقات كالسماء والأرض بهذه المثابة مع أنها مخلوقة، ومنهم من يقول : قديم بمعنى أنه متقدم على غيره، ولا يعرف أن الذين قالوا : إنه مخلوق لا ينازعون في أنه قديم بهذا المعنى، ومنهم من يقول : إن مرادنا بأنه قديم أنه غير مخلوق، ولا يفهم أنه مع ذلك يكون أزليا لم يزل، وهؤلاء سمعوا / ممن يوافقهم على أنه غير مخلوق، قالوا : هو قديم، فوافقوا على أنه قديم، ولم يتصوروا ما يقولونه .

كما أن من الناس من قال : هو غير مخلوق، وأراد بذلك أنه غير مكذوب، وهذا مما لم يتنازع فيه الناس، كما لم يتنازعوا في أنه قديم بمعنى أنه متقدم على غيره .

والقول الثاني : قول من يقول : إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته مع أن كلامه غير مخلوق . وهذا قول جماهير أهل السنة والنظر، وأئمة السنة والحديث، لكن من هؤلاء من اعتقد أن الله لم يكن يمكنه أن يتكلم في الأزل بمشيئته، كما لم يكن يمكنه عندهم أن يفعل في الأزل شيئا، فالتزموا أنه تكلم بمشيئته بعد أن لم يكن متكلما، كما أنه فعل بعد أن لم يكن فاعلا، وهذا قول كثير من أهل الكلام والحديث والسنة .

وأما السلف والأئمة فقالوا : إن الله يتكلم بمشيئته وقدرته، وإن كان مع ذلك قديم النوع . بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء؛ فإن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته أكمل ممن لا يكون متكلما بمشيئته وقدرته، ومن لا يزال متكلما بمشيئته وقدرته أكمل ممن يكون الكلام ممكنا له بعد أن يكون ممتنعا منه، أو قدر أن ذلك ممكن، فكيف إذا / كان ممتنعا ؟ لامتناع أن يصير الرب قادرا بعد أن لم يكن، وأن يكون التكلم والفعل ممكنا بعد أن كان غير ممكن ؟ كما قد بسط هذا في مواضع أخر .

". (٢)

"وتارة يخبر بها خبرا مجردا لما قد أقامه من الآيات البينات، والدلائل اليقينيات على أنه رسول الله المبلغ عن الله، وأنه لا يقول عليه إلا الحق، وأن الله شهد له بذلك، وأعلم عباده وأخبرهم أنه صادق مصدوق فيما بلغه عنه، والأدلة التي بها نعلم أنه رسول الله كثيرة متنوعة، وهي أدلة عقلية تعلم صحتها بالعقل، وهي أيضا شرعية سمعية، لكن الرسول

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢٨٨/١

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣١٩/١

بينها ودل عليها وأرشد إليها، وجميع طوائف النظار متفقون على أن القرآن اشتمل على الأدلة العقلية في المطالب الدينية، وهم يذكرون ذلك في كتبهم الأصولية، وفي كتب التفسير، وعامة النظار أيضا يحتجون بالأدلة السمعية الخبرية المجردة في المطالب الدينية، فإنه إذا ثبت صدق الرسول وجب تصديقه فيما يخبر به .

والعلوم ثلاثة أقسام : منها ما لا يعلم إلا بالأدلة العقلية، وأحسن الأدلة العقلية التي بينها القرآن وأرشد إليها الرسول، فينبغي أن يعرف أن أجل الأدلة العقلية وأكملها وأفضلها مأخوذ عن الرسول؛ **فإن من الناس من** يذهل عن هذا، فمنهم من يقدح في الدلائل العقلية مطلقا؛ لأنه قد صار في ذهنه أنها هي الكلام المبتدع الذي أحدثه من أحدثه من المتكلمين، ومنهم من يعرض عن تدبر القرآن وطلب الدلائل اليقينية العقلية منه؛ لأنه قد صار في ذهنه أن القرآن إنما يدل بطريق الخبر فقط، فلابد أن يعلم بالعقل قبل ذلك ثبوت النبوة وصدق الخبر، حتى يستدل بعد ذلك بخبر من ثبت بالعقل صدقه، ومنها ما لا يعلمه غير الأنبياء إلا بخبر الأنبياء، وخبرهم المجرد هو دليل سمعي، مثل تفاصيل ما أخبروا به من الأمور الإلهية، والملائكة والعرش، والجنة والنار، وتفاصيل ما يؤمر به وينهى عنه .

(١) ".

"ومع هذا فمن الناس والنساء من يحب سماع هذه السورة لما فيها من ذكر العشق وما يتعلق به؛ لمحبته لذلك ورغبته في الفاحشة، حتي **إن من الناس من** يقصد إسماعها للنساء وغيرهن لمحبتهم للسوء، ويعطفون على ذلك، ولا يختارون أن يسمعوا ما في سورة النور من العقوبة والنهي عن ذلك، حتي قال بعض السلف : كل ما حصلته في سورة يوسف أنفقته في سورة النور . وقد قال تعالى ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾ ثم قال : ﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خسارا ﴾ [الإسراء : ٨٢] وقال : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ [التوبة : ١٢٤، ١٢٥] . فكل أحد يحب سماع ذلك لتحريك المحبة المذمومة، ويبغض سماع ذلك إعراضا عن دفع هذه المحبة وإزالتها، فهو مذموم .

ومن هذا الباب ذكر أحوال الكفار والفجار وغير ذلك مما فيه ترغيب في معصية الله وصد عن سبيل الله .

(٢) ".

"وفي البيوت خاصة يسكنون، كما قال : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴾ [النحل : ٨٠] فلما ذكر البيوت المسكونة امتن بكونه جعلها سكنا يسكنون فيها من تعب الحركات . وذكر أنه جعل لهم بيوتا أخرى يحملونها معهم ويستخفونها يوم ظعنهم ويوم إقامتهم، فذكر البيوت الثقيلة التي لا تحمل والخفيفة التي تحمل .

فتبين أن ما مثلوا به حجة عليهم .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ١١٧/٢

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٤٨٨/٣

فقوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ [الأعلى : ٩] ، .كما قال مفسرو السلف والجمهور . على بابها، قال الحسن البصرى : تذكرة للمؤمن، وحجة على الكافر .

/ وعلى هذا فقوله تعالى : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ ، لا يمنع كون الكافر يبلغ القرآن لوجوه :

أحدها : أنه لم يخص قوما دون قوم، لكن قال : ﴿ فذكر ﴾ ، وهذا مطلق بتذكير كل أحد . وقوله : ﴿ إن نفعت الذكرى ﴾ لم يقل : [إن نفعت كل أحد] بل أطلق النفع . فقد أمر بالتذكير إن كان ينفع .

والتذكير المطلق العام ينفع . **فإن من الناس من** يتذكر فينتفع به، والآخر تقوم عليه الحجة ويستحق العذاب على ذلك، فيكون عبرة لغيره، فيحصل بتذكيره نفع أيضا؛ ولأنه بتذكيره تقوم عليه الحجة، فتجوز عقوبته بعد هذا بالجهاد وغيره، فتحصل بالذكرى منفعة .

فكل تذكير ذكر به النبى صلى الله عليه وسلم للمشركين حصل به نفع في الجملة، وإن كان النفع للمؤمنين الذين قبلوه واعتبروا به وجاهدوا المشركين الذين قامت عليهم الحجة .

فإن قيل : فعلى هذا كل تذكير قد حصل به نفع، فأي فائدة في التقييد ؟

/ قيل : بل منه ما لم ينفع أصلا،وهو ما لم يؤمر به . وذلك كمن أخبر الله أنه لا يؤمن، كأبى لهب، فإنه بعد أن أنزل الله قوله : ﴿ سيصلى نارا ذات لهب ﴾ [المسد : ٣] ، فإنه لا يخص بتذكير بل يعرض عنه .

(١) ".

"فقول أحمد : احتجوا بثلاث آيات من المتشابه، وقوله : ما شكت فيه من متشابه القرآن، قد يقال : إن هؤلاء أو أن أحمد جعل بعض ذلك من المتشابه وليس منه، فإن قول الله تعالى : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ [آل عمران : ٧] ، لم يرد به هنا الإحكام العام والتشابه العام الذي يشترك فيه جميع آيات القرآن، وهو المذكور في قوله : ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت ﴾ [هود : ١] ، وفي قوله : ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ﴾ [الزمر : ٢٣] ، فوصفه هنا كله بأنه متشابه، أي : متفق غير مختلف، يصدق بعضه بعضا، وهو عكس المتضاد المختلف المذكور في قوله : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ [النساء : ٨٢] ، وقوله : ﴿ إنكم لفي قول مختلف يؤفك عنه من أفك ﴾ [الذاريات : ٨، ٩] ، فإن هذا التشابه يعم القرآن، كما أن إحكام آياته تعمه كله، وهنا قد قال : ﴿ منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ﴾ ، فجعل بعضه محكما وبعضه متشابها، فصار التشابه له معنيان، وله معنى ثالث وهو الإضافي . يقال : قد اشتبه علينا هذا، كقول بنى إسرائيل : ﴿ إن البقر تشابه علينا ﴾ [البقرة : ٧٠] ، وإن كان في نفسه متميزا منفصلا بعضه عن بعض . وهذا من باب اشتباه الحق/ بالباطل، كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : (الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس) ، فدل ذلك على **أن من الناس من** يعرفها،

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٢١٢/٤

فليست مشتبهة على جميع الناس، بل على بعضهم، بخلاف ما لا يعلم تأويله إلا الله، فإن الناس كلهم مشتركون في عدم العلم بتأويله، ومن هذا ما يروي عن المسيح .." (١)

"لطائف الإشارات ، ج ٣ ، ص : ١٩٣

وعد الله حق في كل ما أخبر به أنه يكون ، فوعده في القيامة حق ، ووعده لمن أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حق ، ووعده للمطيعين في الآخرة بوجود الكرامة حق ، وللعاصين بالندامة حق ، فإذا علم العبد ذلك استعد للموت ، ولم يهتم بالرزق ، فيكفيه الله شغله ، فينشط العبد في استكثار الطاعة ثقة بالوعد ، ولا يلم بالمخالفات خوفا من الوعيد.

قوله جل ذكره :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٦]

إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٦)

عداوة الشيطان بدوام مخالفته **فإن من الناس من** يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل ، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالرب ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة ، والشيطان لا يفتر في عداوتك ، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة فيبرز لك عدوك فإنه أبدا متمكن لك.

«إنما يدعوا حزبه» وحزبه هم المعرضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، الغافلون عن لله. ودليل هذا الخطاب : إن الشيطان عدوكم فأبغضوه واتخذوه عدوا ، وأنا وليكم وحبيبكم فأحبونى وارضوا بي حبيبا.

قوله جل ذكره :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٧]

الذين كفروا لهم عذاب شديد و الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر كبير (٧)

الذين كفروا لهم عذاب معجل وعذاب مؤجل ، فمعجله تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة همتهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنم معبودهم. وأما عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلم – على الجملة – صعوبته.." (٢)

"" صفحة رقم ٦١٧ "

الرجم والقصاص المذكورتين .

وقال الحسن : إن نبي الله قال (لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت **أن من الناس من** يكذبني واليهود والنصارى وقريش يخوفونني فنزلت الآية فزال الخوف) .

وقالت عائشة سهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذات ليلة فقلت : يا رسول الله ما شأنك ؟ قال (ألا رجل صالح يحرسني الليلة) قالت : فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح فقال : من هذا ؟ قال سعد وحيفة : جئنا نحرسك

.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)، ٣٨١/٥

(٢) لطائف الإشارات موافقا للمطبوع، ١٩٣/٣

فنام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى سمعت غطيطه فنزلت هذه الآية ، فأخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رأسه من قبة أدم فقال (انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله) .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحرس فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت هذه الآية .

فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسونه فقال : يا عماه إن الله تعالى قد عصمني من الجن والإنس .

ومعنى قوله : (ما أنزل إلأيك (جميع ما أنزل إلأيك وأي شيء أنزل إليك) وإن لم تفعل (ما أمرتك به كما أمرتك به) فما بلغت رسالته (من قرأ على الوحدة فلأن القرآن كله رسالة واحدة ، أو لأن الرسالة اسم المصدر فيقع لعى الواحد وعلى الجمع .

ومن جمع فلأن كل آية أو حكم رسالة .

فإن قيل : معنى قوله : (وإن لم تفعل فما بلغت رسالته (إن لم تبلغ رسالته فما بلغت منها أدنى شيء فأنت صحته ؟ فالجواب أن هذا جار على طريق التهديد والمراد إن لم تبلغ منها أدنى شيء فأنت كمن لم يبلغ شيئا لأن أداء بعضها ليس أولى من أداء البعض الآخر كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كما لم يؤمن بكلها .

وأو المراد إن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمان الوحي كله فوضع السبب موضع المسبب ، ويعضده ما روي أنه (صلى الله عليه وسلم) قال (بعثني الله برسالاته وضقت بها ذرعا فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة فقويت) .

فإن قيل : اين ضمان العصمة وقد جرى عليه يوم أحد ما جرى ؟ فالجواب أن الآية نزلت بعد يوم أحد .

أو المراد أنه يعصمه من القتل وعليه أن يحتمل كل ما دون النفس والناس الكفار لقوله : (إن الله لا يهدي القوم الكافرين (أي لا يمكنهم مما يريدون .

ثم لما أمره بتبليغ أي شيء كان طاب للسامع أو يقل لعيه أمره أن يقول لأهل الكتاب : (لستم على شيء (أي على دين يعتد به كما تقول : هذا ليس بشيء تريد تحقير شأنه ، وباقي الآية مكرر للتأكيد .

ومعنى) فلا تأس (لا تاسف ولاتحزن عليهم بسبب زيادة طغيانهم فإن وبال ذلك عائد عليهم ، أو لا تأسف بسبب نزول اللعن والعذاب عليهم فإنهم من الكافرين المستحقين لذلك .

يقال : آسى على مصيبته يأسى أسى أي حزن .

ثم لما بين أن أهل التكاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا بين أن هذا الحكم عام في الكل وأنه لايحصل لأحد منقبة ولا سعادة إلا إذا آمن وعمل صالحا ، وذلك أن كمال القوة النظرية لا يحصل إلا بمعرفة المبدأ والمعاد – أعني." (١)

"" صفحة رقم ٥٣٤ "

يتخلف ، فحذف إحدى القرينتين للعلم به كقوله) سرابيل تقيكم الحر) [النحل : ٨١] وكذا الكلام في قوله) ولا

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٦١٧/٢

الليل سابق النهار (أراد ولا النهار سابق الليل أي لا يدخل شيء منهما في غير وقته. سلمنا أن المراد بالليل والنهار آيتهما لكنه يمكن أن يقال : إنه إشارة إلى الحركة الدورية لأنه لما قال : إن الشمس لبطء سيرها لا تدرك القمر. فهم منه أن القمر يسبق الشمس بحركته ، فأشار إلى أن هذا السبق ليس على قياس المتحركات على الاستقامة ولكنه سبق هو بعينه موجب للقرب ، وهذا معنى قول أهل الهيئة إن الكوكب هارب عن نقطة ما طالب لها بعينه. وأما قوله) وكل في فلك يسبحون (فقد مر تفسيره في سورة الأنبياء. ولما بين ما هو كالضروري لوجود الإنسان من المكان والزمان وما يتبعه ويسبقه ، شرع في تقرير ما هو نافع لهم في أحوال المعاش. قال بعض المفسرين : أراد بحمل الذرية حمل آبائهم وهم في أصلابهم. والفلك فلك نوح ومثله هو ما يركبون الآن عليه من السفن والزوارق. قال جار الله : وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح ، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل. ومن فوائد ذكر الذرية **أن من الناس من** لا يركب السفينة طول عمره ولكنه في ذريته من يركبها غالبا. وذهب آخرون إلى أن المراد حمل أولادهم ومن يهمهم حمله كالنساء. وقد يقع اسم الذرية عليهن لأنهن مزارع الأولاد. في الحديث (إنه نهى عن قتل الذراري) يعني النساء فكأنه قيل : إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره وعلى هذا يكون قوله) وخلقنا لهم (إلى آخره اعتراضا ، ومثل الفلك ما يركبون من الإبل لأنها سفائن البر. وفي وصف الفلك بالمشحون مزيد تقرير للقدرة والنعمة فإن الفلك إذا كان خاليا كان خفيفا لا يرسب في الماء بالطبع. ثم ذكر ما يؤكد كونه فاعلا مختارا قائلا) وإن يشأ نغرقهم فلا صريخ لهم (وهو مصدر أو صفة أي لا إغاثة أو لا مغيث. وقوله) إلا رحمة (غشارة إلى أن الإنقاذ رحمة بالنسبة إلى المؤمن ومتاع إلحلول الأجل بالإضافة إلى الكافر ، أو المراد أن أحد لا يتخلص من الموت وإن سلم من الآفات ولله در القائل : ولم أسلم لكي أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام التأويل :) يس (إشارة إلى أنه بلغ في السيادة مبلغا لم يبلغه أحد من المرسلين) تنزيل العزيز الرحيم (فيه أنه لعزته لا يحتاج إلى تنزيل القرآن ولكن رحمته اقتضت ذلك) نحيي (القلوب) الموتى ونكتب ما قدموا (من الأنفاس المتصاعدة ندما وشوقا ، وآثار خطا أقدام صدقهم وآثار دموعهم على خدودهم) أصحاب القرية (القلوب) إذ أرسلنا إليهم اثنين (من الخواطر الرحمانية والإلهامات الربانية بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار." (١)

"وجه الماء ، وهي موقرة بالأثقال

[بما ينفع الناس] أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع

[وما أنزل الله من السماء من ماء] أي وما أنزل الله من السحاب من المطر الذي به حياة البلاد والعباد

[فأحيا به الأرض بعد موتها] أي أحيا بهذا الماء الزروع والأشجار ، بعد أن كانت يابسة مجدبة ليس فيها حبوب ولا ثمار

[وبث فيها من كل دابة] أي نشر وفرق في الأرض ، من كل ما يدب عليها من أنواع

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥/٥٣٤

الدواب ، المختلفة في أحجامها وأشكالها وألوانها وأصواتها

[وتصريف الرياح] أي تقليب الرياح في هبوبها جنوبا وشمالا ، حارة وباردة ، ولينة وعاصفة

[والسحاب المسخر بين السماء والأرض] أي السحاب المذلل بقدرة الله ، يسير حيث شاء الله ، وهو يحمل الماء الغزير ، ثم يصبه على الأرض قطرات قطرات ، قال كعب الأحبار : السحاب غربال المطر ، ولولا السحاب لأفسد المطر ما يقع عليه من الأرض

[لآيات لقوم يعقلون] أي لدلائل وبراهين عظيمة دالة على القدرة القاهرة ، والحكمة الباهرة ، والرحمة الواسعة ، لقوم لهم عقول تعي ، وأبصار تدرك ، وتتدبر ، بأن هذه الأمور من صنع إله قادر حكيم.. ثم أخبر تعالى عن سوء عاقبة المشركين الذين عبدوا غير الله فقال

[ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا] أي ومن الناس من تبلغ بهم الجهالة ، أن يتخذ من غير الله رؤساء وأصناما ، يجعلها أشباها ونظراء مع الله ، كأنها تخلف وترزق ، وهي حجارة صماء بكماء

[يحبونهم كحب الله] أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله

[والذين آمنوا أشد حبا لله] أي حب المؤمنين لله أشد من حب المشركين للأنداد

[ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا] أي لو رأى الظالمون حين يشاهدون العذاب ، المعد لهم يوم القيامة ، أن القدرة كلها لله وحده

[وأن الله شديد العذاب] أي وأن عذاب الله شديد أليم ، وجواب " لو " محذوف للتهويل أي لرأوا ما لا يوصف من الهول والفظاعة

[إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا] أي تبرأ الرؤساء من الأتباع

[ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب] أي حين عاينوا العذاب وتقطعت بينهم الروابط وزالت المودات

[وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم] أي تمنى الأتباع لو أن لهم رجعة إلى الدنيا ، ليتبرءوا من هؤلاء الذين أضلوهم السبيل

[كما تبرءوا منا] أي كما تبرأ الرؤساء من الأتباع في ذلك اليوم العصيب.. قال تعالى :

[كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم] أي أنه تعالى كما أراهم شدة عذابه كذلك يريهم أعمالهم القبيحة ندامات شديدة ، وحسرات تتردد في صدورهم كأنها شرر الجحيم

[وما هم بخارجين من النار] أي ليس لهم سبيل إلى الخروج من النار ، بل هم في عذاب

سرمدي ، وشقاء أبدي.

البلاغة :

١- [وإلهكم إله واحد] ورد الخبر خاليا من التأكيد ، مع **أن من الناس من** ينكر وحدانية الله ، تنزيلا للمنكر منزلة غير المنكر ، وذلك لأن بين أيديهم من البراهين الساطعة ، والحجج القاطعة ، ما لو تأملوه لوجدوا فيه غاية الإقناع.

٢- [لآيات] التنكير في آيات للتفخيم أي آيات عظيمة دالة على قدرة قاهرة وحكمة باهرة.

٣- [كحب الله] فيه تشبيه (مرسل مجمل حيث ذكرت الأداة وحذف وجه الشبه.

٤- [أشد حبا لله] التصريح بالأشدية أبلغ من أن يقال " أحب الله "كقوله [فهي كالحجارة أو أشد قسوة] مع صحة أن يقال : أو أقسى.

٥- [ولو يرى الذين ظلموا] وضع الظاهر موضع الضمير [ولو يرون] لإحضار الصورة في ذهن السامع ، وتسجيل السبب فى العذاب الشديد ، وهو الظلم الفادح.

٦- في قوله : [رأوا العذاب] و[تقطعت بهم الأسباب] من علم البديع ما يسمى بـ (الترصيع) وهو أن يكون الكلام مسجوعا ، من غير تكلف ولا تعسف.

". (١)

"من تكون الدنيا همه فيقول : اللهم اجعل عطائي ومنحتي في الدنيا خاصة ، وما له في الآخرة من حظ ولا نصيب

[ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة] أي ومنهم من يطلب خيري الدنيا والآخرة وهو المؤمن العاقل ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير ، وصرفت كل شر ، فالحسنة في الدنيا تشمل الصحة والعافية ، والدار الرحبة ، والزوجة الحسنة ، والرزق الواسع إلى غير ما هنالك ، والحسنة في الآخرة تشمل الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، ودخول الجنة ، والنظر إلى وجه الله الكريم إلخ

[وقنا عذاب النار] أي نجنا من عذاب جهنم

[أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سرع الحساب] أي هؤلاء الذين طلبوا سعادة الدارين ، لهم حظ وافر مما عملوا من الخيرات ، والله سريع الحساب يحاسب الخلائق بقدر لمحة بصر

[واذكروا الله في أيام معدودات] أي كبروا الله في أعقاب الصلوات وعند رمي

---

(١) صفوة التفاسير ـ للصابوني، ١/٦٧

الجمرات ، في أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر

[فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه] أي من استعجل بالنفر من منى بعد تمام يومين من أيام التشريق ، وهو اليوم الثالث من أيام عيد الأضحى المبارك فنفر فلا حرج عليه

[ومن تأخر فلا إثم عليه] أي ومن تأخر حتى رمى في اليوم الثالث – وهو النفر الثاني – فلا حرج عليه أيضا وهو اليوم الرابع من عيد الأضحى

[لمن اتقى] لمن أراد أن يتقي الله ، فيأتي بالحج على الوجه الأكمل

[واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون] أي خافوا الله تعالى واعلموا أنكم مجموعون إليه للحساب ، فيجازيكم بأعمالكم!

البلاغة :

١- [يبلغ الهدى محله] كناية عن ذبحه في مكان الإحصار.

٢- [فمن كان منكم مريضا] فيه إيجاز بالحذف أي كان مريضا فحلق أو به أذى من رأسه فحلق ، فعليه فدية.

٣- [وسبعة إذا رجعتم] فيه التفات من الغائب إلى المخاطب ، وهو من المحسنات البديعية.

٤- [تلك عشرة كاملة] فيه إجمال بعد التفصيل وهذا من باب " الإطناب " وفائدته زيادة التأكيد والمبالغة في المحافظة على صيامها ، وعدم التهاون بها أو تنقيص عددها.

٥- [واتقوا الله واعلموا أن الله] إظهار الاسم الجليل في موضع الإضمار لتربية المهابة وإدخال الروعة في النفس.

٦- [فلا رفث ولا فسوق] صيغته نفي وحقيقته نهي ، أي لا يرفث ولا يفسق ، وهو أبلغ من النهي الصريح ، لأنه يفيد أن هذا الأمر مما لا ينبغي أن يقع أصلا ، فإن ما كان منكرا مستقبحا في نفسه ففي أشهر الحج يكون أقبح وأشنع ففي الإتيان بصيغة الخبر ، وإرادة النهي مبالغة واضحة.

٧- [فاذكروا الله كذكركم آباءكم] فيه تشبيه تمثيلي يسمى (مرسلا مجملا).

٨- المقابلة اللطيفة بين [فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا] وبين [ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة] الآية.

فائدة :

أصل النسك : العبادة ، وسميت (ذبيحة الأنعام) نسكا لأنها من أشرف العبادات التي

يتقرب بها المؤمن إلى الله تعالى ، وبخاصة فى موسم الحج.

فائدة ثانية : زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفس وشهواتها ، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة ، ولهذا ذكر تعالى زاد الآخرة وهو الزاد النافع ، وفي هذا المعنى يقول الأعشى :

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودا

ندمت على ألا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

قال الله تعالى : [ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا.. إلى .. والله يرزق من يشاء بغير حساب] من آية (٢٠٤) إلى نهاية آية (٢١٢).

المناسبة :

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التى تطهر القلوب ، وتزكي النفوس كالصيام ، والصدقة ، والحج ، وذكر **أن من الناس من** يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها ، ".[١]

"٨ – [أوقدوا نارا للحرب] ايقاد النار في الحرب استعارة ، لان الحرب لا نار لها ، وانما شبهت بالنار ، لأنها تأكل أهلها كما تأكل النار حطبها .

٩ – [لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم] استعارة ايضا عن كثرة النعم وتوسعة الرزق عليهم ، كما يقال : عمه الرزق من فرقه الى قدمه .

الفوائد :

الاولى : روي ان عمر بلغه ان كاتبا نصرانيا قد استعمله " ابو موسى الاشعري " فكتب الى أبى موسى : لا تكرموهم إذ أهانهم الله ، ولا تأمنوهم إذ خونهم الله ، ولا تدنوهم إذ أقصاهم الله ، فقال له ابو موسى : لا قوام للبصرة إلا به ، فقال عمر : مات النصراني فماذا تفعل .

الثانية : قتل مسيلمة الكذاب في عهد أبى بكر على يد " وحشى " قاتل حمزة ، وكان يقول : قتلت خير الناس في الجاهلية – يريد حمزة – وشر الناس في الاسلام – يريد مسيلمة الكذاب .

الثالثة : قال المفسرون : " عسى " من الله واجب ، لأن الكريم إذا أطمع في خيير فعله ، فهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به.

الرابعة : قال البيضاوي فى قوله تعالى : [لولا ينهاهم الربانيون] فيها تحضيض لعلمائهم للنهى عن ذلك ، فإن [لولا] إذا دخل على الماضي أفاد التوبيخ ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .

قال الله تعالى : [يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك . . . الى . . ولكن كثيرا منهم فاسقون] من آية (٦٧) الى

---

(١) صفوة التفاسير . للصابونى، ١/٨٠

نهاية آية (٨١) .

المناسبة :

لما حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين ، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولاتباعه ، أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة ، ووعده بالحفظ والنصرة ، ثم ذكر تعالى طرفا من عقائد أهل الكتاب الفاسدة ، وبخاصة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى وإنه ثالث ثلاثة ، ورد عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع .

اللغة :

[يعصمك] العصمة : الحفظ والحماية

[طغيانا] الطغيان : تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه

[تأسى] تحزن يقال : أسى يأسى ، والأسى : الحزن قال وانحلبت عيناه من فرط الأسى

[خلت] مضت

[صذيقة] الصديق : المبالغ في الصدق كما يقال رجل سكيت أى مبالغ في السكوت وسكير أى كثير السكر

[يؤفكون] يصرفون عن الحق يقال : أفكه إذا صرفه ومنه [أجئتنا لتأفكنا]

[تغلو] الغلو : التجاوز في الحد ، والتشدد في الأمر يقال : غلا في دينه غلوا تشدد فيه حتى جاوز الحد .

سبب النزول :

ا- عن ابن عباس عن النبي ، إنه قال : " لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت **أن من الناس من** يكذبني ، فأنزل الله [يا أيها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك] الآية .

ب - وعن ابن عباس قال : جاء جماعة من اليهود الى النبي ، فقالوا : الست تقر أن التوراة حق من عند الله ؟ قالى : بلى ، فقالوا : فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها ، فأنزل الله [قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والانجيل . .] الآية .

التفسير :

[يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك] هذا نداء تشريف وتعظيم ، ناداه تعالى بأشرف الأوصاف (بالرسالة الربانية) ، أى بلغ رسالة ربك غير مراقب أحدا ، ولا خائف أن ينالك مكروه

[وإن لم تفعل فما بلغت رسالته] قال ابن عباس : المعنى بلغ جميع ما أنزل اليك من ربك ، فإن كتمت شيئا منه فما بلغت رسالته ، وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ، ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته

[والله يعصمك من الناس] أى يمنعك من أن ينالوك بسوء ، قال الزمخشري : هذا وعد من الله بالحفظ والكلاءة ، والمعنى : والله يضمن لك العصمة من أعدائك ، فما عذرك في مراقبتهم ؟ روي أن رسول الله (ص) كان يحرس حتى

نزلت الآية ، فأخرج رأسه من قبة آدم ، وقال : إنصرفوا ايها الناس فقد عصمني الله عز وجل ".(١)

" الآية نزلت على أسباب روى الحسن أن النبي صلى الله عليه و سلم قال لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يهاب قريشا واليهود والنصارى فأنزل الله هذه الآية وقال مجاهد لما نزلت يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك قال يا رب كيف أصنع إنما أنا وحدي يجتمع علي الناس فأنزل الله وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس وقال مقاتل لما دعا اليهود وأكثر عليهم جعلوا يستهزؤون به فسكت عنهم فحرض بهذه الآية وقال ابن عباس كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يحرس فيرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية فقال يا عماه إن الله قد عصمني من الجن والإنس وقال أبو هريرة نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها فجاء رجل فأخذه فقال يا محمد من يمنعني منك فقال الله فنزل قوله والله يعصمك من الناس قالت عائشة سهر رسول الله صلى الله عليه و سلم ذات ليلة فقلت ما شأنك قال ألا رجل صالح يحرسني الليلة فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السلاح فقال من هذا فقال سعد وحذيفة جئنا نحرسك فنام رسول الله صلى الله عليه و سلم حتى ." (٢)

" ارتفاعهما على الابتداء أو يكون خبر مبتدأ محذوف كأنه قال فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان أو يكون بدلا من الضمير الذي في يقومان والتقدير فيقوم الأوليان

والقول الثاني أن الأوليان هما الذميان والمعنى أنهما الأوليان بالخيانة فعلى هذا يكون المعنى يقومان إلا من الذين استحق عليهم قال الشاعر ... فليت لنا من ماء زمزم شربة ... مبردة باتت على طهيان ...

أي بدلا من ماء زمزم وروى قرة عن ابن كثير وحفص وعاصم استحق بفتح التاء والحاء الأوليان على التثنية والمعنى استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها فحذف المفعول وقرأ حمزة وأبو بكر عن عاصم استحق برفع التاء وكسر الحاء الأولين بكسر اللام وفتح النون على الجمع والتقدير من الأولين الذين استحق فيهم الإثم أي جني عليهم لأنهم كانوا أولين في الذكر ألا ترى أنه قد تقدم ذوا عدل منكم على قوله أو آخران من غيركم وروى الحلبي عن عبد الوارث الأولين بفتح الواو وتشديدها وفتح اللام وسكون الياء وكسر النون وهي تثنية أول وقرأ الحسن البصري استحق بفتح التاء والحاء الأولون تثنية أول على البدل من قوله فآخران وقال ابن قتيبة أشبه الأقوال بالآية أن الله تعالى أراد أن يعرفنا كيف يشهد بالوصية عند حضور الموت فقال ذوا عدل منكم أي عدلان من المسلمين تشهدونهما على الوصية وعلم أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم ويحضره الموت فلا يجد ." (٣)

---

(١) صفوة التفاسير ـ للصابونى، ٢٣١/١

(٢) زاد المسير، ٣٩٦/٢

(٣) زاد المسير، ٤٥١/٢

قوله : (إنها السبع المثاني إلخ) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ولقد آتيناك سبعا من المثاني ﴾ [الحجر : ٨٧] الآية وسيأتي تتمة في محله والقرآن بالرفع عطف على خبر إن والموصول صفته وأوتيته بضم التاء قيل : في الحديث ما يدل على أن القرآن العظيم في الآية بمعنى الفاتحة وأنه اسم لها ولم يذكروه هنا ولا في سورة الحجر ولم يعده أحد من أسمائها كالسبع المثاني وأم القرآن ، ولا يخفى أن القرآن العظيم يطلق على الفاتحة بالمعنى الكلي ولا يطلق عليها بمعنى الكل إلا مبالغة نحو أنت الرجل ، فإن أريد هذا فلا مانع منه ، وأما كونه اسما فلا وجه له لأنه لا يلزم من الحمل المساواة . قوله : (وعن ابن عباس رضي الله عنهما (١) إلخ) هو حديث رواه مسلم بمعناه ووسول الله مرفوع مبتدأ خبره مقدر أي جالس ونحوه ، ويقال بينا وبينما وتقع بعدها إذا وإذ الفجائيتين وقال الرض اكثر في جواب بينما إذ وفي جواب بينا إذا وما زعمه الحريري من أنه خطأ خطأ وألف بينا للإشباع أو كافة أو بعض من ما ، وقال الرضى ة لما قصد إضافة بين إلى جملة ومثله يلزم الإضافة إلى المفرد والإضافة إلى الجمل كلا إضافة زادوا عليها ما تارة وأشبعوها أخرى ، وقيل : أصله بين أوقات كذا والجمل مما يضاف إليها أسماء الزمان ثم حذف المضاف الذي هو وقت ، وأقيم بين مقامه ، والملك في الحديث غير جبريل عليه السلام لما في مسلم بينا جبريل عنده عليه الصلاة والسلام إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه وتال : " هذا باب من السماء فتح لم يفتح إلا اليوم نزل مته ملك لم ينزل إلا اليوم فسقم " (٢) إلخ والنقيض بمعجمات هنا صرير الباب ، وأبشر كأكرم بمعنى صر ذا بشارة وخبر سار ، وقوله بنورين أي أمرين عظيمين من الكلام الموحى

إليك يدلان على علمين عظيمين من العلوم اللدنية ، والعلم والوحي يطلق عليه النور كص تطلق الظلمة على مقابله قال تعالى : ﴿ انظرونا نقتبس من نوركم ﴾ [الحديد : ١٣] . وقوله : (لم يؤتهما) إلخ أي هو مخصوص به صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء ، والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، وفاتحة الكتاب وما عطف عليه بالجر عطف بيان أو بدل مما قبله ويجوز رفعه ونصبه ، وخواتم سورة البقر من قوله : ولمن الرسول ﴾ [البقرة : ٢٨٥] إلخ وخواتم بميم بعد المثناة وفي نسخة خواتيم بياء تحتية جمع خاتمة على خلاف القياس وهو مسموع كما نقله الثقات وفي الحديث : " الآعمال بخواتيمها " (١ (وقيل سميا نورين لاشتمالهما على الحروف النورانية ، وهي أربعة عشر حرفا مذكورة في أوائل السورة وهو بعيد ، والمخاطب النبي عليه الصلاة والسلام حقيقة وإن شمل أمته معنى . قوله : (لن تقرأ حرفا إلخ) الحرف واحد الحروف المعروفة ، ويكون بمعنى الكلمة وكل محتمل هنا وضمير أعطيته راجع له وقيل إنه راجع لما وعده أي أعطيت ما وعدته من الثواب ، وقيل إنه راجع للنور الشامل للنورين ، وما قيل من أن المراد أعطيت ثوابا لأجل قراءة ذلك الحرف سوى ثواب كلماتها وثواب المجموع المؤلف منها أو المراد أعطيت به ما لا يحصيه إلا الله ، أو لن تدعو بحرف منها وفيه دعاء كاهدنا إلا أجبت ، أو المراد أعفيت ذلك الحرف بأن تتصرف به فيما تشاء ، لأن الملك مظهر الأسماء ومتصرف الحروف العالية التي هي الملائكة لا يدفع ما أورد عليه من أن ما ذكر مشترك بينه وبين سائر القرآن الكريم ، وان تشبث به ذلك القائل بزعمه . قوله : (وعن حذيفة بن اليمان (٢) إلخ) حذيفة بن اليمان العبسي من كبار الصحابة وكان أبوه يسمى حنبلا ، فأصاب دما وهرب إلى المدينة فخالف بني عبد الأشهل فسماه قومه اليماني

لكونه حالف اليمانية ، وهو نسبة إلى اليمن وأصله يمني ، فعوض عن إحدى ياءيه ألف ورسم بغير ياء كما هو معروف في علم الرسم وكان يقال له صاحب السر لقوله حذثني رسول الله صلى الله عليه وسفم عما كان ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ومات بالمدائن في ست وثلاثين ، وكان عمر رضي إلله عنه استعمله عليها ، وهذا الحديث أسند . الثعلبي ، وقال العراقي : إنه موضوع . وقيل : إنه ضعيف . والمعنى أن من الناس من يبعث عليه بشؤم معاصيه الموجبة للعقاب عذاب ، ثم يؤخر عنهم ببركة قراءة صبيانهم ما

ذكر وحتما بمعنى واجبا ومقضيا بمعنى أنه تعلق به قضاء الله أزلا أو قدر ، وسطر في اللوج المحفوظ ، وفيه دليل على أن القضاء يكون غير مبرم فيغير أو يؤخر والمعني برفعه تأخيره لا إزالته لقوله أربعين سنة ولولاه صار حشوا ، والكتاب بوزن رمان هنا بمعنى المكتب ، وقد أثبته الجوهري واستفاض استعماله بهذا اه سنى كقوله :." [1]

"ج١ص٢٠٨

" رأس الأمر الإصلام وعموده الصلاة " (٢) وأما حديث " الزكاة قنطرة الإسلام " (٣ (فأخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعا بسند ضعيف ، والعماد الدعامة من عمدت الحائط إذا دعمته والعمود معروف والقنطرة الجسر ، وما ارتفع من الأرض وفي كتب الفقه أن الجسر ما يوضع ويرفع ، والقنطرة ما يحكم كما في فتاوى قاضيخان ، فكأنه معنى عرفي عندهم والدين الشريعة والإسلام ، والإيمان متقاربان والكلام عليهما مفصل في الكتب الكلامية ، وكون " الصلاة عماد الدين على التشبيه أو الاستعارة لأنها أشرف أعماله التي لا تسقط فرضيتها إلا نادرا) الزكاة قنطرة لأن مؤديها طهر ماله ونفسه وبين خلوصه ، والقنطرة كالجسر يستعار للموصل كما قال أبو تمام :

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته بالقول ما لم يكن جسرا له العمل

فإن قلت : وقع في الحديث الصحيح المشهور " بني الإسلام على خمس " وعد منها الزكاة

فيه ، فجعلت ثمة عمادا داخلة وهنا قنطرة خارجة عنه فما النكتة فيه قلت : هو تجوز لا حجر فيه ، فمن حيث أنها من شعائر الإسلام تعد ركنا منه ومن حيث أن المال بصرفه يجعل بازله داخلا في الإسلام تعد قنطرة أو ذاك باعتبار من رسخ إصلامه وقدم ، وهذا باعتبار من حدث إيمانه فتأمل . قوله : (أو مسوقة للمدح بما تضمنته) أي المتقون وفي نسخة أو مادحة بما تضمنه ، والمعنى واحد وهو معطوف على مقيدة أو موضحة ، وترك كونها مؤكدة كنفخة واحدة لأن التاسيس أولى لا سيما إذا اشمل على نكتة . وقوله : (وتخصيص الإيمان إلخ) إشارة إلى جواب سؤال تقديره لم اختص المدح بهذه دون غيرها مما تضمنه . وقوله : (إظهار) أقحم لفظ الإظهار الحماء إلى أنها في الواقع كذلك ، وأن في الوجه الأول إشارة إليه أيضا ، وإنما الفرق بينهما بالقصد وعدمه ، فلا يقال إنه يجوز جعل وجه التخصيص ما مر من كونها أمهات وأصولا ، مع أنه مناسب للاستتباع دون المدح كما لا يخفى وقيل إن في قوله مسوقة إشارة إلى أنه أقل من أخويه ، ولذا أخر . لأن لفظ السوق يشعر بأنه لا يفيده بنفسه ولذا غير الأسلوب . وأعلم أن من الناس من

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ١٥١/١

قال : إن كون الذين يؤمنون مادحا إنما يحسن إذا حمل المتقين

على حقيقته دون المشارفة إذ ليس الإيمان ، وما بعده حاصلا للضالين الصائرين للتقوى فجعل الصفة كاشفة إذا أريد بالتقوى ما في المرتبة الثانية ، وجعلها مخصصة على الأولى وإذا جعلت مادحة فالمراد ما هو في المرتبة الثالثة . وقيل : إن كان المخاطب جاهلا بالمعنى فالصفة موضحة والا فهي مادحة ، وفيه ما فيه كما سيأتي قريبا فتدبر . قوله : (أو على أنه ماخ منصوب إلخ) الجاز والمجرور معطوف على الجار والمجرور السابقين في قوله على أنه صفة مجرورة وجعل المصنف رحمه الله المنصوب والمرفوع موصولا بما قبله كالمجروو ، لأنهما تابعان له معنى وصفة له بحسب الأصل ، وان خرجا صورة ولفظا ، ولذأ سماه النحاة قطعا بخلاف المستأنف ، ووجه دلالته على ما قصد به في الاتباع ، والقطع من المدح ونحوه أنه صفة حميدة علم ثبوتها فيفهم عها ذلئا ، وقيل : إن هذا علم من تغييو الإعراب لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماعه ومزيدى اهتمام لشأنه لا سيما مع التؤام حذف الغعغل ، أو إ أحبتدأ ولا يخفى أن دلالة الإعواب المقدو على ذلك غير ظاهرة مع أنها مادحة على الاتباع أيضا كما صرحت به أيضا متون العربية ، وفي قوله هم الذين تسامع لأن المقدر هم فقط*قوله :) وإما مفصول إلخ) معطوف على قوله موصولى ، وإنما انفصك لأنه قصد الإخبار عنه بما بعده لا إثباته

لما قبله وان فهم ذلك ضمنا فهو ، وان لم يجر عليه كالجاري ويكفي هذا في ارتباط الكلام سواء كان الاستئناف نحويا أو بيانيا ، فيكون جوابا عن سؤال تقديره ما بال المتقين خصوا بذلك الهدى ، فلا يتوهم ضعف هذا الوجه لعدم الارتباط فيه كما نقل عن أبي حيان ، ولا إن الظاهر على هذا إن بينهما كمال الانفصال ، وتقدير السؤال يقتضي الاتصال وكونه كالجاري عليه لا ينافي كون الوقف تاما كما ستسمعه قريبا ، وقال قدس سره : حاصل ما قرره من الاحتمالات أن المتقي إن حمل على المعنى الشرعي ، فإن كان خطابا لمن عرف مفهومه مفصلا كانت الصفة مادحة ، والا كاشفة وأن حمل على مجتنب المعاصي كانت مخصصة ، ولما كان الاستئناف أرجح لم يكن في الترجيح بين هذه الأقسام." (١)

"ج١ص٣٩٤

متصل بالسحاب كالشخص في جزء من البلد وهذا أقرب إلى المثال وذاك إلى عبارة الكتاب ، وقد تبع فيه الشارح المحقز ، ، وترك ما فيه من **أن من الناس من** ذهب إلى أن المراد بالبلد جزؤه ، وزعم أن الأعلى والمصب جزء من المطر وليس بذاك ، ومنهم من جعله من إطلاق أحد المجاورين على الآخر والأعلى والمصب سحاب والتمثيل لمجرد التلبس ، ولمجاورة ورد بأنه يكون المعنى حيحئذ في السحاب رعد وبرق لا في المطر على ما هو المطلوب .

ثم قال ردا لما في الكشف : فإن قلت الظلمة والرعد أي الصت والبرق أي النارية واللمعان كلها أعراض ، والعرض لا يتمكن في المكان إلا بنوع توسع من غير فرق بين المطر والسحاب ، وبين الظلمة والرعد غاية ما في الباب أن وجه التلبس يكون في البعض أوضح كالرعد بالنسبة إلى السحاب .

قلك : معنى الظرفية التي تفيدها في أعم من أن يكون على وجه التمكن في المكان كالجسم في الحيز أو على وجه

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ٢٠٨/١

الحلول في المحل كالعرض في الموضوع أو على وجه الاختصاص بالزمان كالضرب في وقت كذا ، وظلمة السحمة والتطبيق في السحاب حقيقة بخلاف ظلمة الليل ، وكذا تمكن الجسم الذي يقوم به صوت الرعد وبريق البرق حقيقة في السحاب لا في المطر فاحتيج للتأويل ، وما ذكره من أن ظرفية الزمان والمكان حقيقة تدل عليها في بالوضع مسلم عند الأدباء وأما كون ظرفية العرض في الموضوع كذلك فغير مسلم ،

والظاهر أن إطلاق في على ما ذكره بطريق الاشتراك اللفظي أو المعنوفي لا الحقيقة والمجاز كما قيل ، والذي في الكشف أن الظرفية الحقيقية أي كون الشيء مكانا لآخر لا تراد هنا فإنهما عرضاه والتمكن من خواص الأجسام وإنما يضاف للعرض بواسطة معروضة ، وهو وإن لم يرتضه الفاضل فهو الظاهر الموافق لكلام النحاة ، وليس قصره الظرفية الحقيقية على المكانية لنفي الزمانية بل لأنه محل النزاع ، ثم إن الذي أوقعهم في النزإع قوله أعلاه ومصبه فإن ضميربه للمطر وأصل إضافة اسم التفضيل أن يكون لما هو بعض منه فمنهم من أبقاه على ظاهره فجعل الظرف والمظروف قطرا ومنهم من صرفه عنه ، وجعله غير مضاف لبعضه وهو الحق وكأنه استعمله ظرفا بمعنى فوق كما أن أسفل يكون بمعنى تحت من غير تفضيل أي إذا كانا في شيء فوقه وهو منشؤه ومصبه والمراد بمصبه محل ينصب منه لا فيه وإليه كما توهم ، وفي حواشي ابن الصائغ حكى الشيخ عز الدين عن أبي علي فيه أي في وقته ، وقال غيره في مصبه ، وهو ضعيف لأن الرعد والبرق لا يكونان في الأرض وهو وهم لما عرفت .

وأعلم أن ألمصنف رحمه الله أتى بعبارة أوجز من عبارة الزمخشري ، وقصد في تغييرها

مقاصد حسنة فعدل عن قوله مصبه إلى منحدره بضم الميم وفتح الدال المهملة ، وهو اسم مكان أيضا لما في عبارة الكشاف من الغموض واحتمال إرادة الأرض! وهو فاسد كما مر ، وحذف قوله في الجملة إذ لا طإئلى تحتة ، وترك قوله ألا تراك إلخ لأن المتبادر منه أن فلانا في البلد مجاز كما صرح به بعض شراحه ، وهو مخالف لما يفهم من العرف ، وقد صرحوا بأن صمت في الشهر حقيقة في صوم يوم منه كما صرحوا به وقياسه يقتضي أن هذا حقيقة أيضا كما صرح به في التلويح فقال في للظرف بأن يشتمل المجرور على ما قبلها اشتمالا مكانيا أو زمانيا تحقيقا ن!حو الماء في الكوز وزيد في البلد ، أو تشبيها نحو زيد في نعمة ، وفي الرضى الظرفية الشحقيقية نحو زيد في الدار وهو مما لا خفاء فيه ، وقد يقال إنه تنظير بقطع النظر عن الحقيقة والمجاز فإن الكائن في بقعة من البلد يجعل في جميعها لما بينهما من الملابسة إلا أنه يرد حينئذ ما ذكر على شراحه فتدبر ، وقد أطلنا هنا تحريرا وتقريرا إلا أن فيما أبدعناه ما يجعل ذنب الإسهاب (١) مغفورا ، ويبدي لعين الإنصاف نضرة وسرورا . قوله : (وإن أريد به السحاب إلخ) ما مر كله على أن المراد بالصيب المطر وقدمه لأنه المعروف في اللغة والاستعمال ، وسحمته بضم السين سواده وظلمته ، وتطبيقه كون بعضه فوق بعض ، وفيه تسامح ولم يقل وظلمة الليل لما مر وظلمة الليل مستفادة من التظلم كما مر وما قيل من أنه يجوز أن يعتبر ظلمات حصلت من إحاطة الغمام ، بآفاق السماء على التمام فإن كل أفق إذا استتر بسحاب تتراكم الظلمات بلا ارتياب .

قلت : لم يزد شيئا على ما ذكروه ، فإن ما تصلف به هو معنى تطبيقه بعينه غايته أنه جعل

جزء الوجه وجها مستقلا ، وقوله وارتفاعها فضمير المؤنث لظلمات ، وفي نسخة وارتفاعه بتذكيره لأنه لفظ والمراد أن." (١)

"ج٢ص٢٩٣

قال المدقق في الكشف أصله فإن الناس مقل ومكثر على التقسيم فزيدت بين تصويرا للإحاطة وعدم التجاوز ليصير من باب الكناية التي هي أبلغ ثم زيدت من الاتصالية مبالغة كقول الشاعر :

والناس من بين مرحوب ومحجوب

كأنهم ناشئون من البين يبتدئ تقسيمهم منه البتة فجعل ابتداؤهم منه بمنزلة ابتداء التقسيم وجاز أن تجعل من بيانية نظرا إلى إقحام بين والأول أبلغ اه فإن قلت الأقسام لا تنحصر فيما ذكر **فإن من الناس من** لا يطلب إلا الآخرة قلت ليس المقصود حصر أقسام الناس مطلقا بل لما ذكر قوله : ﴿ أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾ قسم أهل الطلب إلى مقل ومكثروهم لا يخلون عنهما ولو سلم فإن من لا يطلب إلا الآخرة سيذكره بقوله : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٧] فإن من باع نفسه لله صار كلا على مولاه ، وقيل حصر المقل في طالب الدنيا لأن طالب الآخرة فقط بحيث لا يحتاج إلى طلب حسنة من الدنيا لا يوجد في الدنيا ، وقيل : لأن ذلك ليس بمشروع لأن المرء مبتلي بآفات الدنيا فلا بد له منها ، ورد بأن عدم المشروعية في طالب الدنيا فقط أشد ، وأيضا التقسيم بمنهم ومنهم لا يفيد الحصر وفيه نظر ، وقيل : قسم الله الناس هنا إلى أربع فرق الكافرون الذين لا هتم لهم إلا الدنيا وهم الذين ليس لهم في الاخرة من خلاق والمقتصدون الذين يقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، والمنافقون الذين حلت ألسنتهم ومرت عقائدهم وضمائرهم وهم الذين قيل فيهم ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٤] الخ والسابقون البائعون أنفسهم الرابحون رضا الله وهم المرادون بقوله : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ﴾ الخ والمراد بالإكثار الإكثار من ذكر الله وطلب ما عنده. قوله : (اجعل إيتاءنا الخ (إشارة إلى أنه منزل منزلة اللازم ، والخلاق النصيب الذي خلق وقدر له وقوله : أو من طلب خلاق قيل : المراد حينئذ ما له في شأن الآخرة من طلب خلاق ليدفع به أنه لا طلب في الآخرة لأحد وإنما فيها الحظ أو الحرمان وقيل : إن كون الآخرة لا طلب فيها ممنوع فإن المؤمنين يطلبون زيادة الدرجات وكذا الكافرون يطلبون الخلاص لكن ما طلبوه ليس نصيبا مقدرا لهم وكون ما نقل تمثيلاظاهر إذ لا ينبغي الحصر وامرأة السوء بالإضافة ويصح فيه فتح السين وضمها. قوله : (١ شارة إلى الفريق) قدمه لأنه هو الجزل ولأن الفريق الأول قد بين حالهم بقوله ومالهم في الآخرة من خلاق فالمناسب تخصيص هذا بالثاني وعلى هذا ينبغي حمل قوله : ﴿ والله سريع الحساب ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ٢٠٢] على أنه لا يناقشهم ليسرع وصولهم إلى الفوز بالسعادة الأبدية. قوله : (أي من جنسه وهو جزاؤه) فمن بيانية والجنسية باعتبار كونه حسنة أو ابتدائية أو تبعيضية أو تعليلية ، والمراد بما كسبوه الدعاء لأنه عمل لهم والأعمال توصف بالكسب ، وكني بسرعة الحساب عن القدرة التامة لأنه يحاسب الأولين والآخرين في مقدار لمحة طرف وقوله : أو يوشك الخ يعني أنه أطلق

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ٣٩٤/١

ما يقع في يوم الجزاء عليه كما قيل في رحمة بمعنى في الجنة وقوله : فبادروا الخ إشارة إلى أن المقصود التحريض على إكثار الدعاء وطلب الآخرة وانتهاز الفرصة وهو وعيد للفريق الأول ووعد للثاني والله أعلم. قوله : (كبروه أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين الخ) أدبار جمع

دبر بمعنى عقب ، والقرابين جمع قربان وهو الذبيحة المتقرب بها وقوله : في أيام التشريق قيل : ينبغي أن لا يخص بها ليشمل يوم النحر وليس بشيء قال الجصاص لا خلاف بين أهل العلم أن المراد بالأيام المعدودات أيام التشريق وهو مروفي عن عمر وعلييئ وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم إلا في رواية عن ابن أبي ليلى : أنها يوم النحر ويومان بعده وقيل : إنه وهم اص. فإن قلت الأيام واحدها يوم وهو مذكر والمعدودات واحدها معدودة وهو مؤنث فكيف يقع صفة له فالظاهر معدودة وصفا للجمع بالمؤنث المفرد وهو جائز ، قلت : قيل : ليس هو جمع معدودة بل جمع معدود وجمع جمع مؤنث فيما لا يعقل كما قيل : حمامات وسجلات ، وقيل : إنه قدر اليوم مؤنثا باعتبار ساعاته ولك أن تقول إن المعنى أنها في كل سنة معدودة وفي السنين معدودات فهي جمع معدودة حقيقة فتأمل. قوله : (استعجل النفر) تعجل واستعجل يكون متعديا ومطاوعا ولازما ورجح الزمخشرفي الثاني لمقابل تأخر اللازم كما رجحه في قوله :." [١]
"ج٤ص٦٦

صغير فنشأ عندهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبدلذ بن جدعان وأعتقه ، وخباب عدة من الصحابة منهم من مسه الرق ورق سلمان رضي الله عنه مشهور وتفصيله في الاستيعاب ، وفي كلام المصنف رحمه الله خلط بين حديثين ، وقد وقع مثله في الكشاف ، وهذا الحديث) ١ (يروى من طرق عدة كما في تخريج أحاديث الكشاف وليس هو قول عمر في بعض طرقه فلا معنى لإنكاره بناء على أنه لا يليق بمقام النبوة طرد المؤمنين لأجل غيرهم ظنا إنه ينافي في عصمته لأن الطرد لم يقع منه والذي هم به أن يجعل لهم وقتا خاصا ولهؤلاء وقتا خاصا ليتألف أولئك فيقودهم ، إلى الإيمان والصحابة رضي الله عنهم يعلمون ما قصد فلا يحصل لهم إهانة وانكسار قلب منه صلى الله عليه وسلم . قوله : (والمراد بذكر الغداة والعشئ الدوام الخ) كما يقال فعله صباحا ومساء لما يداوم عليه ، وقيل الغداة والعشي عبارة عن صلاتي الصبح والعصر لأن الزمان كثيرا ما يذكر ، ويراد به ما يقع فيه كما يقال صلى الصبح ويراد بالصبح صلاته وكذا المغرب كما يعكس فيراد بالصلاة زمانها نحو قربت الصلاة أي وقتها ، وقد يراد بها مكانها نحو : ﴿ لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ﴾ [سورة النساء ، الآية : ٤٣] أي المساجد والدعاء على هذا مراد به حقيقته ، أو المراد الدعاء الواقع في الصلاة فلا حاجة إلى ما قيل إنه مسامحة أو المراد الصبح والعصر وذكر الصلاة لبيان الدعاء وقد فسر الدعاء هنا بالصلوات الخمس وبالذكر وقراءة القرآن. قوله : (وقرأ ابن عامر يالغدوة) وكذا قرأه في سورة الكهف أبضا وهي قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء العطاردي وغيرهم ، وغدوة وان كان المعروف فيها أنها علم جنس ممنوع من الصرف ولا تدخله الألف واللام ، ولا تصح إضافته فلا تقول غدوة يوم الخميس كما قاله الفراء لكنه سمع اسم جنس أيضا منكرا مصروفا فتدخله اللام ، وقد نقله سيبويه في كتابه عن الخليل ، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو فلا عبرة بقول أبي

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ٢/٢٩٣

عبيد إن من قرأ بالواو وأخطأ وأنه اتبع رسم الخط لأن الغداة تكتب بالواو كالصلاة والزكاة وهو علم جنس لا تدخله الألف واللام والمخطئ مخطئ لما مر ، وقد ذكر المبرد عن العرب تنكير غدوة وصرفه وادخال الألف واللام عليه إذا لم يرد غدوة يوم بعينه ، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ وكفى بوقوعه في القراءة المتواترة حجة فلا حاجة إلى ما قيل إنه علم لكنه نكر لأن تنكير علم الجنس لم يعهد ولا أنه معرفة ودخلته اللام لمشاكلة العشي كما في قوله :

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا

إذ قال اليزيد لمجاورة الوليد ومنه تعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة. قوله : (يدعون ربهم مخلصين الخ) إشارة إلى أن المراد بالوجه الذات كما في قوله : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ [سورة القصص ، الآية : ٨٨] على أحد التفاسير فيه وأن معنى إرادة الذات الإخلاص لها لأنه ذكر في الإشارات أن من الناس من أحال كون الله مرادا لذاته وقال إن الإرادة صفة لا تتعلق إلا بالممكنات لأنها تقتضي ترجيح أحد طرفي المراد على الآخر وذلك لا يعقل إلا في الممكنات ، وقوله عليه أي الدعاء بالإخلاص. قوله : (ما عليك من حسابهم الخ) جوز في ما هذه أن تكون تميمية وحجازية وفي شيء أن يكون فاعل الظرف المعتمد على النفي أعني عليك ، ومن حسابهم وصف له قدم فصار حالا ومن مزيدة للاستغراق لكن تشبيه الزمخشري بقوله إن حسابهم إلا على ربي الدال على الحصر بصريح النفي والإثبات يشعر بكون شيء مبتدأ ، والظرف خبر قدم للحصر ، وقوله : ليس عليك حساب إيمانهم يشير إلى تقدير مضاف أو إلى أنه المراد من النظم ، أو أن الإضافة إليهم للملابسة المذكورة وأن حساب الإيمان إما بحسب المقدار أو بحسب الإخلاص ، والضمير على هذا للمؤمنين كما يعلم من مقابله ، ويجوز أن يكون الضمير للمشركين وضمير تطردهم للمؤمنين وضمير سؤالهم وايمانهم راجع إلى من ، ولما مشددة حينئذ أو مخففة وما مصدرية. قوله : (فإن كان لهم باطن غير مرضئ الخ) قال أبو حيان كيف يفرض هذا وقد أخبر الله بإخلاصهم في قوله : ﴿ يريدون وجهه ﴾ واخباره هو الصدق الذي لا شك فيه وليس بشيء مع قوله كما ذكره المشركون. قوله : (فحسابهم الخ) هذا بعينه ما ارتضاه الزمخشري وأن الجملتين في معنى جملة واحدة تؤدي مؤذي ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وأنه لا بذ منهما والا فالأولى تكفي للجواب وفي قوله كما أن إشارة إلى أن الثانية مسلمة ظاهرة حتى إنها تدل على الأولى لجعلها مقيسا عليها ولم يجعل المعنى أن حسابهم." (١)

"ج٥ص٣١٨

لا يعرفها فهو لازم معناه المتقدم عليه ، والقيام بحقها هو معنى الشكر ، وهو شامل لما كان باللسان ، والأركان والجنان. قوله : (ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الأنعام) إذ ركوب البحر مظنة الهلاك لأنهم كما قال عمرو رضي الله عنه دود على عود ، وهو من كمال النعمة لقطع المسافة البعيدة في زمن يسير قريب مع عدم الاحتياج إلى الحل ، والترحال كما في البر والحركة مع الاستراحة والسكون ، ولله در القائل : وأنا لفي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسري

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ٤/٦٦

وقد تقدم تحقيق الرواسي. قوله : (كراهة أن تميل بكم وتضطرب الخ) تقدم نظيره ، وأنه بتقدير مضاف أي كراهة وخوف أو بتقدير لئلا تميد. قوله : (وكان من حقها أن تتحرك
بالاستدارة) قيل لا وجه لهذا على مذهب أهل الحق ، ولا على مذهب الفلاسفة أما الأول فلأن ذات الشيء لا تقتضي تحزكه ، وإنما ذلك بإرادة الله تعالى ، وأما الثاني فلأن الفلاسفة لم يقولوا إن حق الأرض أن تتحرك بالاستدارة لأن في الأرض ميلا مستقيما ، وما هو كذلك لا يكون فيه صيد وميل مستدير على ما ذكروا ير العلم الطبيعي ، وأورد أيضا على منع الجبال لها من الحركة أنه قد ثبت في الهندسة أن نسبة أعظم جبل في الأرض ، وهو ما ارتفاعه فرسخان وثلث فرسخ إلى جميع الأرض نسبة خمس سبع عرض! شعيرة إلى كرة قطرها ذراع ، ولا ريب في أن ذلك القدر من الشعيرة لا يخرج تلك الكرة عن الاستدارة بحيث يمنعها عن الحركة ، وكذا حال الجبال بالنسبة إلى كرة الأرض فالصحيح أن يقال خلق الله الأرض مضطربة لحكمة لا يعلمها إلا هو ، ثم أرساها بالجبال على جريان عادته في جعل الأشياء منوطة بالأسباب ، وفيه أنه يرد عليه ما أورده ، واعلم أن من أصحاب العلوم الرياضية من ذهب إلى أن الأرض متحركة على ما فصله في نهاية الإدراك مع رده ، وأما كون الأرض ذات ميد وميل مستقيم فيمتنع أن تتحرك على الاستدارة بالطبع فهو مبرهن في محله لكن قال الإمام الجمهور على أنه تعالى لما خلق الأرضى على وجه الماء اضطربت فخلق عليها هذه الجبال الثقال فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال كما أن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء تميل من جانب إلى جانب فإذا وضعت فيها الإجرام الثقيلة استوت على وجه الماء ، واستقرت ، وهذا مشكل لأنه سطح الماء إن كان حيز الأرض الطبيعي وجب سكونها ، واسنقرارها وان لم يكن حيزها الطبيعي ، وهي أثقل من الماء فلا بد من غوصها في الماء فلم تبق على وجه الأرض مضطربة ، وأجاب بأن الأرض كرة من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالفلك أو تتحرك بأدنى سبب فلما خلقت عليها الجبال توجهت نحو مركز العالم بثقلها العظيم فكانت جارية مجرى الأوتاد التي منعت الأرض عن الاستدارة فمنعها الأرض عن الميد والاضطراب هو الذي منعها من الحركة المستديرة ، وقد تبعه المصنف رحمه الله تعالى على عادته ، وأنت إذا تأملته علمت أن ما اعترضوا به غيروا رد لأنها من حيث هي كريتها تقتضي الحركة المستديرة بالذات والميل المستقيم عارض! لها بالثقل فلا منافاة بينه وبين ما تقرر في الطبيعي ، وليس هذا محلا يسع تحقيقه ، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. قوله : (ما هي بمقر أحد على ظهرها) مقر بفتح الميم اسم مكان من القرار والباء زائدة ، وقيل إن الظاهر أنه يضمها اسم فاعل من الإقرار بمعنى جعل الشيء قارا والتذكير باعتبار المكان ، ولا داعي له. قوله : (وجعل فيها أنهار الخ ا لما كان الإلقاء بمعنى الطرح لا تتصف به الأنهار أشار إلى تسلطه عليه باعتبار ما فيه من معنى الجعل والخلق أو تضمينه إياه

ويجوز أن يقدر له فعل لأنه على حد قوله :

علفتها تبنا وماء باردا

وقد جوزوا فيه ذلك لكن المصنف رحمه الله تعالى اختار هذا لأن التقرير خلاف الظاهر. قوله : (لمقاصدكم) هذا بناء على الظاهر من أنه تعليل لقوله سبلا ، وقوله أو إلى معرفة الله على أنه تعليل لجميع ما قبله لأن تلك الآثار العظام تدل على فاعل حكيم عظيم ففي قوله تهتدون تورية حينئذ. قوله : (معالم) جمع معلم ، وهو ما يستدل به على شيء

والسابلة الفرقة التي تسلك سبيلا ، وتطلق على الطريق نفسها وليس! بمراد هنا ، وقوله وريح هو إشارة إلى ما في التفسير الكبير من **أن من الناس من** يشم التراب فيعرف يشمه الطريق ، وأنها مسلوكة أو غير مسلوكة ، ولذا سميت المسافة مسافة لأنها من السوف بمعنى الشتم فالريح بمعنى الرائحة. قوله : (بالليل في البراري (جمع برية ، وهي معروفة." [1]

"ج٧ص٣٣٧

مضاف ، وعبوديته مفعول يدعي ، وقوله بعبد متعلق بقوله مثل ، وقوله يتعاورونه بالعين والراء المهملتين من التعاور ، وهو التداول بالمناولة ، وقوله في مهماتهم ، وفي نسخة من مهامهم ، وقوله في نحيره متعلق به أيضا ، وهو وجه الشبه ، وتحيره بينها من ينفعه منها ، والى أنها يتوجه مثلا ، وقوله توزع قلبه بمعنى تفريق خواطره ، وفكره ، والموحد معطوف على المشرك. قوله : (ورجلا بدل الخ) بدل كل من كل أو مفعول ثان لضرب كما مر تحقيقه ، وقوله وفيه صلة شركاء لأنه يتعدى بفي ، يقال اشتركوا في الأمر وهو مبتدأ خبره متشاكسون ، والظاهر أنه خبر مقدم لأن النكرة وإن وصفت يحسن تقدم خبرها ، ولو كان صلة لم يكن لتقديمه نكتة ظاهرة ، وحمل كلام المصنف رحمه الله على هذا ، وان كونه صلة ، كان قبل التقديم وبعده ، وهو خبر مستقر كما في الحمد لله ، كما قيل تعسف ،

والجملة صفة رجلا أو الظرف صفته ، وشركاء فاعل به لاعتماده ، وقوله الاختلاف المراد تحالف آرائهم في استخدامه. قوله : (وقرأ نافع الخ) أخره وان كان معتاد. تقديم قراءة الأكثر ، ليكون تفسير. على ما هو أظهر معنى ، ولا تجوز فيه مع أن ما ذكر ليس ملتزما له ، كما زعمه القائل ، وسلم كعلم بمعنى خلص من مزاحمة شركة غيره فيه ، والتعب بالمصدر للمبالغة ، وقوله ورجل أي قرئ رجل الثاني بالرفع على أنه مبتدأ له خبر مقدم ، وقوله وتخصيص الخ ، أي ضرب المثل بالرجل دون الصبي ، أو دون المرأة ، وذكر ما يعمهما كشخصا مثلا. قوله : (صفة وحالا) تفسير للمثل هنا كما مر ، وقوله ولذلك وحده لأنه لبيان جنسه ودفع إبهامه ، وهو حاصل بالإفراد فلا يزاد على مقدار الحاجة ما لم يحصل لبس بإفراده ، أو يقصد الدلالة على معنى زائد فيه كاختلاف نوعهما ، أو يقال ضمير يستويان للمثلين ، فلو لم يثن لم يحصل التمييز ويلتبس ، وقوله : فإن التقدير الخ ، دفع لما يتوهم من أن المثل مفرد ، فكيف يرجع له ضمير التثنية بأنه وان كان بحسب الظاهر واحدا فهو متعدد ، لأن قوله ورجلا بتقدير ومثل رجل. قوله : (كل الحمد له) إشارة إلى أن تعريف الحمد للاستغراق ، وقوله : لا يشاركه الخ هو معنى لازم الاختصاص ، وقوله : على الحقيقة دفع لما يخطر بالبال ، **لأن من الناس من** ينعم إنعاما يستحق به الشكر والحمد حتى قيل :

لا يشكر الله من لا يشكر الناسا

بأن المنعم الحقيقي هو الله وكل ما سواه وسايط وأسباب ، كما مر في الفاتحة ، وقوله :

لا يعلمون ، أي ليسوا من ذوي العلم ، أو لا يعلمون أن الكل منه ، وان المحامد إنما هي له. قوله : (وفي عداد الموتى) فهو مجاز لأنهم لكونهم يتصفون به بعده بمنزلة من مات الآن ، وقوله لأنه مما سيحدث ، هكذا في الكشاف الفرق بين الميت والمائت ، إن الميت صفة لازمة كالسيد ، والمائت صفة حادثة ، فقوله زيد مائت غدا أي سيموت أنتهى ،

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ٣١٨/٥

يعني أن اسم الفاعل يدل على الحدوث ، والصفة المشبهة تدل على الثبوت مع قطع النظر عن دلالته ، على الحال أو الاستقبال ، لكن لما كان الحدوث فد يعتبر مع القرينة في المستقبل كما هنا ، فإن القرينة عقلية ، وهي الخطاب إذ الميت في الحلل لا يخاطب ، وانم! يظهر الفرق بينهما في المستقبل لاشتراكهما في اتصافهما بالحدث حالا ، مثل به كذلك اختيارا للقول بأنه حقيقة في الحال ، والاستقبال وهو قول للنحاة ، وأهل الأصول ، كما في التسهيل ومنهاج المصنف رحمه الله وشرحه ، فما قيل إنه يدل على أن اسم الفاعل وضع للاستقبال ، والذي غره كلام الكشاف ، ولا وجه له لأن قوله غدا قرينة للتجوز ، والظاهر أنه من باب زيد أسد ، كما في القراءة المشهورة غفلة عن إنه قول لهم اختاره الشيخان هنا فتدبر. قوله : (فنصج عليهم- الخ (جعل الخصام بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أمة الدعوة ، لكن لا على ما يتبادر منه بل على ما أشار إليه الطيبي طيب الله ثراه ، من أول السورة إلى هنا ، لما ذكرت البراهين القاطعة لعرق الشركة المستجلبة لفرط جهلهم ، وعدم رجوعهم مع تهالكه-شبيه على ردهم إلى الحق ، وحرصه على هدايتهم ، اتجه السؤال منه بعدما قاساه منهم ، بأن يقول ما حالي وحالهم ، فأجيب بأنك مهدت من نشاط الدعوة ما أردناه ، وتم لك من ذلك ما قضيناه ، فلا تطمع في الزيادة على ذلك لأنك ستأتي أنت إلى عز الحضور ويساق هؤلاء إلى موقف ينتصف فيه الخصوم كما قيل :

إلى ديان يوم الدين تمضي وعند الله تجتمع الخصوم

قوله : (وقيل المراد الخ) قيل إنه مرضه ، لدلالة قوله إنك ميت وانهم الخ ، وكذا السياق على الوجه السابق." (١)

" أهل الجنة الجنة من مقعر فك الثوابت إلى أسفل السافلين فلهذا كله يزاد إلى ما هو الآن ولذا كان يقول عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما : إذا رأى البحر يا بحر متى تعود نارا وكان يكره الوضوء بمائه ويوقل : التيمم أحب إلي منه وقال تعالى : وإذا البحار سجرت أي أججت وليس للكفار اليوم مكث فيها وإنما يعرضون عليها كما قال تعالى : بكرة وعشيا وهي ناران حسية مسلطة على ظاهر الجسم والأحساس والحيوانية : ومعنوية وهي التي تطلع على الأفئدة وبها يعذب الروح المدبر للهيكل الذي أمر فعصى والمخالفة وهي عين الجهل بمن أستكبر عليه أشد العذاب وقد أطالوا الكلام في ذلك وأتوا بالعجب العجاب وحقيقة الأمر عندي لا يعلمها إلا الله تعالى ولا شيء أحسن من التسليم لما جاء به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فكيفية ما في تلك النشأة الأخروية مما لا يمكن أن تعلم كما ينبغي لمن غرق في بحار العلائق الدنيوية وماذا على إذا آمنت بما جاء مما أخبر به الصادق من الأمور السمعية مما لا يستحيل على ما جاء وفوضت الأمر إلى خالق الأرض والسماء أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا على دينه وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات لما ذكر سبحانه وتعالى فيما تقدم الكفار وما يؤول إليه حالهم في الآخرة وكان في ذلك أبلغ التخويف والإنذار عقب بالمؤمنين وما لهم جريا على السنة الألهية من شفع الترغيب بالترهيب والوعد بالوعيد **لأن من الناس من** لا يجديه التخويف ولا يجديه وبنفعه اللطف ومنهم عكس ذلك فكأن هذا وما بعده معطوف على سابقه عطف القصة

---

(١) حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى، ٣٣٧/٧

على القصة واتناسب بينهما بإعتبار أنه بيان لحال الفريقين المتباينين وكشف عن الوصفين المتقابلين وهل هو معطوف على وإن كنتم إلى أعدت أو على فإن لم تفعلوا الآية قولان أختار السيد أولهما وأدعى بعضهم أنه أقضى لحق البلاغة وأدعى لتلائم النظم لأن ياأيها الناس أعبدوا خطاب عام يشمل الفريقين وإن كنتم إلخ مختص بالمخالف ومضمونه الإنذار وبشر إلخ مختص بالموافق ومضمونه البشارة كأنه تعالى أوحى إلى نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم أن يدعو الناس إلى عبادته ثم أمر أن ينذر من عاند ويبشر من صدق والسعد أختار ثانيهما لأن السوق لبيان حال الكفار ووصف عقابهم وقيل عطف على فأتقوا وتغاير المخاطبين لا يضر ك يوسف أعرض عن هذا وأستغفري وترتبه على الشرط بحكم العطف بإعتبار أن أتقوا إنذار وتخويف للكفار وبشر تبشير للمؤمنين وكل منهما مترتب على عدم المعارضة بعدم التحدي لأن عدم المعارضة يستلزم ظهور إعجازه وهو يستلزم إستيجاب منكره العقاب ومصدقه الثواب لأن الحجة تمت والدعوة كملت وإستيجابهما إياهما يقتضي الإنذار والتبشير فترتب الجملة الثانية على الشرط ترتب الأولى عليه فلا فرق وقد يقال إن الجزاء فمنوا محذوفا والمذكور قائم مقامه فالمعنى إن لم تأتوا بكذا فمنوا وبشر الذين آمنوا أي فليوجد إيمان منهم وبشارة منك ووضع الظاهر موضع الضمير وفيه حث لهم على الإيمان ولعله أقل مؤنة وأختار صاحب الإيضاح عطفه على أنذر مقدرا بعد جملة أعدت وقيل : عطف على قلقبل وإن لم تفعلوا وتقديره قبل ياأيها الناس يحوج إلى إجراء مما نزلنا على عبدنا على طريقة كلام العظماء أو تقدير قال الله بعد قل والبشارة بالكسر والضم أسم من بشر بشرا وبشورا وتفتح الباء فتكون بمعنى الجمال وفي الفعل لغتان التشديد وهي العليا والتخفيف وهي لغة أهل تهامة وقريء بهما في المضارع في مواضع والتكثير في المشدد بالنسبة إلى المفعول فإن واحدا كان فعل فيه مغنيا عن فعل وفسروها في المشهور وصحح بالخبر السار الذي ليس عند المخبر علم به وأشترط بعضهم أن يكون صدقا وعن سيبويه إنها خبر يؤثر في البشرة حزنا أو سرورا وكثر إستعماله في الخير وصححه في البحر وبشرهم بعذاب أليم ظاهر عليه ومن باب التهكم ." (١)

" فيه او له او منه او نحو ذلك ملابسة مصححة لأن يتوسط بينهما شيء من الظروف لغوا كان او مستقرا لكن لا على أن يكون عمدة في الكلام بل قيدا فيه وقيل : الفرق بين الجعل والخلق أن الخلق فيه معنى التقدير والجعل فيه معنى التضمين أي كونه محصلا من ءاخر كأنه في ضمنه ولذلك عبد عن أحداث النور والظلمة بالجعل تنبيها على أنهما لا يقومان بأنفسهما كما زعمت الثنوية

وأعترض بأن الثنوية يزعمون أن النور والظلمة جسمان قديمان سميعان بصيران أولها خالق الخير والثاني خالق الشر فهما حينئذ ليسا بالمعنى الحقيقي المتعارف فمدعاهم الفاسد يبطل بمجرد هذا وأيضا الرد يحصل لكونهما محدثين بقطع النظر عما اعتبر في مفهوم الجعل ولو أتى بالخلق بدله حصل المقصود منه وأيضا أن الجعل المتعدي لواحد كما فيما نحن فيه لا يقتضي كونه غير قائم بنفسه ألا ترى إلى قوله سبحانه : وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا وجعل بينها

---

(١) روح المعاني، ١/٢٠٠

برزخا إلى غير ذلك واجيب بما لا يخلوا عن نظر وجمع الظلمات وافرد النور ليحسن التقابل مع قوله سبحانه : خلق السموات والأرض أو لما قدمناه في البقرة

وقيل لأن المراد بالظلمة الضلال وهو متعدد وبالنور الهدى وهو واحد ويدل على التعدد والوحدة قوله تعالى : وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله واختار غير واحد حمل الظلمة والنور هنا على الأمرين المحسوسين وإن جاء في الكتاب الكريم بمعنى الهدى والضلال وكان له هنا وجه أيضا لأن الأصل حمل اللفظ على حقيقته وقد أمكن مع وجود ما يلائمه ويقتضيه اقتضاء ظاهرا حيث قرنا بالسموات والأرض وعن قتادة أن المراد بهما الجنة والنار ولا يخفى بعده وللعلماء في النور والظلمة كلام طويل وبحث عريض حتى أنهم ألفوا في ذلك الرسائل ولم يتركوا بعد مقالا لقائل

وذكر الامام أن النور كيفية هي كمال بذاتها للشفاف من حيث هو شفاف أو الكيفية التي لا يتوقف الابصار بها على الابصار بشيء آخر **وأن من الناس من** زعم أنه أجسام صغار تنفصل عن المضيء وتتصل بالمستضيء وهو باطل أما أولا فلأن كونها أنوارا إا أن يكون هو عين كونها أجساما وإما أن يكون مغايرا لها والأول باطل لأن المفهوم من النورية مغاير للمفهوم من الجسيمة ولذلك يعقل جسم مظلم ولا يعقل نور مظلم وأما إن قيل : إنها أجسام حاملة لتلك الكيفية تنفصل عن المضي وتتصل بالمستضيء فهو أيضا باطل لأن تلك الأجسام الموصوفة بتلك الكيفيات إما أن تكون محسوسة أو لا فإن كان الأول لم يكن الضوء محسوسا وإن كان الثاني كانت ساترة لما تحتها ويجب انها كلما ازدادت اجتماعا ازدادت سترا لكن الأمر بالعكس وأما ثانيا فلأن الشعاع لو كان جسما لكانت حركته بالطبع إلى جهة واحدة لكن النور مما يقع على كل جسم في كل جهة واما ثالثا فلأن النور إذا دخل من كوة ثم سددناها دفعة فتلك الأجزاء النورانية إما أن تبقى او لا فان بقيت فإما أن تبقى في البيت وإما أن تخرج فان قيل : إنها خرجت عن الكوة قبل السد فهو محال وإن قيل : إنها عدمت فهو أيضا باطل فكيف يمكن أن يحكم أن جسما لما تخلل بين جسمين عدم أحدهما فاذن هي باقية في البيت ولا شك في زوال نوريتها عنها وهذا هو الذي نقول من أن مقابلة المستضيء سبب لحدوث تلك الكيفية وإذا ثبت ذلك في بعض الأجسام ثبت في الكل وأما رابعا فلأن الشمس إذا طلعت من الافق يستبين وجه الأرض كله دفعة ومن البعيد أن تنتقل تلك الأجزاء من الفلك الرابع إلى وجه الأرض في تلك اللحظة اللطيفة سيما والخرق على الفلك محال عندهم واحتج المخالف بأن ." (١)

" لأن فيها سواء قيل بحرفيتها أو اسميتها معنى الشرط

واستشكل ذلك بأنه لا يظهر وجه سببية النسيان لفتح أبواب الخير وأجيب بأن النسيان سبب الاستدراج المتوقف على فتح أبواب الخير وسببه شيء لآخر تستلزم سببيته لما يتوقف عليه أو يقال إن الجواب ما ذكر باعتبار ماله ومحصله وهو ألزمناهم الحجة ونحوه وتسببه عنه ظاهر وقيل : إنه مسبب عنه باعتبار غايته وهو أخذهم بغتة وقرأ ابو جعفر وابن عامر فتحنا بالتشديد للتكثير حتى إذا فرحوا فرح بطر بما أوتوا من النعم ولم يقوموا بحق المنعم جل شأنه أخذناهم

---

(١) روح المعاني، ٨٢/٧

عاقبناهم وأنزلنا بهم العذاب بغتة أي فجأة ليكون أشد عليهم وأفظع هولا وهي نصب على الحالية من الفاعل أو المفعول أي مباغتين أو مبغوتين أو على المصدرية أي بغتناهم بغتة فاذا هم مبلسون

٤٤

– أي آيسون من النجاة والرحمة كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقال البلخي : أذلة خاضعون وعن السدي الابلاس تغير الوجه ومنه سمي إبليس لأن الله تعالى نكس وجهه وغيره وعن مجاهد هو مبعنى الاكتئاب

وفي الحواشي الشهابية للابلاس ثلاثة معاني في اللغة الحزن والحسرة واليأس وهي معان متقاربة وقال الراغب هو الحزن المعترض من شدة اليأس ولما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه قيل : أبلس فلان إذا سكت واذا انقطعت حجته و إذا هي الفجائية وهي ظرف مكان كما نص عليه أبو البقاء وعن جماعة أنها ظرف زمان ومذهب الكوفيين أنها حرف على القولين الأولين الناصب لها خبر المبتدأ أي ابلسوا في مكان إقامتهم أو في زمانها فقطع دابر القوم الذين ظلموا أي آخرهم كما قال غير واحد وهو من دبره إذا تبعه فكأنه في دبره أي خلفه ومنه **إن من الناس من** لايأتي الصلاة إلا دبرا أي في آخر الوقت

وقال الاصمعي : الدابر ألاصل ومنه قطع الله دابره أي أصله وأيا ما كان فالمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبق منهم أحد ووضع الظأهر موضع الضمير للاشعار بعلة الحكم

والحمد لله رب العالمين

٥٤

– على ما جرى عليهم من النكال والاهلاك فان اهلاك الكفار والعصاة من حيث أنه تخليص لأهل الأرض من شؤم عقائدهم الفاسدة وأعمالهم الخبيثة نعمة جليلة يحق أن يحمد عليها فهذا منه تعالى تعليم للعباد أن يحمدوه على مثل ذلك واختار الطبرسي أنه حمد منه عز أسمه لنفسه على ذلك الفعل قل يا محمد على سبيل التبكيت والالزام أيضا أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم أي أصمكم وأعماكم فاخذهما مجاز عما ذكر لأنه لازم له والاستدلال بالآية على بقاء العرض زمانين محل نظر

وختم على قلوبكم بان غطى عليها بما لا يبقى لكم معه عقل وفهم أصلا وقيل : يجوز أن يكون الختم عطفا تفسيريا للاخذ فان البصر والسمع طريقان للقلب منهما يرد ما يرد من المدركات فاخذهما سد لبابه بالكلية وهو السر في تقديم أخذهما على الختم عليها واعترض بأن المدركات ما يتوقف على السمع والبصر ولهذا قال غير واحد بوجوب الايمان بالله تعالى على من ولد أعمى أصم بلغ سن التكليف وقيل : في التقديم إنه من باب تقديم ما يتعلق بالظاهر على ما يتعلق بالباطن ووجه تقديم السمع وافراده قد تقدمت الإشارة إليه من إله غير الله يأتيكم به أي بذلك على أن الضمير مستعار لاسم الاشارة المفرد لأنه الذي ." (١)

---

(١) روح المعاني، ١٥٢/٧

" لهله فائدة ثم تحصل لنا حال شوقية ثم ميلان نفساني هي الارادة ثم تنبعث القوة الباعثة للقوة المحركة للاعضاء نحو ايجاده فيحصل لنا ذلك الشيء فلكل واحد من تلك الامور دخل في وجود ذلك الشيء ثم قالوا : فكما لابد في صدور الافعال الاختيارية فينا من هذه الامور كذلك لابد من صدور الافعال الاختيارية للواجب من نحو ذلك مما لايمتنع عليه سبحانه فاثبتوا له تعالى علما وارادة وقدرة وفائدة لافعاله واستدلوا على ذلك من كونه سبحانه مختارا فالخلق التدريجي لما كان دالا على الاختيار الدال على ما ذكر صدق أن فيه اعتبار للنظار

وحاصل هذا أن المراد من النظار أصحاب النظر والبصيرة من العقلاء فلا يتوقف ما ذكر على ما تقدم خلق الملائكة على أن من قال بتقدم خلق العرش والكرسي على خلق الأرض والسموات قائل بتقدم خلق الملائكة بل قيل : **إن من الناس من** قال بتقدم خلق نوع من الملائكة قبل العرش والكرسي وسماهم المهيمين

وأنت تعلم أن هذا لا يفيدنا لأن المهيمين عند هذا القائل لا يشعرون بسماء ولا أرض بل هم مستغرقون فيه سبحانه على أن ذلك ليس بالمحقق كما يقوله المعترض أيضا وقيل : إن الشيء إذا حدث دفعة واحدة فلعله يخطر بالبال أن ذلك الشيء إنما وقع على سبيل الاتفاق فاذا حدث شيئا فشيئا على سبيل المصلحة والحكمة كان ذلك أبلغ في القدرة وأقوى في الدلالة وقيل : إن التعجيل في الخلق أبلغ في القدرة والتثبت أبلغ في الحكمة فاراد الله تعالى اظهار حكمته في خلق الأشياء بالتثبيت كما أظهر قدرته في خلق الأشياء بكن

ثم استوى على العرش وهو في المشهور الجسم المحيط بسائر الأجسام وهو فلك الافلاك سمي به اما لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك فانه يقال له عرش ومنه قوله تعالى ورفع أبويه على العرش ٩ لأن الأمور والتدبيرات تنزل منه ويكنى به عن العز والسلطان والملك فيقال : فلان ثل عرشه أي ذهب عزه وملكه وأنشدوا قوله : إذا ما بنو مروان ثلت عروشهم وأودت كما أودت إياد وحمير وقوله : إن يقتلوك فقد ثللت عروشهم بعيينة بن الحرث بن شهاب وذكر الراغب أن العرش مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم وليس هو كما تذهب اليه أوهام العامة فانه لو كان كذلك لكان حاملا له تعالى عن ذلك وليس كما قال قوم إنه الفلك الأعلى والكرسي فلك الكواكب وفيه نظر والناس في الكلام على هذه الآية ونحوها مختلفون فمنهم من فسر العرش بالمعنى المشهور وفسر الاستواء بالاستقرار وروي ذلك عن الكلبي ومقاتل ورواه البيهقي في متابه الاسماء والصفات بروايات كثيرة عن جماعة من السلف وضعفها كلها وما روي عن مالك رضي الله تعالى عنه أنه سئل كيف استوى فأطرق رأسه مليا حتى علته الرحضاء ثم رفع رأسه فقال : الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والايمان به واجب والسؤال عنه بدعة ثم قال للسائل : وما أظنك إلا ضالا ثم أمر به فأخرج ليس نصا في هذا المذهب لاحتمال أن يكون المراد من قوله : غير مجهول أنه ثابت معلوم الثبوت لا أن معناه وهو الاستقرار غير مجهول ومن قوله : والكيف غير معقول ان كل ماهو من صفة الله تعالى لايدرك العقل له كيفية لتعاليه عن ذلك فكف الكيف عنه مشلولة

ويدل على هذا ما جاء في رواية أخرى عن عبد الله بن وهب أن مالكا سئل عن الاستواء فأطرق وأخذة الرحضاء ثم قال : الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له : كيف وكيف عنه مرفوع إلى آخر ." (١)

" ونحن قد بسطنا الكلام على ذلك فيما تقدم وفي كتابنا الطراز المذهب وأتينا فيه هدى للناظرين

بقي أن حديث الإستفادة المذكورة سواء كانت على سبيل الإنعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيرا كما في المرآة أو بأن يستنير جوهره على ماهو الأشبه عند الإمام قد ذكدها كثير من الناس حتى القاضي في تفسيره وهو مما لم يجيء من حديث من عرج إلى السماء صلى اللهتعالى عليه وسلم وإنما جاء عن الفلاسفة وقد زعموا أن الأفلاك الكلية تسعة أعلاها فلك الأفلاك ثم فلك الثوابت ثم فلك كيوان ثم فلك برجيس ثم فلك بهرام ثم فلك الشمس ثم فلك الكاتب ثم فلك القمر وزعم صاحب التحفة أن فلك الشمس تحت فلك الزهرة وماعليه الجمهور هو الأول وإستدل كثير منهم على هذا الترتيب بما يبقي معه الإشتباه بين الشمس وبين الزهرة والكاتب كالكسف والإنكساف وإختلاف المنظر الذي يتوصل إلى معرفته بذات الشعبتين لأن الأول لا يتصور هناك لأن الزهرة والكاتب يحترقان عند الإقتران في معظم المعمورة والتاني أيضا مما لايستطاع لتلك الآلة لأنها تنصب في سطح نصف النهار وهذان الكوكبان لا يظهران هناك لكونهما حوالي الشمس بأقل من برجين فإذا بلغا نصف النهار كانت الشمس فوق الأرض شرقية أو غربية فلا يريان أصلا وجعل الشمس في الفلك الأوسط لما في ذلك من حسن الترتيب كأنها شمسة القلادة أو لأنها بمنزلة الملك في العالم فكما ينبغي للملك أن يكون في وسط العسكر ينبغي لها أن تكون في وسط كرات العالم أمر إقناعي بل هو من قبيل التمسك بجبال القمر ومثل ذلك تمسكهم في عدم الزيادة على هذه ألافلاك بأنه لافضل في الفلكيات مع أنه بلزم عليه أن يكون ثخن الفلك الأعظم أفل مايمكن أن يكون للأجسام من الثخانة إذ لا كوكب فيه حتى يكون ثخنه مساويا لقطره فالزائد على أقل مايمكن فضل وقد بين في رسالة الأبعاد والأجرام أنه بلغ الغاية في الثخن وقد قدمنا لك ذلك وحينئذ يمكن أن يكون لكل من الثوابت فلك على حدة وأن تكون تلك الأفلاك متوافقة في حركاتها جهة وقطبا ومنطقة وسرعة بل لو قيل بتخالف بعضها لم يكن هناك دليل ينفيه لأن المرصود منها أقل قليل فيمكن أن يكون بعض مالم يرصد متخالفا على **أن من الناس من** أثبت كرة فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم وإستدل على ذلك بما إستدل ومن علم أن أرباب الأرصاد منذ زمان يسير وجدوا كوكبا سيارا أبطأ سيرا من زحل وسموه هرشلا وقد رصده لالنت فوجده يقطع البرج في ست سنين شمسيةوأحد عشرشهرا وسبعة وعشرين يوما وهو يوم تحريرنا هذا المبحث وهو اليوم الرابع والعشرون من جمادي الآخرة سنة الألف والمائتين والست والخمسين حيث الشمس في السنبلة قد قطع من الحوت درجة واحدة وثلاث عشرة دقيقة راجعا لا يبقى له إعتمادا على ماقاله المتقدمون ويجوز أمثال ماظفر به هؤلاء المتأخرون وأيضا من الجائز أن تكون بالحركة البطيئة والفلك الثامن يتحرك بالحركة السريعة وحينئذ تكون دائرة البروج المارة بأوائل البروج الواقع وقد صرح البرجندي أن القدماء لم يثبتوا الفلك الأعظم وإنما أثبته المتأخرون وأيضا يجوز أن تكون سبعة بأن يفرض

---

(١) روح المعاني، ١٣٤/٨

ألثوابت ودائرة البروج على محدب ممثل زحل ويكون هناك نفسان تتصل إحداهما بمجموع السبعة وتحركها إحدى الحركتين الأوليين والأخرى بالكرة السابعة وتحركها الأخرى ولكن بشرط ." (١)

" حكمه حكم شعرة على أن تلك النسبة باعتبار الحجم ومنعها عن حركتها باعتبار الثقل وثقل هذه الجبال يكاد أن يقاوم ثقل الأرض لأن الجبال أجسام صلبة حجرية والأرض رخوة متخلخلة كالكرة الخشبية التي ألزقت عليها حبات من حديد وما يقال : من أن فيه غير ذلك ابتناء على قواعد الفلسفة فلا يطعن فيه لأن ذلك الإبتناء غير مضر إن لم يخالف القواعد الشرعية كما فيما نحن فيه واعترض على ما ادعى المعترض صحته بأنه يرد عليه ما أورده وظني أنه بعد الوقوف على مراده لا يرد عليه شيء مما ذكر ونحن قد أسلفنا نحوه وأطنبنا الكلام في هذا المقام ومنه يظهر ما هو الأوفق بقواعد الإسلام ثم ما ذكره المجيب من أن المصرح به في كتب الهيئة أن في كل إقليم ثلاثين جبلا بل أكثر خلاف المشهور وهو أن في الإقليم الأول عشرين وفي الثاني سبعة وعشرين وفي الثالث ثلاثة وثلاثين وفي الرابع خمسة وخمسين وفي الخامس ثلاثين وفي كل من السادس والسابع أحد عشر والمجموع مائة وسبعة وثمانون جبلا على أن كلامه لا يخلو من مناقشة فتدبر ومعنى ألقى على ما نقل ابن عطية على التأويل خلق وجعل واختار هو أنه أخص من ذلك وذلك أنه يقتضي أن الله سبحانه أوجد الجبال من محض قدرته واختراعه لا من الأرض ووضعها عليها وأيد بأخبار رووها في هذا المقام وقد تقدم بعضها ولم يعد بعلي كما في قوله تعالى : وألقيت عليك محبة مني للإشارة إلى كمال الجبال ورسوخها وثباتها في الأرض حتى كأنها مسامير في ساجة وانظر هل تعد من الأرض فيحنث من حلف لا يجلس على الأرض إذا جلس عليها أم لا فلا يحنث لم يحضرني من تعرض لذلك والظاهر الأول لعد العرف إياها منها وإن كان ظاهر هذه الآية كغيرها عدم العد وقوله تعالى : وأنهارا عطف على رواسي والعامل فيه ألقى إلا أن تسلطه عليه باعتبار ما فيه من معنى الجعل والخلق أو تضمينه إياه وعلى التقديرين لا إضمار وهو الذي اختاره غير واحد وجوز أن يكون مفعولا به لفعل مضمر وليس إجماعا خلافا لابن عطية أي وجعل أو خلق أنهارا نظير ما قيل في قوله

علفتها تبنا وماء باردا

وقدر أبو البقاء شق والعطف حينئذ من عطف الجمل وكأنه لما كان أغلب منابع الأنهار من الجبال ذكر الأنهار بعد ما ذكر الجبال وقوله تعالى : وسبلا عطف على أنهارا أي وجعل طرقا لمقاصدكم لعلكم تهتدون

١٥

– لهل فالتعليل بالنظر إلى قوله تعالى : وسبلا كما هو الظاهر ويجوز أن يكون تعليلا بالنظر إلى جميع ما تقدم لأن تلك الآثار العظام تدل على بطلان الترك وقيل : تدل على وجود فاعل حكيم ففي قوله تعالى : تهتدون تورية حينئذ وعلامات معالم يستدل بها السابلة من نحو جبل ومنهل ورائحة تراب فقد حكى **أن من الناس من** يشم التراب فيعرف بشمه الطريق وأنها مسلوكة أو غير مسلوكة ولذا سميت المسافة مسافة أخذا لها من السوف بمعنى الشم وأخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنها معالم الطرق بالنهار وعن الكلبي أنها الجبال وعن قتادة أنها النجوم وقال ابن عيسى :

---

(١) روح المعاني، ٦٨/١١

المراد منها الأمور التي يعلم بها ما يراد من خط أو لفظ أو إشارة أو هيئة والظاهر ما ذكر أولا وأغرب ما فسرت به وأبعده أن المراد منها حيتان طوال رقاق كالحيات في ألوانها وحركاتها تكون في بحر الهند الذي يسار إليه من اليمن سميت بذلك لأنها إذا ظهرت كانت علامة للوصول إلى بلاد الهند وأمارة للنجاة وبالنجم هم يهتدون

١٦

– بالليل في البر والبحر والمراد بالنجم الجنس فبش ما الخنس وغيرها مما يهتدي به وعن السدي تخصيص ذلك بالثريا والفرقدين وبنات نعش والجدي وعن الفراء ." (١)

" رسلا إلى الملائكة أو إلى الأنبياء عليهم السلام لا للدعوى العامة وهو المدعي كما علمت فالرسول إما بالمعنى المصطلح أو بالمعنى اللغوي وقال الجبائي : إن الملائكة عليهم السلام لم يبعثوا إلى الأنبياء عليهم السلام إلا ممثلين بصور الرجال ورد بما روى أن نبينا صلى الله تعالى عليه وسلم رأى جبريل عليه السلام على صورته التي هو عليها مرتين وهو وارد على الحصر المقتضي للعموم فلا يرد عليه أنه لا دلالة فيما روى على رؤية من قبل نبينا عليه الصلاة والصلام لجبريل عليه السلام على صورته مع أنه إذا ثبت ذلك للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يثبت أنه من خصوصياته عليه الصلاة و السلام فلا مانع من ثبوته لغيره قاله الشهاب وذكر أنه ثقل الإمام عن القاضي أن مراد الجبائي أنهم لم يبعثوا إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بحضرة أممهم إلا وهم على صور الرجال كما روي أن جبريل عليه السلام حضر عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بمحضر من أصحابه في صورة دحية الكلبي وفي صورة سراقة وفي صورة أعرابي لم يعرفوه واستدل بها أيضا على وجوب المراجعة للعلماء فيما لا يعلم

وفي الإكليل للجلال السيوطي أنه استدل بها على جواز تقليد العامي في الفروع وأنظر التقييد بالفروع فإن الظاهر العموم لا سيما إذا قلنا إن المسئلة المأمورين بالمراجعة فيها والسؤال عنها من الأصول ويؤيد ذلك ما نقل عن الجلال المحلي أنه يلزم غير المجتهد عاميا كان أو غيره التقليد للمجتهد لقوله تعالى : فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون والصحيح أنه لا فرق بين المسائل الإعتقادية وغيرها وبين أن يكون المجتهد حيا أو ميتا أه

وصحح هو وغيره امتناع التقليد على المجتهد مطلقا سواء كان له قاطع أو لا وسواء كان مجتهدا بالفعل أو له أهلية الإجتهاد ومقتضى كلامهم أنه لا فرق بين تقليد أحد أئمة المذاهب الأربع وتقليد غيره من المجتهدين نعم ذكر العلامة ابن حجر وغيره أنه يشترط في تقليد الغير أن يكون مذهبه مدونا محفوظ الشروط والمعتبرات فقول السبكي : إن مخالف الأربعة كمخالف الإجماع محمول على مالم يحفظ ولم تعرف شروطه وسائر معتبراته من المذاهب التي انقطع حملتها وفقدت كتبها كمذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وغيرهم ثم إن تقليد الغير بشرطه إنما يجوز في العمل وأما للإفتاء والقضاء فيتعين أحد المذاهب الأربع واستشكل الفرق العلامة ابن قاسم العبادي وأجيب بأنه يحتمل أن يكون الفرق أنه يحتاط فيهما لتعديهما ما لا يحتاط في العمل فيتركان لأدنى محذور ولو محتملا ونظير ذلك ما ذكره بعض الشافعية في القولين المتكافئين أنه لا يفتي ولا يقضي بكل منهما لاحتمال كونه مرجوحا ويجوز العمل به وذكر

---

(١) روح المعاني، ١١٦/١٤

الإمام أن من الناس من جوز التقليد للمجتهد لهذه الآية فقال : لما لم يكن أحد المجتهدين عالما وجب عليه الرجوع إلى المجتهد العالم لقوله تعالى : فاسألوا الآية فإن لم يجب فلا أقل من الجواز وأيد ذلك بأن بعض المجتهدين نقلوا مذاهب بعض الصحابة وأقروا الحكم عليها والصحيح ما سمعت أولا وما ذكر ليس بتقليد بل هو من باب موافقة الإجتهاد الإجتهاد واحتج بها أيضا نفاة القياس فقالوا : المكلف إذا نزلت به واقعة فإن كان عالما يحكمها لم يجز له القياس وإلا وجب عليه سؤال من كان عالما بها بظاهر الآية ولو كان القياس حجة لما وجب عليه السؤال لأجل أنه يمكنه استنباط ذلك الحكم بالقياس فثبت أن تجويز العمل بالقياس يوجب ترك العمل بظاهر الآية فوجب أن لا يجوز وأجيب بأنه ثبت جواز العمل بالقياس بإجماع الصحابة والإجماع أقوى من هذا الدليل

وقال بعضهم : إذا كان المكلف ممن يقدر على القياس كان ممن يعلم فلا يجب عليه السؤال فتأمل بالبينات والزبر أي بالمعجزات والكتب والأولى للدلالة على الصدق والثانية لبيان الشرائع والتكاليف ." (١)

" المعنى خلقنا ابدانكم من النطفة المتولدة من الاغذية المتولدة من الأرض بوسائط

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عطاء الخرساني قال : أن الملك ينطلق فياخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه الشخص فيذره على النطفة فيخلق من التراب والنطفة وفيها نعيدكم بالاماتة وتفريق الأجزاء وهذا وكذا ما بعد مبنى على الغالب بناء على أن من الناس من لا يبلى جسده كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام وايثار كلمة فى على كلمة إلى للدلالة على الأستقرار المديد فيها ومنها نخرجكم تارة أخرى

٥٥

- بتاليف اجزائكم المتفتته المختلطة بالتراب على الهيئة السابقة ورد الأرواح من مقرها اليها وكون هذا الأخراج تاره أخرى باعتبار أن خلقهم من الأرض أخراج لهم منها وان لم يكن على نهج التاره الثانية أو التاره فى الأصل اسم للتور الواحد وهو الجريان ثم اطلق على كل فعله واحد من الفعلات المتجددة كما مر فى المرة وما الطف ذكر قوله تعالى : منها خلقناكم الخ بعد ذكر النبات وأخراجه من الأرض فقد تضمن كل أخراج اجسام لطيفة من الترباء الكثيفة وخروج الاموات اشبه شئ بخروج النبات هذا

ومن باب الأشارة في الآيات طه يا طاهرا بنا هاديا الينا أو يا طائف كعبة الاحدية في حرم الهوية وهادى الانفس الزكية إلى المقامات العلية وقيل : أن ط لكونها بحساب الجمل تسعة وإذا جمع ما انطوت عليه من الاعداد اعنى الواحد والاثنين والثلاثه وهكذا إلى التسعة بلغ خمسة واربعين إشارة إلى ادم لأن اعداد حروفه كذلك و ه لكونها بحساب الجمل خمسة وما انطوت عليه من الاعداد يبلغ خمسة عشر إشارة إلى حوا بلا همز والأشارة بمجموع الأمرين إلى أنه صلى الله تعالى عليه وسلم أبو الخليقة وامها فكانه قيل : يا من تكونت منه الخليقة وقد اشار إلى ذلك عارف بن الفارض قدس سره بقوله على لسان الحقيقة المحمدية : وانى وان كنت ابن ادم صورة فلى منه معنى شاهد بابوتى وقال في ذلك الشيخ عبد الغنى النابلسى عليه الرحمة : طه النبى تكونت من نوره كل البرية ثم لو ترك القطا وقيل : طه

---

(١) روح المعاني، ١٤٨/١٤

الحساب اربعة عشر وهو إشارة إلى مرتبة البدرية فكانه قيل : يا بدر سماء عالم الامكان ما انزلنا عليك القرإن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى أي إلا لتذكر من يخشى ايام الوصال التى كانت قبل تعلق الأرواح بالابدان وتخبرهم بانها يحصل نحوها لهم لتطيب انفسهم وترتاح ارواحهم أو لتذكرهم ايايها ليشتاقوا اليها وتجرى دموعهم عليها ويجتهدوا في تحصيل ما يكون سببا لعودها ولله تعالى در من قال : سقى الله اياما لنا ولياليا مضت فجرت من ذكرهن كموع فياهل لها يوما من الدهر اوبة وهل لى إلى ارض الحبيب رجوع ." (١)

" فقال : نعم كانت السماوات رتقا لا تمطر وكانت الأرض رتقا لا تنبت فلما خلق الله تعالى للأرض أهلا فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : الآن علمت أن ابن عباس قد أوتى في القرآن علما صدق ابن عباس هكذا كانت وروي عنه ما هو بمعنى ذلك جماعة منهم الحاكم وصححه وإليه ذهب أكثر المفسرين

وقال ابن عطية : وهو قول حسن يجمع العبرة والحجة وتعديد النعمة ويناسب ما يذكر بعد والرتق والفتق مجازيان عليه كما هما كذلك على الوجه الأول والمراد بالسماوات جهة العلو أو سماء الدنيا والجميع باعتبار الآفاق أو من باب ثوب أخلاق وقيل هو على ظاهره ولكن من السماوات مدخل في المطر والمراد بالرؤية العلم أيضا وعلم الكفرة بذلك ظاهر

وجوز أن تكون الرؤية بصرية وجعلها علمية أولى ومن البعيد ما نقل عن بعض علماء الإسلام أن الرتق انطباق منطقتي الحركتين الأولى والثانية الموجب لبطلان العمارات وفصول السنة والفتق افتراقهما المقتضي لامكان العمارة وتميز الفصول بل لا يكاد يصح على الأصول الإسلامية التي أصلها السلف الصالح كما لا يخفى

وقوله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حي عطف على أن السماوات الخ ولا حاجة إلى تكلف عطفه على فتقنا والجعل بمعنى الخلق المتعدي لمفعول واحد ومن ابتدائية والماء هو المعروف أي خلقنا من الماء كل حيوان أي متصف بالحياة الحقيقية ونقل ذلك عن الكلبي وجماعة ويؤيده قوله تعالى والله خلق كل دابة من ماء ووجه كون الماء مبدأ ومادة للحيوان وتخصيصه بذلك أنه أعظم مواده وفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه ولا بد من تخصيص العام لأن الملائكة عليهم السلام وكذا الجن أحياء وليسوا مخلوقين من الماء ولا محتاجين إليه على الصحيح

وقال قتادة : المعنى خلقنا كل نام من الماء فيدخل النبات ويراد بالحياة النمو أو نحوه ولعل من زعم أن النبات حسا وشعورا أبقى الحياة على ظاهرها وقال قطرب وجماعة : المراد بالماء النطفة ولا بد من التخصيص بما سوى الملائكة عليهم السلام والجن أيضا بل بما سوى ذلك والحيوانات المخلوقة من غير نطفة كأكثر الحشرات الأرضية ويجوز أن يكون الجعل بمعنى التصيير المتعدي لمفعولين وهما هنا كل ومن الماء وتقديم المفعول الثاني للإهتمام به ومن اتصالية كما قيل في قوله صلى الله عليه و سلم ما أنا دد ولا الدد مني والمعنى صيرنا كل شيء حي متصلا بالماء أي مخالطا له غير منفك عنه والمراد أنه لا يحيا دونه وجوز أبو البقاء على الوجه الأول أن يكون الجار والمجرور في

---

(١) روح المعاني، ٢٠٨/١٦

موضع الحال من كل وجعل الطيبي من هذا بيانية تجريدية فيكون قد جرد من الماء الحي مبالغة كأنه هو وقرأ حميد حيا بالنصب على أنه صفة كل أو مفعول ثان لجعل والظرف متعلق بما عنده لا بحيا والشيء مخصوص بالحيوان لأنه الموصوف بالحياة وجوز تعميمه للنبات

وأنت تعلم **أن من الناس من** يقول : إن كل شيء من العلويات والسفليات حي حياة لائقة به وهم الذين ذهبوا إلى أن تسبيح الأشياء المفاد بقوله تعالى وإن من شيء إلا يسبح بحمده قال لا حالي وإذا قيل بذلك فلا بد من تخصيص الشيء أيضا إذ لم يجعل من الماء كل شيء حيا ولم أقف على مخالف في ذلك منا نعم نقل عن ثالس الملطي وهو أول من تفلسف بملطية أن أصل الموجودات الماء حيث قال : الماء قابل كل صورة ومنه أبدعت الجواهر كلها من السماء والأرض انتهى ." (١)

" صلى الله تعالى عليه وسلم ويزيد علما بصحة ما جاء به ومما يدل على حل الرجوع اليها في الجملة قوله تعالى : قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين وقد كان المومنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الاحبار ينقلون منها ما ينقلون من الاخبار ولم ينكر ذلك ولا سماعه أحد من اساطين الاسلام ولا فرق بين سماع ما ينقلونه منهم وبين قراءته فيها وأخذه منها وقد رجع اليها غير واحد من العلماء في الزام اليهود والاحتجاج عليهم ببعض عباراتها حقية بعثته صلى الله تعالى عليه وسلم والذي أميل اليه كون المراد بالناس بني إسرائيل فانه الذي يقتضيه المقام

وأما مطالعة التوراة فالبحث فيها طويل وفي تحفة المحتاج للمولى العلامة ابن حجر عليه الرحمة يحرم على غير عالم متبحر مطالعة نحو توراة علم تبدلها أو شك فيه وهو أقرب إلى التحقيق ومن سبر التوراة التي بأيدي اليهود اليوم رأى أكثرها مبدلا لا توافق بينه وبين ما في القرآن العظيم أصلا وهو المعول عليه وهدى أي إلى الشرائع التي هي الطرق الموصلة إلى الله عز و جل ورحمة حيث ينال من عمل به رحمة الله تعالى بمقتضى وعده سبحانه فعموم رحمته بهذا المعنى لا ينافي **أن من الناس من** هو كافر بها وهو غير مرحوم وانتصاب المتعاطفات على الحالية من الكتاب على أنه نفس البصائر والهدى والرحمة أو على حذف المضاف أي ذا بصائر الخ وجوز أبو البقاء انتصابها على العلة أي آتيناه الكتاب لبصائر وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون

٣٤

- أي كي يتذكروا بناء على أن لعل للتعليل فقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك قال لعل في القرآن بمعنى كي غير آية في الشعراء لعلكم تخلدون وحكى الواقدي عن البغوي أنه قال جميع ما في القرآن من لعل للتعليل الا لعلكم تخلدون فانها فيه للتشبيه والمشهور أنها للترجي ولما كان محالا عليه عز و جل جعل بعضهم الكلام من باب التمثيل والمراد آتيناه ذلك ليكونواعلى حالة قابلة للتذكر كحال من يرجى منه الخير وبعض آخر صرف الترجي إلى المخاطبين فهو منهم لا منه تعالى وجعل الزمخشري في ذلك استعارة تبعية حيث شبه الارادة بالترجي لكون كل منهما طلب الوقوع ورد بأن فيه لزوم تخلف مراد الله تعالى عن ارادته لعدم تذكر الكل إلا أن يكون من قبيل اسناد ما

---

(١) روح المعاني، ٣٦/١٧

للبعض إلى الكل وأنت تعلم ان الارادة عند المعتزلة قسمان : تفويضية وهي قد يتخلف المراد عنها وقسرية وهي لا يتخلف المراد عنها أصلا فمتى أريد القسم الاول منها هنا زال الاشكال إلا أن التقسيم المذكور خلاف المذهب الحق وما كنت بجانب الغربي شروع في بيان أن انزال القرآن الكريم أيضا واقع زمان مساس الحاجة اليه واقتضاء الحكمة له البتة متضمنا تحقيق كونه وحيا صادقا من عند الله تعالى بيان أن الوقوف على ما فصل من الاحوال لا يتسنى إلا بالمشاهدة أو التعلم ممن شاهدها وحيث انتفى كلاهما تبين أنه بوحي من علام الغيوب لا محالة كذا قيل : ولا يخفى أن تعين كونه بوحي لا يتم بنفي كونه بالاستفاضة وكونه بالتعلم من بعض أهل الكتاب المعاصرين له صلى الله تعالى عليه وسلم كما قال المشركون : إنما يعلمه بشر ولعله إنما لم يتعرض لنفي ذلك وتعرض لنفي ما هو أظهر انتفاء منه للاشارة إلى ظهور انتفاء ذلك والمبالغة في دعوى ذلك حيث آذن بان المحتاج إلى الاخبار بانتفائه ذأنك الامران دونه على أنه عز و جل قد نفى في ." (١)

" ما علمه الله تعالى هو القرآن وإذا لم يكن المعلم شعرا لم يكن القرآن شعرا البتة وفيه أنه عليه الصلاة و السلام ليس بشاعر إدماجا وليس هناك كناية تلويحية كما قيل وهذا رد لما كانوا يقولونه من أن القرآن شعر والنبي صلى الله عليه و سلم شاعر وغرضهم من ذلك أن ما جاء به عليه الصلاة و السلام من القرآن افتراء وتخيل وحاشاه من ذلك وما ينبغي له اعتراض لتقرير ما أدمج أي لا يليق ولا يصلح له صلى الله عليه و سلم الشعر لأنه يدعو إلى تغيير المعنى لمراعاة اللفظ والوزن ولأن أحسنه المبالغة والمجازفة والإغراق في الوصف وأكثره تحسين ما ليس بحسن وتقبيح ما ليس بقبيح وكل ذلك يستدعي الكذب أو يحاكيه الكذب وجل جناب الشارع عن ذلك كذا قيل

وقال ابن الحاجب : أي لا يستقيم عقلا أن يقول صلى الله عليه و سلم الشعر لأنه لو كان ممن يقوله لتطرقت التهمة عند كثير من الناس في أن ما جاء به من قبل نفسه وأنه من تلك القوة الشعرية ولذا عقب هذا بقوله تعالى ويحق القول على الكافرين لأنه إذا انتفت الريبة لم يبق إلا المعاندة فيحق القول عليهم وتعقب بأن الإيجاز يرفع التهمة وإلا فكونه عليه الصلاة و السلام في المرتبة العليا من الفصاحة والبلاغة في النثر ليس بأضعف من قول الشعر في كونه مظنة تطرق التهمة بل ربما يتخيل أنه أعظم من قول الشعر في ذلك فلو كانت علة منعه عليه الصلاة و السلام من الشعر ما ذكر لزم أن يمنع من الكلام الفصيح البليغ سدا لباب الريبة ودحضا للشبهة وإعظاما للحجة فحيث لم يكن ذلك اكتفاء بالإعجاز وأن التهمة والريب معه مما لا ينبغي أن يصدر من عاقل ولذا الريب مع أنه وقع أن العلة في أنه عليه الصلاة و السلام لا ينبغي له الشعر شيء آخر واختار هذا ابن عطية وجعل العلة ما في قول الشعر من التخييل والتزويق للقول وهو قريب مما سمعت أولا هو الذي ينبغي أن يعول عليه وفي الآية عليه دلالة على غضاضة الشعر وهي ظاهرة في أنه عليه الصلاة و السلام لم يعط طبيعة شعرية اعتناء بشأنه ورفعا لقدره وتبعيدا له صلى الله عليه و سلم من أن يكون فيه مبدأ لما يخل بمنصبه في الجملة

---

(١) روح المعاني، ٨٥/٢٠

وإنما لم يعط صلى الله عليه و سلم القدرة على الشعر مع حفظه عن إنشائه لأن ذلك سلب القدرة عليه في الإبعاد عما يخل بمنصبه الجليل صلى الله عليه و سلم ونظير ما ذكرنا العصمة والحفظ ويفهم من كلام المواهب اللدنية أن من الناس من ذهب إلى أنه عليه الصلاة و السلام كان له قدرة على الشعر إلا أنه يحرم عليه أن يشعر وليس بذاك نعم القول بحرمة إنشاء الشعر مقبول ومعناه على القول السابق على ما قيل حرمة التوصل إليه وقد يقال : لا حاجة إلى التأويل وحرمة الشيء تجامع عدم القدرة عليه وهل عدم الشعر خاص به عليه الصلاة و السلام أو عام لنوع الأنبياء قال بعضهم هو عام لهذه الآية إذ لا يظهر للخصوص نكتة وقيل بحوز أن يكون خاصا والنكتة زيادة التكريم لما أن مقامه صلى الله عليه و سلم فوق مقام الأنبياء عليهم السلام ويكون الثابت لهم الحفظ عن الإنشاء مع ثبوت القدرة عليه وإن صح خبر إنشاء آدم عليه السلام يوم قتل ولده : تغيرت البلاد ومن عليها ووجه الأرض مغبر قبيح تغيرت كل ذي طعم ولون وقل بشاشة الوجه الصبيح اتضح أمر الخصوص وعلم أن لا حفظ من الإنشاء أيضا ولعل الحفظ حينئذ مما فيه ما يشين ويخل بمنصب النبوة مطلقا والنكتة في الخصوص ظاهرة على ما نقل عن ابن الحاجب لأن أعظم معجزاته عليه الصلاة ." (١)

" عبد الوهاب الشعراني في تفسير الآية المذكورة اعلم أن المانع من سماع كلام الحق إنما هو البشرية فإذا ارتفع العبد عنها كلمه الله تعالى من حيث كلم سبحانه الأرواح المجردة عن المواد والبشر ما سمى بشرا إلا لمباشرته الأمور التي تعوقه عن اللحوق بدرجة الروح فلما لم يلحق كلمه الله تعالىفي الأشياء وتجلى سبحانه له فيها بخلاف من لحقك الأنبياء هل يهم السلام فلا يتجلىالحق سبحانه لغيرهم إلا في حجاب الصور ولو لا هدايته تعالى للعبد ما عرف أنه سبحانه ربه واعلم أن الحقيبة تأبى أن تكلم الله تعالى غير نفسه أو يسمع غير نفسه فلا بد إذا خاطب عبدا على قصد إسماعه أن يكون جميع قواه لأنه محال أن يطيق الحادث سماع كلام القديم ولم يكن الحق سبحانه قواه عند النجوى ولذلك خر موسى عليه السلام صعقا إذ لم يكن له استعداد يقبل به التجلي اللائقب مقامه وثبت نبينا ولما لم يكن للجبل درجة المحبة التي يكون بها الحق سمع عبده وبصره جميع قواه لم يقدر على سماع الخطاب فدك واعلم أن حديث الحق سبحانه للخلق لا يزال أبدا غير أن من الناس من يفهم أنه حديث كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ومن ورثه من الأولياء ومنهم من لا يعرف ذلك ويقول : ظهر لي كذا وكذا ولا يعرف أن ذلك من حديث الحق سبحانه معه وكان شيخنا يقول : كان عمر من أهلال سماع المطلق الذي يحدثهم الله تعالى في كل شيء ولكن له ألقاب وهو أنه إن أجابوه به تعالى فهو حديث وإن أجابوه بهم فهو محادثة وإن سمعوا حديثه سبحانه فليس بحديث في حقهم وإنما هو خطاب أو كلام وقد ورد في المجتهدين أنهم أهل المسامرة فقد علمت أن الوحي ما يلقيه الله تعالى في قلوب خواص عباده على جهة الحديث فيحصل لهم من ذلك علم بأمرما فإن لم يكن كذلك فليس بوحي ولا خطاب فإن بعض الناس يجدون في قلوبهم علما بأمر ما مثل العلوم الضرورية عند الناسف هو علم صحيح لكن ليس صادرا عن

---

(١) روح المعاني، ٤٧/٢٣

خطاب وكلامنا إنما هو الخطاب الإلهي المسمى وحيا فإن الله تعالى جعل هذا الصنف من الوحي كي ما يستفيد به العلم من جاء له

واعلم أنه لا ينزل على قلوب الأولياء و الأله ام إلا دقائق ممتدة من الأرواح الملكية لأنفس الملائكة لأن الملك لا ينزل بوحي على غير نبي أصلا ولا يأمر بأمر إلهي قطعا لأن الشريعة قد استقرت فلم يبق إلا وحي المبشر اتوهو الوحي الأعم ويكون من الحق إلىالعبد من غير واسطة ويكون أيضا بواسطة والنبوة من شأنها الواسطة فلا بد من واسطة الملك فيها لكن الملك لا يكون حال القائه ظاهرا بخلاف الأنبياء عليهم السلام فإنهم يرون الملك حال الكلام والوليلا يشهد الملك إلا في غير حال الإلقاء فإن سمع كلامه لم يره وإن رآه لا يكلمه فالعارفون لا ينالون ما فاتهم من النبوة مع بقاء اتلم بشرات عليهم إلا أن الناس يتفاضلون فمنهم من لا يبرح في بشارة الواسطة ومنهم من يرتفع عنها كالأفراد فإن لهم المبشرات بارتفاع الوسائط وما لهم النبوات ولهذا ينكر عليهم الأحكام لأنهم ضاهوا الأنبياء من حيث كونهم يعلمون بما يرونه تعريفات الحق لهم كأنه شريعة مستقلة في الظاهر وليس ذلك بشريعة إنما هو بيان لها فالمنقطع إنما هو وحي التشريع لا غير أما التعريف لأمور مجملة في السنة فهو باقل هذه الأمة ليكونوا على بصيرة فيما يدعون الناس إليه لأنه خبر إلهي وأخبار من الله تعالى للعبد على يد ملك مغيب على هذاالملهم ولايكون الإلهام إلا في الخير و ألهمها فجوزها على معنى إلهامها إياه لتجنبه كما أن إلهامه اتقواه التع وأكمل الإلهام أن يلهم اتباع الشرع والنظر في الكتب الإلهية ويقف عند حدودها وأوامرها حتى يزول صدى طبيعته وتنتقش فيها صور العالم وأما قوله تعالى : أومن وراء ." (١)

" وقيل : هوللندب وأخرج أبو عبيد وابن المنذر والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن يسر الحراني قال : رأيت عبد الله بن بسر المازني صاحب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم إذا صلى الجمعة خرج فدار في السوق ساعة ثم رجع إلى المسجد فصلى ما شاء الله تعالى أن يصلي فقيل له : لأي شيء هذا قال : إني رأيت سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم هكذا يصنع وتلا هذه الآية فإذا قضيت الصلاة الخ

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : إذا انصرفت يوم الجمعة فاخرج إلى باب المسجد فساوم بالشيء وإن لم تشتره ونقل عنه القول بالندبية وهو الأقرب والأوفق بقوله تعالى : واذكروا الله كثيرا أي ذكرا كثيرا ولا تخصوا ذكره عز و جل بالصلاة لعلكم فلحون

١٠

– كي تفوزوا بخير الدارين ومما ذكرنا يعلم ضعف الأستدلال بما هنا على أن الأمر الوارد بعد الحظرللأباحة واستدل بالآية على تقديم الخطبة على الصلاة وكذا على عدم ندب صلاة سنتها البعدية في المسجد ولا دلالة فيها على نفي سنة بعدية لها وظاهر كلام بعض الأجلة **أن من الناس من** نفى أن للجمعة سنة مطلقا فيحتمل على بعد أن يكون استشعر نفي السنة البعدية من ألأمر بالأنتشار وابتغاء الفضل وأمانفي القبلية فقد استند فيه إلى ما روي في الصحيح وقد تقدم من أن النداء كان على عهده عليه الصلاة الصلاة والسلام إذا جلس على المنبر إذ من المعلوم أنه عليه الصلاة و

---

(١) روح المعاني، ٦٢/٢٥

السلام غذ كمل الأذان أخذ في الخطبة وإذا أتمها أخذ في الصلاة فمت كانوا يصلون السنة وأجيب عن هذا بأن خروجه عليه الصلاة و السلام كان بعد الزوال بالضرورة فيجوز كونه بعد ما كان يصلي الأربع ويجب الحكم بوقوع الحكم بهذا المجوز لعموم ما صح من أنه صلى الله تعالى عليه وسلم كان يصلي إذا زالت الشمس أربعا وكذا يجب في حقهم لأنهم أيضا يعلمون الزوال كالمؤذن بل ربما يعلمونه بدخول الوقت ليؤذن واستدل بقوله تعالى : إذا نودي الخ من قال : إنما بجي إتيان الجمعة من مكان يسمع فيه النداء والمسألة خلافية فقال ابن عمر وأبو هريرة ويونس والزهري : يجب إتيانها من ستةأميال وقيل : من خمسة وقال ربيعة : من أربعة وروي ذلك عن الزهري وابن المنكدر

وقال مالك والليث : من ثلاثة وفي بحر أبي حيان وقال أبو حنيفة وأصحابه : يجب الإتيان على من في المصر سمع النداء أو لم يسمع لا على من هو خارج المصر وإن سمع النداء وعن ابن عمر وابن المسيب والزهري وأحمد وإسحاق على من سمع النداء وعن ربيعة على من إذا سمع وخرج من بيته ما شيا أدرك الصلاة وكذا استدل بذلك من قالبوجوب الإتيان إليها سواء كان إذن عام أم لا وسواء أقامها سلطان أو نائبه أو غيرهما أم لا لأنه تعالى إنما رتب وجوب السعي على النداء مطلقا كذا قيل وتحقيق الكلام على ذلك كله في كتب الفروع المطولة

وإذا رأواتجارة أو لهوا انفضوا إليها أخرج الإمام أحمد والبخاري ومسلم والرمذي وجماعة عن جابر بن عبد الله قال : بينما النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائماإذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى وإذا رأوا تجارة إلى آخر السورة وفي رواية ابن مردويه عن ابن عباس أنه بقى في المسجد اثنا عشر رجلا وسبع نسوة فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لو خرجوا كلهم لاضطرم المسجد عليهم نارا وفي رواية عن قتادة والذي نفس محمد بيده لو اتبع آخركم ." (١)

"حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.

---

(١) روح المعاني، ١٠٤/٢٨

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت
٥٢@@@." (١)

"حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت
٥٢@@@." (٢)

"وأصح وأقوى والله أعلم .

وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨)

وتركنا عليه في الآخرين

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٥١/١٢

(٢) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٤١٤/١٢

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه " وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر .

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي

الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق عكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .

" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به " قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " ويقول الله تعالى " فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم

يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن

إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .

وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل .

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة .

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من

بلاد كنعان قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .

سلام على إبراهيم (١٠٩)

سلام على إبراهيم

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه" وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر.

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل

عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .." (١)

"" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٤١٥/١٢

" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به " قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " ويقول الله تعالى " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق

لأن إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .

وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند

رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .

كذلك نجزي المحسنين (١١٠)

كذلك نجزي المحسنين

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه " وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر .

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح

عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم.

" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق عكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو

ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .." (١)

"" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به" قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين" ويقول الله تعالى " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن

إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة، ٤١٦/١٢

وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .

وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .

إنه من عبادنا المؤمنين (١١١)

إنه من عبادنا المؤمنين

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه " وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر.

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدي به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن

أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق عكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .

" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به" قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين" ويقول الله تعالى " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن

إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .." (١)

"وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل .

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة .

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٤١٧/١٢

أعلم .

وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (١١٢)

وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين

قوله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر قوله تعالى " نبيا " حال مقدرة أي سيصير منه نبي صالح .

وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما الذبيح إسحاق قال وقوله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال بشر بنبوته – قال – وقوله تعالى " ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا " قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته وحدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود يحدث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال إنما بشر به نبيا من الصالحين قال إنما بشر به نبيا حين فداه الله عز وجل من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان الثوري عن داود عن عكرمة عن ابن عباس " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال بشر به حين ولد وحين نبئ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال بعدما كان من أمره لما جاد الله تعالى بنفسه وقال الله عز وجل " وباركنا عليه وعلى إسحاق "

.

وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين (١١٣)

وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين

كقوله تعالى " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم "

٥٣@@@." (١)

"حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٤١٨/١٢

قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.
وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.
وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت
٥٢@@@." (١)
"وأصح وأقوى والله أعلم .
وتركنا عليه في الآخرين (١٠٨)
وتركنا عليه في الآخرين

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه " وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .
وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر .
وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة، ١٢/٧٨٣

عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق عكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو

ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .
قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .
" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به " قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " ويقول الله تعالى " فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن

إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن

علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .
وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل .
وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة .
وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .
سلام على إبراهيم (١٠٩)
سلام على إبراهيم

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه" وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .
وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط

عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر.

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .." (١)

"" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ١٢/٧٨٤

أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق وعكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .

" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به " قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " ويقول الله تعالى " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق

لأن إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .

وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .

كذلك نجزي المحسنين (١١٠)
كذلك نجزي المحسنين

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه " وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر .

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم.

" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد

بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق عكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .." (١)

"" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به" قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ١٢/٧٨٥

هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين" ويقول الله تعالى " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن

إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .

وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل.

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد

حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة.

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .

إنه من عبادنا المؤمنين (١١١)

إنه من عبادنا المؤمنين

وقوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال سفيان الثوري عن جابر الجعفي عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه " وفديناه بذبح عظيم " قال بكبش أبيض أعين أقرن قد ربط بسمرة قال أبو الطفيل وجدوه مربوطا بسمرة في ثبير وقال الثوري أيضا عن عبد الله بن عثمان بن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال كبش قد رعى في الجنة أربعين خريفا .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا يوسف بن يعقوب الصفار حدثنا داود العطار عن ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال الصخرة التي بمنى بأصل ثبير هي الصخرة التي ذبح عليها إبراهيم فداء إسحاق ابنه هبط عليه من ثبير كبش أعين أقرن له ثغاء فذبحه وهو الكبش الذي قربه ابن آدم فتقبل منه فكان مخزونا حتى فدي به إسحاق وروي أيضا عن سعيد بن جبير أنه قال كان الكبش يرتع في الجنة حتى شقق عنه ثبير وكان عليه عهن أحمر وعن الحسن البصري أنه قال كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام جرير وقال ابن جريج قال عبيد بن عمير ذبحه بالمقام وقال مجاهد ذبحه بمنى عند المنحر.

وقال هشيم عن سيار عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أفتى الذي جعل عليه نذرا أن ينحر نفسه فأمره بمائة من الإبل ثم قال بعد ذلك لو كنت أفتيه بكبش لأجزأه أن يذبح كبشا فإن الله تعالى قال في كتابه " وفديناه بذبح عظيم " والصحيح الذي عليه الأكثرون أنه يفدي بكبش وقال الثوري عن رجل عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله تعالى " وفديناه بذبح عظيم " قال وعل وقال محمد بن إسحاق عن عمرو بن عبيد عن الحسن أنه كان يقول ما فدي إسماعيل عليه السلام إلا بتيس من الأروى أهبط عليه من ثبير .

وقد قال الإمام أحمد حدثنا سفيان حدثني منصور عن خاله مسافع عن صفية بنت شيبة قالت أخبرتني امرأة من بني سليم ولدت عامة أهل دارنا أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه وقالت مرة إنها سألت عثمان لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم ؟ قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني كنت رأيت

قرني الكبش حين دخلت البيت فنسيت أن آمرك أن تخمرهما فخمرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي " قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشا توارثوا قرني الكبش الذي فدي به إبراهيم خلفا عن سلف وجيلا بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم .

" فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو " ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام " قال حمزة الزيات عن أبي ميسرة رحمه الله قال : قال يوسف عليه عليه الصلاة والسلام للملك في وجهه ترغب أن تأكل معي وأنا والله يوسف بن يعقوب نبي الله ابن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله وقال الثوري عن أبي سنان عن ابن أبي الهذيل أن يوسف عليه السلام قال للملك كذلك أيضا وقال سفيان الثوري عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه قال : قال موسى عليه الصلاة والسلام يا رب يقولون بإله إبراهيم وإسحاق ويعقوب فبم قالوا ذلك ؟ قال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيء قط إلا اختارني عليه وإن إسحاق جاد لي بالذبح وهو بغير ذلك أجود وإن يعقوب كلما زدته بلاء زادني حسن ظن وقال شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص قال افتخر رجل عند ابن مسعود رضي الله عنه فقال أنا فلان بن فلان ابن الأشياخ الكرام فقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ذاك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله .

وهذا صحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه وكذا روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق وعن أبيه العباس وعلي بن أبي طالب مثل ذلك وكذا قال عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعبيد بن عمير وأبو ميسرة وزيد بن أسلم وعبد الله بن شقيق والزهري والقاسم بن أبي برزة ومكحول وعثمان بن أبي حاضر والسدي والحسن وقتادة وأبو الهذيل وابن سابط وهذا اختيار ابن جرير وتقدم روايته عن كعب الأحبار أنه إسحاق وهكذا روى ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري عن أبي سفيان عن العلاء بن جارية عن أبي هريرة رضي الله عنه عن كعب الأحبار أنه قال هو إسحاق وهذه الأقوال والله أعلم كلها مأخوذة عن كعب الأحبار فإنه لما أسلم في الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضي الله عنه عن كتبه قديما فربما استمع له عمر رضي الله عنه فترخص الناس في استماع ما عنده ونقلوا ما عنده عنه غثها وسمينها وليس لهذه الأمة والله أعلم حاجة إلى حرف واحد مما عنده وقد حكى البغوي القول بأنه إسحاق عن عمر وعلي وابن مسعود والعباس رضي الله عنهم ومن التابعين عن كعب الأحبار وسعيد بن جبير وقتادة ومسروق عكرمة وعطاء ومقاتل والزهري والسدي قال وهو إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله عنهما وقد ورد في ذلك حديث لو ثبت لقلنا به على الرأس والعين ولكن لم يصح سنده .

قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا زيد بن حباب عن الحسن بن دينار عن علي بن زيد بن جدعان عن الحسن عن الأحنف بن قيس عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ذكره قال " هو إسحاق " ففي إسناده ضعيفان وهما الحسن بن دينار البصري متروك وعلي بن زيد بن جدعان منكر الحديث وقد رواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد بن جدعان به مرفوعا ثم قال قد رواه مبارك بن فضالة عن الحسن عن الأحنف عن العباس رضي الله عنه وهذا أشبه وأصح والله أعلم .

" ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به" قد تقدمت الرواية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه إسحاق عليه الصلاة والسلام والله تعالى أعلم وقال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال ابن جرير حدثني يونس أخبرنا ابن وهب أخبرني عمرو بن قيس عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين" ويقول الله تعالى " فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب " يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن

إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل .." (١)

"وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا

---

(١) تفسير ابن كثير – ط قرطبة، ٧٨٦/١٢

عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل .

وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره كذا كتبته من نسخة مغلوطة .

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى " فبشرناه بغلام حليم " فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى " وبشروه بغلام عليم " وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد كنعان قال وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم .

وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين (١١٢)

وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين

قوله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر قوله تعالى " نبيا " حال مقدرة أي سيصير منه نبي صالح .

وقال ابن جرير حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما الذبيح إسحاق قال وقوله تعالى " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال بشر بنبوته - قال - وقوله تعالى " ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا " قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته وحدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود يحدث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال إنما بشر به نبيا من الصالحين قال إنما بشر به نبيا حين فداه الله عز وجل من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده .

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان الثوري عن داود عن عكرمة عن ابن عباس " وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين " قال بشر به حين ولد وحين نبئ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى " وبشرناه بإسحاق

نبيا من الصالحين " قال بعدما كان من أمره لما جاد الله تعالى بنفسه وقال الله عز وجل " وباركنا عليه وعلى إسحاق "
.
وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين (١١٣)
وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين

كقوله تعالى " قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم "
٥٣@@@." (١)

"ا "ا تفسير سورةا! لبقرةأ اااأ أأ اا أ اا ا@ والطيب هو الذى تستطيبه النفوس ، وينميها ويغذيها غذاء صالحا ، ولأ يكون
طيبا إلا إذا كان كسبه من حلال ولا يكون من حرام ، ولا يكون حلالا إذا كان من الرشوة أو من السحت أو الربا أو من غلول ، وفي الجملة أن يكون كسبه خبيثا ، ولو كان فى أصله طيبا. روى أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سمع قوله تعالى : (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا@ فقال عليه الصلاة والسلام : " والذى نفسى بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه أربعين يوما ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت أو الربا ، فالنار أولى به " (١).
وبعد الأمر بالحلال نهى عن كل حرام بألأ يطيع الشيطان ، فقال تعا@ى : (ولا
تتبعوا خطوات الشيطان @ وهذا يصل الكلام بالآية السابقة التى بينت **أن من الناس من** اتخذ أندادا بوسوسته هاغرائه. الخطوات جمع خطوة بضم الخاء وهى الأفصح ، ويجوز فيها خطوة بفتحها والخطوة ما بين القدمين عند انتقالهما ، والخطوات ما بينهما متتابعا ، وهذا كناية عن السير فى طريق ، وتتبع السير فيه ، باتباع حركاته ، وسيرها ، وكأنما شبهت حال أتباعه بحال من يتبع سيره خطوة بعد خطوة ، فلو سار به فى ضلال سار معه ، وانهوى به فى هاوية من الفساد ، هان السير وراءه هو سير وراء عدو واضح العداوة ، ولذا قال تعالى معللا النهى بقوله تعالى : @إنه لكم عدو مبين @ ، بمعنى بين العداوة لا يخفيها ولا يطويها ، فمبين بمعنى إن عداوته جلية واضحة ؟ لأنه يبينها ولا يخفيها من يوم أن عارض ادم كما قال تعالى : @ر اهبطوا بعضكم لبعض عدو... @(@ت @ أ الأعراف ، ، وكما قال تعالى : (إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير - ٪@ت @و أفاطر ، وكما قال تعالى : (إنه عدو مضل مبين نخ@لأ@ أ القصص ، ، وكما قال تعالى : (الشيطان يعدكئم الفقر ويأمركم بالفحشاء... صبمحمات @و أ البقرة ، .

---

(١) تفسير ابن كثير - ط قرطبة، ٧٨٧/١٢

(١) رواه بهذا اللفظ الطبراني فى الصغير عن ابن عباس رضى الله عنهما. أراجع مجمع الزوائد (١٠١٨١) ، والترغيب والترهيب (٢٦٦٤) وتخريج أحاديث الإحياء للعراقى ج ٢ ص ٩٠ (الحلبى) ، .." [١]

"ا " اا تفسيرسورةا إلمائدة ١ أ أا اا أ ا@ ثانيهما – أنه قد يقول بعض الجاهلين **إن من الناس من** يضر ومن ينفع

،

ونقول : إنه نفع جزئى ، وضرر جزئى ، ولا يكون إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى ، ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله تعالى عليك ، لم يضروك ، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله تعالى لك لم ينفعوك ، وقد ذيل الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالت كلماته : (والفه هو السميع العليم @و.

أى أنهم يتركون عبادة الله تعالى وحده وهو العالم بكل شيء الذى لا

يغيب عن علمه شيء فى الأرض ولا فى السماء ، وهو العالم علم من يسمع ويرى ، وهو بهذا العلم المحيط الدقيق الذى أحاط بكل الوجود يكون هو وحده الذى يضرهم وينفعهم ، يتركونه ليعبدوا ما لا ينفع ولا يضر ، ولكنه ضلال العقول.

(قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق @و الغلو : تجاوز الحد ، وهو فى

الدين التعصب له ، والتشدد فيه ، وتجاوز الحد فى أداء ما يطلب كالانهماك فى العباده كما كان يفعل بعض المتشددين فى دينهم الذين نهاهم النبى (صلى الله عليه وسلم) ، وقد ورد فى الأثر : " لن يشاد أحد هذا الدين إلا غلبه ، ولكن سددوا وقاربوا " (١) وكما نهى النبى – عليه الصلاة والسلام – قوما عكفوا على العبادة ، وتركوا نساءهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : " ما بال أقوام تركوا النساء وقاموا الليل وصاموا النهار وإفى أقوم وأنام وأصوم وأفطر ولم أنقطع عن النساء " (٢).

وإن هذا النوع من الغلو ، وإن كان غير محمود ولا مستحسن فى الإسلام ،

لا يمكننا أن نعده غير حق فى أصله ، لأن أساسه حق ، وإن غالوا فيه وربما يقول كثيرون إنه غير الحق.

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد : باقي مسند الكثرين باقي المسند السابق (١٣١٢٢). ورواه البخاري بنحوه : النكاح – الترغيب في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم : النكاح – استحباب النكاح لن تاقت إليه نفسه (١ء١٤)..." [٢]

"وإن هذا الفتح والرزق الواسع إلى حين ليذوقوا النعمة ثم الحرمان منها

فجأة ؟ ولذا قال سبحانه :

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون @ه.

إنهم إذ يكونون فى فرح مما أعطاهم الله تعالى أخذهم الله تعالى بالحرمان

---

(١) زهرة التفاسير، ص/٤٩٩

(٢) زهرة التفاسير، ص/٢٣١٥

أو أصابهم بالموت المفاجى أو الخراب الجائح فى وقت لم يتوقعوه ، بل كانوا يتوقعون المزيد من النعم ويحسبون أنها حق مكتسبط لا يمحى (فإذا هم مب@سون @هو ، أى فى غم وكمد وحزن ويأس وحيرة بعد الفرحة.

وهنا تعبيران جليلان جديران بالالتفاف.

أولهما – أنه عبر عن إعطاء الله النعمة بما أوتوا – أى بالبناء للمجهولط ؟

لا " نهم يحسبون أن ذلك بعلمهم وقدرتهبم وحدهم. كما جاء على لسان واحد من أمثالهم وهو قارون (... إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين @ وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك هن الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين @ قال إنما أوتيته على علم عندي أو لبم يعلم أن الله قد أهلك من قبله هن ائقرون هن هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون هو أ القصص ،

.

الثانى – أن الله أضاف الاءخذ إلى ذاته العلية إذ قال : (أخذناهم @و لاءنهم لا ينكرون ذلك وينسبونه إلى ربهم.

(ففطع دابر ائقوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين @ه

الفاء هنا للتفريع على ما قبلها ، و(دابر القوم @ه أى اخر ، . والدابر هو الآخر

وإذا قطع الدابر ، فإن معنى ذلك أن المطع سرى من الأول حتى وصل إلى الدابر ، وإطلاق الدابر بمعنى الآض جاء فى كلام العرب ، ومن ذلك قول بعضهم : " إن من الناس من لا يأتى الصلاة إلا دابرا " أى آخر الوقت والدابر تجىء بمعنى الاءصل. والمؤدى واحد فى النص الكرلي ٣ ، أى قطع الذين ظلموا عن آخرهم ، وذلك بسبب." (١)

"مواقيت الصلاة

قال تعالى: ﴿ فإذا اطمأننتم ﴾ [النساء:١٠٣] أي: ذهب عنكم العدو ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ [النساء:١٠٣] أي: أتموها، أي: إذا كنتم حضورا.

﴿ إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾ [النساء:١٠٣] أي: مؤقتا، محددا بوقت، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم: (أي العمل أفضل؟ قال: الصلاة لوقتها)، وفي رواية: (الصلاة على وقتها)، وقد نبهنا أن من الناس من يروي الحديث أحيانا بالمعنى فيخطئ، فمن الناس من قال: (أحب الأعمال إلى الله الصلاة في أول وقتها) وهذه رواية وردت، ولكن عند التحقيق نجد إسنادها ضعيفا، أما رواية الصحيحين فهي: (الصلاة لوقتها) ، فرواية: (الصلاة في أول وقتها) ضعيفة الإسناد، ثم من ناحية المعنى هناك إشكالات؛ لأنه أحيانا يسلم القول بأن الصلاة في أول وقتها أفضل، وأحيانا لا يسلم.

فصلاة العشاء مثلا ليست أفضل في أول وقتها، بل إذا أخرت العشاء ما لم يشق على المأمومين فتأخيرها أفضل، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (هذا وقتها لولا أن أشق على أمتي) فوقتها يبدأ بسقوط الشفق الأحمر.

(١) زهرة التفاسير، ص/٢٥٠١

وصلاة الظهر يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة -أي: انتظروا حتى يبرد الجو- فإن شدة الحر من فيح جهنم) وفي بعض أوقات السنة في صلاة الفجر قال الرسول عليه الصلاة والسلام: (أسفروا بالصبح، فإنه أعظم للأجر).

أما وقت صلاة الفجر فقد جاء فيه جملة نصوص، تبين أنه يبدأ من رؤية الخيط الأبيض من الخيط الأسود وينتهي بطلوع الشمس، ويستحب في بعض أوقات السنة أن تصلي صلاة الفجر في أول وقتها؛ لحديث أم المؤمنين عائشة : (كان النساء ينصرفن من صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس) أي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بما يقارب الستين إلى المائة آية، ومع ذلك تنصرف النساء متلفعات بمروطهن.

(لا يعرفن من الغلس)، أي: من اختلاط ظلام الليل ببياض النهار، فيدل هذا على أنه عليه الصلاة والسلام كان يبكر بصلاة الفجر.

وورد حديث: (أسفروا بالصبح) ومعناه أي: انتظروا حتى يظهر الصبح ويتأكد من دخوله، ويظهر البياض.

و(أسفروا) من قولهم: أسفرت المرأة إذا كشفت.

وظاهر الحديثين أن بينهما إشكالا: (أسفروا بالصبح فإنه أعظم للأجر)، وحديث: (كن ينصرفن متلفعات بمروطهن ما يعرفن من الغلس)، فمن العلماء من سلك هذه الوجهة، ومنهم من سلك هذه الوجهة.

- فالأحناف في باكستان يدخلون الصبح قبيل طلوع الشمس، وإذا دخلوا مبكرين يستمرون في القراءة أحيانا حتى تطلع عليهم الشمس وهم يصلون، ويستدلون بحديث: (أسفروا بالصبح فإنه أعظم للأجر)، وبعضهم يعكس القضية.

- ومن أهل العلم من حاول الجمع، فقال: نبدأ بصلاة الفجر في أول وقتها ونطيل القراءة حتى يسفر علينا الصبح، ولكن هذا ما زال معارضا بقول أم المؤمنين: (ما يعرفن من الغلس عند الانصراف).

- ومن أهل العلم من قال: إن هذا يتنزل على بعض أيام السنة دون بعض، وهذا وجه طيب وقوي، فبعض أيام السنة ينصرفن من الصلاة لا يعرفن من الغلس، وهي الأيام التي يطول فيها الليل، فيأخذ النائمون حظهم من النوم، فيقومون إلى الصلاة مبكرين، فيصلي بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وينصرف النسوة متلفعات بمروطهن لا يعرفن من الغلس.

وفي الليالي القصيرة ينتظر حتى يقوم النائمون من نومهم؛ لأنك إذا انتهيت من صلاة العشاء وجلست بعد العشاء وجدت الساعة الثانية عشرة أو الواحدة، ولم يبق إلا ثلاث ساعات للفجر.

فمن العلماء من قال: هذا يتنزل على الليالي طويلة الليل، وهذا يتنزل على الليالي قصيرة الليل.

فالله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب في هذا، والحمل على التنويع الظاهر فيه أنه أولى؛ لأنه مسلك يسلكه كثير من الفقهاء في كثير من المسائل، كصلاة الخوف التي تقدمت أحيانا صلى الرسول صلى الله عليه وسلم هكذا، وأحيانا صلى هكذا، وأحيانا صلى على هذا النحو، والله أعلم.

أما صلاة الظهر فإذا اشتد الحر أخرناها، وإذا دخل البرد أو كان الجو طيبا باردا صليناها في أول وقتها، وأول وقتها هو زوال الشمس عن منتصف السماء، ونعرف ذلك: أن تأتي بعصا أو أن يقف الإنسان في الشمس، عند الساعة العاشرة صباحا –مثلا– فترى ظل في اتجاه اليسار، وهذا الظل يبدأ في التناقص والتناقص إلى أن يأتي وقت يثبت عنده الظل ويبدأ في التحول من النقصان إلى الزيادة في الاتجاه الآخر، فيسمى هذا الوقت وقت الزوال.

أي: أن الشمس زالت إلى الناحية الأخرى، وفي هذا الوقت –وقت الزوال– تكره الصلاة، لكن إذا زالت الشمس مباشرة دخل وقت صلاة الظهر.

وهل هذا التوقيت يكون للجمعة أو للجمعة شأن خاص؟ جمهور أهل العلم يقولون: نعم يكون وقت الجمعة مثل وقت الظهر تماما.

لكن الحنابلة يقولون: لا، بل وقت الجمعة يبدأ من وقت صلاة العيد أو من وقت الضحى، فعندهم تجوز صلاة الجمعة الساعة العاشرة، وهذا يفعله بعضهم في بلاد الحرمين الآن كالدمام وغيرها، يصلون الجمعة مثلا الساعة الحادية عشرة، والظهر وقته في التقويم الساعة الثانية عشرة مثلا.

ما دليلهم على ذلك؟ استدلوا بما ورد عن بعض الصحابة أنه قال: (كنا ننصرف من صلاة الظهر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس للتلول فيء يستظل به) والتلول جمع تل، وهو الجبل الصغير.

والفيء هو الظل إذا ارتد من الناحية الثانية، أي: أن الظل في الصباح في هذا الاتجاه، فإذا بدأ يتجه إلى الناحية الأخرى يسمى فيئا، فقوله: (ليس للتلول فيء يستظل به) أي: لم تزل الشمس، لأن الشمس إذا زالت أصبح للتلول فيء، ومن ثم دخل وقت الظهر، فمادام الصحابي قال: (ليس للتلول فيء يستظل به) دل ذلك على جواز الصلاة قبل الزوال.

أما الجمهور فقالوا: إن معنى قول الصحابي: (ليس للتلول فيء يستظل به) ليس صريحا في نفي الفيء، فقد يكون الفيء قليلا يصلح للاستظلال، فيصبح كالمعدوم، فيدل على أننا نبكر بالجمعة بعد الزوال مباشرة، فهذا هو قول الجمهور في هذا الباب.

أما بالنسبة لوقت العصر فيبدأ إذا صار ظل كل شيء مثله، كما في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، لكن هل يضاف ظل الزوال أو لا يضاف؟ تقدم ظل الزوال، لكن إذا وقفنا أنا وأنت وقت الظهر أو الساعة العاشرة مثلا، وكان الظل طوله ثلاثة أمتار في اتجاه اليمين، أو أن ظل كلما دخل الوقت تناقص، ثم جاء عند الزوال مثلا ثبت طوله مترا، ثم بدأ يتحول إلى الناحية الأخرى ويزداد مترا وخمسة أمتار وعشرة، فهذا ظلك عند وقت الزوال الذي هو متر يسمى (ظل الزوال)، أي: هو الظل الذي هو ثابت للشيء بعد تحوله من الطول إلى القصر وإلى الطول مرة ثانية.

فهذا ظلك وهذا هو وقت الظهر فهل يضاف إلى هنا الظل مثله كي يدخل وقت العصر أم لا يضاف؟ بمعنى: هب أنني مسكت عصا ووضعتها وقت الظهر عند الزوال وطول ظلها ١٠سم، وطولها هي متر، فوقت العصر يدخل إذا كان طولها مترا وعشرة سم.

يعني: طولها الأصلي يضاف إليه طولها ساعة الزوال، وهذا رأي جمهور أهل العلم، أن وقت صلاة العصر يبدأ إذا صار ظل كل شيء مثله مضافا إليه ظل الزوال، وإضافة ظل الزوال إلى ظل المثل لم يرد في حديث الرسول، بل ورد في

حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: (إذا صار ظل كل شيء مثله دخل وقت العصر) ليس فيه إضافة ظل الزوال، لكن جمهور العلماء قالوا: هذه متعينة؛ لأنه أحيانا قد تكون واقفا في الظهر وظلك مترا عند الزوال في بعض أيام السنة فهل معنى ذلك أن العصر يبدأ؟

A لا؛ لأن بينهما وقتا بلا شك.

أما الأحناف فقد استدل بعضهم باستدلال غريب مضحك، على أن وقت العصر يبدأ إذا صار ظل كل شيء مثليه، استدلوا بحديث الأجير الذي استأجر أجراء فعملوا له نصف النهار، -حديث اليهود أو النصارى- ثم تركوا الأجر وجاء وقت الظهر إلى العصر، ثم تركوا الأجر فعملت أمة محمد صلى الله عليه وسلم فأصابت أجرين، وهذا استدلال لا أعرف له وجها أصلا، والإعراض عنه أولى.

أما وقت المغرب فإنه يبدأ بمجرد غروب الشمس وينتهي بسقوط الشفق الأحمر، وهو الحمار الذي يكون في اتجاه غروب الشمس، والشفق شفقان: شفق أحمر يكون في اتجاه غروب الشمس وبسقوطه يدخل وقت العشاء.

وشفق أبيض قد يمتد في بعض ليالي السنة إلى منتصف الليل.

أما وقت العشاء فإنه يبدأ بسقوط الشفق الأحمر، وأما نهاية وقت العشاء فمن أهل العلم من قال -وهو اختيار البخاري -: أنه إلى منتصف الليل؛ لحديث عبد الله بن عمرو بن العاص : (وقت النبي صلى الله عليه وسلم العشاء إلى منتصف الليل) .

وأما الجمهور فقالوا: إن وقت العشاء يمتد إلى صلاة الفجر، لحديث الرسول عليه الصلاة والسلام: (ليس في النوم تفريط، إنما التفريط على من لم يصل الصلاة حتى يأتي وقت الصلاة الأخرى) لكن استثني من هذا الحديث صلاة الصبح بالإجماع، فوقتها ينتهي بطلوع الشمس.

وأما وقت الضحى فإنه يبدأ من ارتفاع الشمس في السماء بقدر رمح أو رمحين، وهناك مسائل تتعلق بالكتاب الموقوت تأتي في باب آخر، والله سبحانه أعلم.." (١)

"معنى قوله تعالى: (وإنه على ذلك لشهيد)

﴿ إن الإنسان لربه لكنود * وإنه على ذلك لشهيد ﴾ [العاديات:٦-٧]، الضمير في قوله: (وإنه) يرجع إلى من؟ من العلماء من قال: (وإنه) راجع إلى الرب، أي: إن الرب شهيد على كفر الإنسان وعلى جحوده، ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ [العاديات:٧]، أي: وإن ربه على كفر عبده وجحوده لشاهد.

ومنهم من قال: إنه قوله: (وإنه)، راجع إلى الإنسان، أي: والإنسان شاهد على نفسه، بأنه جحود لنعم الله سبحانه وتعالى، تشهد عليه في الآخرة جوارحه، وضميره يشهد عليه كذلك أنه جحود، ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ [العاديات:٦]، أي: كفور جحود، هذا على الغالب، لكن لا يمنع **أن من الناس من** هو مؤمن، فقد يتجه إلى الآية قولان: أحدهما: أن المراد بالإنسان الإنسان الكافر، لكن إن قيل: ومن أين هذا التقييد بالكافر؟ فالإجابة: أن الشرع

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، ١١/١٧

يستعمل اللفظ على أغلب ما وضع له، قال تعالى: ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ﴾ [الحجرات:١٤]، والآية الأخرى: ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة:٩٩]، فأطلق على الأكثر، أي: فالمراد الأكثر والأغلب.

أو يقال: إن عموم الناس لا يستطيعون أن يؤدوا شكر نعم الله سبحانه وتعالى، فمع صلاة الإنسان وصومه فذلك لا يوازي نعم الله عليه، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لن يدخل أحدكم عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا) فالوجهان واردان.." (١)

"المؤمنون بالإبصار من غير إحاطة ، ولا إدراك نهاية ..

وروى عنه أيضا أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والحيرة

وقال الشبلى : من أشار اليه فهو ثنوى ، ومن كيفه فهو وثنى ، ومن نطق فيه فهو غافل ،ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد ، وكل ما ميزتموه بأفهامكم ، وأدركتموة بعقولكم فهو مصروف مردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم.

واعلم **أن من الناس من** احتج فى هذه المسأله بآيات ، منها قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره).

قال أهل التفسير : وما عرفوه حق معرفته. من قدر الثواب إذا حزره وأراد معرفة مقداره.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، لأن هذه الآية وردت فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة مواضع.

أولها فى سورة الأنعام : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء).

فهؤلآء الذين قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء). كانوا منكرين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافر ، فقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره). عائد إلى هؤلآء.

وثانيها : قال الله تعالى فى سورة الحج : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره). فلماكان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام قائدا اليهم.

ثالثها : قال الله تعالى فى سورة الزمر : (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين). ثم قال بعد هذا :." (٢)

"تشاهدونها متذكرين لها ﴿وباطنة﴾ وهي ما غابت عنكم فلا يحسونها ، أو تحسونها وهي خفية عنكم ، لا تذكرونها إلا بالتذكير ، وكل منكم يعرف ذلك على الإجمال ، فاعبدوه لما دعت إليه مجلة لقمان عليه السلام لتكونوا من المحسنين ، حذرا من سلب نعمه ، وإيجاب نقمه ، ويجوز أن تكون الآية دليلا على قوله تعالى : ﴿خلق السموات

---

(١) سلسلة التفسير لمصطفى العدوي، ٦/١٠١

(٢) من أسرار التنزيل، ص/١٣٨

بغير عمد ترونها﴾.

جزء : ٦ رقم الصفحة : ٢١

و لما كان التقدير : ومع كون كل منكم أيها الخلق يعرف ان ذلك نعمة منه سبحانه تعالى وحده ، فمن الناس من أذغن وأناب وسلم لكل ما دعا اليه كتابه الحكيم ، على لسان رسوله النبي الكريم ، فكان من الحكماء الحسنين فاهتدى ، عطف عليه قوله مظهرا

٢٤

موضع ضمير المخاطبين مما يشير إليه النوس : ﴿ومن الناس﴾ أي الذين هم أهل للاضطراب ، ويمكن أن يكون حالا من ﴿ألم تروا﴾ ويكون ﴿ألم تروا﴾ دليلا على أول السورة ، أي أشير إلى الآيات حال كونها هدى لمن ذكر والحال أن من الناس من يشتري اللهو ، ألم تروا دليلا على أن من الناس المعاند بعد وضوح الدليل أن الله سخر لكم جميع العالم وأنعم عليكم بما أنعم والحال أن من الناس ﴿من يجادل﴾ فلا لهو أعظم من جداله ، ولا كبر مثل كبره ، ولا ضلال مثل ضلاله ، وأظهر لزيادة التشنيع على هذا المجادل ، وإشارة إلى قبح المجادلة من غير نظر إلى النعم فقال تعالى : ﴿في الله﴾ المحيط بكل شيء علما وقدرة.

ولما كان سبحانه في ظهور وجوده واوصافه بحيث لا يخفى بوجه ، وكان المجادل قد يكون فهما ، قال : ﴿بغير﴾ أي بكلام متصف بأنه غير ﴿علم﴾ أي بل بألفاظ هي في ركاكة معانيها لعدم استنادها إلى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم ، فكان بذلك حمارا تابعا للهوى.

(١) ".

"ولما تقرر أن من الناس من ترك الهدى الذي هو البيان ، فعمي عنه لإعراضه عنه ، سبب عن هذا الإنزال وذاك الضلال قوله منبها على أمراض القلوب ، ومرشدا إلى دوائها : ﴿فاصبر لحكم ربك﴾ أي المحسن إليك بتخصيصه لك بهذه النعمة على ضلال من حكم بضلاله ، وعلى كل ما ينوبك وأطعه في التعبد له بجميع ما أمرك به من الرفق إلى أن يأمرك بالسف ، واستعن على مر الصبر باستحضار أن المربي الشفيق يربي بما يشاء من المر والحلو على حسب علمه وحكمته ، والصبر : حبس النفس وضبطها على مقاومة الهوى لئلا تنقاد إلى شيء من قبائح اللذات.

ولما أمره سبحانه بالصبر ، وكان الأمر به مفهما وجوده للمخالف ، وكان المخالفون له صلى الله عليه وسلم هم القسم المضاد للشاكر وهم الكفرة ، وكان ما يدعونه إليه تارة مطلق إثم ، وأخرى كفرا وتارة غير ذلك ، ذكر النتيجة ناهيا عن القسمين الأولين ليعلم أن

---

(١) نظم الدرر . موافق للمطبوع، ٦/٣٧

٢٧٥

المسكوت عنه لا نهي فيه فقال : ﴿ولا تطع منهم﴾ أي الكفرة الذين هم ضد الشاكرين ﴿آثما﴾ أي داعيا إلى إثم سواء كان مجردا عن مطلق الكفر أو مصاحبا له ﴿أو كفورا *﴾ أي مبالغا في الكفر وداعيا إليه وإن كان كبيرا وعظيما في الدنيا فإن الحق أكبر من كل كبير ، وذلك أنهم كانوا مع شدة الأذى له صلى الله عليه وسلم يبذلون له الرغائب من الأموال ، والتمليك والتزويج لأعظم نسائهم على أن يتبعهم على دينهم ويكف عما هو عليه والنهي عن الأحد المبهم نهي عن كل منهما ، فإن كلا منهما في أنه يجب اجتنابه في رتبة واحدة ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾ [الأنعام : ١٢٠] وكذا الانتهاء عنه لا يتحقق إلا بالانتهاء عن كل منهما ، ولو عطف بالواو لم يفد ذلك لأن نفي الاثنين لا يستلزم نفي كل منهما ، وأفهم ترتيب النهي على الوصفين أنه إذا دعاه الكفار إلى ما لا يتعلق به إثم ولا كفر جاز له قبوله.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٧٤

". (١)

"ولما علم أن هذا الجزاء المذكور لا يكون إلا للهلوع الجزوع المضطرب النفس الطائش في حال السراء والضراء ، الذي لا يكرم اليتيم ولا المسكين ويحب الدنيا ، وكان من المعلوم **أن من الناس من** ليس هو كذلك ، تشوفت النفس إلى جزائه فشفى عي هذا التشوف بقوله ، إعلاما بأنه يقال لنفوسهم عند النفخ في الصور وبعثرة ما في القبول للبعث والنشور : ﴿يا أيتها النفس المطمئنة *﴾ أي التي هي في غاية السكون لا خوف عليها ولا حزن ولا نقص ولا غبون ، لأنها كانت في الدنيا في غاية الثبات على كل ما أخبر به عن الدار الآخرة وغيرها من وعد ووعيد وتحذير وتهديد ، فهم راجون لوعده خائفون من وعيده ، وإذا كانت هذه حال النفس التي شأنها الميل إلى الدنيا فما ظنك بالروح التي تربية الموفقين ، أو إلى بدنك حال كونك ﴿راضية﴾ أي بما تعطينه.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٤٢١

فلا كدر يلحقك بوجه من الوجوه أصلا كما كنت في دار القلق والاضطراب مطمئنة ساكنة تحت القضاء والقدر سالكة سبيل الرضا إن حصل ابتلاء بالتكريم والتنعيم أو التضييق والتغريم وثوقا بما عند الله ﴿مرضية *﴾ عند الله وسائر خلقه ، فلا شيء يكرهك بسبب ما كنت مطمئنة تعملين الأعمال الصالحة تحت القضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، ثم بين ما أجمل من الرجوع فقال سبحانه : ﴿فادخلي﴾ أي بسبب هذا الأمر ﴿في عبادي *﴾ أي

٤٢٣

". (٢)

---

(١) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع، ٨/٤٢١

(٢) نظم الدرر ـ موافق للمطبوع، ٨/٦٣٣

"١) انظر بدائع التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن القيم الجوزية [ج٥ص٤١٤] وتفسير سور الفلق للشيخ محمد بن عبد الوهاب [ص٢٥] والضوء المنير على التفسير للصالحي [ج٦ص٥٢١] .

٢) أخرجه مسلم في صحيحه [ج٥ص٣١] والترمذي في سننه [ج٣ص٣٠٣] .

خبيثة حاسدة ، أثرت بها تلك النظرة ، فأثرت في المحسود تأثيرا بحسب صفة ضعفه ، وقوة نفس الحاسد ، فربما أعطبه وأهلكه ... وربما صرعه وأمرضه ...

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ... والأرواح الشريرة..

وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس ، والمحجوبون منكرون له ...

والعاين والحاسد يشتركان في شيء ، ويفترقان في شيء .

فيشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه وتتوجه نحو من يريد أذاه .

فالعائن : تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضا .

ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده ، من جماد أو حيوان أو زرع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه ، وربما أصابت عينه نفسه ، فإن رؤيته للشئ رؤية تعجب وتحديق ، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية تؤثر في العين ... قال الله تعالى : وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر .(١) إنه الإصابة بالعين، أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : النظر الذي يؤثر في المنظور قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه ، كما تؤثر نفسه بالحسد ، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة ، فإن العدو إذا غاب عن عدو فقد يشغل نفسه عنه ، فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه ، فيتأثر بنظره ، حتى **إن من الناس من** يسقط ، ومنهم من يحم ، ومنهم من يحمل إلى بيته ، وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا ...

---

(١) سورة القلم آية [٥١]." (١)

" صفحة رقم ٢٥

موضع ضمير المخاطبين مما يشير إليه النوس : (ومن الناس) أي الذين هم أهل للاضطراب ، ويمكن أن يكون حالا من) ألم تروا (ويكون) ألم تروا (دليلا على أول السورة ، أي أشير إلى الآيات حال كونها هدى لمن ذكر والحال **أن من الناس من** يشتري اللهو ، ألم تروا دليلا على أن من الناس المعاند بعد وضوح الدليل أن الله سخر لكم جميع العالم وأنعم عليكم بما أنعم والحال أن من الناس) من يجادل (فلا لهو أعظم من جداله ، ولا كبر مثل كبره ، ولا ضلال مثل ضلاله ، وأظهر لزيادة التشنيع على هذا المجادل ، وإشارة إلى قبح المجادلة من غير نظر إلى النعم فقال تعالى : (في

---

(١) نور النبراس في تفسير سورة الإخلاص والفلق والناس، ص/٣٥

الله (المحيط بكل شيء علما وقدرة .
ولما كان سبحانه في ظهور وجوده واوصافه بحيث لا يخفى بوجه ، وكان المجادل قد يكون فهما ، قال : (بغير (اي بكلام متصف بأنه غير) علم) أي بل بألفاظ هي في ركاكة معانيها لعدم استنادها إلى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم ، فكان بذلك حمارا تابعا للهوى .
ولما كان المعنى قد يظهر لبعض القاصرين ، لوروده على لسان من لا يعتبر ، فإذا أضيف إلى كبير ، تؤمل ولم يبادر إلى رده لاستعظامه ، فظهر على طول حسه ، قال معبرا بأداة النفي الحقيقية به ، لأن الموضع لها ، وعدل عنها اولا لئلا يظن أن المذموم إنما هو المجادل إذا كان غير متصف بالعلم وإن كان جداله متصفا بالعلم : (ولا هدى) أي وارد عمن عهد مه سداد الأقوال والأفعال بما أبدى من المعجزات والآيات البينات ، فوجب أخذ اقواله مسلمة وإن لم يظهر معناها .
ولما كان القول قد يكون مقبولا لاستناده إلى الله تعالى وإن لم يكن اصلا معقولا ، قال : (ولا كتاب) أي من الله ؛ ووصفه بما هو لازمه لا ينفك عنه فقال : (منير) أي بين غاية البيان ، مبين لغيره على عادة بيان الله سبحانه وتعالى ، أو يكون أريد بالوصف الإعجاز لإظهاره قطعا أنه من الله ، فإنه ليس كل كتاب الله كذلك .
لقمان : (٢١ - ٢٣) وإذا قيل لهم. .. . .
) وإذا قيل لهم اتبعوا مآ أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبآءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور (( )
ولما كان المجادل بغير واحد من هذه الثلاثة تابعا هواه مقلدا مثله قطعا ، وكان حال المجادلين هذا لظهور أدلة الوحدانية عجبا ، عجب منهم تعجيبا آخر بإقامتهم على." (١)

"صفحة رقم ١٤٣

(سورة المعارج)

وتسمى سأل .

مقصودها إثبات القيامة وأنذار من كفر بها وتصوير عظمتها بعظمة ملكها وطول يومهت وتسلية المنذر بها بما لمن كذبه بما له من الصغار والذل والتبار ، ودل على وجوب وقوعها سابقا بما ختمه بتسميتها في السورة الماضية بالحاقة تنبيها على أنه لا بد منها ولا محيد عنها ، ودل على ذلك بالقدرة في أ ، لها والعلم في اثنائها والتنزه عما في إهمالها من النقص في آخرها ولا خفاء بما أخبر من أنه أرسل جميع رسله بالتحذير منها فأرسل نوحا عليه السلام يفي الزمان الأقدم كما ذكر في سورته عند ما اختلف الناس بعدما كانوا عليه يفي زمان أبيهم آدم عليه الصلاة والسلام من الاتفاق على الدين الحق فافترقوا إلى مصدق ومكذب ، فعلم منه أ ، من بعده أولى بذلك لقربهم منها وأتبع ذلك الإعلام أنه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع - ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٥/٦

دعاإلى ذلك الجن الذين كان سبيلهم فيها سبيل الآدميين ، وأتبع ذلك بعد إرسال أول الرسل بها زمانا – آخرهم زمانات وأولهم نبوة حين كان نبيا وآدم بين الروح والجسد ، فبدا بسورة المزمل بنبوته ومزيد تزكيته وتقديسه ورفعته والإخبار عن رسالته والتحذي من مخالفته ، وأتبع ذلك الإنذار بها بالصدع بالرسالة بمحو كل ضلالة ، فلما تقررت نبوته وثبتت رسالته على أجمل الوجوه وأجلاها وأبينها وأعلاها ، اشرفها وأولاها ، جعل سبحانه سورة القيامة كلها لها إعلاما بأن الأمر عظيم جدا يجب الاعتناء به والتأهب له والاجتهاد بغاية القوة وإفراغ الجهد ، ثم اتبع ذلك الإنسان دلالة على أنه المقصود بالذات من الأكوان ، فاليسوغ في الحكمة أن يجعله سبحانه سدى وبين كثيرا من أحوالها ثم أقسم في المرسلات أن أملاها حق لا بد منه ولا مندوحة عنه ، ثم عجب في " عم " منهم في تساؤلهم عنها وتعجيبهم منها ثم أقسم على زقزعها في النازعات وصور من أمرها وهزاهزها ما أراد ، ثم أولى ذلك الدلالة في سورة عبس على **أن من الناس من** طبع على قلبه فلا حيله في تصديقه بها مع ما تبين بالسورة الماضية وغيرها من أمرها ، ثم صورها في "كورت " تصوير صارت من رأي عين لو." (١)

" صفحة رقم ٢٧٥

لما لهم من الإنكار ولتطمئن أنفس أتباعه بما حث عليهم من الصبر إلى وقت الإذن في القتال : (إنا نحن) أي على ما لنا من العظمة التي لا نهاية لها ، لا غيرها) نزلنا عليك (وأنت أعظم الخلق إنزالا استعلى حتى صار المنزل خلقا لك) القرآن) أي الجامع لكل هدى ، الحافظ من الزيغ ، كما يحفظ الطب للصحيح صحة المزاج ، الشافي لما عساه يحصل من الأدواء بما يهدي إليه من العلم والعمل ، وزاد في التأكيد لعظيم إنكارهم فقال : (تنزيلا) أي على التدريج بالحكمة جوابا للسائل ورفقا بالعباد فدرجهم في وظائف الدين تدريجا موافقا للحكمة ، ولم يدع لهم شبهة إلا أجاب عنها ، وعلمهم جميع الأحكام التي فيها رضانا ، وأتاهم من المواعظ والآداب والمعارف بما ملأ الخافقين وخصصناك به شكرا على سيرتك الحسنى التي كانت قبل النبوة ، وتجنبك كل ما يدنس ، فلما كان بتنزيلنا كان جامعا للهدى لما لنا من إحاطة العلم والقدرة ، فلا ناظرة إلى قوله في القيامة

٧٧ ( ) لا تحرك به لسانك ( ) ٧

[القيامة : ١٦] الملتفتة إلى ما في المدثر من أن هذه تذكرة ، الناظرة إلى) أنا سنلقي عليك قولا ثقيلا (المشيرة إلى ما في سورة الجن من أمر القرآن ، فالحاصل أن أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن ، فإنه المقصود بالذات من أمر الآية الكبرى التي إذا ثبتت تبعها جميع المراد من الشريعة وتفريق تقرير شأنه أتقن ما يكون في إحكام أمره ، وذلك أن الحكيم إذا اهتم بشيء افتتح الكلام به ، فإذا رأى من ينكره انتقل إلى غيره على قانون الحكمة ، ثم يصير يرمي به في خلال ذلك ، رميا كأنه غير قاصد له ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يتقرر أمره غاية التقرير ويثبت في النفس من حيث لا يشعر . ولما تقرر **أن من الناس من** ترك الهدى الذي هو البيان ، فعمي عنه لإعراضه عنه ، سبب عن هذا الإنزال وذاك الضلال قوله منبها على أمراض القلوب ، ومرشدا إلى دوائها : (فاصبر لحكم ربك) أي المحسن إليك بتخصيصه لك بهذه

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ١٤٣/٨

النعمة على ضلال من حكم بضلاله ، وعلى كل ما ينوبك وأطعه في التعبد له بجميع ما أمرك به من الرفق إلى أن يأمرك بالسف ، واستعن على مر الصبر باستحضار أن المربي الشفيق يربي بما يشاء من المر والحلو على حسب علمه وحكمته ، والصبر : حبس النفس وضبطها على مقاومة الهوى لئلا تنقاد إلى شيء من قبائح اللذات .

ولما أمره سبحانه بالصبر ، وكان الأمر به مفهما وجوده للمخالف ، وكان المخالفون له (صلى الله عليه وسلم) هم القسم المضاد للشاكر وهم الكفرة ، وكان ما يدعونه إليه تارة مطلق إثم ، وأخرى كفرا وتارة غير ذلك ، ذكر النتيجة ناهيا عن القسمين الأولين ليعلم أن." (١)

" صفحة رقم ٤٢٣

انقطاع الأنساب والأسباب أن أحدا يقدر على مثل ما يقدر عليه سبحانه وتعالى من الضر ليخشى كما يقع في هذه الدنيا ، بل يقع في الدنيا في أوهام كثيرة أن عذاب من يخشونه أعظم من عذاب الله – وأن عذاب الدنيا بأسره لو اجتمع على إنسان وحده لا يساوي رؤية جهنم بذلك المقام في ذلك المحفل المهول دون دخولها – ولذلك تقدم خوفه على الخوف من الله ، وبنى الكسائي ويعقوب الفعلين للمفعول ، والمعنى على قراءة الجماعة ببنائها للفاعل : لا يعذب أحد عذابا مثل عذاب الله أي لا يعذب أحد غير الله أحدا من الخلق مثل عذاب الله له ، والحاصل أنه لا يخاف في القيامة من أحد غير الله ، فإنه ثبت بهذا الكلام أن عذابه لا مثل له ، ولم يذكر المعذب من هو فيرجع الأمر إلى أن المعنى : فيومئذ يخاف الإنسان من الله خوفا لا مثل له ، أي لا يخاف من أحد مثل خوفه منه سبحانه وتعالى ، ويجوز أن يكون الضمير في (عذابه) للإنسان ، أي لا يعذب أحد من الزبانية أحدا غير الإنسان مثل عذابه ، وفي المبنيى للمفعول : لا يعذب عذاب الإنسان أحد لكن يبعده أنه يلزم عليه أن يكون عذاب الإنسان أعظم من عذاب إبليس – ويجوز أن يكون المعنى : إنه لا يحمل أحد ما يستحقه من العذاب كقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) [الأنعام : ١٦٤]
.

ولما علم أن هذا الجزاء المذكور لا يكون إلا للهلوع الجزوع المضطرب النفس الطائش في حال السراء والضراء ، الذي لا يكرم اليتيم ولا المسكين ويحب الدنيا ، وكان من المعلوم **أن من الناس من** ليس هو كذلك ، تشوفت النفس إلى جزائه فشفى عي هذا التشوف بقوله ، إعلاما بأنه يقال لنفوسهم عند النفخ في الصور وبعثرة ما في القبول للبعث والنشور : (يا أيتها النفس المطمئنة) أي التي هي في غاية السكون لا خوف عليها ولا حزن ولا نقص ولا غبون ، لأنها كانت في الدنيا في غاية الثبات على كل ما أخبر به عن الدار الآخرة وغيرها من وعد ووعيد وتحذير وتهديد ، فهم راجون لوعده خائفون من وعيده ، وإذا كانت هذه حال النفس التي شأنها الميل إلى الدنيا فما ظنك بالروح التي تربية الموفقين ، أو إلى بدنك حال كونك) راضية) أي بما تعطينه .

فلا كدر يلحقك بوجه من الوجوه أصلا كما كنت في دار القلق والاضطراب مطمئنة ساكنة تحت القضاء والقدر سالكة سبيل الرضا إن حصل ابتلاء بالتكريم والتنعيم أو التضييق والتغريم وثوقا بما عند الله) مرضية (عند الله وسائر خلقه ،

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٢٧٥/٨

فلا شيء يكرهك بسبب ما كنت مطمئنة تعملين الأعمال الصالحة تحت القضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره ، ثم بين ما أجمل من الرجوع فقال سبحانه : (فادخلي) أي بسبب هذا الأمر) في عبادي (أي." [١]

"قوله تعالى : ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ﴾ ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت على أسباب ، روى الحسن أن النبي A قال : " لما بعثني الله برسالته ، ضقت بها ذرعا ، وعرفت **أن من الناس من** يكذبني " ، وكان رسول الله A ، يهاب قريشا واليهود والنصارى ، فأنزل الله هذه الآية . وقال مجاهد : " لما نزلت ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ قال : «يا رب كيف أصنع؟ إنما أنا وحدي يجتمع علي الناس» ، فأنزل الله ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس ﴾ " وقال مقاتل : لما دعا اليهود ، وأكثر عليهم ، جعلوا يستهزؤون به ، فسكت عنهم ، فحرض بهذه الآية . وقال ابن عباس : "كان رسول الله A يحرس فيرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية ، فقال : «يا عماه إن الله قد عصمني من الجن والإنس» " وقال أبو هريرة : " نزل رسول الله A ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها ، فجاء رجل فأخذه ، فقال : يا محمد من يمنعني منك؟ فقال : «الله» ، فنزل قوله : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ " قالت عائشة : " سهر رسول الله A ذات ليلة ، فقلت ما شأنك؟ قال : ألا رجل صالح يحرسني الليلة ، فبينما نحن في ذلك إذ سمعت صوت السلاح ، فقال : «من هذا»؟ فقال : سعد وحذيفة جئنا نحرسك ، فنام رسول الله A حتى سمعت غطيطه ، فنزلت ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فأخرج رسول الله A رأسه من قبة أدم وقال : «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله تعالى» " قال الزجاج : قوله : ﴿ بلغ ما أنزل إليك ﴾ معناه : بلغ جميع ما أنزل إليك ، ولا تراقبن أحدا ، ولا تتركن شيئا منه مخافة أن ينالك مكروه ، فان تركت منه شيئا ، فما بلغت . قال ابن قتيبة : يدل على هذا المحذوف قوله : ﴿ والله يعصمك ﴾ وقال ابن عباس : إن كتمت آية فما بلغت رسالتي . وقال غيره : المعنى : بلغ جميع ما أنزل إليك جهرا ، فان أخفيت شيئا منه لخوف أذى يلحقك ، فكأنك ما بلغت شيئا . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : «رسالته» على التوحيد . وقرأ نافع «رسالاته» على الجمع .

قوله تعالى : ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يمنعك منهم . وعصمة الله : منعه للعبد من المعاصي ، ويقال : طعام لا يعصم ، أي : لا يمنع من الجوع . فان قيل : فأين ضمان العصمة وقد شج جبينه ، وكسرت رباعيته ، وبولغ في أذاه؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أنه عصمه من القتل والأسر وتلف الجملة ، فأما عوارض الأذى ، فلا تمنع عصمة الجملة . والثاني : أن هذه الآية نزلت بعدما جرى عليه ذلك ، لأن «المائدة» من أواخر ما نزل .

قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لا يهديهم إلى الجنة . والثاني : لا يعينهم على بلوغ غرضهم .." [٢]

---

(١) نظم الدرر . (موافق للمطبوع – ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤٢٣

(٢) زاد المسير في علم التفسير، ٢/٢٤٠

"وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم : «استحق» برفع التاء ، وكسر الحاء ، «الأولين» بكسر اللام ، وفتح النون على الجمع ، والتقدير : من الأولين الذين استحق فيهم الإثم ، أي : جني عليهم ، لأنهم كانوا أولين في الذكر . ألا ترى أنه قد تقدم ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ على قوله : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ . وروى الحلبي عن عبد الوارث «الأولين» بفتح الواو وتشديدها ، وفتح اللام ، وسكون الياء ، وكسر النون ، وهي تثنية : أول . وقرأ الحسن البصري : «استحق» بفتح التاء والحاء ، «الأولون» تثنية «أول» على البدل من قوله : «فآخران» وقال ابن قتيبة : أشبه الأقوال بالآية أن الله تعالى أراد أن يعرفنا كيف يشهد بالوصية عند حضور الموت ، فقال : ﴿ ذوا عدل منكم ﴾ أي : عدلان من المسلمين [تشهدونهما على الوصية] ، وعلم أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين ، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم ، ويحضره الموت ، فلا يجد من يشهده من المسلمين ، فقال : ﴿ أو آخران من غيركم ﴾ أي : من غير أهل دينكم ، [﴿ إذا ضربتم في الأرض ﴾ أي : سافرتم ﴿ فأصابتكم مصيبة الموت ﴾ وتم الكلام . فالعدلان من المسلمين للحضر والسفر خاصة إن أمكن إشهادهما في السفر] والذميان في السفر خاصة إذا لم يوجد غيرهما [ثم قال] ﴿ تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن إرتبتم ﴾ أراد : تحبسونهما من بعد صلاة العصر إن ارتبتم في شهادتهما ، وخشيتم أن يكونا قد خانا ، أو بدلا ، فإذا حلفا ، مضت شهادتهما . فإن عثر [بعد هذه اليمين] أي : ظهر على أنهما استحقا إثما ، أي : حنثا في اليمين بكذب [في قول] أو خيانة [في وديعة] ، فآخران ، أي : قام في اليمين مقامهما رجلان من قرابة الميت الذين استحق منهم الأوليان ، وهما الوليان ، يقال : هذا الأولى بفلان ، ثم يحذف من الكلام «بفلان» ، فيقال : هذا الأولى ، وهذان الأوليان ، و«عليهم» بمعنى : «منهم» . فيحلفان بالله : لقد ظهرنا على خيانة الذميين ، وكذبهما ، وما اعتدينا عليهما ، ولشهادتنا أصح ، لكفرهما وإيماننا ، فيرجع على الذميين بما اختانا ، وينقض ما مضى من الحكم بشهادتهما تلك . وقال غيره : لشهادتنا ، أي : ليميننا أحق ، وسميت اليمين شهادة ، لأنها كالشهادة على ما يحلف عليه أنه كذلك .

قال المفسرون : فلما نزلت هذه الآية قام عمرو بن العاص ، والمطلب بن أبي وداعة السهميان ، فحلفا بالله ، ودفع الإناء إليهما وإلى أولياء الميت .." (١)

" ٩٤ - وقوله عز و جل ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا المختال في اللغة ذو الخيلاء فان قيل فكيف ذكر المختال ههنا وكيف يشبه هذا الكلام الاول فالجواب أن من الناس من تكبر على اقربائه اذا كانوا فقراء فأعلم الله عز و جل أنه لا يحب من كان كذا ٩٥ وقوله عز و جل الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ." (٢)

" وقيل المعنى يأمر بالعدل والحق

٣ - ثم قال تعالى فاعبد الله مخلصا له الدين آية ٢

---

(١) زاد المسير في علم التفسير، ٢/٢٨٠

(٢) معاني القرآن، ٢/٨٥

أي لا تعبد معه غيره

وحكى الفراء له الدين برفع الدين

وهو خطأ من ثلاثة جهات

إحداها أن بعده ألا لله الدين الخالص فهو يغني عن هذا

وأيضا فلم يقرأ به

وأيضا فإنه يجعل مخلصا التمام والتمام عند رأس الآية أولى

٤ – ثم قال جل وعز ألا لله الدين الخالص آية ٣

أي يعبد وحده **لأن من الناس من** له دين ولا يخلصه لله ." (١)

"المؤمنون بالإبصار من غير إحاطة ، ولا إدراك نهاية ..

وروى عنه أيضا أنه قال : غاية المعرفة الدهشة والحيرة

وقال الشبلي : من أشار اليه فهو ثنوى ، ومن كيفه فهو وثني ، ومن نطق فيه فهو غافل ،ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن وهم أنه واجد فهو فاقد ، وكل ما ميزتموه بأفهامكم ، وأدركتموة بعقولكم فهو مصروف مردود اليكم ، محدث مصنوع مثلكم.

واعلم **أن من الناس من** احتج فى هذه المسأله بآيات ، منها قوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره).

قال أهل التفسير : وما عرفوه حق معرفته. من قدر الثواب إذا حزره وأراد معرفة مقداره.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف ، لأن هذه الآية وردت فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة مواضع.

أولها فى سورة الأنعام : (وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء).

فهؤلآء الذين قالوا : (ما أنزل الله على بشر من شيء). كانوا منكرين كل النبوة ، ومن كان كذلك كان كافر ، فقوله تعالى : (وما قدروا الله حق قدره). عائد إلى هؤلآء.

وثانيها : قال الله تعالى فى سورة الحج : (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب (٧٣) ما قدروا الله حق قدره). فلماكان الكلام مع عبدة الأوثان كان هذا الكلام قائدا اليهم.

ثالثها : قال الله تعالى فى سورة الزمر : (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون (٦٤) ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين). ثم قال بعد هذا :." (٢)

---

(١) معاني القرآن، ٦/١٤٩

(٢) من أسرار التنزيل، ص/١٣٨

"

القرية : الضيعة ، والمصر : الجامع ، وقد أبهم الله القرية فلم يذكر مكانها ولا المار عليها ، بل اقتصر على موضع العبرة ، وما به تقوم الحجة ولم يعن بما فوق ذلك حتى لا يشغل القارئ أو السامع به ، ومن ثم اختلف المفسرون فيها فمن قائل إنها بيت المقدس وإن المار عليها هو عزير بن شرخيا ، ومن قائل هى دير هرقل على شط دجلة والمار هو أرميا من سبط هارون عليه السلام ، وخاوية : أي ساقطة من خوى البيت إذا سقط ، والعروش : واحدها عرش وهو سقف البيت وكل ما هيئ ليستظل به ، والمراد منه أن العروش سقطت أولا ثم سقطت الحيطان عليها ، وأنى : بمعنى كيف ، والحياة هنا العمران ، والموت : الخراب ، وأماته : أي جعله فاقدا للحس والحركة والإدراك بدون أن تفارق الروح البدن بتاتا مثل ما حدث لأهل الكهف ، والبعث : الإرسال من بعثت الناقة إذا أطلقتها من مكانها ، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا مستعدا للنظر والاستدلال ، وقد دلت تجارب الأطباء في العصر الحديث على أن من الناس من يبقى حيا زمنا طويلا لكنه يكون فاقد الحس والشعور ، وهو المسمى لديهم بالسبات وهو النوم المستغرق ويستعمله أهل الرياضيات في الهند ، فقد شوهد شاب قد نام نحو شهر ثم أصيب بدخل في عقله ، وآخرون ناموا أكثر من ذلك ، ومتى ثبت هذا فالذى يحفظ الأجسام مثل هذه المدة قادر أن يحفظها مائة سنة وثلاثمائة سنة ، فهذا من الممكنات لا من المستحيلات وقد تواتر به النص فيجب التسليم به ، والتجارب التي
عملت تقرب بيان إمكانه من أذهان الذين يعسر عليهم أن يميزوا بين ما هو مستبعد لعدم إلفه في مجرى العادة ، وما هو محال لا يقبل الثبوت لذاته ، ولم يتسنه : أي لم يتغير ولم يفسد ، من قولهم تسنه الشيء مرت عليه السنون والأعوام ، وآية : علامة دالة على قدرة الله ، وننشزها : أي نرفعها من الأرض ونردها إلى أماكنها من الجسد.." (١)

"

فى الأساس : أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر ، وما أحسسنا منه خيرا ، وهل تحس من فلان بخير ، وفي الكشاف أحس : علم علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ، والأنصار : واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف ، والحواريون : واحدهم حوارى ، وحوارى الرجل صفيه وناصره ، ومسلمون : أي منقادون لما تريده منا ، والمكر تدبير خفى يفضى بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله في التدبير السيئ وإن كان يستعمل في الحسن والسيئ معا كما قال تعالى : « ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله » .
و الداعي إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله ، فكانت حاجة المربي أو القوام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول إليه ، والتوفى : أخذ الشيء وافيا تاما ثم استعمل بمعنى الإماتة كما قال تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وتطهيره من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه به بتهمة أمه بالزنا.." (٢)

---

(١) مفردات القرآن للشيخ المراغى، ص/١٠٧

(٢) مفردات القرآن للشيخ المراغى، ص/١٣٢

"عدواة الشيطان بدوام مخالفته؛ **فإن من الناس من** يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل ، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالرب ، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة . والشيطان لا يفتر في عداوتك ، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة فيبرز لك عدوك؛ فإنه أبدا متمكن لك .

﴿ إنما يدعوا حزبه ﴾ وحزبه هم المعرضون عن الله ، المشتغلون بغير الله ، والغافلون عن لله . ودليل هذا الخطاب : إن الشيطان عدوكم فأبغضوه واتخذوه عدوا ، وأنا وليكم . وحبيبكم فأحبوني وارضوا بي حبيبا .." (١)

"[الأنعام : ١٠٨] سكت رسول الله A عن عيب آلهتهم فنزلت . أي بلغ معايب آلهتهم ولا تخفها . وقيل : إنه A لما بين الشرائع والمناسك في حجة الوداع . قال : هل بلغت؟ قالوا : نعم . فقال A : « اللهم اشهد » فنزلت وقيل : نزلت في قصة الرجم والقصاص المذكورتين . وقال الحسن : إن نبي الله قال : « لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت **أن من الناس من** يكذبني واليهود والنصارى وقريش يخوفونني فنزلت الآية فزال الخوف » وقالت عائشة « سهر رسول الله A ذات ليلة فقلت : يا رسول الله ما شأنك؟ قال : ألا رجل صالح يحرسني الليلة . قالت : فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح فقال : من هذا؟ قال سعد وحذيفة : جئنا نحرسك . فنام رسول الله A حتى سمعت غطيطه فنزلت هذه الآية ، فأخرج رسول الله A رأسه من قبة أدم فقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله » وعن ابن عباس قال : كان رسول الله A يحرس فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت هذه الآية . فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسونه فقال : يا عماه إن الله تعالى قد عصمني من الجن والإنس . ومعنى قوله : ﴿ ما أنزل إليك ﴾ جميع ما أنزل إليك وأي شيء أنزل إليك ﴿ وإن لم تفعل ﴾ ما أمرتك به كما أمرتك به ﴿ فما بلغت رسالته ﴾ من قرأ على الوحدة فلأن القرآن كله رسالة واحدة ، أو لأن الرسالة اسم المصدر فيقع على الواحد وعلى الجمع . ومن جمع فلأن كل آية أو حكم رسالة . فإن قيل : معنى قوله : ﴿ وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ إن لم تبلغ رسالته فما بلغت منها أدنى شيء فأنت صحته؟ فالجواب أن هذا جار على طريق التهديد والمراد إن لم تبلغ منها أدنى شيء فأنت كمن لم يبلغ شيئا لأن أداء بعضها ليس أولى من أداء البعض الآخر كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كما لم يؤمن بكلها . أو المراد إن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمان الوحي كله فوضع السبب موضع المسبب ، ويعضده ما روي أنه A قال : « بعثني الله برسالاته وضقت بها ذرعا فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة فقويت » فإن قيل : اين ضمان العصمة وقد جرى عليه يوم أحد ما جرى؟ فالجواب أن الآية نزلت بعد يوم أحد . أو المراد أنه يعصمه من القتل وعليه أن يحتمل كل ما دون النفس والناس الكفار لقوله : ﴿ إن الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ أي لا يمكنهم مما يريدون .." (٢)

"والمراد أن القمر لا يسبق الشمس بهذه الحركة لأنها تشملهما على السواء ، وهكذا جميع الكواكب فلا يقع بسببها تقدم ولا تأخر ولهذا لم يقل « يسبق » على قياس تدرك أي ليس من شأنه السبق إذ الكواكب كأنها كلها ساكنة

---

(١) تفسير القشيري، ٣٢٤/٦

(٢) تفسير النيسابوري، ١٨٩/٣

بهذه الحركة . وأقول : يحتمل أن يراد لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا القمر ينبغي أن يتخلف ، فحذف إحدى القرينتين للعلم به كقوله ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] وكذا الكلام في قوله ﴿ ولا الليل سابق النهار ﴾ أراد ولا النهار سابق الليل أي لا يدخل شيء منهما في غير وقته . سلمنا أن المراد بالليل والنهار آيتهما لكنه يمكن أن يقال : إنه إشارة إلى الحركة الدورية لأنه لما قال : إن الشمس لبطء سيرها لا تدرك القمر . فهم منه أن القمر يسبق الشمس بحركته ، فأشار إلى أن هذا السبق ليس على قياس المتحركات على الاستقامة ولكنه سبق هو بعينه موجب للقرب ، وهذا معنى قول أهل الهيئة إن الكوكب هارب عن نقطة ما طالب لها بعينه . وأما قوله ﴿ وكل في فلك يسبحون ﴾ فقد مر تفسيره في سورة الأنبياء . ولما بين ما هو كالضروري لوجود الإنسان من المكان والزمان وما يتبعه ويسبقه ، شرع في تقرير ما هو نافع لهم في أحوال المعاش . قال بعض المفسرين : أراد بحمل الذرية حمل آبائهم وهم في أصلابهم . والفلك فلك نوح ومثله هو ما يركبون الآن عليه من السفن والزوارق . قال جار الله : وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح ، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل . ومن فوائد ذكر الذرية **أن من الناس من** لا يركب السفينة طول عمره ولكنه في ذريته من يركبها غالبا . وذهب آخرون إلى أن المراد حمل أولادهم ومن يهمهم حمله كالنساء . وقد يقع اسم الذرية عليهن لأنهن مزارع الأولاد . في الحديث « إنه نهى عن قتل الذراري » يعني النساء فكأنه قيل : إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره وعلى هذا يكون قوله ﴿ وخلقنا لهم ﴾ إلى آخره اعتراضا ، ومثل الفلك ما يركبون من الإبل لأنها سفائن البر . وفي وصف الفلك بالمشحون مزيد تقرير للقدرة والنعمة فإن الفلك إذا كان خاليا كان خفيفا لا يرسب في الماء بالطبع . ثم ذكر ما يؤكد كونه فاعلا مختارا قائلا ﴿ وإن يشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ﴾ وهو مصدر أو صفة أي لا إغاثة أو لا مغيث . وقوله ﴿ إلا رحمة ﴾ إشارة إلى أن الإنقاذ رحمة بالنسبة إلى المؤمن ومتاع إلى حلول الأجل بالإضافة إلى الكافر ، أو المراد أن أحد لا يتخلص من الموت وإن سلم من الآفات ولله در القائل :." (١)

" صفحة رقم ١٩١

التشريق) فلا إثم عليه (أي فلا حرج عليه وذلك أنه يجب على الحاج المبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من ليالي أيام التشريق ، ليرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة يرمي عند كل جمرة سبع حصيات ثم من رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر ويدع البيتوتة الليلة الثالثة ورمى يومها فذلك واسع له لقوله تعالى : (فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه (يعني فلا إثم من تعجل فنفر في اليوم الثاني في تعجيله) ومن تأخر فلا إثم عليه (يعني ومن تأخر إلى النفر الثاني ، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق فلا إثم عليه في تأخره.

واعلم أنه إنما يجوز التعجيل لمن نفر بعد الزوال من اليوم الثاني من أيام التشريق وقيل غروب الشمس ، من ليلة ذلك اليوم وإن غربت عليه الشمس ، وهو بمنى لزمه المبيت بها لرمي اليوم الثالث ، هذا مذهب الشافعي وأكثر الفقهاء وقال أبو حنيفة : يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمي ، بعد ورخص لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج

---

(١) تفسير النيسابوري، ٣٢١/٦

ترك المبيت بمنى ليالي منى.

فإن قلت : قوله ومن تأخر فلا إثم عليه فيه إشكال وهو أن الذي أتى بأفعال الحج كاملة تامة فقد أتى بما يلزمه ، فما معنى قوله فلا إثم عليه إنما يخاف من الإثم من قصر فيما يلزمه.

قلت فيه أجوبة أحدها أنه تعالى لما أذن في التعجل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة ، فإنه يأثم فأزال الله تعالى هذه الشبهة وبين إنه لا إثم عليه في الأمرين فإن شاء عجل وإن شاء أخر.

الجواب الثاني أن من الناس من كان يتعجل ومنهم من كان يتأخر ، وكل فريق يصوب فعله على فعل الفريق الآخر فبين الله تعالى أن كل واحد من الفريقين مصيب في فعله وأنه لا إثم عليه.

الجواب الثالث إنما قال : ومن تأخر فلا إثم عليه لمشاكلة اللفظة الأولى فهو كقوله : (جزاء سيئة سيئة مثلها (" ومعلوم أن جزاء السيئة ليس بسيئة.

الجواب الرابع أن فيه دلالة على جواز الأمرين فكأنه تعالى قال : فتعجلوا أو تأخروا فلا إثم في التعجيل ولا في التأخير) لمن اتقى (أي ذلك التخيير ونفي الإثم للحاج المتقي وقيل لمن اتقى أن يصيب في حجة شيئا مما نهاه الله عنه من قتل صيد وغيره ، مما هو محظور في الحج ، وقيل : معناه أنه ذهب إثمه إن اتقى فيمن بقي من عمره ، وذلك أن الحاج يرجع مغفورا له بشرط أن لا يرتكب ما نهي عنه فيما بقي من عمره وهو قوله : (واتقوا الله (أي في المستقبل والتقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات) واعلموا أنكم إليه تحشرون (أي فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى.

(

البقرة : (٢٠٤) ومن الناس من...

" ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام " (قوله عز وجل : (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا (نزلت في الأخنس بن شريق حليف بني زهرة ، واسمه أبي وإنما سمي الأخنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة ، عن قتال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذلك أنه أشار على بني زهرة الرجوع يوم بدر ، وقال لهم : إن محمدا ابن أختكم فإن يك كاذبا كفاكموه الناس وإن يك صادقا كنتم أسعد الناس به قالوا : نعم ما رأيت قال إني سأخنس بكم فاتبعوني فخنس فسمي الأخنس بذلك وكان الأخنس حلو الكلام حلو المنظر ، وكان يأتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويجالسه ويظهر الإسلام ويقول : إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدني مجلسه وكان الأخنس منافقا فنزل فيه ، ومن الناس من يعجبك قوله ، أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك في الحياة الدنيا ، يعني أن حلاوة كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا) ويشهد الله على

ما في قلبه (يعني قوله : والله إني بك مؤمن ولك محب) وهو ألد الخصام (أي شديد الجدال في الباطل ، وقيل : هو كاذب القول ، وقيل : هو شديد القسوة في المعصية جدل." (١)

" صفحة رقم ٣٥٦

إلى عيسى على رأس ثلاثين سنة ورفعه الله من بيت المقدس ليلة القدر من رمضان وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة فكانت نبوته ثلاث سنين وعاشت أمه مريم بعد رفعه ست سنين.

(

آل عمران : (٥٥) إذ قال الله...

" إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون " (قوله عز وجل : (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي (اختلفوا في معنى التوفي هنا على طريقين : فالطريق الأول أن الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير وذكروا في معناها وجوها : الأول : معناه أني قابضك ورافعك إلي من غير موت من قولهم توفيت الشيء واستوفيته إذا أخذته وقبضته تاما ، والمقصود منه هنا أن لا يصل أعداؤه من اليهود إليه بقتل ولا غيره.

الوجه الثاني : أن المراد بالتوفي النوم ومنه قوله عز وجل : (الله يتوفى الأنفس حين موتها (" والتي لم تمت في منامها فجعل النوم وفاة ، وكان عيسى قد نام فرفعه الله وهو نائم لئلا يلحقه خوف ، فمعنى الآية أني منيمك ورافعك إلى الوجه الثالث أن المراد بالتوفي حقيقة الموت ، قال ابن عباس : معناه أني مميتك قال وهب بن منبه : إن الله توفى عيسى ثلاث ساعات من النهار ثم أحياه ثم رفعه إليه وقيل : إن النصارى يزعمون أن الله توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه ورفعه إليه.

الوجه الرابع : أن الواو في قوله ورافعك إلي لا تفيد الترتيب والآية تدل على أن الله تعالى يفعل به ما ذكر فأما كيف يفعل ؟ ومتى يفعل ؟ فالأمر فيه موقوف على الدليل.

وقد ثبت في الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال وسنذكره إن شاء الله تعالى.

الوجه الخامس : قال أبو بكر الواسطي : معناه أني متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلي ذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة في زوال الشهوة.

الوجه السادس : أن معنى التوفي أخذ الشيء وافيا ولما علم الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله إليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعني روحه وبقي في الأرض ناسوته يعني جسده فرد الله عليهم بقوله إني متوفيك ورافعك إلي فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعا.

الطريق الثاني : أن في الآية تقديما وتأخيرا تقديره أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض وقيل : لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض في القرآن ؟ قال : نعم قوله تعالى وكهلا وذلك لأنهم يكتهل

---

(١) تفسير الخازن ـ موافق للمطبوع، ١٩١/١

في الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء.

(ق) عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد) وفي رواية حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليومنن به قبل موته وفي رواية." (١)

" صفحة رقم ٧٤

ربك (الآية روي عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضاق ذرعا وعرف أن من الناس من يكذبه ، فأنزل هذه الآية.

وقيل : نزلت في عيب اليهود وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دعاهم إلى الإسلام فقالوا : أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون : تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا ، فلما رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) ذلك منهم ، سكت ، فأنزل الله هذه الآية وأمره بأن يقول لهم : (يا أهل الكتاب لستم على شيء (" الآية.

وقيل : نزلت هذه الآية في أمر الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوا فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له فأنزل الله هذه الآية.

وقيل : نزلت في قصة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود ومعنى الآية يا أيها الرسول بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك مجاهرا به ولا تراقبن أحدا ولا نترك شيئا مما أنزل إليك من ربك وإن أخفيت شيئا من ذلك في وقت من الأوقات فلما بلغت رسالته وهو قوله تعالى) وإن لم تفعل فما بلغت رسالته (وقرئ رسالاته قال ابن عباس : يعني إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالتي يعني أنه (صلى الله عليه وسلم) لو ترك إبلاغ البعض كان كمن لم يبلغ شيئا مما أنزل الله إليه وحاشا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يكتم شيئا مما أوحي إليه.

روى مسروق عن عائشة قالت من حدثك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتم شيئا مما أنزل إليه فقد كذب ؟ ثم قرأت) يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك (أخرجاه في الصحيحين بزيادة فيه.

وقوله تعالى : (والله يعصمك من الناس (يعني يحفظك يا محمد ويمنعك منهم والمراد بالناس هنا الكفار فإن قلت أليس قد شج رأسه وكسرت رباعيته يوم أحد وقد أوذي بضروب من الأذى فكيف يجمع بين ذلك وبين قوله والله يعصمك من الناس.

قلت : المراد منه أنه يعصمه من القتل فلا يقدر عليه أحد أراده بالقتل ويدل على صحة ذلك ما روي عن جابر أنه غزى مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل نجد فلما قفل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاة فنزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله (صلى الله

---

(١) تفسير الخازن ـ موافق للمطبوع، ١/٣٥٦

عليه وسلم) تحت شجرة فعلق بها سيفه ونمنا معه نومة ، فإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يدعونا ، وإذا عنده أعرابي فقال : (إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا.

فقال : من يمنعك مني ؟ فقلت : الله ثلاثا ولم يعاقبه وجلس).

وفي رواية أخرى (قال جابر كنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجاء رجل من المشركين وسيف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معلق بالشجرة فاخترطه فقال تخافني ؟.

فقال : لا.

فقال من يمنعك مني ؟ قال : الله فتهدده أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم)) أخرجاه في الصحيحين وزاد البخاري في رواية له : أن اسم ذلك الرجل غورث بن الحارث

(ق) .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : (سهر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مقدمه المدينة ليلة فقال : ليت رجلا صالحا من أصحابي يحرسني الليلة قال : فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة السلاح فقال من هذا ؟ قال سعد بن أبي وقاص : فقال له رسول الله ما جاء بك ؟ فقال : وقع في نفسي خوف على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجئت أحرسه فدعا له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم نام) وعن عائشة قالت (كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحرس ليلا حتى نزلت) والله يعصمك من الناس (فأخرج رسول الله من القبة فقال لهم أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله) أخرجه الترمذي.

وقال : حديث غريب.

وقيل في الجواب عن هذا : إن هذه الآية نزلت بعد ما شج رأسه في يوم أحد لأن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا وقوله) إن الله لا يهدي القوم الكافرين (قال ابن عباس : معناه لا يرشد من كذبك وأعرض عنك.

وقال ابن جرير الطبري : معناه إن الله لا يوفق للرشد من حاد عن سبيل الحق وجار عن قصد السبيل وجحد ما جئت به من عند الله ولم ينته إلى أمر الله." [1]

" صفحة رقم ٨٦

من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون " (قوله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم (قال ابن عباس : (لما نزلت يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم – قالوا يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها كانوا قد حلفوا على ما اتفقوا عليه فأنزل الله عز وجل هذه الآية لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) وقد تقدم تفسير اللغو في الأيمان في سورة البقرة وقوله تعالى : (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان (يعني ولكن

---

(١) تفسير الخازن ـ موافق للمطبوع، ٧٤/٢

يؤاخذكم بما تعمدتم وقصدتم به اليمين ومنه قول الفرزدق :

ولست بمأخوذ بلغو تقوله

إذا لم تعمد عاقدات العزائم

وفي الآية حذف تقديره ولكن يؤاخذكم بما عقدتم إذا حنثتم فحذفه لأنه معلوم عند السامعين) فكفارته (يعني فكفارة إيمانكم التي عقدتموها إذا حنثتم) إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم (يعني من أقصد ذلك **لأن من الناس من** يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتر عليهم فأمر الله بالعدل في أداء الكفارة.

وقيل : أراد بالأوسط في القيمة فلا يكون غالبا من أعلى الموجود ولا خسيس الثمن من أردأ الموجود بل الوسط في القيمة وقيل أراد بالأوسط الأفضل قال ابن عباس : كل شيء في كتاب الله أوسط فهو أفضل فعلى هذا يكون المعنى من خير ما تطعمون أهليكم وأفضله) أو كسوتم (هو معطوف على محل أوسط أي كما تطعمون المساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم فكذلك فاكسوهم من أوسط الكسوة) أو تحرير رقبة (يعني عتق رقبة والمراد جملة الشخص.

(فصل في حكم الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى : في بيان الكفارة وهي أربعة أنواع :

النوع الأول : من الكفارة الإطعام فيجب إطعام عشرة مساكين واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد وكذلك سائر الكفارات وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن وإليه ذهب مالك والشافعي ويروى عن عمر وعلي وعائشة أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر وهو نصف صاع وبه قال أهل العراق.

وقال أبو حنيفة : إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن أطعم من غيرها فصاع وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد.

وقال أحمد بن حنبل : يطعم لكل مسكين مد من البر أو نصف صاع من غيرها مثل التمر والشعير : ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين فلو عشاهم وغداهم لم يجزه وقال أبو حنيفة : يجزيه ذلك ولا يجوز إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير : وقال أبو حنيفة : يجوز ذلك ولا إخراج الدقيق والخبز في الكفارة بل يجب إخراج الحب ، وجوزه أبو حنيفة ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد في عشرة أيام.

النوع الثاني : من الكفارات الكسوة واختلف العلماء في قدرها فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوبا واحدا مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء ونحو ذلك وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وإليه ذهب الشافعي.

وقال مالك : يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة فيكسو الرجل ثوبا والمرأة ثوبين درعا وخمارا.

وقال أحمد : للرجال ثوبا وللمرأة ثوبين درعا وخمارا وهو أدنى ما يجزى في الصلاة وقال ابن عمر : يجب قميص وإزار

ورداء.

وقال أبو موسى الأشعري : يجب ثوبان وهو قول سعيد بن المسيب." (١)

" صفحة رقم ٢٧٣

إدراكه) ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم (أي أكلتم الطعام) فانتشروا (أي فاخرجوا من منزله وتفرقوا) ولا مستأنسين لحديث (أي لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض ، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك) إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم (أي فيستحيي من إخراجكم) والله لا يستحيي من الحق (أي لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال ، وقيل : لا يستحيي من الحق بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء ، وقيل : بحسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم) وإذا سألتموهن متاعا (أي وإذا سألتم نساء النبي (صلى الله عليه وسلم) حاجة) فاسألوهن من وراء حجاب (أي من وراء ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) متنقبة كانت أو غير متنقبة) ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن (أي من الريب) وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله (أي ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء) ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا (نزلت في رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه سلم ، قال إذا : قبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلأنكحن عائشة.

قيل هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله أن ذلك محرم ، وقال) إن ذلك كان عند الله عظيما (أي ذنبا عظيما وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله الله (صلى الله عليه وسلم) ، وإيجاب حرمته حيا وميتا وإعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره فإن من الناس من تفرط غيرته على حرمه حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده.

(

الأحزاب : (٥٤ - ٥٦) إن تبدوا شيئا...

" إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما " ( ) إن تبدوا شيئا (أي من أمر نكاحهن على ألسنتكم) أو تخفوه (أي في صدوركم) فإن الله كان بكل شيء عليما (أي يعلم سركم وعلانيتكم ، نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقيل : قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا ، فنزلت هذه الآية ، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ، ونحن أيضا." (٢)

"فإن قيل : أليس جاز الفصل بين المبتدأ والخبر بالجملة كقول القائل : إن زيدا فافهم ما أقول رجل عالم ، وكقوله تعالى : ﴿إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ [الكهف : ٣٠] ثم قال : ﴿أولئك﴾

---

(١) تفسير الخازن ـ موافق للمطبوع، ٢/٨٦

(٢) تفسير الخازن ـ موافق للمطبوع، ٥/٢٧٣

ففصل بين المتبدأ والخبر بقوله : ﴿إنا لا نضيع﴾ قلنا : الموصول مع الصلة كالشيء الواحد فالتعلق الذي بينهما أشد من التعلق بين المبتدأ والخبر ، فلا يلزم من جوازه الفصل بين المبتدأ والخبر جواز بين الموصول والصلة.
القول الثاني : قول الفراء : إنه نصب على المدح ، وإن كان من صفة من ، وإنما رفع الموفون ونصب الصابرين لطول الكلام بالمدح ، والعرب تنصب على المدح وعلى الذم إذا طال الكلام بالنسق في صفة الشيء الواحد ، وأنشد الفراء :
إلى الملك القرم وابن الهمام.. وليث الكتيبة في المزدحم
وقالوا فيمن قرأ : ﴿حمالة الحطب﴾ [المسد : ٤] بنصب ﴿حمالة﴾ أنه نصب على الذم ، قال أبو علي الفارسي : وإذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها ولا تجعل كلها جارية على موصوفها ، لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول ، فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل ، لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان ، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجها واحدا ، وجملة واحدة.
واعلم **أن من الناس من** قرأ ﴿والموفين ، والصابرين﴾ ومنهم من قرأ ﴿والموفون ، والصابرون﴾. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٥ صـ ٣٩﴾
وقال الآلوسى : ." (١)
"قيل لابن عرفة : (يعكر) عليه قوله "وما له في الأخرة من خلاق "(يدل على أنه كافر فكيف يذكر الله كذكره أباه ؟ فقال : قد تقرر أن "وما له في الآخرة من خلاق "(معتبر) بأمرين لأن الواو فيه واو الحال فيحتمل أن يراد أنه في نفس الأمر ليس له نصيب في الآخرة ، ويحتمل (أن) يريد من الناس المؤمنين من يطلب أمور الدنيا ، ولم يتعلق له بال بطلب الثواب في الآخرة عليه ، فقد يعمل العمل الصالح ، ويطلب المعونة عليه ، ولم يخطر بباله طلب الثواب عليه في الآخرة بوجه (أو بطلب الرزق الحلال من نعيم الدنيا ومستلذاتها ، ويصرفه في وجهه وهو مع ذلك طائع ، ولا يتشوق إلى طلب الآخرة بوجه) بل (يغفل) عن ذلك.
الوجه الثاني في تقرير السببية : أنه لما تقدم الأمر بذكر الله عقبه بهذا تنبيها على **أن من الناس من** لا يمتثل هذا الامر ولا يقبله ، ومنهم من يمتثله ويعمل بمقتضاه فهو الذي يقول : ﴿ربنآ آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة﴾ أو يرجع إلى القبول والأجر. وتقرر أن القبول أخص ، فمن الناس من يفعل العبادة فلا يجزيه ويخرجه من عهدة التكليف فقط ولا يثاب عليها كمن يصلي رياء ومنهم من يفعلها بالإخلاص ونية فتقبل منه ، ويثاب عليها في الدار الآخرة.
قال ابن عرفة : وعادتهم يختلفون في الألف واللام في "الناس "فمنهم من كان يقول إنها للعهد والمراد بها الناس الحجاج (ومنهم من جعلها للجنس فعلى أنها للعهد يكون التقسيم مستوفيا لأن الحجاج) لا بد أنهم يدعون إما بأمر دنيوي أو بأخروي (وعلى أنها للجنس لايكون مستوفيا) لأن بعض الناس قد لا يدعون بشيء أصلا لا دنيوي ولا أخروي.
قيل لابن عرفة : وكذلك على أنها للعهد لأن بعض الحجاج يدعو أيضا بأمر الآخرة فقط ؟ . أ هـ ﴿تفسير ابن عرفة صـ

---

(١) جامع لطائف التفسير، ٢٠١/٣

﴾٢٥٨
من لطائف الإمام القشيرى فى الآية
". (١)

"ومناسبة هذا التذييل للجملة أن المخبر عنهم قد بذلوا أنفسهم لله وجعلوا أنفسهم عبيده فالله رءوف بهم كرأفة الإنسان بعبده فإن كان ما صدق (من) عاما كما هو الظاهر في كل من بذل نفسه لله ، فالمعنى والله رءوف بهم فعدل عن الإضمار إلى الإظهار ليكون هذا التذييل بمنزلة المثل مستقلا بنفسه وهو من لوازم التذييل ، وليدل على أن سبب الرأفة بهم أنهم جعلوا أنفسهم عبادا له ، وإن كان ما صدق (من) صهيبا رضي الله عنه فالمعنى والله رءوف بالعباد الذين صهيب منهم ، والجملة تذييل على كل حال ، والمناسبة أن صهيبا كان عبدا للروم ثم لطائفة من قريش وهم بنو كلب وهم لم يرأفوا به ، لأنه عذب في الله فلما صار عبد الله رأف به.
أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٢ صـ ٢٧٣﴾
فائدة
وفي قوله : "بالعباد "خروج من ضمير الغيبة إلى الاسم الظاهر ؛ إذ كان الأصل "رؤوف به "أو "بهم "وفائدة هذا الخروج أن لفظ "العباد "يؤذن بالتشريف ، أو لأنه فاصلة فاختير لذلك. أ هـ ﴿تفسير ابن عادل حـ ٣ صـ ٤٧٢﴾
من لطائف الإمام القشيرى فى الآية
أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة ، ونعتتهم سوابق القسمة ، فآثروا رضاء الحق على أنفسهم ، واستسلموا بالكلية لمولاهم ، والله رؤوف بالعباد : ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال ، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته.أ هـ ﴿لطائف الإشارات حـ ١ صـ ١٧١﴾
من فوائد الشيخ الطاهر بن عاشور فى الآية
وفي هذه الآية وهي قوله : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا﴾ ﴿البقرة : ٢٠٤] إلى قوله ﴿رؤوف بالعباد﴾ معان من معاني أدب النفوس ومراتبها وأخلاقها تعلم المؤمنين واجب التوسم في الحقائق ودواخل الأمور وعدم الاغترار بالظواهر إلا بعد التجربة والامتحان ، **فإن من الناس من** يغر بحسن ظاهره وهو منطو على باطن سوء ويعطي من لسانه حلاوة تعبير وهو يضمر الشر والكيد قال المعري." (٢)
"قوله تعالى ﴿والله غنى حليم﴾
قال الفخر :
﴿والله غنى﴾ عن صدقة العباد فإنما أمركم بها ليثيبكم عليها ﴿حليم﴾ إذا لم يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بصدقته ، وهذا سخط منه ووعيد له. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ٤٤﴾

---

(١) جامع لطائف التفسير، ٢٦/٥
(٢) جامع لطائف التفسير، ١٢٦/٥

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿والله غني حليم﴾ أخبر تعالى عن غناه المطلق أنه غني عن صدقة العباد ؛ وإنما أمر بها ليثيبهم ، وعن حلمه بأنه لا يعاجل بالعقوبة من من وأذى بصدقته. أ هـ ﴿تفسير القرطبى حـ ٣ صـ ٣١٠﴾

وقال ابن عاشور :

وقوله : ﴿والله غني حليم﴾ تذييل للتذكير بصفتين من صفات الله تعالى ليتخلق بهما المؤمنون وهما : الغنى الراجع إليه الترفع عن مقابلة العطية بما يبرد غليل شح نفس المعطي ، والحلم الراجع إليه العفو والصفح عن رعونة بعض العفاة. أ هـ ﴿التحرير والتنوير حـ ٣ صـ ٤٧﴾

فائدة

قال الفخر :

اعلم **أن من الناس من** قال : إن الآية واردة في التطوع ، لأن الواجب لا يحل منعه ، ولا رد السائل منه ، وقد يحتمل أن يراد به الواجب ، وقد يعدل به عن سائل إلى سائل وعن فقير إلى فقير. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٧ صـ ٤٤﴾

بحث نفيس للعلامة ابن عاشور فى الآية

قال رحمه الله :

قوله تعالى : ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾

تخلص من غرض التنويه بالإنفاق في سبيل الله إلى التنويه بضرب آخر من الإنفاق وهو الإنفاق على المحاويج من الناس ، وهو الصدقات.." (١)

"الوجه الخامس : في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي ، وهو أن المراد ﴿إني متوفيك﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك (١) ، ثم قال : ﴿ورافعك إلي﴾ وذلك لأن من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله ، وأيضا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة ، والغضب والأخلاق الذميمة.

والوجه السادس : إن التوفي أخذ الشيء وافيا ، ولما علم الله **إن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى : ﴿وما يضرونك من شيء﴾ [النساء : ١١٣] .

والوجه السابع : ﴿إني متوفيك﴾ أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الوجه الثامن : أن التوفي هو القبض يقال : وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه ، كما يقال : سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه ، وقد يكون أيضا توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيا له.

---

(١) جامع لطائف التفسير، ٩/١٠

فإن قيل : فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله ﴿ورافعك إلي﴾ تكرارا.

قلنا : قوله ﴿إني متوفيك﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء ، فلما قال بعده ﴿ورافعك إلي﴾ كان هذا تعيينا للنوع ولم يكن تكرارا.

---

(١) لا يخفى ما فى هذا الوجه من البعد البعيد. والله أعلم.." [١]

"اعلم أن من الناس من قال : إنه لا فرق بين قوله ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ وبين قوله ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ [آل عمران : ٧٨] وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد ، أما المحققون فقالوا : المغايرة حاصلة ، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله ، فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب ، وتارة بالسنة ، وتارة بالإجماع ، وتارة بالقياس والكل من عند الله.

". [٢]

"وقال الفخر :

اختلفوا في عدد الملائكة ، وضبط الأقوال فيها أن من الناس من ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد ، فقالوا : لأن الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه ، والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم ، فلا بد من التغاير وهو ضعيف ، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي هي جزؤها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد ، أما على تقدير الأول : فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف ، وذكر ثلاثة آلاف ، وذكر خمسة آلاف ، والمجموع تسعة آلاف ، وإن حملناها على قصة أحد ، فليس فيها ذكر الألف ، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف ، والمجموع : ثمانية آلاف ، وأما على التقدير الثاني : وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا : عدد الملائكة خمسة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران ، فلا جرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران فلام جر وعدوا بخمسة آلاف ، وقد حكينا عن بعضهم أنه قال أمد أهل بدر بألف فقيل : إن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : ألن يكفيكم يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله تعالى يمدكم أيضا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد ، فكذا ههنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين فهذه وجوه كلها محتملة ، والله أعلم بمراده. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٨ صـ ١٨٥ ـ ١٨٦﴾." [٣]

"ولما كان الفائز السالم قد لا يكون مقربا قال اتباعا للوعيد بالوعد : ﴿وأطيعوا الله﴾ ذا الجلال والإكرام ﴿والرسول﴾ أي الكامل في الرسلية كمالا ليس لأحد مثله ، أي في امتثال الأوامر واجتناب النواهي بالإخلاص ﴿لعلكم

---

(١) جامع لطائف التفسير، ١٣/٣٥٣

(٢) جامع لطائف التفسير، ١٤/٢٨٠

(٣) جامع لطائف التفسير، ١٦/٢٧٩

ترحمون﴾ أي لتكونوا على رجاء وطمع في أن يفعل بكم فعل المرحوم بالتقريب والمحبة وإنجاز كل ما وعد على الطاعة من نصره وغيره. أ هـ ﴿نظم الدرر حـ ٢ صـ ١٥٢ ـ ١٥٦﴾

فصل

قال الفخر :

اعلم أن من الناس من قال : إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال : ﴿يا أيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربا ﴾ وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها ، وقال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا ، فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك. أ هـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٩ صـ ٣﴾." (١)

"الحجة الرابعة : أنه لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة أنه خاطب الله تعالى بقوله يا شيء ، وكيف يقال ذلك وهذا اللفظ في غاية الحقارة ، فكيف يجوز للعبد خطاب الله بهذا لاسم ، بل نقل عنهم أنهم كانوا يقولون : يا منشيء الأشياء ، يا منشيء الأرض والسماء.

واعلم أن من الناس من يظن أن هذا البحث واقع في المعنى ، وهذا في غاية البعد ، فإنه لا نزاع في أن الله تعالى موجود وذات وحقيقة ، إنما النزاع في أنه هل يجوز إطلاق هذا اللفظ عليه ، فهذا نزاع في مجرد اللفظ لا في المعنى ، ولا يجري بسببه تكفير ولا تفسيق ، فليكن الإنسان عالما بهذه الدقيقة حتى لا يقع في الغلط.

إطلاق لفظ الموجود على الله :

المسألة الثانية : في بيان أنه هل يجوز إطلاق لفظ الموجود على الله تعالى ؟

اعلم أن هذا البحث يجب أن يكون مسبوقا بمقدمة ، وهي أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك على معيين : أحدهما : أن يراد بالوجود الوجدان والإدراك والشعور ، ومتى أريد بالوجود الوجدان والإدراك فقد أريد بالموجود لا محالة المدرك والمشعور به ، والثاني : أن يراد بالوجود الحصول والتحقق في نفسه ، واعلم أن بين الأمرين ، فرقا ، وذلك لأن كونه معلوم الحصول في الأعيان يتوقف على كونه حاصلا في نفسه ، ولا ينعكس ، لأن كونه حاصلا في نفسه لا يتوقف على كونه معلوم الحصول في الأعيان : لأنه يمتنع في العقل كونه حاصلا في نفسه مع أنه لا يكون معلوما لأحد ، بقي ههنا بحث ، وهو أن لفظ الوجود هل وضع أولا للإدراك والوجدان ثم نقل ثانيا إلى حصول الشيء في نفسه/ أو الأمر فيه بالعكس ، أو وضعا معا ؟

فنقول : هذا البحث لفظي ، والأقرب هو الأول ، لأنه لولا شعور الإنسان بذلك الشيء لما عرف حصوله في نفسه ، فلما كان الأمر كذلك وجب أن يكون وضع اللفظ لمعنى الشعور والإدراك سابقا على وضعه لحصول الشيء نفسه.

---

(١) جامع لطائف التفسير، ٣٥٤/١٦

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٧
إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : إطلاق لفظ الموجود على الله تعالى يكون على وجهين : أحدهما : كونه معلوما مشعورا به ، والثاني : كونه في نفسه ثابتا متحققا ، أما بحسب المعنى / الأول فقد جاء في القرآن قال الله تعالى : ﴿لوجدوا الله﴾ (النساء : ٦٤) ولفظ الوجود ههنا بمعنى الوجدان والعرفان ، وأما بالمعنى الثاني فهو غير موجود في القرآن.

فإن قالوا : لما حصل الوجود بمعنى الوجدان لزم حصول الوجود بمعنى الثبوت والتحقق إذ لو كان عدما محضا لما كان الأمر كذلك.

فنقول : هذا ضعيف من وجهين : الأول : أنه لا يلزم من حصول الوجود بمعنى الوجدان والمعرفة حصول الوجود بمعنى الثبوت ؛ لما ثبت أن المعدوم قد يكون معلوما ، والثاني : أنا بينا أن هذا البحث ليس إلا في اللفظ ، فلا يلزم من حصول الاسم بحسب معنى حصول الاسم بحسب معنى آخر ، ثم نقول : ثبت بإجماع المسلمين إطلاق هذا الاسم فوجب القول به.

فإن قالوا : ألستم قلتم إن أسماء الله تعالى يجب كونها دالة على المدح والثناء ، ولفظ الموجود لا يفيد ذلك ؟

.

قلنا عدلنا عن هذا الدليل بدلالة الإجماع ، وأيضا فدلالة لفظ الموجود على المدح أكثر من دلالة لفظ الشيء عليه ، وبيانه من وجوه : الأول : أنه عند قوم يقع لفظ الشيء على المعدوم كما يقع على الموجود ، أما الموجود فإنه لا يقع على المعدوم البتة ، فكان إشعار هذا اللفظ بالمدح أولى. الثاني : أن لفظ الموجود بمعنى المعلوم يفيد صفة المدح والثناء ، لأنه يفيد أن بسبب كثرة الدلائل على وجوده وإلاهيته صار كأنه معلوم لكل أحد موجود عند كل أحد واجب الإقرار به عند كل عقل ، فهذا اللفظ أفاد المدح والثناء من هذا الوجه ، فظهر الفرق بينه وبين لفظ الشيء.

معنى قولنا ذات الله :

المسألة الثالثة : في الذات : روى عبد الله الأنصاري الهروي في الكتاب الذي سماه "بالفاروق" أخبارا تدل على هذا اللفظ : أحدها : عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن من أعظم الناس أجرا الوزير الصالح من أمير يطيعه في ذات الله" ، وثانيها : عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن إبراهيم لم يكذب إلا في ثلاث ثنتين في ذات الله" ، وثالثها : عن كعب بن عجرة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا تسبوا عليا فإنه كان مخشوشا في ذات الله" ، ورابعها : عن أبي ذر قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي الجهاد أفضل ؟

قال : "أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله" وخامسها : عن النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "أن للشيطان مصايد وفخوخا منها البطر بأنعم الله ، والفخر بعطاء الله ، والكبر على عباد الله ، واتباع الهوى في غير ذات الله".

/

". (١)

"الفائدة العاشرة : أن العقل لا يمكنه الاشتغال بشيء حالة الاستغراق في العلم بشيء آخر ، فإذا وجه فكره إلى شيء يبقى معزولا عن غيره ، فكأن العبد يقول : كلما استحضرت في ذهني العلم بشيء فاتني في ذلك الوقت العلم بغيره ، فإذا كان هذا لازما فالأولى أن أجعل قلبي وفكري مشغولا بمعرفة أشرف المعلومات ، وأجعل لساني مشغولا بذكر أشرف المذكورات ؛ فلهذا السبب أواظب على قوله : "يا هو".

الفائدة الحادية عشرة : أن الذكر أشرف المقامات ، قال عليه السلام حكاية عن الله تعالى : "إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي ، وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه" وإذا ثبت هذا فنقول : أفضل الأذكار ذكر الله بالثناء الخالي عن السؤال/ قال عليه السلام حكاية عن الله تعالى : "من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، إذا عرفت هذه المقدمة فنقول : العبد فقير محتاج ، والفقير المحتاج إذا نادى مخدومه بخطاب يناسب الطلب والسؤال كان ذلك محمولا على السؤال ، فإذا قال الفقير للغني "يا كريم" كان معناه أكرم وإذا قال له : "يا نفاع" كان معناه طلب النفع ، وإذا قال : "يا رحمن" كان معناه ارحم ، فكانت هذه الأذكار جارية مجرى السؤال ، وقد بينا أن الذكر إنما يعظم شرفه إذا كان خاليا عن السؤال والطلب ، أما إذا قال : "يا هو" كان معناه خاليا عن الأشعار بالسؤال والطلب ، فوجب أن يكون قولنا : "هو" أعظم الأذكار.

ولنختم هذا الفصل بذكر شريف رأيته في بعض الكتب : يا هو ، يا من لا هو إلا هو ، يا من لا إله إلا هو ، يا أزل ، يا أبد ، يا دهر ، يا ديهار ، يا ديهور ، يا من هو الحي الذي لا يموت.

ومن لطائف هذا الفصل أن الشيخ الغزالي رحمة الله عليه كان يقول : "لا إله إلا الله" توحيد العوام ، "ولا إله إلا هو" توحيد الخواص ، ولقد استحسنت هذا الكلام وقررته بالقرآن والبرهان : أما القرآن فإنه تعالى قال : ﴿ولا تدع مع الله إلاها ءاخرا لا إلاه إلا هو ﴾ ثم قال بعده : ﴿كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ (القصص : ٨٨) معناه إلا هو ، فذكر قوله إلا هو بعد قوله لا إله فدل ذلك على أن غاية التوحيد هي هذه الكلمة ، وأما البرهان فهو **أن من الناس من** قال : إن تأثير / الفاعل ليس في تحقيق الماهية وتكوينها ، بل لا تأثير له إلا في إعطاء صفة الوجود لها ، فقلت : فالوجود أيضا ماهية ، فوجب أن لا يكون الوجود واقعا بتأثيره ، فإن التزموا ذلك وقالوا الواقع بتأثير الفاعل موصوفية الماهية بالوجود فنقول : تلك الموصوفية إن لم تكن مفهوما مغايرا للماهية والوجود امتنع إسنادها إلى الفاعل ، وإن كانت مفهوما مغايرا فذلك المفهوم المغاير لا بد وأن يكون له ماهية ؛ وحينئذ يعود الكلام ، فثبت أن القول بأن المؤثر لا تأثير له في الماهيات ينفي التأثير والمؤثر ، وينفي الصنع والصانع بالكلية ، وذلك باطل فثبت أن المؤثر يؤثر في الماهيات ، فكل ما بالغير فإنه يرتفع بارتفاع الغير ، فلولا المؤثر لم تكن تلك الماهية ماهية ولا حقيقة ، فبقدرته صارت الماهيات ماهيات ، وصارت الحقائق حقائق وقبل تأثير قدرته فلا ماهية ولا وجود ولا حقيقة ولا ثبوت ، وعند هذا يظهر صدق قولنا : "لا

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٧٢

هو إلا هو" أي : لا تقرر لشيء من الماهيات ولا تخصص لشيء من الحقائق إلا بتقريره وتخصيصه ، فثبت أنه "لا هو إلا هو" والله أعلم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٧

الباب الثامن

في بقية المباحث عن أسماء الله تعالى ، وفيه مسائل

هل أسماؤه تعالى توقيفية :

المسألة الأولى : اختلف العلماء في أن أسماء الله تعالى توقيفية أم اصطلاحية ، قال بعضهم لا يجوز إطلاق شيء من الأسماء والصفات على الله تعالى إلا إذا كان واردا في القرآن والأحاديث الصحيحة ، وقال آخرون : كل لفظ دل على معنى يليق بجلال الله وصفاته فهو جائز ، وإلا فلا ، وقال الشيخ الغزالي رحمة الله عليه : الاسم غير ، والصفة غير ، فاسمي محمد ، واسمك أبو بكر ، فهذا من باب الأسماء ، وأما الصفات فمثل وصف هذا الإنسان بكونه طويلا فقيها كذا وكذا ، إذا عرفت هذا الفرق فيقال : أما إطلاق الاسم على الله فلا يجوز إلا عند وروده في القرآن والخبر ، وأما الصفات فإنه لا يتوقف على التوقيف.

." (١)

"الحجة الأولى : قوله تعالى : ﴿وهو الله فى السماوات﴾ وقوله : ﴿هو الله الذى لا إلاه إلا هو ﴾ فإن قوله : "الله" لا بد وأن يكون صفة ، ولا يجوز أن يكون اسم علم ، بدليل أنه لا يجوز أن يقال : هو زيد في البلد ، وهو بكر ، ويجوز أن يقال : هو العالم الزاهد في البلد ، وبهذا الطريق يعترض على قول النحويين : إن الضمير لا يقع موصوفا ولا صفة ، وإذا ثبت كونه صفة امتنع أن يكون اسم علم.

الحجة الثانية : أن اسم العلم قائم مقام الإشارة ، فلما كانت الإشارة ممتنعة في حق الله تعالى كان اسم العلم ممتنعا في حقه.

الحجة الثالثة : أن اسم العلم إنما يصار إليه ليتميز شخص عن شخص آخر يشبهه في الحقيقة والماهية ، وإذا كان هذا في حق الله ممتنعا كان القول بإثبات الاسم العلم محالا في حقه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٧

والجواب عن الأول لم لا يجوز أن يكون ذلك جاريا مجرى أن يقال : هذا زيد الذي / لا نظير له في العلم والزهد ؟

والجواب عن الثاني أن الاسم العلم هو الذي وضع لتعيين الذات المعينة ، ولا حاجة فيه إلى كون ذلك المسمى مشارا إليه بالحس أم لا ، وهذا هو الجواب عن الحجة الثالثة.

المسألة الثانية : الذين قالوا : إنه اسم مشتق ذكروا فيه فروعا : .

الفرع الأول : أن الإله هو المعبود ، سواء عبد بحث أو بباطل ، ثم غلب في عرف الشرع على المعبود بالحق ، وعلى

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٩٢

هذا التفسير لا يكون إلها في الأزل.

واعلم أنه تعالى هو المستحق للعبادة ، وذلك لأنه تعالى هو المنعم بجميع النعم أصولها وفروعها ، وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن ، والواجب واحد وهو الله تعالى ، وما سواه ممكن ، والممكن لا يوجب إلا بالمرجح ، فكل الممكنات إنما وجدت بإيجاده وتكوينه إما ابتداء وإما بواسطة ، فجميع ما حصل للعبد من أقسام النعم لم يحصل إلا من الله ، فثبت أن غاية الأنعام صادرة من الله والعبادة غاية التعظيم فإذا ثبت هذا فنقول : إن غاية التعظيم لا يليق إلا لمن صدرت عنه غاية الإنعام فثبت أن المستحق للعبودية ليس إلا الله تعالى.

الفرع الثاني : **أن من الناس من** يعبد الله لطلب الثواب وهو جهل وسحف ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن من عبد الله ليتوصل بعبادته إلى شيء آخر كان المعبود في الحقيقة هو ذلك الشيء ، فمن عبد الله لطلب الثواب كان معبوده في الحقيقة هو الثواب/ وكان الله تعالى وسيلة إلى الوصول إلى ذلك المعبود ، وهذا جهل عظيم. الثاني : أنه لو قال : أصلي لطلب الثواب أو للخوف من العقاب ، لم تصح صلاته. الثالث : أن من عمل عملا لغرض آخر كان بحيث لو وجد ذلك الغرض بطريق آخر لترك الواسطة ، فمن عبد الله للأجر والثواب كان بحيث لو وجد الأجر والثواب بطريق آخر لم يعبد الله ، ومن كان كذلك لم يكن محبا لله ولم يكن راغبا في عبادة الله ، وكل ذلك جهل ، ومن الناس من يعبد الله لغرض أعلى من الأول ، وهو أن يتشرف بخدمة الله ، لأنه إذا شرع في في الصلاة حصلت النية في القلب ، وتلك النية عبارة عن العلم بعزة الربوبية وذلة العبودية ، وحصل الذكر في اللسان ، وحصلت الخدمة في الجوارح والأعضاء فيتشرف كل جزء من أجزاء العبد بخدمة الله ، فمقصود العبد حصول هذا الشرف.

الفرع الثالث : من الناس من طعن في قول من يقول : الإله هو المعبود من وجوه : الأول : أن الأوثان عبدت مع أنها ليست آلهة. الثاني : أنه تعالى إله الجمادات والبهائم ، مع أن صدور العبادة منها محال. الثالث : أنه تعالى إله المجانين والأطفال ، مع أنه لا تصدر / العبادة عنها. الرابع : أن المعبود ليس له بكونه معبودا صفة ؛ لأنه لا معنى لكونه معبودا إلا أنه مذكور بذكر ذلك الإنسان ، ومعلوم بعلمه ، ومراد خدمته بإرادته ، وعلى هذا التقدير فلا تكون الإلهية صفة لله تعالى. الخامس : يلزم أن يقال : إنه تعالى ما كان إلها في الأزل.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٧

الفرع الرابع : من الناس من قال : الإله ليس عبارة عن المعبود ، بل الإله هو الذي يستحق أن يكون معبودا ، وهذا القول أيضا يرد عليه أن لا يكون إلها للجمادات والبهائم والأطفال والمجانين ، وأن لا يكون إلها في الأزل ، ومنهم من قال : إنه القادر على أفعال لو فعلها لاستحق العبادة ممن يصح صدور العبادة عنه ، واعلم أن إن فسرنا الإله بالتفسيرين الأولين لم يكن إلها في الأزل ، ولو فسرناه بالتفسير الثالث كان إلها في الأزل.

". (١)

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٩٦

"الحكم الثاني : من أحكام كونه تعالى ملكا أنه ملك لا يشبه سائر الملوك لأنهم إن تصدقوا بشيء انتقص ملكهم ، وقلت خزائنهم ؛ أما الحق سبحانه وتعالى فملكه لا ينتقص بالعطاء والإحسان ، بل يزداد ، بيانه أنه تعالى إذا أعطاك ولدا واحدا لم يتوجه حكمه إلا على ذلك الولد الواحد ، أما لو أعطاك عشرة من الأولاد كان حكمه وتكليفه لازما على الكل ، فثبت أنه تعالى كلما كان أكثر عطاء كان أوسع ملكا. الحكم الثالث : من أحكام كونه ملكا كمال الرحمة ، والدليل عليه آيات : إحداها : ما ذكر في هذه السورة من كونه ربا رحمانا رحيما وثانيها : قوله تعالى : ﴿هو الله الذى لا إلاه إلا هوا عالم الغيب والشهادةا هو الرحمان الرحيم﴾ ثم قال بعده : ﴿هو الله الذى لا إلاه إلا هو الملك﴾ (الحشر : ٢٢ ، ٢٣) ثم ذكر بعده كونه قدوسا عن الظلم والجور ، ثم ذكر بعده كونه سلاما ، وهو الذي سلم عباده من ظلمه وجوره ، ثم ذكر بعده كونه مؤمنا ، وهو الذي يؤمن عبيده عن جوره وظلمه ، فثبت أن كونه ملكا لا يتم إلا مع كمال الرحمة. وثالثها : قوله تعالى : ﴿الملك يومـاذ الحق للرحمان ﴾ (الفرقان : ٢٦) لما أثبت لنفسه الملك أردفه بأن وصف نفسه بكونه رحمانا ، يعني إن كان ثبوت الملك له في ذلك اليوم يدل على كمال القهر ، فكونه رحمانا يدل على زوال الخوف وحصول الرحمة. ورابعها : قوله تعالى : ﴿قل أعوذ برب الناس * ملك الناس﴾ فذكر أولا كونه ربا للناس ثم أردفه بكونه ملكا للناس ، وهذه الآيات دالة على أن الملك لا يحسن ولا يكمل إلا مع الإحسان والرحمة ، فيا أيها الملوك اسمعوا هذه الآيات وارحموا هؤلاء المساكين ولا تطلبوا مرتبة زائدة في الملك على ملك الله تعالى. الحكم الرابع : للملك أنه يجب على الرعية طاعته فإن خالفوه ولم يطيعوه وقع الهرج والمرج في العالم وحصل الاضطراب والتشويش ودعا ذلك إلى تخريب العالم وفناء الخلق ، فلما شاهدتم أن مخالفة الملك المجازي تفضي آخر الأمر إلى تخريب العالم وفناء الخلق فانظروا إلى مخالفة ملك الملوك كيف يكون تأثيرها في زوال المصالح وحصول المفاسد ؟

وتمام تقريره أنه تعالى بين أن الكفر سبب لخراب العالم ، قال تعالى : ﴿تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمان ولدا﴾ (مريم : ٩٠ ، ٩١) وبين أن طاعته سبب للمصالح قال تعالى : ﴿وأمر أهلك بالصلواة واصطبر عليها لا نسالك رزقا نحن نرزقكا والعاقبة للتقوى ﴾ (طه : ١٣٢) فيا أيها الرعية كونوا مطيعين لملوككم/ ويا أيها الملوك كونوا مطيعين لملك الملوك حتى تنتظم مصالح العالم. الحكم الخامس : أنه لما وصف نفسه بكونه ملكا ليوم الدين أظهر للعالمين كمال عدله فقال : ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ (فصلت : ٤٦) ثم بين كيفية العدل فقال : ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيا ﴾ (الأنبياء : ٤٧) فظهر بهذا أن كونه ملكا حقا ليوم الدين إنما يظهر بسبب العدل ، فإن كان الملك المجازي عادلا كان ملكا حقا وإلا كان ملكا باطلا فإن كان ملكا عادلا حقا حصل من بركة عدله الخير والراحة في العالم وإن كان ملكا ظالما ارتفع الخير من العالم.

جزء : ١ رقم الصفحة : ٢٧

يروى أن أنوشروان خرج إلى الصيد يوما ، وأوغل في الركض ، وانقطع عن عسكره واستولى العطش عليه ، ووصل إلى بستان ، فلما دخل ذلك البستان رأى أشجار الرمان فقال لصبي حضر في ذلك البستان : أعطني رمانة واحدة ، فأعطاه رمانة فشقها وأخرج حبها وعصرها لخرج منه ماء كثير فشربه ، وأعجبه ذلك الرمان فعزم على أن يأخذ ذلك البستان من مالكه ثم قال لذلك الصبي : أعطني رمانة أخرى ، فأعطاه فعصرها فخرج منها ماء قليل فشربه فوجده عفصا مؤذيا ،

فقال : أيها الصبي لم صار الرمان هكذا ؟

فقال الصبي : لعل ملك البلد عزم على الظلم ، فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا ، فتاب أنوشروان في قلبه عن ذلك الظلم ، وقال لذلك الصبي : أعطني رمانة أخرى ، فأعطاه فعصرها فوجدها أطيب من الرمانة الأولى ، فقال للصبي : لم بدلت هذه الحالة ؟

فقال الصبي : لعل ملك البلد تاب عن ظلمه ، فلما سمع أنوشروان هذه القصة من ذلك الصبي وكانت مطابقة لأحوال قلبه تاب بالكلية عن الظلم ، فلا جرم بقي اسمه مخلدا في الدنيا بالعدل ، حتى **إن من الناس من** يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "ولدت في زمن الملك العادل".

". (١)

"القمر فيكون تحت كرات السيارات لا فوقها فإن قيل إنا نرى هذه السيارات تكسف هذه الثوابت والكاسف تحت المكسوف لا محالة قلنا هذه السيارات إنما تكسف الثوابت القريبة من المنطقة فأما الثوابت القريبة من القطبين فلا/ فلم لا يجوز أن يقال هذه الثوابت القريبة من المنطقة مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق كرة زحل وهذه الثوابت القريبة من القطبين التي لا يمكن انكسافها بالسيارات مركوزة في كرة أخرى تحت كرة القمر وهذا الاحتمال لا دافع له ، ثم نقول هب أنكم أثبتم هذه الأفلاك التسعة فما الذي دلكم على نفي الفلك العاشر ، أقصى ما في الباب أن الرصد ما دل إلا على هذا القدر إلا أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول ، والذي يحقق ذلك أنه قال بعض المحققين منهم : إنه ما تبين لي إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة أو كرات منطو بعضها على بعض وأقول هذا الاحتمال واقع ، لأن الذي يستدل به على وحدة كرة الثوابت ليس إلا أن يقال إن حركاتها متشابهة ومتى كان الأمر كذلك كانت مركوزة في كرة واحدة ولكتا المقدمتين غير يقينتيني. أما الأولى : فلأن حركاتها وإن كانت في الحس واحدة ولكن لعلها لا تكون في الحقيقة واحدة ، لأنا لو قدرنا أن واحدا منها يتمم الدورة في ستة وثلاثين ألف سنة. والآخر يتمم الدورة في مثل هذه المدة بنقصان سنة واحدة فإذا وزعنا ذلك النقصان على هذه السنين كان الذي هو حصة السنة الواحدة ثلاثة عشر جزءا من ألف ومائتي جزء من واحد ، وهذا القدر مما لا يحس به بل العشر سنين والمائة والألف مما لا يحس به البتة ، وإذا كان ذلك محتملا سقط القطع البتة عن استواء حركات الثوابت. وأما الثانية : فلأن استواء حركات الثوابت في مقادير حركاتها لا يوجب كونها بأسرها مركوزة في كرة واحدة لاحتمال كونها مركوزة في كرات متباينة وإن كانت مشتركة في مقادير حركاتها وهذا كما يقولون في ممثلات أكثر الكواكب فإنها في حركاتها مساوية لفلك الثوابت فكذا ههنا. وأقول إن هذا الاحتمال الذي ذكره هذا القائل غير مختص بفلك الثوابت فلعل الجرم المتحرك بالحركة اليومية ليس جرما واحدا بل أجراما كثيرة إما مختلفة الحركات لكن بتفاوت قليل لا تفي بإدراكها أعمارنا وأرصادنا وإما متساوية على الإطلاق ولكن تساويها لا يوجب وحدتها ، ومن أصحاب الهيئة من قطع بإثبات أفلاك أخر غير هذه التسعة **فإن من الناس من** أثبت كرة فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم واستدل عليه من وجوه : الأول : أن الراصدين للميل الأعظم وجدوه

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٤٥

مختلف المقدار فكل من كان رصده أقدم وجد مقدار الميل أعظم فإن بطليموس وجده "لح يا" ثم وجد في زمان المأمون "كح له" ثم وجد بعد / المأمون قد تناقص بدقيقة وذلك يقتضي أن من شأن المنطقتين أن يقل ميلهما تارة ويكثر أخرى وهذا إنما يمكن إذا كان بين كرة الكل وكرة الثوابت كرة أخرى يدور قطباها حول قطبي كرة الكل وتكون كرة الثوابت يدور قطباها حول قطبي تلك الكرة فيعرض لقطبها تارة أن يصير إلى جانب الشمال منخفضا وتارة إلى جانب الجنوب مرتفعا فيلزم من ذلك أن ينطبق معدل النهار على منطقة البروج ، وأن ينفصل عنه تارة أخرى إلى الجنوب عندما يرتفع قطب فلك الثوابت إلى الجنوب ، وتارة إلى الشمال. كما هو الآن. الثاني : أن أصحاب الأرصاد اضطربوا اضطرابا شديدا في مقدار سير الشمس على ما هو مشروح في "كتب النجوم" حتى أن بطليموس حكى عن أبرخيس أنه كان شاكا في أن هذه العودة تكون في أزمنة متساوية أو مختلفة وأنه يقول في بعض أقاويله : إنها مختلفة ، وفي بعضها : إنها متساوية في إن الناس ذكروا في سبب اختلافه قولين : أحدهما : قول من يجعل أوج الشمس متحركا فإنه زعم أن الاختلاف الذي يلحق حركة الشمس من هذه الجهة يختلف عند نقطة الاعتدال لاختلاف بعدها عن الأوج فيختلف زمان سير الشمس من أجله. الثاني : قول أهل الهند والصين وبابل وأكثر قدماء الروم ومصر والشام : إن السبب فيه انتقال فلك البروج وارتفاع قطبه وانحطاطه ، وحكي عن أبرخيس أنه كان يعتقد هذا الرأي وذكر بارياء الإسكندراني أن أصحاب الطلسمات كانوا يعتقدون ذلك وأن نقطة فلك البروج تتقدم عن موضعها وتتأخر ثمان درجات وقالوا إن ابتداء الحركة من "كب" درجة من الحوت إلى أول الحمل واعلم أن هذا الخبط مما ينبهك على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك هذه الأشياء وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية/ فإن قال قائل فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد ؟

قلنا الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٣٧٩

". (١)

"المسألة الثالثة : اختلفوا في أن إبليس هل كان من الملائكة ؟

قال بعض المتكلمين : ولا سيما المعتزلة إنه لم يكن منهم وقال كثير من الفقهاء إنه كان منهم واحتج الأولون بوجوه : أحدها : أنه كان من الجن فوجب أن لا يكون من الملائكة وإنما قلنا إنه كان من الجن لقوله تعالى في سورة الكهف : ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾ (الكهف : ٥٠) واعلم أن من الناس من ظن أنه لما ثبت أنه كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لأن الجن جنس مخالف للملك وهذا ضعيف لأن الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر ولهذا سمي الجنين جنينا لاجتنابه ومنه الجنة لكونها ساترة والجنة لكونها مستترة بالأغصان ومنه الجنون لاستتار العقل فيه ، ولما ثبت هذا والملائكة مستورون عن العيون وجب إطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة فثبت أن هذا القدر لا يفيد المقصود فنقول لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ﴿ويوم يحشرهم جميعا

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٠٦

ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون * قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن ﴾ (سبأ : ٤٠ ، ٤١) وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك. فإن قيل لا نسلم أنه كان من الجن أما قوله تعالى : ﴿كان من الجن﴾ فلم لا يجوز أن يكون المراد كان من الجنة على ما روى عن ابن مسعود أنه قال كان من الجن أي كان خازن الجنة سلمنا ذلك لكن لا يجوز أن يكون قوله : ﴿من الجن﴾ أي صار من الجن كما أن قوله وكان من الكافرين أي صار من الكافرين سلمنا أن ما ذكرت / يدل على أنه من الجن فلم قلت أن كونه من الجن ينافي كونه من الملائكة وما ذكرتم من الآية معارض بآية أخرى وهي قوله تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ (الصافات : ١٥٨) وذلك لأن قريشا قالت : الملائكة بنات الله فهذه الآية تدل على أن الملك يسمى جنا ؟

والجواب : لا يجوز أن يكون المراد من قوله : ﴿كان من الجن﴾ أنه كان خازن الجنة لأن قوله : ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾ يشعر بتعليل تركه للسجود لكونه جنيا ولا يمكن تعليل ترك السجود بكونه خازنا للجنة فيبطل ذلك قوله

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٢٧

﴿كان من الجن﴾ أي صار من الجن. قلنا هذا خلاف الظاهر فلا يصار إلا عند الضرورة وأما قوله تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ﴾ قلنا يحتمل أن بعض الكفار أثبت ذلك النسب في الجن كما أثبته في الملائكة وأيضا فقد بينا أن الملك يسمى جنا بحسب أصل اللغة لكن لفظ الجن بحسب العرف اختص بغيرهم كما أن لفظ الدابة وإن كان بحسب اللغة الأصلية يتناول كل ما يدب لكنه بحسب العرف اختص ببعض ما يدب فتحمل هذه الآية على اللغة الأصلية ، والآية التي ذكرناها على العرف الحادث. وثانيها : أن إبليس له ذرية والملائكة لا ذرية لهم ، إنما قلنا إن إبليس له ذرية لقوله تعالى في صفته : ﴿أفتتخذونه وذريته ا أولياء من دونى﴾ (الكهف : ٥٠) وهذا صريح في إثبات الذرية له ، وإنما قلنا إن الملائكة لا ذرية لهم لأن الذرية إنما تحصل من الذكر والأنثى والملائكة لا أنثى فيهم لقوله تعالى : ﴿وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم﴾ (الزخرف : ١٩) أنكر على من حكم عليهم بالأنوثة فإذا انتفت الأنوثة انتفى التوالد لا محالة فانتفت الذرية ، وثالثها : أن الملائكة معصومون على ما تقدم بيانه وإبليس لم يكن كذلك فوجب أن لا يكون من الملائكة ورابعها : أن إبليس مخلوق من النار والملائكة ليسوا كذلك إنما قلنا إن إبليس مخلوق من النار لقوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿خلقتني من نار﴾ وأيضا فلأنه كان من الجن لقوله تعالى : ﴿كان من الجن﴾ والجن مخلوقون من النار لقوله تعالى : ﴿والجآن خلقناه من قبل من نار السموم﴾ (الحجر : ٢٧) وقال : ﴿خلق الانسان من صلصال كالفخار * وخلق الجآن من مارج من نار﴾ (الرحمن : ١٤ ، ١٥) وأما أن الملائكة ليسوا مخلوقين من النار بل من النور ، فلما روي الزهري عن عروة عن عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار ، ولأن من المشهور الذي لا يدفع أن الملائكة روحانيون ، وقيل إنما سموا بذلك ، لأنهم خلقوا من الريح أو الروح. وخامسها : أن الملائكة رسل

لقوله تعالى :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٢٧." (١)

"الأنبياء : ٢٧) والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس قال تعالى : ﴿فاعتبروا يا أولى الابصار﴾ (الحشر : ٢) وقال معاذ اجتهدت برأيي فصوبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك. ومعلوم أن العمل بالاستنباط أشق من العمل بالنص الثالث : أن الشبهات للبشر أكثر مما للملائكة لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السيارة أسبابا لحوادث هذا العالم فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة والملائكة لا يحتاجون لأنهم ساكنون في عالم السموات فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبر الصانع ، الرابع : أن الشيطان لا سبيل له إلى وسوسة الملائكة وهو مسلط على البشر في الوسوسة وذلك تفاوت عظيم إذا ثبت أن طاعتهم أشق فوجب أن يكونوا أكثر ثوابا بالنص فقوله عليه الصلاة والسلام : "أفضل العبادات أحمزها" أي أشقها وأما القياس فلأنا نعلم أن الشيخ الذي لم يبق له ميل إلى / النساء إذا امتنع عن الزنا فليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنهن مع الميل الشديد والشوق العظيم فكذا ههنا وسابعها : أن الله تعالى خلق الملائكة عقولا بلا شهوة وخلق البهائم شهوات بلا عقل وخلق الآدمي وجمع فيه بين الأمرين فصار الآدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجات لا حد لها فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة ثم وجدنا الآدمي إذا غلب هواه عقله حتى صار يعمل بهواه دون عقله فإنه يصير دون البهيمة على ما قال تعالى : ﴿ أولئك كالانعام بل هم أضل ﴾ (الأعراف : ١٧٩) ولذلك صار مصيرهم إلى النار دون البهائم فيجب أن يقال إذا غلب عقله هواه حتى صار لا يعمل بهوى نفسه شيئا بل يعمل بهوى عقله أن يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر. وثامنها : أن الملائكة حفظة وبنو آدم محفوظون والمحفوظ أعز وأشرف من الحافظ فيجب أن يكون بنو آدم أكرم وأشرف على الله تعالى من الملائكة. وتاسعها : ما روى أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أركبه على البراق ليلة المعراج وهذا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل منه ولما وصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى بعض المقامات تخلف عنه جبريل عليه السلام وقال : "لو دنوت أنملة لاحترقت" وعاشرها : قوله عليه الصلاة والسلام : "إن لي وزيرين في السماء وزيرين في الأرض ، أما اللذان في السماء فجبريل وميكائيل ، وأما اللذان في الأرض فأبو بكر وعمر" فدل هذا الخبر على أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان كالملك وجبريل وميكائيل كانا كالوزيرين له والملك أفضل من الوزير فلزم أن يكون محمدا أفضل من الملك. هذا تمام القول في دلائل من فضل البشر على الملك. أجاب القائلون بتفضيل الملك عن الحجة الأولى فقالوا. قد سبق بيان **أن من الناس من** قال : المراد من السجود هو التواضع لا وضع الجبهة على الأرض ومنهم من سلم أنه عبارة عن وضع الجبهة على الأرض لكنه قال السجود لله وآدم قبلة السجود وعلى هذين القولين لا إشكال أما إذا سلمنا أن السجود كان لآدم عليه السلام فلم قلتم إن ذلك لا يجوز من الأشرف في حق الشريف وذلك لأن الحكمة قد تقتضي ذلك كثيرا من حب الأشرف وإظهار النهاية في الانقياد والطاعة فإن للسلطان أن يجلس أقل عبيده في الصدر وأن يأمر الأكابر بخدمته ويكون غرضه من ذلك إظهار كونهم مطيعين له

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٥٤

في كل الأمور منقادين له في جميع الأحوال فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك وأيضا أليس من مذهبنا أنه (يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد) وأن أفعاله غير معللة ولذلك قلنا إنه لا اعتراض عليه في خلق الكفر في الإنسان ثم في تعذيبه عليه أبد الآباد وإذا كان كذلك فكيف يعترض عليه في أن يأمر الأعلى بالسجود للأدنى وأما الحجة الثانية : فجوابها أن آدم عليه السلام إنما جعل خليفة في الأرض وهذا يقتضي أن يكون آدم عليه السلام كان أشرف من كل من في الأرض ولا يدل على كونه أشرف من ملائكة السماء فإن قيل فلم لم يجعل واحدا من ملائكة السماء خليفة له في الأرض قلنا لوجوه / منها أن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة ومنها أن الجنس إلى الجنس أميل ومنها أن الملائكة في نهاية الطهارة والعصمة وهذا هو المراد بقوله تعالى :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٢٧." (١)

"وأما قوله تعالى : ﴿بعضكم لبعض عدو ﴾ فهذا تعريف لأدم وحواء عليهما السلام أن إبليس عدو لهما ولذريتهما كما عرفهما ذلك قبل الأكل من الشجرة فقال : ﴿فقلنا يا ـاادم إن هاذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ (طه : ١١٧) ، فإن قيل : إن إبليس لما أبى من السجود صار كافرا / وأخرج من الجنة وقيل له : ﴿فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها﴾ (الأعراف : ١٣) ، وقال أيضا : ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ (ص : ٧٧ (الحجر : ٣٤) ، وإنما اهبط منها لأجل تكبره ، فزلة آدم عليه السلام إنما وقعت بعد ذلك بمدة طويلة ، ثم أمر بالهبوط بسبب الزلة ، فلما حصل هبوط إبليس قبل ذلك كيف يكون قوله : ﴿اهبطوا ﴾ ، متناولا له ؟

قلنا : إن الله تعالى لما أهبطه إلى الأرض فلعله عاد إلى السماء مر أخرى لأجل أن يوسوس إلى آدم وحواء فحين كان آدم وحواء في الجنة قال الله تعالى لهما : ﴿اهبطا﴾ ، فلما خرجا من الجنة واجتمع إبليس معهما خارج الجنة أمر الكل فقال : ﴿اهبطوا ﴾ ومن الناس من قال ليس معنى قوله : ﴿اهبطوا ﴾ أنه قال ذلك لهم دفعة واحدة ، بل قال ذلك لكل واحد منهم على حدة في وقت. الوجه الثاني : أن المراد آدم وحواء والحية وهذا ضعيف لأنه ثبت بالإجماع أن المكلفين هم الملائكة والجن والإنس ، ولقائل أن يمنع هذا الإجماع **فإن من الناس من** يقول قد يحصل في غيرهم جمع من المكلفين على ما قال تعالى :

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٢٧

﴿كل قد علم صلاته وتسبيحه ﴾ (النور : ٤١) ، وقال سليمان للهدهد : ﴿لاعذبنه عذابا شديدا﴾ (النمل : ٢١). الثالث : المراد آدم وحواء وذريتهما لأنهما لما كانا أصل الإنس جعلا كأنهما الإنس كلهم ، والدليل عليه قوله : ﴿فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوا ولكم فى الارض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى ا ءادم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعا ﴾ (البقرة : ٣٨ ، ٣٦) ، ويدل عليه أيضا قوله : ﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا باايااتنآ أوالا ئك أصحاب النارا هم فيها خالدون﴾ (البقرة : ٣٨ ، ٣٩). وهذا حكم يعم الناس كلهم

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٧٢

ومعنى : ﴿بعضكم لبعض عدو ﴾ ما عليه الناس من التعادي والتباغض وتضليل بعضهم لبعض ، واعلم أن هذا القول ضعيف لأن الذرية ما كانوا موجودين في ذلك الوقت فكيف يتناولهم الخطاب ؟

أما من زعم أن أقل الجمع اثنان فالسؤال زائل على قوله :

المسألة الثالثة : اختلفوا في أن قوله : ﴿اهبطوا ﴾ أمر أو إباحة ، والأشبه أنه أمر لأن فيه مشقة شديدة لأن مفارقة ما كانا فيه من الجنة إلى موضع لا تحصل المعيشة فيه إلا بالمشقة والكد من أشق التكاليف ، وإذا ثبت هذا بطل ما يظن أن ذلك عقوبة ، لأن التشديد في التكليف سبب للثواب ، فكيف يكون عقابا مع ما فيه من النفع العظيم ؟

فإن قيل : ألستم تقولون في الحدود وكثير من الكفارات إنها عقوبات وإن كانت من باب التكاليف ، قلنا : أما الحدود فهي واقعة بالمحدود من فعل الغير ، فيجوز أن تكون عقابا إذا كان الرجل مصرا ، وأما الكفارات فإنما يقال في بعضها إنه يجري مجرى العقوبات لأنها لا تثبت إلا مع المأثم. فأما أن تكون عقوبة مع كونها تعريضات للثواب العظيم فلا.

المسألة الرابعة : أن قوله تعالى : ﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ ، أمر بالهبوط وليس أمرا بالعداوة ، لأن عداوة إبليس لآدم وحواء عليهما السلام بسبب الحسد والاستكبار عن السجود واختداعه إياهما حتى أخرجهما من الجنة وعداوته لذريتهما بإلقاء الوسوسة والدعوة إلى الكفر والمعصية ، وشيء من ذلك لا يجوز أن يكون مأمورا به ، فأما عداوة آدم لإبليس / فإنها مأمور بها لقوله تعالى : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ (فاطر : ٦) وقال تعالى : ﴿يابنى ءادم لا يفتننكم الشيطان كمآ أخرج أبويكم من الجنة﴾ (الأعراف : ٢٧) إذا ثبت هذا ظهر أن المراد من الآية اهبطوا من السماء وأنتم بعضكم لبعض عدو.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٢٧

" (١).

"اعلم أن هذا هو الإنعام الرابع والمراد من الفرقان يحتمل أن يكون هو التوراة وأن يكون شيئا داخلا في التوراة وأن يكون شيئا خارجا عن التوراة فهذه أقسام ثلاثة لا مزيد عليها وتقرير الاحتمال الأول أن التوراة لها صفتان كونها كتابا منزلا وكونها فرقانا تفرق بين الحق والباطل فهو كقولك : رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ونظيره قوله تعالى : ﴿ولقد ءاتينا موسى وهارون الفرقان وضيآء وذكرا﴾ (الأنبياء : ٤٨) وأما تقرير الاحتمال الثاني فهو أن يكون المراد من الفرقان ما في التوراة من بيان الدين لأنه إذا أبان ظهر الحق متميزا من / الباطل ، فالمراد من الفرقان بعض ما في التوراة وهو بيان أصول الدين وفروعه. وأما تقرير الاحتمال الثالث فمن وجوه ، أحدها : أن يكون المراد من الفرقان ما أوتي موسى عليه السلام من اليد والعصا وسائر الآيات وسميت بالفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل. وثانيها : أن يكون المراد من الفرقان النصر والفرج الذي آتاه الله بني إسرائيل على قوم فرعون ، قال تعالى : ﴿ومآ أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ﴾ (الأنفال : ٤١) والمراد النصر الذي آتاه الله يوم بدر ، وذلك لأن قبل ظهور النصر يتوقع كل واحد من الخصمين في أن يكون هو المستولي وصاحبه هو المقهور ، فإذا ظهر النصر تميز الراجح من

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٨٩

المرجوح وانفرق الطمع الصادق من الطمع الكاذب ، وثالثها : قال قطرب الفرقان هو انفراق البحر لموسى عليه السلام.
فإن قلت : فهذا قد صار مذكورا في قوله تعالى : ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ (البقرة : ٥٠) وأيضا فقوله تعالى بعد ذلك : ﴿لعلكم تهتدون﴾ لا يليق إلا بالكتاب لأن ذلك لا يذكر إلا عقيب الهدى. قلت : الجواب عن الأول أنه تعالى لم يبين في قوله تعالى : ﴿وإذ فرقنا بكم البحر﴾ أن ذلك كان لأجل موسى عليه السلام ، وفي هذه الآية بين ذلك التخصيص على سبيل التنصيص ، وعن الثاني أن فرق البحر كان من الدلائل فلعل المراد أنا لما آتينا موسى فرقان البحر استدلوا بذلك على وجود الصانع ، وصدق موسى عليه السلام وذلك هو الهداية وأيضا فالهدى قد يراد به الفوز والنجاة كما يراد به الدلالة ، فكأنه تعالى بين أنه آتاهم الكتاب نعمة في الدين والفرقان الذي حصل به خلاصهم من الخصم نعمة عاجلة.
واعلم **أن من الناس من** غلط فظن أن الفرقان هو القرآن ، وأنه أنزل على موسى عليه السلام وذلك باطل لأن الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل وكل دليل كذلك فلا وجه لتخصيص هذا اللفظ بالقرآن. وقال آخرون : المعنى : ﴿وإذ ءاتينا موسى الكتاب﴾ يعني التوراة وآتينا محمدا صلى الله عليه وسلم الفرقان لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب. وقد مال إلى هذا القول من علماء النحو الفراء وثعلب وقطرب وهذا تعسف شديد من غير حاجة ألبتة إليه.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٨٥
وأما قوله تعالى : ﴿لعلكم تهتدون﴾ فقد تقدم تفسير لعل وتفسير الاهتداء ، واستدلت المعتزلة بقوله : ﴿لعلكم تهتدون﴾ على أن الله تعالى أراد الاهتداء من الكل وذلك يبطل قول من قال : أراد الكفر من الكافر ، وأيضا فإذا كان عندهم أنه تعالى : يخلق الاهتداء ، فيمن يهتدي والضلال فيمن يضل ، فما الفائدة في أن ينزل الكتاب والفرقان ويقول : ﴿لعلكم تهتدون﴾ ومعلوم أن الاهتداء إذا كان يخلقه ، فلا تأثير لإنزال الكتب فيه لو خلق الاهتداء ولا كتاب لحصل الاهتداء/ ولو أنزل بدلا من الكتاب الواحد ألف كتاب ولم يخلق الاهتداء فيهم لما حصل الاهتداء ، فكيف يجوز أن يقول أنزلت الكتاب لكي تهتدوا ؟
واعلم أن هذا الكلام قد تقدم مرارا لا تحصى مع الجواب والله أعلم.
جزء : ٣ رقم الصفحة : ٤٨٥

.

". (١)

"أما قوله تعالى : ﴿فبدل الذين ظلموا ﴾ ففيه قولان. الأول : قال أبو مسلم قوله تعالى : ﴿فبدل﴾ يدل على أنهم لم يفعلوا ما أمروا به ، لا على أنهم أتوا له ببدل ، والدليل عليه أن تبديل القول قد يستعمل في المخالفة ، قال تعالى : ﴿سيقول لك المخلفون من الاعراب﴾ (الفتح : ١١) إلى قوله : ﴿يريدون أن يبدلوا كلام الله ﴾ (الفتح : ١٥) ولم يكن تبديلهم إلا الخلاف في الفعل لا في القول فكذا ههنا ، فيكون المعنى أنهم لما أمروا بالتواضع وسؤال المغفرة لم يمتثلوا أمر الله ولم يلتفتوا إليه. الثاني : وهو قول جمهور المفسرين : إن المراد من التبديل أنهم أتوا ببدل له لأن التبديل

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٣٨

مشتق من البدل ، فلا بد من حصول البدل ، وهذا كما يقال : فلان بدل دينه ، يفيد أنه انتقل من دين إلى دين آخر ، ويؤكد ذلك قوله تعالى : ﴿قولا غير الذي قيل لهم﴾ ثم اختلفوا في أن ذلك القول والفعل أي شيء كان ؟

فروي عن ابن عباس أنهم دخلوا الباب الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجدا زاحفين على أستاههم ، قائلين حنطة من شعيرة ، وعن مجاهد أنهم دخلوا على أدبارهم وقالوا : حنطة استهزاء ، وقال ابن زيد : استهزاء بموسى. وقالوا : ما شاء موسى أن يلعب بنا إلا لعب بنا حطة حطة أي شيء حطة.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٢٢

أما قوله تعالى : ﴿الذين ظلموا ﴾ فإنما وصفهم الله بذلك إما لأنهم سعوا في نقصان خيراتهم في الدنيا والدين أو لأنهم أضروا بأنفسهم/ وذلك ظلم على ما تقدم.

أما قوله تعالى : ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السمآء﴾ ففيه بحثان :

الأول : أن في تكرير : ﴿الذين ظلموا ﴾ زيادة في تقبيح أمرهم وإيذانا بأن إنزال الرجز عليهم لظلمهم. الثاني : أن الرجز هو العذاب والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي العقوبة ، وكذا قوله تعالى : ﴿لـان كشفت عنا الرجز﴾ (الأعراف : ١٣٤) وذكر الزجاج أن الرجز والرجس معناهما واحد وهو العذاب.

وأما قوله : ﴿ويذهب عنكم رجز الشيطان﴾ (الأنفال : ١١) فمعناه لطخه وما يدعوا إليه من الكفر ، ثم إن تلك العقوبة أي شيء كانت لا دلالة في الآية عليه ، فقال ابن عباس : مات منهم بالفجأة أربعة وعشرون ألفا في ساعة واحدة ، وقال ابن زيد : بعث الله عليهم الطاعون حتى مات من الغداة إلى العشي خمس وعشرون ألفا ، ولم يبق منهم أحد.

أما قوله تعالى : ﴿بما كانوا يفسقون﴾ ، فالفسق من الخروج المضر ، يقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرها وفي الشرع عبارة عن الخروج من طاعة الله إلى معصيته ، قال أبو مسلم : هذا الفسق هو الظلم المذكور في قوله تعالى : ﴿على الذين ظلموا ﴾ وفائدة التكرار التأكيد والحق أنه غير مكرر لوجهين. الأول : أن الظلم قد يكون من الصغائر ، وقد يكون من الكبائر ، ولذلك وصف الله الأنبياء بالظلم / في قوله تعالى : ﴿ربنا ظلمنآ أنفسنا﴾ (الأعراف : ٢٣) ولأنه تعالى قال : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ (لقمان : ١٣) ولو لم يكن الظلم إلا عظيما لكان ذكر العظيم تكريرا والفسق لا بد وأن يكون من الكبائر فلما وصفهم الله بالظلم أولا : وصفهم بالفسق ، ثانيا : ليعرف أن ظلمهم كان من الكبائر لا من الصغائر. الثاني : يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل فنزل الرجز عليهم من السماء بسبب ذلك التبديل بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل وعلى هذا الوجه يزول التكرار.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٢٢

النوع الثاني من الكلام في هذه الآية : اعلم أن الله تعالى ذكر هذه الآية في سورة الأعراف وهو قوله : ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هاذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطى ئاتكم سنزيد﴾ (الأعراف : ١٦١ ، ١٦٢) واعلم أن من الناس من يحتج بقوله تعالى : ﴿فبدل الذين ظلموا ﴾ على أن ما ورد به التوقيف من الأذكار أنه غير جائز تغييرها ولا تبديلها بغيرها ، وربما احتج أصحاب الشافعي رضي الله عنه في أنه لا يجوز تحريم

الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح ولا تجوز القراءة بالفارسية وأجاب أبو بكر الرازي بأنهم إنما استحقوا الذم لتبديلهم القول إلى قول آخر يضاد معناه معنى الأول ، فلا جرم استوجبوا الذم ، فأما من غير اللفظ مع بقاء المعنى فليس كذلك والجواب أن ظاهر قوله : ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم﴾ يتناول كل من بدل قولا بقول آخر سواء اتفق القولان في المعنى أو لم يتفقا ، وههنا سؤالات :
". (١)

"﴿حمالة الحطب﴾ وقالوا فيمن قرأ : بنصب ﴿حمالة﴾ أنه نصب على الذم ، قال أبو علي الفارسي : وإذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها ولا تجعل كلها جارية على موصوفها ، لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول ، فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل ، لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان ، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجها واحدا. ، وجملة واحدة. ثم اختلف الكوفيون والبصريون في أن المدح والذم لم صارا علتين لاختلاف الحركة ؟

فقال الفراء : أصل المدح والذم من كلام السامع ، وذلك أن الرجل إذا أخبر غيره فقال له : قام زيد فربما أثنى السامع على زيد ، وقال ذكرت والله الظريف ، ذكرت العاقل ، أي هو والله الظريف هو العاقل ، فأراد المتكلم أن يمدح بمثل ما مدحه به السامع ، فجرى الإعراب على ذلك ، وقال الخليل : المدح والذم ينصبان على معنى أعني الظريف ، وأنكر الفراء ذلك لوجهين الأول : أن أعني إنما يقع تفسيرا للاسم المجهول ، والمدح يأتي بعد المعروف الثاني : أنه لو صح ما قاله الخليل لصح أن يقول : قام زيد أخاك ، على معنى : أعني أخاك ، وهذا مما لم تقله العرب أصلا.
واعلم **أن من الناس من** قرأ ﴿قلوبهم والصابرين﴾ ومنهم من قرأ ﴿والموفون﴾ .
جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢١١
أما قوله : ﴿والصابرين فى البأسآء﴾ قال ابن عباس : يريد الفقر ، وهو اسم من البؤس ﴿والضرآء﴾ قال : يريد به المرض ، وهما اسمان على فعلاء ولا أفعل لهما ، لأنهما ليسا بنعتين ﴿وحين البأس ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد القتال في سبيل الله والجهاد ، ومعنى البأس في اللغة الشدة يقال : لا بأس عليك في هذا ، أي لا شدة ﴿بعذابا بئيس ﴾ (الأعراف : ١٦٥) شديد ثم تسمى الحرب بأسا لما فيها من الشدة والعذاب يسمى بأسا لشدته قال تعالى : ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ (غافر : ٨٤) ﴿فلمآ أحسوا بأسنآ﴾ (الأنبياء : ١٢) ﴿فمن ينصرنا منا بأس الله﴾ (غافر : ٢٩).
ثم قال تعالى : ﴿ أولئك الذين صدقوا ﴾ أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم ، وذكر الواحدي رحمه الله في آخر هذه الآية مسألة وهي أنه قال هذه الواوات في الأوصاف في هذه الآية للجمع ، فمن شرائط البر وتمام شرط البار أن تجتمع فيه هذه الأوصاف ، ومن قام به واحد منها لم يستحق الوصف بالبر/ فلا ينبغي أن يظن الإنسان أن الموفي بعهده من جملة من قام بالبر وكذا الصابر في البأساء بل لا يكون قائما بالبر ، إلا عند استجماع هذه الخصال

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٤٧

، ولذلك قال بعضهم : هذه الصفة خاصة للأنبياء عليهم السلام ، لأن غيرهم لا تجتمع فيه هذه الأوصاف كلها ، وقال آخرون : هذه عامة في جميع المؤمنين ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت.

جزء : ٥ رقم الصفحة : ٢١١

٢٢٠

الحكم الرابع

قبل الشروع في التفسير لا بد من ذكر سبب النزول وفيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن سبب نزوله إزالة الأحكام التي كانت ثابتة قبل مبعث محمد عليه السلام ، وذلك لأن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط ، والنصارى كانوا يوجبون العفو فقط ، وأما العرب فتارة كانوا يوجبون القتل ، وأخرى يوجبون الدية لكنهم كانوا يظهرون التعدي في كل واحد من هذين الحكمين ، أما في القتل فلأنه إذا وقع القتل بين قبيلتين إحداهما أشرف من الأخرى ، فالأشراف كانوا يقولون : لنقتلن بالعبد منا الحر منهم ، وبالمرأة منا الرجل منهم ، وبالرجل منا الرجلين منهم ، وكانوا يجعلون جراحاتهم ضعف جراحات خصومهم ، وربما زادوا على ذلك على ما يروى أن واحدا قتل إنسانا من الأشراف ، فاجتمع أقارب القاتل عند والد المقتول ، وقالوا : ماذا تريد ؟

فقال إحدى ثلاث قالوا : وما هي ؟

قال : إما تحيون ولدي ، أو تملأون داري من نجوم السماء ، أو تدفعوا إلى جملة قومكم حتى أقتلهم ، ثم لا أرى أني أخذت عوضا.

وأما الظلم في أمر الدية فهو أنهم ربما جعلوا دية الشريف أضعاف دية الرجل الخسيس ، فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم أوجب رعاية العدل وسوى بين عباده في حكم القصاص وأنزل هذه الآية.

والرواية الثانية : في هذا المعنى وهو قول السدي : إن قريظة والنضير كانوا مع تدينهم بالكتاب سلكوا طريقة العرب في التعدي.

/ والرواية الثالثة : أنها نزلت في واقعة قتل حمزة رضي الله عنه.

". (١)

"أما قوله ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ففيه قولان الأول : أن إنفاقهم في سبيل الله لا يضيع ، بل ثوابه موفر عليهم يوم القيامة ، لا يخافون من أن لا يوجد ، ولا يحزنون بسبب أن لا يوجد ، وهو كقوله تعالى : ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما﴾ (طه : ١١٢) والثاني : أن يكون المراد أنهم يوم القيامة لا يخافون العذاب ألبتة ، كما قال : ﴿وهم من فزع يوماذ ءامنون﴾ (النمل : ٨٩) وقال : ﴿لا يحزنهم الفزع الاكبر﴾ (الأنبياء : ١٠٣).

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٠

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٧٤٦

أما القول المعروف ، فهو القول الذي تقبله القلوب ولا تنكره ، والمراد منه ههنا أن يرد /السائل بطريق جميل حسن ، وقال عطاء : عدة حسنة ، أما المغفرة ففيه وجوه أحدها : أن الفقير إذا رد بغير مقصوده شق عليه ذلك ، فربما حمله ذلك على بذاءة اللسان ، فأمر بالعفو عن بذاءة الفقير والصفح عن إساءته وثانيها : أن يكون المراد ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل وثالثها : أن يكون المراد من المغفرة أن يستر حاجة الفقير ولا يهتك ستره ، والمراد من القول المعرروف رده بأحسن الطرق وبالمغفرة أن لا يهتك ستره بأن يذكر حاله عند من يكره الفقير وقوفه على حاله ورابعها : أن قوله ﴿قول معروف﴾ خطاب مع المسؤول بأن يرد السائل بأحسن الطرق ، وقوله ﴿ومغفرة﴾ خطاب مع السائل بأن يعذر المسؤول في ذلك الرد ، فربما لم يقدر على ذلك الشيء في تلك الحالة ، ثم بين تعالى أن فعل الرجل لهذين الأمرين خير له من صدقة يتبعها أذى ، وسبب هذا الترجيح أنه إذا أعطى ، ثم أتبع الإعطاء بالإيذاء ، فهناك جمع بين الانفاع والإضرار ، وربما لم يف ثواب الانفاع بعقاب الإضرار ، وأما القول المعروف ففيه إنفاع من حيث إنه يتضمن إيصال السرور إلى قلب المسلم ولم يقترن به الإضرار ، فكان هذا خيرا من الأول.

واعلم **أن من الناس من** قال : إن الآية واردة في التطوع ، لأن الواجب لا يحل منعه ، ولا رد السائل منه ، وقد يحتمل أن يراد به الواجب ، وقد يعدل به عن سائل إلى سائل وعن فقير إلى فقير.

جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٢

ثم قال : ﴿والله غنى﴾ عن صدقة العباد فإنما أمركم بها ليثيبكم عليها ﴿حليم﴾ إذا لم يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بصدقته ، وهذا سخط منه ووعيد له ثم إنه تعالى وصف هذين النوعين على الإنفاق أحدهما : الذي يتبعه المن والأذى والثاني : الذي لا يتبعه المن والأذى ، فشرح حال كل واحد منهما ، وضرب مثلا لكل واحد منهما.

فقال في القسم الأول : الذي يتبعه المن والأذى ﴿يا أيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئآء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الاخر ﴾ وفي الآية مسائل ؛

المسألة الأولى : قال القاضي : إنه تعالى آكد النهي عن إبطال الصدقة بالمن والأذى وأزال كل شبهة للمرجئة بأن بين أن المراد أن المن والأذى يبطلان الصدقة ، ومعلوم أن الصدقة قد وقعت وتقدمت ، فلا يصح أن تبطل فالمراد إبطال أجرها وثوابها ، لأن الأجر لم يحصل بعد وهو مستقبل فيصح إبطاله بما يأتيه من المن والأذى.

واعلم أنه تعالى ذكر لكيفية إبطال أجر الصدقة بالمن والأذى مثلين ، فمثله أولا : بمن ينفق ماله رئاء الناس ، وهو مع ذلك كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر/ لأن بطلان أجر نفقة هذا المرائي الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة من يتبعها المن والأذى ، ثم مثله ثانيا : بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار ، ثم أصابه المطر القوي ، فيزيل ذلك الغبار عنه حتى يصير كأنه ما كان عليه غبار ولا تراب أصلا ، فالكافر كالصفوان ، والتراب مثل ذلك الإنفاق والوابل كالكفر الذي يحبط عمل /الكافر ، وكالمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق ، قال : فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان ، فكذا المن والأذى يوجب أن يكونا مبطلين لأجر الانفاق بعد حصوله ، وذلك صريح في القول بالاحباط

والتفكير ، قال الجبائي : وكما دل هذا النص على صحة قولنا فالعقل دل عليه أيضا ، وذلك لأن من أطاع وعصى ، فلو استحق ثواب طاعته وعقاب معصيته لوجب أن يستحق النقيضين ، لأن شرط الثواب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالإجلال ، وشرط العقاب أن يكون مضرة خالصة دائمة مقرونة بالإذلال فلو لم تقع المحابطة لحصل استحقاق النقيضين وذلك محال ، ولأنه حين يعاقبه فقد منعه الإثابة ومنع الإثابة ظلم ، وهذا العقاب عدل ، فيلزم أن يكون هذا العقاب عدلا من حيث إنه حقه ، وأن يكون ظلما من حيث إنه منع الإثابة ، فيكون ظالما بنفس الفعل الذي هو عادل فيه وذلك محال ، فصح بهذا قولنا في الإحباط والتفكير بهذا النص وبدلالة العقل ، هذا كلام المعتزلة.
جزء : ٧ رقم الصفحة : ٤٢
" (١).

"المسألة الأولى : العامل في ﴿إذ﴾ قوله ﴿ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين﴾ أي وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول ، وقيل التقدير : ذاك إذ قال الله.

المسألة الثانية : اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات :

الصفة الأولى : ﴿إني متوفيك﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عنه ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم ﴾ (المائدة : ١١٧) واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما : إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم ، ولا تأخير فيها والثاني : فرض التقديم والتأخير فيها ، أما الطريق الأول فبيانه من وجوه الأول : معنى قوله ﴿إني متوفيك﴾ أي متمم عمرك ، فحينئذ أتوفاك ، فلا أتركهم حتى يقتلوك ، بل أنا رافعك إلى سمائي ، ومقربك بملائكتي ، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن والثاني : ﴿متوفيك﴾ أي مميتك ، وهو مروي عن ابن عباس ، ومحمد بن إسحاق قالوا : والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه أحدها : قال وهب : توفي ثلاثة ساعات ، ثم رفع وثانيها : قال محمد بن إسحاق : توفي سبع ساعات ، ثم أحياه الله ورفعه الثالث : قال الربيع بن أنس : أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء ، قال تعالى : ﴿الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ﴾ (الزمر : ٤٢).

الوجه الرابع : في تأويل الآية أن الواو في قوله ﴿متوفيك ورافعك إلى﴾ تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال ، فأما كيف يفعل ، ومتى يفعل ، فالأمر فيه موقوف على الدليل ، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم : "أنه سينزل ويقتل الدجال" ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك.
/
جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٦

الوجه الخامس : في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي ، وهو أن المراد ﴿إني متوفيك﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك ، ثم قال : ﴿ورافعك إلى﴾ وذلك لأن من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله ، وأيضا

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٠١٣

فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة ، والغضب والأخلاق الذميمة.

والوجه السادس : إن التوفي أخذ الشيء وافيا ، ولما علم الله **إن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى : ﴿وما يضرونك من شيء ﴾ (النساء : ١١٣).

والوجه السابع : ﴿إني متوفيك﴾ أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الوجه الثامن : إن التوفي هو القبض يقال : وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه ، كما يقال : سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه ، وقد يكون أيضا توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيا له.

فإن قيل : فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله ﴿ورافعك إلى﴾ تكرارا.

قلنا : قوله ﴿إني متوفيك﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء ، فلما قال بعده ﴿ورافعك إلى﴾ كان هذا تعيينا للنوع ولم يكن تكرارا.

الوجه التاسع : أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير : متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ﴿ورافعك إلى﴾ أي ورافع عملك إلي ، وهو كقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ (فاطر : ١٠) والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله ، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه ، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها.

الطريق الثاني : وهو قول من قال : لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير ، قالوا إن قوله ﴿ورافعك إلى﴾ يقتضي أنه رفعه حيا ، والواو لا تقتضي الترتيب ، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير ، والمعنى : أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا ، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٢٦

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر والله أعلم.

والمشبهة يتمسكون بهذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في المساء ، وقد دللنا في المواضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ /على التأويل ، وهو من وجوه : ". (١)

"ثم قال تعالى : ﴿ويقولون هو من عند الله﴾ واعلم **أن من الناس من** قال : إنه لا فرق بين قوله ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ وبين قوله ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ (آل عمران : ٧٨) وكرر هذا

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١١٥٧

الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد ، أما المحققون فقالوا : المغايرة حاصلة ، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله ، فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب ، وتارة بالسنة ، وتارة بالإجماع ، وتارة بالقياس والكل من عند الله.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٥

فقوله ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ هذا نفي خاص ، ثم عطف عليه النفي العام فقال : ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ وأيضا يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة ، ويكون المراد من قولهم : هو من عند الله ، أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل أشعياء ، وأرمياء ، وحيقوق ، وذلك لأن القوم في نسبة التحريف إلى الله كانوا متحيرين ، فإن وجدوا قوما من الأغمار والبله الجاهلين بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنه من التوراة ، وإن وجدوا قوما عقلاء أذكياء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جاؤا بعد موسى عليه السلام ، واحتج الجبائي والكعبي به على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى فقالا : لو كان لي اللسان بالتحريف والكذب خلقا لله تعالى لصدق اليهود في قولهم : إنه من عند الله ولزم الكذب في قوله تعالى : إنه ليس من عند الله ، وذلك لأنهم أضافوا إلى الله ما هو من عنده ، والله ينفي عن نفسه ما هو من عنده ، ثم قال : وكفى خزيا لقوم يجعلون اليهود أولى بالصدق من الله قال : ليس لأحد أن يقول المراد من قولهم ﴿لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب﴾ وبين قوله ﴿ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله﴾ فرق ، وإذا لم يبق الفرق لم يحسن العطف ، وأجاب الكعبي عن هذا السؤال أيضا من وجهين آخرين الأول : أن كون المخلوق من عند الخالق أوكد من كون المأمور به من عند الآمر به ، وحمل الكلام على الوجه الأقوى أولى والثاني : أن قوله ﴿وما هو من عند الله﴾ نفي مطلق لكونه من عند الله وهذا ينفي كونه من عند الله بوجه من الوجوه ، فوجب أن لا يكون من عنده لا بالخلق ولا بالحكم.

والجواب : أما قول الجبائي لو حملنا قوله تعالى : ﴿ويقولون هو من عند الله﴾ على أنه كلام الله لزم التكرار ، فجوابه ما ذكرنا أن قوله ﴿وما هو من الكتاب﴾ معناه أنه غير موجود في الكتاب وهذا لا يمنع من كونه حكما لله تعالى ثابتا بقول الرسول أو بطريق آخر فلما قال : ﴿وما هو من عند الله﴾ ثبت نفي كونه حكما لله تعالى وعلى هذا الوجه زال التكرار.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٥

وأما الوجه الأول : من الوجهين اللذين ذكرهما الكعبي فجوابه ، أن الجواب لا بد وأن يكون منطبقا على السؤال ، والقوم ما كانوا في ادعاء أن ما ذكروه وفعلوه خلق الله تعالى ، بل كانوا /يدعون أنه حكم الله ونازل في كتابه.

فوجب أن يكون قوله ﴿وما هو من عند الله﴾ عائدا إلى هذا المعنى لا إلى غيره ، وبهذا الطريق يظهر فساد ما ذكره في الوجه الثاني والله أعلم.

ثم قال تعالى : ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ والمعنى أنهم يتعمدون ذلك الكذب مع العلم.

واعلم أنه إن كان المراد من التحريف تغيير ألفاظ التوراة ، وإعراب ألفاظها ، فالمقدمون عليه يجب أن يكونوا طائفة يسيرة يجوز التواطؤ منهم على الكذب/ وإن كان المراد منه تشويش دلالة تلك الآيات على نبوة محمد صلى الله عليه

وسلم بسبب إلقاء الشكوك والشبهات في وجوه الاستدلالات لم يبعد إطباق الخلق الكثير عليه والله أعلم.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٢٥٥

.

اعلم أنه تعالى لما بين أن عادة علماء أهل الكتاب التحريف والتبديل أتبعه بما يدل على أن من جملة ما حرفوه ما زعموا أن عيسى عليه السلام كان يدعي الإلهية ، وأنه كان يأمر قومه بعبادته فلهذا قال : ﴿ما كان لبشر﴾ الآية ، وههنا مسائل :

". (١)

"أما الحجة الأولى : وهي قولكم : الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أمد يوم بدر بألف من الملائكة.

فالجواب عنها : من وجهين الأول : أنه تعالى أمد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم بألف ثم زاد فيهم ألفين فصاروا ثلاثة آلاف ، ثم زاد ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف ، فكأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة فقالوا بلى ، ثم قال : ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف فقالوا بلى ، ثم قال لهم : إن تصبروا وتتقوا يمددكم ربكم بخمسة آلاف ، وهو كما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه : "أيسركم أن تكونوا ربع أهل الجنة قالوا نعم قال أيسركم أن تكونوا ثلث أهل الجنة قالوا نعم قال فإني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة".

الوجه الثاني في الجواب : أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة /الأنفال ، ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخافوا وشق عليهم ذلك لقلة عددهم ، فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فأنا أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة ، ثم إنه لم يأت قريشا ذلك المدد ، بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش ، فاستغنى عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف.

وأما الحجة الثانية : وهي قولكم : إن الكفار كانوا يوم بدر ألفا فأنزل الله ألفا من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف.

فالجواب : إنه تقريب حسن ، ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك ، بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد.

وأما الحجة الثالثة : وهي التمسك بقوله ﴿ويأتوكم من فورهم﴾ (آل عمران : ١٢٥).

فالجواب عنه : أن المشركين لما سمعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد تعرضوا للعير ثار الغضب في قلوبهم واجتمعوا وقصدوا النبي صلى الله عليه وسلم/ ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأخبرهم الله تعالى : أنهم إن يأتوكم من فورهم يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين ، والله أعلم بمراده.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٨

المسألة الثانية : اختلفوا في عدد الملائكة ، وضبط الأقوال فيها **أن من الناس من** ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد ،

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١١٨١

فقالوا : لأن الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه ، والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم ، فلا بد من التغاير وهو ضعيف ، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي جزؤها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد ، أما على تقدير الأول : فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف ، وذكر ثلاثة آلاف ، وذكر خمسة آلاف ، والمجموع تسعة آلاف ، وإن حملناها على قصة أحد ، فليس فيها ذكر الألف ، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف ، وخمسة آلاف ، والمجموع : ثمانية آلاف ، وأما على التقدير الثاني : وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا : عدد الملائكة خمسة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران ، فلا جرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف ، ثم ضم إليها ألفان آخران فلام جر وعدوا بخمسة آلاف ، وقد حكينا عن بعضهم أنه قال أمد أهل بدر بألف فقيل : إن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم : ألن يكفيكم يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله تعالى يمدكم أيضا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف ، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد ، فكذا ههنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين فهذه وجوه كلها محتملة والله أعلم بمراده.

/المسألة الثالثة : أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضربون ، وهذا قول الأكثرين ، وأما أبو بكر الأصم ، فإنه أنكر ذلك أشد الإنكار ، واحتج عليه بوجوه :

الحجة الأولى : إن الملك الواحد يكفي في إهلاك الأرض ، ومن المشهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت المدائن الأربع لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة ، ثم رفعها إلى السماء وقلب عاليها سافلها ، فإذا حضر هو يوم بدر ، فأي حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟

ثم بتقدير حضوره ، فأي فائدة في إرسال سائر الملائكة ؟

.

الحجة الثانية : أن أكابر الكفار كانوا مشهورين وكل واحد منهم مقابله من الصحابة معلوم وإذا كان كذلك امتنع إسناد قتله إلى الملائكة.

." (١)

"/أما قوله ﴿يغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء ﴾ فاعلم أن أصحابنا يحتجون بهذه الآية على أنه سبحانه له أن يدخل الجنة بحكم إلهيته جميع الكفار والمردة ، وله أن يدخل النار بحكم إلهيته جميع المقربين والصديقين وأنه لا اعتراض عليه في فعل هذه الأشياء ودلالة الآية على هذا المعنى ظاهرة والبرهان العقلي يؤكد ذلك أيضا ، وذلك أن فعل العبد يتوقف على الإرادة وتلك الإرادة مخلوقة لله تعالى ، فإذا خلق الله تلك الإرادة أطاع ، وإذا خلق النوع الآخر من الإرادة عصى ، فطاعة العبد من الله ومعصيته أيضا من الله ، وفعل الله لا يوجب على الله شيئا ألبتة ، فلا الطاعة توجب

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٢٤٦

الثواب ، ولا المعصية توجب العقاب ، بل الكل من الله بحكم إلهيته وقهره وقدرته ، فصح ما ادعيناه أنه لو شاء يعذب جميع المقربين حسن منه ، ولو شاء يرحم جميع الفراعنة حسن منه ذلك ، وهذا البرهان هو الذي دل عليه ظاهر قوله تعالى : ﴿يغفر لمن يشآء ويعذب من يشآء ﴾ .

فإن قيل : أليس أنه ثبت أنه لا يغفر للكفار ولا يعذب الملائكة والأنبياء.

قلنا : مدلول الآية أنه لو أراد لفعل ولا اعتراض عليه ، وهذا القدر لا يقتضي أنه يفعل أو لا يفعل ، وهذا الكلام في غاية الظهور.

ثم ختم الكلام بقوله ﴿والله غفور رحيم﴾ والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الفضل والإحسان.

جزء : ٨ رقم الصفحة : ٣٠٨

٣٦٣

اعلم **أن من الناس من** قال : انه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد ، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال : ﴿رحيم * يا أيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربوا ﴾ وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها ، وقال القفال رحمه الله : يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا ، فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم ، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك وفي قوله : ﴿أضعافا مضاعفة ﴾ مسألتان :

المسألة الأولى : كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل ، فاذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين ، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل ذلك ، ثم إلى آجال كثيرة ، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله : ﴿أضعافا مضاعفة ﴾ .

المسألة الثانية : انتصب ﴿أضعافا﴾ على الحال.

ثم قال تعالى : ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ .

اعلم أن اتقاء الله في هذا النهي واجب ، وأن الفلاح يتوقف عليه ، فلو أكل ولم يتق زال الفلاح / وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر لا من الصغائر وتفسير قوله : ﴿لعلكم﴾ تقدم في سورة البقرة في قوله : ﴿اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾ وتمام الكلام في الربا أيضا مر في سورة البقرة.

ثم قال : ﴿واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾ وفيه سؤالات : الأول : أن النار التي أعدت للكافرين تكون بقدر كفرهم وذلك أزيد مما يستحقه المسلم بفسقه ، فكيق قال : ﴿واتقوا النار التى أعدت للكافرين﴾ .

جزء : ٩ رقم الصفحة : ٣٦٣

والجواب : تقدير الآية : اتقوا أن تجحدوا تحريم الربا فتصيروا كافرين.

السؤال الثاني : ظاهر قوله : ﴿أعدت للكافرين﴾ يقتضي أنها ما أعدت إلا للكافرين ، وهذا يقتضي القطع بأن أحدا من المؤمنين لا يدخل النار وهو على خلاف سائر الآيات.

والجواب من وجوه : الأول : أنه لا يبعد أن يكون في النار دركات أعد بعضها للكفار وبعضها للفساق فقوله : ﴿النار التى أعدت للكافرين﴾ اشارة الى تلك الدركات المخصوصة التي أعدها الله للكافرين ، وهذا لا يمنع ثبوت دركات أخرى في النار أعدها الله لغير الكافرين. الثاني : أن كون النار معدة للكافرين ، لا يمنع دخول المؤمنين ، فيها لأنه لما كان أكثر أهل النار هم الكفار فلأجل الغلبة لا يبعد أن يقال : انها معدة لهم ، كما أن الرجل يقول : لدابة ركبها الحاجة من الحوائج ، إنما أعددت هذه الدابة للقاء المشركين ، فيكون صادقا في ذلك وان كان هو قد ركبها في تلك الساعة لغرض آخر فكذا ههنا.

". (١)

"أجابوا عنه من ثلاثة أوجه : الأول : ما ذهب اليه الكرخي وهو أن لفظ النكاح حقيقة في الوطء مجاز في العقد ، بدليل أن لفظ النكاح في أصل اللغة عبارة عن الضم ، ومعنى الضم حاصل في الوطء لا في العقد ، فكان لفظ النكاح حقيقة في الوطء. ثم إن العقد سمي بهذا الاسم لأن العقد لما كان سببا له أطلق اسم المسبب على السبب ، كما أن العقيقة اسم للشعر الذي يكون على رأس الصبي حال ما يولد ، ثم تسمى الشاة التي تذبح عند حلق ذلك الشعر عقيقة فكذا ههنا.

واعلم أنه كان مذهب الكرخي أنه لا يجوز استعمال اللفظ الواحد بالاعتبار الواحد في حقيقته ومجازه معا ، فلا جرم كان يقول : المستفاد من هذه الآية حكم الوطء ، أما حكم العقد فانه غير مستفاد من هذه الآية ، بل من طريق آخر ودليل آخر.

الوجه الثاني : أن من الناس من ذهب إلى أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في مفهوميه معا فهذا القائل قال : دلت الآيات المذكورة على أن لفظ النكاح حقيقة في الوطء وفي العقد معا ، فكان قوله : ﴿ولا تنكحوا ما نكح ءابآؤكم﴾ نهيا عن الوطء وعن العقد معا ، حملا للفظ على كلا مفهوميه.

الوجه الثالث : في الاستدلال ، وهو قول من يقول : اللفظ المشترك لا يجوز استعماله في مفهوميه معا/ قالوا : ثبت بالدلائل المذكورة أن لفظ النكاح قد استعمل في القرآن في الوطء تارة وفي العقد أخرى ، والقول بالاشتراك والمجاز خلاف الأصل ، ولا بد من جعله حقيقة في القدر المشترك بينهما وهو معنى الضم حتى يندفع الاشتراك والمجاز ، وإذا كان كذلك كان قوله : ﴿ولا تنكحوا ما نكح ءابآؤكم﴾ نهيا عن القدر المشترك بين هذين القسمين ، والنهي عن القدر المشترك بين القسمين يكون نهيا عن كل واحد من القسمين لا محالة ، فان النهي عن التزويج يكون نهيا عن العقد وعن الوطء معا ، فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في تقرير هذا الاستدلال.

والجواب عنه من وجوه : الأول : لا نسلم أن اسم النكاح يقع على الوطء ، والوجوه التي احتجوا بها على ذلك فهي

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٢٥٢

معارضة بوجوه : أحدها : قوله عليه الصلاة والسلام : "النكاح سنتي" ولا شك أن الوطء من حيث كونه وطأ ليس سنة له ، وإلا لزم أن يكون الوطء بالسفاح سنة له فلما ثبت أن النكاح سنة ، وثبت أن الوطء ليس سنة ، ثبت أن النكاح ليس عبارة عن الوطء ، كذلك التمسك بقوله : ولو كان الوطء مسمى بالنكاح لكان هذا إذنا في مطلق الوطء / وكذلك التمسك بقوله تعالى : ﴿لعلكم تفلحون * وأنكحوا الايامى منكم﴾ (النور : ٣٢) وقوله : ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النسآء﴾ (النساء : ٣).

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ١١

لا يقال : لما وقع التعارض بين هذه الدلائل فالترجيح معنا ، وذلك لأنا لو قلنا : الوطء مسمى بالنكاح على سبيل الحقيقة لزم دخول المجاز في دلائلنا ، ومتى وقع التعارض بين المجاز والتخصيص كان التزام التخصيص أولى.

لأنا نقول : أنتم تساعدون على أن لفظ النكاح مستعمل في العقد ، فلو قلنا : إن النكاح حقيقة في الوطء لزم دخول التخصيص في الآيات التي ذكرناها ، ولزم القول بالمجاز في الآيات التي ذكر النكاح فيها بمعنى العقد ، أما قولنا : ان النكاح فيها بمعنى الوطء فلا يلزمنا التخصيص ، فقولكم يوجب المجاز والتخصيص معا ، وقولنا يوجب المجاز فقط ، فكان قولنا أولى.

الوجه الثاني : من الوجوه الدالة على أن النكاح ليس حقيقة في الوطء قوله عليه الصلاة والسلام : "ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح" أثبت نفسه مولودا من النكاح وغير مولود من السفاح ، وهذا يقتضي أن لا يكون السفاح نكاحا ، والسفاح وطء ، فهذا يقتضي أن لا يكون الوطء نكاحا.

الوجه الثالث : أنه من حلف في أولاد الزنا : أنهم ليسوا أولاد النكاح لم يحنث ، ولو كان الوطء نكاحا لوجب أن يحنث ، وهذا دليل ظاهر على أن الوطء ليس مسمى بالنكاح على سبيل الحقيقة. الثاني : سلمنا أن الوطء مسمى بالنكاح ، لكن العقد أيضا مسمى به ، فلم كان حمل الآية على ما ذكرتم أولى من حملها على ما ذكرنا ؟

أما الوجه الأول : وهو الذي ذكره الكرخي فهو في غاية الركاكة ، وبيانه من وجهين : الأول : أو الوطء مسبب العقد ، فكما يحسن إطلاق اسم المسبب على السبب مجازا فكذلك يحسن اطلاق اسم السبب على المسبب مجازا. فكما يحتمل أن يقال : النكاح اسم للوطء ثم أطلق هذا الاسم على العقد لكونه سببا للوطء ، فكذلك يحتمل أن يقال : النكاح اسم للعقد ، ثم أطلق هذا الاسم على الوطء لكون الوطء مسببا له ، فلم كان أحدهما أولى من الآخر ؟

بل الاحتمال الذي ذكرناه أولى ، لأن استلزام السبب للمسبب أتم من استلزام المسبب للسبب المعين ، فانه لا يمتنع أن يكون لحصول الحقيقة الواحدة أسباب كثيرة ، كالملك فانه يحصل بالبيع والهبة والوصية والارث ، ولا شك أن الملازمة شرط لجواز المجاز ، فثبت أن القول بأن اسم النكاح حقيقة في العقد مجاز في الوطء ، أولى من عكسه. ". (١)

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٤٠٠

"والجواب عنه من وجوه : الأول : أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام : ﴿قلت للناس اتخذونى وأمى إلاهين من دون الله قال﴾ (المائدة : ١١٦) علم أن قوما من النصارى حكوا هذا اللكلام عنه ، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافرا بل يكون مذنبا حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز ، فلهذا المعنى : طلب المغفرة من الله تعالى ، والثاني : أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار ، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه ، فذكر عيسى هذا الكرم ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله ، وترك التعرض والاعتراض بالكلية ، ولذلك ختم الكلام بقوله ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ يعني أنت قادر على ما تريد ، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك ، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية ، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول : غفرانه جائز عندنا ، وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا : لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب ، وليس في إسقاطه على الله مضرة ، فوجب أن يكون حسنا بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع ، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجودا في شرع عيسى عليه السلام.

الوجه الثالث : في الجواب أن القوم قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوز أن يكون بعضهم قد تاب عنه ، فقال : ﴿ءان﴾ علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك ، وأنت قد حكمت على كل من كفر ممن عبادك بالعقوبة ، وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر ، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة.

الوجه الرابع : أنا ذكرنا أن من الناس من قال : إن قول الله تعالى لعيسى ﴿ءأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلاهين من دون الله قال﴾ (المائدة : ١١٦) إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة ، وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ يعني ان توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك ، وان أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الايمان ، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضا ذاك على هذا التقدير فلا إشكال.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٤٦٧

المسألة الثانية : احتج بعض الأصحاب بهذه الآية على شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في حق الفساق قالوا : لأن قول عيسى عليه السلام ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ ليس في حق أهل الثواب لأن التعذيب لا يليق بهم ، وليس أيضا في حق الكفار لأن قوله ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ لا يليق بهم فدل على أن ذلك ليس إلا في حق الفساق من أهل الايمان ، وإذا ثبت شفاعة الفساق في حق عيسى عليه السلام ثبت في حق محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى لأنه لا قائل بالفصل.

المسألة الثالثة : روى الواحدي رحمه الله أن في مصحف عبد الله (وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم سمعت شيخي ووالدي رحمه الله يقول ﴿العزيز الحكيم﴾ ههنا أولى من الغفور الرحيم ، لأن كونة غفورا رحيما يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج ، وأنا العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة ، فإن كونه عزيزا يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد/ وأنه لا اعتراض عليه لأحد فإذا كان عزيزا متعاليا عن جميع جهات الاستحقاق ، ثم حكم بالمغفرة

كان الكرم ههنا أتم مما إذا كان كونه غفورا رحيما يوجب المغفرة والرحمة ، فكانت عبارته رحمه الله أن يقول : عز عن الكل. ثم حكم بالرحمة فكان هذا أكمل. وقال قوم آخرون : إنه لو قال : فإنك أنت الغفور الرحيم ، أشعر ذلك بكونه شفيعا لهم ، فلما قال : ﴿فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى ، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه.

جزء : ١٢ رقم الصفحة : ٤٦٧

٤٦٨

ثم قال تعالى : ﴿قال الله هاذا يوم ينفع الصادقين صدقهم ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى : أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة ، والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة ، والدليل على أن المراد ما ذكرنا : أن صدق الكفار في القيامة لا ينفعهم ، ألا ترى أن إبليس قال : ﴿إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ﴾ (إبراهيم : ٢٢) فلم ينفعه هذا الصدق ، وهذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى في قوله ﴿ما قلت لهم إلا مآ أمرتنى به ﴾ (المائدة : ١١٧).

". (١)

"قلنا : هب أن الأمر كما قلتم. إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام. فثبت أن كل من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة الله تعالى. وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية ، وحينئذ يصدق في حقه قوله تعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره ﴾ .

الوجه الثاني : في تقرير هذا المعنى **أن من الناس من** يقول إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل ، لأنه يمتنع إظهار المعجزة على وفق دعواه تصديقا له ، والقائلون بهذا القول لهم مقامان :

المقام الأول : أن يقولوا إنه ليس في الإمكان خرق العادات ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة.

والمقام الثاني : الذين يسلمون إمكان ذلك. إلا أنهم يقولون إن بتقدير حصول هذه الأفعال الخارقة للعادات لا دلالة لها على صدق مدعي الرسالة ، وكلا الوجهين يوجب القدح في كمال قدرة الله تعالى.

أما المقام الأول : فهو أنه ثبت أن الأجسام متماثلة. وثبت أن ما يحتمله الشيء وجب أن يحتمله مثله ، وإذا كان كذلك كان جرم الشمس والقمر قابلا للتمزق والتفرق.

فإن قلنا : إن الإله غير قادر عليه كان ذلك وصفا له بالعجز ونقصان القدرة ، وحينئذ يصدق في حق هذا القائل : أنه ما قدر الله حق قدره.

وإن قلنا : إنه تعالى قادر عليه ، فحينئذ لا يمتنع عقلا انشقاق القمر ، ولا حصول سائر المعجزات.

/ وأما المقام الثاني : وهو أن حدوث هذه الأفعال الخارقة للعادة عند دعوى مدعي النبوة تدل على صدقهم ، فهذا أيضا ظاهر على ما مقرر في كتب الأصول. فثبت أن كل من أنكر إمكان البعثة والرسالة ، فقد وصف الله بالعجز ونقصان

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٧٣٤

القدرة ، وكل من قال ذلك فهو ما قدر الله حق قدره.
والوجه الثالث : أنه لما ثبت حدوث العالم ، فنقول : حدوثه يدل على أن إله العالم قادر عالم حكيم ، وأن الخلق كلهم عبيده وهو مالك لهم على الإطلاق ، وملك لهم على الإطلاق ، والملك المطاع يجب أن يكون له أمر ونهي وتكليف على عباده ، وأن يكون له وعد على الطاعة ، ووعيد على المعصية ، وذلك لا يتم ولا يكمل إلا بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فكل من أنكر ذلك فقد طعن في كونه تعالى ملكا مطاعا ، ومن اعتقد ذلك فهو ما قدر الله حق قدره ، فثبت أن كل من قال ما أنزل الله علي بشر من شيء فهو ما قدر الله حق قدره.
المسألة الثالثة : في هذه الآية بحث صعب ، وهو أن يقال : هؤلاء الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا : ﴿مآ أنزل الله على بشر من شىء ﴾ إما أن يقال : إنهم كفار قريش أو يقال إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فإن كان الأول ، فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله تعالى : ﴿قل من أنزل الكتاب الذى جآء به موسى ﴾ وذلك لأن كفار قريش والبراهمة كما ينكرون رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء ، فكيف يحسن إيراد هذا الإلزام عليهم ، وأما إن كان الثاني وهو أن قائل هذا القول قوم من اليهود والنصارى ، فهذا أيضا صعب مشكل ، لأنهم لا يقولون هذا القول ، وكيف يقولونه مع أن مذهبهم أن التوراة كتاب أنزله الله على موسى ، والإنجيل : كتاب أنزله الله على عيسى ؛ وأيضا فهذه السورة مكية ، والمناظرات التي وقعت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين اليهود والنصارى كلها مدنية ، فكيف يمكن حمل هذه الآية عليها ، فهذا تقرير الإشكال القائم في هذه الآية. واعلم أن الناس اختلفوا فيه على قولين :
جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٦٤
فالقول الأول : إن هذه الآية نزلت في حق اليهود وهو القول المشهور عند الجمهور. قال ابن عباس : إن مالك بن الصيف كان من أحبار اليهود ورؤسائهم ، وكان رجلا سمينا فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أنشدك الله الذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها إن الله يبغض الحبر السمين وأنت الحبر السمين وقد سمنت من الأشياء التي تطعمك اليهود" فضحك القوم ، فغضب مالك بن الصيف ، ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء. فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك ؟
فقال : إنه أغضبني ، / ثم إن اليهود لأجل هذا الكلام عزلوه عن رياستهم ، وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف ، فهذا هو الرواية المشهورة في سبب نزول هذه الآية ، وفيها سؤالات :
." (١)

"والبحث الثاني : يقال : اشتبه الشيآن وتشابها كقولك استويا وتساويا ، والافتعال والتفاعل يشتركان كثيرا ، وقرىء ﴿متشابها وغير متشابه ﴾ .
والبحث الثالث : إنما قال مشتبها ولم يقل مشتبهين إما اكتفاء بوصف أحدهما ، أو على تقدير : والزيتون مشتبها وغير

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٨٢٩

متشابه والرمان كذلك كقوله :

رماني بأمر كنت منه ووالدي

بريا ومن أجل الطوى رماني

/ ثم قال تعالى : ﴿انظروا إلى ثمره إذآ أثمر وينعه ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ حمزة والكسائي ﴿ثمره ﴾ بضم الثاء والميم ، وقرأ أبو عمرو ﴿ثمره ﴾ بضم الثاء وسكون الميم والباقون بفتح الثاء والميم. أما قراءة حمزة والكسائي : فلها وجهان :

الوجه الأول : وهو الأبين أن يكون جمع ثمرة على ثمر كما قالوا : خشبة وخشب. قال تعالى : ﴿كأنهم خشب مسندة ﴾ (المنافقون : ٤) وكذلك أكمة وأكم. ثم يخففون فيقولون أكم. قال الشاعر :

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٨٨

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

والوجه الثاني : أن يكون جمع ثمرة على ثمار. ثم جمع ثمارا على ثمر فيكون ثمر جمع الجمع ، وأما قراءة أبي عمرو فوجهها أن تخفيف ثمر ثمر كقولهم : رسل ورسل. وأما قراءة الباقين فوجهها : أن الثمر جمع ثمرة ، مثل بقرة وبقر ، وشجرة وشجر ، وخرزة وخرز.

والبحث الثاني : قال الواحدي : الينع النضج. قال أبو عبيدة : يقال ينع يينع ، بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل. وقال الليث : ينعت الثمرة بالكسر ، وأينعت فهي تينع وتونع إيناعا وينعا بفتح الياء ، وينعا بضم الياء ، والنعت يانع ومونع. قال صاحب "الكشاف" : وقرىء ﴿وينعه ﴾ بضم الياء ، وقرأ ابن محيصن .

والبحث الثالث : قوله : ﴿متشابها انظروا إلى ثمره إذآ أثمر﴾ أمر بالنظر في حال الثمر في أول حدوثها. وقوله : ﴿وينعه ﴾ أمر بالنظر في حالها عند تمامها وكمالها ، وهذا هو موضع الاستدلال والحجة التي هي تمام المقصود من هذه الآية. ذلك لأن هذه الثمار والأزهار تتولد في أول حدوثها على صفات مخصوصة ، وعند تمامها وكمالها لا تبقى على حالاتها الأولى ، بل تنتقل إلى أحوال مضادة للأحوال السابقة ، مثل أنها كانت موصوفة بلون الخضرة فتصير ملونة بلون السواد أو بلون الحمرة ، وكانت موصوفة بالحموضة فتصير موصوفة بالحلاوة ، وربما كانت في أول الأمر باردة بحسب الطبيعة ، فتصير في آخر الأمر حارة بحسب الطبيعة ، فحصول هذه التبدلات والتغيرات لا بد له من سبب ، وذلك السبب ليس هو تأثير الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك ، لأن نسبة هذه الأحوال بأسرها إلى جميع هذه الأجسام المتباينة متساوية متشابهة ، والنسب المتشابهة لا يمكن أن تكون أسبابا لحدوث الحوادث المختلفة ، ولما بطل إسناد حدوث هذه الحوادث إلى الطبائع والأنجم والأفلاك وجب إسنادها إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة. ولما نبه الله سبحانه على ما في هذا الوجه اللطيف من الدلالة قال : ﴿إن فى ذالكم لايات لقوم يؤمنون﴾ قال القاضي : المراد لمن يطلب الإيمان بالله تعالى/ لأنه آية لمن آمن ولمن لم يؤمن ، ويحتمل أن يكون / وجه تخصيص المؤمنين بالذكر أنهم الذين انتفعوا به دون غيرهم كما تقدم تقريره في قوله ﴿هدى للمتقين﴾ .

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٨٨

ولقائل أن يقول : بل المراد منه أن دلالة هذا الدليل على إثبات الإله القادر المختار ظاهرة قوية جلية ، فكأن قائلا قال : لم وقع الاختلاف بين الخلق في هذه المسألة مع وجود مثل هذه الدلالة الجلية الظاهرة القوية ؟

فأجيب عنه بأن قوة الدليل لا تفيد ولا تنفع إلا إذا قدر الله للعبد حصول الإيمان ، فكأنه قيل : هذه الدلالة على قوتها وظهورها دلالة لمن سبق قضاء الله في حقه بالإيمان ، فأما من سبق قضاء الله له بالكفر لم ينتفع بهذه الدلالة البتة أصلا ، فكان المقصود من هذا التخصيص التنبيه على ما ذكرناه. والله أعلم.

جزء : ١٣ رقم الصفحة : ٨٨

٩٢

في الآية مسائل :

المسألة الأولى : اعلم أنه تعالى لما ذكر هذه البراهين الخمسة من دلائل العالم الأسفل والعالم الأعلى على ثبوت الإلهية ، وكمال القدرة والرحمة. ذكر بعد ذلك **أن من الناس من** أثبت لله شركاء ، واعلم أن هذه المسألة قد تقدم ذكرها إلا أن المذكور ههنا غير ما تقدم ذكره وذلك لأن الذين أثبتوا الشريك لله فرق وطوائف.

فالطائفة الأولى : عبدة الأصنام فهم يقولون الأصنام شركاء لله في العبودية ، ولكنهم معترفون بأن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق والإيجاد والتكوين.

". (١)

"المسألة الثالثة : الباء في قوله : ﴿فبمآ أغويتنى﴾ فيه وجوه : الأول : إنه باء القسم أي بإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم أي ، بقدرتك علي ونفاذ سلطانك في لأقعدن لهم على الطريق المستقيم الذي يسلكونه إلى الجنة ، بأن أزين لهم الباطل ، وما يكسبهم المآثم ، ولما كانت باء القسم كانت جواب القسم ﴿منكم ومآ﴾ بتأويل المصدر و﴿أغويتنى﴾ صلتها. والثاني : أن قوله : ﴿فبمآ أغويتنى﴾ أي فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم ، والمراد إنك لما أغويتني فأنا أيضا أسعى في إغوائهم. الثالث : قال بعضهم : ﴿مآ﴾ في قوله : ﴿فبمآ أغويتنى﴾ للاستفهام. كأنه قيل : بأي شيء أغويتني ثم ابتدأ وقال : ﴿لاقعدن لهم﴾ وفيه إشكال ، وهو أن إثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على "ما" الاستفهامية قليل.

المسألة الرابعة : قوله : ﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ لا خلاف بين النحويين أن "على" محذوف والتقدير : لأقعدن لهم على صراطك المستقيم. قال الزجاج : مثاله قولك ضرب زيد الظهر والبطن والمعنى على الظهر والبطن. وإلقاء كلمة "على" جائز ، لأن الصراط ظرف في المعنى : فاحتمل ما يحتمله لليوم والليلة ، في قولك آتيك غدا وفي غد.

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ فيه أبحاث.

البحث الأول : المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ، ولهذا المعنى ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٨٥٠

في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبته على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

والبحث الثاني : إن هذه الآية تدل على أنه كان عالما بالدين الحق والمنهج الصحيح ، لأنه قال : ﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ وصراط الله المستقيم هو دينه الحق.

البحث الثالث : الآية تدل على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من المذهب والاعتقاد هو محض الغواية والضلال ، لأنه لو لم يكن كذلك لما قال : ﴿رب بمآ أغويتنى﴾ وأيضا كان عالما بالدين الحق ، ولولا ذلك لما قال : ﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ .

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٢١٦

وإذا ثبت هذا فكيف يمكن : أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية وبكونه مضادا للدين الحق ومنافيا للصراط المستقيم. فإن المرء إنما يعتقد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا ، فأما مع العلم بأنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ويرضى به ويعتقده.

/ واعلم أن من الناس من قال أن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل لأنه متى علم أن مذهبه ضلال وغواية ، فقد علم أن ضده هو الحق ، فكان إنكاره إنكارا بمحض اللسان ، فكان ذلك كفر عناد ، ومنهم من قال لا. بل كفره كفر جهل وقوله : ﴿فبمآ أغويتنى﴾ وقوله : ﴿لاقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ يريد به في زعم الخصم ، وفي اعتقاده. والله أعلم.

المسألة الخامسة : احتج أصحابنا بهذه الآية في بيان أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه ولا في دنياه وتقريره أن إبليس استمهل الزمان الطويل فأمهله الله تعالى ، ثم بين أنه إنما استمهله لإغواء الخلق وإضلالهم وإلقاء الوساوس في قلوبهم ، وكان تعالى عالما بأن أكثر الخلق يطيعونه ويقبلون وسوسته كما قال تعالى : ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين﴾ (سبأ : ٢٠) فثبت بهذا أن إنظار إبليس ، وإمهاله هذه المدة الطويلة يقتضي حصول المفاسد العظيمة والكفر الكبير ، فلو كان تعالى مراعيا لمصالح العباد لامتنع أن يمهله ، وإن يمكنه من هذه المفاسد فحيث أنظره وأمهله علمنا أنه لا يجب عليه شيء من رعاية المصالح أصلا ، ومما يقوي ذلك أنه تعالى بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق ، وعلم من حال إبليس أنه لا يدعو إلا إلى الكفر والضلال ، ثم إنه تعالى أمات الأنبياء الذين هم الدعاة للخلق ، وأبقى إبليس وسائر الشياطين الذين هم الدعاة للخلق إلى الكفر والباطل ومن كان يريد مصالح العباد امتنع منه أن يفعل ذلك. قالت المعتزلة : اختلف شيوخنا في هذه المسألة. فقال الجبائي : إنه لا يختلف الحال بسبب وجوده وعدمه ، ولا يضل بقوله أحد إلا من لو فرضنا عدم إبليس لكان يضل أيضا ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿مآ أنتم عليه بفاتنين * إلا من هو صال الجحيم﴾ (الصافات : ١٦٢ ـ ١٦٣) ولأنه لو ضل به أحد لكان بقاؤه مفسدة. وقال أبو هاشم يجوز أن يضل به قوم ، ويكون خلقه جاريا مجرى خلق زيادة الشهوة ، فإن هذه الزيادة من الشهوة لا توجب فعل القبيح إلا أن الامتناع منها يصير أشق ، ولأجل تلك الزيادة من المشقة تحصل الزيادة في الثواب ، فكذا ههنا بسبب إبقاء إبليس يصير الامتناع من القبائح أشد وأشق ، ولكنه لا ينتهي إلى حد الإلجاء والإكراه.

جزء : ١٤ رقم الصفحة : ٢١٦
". (١)

"المسألة الأولى : في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه : الأول : أن المقصود منه أن لا يتوهم إنسان أنه تعالى منع محمدا من بعض ما أذن لإبراهيم فيه. والثاني : أن يقال إنا ذكرنا في سبب اتصال هذه الآية بما قبلها المبالغة في إيجاب الانقطاع عن الكفار أحيائهم وأمواتهم. ثم بين تعالى أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد عليه الصلاة والسلام ، بل المبالغة في تقرير وجوب الانقطاع كانت مشروعة أيضا في دين إبراهيم عليه السلام ، فتكون المبالغة في تقرير وجوب المقاطعة والمباينة من الكفار أقوى. الثالث : أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بكونه حليما أي قليل الغضب ، وبكونه أواها أي كثير التوجع والتفجع عند نزول المضار بالناس ، والمقصود أن من كان موصوفا بهذه الصفات كان ميل قلبه إلى الاستغفار لأبيه شديدا ، فكأنه قيل : إن إبراهيم مع جلالة قدره ومع كونه موصوفا بالأواهية والحليمية منعه الله تعالى من الاستغفار لأبيه الكافر ، فلأن يكون غيره ممنوعا من هذا المعنى كان أولى.

المسألة الثانية : دل القرآن على أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه. قال تعالى حكاية عنه ﴿واغفر لابى ا إنه كان من الضآلين﴾ (الشعراء : ٨٦) وأيضا قال عنه : ﴿ربنا اغفر لى ولوالدى﴾ (إبراهيم : ٤١) وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال : ﴿سلام عليكا سأستغفر لك ربى ﴾ (مريم : ٤٧) وقال أيضا : ﴿لاستغفرن لك﴾ (الممتحنة : ٤) وثبت أن الاستغفار للكافر لا يجوز. فهذا يدل على صدور هذا الذنب من إبراهيم عليه السلام.

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال بقوله : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لابيه إلا عن موعدة وعدهآ إياه﴾ (التوبة : ١١٤) وفيه قولان : الأول : أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام ، والمعنى : أن أباه وعده أن يؤمن ، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأجل أن يحصل هذا المعنى ، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه ، وترك ذلك الاستغفار.

الثاني : أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام ، وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ﴿فلما تبين له ا أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن ﴿وعدهآ إياه﴾ بالباء ، ومن الناس من ذكر في الجواب وجهين آخرين.

جزء : ١٦ رقم الصفحة : ١٦٠

الوجه الأول : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإيمان والإسلام ، وكان يقول له آمن حتى تتخلص من العقاب وتفوز بالغفران ، وكان يتضرع إلى الله في أن يرزقه الإيمان / الذي يوجب المغفرة ، فهذا هو الاستغفار ، فلما أخبره الله تعالى بأنه يموت مصرا على الكفر ترك تلك الدعوة.

والوجه الثاني : في الجواب **أن من الناس من** حمل قوله : ﴿ما كان للنبى والذين ءامنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ (التوبة : ١١٣) على صلاة الجنازة ، وبهذا الطريق فلا امتناع في الاستغفار للكافر لكون الفائدة في ذلك الاستغفار تخفيف العقاب. قالوا : والدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى منع من الصلاة على المنافقين ، وهو قوله : ﴿ولا تصل على

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/١٩٣٨

ا أحد منهم مات أبدا﴾ (التوبة : ٨٤) وفي هذه الآية عم هذا الحكم ، ومنه من الصلاة على المشركين ، سواء كان منافقا أو كان مظهرا لذلك الشرك وهذا قول غريب.

المسألة الثالثة : اختلفوا في السبب الذي به تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله. فقال بعضهم : بالإصرار والموت. وقال بعضهم : بالإصرار وحده. وقال آخرون : لا يبعد أن الله تعالى عرفه ذلك بالوحي ، وعند ذلك تبرأ منه. فكان تعالى يقول : لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه ، فكونوا كذلك ، لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله : ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ (النساء : ١٢٥).

". (١)

"اعلم أنا ذكرنا أن القوم إنما التمسوا من الرسول صلى الله عليه وسلم قرآنا غير هذا القرآن أو تبديل ، هذا القرآن لأن هذا القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام ، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن.

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين : أحدهما : أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثاني : أنهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله. أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله : ﴿ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ وتقريره من وجوه : الأول : قال الزجاج : لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه. الثاني : أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد ، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ألبتة ، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد ، وإذا كان العابد أكمل حالا من المعبود كانت العبادة باطلة. الثالث : أن العبادة أعظم أنواع التعظيم ، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الأنعام ، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد ، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى ، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

وأما النوع الثاني : ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية ، وهو قولهم : ﴿ها ؤلاء شفعا ؤنا عند الله ﴾ فاعلم أن من الناس من قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى. فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل / بعبادة هذه الأصنام ، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله ؟

وذكروا فيه أقوالا كثيرة : فأحدها : أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل أقليم من أقاليم العالم ، روح معين من أرواح عالم الأفلاك ، فعينوا لذلك الروح صنما معينا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم ، ومقصودهم عبادة ذلك الروح ، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبدا للإله الأعظم ومشتغلا بعبوديته. وثانيها : أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى ، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها ، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب. وثالثها : أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان ، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. ورابعها : أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم ، وزعموا أنهم متى اشتغلوا

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٢٣٠٢

بعبادة هذه التماثيل ، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى ، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر ، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله. وخامسها : أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم ، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر ، وعلى صورة الملائكة صورا أخرى. وسادسها : لعل القوم حلولية ، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٢٨

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله : ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة.

قوله تعالى : ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الارضا سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

اعلم أن المفسرين قرروا وجها واحدا ، وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه ، وبيان أن لا وجود له ألبتة ، وذلك لأنه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى ، وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون موجودا ، ومثل هذا الكلام مشهور في العرف ، فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول : ما علم الله هذا مني ، ومقصوده أنه ما حصل ذلك قط ، وقرىء ﴿أتنبئون﴾ بالتخفيف أما قوله : ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ فالمقصود تنزيه الله تعالى نفسه عن ذلك الشرك ، قرأ حمزة والكسائي ﴿تشركون﴾ بالتاء ، ومثله في أول النحل في موضعين ، وفي الروم كلها بالتاء على الخطاب ، قال صاحب "الكشاف" "ما" موصولة أو مصدرية أي عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشراكهم ، قال الواحدي : من قرأ بالتاء فلقوله : ﴿أتنبئون الله﴾ ومن قرأ بالياء / فكأنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم قل أنت ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ ويجوز أن يكون الله سبحانه هو الذي نزه نفسه عما قالوه فقال : ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٢٨

٢٣٠

" (١).

"قلنا : إن هذا الكتمان إنما يحصل قبل الاحتراق بالنار ، فإذا احترقوا تركوا هذا الإخفاء وأظهروه بدليل قوله تعالى : ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ (المؤمنون : ١٠٦) الثالث : أنهم أسروا تلك الندامة لأنهم اخلصوا لله في تلك الندامة ، ومن أخلص في الدعاء أسره ، وفيه تهكم بهم وبإخلاصهم يعني أنهم لما أتوا بهذا الإخلاص في غير وقته ولم ينفعهم ، بل كان من الواجب عليهم أن يأتوا به في دار الدنيا وقت التكليف ، وأما من فسر الإسرار بالإظهار فقوله : ظاهر لأنهم إنما أخفوا الندامة على الكفر والفسق في الدنيا لأجل حفظ الرياسة ، وفي القيامة بطل هذا الغرض فوجب الإظهار. وثالثها : قوله تعالى : ﴿وقضى بينهم بالقسطا وهم لا يظلمون﴾ فقيل بين المؤمنين والكافرين ، وقيل بين الرؤساء والأتباع ، وقيل بين الكفار بإنزال العقوبة عليهم.

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٢٣٥٢

واعلم أن الكفار وإن اشتركوا في العذاب فإنه لا بد وأن يقضي الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه ، فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم ، وتثقيل لعذاب الباقين ، لأن العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ، ولا سبيل إليه إلا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٦٥

٢٦٧

اعلم **أن من الناس من** قال : إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الارض افتدت به ﴾ (يونس : ٥٤) فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدى به ، فإن كل الأشياء ملك الله تعالى وملكه ، واعلم أن هذا التوجيه حسن ، أما الأحسن أن يقال إنا قد ذكرنا أن الناس على طبقات ، فمنهم من يكون انتفاعه بالإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات ، أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات ، أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات ، وإنما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة ، فلما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا أحق هو ؟

أمر الرسول عليه السلام بأن يقول : ﴿إى وربى ﴾ وهذا جار مجرى الإقناعيات ، فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع / على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم وأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه ، فعبر عن هذا المعنى بقوله : ﴿ألا إن لله ما فى السماوات والارض ﴾ ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية ، لأنه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة ، وهو قوله : ﴿إن فى اختلاف اليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والارض﴾ (يونس : ٦) وقوله : ﴿هو الذى جعل الشمس ضيآء والقمر نورا وقدره منازل﴾ (يونس : ٥) فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها ، وذكر أن كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ، ومتى كان الأمر كذلك ، كان قادرا على كل الممكنات ، عالما بكل المعلومات غنيا عن جميع الحاجات ، منزها عن النقائص والآفات ، فهو تعالى لكونه قادرا على جميع الممكنات يكون قادرا على إنزال العذاب على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرا على إيصال الرحمة إلى الأولياء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرا على إعلاء شأن رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه ، ولما كان قادرا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزها عن النقائص والآفات ، كان منزها عن الخلف والكذب وكل ما وعد به فلا بد وأن يقع ، هذا إذا قلنا : إنه تعالى لا يراعي مصالح العباد ، أما إذا قلنا : إنه تعالى يراعيها فنقول : الكذب إنما يصدر عن العاقل ، إما للعجز أو للجهل أو للحاجة ، ولما كان الحق سبحانه منزها عن الكل كان الكذب عليه محالا ، فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار ، وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه ، فثبت بهذا البيان أن قوله تعالى :

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٢٦٧

﴿ألا إن لله ما فى السماوات والارض ﴾ مقدمة توجب الجزم بصحة قوله : ﴿ألا إن وعد الله حق﴾ ثم قال : ﴿ولاكن

أكثرهم لا يعلمون﴾ والمراد أنهم غافلون عن هذه الدلائل ، مغرورون بظواهر الأمور ، فلا جرم بقوا محرومين عن هذه المعارف ، ثم إنه أكد هذه الدلائل فقال : ﴿هو يحيا ويميت وإليه ترجعون﴾ والمراد أنه لما قدر على الإحياء في المرة الأولى فإذا أماته وجب أن يبقى قادرا على إحيائه في المرة الثانية ، فظهر بما ذكرنا أنه تعالى أمر رسوله بأن يقول : ﴿إي وربي ﴾ (يونس : ٥٣) ثم إنه تعالى أتبع ذلك الكلام بذكر هذه الدلائل القاهرة.
". (١)

"فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد : لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد : إن ربك لذو مغفرة إذا تابوا وأنه تعالى إنما لا يعجل العقاب إمهالا لهم في الإتيان بالتوبة ، فإن تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة بل نقول : يجب حمل اللفظ عليه لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب ، فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولا على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول : لم لا يجوز أن يكون المراد : وإن ربك لذو مغفرة أنه تعالى إنما لا يعجل العقوبة إمهالا لهم في الإتيان بالتوبة ، فإن تابوا فهو ذو مغفرة ، وإن عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب.
والجواب عن الأول أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة ، وإلا لوجب أن يقال : الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة ، وعن الثاني : أنه تعالى تمدح بهذا والتمدح إنما يحصل بالتفضل. أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث : أنا بينا أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة حال الظلم ، وبينا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة ، فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه.
جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١٢
١٤
اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر أولا ، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا ، وهو المذكور في هذه الآية.
واعلم أن السبب فيه أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا : هذا كتاب مثل سائر الكتب وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزة ألبتة ، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.
واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن. قالوا : / إن هذا الكلام ، إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا ، مع أنه ما ظهر عليه نوع آخر من المعجزات ، لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا : ﴿لولا أنزل عليه ءاية من ربه ﴾ فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن.
واعلم أن الجواب عنه من وجهين : الأول : لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوا منه صلى الله

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٢٣٨١

عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل ، فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور : مثل فلق البحر بالعصا ، وقلب العصا ثعبانا.
فإن قيل : فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم ؟
قلنا إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكما وظهور القرآن معجزة ، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات ، وأيضا فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة ، وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال ، فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم ، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله : ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لاسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ (الأنفال : ٢٣) بين أنه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنهم لا ينتفعون به ، وأيضا ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له. وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر ، فطلب منه معجزة أخرى ، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم السلام ، وأنه باطل.
جزء : ١٩ رقم الصفحة : ١٤
الوجه الثاني : وفي الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات. ثم إنه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال : ﴿إنمآ أنت منذرا ولكل قوم هاد﴾ وفيه مسائل :
المسألة الأولى : اتفق القراء على التنوين في قوله : ﴿هاد﴾ وحذف الياء في الوصل ، واختلفوا في الوقف ، فقرأ ابن كثير : بالوقف على الياء ، والباقون : بغير الياء ، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف.
". (١)

"وأما القسم الأول : فهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها ، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئا من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك ، لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها ، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل ، ومن الناس من يقول : إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة أشياء ، ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلا ، ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل ، والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء ، فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ، ولا شك أنه طل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فكذا ههنا. وأيضا فنحن نشاهد أن هذا النحل إنما يتغذى بالعسل ، ولذلك فإنا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لأجل أن تغتذي بها فعلمنا أنها إنما تغتذي بالعسل وأنها إنما تقع على الأشجار والأزهار لأنها تغتذي بتلك الأجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها.
إذا عرفت هذا فنقول : قوله تعالى : ﴿ثم كلى من كل الثمرات﴾ كلمة (من) ههنا تكون لابتداء الغاية ، ولا تكون للتبعيض على هذا القول.
/ ثم قال تعالى : ﴿فاسلكى سبل ربك﴾ والمعنى : ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٢٥٨٠

التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل ، أو يكون المراد : فاسلكي في طلب تلك الثمرات سبل ربك. أما قوله : ﴿ذللا ﴾ ففيه قولان : الأول : أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها ، كقوله : ﴿هو الذى جعل لكم الارض ذلولا﴾ (الملك : ١٥) الثاني : أنه حال من الضمير في ﴿فاسلكى﴾ أي وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة.

ثم قال تعالى : ﴿يخرج منا بطونها﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : أن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي ، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال : إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب ، لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه.

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٢٣٩

البحث الثاني : أنه قد ذكرنا **أن من الناس من** يقول : العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع على أطراف الأشجار وعلى الأوراق والأزهار ، فيلقطها الزنبور بفمه ، فإذا ذهبنا إلى هذا الوجه كان المراد من قوله : ﴿يخرج منا بطونها﴾ أي من أفواهها ، وكل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطنا ، ألا ترى أنهم يقولون : بطون الدماغ وعنوا أنها تجاويف الدماغ ، وكذا ههنا يخرج من بطونها أي من أفواهها ، وأما على قول أهل الظاهر ، وهو أن النحلة تأكل الأوراق والثمرات ثم تقيء فذلك هو العسل فالكلام ظاهر.

ثم قال تعالى : ﴿شراب مختلف ألوانه فيه شفآء للناس ﴾ اعلم أنه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة :

فالصفة الأولى : كونه شرابا والأمر كذلك ، لأنه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ من الأشربة.

والصفة الثانية : قوله : ﴿مختلف ألوانه ﴾ والمعنى : أن منه أحمر وأبيض وأصفر. ونظيره قوله تعالى : ﴿ومن الجبال جددا بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود﴾ (فاطر : ٢٧) والمقصود منه : إبطال القول بالطبع ، لأن هذا الجسم مع كونه متساوي الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة ، دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار ، لا لأجل إيجاد الطبيعة.

والصفة الثالثة : قوله : ﴿فيه شفآء للناس ﴾ وفيه قولان :

القول الأول : وهو الصحيح أنه صفة للعسل.

فإن قالوا : كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرارة ؟

.

قلنا : إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال ، بل لما كان شفاء للبعض/ من بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء ، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قال معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل ، وأيضا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع.

والقول الثاني : وهو قول مجاهد أن المراد : أن القرآن شفاء للناس ، وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله : ﴿يخرج منا بطونها شراب مختلف ألوانه ﴾ ثم ابتدأ وقال : ﴿فيه شفآء للناس ﴾ أي في هذا القرآن حصل ما هو شفاء للناس من الكفر والبدعة ، مثل هذا الذي في قصة النحل. وعن ابن مسعود : أن العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور.

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٢٣٩

". (١)

"الوجه الرابع : أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي/ يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم ، ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم ، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى ، وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان ، أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني ، فهذا الإلزام غير وارد عليهم ، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل.

فإن قالوا : هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة ، ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها ، أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه ؟

قلنا : نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر ، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضا ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني ، فذاك مقام آخر سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى/

الوجه الخامس : أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفلا مسير سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ (سبأ : ١٢) بل نقول : الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة ، وذلك أيضا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة.

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٢٩٧

الوجه السادس : أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بقليس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى : ﴿قال الذى عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ﴾ (النمل : ٤٠) وإذاكان ممكنا في حق بعض الناس ، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود.

الوجه السابع : **إن من الناس من** يقول : الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٢٧٣٢

ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة ، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السريعة من الممكنات لا من الممتنعات ، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه.

المقدمة الثانية : في بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها وجب أن لا يكون/ حصولها في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممتنعا ، والذي يدل عليه أنا بينا بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهياتها ، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام ، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله عليه وسلم أمر ممكن الوجود في نفسه.

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن ، فوجب كونه تعالى قادرا عليه وحينئذ يلزم من مجموع هذه المقدمات أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه ، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب ، إلا أن هذا التعجب غير مخصوص بهذا المقام ، بل هو حاصل في جميع المعجزات ، فانقلاب العصا ثعبانا تبلغ سبعين ألف حبل من الحبال والعصي ، ثم تعود في الحال عصا صغيرة كما كانت أمر عجيب ، وخروج الناقة العظيمة من الجبل الأصم ، وإظلال الجبل العظيم في الهواء عجيب ، وكذا القول في جميع المعجزات فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع ، لزم الجزم بفساد القول بإثبات المعجزات وإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال فكذا ههنا ، فهذا تمام القول في بيان أن القول بالمعراج ممكن غير ممتنع والله أعلم.

المقام الثاني : في البحث عن وقوع المعراج قال أهل التحقيق : الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر ، أما القرآن فهو هذه الآية ، وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلا لمجموع الجسد والروح.

جزء : ٢٠ رقم الصفحة : ٢٩٧

" (١).

"أما قوله تعالى : ﴿أنتم لها واردون﴾ فإنما جاز مجيء اللام في لها لتقدمها على الفعل تقول أنت لزيد ضارب كقوله تعالى : ﴿والذين هم لاماناتهم وعهدهم﴾ (المؤمنون : ٨) ﴿والذين هم لفروجهم﴾ (المؤمنون : ٥) أي أنتم فيها داخلون ، والمعنى أنه لا بد وأن تردوها ولا معدل لكم عن دخولها.

أما قوله تعالى : ﴿لو كان ها ؤلاء ءالهة ما وردوها ﴾ فاعلم أن قوله : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ بالأصنام أليق لدخول لفظة ما ، وهذا الكلام بالشياطين أليق لقوله هؤلاء ويحتمل أن يريد / الشياطين والأصنام فيغلب بأن يذكروا بعبارة العقلاء ، ونبه الله تعالى على أن من يرمى إلى النار لا يمكن أن يكون إلها. وههنا سؤال : وهو أن قوله : ﴿لو

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٢٧٧٣

كان ها ؤلاء ءالهة ما وردوها ﴾ لكنهم وردوها فهم ليسوا آلهة حجة ، وهذه الحجة إما أن يكون ذكرها لنفسه أو لغيره ، فإن ذكرها لنفسه فلا فائدة فيه لأنه كان عالما بأنها ليست آلهة وإن ذكرها لغيره ، فإما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته ، فإن ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة لأن كل من صدق بنبوته لم يقل بإلهية هذه الأصنام وإن ذكرها لمن يكذب بنبوته ، فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه في ذلك ، فكان ذكره هذه الحجة ضائعا كيف كان ، وأيضا فالقائلون بآلهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم وإلا لكانوا مجانين ، بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء ، وذلك لا يمنع من دخولها في النار. وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا : المعنى لو كان هؤلاء يعني الأصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أي ما دخل عابدوها النار ، ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة : أحدها : الخلود فقال : ﴿وكل فيها خالدون﴾ يعني العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله :

جزء : ٢٢ رقم الصفحة : ١٩٠

﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ . وثانيها : قوله : ﴿لهم فيها زفير﴾ قال الحسن : الزفير هو اللهيب ، أي يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفا/ قال الخليل : الزفير أن يملأ الرجل صدره غما ثم يتنفس قال أبو مسلم وقوله لهم : عام لكل معذب ، فنقول لهم : زفير من شدة ما ينالهم والضمير في قوله : ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ يرجع إلى المعبودين أي لا يسمعون صراخهم وشكواهم. ومعناه : أنهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حده أي أجاب الله دعاءه. وثالثها : قوله : ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ وفيه وجهان : أحدهما : أنه محمول على الأصنام خاصة على ما حكيناه عن أبي مسلم. والثاني : أنها محمولة على الكفار ، ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه. أحدها : أن الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة في عذابهم. وثانيها : أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة. وثالثها : قال ابن مسعود إن الكفار يجعلون في توابيت من نار والتوابيت في توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئا والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف.

جزء : ٢٢ رقم الصفحة : ١٩٠

١٩٤

/ اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعري لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقي ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لأن هذه الآية كالإستثناء من تلك الآية. وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا أن سؤاله لم يكن واردا ، وأنه لا حاجة في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية ، وإذا ثبت هذا لم يبق ههنا إلا أحد أمرين : الأول : أن يقال : إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار ، فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهي عامة في حق كل المؤمنين. الثاني : أن هذه الآية نزلت في تلك الواقعة لتكون كالتأكيد في دفع سؤال ابن الزبعري ، ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون

الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها ، لا أن الآية مختصة بهم ، ومن قال : العبرة بخصوص السبب خصص قوله : ﴿إن الذين﴾ بهؤلاء فقط.

جزء : ٢٢ رقم الصفحة : ١٩٤

". (١)

"المسألة الأولى : قرىء وترى بالضم تقول أريتك قائما أو رأيتك قائما والناس بالنصب والرفع ، أما النصب فظاهر ، وأما الرفع فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة/ وقرىء سكرى وسكارى ، وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان ، سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى ، وعن الأعمش : سكرى وسكرى بالضم وهو غريب.

المسألة الثانية : المعنى وتراهم سكارى على التشبيه ﴿وما هم بسكارى ﴾ على التحقيق ، ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم ، وقال ابن عباس والحسن ونراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب ، فإن قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الإفراد ؟

قلنا لأن الرؤية أولا علقت بالزلزلة ، فجعل الناس جميعا رائين لها ، وهي معلقة آخرا بكون الناس على حال من السكر ، فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم.

جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٢٠٣

المسألة الثالثة : إن قيل أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لأهل النار خاصة ؟

قلنا قال قوم إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار ، وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون. وقيل بل يحصل للكل لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله ، وليس لأحد عليه حق.

جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٢٠٣

٢٠٦

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : في كيفية النظم وجهان : الأول : أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ، ودعا الناس إلى تقوى الله. ثم بين في هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا في الأول. وأخبر عن مجادلتهم الثاني : أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها ، **فإن من الناس من** يجادل في الله بغير علم ، ثم في قوله : ﴿ومن الناس ﴾ وجهان : الأول : أنهم الذين ينكرون البعث ، ويدل عليه قوله : ﴿أولم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة﴾ (يس : ٧٧) إلى آخر الآية. وأيضا فإن ما قبل هذه الآية وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث ، فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث والثاني : أنها نزلت في النضر بن الحرث ، كان يكذب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين ، ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣١٧٦

رضي الله عنهما.
المسألة الثانية : هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة ، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة ، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله : ﴿ما ضربوه لك إلا جدا ﴾ (الزخرف : ٥٨) والمجادلة الحقة هي المراد من قوله : ﴿وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ (النحل : ١٢٥).
المسألة الثالثة : في قوله : ﴿ويتبع كل شيطان مريد﴾ قولان : أحدهما : يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني : أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده ، قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس ، يقال صخرة مرداء أي ملساء ، ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز حد مثله.
أما قوله : ﴿كتب عليه﴾ ففيه وجهان : أحدهما : أن الكتبة عليه مثل أي كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله والثاني : كتب عليه في أم الكتاب ، واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان ، يحتمل أن يكون راجعا إلى كل واحد منهما ، فإن رجع إلى من / يجادل فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد ، فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار. وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلا لهذا الوعيد ، فإن رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال. وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجرا عن اتباعه ، وفي الآية مسائل :
جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٢٠٦
المسألة الأولى : قال القاضي عبد الجبار إذا قيل المراد بقوله : ﴿كتب عليه﴾ قضى عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان ، لأنه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل ، ويجوز أن يقضي على من يقبله بقوله ، قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار. قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبا ، وذلك محال ومستلزم المحال محال ، فكان لا وقوعه محالا.
المسألة الثانية : دلت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب ، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية.
المسألة الثالثة : قال القاضي فيه دلالة على أن المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته ، وإلا لما كانت مضافة إلى اتباع الشيطان/ وكان لا يصح القول بأن الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله والجواب : المعارضة بمسألة العلم وبمسألة الداعي.
". (١)

"المسألة السابعة : إن وجب الجلد على المريض نظر ، فإن كان به مرض يرجى زواله من صداع أو ضعف أو ولادة يؤخر حتى يبرأ ، كما لو أقيم عليه حد أو قطع لا يقام عليه حد آخر حتى يبرأ من الأول ، وإن كان به مرض لا يرجى زواله ، كالسل والزمانة فلا يؤخر ولا يضرب بالسياط فإنه يموت وليس المقصود موته ، وذلك لا يختلف سواء كان

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣١٨٤

زناه في حال الصحة ثم مرض أو في حال المرض ، بل يضرب بعثكال عليه مائة شمراخ فيقول ذلك مقام مائة جلدة. كما قال تعالى في قصة أيوب عليه السلام : ﴿وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث﴾ (ص : ٤٤) وعند / أبي حنيفة رحمه الله : يضرب بالسياط ، دليلنا ما روي أن رجلا مقعدا أصاب امرأة فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة ، ولأن الصلاة إذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك.

المسألة الثامنة : يقام الحد في وقت اعتدال الهواء ، فإن كان في حال شدة حر أو برد نظر إن كان الحد رجما يقام عليه كما يقام في المرض لأن المقصود قتله ، وقيل إن كان الرجم ثبت عليه بإقراره فيؤخر إلى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله ، لأنه ربما رجع عن إقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على أهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لأنه لا يسقط ، وإن كان الحد جلدا لم يجز إقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض. أما الرجم ففيه مسائل :

المسألة الأولى : قال الشافعي رحمه الله ، ومالك رحمه الله : يجوز للإمام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر ، وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور. وقال أبو حنيفة رحمه الله : إن ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدأوا بالرجم ثم الإمام ثم الناس ، وإن ثبت بإقرار بدأ الإمام ثم الناس. حجة الشافعي رحمه الله : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما.

جزء : ٢٣ رقم الصفحة : ٣٢٠

المسألة الثانية : إن ثبت الزنا بإقراره فمتى رجع ترك/ وقع به بعض الحد أو لم يقع. وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد وإسحق ، وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه ، وعن مالك رحمه الله روايتان.

حجة القول الأول : أن ماعزا لما مسته الحجارة وهرب ، فقال عليه السلام : "هلا تركتموه".

المسألة الثالثة : يحفر للمرأة إلى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى إليها ، ولا يحفر للرجل ، لما روى أبو سعيد الخدري "أن ماعزا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله إني أصبت فاحشة فأقم على الحد ، فرده النبي عليه السلام مرارا ، ثم سأل قومه ، فقالوا : لا نعلم به بأسا فأمرنا أن نرجمه ، فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له ، قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف ، قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكن" وجه الاستدلال أنه قال : "فما أوثقناه ولا حفرنا له" ولأنه هرب ، ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك.

المسألة الرابعة : إذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين ، فهذا ما أردنا ذكره من بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية.

أما المباحث العقلية : فاعلم **أن من الناس من** قال : لا شك أن البدن مركب من أجزاء كثيرة ، فإما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الأجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة ، والثاني محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين / الأول ، وإذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة ، وإذا ثبت هذا فنقول الزاني هو الفرج لا الظهر ، فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر

، ولأنه ربما كان الإنسان حال إقدامه على الزنا عجيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز إيلام تلك الأجزاء الزائدة مع أنها كانت بريئة عن فعل الزنا ، فإن قال قائل هذا مدفوع من وجهين : الأول : وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال ، بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الأجزاء ، فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا ، وعلى هذا التقدير يزول السؤال الثاني : أن يقال الذي هو الفاعل والمحرك والمدرك شيء ليس بجسم ولا جسماني. وإنما هو مدبر لهذا البدن ، وعلى هذا التقدير أيضا يزول السؤال والجواب : أما الأول فضعيف ، وذلك لأن العلم إذا قام بجزء واحد ، فإما أن يحصل بمجموع الأجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال ، أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور ، وأما الثاني ففي نهاية البعد لأنه إذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد ؟

واعلم أن المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ، ونحن نعلم أن شرع الحد يفيد الزجر ، فكان المقصود حاصلا والله أعلم.

." (١)

"السؤال الثاني : فإذا كان الله النور فلم احتيج في إثباته إلى البرهان ؟

أجاب فقال إن معنى كونه نور السموات والأرض معروف بالنسبة إلى النور الظاهر البصري ، فإذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان فربما ظننت أنك لا ترى مع الألوان غيرها ، فإنك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة إلا أنك عند غروب الشمس تدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وعدم وقوعه عليه ، فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الألوان إلا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يختفي وقد يكون الظهور سبب الخفاء ، إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شيء لا يفارقه ، ولكن بقي ههنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ، ويحجب فحينئذ يظهر أنه غير اللون ، وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الأشياء دائما ، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ، ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والأرض ولأدرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به ، ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها ، وأن كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء ، وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات ارتفعت التفرقة وخفي الطريق ، إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا تغير له بتشابه أحواله ، فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه ، فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم بإشراق نوره ، واعلم أن هذا الكلام الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق إلى أن معنى كونه سبحانه نورا أنه خالق للعالم وأنه خالق للقوى الدراكة ، وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والأرض أنه

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٢٧٧

هادي أهل السموات والأرض ، فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى والله أعلم.

الفصل الثاني : في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام : "إن لله سبعين حجابا من نور / وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره" وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفا ، فأقول : لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى متجل في ذاته لذاته كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا ، إما بحجاب مركب من نور وظلمة ، وإما بحجاب مركب من نور فقط/ أو بحجاب مركب من ظلمة فقط ، أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا ؟

وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم ، وإنما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى ، فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات إلى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ، ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر.

جزء : ٢٤ رقم الصفحة : ٣٩٩

القسم الثاني : المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة

اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فإما أن يعتقد فيها أنها غنية عن المؤثر ، أو يعتقد فيها أنها محتاجة ، فإن اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ﴿النور ﴾ فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير ، وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور ﴿وأمآ﴾ فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة ، فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ، ثم أصناف هذا القسم كثيرة ، **فإن من الناس من** يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر ، ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها إلى حركات الأفلاك أو إلى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم.

القسم الثالث : الحجب النورانية المحضة

واعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلا بواسطة تلك الصفات السلبية والإضافية ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها ، فالعبد لا يزال يكون مترقيا فيها فإن وصل إلى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقي إلى ما فوقها ، ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدا في السير والانتقال ، وأما حقيقته المخصوصة فهي محتجبة عن الكل فقد أشرنا إلى كيفية مراتب الحجب ، وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام إنما حصرها في سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فإنها لا نهاية لها في الحقيقة.

الفصل الثالث في شرح كيفية التمثيل

جزء : ٢٤ رقم الصفحة : ٣٩٩

". (١)

"المسألة الخامسة : لم يكن الموافق له في التأويب منحصرا في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال ، لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة ، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ، ثم **إن من الناس من** لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة.

المسألة السادسة : قوله : ﴿وألنا له الحديد﴾ عطف ، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله يا جبال تقديره قلنا : ﴿من جبال﴾ أوبي وألنا ، ويحتمل أن يكون عطفا على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له.

جزء : ٢٥ رقم الصفحة : ١٩٨

المسألة السابعة : ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير ، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به ، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله ، قيل / إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع ، وإنما اختار الله له ذلك ، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعى في حفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل ، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما.

جزء : ٢٥ رقم الصفحة : ١٩٨

١٩٩

/قيل إن أن ههنا للتفسير فهي مفسرة ، بمعنى أي اعمل سابغات وهو تفسير وتحقيقه لأن يعمل ، يعني ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه : ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر في السرد ، قال المفسرون : أي لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها ، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد ، وقوله : ﴿سابغات وقدر في السرد ﴾ أي الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿واعملوا صالحا ﴾ أي لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ، والكسب قدروا فيه ، ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله : ﴿إني بما تعملون بصير﴾ وقد ذكرنا مرارا أن من يعمل لملك شغلا ويعلم أنه بمرأى من الملك يحسن العمل ويتقنه ويجتهد فيه ، ثم لما ذكر المنيب الواحد ذكر منيبا آخر وهو سليمان ، كما قال تعالى : ﴿وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾ (ص : ٣٤).

جزء : ٢٥ رقم الصفحة : ١٩٩

٢٠٠

وذكر ما استفاد هو بالإنابة فقال : ﴿ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهرا وأسلنا له عين القطرا ومن الجن من

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٣٣٧

يعمل بين يديه بإذن ربه ا ومن﴾ وفيه مسائل :
المسألة الأولى : قرئ ﴿ولسليمان الريح﴾ بالرفع وبالنصب وجه الرفع ﴿ولسليمان الريح﴾ مسخرة أو سخرت ﴿ولسليمان الريح﴾ ووجه النصب ﴿ولسليمان﴾ سخرنا ﴿الريح﴾ وللرفع وجه آخر / وهو أن يقال معناه : ﴿ولسليمان الريح﴾ كما يقال لزيد الدار ، وذلك لأن الريح كانت له كالمملوك المختص به يأمرها بما يريد حيث يريد.
المسألة الثانية : الواو للعطف فعلى قراءة الرفع يصير عطفا لجملة إسمية على جملة فعلية وهو لا يجوز أولا يحسن فكيف هذا فنقول لما بين حال داود كأنه تعالى قال ما ذكرنا لداود ولسليمان الريح ، وأما على النصب فعلى قولنا : ﴿وألنا له الحديد﴾ كأنه قال : وألنا لداود الحديد وسخرنا لسليمان الريح.
المسألة الثالثة : المسخر لسليمان كانت ريحا مخصوصة لا هذه الرياح ، فإنها المنافع عامة في أوقات الحاجات ويدل عليه أنه لم يقرأ إلا على التوحيد فما قرأ أحد الرياح.
المسألة الرابعة : قال بعض الناس : المراد من تسخير الجبال وتسبيحها مع داود أنها كانت تسبح كما يسبح كل شيء ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ (الإسراء : ٤٤) ، وكان هو عليه السلام يفقه تسبيحها فيسبح ، ومن تسخير الريح أنه راض الخيل وهي كالريح وقوله : ﴿غدوها شهر﴾ ثلاثون فرسخا لأن من يخرج للتفرج في أكثر الأمر لا يسير أكثر من فرسخ ويرجع كذلك ، وقوله في حق داود : ﴿وألنا له الحديد﴾ وقوله في حق سليمان : ﴿وأسلنا له عين القطر ﴾ أنهم استخرجوا تذويب الحديد والنحاس بالنار واستعمال الآلات منهما والشياطين أي أناسا أقوياء وهذا كله فاسد حمله على هذا ضعف اعتقاده (و) عدم اعتماده على قدرة الله والله قادر على كل ممكن وهذه أشياء ممكنة.
جزء : ٢٥ رقم الصفحة : ٢٠٠
" (١).

"الحكم الرابع : أنه جرت العادة أن المبطلين يخوفون المحقين بالتخويفات الكثيرة ، فحسم الله مادة هذه الشبهة بقوله تعالى : ﴿أليس الله بكاف عبده ﴾ وذكره بلفظ الاستفهام والمراد تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك ، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات ، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد/ وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات ، فلهذا قال : ﴿أليس الله بكاف عبده ﴾ ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال : ﴿ويخوفونك بالذين من دونه ﴾ يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا ، قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له : ﴿ويخوفونك﴾ روي أن قريشا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقرأ جماعة : ﴿عباده ﴾ بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحا كفاه الغرق ، وإبراهيم النار ، ويونس بالإنجاء مما وقع له ، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك ، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٦٥٦

بالسوء لقوله تعالى : ﴿وهمت كل أمةا برسولهم﴾ (غافر : ٥) وكفاهم الله شر من عاداهم.

جزء : ٢٦ رقم الصفحة : ٤٥٧

واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال : ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ يعني هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله : ﴿أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾ تهديد للكفار.

واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله : ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل ﴾ والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون / على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله : ﴿أليس الله بعزيز ذى انتقام﴾ ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به.

جزء : ٢٦ رقم الصفحة : ٤٥٧

٤٥٨

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين ، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام ، وبنى هذا التزييف على أصلين :

الأصل الأول : هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله : ﴿ولئان سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله ﴾ واعلم **أن من الناس من** قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه ، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة ، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم.

". (١)

"اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه ترابا إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة ثم إلى كونه طفلا ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال بعده : ﴿هو الله الذى لا إلاه﴾ يعني كما أن الأتنقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر ، فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر وقوله ﴿فإذا قضى ا أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ فيه وجوه الأول : معناه أنه لما نقل هذه الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى لم يتعب في ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة ، فعبر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال : ﴿كن فيكون﴾ الوجه الثاني : أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقول الوجه الثاني : أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقول ﴿كن فيكون﴾ فكأنه قيل الإنتقال من كونه ترابا إلى كونه نطفة ، ثم إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدرج قليلا قليلا ، وأما صيرورة الحياة فهي إنما

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٨٥٩

تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به ، وذلك يحدث دفعة واحدة ، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله ﴿كن فيكون﴾
الوجه الثالث : **أن من الناس من** يقول إن تكون الإنسان إنما ينعقد من المني والدم في الرحم في مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات ، فكأنه قيل إنه يتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر ، لأن التسلسل محال ، ووقوع الحادث في الأزل محال ، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس ، فحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم ، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء ، فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله ﴿كن فيكون﴾ .

جزء : ٢٧ رقم الصفحة : ٥٣٣

٥٣٤

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال : ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون فى ءايات الله أنى يصرفون﴾ وهذا ذم لهم على أن جادلوا في آيات الله ودفعها والتكذيب بها ، فعجب تعالى منهم بقوله ﴿أنى يصرفون﴾ كما يقول الرجل لمن لا يبين : أنى يذهب بك تعجبا من غفلته ، ثم بين أنهم هم ﴿الذين كذبوا بالكتاب﴾ أي بالقرآن ﴿وبمآ أرسلنا به رسلنا ﴾ من سائر الكتب ، فإن قيل سوف للاستقبال ، وإذ للماضي فقوله ﴿فسوف يعلمون * إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ مثل قولك : سوف أصوم أمس قلنا المراد من قوله ﴿إذ﴾ هو إذا ، لأن الأمور المستقبلة لما كان في أخبا رالله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد ، والمعنى على الاستقبال ، هذا لفظ صاحب "الكشاف".

جزء : ٢٧ رقم الصفحة : ٥٣٤

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال : ﴿إذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون * فى الحميم﴾ والمعنى : أنه يكون في أعناقهم الأغلال والسلاسل ، ثم يسحبون بتلك السلاسل في الحميم ، أي في الماء المسخن بنار جهنم ﴿ثم فى النار يسجرون﴾ والسجر في اللغة الإيقاد في التور ، ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم ، ويقرب منه قوله تعالى : ﴿نار الله الموقدة * التى تطلع على الافادة﴾ (الهمزة : ٦ ، ٧) ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون * من دون الله ﴾ فيقولون ﴿ضلوا عنا﴾ أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم ، ثم قالوا ﴿بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا ﴾ أي تبين أنهم لو لم يكونوا شيئا ، وما كنا نعبد بعبادتهم شيئا ، كما تقول حسبت أن فلانا شيء ، فإذا هو ليس بشيء إذا جربته فلم تجد عنده خيرا ، ويجوز أيضا أن يقال ءنهم كذبوا وأنكروا أنهم عبدوا غير الله ، كما أخبر الله تعالى عنهم في سورة الأنعام أنهم قالوا ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ثم قال تعالى : ﴿كذالك يضل الله الكافرين﴾ قال القاضي : معناه أنه يضلهم عن طريق الجنة ، إذ لا يجوز أن يقال يضلهم عن الحجة إذ قد هداهم في الدنيا إليها ، وقال صاحب "الكشاف" ﴿كذالك يضل الله الكافرين﴾ مثل ضلال آلهتهم عنهم يضلهم عن آلهتهم ، حتى أنهم لو طلبوا الآلهة أو طلبتم الآلهة لم يجد أحدهما الآخر ، ثم قال : ﴿ذالكم بما كنتم تفرحون فى الارض﴾ أي ذلكم الإضلال بسبب ما كان لكم من الفرح والمرح بغير الحق ، وهو الشرك وعبادة الأصنام ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ السبعة المقسومة لكم ، قال الله تعالى : ﴿لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ (الحجر : ٤٤) ، ﴿خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين﴾

والمراد منه ما قال في الآية المتقدمة في صفة هؤلاء المجادلين ﴿إن فى صدورهم إلا كبر﴾ (غافر : ٥٦). ". (١)

"المسألة الرابعة : قال في حق المؤمنين ﴿اتبعوا الحق من ربهم ﴾ وقال في حق الكفار ﴿اتبعوا الباطل﴾ من آلهتهم أو الشيطان ، نقول أما آلهتهم فلأنهم لا كلام لهم ولا عقل ، وحيث ينطقهم الله ينكرون فعلهم ، كما قال تعالى : ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم ﴾ (فاطر : ١٤) وقال تعالى : ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ (الأحقاف : ٦) والله تعالى رضي بفعلهم وثبتهم عليه ، ويحتمل أن يقال قوله ﴿من ربهم﴾ عائد إلى الأمرين جميعا ، أي من ربهم اتبع هؤلاء الباطل ، وهؤلاء الحق ، أي من حكم ربهم ، ومن عند ربهم.

ثم قال تعالى : ﴿كذالك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ وفيه أيضا مسائل :

المسألة الأولى : أي مثل ضربه الله تعالى حتى يقول ﴿كذالك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ ؟

نقول فيه وجهان أحدهما : إضلال أعمال الكفار وتكفير سيئات الأبرار الثاني : كون الكافر متبعا للباطل ، وكون المؤمن متبعا للحق ، ويحتمل وجهين آخرين أحدهما : على قولنا ﴿من ربهم﴾ أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق ، نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الأمثال ، فإن الكل من عند الله الإضلال وغيره والاتباع وغيره وثانيهما : هو أن الله تعالى لما بين أن الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيئاته ، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان ، نبه على أن السبب كذا أي ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل ، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل ، فإن من يؤمن ظاهرا وقلبه مملوء من الكفر ، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان اتحد فعلاهما في الظاهر ، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل ، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهرا وهو يسر الكفر ، ومن يكفر ظاهرا بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر ، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه ، وهو اتباع الحق والباطل ، فكذلك اعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولا مثابا عليه ، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودا معاقبا عليه فصار هذا عاما في الأمثال ، على أنا نقول قوله ﴿كذالك﴾ لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب بل معناه أنه تعالى لما بين حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبين السبب فيهما ، كان ذلك غاية الإيضاح فقال : ﴿كذالك﴾ أي مثل هذا البيان ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ ويبين لهم أحوالهم.

جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ٣٢

المسألة الثانية : الضمير في قوله ﴿أمثالهم﴾ عائد إلى من ؟

فيه وجهان : أحدهما : إلى الناس /كافة قال تعالى : ﴿يضرب الله للناس أمثالهم﴾ على أنفسهم وثانيهما : إلى الفريقين

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٣٩١٨

السابقين في الذكر معناه : يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين.

جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ٣٢

.

ثم قال تعالى : ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى ا إذآ أثختنموهم﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى : الفاء في قوله ﴿فإذا لقيتم﴾ يستدعي متعلقا يتعلق به ويترتب عليه ، فما وجه التعلق بما قبله ؟

نقول هو من وجوه : الأول : لما بين أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل ، ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه ﴿فإذا لقيتم﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم ، فاضربوا أعناقهم الثاني : إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين ، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان ، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم الثالث : أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان ، فيقال ردا عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم ، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

المسألة الثانية : ﴿فضرب﴾ منصوب على المصدر ، أي فاضربوا ضرب الرقاب.

". (١)

"الحجرات : ١) وهو قوله تعالى : ﴿عظيما * يا أيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله ﴾ وفي معنى قوله تعالى : ﴿وألزمهم كلمة التقوى ﴾ على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال : (اتقوا) يكون الأمر واردا ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه/ ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه فكأنه قال تعالى : ﴿وألزمهم كلمة التقوى ﴾ وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملا ولكنه أقرب إلى الكلمة ، وعلى هذا فقوله ﴿وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه ، وذلك لأن قوله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (الحجرات : ١٣) يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر والثاني : أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى ، كما في قوله "والمخلصون على خطر عظيم" وقوله تعالى : ﴿هم من خشية ربهم مشفقون﴾ (المؤمنون : ٥٧) وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله ﴿وكانوا أحق بها﴾ لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى : ﴿ومن الناس والدوآب والانعام مختلف ألوانه ﴾ (فاطر : ٢٨) وقوله ﴿وأهلها ﴾ يحتمل وجهين أحدهما : أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحانا على الكافرين إن لم يثبت الأهلية ، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق إذا كان ولا بد فهذا أحق ، كما يقال الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال : ﴿وأهلها ﴾ دفعا لذلك الثاني : وهو أقوى وهو أن يقال قوله تعالى : ﴿وأهلها ﴾ فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الأحق ، فنقول

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٠٥٦

هو يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى : ﴿خير مقاما وأحسن نديا﴾ (مريم : ٧٣) إذ لا خير في غيره والثاني : أن يكون للتفضيل وهو يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون /بالنسبة إلى غيرهم أي المؤمنون أحق من الكافرين والثاني : أن يكون بالنسبة إلى كلمة التقوى من كلمة أخرى غير تقوى ، تقول زيد أحق بالإكرام منه بالإهانة ، كما إذا سأل شخص عن زيد إنه بالطب أعلم أو بالفقه ، نقول هو بالفقه أعلم أي من الطب.
جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ٩١
.

بيان لفساد ما قاله المنافقون بعد إنزال الله السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ووقوفهم عند ما أمروا به من عدم الإقبال على القتال وذلك قولهم ما دخلنا المسجد الحرام ولا حلقنا ولا قصرنا حيث كان النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أن المؤمنين يدخلون مكة ويتمون الحج ولم يعين له وقتا فقص رؤياه على المؤمنين ، فقطعوا بأن الأمر كما رأى لنبي صلى الله عليه وسلم في منامه وظنوا أن الدخول يكون عام الحديبية ، والله أعلم أنه لا يكون إلا عام الفتح فلما صالحوا ورجعوا قال المنافقون استهزاء ما دخلنا ولا حلقنا فقال تعالى : ﴿لقد صدق الله رسوله الرءيا بالحق ﴾ وتعدية صدق إلى مفعولين يحتمل أن يكون بنفسه ، وكونه من الأفعال التي تتعدى إلى المفعولين ككلمة جعل وخلق ، ويحتمل أن يقال عدى إلى الرؤيا بحرف تقديره صدق الله رسوله في الرؤيا ، وعلى الأول معناه جعلها واقعة بين صدق وعده إذ وقع الموعود به وأتى به ، وعلى الثاني معناه ما أراه الله لم يكذب فيه ، وعلى هذا فيحتمل أن يكون رأى في منامه أن الله تعالى يقول ستدخلون المسجد الحرام فيكون قوله ﴿صدق﴾ ظاهرا لأن استعمال الصدق في الكلام ظاهر ، ويحتمل أن يكون عليه الصلاة والسلام رأى أنه يدخل المسجد فيكون قوله ﴿صدق الله﴾ معناه أنه أتى بما يحقق المنام ويدل على كونه صادقا يقال صدقني سن بكره مثلا وفيما إذا حقق الأمر الذي يريه من نفسه ، مأخوذ من الإبل إذا قيل له هدع سكن فحقق كونه من صغار الإبل ، فإن هدع كلمة يسكن بها صغار الإبل وقوله تعالى : ﴿بالحق ﴾ قال الزمخشري هو حال أو قسم أو صفة صدق ، وعلى كونه حال تقديره صدقه الرؤيا ملتبسة بالحق وعلى تقدير كونه صفة تقديره صدقه صدقا ملتبسا بالحق وعلى تقدير كونه قسما ، إما أن يكون قسما بالله فإن الحق من أسمائه ، وإما أن يكون قسما بالحق الذي هو نقيض الباطل هذا ما قاله ، ويحتمل أن يقال (إن) فيه وجهين آخرين : أحدهما : أن يقال فيه تقديم /تأخير تقديره : صدق الله رسوله بالحق الرؤيا ، أي الرسول الذي هو رسول بالحق وفيه إشارة إلى امتناع الكذب في الرؤيا لأنه لما كان رسولا بالحق فلا يرى في منامه الباطل والثاني : أن يقال بأن قوله
جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ٩١
" (١).

"اللطيفة الثانية : لما قال : ﴿ذريتهم ومآ ألتناهم﴾ ونفي النقصان يصدق بحصول المساوي ، فقال ليس عدم النقصان بالاقتصار على المساوي ، بطريق آخر وهو الزيادة والإمداد ، فإن قيل أكثر الله من ذكر الأكل والشرب ،

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٠٩٦

وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الأكل والشرب وكل ما سوى الله ، نقول هذا على العمل ، ولهذا قال تعالى : ﴿جزآءا بما كانوا يعملون﴾ (الواقعة : ٢٤) وقال : ﴿بما كنتم تعملون﴾ (الطور : ١٦) وأما على العلم بذلك فذلك ، ولهذا قال : ﴿لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون * سلام قولا من رب رحيم﴾ أي للنفوس ما تتفكه به ، وللأرواح ما تتمناه من القربة والزلفى.

جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ١٩٨

•

وقوله تعالى : ﴿يتنازعون فيها كأسا﴾ فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب ، وقوله تعالى : ﴿يتنازعون﴾ أي يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة ، وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل ، ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبا أن يشرب مثل ما شربه حريفه ولا يرى واجبا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه.

وقوله تعالى : ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ وسواء قلنا ﴿فيها﴾ عائدة إلى الجنة أو إلى الكأس فذكرهما /لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا ، فقال تعالى ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثيم الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم ، وفيه وجه ثالث ، وهو أن يقال لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم أي لا ينسب إلى إثم ، وفيه وجه رابع ، وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر ، وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك **لأن من الناس من** يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع إلى من هذى ، ومنهم من يعربد فقال : ﴿لا لغو فيها﴾ .

جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ١٩٨

•

أي بالكؤوس وقال تعالى : ﴿يطوف عليهم ولدان مخلدون * بأكواب وأباريق وكأس من معين﴾ (الواقعة : ١٧ ، ١٨) وقوله ﴿لهم﴾ أي ملكهم إعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجها آخر وهو أنه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا ، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح ، وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمخض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد. وقوله تعالى : ﴿كأنهم لؤلؤ﴾ أي في الصفاء ، و﴿مكنون﴾ ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم.

جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ١٩٨

•

إشارة إلى أنهم يعلمون ما جرى عليهم في الدنيا ويذكرونه ، وكذلك الكافر لا ينسى ما كان له من النعيم في الدنيا ، فتزداد لذة المؤمن من حيث يرى نفسه انتقلت من السجن إلى الجنة ومن الضيق إلى السعة ، ويزداد الكافر ألما حيث يرى نفسه منتقلة من الشرف إلى التلف ومن النعيم إلى الجحيم ، ثم يتذكرون ما كانوا /عليه في الدنيا من الخشية والخوف ، فيقولون ﴿إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين﴾ وهو أنهم يكون تساؤلهم عن سبب ما وصلوا إليه فيقولون خشية الله كنا نخاف الله ﴿فمن الله علينا ووقاانا عذاب السموم﴾ وفيه لطيفة وهو أن يكون إشفاقهم على فوات الدنيا والخروج منها ومفارقة الإخوان ثم لما نزلوا الجنة علموا خطأهم.

جزء : ٢٨ رقم الصفحة : ١٩٨

.

وتعلق الآية بما قبلها ظاهر لأنه تعالى بين أن في الوجود قوما يخافون الله ويشفقون في أهليهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بتذكير من يخاف الله تعالى بقوله ﴿فذكر بالقرءان من يخاف وعيد﴾ (ق : ٤٥) فحقق من يذكره فوجب التذكير ، وأما الرسول عليه السلام فليس له إلا الإتيان بما أمر به ، وفيه مسائل :

المسألة الأولى : في الفاء في قوله ﴿فذكر﴾ قد علم تعلقه بما قبله فحسن ذكره بالفاء.

المسألة الثانية : معنى الفاء في قوله ﴿فمآ أنت﴾ أيضا قد علم أي أنك لست بكاهن فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم ، فإن ذلك سيرة المزور ﴿فذكر﴾ فإنك لست بمزور ، وذلك سبب التذكير.

." (١)

"سورة الرحمن

خمسون وخمس آيات مكية

جزء : ٢٩ رقم الصفحة : ٣٤٢

٣٤٢

اعلم أولا أن مناسبة هذه السورة لما قبلها بوجهين أحدهما : أن الله تعالى افتتح السورة المتقدمة بذكر معجزة تدل على العزة والجبروت والهيبة وهو انشقاق القمر ، فإن من يقدر على شق القمر يقدر على هد الجبال وقد الرجال ، وافتتح هذه السورة بذكر معجزة تدل على الرحمة والرحموت وهو القرآن الكريم ، فإن شفاء القلوب بالصفاء عن الذنوب ثانيهما : أنه تعالى ذكر في السورة المتقدمة : ﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾ (القمر : ١٦) غير مرة ، وذكر في السورة : ﴿فبأى ءالاء ربكما تكذبان﴾ (الرحمن : ١٣) مرة بعد مرة لما بينا أن تلك السورة سورة إظهار الهيبة ، وهذه السورة سورة إظهار الرحمة ، ثم إن أول هذه السورة مناسب لآخر ما قبلها حيث قال في آخر تلك السورة : ﴿عند مليك مقتدر ﴾ (القمر : ٥٥) ، والاقتدار إشارة إلى الهيبة والعظمة وقال ههنا : ﴿الرحمان﴾ أي عزيز شديد منتقم مقتدر بالنسبة إلى الكفار والفجار ، رحمن منعم غافر للأبرار. ثم في التفسير مسائل :

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٢٠٣

المسألة الأولى : في لفظ ﴿الرحمان﴾ أبحاث ، ولا يتبين بعضها إلا بعد البحث في كلمة الله فنقول :
جزء : ٢٩ رقم الصفحة : ٣٤٢
المبحث الأول : من الناس من يقول : إن الله مع الألف واللام اسم علم لموجد الممكنات وعلى هذا فمنهم من قال : ﴿الرحمان﴾ أيضا اسم علم له وتمسك بقوله تعالى : ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمانا أيا ما تدعوا فله الاسمآء الحسنى ﴾ (الإسراء : ١١) أي أيا ما منهما ، وجوز بعضهم قول القائل : يا الرحمن كما يجوز يا الله وتمسك بالآية وكل هذا ضعيف وبعضها أضعف من بعض ، أما قوله : الله مع الألف واللام اسم علم ففيه بعض الضعف وذلك لأنه لو كان كذلك لكانت الهمزة فيه أصلية ، فلا يجوز أن تجعل وصلية ، وكان يجب أن يقال : خلق الله كما يقال : علم أحمد وفهم إسماعيل ، بل الحق فيه أحد القولين : إما أن نقول : إله أو لاه اسم لموجد الممكنات اسم علم ، ثم استعمل مع الألف واللام كما في الفضل والعباس والحسن والخليل ، وعلى هذا فمن سمى غيره إلها فهو كمن يستعمل في مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كان علمين لغيره قبله في أنه جائز لأن من سمى ابنه أحمد لم يكن له من الأمر المطاع / ما يمنع الغير عن التسمية به ولم يكن له الاحتجار وأخذ الاسم لنفسه أو لولده بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسما لا يستجرىء أحد ممن تحت ولايته ما دام له الملك أن يسمى ولده أو نفسه بذلك الاسم خصوصا من يكون مملوكا لا يمكنه أن يسمي نفسه باسم الملك ولا أن يسمي ولده به ، والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره فإذا استأثر لنفسه اسما لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم ، فمن يسمى فقد تعدى فالمشركون في التسمية متعدون ، وفي المعنى ضالون وإما أن نقول : إله أو لاه اسم لمن يعبد والألف واللام للتعريف ، ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم ، فإن قيل : فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغي أن يجوز ؟
قلنا : لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علما ، فإن قيل : تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا : كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ في اللفظ الذكرى لا يفضي إلى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولا يجوز تسميته بالخالق ، والقديم لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز ، وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التي بها بقاء الخلق أو العدم/ فلا يجوز لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به ، فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الألف واللام علم ليس بحق ، إذا عرفت البحث في الله فما يترتب عليه ، وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه ، وتجويز يا الرحمن أضعف من الكل.
جزء : ٢٩ رقم الصفحة : ٣٤٢
البحث الثاني : الله والرحمن في حق الله تعالى كالاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول كما في قولنا : عمر الفاروق ، وعلى المرتضى وموسى الرضا ، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرفة لهم التي كانت لهم وصفا وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية ، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعلم فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى ، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصا بأولئك غير أن في تلك الأسماء والأوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس في الاقتدار والعظمة ، ولا يجوز في حق الله تعالى ، فإن

قيل : إن من الناس من أطلق لفظ الرحمن على اليمامي ، نقول : هو كما أن من الناس من أطلق لفظ الإله على غير الله تعديا وكفرا ، نظرا إلى جوازه لغة وهو اعتقاد باطل.

البحث الثالث : لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة فالسابقة هي التي بها خلق الخلق واللاحقة هي التي أعطى بها الخلق بعد إيجاده إياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك فهو تعالى بالنظر إلى الرحمة السابقة رحمن ، وبالنظر إلى اللاحقة رحيم ، ولهذا يقال : يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة ، فهو رحمن ، لأنه خلق الخلق أولا برحمته ، فلما لم يوجد في غيره هذه الرحمة ولم يخلق أحد حدا لم يجز أن يقال لغيره : رحمن ، ولما تخلق الصالحون من عباده ببعض أخلاقه على قدر الطاقة البشرية ، وأطعم الجائع وكسا العاري ، وجد شيء من الرحمة اللاحقة التي بها الرزق والإعانة فجاز أن يقال له رحيم ، وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة غير أنا أردنا أن يصير ما ذكرنا مضموما إلى ما ذكرناه هناك ، / فأعدناه ههنا لأن هذا كله كالتفصيل لما ذكرناه في الفاتحة.

المسألة الثانية : ﴿الرحمان﴾ مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي هي قوله : ﴿علم القرءان﴾ وقيل ﴿الرحمان﴾ (خبر) مبتدأ تقديره هو الرحمن ، ثم أتى بجملة بعد جملة فقال : ﴿علم القرءان﴾ والأول أصح ، وعلى القول الضعيف الرحمن آية.." (١)

"المسألة الثالثة : في الريحان ، وقد تقدم تفسيره في قوله تعالى : ﴿ذو العصف والريحان﴾ (الرحمن : ١٢) ولكن ههنا فيه كلام ، فمنهم من قال : المراد ههنا ما هو المراد ثمة ، إما الورق وإما الزهر وإما النبات المعروف ، وعلى هذا فقد قيل : إن أرواح أهل الجنة لا تخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليهم بريحان من الجنة يشمونه ، وقيل : إن المراد ههنا غير ذلك وهو الخلود ، وقيل : هو رضاء الله تعالى عنهم فإذا قلنا : الروح هو الرحمة فالآية كقوله تعالى : ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ (التوبة : ٢١) وأما : ﴿جنة نعيم﴾ فقد تقدم القول فيها عند تفسير السابقين في قوله : ﴿ أولئك المقربون * فى جنات النعيم﴾ (الواقعة : ١١ ، ١٢) وذكرنا فائدة التعريف هناك وفائدة التنكير ههنا.

جزء : ٢٩ رقم الصفحة : ٤٣٩

المسألة الرابعة : ذكر في حق المقربين أمورا ثلاثة ههنا وفي قوله تعالى : ﴿يبشرهم ربهم﴾ (التوبة : ٢١) وذلك لأنهم أتوا بأمور ثلاثة وهي : عقيدة حقة وكلمة طيبة وأعمال حسنة ، فالقلب واللسان والجوارح كلها كانت مرتبة برحمة الله على عقيدته ، وكل من له عقيدة حقة يرحمه الله ويرزقه الله دائما وعلى الكلمة الطيبة وهي كلمة الشهادة ، وكل من قال : لا إله إلا الله فله رزق كريم والجنة له على أعماله الصالحة ، قال تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنةا يقاتلون فى سبيل الله﴾ (التوبة : ١١١) وقال : ﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى ﴾ (النازعات : ٤٠ ، ٤١) فإن قيل : فعلى هذا من أتى بالعقيدة / الحقة ، ولم يأت بالكلمة الطيبة ينبغي أن يكون من أهل الرحمة ولا يرحم الله إلا من قال : لا إله إلا الله ، نقول : من كانت عقيدته حقة ، لا بد وأن

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٣٠٣

يأتي بالقول الطيب فإن لم يسمع لا يحكم به ، لأن العقيدة لا اطلاع لنا عليها فالقول دليل لنا ، وأما الله تعالى فهو عالم الأسرار ، ولهذا ورد في الأخبار أن من الناس من يدفن في مقابر الكفار ويحشر مع المؤمنين/ ومنهم من يدفن في مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار لا يقال : إن من لا يعمل الأعمال الصالحة لا تكون له الجنة على ما ذكرت ، لأنا نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : أن عقيدته الحقة وكلمته الطيبة لا يتركانه بلا عمل ، فهذا أمر غير واقع وفرض غير جائز وثانيهما : أنا نقول من حيث الجزاء ، وأما من قال : لا إله إلا الله فيدخل الجنة ، وإن لم يعمل عملا لا على وجه الجزاء بل بمحض فضل الله من غير جزاء ، وإن كان الجزاء أيضا من الفضل لكن من الفضل ما يكون كالصدقة المبتدأة ، ومن الفضل مالا كما يعطي الملك الكريم آخر والمهدي إليه غيرملك لا يستحق هديته ولا رزقه.

[بم ثم قال تعالى :

جزء : ٢٩ رقم الصفحة : ٤٣٩

٤٤١

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : في السلام وفيه وجوه أولها : يسلم به صاحب اليمين على صاحب اليمين ، كما قال تعالى من قبل : ﴿لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما﴾ (الواقعة : ٢٥ ، ٢٦) ، ثانيها : ﴿فسلام لك﴾ أي سلامة لك من أمر خاف قلبك منه فإنه في أعلى المراتب ، وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه ، إذا كان يخدم عند كريم ، يقول له : كن فارغا من جانب ولدك فإنه في راحة. ثالثها : أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم كما يقال : فلان ناهيك به ، وحسبك أنه فلان ، إشارة إلى أنه ممدوح فوق الفضل.

المسألة الثانية : الخطاب بقوله : ﴿لك﴾ مع من ؟

نقول : قد ظهر بعض ذلك فنقول : يحتمل أن يكون المراد من الكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وحينئذ فيه وجه وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم غير محتاجين إلى شيء من الشفاعة وغيرها ، فسلام لك يا محمد منهم فإنهم في سلامة وعافية لا يهمك أمرهم ، أو فسلام لك يا محمد منهم ، وكونهم ممن يسلم على محمد صلى الله عليه وسلم دليل العظمة ، فإن العظيم لا يسلم عليه إلا عظيم ، وعلى هذا ففيه لطيفة : وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم مكانته فوق مكانة أصحاب اليمين بالنسبة إلى المقربين الذين هم في عليين ، كأصحاب الجنة بالنسبة إلى أهل عليين ، فلما قال : ﴿وأمآ إن كان من أصحاب اليمين﴾ كان فيه إشارة إلى أن مكانهم غير مكان الأولين المقربين ، فقال تعالى : هؤلاء وإن كانوا دون الأولين لكن لا تنفع بينهم المكانة والتسليم ، بل هم يرونك ويصلون إليك وصول جليس الملك إلى الملك والغائب إلى أهله وولده ، وأما المقربون فهم يلازمونك ولا يفارقونك وإن كنت أعلى مرتبة منهم.

[بم ثم قال تعالى :

جزء : ٢٩ رقم الصفحة : ٤٤١

٤٤١
وفيه مسألتان :
" (١).

"الصرصر الشديدة الصوت لها صرصرة وقيل : الباردة من الصر كأنها التي كرر فيها البرد وكثر فهي تحرق بشدة بردها ، وأما العاتية ففيها أقوال : الأول : قال الكلبي : عتت على خزنتها يومئذ ، فلم يحفظوا كم خرج منها ، ولم يخرج قبل ذلك ، ولا بعده منها شيء إلا بقدر معلوم ، قال عليه الصلاة والسلام : طغى الماء على خزانه يوم / نوح ، وعتت الريح على خزانها يوم عاد ، فلم يكن لها عليها سبيل ، فعلى هذا القول : هي عاتية على الخزان الثاني : قال عطاء عن ابن عباس : يريد الريح عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو (استناد إلى جبل) ، فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم القول الثالث : أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان ، إنما هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ومنه قولهم : عتا النبت ، أي بلغ منتهاه وجف ، قال تعالى : ﴿وقد بلغت من الكبر عتيا﴾ (مريم : ٨) فعاتية أي بالغة منتهاها في القوة والشدة.

جزء : ٣٠ رقم الصفحة : ٦٢٣
٦٢٣

قوله تعالى : ﴿سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ قال مقاتل : سلطها عليهم. وقال الزجاج : أقلعها عليهم ، وقال آخرون : أرسلها عليهم ، هذه هي الألفاظ المنقولة عن المفسرين ، وعندي أن فيه لطيفة ، وذلك **لأن من الناس من** قال : إن تلك الرياح إنما اشتدت ، لأن اتصالا فلكيا نجوميا اقتضى ذلك ، فقوله : ﴿سخرها﴾ فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب ، وبيان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته ، فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب. وقوله : ﴿سبع ليال وثمانية أيام حسوما ﴾ الفائدة فيه أنه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوما ، فلما قال : ﴿سبع ليال وثمانية أيام﴾ صار مقدار هذا الزمان معلوما ، ثم لما كان يمكن أن يظن ظان أن ذلك العذاب كان متفرقا في هذه المدة أزال هذا الظن ، بقوله : ﴿حسوما ﴾ أي متتابعة متوالية ، واختلفوا في الحسوم على وجوه أحدها : وهو قول الأكثرين (حسوما) ، أي متتابعة ، أي هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح المهلكة ، فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع ، وعلى هذا القول : حسوم جمع حاسم. كشهود وقعود ، ومعنى هذا الحسم في اللغة القطع بالاستئصال ، وسمي السيف حساما ، لأنه يحسم العدو عما يريد ، من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أتت عليهم أشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم في إعادة الكي ، على الداء كرة بعد أخرى ، حتى ينحسم وثانيها : أن الرياح حسمت كل خير ، واستأصلت كل بركة ، فكانت حسوما أو حسمتهم ، فلم يبق منهم أحد ، فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم وثالثها : أن يكون الحسوم مصدرا كالشكور والكفور ، وعلى هذا التقدير فإما أن ينتصب بفعله مضمرا ، والتقدير : يحسم حسوما ، يعني استأصل استئصالا ، أو يكون صفة ،

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٣٩٠

كقولك : ذات حسوم ، أو يكون مفعولا له ، أي سخرها عليهم للاستئصال ، وقرأ السدي : ﴿حسوما ﴾ بالفتح حالا من الريح ، أي سخرها عليهم مستأصلة ، وقيل : هي أيام العجوز ، وإنما سميت بأيام العجوز ، لأن عجوزا من عاد توارت في سرب ، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها ، وقيل : هي أيام العجز وهي آخر الشتاء.

جزء : ٣٠ رقم الصفحة : ٦٢٣

قوله تعالى : ﴿فترى القوم فيها صرعى ﴾ أي في مهابها ، وقال آخرون : أي في تلك الليالي / والأيام : ﴿صرعى ﴾ جمع صريع. قال مقاتل : يعني موتى يريد أنهم صرعوا بموتهم ، فهم مصرعون صرع الموت.

ثم قال : ﴿كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ أي كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شيء فيها ، والنخل يؤنث ويذكر ، قال الله تعالى في موضع آخر : ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ (القمر : ٢٠) وقرىء : (أعجاز نخيل) ، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها ، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع ، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعا ضخاما كأصول النخل. وأما وصف النخل بالخواء ، فيحتمل أن يكون وصفا للقوم ، فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف ، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها ، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية ثم قال :

جزء : ٣٠ رقم الصفحة : ٦٢٣

٦٢٣

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : في الباقية ثلاثة أوجه أحدها : إنها البقية وثانيها : المراد من نفس باقية وثالثها : المراد بالباقية البقاء ، كالطاغية بمعنى الطغيان.

". (١)

"المقام الثاني : في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة اعلم **أن من الناس من** فسر الإبل بالسحاب. قال صاحب "الكشاف" : ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب ، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك ، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل في كثير من أشعارهم ، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز ، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة. أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور ، فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين الأول : أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرا ، لأن بلدتهم بلدة خالية من الزرع ، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل ، فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين منفردين عن الناس ، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء ، لأنه ليس معه من يحادثه ، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره ، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة ، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه ، فيرى منظرا عجيبا ، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء ، وإذا نظر يمينا وشمالا لم

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٥٢٤

ير غير الجبال ، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض ، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئا سوى هذه الأشياء ، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية الوجه الثاني : أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين : منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معا ، ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب ، وليس للشهوة فيها نصيب.

والقسم الأول : كالإنسان الحسن الوجه ، والبساتين النزهة ، والذهب والفضة وغيرها ، فهذه الأشياء يمكن الاستدلال بها على الصانع الحكيم ، إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس ، فلم يأمر تعالى بالنظر فيها ، لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعا عن إتمام النظر والفكر وسببا لاستغراق النفس في محبته.

جزء : ٣١ رقم الصفحة : ١٤٧

أما القسم الثاني : فهو كالحيوانات التي لا يكون في صورتها حسن ، ولكن يكون داعية تركيبها حكم باللغة وهي مثل الإبل وغيرها ، إلا أن ذكر الإبل ههنا أولى لأن إلف العرب بها أكثر وكذا السماء والجبال والأرض ، فإن دلائل الحدوث والحاجة فيها ظاهرة ، وليس فيها ما يكون نصيبا للشهوة ، فلما كان هذا القسم بحيث يكمل نصيب الحكمة فيه مع الأمن من زحمة الشهوة لا جرم أمر الله بالتدبر فيها فهذا ما يحضرنا في هذا الموضع وبالله التوفيق.

جزء : ٣١ رقم الصفحة : ١٤٧

١٤٨

اعلم أنه تعالى لما بين الدلائل على صحة التوحيد والمعاد ، قال لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿فذكر إنمآ أنت مذكر﴾ وتذكير الرسول إنما يكون بذكر هذه الأدلة وأمثالها والبعث على النظر فيها والتحذير من ترك تلك ، وذلك بعث منه تعالى للرسول على التذكير والصبر على كل عارض معه ، وبيان أنه إنما بعث لذلك دون غيره ، فلهذا قال : ﴿إنمآ أنت مذكر﴾ .

جزء : ٣١ رقم الصفحة : ١٤٨

١٤٨

قال صاحب "الكشاف" : بمسلط ، كقوله : ﴿يقولونا ومآ أنت عليهم بجبار ﴾ (ق : ٤٥) وقوله : ﴿أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ (يونس : ٩٩) وقيل : هو في لغة تميم مفتوح الطاء على أن سيطر متعد عندهم ، والمعنى أنك ما أمرت إلا بالتذكير ، فأما أن تكون مسلطا عليهم حتى تقتلهم ، أو تكرههم على الإيمان فلا ، قالوا : ثم نسختها آية القتال ، هذا قول جميع المفسرين ، والكلام في تفسير هذا الحرف قد تقدم عند قوله : ﴿أم هم﴾ (الطور : ٣٧). أما قوله تعالى :

جزء : ٣١ رقم الصفحة : ١٤٨

١٥١

ففيه مسائل.

المسألة الأولى : في الآية قولان : أحدهما : أنه استثناء حقيقي ، وعلى هذا التقدير هذا الاستثناء ، استثناء عماذا ؟ فيه احتمالان الأول : أن يقال التقدير : فذكر إلا من تولى وكفر والثاني : أنه استثناء عن الضمير في ﴿سوا ء عليهم﴾ (الغاشية : ٢٢) والتقدير : لست عليهم بمسيطر إلا من تولى. واعترض عليه بأنه عليه السلام ما كان حينئذ مأمورا بالقتال وجوابه : لعل المراد أنك لا تصبر مسلطا إلا على من تولى القول الثاني : أنه استثناء منقطع عما قبله ، كما تقول في الكلام : قعدنا نتذكر العلم ، إلا أن كثيرا من الناس لا يرغب ، فكذا ههنا التقدير لست بمسئول عليهم ، لكن من تولى منهم فإن الله يعذبه العذاب الأكبر الذي هو عذاب جهنم ، قالوا وعلامة كون الاستثناء منقطعا حسن دخول أن في المستثني ، وإذا كان الاستثناء متصلا لم يحسن ذلك ، ألا ترى أنك تقول : عندي مائتان إلا درهما ، فلا تدخل عليه أن ، وههنا يحسن أن ، فإنك تقول : إلا أن من تولى وكفر فيعذبه الله.

المسألة الثانية : قرىء : (ألا من تولى) على التنبيه ، وفي قراءة ابن مسعود : (فإنه يعذبه).
المسألة الثالثة : إنما سماه العذاب الأكبر لوجوه أحدها : أنه قد بلغ حد عذاب الكفر وهو الأكبر ، لأن ما عداه من عذاب الفسق دونه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر﴾ (السجدة : ٢١) ، وثانيها : هو العذاب في الدرك الأسفل في النار وثالثها : أنه قد / يكون العذاب الأكبر حاصلا في الدنيا ، وذلك بالقتل وسبي الذرية وغنيمة الأموال ، القول الأول أولى وأقرب. ثم قال تعالى :
جزء : ٣١ رقم الصفحة : ١٥١
١٥٥
وهذا كأنه من صلة قوله : ﴿فيعذبه الله العذاب الاكبر﴾ (الغاشية : ٢٤) وإنما ذكر تعالى ذلك ليزيل به عن قلب النبي صلى الله عليه وسلم حزنه على كفرهم ، فقال : طب نفسا عليهم ، وإن عاندوا وكذبوا وجحدوا فإن مرجعهم إلى الموعد الذي وعدنا ، فإن علينا حسابهم وفيه سؤال : وهو أن محاسبة الكفار إنما تكون لإيصال العقاب إليهم وذلك حق الله تعالى ، ولا يجب على المالك أن يستوفي حق نفسه والجواب : أن ذلك واجب عليه إما بحكم الوعد الذي يمتنع وقوع الخلف فيه ، وإما في الحكمة ، فإنه لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم لكان ذلك شبيها بكونه تعالى راضيا بذلك الظلم وتعالى الله عنه ، فلهذا السبب كانت المحاسبة واجبة وههنا مسألتان :
المسألة الأولى : قرأ أبو جعفر المدني : ﴿إيابهم﴾ بالتشديد. قال صاحب "الكشاف" : وجهه أن يكون فيعالا مصدره أيب فيعل من الإياب ، أو يكون أصله أوابا فعالا من أوب ، ثم قيل : إيوابا كديوان في دون ، ثم فعل به ما فعل بأصل سيد.
المسألة الثانية : فائدة تقديم الظرف التشديد بالوعيد ، فإن ﴿إيابهم﴾ ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وأن حسابهم ليس بواجب إلا عليه ، وهو الذي يحاسب على النقير والقطمير ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

جزء : ٣١ رقم الصفحة : ١٥٥

١٥٧." (١)

"وأما هذه الآية وهو قوله : ﴿بإذن ربهم﴾ فإنها تدل على أنهم استأذنوا أولا فأذنوا ، وذلك يدل على غاية المحبة ، لأنهم كانوا يرغبون إلينا ويتمنون لقاءنا. لكن كانوا ينتظرون الإذن ، فإن قيل قوله : ﴿وإنا لنحن الصآفون﴾ ينافي قوله : ﴿تنزل الملا ماكة﴾ قلنا نصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين وثالثها : أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة : ﴿يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم﴾ فههنا في الدنيا إن اشتغلت بعبادتي نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسلم والزيارة ، روى عن علي عليه السلام : "أنهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن أصابته التسليمة غفر له ذنبه" ورابعها : أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعاتهم أكثر ثوابا ، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثوابا ، وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة وخامسها : أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكابر من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلوة/ فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد وسادسها : أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة ، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة ، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة ، وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها ، ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر ، فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات ، وجبريل لا يدع أحدا من الناس إلا صافحهم ، وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه ، فإن ذلك من مصافحة جبريل عليه السلام ، من قال فيها ثلاث مرات : لا إله إلا الله غفر له بواحدة ، ونجاه من النار بواحدة ، وأدخله الجنة بواحدة ، وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من تلك الليلة ثم يدعو ملكا ملكا ، فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام ، فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ، ولمن صام رمضان احتسابا ، فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا فيجلسون حلقا حلقا فتجمع إليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة ، حتى يقولوا : ما فعل فلان وكيف وجدتموه ؟

فيقولون : وجدناه عام أول متعبدا ، وفي هذا العام مبتدعا ، وفلان كان عام أول مبتدعا ، وهذا العام متعبدا ، فيكفون عن الدعاء للأول ، ويشتغلون بالدعاء للثاني ، ووجدنا فلانا تاليا ، وفلانا راكعا ، وفلانا ساجدا ، فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سماء حتى ينتهوا إلى السدرة. فتقول لهم السدرة : يا سكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقا ، وإني أحب من أحب الله ، فذكر كعب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم ، ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة ، فتقول الجنة : اللهم عجلهم إلي ، والملائكة ، وأهل السدرة يقولون :

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٧٣٨

آمين آمين ، إذا عرفت هذا فنقول ، كلما كان الجمع أعظم ، كان نزول الرحمة هناك أكثر ، ولذلك فإن أعظم الجموع في موثق الحج ، لا جرم كان نزول الرحمة هناك أكثر ، فكذا في ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين ، فلا جرم كان نزل الرحمة أكثر.

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٢٤١

المسألة الثالثة : ذكروا في الروح أقوالا أحدها : أنه ملك عظيم ، لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة وثانيها : طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر ، كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد وثالثها : خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ، ولا من الإنس ، ولعلهم خدم أهل الجنة ورابعها : يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه ، ثم إنه ينزل في مواقفة الملائك ليطلع على أمة محمد وخامسها : أنه القرآن : ﴿وكذالك أوحينآ إليك روحا من أمرنا ﴾ وسادسها : الرحمة قرىء : ﴿يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف﴾ بالرفع كأنه تعالى ، يقول : الملائكة ينزلون رحمتي تنزل في أثرهم فيجدون سعادة الدنيا وسعادة الآخرة وسابعها : الروح أشرف الملائكة وثامنها : عن أبي نجيح الروح هم الحفظة والكرام الكاتبون فصاحب اليمين يكتب إتيانه بالواجب ، وصاحب الشمال يكتب تركه للقبيح ، والأصح أن الروح ههنا جبريل. وتخصيصه بالذكر لزيادة شرفه كأنه تعالى يقول الملائكة في كفة والروح في كفة. " (١).

"واعلم أن من الناس من أنكر ذلك ، وقال : لو جوزناأن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله ، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليا عن الثقل وأن يكون في ومن التينة ، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات ، فإنه متى / جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها ، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس ، وكل ذلك محال. واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

المسألة الثالثة : ذكروا في السجيل وجوها أحدها : أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار ، كما أن سجينا علم لديوان أعمالهم ، كأنه قيل : بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون ، واشتقاقه من الإسجال ، وهو الإرسال ، ومنه السجل الدلو المملوء ماء ، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم لأنه كتب فيه العذاب ، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى : ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾ وقوله : ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ فقوله : ﴿من سجيل﴾ أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب وثانيها : قال ابن عباس : سجيل معناه سنك وكل ، يعني بعضه حجر وبعضه طين وثالثها : قال أبو عبيدة : السجيل الشديد ورابعها : السجيل اسم لسماء الدنيا وخامسها : السجيل حجارة من جهنم ، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام.

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٢٩٤

٢٩٨

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٨٠٠

أما قوله تعالى : ﴿فجعلهم كعصف مأكول ﴾ ففيه مسائل :
المسألة الأولى : ذكروا في تفسير العصف وجوها ذكرناها في قوله : ﴿والحب ذو العصف﴾ وذكروا ههنا وجوها : أحدها : أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي وثانيها : قال أبو مسلم : العصف التبن لقوله : ﴿ذو العصف والريحان﴾ لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب ، وهو إذا كان مأكولا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه وثالثها : قال الفراء : هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل ورابعها : هو الحب الذي أكل لبه وبقي قشره.
المسألة الثانية : ذكروا في تفسير المأكول وجوها أحدها : أنه الذي أكل ، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان :
أحدهما : أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب ، ثم ألقته روثا ، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه ، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث ، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن ، كقوله : ﴿كانا يأكلان الطعام ﴾ وهو قول مقاتل ، وقتادة وعطاء عن ابن عباس.
والاحتمال الثاني : على هذا الوجه أن يكون التشبيه واقعا بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال ، وهو أن يأكله الدود الوجه الثاني : في تفسير قوله : ﴿مأكول ﴾ هو أنه جعلهم كزرع قد أكل حبه وبقي تبنه ، وعلى هذا التقدير يكون المعنى : كعصف مأكول الحب كما يقال : فلان حسن أي حسن الوجه ، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أكل حبه لأن هذا المعنى معلوم وهذا / قول الحسن الوجه الثالث : في التفسير أن يكون معنى : ﴿مأكول ﴾ أنه مما يؤكل ، يعني تأكله الدواب يقال : لكل شيء يصلح للأكل هو مأكول والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب وهو قول عكرمة والضحاك.
المسألة الثالثة : قال بعضهم : إن الحجاج خرب الكعبة ، ولم يحدث شيء من ذلك ، فدل على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة والجواب : أنا بينا أن ذلك وقع إرهاصا لأمر محمد صلى الله عليه وسلم ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه ، أما بعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٢٩٨
٢٩٨." (١)

"المسألة الخامسة : الفاء في قوله : ﴿فصل﴾ تفيد سببية أمرين أحدهما : سببية العبادة كأنه قيل : تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية والثاني : سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له : إنك أبتر فقيل له : كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة ، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم.
واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب/ والفاء في قوله : ﴿فصل﴾ اقتضت كون الصلاة من

---

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٨٤١

لوازم تلك النعم ، لا جرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبي عليه الصلاة والسلام فقال : "وجعلت قرة عيني في الصلاة" ولقد صلى حتى تورمت قدماه ، فقيل له : أوليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال : "أفلا أكون عبدا شكورا" فقوله : "أفلا أكون عبدا شكورا" إشارة إلى أنه يجب على الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء في قوله : ﴿فصل﴾ .

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٣٣٠

المسألة السادسة : كان الأليق في الظاهر أن يقول : إن أعطيناك الكوثر ، فصل لنا وانحر. لكنه ترك ذلك إلى قوله : ﴿فصل لربك﴾ لفوائد إحداها : أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة وثانيها : أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم : يأمرك أمير المؤمنين ، وينهاك أمير المؤمنين وثالثها : أن قوله : ﴿إنآ أعطيناك﴾ ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره ، وأيضا كلمة إنا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه ، فلو قال : صل لنا ، لنفي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك ، فلهذا ترك اللفظ ، وقال : ﴿فصل لربك﴾ ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى.

المسألة السابعة : قوله : ﴿فصل لربك﴾ أبلغ من قوله : فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله : ﴿إنآ أعطيناك الكوثر﴾ ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه.

المسألة الثامنة : في الآية سؤالان : أحدهما : أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة ، فلم كان المذكور ههنا هو النحر ؟ والثاني : لما لم يقل : ضحي حتى يشمل جميع أنواع / الضحايا ؟

والجواب : عن الأول ، أما على قول من قال : المراد من الصلاة صلاة العيد ، فالأمر ظاهر فيه ، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة ، فلوجوه أحدها : أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان ، فقيل له : اجعلهما لله وثانيها : **أن من الناس من** قال : إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه شيء من الدنيا ، بل كان يملك بقدر الحاجة ، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه ، أما النحر فقد كان واجبا عليه لقوله : "ثلاث كتبت علي ولم تكتب على أمتي ؛ الضحى والأضحى والوتر" وثالثها : أن أعز الأموال عند العرب ، هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيها على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها ، روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ، ثم أمر عليا عليه السلام بذلك ، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله ، فلما أخذ على السكين تباعدت منه والجواب عن الثاني : أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا ، وأيضا فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل.

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٣٣٠

المسألة التاسعة : دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر ، لا لأن الواو توجب الترتيب ، بل لقوله عليه السلام : "ابدؤا بمابدأ الله به".

المسألة العاشرة : السورة مكية في أصح الأقوال ، وكان الأمر بالنحر جاريا مجرى البشارة بحصول الدولة ، وزوال الفقر والخوف.

جزء : ٣٢ رقم الصفحة : ٣٣٠

٣٣٢

قوله تعالى : ﴿إن شانئك هو الابتر﴾ وفي الآية مسائل :

(١) ".

"والأحاديث الصحيحة المستفيضة دلت على خروج ناس من المؤمنين الذين دخلوا النار بالشفاعة من النار ، ومناسبة قوله تعالى : وبشر لما قبله ظاهره ، وذلك أنه لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة ، وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار ، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدي. وهكذا جرت العادة في القرآن غالبا متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب بالمؤمنين وما لهم وبالعكس ، لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللطف والعنف ، **لأن من الناس من** لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف ، ومنهم من هو بالعكس. والمأمور بالتبشير قيل : النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : كل من يصلح للبشارة من غير تعيين. قال الزمخشري : وهذا أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به ، انتهى كلامه. والوجه الأول عندي أولى ، لأن أمره صلى الله عليه وسلم لخصوصيته بالبشارة أفخم وأجزل ، وكأنه ما اتكل على أن يبشر المؤمنين كل سامع ، بل نص على أعظمهم وأصدقهم ليكون ذلك أوثق عندهم وأقطع في الإخبار بهذه البشارة العظيمة ، إذ تبشيره صلى الله عليه وسلم تبشير من الله تعالى. والجملة من قوله : وبشر معطوفة على ما قبلها ، وليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإزهاق ، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق ، قال هذا الزمخشري وتبعه أبو البقاء فقال : الواو في وبشر عطف بها جملة ثواب المؤمنين على جملة عقاب الكافرين ، انتهى كلامه.

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٠٩

وتلخص من هذا أن عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن تتفق معاني الجمل ، فعلى هذا يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة غير الخبرية ، وهذه المسألة فيها اختلاف. ذهب جماعة من النحويين إلى اشتراط اتفاق المعاني ، والصحيح أن ذلك ليس بشرط ، وهو مذهب سيبويه. فعلى مذهب سيبويه يتمشى إعراب الزمخشري وأبي البقاء. وأجاز الزمخشري وأبو البقاء أن يكون قوله : وبشر معطوفا على قوله : فاتقوا النار ، ليكون عطف أمر على أمر. قال الزمخشري : كما تقول يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنتيم ، وبشر يا فلان بني أسد بإحسان إليهم ، وهذا الذي ذهبا إليه خطأ لأن قوله : فاتقوا جواب للشرط وموضعه جزم ، والمعطوف على الجواب جواب ، ولا يمكن في قوله :

(١) تفسير الرازي: دار إحياء التراث- موافق للمطبوع، ص/٤٨٦٢

وبشر أن يكون جوابا لأنه أمر بالبشارة ومطلقا ، لا على تقدير إن لم تفعلوا ، بل أمر أن يبشر الذين آمنوا أمرا ليس مترتبا على شيء قبله ، وليس قوله : وبشر على إعرابه مثل ما مثل به من قوله : يا بني تميم إلخ ، لأن قوله : احذروا لا موضع له من الإعراب ، بخلاف قوله : فاتقوا. فلذلك أمكن فيما مثل به العطف ولم يمكن في وبشر. وقرأ

١١٠

زيد بن علي : وبشر فعلا ماضيا مبنيا للمفعول. قال الزمخشري : عطفا على أعدت انتهى. وهذا الإعراب لا يتأتى على قول من جعل أعدت جملة في موضع الحال ، لأن المعطوف على الحال حال ، ولا يتأتى أن يكون وبشر في موضع الحال ، فالأصح أن تكون جملة معطوفة على ما قبلها ، وإن لم تتفق معاني الجمل ، كما ذهب إليه سيبويه وهو الصحيح ، وقد استدل لذلك بقول الشاعر :

تناغى غزالا عند باب ابن عامروكحل أماقيك الحسان بإثمد

وبقول امرىء القيس :

وإن شفائي عبرة إن سفحتهاوهل عند رسم دارس من معول

وأجاز سيبويه : جاءني زيد ، ومن أخوك العاقلان ، على أن يكون العاقلان خبر ابتداء مضر. وقد تقدم لنا أن الزمخشري يخص البشارة بالخبر الذي يظهر سرور المخبر به. وقال ابن عطية : الأغلب استعماله في الخير ، وقد يستعمل في الشر مقيدا به منصوصا على الشر للمبشر به ، كما قال تعالى : ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ . ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يحمل على الخير ، انتهى كلامه. وتقدم لنا ما يخالف قوليهما من قول سيبويه وغيره ، وأن البشارة أول خبر يرد على الإنسان من خير كان أو شر ، قالوا : وسمي بذلك لتأثيره في البشرة ، فإن كان خيرا أثر المسرة والانبساط ، وإن كان شرا أثر القبض والانكماش. قال تعالى : ﴿يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان﴾ ، وقال تعالى : ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ ، وجعل الزمخشري هذا العكس في الكلام الذي يقصد به استهزاء الزائد في غيظه المستهزأ به وتألمه. وقيل : معناه ضع هذا موضع البشارة منهم ، قالوا : والصحيح أن كل خبر غير البشرة خيرا كان أو شرا بشارة ، قال الشاعر :

جزء : ١ رقم الصفحة : ١٠٩

يبشرني الغراب ببين أهلفقلت له ثكلتك من بشير

وقال آخر :

وبشرتني يا سعد أن أحبتيجفوني وأن الود موعده الحشر

" (١).

"﴿يعملون * يا أيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك﴾ هذا نداء بالصفة الشريفة التي هي أشرف أوصاف الجنس الإنساني ،

٥٢٨

(١) تفسير البحر المحيط. موافق للمطبوع (دار الفكر)، ١/٨٩

وأمر بتليغ ما أنزل إليه وهو صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه ، فهو أمر بالديمومة. قال الزمخشري : جميع ما أنزل إليك ، وأي شيء أنزل غير مراقب في تبليغه أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه. وقال ابن عطية : أمر من الله لرسوله بالتبليغ على الاستيفاء والكمال ، لأنه قد قال : بلغ ، فإنما أمر في هذه الآية أن لا يتوقف على شيء مخافة أحد ، وذلك أن رسالته عليه السلام تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وفساد أحوالهم ، فكان يلقى منهم عنتا ، وربما خافهم أحيانا قبل نزول هذه الآية. وعن ابن عباس عنه عليه السلام : "لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية". وقيل : هو أمر بتبليغ خاص أي : ما أنزل إليك من الرجم والقصاص الذي غيره اليهود في التوراة والنصارى في الإنجيل. وقيل : أمر بتبليغ أمر زينب بنت جحش ونكاحها. وقيل : بتبليغ الجهاد والحث عليه ، وأن لا يتركه لأجل أحد. وقيل : أمر بتبليغ معائب آلهتهم ، إذ كان قد سكت عند نزول قوله : ﴿ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله﴾ الآية عن عيبها وكل واحد من هذا التبليغ الخاص. قيل : أنها نزلت بسببه ، والذي يظهر أنه تعالى أمنه من مكر اليهود والنصارى ، وأمره بتبليغ ما أنزل إليه في أمرهم وغيره من غير مبالاة بأحد ، لأن الكلام قبل هذه الآية وبعدها هو معهم ، فيبعد أن تكون هذه الآية أجنبية عما قبلها وعما بعدها.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٠٥

﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالتها﴾ أي وإن لم تفعل بتبليغ ما أنزل إليك ، وظاهر هذا الجواب لا ينافي الشرط ، إذ صار المعنى : وإن لم تفعل لم تفعل ، والجواب لا بد أن يغاير الشرط حتى يترتب عليه. فقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما : أنه إذا لم يمتثل أمر الله في تبليغ الرسالة وكتمها كلها كأنه لم يبعث رسولا ، كان أمرا شنيعا. وقيل : إن لم تبلغ منها أدنى شيء وإن كلمة واحدة فأنت كمن ركب الأمر الشنيع الذي هو كتمان كلها ، كما عظم قتل النفس بقوله : ﴿فكأنما قتل الناس جميعا﴾ والثاني : أن يراد فإن لم تفعل ذلك ما يوجبه كتمان الوحي كله من العقاب ، فوضع السبب موضع المسبب ، ويعضده قوله عليه السلام : ﴿أحسن الله إليكا ولا تبغ﴾ . وقال ابن عطية : أي إن تركت شيئا فكأنك قد تركت الكل ، وصار ما بلغت غير معتد به. فمعنى : وإن لم تفعل ، وإن لم تستوف. ونحو هذا قول الشاعر :

سئلت فلم تبخل ولم تعط نائلافسيان لا ذم عليك ولا حمد

أي إن لم تعط ما يعد نائلا وألا تتكاذب البيت. وقال أبو عبد الله الرازي : أجاب الجمهور بأن لم تبلغ واحدا منها كنت كمن لم يبلغ شيئا. وهذا ضعيف ، لأن من أتى بالبعض وترك البعض. فإن قيل : إنه ترك الكل كان كاذبا ، ولو قيل : إن مقدار الجرم في ترك البعض مثل الجرم في ترك الكل ، فهذا هو المحلل الممتنع ، فسقط هذا الجواب انتهى. وما ضعف به جواب الجمهور لا يضعف به ، لأنه قال : فإن قيل أنه ترك الكل كان كاذبا ، ولم يقولوا ذلك إنما قالوا : إن بعضها ليس أولى بالأداء من بعض ، فإن لم تؤد بعضها فكأنك أغفلت أداها جميعا. كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لا يؤمن بكلها لأداء كل منها بما يدلي به غيرها ، وكونها لذلك في حكم شيء واحد ، والشيء الواحد لا يكون مبلغا غير مبلغ مؤمنا به غير مؤمن ، فصار ذلك التبليغ للبعض غير معتد به ، وأما ما ذكر من أن مقدار الجرم في ترك

البعض مثل الجرم في ترك الكل محال ممتنع ، فلا استحالة فيه. ولله تعالى أن يرتب على الذنب اليسير العذاب العظيم ، وله تعالى أن يعفو عن الذنب العظيم ، ويؤاخذ بالذنب الحقير : ﴿عما يصفون * لا يسال عما يفعل وهم يسالون﴾ وقد ظهر ذلك في ترتيب العقوبات في الأحكام الشرعية ، رتب على من أخذ شيئا بالاختفاء والتستر ، قطع اليد مع رد ما أخذه أو قيمته ، ورتب على من أخذ شيئا بالقهر والغلبة والغصب رد ذلك الشيء أو قيمته إن فقد دون

٥٢٩

قطع اليد. وقال أبو عبد الله الرازي : والأصح عندي أن يقال : إن هذا خرج على قانون قوله : أنا أبو النجم وشعرى شعرى ، ومعناه : أن شعرى بلغ في الكمال والفصاحة والمتانة بحيث متى قيل فيه انه شعرى فقد انتهى مدحه إلى الغاية التي لا يمكن أن يزاد عليها ، وهذا الكلام مفيد المبالغة التامة من هذا الوجه ، فكذا هاهنا. قال : فإن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته ، يعني : أنه لا يمكن أن يصف البليغ بترك التهديد بأعظم من أنه ترك التعظيم ، فكان ذلك تنبيها على التهديد والوعيد. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر : رسالاته على الجمع. وقرأ باقي السبعة : على التوحيد.

جزء : ٣ رقم الصفحة : ٥٠٥

". (١)

"محكمة وأخبر فيها أنه لم يجد فيما أوحي إليه إذ ذاك من القرآن سوى ما ذكر ولذلك أتت صلة ﴿مآ﴾ جملة مصدرة بالفعل الماضي فجميع ما حرم بالمدينة لم يكن إذ ذاك سبق منه وحي فيه بمكة فلا تعارض بين ما حرم بالمدينة وبين ما أخبر أنه أوحي إليه بمكة تحريمه ، وذكر ﴿الخنزير﴾ وإن لم يكن من ثمانية الأزواج **لأن من الناس من** كان يأكله إذ ذاك ولأنه أشبه شيء بثمانية الأزواج في كونه ليس سبعا مفترسا يأكل اللحوم ويتغذى بها ، وإنما هو من نمط الثمانية في كونه يعيش بالنبات ويرعى كما ترعى الثمانية. وذكر المفسرون هنا أشياء مما اختلف أهل العلم فيه ونلخص من ذلك شيئا ، فنقول : أما الحمر الأهلية : مذهب الشعبي : وابن جبير إلى انه يجوز أكلها وتحريم رسول الله لها إنما كان لعلة واما لحوم الخيل فاختلف فيها السلف وأباحها الشافعي وابن حنبل وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ، وعن أبي حنيفة الكراهة. فقيل : كراهة تنزيه. وقيل : كراهة تحريم وهو قول مالك والأوزاعي والحكم بن عيينة وأبي عبيد وأبي بكر الأصم وقال به من التابعين مجاهد ومن الصحابة ابن عباس ، وروى عنه خلافه وقد صنف في حكم لحوم الخيل جزءا أقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن ابراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي رحمه الله قرأناه عليه وأجمعوا على تحريم البغال ، وأما الحمار الوحشي إذا تأنس فذهب أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح والشافعي إلى جواز أكله وروى ابن القاسم عن مالك أنه إذا دجن وصار يعمل عليه كما يعمل على الأهلي أنه لا يؤكل. وقال أبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد : لا يحل أكل ذي الناب من السباع وذي المخلب من الطير. وقال مالك : لا يؤكل سباع الوحش ولا البر وحشيا كان أو أهليا ولا الثعلب ولا الضبع ولا بأس بأكل سباع الطير الرخم والعقاب والنسور وغيرها ما أكل الجيفة وما لم يأكل. وقال الأوزاعي : الطير كله حلال إلا أنهم يكرهون الرخم. وقال الشافعي : ما عدا على الناس من

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤٢٣/٣

ذي الناب كالأسد والذئب والنمر وعلى الطيور من ذي المخلب كالنسر والبازي لا يؤكل ، ويؤكل الثعلب والضبع وكره أبو حنيفة الغراب الأبقع لا الغراب الزرعي والخلاف في الحدأة كالخلاف في العقاب والنسر وكره أبو حنيفة الضب. وقال مالك والشافعي : لا بأس به والجمهور على أنه لا يؤكل الهر الإنسي وعن مالك جواز أكله إنسيا كان أو وحشيا وعن بعض السلف جواز أكل إنسية. وقال ابن أبي ليلى : لا بأس بأكل الحية إذا ذكيت. وقال الليث : لا بأس بأكل القنفذ وفراخ النحل ودود الجبن ودود التمر ونحوه وكذا قال ابن القاسم عن مالك في القنفذ. وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تؤكل الفأرة. وقال أبو حنيفة : لا يؤكل اليربوع. وقال الشافعي : يؤكل وعن مالك في الفأر التحريم والكراهة والإباحة ، وذهب أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما إلى كراهة أكل الجلالة. وقال مالك والليث : لا بأس بأكلها. وقال صاحب التحرير والتحبير : وأما المخدرات كالبنج والسيكران واللفاح وورق القنب المسمى بالحشيشة فلم يصرح فيها أهل العلم بالتحريم وهي عندي إلى التحريم أقرب ، لأنها إن كانت مسكرة فهي محرمة بقوله صلى الله عليه وسلم : "ما أسكر كثيره فقليله حرام". وبقوله : "كل مسكر حرام" وإن كانت غير مسكرة فإدخال الضرر على الجسم حرام. وقد نقل ابن بختيشوع في كتابه : إن ورق القنب يحدث في الجسم سبعين داء وذكر منها أنه يصفر الجلد ويسود الأسنان ويجعل فيها الحفر ويثقب الكبد ويحميها ويفسد العقل ويضعف البصر ويحدث الغم ويذهب الشجاعة والبنج ، والسيكران كالورق في الضرر وأما المرقدات كالزعفران والمازريون فالقدر المضر منها حرام ، وقال جمهور الأطباء : إذا استعمل من الزعفران كثير قتل فرحا ؛ انتهى ، وفيه بعض تلخيص. وقال

٢٤٢

جزء : ٤ رقم الصفحة : ٢٣٤

أبو بكر الرازي في قوله : ﴿على طاعم يطعمها﴾ دلالة على أن المحرم من الميتة ما يتأتى فيه الأكل منها وإن لم يتناول الجلد المدبوغ ولا القرن ولا العظم ولا الظلف ولا الريش ونحوها ، وفي قوله : ﴿أو دما مسفوحا﴾ دلالة على أن دم البق والبراغيث والذباب ليس بنجس ؛ انتهى ﴿أو فسقا﴾ الظاهر أنه معطوف على المنصوب قبله سمى ما أهل لغير الله به فسقا لتوغله في باب الفسق ومنه ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾ وأنه لفسق وأهل صفة له منصوبة المحل وأجاز الزمخشري أن ينتصب فسقا على أنه مفعول من أجله مقدم على العامل فيه وهو أهل لقوله.

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب

". (١)

"وقرأ ابن أبي عبلة ﴿مخلقة﴾ بالنصب وغير بالنصب أيضا نصبا على الحال من النكرة المتقدمة ، وهو قليل وقاسه سيبويه. قال الزمخشري : و﴿لنبين لكم﴾ بهذا التدريج قدرتنا وإن من قدر على خلق البشر ﴿من تراب﴾ أولا ﴿ثم من نطفة﴾ ثانيا ولا تناسب بين التراب والماء ، وقدر على أن يجعل النطفة ﴿علقة﴾ وبينهما تباين ظاهر ثم يجعل العلقة ﴿مضغة﴾ والمضغة عظاما قدر على إعادة ما أبداه ، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس وورود الفعل غير

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٤/١٩٦

معدي إلى المبين إعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه ما لا يكتنهه الفكر ولا يحيط به الوصف انتهى.
و﴿لنبين﴾ متعلق بخلقناكم. وقيل ﴿لنبين﴾ لكم أمر البعث. قال ابن عطية : وهو اعتراض بين الكلامين. وقال الكرماني : يعني رشدكم وضلالكم. وقيل ﴿لنبين لكم﴾ أن التخليق هو اختيار من الفاعل المختار ، ولولاه ما صار بعضه غير مخلق. وقرأ ابن أبي عبلة ليبين لكم ويقر بالياء. وقرأ يعقوب وعاصم في رواية ﴿ونقر﴾ بالنصب عطفا على ﴿لنبين﴾ .
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥
وعن عاصم أيضا ثم يخرجكم بنصب الجيم عطفا على ﴿ونقر﴾ إذا نصب. وعن يعقوب ﴿ونقر﴾ بفتح النون وضم القاف والراء من قر الماء صبه. وقرأ أبو زيد النحوي ويقر بفتح الياء والراء وكسر القاف وفي الكلام لابن حبار ﴿لنبين﴾ ﴿ونقر﴾ بالنصب فيهن. المفضل وبالياء فيهما مع النصب ، أبو حاتم وبالياء والرفع عمر بن شبة انتهى.
قال الزمخشري : والقراءة بالرفع إخبار بأنه تعالى يقر في الأرحام ما يشاء أن يقره من ذلك.
﴿ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴾ وهو وقت الوضع وما لم يشأ إقراره مجته الأرحام أو أسقطته. والقراءة بالنصب تعليل معطوف على تعليل والمعنى ﴿خلقناكم﴾ مدرجين هذا التدريج لغرضين أحدهما : أن نبين قدرتنا والثاني أن ﴿نقر في الناقور﴾ من نقر حتى يولدوا وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم. ويعضد هذه القراءة قوله ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ انتهى.
وقرأ يحيى بن وثاب ﴿ما نشآء﴾ بكسر النون والأجل المسمى مختلف فيه بحسب جنين جنين فساقط وكامل أمره خارج حيا ووحد ﴿طفلا﴾ لأنه مصدر في الأصل قاله المبرد والطبري ، أو لأن الغرض الدلالة على الجنس ، أو لأن معنى يخرجكم كل واحد كقولك الرجال يشبعهم رغيف أي يشبع كل واحد. وقال الزمخشري : الأشد كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأشدة والقيود وغير ذلك وكأنها مشدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع انتهى.
٣٥٢
وتقدم الكلام في الأشد ومقداره من الزمان. **وإن من الناس من** قال إنه جمع شدة كأنعم جمع نعمة وأما القيود : فعن أبي عمرو الشيباني إن واحدة قيد ﴿ومنكم من يتوفى ﴾ وقرىء ﴿يتوفى﴾ بفتح الياء أي يستوفى أجله ، والجمهور بالضم أي بعد الأشد وقبل الهرم ، وهو ﴿أرذل العمر﴾ والخرف ، فيصبر إلى حالة الطفولية ضعيف البنية سخيف العقل ، ولا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في الناس وقد نرى من علت سنه وقارب المائة أو بلغها في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط ، ونرى من هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بنيته أوضح تعالى أنه قادر على إنهائه إلى حالة الخرف كما أنه كان قادرا على تدريجه إلى حالة التمام ، فكذلك هو قادر على إعادة الأجساد التي درجها في هذه المناقل وإنشائها النشأة الثانية.
جزء : ٦ رقم الصفحة : ٣٤٥
و يتعلق بقوله ، يرد﴾ قال الكلبي قال الكلبي ﴿يسير * لكيلا﴾ يعقل من بعد عقله الأول شيئا. وقيل ﴿لكيلا﴾ يستفيد علما وينسى ما علمه. وقال الزمخشري : أي ليصير نساء بحيث إذا كسب علما في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه

علمه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك من هذا ؟ فتقول فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه. وروى عن أبي عمرو ونافع تسكين ميم ﴿العمر﴾ .

" (١).

"أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا من الوحى فقد كذب، والله تعالى يقول: " يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته " وقبح الله الروافض حيث قالوا: إنه صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أوحى إليه كان بالناس حاجة إليه.

الثانية - قوله تعالى: (والله يعصمك من الناس) دليل على نبوته، لان الله عزوجل أخبر أنه معصوم، ومن ضمن سبحانه له العصمة فلا يجوز أن يكون قد ترك شيئا مما أمره الله به.

وسبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم كان نازلا تحت شجرة فجاء أعرابي فاخترط (١) سيفه وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: من يمنعك مني ؟ فقال: " الله "، فذعرت يد الاعرابي وسقط السيف من يده، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، ذكره المهدوي.

وذكره القاضي عياض في كتاب الشفاء قال: وقد رويت هذه القصة في الصحيح، وأن غورث ابن الحارث صاحب القصة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنه، فرجع إلى قومه وقال: جئتكم من عند خير الناس.

وقد تقدم الكلام في هذا المعنى في هذه السورة عند قوله: " إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم " (٢) [المائدة: ١١] مستوفى، وفي " النساء " أيضا في ذكر صلاة الخوف.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله قال: غزونا مع وسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن رجلا أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف مصلتا (٤) في يده فقال لي من يمنعك مني - قال - قلت الله ثم قال في الثانية من يمنعك مني - قال - قلت الله قال فشام (٥) السيف فها هو ذا جالس " ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت **أن من الناس من** يكذبني

---

(١) اخترط سيفه: استله.

(٢) راجع ص ١١١ من هذا الجزء.

وج ٥ ص ٣٧٢.

(٣) العضاه: شجر عظيم له شوك، وقيل: أعظم الشجر.

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (دار الفكر)، ٢٥٦/٦

(٤) صلتا: أي مجردا من غمده.

وفي ك: صلت.

(٥) شام السيف.

أي غمده ورده في غمده، يقال: شام السيف إذا سله وإذا أغمده، فهو من الاضداد.

والمراد هنا أغمده.

(*)." [١]

"أي من مر حجج ومن مر دهر.

وإنما دعا إلى هذا أن من أصول النحويين أن " من " لا يجر بها الازمان، وإنما تجر الازمان بمنذ، تقول ما رأيته منذ شهر أو سنة أو يوم، ولا تقول: من شهر ولا من سنة ولا من يوم.

فإذا وقعت في الكلام وهي يليها زمن فيقدر مضمر يليق أن يجر بمن، كما ذكرنا في تقدير البيت.

ابن عطية.

ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقدير، وأن تكون " من " تجر لفظة " أول " لانها بمعنى البداءة، كأنه قال: من مبتدأ الايام.

السادسة - قوله تعالى: (أحق أن تقوم فيه) أي بأن تقوم، فهو في موضع نصب.

و " أحق " هو أفعل من الحق، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين، لاحدهما في المعنى الذي اشتركا فيه مزية على الآخر، فمسجد الضرار وإن كان باطلا لاحق فيه، فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للمسجدية، لكن أحد الاعتقادين باطل باطنا عند الله، والآخر حق باطنا وظاهرا، ومثل هذا قوله تعالى: " أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا وأحسن مقيلا " (١) [الفرقان: ٢٤] ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير، إذ كل حزب بما لديهم فرحون.

وليس هذا من قبيل: العسل أحلى من الخل، فإن العسل ! وإن كان حلوا فكل شئ ملائم فهو حلو، ألا ترى أن من الناس من يقدم الخل على العسل (٢) مفردا

بمفرد ومضافا إلى غيره بمضاف.

السابعة - قوله تعالى: (فيه) من قال: إن المسجد يراد به مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فالهاء في " أحق أن تقوم فيه " عائد إليه.

و " فيه رجال " له أيضا.

ومن قال: إنه مسجد قباء، فالضمير في " فيه " عائد إليه على الخلاف المتقدم.

الثامنة - أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحب الطهارة وآثر النظافة، وهي مروءة آدمية ووظيفة شرعية،

---

(١) تفسير القرطبي، ٢٤٣/٦

وفى الترمذي عن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت: مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإني أستحييهم.

قال: حديث صحيح.

وثبت أن

---

(١) راجع ج ١٣ ص (٢) كذا في الاصول.

(*)." (١)

"قوله تعالى: (وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض) الضمير في " تركنا " لله تعالى، أي تركنا الجن والانس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض.

وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج " يومئذ " أي وقت كمال السد يموج بعضهم في بعض.

واستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم في بعض، كالمولهين من هم وخوف، فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم.

قلت: فهذه ثلاثة أقوال أظهرها أوسطها، وأبعدها آخرها، وحسن الاول، لانه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى: " فإذا جاء وعد ربي ".

والله أعلم.

قوله تعالى: (ونفخ في الصور) تقدم في (الانعام) (١).

(فجمعناهم جمعا) يعني الجن والانس في عرصات القيامة.

(وعرضنا جهنم) أي أبرزناها لهم.

(يومئذ للكافرين عرضا)

(الذين كانت أعينهم) في موضع خفض نعت " للكافرين ".

(في غطاء عن ذكرى) أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى.

(وكانوا لا يستطيعون سمعا) أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى، فهم بمنزلة من صم.

قوله تعالى: (أفحسب الذين كفروا) أي ظن.

وقرأ علي وعكرمة ومجاهد وابن محيصن: " أفحسب " بإسكان السين وضم الباء، أي كفاهم.

(أن يتخذوا عبادي) يعني عيسى والملائكة وعزيرا.

(من دوني أولياء) ولا أعاقبهم، ففي الكلام حذف.

وقال الزجاج: المعنى، أفحسبوا أن ينفعهم ذلك.

---

(١) تفسير القرطبي، ٢٦١/٨

(إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا).

قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) إلى قوله: (وزنا) فيه مسئلتان: الاولى - قوله تعالى: (قل هل ننبئكم بالاخسرين أعمالا) - الآية - فيه دلالة على **أن من الناس من** يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الاعتقاد أو المراءاة، والمراد هنا الكفر.

روى البخاري عن مصعب قال:

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٠ فما بعد.

(*)." [١]

"اشتقاقهما في " البقرة ".

وقال في سورة الحجر: " الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين " فأخرج الكتاب بلفظ المعرفة والقرآن بلفظ النكرة، وذلك لان القرآن والكتاب اسمان يصلح لكل واحد منهما أن يجعل معرفة، وأن يجعل صفة.

ووصفه بالمبين لانه بين فيه أمره ونهيه وحلاله وحرامه ووعده ووعيده، وقد تقدم.

قوله تعالى: (هدى وبشرى للمؤمنين) " هدى " في موضع نصب على الحال من الكتاب، أي تلك آيات الكتاب هادية ومبشرة.

ويجوز فيه الرفع على الابتداء، أي هو هدى.

وإن شئت على حذف حرف الصفة، أي فيه هدى.

ويجوز أن يكون الخبر " للمؤمنين " ثم وصفهم فقال: " الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون " وقد مضى في أول " البقرة " بيان هذا.

قوله تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالاخرة) أي لا يصدقون بالبعث.

(زينا لهم أعمالهم) قيل: أعمالهم السيئة حتى رأوها حسنة.

وقيل: زينا لهم أعمالهم الحسنة فلم يعملوها.

وقال الزجاج: جعلنا جزاءهم على كفرهم أن زينا لهم ما هم فيه.

(فهم يعمهون) أي يترددون في أعمالهم الخبيثة، وفي ضلالتهم.

عن ابن عباس.

أبو العالية: يتمادون.

قتادة: يلعبون.

الحسن: يتحيرون، قال الراجز: ومهمه أطرافه في مهمه * * أعمى الهدى بالحائرين العمه (١) قوله تعالى: (أولئك الذين

---

(١) تفسير القرطبي، ١١/٦٥

لهم سوء العذاب) وهو جهنم.

(وهم في الاخرة هم الاخسرون) " في الآخرة " تبيين وليس بمتعلق بالاخسرين **فإن من الناس من** خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة بكفرهم فهم أخسر كل خاسر.

قوله تعالى: (وإنك لتلقى القرآن) أي يلقى عليك فتلقاه وتعلمه وتأخذه.

(من لدن حكيم عليم) " لدن " بمعنى عند إلا أنها مبنية غير معربة، لانها لا تتمكن، وفيها لغات ذكرت في " الكهف " (٢).

وهذه الآية بساط وتمهيد لما يريد أن يسوق من الاقاصيص، وما في ذلك من لطائف حكمته، ودقائق علمه.

---

(١) البيت لرؤبة، ويروى: بالجاهلين العمه.

(٢) راجع ج ١٠ ص ٣٥٢ طبعة أولى أو ثانية.

(*)." [1]

"عنهم أنهم كانوا يقولون يا منشئ الأشياء يا منشئ الأرض والسماء واعلم **أن من الناس من** يظن أن هذا البحث واقع في المعنى وهذا في غاية البعد فإنه لا نزاع في أن الله تعالى موجود وذات وحقيقة إنما النزاع في أنه هل يجوز إطلاق هذا اللفظ عليه فهذا نزاع في مجرد اللفظ لا في المعنى ولا يجري بسببه تكفير ولا تفسيق فليكن الإنسان عالما بهذه الدقيقة حتى لا يقع في الغلط

المسألة الثانية

في بيان أنه هل يجوز إطلاق لفظ الموجود على الله تعالى اعلم أن هذا البحث يجب أن يكون مسبوقا بمقدمة وهي أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك عن معنيين أحدهما أن يراد بالوجود الوجدان والإدراك والشعور ومتى أريد بالوجود الوجدان والإدراك فقد أريد بالموجود لا محالة المدرك والمشعور به والثاني أن يراد بالوجود الحصول والتحقق في نفسه واعلم أن بين الأمرين فرقا وذلك لأن كونه معلوم الحصول في الأعيان يتوقف على كونه حاصلا في نفسه ولا ينعكس لأن كونه حاصلا في نفسه لا يتوقف على كونه معلوم الحصول في الأعيان لأنه يمتنع في العقل كونه حاصلا في نفسه مع انه لا يكون معلوما لأحد بقي ههنا بحث وهو أن لفظ الوجود هل وضع أولا للإدراك والوجدان ثم نقل ثانيا إلى حصول الشيء في نفسه أو الأمر فيه بالعكس أو وضعا معا فنقول هذا البحث لفظي والأقرب هو الأول لأنه لولا شعور الإنسان بذلك الشيء لما عرف حصوله في نفسه فلما كان الأمر كذلك وجب أن يكون وضع اللفظ لمعنى الشعور والإدراك سابقا على وضعه لحصول الشيء نفسه إذا عرفت هذه المقدمة فنقول إطلاق لفظ الموجود على الله تعالى يكون على وجهين أحدهما كونه معلوما مشعورا به والثاني كونه في نفسه ثابتا متحققا أما بحسب المعنى الأول فقد جاء في القرآن قال الله تعالى لوجدوا الله النساء ٦٤ ولفظ الوجود ههنا بمعنى الوجدان والعرفان وأما بالمعنى الثاني فهو غير موجود في القرآن

---

(١) تفسير القرطبي، ١٥٥/١٣

فإن قالوا لما حصل الوجود بمعنى الوجدان لزم حصول الوجود بمعنى الثبوت والتحقق إذ لو كان عدما محضا لما كان الأمر كذلك فنقول هذا ضعيف من وجهين الأول أنه لا يلزم من حصول الوجود بمعنى الوجدان والمعرفة حصول الوجود بمعنى الثبوت لما ثبت أن المعدوم قد يكون معلوما والثاني أنا بينا أن هذا البحث ليس إلا في اللفظ فلا يلزم من حصول الاسم بحسب معنى حصول الاسم بحسب معنى آخر ثم نقول ثبت بإجماع المسلمين إطلاق هذا الاسم فوجب القول به فإن قالوا ألستم قلتم إن أسماء الله تعالى يجب كونها دالة على المدح والثناء ولفظ الموجود لا يفيد ذلك قلنا عدلنا عن هذا الدليل بدلالة الإجماع وأيضا فدلالة لفظ الموجود على المدح أكثر من دلالة لفظ الشيء عليه وبيانه من وجوه الأول أنه عند قوم يقع لفظ الشيء على المعدوم كما يقع على الموجود أما الموجود فإنه لا يقع على المعدوم البتة فكان إشعار هذا اللفظ بالمدح أولى الثاني أن لفظ الموجود." (١)

"المعلومات وأجعل لساني مشغولا بذكر أشرف المذكورات فلهذا السبب أواظب على قوله يا هو الفائدة الحادية عشرة أن الذكر أشرف المقامات قال عليه السلام حكاية عن الله تعالى

إذا ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي وإذا ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير من ملئه وإذا ثبت هذا فنقول أفضل الأذكار ذكر الله بالثناء الخالي عن السؤال قال عليه السلام حكاية عن الله تعالى

من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين إذا عرفت هذه المقدمة فنقول العبد فقير محتاج والفقير المحتاج إذا نادى مخدومه بخطاب يناسب الطلب والسؤال كان ذلك محمولا على السؤال فإذا قال الفقير للغني يا كريم كان معناه أكرم وإذ قال له يا نفاع كان معناه طلب النفع وإذا قال يا رحمن كان معناه ارحم فكانت هذه الأذكار جارية مجرى السؤال وقد بينا أن الذكر إنما يعظم شرفه إذا كان خاليا عن السؤال والطلب أما إذا قال يا هو كان معناه خاليا عن الإشعار بالسؤال والطلب فوجب أن يكون قولنا هو أعظم الأذكار ولنختم هذا الفصل بذكر شريف رأيته في بعض الكتب يا هو يا من لا هو إلا هو يا من لا إله إلا هو يا أزل يا أبد يا دهر يا ديهار يا ديهور يا من هو الحي الذي لا يموت ومن لطائف هذا الفصل أن الشيخ الغزالي رحمة الله عليه كان يقول لا إله إلا الله توحيد العوام ولا إله إلا هو توحيد الخواص ولقد استحسنت هذا الكلام وقررته بالقرآن والبرهان أما القرآن فإنه تعالى قال ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو القصص ٨٨ ثم قال بعده كل شيء هالك إلا وجهه القصص ٨٨ معناه إلا هو فذكر قوله إلا هو بعد قوله لا إله فدل ذلك على أن غاية التوحيد هي هذه الكلمة وأما البرهان فهو **أن من الناس من** قال إن تأثير الفاعل ليس في تحقيق الماهية وتكوينها بل لا تأثير له إلا في إعطاء صفة الوجود لها فقلت فالوجود أيضا ماهية فوجب أن لا يكون الوجود واقعا بتأثيره فإن التزموا ذلك وقالوا الواقع بتأثير الفاعل موصوفية الماهية بالوجود فنقول تلك الموصوفية إن لم تكن مفهوما مغايرا للماهية والوجود امتنع إسنادها إلى الفاعل وإن كانت مفهوما مغايرا فذلك المفهوم المغاير لا بد وأن يكون له ماهية وحينئذ يعود الكلام فثبت أن القول بأن المؤثر لا تأثير له في الماهيات ينفي التأثير والمؤثر وينفي الصنع والصانع بالكلية وذلك باطل فثبت أن المؤثر يؤثر في الماهيات فكل ما بالغير فإنه يرتفع بارتفاع الغير فلولا المؤثر لم تكن تلك

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١/١٠٣

الماهية ماهية ولا حقيقة فبقدرته صارت الماهيات ماهيات وصارت الحقائق حقائق وقبل تأثير قدرته فلا ماهية ولا وجود ولا حقيقة ولا ثبوت وعند هذا يظهر صدق قولنا لا هو إلا هو أي لا تقرر لشيء من الماهيات ولا تخصص لشيء من الحقائق إلا بتقريره وتخصيصه فثبت أنه لا هو إلا هو والله أعلم

الباب الثامن

في بقية المباحث عن أسماء الله تعالى وفيه مسائل هل أسماؤه تعالى توقيفية المسألة الأولى اختلف العلماء في أن أسماء الله تعالى

توقيفية أم اصطلاحية قال بعضهم لا يجوز إطلاق شيء من الأسماء والصفات على الله تعالى إلا إذا كان واردا في القرآن والأحاديث الصحيحة وقال." (١)

"والجواب عن الأول لم لا يجوز أن يكون ذلك جاريا مجرى أن يقال هذا زيد الذي لا نظير له في العلم والزهد والجواب عن الثاني أن الاسم العلم هو الذي وضع لتعيين الذات المعينة ولا حاجة فيه إلى كون ذلك المسمى مشارا إليه بالحس أم لا وهذا هو الجواب عن الحجة الثالثة

المسألة الثانية

الذين قالوا إنه اسم مشتق ذكروا فيه فروعا الفرع الأول أن الإله هو المعبود سواء عبد بحق أو بباطل ثم غلب في عرف الشرع على المعبود بالحق وعلى هذا التفسير لا يكون إلها في الأزل واعلم أنه تعالى هو المستحق للعبادة وذلك لأنه تعالى هو المنعم بجميع النعم أصولها وفروعها وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن والواجب واحد وهو الله تعالى وما سواه ممكن والممكن لا يوجب إلا بالمرجح فكل الممكنات إنما وجدت بإيجاده وتكوينه إما ابتداء وإما بواسطة فجميع ما حصل للعبد من أقسام النعم لم يحصل إلا من الله فثبت أن غاية الإنعام صادرة من الله والعبادة غاية التعظيم فإذا ثبت هذا فنقول إن غاية التعظيم لا يليق إلا لمن صدرت عنه غاية الإنعام فثبت أن المستحق للعبودية ليس إلا الله تعالى الفرع الثاني **أن من الناس من** يعبد الله لطلب الثواب وهو جهل وسخف ويدل عليه وجوه الأول أن من عبد الله ليتوصل بعبادته إلى شيء آخر كان المعبود في الحقيقة هو ذلك الشيء فمن عبد الله لطلب الثواب كان معبوده في الحقيقة هو الثواب وكان الله تعالى وسيلة إلى الوصول إلى ذلك المعبود وهذا جهل عظيم الثاني أنه لو قال أصلي لطلب الثواب أو للخوف من العقاب لم تصح صلاته الثالث أن من عمل عملا لغرض آخر كان بحيث لو وجد ذلك الغرض بطريق آخر لترك الواسطة فمن عبد الله للأجر والثواب كان بحيث لو وجد الأجر والثواب بطريق آخر لم يعبد الله ومن كان كذلك لم يكن محبا لله ولم يكن راغبا في عبادة الله وكل ذلك جهل ومن الناس من يعبد الله لغرض أعلى من الأول وهو أن يتشرف بخدمة الله لأنه إذا شرع في الصلاة حصلت النية في القلب وتلك النية عبارة عن العلم بعزة الربوبية وذلة العبودية وحصل الذكر في اللسان وحصلت الخدمة في الجوارح والأعضاء فيتشرف كل جزء من أجزاء العبد بخدمة الله فمقصود العبد حصول هذا الشرف الفرع الثالث من الناس من طعن في قول من يقول الإله هو المعبود من وجوه

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٢٨/١

الأول أن الأوثان عبدت مع أنها ليست آلهة الثاني أنه تعالى إله الجمادات والبهائم مع أن صدور العبادة منها محال الثالث أنه تعالى إله المجانين والأطفال مع أنه لا تصدر العبادة عنها الرابع أن المعبود ليس له بكونه معبودا صفة لأنه لا معنى لكونه معبودا إلا أنه مذكور بذكر ذلك الإنسان ومعلوم بعلمه ومراد خدمته بإرادته وعلى هذا التقدير فلا تكون الإلهية صفة لله تعالى الخامس يلزم أن يقال إنه تعالى ما كان إلها في الأزل الفرع الرابع من الناس من قال الإله ليس عبارة عن المعبود بل الإله هو الذي يستحق أن يكون معبودا وهذا القول أيضا يرد عليه أن لا يكون إلها للجمادات والبهائم والأطفال والمجانين وأن لا يكون إلها في الأزل ومنهم من قال إنه القادر على أفعال لو فعلها لاستحق العبادة ممن يصح صدور العبادة." (١)

"ملك البلد عزم على الظلم فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا فتاب أنوشروان في قلبه عن ذلك الظلم وقال لذلك الصبي أعطني رمانة أخرى فأعطاه فعصرها فوجدها أطيب من الرمانة الأولى فقال للصبي لم بدلت هذه الحالة فقال الصبي لعل ملك البلد تاب عن ظلمه فلما سمع أنوشروان هذه القصة من ذلك الصبي وكانت مطابقة لأحوال قلبه تاب بالكلية عن الظلم فلا جرم بقي اسمه مخلدا في الدنيا بالعدل حتى إن من الناس من يروي عن رسول الله أنه قال ولدت في زمن الملك العادل أما الأحكام المفرعة على كونه مالكا فهي أربعة الحكم الأول قراءة المالك أرجى من قراءة الملك لأن أقصى ما يرجى من الملك العدل والإنصاف وأن ينجو الإنسان منه رأسا برأس أما المالك فالعبد يطلب منه الكسوة والطعام والرحمة والتربية فكأنه تعالى يقول أنا مالككم فعلي طعامكم وثوابكم وجنتكم الحكم الثاني الملك وإن كان أغنى من المالك غير ان الملك يطمع فيك والمالك أنت تطمع فيه وليست لنا طاعات ولا خيرات فلا يريد أن يطلب منا يوم القيامة أنواع الخيرات والطاعات بل يريد أن نطلب منه يوم القيامة الصفح والمغفرة وإعطاء الجنة بمجرد الفضل فلهذا السبب قال الكسائي اقرأ مالك يوم الدين لأن هذه القراءة هي الدالة على الفضل الكثير والرحمة الواسعة الحكم الثالث أن الملك إذا عرض عليه العسكر لم يقبل إلا من كان قوي البدن صحيح المزاج أما من كان مريضا فإنه يرده ولا يعطيه شيئا من الواجب أما المالك إذا كان له عبد فإن مرض عالجه وإن ضعف أعانه وإن وقع في بلاء خلصه فالقراءة بلفظ المالك أوفق للمذنبين والمساكين الحكم الرابع الملك له هيبة وسياسة والمالك له رأفة ورحمة واحتياجنا إلى الرأفة والرحمة أشد من احتياجنا إلى الهيبة والسياسة الفائدة الثالثة الملك عبارة عن القدرة فكونه مالكا وملكا عبارة عن القدرة ههنا بحث وهو أنه تعالى إما أن يكون ملكا للموجودات أو للمعدومات والأول باطل لأن إيجاد الموجودات محال فلا قدرة لله على الموجودات إلا بالإعدام وعلى هذا التقرير فلا مالك إلا للعدم والثاني باطل أيضا لأنه يقتضي أن تكون قدرته وملكه على العدم ويلزم أن يقال إنه ليس لله في الموجودات مالكية ولا ملك وهذا بعيد والجواب أن الله تعالى مالك الموجودات وملكها بمعنى أنه تعالى قادر على نقلها من الوجود إلى العدم أو بمعنى أنه قادر على نقلها من صفة إلى صفة وهذه القدرة ليست إلا لله تعالى فالملك الحق هو الله سبحانه وتعالى إذا عرفت أنه الملك الحق فنقول إنه الملك ليوم الدين وذلك لأن القدرة على إحياء الخلق بعد موتهم ليست إلا لله والعلم بتلك الأجزاء المتفرقة من أبدان

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٣٣/١

الناس ليس إلا لله فإذا كان الحشر والنشر والبعث والقيامة لا يتأتى إلا بعلم متعلق بجميع المعلومات وقدرة متعلقة بجميع الممكنات ثبت أنه لا مالك ليوم الدين إلا الله وتمام الكلام في هذا الفصل متعلق بمسألة الحشر والنشر فإن قيل إن المالك لا يكون مالكا للشيء إلا إذا كان المملوك موجودا والقيامة غير موجودة في الحال فلا يكون الله مالكا ليوم الدين بل الواجب أن يقال مالك يوم الدين بدليل أنه لو قال أنا قاتل زيد فهذا إقرار ولو قال أنا قاتل زيدا بالتنوين كان تهديدا ووعيدا قلنا الحق ما ذكرتم إلا أن قيام القيامة لما كان أمرا حقا لا يجوز الإخلال في الحكمة جعل وجود." (١)

"إلا على هذا القدر إلا أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول والذي يحقق ذلك أنه قال بعض المحققين منهم إنه ما تبين لي إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة أو كرات منطو بعضها على بعض وأقول هذا الاحتمال واقع لأن الذي يستدل به على وحدة كرة الثوابت ليس إلا أن يقال إن حركاتها متشابهة ومتى كان الأمر كذلك كانت مركوزة في كرة واحدة ولكتا المقدمتين غير يقينتيني أما الأولى فلأن حركاتها وإن كانت في الحس واحدة ولكن لعلها لا تكون في الحقيقة واحدة لأنا لو قدرنا أن واحدا منها يتمم الدورة في ستة وثلاثين ألف سنة والآخر يتمم الدورة في مثل هذه المدة بنقصان سنة واحدة فإذا وزعنا ذلك النقصان على هذه السنين كان الذي هو حصة السنة الواحدة ثلاثة عشر جزءا من ألف ومائتي جزء من واحد وهذا القدر مما لا يحس به بل العشر سنين والمائة والألف مما لا يحس به البتة وإذا كان ذلك محتملا سقط القطع البتة عن استواء حركات الثوابت وأما الثانية فلأن استواء حركات الثوابت في مقادير حركاتها لا يوجب كونها بأسرها مركوزة في كرة واحدة لاحتمال كونها مركوزة في كرات متباينة وإن كانت مشتركة في مقادير حركاتها وهذا كما يقولون في ممثلات أكثر الكواكب فإنها في حركاتها مساوية لفلك الثوابت فكذا ههنا وأقول إن هذا الاحتمال الذي ذكره هذا القائل غير مختص بفلك الثوابت فلعل الجرم المتحرك بالحركة اليومية ليس جرما واحدا بل أجراما كثيرة إما مختلفة الحركات لكن بتفاوت قليل لا تفي بإدراكها أعمارنا وأرصادنا وإما متساوية على الإطلاق ولكن تساويها لا يوجب وحدتها ومن أصحاب الهيئة من قطع بإثبات أفلاك أخر غير هذه التسعة **فإن من الناس من** أثبت كرة فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم واستدل عليه من وجوه الأول أن الراصدين للميل الأعظم وجدوه مختلف المقدار فكل من كان رصده أقدم وجد مقدار الميل أعظم فإن بطليموس وجده (لح يا) ثم وجد في زمان المأمون (كح له) ثم وجد بعد المأمون قد تناقص بدقيقة وذلك يقتضي أن من شأن المنطقتين أن يقل ميلهما تارة ويكثر أخرى وهذا إنما يمكن إذا كان بين كرة الكل وكرة الثوابت كرة أخرى يدور قطباها حول قطبي كرة الكل وتكون كرة الثوابت يدور قطباها حول قطبي تلك الكرة فيعرض لقطبها تارة أن يصير إلى جانب الشمال منخفضا وتارة إلى جانب الجنوب مرتفعا فيلزم من ذلك أن ينطبق معدل النهار على منطقة البروج وأن ينفصل عنه تارة أخرى إلى الجنوب عندما يرتفع قطب فلك الثوابت إلى الجنوب وتارة إلى الشمال كما هو الآن الثاني أن أصحاب الأرصاد اضطربوا اضطرابا شديدا في مقدار سير الشمس على ما هو مشروح في (كتب النجوم) حتى أن بطليموس حكى عن أبرخيس أنه كان شاكا في أن هذه العودة تكون في أزمنة متساوية أو مختلفة وأنه يقول في بعض أقاويله إنها مختلفة وفي بعضها إنها متساوية في إن الناس ذكروا

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١/١٩٥

في سبب اختلافه قولين أحدهما قول من يجعل أوج الشمس متحركا فإنه زعم أن الاختلاف الذي يلحق حركة الشمس من هذه الجهة يختلف عند نقطة الاعتدال لاختلاف بعدها عن الأوج فيختلف زمان سير الشمس من أجله الثاني قول أهل الهند والصين وبابل وأكثر قدماء الروم ومصر والشام إن السبب فيه انتقال فلك." (١)

"عليه القرآن والشعر أما القرآن فقوله تعالى أقم الصلواة لدلوك الشمس (الإسراء ٧٨) والصلاة لله لا للدلوك فإذا جاز ذلك فلم لا يجوز أن يقال صليت للقبلة مع أن الصلاة تكون لله تعالى لا للقبلة وأما الشعر فقول حسان فما كنت أعرف أن الأمر منصرف

عن هاشم ثم منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبلتكم

وأعرف الناس بالقرآن والسنن

فقوله صلى لقبلتكم نص على المقصود والجواب عن الثاني أن إبليس شكا تكريمه وذلك التكريم لا نسلم أنه حصل بمجرد تلك المسجودية بل لعله حصل بذلك مع أمور أخر فهذا ما في القول الأول أما القول الثاني فهو أن السجدة كانت لآدم عليه السلام تعظيما له وتحية له كالسلام منهم عليه وقد كانت الأمم السالفة تفعل ذلك كما يحيي المسلمون بعضهم بعضا بالسلام وقال قتادة في قوله وخروا له سجدا (يوسف ١٠٠) كانت تحية الناس يومئذ سجود بعضهم لبعض وعن صهيب أن معاذا لما قدم من اليمن سجد للنبي (صلى الله عليه وسلم) فقال يا معاذ ما هذا قال إن اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها ورأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت ما هذا قالوا تحية الأنبياء فقال عليه السلام كذبوا على أنبيائهم وعن الثوري عن سماك بن هاني قال دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد أن يسجد له فقال له علي اسجد لله ولا تسجد لي وقال عليه الصلاة والسلام لو أمرت أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها القول الثالث أن السجود في أصل اللغة هو الانقياد والخضوع قال الشاعر

(ترى الأكم فيها سجدا للحوافر)

أي تلك الجبال الصغار كانت مذللة لحوافر الخيل ومنه قوله تعالى والنجم والشجر يسجدان (الرحمن ٦) واعلم أن القول الأول ضعيف لأن المقصود من هذه القصة شرح تعظيم آدم عليه السلام وجعله مجرد القبلة لا يفيد تعظيم حاله وأما القول الثالث فضعيف أيضا لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك لأن الأصل عدم التغيير فإن قيل السجود عبادة والعبادة لغير الله لا تجوز قلنا لا نسلم أنه عبادة بيانه أن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيدا كالقول يبين ذلك أن قيام أحدنا للغير يفيد من الأعظام ما يفيده القول وما ذاك إلا للعبادة وإذا ثبت ذلك لم يمتنع أن يكون في بعض الأوقات سقوط الإنسان على الأرض وإلصاقه الجبين بها مفيدا ضربا من التعظيم وإن لم يكن ذلك عبادة وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يتعبد الله الملائكة بذلك إظهارا لرفعته وكرامته

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٤٥/٢

المسألة الثالثة اختلفوا في أن إبليس هل كان من الملائكة قال بعض المتكلمين ولا سيما المعتزلة إنه لم يكن منهم وقال كثير من الفقهاء إنه كان منهم واحتج الأولون بوجوه

أحدها أنه كان من الجن فوجب أن لا يكون من الملائكة وإنما قلنا إنه كان من الجن لقوله تعالى في سورة الكهف إلا إبليس كان من الجن الكهف ٥٠ واعلم أن من الناس من ظن أنه لما ثبت أنه كان من." [1]

"واحدة الثاني أن الملائكة لا يعملون إلا بالنص لقوله تعالى لا علم لنا إلا ما علمتنا (البقرة ٣٢) وقال لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون (الأنبياء ٢٧) والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس قال تعالى فاعتبروا ياأولى أولى الابصار (الحشر ٢) وقال معاذ اجتهدت برأيي فصوبه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذلك ومعلوم أن العمل بالاستنباط أشق من العمل بالنص الثالث أن الشبهات للبشر أكثر مما للملائكة لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السيارة أسبابا لحوادث هذا العالم فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة والملائكة لا يحتاجون لأنهم ساكنون في عالم السموات فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبر الصانع الرابع أن الشيطان لا سبيل له إلى وسوسة الملائكة وهو مسلط على البشر في الوسوسة وذلك تفاوت عظيم إذا ثبت أن طاعتهم أشق فوجب أن يكونوا أكثر ثوابا بالنص فقوله عليه الصلاة والسلام (أفضل العبادات أحمزها) أي أشقها وأما القياس فلأنا نعلم أن الشيخ الذي لم يبق له ميل إلى النساء إذا امتنع عن الزنا فليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنهن مع الميل الشديد والشوق العظيم فكذا ههنا وسابعها أن الله تعالى خلق الملائكة عقولا بلا شهوة وخلق البهائم شهوات بلا عقل وخلق الآدمي وجمع فيه بين الأمرين فصار الآدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجات لا حد لها فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة ثم وجدنا الآدمي إذا غلب هواه عقله حتى صار يعمل بهواه دون عقله فإنه يصير دون البهيمة على ما قال تعالى أولئك كالانعام بل هم أضل (الأعراف ١٧٩) ولذلك صار مصيرهم إلى النار دون البهائم فيجب أن يقال إذا غلب عقله هواه حتى صار لا يعمل بهوى نفسه شيئا بل يعمل بهوى عقله أن يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر وثامنها أن الملائكة حفظة وبنو آدم محفوظون والمحفوظ أعز وأشرف من الحافظ فيجب أن يكون بنو آدم أكرم وأشرف على الله تعالى من الملائكة وتاسعها ما روى أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى أركبه على البراق ليلة المعراج وهذا يدل على أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) أفضل منه ولما وصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى بعض المقامات تخلف عنه جبريل عليه السلام وقال (لو دنوت أنملة لاحترقت) وعاشرها قوله عليه الصلاة والسلام (إن لي وزيرين في السماء وزيرين في الأرض أما اللذان في السماء فجبريل وميكائيل وأما اللذان في الأرض فأبو بكر وعمر) فدل هذا الخبر على أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) كان كالملك وجبريل وميكائيل كانا كالوزيرين له والملك أفضل من الوزير فلزم أن يكون محمدا أفضل من الملك هذا تمام القول في دلائل من فضل البشر على الملك أجاب القائلون بتفضيل الملك عن الحجة الأولى فقالوا قد سبق بيان أن من الناس من قال المراد من السجود هو التواضع لا وضع الجبهة على الأرض ومنهم من سلم أنه عبارة عن وضع الجبهة على الأرض لكنه قال السجود لله وآدم قبلة السجود وعلى

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٩٥/٢

هذين القولين لا إشكال أما إذا سلمنا أن السجود كان لآدم عليه السلام فلم قلتم إن ذلك لا يجوز من الأشرف في حق الشريف وذلك لأن الحكمة قد تقتضي ذلك كثيرا من حب الأشرف وإظهار النهاية في الانقياد والطاعة فإن للسلطان أن يجلس أقل عبيده في الصدر وأن يأمر الأكابر بخدمته ويكون غرضه من ذلك إظهار كونهم مطيعين له في كل الأمور منقادين له في جميع الأحوال فلم لا يجوز أن يكون الأمر ههنا كذلك وأيضا أليس." (١)

"فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها (الأعراف ١٣) وقال أيضا فاخرج منها فإنك رجيم (ص ٧٧ (الحجر ٣٤) وإنما اهبط منها لأجل تكبره فزلة آدم عليه السلام إنما وقعت بعد ذلك بمدة طويلة ثم أمر بالهبوط بسبب الزلة فلما حصل هبوط إبليس قبل ذلك كيف يكون قوله اهبطوا متناولا له قلنا إن الله تعالى لما أهبطه إلى الأرض فلعله عاد إلى السماء مر أخرى لأجل أن يوسوس إلى آدم وحواء فحين كان آدم وحواء في الجنة قال الله تعالى لهما اهبطا فلما خرجا من الجنة واجتمع إبليس معهما خارج الجنة أمر الكل فقال اهبطوا ومن الناس من قال ليس معنى قوله اهبطوا أنه قال ذلك لهم دفعة واحدة بل قال ذلك لكل واحد منهم على حدة في وقت الوجه الثاني أن المراد آدم وحواء والحية وهذا ضعيف لأنه ثبت بالإجماع أن المكلفين هم الملائكة والجن والإنس ولقائل أن يمنع هذا الإجماع **فإن من الناس من** يقول قد يحصل في غيرهم جمع من المكلفين على ما قال تعالى كل قد علم صلاته وتسبيحه (النور ٤١) وقال سليمان للهدهد لاعذبنه عذابا شديدا (النمل ٢١) الثالث المراد آدم وحواء وذريتهما لأنهما لما كانا أصل الإنس جعلا كأنهما الإنس كلهم والدليل عليه قوله اهبطوا بعضكم لبعض عدو اهبطوا منها جميعا (البقرة ٣٦ ٣٨) ويدل عليه أيضا قوله فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون (البقرة ٣٨ ٣٩) وهذا حكم يعم الناس كلهم ومعنى بعضكم لبعض عدو ما عليه الناس من التعادي والتباغض وتضليل بعضهم لبعض واعلم أن هذا القول ضعيف لأن الذرية ما كانوا موجودين في ذلك الوقت فكيف يتناولهم الخطاب أما من زعم أن أقل الجمع اثنان فالسؤال زائل على قوله

المسألة الثالثة اختلفوا في أن قوله اهبطوا أمر أو إباحة والأشبه أنه أمر لأن فيه مشقة شديدة لأن مفارقة ما كانا فيه من الجنة إلى موضع لا تحصل المعيشة فيه إلا بالمشقة والكد من أشق التكاليف وإذا ثبت هذا بطل ما يظن أن ذلك عقوبة لأن التشديد في التكليف سبب للثواب فكيف يكون عقابا مع ما فيه من النفع العظيم فإن قيل ألستم تقولون في الحدود وكثير من الكفارات إنها عقوبات وإن كانت من باب التكاليف قلنا أما الحدود فهي واقعة بالمحدود من فعل الغير فيجوز أن تكون عقابا إذا كان الرجل مصرا وأما الكفارات فإنما يقال في بعضها إنه يجري مجرى العقوبات لأنها لا تثبت إلا مع المأثم فأما أن تكون عقوبة مع كونها تعريضات للثواب العظيم فلا

المسألة الرابعة أن قوله تعالى اهبطوا بعضكم لبعض عدو أمر بالهبوط وليس أمرا بالعداوة لأن عداوة إبليس لآدم وحواء عليهما السلام بسبب الحسد والاستكبار عن السجود واختداعه إياهما حتى أخرجهما من الجنة وعداوته لذريتهما بإلقاء الوسوسة والدعوة إلى الكفر والمعصية وشيء من ذلك لا يجوز أن يكون مأمورا به فأما عداوة آدم لإبليس فإنها مأمور

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٢/٢١٤

بها لقوله تعالى إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا (فاطر ٦) وقال تعالى يذكرون يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة (الأعراف ٢٧) إذا ثبت هذا ظهر أن المراد من الآية اهبطوا من السماء وأنتم بعضكم لبعض عدو

المسألة الخامسة المستقر قد يكون بمعنى الاستقرار كقوله تعالى إلى ربك يومئذ المستقر (القيامة ١٢) وقد يكون بمعنى المكان الذي يستقر فيه كقوله تعالى أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا." (١)

"التوراة وأن يكون شيئا خارجا عن التوراة فهذه أقسام ثلاثة لا مزيد عليها وتقرير الاحتمال الأول أن التوراة لها صفتان كونها كتابا منزلا وكونها فرقانا تفرق بين الحق والباطل فهو كقولك رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ونظيره قوله تعالى ولقد ءاتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا (الأنبياء ٤٨) وأما تقرير الاحتمال الثاني فهو أن يكون المراد من الفرقان ما في التوراة من بيان الدين لأنه إذا أبان ظهر الحق متميزا من الباطل فالمراد من الفرقان بعض ما في التوراة وهو بيان أصول الدين وفروعه وأما تقرير الاحتمال الثالث فمن وجوه أحدها أن يكون المراد من الفرقان ما أوتي موسى عليه السلام من اليد والعصا وسائر الآيات وسميت بالفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل وثانيها أن يكون المراد من الفرقان النصر والفرج الذي آتاه الله بني إسرائيل على قوم فرعون قال تعالى وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان (الأنفال ٤١) والمراد النصر الذي آتاه الله يوم بدر وذلك لأن قبل ظهور النصر يتوقع كل واحد من الخصمين في أن يكون هو المستولي وصاحبه هو المقهور فإذا ظهر النصر تميز الراجح من المرجوح وانفرق الطمع الصادق من الطمع الكاذب وثالثها قال قطرب الفرقان هو انفراق البحر لموسى عليه السلام فإن قلت فهذا قد صار مذكورا في قوله تعالى وإذا فرقنا بكم البحر (البقرة ٥٠) وأيضا فقوله تعالى بعد ذلك لعلكم تهتدون لا يليق إلا بالكتاب لأن ذلك لا يذكر إلا عقيب الهدى قلت الجواب عن الأول أنه تعالى لم يبين في قوله تعالى وإذ فرقنا بكم البحر أن ذلك كان لأجل موسى عليه السلام وفي هذه الآية بين ذلك التخصيص على سبيل التنصيص وعن الثاني أن فرق البحر كان من الدلائل فلعل المراد أنا لما آتينا موسى فرقان البحر استدلوا بذلك على وجود الصانع وصدق موسى عليه السلام وذلك هو الهداية وأيضا فالهدى قد يراد به الفوز والنجاة كما يراد به الدلالة فكأنه تعالى بين أنه آتاهم الكتاب نعمة في الدين والفرقان الذي حصل به خلاصهم من الخصم نعمة عاجلة واعلم **أن من الناس من** غلط فظن أن الفرقان هو القرآن وأنه أنزل على موسى عليه السلام وذلك باطل لأن الفرقان هو الذي يفرق بين الحق والباطل وكل دليل كذلك فلا وجه لتخصيص هذا اللفظ بالقرآن وقال آخرون المعنى وإذ ءاتينا موسى الكتاب يعني التوراة وآتينا محمدا (صلى الله عليه وسلم) الفرقان لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب وقد مال إلى هذا القول من علماء النحو الفراء وثعلب وقطرب وهذا تعسف شديد من غير حاجة ألبتة إليه

وأما قوله تعالى لعلكم تهتدون فقد تقدم تفسير لعل وتفسير الاهتداء واستدلت المعتزلة بقوله لعلكم تهتدون على أن الله تعالى أراد الاهتداء من الكل وذلك يبطل قول من قال أراد الكفر من الكافر وأيضا فإذا كان عندهم أنه تعالى يخلق

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٧/٣

الاهتداء فيمن يهتدي والضلال فيمن يضل فما الفائدة في أن ينزل الكتاب والفرقان ويقول لعلكم تهتدون ومعلوم أن الاهتداء إذا كان يخلقه فلا تأثير لإنزال الكتب فيه لو خلق الاهتداء ولا كتاب لحصل الاهتداء ولو أنزل بدلا من الكتاب الواحد ألف كتاب ولم يخلق الاهتداء فيهم لما حصل الاهتداء فكيف يجوز أن يقول أنزلت الكتاب لكي تهتدوا واعلم أن هذا الكلام قد تقدم مرارا لا تحصى مع الجواب والله أعلم." (١)

"الكبائر فلما وصفهم الله بالظلم أولا وصفهم بالفسق ثانيا ليعرف أن ظلمهم كان من الكبائر لا من الصغائر الثاني يحتمل أنهم استحقوا اسم الظالم بسبب ذلك التبديل فنزل الرجز عليهم من السماء بسبب ذلك التبديل بل للفسق الذي كانوا فعلوه قبل ذلك التبديل وعلى هذا الوجه يزول التكرار

النوع الثاني من الكلام في هذه الآية اعلم أن الله تعالى ذكر هذه الآية في سورة الأعراف وهو قوله وإذ قيل لهم اسكنوا هاذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد (الأعراف ١٦١ ١٦٢) واعلم أن من الناس من يحتج بقوله تعالى فبدل الذين ظلموا على أن ما ورد به التوقيف من الأذكار أنه غير جائز تغييرها ولا تبديلها بغيرها وربما احتج أصحاب الشافعي رضي الله عنه في أنه لا يجوز تحريم الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح ولا تجوز القراءة بالفارسية وأجاب أبو بكر الرازي بأنهم إنما استحقوا الذم لتبديلهم القول إلى قول آخر يضاد معناه معنى الأول فلا جرم استوجبوا الذم فأما من غير اللفظ مع بقاء المعنى فليس كذلك والجواب أن ظاهر قوله فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم يتناول كل من بدل قولا بقول آخر سواء اتفق القولان في المعنى أو لم يتفقا وههنا سؤالات

السؤال الأول لم قال في سورة البقرة وإذ قلنا وقال في الأعراف وإذ قيل لهم الجواب أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام اذكروا نعمتي التى أنعمت عليكم (البقرة ٤٠) ثم أخذ يعدد (نعمه) نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول وإذ قلنا أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى وإذ قيل لهم إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة

السؤال الثاني لم قال في البقرة وإذ قلنا ادخلوا وفي الأعراف اسكنوا الجواب الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة

السؤال الثالث لم قال في البقرة فكلوا بالفاء وفي الأعراف وكلوا بالواو والجواب ههنا هو الذي ذكرناه في قوله تعالى في سورة البقرة وكلا منها رغدا وفي الأعراف فكلا

السؤال الرابع لم قال في البقرة نغفر لكم خطاياكم وفي الأعراف نغفر لكم خطيئاتكم الجواب الخطايا جمع الكثرة والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال وإذ قلنا ادخلوا هاذه القرية لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة وفي الأعراف لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال وإذ قيل لهم لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٧٣/٣

بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة (ة) وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة السؤال الخامس لم ذكر قوله رغدا في البقرة وحذفه في الأعراف الجواب عن هذا السؤال كالجواب." (١)

"(البقرة ١٧٧) وفيه مسائل

المسألة الأولى في نصب الصابرين أقوال الأول قال الكسائي هو معطوف على ذوى القربى كأنه قال وآتى المال على حبه ذوي القربى والصابرين قال النحويون إن تقدير الآية يصير هكذا ولكن البر من آمن بالله وآتى المال على حبه ذوي القربى والصابرين فعلى هذا قوله والصابرين من صلة من قوله والموفون متقدم على قوله والصابرين فهو عطف على من فحينئذ قد عطفت على الموصول قبل صلته شيئا وهذا غير جائز لأن الموصول مع الصلة بمنزلة اسم واحد ومحال أن يوصف الاسم أو يؤكد أو يعطف عليه إلا بعد تمامه وانقضائه بجميع أجزائه أما إن جعلت قوله والموفون رفعا على المدح وقد عرفت أن هذا الفصل غير جائز بل هذا أشنع لأن المدح جملة فإذا لم يجز الفصل بالمفرد فلأن لا يجوز بالجملة كان ذلك أولى

فإن قيل أليس جاز الفصل بين المبتدأ والخبر بالجملة كقول القائل إن زيدا فافهم ما أقول رجل عالم وكقوله تعالى إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا (الكهف ٣٠) ثم قال أولائك ففصل بين المتبدأ والخبر بقوله إنا لا نضيع قلنا الموصول مع الصلة كالشيء الواحد فالتعلق الذي بينهما أشد من التعلق بين المبتدأ والخبر فلا يلزم من جوازه الفصل بين المبتدأ والخبر جواز بين الموصول والصلة

القول الثاني قول الفراء إنه نصب على المدح وإن كان من صفة من وإنما رفع الموفون ونصب الصابرين لطول الكلام بالمدح والعرب تنصب على المدح وعلى الذم إذا طال الكلام بالنسق في صفة الشيء الواحد وأنشد الفراء إلى الملك القرم وابن الهمام

وليث الكتيبة في المزدحم

حمالة الحطب وقالوا فيمن قرأ بنصب حمالة أنه نصب على الذم قال أبو علي الفارسي وإذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها ولا تجعل كلها جارية على موصوفها لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجها واحدا وجملة واحدة ثم اختلف الكوفيون والبصريون في أن المدح والذم لم صارا علتين لاختلاف الحركة فقال الفراء أصل المدح والذم من كلام السامع وذلك أن الرجل إذا أخبر غيره فقال له قام زيد فربما أثنى السامع على زيد وقال ذكرت والله الظريف ذكرت العاقل أي هو والله الظريف هو العاقل فأراد المتكلم أن يمدح بمثل ما مدحه به السامع فجرى الإعراب على ذلك وقال الخليل المدح والذم ينصبان على معنى أعني الظريف وأنكر الفراء ذلك لوجهين الأول أن أعني إنما يقع تفسيرا للاسم المجهول والمدح يأتي بعد المعروف الثاني أنه لو صح ما قاله الخليل لصح أن يقول قام زيد أخاك على معنى أعني أخاك وهذا

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٨٦/٣

مما لم تقله العرب أصلا

واعلم **أن من الناس من** قرأ قلوبهم والصابرين ومنهم من قرأ والموفون و الصابرون." (١)

"واعلم **أن من الناس من** قال إن الآية واردة في التطوع لأن الواجب لا يحل منعه ولا رد السائل منه وقد يحتمل أن يراد به الواجب وقد يعدل به عن سائل إلى سائل وعن فقير إلى فقير

ثم قال والله غنى عن صدقة العباد فإنما أمركم بها ليثيبكم عليها حليم إذا لم يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بصدقته وهذا سخط منه ووعيد له ثم إنه تعالى وصف هذين النوعين على الإنفاق أحدهما الذي يتبعه المن والأذى والثاني الذي لا يتبعه المن والأذى فشرح حال كل واحد منهما وضرب مثلا لكل واحد منهما

فقال في القسم الأول الذي يتبعه المن والأذى حليم يأيها الذين ءامنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الاخر وفي الآية مسائل

المسألة الأولى قال القاضي إنه تعالى آكد النهي عن إبطال الصدقة بالمن والأذى وأزال كل شبهة للمرجئة بأن بين أن المراد أن المن والأذى يبطلان الصدقة ومعلوم أن الصدقة قد وقعت وتقدمت فلا يصح أن تبطل فالمراد إبطال أجرها وثوابها لأن الأجر لم يحصل بعد وهو مستقبل فيصح إبطاله بما يأتيه من المن والأذى

واعلم أنه تعالى ذكر لكيفية إبطال أجر الصدقة بالمن والأذى مثلين فمثله أولا بمن ينفق ماله رئاء الناس وهو مع ذلك كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر لأن بطلان أجر نفقة هذا المرائي الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة من يتبعها المن والأذى ثم مثله ثانيا بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار ثم أصابه المطر القوي فيزيل ذلك الغبار عنه حتى يصير كأنه ما كان عليه غبار ولا تراب أصلا فالكافر كالصفوان والتراب مثل ذلك الإنفاق والوابل كالكفر الذي يحبط عمل الكافر وكالمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق قال فكما أن الوابل أزال التراب الذي وقع على الصفوان فكذا المن والأذى يوجب أن يكونا مبطلين لأجر الانفاق بعد حصوله وذلك صريح في القول بالاحباط والتفكير قال الجبائي وكما دل هذا النص على صحة قولنا فالعقل دل عليه أيضا وذلك لأن من أطاع وعصى فلو استحق ثواب طاعته وعقاب معصيته لوجب أن يستحق النقيضين لأن شرط الثواب أن يكون منفعة خالصة دائمة مقرونة بالإجلال وشرط العقاب أن يكون مضرة خالصة دائمة مقرونة بالإذلال فلو لم تقع المحابطة لحصل استحقاق النقيضين وذلك محال ولأنه حين يعاقبه فقد منعه الإثابة ومنع الإثابة ظلم وهذا العقاب عدل فيلزم أن يكون هذا العقاب عدلا من حيث إنه حقه وأن يكون ظلما من حيث إنه منع الإثابة فيكون ظالما بنفس الفعل الذي هو عادل فيه وذلك محال فصح بهذا قولنا في الإحباط والتفكير بهذا النص وبدلالة العقل هذا كلام المعتزلة

وأما أصحابنا فإنهم قالوا ليس المراد بقوله لا تبطلوا النهي عن إزالة هذا الثواب بعد ثبوته بل المراد به أن يأتي بهذا العمل باطلا وذلك لأنه إذا قصد به غير وجه الله تعالى فقد أتى به من الابتداء على نعت البطلان واحتج أصحابنا على بطلان

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٣٩/٥

قول المعتزلة بوجوه من الدلائل

أولها أن النافي والطارىء إن لم يكن بينهما منافاة لم يلزم من طريان الطارىء زوال النافي وإن." [(١)]

"المسألة الثانية اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات

الصفة الأولى إني متوفيك ونظيره قوله تعالى حكاية عنه فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم (المائدة ١١٧) واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم ولا تأخير فيها والثاني فرض التقديم والتأخير فيها أما الطريق الأول فبيانه من وجوه الأول معنى قوله إني متوفيك أي متمم عمرك فحينئذ أتوفاك فلا أتركهم حتى يقتلوك بل أنا رافعك إلى سمائي ومقربك بملائكتي وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن والثاني متوفيك أي مميتك وهو مروي عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق قالوا والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه أحدها قال وهب توفي ثلاثة ساعات ثم رفع وثانيها قال محمد بن إسحاق توفي سبع ساعات ثم أحياه الله ورفعه الثالث قال الربيع بن أنس أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء قال تعالى الله يتوفى الانفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها (الزمر ٤٢)

الوجه الرابع في تأويل الآية أن الواو في قوله متوفيك ورافعك إلى تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال فأما كيف يفعل ومتى يفعل فالأمر فيه موقوف على الدليل وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) (أنه سينزل ويقتل الدجال) ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك

الوجه الخامس في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي وهو أن المراد إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك ثم قال ورافعك إلى وذلك لأن من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله وأيضا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة والغضب والأخلاق الذميمة

والوجه السادس إن التوفي أخذ الشيء وافيا ولما علم الله إن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى وما يضرونك من شى ء (النساء ١١٣)

والوجه السابع إني متوفيك أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن

الوجه الثامن إن التوفي هو القبض يقال وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه كما يقال سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه وقد يكون أيضا توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيا له

فإن قيل فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله ورافعك إلى تكرارا

قلنا قوله إني متوفيك يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء فلما

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٤٤/٧

قال بعده ورافعك إلى كان هذا تعيينا للنوع ولم يكن تكرارا

الوجه التاسع أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ورافعك." (١)

"الجواب إلى ما دل عليه قوله يلوون ألسنتهم وهو المحرف

السؤال الثاني كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس

الجواب لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل يجوز عليهم التواطؤ على التحريف ثم إنهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكنا والأصوب عندي في تفسير الآية وجه آخر وهو أن الآيات الدالة على نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم) كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر وتأمل القلب والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين واليهود كانوا يقولون مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم فكان هذا هو المراد بالتحريف وبلي الألسنة وهذا مثل ما أن المحق في زماننا إذا استدل بآية من كتاب الله تعالى فالمبطل يورد عليه الأسئلة والشبهات ويقول ليس مراد الله ما ذكرت فكذا في هذه الصورة

ثم قال تعالى ويقولون هو من عند الله واعلم **أن من الناس من** قال إنه لا فرق بين قوله لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب وبين قوله ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله (آل عمران ٧٨) وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد أما المحققون فقالوا المغايرة حاصلة وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب وتارة بالسنة وتارة بالإجماع وتارة بالقياس والكل من عند الله

فقوله لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب هذا نفي خاص ثم عطف عليه النفي العام فقال ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله وأيضا يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة ويكون المراد من قولهم هو من عند الله أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل أشعياء وأرمياء وحيقوق وذلك لأن القوم في نسبة التحريف إلى الله كانوا متحيرين فإن وجدوا قوما من الأغمار والبله الجاهلين بالتوراة نسبوا ذلك المحرف إلى أنه من التوراة وإن وجدوا قوما عقلاء أذكياء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جاؤا بعد موسى عليه السلام واحتج الجبائي والكعبي به على أن فعل العبد غير مخلوق لله تعالى فقالا لو كان لي اللسان بالتحريف والكذب خلقا لله تعالى لصدق اليهود في قولهم إنه من عند الله ولزم الكذب في قوله تعالى إنه ليس من عند الله وذلك لأنهم أضافوا إلى الله ما هو من عنده والله ينفي عن نفسه ما هو من عنده ثم قال وكفى خزيا لقوم يجعلون اليهود أولى بالصدق من الله قال ليس لأحد أن يقول المراد من قولهم لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب وبين قوله ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله فرق وإذا لم يبق الفرق لم يحسن العطف وأجاب الكعبي عن هذا السؤال أيضا من وجهين آخرين الأول أن كون المخلوق من عند الخالق أوكد من كون المأمور به من عند الآمر به وحمل الكلام على الوجه الأقوى أولى والثاني أن قوله وما هو من عند الله نفي مطلق لكونه من عند الله وهذا ينفي كونه من عند الله بوجه من الوجوه فوجب أن لا يكون من عنده لا بالخلق ولا بالحكم

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٨/٦٠

والجواب أما قول الجبائي لو حملنا قوله تعالى ويقولون هو من عند الله على أنه كلام الله لزم التكرار فجوابه ما ذكرنا أن قوله وما هو من الكتاب معناه أنه غير موجود في الكتاب وهذا لا يمنع من." (١)

"يوم بدر ولم تحصل يوم أحد ثم القائلون بهذا القول أجابوا عن دلائل الأولين فقالوا

أما الحجة الأولى وهي قولكم الرسول (صلى الله عليه وسلم) إنما أمد يوم بدر بألف من الملائكة

فالجواب عنها من وجهين الأول أنه تعالى أمد أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) بألف ثم زاد فيهم ألفين فصاروا ثلاثة آلاف ثم زاد ألفين آخرين فصاروا خمسة آلاف فكأنه عليه الصلاة والسلام قال لهم ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بألف من الملائكة فقالوا بلى ثم قال ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف فقالوا بلى ثم قال لهم إن تصبروا وتتقوا يمددكم ربكم بخمسة آلاف وهو كما روي أنه (صلى الله عليه وسلم) قال لأصحابه (أيسركم أن تكونوا ربع أهل الجنة قالوا نعم قال أيسركم أن تكونوا ثلث أهل الجنة قالوا نعم قال فإني أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة)

الوجه الثاني في الجواب أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة الأنفال ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخافوا وشق عليهم ذلك لقلة عددهم فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فأنا أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة ثم إنه لم يأت قريشا ذلك المدد بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش فاستغنى عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف

وأما الحجة الثانية وهي قولكم إن الكفار كانوا يوم بدر ألفا فأنزل الله ألفا من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف

فالجواب إنه تقريب حسن ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد

وأما الحجة الثالثة وهي التمسك بقوله ويأتوكم من فورهم (آل عمران ١٢٥)

فالجواب عنه أن المشركين لما سمعوا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قد تعرضوا للعير ثار الغضب في قلوبهم واجتمعوا وقصدوا النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأخبرهم الله تعالى أنهم إن يأتوكم من فورهم يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين والله أعلم بمراده

المسألة الثانية اختلفوا في عدد الملائكة وضبط الأقوال فيها أن من الناس من ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد فقالوا لأن الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم فلا بد من التغاير وهو ضعيف لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي جزؤها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد أما على تقدير الأول فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذكر الألف وذكر ثلاثة آلاف وذكر خمسة آلاف والمجموع تسعة آلاف وإن حملناها على قصة

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٩٥/٨

أحد فليس فيها ذكر الألف بل فيها ذكر ثلاثة آلاف وخمسة آلاف والمجموع ثمانية آلاف وأما على التقدير الثاني وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا عدد الملائكة خمسة آلاف ثم ضم إليها ألفان آخران فلا جرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف ثم ضم إليها ألفان آخران فلام جر وعدوا بخمسة." (١)

"يأأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التى أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون

اعلم **أن من الناس من** قال انه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بارشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال رحيم ياأيها الذين ءامنوا لا تأكلوا الربا وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها وقال القفال رحمه الله يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها بسبب الربا فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الاقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم فلا جرم نهاهم الله عن ذلك وفي قوله أضعافا مضاعفة مسألتان

المسألة الأولى كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل فاذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين ثم إذا حل الأجل الثاني فعل ذلك ثم إلى آجال كثيرة فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله أضعافا مضاعفة

المسألة الثانية انتصب أضعافا على الحال

ثم قال تعالى واتقوا الله لعلكم تفلحون

اعلم أن اتقاء الله في هذا النهي واجب وأن الفلاح يتوقف عليه فلو أكل ولم يتق زال الفلاح وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر لا من الصغائر وتفسير قوله لعلكم تقدم في سورة البقرة في قوله اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون وتمام الكلام في الربا أيضا مر في سورة البقرة

ثم قال واتقوا النار التى أعدت للكافرين وفيه سؤالات الأول أن النار التي أعدت للكافرين." (٢)

"اللفظ على الوطء أولى من حمله على العقد

أجابوا عنه من ثلاثة أوجه الأول ما ذهب اليه الكرخي وهو أن لفظ النكاح حقيقة في الوطء مجاز في العقد بدليل أن لفظ النكاح في أصل اللغة عبارة عن الضم ومعنى الضم حاصل في الوطء لا في العقد فكان لفظ النكاح حقيقة في الوطء ثم إن العقد سمي بهذا الاسم لأن العقد لما كان سببا له أطلق اسم المسبب على السبب كما أن العقيقة اسم للشعر الذي يكون على رأس الصبي حال ما يولد ثم تسمى الشاة التي تذبح عند حلق ذلك الشعر عقيقة فكذا ههنا واعلم أنه كان مذهب الكرخي أنه لا يجوز استعمال اللفظ الواحد بالاعتبار الواحد في حقيقته ومجازه معا فلا جرم كان

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ١٨٥/٨

(٢) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٣/٩

يقول المستفاد من هذه الآية حكم الوطء أما حكم العقد فانه غير مستفاد من هذه الآية بل من طريق آخر ودليل آخر
الوجه الثاني **أن من الناس من** ذهب إلى أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في مفهوميه معا فهذا القائل قال دلت الآيات المذكورة على أن لفظ النكاح حقيقة في الوطء وفي العقد معا فكان قوله ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم نهيا عن الوطء وعن العقد معا حملا للفظ على كلا مفهوميه

الوجه الثالث في الاستدلال وهو قول من يقول اللفظ المشترك لا يجوز استعماله في مفهوميه معا قالوا ثبت بالدلائل المذكورة أن لفظ النكاح قد استعمل في القرآن في الوطء تارة وفي العقد أخرى والقول بالاشتراك والمجاز خلاف الأصل ولا بد من جعله حقيقة في القدر المشترك بينهما وهو معنى الضم حتى يندفع الاشتراك والمجاز وإذا كان كذلك كان قوله ولا تنكحوا ما نكح ءاباؤكم نهيا عن القدر المشترك بين هذين القسمين والنهي عن القدر المشترك بين القسمين يكون نهيا عن كل واحد من القسمين لا محالة فان النهي عن التزويج يكون نهيا عن العقد وعن الوطء معا فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في تقرير هذا الاستدلال

والجواب عنه من وجوه الأول لا نسلم أن اسم النكاح يقع على الوطء والوجوه التي احتجوا بها على ذلك فهي معارضة بوجوه أحدها قوله عليه الصلاة والسلام (النكاح سنتي) ولا شك أن الوطء من حيث كونه وطأ ليس سنة له وإلا لزم أن يكون الوطء بالسفاح سنة له فلما ثبت أن النكاح سنة وثبت أن الوطء ليس سنة ثبت أن النكاح ليس عبارة عن الوطء كذلك التمسك بقوله تناكحوا تكثروا ولو كان الوطء مسمى بالنكاح لكان هذا إذنا في مطلق الوطء وكذلك التمسك بقوله تعالى لعلكم تفلحون وأنكحوا الايامى منكم (النور ٣٢) وقوله فانكحوا ما طاب لكم من النساء (النساء ٣)
لا يقال لما وقع التعارض بين هذه الدلائل فالترجيح معنا وذلك لأنا لو قلنا الوطء مسمى بالنكاح على سبيل الحقيقة لزم دخول المجاز في دلائلنا ومتى وقع التعارض بين المجاز والتخصيص كان التزام التخصيص أولى
لأنا نقول أنتم تساعدون على أن لفظ النكاح مستعمل في العقد فلو قلنا إن النكاح حقيقة في الوطء لزم دخول التخصيص في الآيات التي ذكرناها ولزم القول بالمجاز في الآيات التي ذكر النكاح فيها بمعنى العقد أما قولنا ان النكاح فيها بمعنى الوطء فلا يلزمنا التخصيص فقولكم يوجب المجاز." (١)

"الأصل بذكر أن المفسرة

ثم قال تعالى وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم أي كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيما فيهم
فلما توفيتنى والمراد منه وفاة الرفع إلى السماء من قوله إني متوفيك ورافعك إلى (آل عمران ٥٥)
كنت أنت الرقيب عليهم قال الزجاج الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم
وأنت على كل شى ء شهيد يعني أنت الشهيد لي حين كنت فيهم وأنت الشهيد عليهم بعد مفارقتي لهم فالشهيد الشاهد ويجوز حمله على الرؤية ويجوز حمله على العلم ويجوز حمله على الكلام بمعنى الشهادة فالشهيد من أسماء الصفات الحقيقية على جميع التقديرات ثم قال تعالى

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٠/١٦

إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم

فيه مسائل

المسألة الأولى معنى الآية ظاهر وفيه سؤال وهو أنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول وإن تغفر لهم والله لا يغفر الشرك

والجواب عنه من وجوه الأول أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام قلت للناس اتخذوني وأمي إلاهين من دون الله قال (المائدة ١١٦) علم أن قوما من النصارى حكوا هذا اللكلام عنه والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافرا بل يكون مذنبا حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز فلهذا المعنى طلب المغفرة من الله تعالى والثاني أنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه فذكر عيسى هذا الكرم ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله وترك التعرض والاعتراض بالكلية ولذلك ختم الكلام بقوله فإنك أنت العزيز الحكيم يعني أنت قادر على ما تريد حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول غفرانه جائز عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب وليس في إسقاطه على الله مضرة فوجب أن يكون حسنا بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجودا في شرع عيسى عليه السلام الوجه الثالث في الجواب أن القوم قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوز أن يكون بعضهم قد تاب عنه فقال ءان علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك وأنت قد حكمت على كل من كفر ممن عبادك بالعقوبة وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة

الوجه الرابع أنا ذكرنا أن من الناس من قال إن قول الله تعالى لعيسى أءنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلاهين من دون الله قال (المائدة ١١٦) إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة وعلى هذا القول فالجواب سهل." (١)

"المسألة الأولى في تفسير قوله تعالى ما قدروا الله حق قدره وجوه قال ابن عباس ما عظموا الله حق تعظيمه وروى عنه أيضا أنه قال معناه ما آمنوا إن الله على كل شيء قدير وقال أبو العالية ما وصفوه حق صفته وقال الأخفش ما عرفوه حق معرفته وحقق الواحدي رحمه الله ذلك فقال يقال قدر الشيء إذا سبره وحرره وأراد أن يعلم مقداره يقدره بالضم قدرا ومنه قوله عليه السلام (وإن غم عليكم فاقدروا له) أي فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة ثم قال يقال لمن عرف شيئا هو يقدر قدره وإذا لم يعرفه بصفاته أنه لا يقدر قدره فقوله وما قدروا الله حق قدره صحيح في كل المعاني المذكورة

المسألة الثانية أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم مانعتهم قدروا الله حق قدره بين السبب فيه وذلك هو قولهم ما أنزل الله علي بشر من شيء

واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته وتقريره من وجوه الأول أن منكر البعثة والرسالة إما أن يقول إنه تعالى ما كلف أحدا من الخلق تكليفا أصلا أو يقول إنه تعالى كلفهم التكاليف والأول باطل

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٢/١١٣

لأن ذلك يقتضي أنه تعالى أباح لهم جميع المنكرات والقبائح نحو شتم الله ووصفه بما لا يليق به والاستخفاف بالأنبياء والرسل وأهل الدين والإعراض عن شكر النعم ومقابلة الإنعام بالإساءة ومعلوم أن كل ذلك باطل وإما أن يسلم أنه تعالى كلف الخلق بالأوامر والنواهي فههنا لا بد من مبلغ وشارع ومبين وما ذاك إلا الرسول

فإن قيل لم لا يجوز أن يقال العقل كاف في إيجاب الواجبات واجتناب المقبحات

قلنا هب أن الأمر كما قلتم إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام فثبت أن كل من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة الله تعالى وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية وحينئذ يصدق في حقه قوله تعالى وما قدروا الله حق قدره

الوجه الثاني في تقرير هذا المعنى **أن من الناس من** يقول إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل لأنه يمتنع إظهار المعجزة على وفق دعواه تصديقا له والقائلون بهذا القول لهم مقامان

المقام الأول أن يقولوا إنه ليس في الإمكان خرق العادات ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة

والمقام الثاني الذين يسلمون إمكان ذلك إلا أنهم يقولون إن بتقدير حصول هذه الأفعال الخارقة للعادات لا دلالة لها على صدق مدعي الرسالة وكلا الوجهين يوجب القدح في كمال قدرة الله تعالى

أما المقام الأول فهو أنه ثبت أن الأجسام متماثلة وثبت أن ما يحتمله الشيء وجب أن يحتمله مثله وإذا كان كذلك كان جرم الشمس والقمر قابلا للتمزق والتفرق

فإن قلنا إن الإله غير قادر عليه كان ذلك وصفا له بالعجز ونقصان القدرة وحينئذ يصدق في حق هذا القائل أنه ما قدر الله حق قدره

وإن قلنا إنه تعالى قادر عليه فحينئذ لا يمتنع عقلا انشقاق القمر ولا حصول سائر المعجزات." (١)

"وجعلوا لله شركآء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون

في الآية مسائل

المسألة الأولى اعلم أنه تعالى لما ذكر هذه البراهين الخمسة من دلائل العالم الأسفل والعالم الأعلى على ثبوت الإلهية وكمال القدرة والرحمة ذكر بعد ذلك **أن من الناس من** أثبت لله شركاء واعلم أن هذه المسألة قد تقدم ذكرها إلا أن المذكور ههنا غير ما تقدم ذكره وذلك لأن الذين أثبتوا الشريك لله فرق وطوائف

فالطائفة الأولى عبدة الأصنام فهم يقولون الأصنام شركاء لله في العبودية ولكنهم معترفون بأن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق والإيجاد والتكوين

والطائفة الثانية من المشركين الذين يقولون مدبر هذا العالم هو الكواكب وهؤلاء فريقان منهم من يقول إنها واجبة الوجود لذاتها ومنهم من يقول إنها ممكنة الوجود لذواتها محدثة وخالقها هو الله تعالى إلا أنه سبحانه فوض تدبير هذا العالم الأسفل إليها وهؤلاء هم الذين حكى الله عنهم أن الخليل (صلى الله عليه وسلم) ناظرهم بقوله لا أحب الافلين وشرح

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٦٠/١٣

هذا الدليل قد مضى

والطائفة الثالثة من المشركين الذين قالوا لجملة هذا العالم بما فيه من السموات والأرضين إلهان أحدهما فاعل الخير والثاني فاعل الشر والمقصود من هذه الآية حكاية مذهب هؤلاء فهذا تقرير نظم الآية والتنبيه على ما فيها من الفوائد فروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قوله تعالى وجعلوا لله شركاء الجن نزلت في الزنادقة الذين قالوا إن الله وإبليس أخوان فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور

واعلم أن هذا القول الذي ذكره ابن عباس أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية وذلك لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة قال ابن عباس والذي يقوي هذا الوجه قوله تعالى وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا (الصافات ١٥٨) وإنما وصف بكونه من الجن لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار والملائكة والروحانيون لا يرون بالعيون فصارت كأنها مستترة من العيون فبهذا التأويل أطلق لفظ الجن عليها وأقول هذا مذهب المجوس وإنما قال ابن عباس هذا قول الزنادقة لأن المجوس يلقبون بالزنادقة لأن الكتاب الذي زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله مسمى بالزند والمنسوب إليه يسمى زندي ثم عرب فقيل زنديق ثم جمع فقيل زنادقة." (١)

"وإذا ثبت هذا فكيف يمكن أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية وبكونه مضادا للدين الحق ومنافيا للصراط المستقيم فإن المرء إنما يعتقد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا فأما مع العلم بأنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ويرضى به ويعتقده

واعلم أن من الناس من قال أن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل لأنه متى علم أن مذهبه ضلال وغواية فقد علم أن ضده هو الحق فكان إنكاره إنكارا بمحض اللسان فكان ذلك كفر عناد ومنهم من قال لا بل كفره كفر جهل وقوله فبما أغويتني وقوله لاقعدن لهم الصراط المستقيم يريد به في زعم الخصم وفي اعتقاده والله أعلم

المسألة الخامسة احتج أصحابنا بهذه الآية في بيان أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه ولا في دنياه وتقريره أن إبليس استمهل الزمان الطويل فأمهله الله تعالى ثم بين أنه إنما استمهله لإغواء الخلق وإضلالهم وإلقاء الوساوس في قلوبهم وكان تعالى عالما بأن أكثر الخلق يطيعونه ويقبلون وسوسته كما قال تعالى ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين (سبأ ٢٠) فثبت بهذا أن إنظار إبليس وإمهاله هذه المدة الطويلة يقتضي حصول المفاسد العظيمة والكفر الكبير فلو كان تعالى مراعيا لمصالح العباد لامتنع أن يمهله وإن يمكنه من هذه المفاسد فحيث أنظره وأمهله علمنا أنه لا يجب عليه شيء من رعاية المصالح أصلا ومما يقوي ذلك أنه تعالى بعث الأنبياء دعاة إلى الخلق وعلم من حال إبليس أنه لا يدعو إلا إلى الكفر والضلال ثم إنه تعالى أمات الأنبياء الذين هم الدعاة للخلق وأبقى إبليس وسائر الشياطين الذين هم الدعاة للخلق إلى الكفر والباطل ومن كان يريد مصالح العباد امتنع منه أن يفعل ذلك قالت المعتزلة اختلف شيوخنا في هذه المسألة فقال الجبائي إنه لا يختلف الحال بسبب وجوده وعدمه ولا يضل بقوله أحد إلا من لو فرضنا عدم إبليس لكان يضل أيضا والدليل عليه قوله تعالى ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم (

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٣/٩٢

الصافات ١٦٢ ١٦٣) ولأنه لو ضل به أحد لكان بقاؤه مفسدة وقال أبو هاشم يجوز أن يضل به قوم ويكون خلقه جاريا مجرى خلق زيادة الشهوة فإن هذه الزيادة من الشهوة لا توجب فعل القبيح إلا أن الامتناع منها يصير أشق ولأجل تلك الزيادة من المشقة تحصل الزيادة في الثواب فكذا ههنا بسبب إبقاء إبليس يصير الامتناع من القبائح أشد وأشق ولكنه لا ينتهي إلى حد الإلجاء والإكراه

والجواب أما قول أبي علي فضعيف وذلك لأن الشيطان لا بد وأن يزين القبائح في قلب الكافر ويحسنها إليه ويذكره ما في القبائح من أنواع اللذات والطيبات ومن المعلوم أن حال الإنسان مع حصول هذا التذكير والتزيين لا يكون مساويا لحاله عند عدم هذا التذكير وهذا التزيين والدليل عليه العرف فإن الإنسان إذا حصل له جلساء يرغبونه في أمر من الأمور ويحسنونه في عينه ويسهلون طريق الوصول إليه ويواظبون على دعوته إليه فإنه لا يكون حاله في الإقدام على ذلك الفعل كحاله إذا لم يوجد هذا التذكير والتحسين والتزيين والعلم به ضروري وأما قول أبي هاشم فضعيف أيضا لأنه إذا صار حصول هذا التذكير والتزيين حاصلا للمرء على الإقدام على ذلك القبيح كان ذلك سعيا في إلقائه في المفسدة وما ذكره من خلق الزيادة في الشهوة فهو حجة أخرى لنا في أن الله تعالى لا يراعي المصلحة فكيف يمكنه أن يحتج." (١)

"وأيضا قال عنه ربنا اغفر لى ولوالدى (إبراهيم ٤١) وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال سلام عليك سأستغفر لك ربي (مريم ٤٧) وقال أيضا لاستغفرن لك (الممتحنة ٤) وثبت أن الاستغفار للكافر لا يجوز فهذا يدل على صدور هذا الذنب من إبراهيم عليه السلام

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال بقوله وما كان استغفار إبراهيم لابيه إلا عن موعدة وعدها إياه (التوبة ١١٤) وفيه قولان الأول أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام والمعنى أن أباه وعده أن يؤمن فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأجل أن يحصل هذا المعنى فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه وترك ذلك الاستغفار الثاني أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن وعدها أباه بالباء ومن الناس من ذكر في الجواب وجهين آخرين

الوجه الأول المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإيمان والإسلام وكان يقول له آمن حتى تتخلص من العقاب وتفوز بالغفران وكان يتضرع إلى الله في أن يرزقه الإيمان الذي يوجب المغفرة فهذا هو الاستغفار فلما أخبره الله تعالى بأنه يموت مصرا على الكفر ترك تلك الدعوة

والوجه الثاني في الجواب أن من الناس من حمل قوله ما كان للنبى والذين ءامنوا أن يستغفروا للمشركين (التوبة ١١٣) على صلاة الجنازة وبهذا الطريق فلا امتناع في الاستغفار للكافر لكون الفائدة في ذلك الاستغفار تخفيف العقاب قالوا والدليل على أن المراد ما ذكرناه أنه تعالى منع من الصلاة على المنافقين وهو قوله ولا تصل على أحد منهم مات أبدا (التوبة ٨٤) وفي هذه الآية عم هذا الحكم ومنه من الصلاة على المشركين سواء كان منافقا أو كان مظهرا لذلك الشرك وهذا قول غريب

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ١٤/٣٣

المسألة الثالثة اختلفوا في السبب الذي به تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله فقال بعضهم بالإصرار والموت وقال بعضهم بالإصرار وحده وقال آخرون لا يبعد أن الله تعالى عرفه ذلك بالوحي وعند ذلك تبرأ منه فكان تعالى يقول لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه فكونوا كذلك لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله واتبع ملة إبراهيم (النساء ١٢٥) واعلم أنه تعالى لما ذكر حال إبراهيم في هذه الواقعة قال إن إبراهيم لاواه حليم (التوبة ١١٤) واعلم أن اشتقاق الأواه من قول الرجل عند شدة حزنه أوه والسبب فيه أن عند الحزن يختنق الروح القلبي في داخل القلب ويشتد حرقه فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق من القلب ليخفف بعض ما به هذا هو الأصل في اشتقاق هذا اللفظ وللمفسرين فيه عبارات روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال (الأواه الخاشع المتضرع) وعن عمر أنه سأل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن الأواه فقال (الدعاء) ويروى أن زينب تكلمت عند الرسول عليه الصلاة والسلام بما يغير لونه فأنكر عمر فقال عليه الصلاة والسلام (دعها فإنها أواهة) قيل يا رسول الله وما الأواهة قال (الداعية الخاشعة المتضرعة) وقيل معنى كون إبراهيم عليه السلام أواها كلما ذكر." (١)

"يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وتقريره من وجوه الأول قال الزجاج لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه الثاني أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ألبتة وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد وإذا كان العابد أكمل حالا من المعبود كانت العبادة باطلة الثالث أن العبادة أعظم أنواع التعظيم فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الأنعام وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه

وأما النوع الثاني ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية وهو قولهم هؤلاء شفعاؤنا عند الله فاعلم **أن من الناس من** قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل بعبادة هذه الأصنام وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله وذكروا فيه أقوالا كثيرة فأحدها أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل أقليم من أقاليم العالم روح معين من أرواح عالم الأفلاك فعينوا لذلك الروح صنما معينا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم ومقصودهم عبادة ذلك الروح ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبدا للإله الأعظم ومشتغلا بعبوديته وثانيها أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب وثالثها أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات ورابعها أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله وخامسها أنهم

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٦/ ١٦٧

اعتقدوا أن الإله نور عظيم وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر وعلى صورة الملائكة صورا أخرى وسادسها لعل القوم حلولية وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة

قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الارض سبحانه وتعالى عما يشركون

اعلم أن المفسرين قرروا وجها واحدا وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه وبيان أن لا وجود له ألبتة وذلك لأنه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون موجودا ومثل هذا الكلام مشهور في العرف فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول ما علم الله هذا مني ومقصوده أنه ما حصل ذلك قط وقرىء أتنبئون بالتخفيف أما قوله سبحانه وتعالى عما يشركون فالمقصود تنزيه الله تعالى نفسه عن ذلك الشرك قرأ حمزة والكسائي تشركون بالتاء ومثله في أول النحل في موضعين وفي الروم كلها بالتاء على الخطاب قال صاحب." (١)

"واعلم أن الكفار وإن اشتركوا في العذاب فإنه لا بد وأن يقضي الله تعالى بينهم لأنه لا يمتنع أن يكون قد ظلم بعضهم بعضا في الدنيا وخانه فيكون في ذلك القضاء تخفيف من عذاب بعضهم وتثقيل لعذاب الباقين لأن العدل يقتضي أن ينتصف للمظلومين من الظالمين ولا سبيل إليه إلا بأن يخفف من عذاب المظلومين ويثقل في عذاب الظالمين

ألا إن لله ما فى السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولاكن أكثرهم لا يعلمون هو يحى ويميت وإليه ترجعون

اعلم أن من الناس من قال إن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى قال قبل هذه الآية ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الارض لافتدت به (يونس ٥٤) فلا جرم قال في هذه الآية ليس للظالم شيء يفتدى به فإن كل الأشياء ملك الله تعالى وملكه واعلم أن هذا التوجيه حسن أما الأحسن أن يقال إنا قد ذكرنا أن الناس على طبقات فمنهم من يكون انتفاعه بالإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات أكثر من انتفاعه بالبرهانيات أما المحققون فإنهم لا يلتفتون إلى الإقناعيات وإنما تعويلهم على الدلائل البينة والبراهين القاطعة فلما حكى الله تعالى عن الكفار أنهم قالوا أحق هو أمر الرسول عليه السلام بأن يقول إى وربى وهذا جار مجرى الإقناعيات فلما ذكر ذلك أتبعه بما هو البرهان القاطع على صحته وتقريره أن القول بالنبوة والقول بصحة المعاد يتفرعان على إثبات الإله القادر الحكيم وأن كل ما سواه فهو ملكه وملكه فعبر عن هذا المعنى بقوله ألا إن لله ما فى السماوات والارض ولم يذكر الدليل على صحة هذه القضية لأنه تعالى قد استقصى في تقرير هذه الدلائل فيما سبق من هذه السورة وهو قوله إن فى اختلاف اليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والارض (يونس ٦) وقوله هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل (يونس ٥) فلما تقدم ذكر هذه الدلائل القاهرة اكتفى بذكرها وذكر أن كل ما في العالم من نبات وحيوان وجسد وروح وظلمة ونور فهو ملكه وملكه ومتى كان الأمر كذلك كان قادرا على كل الممكنات عالما بكل

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٤٩/١٧

المعلومات غنيا عن جميع الحاجات منزها عن النقائص والآفات فهو تعالى لكونه قادرا على جميع الممكنات يكون قادرا على إنزال العذاب على الأعداء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرا على إيصال الرحمة إلى الأولياء في الدنيا وفي الآخرة ويكون قادرا على تأييد رسوله عليه السلام بالدلائل القاطعة والمعجزات الباهرة ويكون قادرا على إعلاء شأن رسوله وإظهار دينه وتقوية شرعه ولما كان قادرا على كل ذلك فقد بطل الاستهزاء والتعجب ولما كان منزها عن النقائص والآفات كان منزها عن الخلف والكذب وكل ما وعد به فلا بد وأن يقع هذا إذا قلنا إنه تعالى لا يراعي مصالح العباد أما إذا قلنا إنه تعالى يراعيها فنقول الكذب إنما يصدر عن العاقل إما للعجز أو للجهل أو للحاجة ولما كان الحق سبحانه منزها عن الكل كان الكذب عليه محالا فلما أخبر عن نزول العذاب بهؤلاء الكفار وبحصول الحشر والنشر وجب القطع بوقوعه فثبت بهذا." (١)

"فإن قيل لم لا يجوز أن يكون المراد لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد إن ربك لذو مغفرة إذا تابوا وأنه تعالى إنما لا يعجل العقاب إمهالا لهم في الإتيان بالتوبة فإن تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة بل نقول يجب حمل اللفظ عليه لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولا على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول لم لا يجوز أن يكون المراد وإن ربك لذو مغفرة أنه تعالى إنما لا يعجل العقوبة إمهالا لهم في الإتيان بالتوبة فإن تابوا فهو ذو مغفرة وإن عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب

والجواب عن الأول أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة وإلا لوجب أن يقال الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة وعن الثاني أنه تعالى تمدح بهذا والتمدح إنما يحصل بالتفضل أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث أنا بينا أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة حال الظلم وبينا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه

ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنمآ أنت منذر ولكل قوم هاد

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر أولا ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيا ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثا وهو المذكور في هذه الآية

واعلم أن السبب فيه أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزة ألبتة وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام

واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن قالوا إن هذا الكلام إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا مع أنه ما ظهر عليه نوع آخر من المعجزات لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا لولا أنزل عليه ءاية من ربه فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٩١/١٧

معجز سوى القرآن

واعلم أن الجواب عنه من وجهين الأول لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوا منه (صلى الله عليه وسلم) كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور مثل فلق البحر بالعصا وقلب العصا ثعبانا

فإن قيل فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم

قلنا إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكما وظهور القرآن معجزة." (١)

"المستقصى في هذه المسألة مذكور في تفسير قوله تعالى نملة يأيها النمل ادخلوا مساكنكم (النمل ١٨)

ثم قال تعالى ثم كلى من كل الثمرات لفظة (من) ههنا للتبعيض أو لابتداء الغاية ورأيت في (كتب الطب) أنه تعالى دبر هذا العالم على وجه وهو أنه يحدث في الهواء طل لطيف في الليالي ويقع ذلك الطل على أوراق الأشجار فقد تكون تلك الأجزاء الطلية لطيفة صغيرة متفرقة على الأوراق والأزهار وقد تكون كثيرة بحيث يجتمع منها أجزاء محسوسة

أما القسم الثاني فهو مثل الترنجبين فإنه طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الطرفاء في بعض البلدان وذلك محسوس وأما القسم الأول فهو الذي ألهم الله تعالى هذا النحل حتى أنها تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتغتذي بها فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئا من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل ومن الناس من يقول إن النحل تأكل من الأزهار الطيبة والأوراق المعطرة أشياء ثم إنه تعالى يقلب تلك الأجسام في داخل بدنها عسلا ثم إنها تقيء مرة أخرى فذاك هو العسل والقول الأول أقرب إلى العقل وأشد مناسبة إلى الاستقراء فإن طبيعة الترنجبين قريبة من العسل في الطعم والشكل ولا شك أنه طل يحدث في الهواء ويقع على أطراف الأشجار والأزهار فكذا ههنا وأيضا فنحن نشاهد أن هذا النحل إنما يتغذى بالعسل ولذلك فإنا إذا استخرجنا العسل من بيوت النحل نترك لها بقية من ذلك لأجل أن تغتذي بها فعلمنا أنها إنما تغتذي بالعسل وأنها إنما تقع على الأشجار والأزهار لأنها تغتذي بتلك الأجزاء الطلية العسلية الواقعة من الهواء عليها

إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ثم كلى من كل الثمرات كلمة (من) ههنا تكون لابتداء الغاية ولا تكون للتبعيض على هذا القول

ثم قال تعالى فاسلكى سبل ربك والمعنى ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل أو يكون المراد فاسلكي في طلب تلك الثمرات سبل ربك أما قوله ذللا ففيه قولان الأول أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها كقوله هو الذى جعل لكم الارض ذلولا (الملك ١٥) الثاني أنه حال من الضمير في فاسلكى أي وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما أمرت به غير ممتنعة

ثم قال تعالى يخرج من بطونها وفيه بحثان

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ١١/١٩

البحث الأول أن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه

البحث الثاني أنه قد ذكرنا **أن من الناس من** يقول العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع." (١)

"الصلاة والسلام جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة وإذاكان كذلك كان الإلزام المذكور قويا روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر إن كان قد قال ذلك فهو صادق ثم جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذكر الرسول له تلك التفاصيل فكلما ذكر شيئا قال أبو بكر صدقت فلما تمم الكلام قال أبو بكر أشهد أنك رسول الله حقا فقال له الرسول وأنا أشهد أنك الصديق حقا وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا

الوجه الرابع أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني فهذا الإلزام غير وارد عليهم إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل

فإن قالوا هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه

قلنا نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضا ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني فذاك مقام آخر سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى

الوجه الخامس أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفلا مسير سليمان عليه الصلاة والسلام غدوها شهر ورواحها شهر (سبأ ١٢) بل نقول الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة وذلك أيضا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة

الوجه السادس أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بقليس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٢٠/٥٨

في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى قال الذى عنده علم من الكتاب أنا ءاتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك (النمل ٤٠) وإذاكان ممكنا في حق بعض الناس علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود

الوجه السابع إن من الناس من يقول الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السريعة من الممكنات لا من الممتنعات فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه." (١)

"وإن ذكرها لغيره فإما أن يذكرها لمن يصدق بنبوته أو لمن يكذب بنبوته فإن ذكرها لمن صدق بنبوته فلا حاجة إلى هذه الحجة لأن كل من صدق بنبوته لم يقل بإلهية هذه الأصنام وإن ذكرها لمن يكذب بنبوته فذلك المكذب لا يسلم أن تلك الآلهة يردون النار ويكذبونه في ذلك فكان ذكره هذه الحجة ضائعا كيف كان وأيضا فالقائلون بآلهيتها لم يعتقدوا فيها كونها مدبرة للعالم وإلا لكانوا مجانين بل اعتقدوا فيها كونها تماثيل الكواكب أو صور الشفعاء وذلك لا يمنع من دخولها في النار وأجيب عن ذلك بأن المفسرين قالوا المعنى لو كان هؤلاء يعني الأصنام آلهة على الحقيقة ما وردوها أي ما دخل عابدوها النار ثم إنه سبحانه وصف ذلك العذاب بأمور ثلاثة أحدها الخلود فقال وكل فيها خالدون يعني العابدين والمعبودين وهو تفسير لقوله إنكم وما تعبدون من دون الله وثانيها قوله لهم فيها زفير قال الحسن الزفير هو اللهيب أي يرتفعون بسبب لهب النار حتى إذا ارتفعوا ورجوا الخروج ضربوا بمقامع الحديد فهووا إلى أسفلها سبعين خريفا قال الخليل الزفير أن يملأ الرجل صدره غما ثم ينتفس قال أبو مسلم وقوله لهم عام لكل معذب فنقول لهم زفير من شدة ما ينالهم والضمير في قوله وهم فيها يسمعون يرجع إلى المعبودين أي لا يسمعون صراخهم وشكواهم ومعناه أنهم لا يغيثونهم وشبهه سمع الله لمن حده أي أجاب الله دعاءه وثالثها قوله وهم فيها لا يسمعون وفيه وجهان أحدهما أنه محمول على الأصنام خاصة على ما حكيناه عن أبي مسلم والثاني أنها محمولة على الكفار ثم هذا يحتمل ثلاثة أوجه أحدها أن الكفار يحشرون صما كما يحشرون عميا زيادة في عذابهم وثانيها أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة وثالثها قال ابن مسعود إن الكفار يجعلون في توابيت من نار والتوابيت في توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئا والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف

إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولائك عنها مبعدون لا يسمعون حسيسها وهم فى ما اشتهت أنفسهم خالدون لا يحزنهم الفزع الاكبر وتتلقاهم الملائكة هاذا يومكم الذى كنتم توعدون

اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعري لما أورد ذلك السؤال على الرسول (صلى الله عليه وسلم) بقي ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لأن هذه الآية كالإستثناء من تلك الآية وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا أن سؤاله لم يكن واردا وأنه لا حاجة في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية وإذا ثبت هذا لم يبق ههنا إلا أحد أمرين

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ١١٩/٢٠

الأول أن يقال إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهي عامة في حق كل المؤمنين الثاني أن هذه الآية نزلت في تلك الواقعة لتكون كالتأكيد في دفع سؤال ابن الزبعري ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها لا أن." (١)

"المسألة الأولى قرىء وترى بالضم تقول أريتك قائما أو رأيتك قائما والناس بالنصب والرفع أما النصب فظاهر وأما الرفع فلأنه جعل الناس اسم ما لم يسم فاعله وأنثه على تأويل الجماعة وقرىء سكرى وسكارى وهو نظير جوعى وعطشى في جوعان وعطشان سكارى وسكارى نحو كسالى وعجالى وعن الأعمش سكرى وسكرى بالضم وهو غريب

المسألة الثانية المعنى وتراهم سكارى على التشبيه وما هم بسكارى على التحقيق ولكن ما أرهقهم من هول عذاب الله تعالى هو الذي أذهب عقولهم وطير تمييزهم وقال ابن عباس والحسن ونراهم سكارى من الخوف وما هم بسكارى من الشراب فإن قلت لم قيل أولا ترون ثم قيل ترى على الإفراد قلنا لأن الرؤية أولا علقت بالزلزلة فجعل الناس جميعا رائين لها وهي معلقة آخرا بكون الناس على حال من السكر فلا بد وأن يجعل كل واحد منهم رائيا لسائرهم

المسألة الثالثة إن قيل أتقولون إن شدة ذلك اليوم تحصل لكل أحد أو لأهل النار خاصة قلنا قال قوم إن الفزع الأكبر وغيره يختص بأهل النار وإن أهل الجنة يحشرون وهم آمنون وقيل بل يحصل للكل لأنه سبحانه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله وليس لأحد عليه حق

ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير

وفيه مسائل

المسألة الأولى في كيفية النظم وجهان الأول أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها ودعا الناس إلى تقوى الله ثم بين في هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا في الأول وأخبر عن مجادلتهم الثاني أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها **فإن من الناس من** يجادل في الله بغير علم ثم في قوله ومن الناس وجهان الأول أنهم الذين ينكرون البعث ويدل عليه قوله أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة (يس ٧٧) إلى آخر الآية وأيضا فإن ما قبل هذه الآية وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث والثاني أنها نزلت في النضر بن الحرث كان يكذب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما

المسألة الثانية هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله ما ضربوه لك إلا جدلا (الزخرف ٥٨) والمجادلة الحقة هي المراد من قوله وجادلهم بالتى هى أحسن (النحل ١٢٥)

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ١٩٥/٢٢

المسألة الثالثة في قوله ويتبع كل شيطان مريد قولان أحدهما يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس يقال صخرة مرداء أي ملساء ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز حد مثله

أما قوله كتب عليه ففيه وجهان أحدهما أن الكتبة عليه مثل أي كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله والثاني كتب عليه في أم الكتاب واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان يحتمل أن يكون راجعا إلى كل واحد منهما فإن رجع إلى من يجادل فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلا لهذا الوعيد فإن رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجرا عن اتباعه وفي الآية مسائل

المسألة الأولى قال القاضي عبد الجبار إذا قيل المراد بقوله كتب عليه قضى عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان لأنه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل ويجوز أن يقضي على من يقبله بقوله قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لانقلب خبر الله الصدق كذبا وذلك محال ومستلزم المحال محال فكان لا وقوعه محالا

المسألة الثانية دلت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب فيدل على أن المعارف ليست ضرورية

المسألة الثالثة قال القاضي فيه دلالة على أن المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته وإلا لما كانت مضافة إلى اتباع الشيطان وكان لا يصح القول بأن الشيطان يضله بل كان الله تعالى قد أضله." (١)

"جلدا لم يجز إقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض أما الرجم ففيه مسائل

المسألة الأولى قال الشافعي رحمه الله ومالك رحمه الله يجوز للإمام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور وقال أبو حنيفة رحمه الله إن ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدأوا بالرجم ثم الإمام ثم الناس وإن ثبت بإقرار بدأ الإمام ثم الناس حجة الشافعي رحمه الله أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما

المسألة الثانية إن ثبت الزنا بإقراره فمتى رجع ترك وقع به بعض الحد أو لم يقع وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد وإسحق وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه وعن مالك رحمه الله روايتان

حجة القول الأول أن ماعزا لما مسته الحجارة وهرب فقال عليه السلام (هلا تركتموه)

المسألة الثالثة يحفر للمرأة إلى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى إليها ولا يحفر للرجل لما روى أبو سعيد الخدري (أن ماعزا أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله إني أصبت فاحشة فأقم على الحد فرده النبي عليه

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٦/٢٣

السلام مرارا ثم سأل قومه فقالوا لا نعلم به بأسا فأمرنا أن نرجمه فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكن) وجه الاستدلال أنه قال (فما أوثقناه ولا حفرنا له) ولأنه هرب ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك

المسألة الرابعة إذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين فهذا ما أردنا ذكره من بيان الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية

أما المباحث العقلية فاعلم أن من الناس من قال لا شك أن البدن مركب من أجزاء كثيرة فإما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الأجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة والثاني محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين الأول وإذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة وإذا ثبت هذا فنقول الزاني هو الفرج لا الظهر فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر ولأنه ربما كان الإنسان حال إقدامه على الزنا عجيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز إيلام تلك الأجزاء الزائدة مع أنها كانت بريئة عن فعل الزنا فإن قال قائل هذا مدفوع من وجهين الأول وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال بل الحياة والعلم والقدرة تقوم بالجزء الواحد ثم توجب حكم الحيية والعالمية والقادرية لمجموع الأجزاء فيكون المجموع حيا واحدا عالما واحدا قادرا واحدا وعلى هذا التقدير يزول السؤال الثاني أن يقال الذي هو الفاعل والمحرك والمدرك شيء ليس بجسم ولا جسماني وإنما هو مدبر لهذا البدن وعلى هذا التقدير أيضا يزول السؤال والجواب أما الأول فضعيف وذلك لأن العلم إذا قام بجزء واحد فإما أن يحصل بمجموع الأجزاء عالمية واحدة فيلزم قيام الصفة الواحدة بالمحال الكثيرة وهو محال أو يقوم بكل جزء عالمية على حدة فيعود المحذور المذكور وأما الثاني ففي نهاية البعد لأنه إذا كان الفاعل للقبيح هو ذلك المباين فلم يضرب هذا الجسد واعلم أن المقصود من أحكام الشرع رعاية المصالح ونحن نعلم أن." (١)

"عليه فلا جرم تعرف أن النور معنى غير اللون يدرك مع الألوان إلا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك ولشدة ظهوره يختفي وقد يكون الظهور سبب الخفاء إذا عرفت هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شيء لا يفارقه ولكن بقي ههنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس ويحجب فحينئذ يظهر أنه غير اللون وأما النور الإلهي الذي به يظهر كل شيء لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الأشياء دائما فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة ولو تصورت غيبته لانهدمت السموات والأرض ولأدرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها وأن كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات ارتفعت التفرقة وخفي الطريق إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد فما لا ضد له ولا تغير له بتشابه أحواله فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره واحتجب عنهم بإشراق نوره واعلم أن هذا الكلام

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٢٩/٢٣

الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلام مستطاب ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق إلى أن معنى كونه سبحانه نورا أنه خالق للعالم وأنه خالق للقوى الدراكة وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والأرض أنه هادي أهل السموات والأرض فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى والله أعلم

الفصل الثاني في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام (إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره) وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفا فأقول لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى متجل في ذاته لذاته كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا إما بحجاب مركب من نور وظلمة وإما بحجاب مركب من نور فقط أو بحجاب مركب من ظلمة فقط أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم وإنما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات إلى جانب النور كان حجابه محض الظلمة ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر

القسم الثاني المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة

اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فإما أن يعتقد فيها أنها غنية عن المؤثر أو يعتقد فيها أنها محتاجة فإن اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة أما النور فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور وأما فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة ثم أصناف هذا القسم كثيرة **فإن من الناس من** يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها إلى حركات الأفلاك أو إلى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم." (١)

"والنبي عليه الصلاة والسلام كان هادي كل مهتد

أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السمآء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السمآء إن فى ذلك لاية لكل عبد منيب

ثم قال تعالى أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والارض إن نشأ نخسف بهم الارض أو نسقط عليهم لما ذكر الدليل بكونه عالم الغيب وكونه جازيا على السيئات والحسنات ذكر دليلا آخر وذكر فيه تهديدا أما الدليل فقوله من السماء والارض فإنهما يدلان على الوحدانية كما بيناه مرارا وكما قال تعالى ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله (لقمان ٢٥) ويدلان على الحشر لأنهما يدلان على كمال قدرته ومنها الإعادة وقد ذكرناه مرارا وقال تعالى أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم (ي س ٨١) وأما التهديد فبقوله إن نشأ نخسف

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٢٠١/٢٣

بهم الارض يعني نجعل عين نافعهم ضارهم بالخسف والكسف

ثم قال تعالى إن فى ذلك لاية لكل عبد منيب أي لكل من يرجع إلى الله ويترك التعصب ثم إن الله تعالى لما ذكر من ينيب من عباده ذكر منهم من أناب وأصاب ومن جملتهم داود كما قال تعالى عنه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب (ص ٢٤) وبين ما أتاه الله على إنابته فقال

ولقد ءاتينا داوود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد

وفي الآية مسائل

المسألة الأولى قوله تعالى منا إشارة إلى بيان فضيلة داود عليه السلام وتقريره هو أن قوله ولقد ءاتينا داوود منا فضلا مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل آتي الملك زيدا خلعة فإذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض ومثل هذا قوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان (التوبة ٢١) فإن رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال يبشرهم ربهم برحمة منه

المسألة الثانية في قوله فضلا ياجبال أوبى معه قال الزمخشري من جبال بدل من قوله فضلا معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال

المسألة الثالثة قرىء أوبي بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبي من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع وقيل بأن معناه سيرى معه وفي قوله يسبحن قالوا هو من السباحة وهي الحركة المخصوصة

المسألة الرابعة قرىء والطير بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه

المسألة الخامسة لم يكن الموافق له في التأويب منحصرا في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال لأن الصخور للجمود والطير للنفور تستبعد منهما الموافقة فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ثم **إن من الناس من** لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة

المسألة السادسة قوله وألنا له الحديد عطف والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله يا جبال تقديره قلنا من جبال أوبي وألنا ويحتمل أن يكون عطفا على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له." (١)

"حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات فلهذا قال أليس الله بكاف عبده ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال ويخوفونك بالذين من دونه يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا قرأ أكثر القراء عبده بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له ويخوفونك روي أن قريشا قالت للنبي (صلى الله عليه وسلم) إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا فأنزل الله تعالى هذه الآية وقرأ جماعة عباده بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحا كفاه الغرق وإبراهيم النار ويونس بالإنجاء مما وقع له فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك وقيل أمم الأنبياء

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٢١٢/٢٥

قصدوهم بالسوء لقوله تعالى وهمت كل أمة برسولهم (غافر ٥) وكفاهم الله شر من عاداهم

واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل يعني هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله أليس الله بعزيز ذى انتقام تهديد للكفار

واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله أليس الله بعزيز ذى انتقام ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به

ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون قل ياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم

اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام وبنى هذا التزييف على أصلين

الأصل الأول هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله واعلم **أن من الناس من** قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا." (١)

"والنماء وهو المسمى بالطفولية والمرتبة الثانية أن يبلغ إلى كمال النشوء وإلى أشد السن من غير أن يكون قد حصل فيه نوع من أنواع الضعف والنقص وهذه المرتبة هي المراد من قوله ثم لتكونوا شيوخا وإذا عرفت هذا التقسيم عرفت أن مراتب العمر بحسب هذا التفسيم لا تزيد على هذه الثلاثة قال صاحب الكشاف) قوله لتبلغوا أشدكم متعلق بفعل محذوف تقديره ثم يبقيكم لتبلغوا

ثم قال ومنكم من يتوفى من قبل أي من قبل الشيخوخة أو من قبل هذه الأحوال إذا خرج سقطا

ثم قال ولتبلغوا أجلا مسمى ومعناه يفعل ذلك لتبلغوا أجلا مسمى وهو وقت الموت وقيل يوم القيامة

ثم قال ولعلكم تعقلون ما في هذه الأحوال العجيبة من أنواع العبر وأقسام الدلائل

هو الذى يحى ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون

اعلم أنه تعالى لما ذكر انتقال الإنسان من كونه ترابا إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة ثم إلى كونه طفلا ثم إلى بلوغ الأشد ثم إلى الشيخوخة واستدل بهذه التغيرات على وجود الإله القادر قال بعده هو الذى لا إله يعني كما أن الأتنقال من صفة إلى صفة أخرى من الصفات التي تقدم ذكرها يدل على الإله القادر فكذلك الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس يدل على الإله القادر وقوله فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون فيه وجوه الأول معناه أنه لما نقل هذه

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٢٦/٢٤٥

الأجسام من بعض هذه الصفات إلى صفة أخرى لم يتعب في ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة فعبر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال دكن فيكون الوجه الثاني أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقول الوجه الثاني أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقول كن فيكون فكأنه قيل الإنتقال من كونه ترابا إلى كونه نطفة ثم إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدرج قليلا قليلا وأما صيرورة الحياة فهي إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله كن فيكون الوجه الثالث **أن من الناس من** يقول إن تكون الإنسان إنما ينعقد من المني والدم في الرحم في مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات فكأنه قيل إنه يتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر لأن التسلسل محال ووقوع الحادث في الأزل محال فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس فحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم بل بإيجاد الله تعالى ابتداء فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله كن فيكون." (١)

"فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذآ أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فدآء حتى تضع الحرب أوزارها ذالك ولو يشآء الله لانتصر منهم ولاكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم

ثم قال تعالى فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم وفيه مسائل

المسألة الأولى الفاء في قوله فإذا لقيتم يستدعي متعلقا يتعلق به ويترتب عليه فما وجه التعلق بما قبله نقول هو من وجوه الأول لما بين أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه فإذا لقيتم بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم فاضربوا أعناقهم الثاني إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب فإذا لقيتموهم فاقتلوهم الثالث **أن من الناس من** يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان فيقال ردا عليهم لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل

المسألة الثانية فضرب منصوب على المصدر أي فاضربوا ضرب الرقاب

المسألة الثالثة ما الحكمة في اختيار ضرب الرقبة على غيرها من الأعضاء نقول فيه لما بين أن المؤمن ليس يدافع إنما هو دافع وذلك أن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله بل يتدرج ويضرب على غير المقتل فإن اندفع فذاك ولا يترقى إلى درجة الإهلاك فقال تعالى ليس المقصود إلا دفعهم عن وجه الأرض وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجد والمشركون نجس والمسجد يطهر من النجاسة فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل والرقبة أظهر المقاتل لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت لكن في الحرب لا يتهيأ ذلك والرقبة ظاهرة في الحرب ففي ضربها حز العنق وهو مستلزم للموت بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحرب وفي قوله لقيتم ما ينبىء

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٧٥/٢٧

عن مخالفتهم الصائل لأن قوله لقيتم يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا لقيكم ولذلك قال في غير هذا الموضع واقتلوهم حيث ثقفتموهم (البقرة ١٩١)

المسألة الرابعة قال ههنا ضرب الرقاب بإظهار المصدر وترك الفعل وقال في الأنفال فاضربوا فوق الاعناق (الأنفال ١٢) بإظهار الفعل وترك المصدر فهل فيه فائدة نقول نعم ولنبينها بتقديم مقدمة وهي أن المقصود أولا في بعض السور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنا إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا ويقع منه المصدر في الوجود وقد يكون المقصود أولا المصدر ولكنه لا يوجد إلا من فاعل فيطلب منه أن يفعل مثاله من قال إني حلفت أن أخرج من المدينة فيقال له فاخرج صار المقصود منه صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الانتفاء ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان." (١)

"انهزام لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضا وهذا يثير الفتن وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى قوله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح وكان في نفس المؤمنين أن لا يرجعوا إلا بأحد الثلاثة بالنحر في المنحر وأبوا أن لا يكتبوا محمدا رسول الله وبسم الله فلما سكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) سكن المؤمنون وقوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى فيه وجوه أظهرها أنه قول لا إلاه إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه وقيل هي الوفاء بالعهد إلى غير ذلك ونحن نوضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول وألزمهم يحتمل أن يكون عائدا إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين جميعا يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى ويحتمل أن يكون عائدا إلى المؤمنين فحسب فإن قلنا إنه عائد إليهما جميعا نقول هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي (صلى الله عليه وسلم) ياأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين (الأحزاب ١) وقال للمؤمنين مستقيم ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته (آل عمران ١٠٢) والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله كما قال في حق النبي (صلى الله عليه وسلم) اتق الله ولا تطع الكافرين وقال تعالى وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه (الأحزاب ٧٧) ثم بين له حال من صدقه بقوله الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله (الأحزاب ٣٩) أما في حق المؤمنين فقال مستقيم ياأيها الذين ءامنوا اتقوا الله حق تقاته وقال فلا تخشوهم واخشونى (البقرة ١٥٠) وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا (الحشر ٧) ألا ترى إلى قوله واتقوا الله (الحجرات ١) وهو قوله تعالى عظيما ياأيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله وفي معنى قوله تعالى وألزمهم كلمة التقوى على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال (اتقوا) يكون الأمر واردا ثم **إن من الناس من** يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه فكأنه قال تعالى وألزمهم كلمة التقوى وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملا ولكنه أقرب إلى الكلمة وعلى

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٣٨/٢٨

هذا فقوله وكانوا أحق بها وأهلها معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه وذلك لأن قوله تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم (الحجرات ١٣) يحتمل وجهين أحدهما أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر والثاني أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى كما في قوله (والمخلصون على خطر عظيم) وقوله تعالى هم من خشية ربهم مشفقون (المؤمنون ٥٧) وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله وكانوا أحق بها لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى إنما يخشى الله من عباده العلماء (فاطر ٢٨) وقوله وأهلها يحتمل وجهين أحدهما أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحانا على الكافرين إن لم يثبت الأهلية كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق إذا كان ولا بد فهذا أحق كما يقال الحبس أهون من القتل مع أنه لاهين هناك فقال وأهلها دفعا لذلك الثاني وهو أقوى وهو أن يقال قوله تعالى وأهلها فيه وجوه نبينها بعد ما نبين معنى الأحق فنقول هو يحتمل وجهين أحدهما أن يكون الأحق بمعنى الحق لا للتفضيل كما في قوله تعالى خير مقاما وأحسن نديا." (١)

"والشرب وبعض العارفين يقولون لخاصة الله بالله شغل شاغل عن الأكل والشرب وكل ما سوى الله نقول هذا على العمل ولهذا قال تعالى جزاء بما كانوا يعملون (الواقعة ٢٤) وقال بما كنتم تعملون (الطور ١٦) وأما على العلم بذلك فذلك ولهذا قال لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم أي للنفوس ما تتفكه به وللأرواح ما تتمناه من القربة والزلفى

يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم

وقوله تعالى يتنازعون فيها كأسا فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب وقوله تعالى يتنازعون أي يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبا أن يشرب مثل ما شربه حريفه ولا يرى واجبا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه

وقوله تعالى لا لغو فيها ولا تأثيم وسواء قلنا فيها عائدة إلى الجنة أو إلى الكأس فذكرهما لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا فقال تعالى ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثيم الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم وفيه وجه ثالث وهو أن يقال لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم أي لا ينسب إلى إثم وفيه وجه رابع وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك لأن من الناس من يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع إلى من هذى ومنهم من يعربد فقال لا لغو فيها

ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٢٨/٨٩

أي بالكؤوس وقال تعالى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين (الواقعة ١٧ ١٨) وقوله لهم أي ملكهم إعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجها آخر وهو أنه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمخض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد وقوله تعالى كأنهم لؤلؤ أي في الصفاء و مكنون ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم." (١)

"فمن سمى غيره إلها فهو كمن يستعمل في مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كان علمين لغيره قبله في أنه جائز لأن من سمى ابنه أحمد لم يكن له من الأمر المطاع ما يمنع الغير عن التسمية به ولم يكن له الاحتجار وأخذ الاسم لنفسه أو لولده بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسما لا يستجرىء أحد ممن تحت ولايته ما دام له الملك أن يسمى ولده أو نفسه بذلك الاسم خصوصا من يكون مملوكا لا يمكنه أن يسمي نفسه باسم الملك ولا أن يسمي ولده به والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره فإذا استأثر لنفسه اسما لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم فمن يسمى فقد تعدى فالمشركون في التسمية متعدون وفي المعنى ضالون وإما أن نقول إله أو لاه اسم لمن يعبد والألف واللام للتعريف ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم فإن قيل فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغي أن يجوز قلنا لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علما فإن قيل تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ في اللفظ الذكرى لا يفضي إلى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولا يجوز تسميته بالخالق والقديم لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التي بها بقاء الخلق أو العدم فلا يجوز لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الألف واللام علم ليس بحق إذا عرفت البحث في الله فما يترتب عليه وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه وتجويز يا الرحمن أضعف من الكل

البحث الثاني الله والرحمن في حق الله تعالى كالاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول كما في قولنا عمر الفاروق وعلى المرتضى وموسى الرضا وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرفة لهم التي كانت لهم وصفا وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعلم فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى كما أن لتلك الأوصاف اختصاصا بأولئك غير أن في تلك الأسماء والأوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس في الاقتدار والعظمة ولا يجوز في حق الله تعالى فإن قيل **إن من الناس من** أطلق لفظ الرحمن على اليمامي نقول هو كما **أن من الناس من** أطلق لفظ الإله على غير الله تعديا وكفرا نظرا إلى جوازه لغة وهو اعتقاد باطل

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٢١٨/٢٨

البحث الثالث لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة فالسابقة هي التي بها خلق الخلق واللاحقة هي التي أعطى بها الخلق بعد إيجاده إياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك فهو تعالى بالنظر إلى الرحمة السابقة رحمن وبالنظر إلى اللاحقة رحيم ولهذا يقال يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة فهو رحمن لأنه خلق الخلق أولا برحمته فلما لم يوجد في غيره هذه الرحمة ولم يخلق أحد حدا لم يجز أن يقال لغيره رحمن ولما تخلق الصالحون من عباده ببعض أخلاقه على قدر الطاقة البشرية وأطعم الجائع وكسا العاري وجد شيء من الرحمة اللاحقة التي بها الرزق والإعانة فجاز أن يقال له رحيم وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة غير أنا أردنا أن يصير ما ذكرنا مضموما إلى ما ذكرناه هناك فأعدناه ههنا لأن هذا كله كالتفصيل لما ذكرناه في الفاتحة." (١)

"(يوسف ٨٧) أي من رحمة الله الثاني الراحة الثالث الفرح وأصل الروح السعة ومنه الروح لسعة ما بين الرجلين دون الفحج وقرىء فروح بضم الراء بمعنى الرحمة

المسألة الثانية في الكلام إضمار تقديره فله روح أفصحت الفاء عنه لكونه فاء الجزاء لربط الجملة بالشرط فعلم كونها جزاء وكذلك إذا كان أمرا أو نهيا أو ماضيا لأن الجزاء إذا كان مستقبلا يعلم كونه جزاء بالجزم الظاهر في السمع والخط وهذه الأشياء التي ذكرت لا تحتمل الجزم أما غير الأمر والنهي فظاهر وأما الأمر والنهي فلأن الجزم فيهما ليس لكونهما جزاءين فلا علامة للجزاء فيه فاختاروا الفاء فإنها لترتيب أمر على أمر والجزاء مرتب على الشرط

المسألة الثالثة في الريحان وقد تقدم تفسيره في قوله تعالى ذو العصف والريحان (الرحمن ١٢) ولكن ههنا فيه كلام فمنهم من قال المراد ههنا ما هو المراد ثمة إما الورق وإما الزهر وإما النبات المعروف وعلى هذا فقد قيل إن أرواح أهل الجنة لا تخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليهم بريحان من الجنة يشمونه وقيل إن المراد ههنا غير ذلك وهو الخلود وقيل هو رضاء الله تعالى عنهم فإذا قلنا الروح هو الرحمة فالآية كقوله تعالى يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم (التوبة ٢١) وأما جنة نعيم فقد تقدم القول فيها عند تفسير السابقين في قوله أولئك المقربون في جنات النعيم (الواقعة ١١ ١٢) وذكرنا فائدة التعريف هناك وفائدة التنكير ههنا

المسألة الرابعة ذكر في حق المقربين أمورا ثلاثة ههنا وفي قوله تعالى يبشرهم ربهم (التوبة ٢١) وذلك لأنهم أتوا بأمور ثلاثة وهي عقيدة حقة وكلمة طيبة وأعمال حسنة فالقلب واللسان والجوارح كلها كانت مرتبة برحمة الله على عقيدته وكل من له عقيدة حقة يرحمه الله ويرزقه الله دائما وعلى الكلمة الطيبة وهي كلمة الشهادة وكل من قال لا إله إلا الله فله رزق كريم والجنة له على أعماله الصالحة قال تعالى إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله (التوبة ١١١) وقال ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى (النازعات ٤٠ ٤١) فإن قيل فعلى هذا من أتى بالعقيدة الحقة ولم يأت بالكلمة الطيبة ينبغي أن يكون من أهل الرحمة ولا يرحم الله إلا من قال لا إله إلا الله نقول من كانت عقيدته حقة لا بد وأن يأتي بالقول الطيب فإن لم يسمع لا يحكم به لأن العقيدة لا اطلاع لنا عليها فالقول دليل لنا وأما الله تعالى فهو عالم الأسرار ولهذا ورد في الأخبار **أن من الناس من** يدفن في مقابر الكفار ويحشر

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٧٤/٢٩

مع المؤمنين ومنهم من يدفن في مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار لا يقال إن من لا يعمل الأعمال الصالحة لا تكون له الجنة على ما ذكرت لأنا نقول الجواب عنه من وجهين أحدهما أن عقيدته الحقة وكلمته الطيبة لا يتركانه بلا عمل فهذا أمر غير واقع وفرض غير جائز وثانيهما أنا نقول من حيث الجزاء وأما من قال لا إله إلا الله فيدخل الجنة وإن لم يعمل عملا لا على وجه الجزاء بل بمحض فضل الله من غير جزاء وإن كان الجزاء أيضا من الفضل لكن من الفضل ما يكون كالصدقة المبتدأة ومن الفضل مالا كما يعطي الملك الكريم آخر والمهدي إليه غيرملك لا يستحق هديته ولا رزقه." (١)

"الريح عتت على عاد فما قدروا على ردها بحيلة من استتار ببناء أو (استناد إلى جبل) فإنها كانت تنزعهم من مكامنهم وتهلكهم القول الثالث أن هذا ليس من العتو الذي هو عصيان إنما هو بلوغ الشيء وانتهاؤه ومنه قولهم عتا النبت أي بلغ منتهاه وجف قال تعالى وقد بلغت من الكبر عتيا (مريم ٨) فعاتية أي بالغة منتهاها في القوة والشدة سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية

قوله تعالى سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما قال مقاتل سلطها عليهم وقال الزجاج أقلعها عليهم وقال آخرون أرسلها عليهم هذه هي الألفاظ المنقولة عن المفسرين وعندي أن فيه لطيفة وذلك **لأن من الناس من** قال إن تلك الرياح إنما اشتدت لأن اتصالا فلكيا نجوميا اقتضى ذلك فقوله سخرها فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب وبيان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب وقوله سبع ليال وثمانية أيام حسوما الفائدة فيه أنه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوما فلما قال سبع ليال وثمانية أيام صار مقدار هذا الزمان معلوما ثم لما كان يمكن أن يظن ظان أن ذلك العذاب كان متفرقا في هذه المدة أزال هذا الظن بقوله حسوما أي متتابعة متوالية واختلفوا في الحسوم على وجوه أحدها وهو قول الأكثرين (حسوما) أي متتابعة أي هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح المهلكة فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع وعلى هذا القول حسوم جمع حاسم كشهود وقعود ومعنى هذا الحسم في اللغة القطع بالاستئصال وسمي السيف حساما لأنه يحسم العدو عما يريد من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أتت عليهم أشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم في إعادة الكي على الداء كرة بعد أخرى حتى ينحسم وثانيها أن الرياح حسمت كل خير واستأصلت كل بركة فكانت حسوما أو حسمتهم فلم يبق منهم أحد فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم وثالثها أن يكون الحسوم مصدرا كالشكور والكفور وعلى هذا التقدير فإما أن ينتصب بفعله مضمرا والتقدير يحسم حسوما يعني استأصل استئصالا أو يكون صفة كقولك ذات حسوم أو يكون مفعولا له أي سخرها عليهم للاستئصال وقرأ السدي حسوما بالفتح حالا من الريح أي سخرها عليهم مستأصلة وقيل هي أيام العجوز وإنما سميت بأيام العجوز لأن عجوزا من عاد توارت في سرب فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها وقيل هي أيام العجز وهي آخر الشتاء

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٧٥/٢٩

قوله تعالى فترى القوم فيها صرعى أي في مهابها وقال آخرون أي في تلك الليالي والأيام صرعى جمع صريع قال مقاتل يعني موتى يريد أنهم صرعوا بموتهم فهم مصرعون صرع الموت." (١)

"الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها ثم قال تعالى

وإلى السمآء كيف رفعت

أي رفعا بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد

وإلى الجبال كيف نصبت

نصبا ثابتا فهي راسخة لا تميل ولا تزول

وإلى الأرض كيف سطحت

سطحا بتمهيد وتوطئة فهي مهاد للمتقلب عليها ومن الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة وهو ضعيف لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح وقرأ علي عليه السلام كيف خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وتاء الضمير والتقدير فعلتها فحذف المفعول

المقام الثاني في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب قال صاحب (الكشاف) ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل في كثير من أشعارهم فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين الأول أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرا لأن بلدتهم بلدة خالية من الزرع وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها في المهامة والقفار مستوحشين منفردين عن الناس ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء لأنه ليس معه من يحادثه وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه فيرى منظرا عجيبا وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء وإذا نظر يمينا وشمالا لم ير غير الجبال وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئا سوى هذه الأشياء فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية الوجه الثاني أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين منها ما يكون للحكمة وللشهوة فيها نصيب معا ومنها ما يكون للحكمة فيها نصيب وليس للشهوة فيها نصيب

والقسم الأول كالإنسان الحسن الوجه والبساتين النزهة والذهب والفضة وغيرها فهذه الأشياء يمكن الاستدلال بها على

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٩٢/٣٠

الصانع الحكيم إلا أنها متعلق الشهوة ومطلوبة للنفس فلم يأمر تعالى بالنظر فيها لأنه لم يؤمن عند النظر إليها وفيها أن تصير داعية الشهوة غالبة على داعية الحكمة فيصير ذلك مانعا عن إتمام النظر والفكر وسببا لاستغراق النفس في محبته." (١)

"وثالثها أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم فههنا في الدنيا إن اشتغلت بعبادتي نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسلم والزيارة روى عن علي عليه السلام (أنهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن أصابته التسليمة غفر له ذنبه) ورابعها أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعاتهم أكثر ثوابا كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثوابا وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة وخامسها أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكابر من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلوة فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد وسادسها أن من الناس من خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك ساجد أو قائم يدعو للمؤمنين والمؤمنات وجبريل لا يدع أحدا من الناس إلا صافحهم وعلامة ذلك من اقشعر جلده ورق قلبه ودمعت عيناه فإن ذلك من مصافحة جبريل عليه السلام من قال فيها ثلاث مرات لا إله إلا الله غفر له بواحدة ونجاه من النار بواحدة وأدخله الجنة بواحدة وأول من يصعد جبريل حتى يصير أمام الشمس فيبسط جناحين أخضرين لا ينشرهما إلا تلك الساعة من تلك الليلة ثم يدعو ملكا ملكا فيصعد الكل ويجتمع نور الملائكة ونور جناح جبريل عليه السلام فيقيم جبريل ومن معه من الملائكة بين الشمس وسماء الدنيا يومهم ذلك مشغولين بالدعاء والرحمة والاستغفار للمؤمنين ولمن صام رمضان احتسابا فإذا أمسوا دخلوا سماء الدنيا فيجلسون حلقا حلقا فتجمع إليهم ملائكة السماء فيسألونهم عن رجل رجل وعن امرأة امرأة حتى يقولوا ما فعل فلان وكيف وجدتموه فيقولون وجدناه عام أول متعبدا وفي هذا العام مبتدعا وفلان كان عام أول مبتدعا وهذا العام متعبدا فيكفون عن الدعاء للأول ويشتغلون بالدعاء للثاني ووجدنا فلانا تاليا وفلانا راكعا وفلانا ساجدا فهم كذلك يومهم وليلتهم حتى يصعدوا السماء الثانية وهكذا يفعلون في كل سماء حتى ينتهوا إلى السدرة فتقول لهم السدرة يا سكاني حدثوني عن الناس فإن لي عليكم حقا وإني أحب من أحب الله فذكر كعب أنهم يعدون لها الرجل والمرأة بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم يصل ذلك الخبر إلى الجنة فتقول الجنة اللهم عجلهم إلي والملائكة وأهل السدرة يقولون آمين آمين إذا عرفت هذا فنقول كلما كان الجمع أعظم كان نزول الرحمة هناك أكثر ولذلك فإن أعظم الجموع في موثق الحج لا جرم كان نزول الرحمة هناك أكثر فكذا في ليلة القدر يحصل مجمع الملائكة المقربين فلا جرم كان نزل الرحمة أكثر

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ١٤٤/٣١

المسألة الثالثة ذكروا في الروح أقوالا أحدها أنه ملك عظيم لو التقم السموات والأرضين كان ذلك له لقمة واحدة وثانيها طائفة من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا ليلة القدر كالزهاد الذين لا نراهم إلا يوم العيد وثالثها خلق من خلق الله يأكلون ويلبسون ليسوا من الملائكة ولا من الإنس ولعلهم خدم أهل الجنة ورابعها يحتمل أنه عيسى عليه السلام لأنه اسمه ثم إنه ينزل في مواقفة الملائك ليطلع على أمة محمد وخامسها أنه القرآن وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا وسادسها الرحمة." (١)

"الخيل أبابيل أبابيل من ههنا وههنا وهل لهذه اللفظة واحد أم لا فيه قولان الأول وهو قول الأخفش والفراء أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد لا وحد لها والثاني أنه له واحد ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه أحدها زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأمونا أنه سمع واحدها إبالة وفي أمثالهم ضغث على إبالة وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بالإبالة وثانيها قال الكسائي كنت أسمع النحويين يقولون إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل وثالثها قال الفراء ولو قال قائل واحد الأبابيل إيبالة كان صوابا كما قال دينار ودنانير

السؤال الثالث ما صفة تلك الطير الجواب روى ابن سيرين عن ابن عباس قال كانت طيرا لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكل كأكف الكلاب وروى عطاء عنه قال طير سود جاءت من قبل البحر فوجا فوجا ولعل السبب أنها أرسلت إلى قوم كان في صورتهم سواد اللون وفي سرهم سواد الكفر والمعصية وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهزمت بها والبياض ضد السواد وقيل كانت خضرا ولها رءوس مثل رءوس السباع وأقول إنها لما كانت أفواجا فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف ما رأى وقيل كانت بلقاء كالخطاطيف

ترميهم بحجارة من سجيل

ثم قال تعالى ترميهم بحجارة من سجيل وفيه مسائل

المسألة الأولى قرأ أبو حيوة يرميهم أي الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر وإنما يؤنث على المعنى

المسألة الثانية ذكروا في كيفية الرمي وجوها أحدها قال مقاتل كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار واحد في منقاره واثنان في رجليه يقتل كل واحد رجلا مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر وإن وقع على رأسه خرج من دبره وثانيها روى عكرمة عن ابن عباس قال لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري وهو قول سعيد بن جبير وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة وأكبرها مثل الحمصة

واعلم **أن من الناس من** أنكر ذلك وقال لو جوزناأن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليا عن الثقل وأن يكون في ومن التينة وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس وكل ذلك محال واعلم أن ذلك جائز على

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب . موافق للمطبوع، ٣٣/٣٢

مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع
المسألة الثالثة ذكروا في السجيل وجوها أحدها أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار كما أن سجينا علم لديوان أعمالهم كأنه قيل بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال ومنه السجل الدلو المملوء ماء وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم." (١)

"المسألة السادسة كان الأليق في الظاهر أن يقول إن أعطيناك الكوثر فصل لنا وانحر لكنه ترك ذلك إلى قوله فصل لربك لفوائد إحداها أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة وثانيها أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم يأمرك أمير المؤمنين وينهاك أمير المؤمنين وثالثها أن قوله إنا أعطيناك ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره وأيضا كلمة إنا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه فلو قال صل لنا لنفي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك فلهذا ترك اللفظ وقال فصل لربك ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى
المسألة السابعة قوله فصل لربك أبلغ من قوله فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله إنا أعطيناك الكوثر ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه
المسألة الثامنة في الآية سؤالان أحدهما أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة فلم كان المذكور ههنا هو النحر والثاني لما لم يقل ضحي حتى يشمل جميع أنواع الضحايا والجواب عن الأول أما على قول من قال المراد من الصلاة صلاة العيد فالأمر ظاهر فيه وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة فلوجوه أحدها أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان فقيل له اجعلهما لله وثانيها **أن من الناس من** قال إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه شيء من الدنيا بل كان يملك بقدر الحاجة فلا جرم لم تجب الزكاة عليه أما النحر فقد كان واجبا عليه لقوله (ثلاث كتبت علي ولم تكتب على أمتي الضحى والأضحى والوتر) وثالثها أن أعز الأموال عند العرب هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيها على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها روى أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا ثم أمر عليا عليه السلام بذلك وكانت النوق يزدحمن على رسول الله فلما أخذ على السكين تباعدت منه والجواب عن الثاني أن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا وأيضا فيه إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل
المسألة التاسعة دلت الآية على وجوب تقديم الصلاة على النحر لا لأن الواو توجب الترتيب بل لقوله عليه السلام (ابدؤا بمابدأ الله به)
المسألة العاشرة السورة مكية في أصح الأقوال وكان الأمر بالنحر جاريا مجرى البشارة بحصول الدولة وزوال الفقر والخوف إن شانئك هو الا بتر

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ٩٥/٣٢

قوله تعالى إن شانئك هو الابتر وفي الآية مسائل

المسألة الأولى ذكروا في سبب النزول وجوها أحدها أنه عليه السلام كان يخرج من المسجد والعاص بن وائل السهمي يدخل فالتقيا فتحدثا وصناديد قريش في المسجد فلما دخل قالوا من الذي كنت." (١)

"

وعندما تسمع كلمة ﴿ إنما ﴾ فافهم أنه يراد بها القصر، فإن قلت " إنما الرجل زيد، أي: أنك قصرت الرجولة على زيد. وإن قلت: إنما الكريم حاتم، تكون قد قصرت الكرم على حاتم. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إنما الصدقات ﴾ معناها: أن الصدقات محصورة في هؤلاء ولا تتعداهم.

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة؟ وما المراد هنا بالصدقة؟ هل هي صدقة التطوع أو الزكاة؟

نقول: ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهي الزكاة، ولسائل أن يسأل: لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة؟

ونقول: ألا ترى – في المجتمعات غير الإيمانية الملحدة – **أن من الناس من** يكفرون في إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزي خلقه الله فينا جميعا، ولذلك كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان. وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة؛ لأنها تأتي تطوعا من غير المؤمن وغير الملتزم بالتشريع، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطي لغير القادر، وعي غريزة وضعها الله في خلقه ليخفف من الشقاء في الكون.

وهنا يقول الحق: ﴿ إنما الصدقات للفقرآء والمساكين ﴾ وقد احتار العلماء في ذلك، فقال بعضهم: إن الفقير هو الذي لا يجد شيئا فهو معدم. والمسكين هو من يملك شيئا ولكنه لا يكفيه، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالا من الفقير، واستندوا في ذلك إلى نص قرآني في قوله تعالى:﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر... ﴾[الكهف: ٧٩]

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شيء يملكونه. ولكن العائد الذي تأتي به السفينة لا يكفيهم.

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك، ورأوا أن المسكين هو من لا يملك شيئا مطلقا، والفقير هو الذي يجد الكفاف. وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالا من المسكين، ولا أعتقد أن الدخول في هذا الجدل له فائدة؛ لأن الله أعطى الاثنين.. الفقير والمسكين. وكلمة " فقير " معناها الذي أتعبت الحياة فقار ظهره أي فقرات ظهره، وحاله يغني للتعبير عنه، والمسكين هو الذي أذهلته المسكنة.

ثم يأتي بعد ذلك: ﴿ والعاملين عليها ﴾ أي: الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها في بيت المال، ونلاحظ هنا أن ﴿ والعاملين عليها ﴾ جاءت مطلقة؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة من كان يجمعها

---

(١) تفسير الرازي: مفاتيح الغيب ـ موافق للمطبوع، ١٢٣/٣٢

وهو فقير، أو من كان يجمعها وهو غير محتاج. ونقول: إن جمع الصدقة عمل، ولو قلنا: إن غير المحتاج ويعمل في جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجرا، هنا يصبح عمله لونا من التفضل، وما دام العمل تفضلا فلن يكون بنفس الكفاءة التي يعمل بها، إذا كان العمل بالأجر.

وأيضا حتى لا يحرم المجتمع من جامع صدقة ذكي نشيط؛ لأنه غير محتاج، ولكن نعطيه أجرا ليكون مسئولا عن عمله، والمسئولية لا تأتي إلا إذا ارتبطت بالأجر.

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالي الذي يوزعها. وفي هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله. خصوصا إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد، ولا يذلك أحد أمام أحد، وفي هذا حفظ لكرتمة المؤمنين؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعاني من انكساره يده السفلى.

ومن يعطي لغير بيت المال قد يكون في عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غني ليأخذ منه الصدقة ويصاب بالذلة والانكسار. ولا يرى أولاد الغني هذا الفقير وهو يأتي إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة؛ فيتعالون على أبناء الفقير. فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع، وإن حدث خلال بين غني وفقير فلن يقول الغني للفقير: أنا أعطيك كذا وكذا، أو يقول أولاد الغني لأولاد الفقير: لولا أبونا لمتم جوعا.

إذن: فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطي، ويمنع – أيضا – ذلة السؤال، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطي. وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالي فلا غضاضة؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسؤولون منه.

ثم يأتي الحق إلى فئة أخرى فيقول: ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم، أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين. وكان المسلمون في الزمن الأول للإسلام ضعافا لا يقدرون على حماية أنفسهم. وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيبا من الزكاة؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحدا غير صحيحي الإيمان؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب في فئات الزكاة.

وقول الحق سبحانه: ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ يثير سؤالا: هل يؤلف القلب؟. نقول: نعم، فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السوي، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوي، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وفي الرقاب ﴾ ومعناها العبيد الذين أسروا في حرب مشروعة. وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام؛ لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد. وبعض من الناس يدعون أن الإسلام جاء بالرق وأقره. ونقول: لم يأت الإسلام بالرق؛ لأن الرق كان موجودا قبيل البعثة المحمدية، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق، فجعل من فك الرقبة كفارة لبعض الذنوب.

وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد. وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة.

وكان من المعتاد في تلك الأيام أن المدين الذي يعجز عن سداد ما عليه من دين، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له.

وإذا فعلت جناية، فالجاني يأخذ العفو من المجني عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبدا. وإذا سرق شيء فإن السارق لا يعاقب، بل يعطي أحد أولاده عبدا للمسروق منه. وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم في سوق الرقيق، وهكذا كانت منابع الرق في العالم متعددة، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر.

وقد كان الرق موجودا في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا ووجد أيضا في أمريكا. إذن: كانت هناك منابع متعددة للرق؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد، وقد كان الرق يتزايد، وجاء الإسلام والعالم غارق في الرق، لماذا؟

لأن الرق في ذلك الوقت كان يشبه حوضا تصب فيه صنابير متعددة، وليس له إلا بالوعة واحدة. ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة، شأن معظم تشريعات الله، ولكنه عالجها على مراحل، تماما كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة، فقال الحق سبحانه وتعالى:﴿ تقربوا الصلاة وأنتم سكاربا حتىا تعلموا ما تقولون... ﴾[النساء: ٤٣]

ثم حرمها تحرميا قاطعا.

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية، بدأ بإغلاق مصادر الرق. وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولي الأمر. أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دين أو غير ذلك، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم. أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفا واحدا هو إرادة السيد، بل جعله مصارف متعددة؛ فالذي يرتكب ذنبا يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة، ومن حلف يمينا ويريد أن يتحلل منها؛ يعتق رقبة. فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحسانا يزيد من أجره عند الله؛ أعتق رقبة.

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:﴿ فلا اقتحم العقبة * ومآ أدراك ما العقبة * فك رقبة ﴾[البلد: ١١-١٣]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهي في سنوات قليلة، ثم وضع بعد ذلك ما ينهي الرق فعلا، وإن لم ينهه شكلا.

فإذا كان عند أي سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده، فلا بد أن يلبسه مما يلبس، ويطعمه مما يطعم، فإن كلفه بعينه. وهكذا أصبح الفارق متلاشيا بين السيد وعبده.

وحين ألغت بعض الدول الإسلامية الرق بالقانون، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا: دعونا نعش معكم كما كنا. وهم قد فعلوا ذلك لأن حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة. وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوي شيئا.

ولكن بعض الناس يتساءل: وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى:﴿ وما ملكت أيمانكم... ﴾[النساء: ٣٦]

نقول: افهم عن الله، فهذا أمر لا يسري إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة في الحرب، أي: كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت في الأسر، والذي يسري على الرجل في الأسر يسري عليها، ثم من أي مصدر ستعيش وهي في بلد عدوة لها؛ إن تركها في المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها. كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تكبت، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمة فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحرارا، وفي هذا تصفية للرق.

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقي الزكاة: ﴾ والغارمين ﴿ والغارم: هو من استدان في غير معصية، ثم عجز عن الوفاء بدينه. ولم يمهله صاحب الدين كما أمر الله في قوله تعالى:﴿ فنظرة إلىا ميسرة... ﴾[البقرة: ٢٨٠]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دينه، وفي هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدين. لكن لماذا هذا التشريع؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذي لا يجد ما يسد به دينه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن أقراض الذي يمر بعسر، وبذلك يبقى اليسر في المجتمع، وتبقى نجدة الناس للناس في ساعة العسرة، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان في عسرة؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة. أو: أن الغارم هو الذي أراد أن يصلح بين طرفين، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال، فيقوم هو بفض الخلاف ودفع المبلغ، ثم تسوء حالته؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية، فنقول له: خذ من بيت المال حتى يشيع في النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس. إذن: فالغارم هو المستدين في غير معصية ولا يقدر على سداد الدين، أو المتحمل لتكلفة إصلاح ذات البين بين طرفين، وهو مستحق لهذا اللون من المال.

ويقول الحق سبحانه: ﴾ وفي سبيل الله ﴿. يقول جمهور الفقهاء: إنها تنطبق على الجهاد؛ لأن الذي يضحي بماله مجاهدا في سبيل الله، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضحى بماله، وعندما تضحي بالمال أو النفس في سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان. فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت. ولو لم تكن على ثقة بأنك إذا أنفقت المال جهادا في سبيل الله دخلت الجنة ما ما أنفقت.

والإسلام يهدف إلى أمرين: دين يبلغ ومنهج يحقق، والمجاهد في سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين. والأسوة في الإسلام هي التي تقويه وتثبته في النفوس؛ لأنها الإعلام الحقيقي بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت.

". " (١)

"

(١) تفسير الشعراوي، ص/١٢٨٢

ضرب المثل أسلوب من أساليب القرآن للبيان والتوضيح وتقريب المسائل إلى الأفهام، ففي موضع آخر يقول سبحانه:﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها.. ﴾[البقرة: ٢٦].

وقال سبحانه:﴿ يأأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له... ﴾[الحج: ٧٣] فهذا كثير من كتاب الله، والمثل يضرب ليجلي حقيقة. والضرب هنا لا يعني إحداث أثر ضار بالمضروب، إنما إحداث أثر نافع إيجابي كما في قوله تعالى:﴿ وآخرون يضربون في الأرض... ﴾[المزمل: ٢٠].

وقولنا في مسألة سك العملة: ضرب في كذا، فكأن الضرب يحدث في المضروب أثرا باقيا، ففي الأرض بإثارة دفائنها واستخراج كنوزها، وفي العملة بترك أثر بارز لا تمحوه الأيدي في حركة التداول، وكأن ضرب المثل يوضح الشيء الغامض توضيحا بينا كما تسك العملة، ويجعل الفكرة في الذهن قائمة واضحة المعالم. وللضرب عناصر ثلاثة: الضارب، والمضروب، والمضروب به.

ويروى في مجال الأمثال أن رجلا خرج للصيد معه آلاته: الكنانة وهي جعبة السهام، والسهام، والقوس، فلما رأى ظبيا أخذ يعد كنانته وقوسه للرمي لكن لم يمهله الظبي وفر هاربا، فقال له آخر وقد رأى ما كان منه: قبل الرماء تملأ الكنائن، فصارت مثلا وإن قيل في مناسبة بعينها إلا أنه يضرب في كل مناسبة مشابهة، ويقال في أي موضع كما هو وبنفس ألفاظه دون أن نغير فيه شيئا.

فمثلا، حين ترى التلميذ المهمل يذاكر قبيل الامتحان، وحين ترى من يقدم على أمر دون أن يعد له عدته لك أن تقول: قبل الرماء تملأ الكنائن. إذن: هذه العبارة صار لها مدلولها الواضح، وترسخت في الذهن حتى صارت مثلا يضرب.

وتقول لمن تسلط عليك وادعى أنه أقوى منك: إن كنت ريحا فقد لاقيت إعصارا.

والحق سبحانه يضرب لنا المثل للتوضيح ولتقريب المعاني للأفهام؛ لذلك يقول سبحانه:﴿ إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها... ﴾[البقرة: ٢٦] يقف هنا بعض المتمحكين الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله، يقولون: ما دام الله تعالى لا يستحي أن يضرب مثلا بالبعوضة فما فوقها من باب أولى، فلماذا يقول﴿ فما فوقها... ﴾[البقرة: ٢٦].

وهذا يدل على عدم فهمهم للمعنى المراد لله عز وجل، فالمعنى: فما فوقها أي: في الغرابة وفي القلة والصغر، لا ما فوقها في الكبر.

ومن الأمثلة التي ضربها الله لنا ليوضح لنا قضية التوحيد قوله تعالى:﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركآء متشاكسون ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾[الزمر: ٢٩]

فالذي يتخذ مع الله إلها آخر كالذي يخدم سيدين وليتهما متفقان، إنما متشاكسان مختلفا، فإن أرضى أحدهما أسخط الآخر، فهو متعب بينهما، فهل يستوي هذا العبد وعبد آخر يخدم سيدا واحدا؟ كذلك في عبادة الله وحده لا شريك له.

فبالمثال اتضحت القضية، ورسخت في الأذها؛ لذلك يقول سبحانه: أنا لا أستحي أن أضرب الأمثال؛ لأنني أريد أن أوضح لعبادي الحقائق، وأبين لهم المعاني.

﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم... ﴾ [الروم: ٢٨].

في هذه الآية وبهذا المثل يؤكد الحق – سبحانه وتعالى – في قمة تربية العقيدة الإيمانية، يؤكد على واحدية الله وعلى أحديته، فالواحدية شيء والأحدية شيء آخر: الواحدية أنه سبحانه واحد لا فرد آخر معه، لكن هذا الفرد الواحد قد يكون في ذاته مركبا من أجزاء، فوصف نفسه سبحانه بأنه أحد أي: ليس مركبا من أجزاء. أكد الله هذه الحقيقة في قرآنه بالحجج وبالبراهين، وضرب لها المثل. وهنا يضرب لنا مثلا من أنفسنا ليؤكد على هذه الوحدانية.

وقوله تعالى: ﴿ من أنفسكم... ﴾ [الروم: ٢٨] يعني: ليس بعيدا عنكم، وأقرب شيء للإنسان نفسه، إذن: فأوضح مثل لما غاب عنك أن يكون من نفسك، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ لقد جآءكم رسول من أنفسكم... ﴾[التوبة: ١٢٨] أي: من جنسكم تعرفون نشأته، وتعرفون خلقه وسيرته.

لكن، ما المثل المراد؟

المثل: ﴿ هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركآء في ما رزقناكم فأنتم فيه سوآء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم... ﴾ [الروم: ٢٨].

يقول سبحانه: أريد أن أضرب لكم مثلا على أن الإله الواحد يجب عقلا ألا تشركوا به أشياء أخرى، والمثل أني أرزقكم، ومن رزقي لكم موال وعبيد، فهل جئتم للرزق الذي رزقكم الله وللعبيد وقلتم لهم: أنتم شركاء لنا في أموالنا تتصرفون فيها كما نتصرف نحن، ثم جعلتم لهم مطلق الحرية والتصرف، ليكونوا أحرارا أمثالكم تخافونهم في أن تتصرفوا دونهم في شيء كخيفتكم أنفسكم؟ هل فعلتم ذلك؟ بل هل تقبلونه على أنفسكم؟ إذن: لماذا تقبلونه في حق الله تعالى وترضون أن يشاركه عبيده في مكله؟

إنكم لم تقبلوا ذلك مع مواليكم وهم بشر أمثالكم ملكتموهم بشرع الله فائتمروا بأمركم. هذا معنى ﴿ من أنفسكم... ﴾ [الروم: ٢٨] أي: من البشر، فهم مثلكم في الآدمية، وملكيتكم لهم ليست مطلقة، فأنتم تملكون رقابهم، وتملكون حركة حياتهم، لكن لا تملكون مثلا قتلهم، ولا تملكون منعهم من فضاء الحاجة، لا تملكون قلوبهم وإرادتهم، ثم هو ملك قد يفوتك، كأن تبيعه أو تعتقه أو حتى بالموت. ومع ذلك ما اتخذتموهم شركاء، فعيب أن تجعلوا لله ما تستنكفون منه لأنفسكم.

ونلحظ هنا أن الله تعالى لم يناقشهم في مسألة الشركاء بأسلوب الخبر منه سبحانه، إنما اختار أسلوب الاستفهام وهو أبلغ في تقرير الحقيقة: ﴿ هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركآء في ما رزقناكم... ﴾ [الروم: ٢٨].

وأنت لا تعدل عن الخبر إلى الاستفهام عنه إلا وأنت تعلم وتثق بأن الإجابة ستكون في صالحك، فمثلا حين ينكر شخص جميلك فتقول مخبرا: فعلت معك كذا وكذا، والخبر يحتمل الصدق ويحتمل الكذب، وقد ينكر فيقول: لا لم تفعل معي شيئا.

أما حين تقول مستفهما: ألم أفعل فعل كذا وكذا؟ فإنك تلجئه إلى واقع لا يملك إنكاره، ولا يستطيع أن يفر منه، ولا يملك إلا أن يعترف لك بجميلك ولا أقل من أن يسكت، والسكوت يعني أن الواقع كما قلت.

لذلك يستفهم الحق سبحانه وهو أعلم بخلقه ﴿ هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركآء... ﴾ [الروم: ٢٨] لا بد أن يقولوا: لا ليس لنا شركاء في أموالنا، إذن: لماذا جعلتم لله شركاء؟

وقوله تعالى: ﴿ في ما رزقناكم... ﴾ [الروم: ٢٨] سبق أن تحدثنا في مسألة الرزق وقلنا: إن الله تعالى هو الرازق، ومع ذلك احترم ملكية خلقه، واحترم سعيهم: لأنه سبحانه واهب هذا الملك، ولا يعود سبحانه في هبته لخلقه؛ لذلك لما أراد أن يحنن قلوب خلقه على خلقه قال:﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا... ﴾[البقرة: ٢٤٥] فاعتبر صدقتك على أخيك الفقير قرضا يرده إليك مضاعفا.

والرزق لا يقتصر على المال -كما يظن البعض - إنما رزقك كل ما انتفعت به فهو رزق ينبغي عليك أن تفيض منه على من يحتاجه، وأن تعديه إلى من يفتقده، فالقوي رزقه القوة يعديها للضعيف، والعالم رزقه العلم يعديه للجاهل، والحليم رزقه حلم يعديه للغضوب وهكذا، وإلا فالمال أهون ألوان الرزق؛ لأن الفقير الذي لا يملك مالا ولم يتصدق أحد عليه قصارى ما يحدث له أن يجوع ويباح له في هذه الحالة أن يسأل الناس، وما رأينا أحدا مات جوعا.

لكن ينبغي على الفقير إن ألجأته الحاجة للسؤال أن يسأل بتلطف ولين، فإن كان جائعا لا يسأل الناس مالا إنما لقمة عيش وقطعة جبن أو ما تيسر من الطعام ليسد جوعته، وسائل الطعام لا يكذبه أحد لأنه لا سأل إلا عن جوع، حتى لو سألك وهو شبعان فأعطيته ما استطاع أن يأكل، أما سائل المال فقد نظن فيه الطمع وقصد الادخار. إذن: أفضح سؤال سؤال القوت.

لذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام:﴿ فانطلقا حتا إذآ أتيآ أهل قرية استطعمآ أهلها فأبوا أن يضيفوهما.. ﴾[الكهف: ٧٧] فلما منعوهم حتى لقمة العيش استحقوا أن يوصفوا بألأم الناس، وقد أباح الشرع للجائع أن يسأل الطعام من اللئيم فإن منعه فللجائع أن يأخذه ولو بالقوة، وإذا رفع أمره إلى القاضي أيده القاضي، لذلك يقولون فيه: طالب قوت ما تعدى.

والحق سبحانه تكفل لك برزقك، إنما جعل للرزق أسبابا وكل ما عليك أن تأخذ بهذه الأسباب ثم لا تشغل بالك هما في موضوعه، وإيالك أن تظن أن السعي هو مصدر الرزق، فالسعي سبب، والرزق من الله، وما عليك إلا أن تتحرى الأسباب، فإن أبطأ رزقك فأرح نفسك؛ لأنك لا تعرف عنوانه، أما هو فيعرف عنوانك وسوف يأتيك يطرق عليك الباب.

والذي يتعب الناس أن يظل الواحد منهم مهموما لأمر الرزق مفكرا فيه، ولو علم أن الذي خلقه واستدعاه للوجود قد تكفل برزقه لاستراح، فإن أخطأت أسباب الرزق في ناحية اطمئن فسوف يأتيك من ناحية أخرى.

ونذكر هنا قصة عروة بن أذينة وكان صديقا لهشام بن عبد الملك بالمدينة قبل أن يتولى هشام الخلافة، فلما أصبح هشام أميرا للمؤمنين انتقل إلى دمشق بالشام، أما عروة فقد أصابته فاقة، فلما ضاق به الحال تذكر صداقته القديمة لهشام، وما كان بينهما من ود، فقصده في دمشق عله يفرج ضائقته.

جاء عروة إلى دمشق واستأذن على الخليفة فأذن له، فدخل وعرض على صاحبه حاجته وكله أمل في أن ينصفه ويجبر خاطره، لكن هشاما لم يكن موفقا في الرد على صديقه حيث قال: أتيت من المدينة تسألني حاجتك وأنت القائل:لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتينيفقال عروة بعد أن كسر صديقه بخاطره: جزاك الله عني خيرا يا أمير المؤمنين، لقد نبهت مني غافلا، وذكرت مني ناسيا، ثم استدار وخرج.

وعندها أدار هشام الأمر في نفسه وتذكر ما كان لعروة من ود وصداقة، وشعر بأنه أساء إليه فأنبه ضميره، فاستدعى صاحب الخزانة، وأمر لعروة بعطية كبيرة، وأرسل بها من يلحق به.

لكن كلما وصل الرسول إلى (محطة) وجد عروة قد فارقها حتى وصل إلى المدينة، ودق على عروة بابه، وكان الرسول لبقا، فلما فتح عروة الباب قال: ما بكم؟ قال: رسل هشام، وتلك صلة هشام لك لم يرض أن تحملها أنت خوفا عليك من قطاع الطريق، أو تحمل مؤونة حملها، فأرسلنا بها إليك.

فقال عروة: جزى الله أمير المؤمنين خيرا، قولوا له لقد ذكرت البيت الأول، ولو ذكرت الثاني لأرحت واسترحت، لقد قلت:لقد علمت وما الإسراف من خلقي أن الذي هو رزقي سوف يأتينيأسعى إليه فيعييني تطلبه ولو قعدت أتاني لا يعنينيثم يقول سبحانه بعد هذا المثل: ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم: ٢٨] أي: نبينها إلا إليها، ومعنى ﴿ يعقلون ﴾ [الروم: ٢٨] من العقل، وسمي عقلا؛ لأنه يعقل صاحبه ويقيده عما لا يليق.

والبعض يظن أن العقل إنما جعل لترتع به في خواطرك، إنما هو جاء ليقيد هذه الخواطر، ويضبط السلوك، يقول لك: اعقل خواطرك وادرسها لا تنطلق فيها على هواك تفعل ما تحب، بل تفعل ما يصح وتقول ما ينبغي. إذن: ما قصرنا في البيان ولا في التوضيح.

ويتجلى دور العقل المجرد وموافقته حتى للوحي في سيرة الفاروق عمر رضي الله عنه، وفي وجود رسول الله، وهو ينزل عليه الوحي يأتي عمر ويشير على رسول الله بأمور، فينزل الوحي موافقا لرأي عمر، وكأن الحق – تبارك وتعالى – يلفت أنظارنا إلى أن العقل الفطري إذا فكر في أمر بعيدا عن الهوى لا بد أن يصل إلى الصواب وأن يوافق حقائق الدين، أما إن تدخل الهوى فسد الفكر.

وقوله تعالى ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴾ [الروم: ٢٨] العقل وسيلة من وسائل الإدراك في الإنسان؛ لأن الله تعالى قال:﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[النحل: ٧٨].

لكن، كيف تربى الأمور العقلية في الناس؟ تربى عن طريق الحواس والإدراك، فالعين ترى، والأذن تسمع، واللسان يتذوق، واليد تلمس، والأنف يشم، إلى آخر الحواس التي توصلنا إليها كحاسة البين، وحاسة العضل وغيرها.

لذلك احتاط العلماء في تسمية الحواس فقالوا " الحواس الخمس الظاهرة " ليدعوا المجال مفتوحا لحواس أخرى، فهذه الوسائل تدرك المعلومات وتنقلها إلى العقل ليراجعها وينتهي فيها إلى قضايا يجعلها دستورا لحياته، فأنت تأكل مثلا العسل فتدرك حلاوته، وتأكل الجبن فتدرك ملوحته، فتتكون لديك قضية عقلية أن هذا حلو، وهذا مالح.. إلخ.

وحين تستقر هذه القضايا في القلب تصير عقيدة لا تخرج للتفكير مرة أخرى، ولا تمر على العقل بعد ذلك، فقد انعقد عليها الفؤاد، وترسخت في الذهن.

ودور العقل أن يعقل هذه القضايا، وأن يختار بين البدائل، والأمر الذي لا بديل له لا عمل للعقل فيه، فلو أنك مثلا ستذهب إلى مكان ليس له إلا طريق واحد فلا مجال للتكفير فيه، لكن إن كان لهذا المكان أكثر من طريق فللعقل أن يفاضل بينها ويختار الأنسب منها فيسلكه.

وما دام العقل هو الذي يختار فهو الميزان الذي تزن به الأشياء، وتحكم به القضايا؛ لذلك لا بد له أن يكون سليما لتأتي نتائجه كذلك سليمة وموضوعية، ومعلوم أن الميزان يختلف باختلاف الموزون وأهميته.

والحق سبحانه يعطينا مثالا لدقة الميزان في الشمس والقمر، فيقول﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾[الرحمن: ٥] أي: بحساب دقيق، ولولا الدقة فيهما ما أخذناهما ميزانا للوقت، فبالشمس نعرف الليل والنهار، وبالقمر نعرف الشهور.

فحين يقول سبحانه ﴾كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ﴿ [الروم: ٢٨] يعني: أننا عملنا ما علينا من التفصيل والبيان، وتوضيح الحجج والبراهين، ولكن أنتم الذين لا تعقلون.

ولما كان العقل هو آلة الاختيار بين البدائل وآلة التمييز أعفى الحق سبحانه من لا عقل له من التكاليف، أعفى الطفل الصغير الذي لم يبلغ؛ لأن عقله لم ينضج بعد، ولأن حواسه لم تكتمل.

وتتجلى حكمة الشارع في قول النبي صلى الله عليه وسلم " مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر " فجعل من ضمن تكليف الآباء أن يكلفوا هم الأبناء في هذه السن، لتكون لهم دربة على طاعة الأمر والنهي في وقت ليس عليهم تكليف مباشر من الله تعالى.

فإذا كبر الصغير يستقبل تكليفي كما استقبل تكليفك أولا، وربك ما افتات عليك في هذه المسألة، فأعطاك حق التكليف بالصلاة، وأعطاك حق أن تعاقبه إن قصر، فأنت الذي تكلف، وأنت الذي تعاقب.

وأعفى المجنون لأن آلة الاختيار عنده غير سليمة وغير صالحة، وقلنا: إن علامة النضج في الإنسان أن يصير قادرا على إنجاب مثله، ومثلنا لذلك بالثمرة التي لا تحلو إلا بعد نضجها، بحيث إذا أكلت زرعت بذرتها، فأنبتت ثمرة جديدة، وهكذا يحدث بقاء النوع وتستمر الدورة.

فربك لا يريد أن تأكل أكلة واحدة، ثم تحرم أو يحرم من يأتي بعدك، إنما يريد أن تأكل ويأكل كل من يأتي بعدك، فلا تأخذ الثمرة حلاوتها إلا بعد نضج بذرتها، وصلاحيتها للإنبات.

وقوله تعالى: ﴾ لقوم يعقلون ﴿ [الروم: ٢٨] يدل على أن الذين يتخذون مع الله شركاء غير عاقلين، وإلا فما معنى عبادة الأصنام أو الأشجار أو الشمس أو القمر؟ وقد قالوا بألسنتهم:﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونآ إلى الله زلفى... ﴾[الزمر: ٣].

فما هي العبادة؟ العبادة طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه، إذن: بماذا أمرتكم هذه الآلهة؟ وعم نهتكم؟ ما المنهج الذي وضعته لكم؟ ماذا أعدت لمن أطاعها من النعيم؟ وماذا أعدت لمن عصاها من العذاب؟ لا شيء إلا أنها آلهة

بدون تكاليف، وما أيسر أن يعبد الإنسان إلها لا تكاليف له، لا يقيدك فيما تحب من شهوات، ولا يحملك مشقة العبادة، وهنا يتضح عدم العقل.

وأيضا عدم العقل في ماذا؟ الله خلقك في كون فيه أجناس، والأجناس تحكمها سلسلة الارتقاء، فجنس أعلى من جنس، والجنس الأعلى في خدمة الجنس الأقل.

ولو استقرأت أجناس الوجود تجد أن معك أيها الإنسان جنسا آخر يشاركك الحس والحركة، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها، وهذا هو الحيوان الذي لا ينفك عن الغريزة أبدا.

وسبق أن ضربنا مثلا لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان، وأن الله تعالى إنما جعلها لتكاثر وحفظ النوع، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدي هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدها، فإذا لقح الذكر الأنثى يستحيل أن تمكنه من نفسها بعد ذلك، وهو أيضا يشم رائحة الأنثى، فإن كانت حاملا ينصرف عنها.

أما الإنسان فغير ذلك؛ لأن له شهوة تتحكم فيه، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة، ثم تربية المولود إلى أن يكبر، ولولا أن الله تعالى ربط حفظ النوع في الإنسان بشهوة هي أعنف شهوات النفس ما أقدمت المرأة على الحمل مرة أخرى.

وما قلناه في غريزة الجنس نقوله في الطعام والشراب، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التي لا دخل للهوى فيها، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولت معه، بل ونرى الحمار الذي نقول عنه إنه حمار لا يأكل عودا واحدا بعد شبعه، ويمر على النعناع الأخضر مثلا أو على الملوخية فلا يأكلها، ويذهب إلى الحشائش اليابسة، فهو يعرف طعامه بالغريزة التي جعلها الله فيه.

أما الإنسان فيأكل حتى التخمة، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم.. الخ ذلك؛ لأنه أسير لشهوة بطنه، حتى **إن من الناس من** يغضب؛ لأنه شبع فهو يريد ألا يفارق المائدة.

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجا في الحيوانات المحبوسة في الأقفاص قبل حدوث الزلزال، كان أولها الوطواط، ثم الزرافة، ثم التمساح، ثم القرود، ثم الحمير، وكأنهم يريدون تحطيم الأقفاص والخروج منها، بعدها حدث الزلزال.

وكذلك ما شاهده أهل أغادير بالدار البيضاء قبل الزلزال الذي وقع بها، حيث شاهدوا الحمير تفك قيودها، وتفر هاربة إلى الخلاء، وبعدها وقع الزلزال. إذن: لدى هذه الحيوانات استشعار بالزلزال قبل أن يقع.

وقد أعطانا الحق – سبحانه وتعالى – مثالا لهذه الغريزة في قصة الغراب الذي علم الإنسان كيف يواري الميت، فقال تعالى في قصة ولدي آدم:﴿ فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه... ﴾[المائدة: ٣١].

نعود إلى حديثنا عن أجناس الكون لبيان عدم عقل هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء، فأجناس الوجود: الإنسان، ثم الحيوان، ثم النبات، ففيه حياة ونمو، ثم الجماد أقل الموجودات درجة، وهو خادم للنبات وللحيوان وللإنسان، فكل جنس من هذه يخدم الجنس الأعلى منه.

فماذا فعل الكفار حينما عبدوا الأصنام؟ جعلوا الجماد الذي هو أدنى المخلوقات أرقاها وأعظمها، جعلوه إلها يعبد، وهل هناك أقل عقلا من هؤلاء؟

لذلك يقول الحق سبحانه: ﴿ بل اتبع الذين... ﴾.

". (١)

"

التسخير: هو الانقياد للخالق الأعلى بمهمة يؤديها بلا اختيار في التنقل منها، كما سخر الله الشمس والقمر..إلخ، فعلى الرغم من أن كثيرا من الناس منصرفون عن الله وعن منهج الله لم تتأب الشمس في يوم من الأيام أن تشرق عليهم، ولا امتنع عنهم الهواء، ولا ضنت عليهم الأرض بخيراتها ولا السماء بمائها، لماذا؟ لأنها مسخرة لا اختيار لها.

ولا نفهم من ذلك أن الله سخر هذه المخلوقات رغما عنها، فهذا فهم سطحي لهذه المسألة، حيث يرى البعض أن الإنسان فقط هو الذي خير، إنما الحقيقة أن الكون كله خير، وهذا واضح في قول الله تعالى:﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴾[الأحزاب: ٧٢]

إذن: فالجميع خير، خيرت السماوات والأرض والجبال فاختارت أن تكون مسخرة لا إرادة لها، وخير الإنسان فاختار أن يكون مختارا؛ لأن له عقلا يفكر به ويقارن بين البدائل.

ومعنى التسخير أنك لا تستطيع أن تخضع ما ينفعك من الأشياء في الكون بعقلك ولا بإرادتك ولا بالمنهج، والدليل على ذلك أنك إذا صدت طيرا وحبسته في قفص ومنعته من أن يطير في السماء وتريد أن تعرف: أهو مسخر لك أم غير مسخر وحبسه حلال أم حرام؟ فافتح له باب القفص، فإن ظل في صحبتك فهو مسخر لك، راض عن بقائه معك باللقمة التي يأكلها أو المكان الذي أعددته له، وإن خرج وترك صحبتك فاعلم أنه غير مسخر لك، ولا يحق لك أن تستأنسه رغما عنه.

لذلك سيدنا عمر – رضي الله عنه – لما مر بغلام صغير يلعب بعصفور أراد أن يعلمه درسا وهو ما يزال (عجينة) طيعة، فأقنعه أن يبيعه العصفور، فلما اشتراه عمر وصار في حوزته أطلقه، فقال الغلام: فو الله ما قصرت بعدها حيوانا على الأنس به.

وسبق أن تكلمنا عن مسألة التسخير، وكيف أن الله سخر الجمل الضخم بحيث يسوقه الصبي الصغير ولم يسخر لك مثلا البرغوث فلو لم يذلل الله لك هذه المخلوقات ويجعلها في خدمتك ما استطعت أنت تسخيرها بقوتك.

وقوله تعالى: ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة.. ﴾ [لقمان: ٢٠] أسبغ: أتم وأكمل، ومنها قوله تعالى عن سيدنا داود:﴿ أن اعمل سابغات... ﴾[سبأ: ١١] أي: دروعا ساترة محكمة تقي لابسها من ضربات السيوف وطعنات

---

(١) تفسير الشعراوي، ص/٣٣٦٢

الرماح، والدروع تجعل على الأعضاء الهامة من الجسم كالقلب والرئتين، وقد علم الله تعالى داود أن يصنع الدروع على هيئة الضلوع، ليست ملساء، إنما فيها نتوءات تتحطم عليها قوة الضربة، ولا تتزحلق فتصيب مكانا آخر.

وروي أن لقمان رأى دواد – عليه السلام – يعجن الحديد بين يديه فتعجب، لكنه لم يبادر بالسؤال عما يرى وأمهله إلى أن انتهى من صنعته للدرع، فأخذه ولبسه وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال لقمان: الصمت حكم وقليل فاعله فظلت حكمة تتردد إلى آخر الزمان.

فمعنى أسبغ علينا النعمة: أتمها إتماما يستوعب كل حركة حياتكم، ويمدكم دائما بمقومات هذه الحياة بحيث لا ينقصكم شيء، لا في استبقاء الحياة، ولا في استبقاء النوع؛ لأن الذي خلق سبحانه يعلم كل ما يحتاجه المخلوق.

أما إذا رأيت قصورا في ناحية، فالقصور من ناحية الخلق في أنهم لم يستنبطوا من معطيات الكون، أو استنبطوا خيرات الكون، لكن بخلوا بها وضنوا على غيرهم، وهذه هي آفة العالم في العصر الحديث، حيث تجد قوما قعدوا وتكاسلوا عن البحث وعن الاستنباط، وآخرين جدوا، لكنهم بخلوا بثمرات جدهم، وربما فاضت عندهم الخيرات حتى ألقوها في البحر، وأتلفوها في الوقت الذي يموت فيه آخرون جوعا وفقرا.

إذن: فآفة العالم ليس في أنه لا يجد، إنما في أنه لا يحسن استغلال ما يجد من خيرات، ومن مقومات لله تعالى في كونه. فقوله تعالى: ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة.. ﴾ [لقمان: ٢٠] هذه حقيقة لا ينكرها أحد، فهل تنكرون أنه خلقكم، وخلق لكم من أنفسكم أزواجا منها تتناسلون؟

هل تنكرون أنه خلق السماوات بما فيها من الكواكب والمجرات، وخلق الليل فيه منامكم، والنهار وفيه سعيكم على معايشكم؟ ثم في أنفسكم وما خلقه فيكم من الحواس الظاهرة وغير الظاهرة، وجعل لكل منها مجالا ومهمة تؤديها دون أن تشعر أنت بما أودعه الله في جسمك من الآيات والمعجزات، وكل يوم يطلع علينا العلم بجديد من نعم الله علينا في أنفسنا وفي الكون من حولنا.

فمعنى ﴿ ظاهرة.. ﴾ [لقمان: ٢٠] أي: التي ظهرت لنا: ﴿ وباطنة.. ﴾ [لقمان: ٢٠] لم نصل إليها بعد، ومن نعم الله علينا ما ندركه، ومنها ما لا ندركه.

تأمل في نفسك مثلا الكليتين وكيف يعمل بداخلك وتصفي الدم من البولينا، فتنقيه وأنت لا تشعر بها، وأول ما فكر العلماء في عمل بديل لها حال فشلها صمموا جهازا يملأ حجرة كبيرة، كانت نصف هذا المسجد من المعدات لتعمل عمل الكليتين، ثم تبين لهم أن الكلية عبارة عن مليون خلية لا يعمل منها إلا مائة بالتناوب.

وقالوا: إن الفشل الكلوي عبارة عن عدم تنبه المائة خلية المناط بها العمل في الوقت المناسب يعني المائة الأولى أدت مهمتها وتوقفت دون أن تنبه المائة الأخرى، ومن هندسة الجسم البشري أن خلق الله للإنسان كليتين، حتى إذا تعطلت إحداهما قامت الأخرى بدورها.

أما النعم الباطنة فمنه ما يكتشف في مستقبل الأيام من آيات ونعم، فمنذ عدة سنوات أو عدة قرون لم نكن نعرف شيئا عن الكهرباء مثلا، ولا عن السيارات وآلات النقل وعصر العجلة والبخار.

..إلخ.

كلها نعم ظاهرة لنا الآن، وكانت مستورة قبل ذلك أظهرها النشاط العلمي والبحث والاستنباط من معطيات الكون، وحين تحسب ما أظهره العلم من نعم الله تجده حوالي ٣٪ ونسبة ٩٧٪ عرفها الإنسان بالصدفة.

وقلنا: إن أسرار الله ونعمه في كونه لا تتناهى، وليس لأحد أن يقول: إن ما وضعه الله في الأرض من آيات وأسرار أدى مهمته؛ لأنه باق ببقاء الحياة الدنيا، ولا يتوقف إلا إذا تحقق قوله تعالى:﴿ حتىا إذآ أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلهآ أنهم قادرون عليهآ أتاهآ أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس... ﴾[يونس: ٢٤]

وفي الآخرة سنرى من آيات الله ومن عجائب مخلوقاته شيئا آخر، وكأن الحق تعالى يقول لنا: لقد رأيتم آياتي في الدنيا واستوعبتموها، فتعالوا لأريكم الآيات الكبرى التي أعددتها لكم في الآخرة.

ففي الآخرة سأنشئكم نشأة أخرى، بحيث تأكلون ولا تتغوطون ولا تتألمون، وتمر عليكم الأعوام ولا تشيبون، ولا تمرضون، ولا تموتون، لقد كنتم في الدنيا تعيشون بأسبابي، أما في الآخرة فأنتم معي مع المسبب سبحانه، فلا حاجة لكم للأسباب، لا لشمس ولا لقمر ولا..إلخ.

لذلك نقول: من أدب العلماء أن يقولوا اكتشفنا لا اخترعنا؛ لأن آيات الله ونعمه مطمورة في كونه تحتاج لمن ينقب عنها ويستنتجها مما جعله الله في كونه من معطيات ومقدمات.

وسبق أن قلنا: إن كل سر من أسرار الله في كونه له ميلاد كميلاد الإنسان، فإذا حان وقته أظهره الله، إما ببحث العلماء وإلا جاء مصادفة تكرما من الله تعالى على خلقه الذين قصرت جهودهم عن الوصول إلى أسراره تعالى في كونه.

وفي هذا إشارة مقدمة لن نؤمن بالغيب الذي أخبرنا الله به، فما دمنا قد رأينا نعمه التي كانت مطمورة في كونه فينبغي علينا أن نؤمن بما يخبرنا به من الغيب، وأن نأخذ من المشاهد دليلا على ما غاب.

واقرأ في هذه المسألة قول الله تعالى:﴿ ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شآء... ﴾[البقرة: ٢٥٥] أي: شاء سبحانه أن يوجد هذا الغيب، وأن يظهر للناس بعد أن كان مطمورا، فإن صادف بحثا جاء مع البحث، وإن لم يصادف جاء مصادفة وبلا أسباب، بدليل أنه نسب إحاطة العلم لهم.

أما الغيب الذي ليس له مقدمات توصل إليه، ولا يطلع عليه إلا الله فهو المعني بقوله تعالى:﴿ عالم الغيب فلا يظهر علىا غيبه أحدا * إلا من ارتضىا من رسول... ﴾[الجن: ٢٦-٢٧]

وقال سبحانه: ﴿ ظاهرة وباطنة.. ﴾ [لقمان: ٢٠] لأن الظاهرة تلفتنا إلى الإيمان بالله واجب الوجود الأعلى، والباطنة يدخرها الله لمن يأتي بعد، ثم يدخر ادخارا آخر، بحيث لا يظهر إلا حين نكون مع الله في جنة الله.

وقد حاول العلماء أن يعددوا النعم والآيات الظاهرة والباطنة، فالظاهرة ما يعطيه لنا في الدنيا ظاهرا، والباطنة ما أخبرنا الله بها، فمثلا حين تريد الجهاد في سبيل الله تعد لذلك عدته من سلاح وجنود..إلخ وتأخذ بالأسباب، فيؤيدك الله بجنود من عنده لم تروها، كما قال سبحانه:﴿ إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم... ﴾[الأنفال: ١٢]

والرسول صلى الله عليه وسلم يخبرنا ببعض هذه النعم الباطنة، فيقول: " للمؤمن ثلاثة هي له وليست له – يعني ليست من عمله – أما الأولى: أن المؤمنين يصلون عليه، وأما الثانية فجعل الله له ثلث ماله يوصي به – يعني: لا يتركه للورثة إنما يتصرف هو فيه، وكان المنطق أن تستفيد بما لك وأنت حي، فإذا ما انتهيت فليس لك منه شيء وينتقل إلى الورثة يوزعه الله تعالى بينهم بالميراث الذي شرعه، فمن النعم أن يباح لك التصرف في ثلث ما لك توصي به لتكفر به عن سيئاتك وتطهر به ذنوبك – أما الثالثة: أن الله تعالى ستر مساويك عن خلقه، ولو فضحك بها لنبذك أهلك وأحبابك وأقرباؤك ".

إن من أعظم النعم علينا أن يحجب الله الغيب عن خلق الله، ولو خيرت أي إنسان: أتحب أن تعرف غيب الناس ويعرفوا غيبك؟ فلا شك في أنه لن يرضى بذلك أبدا.

والنبي صلى الله عليه وسلم يوضح هذه المسألة في قوله: " لو تكاشفتم ما تدافنتم " يعني: لو ظهر المستور من غيب الإنسان، واطلع الناس على ما في قلبه لتركوه إن مات لا يدفنونه، ولقالوا دعوه للكلاب تأكله، جزاء له على ما فعل.

لكن لما ستر الله غيوب الناس وجدنا حتى عدو الإنسان يسرع بحمله ودفنه، كما قال القائل: محا الموت أسباب العداوة بيننا. لكن من غباء الإنسان أن ينبش عن عيوب الآخرين، وأن يتتبع عوراتهم، فهل ترضى أن يعاملك الناس بالمثل، فيتتبعون عوراتك، ويبحثون عن عيوبك؟

ثم إن سيئة واحدة يعرفها الناس عنك كفيلة بأن تزهدهم في كل حسناتك، والله تعالى يريد أن ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة.

ثم يقول تعالى: ﴿ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴾ [لقمان: ٢٠]

المجادلة: الحوار في أمر، لكل طرف فيه جنود، وكل منهم لا يؤمن برأي الآخر، والجدل لا يكون إلا في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ويسمونه الجدل الحتمي، وهذا يكون موضوعيا لا لدد فيه، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير، وفيه نقابل الرأي بالرأي ليثمر الجدال.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن... ﴾[العنكبوت: ٤٦] أما الجدل الذي يريد فيه كل طرف أن يعلي رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شيء.

والجدل مأخوذ من الجدل أي الفتل، والشيء حين يفتل على مثله يقويه، كذلك الرأي في الجدل يقوي الرأي الآخر، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره.

فإن كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلي رأيه ولو بالباطل.

والحق سبحانه يبين لنا **أن من الناس من** ألف الجدل في الله على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فيقولون مثلا في جدالهم: أللكون إله موجود؟ وإن كان موجودا، أهو واحد أم متعدد؟ وإن كان موجودا أيعلم الجزئيات أم الكليات؟

أيزاول ملكه كل وقت؟ أم أنه خلق القوانين، ثم تركها تعمل في الكون وتسيره؟ كأن الله تعالى زاول سلطانه في الملك مرة واحدة.

ومعلوم أن الله تعالى قيوم أي: قائم على أمر الخلق كله في كل وقت، والدليل على ذلك هذه المعجزات التي خرقت النواميس لتدل على صدق الرسل في البلاغ عن الله، كما عرفنا في قصة إحراق إبراهيم – عليه السلام – فلو أن المسألة إنجاء إبراهيم من النار لما مكنهم الله منه، أو مكنهم منه ومن إلقائه في النار، ثم أرسل على النار سحابة تطفئها.

لكن أراد سبحانه أن يشعلوا النار، وأن يلقوا بإبراهيم فيها، ومع ذلك يخرج منها سالما ليروا بأعينهم هذه المعجزة الخارقة لقانون النار ليكبتهم الله، ولا يعطيهم الفرصة ليخدعوا الناس، ولو أفلت إبراهيم من قبضتهم لوجودا هذه الفرصة ولقالوا: لو أمسكنا به لفعلنا به كذا وكذا.

ومعنى ﴾ بغير علم.. ﴿ [لقمان: ٢٠] العلم أن تعرف قضية وتجزم بها، وهي واقعة وتستطيع أن تدلل عليها، فإن كانت القضية التي تؤمن بها غير واقعة، فهذا هو الجهل، فالجاهل لا يوضع في مقابل العالم؛ لأن الجاهل لديه علم بقضية لكنها باطلة، وهذا يتعبك في الإقناع؛ لأنه ليس خالي الذهن، فيحتاج أولا لأن تخرج من ذهنه القضية الباطلة وتحل محلها القضية الصحيحة، أما الأمي فهو خالي الذهن من أي قضية.

فإن كانت القضية التي تجزم بها واقعة لكن لا تستطيع أن تدلل عليها، كالولد الصغير الذي علمناه أن (الله أحد) واستقرت في ذهنه هذه المسألة؛ لأن أباه أو معلمه لقنه هذه القضية حتى أصبحت عقيدة عنده، فالذي يدلل عليها من لقنها له إلى أن يكبر، ويستطيع هو أن يدلل عليها.

والعلم أنواع، منها وأولها: العلم البدهي الذي نصل إليه بالبديهة دون بحث، فمثلا حين نرى الإنسان يتنفس نعلم أنه حي بالبديهة، ونعلم أن الواحد نصف الاثنين، وأن السماء فوقنا، والأرض تحتنا.. الخ.

وإذا نظرت إلى معلومات الأرض كلها تجد أن أم هذه المعلومات البديهة. فعلم الهندسة مثلا يقوم على نظريات تستخدم الأولى منها مقدمة لإثبات الثانية، والثانية مقدمة لإثبات الثالثة وهكذا.

فحين تعيد تسلسل النظريات الهندسية فإنك لا بد عائد إلى النظرية الأولى وهي بديهة تقول: إذا التقى مستقيم بآخر نتج عن هذا الالتقاء زاويتان قائمتان.

إذن: فأعقد النظريات لا بد أن تعود إلى أمر بدهي منثور في كون الله، المهم من يلتفت إليه، وقد قال الحق سبحانه وتعالى:﴾ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴿[يوسف: ١٠٥]

فقوله تعالى: ﴾ ومن الناس من يجادل في الله... ﴿ [لقمان: ٢٠] أي: وجودا وصفاتا ﴾ بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿ [لقمان: ٢٠] يعني: أن الجدل يصح إن كان بعلم وهدى وكتاب منير، فإن كان بغير ذلك فلا يعد جدلا إنما مراء لا طائل من ورائه.

ومعنى الهدى: أي الاستدلال بشيء على آخر، كالعربي الذي ضل في الصحراء، فلما رأى على الرمال بعرا وأثرا لأقدام استأنس بها، وعلم أنه على طريق مطروق ولا بد أن يمر به أحد، فلما عرضت له قضية الإيمان استدل عليها بما رأى فقال:

البعرة تدل على البعير، والقدم تدل على المسير، سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، نجوم تزهر، وبحار تزخر..ألا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

فالإنسان حين ينظر في الكون وفي آياته لا بد أن يصل من خلالها إلى الخالق عز وجل، فما كان لها أن تتأتى وحدها، ثم إنه لم يدعها أحد لنفسه ممن ينكرون وجود الله، وقلنا: إن أتفه الأشياء التي نراها لا يمكن ان توجد هكذا بدون صانع، فمثلا الكوب الذي نشرب فيه، هل رأينا مثلا شجرة تطرح لنا أكوابا؟

إذن: لا بد أن لها صانعا فكر في الحاجة إليها، فصنعها بعد أن كان الإنسان يشرب الماء عبا، أو نزحا بالكفن وما توصلنا إلى هذا الكوب الرقيق النظيف إلا بعد بحث العلماء في عناصر الوجود، أيها يمكن أن يعطيني هذه الزجاجة الشفافة، فوجدوا أنها تصنع من الرمل بعد صهره تحت درجة حرارة عالية، فهذا الكوب الذي يمكن أن نستغني عنه أخذ منا خبرة وقدرة وعلما..إلخ.

فما بالك بالشمس التي تنير الكون كله منذ خلق الله هذا الكون دون أن تكل أو تمل أو تتخلف يوما واحدا، وهي لا تحتاج إلى صيانة ولا إلى قطعة غيار، أليست جديرة بأن نسأل عمن خلقها وأبدعها على هذه الصورة، خاصة وانها فوق قدرتنا ولا تنالها إمكاناتنا.

هذه هي الآيات التي نأخذها بالأدلة، لكن هذه الأدلة لا توصلنا إلا إلى أن لهذا الكون بآياته العجيبة خالقا مبدعا، لكن العقل لا يصل بي إلى هذا الخالق: من هو، وما اسمه، إذن: لا بد من بلاغ عن الله على يد رسول يبلغنا من هذا الخالق وما اسمه وما مطلوباته، وماذا أعد لمن أطاعه، وماذا أعد لمن عصاه.

وفرق بين التعقل والتصور، والذي أتعب الفلاسفة أنهم خلطوا بينهما، فالتعقل أن أنظر في آيات الكون، وأرى أن لها موجدا، أما التصور فبأن أتصور هذا الموجد: شكله، اسمه، صفاته..إلخ وهذه لا تتأتى بالعقل، إنما بالرسول الذي يأتي من قبل الإله الموجد.

وسبق أن ضربنا مثلا – ولله تعالى المثل الأعلى – قلنا: لو أننا نجلس في مكان مغلق، وطرق الباب طارق، فكلنا يتفق على أن طارقا بالباب لا خلاف في هذه، لكن نختلف في تصوره، فواحد يتصور انه رجل، وآخر يقول: طفل، وآخر يتصوره امرأة، وواحد يتصوره بشيرا، وآخر يتصوره نذيرا..إلخ.

إذن: اتفقنا في التعقل، واختلفنا في التصور، ولكي تعرف من الطارق فعلينا أن نقول: من الطارق؟ ليعلن هو عن نفسه ويخبرنا من هو؟ ولماذا جاء؟ وينهي لنا في هذا الخلاف.

كذلك الحق – تبارك وتعالى – هو الذي يخبرنا عن نفسه، لكن كيف يتم ذلك؟ من خلال رسول من البشر يستطيع أن يتجلى الله عليه بالخطاب، بأن يكون معدا لتلقي هذا الخطاب، لا أن يخاطب كل الناس.

وقد مثلنا لذلك أيضا (بلمبة) الكهرباء الصغيرة أو (الراديو) الذي لا يتحمل التيار المباشر، يل يحتاج إلى (ترانس) أو منظم يعطيه الكهرباء على قدره وإلا حرق، فحتى في الماديات لا بد من قوي يستقبل ليعطي الضعيف.

والحق سبحانه يعد من خلقه من يتلقى عنه، ويبلغ الناس، فيكلم الله الملائكة، والملائكة تكلم الرسل من البشر؛ لذلك يقول سبحانه:﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا... ﴾[الشورى: ٥١]

وإلا لو كلم الله جميع البشر، فما الحاجة للرسل؟ لذلك لما سئل الإمام علي رضي الله عنه: أعرفت ربك بمحمد، أم عرفت محمدا بربك؟ فقال: لو عرفت ربي بمحمد لكان محمد أوثق عندي من ربي، ولو عرفت محمدا بربي، فما الحاجة إذن للرسل، لكن عرفت ربي بربي، وجاء محمد، فبلغني مراد ربي منى. إذن: لا بد من هذه الواسطة.

والحق سبحانه يعطينا في القرآن مثالا يوضح هذه المسألة في قوله تعالى عن سيدنا موسى:﴿ قال رب أرني أنظر إليك.. ﴾[الأعراف: ١٤٣] فبماذا أجابه ربه؟﴿ قال لن تراني... ﴾[الأعراف: ١٤٣] ولم يقل سبحانه: أنا لا أرى، والمعنى: لو أعددتك الإعداد المناسب لهذه الرؤية لرأيت بدليل أننا سنعد في الآخرة على هيئة نرى فيها الله عز وجل:﴿ وجوه يومئذ ناضرة * إلىا ربها ناظرة ﴾[القيامة: ٢٢-٢٣]

وفي المقابل يقول عن الكفار الذين سيحرمون هذه الرؤية﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[المطففين: ١٥]

ثم لما تجلى الحق سبحانه للجبل، وهو الجنس الأقوى من موسى مادة وصلابة أندك الجبل، ونظر موسى إلى الجبل المتجلي عليه فخر صعقا، فما بالك لو نظر إلى المتجلي سبحانه؟

إذن: الحق سبحانه حينما يريد أن يخاطب أحدا من خلقه، أو يتجلى عليه يعده لذلك، ويربيه على عينه، كما قال عن موسى

﴿ ولتصنع علىا عيني ﴾[طه: ٣٩] وقال في موضع آخر:﴿ واصطنعتك لنفسي ﴾[طه: ٤١] ثم يقوم هذا المربي الذي رباه الله بتربية الخلق.

وقد ربى محمد صلى الله عليه وسلم أمته في ثلاث وعشرين سنة، ولو أن الله تعالى خاطب كل إنسان بالمنهج لاستغرقت تربية الناس وقتا طويلا؛ لذلك يصطفي الله الرسل، ويعطيهم من الخصائص ما يمكنهم من تربية الأمم بعد أن رباهم الله، واصطنعهم على عينه.

إذن: كان ولا بد من إرسال الرسل للبلاغ عن الله: من هو، ما اسمه، ما صفاته؟ ما مطلوباته؟ ماذا أعد لمن اطاعه؟ وماذا أعد لمن عصاه..إلخ. لذلك فأول دليل على بطلان الشرك أن تقول للذي يشرك الشمس أو القمر أو الأصنام مع الله في العبادة: وماذا قالت لك هذه الأشياء؟ ما مطلوباتها؟ ما مرادها منك؟ وإلا، فلماذا تعبدها والعبادة في أوضح معانيها: طاعة العابد لأمر المعبود ونهيه؟

فإن قلت: إذن لماذا قبلت عقول هؤلاء القوم أن يعبدوا هذه الأشياء؟ نقول: لأن التدين طبيعة في النفس البشرية ومركوز في الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وسبق أن أوضحنا أن كلا منا فيه ذرة حية من أبيه – عليه السلام – لم يطرأ

عليها الفناء، وإلا لما وجد الإنسان، وهذه الذرة في كل منا هي التي شهدت الفطرة، وشهدت الخلق، وشهدت العهد الذي أخذه الله علينا جميعا﴿ ألست بربكم... ﴾[الأعراف: ١٧٢]

فإن حافظت على إشراقية هذه الذرة فيك، ولم تعرضها لما يطمس نورها – ولا يكون ذلك إلا بالسير على منهج خالقك وبناء لبنات جسمه مما أحل الله – إن فعلت ذلك أنار الله وجهك وبصيرتك.

لذلك جاء في الحديث أن العبد يشكو: يقول " دعوت فلم يستجب لي، لكن أنى يستجاب له، ومطعمه من حرام، ومشربه من حرام، وملبسه من حرام؟ "كيف وقد طمس الذرة النورانية فيه، وغفل عن قانون صيانتها؟ واقرأ قوله تعالى:﴿ فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[طه: ١٢٣-١٢٤]

فالمعيشة الضنك والعياذ بالله تأتي حين تنطمس النورانية الإيمانية، وحين لا تحافظ على إشراقية هذه الذرة التي شهدت خلق الله، وشهدت له بالربوبية، ولو حافظت عليها لظلت كل التعاليم واضحة أمامك، وما غفلت عن منهج ربك هذه الغفلة التي جرت عليك المعيشة الضنك، واقرأ قول الله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا... ﴾[الأنفال: ٢٩] أي: نورا يهديكم وتفرقون به بين الحق والباطل.

والحق سبحانه يوضح لنا ما يطمس الفطرة الإيمانية، وهما أمران: الغفلة والتي قال الله عنها:﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هاذا غافلين ﴾[الأعراف: ١٧٢] والقدوة التي قال الله عنها:﴿ إنمآ أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم... ﴾

[الأعراف: ١٧٣]

فالذي يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج، هذه الغفلة توجد جيلا لا يتمسك بمنهج الحق، وبذلك تكون العقبة في الجيل الأول الغفلة، لكن في الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة، وهكذا كلما تنقضي الأجيال تزداد الغفلة، وتزداد القدوة السيئة؛ لذلك يوالي الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخلق هذه الغفلة، وليوجد لهم من جديد قدوة حسنة، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخلق.

فمن أراد أنء يجادل في الله فليجادل بعلم وبهدى وبكتاب منير منزل من عند الله، ووصف الكتاب بأنه منير يدلنا على أن الكتاب المنسوب إلى الله تعالى لابد أن يكون منيرا؛ لكنه قد يفقد هذا النور بما يطرأ عليه من تحريف وتبديل ونسيان وكتمان..إلخ.

وقد أوضح الله تعالى هذه المراحل في قوله تعالى:﴿ فلما نسوا ما ذكروا به... ﴾[الأنعام:٤٤]

ثم:﴿ يكتمون مآ أنزلنا من البينات والهدىا.. ﴾[البقرة: ١٥٩]

وإن كان الإنسان يعذر في النسيان، فلا يعذر في الكتمان، ثم الذي نجا من النسيان ومن الكتمان وقع في التحريف﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه.. ﴾[المائدة: ١٣] وليتهم اقتصروا على ذلك، إنما اختلفوا من عند أنفسهم كلاما،

ثم نسبوه إلى الله:﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هاذا من عند الله... ﴾[البقرة: ٧٩] فأنواع الطمس هذه أربعة ظهرت كلها في اليهود.

إذن: فالكتب التي بأيديهم لا تصلح للجدل في الله؛ لأنها تفقد العلم والحجة والهدى، ولا تعد من الكتاب المنير المشرق الذي يخلو من التضبيبات والفجوات، فجوات النسيان والكتمان، والتحريف والاختلاق.

فمن يريد أن يجادل في الله فليجادل بناء على علم بدهي أو هدى استدلالي، أو كتاب منير. والكتب المنزلة كثيرة، منها صحف إبراهيم وموسى، ومنها زبر الأولين، والزبور نزل على سيدنا داود، والتوراة على موسى، والإنجيل على عيسى – عليهم جميعا السلام – وهذه كلها كتب من عند الله، لكن هل طرأ عليها حالة عدم الإنارة؟

نقول: نعم، لأنها انطمست بشهوات البشر فيها وبأهوائهم التي شوهتها وأخرجتها عن الإشراقية والنورانية التي كانت لها، وهذا نتيجة السلطة الزمنية وهي أقسى شيء في تغيير المناهج.

هذه السلطة الزمنية هي التي منعت اليهود أن يؤمنوا برسول الله، وهم يعلمون بعثته في بلاد العرب، ويعلمون موعده وأوصافه، وأنه صلى الله عليه وسلم خاتم الرسل؛ لذلك يقول القرآن عنهم:﴿ يعرفونه كما يعرفون أبنآءهم... ﴾[الأنعام: ٢٠]

ويقول عنهم:﴿ وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾[البقرة: ١٤٦] لذلك، سيدنا عبدالله بن سلام يقول عن سيدنا رسول الله: والله لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد.

ويحكي القرآن عن أهل الكتاب أنهم كانوا يستفتحون برسول الله على الكفار فيقولون لهم: لقد أظل زمان نبي جديد نسبقكم إليه، ونقتلكم به قتل عاد وإرم﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جآءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾

[البقرة: ٨٩]

لماذا؟ لأنهم يعلمون أنه سيسلبهم المكانة التي كانت لهم، والريادة التي أخذوها في العلم والاقتصاد والحرب..إلخ، لقد كانوا يعدون واحدا منهم لينصبوه ملكا عليهم في المدينة ليلة هاجر إليها رسول الله، فلما دخلها رسول الله لم تعد لأحد مكانة الريادة بعد رسول الله، فرفض هذا الملك الجديد.

إذن: فكل الكتب السماوية لحقها التحريف والتغيير، فلم يضمن لها الحق سبحانه الصيانات التي تحميها كما حمى القرآن، وما ذاك إلا ليظهر شرف النبي الخاتم، فالكتب السابقة للقرآن جاءت كتب أحكام، ولم تكن معجزة في ذاتها، فالرسل السابقون كانت لهم معجزات منفصلة عن الكتب وعن المنهج، فموسى عليه السلام معجزته: العصا واليد..إلخ وكتابه ومنهجه التوراة، وعيسى عليه السلام معجزته أن يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله وكتابه ومنهجه الإنجيل.

أما محمد صلى الله عليه وسلم فمعجزته وكتابه ومنهجه هو القرآن، فهو منهج ومعجزة ستصاحب الزمان إلى أن تقوم الساعة؛ لأن رسالته هي الرسالة الخاتمة، فلا بد أن يكون كتابه ومعجزته كذلك فنقول: هذا محمد وهذه معجزته.

أما الرسالات السابقة فكانت المعجزة وقتية لمن رآها وعاصرها ولولا أن الله أخبرنا بها ما عرفنا عنها شيئا، وما صدقنا بها، وسبق أن شبهناها بعود الكبريت الذي يشعل مرة واحدة رآه من رآه، ثم يصبح خبرا؛ لذلك لا نستطيع أن نقول مثلا: هذا موسى عليه السلام وهذه معجزته؛ لأننا لم نر هذه المعجزة.

ولما كانت الكتب السابقة كتبا تحمل المنهج، وليست معجزة في ذاتها ترك الله تعالى حفظها لأهلها الذين آمنوا بها، وهذا أمر تكليفي عرضة لأن يطاع، ولأن يعصى، فكان منهم أن عصوا هذا الأمر فحدث تضبيب في هذه الكتب.

يقول تعالى:﴿ إنآ أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله... ﴾[المائدة: ٤٤]

وساعة تسمع الهمزة والسين والتاء، فاعلم أنها للطلب: استحفظتك كذا يعني: طلبت منك حفظه، مثل: استفهمت يعني طلبت الفهم، واستخرجت، واستوضحت..إلخ.

فلما جرب الخلق في حفظ كلام الخالق فلم يؤدوا، ولم يحفظوا، تكفل الله سبحانه بذاته بحفظ القرآن، وقال:﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾[الحجر: ٩]

لذلك ظل القرآن كما نزل لم تنله يد التحريف أو الزيادة أو النقصان، وصدق الله تعالى حين قال في أول سوره﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه... ﴾[البقرة: ٢] لا الآن، ولا بعد، ولا إلى قيام الساعة، حتى أن أعداء القرآن أنفسهم قالوا: لا يوجد كتاب موثق في التاريخ إلا القرآن.

والعجيب في مسألة حفظ القرآن أن الذي يحفظ شيئا يحفظه ليكون حجة له، لا حجة عليه، كما تحفظ أنت الكمبيالة التي لك على خصمك، أما الحق – سبحانه وتعالى – فقد ضمن حفظ القرآن، والقرآن ينبئ بأشياء ستوجد فيما بعد، والحق سبحانه لا يحفظ هذا ويسجله على نفسه، إلا إذا ضمن صدق وتحقق ما أخبر به وإلا لما حفظه، إذن: فحفظ الحق سبحانه للقرآن دليل على أنه لا يطرأ شيء في الكون أبدا يناقض كلام الله في القرآن:

﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾[النساء: ٨٢]

وسبق أن قلنا: إن القرآن حكم في أشياء مستقبلية للخلق فيها اختيار، فيأتي اختيار الخلق وفق ما حكم، مع أنهم كافرون بالقرآن، مكذبون له، ومع ذلك لم يحدث منهم إلا ما أخبر الله به، وكان بإمكانهم أن يمتنعوا، لكن هيهات فلا يتم في كون الله إلا ما أراد.

لكن، ماذا نفعل فيمن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير؟ نلفته إلى العلم، وإلى الهدى، وإلى الكتاب المنير.

ندعوهم إلى النظر في الآيات الكونية، وفي البدهيات التي تثبت وجود الخالق عز وجل، ندعوهم إلى الهدى، والاستدلال وإلى النظر في المعجزة التي جاء بها رسول الله، ألم يخبر وهو في شدة الحصارالذي ضربه عليه وعلى آله كفار مكة حتى اضطروهم إلى أكل الميتة وأوراق الشجر..إلخ.

إلم يخبر القرآن في هذه الأثناء بقوله تعالى:﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[القمر: ٤٥] حتى أن سيدنا عمر ليتعجب: أي جمع هذا؟ ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا؟ فلما جاء يوم بدر ورأى بعينه ما حاق بالكفار قال: صدق الله﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾[القمر: ٤٥].

ألم يقل القرآن عن الوليد بن المغيرة﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾[القلم: ١٦] وفعلا، لم يعرفوا الوليد يوم بدر بين القتلى إلا بضربة على خرطومه. ألم يشر رسول الله قبل المعركة إلى مصارع القوم، فيقول وهو يشير إلى مكان بعينه: هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، ثم تأتي المعركة ويقتل هؤلاء في نفس الأماكن التي أشار إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والحق سبحانه أعطانا في القرآن أشياء تدل على أنه كتاب ينور لنا الماضي، وينور لنا الحاضر والمستقبل. وسبق أن قلنا: إن الغيب دونه حجب الزمان، أو حجب المكان، فما سبقك من أحداث يحجبها عنك حجاب الزمان الماضي، وما سيحدث في المستقبل يحجبه عنك حجاب الزمان المستقبل، أما الحاضر الذي تعيشه فيحجبه عنك المكان، بل وقد تكون في نفس المكان وتجلس معي، لكنك لا تعرف ما في صدري مثلا.

وكل هذه الحجب خرقها الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم، فمثلا في غزوة مؤتة لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم جيشه إليها، وبقي هو في المدينة قال: حين وزع القيادة: يحمل الراية فلان، فإذا قتل يحملها فلان، فإذا قتل يحملها فلان وسمى هؤلاء الثلاثة، ثم قال: فإذا قتل الثالث فاختاروا من بينكم من يحملها.

وجلس النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه في المدينة، وأخذ يصف لهم المعركة وصفا تفصيليا، فلما عاد الجيش من مؤتة وجدوا واقع المعركة وفق ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المدينة.

وقد نبهتنا هذه المسألة إلى السر في تسمية مؤتة (غزوة) وكانوا لا يقولون غزوة إلا للتي شهدها رسول الله بنفسه، أما التي لا يخرج فيها فتسمى (سرية) فلما أخبر صلى الله عليه وسلم بما يدور في المعركة مع بعد المسافات اعتبرها المسلمون غزوة.

بل وأبلغ من ذلك، فالحق سبحانه كسف لرسوله صلى الله عليه وسلم ما يدور في نفوس قومه:﴿ ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول... ﴾[المجادلة: ٨]

هذه كلها من آيات الإنارة في القرآن التي استوعبت الماضي والحاضر والمستقبل.

ثم يقول الحق سبحانه: ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا... ﴾.

". (١)

---

(١) تفسير الشعراوي، ص/٣٤١٤

"القول في تأويل قوله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ﴾

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: **أن من الناس من** يتخذ من دون الله أندادا له =

وقد بينا فيما مضى أن"الند"، العدل، بما يدل على ذلك من الشواهد، فكرهنا إعادته. (١)

* * *

= وأن الذين اتخذوا هذه"الأنداد" من دون الله، يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله. ثم أخبرهم أن المؤمنين أشد حبا لله، من متخذي هذه الأنداد لأندادهم.

* * *

واختلف أهل التأويل في"الأنداد" التي كان القوم اتخذوها. وما هي؟

* * *

فقال بعضهم: هي آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

* ذكر من قال ذلك.

٢٤٠٦- حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة قوله:"ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله"، من الكفار لأوثانهم.

٢٤٠٧- حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى ذكره:"يحبونهم كحب الله"، مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد،"والذين آمنوا أشد حبا لله"، من الكفار لأوثانهم.

٢٤٠٨- حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله.

---

(١) انظر ما سلف ١ : ٣٦٨-٣٧٠ .." [1]

"السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال الله تعالى: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ ويقول الله تعالى: ﴿ فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيرا، وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهوديا فأسلم وحسن إسلامه وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال

---

(١) تفسير الطبري، ٢٧٩/٣

له عمر أي ابني إبراهيم أمر بذبحه فقال إسماعيل والله يا أمير المؤمنين وإن يهود لتعلم بذلك ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لكون إسحاق أباهم والله أعلم أيهما كان وكل قد كان طاهرا طيبا مطيعا لله عز وجل وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق فقال إسماعيل ذكره في كتاب الزهد. وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا الذبيح إسماعيل. وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضا عن أبي عمرو بن العلاء وقد روى ابن جرير في ذلك حديثا غريبا فقال حدثني محمد بن عمار الرازي حدثنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمر بن عبد الرحيم الخطابي عن عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان عن أبيه حدثني عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق فقال على الخبير سقطتم: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال: يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل والثاني إسماعيل. وهذا حديث غريب جدا وقد رواه الأموي في مغازيه حدثنا بعض أصحابنا أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة حدثنا عمرو بن عبد الرحمن القرشي حدثنا عبيد الله بن محمد العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق وذكره، كذا كتبته من نسخة مغلوطة وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس ما ذهب." (١)

"أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال على الخبير (١) سقطتم، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه

(١) تفسير ابن كثير / دار الفكر، ٢٤/٤

بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني (٢) .

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله (٣) بن محمد العتبي -من ولد عتبة بن أبي سفيان-حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة (٤) .

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى:: ﴿ فبشرناه بغلام حليم ﴾ ، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: ﴿ وبشروه بغلام عليم ﴾ [الذاريات:٢٨]. وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم (٥) .

وقوله: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ ، لما تقدمت البشارة بالذبيح -وهو إسماعيل-عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي (٦) هود" و "الحجر" (٧) .

وقوله: ﴿ نبيا ﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال : قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿ ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا ﴾ [مريم:٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿ وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين ﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده (٨) .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة،

---

(١) في س: "الخبر".

(٢) تفسير الطبري (٢٣/٥٤).

(٣) في أ: "عبد الله".

(٤) في أ: "من نسخة كذا والله أعلم".

(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية -رحمه الله- في الفتاوى. انظر المواضع في: الفهرس العام (٣٦/٣٢).

(٦) في ت: "سورة".

(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣.

(٨) تفسير الطبري (٢٣/٥٧).." [١]

"أن من الناس من قال : المراد من السجود التواضع لا وضع الجبهة على الأرض ، وإن سلم أنه وضع الجبهة لكنه قال : السجود لله وآدم قبله ، فزال الإشكال ، وإن سلم أن السجود كان لآدم ، فلم قلتم : إن ذلك لا يجوز من الأشرف ؟ وذلك لأن الحكمة قد تقتضي إظهار نهاية الانقياد ، والطاعة ، فإن للسلطان أن يجلس عبدا من عبيده ، ويأمر الأكابر بخدمتهن ويكون غرضه إظهار كونهم مطيعين منقادين له في كليات الأمور ، وأيضا فإن الله – تعالى – يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فإن أفعاله غير معللة ، ولذلك قلنا : إنه لا اعتراض عليه في خلق الكفر في الإنسان ، ثم يعذبه عليه أبد الآباد ، وإذا كان كذلك ، فكيف يعترض عليه في ان أمر الأعلى بالسجود لمن هو دونه.

وأما الحجة الثانية فجوابها أن كون آدم خليفة في الأرض وهذا يقتضي أن يكون آدم – عليه السلام – كان أشرف من كل من في الأرض ولا يدل على كونه أشرف من ملائكة السماء.

فإن قيل : فلم لم يجعل واحدا من ملائكة السماء خليفة له في الأرض ؟ قلت : لوجوه : منها أن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة ، ومنها أن الجنس إلى الجنس أميل.

وأما الحجة الثالثة : فلا نسلم أن آدم كان أعلم منهم ، وأكثر ما في الباب أن آدم – عليه الصلاة والسلام – كان عالما بتلك اللغات ، وهم ما علموها ، لكنهم لعلهم كانوا عالمين بسائر الأشياء ، مع أن آدم – عليه السلام – ما كان عالما بها ويحقق هذا أن محمدا – عليه أفضل الصلاة والسلام – أفضل من آدم – عليه السلام – مع أن محمدا ما كان عالما بهذه اللغات بأسرها ، وأيضا فإن " إبليس "كان عالما بأن قرب الشجرة مما يوجب خروج آدم من الجنة ، وأن آدم – عليه السلام – ليس كذلك ، والهدهد قال لسليمان صلوات الله وسلامه عليه : ﴿أحطت بما لم تحط به﴾ [النمل : ٢٢] ولم يكن أفضل من سليمان ، سلمنا أنه كان أعلم منهم ، ولكن لم لم يجز أن يقال : إن طاعنهم أكثر إخلاصا من طاعة آدم عليه الصلاة والسلام ؟ .

وأما الحجة الرابعة : فهي قوية.

وأما الخامسة : فلا يلزم من كون محمد – عليه الصلاة والسلام – رحمة لهم أن يكون أفضل منهم كما في قوله تعالى : ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتهآ﴾ [الروم : ٥٠] ولا يمتنع أن يكون – عليه الصلاة والسلام – رحمة لهم من وجه ، وهم يكونون رحمة له من وجه آخر.

وأما الحجة السادسة : وهي أن عبادة البشر أشق فهذا ينتقض بما أنا نرى الواحد من الصوفية يتحمل في طريق المجاهدة من المشاق والمتاعب ما يقطع بأنه – عليه الصلاة والسلام – لم يتحمل مثلها مع أنا نعلم أن محمدا عليه الصلاة والسلام أفضل من الكل.

أما الحجة السابعة : فهي جمع بين الطرفين من غير جامع.

---

(١) تفسير ابن كثير / دار طيبة، ٧/٣٥

فإن قيل : فإذا لم يكن افضل منهم ، فما الحكمة بالأمر بالسجود له ؟ قيل له : إن الملائكة لما استعظموا تسبيحهم ، وتقديسهم أمرهم بالسجود لغيره ليريه استغناءه عنهم ، وعن عبادتهم.

وقال بعضهم : عيروا آدم واستصغروه ولم يعرفوا خصائص الصنع به ، فأمروا بالسجود له تكريما ، ويحتمل أن يكون إنما أمرهم بالسجود له معاقبة لهم على قولهم : ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ [البقرة : ٣٠].

فإن قيل : فقد استدل ابن عباس - رضي الله تعالى عنه - على فضل البشر بأن الله - تعالى - أقسم بحياة محمد عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿لعمرك﴾ [الحجر : ٧٢] وأمنه من العذاب لقوله : ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ [الفتح : ٢] ، وقال للملائكة : ﴿ومن يقل منهم إنى إله من دونه فذالك نجزيه جهنم﴾ [الأنبياء : ٢٩].

قيل له : إنما لم يقسم بحياة الملائكة كما لم يقسم بحياة نفسه سبحانه فلم يقل : " لعمري " وأقسم بالسماء والأرض ، ولم يدل على أنها أرفع قدرا من العرش ، وأقسم بـ " التين والزيتون ".

وأما قوله سبحانه : " ومن يقل منهم إني إله من دونه " فهو نظير قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿لئن أشركت﴾ [الزمر : ٦٥] وهذا آخر الكلام في هذه المسألة.

قوله : " إلا إبليس " " إلا " حرف استثناء ، و " إبليس " نصب على الاستثناء ، وهل نصبه بـ " إلا " وحدها أو بالفعل وحده أو به بوساطة " إلا " أو بفعل محذوف أو بـ " أن " أقوال ؟ وهل هو استثناء متصل أو منقطع ؟ خلاف مشهور.

والأصح أنه متصل - وأما قوله تعالى : ﴿إلا إبليس كان من الجن﴾ [الكهف : ٥٠] ، فلا يرد ؛ لأن الملائكة قد يسمونه جنا لاجتنابهم ، قال الشاعر في سليمان : [الطويل] ٣٨٤ - وسخر من جن الملائك تسعة

قياما لديه يعملون بلا أجر

جزء : ١ رقم الصفحة : ٤٦٣

." (١)

"السلام ، ولقوا منهم الجهد ، فبلغ ذلك ملك الروم ، وكان ملك اليهود من رعيته ، فقيل له : إن رجلا من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله ، وأراهم إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وفعل وفـل ، فقال : لو علمت ذلك ما خليت بينهم وبينه.

ثم بعث إلى الحواريين ، فانتزعهم من أيديهم وسالهم عن عيسى ، فأخبروه وبايعوه على دينهم ، وأنزل المصلوب ، فغيبه ، وأخذ الخشبة ، فأكرمها وصانها ، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقا عظيما ، ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم وكان اسم هذا الملك طباريس ، وصار نصرانيا إلا أنه ما أظهر ذلك ، ثم جاء بعده ملك آخر يقال طبطيوس غزا بيت المقدس بعد رفع عيسى بنحو من أربعين سنة ، فقتل وسبى ، ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجرا على حجر ، فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز ، فهذا كله مما جازاهم الله تعالى به على تكذيب المسيح والهم بقتله.

الرابع : أن الله تعالى سلط عليهم ملك فارس ، فقتلهم ، وسباهم ، وهو قوله : ﴿بعثنا عليكم عبادا لنآ أولي بأس شديد

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/١٣٩

فجاسوا خلال الديار﴾ [الإسراء : ٥] فهذا هو مكر الله – تعالى – بهم.

الخامس : يحتمل أن يكون المراد منهم أنهم مكروا في إخفاء أمره ، وإبطال دينه ، ومكر الله بهم ، حيث أعلى دينه ، وأظهر شريعته ، وقهر بالذل أعداءه – وهم اليهود.

وفي قوله : ﴿والله خير الماكرين﴾ إيقاع الظاهر موقع المضمر ؛ إذ الأصل : ومكروا ومكر الله ، وهو خير بالماكرين

قوله : ﴿إذ قال الله﴾ في ناصبه ثلاثة أوجه : أحدها : قوله : ﴿ومكر الله﴾ أي : مكر الله بهم في هذا الوقت.

الثاني : ﴿خير الماكرين﴾.

الثالث : ﴿إني متوفيك ورافعك إلي﴾ ، فيه وجهان : أحدهما : وهو الأظهر – أن يكون الكلام على حاله – من غير ادعاء تقديم وتأخير فيه – بمعنى إني مستوفي أجلك ومؤخرك وعاصمك من أن يقتلك الكفار ، إلى أن تموت حتف أنفك – من غير أن تقتل بأيدي الكفار – ورافعك إلى سمائي.

الثاني : أن في الكلام تقديما وتأخيرا ، والأصل : رافعك إلي ومتوفيك ؛ لأنه رفع إلى السماء ، ثم يتوفى بعد ذلك ، واواو للجمع ، فلا فرق بين التقديم والتأخير قاله أبو البقاء.

ولا حاجة إلى ذلك مع إمكان إقرار كل واحد في مكانه مما تقدم من المعنى ، إلا

٢٦٥

أن أب البقاء حمل التوفي على الموت ، وذلك إنما هو بعد رفعه ، ونزلوه إلى الأرض وحكمه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الحديث.

فعلى الأول ففيه وجوه : أحدها : إني متمم عمرك ، وإذا تم عمرك فحينئذ أتوفاك كما قدمناه.

الثاني : إني مميتك ، والمقصود منه ألا يصل أعدؤه من اليهود إلى قتله.

وهو مروي عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق ، وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه : الأول : قال وهب : توفي ثلاث ساعات ، ثم رفع وأحيي.

الثاني : قال محمد بن إسحاق : توفي سبع ساعات ، ثم أحياه الله ورفعه.

الثالث : قال الربيع بن أنس : إنه – تعالى – أنامه حال رفعه إلى السماء ، قال تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر : ٤٢].

وثالثها : أن الواو لا تفيد الترتيب ، فالأمر فيه موقوف على الدليل ، وقد ثبت أنه حي ، وأنه ينزل ويقتل الدجال ثم يتوفاه الله بعد ذلكز رابعها : إني متوفيك عن شهواتك ، وحظوظ نفسك ، فيصير حاله كحال الملائكة – في زوال [الشهوات] والغضب والأخلاق الذميمة – .

خامسها : أن التوفي اخذ الشيء وافيا ، ولما علم الله **أن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه ، لا جسده ، ذكر ذلك ؛ ليدل على أنه – عليه السلام – رفع بتمامه إلى السماء – بروحه وجسده.

وسادسها : إني متوفيك ، أي جاعلك كالمتوفى ؛ لأنه إذا رفع إلى السماء ، وانقطع خبره ، وأثره عن الأرض كان

كالمتوفى ، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

وسابعها : أن التوفي هو القبض ، يقال : فلان وفاني دراهمي ، ووافاني ، وتوفيتها منه ، كما يقال سلم فلان درامي إلي ، وتسلمتها منه.

فإن قيل : فعلى هذا يكون التوفي في عين الرفع ، فيصير قوله : ﴿ورافعك إلي﴾ تكرارا ، فالجواب : أن قوله ﴿إني متوفيك﴾ يدل على حصول التوفي ، وهو جنس تحته أنواع ، بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد ، فلما قال : ﴿ورافعك إلي﴾ صار تعيينا للنوع ، فلم يكن تكرارا.

ثامنها : أن يقدر حذف مضاف ، أي : متوفي عملك ، بمعنى مستوفي عملك ،

٢٦٦

" (١).

"على الديمومة ؛ كقوله : ﴿ يا أيها النبي اتق الله﴾ [الأحزاب : ١] ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ [النساء : ١٣٦].

وقوله : " ما " يحتمل أن تكون اسمية بمعنى " الذي " ولا يجوز أن تكون نكرة موصوفة ؛ لأنه مأمور بتبليغ الجميع كما مر ، والنكرة لا تفي بذلك ؛ فإن تقديرها : " بلغ شيئا أنزل إليك " ، وفي " أنزل " ضمير مرفوع يعود على ما قام مقام الفاعل ، وتحتمل على بعد أن تكون " ما " مصدرية ؛ وعلى هذا ؛ فلا ضمير في " أنزل " ؛ لأن " ما " المصدرية حرف على الصحيح ؛ فلا بد من شيء يقوم مقام الفاعل ، وهو الجار بعده ؛ وعلى هذا : فيكون التقدير : بلغ الإنزال ، ولكن الإنزال لا يبلغ فإنه معنى ، إلا أن يراد بالمصدر : أنه واقع موقع المفعول به ، ويجوز أن يكون المعنى : " اعلم بتبليغ الإنزال " ، فيكون مصدرا على بابه.

والمعنى أظهر تبليغه ، كقوله تعالى : ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ [الحجر : ٩٤].

فصل روي عن مسروق [قال] : قالت عائشة - رضي الله عنها - : " من حدثك أن محمدا - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كتم شيئا مما أنزل الله ، فقد كذب " وهو سبحانه وتعالى يقول : ﴿ياأيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

وروي عن الحسن : أن الله لما بعث رسوله ، وعرف أن من الناس من يكذبه ، فنزلت هذه الآية ، وقيل : نزلت في عيب من اليهود وذلك أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - دعاهم إلى الإسلام ، فقالوا : أسلمنا قبلك ، وجعلوا يستهزئون به فيقولون : تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذ النصارى عيسى حنانا ، فلما رأى النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ذلك سكت ، فنزلت هذه الآية ، فأمره أن يقول لأهل الكتاب : ﴿لستم على شيء﴾ [المائدة : ٦٨] الآية.

وقيل : بلغ الإنزال ما أنزل إليك من الرجم والقصاص في قصة اليهود ، وقيل : نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها.

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/١٠٩٢

٤٣٧
(١) ".

"عليه الصلاة والسلام : " إن غم عليكم فاقدروا له " أيك فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة ، ثم يقال لمن عرف شيئا : هو يقدر قدره ، وإن لم يعرفه بصفاته : إنه لا يقدر قدره ، فقوله : " وما قدروا الله حق قدره " صحيح في كل المعاني المذكورة ولما حكى عنهم أنهم ما قدروا الله حق قدره بين السبب فيه ، وهو قولهم : ﴿مآ أنزل الله على بشر من شيء﴾.

واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته ، وتقديره من وجوه : الأول : أن منكر البعث والرسالة إما أن يقول : إنه – تبارك وتعالى – ما كلف أحدا من الخلق [تكليفا أصلا] أو يقول : إنه – تبارك وتعالى – كلفهم ، والأول باطل ؛ لأن ذلك يقتضي أنه – تبارك وتعالى – أباح لهم جميع المنكرات والقبائح ، نحو [شتم] الله ووصفه بما لا يليق به والاستخفاف بالأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والرسل ، والإعراض عن شكر الله – تعالى – ومقابلة الإنعام بالإساءة ، وكل ذلك باطل.

وإن سلم أنه – تعالى – كلف الخلق بالأمر [والنهي فهاهنا لا بد] من مبلغ وشارع مبين ، وما ذلك إلا للرسول.

فإن قيل لم لا يجوز أن يقال : العقل كاف في إيجاب الموجبات ، واجتناب المقبحات ؟ فالجواب : هب أن الأمر كما قلتم إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – فصبت أن كل من منع من البعثة والرسالة ، فقد طعن في حكمة الله – تعالى – وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية ، وحينئذ يصدق في حقه قوله تبارك وتعالى : ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا﴾.

والوجه الثاني في تقرير هذا المعنى : **أن من الناس من** يقول : إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ لأن يمتنع [إظهار] المعجزة على وفق دعواه تصديقا له ، والقائلون بهذا القول لهم مقامات.

أحدها : أن يقولوا : إنه ليس في الإمكان خرق العادات ، ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة.

والثاني : يسلمون إمكان ذلك ، إلا أنهم يقولون : إن بتقدير حصول هذه الأفعلا الخارقة للعادات ، فلا دلالة لها على صدقه من الرسالة ، وكلا القولين يوجب القدح في كمال قدرة الله – تعالى – .

٢٧٥
(٢) ".

"لما ذكر البراهين الخمسة من دلائل العالم الأعلى والأسفل على ثبوت الإلهية ، وكمال القدرة الحكمة ، ذكر بعد ذلك **أن من الناس من** أثبت لله شركاء ، وهذه المسألة تقدم ، إلا أن المذكور هنا غير ما تقم ذكره ؛ لأن مثبتي الشريك طوائف منها عبدة الأصنام فهم يقولون : الأصنام شركاء لله في العبودية والتكوين.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/١٨٣٤

(٢) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢١١٨

ومنها من يقول : مدبر هذا العالم هو الكواكب ، وهؤلاء فريقان منهم من يقول : إنها وجبة الوجود لذواتها ، ومنهم من يقول : إنها ممكنة الوجود بلذواتها محدثة ، خالقها هو الله تبارك وتعالى ، إلا أنه تبارك وتعالى فوض تدبير هذا العالم الأسفل إليها ، وهؤلاء هم الذين ناظرهم الخليل عليه السلام بقوله : ﴿لا اا أحب الآفلين﴾ [الأنعام : ٧٦].

ومنها الذين قالوا : للعالم إلهان : أحدهما : يفعل الخير خلاق النور والناس والدواب والأنعام والثاني : يفعل الشر ، [وهو إبليس] خالق الظلمة ، والسباع والحيات والعقارب ، وهم مذكورون هاهنا.

قال ابن عباس رضي الله عنها والكلبي : نزلت هذه الآية في الزنادقة أثبتوا الشرك لإبليس [في الخلق].

قال ابن عباس رضي الله عنهما : والذي يقوي هذا قوله تعالى : ﴿وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا﴾ [الصافات : ١٥٨] فإنما وصف بكونه من الجن ؛ لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار ، والملائكة الروحانيون لا يرون بالعيون ، فصارت كأنها مستترة عن العيون ، فلهذا أطلق لفظ الجن عليها.

قال ابن الخطيب – رحمه الله – : هو مذهب المجوس ، وإنما قال ابن عباس رضي الله عنهما : هذا قول الزنادقة ؛ لأن المجوس يلقبون بالزنادقة ؛ لأن لاكتاب الذي زعم زادشت أنه نزل عليه من عند الله تبارك وتعالى مسمى بالزند ، والمنسوب إليه يسمى زيندي ، ثم أعرب فقيل : زنديق ، ثم جمع فقيل : الزنادقة.

واعلم أن المجوس قالوا في كل ما في هذا العالم نم الخيرات فهو من يزدان ، وجميع ما فيه من الشر فهو من أهرمن وهو المسمى بـ " إبليس " في شرعنا ، ثم اختلفوا فقال أكثرهم : هو محدث ، ولهم في كيفية حدوثه أقوال عجيبة.

وقال بعضهم : إنه قديم أزلي ، واتفقوا أنه شريك لله – تعالى – في تدبير هذا العالم ، فخيره من الله تبارك وتعالى ، وشره من إبليس لعنه الله ، فهذا شرح قول ابن عباس رضي الله عنهما.

فإن قيل : القوم أثبتوا لله شريكا واحدا ، وهو إبليس ، فكيف حكى الله تعالى عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء.

فالجواب : أنهم يقولون : عسكر الله هم الملائكة ، وعسكر إبليس هم الشياطين ،

٣٣٢

والملائكة فيهم كثرة عظيمة ، وهم أرواح طاهرة مقدسة يلهمون الأرواح البشرية للخيرات والطاعات ، والشياطين فيهم أيضا كثرة عظيمة تلقي الوساوس الخبيثة إلى الأرواح البشرية ، والله تبارك وتعالى مع عسكره من الملائكة يحاربون إبليس مع عسكره من الشياطين ، فلهذا حكى الله تبارك وتعالى عنهم أنهم أثبتوا لله شركاء الجن.

قوله : " شركاء الجن " الجمهور على نصب " الجن " وفيه خمسة أوجه : أحدها : وهو الظاهر أن الجن هن المفعول الأول.

والثاني : هو " شركاء " قدم ، و " لله " متعلق بـ " شركاء " ، والجعل هنا بمعنى التصيير ، وفائدة التقديم كما قال الزمخشري استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكا أو جنيا أو إنسيا ، ولذلك قد مسام الله – تبارك وتعالى – على الشركاء انتهى.

ومعنى كونهم جعلوا الجن شركاء لله هو أنهم يعتقدون أنهم يخلقون من المضار والحيات والسباع ، [كما جاء في التفسير].

وقيل : ثم طائفة من الملائكة يسمون الجن كان بعض العرب يعبدها.
الثاني : أن يكون " شركاء " مفعولا أول ، و " لله " متعلق بمحذوف على أنه المفعول الثاني ، و " الجن " بدل من " شركاء " أجاز ذلك الزمخشري ، وابن عطية ، والحوفي ، وأبو البقاء ، و مكي بن أبي طالب إلا أن مكيا لما ذكر هذا الوجه جعل اللام من " لله " متلقة بـ " جعل " فإنه قال : الجن مفعول أول لـ " جعل و " شركاء " مفعول ثان مقدم ، واللام في " لله " متعلقة بـ " شركاء " وإن شئت جعلت " شركاء " معفولا أول ، و " الجن " بدلا من " شركاء " و " لله " في موضع المفعول الثاني ، واللام متعلقة بـ " جعل ".
قال شهاب الدين : بعد أن جعل " لله " مفعولا ثانيا كيف يتصور أن يجعل اللام متعلقة بالجعل ؟ هذا ما لا يجوز لأنه لما صار مفعولا ثانيا تعين تعلقه بمحذوف عل ما عرفته غير مرة.
قال أبو حيان : " وما أجازوه – يعني الزمخشري وممن معه – لا يجوز ؛ لأنه يصح ببلدل أن يحل محضل المبدل منه ، فيكون الكلام منتظما لو قلت : وجعلوا لله الجن لم يصح ، وشرط البدل أن يكون على نية تكرار العامل على أشهر القولين ، أو معمولا للعامل في المبدل منه على قول ، وهذا لا يصح هنا ألبتة لما ذكرنا ".
٣٣٤
." (١)

"آية أخرى : ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ [ص : ٨٢] يدل على أنه أضاف إغواء العباد غلى نفسه ، فالأول دل على مذهب أهل الجبر ، والثاني يدل على مذهب [أهل] القدر ، وهذا يدل على أنه طكان متحيرا في هذه المسألة.
وقد يقال : إنه كان معتقدا بأن الإغواء لا يحصل إلا بالمغوي فجعل نفسه مغويا لغيره من الغاوين ثم زعم أن المغوي له هو الله – تعالى – قطعا للتسلسل.
واختلفوا في تفسير هذه الكلمة ، فقال أهل السنة : الإغواء إيقاع الغي في القلب ، والغي هو الاعتقاد الباطل ، وذلك يدل على أنه كان يعتقد أن الحق والباطل أنما يقع في القلب من الله.
وأما المعتزلة فلهم ههنا مقامات.
أحدها : أن يفسروا الغي بما ذكرناه ، ويعتذروا عنه بوجوه.
منها : أن قالوا : هذا قول إبليس ، فهب أن إبليس اعتقد أن خالق الغي ، والجهل ، والكفر هو الله ، إلا أن قول إبليس ليس بحجة.
ومنها قالوا : إنه تعالى لما أمره بالسجود لآدم ؛ فعند ذلك ظهر غيه وكفره ، فجاز أن يضيف ذلك إلى الله – تعالى – لهذا المعنى ، وقد يقول القائل : لا تحملني على ضربك أي : لا تفعل ما أضربك عنده.
ومنها : أن قوله ﴿رب بما أغويتني﴾ أي : لعنتني ، والمعنى أنك لما لعنتني بسبب آدم ؛ فأنا لأجل هذه العداوة ؛ ألقي الوساوس في قلوبهم.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢١٤٩

المقام الثاني : أن يفسروا الإغواء بالهلاك ، ومنه قوله تعالى : ﴿فسوف يلقون غيا﴾ [مريم : ٥٩] أي : هلاكا وويلا ، ومنه أيضا قولهم : غوى الفصيل يغوي غوى ؛ إذا أكثر من اللبن حتى يفسد جوفه ويشارف الهلاك والعطب.

وفسروا قوله تعالى : ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ [هود : ٣٤] إن كان الله يريد أن يهلككهم بعنادكم للحق.

فهذا جميع الوجوه المذكورة.

قال ابن الخطيب : ونحن لا نبالغ في بيان أن المراد من الإواء في هذه الآية الإضلال ؛ لأن حاصله يرجع إلى قول إبليس ، وإنه ليس بحجة إلا أنا نقيم البرهان اليقيني على أن المغوي لإبليس هو الله - تعالى - وذلك ؛ لأن الغاوي لا بد له من مغو ، والمغوي له إما أن يكون نفسه ، أو مخلوقا آخر ، أو الله - تعالى - والأول باطل ؛ لأن

٤٠

العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية ، والثاني أيضا باطل ، وإلا لزم إما التسلسل وإما اغلدور ، والثالث هو المقصود.

فصل في المراد من الإقعاد المراد من قوله : ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ، ولهذا المعنى ذكر القعود ؛ لأن من أراد المبالغة في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال ، فيمكنه إتمام المقصود.

ومواظبته على الإفساد ، هي مواظبته على الوسوسة بحيث لا يفتر عنها.

قال المفسرون : معنى ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي : بالصد عنه وتزيين الباطل ؛ حتى يهلكوا كما هلك ، أو يضلوا كما ضل ، أو يخيبوا كما خاب.

فإن قيل : هذه الآية دلت على أن إبليس كان عالما بالدين الحق ؛ لأنه قال ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ وصراطه المستقيم هو دينه الحق ، ودلت أيضا على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من الاعتقاد هو محض الغواية والضلال لأنه لو لم يكن كذلك لما قال : ﴿رب بمآ أغويتني﴾ [الحجر : ٣٩] ، وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية ، وبكونه مضادا للدين الحق ، ومنافيا للصراط المستقيم ، فإن المرء إنما يعتقد الاعتقاد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا ، فأما من علم أنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ، ويرضى به ، ويعتقده.

فالجواب : أن من الناس من قال : إن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل ، ومنهم من قال : كفره كفر جهل.

وقوله : ﴿فبمآ أغويتني﴾ ، وقوله : ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ يريد به في زعم الخصم ، وفي اعتقاده.

فصل في بيان هل على الله رعاية المصالح احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه

٤١

". (١)

"قوله : ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدهآ إياه﴾.

في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه : أحدها : أنه لا يتوهم إنسان أنه تعالى منع محمدا من بعض ما أذن لإبراهيم فيه.

وثانيها : أنه تعالى لما بالغ في وجوب الانقطاع عن المشركين الأحياء والأموات ، بين ههنا أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد – عليه الصلاة والسلام – ، بل وجوب الانقطاع مشروع أيضا في دين إبراهيم ؛ فتكون المبالغة في تقرير وجوب المقاطعة أكمل ، وأقوى.

وثالثها : أنه تعالى وصف إبراهيم بكونه حليما أي : قليل الغضب ، وبكونه أوها ، أي : كثير التوجع والتفجع عند نزول المضار بالناس ، ومن كان موصوفا بهذه الصفة كان ميل قلبه إلى الاستغفار لأبيه شديدا ؛ فكأنه قيل : إن إبراهيم مع جلالة قدره ، وكونه موصوفا بالأواهية والحلمية منعه الله من الاستغفار لأبيه الكافر ، فمنع غيره أولى.

قوله : " وعدهآ إياه ".

اختلف في الضمير المرفوع ، والمنصوب المنفصل ، فقيل – وهو الظاهر – إن المرفوع يعود على " إبراهيم " ، والمنصوب على " أبيه " ، يعني : أن إبراهيم كان وعد أباه أن يستغفر له ، ويؤيد هذا قراءة الحسن ، وحماد الراوية.

وابن السميفع ومعاذ القارئ " وعدها أباه " بالباء الموحدة.

وقيل : المرفوع لأبي إبراهيم والمنصوب لـ " إبراهيم ".

وفي التفسير أنه كان وعد إبراهيم أنه يؤمن ؛ فلذلك طمع في إيمانه.

فصل دل القرآن على أن إبراهيم استغفر لأبيه ، لقوله : ﴿واغفر لأبى ﴾ [الشعراء : ٨٦] وقوله : ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ [إبراهيم : ٤١] وقال : ﴿سلام عليك سأستغفر لك ربى ﴾ [مريم : ٤٧] وقال أيضا ﴿لأستغفرن لك﴾ [الممتحنة : ٤] ، والاستغفار للكافر لا يجوز.

فأجاب تعالى عن هذا الإشكال بقوله ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدهآ إياه﴾ والمعنى : أن أباه وعده أن يؤمن ؛ فلذا استغفر له ، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله ، تبرأ منه.

وقيل : إن الواعد " إبراهيم " وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه وقيل في الجواب وجهان آخران : الأول : أن المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإسلام ، وكان يقول له آمن حتى تتخلص من العقاب ، ويدعو الله أن يرزقه الإيمان فهذا هو الاستغفار ، فلما أخبره تعالى بأنه يموت كافرا وترك تلك الدعوة.

٢٢٢

والثاني : أن من الناس من حمل قوله : ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا اا أن يستغفروا للمشركين﴾ على صلاة الجنازة لا على هذا الطريق ، قالوا : ويدل عليه قوله : ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ [التوبة : ٨٤].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٢٢٩٦

فصل اختلفوا في السبب الذي تبين إبراهيم به أن أباه عدو لله.

فقيل : بالإصرار والموت وقيل : بالإصرار وحده.

وقيل : بالوحي.

فكأنه تعالى يقول : لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه ؛ فكونوا كذلك ، لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله : ﴿اتبع ملة إبراهيم﴾ [النحل : ١٢٣].

قوله : ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

الأواه : الكثير التأوه ، وهو من يقول : أواه ، وقيل : من يقول : أوه ، وهو أنسب ؛ لأن " أوه " بمعنى : أتوجع ، فـ " الأواه " : فعال مثال مبالغة من ذلك ، وقياس فعله أن يكون ثلاثيا ؛ لأن أمثله المبالغة إنما تطرد في الثلاثي وقد حكى قطرب فعله ثلاثيا ، فقال : يقال : آه يئوه ، كـ " قام يقوم ، " أوها ".

وأنكر النحويون هذا القول على قطرب ، وقالوا : لا يقال من " أوه " بمعنى : أتوجع ، فعل ثلاثي ، إنما يقال : أوه تأويها ، وتأوه تأوها ؛ قال الراجز : [الرجز]

٢٨٥٠ - فأوه الراعي وضوضى أكلبه

وقال المثقب العبدي : [الوافر] ٢٨٥١ - إذا ما قمت أرحلها بليل

تأوه آهة الرجل الحزين

جزء : ١٠ رقم الصفحة : ٢١٥

" (١).

"إن الكفار كلهم مغفور لهم ؛ لأن الله ـ تعالى ـ أخر عقابهم إلى الآخرة.

وعن الثاني : أن الله تمدح بهذا ، التمدح إنما يصحل بالتفضيل ، أما أداء الواجب ، فلا تمدح فيه ، وعندكم يجب غفران الصغائر.

وعن الثالث : أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة ؛ فسقطت الأسئلة.

قوله : ﴿على ظلمهم﴾ حال من " الناس " والعامل فيها ، قال أبو البقاء " مغفرة " يعني : أنه هو العامل في صاحبها.

قوله تعالى : ﴿ويقول الذين كفروا لولا اا أنزل عليه آية من ربه﴾ الآية شلما بين ـ تعالى أنهم طعنوا في النبوة بسبب طعنهم في الحشر والنشر ثم طعنوا في النبوة أيضا بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول العذاب ، بين أيضا أنهم طعنوا في نبوته ، وطلبوا منه المعجزة.

والسبب في كونهم أنكروا كون القرآن معجزة : أنهم قالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب ، وإتيان الإنسان بتصنيف معين لا يكون معجزا ، وإنما يكون المعجز مثل معجزات موسى.

واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لم يظهر معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم سوى القرآن ، قالوا : لأن هذا الكلام

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٢٦٩٥

إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا ولم يظهر معجزا غيره ؛ لأنه لو ظهر معجزة مغيره لم يحسن أن يقال : ﴿لولا اا أنزل عليه آية من ربه﴾ وهذا يدل على أنه - عليه الصلاة والسلام - ما كان له معجزة سوى القرآن.

والجواب : عنه من وجهين : الأول : لعل○○ المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها من حنين الجزع ، ونبع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير الطعام القليل ؛ فطلبوا منه معجزاتن قاهرة غير هذه ، مثل : فلق البحر لموسى ، وقلب العصا ثعبانا.

فإن قيل : فما السبب في أن ا لله منعهم ، وما أعطاهم ؟ .

فالجواب : أن الله - تعالى - لما أظهر المعجزة الواحدة ، فقد تم الغرض ، فيكون طلب الثاني تحكما ، وظهور القرآن معجزةم ، فما كان من ذلك حاجة إلى معجزات آخر.

وأيضا : فلعله - تعالى - علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور المعجزة الملتمسة وكونهم يصيرون حينئذ يستوجبون عذاب الاستئصال ، فلهذا السبب ما أعطاهم ملطوبهنم ، وقد بين الله - تعالى - ذلك بقوله : ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال : ٢٣] فبين أنه لم يعطهم مطلوبهم ، لعلمه أنهم لا ينتفعون به.

وأيضا : ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له ، وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء آخر ، وطلب معجزة أخرى ، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وهو باطل.

٢٥٦

والوجه الثاني : لعل الكفار قالا ذلك قبل مشاهدة سائر المعجزات.

ثم قال : " إنما أنت منذر " مخوف.

قوله : ﴿ولكل قوم هاد﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن هذا الكلام مستأنف مستقبل من مبتدأ ، وخبر.

والثاني : أن " لكل قوم " متعلق - " هاد " ، و " هاد " نسق على " منذر " ، أي : إنما أنت منذر وهاد لكل قوم ، وفي هذا الوجه الفصل بين حرف العطف ، والمعطوف بالجار وفيه خلاف تقدم.

ولما ذكر أبو حيان هذا الوجه ، لم يذكر هذا الإشكال ، ومن عادته ذكره ردا به على الزمخشري.

الثالث : أن " هاد " خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : إنما أنت منذر ، وهو لكل قوم هاد ، ف " لكل " متعلق به أيضا.

ووقف ابن كثير على " هاد " [الرعد : ٣٣] [الزمر : ٢٣ ، ٣٦] و " واق " حيث وقعا ، وعلى " وال " نا و " باق " [النحل : ٩٦] [الرعد : ٣٤ ، ٣٧] في النحل بإثبات الياء ، وحذفها الباقون.

ونقل ابن مجاهد عنه : أنه يقف بالياء في جميع الياءات.

ونقل عن ورش : أنه خير في الوقف بين الياء ، وحذفها.

والباب : هو كل منقوص منون غير منصرف ، واتفق القراء على التوحيد في " هاد ".

فصل إذا جعلنا " ولكل قوم هاد "كلاما مستأنفا ، فالمعنى : أن الله - تعالى - خص كل قوم بنبي ، ومعجزة تلائمهم ، فلما كان الغالب في زمن موسى - عليه السلام - السحر ؛ جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم ، ولما كان الغلب في زمن عيسى - عليه الصلاة والسلام - الطب ، جعل معجزته ما كان من تلك الطريقة ، وهي إحياء الموتى ، وإبراء الأكمة

، والأبرص ، ولما كان الغالب في زمان محمد صلى الله عليه وسلم الفصاحة ، والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان ، وهو فصاحة القرآن ، فلما لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع أنها أليق بطبائهم ، فبأن لا يؤمنون بباقي المعجزات أولى ، هذا تقرير القاضي ، وبه ينتظم الكلام.

٢٥٧

(١) ".

"السابع : أن من الناس من يقول : إن الحيوان إنما يبصر المرئيات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمرئيات ، فإذا فتحنا العين ، ونظرنا إلى شخص ، رأيناه ، فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى الشخص في تلك اللحظة اللطيفة ، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات ، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه.

المقدمة الثانية : في بيان أن هذه الحركة ، لما كانت ممكنة الوجود في نفسها ، وجب ألا يمتنع حصولها في جسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه ثبت بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهيتها ، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام ، وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام ، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله عليه وسلم أمر ممكن الوجود في نفسه.

وإذا ثبت هذا فنقول : ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات ، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن ؛ فوجب كونه تعالى قادرا عليه ، فلزم من مجموع هذه المقامات : أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه ، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب ، إلا أن التعجب غير مخصوص بهذا المقام ، بل هو حاصل في جميع المعجزات ، فانقلاب العصا ثعبانا يبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي ، ثم تعود في الحال عصا صغيرة ، كما كانت أمر عجيب ، وخروج الناقة من الجبل الأصم أمر عجيب ، وإظلال الجبل في الهواء أمر عجيب ، وكذا سائر المعجزات ، فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع ، لزم الجزم بفساد القول بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام ، لكن القول بإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة ، وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال ، فكذا هنا.

فصل في ترجيح القول بالإسراء بالجسد والروح قال المحققون : إنه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى ؛ ويدل عليه القرآن والخبر : أما القرآن ، فهذه الآية ؛ وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح ، قال تعالى : ﴿أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ﴾ [العلق : ٩ - ١٠] وقال تعالى : ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن : ١٩].

وأما الخبر ، فما روى أنس بن مالك : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة ، فنزل جبريل - عليه السلام - ففرج صدري ، ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا ، ففرغه

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٠٥١

في صدري ، ثم أطبقه ".

٢٠٠

." (١)

"على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون : الإنسان شيء لا ينقسم وإنه ليس بجسم.

وقال : " فتبارك الله " أي : فتعالى الله ، لأن البركة يرجع معناها إلى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشيء فقد علاه.

ويجوز أن يكون المعنى البركات والخيرات كلها من الله.

وقيل : أصله من البروك وهو الثبات ، فكأنه قال : البقاء والدوام والبركات كلها منه ، فهو المستحق للتعظيم والثناء بأنه لم يزل ولا يزال " أحسن الخالقين " المصورين والمقدرين.

والخلق في اللغة : التقدير ، قال زهير : ٣٧٨٧ – ولأنت تفري ما خلقت وبع

ض القوم يخلق ثم لا يفري

قوله : " أحسن الخالقين " فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أنه بدل من الجلالة.

الثاني : أنه نعت للجلالة ، وهو أولى مما قبله ، لأن البدل بالمشتق يقل.

الثالث : أن يكون خبر مبتدأ مضمر أي : هو أحسن ، والأصل عدم الإضمار.

وقد منع أبو البقاء أن يكون وصفا ، قال : لأنه نكرة وإن أضيف لمعرفة لأن المضاف إليه عوض عن " من " ، وهكذا جميع أفعل منك.

قال شهاب الدين : وهذا بناء منه على أحد القولين في أفعل التفضيل إذا أضيف هل إضافته محضة أم لا ، والصحيح الأول.

والمميز لأفعل محذوف لدلالة المضاف إليه

١٨١

عليه ، أي : أحسن الخالقين خلقا المقدرين تقديرا كقوله : ﴿أذن للذين يقاتلون﴾ [الحج : ٣٩] أي : في القتال حذف المأذون فيه لدلالة الصلة عليه.

فصل قالت المعتزلة : لولا أن يكون غير الله قد يكون خالقا لما جاز القول بأنه أحسن الخالقين ، كما لو لم يكن في عباده من يحكم ويرحم لم يجز أن يقال فيه : " أحكم الحاكمين " و " أرحم الراحمين ".

والخلق في اللغة : هو كل فعل وجد من فاعله مقدرا لا على سهو وغفلة ، والعباد قد يفعلون ذلك على هذا الوجه.

قال الكعبي : هذه الآية وإن دلت على أن العبد خالق إلا أن اسم الخالق لا يطلق على العبد إلا مع القيد ، كما أنه يجوز أن يقال : رب الدار ، ولا يجوز أن يقول : رب ، ولا يقول العبد لسيده : هذا ربي ، ولا يقال : إنما قال الله سبحانه ذلك لأنه وصف عيسى – عليه السلام – بأنه يخلق من الطين كهيئة الطير.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٢٧٧

لأنا نجيب من وجهين : أحدهما : أن ظاهر الآية يقتضي أنه سبحانه " أحسن الخالقين " الذين هم جمع فحمله على عيسى خاصة لا يصح.

الثاني : أنه إذا صح وصف عيسى بأنه يخلق صح أن غيره سبحانه يخلق وصح أيضا وصف غيره من المصورين بأنه يخلق.

وأجيب بأن هذه الآية معارضة بقوله : ﴿الله خالق كل شيء﴾ [الزمر : ٦٢] فوجب حمل

١٨٢

هذه الآية على أنه " أحسن الخالقين " في اعتقادكم وظنكم كقوله : ﴿وهو أهون عليه﴾ [الروم : ٢٧].

وجواب ثان ، وهو أن الخالق هو المقدر ، لأن الخلق هو التقدير ، فالآية تدل على أنه تعالى أحسن المقدرين ، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان ، وذلك في حق الله تعالى محال ، فتكون الآية من المتشابه.

وجواب ثالث : أن الآية تقتضي كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت إنه خالق بمعنى كونه موجدا.

فصل قالت المعتزلة : الآية تدل على أن كل ما خلقه الله حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين ، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقا للكفر والمعصية ، فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما.

وأجيب **بأن من الناس من** حمل الحسن على الأحكام والإتقان في التركيب والتأليف ، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله كل الأشياء ، لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعا له عن فعل شيء.

فصل روى الكلبي عن ابن عباس أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى إلى قوله : " خلقا آخر " عجب من ذلك فقال : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اكتب فهكذا نزلت " فشك عبد الله وقال : إن كان محمد صادقا فيما يقول ، فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه ، وإن كان كاذبا فلا خير في دينه ، فهرب إلى مكة ، فقيل : إنه مات على الكفر ، وقيل : إنه أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب : فتبارك الله أحسن الخالقين.

فقال رسول الله : " هكذا أنزل يا عمر ".

وكان عمر يقول : وافقني ربي في أربع : الصلاة خلف المقام ، وضرب الحجاب على النسوة ، وقولي لهن : أو ليبدله الله خيرا منكن ، فنزل قوله : ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ [التحريم : ٥] ، والرابع قوله : ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ قال العارفون : هذه الواقعة

١٨٣

". (١)

"بالوجهين ، وفي عطف المفرف بأل على المنادى المضموم ثلاثة مذاهب ، الثاني : عطفه على الضمير المستكن في " أوبي " وجاز ذلك ، للفصل بالظرف ، والثالث : الرفع على الابتداء والخبر مضمير أي والطير كذلك أي مؤوبة.

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٣٧٥٦

فصل لم يكن الموافقون له في التأويب منحصرا في الطير والجبال ولكن ذكر الجبال لأن الصخور للجمود والطير للنفور وكلاهما مستبعد منه الموافقة ، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ثم إن من الناس من لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة.

قال المفسرون كان داود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير على من فوقه فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم من ذلك وقيل : كان داود إذا تخلل الجبال

٢٢

فسبح الله جعلت الجبال تجاوبه بالتسبيح.

وقيل : كان داود إذا لحقه فتور أسمعه الله تسبيح الجبال تنشيطا له.

قوله : " وألنا " عطف على " آتينا " وهو من جملة الفضل ، قال ابن الخطيب : ويحتمل أن يعطف على " قلنا " في قوله ﴿يا جبال أوبي.....

وألنا﴾.

فصل ألان الله تعالى له الحديد حتى كان في يده كالشمع والعجين يعمل منه ما يشاء من غير نار ولا ضرب مطرقة وذلك في قدرت الله يسير ، روي أنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان الله له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدرع وأنه أول من اتخذها.

وإنما اختار الله له ذلك لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وتحفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل ، فالزراد خيرمن القواس والسياف وغيرهما ؛ لأن القوس والسيف وغيرهما من السلاح ربما يستعمل في قتل النفس المحرمة ، بخلاف الدرع قال عليه (الصلاة و) السلام : "كان داود لا يأكل إلا من عمل يده ".

قوله : ﴿أن اعمل﴾ فيه وجهان : أظهرهما : أنها مصدرية على حذف الجر أي لأن.

والثاني : قاله الحوفي وغيره إنها مفسرة لقوله : ﴿وألنا له الحديد أن اعمل سابغات﴾ ورد هذا بأن شرطها تقدم بما هو بمعنى القول ولم يتقدم إلا " ألنا " ، واعتذر بعضهم عن هذا بأن قدر ما هو بمعنى القول أي وأمرناه أن اعمل.

ولا ضرورة تدعو إلى ذلك ، وقرئ : " صابغات " لأجل الغين وتقديم تقديره في لقمان عند " وأسبغ عليكم نعمه ".

٢٣

فصل معنى " سابغات " أي كوامل واسعات طوالا تسحب في الأرض.

وذكر الصفة ويعلم منها الموصوف.

قوله : ﴿وقدر في السرد﴾ والسرد : نسيج الدروع يقال لصانعه : السراد " الزراد.

والمعنى قدر المسامير في حلق الدروع أي لا تجعل المسامير غلاظا فتكسر الحلق ولا دقاقا فتغلغل فيها.

ويقال السرد المسمار في الحلقة ، يقال : درع مسرودة أي مسمورة الحلق.

قودر في السرد أي اجعله على القصد وقدر الحاجة ، ويحتمل أ ، يقال السرد هو عمل الزرد.

وقوله : ﴿وقدر في السرد﴾ أي إنكم غيرمأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب (إنما) يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب.

ويدل عليه قوله تعالى : ﴿واعملوا صالحا﴾ أي لستم مخلوقين إلا للعمل الصالح فاعملوا ذلك وأكثروا منه ولاكسب فقدروا فيه ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله : ﴿إني بما تعملون بصير﴾ يريد بهذا والكسب فقدروا فيه ثم أكد طلب الفعل الصالح بقوله : ﴿إني بما تعملون بصير﴾ يريد بهذا داود وآله ، ثم لما ذكر المنيب الواحد منيبا آخر وهو سليمان كقوله تعالى : ﴿وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب﴾ [ص : ٣٤] ذكر ما ساتفاد من الإنابة وهو قوله تعالى : ﴿ولسليمان الريح﴾ العامة على النصب بإضمار فعل ، أي سخرنا لسليمان ، وأبو بكر بالرفع على الابتداء ، والخبر في الجار قبله أو محذوف ، وجوز أبو البقاء أن يكون فاعلا يعني بالجار ، وليس بقوي لعدم اعتماده وكان قد وافقه في الأنبياء غيره

،

٢٤

(١) ".

"ثم قال : ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ والمعنى أنه تعالى لما ذكر انتقال الأجسام من كونها ترابا إلى أن بلغت الشيخوخة ، واستدل بهذه التغييرات على وجود الإله القادر قال بعده : ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي كما أن الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس ، يدل على الإله القادر.

(و) قوله : ﴿فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ فيه وجوه : الأول : معناه أنه لم ينقل هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى بآلة تعينه إنما يقول له كن فيكون.

الثاني : أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقوله : ﴿كن فيكون﴾ فكأنه قيل : الانتقال من كونه ترابا إلى كونه نطفة إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا.

وأما صيرورته حيا فهي إنما تحصل بتعليق جوهر الروح ، وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا عبر عنه بقوله : "كن فيكون ".

الثالث : أن من الناس من يقول : إن الإنسان إنما يتكون من المني والدم في الرحم في مدة معينة بحسب الانتقالات من حال إلى حال ، فكأنه قيل : إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر ؛ لأن التسلسل محال ، ووقوع الحادث في الأزل محال فلا بد من الاعتراف بإنسان هو الناس وحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم بل بإيجاد الله تعالى ، ابتداء ، فعبر الله تعالى عن هذه المعنى بقوله : ﴿كن فيكون﴾.

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٨٠

قوله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون فى آيات الله﴾ الآيات.

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله ، أي في إنكار آيات الله ودفعها والتكذيب بها ، فعجب تعالى

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل ـ موافق للمطبوع، ص/٤١٦٢

منهم بقوله : ﴿أنى يصرفون﴾ ؟ كيف صرفوا عن دين الحق وهذا كما

٨١

يقول الرجل لمن لا يسمع نصحه : إلى أين يذهب بك ؟ ! تعجبا من غفلته.

قوله : " الذين كذبوا " ، يجوز فيه أوجه ، أن يكون بدلا من الموصول قبله ، أو بيانا له أو نعتا أو خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوبا على الذم ، وعلى هذه الأوجه ، فقوله : ﴿فسوف يعلمون﴾ جملة مستأنفة ، سيقت للتهديد.

ويجوز أن يكون مبتدأ والخبر الجملة من قوله : ﴿فسوف يعلمون﴾ ودخول الفاء فيه واضح.

فصل المعنى هم الذي كذبوا بالكتاب أي بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب ؛ قيل : هم المشركون.

وعن محمد بن سيرين وجماعة : أنها نزلت في القدرية.

قوله : ﴿إذ الأغلال﴾ فيه سؤال ، هو أن " سوف " للاستقبال ، و " إذ " للماضي ، فقوله : ﴿فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم﴾ مثل قولك : سوف أصم أمس ، والجواب : جوزوا في " إذ " هذه أن تكمون بمعنى " إذا " ؛ لأن العامل فيها محقق الاستقابل وهو فسوف يعلمون.

قالوا : وكما تقع " إذا " موضع إذ في قوله تعالى : ﴿وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اا إليها﴾ [الجمعة : ١١] كذلك تقع إذ موقعها.

وقد مضى نحو من هذا في البقرة عند قوله تعالى : ﴿ولو يرى الذين ظلموا اا إذ يرون العذاب﴾ [البقرة : ١٦٥] قالوا : والذي حسن هذا تيقن وقوع الفعل ، فأخرج في صورة الماضي.

قال شهاب الدين : ولا حاجة إلى إخراج " إذ : عن موضوعها ؛ بل هي باقية على دلالتها على المعنى ، وهي منصوبة بقوله : ﴿فسوف يعلمون﴾ نصب المفعول به ، أي فسوف يعلمون يوم القيامة وقت الأغلال في أعناقهم أي وقت سبب الأغلال ، وهي المعاصي التي كانوا يفعلونها في الدنيا ، كأنه قيل : سيعرفون وقت معاصيهم التي تجعل الأغلال في أعناقهم وهو وجه واضح غاية ما فيه التصرف في إذ يجعلها.

وهو وجه واضح غاية في ما فيه التصرف في إذ يجعلها مفعولا بها.

ولا يضر ذلك ، فإن المعربين

٨٢

." (١)

"عمل له فهو همج إعدامه خير من وجوده.

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم بعد إبطال عملهم فاضربوا أعناقهم قال البغوي : فضرب الرقاب نصب على الإغراء.

الثاني : إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين بأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٤١٦

حزب الرحمن حق القتال (عند التحزب) فإذا لقيتموهم فاقتلوهم.

الثالث : أن من الناس من يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان.

فيقال ردا عليهم : لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فلمن يقتل في سبيل الله لتعظيم الله وبأمره له (من) الأجر ما للمصلى والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة.

فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

فصل والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء ، لأن المؤمن هنا ليس بدافع ، إنما هو مدافع وذلك لأن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله ، بل يتدرج ويضرب غير المقتل فإن اندفع فذاك ، ولا يرقى إلى درجة الإهلاك ، فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم عن وجه الأرض بالكلية ، وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجد ، والمشركون نجس ، والمسجد يطهر من النجاسة ؟ فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل.

والرقبة أظهر المقاتل ، لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت ، بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحرب.

وفي قوله " لقيتم " ما ينبيء عن مخالفتهم الصائل ، لأن قوله : " لقيتم " يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا " لقيكم " ، ولذلك قال في غير هذا الموضع ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ [النساء : ٩١].

فإن قيل : ما الفائدة في قوله ههنا : ﴿فضرب الرقاب﴾ بإضمار الفعل وإظهار

٤٢٨

المصدر ، وقال في الأنفال : ﴿فاضربوا فوق الأعناق﴾ [الأنفال : ١٢] بإظهار الفعل وترك المصدر ؟ !.

فالجواب مبني على تقديم مقدمة ، وهي أن المقصود في بعض الصور قد يكون صدور الفعل من فاعل ويتبعه المصدر ضمنا ؛ إذ لا يمكن أن يفعل فاعل إلا فاعل ، فيطلب منه أن يفعل مثاله من قال : أني حلفت أن أخرج من المدينة ، فيقال له : فاخرج صار المقصود صدور الفعل منه والخروج في نفسه غير مقصود الابتعاد ولو أمكن أن يخرج من غير تحقق الخروج منه لما كان عليه أن لا يخرج لكن في ضرورة الخروج أن يخرج.

فإذا قال قائل صادق : ضاق بي المكان بسبب الأعداء فيقال مثلا : الخروج يعني الخروج فاخرج فإن الخروج هو المطلوب ، حتى لو أمكن الخروج منغير فعل منه ، لحصل الغرض لكنه محال فيعبته الفعل.

وإذا عرف هذا فيقال : في الأنفال الحكاية عن الحرب الكائنة ، وهم كانوا فيها والملائكة أنزلوا للنصرة (و) من حضر في صف القتال ، فصدور الفعل منه مطلوب.

وههنا الأمر وارد ليس في وقت القتال ، بدليل قوله تعالى : ﴿فإذا لقيتم﴾ والمقصود بيان كون المصدر مطلوبا لتقدم المأمور على الفعل قال : ﴿فضرب الرقاب﴾.

وفي ذلك بيان فائدة أخرى ، وهي أن الله تعالى قال هناك ﴿واضربوا منهم كل بنان﴾ [الأنفال : ١٢] وذلك لأن الوقت

وقت القتال فأرشدهم إلى القتل وغيره إن لم يصيبوا المقتل وههنا ليس وقت القتال.

فبين أن المقصود القتل وغرض المسلم ذلك.

قوله : ﴿حتى إذآ أثخنتموهم﴾ هذه غاية للأمر بضرب الرقاب ، لا لبيان غاية القتل.

وقوله : ﴿فشدوا الوثاق﴾ قرأ السلمي : فشدوا . بكسر الشين وهي ضعيفة جدا ، .

والوثاق . بالفتح وفيه الكسر . اسم ما يوثق به والمعنى حتى إذا أثخنتموهم أي بالغتم في القتل وقهرتموهم فشدوا الوثاق يعني في الأسر حتى لا يفلتوا.

والأسر يكون بعد المبالغة في القتل كقوله تعالى : ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ [الأنفال : ٦٧].

٤٢٩

قوله : ﴿فإما منا بعد وإما فدآء﴾.

فيهما وجهان : أشهرهما : أنهما منصوبان على المصدر بفعل لا يجوز إظهاره ؛ لأن المصدر متى سبق تفصيلا لعاقبة جملة وجب نصبه بإضمار فعل لا يجوز إظهاره ، والتقدير : فإما أن تمنوا وإما أن تفادوا فداء ومثله : ٤٤٦٣. لأجهدن فإما درء واقعة

تخشى وإما بلوغ السؤل والأمل

جزء : ١٧ رقم الصفحة : ٤٢٧

" (١).

"وقيل : ما كان وما يكون ؛ لأنه ينبئ عن الأولين ، والآخرين ، ويوم الدين.

وقال الضحاك : " البيان " : الخير والشر وقال الربيع بن أنس : هو ما ينفعه مما يضره.

وقيل : المراد بـ " الإنسان " جميع الناس ، فهو اسم للجنس ، والبيان على هذا الكلام : الفهم وهو مما فضل به الإنسان على سائر الحيوان.

قال السدي : علم كل قوم لسانهم الذي يتكلمون به.

وقال يمان : الكتابة والخط بالقلم نظيره ﴿علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾ [العلق : ٤ ، ٥].

فصل في كيفية النظم إنه علم الملائكة أولا ، ثم خلق الإنسان ، وعلمه البيان ، فيكون ابتدأ بالعلوي ، وقابله بالسفلي ، وقدم العلويات على السفليات ، فقال : " علم القرآن " إشارة إلى تعليم العلويين.

ثم قال : ﴿خلق الإنسان ، علمه البيان﴾ إشارة إلى تعليم السفليين ، وقال : ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ [في العلويات] ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ [في السفليات].

ثم قال : ﴿والسمآء رفعها﴾ [الرحمن : ٧] ، وفي مقابلتها ﴿والأرض وضعها﴾ [الرحمن : ١٠].

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٥٦٣

فصل في وصل هذه الجمل من قوله : ﴿علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان﴾ جيء بها من غير عاطف ؛ لأنها سيقت لتعديد نعمه ، كقولك : " فلان أحسن إلى فلان ، أشاد بذكره ، رفع من قدره " فلشدة الوصل ترك العاطف ، والظاهر أنها أخبار.

وقال أبو البقاء : و " خلق الإنسان " مستأنف ، وكذلك " علمه " ، ويجوز أن يكون حالا من الإنسان مقدرة ، وقدر معها مرادة انتهى.

وهذا ليس بظاهر ، بل الظاهر ما تقدم ، ولم يذكر الزمخشري غيره.

فإن قيل : لم قدم تعليم القرآن للإنسان على خلقه ، وهو متأخر عنه في الوجود ؟ .

٢٩٤

فالجواب : لأن التعليم هو السبب في إيجاده وخلقه.

فإن قيل : كيف صرح بذكر المفعولين في " علمه البيان " ، ولم يصرح بهما في " علم القرآن " ؟ .

فالجواب : أن المراد من قوله " علمه البيان " تعديد النعم على الإنسان ، واستدعاء للشكر منه ، ولم يذكر الملائكة ؛ لأن المقصود ذكر ما يرجع إلى الإنسان.

فإن قيل : بأنه علم الإنسان القرآن.

فيقال : بأن ذكر نعمة التعليم وعظمها على سبيل الإجمال ، ثم بين كيفية تعليمه القرآن ، فقال : ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾.

واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الألفاظ توقيفية.

قوله : ﴿والشمس والقمر بحسبان﴾ فيه ثلاثة أوجه : أحدها : أن الشمس مبتدأ ، و " بحسبان " خبره على حذف مضاف ، تقديره : جري الشمس والقمر بحسبان ، أي كائن ، أو مستقر ، أو استقر بحسبان.

الثاني : أن الخبر محذوف يتعلق به هذا الجار ، تقديره : يجريان بحسبان.

وعلى هذين القولين ، فيجوز في الحسبان وجهان : أحدهما : أنه مصدر مفرد بمعنى " الحسبان " ، فيكون ك " الشكران " و " الكفران ".

والثاني : أنه جمع حساب ، ك " شهاب " و " شهبان ".

والثالث : أن " بحسبان " خبره ، و " الباء " ظرفية بمعنى " في " أي : كائنان في حسبان.

وحسبان على هذا اسم مفرد ، اسم للفلك المستدير ، مشبهة بحسبان الرحى الذي باستدارته تدور الرحى.

٢٩٥

فصل لما ذكر خلق الإنسان وإنعامه عليه لتعليمه البيان ، ذكر نعمتين عظيمتين ، وهما : الشمس والقمر ، وأنهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران ، وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها ، ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من المنافع الظاهرة ، بخلاف غيرهما من الكواكب ، فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما ، وأنهما بحساب لا يتغير أبدا ، ولو كان مسيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها ، ومعرفة فصول

السنة.

ثم لما ذكر النعم السماوية وذكر في مقابلتها أيضا نعمتين ظاهرتين من الأرض ، وهما : النبات الذي لا ساق له ، وما له ساق ؛ لأن النبات أصل الرزق من الحبوب والثمار ، والحشيش للحيوان.

وقيل : إنما ذكر هاتين النعمتين بعد تعليم القرآن إشارة إلى **أن من الناس من** لا تكون نفسه زكية ، فيكتفي بأدلة القرآن ، فذكر له آيات الآفاق ، وخص الشمس والقمر ؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على الفاعل المختار.

ولو اجتمع العالم ليبينوا سبب حركتهما على هذا التقدير المعين لعجزوا ، وقالوا : إن الله حركهما بالإرادة كما أراد.

وقيل : لما ذكر معجزة القرآن بإنزاله أنكروا نزول الجرم من السماء وصعوده إليها ، فأشار تعالى بحركتهما إلى أنها ليست بالطبيعة.

وهم يقولون بأن الحركة الدورية من أنواع الحركات لا يكون إلا اختياريا ، فقال تعالى : من حركهما على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة ، والثقيل على مذهبكم لا يصعد ، وصعود النجم والشجر إنما هو بقدرة الله تعالى ، فحركة الملك كحركة الفلك جائزة.

فصل في جريان الشمس والقمر قال المفسرون : [المعنى] يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر.

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك : يجريان بحساب في منازل لا تعدوها ولا يحيدان عنها.

٢٩٦

". (١)

"" صفحة رقم ٢٥٢ "

وزوجة لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد ، وكل شيء قرن بصاحبه فهو زوج له ، والزوج : الصنف ومنه : زوج بهيج ، أو يزوجهم ذكرانا وإناثا . الطهارة : النظافة ، والفعل طهر بفتح الهاء وهو الأفصح ، وطهر بالضم ، واسم الفاعل منهما طاهر . فعلى الفتح قياس وعلى الضم شاذ نحو : حمض فهو حامض ، وخثر فهو خاثر . الخلود : المكث في الحياة أو الملك أو المكان مدة طويلة لا انتهاء لها وهل يطلق على المدة الطويلة التي لها انتهاء بطريق الحقيقة أو بطريق المجاز قولان ، وقال زهير : فلو كان حمد يخلد الناس لم تمت

ولكن حمد الناس ليس بمخلد

ويقال : خلد بالمكان أقام به ، وأخلد إلى كذا ، سكن إليه ، والمخلد : الذي لم يشب ، ولهذا المعنى ، أعني من السكون والاطمئنان ، سمي هذا الحيوان اللطيف الذي يكون في الأرض خلدا . وظاهره هذه الاستعمالات وغيرها يدل على أن الخلد هو المكث الطويل ، ولا يدل على المكث الذي لا نهاية له إلا بقرينة . واختار الزمخشري فيه : أنه البقاء اللازم الذي لا ينقطع ، تقوية لمذهبه الاعتزالي في أن من دخل النار لم يخرج منها بل يبقى فيها أبدا .

والأحاديث الصحيحة المستفيضة دلت على خروج ناس من المؤمنين الذين دخلوا النار بالشفاعة من النار ، ومناسبة

---

(١) تفسير اللباب لابن عادل . موافق للمطبوع، ص/٤٧٥٢

قوله تعالى : وبشر لما قبله ظاهره ، وذلك أنه لما ذكر ما تضمن ذكر الكفار وما تؤول إليه حالهم في الآخرة ، وكان ذلك من أبلغ التخويف والإنذار ، أعقب ما تضمن ذكر مقابليهم وأحوالهم وما أعد الله لهم في الآخرة من النعيم السرمدي . وهكذا جرت العادة في القرآن غالبا متى جرى ذكر الكفار وما لهم أعقب بالمؤمنين وما لهم وبالعكس ، لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللطف والعنف ، **لأن من الناس من** لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف ، ومنهم من هو بالعكس . والمأمور بالتبشير قيل : النبي (صلى الله عليه وسلم)) ، وقيل : كل من يصلح للبشارة من غير تعيين . قال الزمخشري : وهذا أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به ، انتهى كلامه . والوجه الأول عندي أولى ، لأن أمره (صلى الله عليه وسلم)) لخصوصيته بالبشارة أفخم وأجزل ، وكأنه ما اتكل على أن يبشر المؤمنين كل سامع ، بل نص على أعظمهم وأصدقهم ليكون ذلك أوثق عندهم وأقطع في الإخبار بهذه البشارة العظيمة ، إذ تبشيره (صلى الله عليه وسلم)) تبشير من الله تعالى . والجملة من قوله : وبشر معطوفة على ما قبلها ، وليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه ، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول : زيد يعاقب بالقيد والإزهاق ، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق ، قال هذا الزمخشري وتبعه أبو البقاء فقال : الواو في وبشر عطف بها جملة ثواب المؤمنين على جملة عقاب الكافرين ، انتهى كلامه .

وتلخص من هذا أن عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن تتفق معاني الجمل ، فعلى هذا يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة غير الخبرية ، وهذه المسألة فيها اختلاف . ذهب جماعة من النحويين إلى اشتراط اتفاق المعاني ، والصحيح أن ذلك ليس بشرط ، وهو مذهب سيبويه . فعلى مذهب سيبويه يتمشى إعراب الزمخشري وأبي." (١)

"" صفحة رقم ٥٣٨ "

الأشجار المثمرة ، ومن تحت أرجلهم الزرع المغلة . وقيل : من فوقهم الجنان اليانعة الثمار يجتنون ما تهدل منها من رؤوس الشجر ، ويلتقطون ما تساقط منها على الأرض ، وتحت أرجلهم . وقال تاج القراء : من فوقهم ما يأتيهم من كبرائهم وملوكهم ، ومن تحت أرجلهم ما يأتيهم من سفلتهم وعوامهم ، وعبر بالأكل عن الأخذ ، لأنه أجل منافعه وأبلغ ما يحتاج إليه في ديمومة الحياة .

(منهم أمة مقتصدة (الضمير في منهم يعود على أهل الكتاب . والأمة هنا يراد بها الجماعة القليلة للمقابلة لها بقوله : وكثير منهم . والاقتصاد من القصد وهو الاعتدال ، وهو افتعل بمعنى اعتمل واكتسب أي : كانت أولا جائزة ثم اقتصدت . قيل : هم مؤمنو الفريقين عبد الله بن سلام وأصحابه ، وثمانية وأربعون من النصارى . واقتصادهم هو الإيمان بالله تعالى . وقال مجاهد : المقتصدة مسلمة أهل الكتاب قديما وحديثا ، ونحوه قول ابن زيد : هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب . وذكر الزجاج وغيره : أنها الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتمردين المجاهدين . وقال الزمخشري :

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (الكتب العلمية)، ١/٢٥٢

مقتصدة حالها أمم في عداوة الرسول (صلى الله عليه وسلم)) . وقال الطبري : من بني إسرائيل من يقتصد في عيسى فيقول : هو عبد الله ورسوله وروح منه ، والأكثر منهم غلافية فقال بعضهم : هو الإله ، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بآخره في ملة عيسى . وقال بعضهم وهو الأكثر من بني إسرائيل : هو آدمي كغيره لغير رشده ، فتلخص في الاقتصاد أهو في حق عيسى ؟ أو في المناصبة ؟ أو في الإيمان ؟ فإن كان في المناصبة فهل هو بالنسبة إلى الرسول وحده أم بالنسبة إلى الأنبياء ؟ قولان . وإن كان في الإيمان فهل هو في إيمان من آمن بالرسول من الفريقين أو من آمن قديما وحديثا ؟ قولان .

(وكثير منهم ساء ما يعملون (هذا تنويع في التفصيل . فالجملة الأولى جاءت منهم أمة مقتصدة ، جاء الخبر الجار والمجرور ، والخبر الجملة من قوله : ساء ما يعملون ، وبين التركيبين تفاوت غريب من حيث المعنى . وذلك أن الاقتصاد جعل وصفا ، والوصف ألزم للموصوف من الخبر ، فأتى بالوصف اللازم في الطائفة الممدوحة ، وأخبر عنها بقوله : منهم ، والخبر ليس من شأنه اللزوم ولا سيما هنا ، فأخبر عنهم بأنهم من أهل الكتاب في الأصل ، ثم قد تزول هذه النسبة بالإسلام فيكون التعبير عنهم والإخبار بأنهم منهم ، باعتبار الحالة الماضية . وأما في الجملة الثانية فإنهم منهم حقيقة لأنهم كفار ، فجاء الوصف بالإلزام ، ولم يجعل خبرا ، وجعل خبر الجملة التي هي ساء ما يعملون ، لأن الخبر ليس من شأنه اللزوم ، فهم بصدد أن يسلم ناس منهم فيزول عنهم الإخبار بمضمون هذه الجملة ، واختار الزمخشري في ساء أن تكون التي لا تنصرف ، فإن فيه التعجب كأنه قيل : ما أسوأ عملهم ولم يذكر غير هذا الوجه . واختار ابن عطية أن تكون المتصرفة تقول : ساء الأمر يسوء ، وأجاز أن تكون غير المتصرفة فتستعمل استعمال نعم وبئس كقوله : ساء مثلا . فالمتصرفة تحتاج إلى تقدير مفعول أي ساء ما كانوا يعملون بالمؤمنين ، وغير المتصرفة تحتاج إلى تمييز أي : ساء عملا ما كانوا يعملون .

المائدة : (٦٧) يا أيها الرسول . . . . .

(يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك (هذا نداء بالصفة الشريفة التي هي أشرف أوصاف الجنس الإنساني ، وأمر بتليغ ما أنزل إليه وهو (صلى الله عليه وسلم)) قد بلغ ما أنزل إليه ، فهو أمر بالديمومة . قال الزمخشري : جميع ما أنزل إليك ، وأي شيء أنزل غير مراقب في تبليغه أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه . وقال ابن عطية : أمر من الله لرسوله بالتبليغ على الاستيفاء والكمال ، لأنه قد قال : بلغ ، فإنما أمر في هذه الآية أن لا يتوقف على شيء مخافة أحد ، وذلك أن رسالته عليه السلام تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وفساد أحوالهم ، فكان يلقى منهم عنتا ، وربما خافهم أحيانا قبل نزول هذه الآية . وعن ابن عباس عنه عليه السلام : (لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت **أن من الناس من** يكذبني فأنزل الله هذه الآية) . وقيل : هو أمر بتبليغ خاص أي : ما أنزل إليك من الرجم والقصاص الذي غيره اليهود في." (١)

---

(١) تفسير البحر المحيط ـ موافق للمطبوع (الكتب العلمية)، ٥٣٨/٣

محمد بن حزم أنه عائد على) خنزير (فإنه أقرب مذكور ، وإذا احتمل الضمير العود على شيئين كان عوده على الأقرب أرجح وعورض بأن المحدث عنه إنما هو اللحم ، وجاء ذكر) الخنزير (على سبيل الإضافة إليه لا أنه هو المحدث عنه المعطوف ، ويمكن أن يقال : ذكر اللحم تنبيها على أنه أعظم ما ينتفع به من الخنزير وإن كان سائره مشاركا له في التحريم بالتنصيص على العلة من كونه رجسا أو لإطلاق الأكثر على كله أو الأصل على التابع لأن الشحم وغيره تابع للحم . واختلفوا في هذه الآية أهي محكمة ؟ وهو قول الشعبي وابن جبير فعلى هذا لا شيء محرم من الحيوان إلا فيها وليس هذا مذهب الجمهور . وقيل : هي منسوخة بآية المائدة ، وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط . وقيل : جميع ما حرم داخل في الاستثناء سواء كان بنص قرآن أو حديث عن الرسول (صلى الله عليه وسلم)) بالاشتراك في العلة التي هي الرجسية والذي نقوله : إن الآية مكية وجاءت عقيب قوله :) ثمانية أزواج (وكان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرمون من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي من هذه الثمانية ، فالآية محكمة وأخبر فيها أنه لم يجد فيما أوحي إليه إذ ذاك من القرآن سوى ما ذكر ولذلك أتت صلة) ما (جملة مصدرة بالفعل الماضي فجميع ما حرم بالمدينة لم يكن إذ ذاك سبق منه وحي فيه بمكة فلا تعارض بين ما حرم بالمدينة وبين ما أخبر أنه أوحي إليه بمكة تحريمه ، وذكر) الخنزير (وإن لم يكن من ثمانية الأزواج **لأن من الناس من** كان يأكله إذ ذاك ولأنه أشبه شيء بثمانية الأزواج في كونه ليس سبعا مفترسا يأكل اللحوم ويتعذى بها ، وإنما هو من نمط الثمانية في كونه يعيش بالنبات ويرعى كما ترعى الثمانية . وذكر المفسرون هنا أشياء مما اختلف أهل العلم فيه ونلخص من ذلك شيئا ، فنقول : أما الحمر الأهلية : مذهب الشعبي : وابن جبير إلى انه يجوز أكلها وتحريم رسول الله لها إنما كان لعلة واما لحوم الخيل فاختلف فيها السلف وأباحها الشافعي وابن حنبل وأبو يوسف ومحمد بن الحسن ، وعن أبي حنيفة الكراهة . فقيل : كراهة تنزيه . وقيل : كراهة تحريم وهو قول مالك والأوزاعي والحكم بن عيينة وأبي عبيد وأبي بكر الأصم وقال به من التابعين مجاهد ومن الصحابة ابن عباس ، وروى عنه خلافه وقد صنف في حكم لحوم الخيل جزءا أقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي الحنفي رحمه الله قرأناه عليه وأجمعوا على تحريم البغال ، وأما الحمار الوحشي إذا تأنس فذهب أبو حنيفة وأصحابه والحسن بن صالح والشافعي إلى جواز أكله وروى ابن القاسم عن مالك أنه إذا دجن وصار يعمل عليه كما يعمل على الأهلي أنه لا يؤكل . وقال أبو حنيفة وأبو يوسف وزفر ومحمد : لا يحل أكل ذي الناب من السباع وذي المخلب من الطير . وقال مالك : لا يؤكل سباع الوحش ولا البر وحشيا كان أو أهليا ولا الثعلب ولا الضبع ولا بأس بأكل سباع الطير الرخم والعقاب والنسور وغيرها ما أكل الجيفة وما لم يأكل . وقال الأوزاعي : الطير كله حلال إلا أنهم يكرهون الرخم . وقال الشافعي : ما عدا على الناس من ذي الناب كالأسد والذئب والنمر وعلى الطيور من ذي المخلب كالنسر والبازي لا يؤكل ، ويؤكل الثعلب والضبع وكره أبو حنيفة الغراب الأبقع لا الغراب الزرعي والخلاف في الحدأة كالخلاف في العقاب والنسر وكره أبو حنيفة الضب . وقال مالك والشافعي : لا بأس به والجمهور على أنه لا يؤكل الهر الإنسي وعن مالك جواز أكله إنسيا كان أو وحشيا وعن بعض السلف جواز أكل إنسية . وقال

ابن أبي ليلى : لا بأس بأكل الحية إذا ذكيت . وقال الليث : لا بأس بأكل القنفذ وفراخ النحل ودود الجبن ودود التمر ونحوه وكذا قال ابن القاسم عن مالك في القنفذ . وقال أبو حنيفة والشافعي : لا تؤكل الفأرة . وقال أبو حنيفة : لا يؤكل اليربوع . وقال الشافعي : يؤكل وعن مالك في الفأر التحريم والكراهة والإباحة ، وذهب أبو حنيفة والشافعي وأصحابهما إلى كراهة أكل الجلالة . وقال مالك والليث : لا بأس بأكلها . وقال صاحب التحرير والتحبير : وأما المخدرات كالبنج والسيكران واللفاح وورق القنب المسمى بالحشيشة فلم." (١)

"" صفحة رقم ٣٢٨ "

الأصل قاله المبرد والطبري ، أو لأن الغرض الدلالة على الجنس ، أو لأن معنى يخرجكم كل واحد كقولك الرجال يشبعهم رغيف أي يشبع كل واحد . وقال الزمخشري : الأشد كمال القوة والعقل والتمييز ، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأشدة والقيود وغير ذلك وكأنها مشدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع انتهى .

وتقدم الكلام في الأشد ومقداره من الزمان . **وإن من الناس من** قال إنه جمع شدة كأنعم جمع نعمة وأما القيود : فعن أبي عمرو الشيباني إن واحدة قيد) ومنكم من يتوفى (وقرىء) يتوفى (بفتح الياء أي يستوفى أجله ، والجمهور بالضم أي بعد الأشد وقبل الهرم ، وهو) أرذل العمر (والخرف ، فيصبر إلى حالة الطفولية ضعيف البنية سخيف العقل ، ولا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في الناس وقد نرى من علت سنه وقارب المائة أو بلغها في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط ، ونرى من هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بنيته أوضح تعالى أنه قادر على إنهائه إلى حالة الخرف كما أنه كان قادرا على تدريجه إلى حالة التمام ، فكذلك هو قادر على إعادة الأجساد التي درجها في هذه المناقل وإنشائها النشأة الثانية .

و) ليكلا (يتعلق بقوله ، يرد (قال الكلبي) (قال الكلبي) يسير لكيلا (يعقل من بعد عقله الأول شيئا . وقيل) لكيلا (يستفيد علما وينسى ما علمه . وقال الزمخشري : أي ليصير نساء بحيث إذا كسب علما في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته ، يقول لك من هذا ؟ فتقول فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه . وروى عن أبي عمرو ونافع تسكين ميم) العمر).

) وترى الارض هامدة (هذا هو الدليل الثاني الذي تضمنته ، والدليل الأول الآية ، ولما كان الدليل الأول بعض مراتب الخلقة فيه غير مرتبين قال) إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم (فلم يحل في جميع رتبه على الرؤية ، ولما كان هذا الدليل الثاني مشاهدا للأبصار أحال ذلك على الرؤية فقال) وترى (أيها السامع أو المجادل) الارض هامدة (ولظهوره تكرر هذا الدليل في القرآن و) الماء (ماء المطر والأنهار والعيون والسواني واهتزازها تخلخلها واضطراب بعض أجسامها لأجل خروج النبات) وربت (أي زادت وانتفخت . وقرأ أبو جعفر وعبد الله بن جعفر وخالد بن إلياس وأبو عمرو في رواية وربأت بالهمز هنا وفي فصلت أي ارتفعت وأشرفت ، يقال : فلان يربأ بنفسه عن كذا : أي يرتفع بها

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (الكتب العلمية)، ٢٤٣/٤

عنه . قال ابن عطية : ووجهها أن يكون من ربأت القوم إذا علوت شرفا من الأرض طليعة فكان الأرض بالماء تتطاول وتعلو انتهى . ويقال ربىء وربيئة . وقال الشاعر : بعثنا ربيئا قبل ذلك مخملا

كذئب الغضا يمشي الضراء ويتقى

الحج : (٦ – ٧) ذلك بأن الله . . . . .

ذلك الذي ذكرنا من خلق بني آدم وتطورهم في تلك المراتب ، ومن إحياء الأرض حاصل بهذا وهو حقيقته تعالى فه الثابت الموجود القادر على إحياء الموتى وعلى كل مقدور وقد وعد بالبعث وهو قادر عليه فلا بد من كيانه . وقوله) وأن الساعة (إلى آخره توكيد لقوله) ذالك بأن الله (والظاهر أن قوله) وأن الساعة ءاتية (ليس داخلا في سبب ما تقدم ذكره ، فليس معطوفا على أنه الذي يليه ، فيكون على تقدير . والأمر) إن الساعة (وذلك مبتدأ وبأن الخبر . وقيل ذلك منصوب بمضمر أي فعلنا ذلك .

(ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ذالك بما قدمت يداك وأن الله ليس بظلام للعبيد ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر). (سقط : خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ، يدعو من دون الله ما لا يضر ولا ينفع ذلك هو الضلال البعيد ، يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير ، إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار إن الله يفعل ما يريد ، من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ وكذلك أنزلناه آيات بينات وأن الله)." (١)

"يوم القيامة ومنهم من اعتبر ذلك بما فيه من الطرائق المعقولة المدركة بالبصيرة وإلى هذا أشار بقوله أن في خلق السموات والأرض إلى قوله ربنا ما خلقت هذا باطلا وعن ابن عباس رضي الله عنهما ذات الخلق الحسن المستوى.

درتبيان از ابن عمر رضي الله عنهما نقل ميكندكه مراد آسمان هفتم است وحق تعالى يد وسوكند ياد كنه ﴿أنكم﴾ يا أهل مكة ﴿لفى قول مختلف﴾ في القرآن أي متخالف متناقض وهو قولهم أنه شعر وسحر وافتراء وأساطير الأولين وفي الرسول شاعر وساحر ومفتر ومجنون وفي القيامة **فإن من الناس من** يقطع القول بأقرار ومنهم من يقطع القول بأنكار ومنهم من يقول أن نظن إلا ظنا وهذا من التحير والجهل الغليظ فيكم وفي هذا الجواب تأييد لكون الحبك عبارة عن الاستواء كما يلوح به ما نقل عن الضحاك أن قول الكفرة لا يكون مستويا إنما هو مناقض مختلف يقول الفقير : لعل الوجه في هذا القسم أن القرآن نازل من السماء وأن النبوة أمر سماوي فهم اختلفوا في هذا الأمر السماوي وظنوا أنه أمر أرضي مختلف وليس كذلك وفي الآية إشارة إلى سماء القلب ذات الطريق إلى الله إنكم أيها الطالبون الصادقون لفي قول مختلف في الطلب فمنكم من يطلب منا ما عندنا من كمالات القربات ومنكم من يطلب منا ما لدينا من العلوم والمعارف ومنكم من يطلبنا بجميع صفاتنا فلو استقمتم على الطريقة وتبتم ملازمين في طلبه لبلغ كل قاصد مقصده

---

(١) تفسير البحر المحيط . موافق للمطبوع (الكتب العلمية)، ٦/٣٢٨

﴿يؤفك عنه من أفك﴾ يقال أفكه عنه يأفكه افكا صرفه وقلبه أو قلب رأيه كما في القاموس ورجل مأفوك مصروف عن الحق إلى الباطل كما في المفردات أي يصرف عن القرآن أو الرسول من صرف إذ لا صرف أفظع منه وأشد فكأنه لا صرف بالنسبة إليه أن تعريف مصدر أفك للحقيقة وكلمة من للعموم فالمعنى كل من اتصف بحقيقة المصروفية يصرف عنه ويلزمه بعكس النقيض كل من لم يصرف عنه لم يتصف بتلك الحقيقة فكان كل صرف يغايره لا صرف بالقياس إليه لكماله وشدته وقال بعضهم : يصرف عنه من صرف في علم الله وقضائه يعني هركه در علم خداى محروم باشد ازايمان بكتاب ويغمبر هرآينه محرومست :

جزء : ٩ رقم الصفحة : ١٤٥

دلهاهمه محزون وحكرها خونست

تاحكم ازل درحق هركس ونست

وفيه إشارة إلى أن في قطاع الطريق على أرباب الطلب لكثرة فمن يصرفه عن طلبه قاطع من القطاع من النفس والهوى والدنيا وزينتها وشهواتها وجاهها ونعيما فصرف فقد حرم من متمناه وأهلكه هواه كما قيل نعوذ بالله من الحور بعد الكور وينادي عليه منادي العزة وكم مثلها فارقتها وهي تصفر ﴿قتل الخراصون﴾ دعاء عليهم كقوله قتل الإنسان ما أكفره وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ثم جرى مجرى لعن وقبح والخرص تقدير القول بلا حقيقة ومنه خرص الثمار أي تقديرها مثلا تقدير ما على النخل من الرطب تمرا وكل قول مقول عن ظن وتخمين يقال له خرص سواء كان ذلك مطابقا للشيء أي مخالفا له من حيث أن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن ولا سماع بل اعتمد فيه على الظن والتخمين كفعل الخارص في خرصه وكل من قال قولا على هذا النحو يسمى كاذبا وإن كان قوله مطابقا للقول المخبر به

١٥٠

كما قال تعالى في شهادة المنافقين لكاذبون فالخراصون الكذابون المقدرون ما لا صحة له وهم أصحاب القول المختلف كأنه قيل قتل هؤلاء الخراصون فاللام للعهد إشارة إليهم وعن مجاهدهم الكهنة ﴿الذين هم﴾ لفظ هم مبتدأ وخبره قوله ﴿فى غمرة﴾ من الجهل والضلال تغمرهم وتغشاهم عن أمر الآخرة قال الراغب أصل الغمر إزالة أثر الشيء ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيد أثر مسيله غمر وغامر وبه شبه الرجل السخي والفرس الشديد العد وقيل لهما غمركما شبها بالبحر والغمرة معظم الماء الساترة لمقرها وجعلت مثلا للجهالة التي تغمر صاحبها وإلى نحوه أشار بقوله فأغشيناهم وقيل للشدائد غمرات قال تعالى في غمرات الموت وقال الشاعر :

قال العواذل انني في غمرة

صدقوا ولكن امرتي لا تنجلي

جزء : ٩ رقم الصفحة : ١٤٥

".(١)

---

(١) تفسير روح البيان . موافق للمطبوع، ١٢٢/٩

"ﷺالقول في تأويل قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾ [البقرة: ١٦٥] يعني تعالى ذكره بذلك: **أن من الناس من** يتخذ من دون الله أندادا له، وقد بينا فيما مضى أن الند العدل بما يدل على ذلك من الشواهد فكرهنا إعادته، وأن الذين اتخذوا هذه الأنداد من دون الله يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله، ثم أخبرهم أن المؤمنين أشد حبا لله من متخذي هذه الأنداد لأندادهم. واختلف أهل التأويل في الأنداد التي كان القوم اتخذوها وما هي؟ فقال بعضهم: هي آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله." (١)

"القول في تأويل قوله تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله﴾

قال أبو جعفر: يعني تعالى ذكره بذلك: **أن من الناس من** يتخذ من دون الله أندادا له =

وقد بينا فيما مضى أن"الند"، العدل، بما يدل على ذلك من الشواهد، فكرهنا إعادته. (١)

* * *

= وأن الذين اتخذوا هذه"الأنداد" من دون الله، يحبون أندادهم كحب المؤمنين الله. ثم أخبرهم أن المؤمنين أشد حبا لله، من متخذي هذه الأنداد لأندادهم.

* * *

واختلف أهل التأويل في"الأنداد" التي كان القوم اتخذوها. وما هي؟

* * *

فقال بعضهم: هي آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله.

* ذكر من قال ذلك.

٢٤٠٦- حدثنا بشر بن معاذ قال، حدثنا يزيد، عن سعيد، عن قتادة قوله:"ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله"، من الكفار لأوثانهم.

٢٤٠٧- حدثني محمد بن عمرو قال، حدثنا أبو عاصم قال، حدثنا عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله تعالى ذكره:"يحبونهم كحب الله"، مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد،"والذين آمنوا أشد حبا لله"، من الكفار لأوثانهم.

٢٤٠٨- حدثني المثنى قال، حدثنا أبو حذيفة قال، حدثنا شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد مثله.

---

(١) انظر ما سلف ١: ٣٦٨-٣٧٠.." (٢)

---

(١) تفسير الطبري = جامع البيان ط هجر الطبري، أبو جعفر ١٦/٣

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان ت شاكر الطبري، أبو جعفر ٢٧٩/٣

"١٦٢١ - أخبرنا أبو طاهر، نا أبو بكر، نا بندار، ثنا بدل بن المحبر (١)، ثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة:

أن أبا بكر صلى بالناس، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الصف خلفه.

قال أبو بكر: فلم يصح الخبر أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه في الصلاة التي كان هو فيها قاعدا، وأبو بكر والقوم قيام، لأن في خبر مسروق وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة: أن أبا بكر كان الإمام، والنبي - صلى الله عليه وسلم - مأموم، وهذا ضد خبر هشام، عن أبيه، عن عائشة، وخبر إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة.

على أن شعبة بن الحجاج قد بين في روايته عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، **أن من الناس من** يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ومنهم من قال: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - المقدم بين يدي أبي بكر.

وإذا كان الحديث الذي به احتج من زعم أن فعله الذي كان في سقطته من الفرس، وأمره - صلى الله عليه وسلم - بالاقتداء بالأئمة، وقعودهم في الصلاة إذا صلى إمامهم قاعدا منسوخ، غير صحيح من جهة النقل، فغير جائز لعالم أن يدعي نسخ ما قد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - بالأخبار المتواترة بالأسانيد الصحاح من فعله وأمره بخبر مختلف فيه. على أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قد زجر عن هذا الفعل الذي ادعته هذه الفرقة في خبر عائشة الذي ذكرنا أنه مختلف فيه عنها، وأعلم أنه فعل فارس والروم بعظمائها، يقومون وملوكهم قعود، وقد ذكرنا هذا الخبر في موضعه، فكيف يجوز أن يؤمر بما قد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - من الزجر عنه استنانا بفارس والروم، من غير أن يصح عنه - صلى الله عليه وسلم - الأمر به وإباحته بعد الزجر عنه.

[١٦٢١] (قلت: إسناده صحيح على شرط البخاري، لكن لفظه مخالف لروايته في "الصحيح" - ناصر). انظر: خ الأذان ٥١ من طريق ابن أبي عائشة وفيه: "فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي - صلى الله عليه وسلم -".

(١) في الأصل: "المجمر"، والتصحيح من كتب الرجال.." (١)

"(إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون (١٦٤)

فهذه الآيات تدل على أنه واحد - عز وجل - فأما الآية في أمر السماء فمن

أعظم الآية لأنها سقف بغير عمد، والآية في الأرض عظيمة فيما يرى من

سهلها وجبلها وبحارها. وما فيها من معادن الذهب والفضة والرصاص والحديد اللاتي لا يمكن أحد أن ينشئ مثلها،

---

(١) صحيح ابن خزيمة ط ٣ ابن خزيمة ٧٧٨/٢

وكذلك في تصريف الرياح، وتصريفها أنها تأتي من كل أفق فتكون شمالا مرة وجنوبا مرة ودبورا مرة وصبا مرة، وتأتي لواقح للسحاب.

فهذه الأشياء وجميع ما بث الله في الأرض دالة على أنه واحد.

كما قال عز وجل: (وإلهكم إله واحد) - لا إله غيره لأنه لا يأتي آت بمثل هذه الآيات (إلا واحدا).

* * *

وقوله عز وجل: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب (١٦٥)

فأعلم أن بعد هذا البيان والبرهان؛ تتخذ من دونه الأنداد.

وهي الأمثال، فأبان **أن من الناس من** يتخذ ندا يعلم أنه لا ينفع ولا يضر ولا يأتي بشيء مما ذكرنا، وعنى بهذا مشركي العرب.

* * *

وقوله عز وجل: (يحبونهم كحب الله).

أي يسوون بين هذه الأوثان وبين الله - عز وجل - في المحبة.

وقال بعض النحويين، يحبونهم كحبكم أنتم لله - وهذا قول ليس بشيء - ودليل نقضه قوله: (والذين آمنوا أشد حبا لله)

والمعنى أن المخلصين الذين لا يشركون مع الله غيره

هم المحبون حقا.." (١)

"الإبل، والآخر من العوس والعياسة إلا أنه قلبت الواو يا لانكسار ما قبلها.

فأما عيسى عليه السلام فمعدول من يشوع - كذا يقول أهل السريانية.

وقال النحويون في معنى قوله عز وجل: (إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك).

التقديم والتأخير - المعنى إني رافعك ومطهرك ومتوفيك (١).

وقال بعضهم: المعنى على هذا اللفظ كقوله - عز وجل - (الله يتوفى الأنفس حين موتها)

فالمعنى على مذهب هؤلاء - أن الكلام على هذا اللفظ.

ومعنى (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا).

القراءة: بطرح التنوين، والتنوين جائز، ولكن لا تقرأ به إلا أن تكون

ثبتت بذلك رواية.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ٢٣٧/١

ومعنى: (فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة).

فيه قولان: أحدهما أنهم فوقهم في الحجة وإقامة البرهان والآخر أنهم

فوقهم في اليد والبسطة والغلبة، ويكون (الذين اتبعوك) محمدا – صلى الله عليه وسلم – ومن اتبعه فهم منصورون عالون.

* * *

وقوله عز وجل: (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين (٥٦)

العذاب في الدنيا القتل الذي نالهم وينالهم، وسبي الذاري وأخذ

الجزية، وعذاب الآخرة ما أعده الله لهم من النار.

---

(١) قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:

الصفة الأولى: ﴿إني متوفيك﴾ ونظيره قوله تعالى حكاية عنه ﴿فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم﴾ [المائدة: ١١٧]

واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما: إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها

والثاني: فرض التقديم والتأخير فيها.

أما الطريق الأول فبيانه من وجوه الأول: معنى قوله ﴿إني متوفيك﴾ أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن

والثاني: ﴿متوفيك﴾ أي مميتك، وهو مروي عن ابن عباس، ومحمد بن إسحاق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه أحدها: قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع

وثانيها: قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه

الثالث: قال الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها﴾ [الزمر: ٤٢].

الوجه الرابع: في تأويل الآية أن الواو في قوله ﴿متوفيك ورافعك إلى﴾ تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه سينزل ويقتل الدجال» ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك.

الوجه الخامس: في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي، وهو أن المراد ﴿إني متوفيك﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال: ﴿ورافعك إلى﴾ وذلك لأن من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

والوجه السادس: إن التوفي أخذ الشيء وافيا، ولما علم الله **إن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا

التأويل قوله تعالى: ﴿وما يضرونك من شيء﴾ [النساء: ١١٣].
والوجه السابع: ﴿إني متوفيك﴾ أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.
الوجه الثامن: أن التوفي هو القبض يقال: وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه، كما يقال: سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه، وقد يكون أيضا توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيا له.
فإن قيل: فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله ﴿ورافعك إلى﴾ تكرارا.
قلنا: قوله ﴿إني متوفيك﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء، فلما قال بعده ﴿ورافعك إلى﴾ كان هذا تعيينا للنوع ولم يكن تكرارا.
الوجه التاسع: أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير: متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ﴿ورافعك إلى﴾ أي ورافع عملك إلي، وهو كقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب﴾ [فاطر: ١٠] والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها.
الطريق الثاني: وهو قول من قال: لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير، قالوا إن قوله ﴿ورافعك إلى﴾ يقتضي إنه رفعه حيا، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.
واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر، والله أعلم.
أهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ ٨ صـ ٦٠ - ٦١﴾." (١)

"١٦٢١ - نا بندار، ثنا بدل بن المحبر، ثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة، أن أبا بكر ﷺصلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه قال أبو بكر: فلم يصح الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه في الصلاة التي كان هو فيها قاعدا، وأبو -[٥٦]- بكر والقوم قيام؛ لأن في خبر مسروق، وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة أن أبا بكر كان الإمام، والنبي صلى الله عليه وسلم مأموم، وهذا ضد خبر هشام، عن أبيه، عن عائشة، وخبر إبراهيم عن الأسود عن عائشة، على أن شعبة بن الحجاج قد بين في روايته عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة **أن من الناس من** يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم المقدم بين يدي أبي بكر، وإذا كان الحديث الذي به احتج من زعم أن فعله الذي كان في سقطته من الفرس، وأمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بالأئمة وقعودهم في الصلاة إذا صلى إمامهم قاعدا، منسوخ غير صحيح من جهة النقل، فغير جائز لعالم أن يدعي نسخ

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج الزجاج ١/ ٤٢٠

ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم بالأخبار المتواترة بالأسانيد الصحاح من فعله وأمره بخبر مختلف فيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زجر عن هذا الفعل الذي ادعته هذه الفرقة في خبر عائشة الذي ذكرنا أنه مختلف فيه عنها، وأعلم أنه فعل فارس والروم بعظمائها، يقومون وملوكهم قعود، وقد ذكرنا هذا الخبر في موضعه، فكيف يجوز أن يؤمر بما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الزجر عنه استنانا بفارس والروم من غير أن يصح عنه صلى الله عليه وسلم الأمر به وإباحته بعد الزجر عنه؟ ولا خلاف بين أهل المعرفة بالأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى قاعدا وأمر القوم بالقعود، وهم قادرون على القيام، لو ساعدهم القضاء، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المأمومين بالاقتداء بالإمام والقعود إذا صلى الإمام قاعدا، وزجر عن القيام في الصلاة إذا صلى الإمام قاعدا، واختلفوا في نسخ ذلك، ولم يثبت خبر من جهة النقل بنسخ ما قد صح عنه صلى الله عليه وسلم مما -[٥٧]- ذكرنا من فعله وأمره، فما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفق أهل العلم على صحته يقين، وما اختلفوا فيه ولم يصح فيه خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم شك، وغير جائز ترك اليقين بالشك، وإنما يجوز ترك اليقين باليقين. فإن قال قائل غير منعم الروية: كيف يجوز أن يصلي قاعدا من يقدر على القيام؟ قيل له إن شاء الله: يجوز ذلك أن يصلي بأولى الأشياء أن يجوز به، وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أمر باتباعها، ووعد الهدى على اتباعها، فأخبر أن طاعته صلى الله عليه وسلم طاعته عز وجل، وقوله كيف يجوز لما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر به، وثبت فعله له – بنقل العدل عن العدل موصولا إليه بالأخبار المتواترة – جهل من قائله وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم عند جميع أهل العلم بالأخبار الأمر بالصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا، وثبت عندهم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صلى قاعدا بقعود أصحابه لا مرض بهم، ولا بأحد منهم. وادعى قوم نسخ ذلك، فلم تثبت دعواهم بخبر صحيح لا معارض له، فلا يجوز ترك ما قد صح من أمره صلى الله عليه وسلم، وفعله في وقت من الأوقات، إلا بخبر صحيح عنه، ينسخ أمره ذلك وفعله. ووجود نسخ ذلك بخبر صحيح معدوم، وفي عدم وجود ذلك بطلان ما ادعت، فجازت الصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا اقتداء به على أمر النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، والله الموفق للصوابK١٦٢١ – قال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري لكن لفظه مخالف لروايته في الصحيح

قال الأعظمي: انظر البخاري: الأذان ٥١ من طريق ابن أبي عائشة وفيه: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم." (١)

"حمى أخذتها قال: "فلعله من أجل حديث تحدث به" قالت: فقعدت فقالت: والله لئن حلفت لا تصدقوني ولئن اعتذرت لا تعذروني فمثلي ومثلكم مثل يعقوب وبنيه ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ [يوسف: ١٨] قالت: وأنزل الله عليه ما أنزل فأخبرها فقالت: بحمد الله لا بحمد أحد١. [٣: ٨]

---

١ رجاله ثقات رجال الشيخين غير صحابيته أم رومان، فقد روى لها البخاري.

---

(١) صحيح ابن خزيمة ابن خزيمة ٥٥/٣

ابن فضيل: هو محمد بن فضيل بن غزوان، وحصين: هو ابن عبد الرحمن السلمي أبو الهذيل الكوفي، وشقيق: هو أبو وائل شقيق بن سلمة، ومسروق: هو ابن الأجدع.

قلت: وقد استشكل قول مسروق: سألت أم رومان ... فإن أم رومان ماتت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسروق ليست له صحبة، لأنه إنما قدم المدينة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم في خلافة أبي بكر أو عمر؟ قال الخطيب فيما نقله عنه المزي في "الأطراف" ١٣/٧٩: هذا حديث غريب من رواية أبي وائل، عن مسروق، عن أم رومان، لانعلم رواه عنه غير حصين بن عبد الرحمن، وفيه إرسال، لأن مسروقا لم يدرك أم رومان، وكانت وفاتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مسروق يرسل رواية هذا الحديث عنها، ويقول: "سئلت أم رومان"، فوهم حصين فيه، إذ جعل السائل لها مسروقا، اللهم إلا أن يكون بعض النقلة كتب: "سألت" بالألف، **فإن من الناس من** يجعل الهمزة في الخط ألفا وإن كانت مكسورة أو مرفوعة، فيبرأ حينئذ حصين من الوهم فيه، على أن بعض الرواة قد رواه عن حصين على الصواب. قال: وأخرج البخاري هذا الحديث في "صحيحه" لما رأى فيه "عن مسروق" قال: "سألت أم رومان"، ولم تظهر له علته.

وقد تعقب كلام الخطيب هذا غير واحد من الأئمة، فقالوا: بل الذي. . . . .=." (١)

"٨٧٢ - حدثني إسحاق، ثنا أبو حذيفة، ثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، أن أبا موسى قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **إن من الناس من** يقاتل رياء، ومنهم من يقاتل حمية، ومنهم من يقاتل محتسبا، فأي هؤلاء الشهيد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو شهيد»." (٢)

"وقال أنس: كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرس، قال: وقالت عائشة: فكنت ذات ليلة إلى جنبه فسهر تلك الليلة، فقلت: يا رسول الله ما شأنك؟ فقال: «ليت رجل صالح يحرسني الليلة» قالت:

فبينما نحن في ذلك حتى سمعت صوت السلاح. فقال: من هذا؟ قال: سعد وحذيفة جئنا نحرسك، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه فنزلت الآية فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبة أديم وقال: «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل» «١» [٩٧] .

وروى الحسن مرسلا إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما بعثني الله برسالته فضقت بها ذرعا وعرفت **إن من الناس من** يكذبني»

«٢» [٩٨] وكان عتابه قريشا واليهود والنصارى فأنزل الله الآية، قلت:

ولما نزل قوله ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله سكت النبي (عليه السلام) عن عيب الهتهم فأنزل الله تعالى يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك «٣» يعني معايب آلهتهم.

---

(١) صحيح ابن حبان - محققا ابن حبان ١٦/٢٣

(٢) الفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي أبو بكر الشافعي ١/٦٤٧

وقيل: نزلت في عيب اليهود وذلك

إنه (عليه السلام) دعا اليهود إلى الإسلام وقالوا:

أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون: تريد أن نتخذك عيانا كما اتخذت النصارى عيانا عيسى، فلما رأى النبي (عليه السلام) ذلك سكت فحرضه الله على دعائهم إلى الإسلام وأمره أن يقول لهم.

يا أهل الكتاب لستم على شيء الآية.

قال الحسين بن الفضل: وهذا أولى الأقاويل لأنه ليس بين قوله بلغ ما أنزل إليك وبين قوله لستم على شيء فصل.

فلما نزلت الآية قال (عليه السلام) : «لا يأتي من عندي ومن نصرني» [٩٩] .

وقيل: نزلت في قصة عيينة بن حصين وفقراء أهل الصفة وقيل: بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص ومر في قصة.

وقيل: بلغ ما أنزل إليك من أمر نسائك. وذلك

أن رسول الله لما نزلت آية التخيير لم يكن يعرضها عليهن خوفا من اختيارهن الدنيا فأنزل الله، وقيل: بلغ ما أنزل إليك في أمر زينب بنت جحش

، وقيل: نزلت في الجهاد، وذلك إن المنافقين كرهوه، قال الله فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال «٤» الآية وكرهه أيضا بعض المؤمنين قال الله ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم «٥» الآية، وكان (عليه السلام) يمسك في بعض المسلمين عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة القوم فأنزل الله الآية.

---

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٨١ وتفسير القرطبي: ٦/ ٢٤٤ وزاد المسير: ٢/ ٣٠١

. (٢) زاد المسير: ٢/ ٣٠١، تفسير القرطبي: ٦/ ٢٤٣

. (٣) سورة المائدة: ٦٧

. (٤) سورة محمد: ٢٠

. (٥) سورة النساء: ٧٧

.." (١)

"قال ابن جبير: ما كان في غير إسراف ولا تقتير.

قال ابن عباس: في غير إسراف ولا تقتير.

وقال الضحاك: يعني النفقة على العيل وعلى نفسه، وليس النفقة في سبيله الله.

قال مجاهد في قوله: ﴿فهو يخلفه﴾: أي: إن كان خالفا فمنه، وربما أنفق الرجل ماله كله ولم يخلف حتى يموت.

قال مجاهد: إذا كان بيد الرجل ما يقيمه فليقتصد في النفقة، ولا تؤول هذه الآية فإن الرزق مقسوم، ولا يدري لعل رزقه قليل. يعني: وأجله قريب.

---

(١) تفسير الثعلبي = الكشف والبيان عن تفسير القرآن الثعلبي ٩١/٤

ثم قال تعالى: ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي: خير من يرزق. وجاز ذلك **لأن من الناس من** يسمى برازق على المجاز، أي: رزق غيره مما رزقه الله، والله يرزق عباده لا من رزق رزقه غيره، فليس رازق مرزوق كرازق غير مرزوق.

ثم قال تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة﴾ الآية أي: واذكر يا محمد يوم نحشر هؤلاء الكفار، ثم نقول للملائكة: أهؤلاء الكفار كانوا يعبدونكم من دوني؟ فتبرأ منهم الملائكة، فقالوا: ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم﴾ أي: تنزيها لك وبراءة من السوء الذي أضافه هؤلاء إليك، " أنت ولينا من دونهم " أي: لا نتخذ وليا من دونك.." (١)

"﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون﴾ قوله: ﴿ومنءاياته خلق السموات والأرض﴾ فيه وجهان: أحدهما: لما فيهما من الآيات والعبر. الثاني: لإعجاز الخلق عن إحداث مثلهما. ﴿واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ فيه وجهان: أحدهما: اختلاف ألسنتكم بالكلام ، فللعرب كلام وللفرس كلام وللروم كلام. وألوانكم أبيض وأسود وأحمر ، قاله السدي ، وحكى وهب بن منبه في المبتدأ أن جميع الألسنة اثنان وسبعون لسانا منها في ولد سام بن نوح تسعة عشر لسانا ، وفي ولد حام سبعة عشر لسانا ، وفي ولد يافث ستة وثلاثون لسانا. والوجه الثاني: اختلاف ألسنتكم: النغمة والصوت حتى لا يشتبه صوتان من أخوين لأم وأب ، وألوانكم: الصورة حتى لا يشتبه الناس في المعارف والمناكح والحقوق. ﴿إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ قال ابن عيسى: الجن والإنس. وروى حفص عن عاصم ﴿للعالمين﴾ بكسر اللام يعني جميع العلماء. قوله: ﴿ومنءاياته منامكم بالليل والنهار وابتغؤكم من فضله﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن الليل والنهار معا وقت للنوم ووقت لابتغاء الفضل ، **لأن من الناس من** يتصرف في كسبه ليلا وينام نهارا. الثاني: أن الليل وقت النوم والنهار وقت لابتغاء الفضل ، ويكون تقدير الكلام:." (٢)

"٤٠٠ - وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ ، نا أبو العباس محمد بن يعقوب قال: سمعت العباس بن محمد الدوري ، يقول: سمعت يحيى بن معين ، يقول: قال النضر بن شميل: ﷺ«والشر ليس إليك تفسيره والشر لا يتقرب به إليك» وذكر أبو عبد الله الحليمي رحمه الله أن معناه أن الإحسان منك وإليك أي أن ما يصيبنا من خير وحسنى فأنت موليه والمنعم به ، وما يكون منا من طاعة وفعل حسن فأنت المقصود وعبادتك هي مرادة منه ، فأما ما يصيبنا من شر وسوء فإنه وإن كان منك أيضا فإن شرور أنفسنا وهي ما يقع في أعمالنا من سيئ وقبيح ، فلست المقصود به ، أي ليس غرض المسيء منا في إساءته خلافك وعصيانك ، كما أن غرض المحسن منا في إحسانه طاعتك وعبادتك ، وإنما هو غفلة تعرض فيتبع المسئ فيها شهوته من غير أن يكون العصيان قصده وإرادته ، ولو قصد ذلك لضاهى إبليس وكان من المتكبرين ، فإنما هذا -[٢٧٧]- الكلام تبرؤ من الشقاق والعناد ، لا أنه نفي للشر أصلا وإنكارا أن يقدر شرا. قال الشيخ: وفي نفس الخبر دلالة على صحة ما ذكروا من تأويله ، لأنه قال: «والمهدي من هديت» وفيه دلالة على أنه يهدي قوما ولا يهدي آخرين حتى يكون المهدي من هداه ، والمعصوم من عصمه ، والذي لم يهده ولم يعصمه ولم

---

(١) الهداية الى بلوغ النهاية مكي بن أبي طالب ٥٩٣٣/٩

(٢) تفسير الماوردي = النكت والعيون الماوردي ٣٠٦/٤

يصرف عنه السوء لم يرد به خيرا ، قال الله عز وجل: ﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾ [المائدة: ٤١] وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما علم ابن ابنته من الدعاء «اللهم اهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت» وفيه دلالة على **أن من الناس من** هداه الله ، ومنهم من لم يهده ، كما **أن من الناس من** عافاه الله ، ومنهم من لم يعافه ، وأنه سأل أن يجعله فيمن هداه وعافاه ، جعلنا الله برحمته فيمن هداه وعافاه." (١)

"١٤٣٣ - أخبرنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، نا عبد الحميد بن أحمد الوراق نا الخضر بن داود قال: حدثني أحمد بن محمد بن هانئ أبو بكر الأثرم قال: سمعت أبا عبد الله يعني أحمد بن حنبل، وقد عاوده السائل في عشرة دنانير ومائة درهم ، فقال أبو عبد الله: " ﷺبرأي أستعفي منها، وأخبرك أن فيها اختلافا **فإن من الناس من** قال: يزكي كل نوع على حدة ومنهم من يرى أن يجمع بينهما -[٧٧٥]- وتلح علي تقول: فما تقول أنت فيها؟ ما تقول أنت فيها؟ وما عسى أن أقول فيها وأنا أستعفي منها كل قد اجتهد ، فقال له رجل: لا بد أن نعرف مذهبك في هذه المسألة لحاجتنا إليها فغضب وقال: أي شيء بد إذا هاب الرجل شيئا يحمل على أن يقول فيه ثم قال: وإن قلت فإنما هو رأي وإنما العلم ما جاء من فوق ولعلنا أن نقول القول ثم نرى بعده غيره ثم ذكر أبو عبد الله حديث عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد أنه قيل له: يكتبون رأيك قال: يكتبون ما عسى أن أرجع عنه غدا " قال: أبو بكر الأثرم: «ولم يزل به السائل حتى جعل يجنح لقول من لا يرى الجمع بينهما وكأني رأيت مذهبه أن يزكى كل نوع منهما على حدته»." (٢)

"١٨٨٥ - وحدثنا محمد بن إبراهيم، ثنا أحمد بن مطرف، ثنا سعيد بن -[٩٨٩]- عثمان، وسعيد بن خمير، قالا: نا يونس بن عبد الأعلى، ثنا سفيان بن عيينة، قال: اضطجع ربيعة مقنعا رأسه وبكى فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: ﷺ«رياء ظاهر وشهوة خفية والناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم، ما نهوهم عنه انتهوا وما أمروهم به ائتمروا»

١٨٨٦ - وقال أيوب رحمه الله: «ليس تعرف خطأ معلمك حتى تجالس غيره»

١٨٨٧ - وقال عبد الله بن المعتز: «لا فرق بين بهيمة تقاد وإنسان يقلد» وهذا كله لغير العامة؛ فإن العامة لا بد لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل بها؛ لأنها لا تتبين موقع الحجة ولا تصل لعدم الفهم إلى علم ذلك؛ لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة، والله أعلم، ولم تختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها وأنهم المرادون بقول الله عز وجل ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ [النحل: ٤٣] وأجمعوا على أن الأعمى لا بد له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليه فكذلك من لا علم له ولا بصر

---

(١) القضاء والقدر للبيهقي البيهقي، أبو بكر ص/٢٧٦

(٢) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ١/٧٧٤

بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا، وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم، -[٩٩٠]-

١٨٨٨ - وقد نظمت في التقليد وموضعه أبياتا رجوت في ذلك جزيل الأجر لما علمت **أن من الناس من** يسرع إليه حفظ المنظوم ويتعذر عليه المنثور وهي من قصيدة لي:

[البحر الكامل]

يا سائلي عن موضع التقليد خذ ... عني الجواب بفهم لب حاضر

واصغ إلى قولي ودن بنصيحتي ... واحفظ علي بوادري ونوادري

لا فرق بين مقلد وبهيمة ... تنقاد بين جنادل ودعاثر

تبا لقاض أو لمفت لا يرى ... عللا ومعنى للمقال السائر

فإذا اقتديت فبالكتاب وسنة ... المبعوث بالدين الحنيف الطاهر

ثم الصحابة عند عدمك سنة ... فأولاك أهل نهى وأهل بصائر

وكذاك إجماع الذين يلونهم ... من تابعيهم كابرا عن كابر

إجماع أمتنا وقول نبينا ... مثل النصوص لذي الكتاب الزاهر

وكذا المدينة حجة إن أجمعوا ... متتابعين أوائلا بأواخر

وإذا الخلاف أتى فدونك فاجتهد ... ومع الدليل فمل بهم وافر

وعلى الأصول فقس فروعك لا تقس ... فرعا بفرع كالجهول الحائر

والشر ما فيه فديتك أسوة ... فانظر ولا تحفل بزلة ماهر." (١)

"٢٣٧٤ - أخبرنا عبد الوارث بن سفيان، نا قاسم بن أصبغ، نا ابن وضاح، نا دحيم، نا ابن وهب، ثنا ابن لهيعة، عن بكير بن الأشج، " أن رجلا قال -[١٢٠٨]- للقاسم بن محمد: ﷺعجبا من عائشة كيف كانت تصلي في السفر أربعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين؟ فقال: يا ابن أخي عليك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وجدتها، **فإن من الناس من** لا يعاب." (٢)

"وعد الله حق في كل ما أخبر به أنه يكون، فوعده في القيامة حق، ووعده لمن أطاعه بكفاية الأمور والسلامة حق، ووعده للمطيعين في الآخرة بوجود الكرامة حق، وللعاصين بالندامة حق، فإذا علم العبد ذلك استعد للموت، ولم يهتم بالرزق، فيكفيه الله شغله، فينشط العبد في استكثار الطاعة ثقة بالوعد، ولا يلم بالمخالفات خوفا من الوعيد.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ٩٨٨/٢

(٢) جامع بيان العلم وفضله ابن عبد البر ١٢٠٧/٢

قوله جل ذكره:

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٦]

إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا إنما يدعوا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٦)

عداوة الشيطان بدوام مخالفته **فإن من الناس من** يعاونه بالقول ولكن يوافقه بالفعل، ولن تقوى على عداوته إلا بدوام الاستغاثة بالرب، وتلك الاستغاثة تكون بصدق الاستعانة، والشيطان لا يفتر في عداوتك، فلا تغفل أنت عن مولاك لحظة فيبرز لك عدوك فإنه أبدا متمكن لك.

«إنما يدعوا حزبه» وحزبه هم المعرضون عن الله، المشتغلون بغير الله، الغافلون عن لله. ودليل هذا الخطاب: إن الشيطان عدوكم فأبغضوه واتخذوه عدوا، وأنا وليكم وحبيبكم فأحبوني وارضوا بي حبيبا.

قوله جل ذكره:

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٧]

الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير (٧)

الذين كفروا لهم عذاب معجل وعذاب مؤجل، فمعجله تفرقة قلوبهم وانسداد بصائرهم ووقاحة همتهم حتى أنهم يرضون بأن يكون الصنم معبودهم. وأما عذاب الآخرة فهو ما لا تخفى على مسلم- على الجملة- صعوبته.." [١]

"القتيبي (١) والجرجاني.

وقوله تعالى: ﴿ولو كان ذا قربى﴾، التقدير: ولو كان المشهود له ذا قربى، وخص ذو القربى بالذكر لميل الناس إلى قراباتهم ومن يناسبونه (٢)، وهذا مقتص من قوله عز وجل: ﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾ [النساء: ١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾، أضيفت الشهادة إلى الله سبحانه لأمره بإقامتها والنهي عن كتمانها في قوله تعالى: ﴿ومن يكتمها فإنه آثم قلبه﴾ [البقرة: ٢٨٣] وقوله تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ [الطلاق: ٢] (٣)

وقوله تعالى: ﴿إنا إذا لمن الآثمين﴾ أي: إنا إن كتمناها كنا من الآثمين، وهذا الذي ذكرنا في الآية قول أكثر المفسرين واختيار أعظم أصحاب المعاني (٤).

قال عبد الله بن مسلم وذكر معنى الآية على الوجه: أراد الله عز وجل أن يعرفنا كيف نشهد بالوصية عند حضور الموت فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم﴾ أي: رجلان عدلان من المسلمين تشهدونهما على الوصية، وعلم جل ثناؤه **أن من الناس من** يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم، ويحضره الموت فلا يجد من يشهده من

---

(١) لطائف الإشارات = تفسير القشيري القشيري، عبد الكريم ١٩٣/٣

(١) أي ابن قتيبة. انظر: "تأويل مشكل القرآن" ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٢) من "الحجة" لأبي علي ٣/ ٢٦٦.

(٣) "الحجة" ٣/ ٢٦٦.

(٤) انظر: "مجاز القرآن" ١/ ١٨١، الطبري ٧/ ١١١، "معاني القرآن وإعرابه" للنحاس ٢/ ٣٧٨، "بحر العلوم" ١/ ٤٦٥.." (١)

"﴿يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم﴾ نزلت هذه الآية في قصة تميم وعدي وبديل خرجوا تجارا إلى الشام فمرض بديل ودفع إليهما متاعه وأوصى إليهما أن يدفعاه إلى أهله إذا رجعا فأخذا من متاعه إناء من فضة وردا الباقي إلى أهله فعلموا بخيانتهما ورفعوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآيات ومعنى الآية: ليشهدكم ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ وأردتم الوصية ﴿اثنان ذوا عدل منكم﴾ من أهل ملتكم تشهدونهما على الوصية ﴿أو آخران من غيركم﴾ من غير دينكم إذا ﴿ضربتم﴾ سافرتم ﴿في الأرض فأصابتكم مصيبة الموت﴾ علم الله أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين ويحضره الموت فلا يجد من يشهده على وصيته من المسلمين فقال: ﴿أو آخران من غيركم﴾ فالذميان في السفر (خاصة) إذا لم يوجد غيرهما (تقبل شهادتهما في ذلك) وقوله: ﴿تحبسونهما من بعد الصلاة فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمنا﴾ أي: ارتبتم في شهادتهما وشككتم وخشيتم أن يكونا قد خانا حبستموهما على اليمين بعد صلاة العصر فيحلفان بالله ويقولان في يمينهما: لا نبيع الله بعرض من الدنيا ولا نحابي أحدا في شهادتنا ﴿ولو كان ذا قربى﴾ ولو كان المشهود له ذا قربى ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ أي: الشهادة التي أمر الله بإقامتها ﴿إنا إذا لمن الآثمين﴾ إن كتمناها ولما رفعوهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت هذه الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما وذلك أنهما كانا نصرانيين وبديل كان مسلما فحلفا أنهما ما قبضا غير ما دفعا إلى الورثة ولا كتما شيئا وخلى سبيلهما ثم اطلع على الإناء في أيديهما فقالا: اشتريناه منه فارتفعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزل قوله:." (٢)

"والثالث: أن تجعل الواو للاستئناف، وتجعل في التقدير: ومن الذين أشركوا من يود أن يعمر ألف سنة، كأنه وقع العدول من قصة إلى قصة ليتبين أن من الناس من يود عمر ألف سنة ومع ذلك فإن اليهود أحرص منهم، ويجوز حذف (من) إذا ذكر قبله (من)، قال الله تعالى:

﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾ [الصافات:١٦٤]، أي: إلا من له، وقال: ﴿من الذين هادوا﴾ (٢٣ ظ) ﴿يحرفون الكلم﴾ [النساء:٤٦] (١).

والرابع: أنه معطوف على كناية الجمع، تقديره: ولتجدنهم والذين أشركوا أحرص الناس على حياة، و (من) (٢) صلة.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٥٧٢/٧

(٢) الوجيز للواحدي الواحدي ص/٣٣٩

وقيل (٣): المراد بالمشركين مشركو العرب. والشركة: اجتماع الحقين في محل واحد، والإشراك نصب الشريك (٤).

﴿يود:﴾ يحب (٥).

﴿أحدهم:﴾ أحد الجمع اسم عام يتناول الكل على سبيل الإفراد، قال الله تعالى: ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ [الأحزاب:٣٢]، وتقول العرب: يلبث أحدنا أياما لا يأكل ولا يشرب (٦). وربما تميز وصار بمعنى الأول في إثبات، قال الله تعالى: ﴿أما أحدكما (٧)﴾ فيسقي ربه خمرا وأما الآخر فيصلب [يوسف:٤١]، والآخر الآخر لا محالة (٨). ويسمى اليوم الذي بعد السبت يوم الأحد، وهو في العربية الأولى (٩) اليوم الأول، وهو في الأصل: وحد فقلبت الواو همزة كما في (أناة) (١٠).

وجملة قوله: ﴿لو يعمر ألف سنة﴾ في محل النصب لوقوع الود عليها (١١).

---

(١) ينظر: الكشاف ١/ ١٦٨، والمجيد (ط ليبيا) ٣٤٨، والدر المصون ٢/ ١٢.

(٢) في ع: من، والواو ساقطة. وينظر: المجيد (ط ليبيا) ٣٤٨.

(٣) ينظر: زاد المسير ١/ ١٠١، وتفسير القرطبي ٢/ ٣٤، والبحر المحيط ١/ ٤٨٠.

(٤) ينظر: لسان العرب ١٠/ ٤٤٨ (شرك)، والتوقيف على مهمات التعاريف ٤٢٩.

(٥) ساقطة من ك، وكذا قوله: (أحد) الآتي قريبا. وينظر: مجمع البيان ١/ ٣١١، والبحر المحيط ١/ ٤٦٦.

(٦) ينظر: البحر المحيط ١/ ٤٨٢، وروح المعاني ٢٢/ ٣ - ٤.

(٧) في ع: أحدكم، وهو خطأ.

(٨) ينظر: روح المعاني ٢٢/ ٤.

(٩) في ب: والأولى، والواو مقحمة.

(١٠) أصلها (وناة)، ينظر: الممتع ١/ ٣٣٥، والمجيد (ط ليبيا) ٣٤٨ - ٣٤٩، وروح المعاني ٢٢/ ٤ و ٣٠/ ٢٧٢.

(١١) ينظر: المجيد (ط ليبيا) ٣٤٩، والدر المصون؟؟؟.." (١)

"١٥٧ - واللام في قوله: ﴿لمغفرة﴾ جواب (لئن) (١).

﴿خير:﴾ لكم. وذلك لأن القتيل والميت محتاجان إلى مغفرة ورحمة من الله، مستغنيان من حطام الدنيا، فما يحتاجان إليه أبدا هو ﴿خير مما يجمعون﴾ مما يستغنيان عنه (٢).

١٥٨ - ﴿ولئن متم:﴾ بشرى للعارفين وتطميع (٣) للمحسنين وتنبيه للمذنبين وتقريع للكافرين (٤).

١٥٩ - ﴿فبما رحمة:﴾ (ما): صلة عند الكوفيين (٥)، وقائم مقام (شيء) عند البصريين والرحمة كالبدل والبيان (٦).

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ١/٢٠٣

و (اللين): ضد الخشونة والفظاظة، ورجل لين الجانب إذا كان رقيقا سهل المأخذ (٧).

و (الفظ) في الأصل: ما في الكرش من الفرث، ورجل فظ: سيئ العشرة والخلق (٨).

وإنما زاد (غلظ القلب) في الوصف للتأكيد؛ **لأن من الناس من** يكون رقيق القلب سريع الرضا حسن المرجع مع (٩) سوء الخلق والعشرة.

و (الانفضاض): التفرق والانتشار (١٠).

﴿فاعف عنهم:﴾ يقتضي إباحة العفو (١١).

﴿واستغفر لهم:﴾ على الوجوب (١٢).

﴿وشاورهم في الأمر:﴾ على الندب والإباحة (١٣). والمعنى فيه استمالة قلوب القوم بالإصغاء إليهم وبإشراكهم في إمضاء الأمر (١٤).

---

(١) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٣/ ٢٨، والكشاف ١/ ٤٣١، والتفسير الكبير ٩/ ٥٨.

(٢) ينظر: التبيان في تفسير القرآن ٣/ ٢٩.

(٣) في ع: وتطييع.

(٤) (وتقريع للكافرين) ساقطة من ب. وينظر: التبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣٠.

(٥) ينظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٢٤٤، وللأخفش ١/ ٤٢٧، وتفسير غريب القرآن ١١٤.

(٦) ينظر: مشكل إعراب القرآن ١/ ١٧٨، والتبيان في إعراب القرآن ١/ ٣٠٥، والفريد ١/ ٦٥٢.

(٧) ينظر: تفسير البغوي ١/ ٣٦٥.

(٨) ينظر: معاني القرآن وإعرابه ١/ ٤٨٣، والتبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣١، ومجمع البيان ٢/ ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٩) ساقطة من ع. وينظر: التبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣١، وزاد المسير ٢/ ٤٧، والتفسير الكبير ٩/ ٦٣ - ٦٤.

(١٠) ينظر: غريب القرآن وتفسيره ١١١، وتفسير غريب القرآن ١١٤، والكشاف ١/ ٤٣١.

(١١) ينظر: مجمع البيان ٢/ ٤٢٩.

(١٢) ينظر: التفسير الكبير ٩/ ٦٥.

(١٣) وهو قول الشافعي، ينظر: التفسير الكبير ٩/ ٦٧، وتفسير القرطبي ٤/ ٢٥٠.

(١٤) ينظر: تفسير الطبري ٤/ ٢٠٣، وتفسير القرآن الكريم ٢/ ١٩٣، والتبيان في تفسير القرآن ٣/ ٣٢.." [(١)]

"هاهنا، والتفضيل على الجنس لا يحتاج إلى (من) كقولك: الياقوت أفضل الجواهر، فإن وقع على غير الجنس لم يجز إلا بإدخال (من)، تقول: الياقوت أفضل من الزجاج، والدهن ألين من الماء. ﴿ومن الذين أشركوا﴾ هم المجوس (١). ويحتمل وجوها أربعة، أحدها: أنه معطوف على (الناس) فجيء بـ (من) لأن المجوس غير جنس اليهود، كقولك:

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الفكر الجرجاني، عبد القاهر ٤٤٥/١

الإنسان أحسن الخلائق ومن الحور العين.

فالخلائق (٢) اسم جنس، والحور العين غير جنس. والثاني: أن تقدر التكرار فتجعل في التقدير: أحرص الناس وأحرص من الذين أشركوا. والثالث: أن تجعل الواو للاستئناف وتجعل في التقدير: ومن الذين أشركوا من يود أن يعمر ألف سنة [كأنه وقع العدول من قصة إلى قصة ليتبين **أن من الناس من** يود عمر ألف سنة] (٣).

ومع ذلك فإن اليهود أحرص منهم، ويجوز حذف (من) إذا ذكر قبله (من)، قال الله تعالى: ﴿وما منا إلا له مقام معلوم (١٦٤)﴾ (٤) أي: إلا من له. قال: ﴿من الذين هادوا يحرفون الكلم﴾ (٥). والرابع: أنه معطوف على كناية الجمع، تقديره: ولتجدنهم والذين أشركوا أحرص الناس على حياة (٦).

---

(١) هو قول أبي العالية والربيع أخرجه عنهما الطبري في تفسيره (٢/ ٢٧٧)، وابن أبي حاتم (١/ ١٧٩).

(٢) (فالخلائق) ليست في "ب".

(٣) ما بين [...] ليس في "ب".

(٤) سورة الصافات: ١٦٤.

(٥) سورة النساء: ٤٦.

(٦) في قوله تعالى: ﴿ومن الذين أشركوا﴾ أي يجوز أن يكون متصلا داخلا تحت أفعل التفضيل، ويجوز أن يكون منقطعا عنه، ولكل من الحالين توجيهات إعرابية، فمن قال بالاتصال ففيه ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أنه حمل على المعنى، والتقدير: أحرص من الناس ومن الذين أشركوا.

الوجه الثاني: أن يكون حذف من الثاني لدلالة الأول عليه. والتقدير: وأحرص من الذين أشركوا. =." [1]

"﴿فبما رحمة﴾ (ما) صلة عند الكوفيين وقائم مقام شيء عند البصريين (١)، والرحمة كالبدل والبيان، و (اللين): ضد الخشونة والفظاظة، ورجل لين الجانب إذا كان رقيقا سهل المأخذ، و (الفظ) في الأصل ما في الكرش من الفرث، ورجل فظ سيء العشرة والخلق، وإنما زاد غلظ القلب في الوصف للتأكيد؛ **لأن من الناس من** يكون رقيق القلب سريع الرضا حسن المرجع سيء الخلق والعشرة، و (الانفضاض): التفرق والانتشار، ﴿فاعف عنهم﴾ يقتضي إباحة العفو، ﴿واستغفر لهم﴾ على الوجوب، ﴿وشاورهم في الأمر﴾ على الندب والإباحة، والمعنى فيه استمالة قلوب القوم بالإصغاء إليهم وبإشراكهم في إمضاء الأمر، ﴿فتوكل﴾ (٢) فرض لازم لا يسع تركه.

في قوله: ﴿إن ينصركم الله﴾ بيان المعنى الموجب للتوكل وخذلانك صاحبك وتركك (٣) إياه إلى قدر نفسه بلا إعانة ولا توفيق إرادة منك هوانه يقال: طيبة خذول إذا قعدت عن تعهد ولدها وقالت الأشعرية الخذلان نسخ قدرة الخير بقدرة الشر.

﴿وما كان لنبي﴾ نزلت في يوم بدر فقدوا قطيفة حمراء فاتهم بعض المنافقين أو الجهال رسول الله. و (الغلول): الخيانة،

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة الجرجاني، عبد القاهر ٢٣٦/١

وأصله من انغلال الماء بين الأشجار (٤)، وتواترت الأخبار في تعظيم شأن غلول الغزاة في الغنيمة.

---

(١) في "ما" وجهان إعرابيان:

أحدهما: أنها زائدة للتوكيد.

والوجه الثاني: أنها غير مزيدة، بل هي نكرة. إما نكرة موصوفة، والتقدير: فبشيء رحمة. وإما غير موصوفة فتكون "رحمة" بدلا منها، وهذا محكي عن ابن كيسان، ونقله أبو البقاء عن الأخفش، وقال الزجاج: "ما" هذه صلة فيها معنى التوكيد بإجماع النحويين.

[المشكل (١/ ١٦٥)؛ الإملاء (١/ ١٥٥)؛ معاني القرآن (١/ ٤٩٧)].

(٢) في "ب": (وتوكل).

(٣) في المخطوطات: (وكونك) (وكفلك)، ولا معنى لها.

(٤) رواه الترمذي (٣٠٠٩)؛ وأبو داود (٣٩٧١)؛ وأبو يعلى (٢٤٣٨، ٢٦٥١)؛ وابن أبي حاتم (١٧٦٠/ حكمت)؛ وابن المنذر (١١٢٥)؛ والواحدي في أسباب النزول ص ٧٥٩؛ والطبراني في الكبير (١٢٠٢٨، ١٢٠٢٩)؛ والطبري في التفسير (٤/ ١٥٤ - ١٥٥)؛ وابن عدي في الكامل (٣/ ٧٢).." [(١)]

"في الأرض وفيها أثر أيدي البشر، حتى يكون على النسق، قيل إن إيجاد البحر مقدم على إيجاد الأمطار والرياح والسحاب، فكل ذلك إنما ينشأ عن البحار الساطع من رطوبة البحار ويبوسة الأرض، وذلك مبين في كتب المعنيين بمعرفة هذه الصنعة، ولما لم يكن فرق بين أن يقال: (والفلك التي تجري في البحر) وبين أن يقال: (والبحر الذي تجري فيه الفلك) في أن القصد الأول بالآية أن يعرف منفعة البحر وإن أخر في اللفظ، وقدم ذكر الفلك التي هي من صنعتنا، ونحن بصنعتنا أعرف منا بصنعته.

قدم ذكر الفلك لننظر منها إلى أثار الله تعالى، وقال بعض الناس:

لم يعن بالفلك والبحر المحسوسين فقط، بل عنى بالبحر كل شبها وحيرة ومشقة، وبالفلك ما فيه إيقاد البشر من فائض النور والعقل أمدهم به، وغير ذلك من المعادن المعقولات والمحسوسات، وقد تقدم أن من الناس من قال: الإشارة بالماء في نحو هذه المواضع إلى العلوم التي بها الحياة الأبدية وما في الأرض إلى النفوس التي بها تحيا الحياة الأبدية، ولما ذكر الله تعالى في الآية الأولى:

) وإلهكم إله واحد) جعل هذه الآية دلالة عليه تنبيها أن كل موجود لا ينفك من أن يكون مكونا غير مكون، أو مكونا من وجه مكونا من وجه أو مكونا وغير مكون، ومحال أن يكون كل مكون مكونا لأن ذلك يؤدي إلى ما لا يتناهى، فإذن لابد أن تنتهي الموجودات إلى مكون غير مكون، وذلك هو الباري- عز وجل-، فنبه أن أثر الصنعة موجود في هذه الأشياء، فلابد أن تكون مكونة، وهذا هو الدلالة على وحدانيته علي طريق الجملة ..

---

(١) درج الدرر في تفسير الآي والسور ط الحكمة الجرجاني، عبد القاهر ٥٤٤/٢

قوله – عز وجل –:

﴿ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب﴾

الآية (١٦٥) – سورة البقرة.

الند: المثل في الجوهر، وقد تقدم، والحب أصله من الحب، وبه شبه حبة القلب وحبيبه يقال على وجهين، أحدهما: أصبت حبة قلبه، نحو كبدته وفادته، والثانية أصبته بحبة القلب، نحو: رمحته وعنيته، أصبته بالعين، فقولك: حببته وأحببته هو في اللفظ فعل، وفي الحقيقة قد يكون انفعالا، لأن المحب يكون منفعلا للمحبوب، وإذا أستعمل في الله تعالى فقيل: " أحب الله فلانا "، فليس إلا على." (١)

"بأهل الآخرة: " ألكيس من دان نفسه .. " نبه **أن من الناس من** إذا صادفته وجدته معجبا لك في أمور دنياه، وقوله تعالى: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ الآية ... ويحلف بأن قلبه [مطمئن بالإيمان] ومطابق للسانه وهو يجادل في ذلك ويخاصم، وقوله تعالي ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ إشارة إلى نحو ما وصف به المنافقين، حيث قال قالوا: ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾.

قوله– عز وجل –:

﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد﴾

الآية (٢٠٥) – سورة البقرة.

السعي: مشي سريع، ومنه قيل السعي بين الصفا والمروة، فجعل مستعارا للتصرف، ولأجله قيل لجابي الصدقة ساع، وقيل للوقيعة في الغير سعاية، وذلك كاستعارة المشي لهما في قوله ﴿هماز مشاء بنميم﴾ والنسل: مصدر نسل إذا خرج منفصلا ومنه: نسل الوبر والريش.

والنسالة للساقط منه، ونسل إذا أسرع، قال تعالى: ﴿إلى ربهم ينسلون﴾، وسمي الولد نسلا لكونه ناسلا عن أبويه بين تعالي حال هذا المعجب في الدنيا المرائي المجادل بأنه إذا تولى عمن يرائي سلي في الإفسال وإهلاك الحرث والنسل وذلك معاندة لله فيما حث عليه في قوله:." (٢)

"وما أنزل إليهم من ربهم، يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر وأخرجت لهم من نبات الأرض. وقال الفراء: أراد به التوسعة في الرزق كما يقال: فلان في الخير من قرنه إلى قدمه،

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٣٦١/١

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني الراغب الأصفهاني ٤٢٨/١

نظيره قوله تعالى: ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض [الأعراف: ٩٦] . منهم أمة مقتصدة، يعني: مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، مقتصدة أي عادلة غير غالية [١] ، ولا مقصرة جافية. ومعنى الاقتصاد في اللغة: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، وكثير منهم، كعب بن الأشرف وأصحابه، ساء ما يعملون، بئس [٢] شيئا عملهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك، روي عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها: من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل الله فقد كذب، وهو يقول: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الآية [٣] . وروي [عن] [٤] الحسن: أن الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف **أن من الناس من** يكذبه، فنزلت هذه الآية [٥] .

[وقيل] [٦] : نزلت في عيب اليهود، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به، فيقولون له: تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك سكت فنزلت هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: يا أهل الكتاب لستم على شيء [المائدة: ٦٨] الآية.

وقيل: بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص، نزلت في قصة اليهود، وقيل: نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها، وقيل: [نزلت] [٧] في الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوه كما قال الله تعالى: فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت [محمد: ٥] ، وكرهه بعض المؤمنين قال الله تعالى: ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم [النساء:

٧٧] الآية. فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما يعلم من كراهة بعضهم، فأنزل الله هذه الآية. قوله تعالى: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، قرأ أهل المدينة والشام وأبو بكر ويعقوب «رسالاته» على الجمع والباقون رسالته على التوحيد، ومعنى الآية: إن لم تبلغ الجميع [٨] وتركت بعضه، فما بلغت شيئا، أي: جرمك في ترك تبليغ البعض كجرمك في ترك تبليغ الكل كقوله: نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقا [النساء: ١٥٠- ١٥١] ،

---

(١) في المطبوع «غالبة» .

(٢) زيد في المطبوع وحده «بئس ما يعملون» .

(٣) خبر عائشة أخرجه البخاري ٤٦١٢ ومسلم ١٧٧ دون ذكر الآية ويأتي في آخر سورة لقمان.

(٤) زيادة عن المخطوط.

(٥) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ٤٠٢ عن الحسن بدون إسناد، وقال الحافظ في «تخريج الكشاف» (١/ ٦٥٩) : أخرجه إسحاق في «مسنده» أخبرنا كلثوم بن محمد بن أبي سدرة حدثنا عطاء الخراساني عن أبي هريرة به....

اهـ.

(٦) ما بين المعقوفتين زيادة من «ط» .

(٧) زيادة عن المخطوط.

(٨) في المطبوع: «الجمع» .." [١]

"هذا حديث حسن غريب.

البطاقة: الورقة.

طاشت: أي: خفت، والطيش: خفة العقل.

وروي عن أبي هريرة، قال: «إن من الناس من يقتل يوم القيامة ألف قتلة بضروب ما قتل».

باب من يدخل الجنة بغير حساب

٤٣٢٢ - أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أنا محمد بن يوسف، نا محمد بن إسماعيل البخاري، نا مسدد، نا حصين بن نمير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: " عرضت علي الأمم، فجعل يمر النبي معه الرجل، والنبي معه الرجلان، والنبي معه الرهط، والنبي ليس معه أحد، ورأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فرجوت أن يكون أمتي، فقيل: هذا موسى عليه السلام في قومه، ثم قيل لي: انظر، فرأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فقيل لي: انظر هكذا وهكذا، فرأيت سوادا كثيرا سد." [٢]

"﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ يعني: أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما، ﴿وما أنزل إليهم من ربهم﴾ يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل، ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر وأخرجت لهم من نبات الأرض.

وقال الفراء أراد به التوسعة في الرزق كما يقال فلان في الخير من قرنه إلى قدمه، ونظيره قوله تعالى: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض" (الأعراف، ٩٦) .

﴿منهم أمة مقتصدة﴾ يعني: مؤمني أهل الكتاب، عبد الله بن سلام وأصحابه، مقتصدة أي عادلة غير غالية، ولا مقصرة جافية، ومعنى الاقتصاد في اللغة: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير.

﴿وكثير منهم﴾ كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿ساء ما يعملون﴾ بئس شيئا عملهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عملوا القبيح مع التكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم.

---

(١) تفسير البغوي - إحياء التراث البغوي ، أبو محمد ٢/٦٨

(٢) شرح السنة للبغوي البغوي ، أبو محمد ١٥/١٣٥

قوله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية، روي عن مسروق قال: قالت عائشة رضي الله عنها من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل الله فقد كذب، وهو يقول: "يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك" الآية (١) . روى الحسن: أن الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف **أن من الناس من** يكذبه، فنزلت هذه الآية (٢) .

وقيل: نزلت في عيب اليهود، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام، فقالوا أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به، فيقولون له: تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم حنانا، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك سكت فنزلت هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: "يا أهل الكتاب لستم على شيء" الآية.

وقيل: بلغ ما أنزل إليك من الرجم والقصاص، نزلت في قصة اليهود.

وقيل: نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها.

وقيل: في الجهاد، وذلك أن المنافقين كرهوه، كما قال الله تعالى: "فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت"

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير، باب "يا أيها الرسول بلغ ... " من سورة المائدة: ٨ / ٢٧٥، ومسلم في الإيمان. باب معنى قول الله عز وجل "ولقد رآه نزلة أخرى" برقم (١٧٧) : ١ / ١٥٩.

(٢) أسباب النزول للواحدي ص (٢٣٢-٢٣٣) ، الدر المنثور: ٣ / ١١٦-١١٧.." [1]

"والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوما مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصا «١» بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول. فإن قلت:

فقوله إنا لمنجوهم بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكن» في الاتصال بآل لوط، لأن المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاما مستأنفا، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم. فإن قلت:

فقوله إلا امرأته مم استثنى، وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثنى من الضمير المجرور في قوله لمنجوهم وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء، لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط، إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق:

أنت طالق ثلاثا، إلا اثنتين، إلا واحدة. وفي قول المقر: لفلان على عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهما. فأما في الآية فقد اختلف الحكمان، لأن إلا آل لوط متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين.

وإلا امرأته قد تعلق بمنجوهم، فأنى يكون استثناء من استثناء. وقرئ لمنجوهم بالتخفيف والتثقيل. فإن قلت: لم جاز

---

(١) تفسير البغوي - طيبة البغوي ، أبو محمد ٧٨/٣

تعليق فعل التقدير في قوله قدرنا إنها لمن الغابرين «٢» والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قلت: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم. فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير– وهو لله وحده– إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما

---

(١) . قوله «فلا يكون الإرسال مخلصا» لعله: مختصا. (ع)

(٢) . عاد كلامه. قال محمود: «فان قلت لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله قدرنا إنها لمن الغابرين الخ» قال أحمد: وهذه أيضا من دفائنه الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أن الأمر أنف، لأنهم لا يعتقدون أن الله تعالى مريد لأكثر أفعال عبيده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبيد، بمعنى أنه مريد ولكنه عالم بما سيفعلونه على خلاف مشيئته وإرادته. فالتقدير عندهم هو العلم لا الارادة، ثم استدل على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطنته في ابتغاء آية يلفقها ويعاند بها البراهين الواضح فلقها، وفي كلامه شاهد على رده، فان التقدير عنده مضمن معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر: أن يبقى على معناه الأصلى، مضافا إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعا، فالتقدير إذا كما أفاد العلم الطارئ يفيد الارادة أصلا ووضعا. والله أعلم، على **أن من الناس من** جعل قوله تعالى قدرنا إنها لمن الغابرين من كلامه تعالى غير محكي عن الملائكة، وهو الظاهر، فان الذي يجعله من قول الملائكة يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، وإنما يعنون دبر الملك وأمر، وبذلك أولة الزمخشري. وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علمنا إنها لمن الغابرين، فلا غرو في علم الملائكة ذلك باخبار الله تعالى إياهم به، وإنما يحتاج إلى التأويل: من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة، والله أعلم.." (١)

"تعالى: ويسعون في الأرض فسادا فيه أربعة أقوال: أحدها: بالمعاصي، قاله ابن عباس، ومقاتل.

والثاني: بمحو ذكر النبي صلى الله عليه وسلم من كتبهم، ودفع الإسلام، قاله الزجاج. والثالث: بالكفر. والرابع: بالظلم، ذكرهما الماوردي.

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٥]

ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥)

قوله تعالى: ولو أن أهل الكتاب يعني: اليهود والنصارى آمنوا بالله وبرسله واتقوا الشرك لكفرنا عنهم سيئاتهم التي سلفت.

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٦]

---

(١) تفسير الزمخشري = الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل الزمخشري ٥٨٢/٢

ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون (٦٦)

قوله تعالى: ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل قال ابن عباس: عملوا بما فيها. وفيما أنزل إليهم من ربهم قولان: أحدهما: كتب أنبياء بني إسرائيل. والثاني: القرآن، لأنهم لما خوطبوا به، كان نازلا إليهم. قوله تعالى: لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم فيه قولان:

أحدهما: لأكلوا بقطر السماء، ونبات الأرض، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والثاني: أن المعنى: لوسع عليهم، كما يقال: فلان في خير من قرنه إلى قدمه، ذكره الفراء، والزجاج. وقد أعلم الله تعالى بهذا أن التقوى سبب في توسعة الرزق كما قال: لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض «١» وقال: ويرزقه من حيث لا يحتسب «٢» .

قوله تعالى: منهم أمة مقتصدة يعني: من أهل الكتاب، وهم الذين أسلموا منهم، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقال القرظي: هم الذين قالوا: المسيح عبد الله ورسوله. و «الاقتصاد» الاعتدال في القول والعمل من غير غلو ولا تقصير.

[سورة المائدة (٥) : آية ٦٧]

يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٦٧)

قوله تعالى: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت على أسباب: روى الحسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(٤٤٩) «لما بعثني الله برسالته، ضقت بها ذرعا، وعرفت أن من الناس من يكذبني» ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يهاب قريشا واليهود والنصارى، فأنزل الله هذه الآية.

ضعيف. أخرجه أبو الشيخ كما في «أسباب النزول» للسيوطي ٤٣٨. وهو مرسل. ومراسيل الحسن واهية كما هو مقرر في كتب المصطلح. وانظر «تفسير الشوكاني» ٨٢٥ بتخريجنا.

---

(١) سورة الأعراف: ٩٦.

(٢) سورة الطلاق: ٣.." (١)

"الزجاج: المعنى: من الذين استحقت الوصية أو الإيصاء عليهم. والثاني: أنه الظلم، والمعنى: من الذين استحق عليهم ظلم الأوليان فحذف الظلم، وأقام الأوليين مقامه، ذكره ابن القاسم أيضا.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٥٦٧/١

والثالث: أنه الخروج مما قاما به من الشهادة، لظهور خيانتهما. والرابع: أنه الإثم، والمعنى: استحق منهم الإثم، ونابت «على» عن «من» كقوله تعالى: على الناس يستوفون «١» أي: منهم. وقال الفراء:

«على» بمعنى «في» كقوله تعالى: على ملك سليمان «٢» أي: في ملكه، ذكر القولين أبو علي الفارسي.

وعلى هذه الأقوال مفعول «استحق» محذوف مقدر.

وعلى القول الثاني في معنى استحق عليهم قولان: أحدهما: استحق منهم الأوليان، وهو اختيار ابن قتيبة. والثاني: جني عليهم الإثم، ذكره الزجاج.

فأما «الأوليان» فقال الأخفش: الأوليان: اثنان، واحدهما: الأولى، والجمع: الأولون: ثم للمفسرين فيهما قولان: أحدهما: أنهما أولياء الميت، قاله الجمهور، قال الزجاج: «الأوليان» في قول أكثر البصريين يرتفعان على البدل مما في «يقومان» والمعنى: فليقم الأوليان بالميت مقام هذين الخائنين. وقال أبو علي: لا يخلو الأوليان أن يكون ارتفاعهما على الابتداء، أو يكون خبر مبتدأ محذوف، كأنه قال: فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان، أو يكون بدلا من الضمير الذي في «يقومان» والتقدير: فيقوم الأوليان. والقول الثاني: أن الأوليان: هما الذميان، والمعنى: أنهما الأوليان بالخيانة، ذكرهما ابن الأنباري، فعلى هذا يكون المعنى: يقومان، إلا من الذين استحق عليهم. قال الشاعر:

فليت لنا من ماء زمزم شربة ... مبردة باتت على طهيان «٣»

أي بدلا من ماء زمزم.

وروى قرة عن ابن كثير، وحفص عن «٤» عاصم: «استحق» بفتح التاء والحاء «الأوليان» على التثنية، والمعنى: استحق عليهم الأوليان بالميت وصيته التي أوصى بها، فحذف المفعول. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: «استحق» برفع التاء، وكسر الحاء، «الأولين» بكسر اللام، وفتح النون على الجمع، والتقدير: من الأولين الذين استحق فيهم الإثم، أي: جني عليهم، لأنهم كانوا أولين في الذكر، ألا ترى أنه قد تقدم ذوا عدل منكم على قوله تعالى: أو آخران من غيركم. وروى الحلبي عن عبد الوارث «الأولين» بفتح الواو وتشديدها، وفتح اللام، وسكون الياء، وكسر النون، وهو تثنية:

أول. وقرأ الحسن البصري: «استحق» بفتح التاء والحاء، «الأولان» تثنية «أول» على البدل من قوله:

«فآخران» .

وقال ابن قتيبة: أشبه الأقوال بالآية أن الله تعالى أراد أن يعرفنا كيف يشهد بالوصية عند حضور الموت فقال: ذوا عدل منكم أي: عدلان من المسلمين، وعلم أن من الناس من يسافر فيصحبه في سفره أهل الكتاب دون المسلمين، وينزل القرية التي لا يسكنها غيرهم، ويحضره الموت، فلا يجد من يشهده من المسلمين، فقال: أو آخران من غيركم، أي: من غير أهل دينكم، فالذميان في السفر

---

(١) سورة المطففين: ٢. [.....]

(٢) سورة البقرة: ١٠٢.

(٣) في «اللسان» الطهيان: كأنه اسم قلة جبل، والطهيان: خشبة يبرد عليها الماء. ونسب البيت للأحول الكندي.

(٤) وقع في الأصل «و» بدل «عن» والمثبت هو الصواب.." (١)

"كان المفهوم من لفظ الشيء حاصلا في أخس الأشياء وذلك يدل على أن اسم الشيء لا يفيد صفة المدح والجلال، وأما قولنا: أن أسماء الله يجب أن تكون دالة على صفة المدح والجلال، فالدليل عليه قوله تعالى:

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه [الأعراف: ١٨٠] والاستدلال بالآية أن كون الأسماء حسنة لا معنى له إلا كونها دالة على الصفات الحسنة الرفيعة الجليلة، فإذا لم يدل الاسم على هذا المعنى لم يكن/ الاسم حسنا ثم إنه تعالى أمرنا بأن ندعوه بهذه الأسماء ثم قال بعد ذلك وذروا الذين يلحدون في أسمائه [الأعراف: ١٨٠] وهذا كالتنبيه على أن من دعاه بغير تلك الأسماء الحسنة فقد ألحد في أسماء الله، فتصير هذه الآية دالة دلالة قوية على أنه ليس للعبد أن يدعو الله إلا بالأسماء الحسنى الدالة على صفات الجلال والمدح، وإذا ثبت هاتان المقدمتان فقد حصل المطلوب.

الحجة الرابعة: أنه لم ينقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة أنه خاطب الله تعالى بقوله يا شيء، وكيف يقال ذلك وهذا اللفظ في غاية الحقارة، فكيف يجوز للعبد خطاب الله بهذا الاسم، بل نقل عنهم أنهم كانوا يقولون: يا منشئ الأشياء، يا منشئ الأرض والسماء.

واعلم **أن من الناس من** يظن أن هذا البحث واقع في المعنى، وهذا في غاية البعد، فإنه لا نزاع في أن الله تعالى موجود وذات وحقيقة، إنما النزاع في أنه هل يجوز إطلاق هذا اللفظ عليه، فهذا نزاع في مجرد اللفظ لا في المعنى، ولا يجري بسببه تكفير ولا تفسيق، فليكن الإنسان عالما بهذه الدقيقة حتى لا يقع في الغلط.

إطلاق لفظ الموجود على الله:

المسألة الثانية: في بيان أنه هل يجوز إطلاق لفظ الموجود على الله تعالى؟ اعلم أن هذا البحث يجب أن يكون مسبوقا بمقدمة، وهي أن لفظ الوجود يقال بالاشتراك على معنيين: أحدهما: أن يراد بالوجود الوجدان والإدراك والشعور، ومتى أريد بالوجود الوجدان والإدراك فقد أريد بالموجود لا محالة المدرك والمشعور به، والثاني: أن يراد بالوجود الحصول والتحقق في نفسه، واعلم أن بين الأمرين فرقا، وذلك لأن كونه معلوم الحصول في الأعيان، يتوقف على كونه حاصلا في نفسه، ولا ينعكس، لأن كونه حاصلا في نفسه لا يتوقف على كونه معلوم الحصول في الأعيان: لأنه يمتنع في العقل كونه حاصلا في نفسه مع أنه لا يكون معلوما لأحد، بقي هاهنا بحث، وهو أن لفظ الوجود هل وضع أولا للإدراك والوجدان ثم نقل ثانيا إلى حصول الشيء في نفسه، أو الأمر فيه بالعكس، أو وضعا معا؟ فنقول: هذا البحث لفظي، والأقرب هو الأول، لأنه لولا شعور الإنسان بذلك الشيء لما عرف حصوله في نفسه، فلما كان الأمر كذلك وجب أن يكون وضع اللفظ لمعنى الشعور والإدراك سابقا على وضعه لحصول الشيء نفسه.

إذا عرفت هذه المقدمة فنقول: إطلاق لفظ الموجود على الله تعالى يكون على وجهين: أحدهما: كونه معلوما مشعورا

---

(١) زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي ٥٩٨/١

به، والثاني: كونه في نفسه ثابتا متحققا، أما بحسب المعنى/ الأول فقد جاء في القرآن قال الله تعالى: لوجدوا الله [النساء: ٦٤] ولفظ الوجود هاهنا بمعنى الوجدان والعرفان، وأما بالمعنى الثاني فهو غير موجود في القرآن.." (١)

"«يا هو» كان معناه خاليا عن الإشعار بالسؤال والطلب، فوجب أن يكون قولنا: «هو» أعظم الأذكار.

ولنختم هذا الفصل بذكر شريف رأيته في بعض الكتب: يا هو، يا من لا هو إلا هو، يا من لا إله إلا هو، يا أزل، يا أبد، يا دهر، يا ديهار، يا ديهور، يا من هو الحي الذي لا يموت.

ومن لطائف هذا الفصل أن الشيخ الغزالي رحمة الله عليه كان يقول: «لا إله إلا الله» توحيد العوام، «ولا إله إلا هو» توحيد الخواص، ولقد استحسنت هذا الكلام وقررته بالقرآن والبرهان: أما القرآن فإنه تعالى قال: ولا تدع مع الله إلها آخر لا إله إلا هو ثم قال بعده: كل شيء هالك إلا وجهه [القصص: ٨٨] معناه إلا هو، فذكر قوله إلا هو بعد قوله لا إله فدل ذلك على أن غاية التوحيد هي هذه الكلمة، وأما البرهان فهو **أن من الناس من** قال: إن تأثير/ الفاعل ليس في تحقيق الماهية وتكوينها، بل لا تأثير له إلا في إعطاء صفة الوجود لها، فقلت: فالوجود أيضا ماهية، فوجب أن لا يكون الوجود واقعا بتأثيره، فإن التزموا ذلك وقالوا الواقع بتأثير الفاعل موصوفية الماهية بالوجود فنقول: تلك الموصوفية إن لم تكن مفهوما مغايرا للماهية والوجود امتنع إسنادها إلى الفاعل، وإن كانت مفهوما مغايرا فذلك المفهوم المغاير لا بد وأن يكون له ماهية، وحينئذ يعود الكلام، فثبت أن القول بأن المؤثر لا تأثير له في الماهيات، ينفي التأثير والمؤثر، وينفي الصنع والصانع بالكلية، وذلك باطل فثبت أن المؤثر يؤثر في الماهيات، فكل ما بالغير فإنه يرتفع بارتفاع الغير، فلولا المؤثر لم تكن تلك الماهية ماهية ولا حقيقة، فبقدرته صارت الماهيات ماهيات، وصارت الحقائق حقائق وقبل تأثير قدرته فلا ماهية ولا وجود ولا حقيقة ولا ثبوت، وعند هذا يظهر صدق قولنا: «لا هو إلا هو» أي: لا تقرر لشيء من الماهيات ولا تخصص لشيء من الحقائق إلا بتقريره وتخصيصه، فثبت أنه «لا هو إلا هو» والله أعلم.

الباب الثامن في بقية المباحث عن أسماء الله تعالى، وفيه مسائل

هل أسماؤه تعالى توقيفية:

المسألة الأولى: اختلف العلماء في أن أسماء الله تعالى توقيفية أم اصطلاحية، قال بعضهم لا يجوز إطلاق شيء من الأسماء والصفات على الله تعالى إلا إذا كان واردا في القرآن والأحاديث الصحيحة، وقال آخرون: كل لفظ دل على معنى يليق بجلال الله وصفاته فهو جائز، وإلا فلا، وقال الشيخ الغزالي رحمة الله عليه: الاسم غير، والصفة غير، فاسمي محمد، واسمك أبو بكر، فهذا من باب الأسماء، وأما الصفات فمثل وصف هذا الإنسان بكونه طويلا فقيها كذا وكذا، إذا عرفت هذا الفرق فيقال: أما إطلاق الاسم على الله فلا يجوز إلا عند وروده في القرآن والخبر، وأما الصفات فإنه لا يتوقف على التوقيف.

واحتج الأولون بأن قالوا: إن العالم له أسماء كثيرة، ثم إنا نصف الله تعالى بكونه عالما ولا نصفه بكونه طبيبا ولا فقيها،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١١٣

ولا نصفه بكونه متيقنا ولا بكونه متبينا، وذلك يدل على أنه لا بد من التوقيف، وأجيب عنه فقيل: أما الطبيب فقد ورد، نقل أن أبا بكر لما مرض قيل له: نحضر الطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني، وأما الفقيه فهو عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه بعد دخول الشبهة فيه. وهذا القيد ممتنع الثبوت في حق الله." (١)

"بالحق، وعلى هذا التفسير لا يكون إلها في الأزل.

واعلم أنه تعالى هو المستحق للعبادة، وذلك لأنه تعالى هو المنعم بجميع النعم أصولها وفروعها، وذلك لأن الموجود إما واجب وإما ممكن، والواجب واحد وهو الله تعالى، وما سواه ممكن، والممكن لا يوجب إلا بالمرجح، فكل الممكنات إنما وجدت بإيجاده وتكوينه إما ابتداء وإما بواسطة، فجميع ما حصل للعبد من أقسام النعم لم يحصل إلا من الله، فثبت أن غاية الإنعام صادرة من الله والعبادة غاية التعظيم فإذا ثبت هذا فنقول: إن غاية التعظيم لا يليق إلا لمن صدرت عنه غاية الإنعام فثبت أن المستحق للعبودية ليس إلا الله تعالى.

الفرع الثاني: **أن من الناس من** يعبد الله لطلب الثواب وهو جهل وسحف، ويدل عليه وجوه: الأول: أن من عبد الله ليتوصل بعبادته إلى شيء آخر كان المعبود في الحقيقة هو ذلك الشيء، فمن عبد الله لطلب الثواب كان معبوده في الحقيقة هو الثواب، وكان الله تعالى وسيلة إلى الوصول إلى ذلك المعبود، وهذا جهل عظيم.

الثاني: أنه لو قال: أصلي لطلب الثواب أو للخوف من العقاب، لم تصح صلاته. الثالث: أن من عمل عملا لغرض آخر كان بحيث لو وجد ذلك الغرض بطريق آخر لترك الواسطة، فمن عبد الله للأجر والثواب كان بحيث لو وجد الأجر والثواب بطريق آخر لم يعبد الله، ومن كان كذلك لم يكن محبا لله ولم يكن راغبا في عبادة الله، وكل ذلك جهل، ومن الناس من يعبد الله لغرض أعلى من الأول، وهو أن يتشرف بخدمة الله، لأنه إذا شرع في في الصلاة حصلت النية في القلب، وتلك النية عبارة عن العلم بعزة الربوبية وذلة العبودية، وحصل الذكر في اللسان، وحصلت الخدمة في الجوارح والأعضاء فيتشرف كل جزء من أجزاء العبد بخدمة الله، فمقصود العبد حصول هذا الشرف.

الفرع الثالث: من الناس من طعن في قول من يقول: الإله هو المعبود من وجوه: الأول: أن الأوثان عبدت مع أنها ليست آلهة. الثاني: أنه تعالى إله الجمادات والبهائم، مع أن صدور العبادة منها محال. الثالث:

أنه تعالى إله المجانين والأطفال، مع أنه لا تصدر/ العبادة عنها. الرابع: أن المعبود ليس له بكونه معبودا صفة، لأنه لا معنى لكونه معبودا إلا أنه مذكور بذكر ذلك الإنسان، ومعلوم بعلمه، ومراد خدمته بإرادته، وعلى هذا التقدير فلا تكون الإلهية صفة لله تعالى. الخامس: يلزم أن يقال: إنه تعالى ما كان إلها في الأزل.

الفرع الرابع: من الناس من قال: الإله ليس عبارة عن المعبود، بل الإله هو الذي يستحق أن يكون معبودا، وهذا القول أيضا يرد عليه أن لا يكون إلها للجمادات والبهائم والأطفال والمجانين، وأن لا يكون إلها في الأزل، ومنهم من قال: إنه القادر على أفعال لو فعلها لاستحق العبادة ممن يصح صدور العبادة عنه، واعلم أنا إن فسرنا الإله بالتفسيرين الأولين لم يكن إلها في الأزل، ولو فسرناه بالتفسير الثالث كان إلها في الأزل.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/ ١٤٠

التفسير الثاني: الإله مشتق من ألهت إلى فلان، أي: سكنت إليه، فالعقول لا تسكن إلا إلى ذكره والأرواح لا تعرج إلا بمعرفته، وبيانه من وجوه: الأول: أن الكمال محبوب لذاته، وما سوى الحق فهو ناقص لذاته، لأن الممكن من حيث هو هو معدوم، والعدم أصل النقصان والناقص بذاته لا يكمل إلا بتكميل الكامل بذاته، فإذا كان الكامل محبوبا لذاته وثبت أن الحق كامل لذاته وجب كونه محبوبا لذاته. الثاني: أن كل ما سواه فهو ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقف عند نفسه، بل يبقى متعلقا بغيره، لأنه لا يوجد إلا بوجود غيره، فعلى هذا كل ممكن فإنه لا يقف عند نفسه بل ما لم يتعلق بالواجب لذاته لم يوجد، وإذا كان الأمر كذلك في الوجود." (١)

"على الظلم، فلأجل شؤم ظلمه صار الرمان هكذا، فتاب أنوشروان في قلبه عن ذلك الظلم، وقال لذلك الصبي: أعطني رمانة أخرى، فأعطاه فعصرها فوجدها أطيب من الرمانة الأولى، فقال للصبي: لم بدلت هذه الحالة؟

فقال الصبي: لعل ملك البلد تاب عن ظلمه، فلما سمع أنوشروان هذه القصة من ذلك الصبي وكانت مطابقة لأحوال قلبه تاب بالكلية عن الظلم، فلا جرم بقي اسمه مخلدا في الدنيا بالعدل، حتى

إن من الناس من يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ولدت في زمن الملك العادل» .

أما الأحكام المفرعة على كونه مالكا فهي أربعة: الحكم الأول: قراءة المالك أرجى من قراءة الملك، لأن أقصى ما يرجى من الملك العدل والإنصاف وأن ينجو الإنسان منه رأسا برأس، أما المالك فالعبد يطلب منه الكسوة والطعام والرحمة والتربية فكأنه تعالى يقول: أنا مالككم فعلي طعامكم وثيابكم وثوابكم وجنتكم.

الحكم الثاني: الملك وإن كان أغنى من المالك غير أن الملك يطمع فيك والمالك أنت تطمع فيه، وليست لنا طاعات ولا خيرات فلا يريد أن يطلب منا يوم القيامة أنواع الخيرات والطاعات، بل يريد أن يطلب منه يوم القيامة الصفح والمغفرة وإعطاء الجنة بمجرد الفضل، فلهذا السبب قال الكسائي: اقرأ مالك/ يوم الدين لأن هذه القراءة هي الدالة على الفضل الكثير والرحمة الواسعة. الحكم الثالث: أن الملك إذا عرض عليه العسكر لم يقبل إلا من كان قوي البدن صحيح المزاج، أما من كان مريضا فإنه يرده ولا يعطيه شيئا من الواجب، أما المالك إذا كان له عبد فإن مرض عالجه وإن ضعف أعانه وإن وقع في بلاء خلصه، فالقراءة بلفظ المالك أوفق للمذنبين والمساكين. الحكم الرابع: الملك له هيبة وسياسة، والمالك له رأفة ورحمة، واحتياجنا إلى الرأفة والرحمة أشد من احتياجنا إلى الهيبة والسياسة.

الفائدة الثالثة: الملك عبارة عن القدرة، فكونه مالكا وملكا عبارة عن القدرة، هاهنا بحث: وهو أنه تعالى إما أن يكون ملكا للموجودات أو للمعدومات، والأول: باطل، لأن إيجاد الموجودات محال فلا قدرة لله على الموجودات إلا بالإعدام، وعلى هذا التقرير فلا مالك إلا للعدم، والثاني: باطل أيضا، لأنه يقتضي أن تكون قدرته وملكه على العدم ويلزم أن يقال: إنه ليس لله في الموجودات مالكية ولا ملك وهذا بعيد.

والجواب أن الله تعالى مالك الموجودات، وملكها، بمعنى أنه تعالى قادر على نقلها من الوجود إلى العدم، أو بمعنى أنه قادر على نقلها من صفة إلى صفة، وهذه القدرة ليست إلا لله تعالى، فالملك الحق هو الله سبحانه وتعالى، إذا عرفت

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١/١٤٥

أنه الملك الحق فنقول: إنه الملك ليوم الدين وذلك لأن القدرة على إحياء الخلق بعد موتهم ليست إلا لله، والعلم بتلك الأجزاء المتفرقة من أبدان الناس ليس إلا لله، فإذا كان الحشر والنشر والبعث والقيامة لا يتأتى إلا بعلم متعلق بجميع المعلومات وقدرة متعلقة بجميع الممكنات، ثبت أنه لا مالك ليوم الدين إلا الله، وتمام الكلام في هذا الفصل متعلق بمسألة الحشر والنشر.

فإن قيل: إن المالك لا يكون مالكا للشيء إلا إذا كان المملوك موجودا، والقيامة غير موجودة في الحال، فلا يكون الله مالكا ليوم الدين، بل الواجب أن يقال: مالك يوم الدين، بدليل أنه لو قال: أنا قاتل زيد، فهذا إقرار، ولو قال أنا قاتل زيدا بالتنوين كان تهديدا ووعيدا.

قلنا: الحق ما ذكرتم، إلا أن قيام القيامة لما كان أمرا حقا لا يجوز الإخلال في الحكمة جعل وجود." (١)

"ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم أي: ولا تنكحوا ما وطئهن آباؤكم، وهذا يدخل فيه المنكوحة والمزنية، لا يقال: كما أن لفظ النكاح ورد بمعنى الوطء فقد ورد/ أيضا بمعنى العقد قال تعالى: وأنكحوا الأيامى منكم [النور: ٣٢] فانكحوا ما طاب لكم من النساء [النساء: ٣] إذا نكحتم المؤمنات [الأحزاب: ٤٩]

وقوله عليه الصلاة والسلام: «ولدت من نكاح ولم أولد من سفاح»

فلم كان حمل اللفظ على الوطء أولى من حمله على العقد؟

أجابوا عنه من ثلاثة أوجه: الأول: ما ذهب إليه الكرخي وهو أن لفظ النكاح حقيقة في الوطء مجاز في العقد، بدليل أن لفظ النكاح في أصل اللغة عبارة عن الضم، ومعنى الضم حاصل في الوطء لا في العقد، فكان لفظ النكاح حقيقة في الوطء. ثم إن العقد سمي بهذا الاسم لأن العقد لما كان سببا له أطلق اسم المسبب على السبب، كما أن العقيقة اسم للشعر الذي يكون على رأس الصبي حال ما يولد، ثم تسمى الشاة التي تذبح عند حلق ذلك الشعر عقيقة فكذا هاهنا.

واعلم أنه كان مذهب الكرخي أنه لا يجوز استعمال اللفظ الواحد بالاعتبار الواحد في حقيقته ومجازه معا، فلا جرم كان يقول: المستفاد من هذه الآية حكم الوطء، أما حكم العقد فإنه غير مستفاد من هذه الآية، بل من طريق آخر ودليل آخر.

الوجه الثاني: **أن من الناس من** ذهب إلى أن اللفظ المشترك يجوز استعماله في مفهوميه معا فهذا القائل قال: دلت الآيات المذكورة على أن لفظ النكاح حقيقة في الوطء وفي العقد معا، فكان قوله: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم نهيا عن الوطء وعن العقد معا، حملا للفظ على كلا مفهوميه.

الوجه الثالث: في الاستدلال، وهو قول من يقول: اللفظ المشترك لا يجوز استعماله في مفهوميه معا، قالوا: ثبت بالدلائل المذكورة أن لفظ النكاح قد استعمل في القرآن في الوطء تارة وفي العقد أخرى، والقول بالاشتراك والمجاز خلاف

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٧/١

الأصل، ولا بد من جعله حقيقة في القدر المشترك بينهما وهو معنى الضم حتى يندفع الاشتراك والمجاز، وإذا كان كذلك كان قوله: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم نهيا عن القدر المشترك بين هذين القسمين، والنهي عن القدر المشترك بين القسمين يكون نهيا عن كل واحد من القسمين لا محالة، فإن النهي عن التزويج يكون نهيا عن العقد وعن الوطء معا، فهذا أقصى ما يمكن أن يقال في تقرير هذا الاستدلال.

والجواب عنه من وجوه: الأول: لا نسلم أن اسم النكاح يقع على الوطء، والوجوه التي احتجوا بها على ذلك فهي معارضة بوجوه: أحدها:

قوله عليه الصلاة والسلام: «النكاح سنتي»

ولا شك أن الوطء من حيث كونه وطأ ليس سنة له، وإلا لزم أن يكون الوطء بالسفاح سنة له فلما ثبت أن النكاح سنة، وثبت أن الوطء ليس سنة، ثبت أن النكاح ليس عبارة عن الوطء، كذلك التمسك

بقوله: «تناكحوا تكثروا»

ولو كان الوطء مسمى بالنكاح لكان هذا إذنا في مطلق الوطء/ وكذلك التمسك بقوله تعالى: وأنكحوا الأيامى منكم [النور: ٣٢] وقوله: فانكحوا ما طاب لكم من النساء [النساء: ٣] .

لا يقال: لما وقع التعارض بين هذه الدلائل فالترجيح معنا، وذلك لأنا لو قلنا: الوطء مسمى بالنكاح على سبيل الحقيقة لزم دخول المجاز في دلائلنا، ومتى وقع التعارض بين المجاز والتخصيص كان التزام التخصيص أولى.." (١)

"المسألة الثالثة: قوله تعالى: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل يدخل تحته أكل مال الغير بالباطل، وأكل مال نفسه بالباطل لأن قوله: أموالكم يدخل فيه القسمان معا، كقوله: ولا تقتلوا أنفسكم يدل على النهي عن قتل غيره وعن قتل نفسه بالباطل. أما أكل مال نفسه بالباطل. فهو إنفاقه في معاصي الله، وأما أكل مال غيره بالباطل فقد عددناه.

ثم قال: إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وحمزة والكسائي: تجارة بالنصب، والباقون بالرفع. أما من نصب فعلى «كان» الناقصة، والتقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة، وأما من رفع فعلى «كان» التامة، والتقدير: إلا أن توجد وتحصل تجارة. وقال الواحدي: والاختيار الرفع، لأن من نصب أضمر التجارة فقال: تقديره إلا أن تكون التجارة تجارة، والإضمار قبل الذكر ليس بقوي وإن كان جائزا.

المسألة الثانية: قوله: إلا فيه وجهان: الأول: أنه استثناء منقطع، لأن التجارة عن تراض ليس من جنس أكل المال بالباطل، فكان «إلا» هاهنا بمعنى «بل» والمعنى: لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض. الثاني: **أن من الناس من** قال: الاستثناء متصل وأضمر شيئا، فقال التقدير: لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل، وإن تراضيتم كالربا وغيره، إلا أن تكون تجارة عن تراض.

واعلم أنه كما يحل المستفاد من التجارة، فقد يحل أيضا المال المستفاد من الهبة والوصية والإرث وأخذ الصدقات

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٧/١٠

والمهر وأروش الجنايات، فإن أسباب الملك كثيرة سوى التجارة.

فإن قلنا: إن الاستثناء منقطع فلا إشكال، فانه تعالى ذكر هاهنا سببا واحد من أسباب الملك ولم يذكر سائرها، لا بالنفي ولا بإثبات.

وإن قلنا: الاستثناء متصل كان ذلك حكما بأن غير التجارة لا يفيد الحل، وعند هذا لا بد إما من النسخ أو التخصيص.

المسألة الثالثة: قال الشافعي رحمة الله عليه: النهي في المعاملات يدل على البطلان، وقال أبو حنيفة رضي الله عنه: لا يدل عليه، واحتج الشافعي على صحة قوله بوجوه: الأول: أن جميع الأموال مملوكة لله تعالى، فإذا أذن لبعض عبيده في بعض التصرفات كان ذلك جاريا مجرى ما إذا وكل الإنسان وكيلا في بعض التصرفات، ثم إن الوكيل إذا تصرف على خلاف قول الموكل فذاك غير منعقد بالإجماع، فإذا كان التصرف الواقع على خلاف قول المالك المجازي لا ينعقد فبأن يكون التصرف الواقع على خلاف قول المالك الحقيقي غير منعقد كان أولى. وثانيها: أن هذه التصرفات الفاسدة إما أن تكون مستلزمة لدخول المحرم المنهي عنه في الوجود، وإما أن لا تكون فإن كان الأول وجب القول ببطلانها قياسا على التصرفات الفاسدة.

والجامع السعي في أن لا يدخل منشأ النهي في الوجود، وإن كان الثاني وجب القول بصحتها، قائسا على التصرفات الصحيحة، والجامع كونها تصرفات خالية عن المفسد، فثبت أنه لا بد من وقوع التصرف على هذين الوجهين. فأما القول بتصرف لا يكون صحيحا ولا باطلا فهو محال، وثالثها: أن قوله: لا تبيعوا الدرهم بدرهمين، كقوله: لا تبيعوا الحر بالعبد، فكما أن هذا النهي باللفظ لكنه نسخ للشريعة فكذا الأول،." (١)

"وأنت على كل شيء شهيد يعني أنت الشهيد لي حين كنت فيهم وأنت الشهيد عليهم بعد مفارقتي لهم، فالشهيد الشاهد ويجوز حمله على الرؤية، ويجوز حمله على العلم، ويجوز حمله على الكلام بمعنى الشهادة فالشهيد من أسماء الصفات الحقيقية على جميع التقديرات ثم قال تعالى:

[سورة المائدة (٥) : آية ١١٨]

إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم (١١٨)

فيه مسائل:

المسألة الأولى: معنى الآية ظاهر، وفيه سؤال: وهو أنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول وإن تغفر لهم والله لا يغفر الشرك.

والجواب عنه من وجوه: الأول: أنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله [المائدة: ١١٦] علم أن قوما من النصارى حكوا هذا الكلام عنه، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافرا بل يكون مذنبا حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز، فلهذا المعنى: طلب المغفرة من الله تعالى، والثاني: أنه يجوز

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٧/١٠

على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه، فذكر عيسى هذا الكلام ومقصوده منه تفويض الأمور كلها إلى الله، وترك التعرض والاعتراض بالكلية، ولذلك ختم الكلام بقوله فإنك أنت العزيز الحكيم يعني أنت قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول: إن غفرانه جائز عندنا، وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا: لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب، وليس في إسقاطه على الله مضرة، فوجب أن يكون حسنا بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجودا في شرع عيسى عليه السلام.

الوجه الثالث: في الجواب أن القوم قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جوز أن يكون بعضهم قد تاب عنه، فقال: إن تعذبهم علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك، وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك بالعقوبة، وإن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة.

الوجه الرابع: أنا ذكرنا **أن من الناس من** قال: إن قول الله تعالى لعيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله [المائدة: ١١٦] إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة، وعلى/ هذا القول فالجواب سهل لأن قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك يعني إن توفيتهم على هذا الكفر وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضا ذاك وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

المسألة الثانية: احتج بعض الأصحاب بهذه الآية على شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم في حق الفساق قالوا: لأن قول عيسى عليه السلام إن تعذبهم فإنهم عبادك ليس في حق أهل الثواب لأن التعذيب لا يليق بهم، وليس أيضا في حق الكفار لأن قوله وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم لا يليق بهم فدل على أن ذلك ليس إلا في." (١)

"من مبلغ وشارع ومبين، وما ذاك إلا الرسول.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: العقل كاف في إيجاب الواجبات واجتناب المقبحات؟

قلنا: هب أن الأمر كما قلتم. إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل عليهم السلام. فثبت أن كل من منع البعثة والرسالة فقد طعن في حكمة الله تعالى. وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية، وحينئذ يصدق في حقه قوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره.

الوجه الثاني: في تقرير هذا المعنى **أن من الناس من** يقول إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل، لأنه يمتنع إظهار المعجزة على وفق دعواه تصديقا له، والقائلون بهذا القول لهم مقامان:

المقام الأول: أن يقولوا إنه ليس في الإمكان خرق العادات ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة.

والمقام الثاني: الذين يسلمون إمكان ذلك. إلا أنهم يقولون إن بتقدير حصول هذه الأفعال الخارقة للعادات لا دلالة لها على صدق مدعي الرسالة، وكلا الوجهين يوجب القدح في كمال قدرة الله تعالى.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٧/١٢

أما المقام الأول: فهو أنه ثبت أن الأجسام متماثلة. وثبت أن ما يحتمله الشيء وجب أن يحتمله مثله، وإذا كان كذلك كان جرم الشمس والقمر قابلا للتمزق والتفرق.

فإن قلنا: إن الإله غير قادر عليه كان ذلك وصفا له بالعجز ونقصان القدرة، وحينئذ يصدق في حق هذا القائل: أنه ما قدر الله حق قدره.

وإن قلنا: إنه تعالى قادر عليه، فحينئذ لا يمتنع عقلا انشقاق القمر، ولا حصول سائر المعجزات.

وأما المقام الثاني: وهو أن حدوث هذه الأفعال الخارقة للعادة عند دعوى مدعي النبوة تدل على صدقهم، فهذا أيضا ظاهر على ما هو مقرر في كتب الأصول. فثبت أن كل من أنكر إمكان البعثة والرسالة، فقد وصف الله بالعجز ونقصان القدرة، وكل من قال ذلك فهو ما قدر الله حق قدره.

والوجه الثالث: أنه لما ثبت حدوث العالم، فنقول: حدوثه يدل على أن إله العالم قادر عالم حكيم، وأن الخلق كلهم عبيده وهو مالك لهم على الإطلاق، وملك لهم على الإطلاق، والملك المطاع يجب أن يكون له أمر ونهي وتكليف على عباده، وأن يكون له وعد على الطاعة، ووعيد على المعصية، وذلك لا يتم ولا يكمل إلا بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، فكل من أنكر ذلك فقد طعن في كونه تعالى ملكا مطاعا، ومن اعتقد ذلك فهو ما قدر الله حق قدره، فثبت أن كل من قال ما أنزل الله على بشر من شيء فهو ما قدر الله حق قدره.

المسألة الثالثة: في هذه الآية بحث صعب، وهو أن يقال: هؤلاء الذين حكى الله عنهم أنهم قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء إما أن يقال: إنهم كفار قريش أو يقال إنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فإن كان الأول، فكيف يمكن إبطال قولهم بقوله تعالى: قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى وذلك لأن كفار قريش والبراهمة كما ينكرون رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فكذلك ينكرون رسالة سائر الأنبياء فكيف يحسن إيراد هذا." (١)

"وجب إسنادها إلى القادر المختار الحكيم الرحيم المدبر لهذا العالم على وفق الرحمة والمصلحة والحكمة.

ولما نبه الله سبحانه على ما في هذا الوجه اللطيف من الدلالة قال: إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون قال القاضي: المراد لمن يطلب الإيمان بالله تعالى، لأنه آية لمن آمن ولمن لم يؤمن، ويحتمل أن يكون/ وجه تخصيص المؤمنين بالذكر أنهم الذين انتفعوا به دون غيرهم كما تقدم تقريره في قوله هدى للمتقين.

ولقائل أن يقول: بل المراد منه أن دلالة هذا الدليل على إثبات الإله القادر المختار ظاهرة قوية جلية، فكأن قائلا قال: لم وقع الاختلاف بين الخلق في هذه المسألة مع وجود مثل هذه الدلالة الجلية الظاهرة القوية؟

فأجيب عنه بأن قوة الدليل لا تفيد ولا تنفع إلا إذا قدر الله للعبد حصول الإيمان، فكأنه قيل: هذه الدلالة على قوتها وظهورها دلالة لمن سبق قضاء الله في حقه بالإيمان، فأما من سبق قضاء الله له بالكفر لم ينتفع بهذه الدلالة البتة أصلا، فكان المقصود من هذا التخصيص التنبيه على ما ذكرناه. والله أعلم.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٩/١٣

[سورة الأنعام (٦) : آية ١٠٠]

وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون (١٠٠)

في الآية مسائل:

[في قوله تعالى وجعلوا لله شركاء] المسألة الأولى: [أن من الناس من أثبت لله شركاء] اعلم أنه تعالى لما ذكر هذه البراهين الخمسة من دلائل العالم الأسفل والعالم الأعلى على ثبوت الإلهية، وكمال القدرة والرحمة. ذكر بعد ذلك أن من الناس من أثبت لله شركاء، واعلم أن هذه المسألة قد تقدم ذكرها إلا أن المذكور هاهنا غير ما تقدم ذكره وذلك لأن الذين أثبتوا الشريك لله فرق وطوائف.

فالطائفة الأولى: عبدة الأصنام فهم يقولون الأصنام شركاء لله في العبودية، ولكنهم معترفون بأن هذه الأصنام لا قدرة لها على الخلق والإيجاد والتكوين.

والطائفة الثانية: من المشركين الذين يقولون، مدبر هذا العالم هو الكواكب، وهؤلاء فريقان منهم من يقول: إنها واجبة الوجود لذاتها، ومنهم من يقول: إنها ممكنة الوجود لذواتها محدثة، وخالقها هو الله تعالى، إلا أنه سبحانه فوض تدبير هذا العالم الأسفل إليها وهؤلاء هم الذين حكى الله عنهم أن الخليل صلى الله عليه وآله وسلم ناظرهم بقوله: لا أحب الآفلين وشرح هذا الدليل قد مضى.

والطائفة الثالثة: من المشركين الذين قالوا لجملة هذا العالم بما فيه من السموات والأرضين إلهان:

/ أحدهما فاعل الخير. والثاني فاعل الشر، والمقصود من هذه الآية حكاية مذهب هؤلاء فهذا تقرير نظم الآية والتنبيه على ما فيها من الفوائد. فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال قوله تعالى: وجعلوا لله شركاء الجن نزلت في الزنادقة الذين قالوا إن الله وإبليس أخوان فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام والخيرات، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب والشرور.

واعلم أن هذا القول الذي ذكره ابن عباس أحسن الوجوه المذكورة في هذه الآية وذلك لأن بهذا الوجه يحصل لهذه الآية مزيد فائدة مغايرة لما سبق ذكره في الآيات المتقدمة، قال ابن عباس: والذي يقوي هذا الوجه قوله تعالى: وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا [الصافات: ١٥٨] وإنما وصف بكونه من الجن لأن لفظ الجن مشتق من الاستتار، والملائكة والروحانيون لا يرون بالعيون فصارت كأنها مستترة من العيون، فبهذا التأويل." (١)

"إلى الجنة بأن أزين لهم الباطل وما يكسبهم المآثم ولما كانت (الباء) باء القسم كانت (اللام) جواب القسم (وما) بتأويل المصدر واغويتني صلتها. والثاني أن قوله: فبما أغويتني أي فبسبب إغوائك إياي لأقعدن لهم والمراد أنك لما أغويتني فأنا أيضا أسعى في إغوائهم الثالث: قال بعضهم: (ما) في قوله: فبما أغويتني للاستفهام كأنه قيل: بأي شيء أغويتني ثم ابتدأ وقال: لأقعدن لهم وفيه إشكال وهو أن إثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية قليل.

المسألة الرابعة: قوله: لأقعدن لهم صراطك المستقيم لا خلاف بين النحويين أن «على» محذوف والتقدير: لأقعدن لهم

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣/٨٨

على صراطك المستقيم. قال الزجاج. مثاله قولك ضرب زيد الظهر والبطن والمعنى على الظهر والبطن وإلقاء كلمة «على» جائز لأن الصراط ظرف في المعنى: فاحتمل ما يحتمله لليوم والليلة في قولك آتيك غدا وفي غد.

إذا عرفت هذا فنقول: قوله: لأقعدن لهم صراطك المستقيم فيه أبحاث.

البحث الأول: المراد منه أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها ولهذا المعنى ذكر القعود لأن من أراد أن يبالغ في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال فيمكنه إتمام المقصود ومواظبته على الإفساد هي مواظبة على الوسوسة حتى لا يفتر عنها.

والبحث الثاني: أن هذه الآية تدل على أنه كان عالما بالدين الحق والمنهج الصحيح لأنه قال: لأقعدن لهم صراطك المستقيم وصراط الله المستقيم هو دينه الحق.

البحث الثالث: الآية تدل على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من المذهب والاعتقاد هو محض الغواية والضلال لأنه لو لم يكن كذلك لما قال: فبما أغويتني وأيضا كان عالما بالدين الحق ولولا ذلك لما قال: لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

وإذا ثبت هذا فكيف يمكن: أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية وبكونه مضادا للدين الحق ومنافيا للصراط المستقيم فإن المرء إنما يعتقد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا فأما مع العلم بأنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره ويرضى به ويعتقده.

واعلم **أن من الناس من** قال إن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل لأنه متى علم أن مذهبه ضلال وغواية فقد علم أن ضده هو الحق فكان إنكاره إنكارا بمحض اللسان فكان ذلك كفر عناد ومنهم من قال لا بل كفره كفر جهل وقوله: فبما أغويتني وقوله: لأقعدن لهم صراطك المستقيم يريد به في زعم الخصم وفي اعتقاده. والله أعلم.

المسألة الخامسة: احتج أصحابنا بهذه الآية في بيان أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه ولا في دنياه وتقريره أن إبليس استمهل الزمان الطويل فأمهله الله تعالى ثم بين أنه إنما استمهله لإغواء الخلق وإضلالهم وإلقاء الوساوس في قلوبهم وكان تعالى عالما بأن أكثر الخلق يطيعونه ويقبلون وسوسته كما قال تعالى: ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين [سبأ: ٢٠] فثبت بهذا أن إنظار إبليس وإمهاله هذه المدة الطويلة يقتضي حصول المفاسد العظيمة والكفر الكبير فلو كان تعالى مراعيا لمصالح العباد." (١)

"إبراهيم مع جلالة قدره ومع كونه موصوفا بالأواهية والحليمية منعه الله تعالى من الاستغفار لأبيه الكافر، فلأن يكون غيره ممنوعا من هذا المعنى كان أولى.

المسألة الثانية: دل القرآن على أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه. قال تعالى حكاية عنه واغفر لأبي إنه كان من الضالين [الشعراء: ٨٦] وأيضا قال عنه: ربنا اغفر لي ولوالدي [إبراهيم: ٤١] وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال: سلام عليك سأستغفر لك ربي [مريم: ٤٧] وقال أيضا: لأستغفرن لك [الممتحنة: ٤] وثبت أن الاستغفار للكافر لا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤/٢١٢

يجوز. فهذا يدل على صدور هذا الذنب من إبراهيم عليه السلام.

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال بقوله: وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه [التوبة: ١١٤] وفيه قولان: الأول: أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام، والمعنى: أن أباه وعده أن يؤمن، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر له لأجل أن يحصل هذا المعنى، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه، وترك ذلك الاستغفار. الثاني: أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام، وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن وعدها أباه بالباء، ومن الناس من ذكر في الجواب وجهين آخرين.

الوجه الأول: المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإيمان والإسلام، وكان يقول له آمن حتى تتخلص من العقاب وتفوز بالغفران، وكان يتضرع إلى الله في أن يرزقه الإيمان/ الذي يوجب المغفرة، فهذا هو الاستغفار، فلما أخبره الله تعالى بأنه يموت مصرا على الكفر ترك تلك الدعوة.

والوجه الثاني: في الجواب **أن من الناس من** حمل قوله: ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين [التوبة: ١١٣] على صلاة الجنازة، وبهذا الطريق فلا امتناع في الاستغفار للكافر لكون الفائدة في ذلك الاستغفار تخفيف العقاب. قالوا: والدليل على أن المراد ما ذكرناه، أنه تعالى منع من الصلاة على المنافقين، وهو قوله: ولا تصل على أحد منهم مات أبدا [التوبة: ٨٤] وفي هذه الآية عم هذا الحكم، ومنع من الصلاة على المشركين، سواء كان منافقا أو كان مظهرا لذلك الشرك وهذا قول غريب.

المسألة الثالثة: اختلفوا في السبب الذي به تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله. فقال بعضهم: بالإصرار والموت. وقال بعضهم: بالإصرار وحده. وقال آخرون: لا يبعد أن الله تعالى عرفه ذلك بالوحي، وعند ذلك تبرأ منه. فكان تعالى يقول: لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه، فكونوا كذلك، لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله: واتبع ملة إبراهيم [النساء: ١٢٥]
.

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال إبراهيم في هذه الواقعة. قال: إن إبراهيم لأواه حليم [التوبة: ١١٤] واعلم أن اشتقاق الأواه من قول الرجل عند شدة حزنه أوه، والسبب فيه أن عند الحزن يختنق الروح القلبي في داخل القلب ويشتد حرقه، فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق من القلب ليخفف بعض ما به هذا هو الأصل في اشتقاق هذا اللفظ، وللمفسرين فيه عبارات،

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الأواه: الخاشع المتضرع»

وعن عمر: أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأواه، فقال: «الدعاء»

ويروى أن زينب تكلمت عند الرسول عليه الصلاة." (١)

"القرآن مشتمل على شتم الأصنام التي جعلوها آلهة لأنفسهم، فلهذا السبب ذكر الله تعالى في هذا الموضع ما يدل على قبح عبادة الأصنام، ليبين أن تحقيرها والاستخفاف بها أمر حق وطريق متيقن.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٥٩/١٦

واعلم أنه تعالى حكى عنهم أمرين: أحدهما: أنهم كانوا يعبدون الأصنام. والثاني: أنهم كانوا يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله أما الأول فقد نبه الله تعالى على فساده بقوله: ما لا يضرهم ولا ينفعهم وتقريره من وجوه: الأول: قال الزجاج: لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه. الثاني: أن المعبود لا بد وأن يكون أكمل قدرة من العابد، وهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر البتة، وأما هؤلاء الكفار فهم قادرون على التصرف في هذه الأصنام تارة بالإصلاح وأخرى بالإفساد، وإذا كان العابد أكمل حالا من المعبود كانت العبادة باطلة.

الثالث: أن العبادة أعظم أنواع التعظيم، فهي لا تليق إلا بمن صدر عنه أعظم أنواع الإنعام، وذلك ليس إلا الحياة والعقل والقدرة ومصالح المعاش والمعاد، فإذا كانت المنافع والمضار كلها من الله سبحانه وتعالى، وجب أن لا تليق العبادة إلا بالله سبحانه.

وأما النوع الثاني: ما حكاه الله تعالى عنهم في هذه الآية، وهو قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله فاعلم **أن من الناس من** قال إن أولئك الكفار توهموا أن عبادة الأصنام أشد في تعظيم الله من عبادة الله سبحانه وتعالى فقالوا ليست لنا أهلية أن نشتغل بعبادة الله تعالى بل نحن نشتغل/ بعبادة هذه الأصنام، وأنها تكون شفعاء لنا عند الله تعالى. ثم اختلفوا في أنهم كيف قالوا في الأصنام إنها شفعاؤنا عند الله؟ وذكروا فيه أقوالا كثيرة:

فأحدها: أنهم اعتقدوا أن المتولي لكل إقليم من أقاليم العالم، روح معين من أرواح عالم الأفلاك، فعينوا لذلك الروح صنما معينا واشتغلوا بعبادة ذلك الصنم، ومقصودهم عبادة ذلك الروح، ثم اعتقدوا أن ذلك الروح يكون عبدا للإله الأعظم ومشتغلا بعبوديته. وثانيها: أنهم كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أن الكواكب هي التي لها أهلية عبودية الله تعالى، ثم لما رأوا أن الكواكب تطلع وتغرب وضعوا لها أصناما معينة واشتغلوا بعبادتها، ومقصودهم توجيه العبادة إلى الكواكب. وثالثها: أنهم وضعوا طلسمات معينة على تلك الأصنام والأوثان، ثم تقربوا إليها كما يفعله أصحاب الطلسمات. ورابعها: أنهم وضعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم، وزعموا أنهم متى اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل، فإن أولئك الأكابر تكون شفعاء لهم عند الله تعالى، ونظيره في هذا الزمان اشتغال كثير من الخلق بتعظيم قبور الأكابر، على اعتقاد أنهم إذا عظموا قبورهم فإنهم يكونون شفعاء لهم عند الله. وخامسها: أنهم اعتقدوا أن الإله نور عظيم، وأن الملائكة أنوار فوضعوا على صورة الإله الأكبر الصنم الأكبر، وعلى صورة الملائكة صورا أخرى. وسادسها: لعل القوم حلولية، وجوزوا حلول الإله في بعض الأجسام العالية الشريفة.

واعلم أن كل هذه الوجوه باطلة بالدليل الذي ذكره الله تعالى وهو قوله: ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وتقريره ما ذكرناه من الوجوه الثلاثة.

قوله تعالى: قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون.

اعلم أن المفسرين قرروا وجها واحدا، وهو أن المراد من نفي علم الله تعالى بذلك تقرير نفيه في نفسه، وبيان أنه لا وجود

له البتة، وذلك لأنه لو كان موجودا لكان معلوما لله تعالى، وحيث لم يكن معلوما لله تعالى وجب أن لا يكون موجودا، ومثل هذا الكلام مشهور في العرف، فإن الإنسان إذا أراد نفي شيء عن نفسه يقول:." (١)

"واعلم أن السبب فيه أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا: هذا كتاب مثل سائر الكتب وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزة البتة، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن.

قالوا: / إن هذا الكلام، إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا، مع أنه ما ظهر عليه نوع آخر من المعجزات، لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا: لولا أنزل عليه آية من ربه فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن.

واعلم أن الجواب عنه من وجهين: الأول: لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه صلى الله عليه وسلم كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور: مثل فلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعبانا.

فإن قيل: فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم؟

قلنا إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكما وظهور القرآن معجزة، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات، وأيضا فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة، وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال، فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون [الأنفال: ٢٣] بين أنه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنهم لا ينتفعون به، وأيضا ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له. وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر، فطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم السلام، وأنه باطل.

الوجه الثاني: وفي الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات. ثم إنه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال: إنما أنت منذر ولكل قوم هاد وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اتفق القراء على التنوين في قوله: هاد وحذف الياء في الوصل، واختلفوا في الوقف، فقرأ ابن كثير: بالوقف على الياء، والباقون: بغير الياء، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف.

المسألة الثانية: في تفسير هذه الآية وجوه. الأول: المراد أن الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع، وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٢٧/١٧

وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول صلى الله عليه وسلم/ الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظما.." (١)

"المكسوف لا محالة قلنا هذه السيارات إنما تكسف الثوابت القريبة من المنطقة فأما الثوابت القريبة من القطبين فلا، فلم لا يجوز أن يقال هذه الثوابت القريبة من المنطقة مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق كرة زحل وهذه الثوابت القريبة من القطبين التي لا يمكن انكسافها بالسيارات مركوزة في كرة أخرى تحت كرة القمر وهذا الاحتمال لا دافع له، ثم نقول هب أنكم أثبتم هذه الأفلاك التسعة فما الذي دلكم على نفي الفلك العاشر، أقصى ما في الباب أن الرصد ما دل إلا على هذا القدر إلا أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، والذي يحقق ذلك أنه قال بعض المحققين منهم: إنه ما تبين لي إلى الآن أن كرة الثوابت كرة واحدة أو كرات منطو بعضها على بعض وأقول هذا الاحتمال واقع، لأن الذي يستدل به على وجدة كرة الثوابت ليس إلا أن يقال إن حركاتها متشابهة ومتى كان الأمر كذلك كانت مركوزة في كرة واحدة وكلتا المقدمتين غير يقينيتين. أما الأولى:

فلأن حركاتها وإن كانت في الحس واحدة ولكن لعلها لا تكون في الحقيقة واحدة، لأنا لو قدرنا أن واحدا منها يتمم الدورة في ستة وثلاثين ألف سنة. والآخر يتمم الدورة في مثل هذه المدة بنقصان سنة واحدة فإذا وزعنا ذلك النقصان على هذه السنين كان الذي هو حصة السنة الواحدة ثلاثة عشر جزءا من ألف ومائتي جزء من واحد، وهذا القدر مما لا يحس به بل العشر سنين والمائة والألف مما لا يحس به البتة، وإذا كان ذلك محتملا سقط القطع البتة عن استواء حركات الثوابت. وأما الثانية: فلأن استواء حركات الثوابت في مقادير حركاتها لا يوجب كونها بأسرها مركوزة في كرة واحدة لاحتمال كونها مركوزة في كرات متباينة وإن كانت مشتركة في مقادير حركاتها وهذا كما يقولون في ممثلات أكثر الكواكب فإنها في حركاتها مساوية لفلك الثوابت فكذا هاهنا.

وأقول إن هذا الاحتمال الذي ذكره هذا القائل غير مختص بفلك الثوابت فلعل الجرم المتحرك بالحركة اليومية ليس جرما واحدا بل أجراما كثيرة إما مختلفة الحركات لكن بتفاوت قليل لا تفي بإدراكها أعمارنا وأرصادنا وإما متساوية على الإطلاق ولكن تساويها لا يوجب وحدتها، ومن أصحاب الهيئة من قطع بإثبات أفلاك أخر غير هذه التسعة **فإن من الناس من** أثبت كرة فوق كرة الثوابت وتحت الفلك الأعظم واستدل عليه من وجوه: الأول:

أن الراصدين للميل الأعظم وجدوه مختلف المقدار فكل من كان رصده أقدم وجد مقدار الميل أعظم فإن بطليموس وجده «لح يا» «١» ثم وجد في زمان المأمون «كح له» ثم وجد بعد/ المأمون قد تناقص بدقيقة وذلك يقتضي أن من شأن المنطقتين أن يقل ميلهما تارة ويكثر أخرى وهذا إنما يمكن إذا كان بين كرة الكل وكرة الثوابت كرة أخرى يدور قطباها حول قطبي كرة الكل وتكون كرة الثوابت يدور قطباها حول قطبي تلك الكرة فيعرض لقطبها تارة أن يصير إلى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٣/١٩

جانب الشمال منخفضا وتارة إلى جانب الجنوب مرتفعا فيلزم من ذلك أن ينطبق معدل النهار على منطقة البروج، وأن ينفصل عنه تارة أخرى إلى الجنوب عند ما يرتفع قطب فلك الثوابت إلى الجنوب، وتارة إلى الشمال. كما هو الآن. الثاني: أن أصحاب الأرصاد اضطربوا اضطرابا شديدا في مقدار سير الشمس على ما هو مشروح في «كتب النجوم» حتى إن بطليموس حكى عن أبرخيس أنه كان شاكا في أن هذه العودة تكون في أزمنة متساوية أو مختلفة وأنه يقول في بعض أقاويله: إنها مختلفة، وفي بعضها: إنها متساوية في إن الناس ذكروا في سبب اختلافه قولين: أحدهما: قول من يجعل أوج الشمس متحركا فإنه زعم أن الاختلاف الذي يلحق حركة الشمس من هذه الجهة يختلف عند نقطة الاعتدال لاختلاف بعدها عن الأوج

---

(١) يريد بعبارة (لح با) أي عددها بالجمل يساوي ٥٤٩ وبعبارة (كح له) أن عددها بالجمل ٦٣ وهما زاويتا الميل. وذهب المحدثون من الجغرافيين إلى أنه ٥، ٢٧.." [١]

"وبطارقتها قلت: ما هذا قالوا: تحية الأنبياء فقال عليه السلام كذبوا على أنبيائهم «١»

وعن الثوري عن سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق على علي بن أبي طالب فأراد أن يسجد له فقال له علي اسجد لله ولا تسجد لي.

وقال عليه الصلاة والسلام لو أمرت أحدا أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظم حقه عليها.

القول الثالث: أن السجود في أصل اللغة هو الانقياد والخضوع قال الشاعر:

ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

أي تلك الجبال الصغار كانت مذللة لحوافر الخيل ومنه قوله تعالى: والنجم والشجر يسجدان [الرحمن: ٦] واعلم أن القول الأول ضعيف لأن المقصود من هذه القصة شرح تعظيم آدم عليه السلام، وجعله مجرد القبلة لا يفيد تعظيم حاله وأما القول الثالث فضعيف أيضا لأن السجود لا شك أنه في عرف الشرع عبارة عن وضع الجبهة على الأرض فوجب أن يكون في أصل اللغة كذلك لأن الأصل عدم التغيير فإن قيل السجود عبادة والعبادة لغير الله لا تجوز قلنا لا نسلم أنه عبادة، بيانه أن الفعل قد يصير بالمواضعة مفيدا كالقول يبين ذلك أن قيام أحدنا للغير يفيد من الإعظام ما يفيده القول وما ذاك إلا للعبادة وإذا ثبت ذلك لم يمتنع أن يكون في بعض الأوقات سقوط الإنسان على الأرض وإلصاقه الجبين بها مفيدا ضربا من التعظيم وإن لم يكن ذلك عبادة وإذا كان كذلك لم يمتنع أن يتعبد الله الملائكة بذلك إظهارا لرفعته وكرامته.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن إبليس هل كان من الملائكة؟ قال بعض المتكلمين: ولا سيما المعتزلة إنه لم يكن منهم وقال كثير من الفقهاء إنه كان منهم واحتج الأولون بوجوه: أحدها: أنه كان من الجن فوجب أن لا يكون من الملائكة وإنما قلنا إنه كان من الجن لقوله تعالى في سورة الكهف: إلا إبليس كان من الجن [الكهف: ٥٠] واعلم **أن من الناس**

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨٢/٢

من ظن أنه لما ثبت أنه كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لأن الجن جنس مخالف للملك وهذا ضعيف لأن الجن مأخوذ من الاجتنان وهو الستر ولهذا سمي الجنين جنينا لاجتنانه ومنه الجنة لكونها ساترة والجنة لكونها مستترة بالأغصان ومنه الجنون لاستتار العقل فيه، ولما ثبت هذا والملائكة مستورون عن العيون وجب إطلاق لفظ الجن عليهم بحسب اللغة فثبت أن هذا القدر لا يفيد المقصود فنقول لما ثبت أن إبليس كان من الجن وجب أن لا يكون من الملائكة لقوله تعالى: ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن [سبأ: ٤٠، ٤١] وهذه الآية صريحة في الفرق بين الجن والملك. فإن قيل لا نسلم أنه كان من الجن أما قوله تعالى: كان من الجن فلم لا يجوز أن يكون المراد كان من الجنة على ما روي عن ابن مسعود أنه قال كان من الجن أي كان خازن الجنة سلمنا ذلك لكن لا يجوز أن يكون قوله: من الجن أي صار من الجن كما أن قوله وكان من الكافرين أي صار من الكافرين سلمنا أن ما ذكرت/ يدل على أنه من الجن فلم قلت إن كونه من الجن ينافي كونه من الملائكة وما ذكرتم من الآية معارض بآية أخرى وهي قوله تعالى: وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا [الصافات: ١٥٨] وذلك لأن قريشا قالت: الملائكة بنات الله فهذه الآية تدل على أن الملك يمسي جنا؟

والجواب: لا يجوز أن يكون المراد من قوله: كان من الجن أنه كان خازن الجنة لأن قوله إلا إبليس كان من الجن يشعر بتعليل تركه للسجود لكونه جنيا ولا يمكن تعليل ترك السجود بكونه خازنا للجنة فيبطل ذلك قوله

---

(١) ثبت أن معاذا رضي الله عنه حين بعثه النبي إلى اليمن لم يرجع منها إلا بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.." (١)

"أن الشيخ الذي لم يبق له ميل إلى/ النساء إذا امتنع عن الزنا فليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنهن مع الميل الشديد والشوق العظيم فكذا هاهنا وسابعها: أن الله تعالى خلق الملائكة عقولا بلا شهوة وخلق البهائم شهوات بلا عقل وخلق الآدمي وجمع فيه بين الأمرين فصار الآدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجات لا حد لها فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة ثم وجدنا الآدمي إذا غلب هواه عقله حتى صار يعمل بهواه دون عقله فإنه يصير دون البهيمة على ما قال تعالى: أولئك كالأنعام بل هم أضل [الأعراف: ١٧٩] ولذلك صار مصيرهم إلى النار دون البهائم فيجب أن يقال إذا غلب عقله هواه حتى صار لا يعمل بهوى نفسه شيئا بل يعمل بهوى عقله أن يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر. وثامنها: أن الملائكة حفظة وبنو آدم محفوظون والمحفوظ أعز وأشرف من الحافظ فيجب أن يكون بنو آدم أكرم وأشرف على الله تعالى من الملائكة. وتاسعها:

ما

روي أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد صلى الله عليه وسلم حتى أركبه على البراق ليلة المعراج وهذا يدل على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل منه ولما وصل محمد عليه الصلاة والسلام إلى بعض المقامات تخلف عنه جبريل

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٢٨/٢

عليه السلام وقال: «لو دنوت أنملة لاحترقت»

وعاشرها:

قوله عليه الصلاة والسلام: «إن لي وزيرين في السماء وزيرين في الأرض، أما اللذان في السماء فجبريل وميكائيل، وأما اللذان في الأرض فأبو بكر وعمر»

فدل هذا الخبر على أن محمدا صلى الله عليه وسلم كان كالملك وجبريل وميكائيل كانا كالوزيرين له والملك أفضل من الوزير فلزم أن يكون محمدا أفضل من الملك. هذا تمام القول في دلائل من فضل البشر على الملك. أجاب القائلون بتفضيل الملك [أما] عن الحجة الأولى: فقالوا قد سبق بيان **أن من الناس من** قال: المراد من السجود هو التواضع لا وضع الجبهة على الأرض ومنهم من سلم أنه عبارة عن وضع الجبهة على الأرض لكنه قال السجود لله وآدم قبلة السجود وعلى هذين القولين لا إشكال أما إذا سلمنا أن السجود كان لآدم عليه السلام فلم قلتم إن ذلك لا يجوز من الأشرف في حق الشريف وذلك لأن الحكمة قد تقتضي ذلك كثيرا من حب الأشرف وإظهار النهاية في الانقياد والطاعة فإن للسلطان أن يجلس أقل عبيده في الصدر وأن يأمر الأكابر بخدمته ويكون غرضه من ذلك إظهار كونهم مطيعين له في كل الأمور منقادين له في جميع الأحوال فلم لا يجوز أن يكون الأمر هاهنا كذلك وأيضا أليس من مذهبنا أنه يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد وأن أفعاله غير معللة ولذلك قلنا إنه لا اعتراض عليه في خلق الكفر في الإنسان ثم في تعذيبه عليه أبد الآباد وإذا كان كذلك فكيف يعترض عليه في أن يأمر الأعلى بالسجود للأدنى وأما الحجة الثانية: فجوابها أن آدم عليه السلام إنما جعل خليفة في الأرض وهذا يقتضي أن يكون آدم عليه السلام كان أشرف من كل من في الأرض ولا يدل على كونه أشرف من ملائكة السماء فإن قيل فلم لم يجعل واحدا من ملائكة السماء خليفة له في الأرض قلنا لوجوه/ منها أن البشر لا يطيقون رؤية الملائكة ومنها أن الجنس إلى الجنس أميل ومنها أن الملائكة في نهاية الطهارة والعصمة وهذا هو المراد بقوله تعالى: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا [الأنعام: ٩] وأما الحجة الثالثة: فلا نسلم أن آدم عليه السلام كان أعلم منهم أكثر ما في الباب أن آدم عليه السلام كان عالما بتلك اللغات وهم ما علموها لكن لعلهم كونوا عالمين بسائر الأشياء مع أن آدم عليه السلام ما كان عالما بها والذي يحقق هذا أنا توافقنا على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل من آدم عليه السلام مع أن محمدا صلى الله عليه وسلم ما كان عالما بهذه اللغات بأسرها وأيضا فإن إبليس كان عالما بأن قرب الشجرة مما يوجب خروج آدم عن الجنة وآدم عليه السلام لم يكن عالما ذلك ولم يلزم منه كون إبليس أفضل من آدم عليه السلام والهدهد قال لسليمان أحطت بما لم تحط به ولم يلزم أن يكون الهدهد أفضل من سليمان سلمنا أنه." (١)

"ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، أو يكون المراد: فاسلكي في طلب تلك الثمرات سبل ربك. أما قوله: ذللا ففيه قولان: الأول: أنه حال من السبل لأن الله تعالى ذللها لها ووطأها وسهلها، كقوله: هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا [الملك: ١٥] . الثاني: أنه حال من الضمير في فاسلكي أي وأنت أيها النحل ذلل منقادة لما

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢/٤٤٥

أمرت به غير ممتنعة.

ثم قال تعالى: يخرج من بطونها وفيه بحثان:

البحث الأول: أن هذا رجوع من الخطاب إلى الغيبة والسبب فيه أن المقصود من ذكر هذه الأحوال أن يحتج الإنسان المكلف به على قدرة الله تعالى وحكمته وحسن تدبيره لأحوال العالم العلوي والسفلي، فكأنه تعالى لما خاطب النحل بما سبق ذكره خاطب الإنسان وقال: إنا ألهمنا هذا النحل لهذه العجائب، لأجل أن يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه.

البحث الثاني: أنه قد ذكرنا أن من الناس من يقول: العسل عبارة عن أجزاء طلية تحدث في الهواء وتقع على أطراف الأشجار وعلى الأوراق والأزهار، فيلقطها الزنبور بفمه، فإذا ذهبنا إلى هذا الوجه كان المراد من قوله: يخرج من بطونها أي من أفواهها، وكل تجويف في داخل البدن فإنه يسمى بطنا، ألا ترى أنهم يقولون: بطون الدماغ وعنوا أنها تجاويف الدماغ، وكذا هاهنا يخرج من بطونها أي من أفواهها، وأما على قول أهل الظاهر، وهو أن النحلة تأكل الأوراق والثمرات ثم تقيء فذلك هو العسل فالكلام ظاهر.

ثم قال تعالى: شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس اعلم أنه تعالى وصف العسل بهذه الصفات الثلاثة:

فالصفة الأولى: كونه شرابا والأمر كذلك، لأنه تارة يشرب وحده وتارة يتخذ منه الأشربة.

والصفة الثانية: قوله: مختلف ألوانه والمعنى: أن منه أحمر وأبيض وأصفر. ونظيره قوله تعالى:

ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود [فاطر: ٢٧] والمقصود منه: إبطال القول بالطبع، لأن هذا الجسم مع كونه متساوي الطبيعة لما حدث على ألوان مختلفة، دل ذلك على أن حدوث تلك الألوان بتدبير الفاعل المختار، لا لأجل إيجاد الطبيعة.

والصفة الثالثة: قوله: فيه شفاء للناس وفيه قولان:

القول الأول: وهو الصحيح أنه صفة للعسل.

فإن قالوا: كيف يكون شفاء للناس وهو يضر بالصفراء ويهيج المرار؟

قلنا: إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض/ ومن بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنه فيه شفاء، والذي يدل على أنه شفاء في الجملة أنه قل معجون من المعاجين إلا وتمامه وكماله إنما يحصل بالعجن بالعسل، وأيضا فالأشربة المتخذة منه في الأمراض البلغمية عظيمة النفع.

والقول الثاني: وهو قول مجاهد أن المراد: أن القرآن شفاء للناس، وعلى هذا التقدير فقصة تولد العسل من النحل تمت عند قوله: يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه ثم ابتدأ وقال: فيه شفاء للناس أي في." (١)

"المكاشفات والمشاهدات بعض ما كان حاضرا متجليا في ذات جبريل عليه الصلاة والسلام.

قلنا: تفسير الوحي بهذا الوجه هو قول الحكماء، فأما جمهور المسلمين فهم مقرون بأن جبريل عليه الصلاة والسلام

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٨/٢٠

جسم وأن نزوله عبارة عن انتقاله من عالم الأفلاك إلى مكة، وإذا كان كذلك كان الإلزام المذكور قويا،
روي أنه عليه الصلاة والسلام لما ذكر قصة المعراج كذبه الكل وذهبوا إلى أبي بكر وقالوا له: إن صاحبك يقول كذا وكذا فقال أبو بكر: إن كان قد قال ذلك فهو صادق، ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الرسول له تلك التفاصيل، فكلما ذكر شيئا قال أبو بكر صدقت فلما تمم الكلام قال أبو بكر: أشهد أنك رسول الله حقا، فقال له الرسول: وأنا أشهد أنك الصديق حقا،
وحاصل الكلام أن أبا بكر رضي الله عنه كأنه قال لما سلمت رسالته فقد صدقته فيما هو أعظم من هذا فكيف أكذبه في هذا؟
الوجه الرابع: أن أكثر أرباب الملل والنحل يسلمون وجود إبليس ويسلمون أنه هو الذي/ يتولى إلقاء الوسوسة في قلوب بني آدم، ويسلمون أنه يمكنه الانتقال من المشرق إلى المغرب لأجل إلقاء الوساوس في قلوب بني آدم، فلما سلموا جواز مثل هذه الحركة السريعة في حق إبليس فلأن يسلموا جواز مثلها في حق أكابر الأنبياء كان أولى، وهذا الإلزام قوي على من يسلم أن إبليس جسم ينتقل من مكان إلى مكان، أما الذين يقولون إنه من الأرواح الخبيثة الشريرة وأنه ليس بجسم ولا جسماني، فهذا الإلزام غير وارد عليهم، إلا أن أكثر أرباب الملل والنحل يوافقون على أنه جسم لطيف متنقل.
فإن قالوا: هب أن الملائكة والشياطين يصح في حقهم حصول مثل هذه الحركة السريعة لأنهم أجسام لطيفة، ولا يمتنع حصول مثل هذه الحركة السريعة في ذواتها، أما الإنسان فإنه جسم كثيف فكيف يعقل حصول مثل هذه الحركة السريعة فيه؟
قلنا: نحن إنما استدللنا بأحوال الملائكة والشياطين على أن حصول حركة منتهية في السرعة إلى هذا الحد ممكن في نفس الأمر، وأما بيان أن هذه الحركة لما كانت ممكنة الوجود في نفسها كانت أيضا ممكنة الحصول في جسم البدن الإنساني، فذاك مقام آخر سيأتي تقريره إن شاء الله تعالى.
الوجه الخامس: أنه جاء في القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه الصلاة والسلام إلى المواضع البعيدة في الأوقات القليلة قال تعالى في صفة مسير سليمان عليه الصلاة والسلام: غدوها شهر ورواحها شهر [سبأ: ١٢] بل نقول: الحس يدل على أن الرياح تنتقل عند شدة هبوبها من مكان إلى مكان في غاية البعد في اللحظة الواحدة، وذلك أيضا يدل على أن مثل هذه الحركة السريعة في نفسها ممكنة.
الوجه السادس: أن القرآن يدل على أن الذي عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام في مقدار لمح البصر بدليل قوله تعالى: قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك [النمل: ٤٠] وإذا كان ممكنا في حق بعض الناس، علمنا أنه في نفسه ممكن الوجود.
الوجه السابع: أن من الناس من يقول: الحيوان إنما يبصر المبصرات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمبصر

ثم إنا إذا فتحنا العين ونظرنا إلى رجل رأيناه فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى رجل في تلك اللحظة اللطيفة، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا." (١)

"وثانيها: أنهم لا يسمعون ما ينفعهم لأنهم إنما يسمعون أصوات المعذبين أو كلام من يتولى تعذيبهم من الملائكة. وثالثها: قال ابن مسعود إن الكفار يجعلون في توابيت من نار والتوابيت في توابيت أخر فلذلك لا يسمعون شيئا والأول ضعيف لأن أهل النار يسمعون كلام أهل الجنة فلذلك يستغيثون بهم على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف.

[سورة الأنبياء (٢١) : الآيات ١٠١ الى ١٠٣]

إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون (١٠١) لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون (١٠٢) لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون (١٠٣)

اعلم أن من الناس من زعم أن ابن الزبعرى لما أورد ذلك السؤال على الرسول صلى الله عليه وسلم بقي ساكتا حتى أنزل الله تعالى هذه الآية جوابا عن سؤاله لأن هذه الآية كالاستثناء من تلك الآية. وأما نحن فقد بينا فساد هذا القول وذكرنا أن سؤاله لم يكن واردا، وأنه لا حاجة في دفع سؤاله إلى نزول هذه الآية، وإذا ثبت هذا لم يبق هاهنا إلا أحد أمرين: الأول: أن يقال: إن عادة الله تعالى أنه متى شرح عقاب الكفار أردفه بشرح ثواب الأبرار، فلهذا السبب ذكر هذه الآية عقيب تلك فهي عامة في حق كل المؤمنين. الثاني: أن هذه الآية نزلت في تلك الواقعة لتكون كالتأكيد في دفع سؤال ابن الزبعرى، ثم من قال العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وهو الحق أجراها على عمومها فتكون الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام داخلين فيها، لا أن الآية مختصة بهم، ومن قال: العبرة بخصوص السبب خصص قوله: إن الذين بهؤلاء فقط.

أما قوله تعالى: سبقت لهم منا الحسنى فقال صاحب «الكشاف» : الحسنى الخصلة المفضلة والحسنى تأنيث الأحسن، وهي إما السعادة وإما البشرى بالثواب، وإما التوفيق للطاعة. والحاصل أن مثبتي العفو حملوا الحسنى على وعد العفو ومنكري العفو حملوه على وعد الثواب، ثم إنه سبحانه وتعالى شرح من أحوال ثوابهم أمورا خمسة: أحدها: قوله: أولئك عنها مبعدون فقال أهل العفو معناه أولئك عنها مخرجون، واحتجوا عليه بوجهين: الأول: قوله: وإن منكم إلا واردها [مريم: ٧١] أثبت الورود وهو الدخول، فدل على أن هذا الإبعاد هو الإخراج. الثاني: أن إبعاد الشيء عن الشيء لا يصح إلا إذا كانا متقاربين لأنهما لو كانا متباعدين استحال إبعاد أحدهما عن الآخر، لأن تحصيل الحاصل محال، واحتج القاضي عبد الجبار على فساد هذا القول الأول بأمور: أحدها: أن قوله تعالى: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى يقتضي أن الوعد بثوابهم قد تقدم في الدنيا وليس هذا حال من يخرج من النار لو صح ذلك. وثانيها: أنه تعالى قال: أولئك عنها مبعدون وكيف يدخل في ذلك من وقع فيها. وثالثها: قوله تعالى: لا يسمعون حسيسها وقوله: لا يحزنهم الفزع الأكبر يمنع من ذلك. والجواب عن الأول: لا نسلم أن [يقال] المراد من قوله: إن الذين سبقت لهم منا الحسنى

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠/٢٩٤

هو أن الوعد بثوابهم قد تقدم، ولم لا يجوز أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالعفو، سلمنا أن المراد من الحسنى تقدم الوعد بالثواب، لكن لم قلتم إن الوعد بالثواب لا يليق بحال من يخرج من النار فإن عندنا المحابطة باطلة ويجوز الجمع بين استحقاق الثواب والعقاب. وعن الثاني: أنا بينا أن قوله: أولئك عنها." (١)

"[في قوله تعالى ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد] وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في كيفية النظم وجهان: الأول: أخبر تعالى فيما تقدم عن أهوال يوم القيامة وشدتها، ودعا الناس إلى تقوى الله. ثم بين في هذه الآية قوما من الناس الذين ذكروا في الأول. وأخبر عن مجادلتهم الثاني: أنه تعالى بين أنه مع هذا التحذير الشديد بذكر زلزلة الساعة وشدائدها، **فإن من الناس من** يجادل في الله بغير علم، ثم في قوله: ومن الناس وجهان: الأول: أنهم الذين ينكرون البعث، ويدل عليه قوله: أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة [يس: ٧٧] إلى آخر الآية. وأيضا فإن ما قبل هذه الآية وصف البعث وما بعدها في الدلالة على البعث، فوجب أن يكون المراد من هذه المجادلة هو المجادلة في البعث والثاني: أنها نزلت في النضر بن الحرث، كان يكذب بالقرآن ويزعم أنه أساطير الأولين، ويقول ما يأتيكم به محمد كما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما.

المسألة الثانية: هذه الآية بمفهومها تدل على جواز المجادلة الحقة، لأن تخصيص المجادلة مع عدم العلم بالدلائل يدل على أن المجادلة مع العلم جائزة، فالمجادلة الباطلة هي المراد من قوله: ما ضربوه لك إلا جدلا [الزخرف: ٥٨] والمجادلة الحقة هي المراد من قوله: وجادلهم بالتي هي أحسن [النحل: ١٢٥] .

المسألة الثالثة: في قوله: ويتبع كل شيطان مريد قولان: أحدهما: يجوز أن يريد شياطين الإنس وهم رؤساء الكفار الذين يدعون من دونهم إلى الكفر والثاني: أن يكون المراد بذلك إبليس وجنوده، قال الزجاج المريد والمارد المرتفع الأملس، يقال صخرة مرداء أي ملساء، ويجوز أن يستعمل في غير الشيطان إذا جاوز حد مثله.

أما قوله: كتب عليه [إلى آخر الآية] ففيه وجهان: أحدهما: أن الكتبة عليه مثل أي كأنما كتب إضلال من عليه ورقم به لظهور ذلك في حاله والثاني: كتب عليه في أم الكتاب، واعلم أن هذه الهاء بعد ذكر من يجادل وبعد ذكر الشيطان، يحتمل أن يكون راجعا إلى كل واحد منهما، فإن رجع إلى من/ يجادل فإنه يرجع إلى لفظه الذي هو موحد، فكأنه قال كتب على من يتبع الشيطان أنه من تولى الشيطان أضله عن الجنة وهداه إلى النار. وذلك زجر منه تعالى فكأنه تعالى قال كتب على من هذا حاله أنه يصير أهلا لهذا الوعيد، فإن رجع إلى الشيطان كان المعنى ويتبع كل شيطان مريد قد كتب عليه أنه من يقبل منه فهو في ضلال. وعلى هذا الوجه أيضا يكون زجرا عن اتباعه، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال القاضي عبد الجبار إذا قيل المراد بقوله: كتب عليه قضي عليه فلا جائز أن يرد إلا إلى من يتبع الشيطان، لأنه تعالى لا يجوز أن يقضي على الشيطان أنه يضل، ويجوز أن يقضي على من يقبله بقوله، قد أضله عن الجنة وهداه إلى النار. قال أصحابنا رحمهم الله لما كتب ذلك عليه فلو لم يقع لا نقلب خبر الله الصدق كذبا، وذلك محال ومستلزم المحال محال، فكان لا وقوعه محالا.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨٩/٢٢

المسألة الثانية: دلت الآية على أن المجادل في الله إن كان لا يعرف الحق فهو مذموم معاقب، فيدل على أن المعارف ليست ضرورية.

المسألة الثالثة: قال القاضي فيه دلالة على أن المجادلة في الله ليست من خلق الله تعالى وبإرادته، وإلا لما." (١)

"النبي صلى الله عليه وسلم فأخذوا مائة شمراخ فضربوه بها ضربة واحدة،

ولأن الصلاة إذا كانت تختلف باختلاف حاله فالحد أولى بذلك.

المسألة الثامنة: يقام الحد في وقت اعتدال الهواء، فإن كان في حال شدة حر أو برد نظر إن كان الحد رجما يقام عليه كما يقام في المرض لأن المقصود قتله، وقيل إن كان الرجم ثبت عليه بإقراره فيؤخر إلى اعتدال الهواء وزوال المرض الذي يرجى زواله، لأنه ربما رجع عن إقراره في خلال الرجم وقد أثر الرجم في جسمه فتعين شدة الحر والبرد والمرض على إهلاكه بخلاف ما لو ثبت بالبينة لأنه لا يسقط، وإن كان الحد جلدا لم يجز إقامته في شدة الحر والبرد كما لا يقام في المرض. أما الرجم ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الشافعي رحمه الله، ومالك رحمه الله: يجوز للإمام أن يحضر رجمه وأن لا يحضر، وكذا الشهود لا يلزمهم الحضور. وقال أبو حنيفة رحمه الله: إن ثبت الزنا بالبينة وجب على الشهود أن يبدءوا بالرجم ثم الإمام ثم الناس، وإن ثبت بإقرار بدأ الإمام ثم الناس. حجة الشافعي رحمه الله: أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر برجم ماعز والغامدية ولم يحضر رجمهما.

المسألة الثانية: إن ثبت الزنا بإقراره فمتى رجع ترك، وقع به بعض الحد أو لم يقع. وبه قال أبو حنيفة رحمه الله والثوري وأحمد وإسحاق، وقال الحسن وابن أبي ليلى وداود لا يقبل رجوعه، وعن مالك رحمه الله روايتان.

حجة القول الأول:

أن ماعزا لما مسته الحجارة وهرب، فقال عليه السلام: «هلا تركتموه» .

المسألة الثالثة: يحفر للمرأة إلى صدرها حتى لا تنكشف ويرمى إليها، ولا يحفر للرجل، لما

روى أبو سعيد الخدري «أن ماعزا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله إني أصبت فاحشة فأقم علي الحد، فرده النبي عليه السلام مرارا، ثم سأل قومه، فقالوا: لا نعلم به بأسا فأمرنا أن نرجمه، فانطلقنا به إلى بقيع الغرقد فما أوثقناه ولا حفرنا له، قال فرميناه بالعظام والمدر والخزف، قال فاشتد واشتددنا خلفه حتى أتى عرض الحرة وانتصب لنا فرميناه بجلاميد الحرة حتى سكن»

وجه الاستدلال

أنه قال: «فما أوثقناه ولا حفرنا له»

ولأنه هرب، ولو كان في حفرة لما أمكنه ذلك.

المسألة الرابعة: إذا مات في الحد يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدفن في مقابر المسلمين، فهذا ما أردنا ذكره من بيان

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٠٢/٢٣

الأحكام الشرعية المتعلقة بهذه الآية.

أما المباحث العقلية: فاعلم أن من الناس من قال: لا شك أن البدن مركب من أجزاء كثيرة، فإما أن يقوم بكل جزء حياة وعلم وقدرة على حدة أو يقوم بكل الأجزاء حياة واحدة وعلم واحد وقدرة واحدة، والثاني محال لاستحالة قيام العرض الواحد بالمحال الكثيرة فتعين/ الأول، وإذا كان كذلك كان كل جزء من أجزاء البدن حيا على حدة وعالما على حدة وقادرا على حدة، وإذا ثبت هذا فنقول الزاني هو الفرج لا الظهر، فكيف يحسن من الحكيم أن يأمر بجلد الظهر، ولأنه ربما كان الإنسان حال إقدامه على الزنا عجيفا نحيفا ثم يسمن بعد ذلك فكيف يجوز إيلام تلك الأجزاء الزائدة مع أنها كانت بريئة عن فعل الزنا، فإن قال قائل هذا مدفوع من وجهين: الأول: وهو أنه ليس كل واحد من أجزاء البدن فاعلا على حدة وحيا على حدة وذلك محال، بل الحياة." (١)

"وأنه خالق للقوى الدراكة، وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والأرض أنه هادي أهل السموات والأرض، فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى والله أعلم.

الفصل الثاني: في تفسير

قوله عليه الصلاة والسلام: «إن لله سبعين حجابا من نور/ وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره» وفي بعض الروايات سبعمائة وفي بعضها سبعون ألفا، فأقول: لما ثبت أن الله سبحانه وتعالى متجل في ذاته لذاته كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوبا، إما بحجاب مركب من نور وظلمة، وإما بحجاب مركب من نور فقط، أو بحجاب مركب من ظلمة فقط، أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا؟

وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم، وإنما كان مستنيرا من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى، فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلا له عن الالتفات إلى جانب النور كان حجابه محض الظلمة، ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر.

القسم الثاني: المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فإما أن يعتقد فيها أنها غنية عن المؤثر، أو يعتقد فيها أنها محتاجة، فإن اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة أما النور: فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير، وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور وأما الظلمة: فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا الوصف وهذا ظلمة، فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة، ثم أصناف هذا القسم كثيرة، فإن من الناس من يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر، ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها أو اجتماعها وافتراقها أو نسبتها إلى حركات الأفلاك أو إلى

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٦/٢٣

محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم.

القسم الثاني: الحجب النورانية المحضة

واعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلا بواسطة تلك الصفات السلبية والإضافية ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها، فالعبد لا يزال يكون مترقيا فيها فإن وصل إلى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجابا له عن الترقي إلى ما فوقها، ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبدا في السير والانتقال، وأما حقيقته المخصوصة فهي محتجبة عن الكل فقد أشرنا إلى كيفية مراتب الحجب، وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام إنما حصرها في سبعين ألفا تقريبا لا تحديدا فإنها لا نهاية لها في الحقيقة.." (١)

"آتينا داود منا فضلا

مستقل بالمفهوم وتام كما يقول القائل: آتى الملك زيدا خلعة، فإذا قال القائل آتاه منه خلعة يفيد أنه كان من خاص ما يكون له، فكذلك إيتاء الله الفضل عام لكن النبوة من عنده خاص بالبعض، ومثل هذا قوله تعالى: يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان [التوبة: ٢١] فإن رحمة الله واسعة تصل إلى كل أحد في الدنيا لكن رحمته في الآخرة على المؤمنين رحمة من عنده لخواصه فقال: يبشرهم ربهم برحمة منه.

المسألة الثانية: في قوله: يا جبال أوبي معه قال الزمخشري: يا جبال بدل من قوله: فضلا معناه آتيناه فضلا قولنا يا جبال، أو من آتينا ومعناه قلنا يا جبال.

المسألة الثالثة: قرئ (أوبي) بتشديد الواو من التأويب وبسكونها وضم الهمزة أوبي من الأوب وهو الرجوع والتأويب الترجيع، وقيل بأن معناه سيري معه، وفي قوله: يسبحن قالوا: هو من السباحة وهي الحركة المخصوصة.

المسألة الرابعة: قرئ والطير بالنصب حملا على محل المنادى والطير بالرفع حملا على لفظه.

المسألة الخامسة: لم يكن الموافق له في التأويب منحصرا في الجبال والطير ولكن ذكر الجبال، لأن الصخور للجمود والطير للنفور «١» تستبعد منها الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى، ثم **إن من الناس من** لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي هي أشد قسوة من الحجارة.

المسألة السادسة: قوله: وألنا له الحديد عطف، والمعطوف عليه يحتمل أن يكون قلنا المقدر في قوله يا جبال تقديره قلنا: يا جبال أوبي وألنا، ويحتمل أن يكون عطفا على آتينا تقديره آتيناه فضلا وألنا له.

المسألة السابعة: ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله، قيل/ إنه طلب من الله أن يغنيه عن أكل مال بيت المال فألان له الحديد وعلمه صنعة اللبوس وهي الدروع، وإنما اختار الله له ذلك، لأنه وقاية للروح التي هي من أمره وسعي في حفظ الآدمي المكرم عند الله من القتل، فالزراد خير من القواس والسياف وغيرهما. ثم قال تعالى:

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٨٥/٢٣

[سورة سبإ (٣٤) : آية ١١]
أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير (١١)
قيل إن (أن) هاهنا للتفسير فهي مفسرة، بمعنى أي اعمل سابغات وهو تفسير ألنا وتحقيقه لأن يعمل، يعني ألنا له الحديد ليعمل سابغات ويمكن أن يقال ألهمناه أن اعمل وأن مع الفعل المستقبل للمصدر فيكون معناه: ألنا له الحديد وألهمناه عمل سابغات وهي الدروع الواسعة ذكر الصفة ويعلم منها الموصوف وقدر في السرد، قال المفسرون: أي لا تغلظ المسامير فيتسع الثقب ولا توسع الثقب فتقلقل المسامير فيها، ويحتمل أن يقال السرد هو عمل الزرد، وقوله: وقدر في السرد أي الزرد إشارة إلى أنه غير مأمور به أمر إيجاب إنما هو اكتساب والكسب يكون بقدر الحاجة وباقي الأيام والليالي للعبادة فقدر في ذلك العمل ولا تشغل جميع أوقاتك بالكسب بل حصل به القوت فحسب، ويدل عليه قوله تعالى: واعملوا صالحا أي لستم مخلوقين إلا للعمل

---

(١) في الأصل: للنقور بالقاف المثناة والصواب للنفور بالفاء الفوقية الموحدة، والنفور ضد الجمود.." [١]

"حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات، وهو ليس بخيلا ولا محتاجا حتى يمنعه بخله وحاجته عن إعطاء ذلك المراد، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات، فلهذا قال: أليس الله بكاف عبده ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال:
ويخوفونك بالذين من دونه يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثا وباطلا، قرأ أكثر القراء (عبده) بلفظ الواحد وهو اختيار أبي عبيدة لأنه قال له: ويخوفونك
روي أن قريشا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: إنا نخاف أن تخبلك آلهتنا، فأنزل الله تعالى هذه الآية،
وقرأ جماعة: عباده بلفظ الجميع قيل المراد بالعباد الأنبياء فإن نوحا كفاه الغرق، وإبراهيم النار، ويونس بالإنجاء مما وقع له، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك، وقيل أمم الأنبياء قصدوهم بالسوء لقوله تعالى: وهمت كل أمة برسولهم [غافر: ٥] وكفاهم الله شر من عاداهم.
واعلم أنه تعالى لما أطنب في شرح الوعيد والوعد والترهيب والترغيب ختم الكلام بخاتمة هي الفصل الحق فقال: ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل يعني هذا الفضل لا ينفع والبينات إلا إذا خص الله العبد بالهداية والتوفيق وقوله: أليس الله بعزيز ذي انتقام تهديد للكفار.
واعلم أن أصحابنا يتمسكون في مسألة خلق الأعمال وإرادة الكائنات بقوله: ومن يضلل الله فما له من هاد ومن يهد الله فما له من مضل والمباحث فيه من الجانبين معلومة والمعتزلة يتمسكون/ على صحة مذهبهم في هاتين المسألتين بقوله: أليس الله بعزيز ذي انتقام ولو كان الخالق للكفر فيهم هو الله لكان الانتقام والتهديد غير لائق به.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٩٦/٢٥

[سورة الزمر (٣٩) : الآيات ٣٨ الى ٤٠]
ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون (٣٨) قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون (٣٩) من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٤٠)
اعلم أنه تعالى لما أطنب في وعيد المشركين وفي وعد الموحدين، عاد إلى إقامة الدليل على تزييف طريقة عبدة الأصنام، وبنى هذا التزييف على أصلين:
الأصل الأول: هو أن هؤلاء المشركين مقرون بوجود الإله القادر العالم الحكيم الرحيم وهو المراد بقوله:
ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله واعلم **أن من الناس من** قال إن العلم بوجود الإله القادر الحكيم الرحيم متفق عليه بين جمهور الخلائق لا نزاع بينهم فيه، وفطرة العقل شاهدة بصحة هذا العلم فإن من تأمل في عجائب أحوال السموات والأرض وفي عجائب أحوال النبات والحيوان خاصة وفي عجائب بدن الإنسان وما فيه من أنواع الحكم الغريبة والمصالح العجيبة، علم أنه لا بد من الاعتراف بالإله القادر الحكيم الرحيم.." [1]
"ذلك التصرف ولم يحتج إلى آلة وأداة، فعبر عن نفاذ قدرته في الكائنات والمحدثات من غير معارض ولا مدافع بما إذا قال: كن فيكون الوجه الثاني: أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقول كن فيكون فكأنه قيل الانتقال من كونه ترابا إلى كونه نطفة، ثم إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا قليلا، وأما صيرورة الحياة فهي إنما تحصل لتعليق جوهر الروح النطقية به، وذلك يحدث دفعة واحدة، فلهذا السبب وقع التعبير عنه بقوله كن فيكون الوجه الثالث: **أن من الناس من** يقول إن تكون الإنسان إنما ينعقد من المني والدم في الرحم في مدة معينة وبحسب انتقالاته من حالات إلى حالات، فكأنه قيل إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر، لأن التسلسل محال، ووقوع الحادث في الأزل محال، فلا بد من الاعتراف بإنسان هو أول الناس، فحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم، بل بإيجاد الله تعالى ابتداء، فعبر الله تعالى عن هذا المعنى بقوله كن فيكون.

[سورة غافر (٤٠) : الآيات ٦٩ الى ٧٦]
ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون (٧١) في الحميم ثم في النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون (٧٣)
من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعوا من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون (٧٥) ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٥٤/٢٦

اعلم أنه تعالى عاد إلى ذم الذين يجادلون في آيات الله فقال: ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون وهذا ذم لهم على أن جادلوا في آيات الله ودفعها والتكذيب بها، فعجب تعالى منهم بقوله أنى يصرفون كما يقول الرجل لمن لا يبين: أنى يذهب بك تعجبا من غفلته، ثم بين أنهم هم الذين كذبوا بالكتاب أي بالقرآن وبما أرسلنا به رسلنا من سائر الكتب، فإن قيل سوف للاستقبال، وإذ للماضي فقوله فسوف يعلمون، إذ الأغلال في أعناقهم مثل قولك: سوف أصوم أمس، قلنا المراد من قوله إذ هو إذا، لأن الأمور المستقبلة لما كانت في إخبار الله تعالى متيقنة مقطوعا بها عبر عنها بلفظ ما كان ووجد، والمعنى على الاستقبال، هذا لفظ صاحب «الكشاف» :

ثم إنه تعالى وصف كيفية عقابهم فقال: إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون، في الحميم والمعنى: أنه يكون في أعناقهم الأغلال والسلاسل، ثم يسحبون بتلك السلاسل في الحميم، أي في الماء المسخن بنار جهنم ثم في النار يسجرون والسجر في اللغة الإيقاد في التنور، ومعناه أنهم في النار فهي محيطة بهم، ويقرب منه قوله تعالى: نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة [الهمزة: ٦، ٧] ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله فيقولون ضلوا عنا أي غابوا عن عيوننا فلا نراهم ولا نستشفع بهم، ثم." (١)

"للحق، ويحتمل وجهين آخرين أحدهما: على قولنا من ربهم أي من عند ربهم اتبع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق، نقول هذا مثل يضرب عليه جميع الأمثال، فإن الكل من عند الله الإضلال وغيره والاتباع وغيره وثانيهما: هو أن الله تعالى لما بين أن الكافر يضل الله عمله والمؤمن يكفر الله سيئاته، وكان بين الكفر والإيمان مباينة ظاهرة فإنهما ضدان، نبه على أن السبب كذا أي ليس الإضلال والتكفير بسبب المضادة والاختلاف بل بسبب اتباع الحق والباطل، وإذا علم السبب فالفعلان قد يتحدان صورة وحقيقة وأحدهما يورث إبطال الأعمال والآخر يورث تكفير السيئات بسبب أن أحدهما يكون فيه اتباع الحق والآخر اتباع الباطل، فإن من يؤمن ظاهرا وقلبه مملوء من الكفر، ومن يؤمن بقلبه وقلبه مملوء من الإيمان اتحد فعلاهما في الظاهر، وهما مختلفان بسبب اتباع الحق واتباع الباطل، لا بدع من ذلك فإن من يؤمن ظاهرا وهو يسر الكفر، ومن يكفر ظاهرا بالإكراه وقلبه مطمئن بالإيمان اختلف الفعلان في الظاهر، وإبطال الأعمال لمن أظهر الإيمان بسبب أن اتباع الباطل من جانبه فكأنه تعالى قال الكفر والإيمان مثلان يثبت فيهما حكمان وعلم سببه، وهو اتباع الحق والباطل، فكذلك اعلموا أن كل شيء اتبع فيه الحق كان مقبولا مثابا عليه، وكل أمر اتبع فيه الباطل كان مردودا معاقبا عليه فصار هذا عاما في الأمثال، على أنا نقول قوله كذلك لا يستدعي أن يكون هناك مثل مضروب بل معناه أنه تعالى لما بين حال الكافر وإضلال أعماله وحال المؤمن وتكفير سيئاته وبين السبب فيهما، كان ذلك غاية الإيضاح فقال:

كذلك أي مثل هذا البيان يضرب الله للناس أمثالهم ويبين لهم أحوالهم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله أمثالهم عائد إلى من؟ فيه وجهان: أحدهما: إلى الناس/ كافة قال تعالى: يضرب الله للناس أمثالهم على أنفسهم، وثانيهما: إلى الفريقين في الذكر معناه: يضرب الله للناس أمثال الفريقين السابقين.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٣٢/٢٧

[سورة محمد (٤٧) : آية ٤]

فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلوا بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم (٤)

ثم قال تعالى: فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الفاء في قوله فإذا لقيتم يستدعي متعلقا يتعلق به ويترتب عليه، فما وجه التعلق بما قبله؟ نقول هو من وجوه: الأول: لما بين أن الذين كفروا أضل الله أعمالهم واعتبار الإنسان بالعمل، ومن لم يكن له عمل فهو همج فإن صار مع ذلك يؤذي حسن إعدامه فإذا لقيتم بعد ظهور أن لا حرمة لهم وبعد إبطال أعمالهم، فاضربوا أعناقهم الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين، وأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان، والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال عند التحزب، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم الثالث: **أن من الناس من** يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان، ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان، فيقال ردا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فمن يقتل في سبيل الله لتعظيم أمر الله لهم من الأجر ما للمصلي والصائم، فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهما رأفة فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

المسألة الثانية: فضرب منصوب على المصدر، أي فاضربوا ضرب الرقاب.." (١)

"فأنزل تفسير لذلك الإحسان كما يقال أكرمني فأعطاني لتفسير الإكرام وثانيهما: أن تكون الفاء للدلالة على أن تعلق إنزال السكينة بجعلهم الحمية في قلوبهم على معنى المقابلة، تقول أكرمني فأثنيت عليه، ويجوز أن يكونا فعلين واقعين من غير مقابلة، كما تقول جاءني زيد وخرج عمرو، وهو هنا كذلك لأنهم لما جعلوا في قلوبهم الحمية فالمسلمون على مجرى العادة لو نظرت إليهم لزم أن يوجد منهم أحد الأمرين: إما إقدام، وإما انهزام لأن أحد العدوين إذا اشتد غضبه فالعدو الآخر إن كان مثله في القوة يغضب أيضا وهذا يثير الفتن، وإن كان أضعف منه ينهزم أو ينقاد له فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا ولم ينهزموا بل يصبروا، وهو بعيد في العادة فهو من فضل الله تعالى، قوله تعالى: على رسوله وعلى المؤمنين فإنه هو الذي أجاب الكافرين إلى الصلح، وكان في نفس المؤمنين أن لا

يرجعوا إلا بأحد الثلاثة بالنحر في المنحر، وأبوا أن/ لا يكتبوا محمدا رسول الله وبسم الله، فلما سكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سكن المؤمنون، وقوله تعالى: وألزمهم كلمة التقوى فيه وجوه أظهرها أنه قول لا إله إلا الله فإن بها يقع الاتقاء عن الشرك، وقيل هو بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله فإن الكافرين أبوا ذلك والمؤمنون التزموه، وقيل هي الوفاء بالعهد إلى غير ذلك ونحن توضح فيه ما يترجح بالدليل فنقول وألزمهم يحتمل أن يكون عائدا إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين جميعا يعني ألزم النبي والمؤمنين كلمة التقوى، ويحتمل أن يكون عائدا إلى المؤمنين فحسب،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٧/٢٨

فإن قلنا إنه عائد إليهما جميعا نقول هو الأمر بالتقوى فإن الله تعالى قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين [الأحزاب: ١] وقال للمؤمنين يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته [آل عمران: ١٠٢] والأمر بتقوى الله حتى تذهله تقواه عن الالتفات إلى ما سوى الله، كما قال في حق النبي صلى الله عليه وسلم اتق الله ولا تطع الكافرين وقال تعالى: وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه [الأحزاب: ٣٧] ثم بين له حال من صدقه بقوله الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله [الأحزاب: ٣٩] أما في حق المؤمنين فقال:

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته وقال: فلا تخشوهم واخشوني [البقرة: ١٥٠] وإن قلنا بأنه راجع إلى المؤمنين فهو قوله تعالى: وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا [الحشر: ٧] ألا ترى إلى قوله واتقوا الله [الحجرات: ١] وهو قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله وفي معنى قوله تعالى: وألزمهم كلمة التقوى على هذا معنى لطيف وهو أنه تعالى إذا قال: (اتقوا) يكون الأمر واردا ثم إن من الناس من يقبله بتوفيق الله ويلتزمه ومنهم من لا يلتزمه، ومن التزمه فقد التزمه بإلزام الله إياه فكأنه قال تعالى: وألزمهم كلمة التقوى وفي هذا المعنى رجحان من حيث إن التقوى وإن كان كاملا ولكنه أقرب إلى الكلمة، وعلى هذا فقوله وكانوا أحق بها وأهلها معناه أنهم كانوا عند الله أكرم الناس فألزموا تقواه، وذلك لأن قوله تعالى: إن أكرمكم عند الله أتقاكم [الحجرات: ١٣] يحتمل وجهين أحدهما: أن يكون معناه أن من يكون تقواه أكثر يكرمه الله أكثر والثاني: أن يكون معناه أن من سيكون أكرم عند الله وأقرب إليه كان أتقى، كما

في قوله «والمخلصون على خطر عظيم»

وقوله تعالى: هم من خشية ربهم مشفقون [المؤمنون: ٥٧] وعلى الوجه الثاني يكون معنى قوله وكانوا أحق بها لأنهم كانوا أعلم بالله لقوله تعالى:

إنما يخشى الله من عباده العلماء [فاطر: ٢٨] وقوله وأهلها يحتمل وجهين أحدهما: أنه يفهم من معنى الأحق أنه يثبت رجحانا على الكافرين إن لم يثبت الأهلية، كما لو اختار الملك اثنين لشغل وكل واحد منهما غير صالح له ولكن أحدهما أبعد عن الاستحقاق فقال في الأقرب إلى الاستحقاق إذا كان ولا بد فهذا أحق، كما." (١)

"٥٧، ٥٨] أي للنفوس ما تتفكه به، للأرواح ما تتمناه من القربة والزلفى.

[سورة الطور (٥٢) : آية ٢٣]

يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم (٢٣)

وقوله تعالى: يتنازعون فيها كأسا فيكون ذلك على عادة الملوك إذا جلسوا في مجالسهم للشرب يدخل عليهم بفواكه ولحوم وهم على الشرب، وقوله تعالى: يتنازعون أي يتعاطون ويحتمل أن يقال التنازع التجاذب وحينئذ يكون تجاذبهم تجاذب ملاعبة لا تجاذب منازعة، وفيه نوع لذة وهو بيان ما هو عليه حال الشراب في الدنيا فإنهم يتفاخرون بكثرة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٨/٨٥

الشرب ولا يتفاخرون بكثرة الأكل، ولهذا إذا شرب أحدهم يرى الآخر واجبا أن يشرب مثل ما شربه حريفه ولا يرى واجبا أن يأكل مثل ما أكل نديمه وجليسه.

وقوله تعالى: لا لغو فيها ولا تأثيم وسواء قلنا فيها عائدة إلى الجنة أو إلى الكأس فذكرهما/ لجريان ذكر الشراب وحكايته على ما في الدنيا، فقال تعالى ليس في الشرب في الآخرة كل ما فيه في الدنيا من اللغو بسبب زوال العقل ومن التأثيم الذي بسبب نهوض الشهوة والغضب عند وفور العقل والفهم، وفيه وجه ثالث، وهو أن يقال لا يعتريه كما يعتري الشارب بالشرب في الدنيا فلا يؤثم أي لا ينسب إلى إثم، وفيه وجه رابع وهو أن يكون المراد من التأثيم السكر، وحينئذ يكون فيه ترتيب حسن وذلك **لأن من الناس من** يسكر ويكون رزين العقل عديم اعتياد العربدة فيسكن وينام ولا يؤذي ولا يتأذى ولا يهذي ولا يسمع إلى من هذى، ومنهم من يعربد فقال: لا لغو فيها ثم قال تعالى:

[سورة الطور (٥٢) : آية ٢٤]

ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون (٢٤)

أي بالكؤوس وقال تعالى: يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين [الواقعة: ١٧، ١٨] وقوله لهم أي ملكهم إعلاما لهم بقدرتهم على التصرف فيهم بالأمر والنهي والاستخدام وهذا هو المشهور ويحتمل وجها آخر وهو أنه تعالى لما بين امتياز خمر الآخرة عن خمر الدنيا بين امتياز غلمان الآخرة عن غلمان الدنيا، فإن الغلمان في الدنيا إذا طافوا على السادة الملوك يطوفون عليهم لحظ أنفسهم إما لتوقع النفع أو لتوفر الصفح، وأما في الآخرة فطوفهم عليهم متمحض لهم ولنفعهم ولا حاجة لهم إليهم والغلام الذي هذا شأنه له مزية على غيره وربما يبلغ درجة الأولاد «١» . وقوله تعالى: كأنهم لؤلؤ أي في الصفاء، ومكنون ليفيد زيادة في صفاء ألوانهم أو لبيان أنهم كالمخدرات لا بروز لهم ولا خروج من عندهم فهم في أكنافهم. ثم قال تعالى:

[سورة الطور (٥٢) : الآيات ٢٥ الى ٢٨]

وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٥) قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين (٢٦) فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (٢٧) إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم (٢٨)

---

(١) اللام في لهم للملك أو التخصيص أي لا كسقاة الخمر في الدنيا يسقون كل شارب، ويستجيبون لكل طالب.."

(١)

"سمى غيره إلها فهو كمن يستعمل في مولود له فيقول لابنه محمد وأحمد وإن كان علمين لغيره قبله في أنه جائز لأن من سمى ابنه أحمد لم يكن له من الأمر المطاع/ ما يمنع الغير عن التسمية به ولم يكن له الاحتجار وأخذ الاسم لنفسه أو لولده بخلاف الملك المطاع إذا استأثر لنفسه اسما لا يستجرئ أحد ممن تحت ولايته ما دام له الملك أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢١١/٢٨

يسمي ولده أو نفسه بذلك الاسم خصوصا من يكون مملوكا لا يمكنه أن يسمي نفسه باسم الملك ولا أن يسمي ولده به، والله تعالى ملك مطاع وكل من عداه تحت أمره فإذا استأثر لنفسه اسما لا يجوز للعبيد أن يتسموا بذلك الاسم، فمن يسمي فقد تعدى فالمشركون في التسمية متعدون، وفي المعنى ضالون وإما أن نقول: إله أو لاه اسم لمن يعبد والألف واللام للتعريف، ولما امتنع المعنى عن غير الله امتنع الاسم، فإن قيل: فلو سمى أحد ابنه به كان ينبغي أن يجوز؟ قلنا: لا يجوز لأنه يوهم أنه اسم موضوع لذلك الابن لمعنى لا لكونه علما، فإن قيل: تسمية الواحد بالكريم والودود جائزة قلنا: كل ما يكون حمله على العلم وعلى اسم لمعنى ملحوظ في اللفظ الذكري لا يفضي إلى خلل يجوز ذلك فيه فيجوز تسمية الواحد بالكريم والودود ولا يجوز تسميته بالخالق، والقديم لأن على تقدير حمله على أنه علم غير ملحوظ فيه المعنى يجوز، وعلى تقدير حمله على أنه اسم لمعنى هو قائم به كالقدرة التي بها بقاء الخلق أو العدم، فلا يجوز لكن اسم المعبود من هذا القبيل فلا يجوز التسمية به، فأحد هذين القولين حق وقولهم مع الألف واللام علم ليس بحق، إذا عرفت البحث في الله فما يترتب عليه، وهو أن الرحمن اسم على أضعف منه، وتجويز يا الرحمن أضعف من الكل.

البحث الثاني: الله والرحمن في حق الله تعالى كالاسم الأول والوصف الغالب الذي يصير كالاسم بعد الاسم الأول كما في قولنا: عمر الفاروق، وعلي المرتضى وموسى الرضا، وغير ذلك مما نجده في أسماء الخلفاء وأوصافهم المعرفة لهم التي كانت لهم وصفا وخرجت بكثرة الاستعمال عن الوصفية، حتى إن الشخص وإن لم يتصف به أو فارقه الوصف يقال له ذلك كالعلم فإذن للرحمن اختصاص بالله تعالى، كما أن لتلك الأوصاف اختصاصا بأولئك غير أن في تلك الأسماء والأوصاف جاز الوضع لما بينا حيث استوى الناس في الاقتدار والعظمة، ولا يجوز في حق الله تعالى، فإن قيل: إن من الناس من أطلق لفظ الرحمن على اليمامي، نقول: هو كما أن من الناس من أطلق لفظ الإله على غير الله تعديا وكفرا، نظرا إلى جوازه لغة وهو اعتقاد باطل.

البحث الثالث: لله تعالى رحمتان سابقة ولاحقة فالسابقة هي التي بها خلق الخلق واللاحقة هي التي أعطى بها الخلق بعد إيجاده إياهم من الرزق والفطنة وغير ذلك فهو تعالى بالنظر إلى الرحمة السابقة رحمن، وبالنظر إلى اللاحقة رحيم، ولهذا يقال: يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، فهو رحمن، لأنه خلق الخلق أولا برحمته، فلما لم يوجد في غيره هذه الرحمة ولم يخلق أحد أحدا لم يجز أن يقال لغيره: رحمن، ولما تخلق الصالحون من عباده ببعض أخلاقه على قدر الطاقة البشرية، وأطعم الجائع وكسا العاري، وجد شيء من الرحمة اللاحقة التي بها الرزق والإعانة فجاز أن يقال له رحيم، وقد ذكرنا هذا كله في تفسير سورة الفاتحة غير أنا أردنا أن يصير ما ذكرنا مضموما إلى ما ذكرناه هناك، / فأعدناه هاهنا لأن هذا كله كالتفصيل لما ذكرناه في الفاتحة.

المسألة الثانية: الرحمن مبتدأ خبره الجملة الفعلية التي هي قوله: علم القرآن وقيل الرحمن." (١)

"المعروف، وعلى هذا فقد قيل: إن أرواح أهل الجنة لا تخرج من الدنيا إلا ويؤتى إليهم بريحان من الجنة يشمونه، وقيل: إن المراد هاهنا غير ذلك وهو الخلود، وقيل: هو رضاء الله تعالى عنهم فإذا قلنا: الروح هو الرحمة فالآية كقوله

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٣٦/٢٩

تعالى: يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم [التوبة: ٢١] وأما: جنة نعيم فقد تقدم القول فيها عند تفسير السابقين في قوله: أولئك المقربون في جنات النعيم [الواقعة: ١١، ١٢] وذكرنا فائدة التعريف هناك وفائدة التنكير هاهنا.

المسألة الرابعة: ذكر في حق المقربين أمورا ثلاثة هاهنا وفي قوله تعالى: يبشرهم ربهم [التوبة: ٢١] وذلك لأنهم أتوا بأمور ثلاثة وهي: عقيدة حقة وكلمة طيبة وأعمال حسنة، فالقلب واللسان والجوارح كلها كانت مرتبة برحمة الله على عقيدته، وكل من له عقيدة حقة يرحمه الله ويرزقه الله دائما وعلى الكلمة الطيبة وهي كلمة الشهادة، وكل من قال: لا إله إلا الله فله رزق كريم والجنة له على أعماله الصالحة، قال تعالى: إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله [التوبة: ١١١] وقال: ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى [النازعات: ٤٠، ٤١] فإن قيل: فعلى هذا من أتى بالعقيدة/ الحقة، ولم يأت بالكلمة الطيبة ينبغي أن يكون من أهل الرحمة ولا يرحم الله إلا من قال: لا إله إلا الله، نقول: من كانت عقيدته حقة، لا بد وأن يأتي بالقول الطيب فإن لم يسمع لا يحكم به، لأن العقيدة لا اطلاع لنا عليها فالقول دليل لنا، وأما الله تعالى فهو عالم الأسرار، ولهذا ورد في الأخبار **أن من الناس من** يدفن في مقابر الكفار ويحشر مع المؤمنين، ومنهم من يدفن في مقابر المسلمين ويحشر مع الكفار لا يقال: إن من لا يعمل الأعمال الصالحة لا تكون له الجنة على ما ذكرت، لأنا نقول: الجواب عنه من وجهين أحدهما: أن عقيدته الحقة وكلمته الطيبة لا يتركانه بلا عمل، فهذا أمر غير واقع وفرض غير جائز وثانيهما: أنا نقول من حيث الجزاء، وأما من قال: لا إله إلا الله فيدخل الجنة، وإن لم يعمل عملا لا على وجه الجزاء بل بمحض فضل الله من غير جزاء، وإن كان الجزاء أيضا من الفضل لكن من الفضل ما يكون كالصدقة المبتدأة، ومن الفضل مالا كما يعطي الملك الكريم آخر والمهدى إليه غير ملك لا يستحق هديته ولا رزقه. ثم قال تعالى:

[سورة الواقعة (٥٦) : الآيات ٩٠ الى ٩١]

وأما إن كان من أصحاب اليمين (٩٠) فسلام لك من أصحاب اليمين (٩١)

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في السلام وفيه وجوه أولها: يسلم به صاحب اليمين على صاحب اليمين، كما قال تعالى من قبل: لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما إلا قيلا سلاما سلاما [الواقعة: ٢٥، ٢٦] ، ثانيها: فسلام لك أي سلامة لك من أمر خاف قلبك منه فإنه في أعلى المراتب، وهذا كما يقال لمن تعلق قلبه بولده الغائب عنه، إذا كان يخدم عند كريم، يقول له: كن فارغا من جانب ولدك فإنه في راحة. ثالثها: أن هذه الجملة تفيد عظمة حالهم كما يقال: فلان ناهيك به، وحسبك أنه فلان، إشارة إلى أنه ممدوح فوق الفضل.

المسألة الثانية: الخطاب بقوله: لك مع من؟ نقول: قد ظهر بعض ذلك فنقول: يحتمل أن يكون المراد من الكلام النبي

صلى الله عليه وسلم، وحينئذ فيه وجه وهو ما ذكرنا أن ذلك تسلية لقلب النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم غير محتاجين." (١)

"اعتقاد بكون الفعل مشتملا على مصلحة، فإذا حصل ذلك العلم أو الظن بسبب منبه نبه عليه كان الفعل مضافا إلى ذلك لما لأجله صار الفاعل بالقوة فاعلا بالفعل، فلهذا المعنى انضاف الفعل هاهنا إلى الوسوسة، وما أحسن ما قال بعض العارفين إن زلة آدم عليه السلام هب أنها كانت بسبب وسوسة إبليس، فمعصية إبليس حصلت بوسوسة من! وهذا ينبهك على أنه ما لم يحصل الداعي لا يحصل الفعل وأن الدواعي وإن ترتب بعضها على بعض، فلا بد من انتهائها إلى ما يخلقه الله تعالى ابتداء، وهو الذي صرح به موسى عليه السلام في قوله: إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء [الأعراف: ١٥٥] . السؤال الثاني: كيف كانت تلك الوسوسة، الجواب: أنها هي التي حكى الله تعالى عنها في قوله: ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين [الأعراف: ٢٠] ، فلم يقبلا ذلك منه، فلما أيس من ذلك عدل إلى اليمين على ما قال: وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين [الأعراف: ٢١] ، فلم يصدقاه أيضا، والظاهر أنه بعد ذلك عدل إلى شيء آخر وهو أنه شغلهما باستيفاء اللذات المباحة حتى صارا مستغرقين فيه فحصل بسبب استغراقهما فيه نسيان النهي فعند ذلك حصل ما حصل، والله أعلم بحقائق الأمور كيف كانت.

أما قوله تعالى: وقلنا اهبطوا ففيه مسائل:

المسألة الأولى: من قال إن جنة آدم كانت في السماء فسر الهبوط بالنزول من العلو إلى السفل، ومن قال إنها كانت في الأرض فسره بالتحول من موضع إلى غيره، كقوله: اهبطوا مصرا [البقرة: ٦١] .

المسألة الثانية: اختلفوا في المخاطبين بهذا الخطاب بعد الاتفاق على أن آدم وحواء عليهما السلام كانا مخاطبين به وذكروا فيه وجوها: الأول: وهو قول الأكثرين: أن إبليس داخل فيه أيضا قالوا لأن إبليس قد جرى ذكره في قوله: فأزلهما الشيطان عنها أي فأزلهما وقلنا لهم اهبطوا.

وأما قوله تعالى: بعضكم لبعض عدو فهذا تعريف لآدم وحواء عليهما السلام أن إبليس عدو لهما ولذريتهما كما عرفهما ذلك قبل الأكل من الشجرة فقال: فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى [طه: ١١٧] ، فإن قيل: إن إبليس لما أبى من السجود صار كافرا/ وأخرج من الجنة وقيل له: فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها [الأعراف: ١٣] ، وقال أيضا: فاخرج منها فإنك رجيم [ص: ٧٧، الحجر: ٣٤] ، وإنما أهبط منها لأجل تكبره، فزلة آدم عليه السلام إنما وقعت بعد ذلك بمدة طويلة، ثم أمر بالهبوط بسبب الزلة، فلما حصل هبوط إبليس قبل ذلك كيف يكون قوله: اهبطوا، متناولا له؟

قلنا: إن الله تعالى لما أهبطه إلى الأرض فلعله عاد إلى السماء مرة أخرى لأجل أن يوسوس إلى آدم وحواء فحين كان آدم وحواء في الجنة قال الله تعالى لهما: اهبطا [طه: ١٢٣] ، فلما خرجا من الجنة واجتمع إبليس معهما خارج الجنة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣٨/٢٩

أمر الكل فقال: اهبطوا ومن الناس من قال ليس معنى قوله: اهبطوا أنه قال ذلك لهم دفعة واحدة، بل قال ذلك لكل واحد منهم على حدة في وقت. الوجه الثاني: أن المراد آدم وحواء والحية وهذا ضعيف لأنه ثبت بالإجماع أن المكلفين هم الملائكة والجن والإنس، ولقائل أن يمنع هذا الإجماع **فإن من الناس من** يقول قد يحصل في غيرهم جمع من المكلفين على ما قال تعالى: كل قد علم صلاته وتسبيحه [النور: ٤١] ، وقال سليمان للهدهد: لأعذبنه عذابا شديدا [النمل: ٢١] . الثالث: المراد آدم وحواء وذريتهما لأنهما لما كانا أصل الإنس جعلا كأنهما الإنس كلهم، والدليل عليه قوله: اهبطوا بعضكم لبعض." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٥٣]

وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون (٥٣)

اعلم أن هذا هو الإنعام الرابع والمراد من الفرقان يحتمل أن يكون هو التوراة وأن يكون شيئا داخلا في التوراة وأن يكون شيئا خارجا عن التوراة فهذه أقسام ثلاثة لا مزيد عليها وتقرير الاحتمال الأول أن التوراة لها صفتان كونها كتابا منزلا وكونها فرقانا تفرق بين الحق والباطل فهو كقولك: رأيت الغيث والليث تريد الرجل الجامع بين الجود والجراءة ونظيره قوله تعالى: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا [الأنبياء: ٤٨] وأما تقرير الاحتمال الثاني فهو أن يكون المراد من الفرقان ما في التوراة من بيان الدين لأنه إذا أبان ظهر الحق متميزا من/ الباطل، فالمراد من الفرقان بعض ما في التوراة وهو بيان أصول الدين وفروعه.

وأما تقرير الاحتمال الثالث فمن وجوه، أحدها: أن يكون المراد من الفرقان ما أوتي موسى عليه السلام من اليد والعصا وسائر الآيات وسميت بالفرقان لأنها فرقت بين الحق والباطل. وثانيها: أن يكون المراد من الفرقان النصر والفرج الذي آتاه الله بني إسرائيل على قوم فرعون، قال تعالى: وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان [الأنفال: ٤١] والمراد النصر الذي آتاه الله يوم بدر، وذلك لأن قبل ظهور النصر يتوقع كل واحد من الخصمين في أن يكون هو المستولي وصاحبه هو المقهور، فإذا ظهر النصر تميز الراجح من المرجوح وانفرق الطمع الصادق من الطمع الكاذب، وثالثها: قال قطرب الفرقان هو انفراق البحر لموسى عليه السلام.

فإن قلت: فهذا قد صار مذكورا في قوله تعالى: وإذ فرقنا بكم البحر [البقرة: ٥٠] وأيضا فقوله تعالى بعد ذلك: لعلكم تهتدون لا يليق إلا بالكتاب لأن ذلك لا يذكر إلا عقيب الهدى. قلت: الجواب عن الأول أنه تعالى لم يبين في قوله تعالى: وإذ فرقنا بكم البحر أن ذلك كان لأجل موسى عليه السلام، وفي هذه الآية بين ذلك التخصيص على سبيل التنصيص، وعن الثاني أن فرق البحر كان من الدلائل فلعل المراد أنا لما آتينا موسى فرقان البحر استدلوا بذلك على وجود الصانع، وصدق موسى عليه السلام وذلك هو الهداية وأيضا فالهدى قد يراد به الفوز والنجاة كما يراد به الدلالة، فكأنه تعالى بين أنه آتاهم الكتاب نعمة في الدين والفرقان الذي حصل به خلاصهم من الخصم نعمة عاجلة. واعلم **أن من الناس من** غلط فظن أن الفرقان هو القرآن، وأنه أنزل على موسى عليه السلام وذلك باطل لأن الفرقان هو الذي

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٦٣/٣

يفرق بين الحق والباطل وكل دليل كذلك فلا وجه لتخصيص هذا اللفظ بالقرآن. وقال آخرون: المعنى: وإذ آتينا موسى الكتاب يعني التوراة وآتينا محمدا صلى الله عليه وسلم الفرقان لكي تهتدوا به يا أهل الكتاب. وقد مال إلى هذا القول من علماء النحو الفراء وثعلب وقطرب وهذا تعسف شديد من غير حاجة البتة إليه.

وأما قوله تعالى: لعلكم تهتدون فقد تقدم تفسير لعل وتفسير الاهتداء، واستدلت المعتزلة بقوله:

لعلكم تهتدون على أن الله تعالى أراد الاهتداء من الكل وذلك يبطل قول من قال: أراد الكفر من الكافر، وأيضا فإذا كان عندهم أنه تعالى: يخلق الاهتداء، فيمن يهتدي والضلال فيمن يضل، فما الفائدة في أن ينزل الكتاب والفرقان ويقول: لعلكم تهتدون ومعلوم أن الاهتداء إذا كان يخلقه، فلا تأثير لإنزال الكتب فيه لو خلق الاهتداء ولا كتاب لحصل الاهتداء، ولو أنزل بدلا من الكتاب الواحد ألف كتاب ولم يخلق الاهتداء فيهم لما حصل الاهتداء، فكيف يجوز أن يقول أنزلت الكتاب لكي تهتدوا؟ واعلم أن هذا الكلام قد تقدم مرارا لا تحصى مع الجواب والله أعلم.." (١)

"النوع الثاني: من الكلام في هذه الآية: اعلم أن الله تعالى ذكر هذه الآية في سورة الأعراف وهو قوله:

وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين، فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون [الأعراف: ١٦١، ١٦٢] واعلم **أن من الناس من** يحتج بقوله تعالى: فبدل الذين ظلموا على أن ما ورد به التوقيف من الأذكار أنه غير جائز تغييرها ولا تبديلها بغيرها، وربما احتج أصحاب الشافعي رضي الله عنه في أنه لا يجوز تحريم الصلاة بلفظ التعظيم والتسبيح ولا تجوز القراءة بالفارسية وأجاب أبو بكر الرازي بأنهم إنما استحقوا الذم لتبديلهم القول إلى قول آخر يضاد معناه معنى الأول، فلا جرم استوجبوا الذم، فأما من غير اللفظ مع بقاء المعنى فليس كذلك والجواب أن ظاهر قوله: فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم يتناول كل من بدل قولا بقول آخر سواء اتفق القولان في المعنى أو لم يتفقا، وهاهنا سؤالات:

السؤال الأول: لم قال في سورة البقرة: وإذ قلنا وقال في الأعراف: وإذ قيل لهم الجواب أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم [البقرة: ٤٠] ثم أخذ يعدد [نعمه] نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول: وإذ قلنا أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى: وإذ قيل لهم إبهام بعد تقديم التصريح به في سورة البقرة.

السؤال الثاني: لم قال في البقرة: وإذ قلنا ادخلوا وفي الأعراف: اسكنوا؟ الجواب: الدخول مقدم على السكون ولا بد منهما فلا جرم ذكر الدخول في السورة المتقدمة والسكون في السورة المتأخرة.

السؤال الثالث: لم قال في البقرة: فكلوا بالفاء وفي الأعراف: وكلوا بالواو؟ والجواب هاهنا هو الذي ذكرناه في قوله تعالى في سورة البقرة: وكلا منها رغدا وفي الأعراف: فكلا.

السؤال الرابع: لم قال في البقرة: نغفر لكم خطاياكم وفي الأعراف: نغفر لكم خطيئاتكم، الجواب: الخطايا جمع الكثرة

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥١٤/٣

والخطيئات جمع السلامة فهو للقلة، وفي سورة البقرة لما أضاف ذلك القول إلى نفسه فقال: وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية لا جرم قرن به ما يليق جوده وكرمه وهو غفران الذنوب الكثيرة، فذكر بلفظ الجمع الدال على الكثرة، وفي الأعراف/ لما لم يضف ذلك إلى نفسه بل قال: وإذ قيل لهم لا جرم ذكر ذلك بجمع القلة، فالحاصل أنه لما ذكر الفاعل ذكر ما يليق بكرمه من غفران الخطايا الكثيرة [ة] وفي الأعراف لما لم يسم الفاعل لم يذكر اللفظ الدال على الكثرة.

السؤال الخامس: لم ذكر قوله: رغدا في البقرة وحذفه في الأعراف؟ الجواب عن هذا السؤال كالجواب في الخطايا والخطيئات لأنه لما أسند الفعل إلى نفسه لا جرم ذكر معه الإنعام الأعظم وهو أن يأكلوا رغدا، وفي الأعراف لما لم يسند الفعل إلى نفسه لم يذكر الإنعام الأعظم فيه.

السؤال السادس: لم ذكر في البقرة: وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة وفي الأعراف قدم المؤخر؟

الجواب: الواو للجمع المطلق وأيضا فالمخاطبون بقوله: ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة، يحتمل أن يقال: إن بعضهم كانوا مذنبين والبعض الآخر ما كانوا مذنبين، فالمذنب لا بد أن يكون اشتغاله بحط الذنوب." (١)

"[سورة الحاقة (٦٩) : آية ٧]

سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية (٧)

قوله تعالى: سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما قال مقاتل: سلطها عليهم. وقال الزجاج: أقلعها عليهم، وقال آخرون: أرسلها عليهم، هذه هي الألفاظ المنقولة عن المفسرين، وعندي أن فيه لطيفة، وذلك **لأن من الناس من** قال: إن تلك الرياح إنما اشتدت، لأن اتصالا فلكيا نجوميا اقتضى ذلك، فقوله:

سخرها فيه إشارة إلى نفي ذلك المذهب، وبيان أن ذلك إنما حصل بتقدير الله وقدرته، فإنه لولا هذه الدقيقة لما حصل منه التخويف والتحذير عن العقاب. وقوله: سبع ليال وثمانية أيام حسوما الفائدة فيه أنه تعالى لو لم يذكر ذلك لما كان مقدار زمان هذا العذاب معلوما، فلما قال: سبع ليال وثمانية أيام صار مقدار هذا الزمان معلوما، ثم لما كان يمكن أن يظن ظان أن ذلك العذاب كان متفرقا في هذه المدة أزال هذا الظن، بقوله:

حسوما أي متتابعة متوالية، واختلفوا في الحسوم على وجوه أحدها: وهو قول الأكثرين (حسوما) ، أي متتابعة، أي هذه الأيام تتابعت عليهم بالريح المهلكة، فلم يكن فيها فتور ولا انقطاع، وعلى هذا القول: حسوم جمع حاسم. كشهود وقعود، ومعنى هذا الحسم في اللغة القطع بالاستئصال، وسمي السيف حساما، لأنه يحسم العدو عما يريد، من بلوغ عداوته فلما كانت تلك الرياح متتابعة ما سكنت ساعة حتى أتت عليهم أشبه تتابعها عليهم تتابع فعل الحاسم في إعادة الكي، على الداء كرة بعد أخرى، حتى ينحسم وثانيها: أن الرياح حسمت كل خير، واستأصلت كل بركة، فكانت حسوما أو حسمتهم، فلم يبق منهم أحد، فالحسوم على هذين القولين جمع حاسم وثالثها: أن يكون الحسوم مصدرا كالشكور والكفور، وعلى هذا التقدير فإما أن ينتصب بفعله مضمرا، والتقدير: يحسم حسوما، يعني استأصل استئصالا، أو يكون صفة، كقولك: ذات حسوم، أو يكون مفعولا له، أي سخرها عليهم للاستئصال، وقرأ السدي: حسوما بالفتح حالا من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥٢٦/٣

الريح، أي سخرها عليهم مستأصلة، وقيل: هي أيام العجوز، وإنما سميت بأيام العجوز، لأن عجوزا من عاد توارت في سرب، فانتزعتها الريح في اليوم الثامن فأهلكتها، وقيل: هي أيام العجز وهي آخر الشتاء.

قوله تعالى: فترى القوم فيها صرعى أي في مهابها، وقال آخرون: أي في تلك الليالي/ والأيام صرعى جمع صريع. قال مقاتل: يعني موتى يريد أنهم صرعوا بموتهم، فهم مصرعون صرع الموت.

ثم قال: كأنهم أعجاز نخل خاوية أي كأنهم أصول نخل خالية الأجواف لا شيء فيها، والنخل يؤنث ويذكر، قال الله تعالى في موضع آخر: كأنهم أعجاز نخل منقعر [القمر: ٢٠] وقرئ: (أعجاز نخيل) ، ثم يحتمل أنهم شبهوا بالنخيل التي قلعت من أصلها، وهو إخبار عن عظيم خلقهم وأجسامهم ويحتمل أن يكون المراد به الأصول دون الجذوع، أي أن الريح قد قطعتهم حتى صاروا قطعا ضخاما كأصول النخل. وأما وصف النخل بالخواء، فيحتمل أن يكون وصفا للقوم، فإن الريح كانت تدخل أجوافهم فتصرعهم كالنخل الخاوية الجوف، ويحتمل أن تكون الخالية بمعنى البالية لأنها إذا بليت خلت أجوافها، فشبهوا بعد أن أهلكوا بالنخيل البالية ثم قال:

[سورة الحاقة (٦٩) : آية ٨]

فهل ترى لهم من باقية (٨)

وفيه مسألتان:." (١)

"ذلك الجمل ينعطف من تل إلى تل ومن جانب إلى جانب والجميع كانوا يتبعونه حتى وصل إلى الطريق بعد زمان طويل فتعجبنا من قوة تخيل ذلك بالحيوان أنه بالمرة الواحدة كيف انحفظت في خياله صورة تلك المعاطف حتى أن الذين عجز جمع من العقلاء إلى الاهتداء إليه فإن ذلك الحيوان اهتدى إليه، ومنها أنها مع كونها في غاية القوة على العمل مباينة لغيرها في الانقياد والطاعة لأضعف الحيوانات كالصبي الصغير، ومباينة لغيرها أيضا في أنها يحمل عليها وهي باركة ثم تقوم، فهذه الصفات الكثيرة الموجودة فيها توجب على العاقل أن ينظر في خلقتها وتركيبها ويستدل بذلك على وجود الصانع الحكيم سبحانه، ثم إن العرب من أعرف الناس بأحوال الإبل في صحتها وسقمها ومنافعها ومضارها فلهذه الأسباب حسن من الحكيم تعالى أن يأمر بالتأمل في خلقتها. ثم قال تعالى:

[سورة الغاشية (٨٨) : آية ١٨]

وإلى السماء كيف رفعت (١٨)

أي رفعا بعيد المدى بلا إمساك وبغير عمد.

[سورة الغاشية (٨٨) : آية ١٩]

وإلى الجبال كيف نصبت (١٩)

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٦٢٢/٣٠

نصبا ثابتا فهي راسخة لا تميل ولا تزول.

[سورة الغاشية (٨٨) : آية ٢٠]

وإلى الأرض كيف سطحت (٢٠)

سطحا بتمهيد وتوطئة، فهي مهاد للمتقلب عليها، ومن/ الناس من استدل بهذا على أن الأرض ليست بكرة وهو ضعيف، لأن الكرة إذا كانت في غاية العظمة يكون كل قطعة منها كالسطح،

وقرأ علي عليه السلام كيف خلقت ورفعت ونصبت وسطحت

على البناء للفاعل وتاء الضمير، والتقدير فعلتها، فحذف المفعول.

المقام الثاني: في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة اعلم أن من الناس من فسر الإبل بالسحاب. قال صاحب «الكشاف» : ولعله لم يرد أن الإبل من أسماء السحاب، كالغمام والمزن والرباب والغيم والغين وغير ذلك، وإنما رأى السحاب مشبها بالإبل في كثير من أشعارهم، فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة. أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور، فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين الأول: أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرا، لأن بلدتهم بلدة خالية من الزرع، وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها في المهامه والقفار مستوحشين منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء، لأنه ليس معه من يحادثه، وليس هناك شيء يشغل به سمعه وبصره، وإذا كان كذلك لم يكن له بد من أن يشغل باله بالفكرة، فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظرا عجيبا، وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يمينا وشمالا لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض، فكأنه تعالى أمره بالنظر وقت الخلوة والانفراد عن الغير حتى لا تحمله داعية الكبر والحسد على ترك النظر، ثم إنه في وقت الخلوة في المفازة البعيدة لا يرى شيئا سوى هذه الأشياء، فلا جرم جمع الله بينها في هذه الآية الوجه الثاني: أن جميع المخلوقات دالة على الصانع إلا أنها على قسمين: منها ما يكون للحكمة." (١)

"ذلك المني والعلقة، وغسلوا ثيابهم عنه، ثم كم احتالوا للإسقاط والإبطال، ثم إنه تعالى لما أعطاك الصورة الحسنة فالأبوان لما رأوا تلك الصورة الحسنة قبلوك ومالوا إليك، فكذا الملائكة لما رأوا في روحك الصورة الحسنة وهي معرفة الله وطاعته أحبوك فنزلوا إليك معتذرين عما قالوه أولا، فهذا هو المراد من قوله: تنزل الملائكة فإذا نزلوا إليك رأوا روحك في ظلمة ليل البدن، وظلمة القوى الجسمانية فحينئذ يعتذرون عما تقدم ويستغفرون للذين آمنوا.

المسألة الثانية: أن قوله تعالى: تنزل الملائكة يقتضي ظاهره نزول كل الملائكة، ثم الملائكة لهم كثرة عظيمة لا تحتمل كلهم الأرض، فلهذا السبب اختلفوا فقال بعضهم: إنها تنزل بأسرها إلى السماء الدنيا، فإن قيل الإشكال بعد باق لأن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٤٥/٣١

السماء مملوءة بحيث لا يوجد فيها موضع إهاب إلا وفيه ملك، فكيف تسع الجميع سماء واحدة؟ قلنا: يقضى بعموم الكتاب على خبر الواحد، كيف والمروي أنهم ينزلون فوجا فوجا فمن نازل وصاعد كأهل الحج فإنهم على كثرتهم يدخلون الكعبة بالكلية لكن الناس بين داخل وخارج، ولهذا السبب مدت إلى غاية طلوع الفجر فلذلك ذكر بلفظ: تنزل الذي يفيد المرة بعد المرة.

والقول الثاني: وهو اختيار الأكثرين أنهم ينزلون إلى الأرض وهو الأوجه، لأن الغرض هو الترغيب في إحياء هذه الليلة، ولأنه دلت الأحاديث على أن الملائكة ينزلون في سائر الأيام إلى مجالس الذكر والدين، فلأن يحصل ذلك في هذه الليلة مع علو شأنها أولى، ولأن النزول المطلق لا يفيد إلا النزول من السماء إلى الأرض، ثم اختلف من قال: ينزلون إلى الأرض على وجوه: أحدها: قال بعضهم: ينزلون ليروا عبادة البشر وجدهم واجتهادهم في الطاعة وثانيها: أن الملائكة قالوا: وما نتنزل إلا بأمر ربك [مريم: ٦٤] فهذا يدل على أنهم كانوا مأمورين بذلك النزولى فلا يدل على غاية المحبة.

وأما هذه الآية وهو قوله: بإذن ربهم فإنها تدل على أنهم استأذنوا أولا فأذنوا، وذلك يدل على غاية المحبة، لأنهم كانوا يرغبون إلينا ويتمنون لقاءنا لكن كانوا ينتظرون الإذن، فإن قيل قوله: وإنا لنحن الصافون [الصافات: ١٦٥] ينافي قوله: تنزل الملائكة قلنا نصرف الحالتين إلى زمانين مختلفين وثالثها: أنه تعالى وعد في الآخرة أن الملائكة: يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم [الرعد: ٢٣، ٢٤] فههنا في الدنيا إن اشتغلت بعبادتي نزلت الملائكة عليك حتى يدخلوا عليك للتسلم والزيارة،

روي عن علي عليه السلام: «أنهم ينزلون ليسلموا علينا وليشفعوا لنا فمن أصابته التسليمة غفر له ذنبه»

ورابعها: أن الله تعالى جعل فضيلة هذه الليلة في الاشتغال بطاعته في الأرض فهم ينزلون إلى الأرض لتصير طاعاتهم أكثر ثوابا، كما أن الرجل يذهب إلى مكة لتصير طاعته هناك أكثر ثوابا، وكل ذلك ترغيب للإنسان في الطاعة وخامسها: أن الإنسان يأتي بالطاعات والخيرات عند حضور الأكابر من العلماء والزهاد أحسن مما يكون في الخلوة، فالله تعالى أنزل الملائكة المقربين حتى أن المكلف يعلم أنه إنما يأتي بالطاعات في حضور أولئك العلماء العباد الزهاد فيكون أتم وعن النقصان أبعد وسادسها: **أن من الناس من** خص لفظ الملائكة ببعض فرق الملائكة، عن كعب أن سدرة المنتهى على حد السماء السابعة مما يلي الجنة، فهي على حد هواء الدنيا وهواء الآخرة، وساقها في الجنة وأغصانها تحت الكرسي فيها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله يعبدون الله ومقام جبريل في وسطها، ليس فيها ملك إلا وقد أعطى الرأفة والرحمة للمؤمنين ينزلون مع جبريل ليلة القدر، فلا تبقى بقعة من الأرض إلا وعليها ملك." (١)

"خضرا ولها رءوس مثل رءوس السباع، وأقول: إنها لما كانت أفواجا، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر فكل أحد وصف ما رأى، وقيل: كانت بلقاء كالخطاطيف. ثم قال تعالى:

[سورة الفيل (١٠٥) : آية ٤]

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٣/٣٢

ترميهم بحجارة من سجيل (٤)

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو حيوة: (يرميهم) أي الله أو الطير لأنه اسم جمع مذكر، وإنما يؤنث على المعنى.

المسألة الثانية: ذكروا في كيفية الرمي وجوها أحدها: قال مقاتل: كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه يقتل كل واحد رجلا، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره وثانيها: روى عكرمة عن ابن عباس، قال: لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري، وهو قول سعيد بن جبير، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة، وأكبرها مثل الحمصة.

واعلم أن من الناس من أنكر ذلك وقال: لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليا عن الثقل وأن يكون في وزن التبنة، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات، فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس، وكل ذلك محال. واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

المسألة الثالثة: ذكروا في السجيل وجوها أحدها: أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، كما أن سجينا علم لديوان أعمالهم، كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون، واشتقاقه من الإسجال وهو الإرسال، ومنه السجل الدلو المملوء ماء، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم لأنه كتب فيه العذاب، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى: وأرسل عليهم طيرا أبابيل [الفيل: ٣] وقوله: فأرسلنا عليهم الطوفان [الأعراف: ١٣٣] فقوله: من سجيل أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب وثانيها: قال ابن عباس: سجيل معناه سنك وكل، يعني بعضه حجر وبعضه طين وثالثها: قال أبو عبيدة: السجيل الشديد ورابعها: السجيل اسم لسماء الدنيا وخامسها: السجيل حجارة من جهنم، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام. أما قوله تعالى:

[سورة الفيل (١٠٥) : آية ٥]

فجعلهم كعصف مأكول (٥)

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير العصف وجوها ذكرناها في قوله: والحب ذو العصف [الرحمن: ١٢] وذكروا هاهنا وجوها: أحدها: أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي وثانيها: قال أبو مسلم:

العصف التبن لقوله: ذو العصف والريحان [الرحمن: ١٢] لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب، وهو إذا كان مأكولا فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه وثالثها:." (١)

"والمراد من قوله تعالى لموسى: وأقم الصلاة لذكري [طه: ١٤] وقيل: إنه كانت صلاتهم ونحرهم للصنم فقيل له: لتكن صلاتك ونحرك لله.

الفائدة الثانية: كأنه تعالى يقول: ذكر في السورة المتقدمة أنهم كانوا يصلون للمراءاة فصل أنت لا للرياء لكن على سبيل الإخلاص.

المسألة الخامسة: الفاء في قوله: فصل تفيد سببية أمرين أحدهما: سببية العبادة كأنه قيل: تكثير الإنعام عليك يوجب عليك الاشتغال بالعبودية والثاني: سببية ترك المبالاة كأنهم لما قالوا له: إنك أبتر فقيل له:

كما أنعمنا عليك بهذه النعم الكثيرة، فاشتغل أنت بطاعتك ولا تبال بقولهم وهذيانهم.

واعلم أنه لما كانت النعم الكثيرة محبوبة ولازم المحبوب محبوب، والفاء في قوله: فصل اقتضت كون الصلاة من لوازم تلك النعم، لا جرم صارت الصلاة أحب الأشياء للنبي عليه الصلاة والسلام

فقال: «وجعلت قرة عيني في الصلاة»

ولقد صلى حتى تورمت قدماه، فقيل له: أو ليس قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدا شكورا»

فقوله: «أفلا أكون عبدا شكورا»

إشارة إلى أنه يجب علي الاشتغال بالطاعة بمقتضى الفاء في قوله: فصل.

المسألة السادسة: كان الأليق في الظاهر أن يقول: إن أعطيناك الكوثر فصل لنا وانحر لكنه ترك ذلك إلى قوله: فصل لربك لفوائد إحداها: أن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة وثانيها: أن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة، ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم: يأمرك أمير المؤمنين، وينهاك أمير المؤمنين وثالثها: أن قوله: إنا أعطيناك ليس في صريح لفظه أن هذا القائل هو الله أو غيره، وأيضا كلمة إنا تحتمل الجمع كما تحتمل الواحد المعظم نفسه، فلو قال: صل لنا، لنفي ذلك الاحتمال وهو أنه ما كان يعرف أن هذه الصلاة لله وحده أم له ولغيره على سبيل التشريك، فلهذا ترك اللفظ، وقال: فصل لربك ليكون ذلك إزالة لذلك الاحتمال وتصريحا بالتوحيد في الطاعة والعمل لله تعالى.

المسألة السابعة: قوله: فصل لربك أبلغ من قوله: فصل لله لأن لفظ الرب يفيد التربية المتقدمة المشار إليها بقوله: إنا أعطيناك الكوثر ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه.

المسألة الثامنة: في الآية سؤالان: أحدهما: أن المذكور عقب الصلاة هو الزكاة، فلم كان المذكور هاهنا هو النحر؟ والثاني: لما لم يقل: ضح حتى يشمل جميع أنواع/ الضحايا؟ والجواب: عن الأول، أما على قول من قال: المراد من

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٩٢/٣٢

الصلاة صلاة العيد، فالأمر ظاهر فيه، وأما على قول من حمله على مطلق الصلاة، فلوجوه أحدها: أن المشركين كانت صلواتهم وقرابينهم للأوثان، فقيل له: اجعلهما لله وثانيها: **أن من الناس من** قال:

إنه عليه السلام ما كان يدخل في ملكه شيء من الدنيا، بل كان يملك بقدر الحاجة، فلا جرم لم تجب الزكاة عليه، أما النحر فقد كان واجبا عليه

لقوله: «ثلاث كتبت علي ولم تكتب على أمتي الضحى والأضحى والوتر»

وثالثها: أن أعز الأموال عند العرب هو الإبل فأمره بنحرها وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيها على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها،

روي أنه عليه السلام أهدى مائة بدنة فيها جمل لأبي جهل في أنفه برة من ذهب فنحر هو عليه السلام حتى أعيا، ثم أمر عليا عليه السلام بذلك، وكانت النوق يزدحمن على رسول الله،." (١)

"وإذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح أو الذم فالأحسن أن تخالف بإعرابها ولا تجعل كلها جارية على موصوفها، لأن هذا الموضع من مواضع الإطناب في الوصف والإبلاغ في القول، فإذا خولف بإعراب الأوصاف كان المقصود أكمل، لأن الكلام عند اختلاف الإعراب يصير كأنه أنواع من الكلام وضروب من البيان، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجها واحدا، وجملة واحدة. ثم اختلف الكوفيون والبصريون في أن المدح والذم لم صارا علتين لاختلاف الحركة؟ فقال الفراء: أصل المدح والذم من كلام السامع، وذلك أن الرجل إذا أخبر غيره فقال له: قام زيد فربما أثنى السامع على زيد، وقال ذكرت والله الظريف، ذكرت العاقل، أي هو والله الظريف هو العاقل، فأراد المتكلم أن يمدح بمثل ما مدحه به السامع، فجرى الإعراب على ذلك، وقال الخليل: المدح والذم ينصبان على معنى أعني الظريف، وأنكر الفراء ذلك لوجهين الأول: أن أعني إنما يقع تفسيرا للاسم المجهول، والمدح يأتي بعد المعروف الثاني: أنه لو صح ما قاله الخليل لصح أن يقول: قام زيد أخاك، على معنى: أعني أخاك، وهذا مما لم تقله العرب أصلا.

[المسألة الثانية قوله تعالى في قراءة والموفين، والصابرين] واعلم **أن من الناس من** قرأ والموفين ... ، والصابرين ومنهم من قرأ والموفون، والصابرون [المسألة الثالثة قوله: تعالى في البأساء والضراء] أما قوله: في البأساء قال ابن عباس: يريد الفقر، وهو اسم من البؤس والضراء قال: يريد به المرض، وهما اسمان على فعلاء ولا أفعل لهما، لأنهما ليسا بنعتين وحين البأس قال ابن عباس رضي الله عنهما يريد القتال في سبيل الله والجهاد، ومعنى البأس في اللغة الشدة يقال: لا بأس عليك في هذا، أي لا شدة بعذاب بئيس [الأعراف: ١٦٥] شديد ثم تسمى الحرب بأسا لما فيها من الشدة والعذاب يسمى بأسا لشدته قال تعالى: فلما رأوا بأسنا [غافر: ٨٤] فلما أحسوا بأسنا [الأنبياء: ١٢] فمن ينصرنا من بأس الله [غافر: ٢٩] .

ثم قال تعالى: أولئك الذين صدقوا أي أهل هذه الأوصاف هم الذين صدقوا في إيمانهم، وذكر الواحدي رحمه الله في آخر هذه الآية مسألة وهي أنه قال هذه الواوات في الأوصاف في هذه الآية للجمع، فمن شرائط البر وتمام شرط البار

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣١٩/٣٢

أن تجتمع فيه هذه الأوصاف، ومن قام به واحد منها لم يستحق الوصف بالبر، فلا ينبغي أن يظن الإنسان أن الموفي بعهده من جملة من قام بالبر وكذا الصابر في البأساء بل لا يكون قائما بالبر، إلا عند استجماع هذه الخصال، ولذلك قال بعضهم: هذه الصفة خاصة للأنبياء عليهم السلام، لأن غيرهم لا تجتمع فيه هذه الأوصاف كلها، وقال آخرون: هذه عامة في جميع المؤمنين، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت.

[سورة البقرة (٢) : آية ١٧٨]

يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (١٧٨)." (١)

"[في قوله تعالى قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم] أما القول المعروف، فهو القول الذي تقبله القلوب ولا تنكره، والمراد منه هاهنا أن يرد/ السائل بطريق جميل حسن، وقال عطاء: عدة حسنة، أما المغفرة ففيه وجوه أحدها: أن الفقير إذا رد بغير مقصوده شق عليه ذلك، فربما حمله ذلك على بذاءة اللسان، فأمر بالعفو عن بذاءة الفقير والصفح عن إساءته وثانيها: أن يكون المراد ونيل مغفرة من الله بسبب الرد الجميل وثالثها: أن يكون المراد من المغفرة أن يستر حاجة الفقير ولا يهتك ستره، والمراد من القول المعروف رده بأحسن الطرق وبالمغفرة أن لا يهتك ستره بأن يذكر حاله عند من يكره الفقير وقوفه على حاله ورابعها: أن قوله قول معروف خطاب مع المسؤول بأن يرد السائل بأحسن الطرق، وقوله ومغفرة خطاب مع السائل بأن يعذر المسؤول في ذلك الرد، فربما لم يقدر على ذلك الشيء في تلك الحالة، ثم بين تعالى أن فعل الرجل لهذين الأمرين خير له من صدقة يتبعها أذى، وسبب هذا الترجيح أنه إذا أعطى، ثم أتبع الإعطاء بالإيذاء، فهناك جمع بين الإنفاع والإضرار، وربما لم يف ثواب الإنفاع بعقاب الإضرار، وأما القول المعروف ففيه إنفاع من حيث إنه يتضمن إيصال السرور إلى قلب المسلم ولم يقترن به الإضرار، فكان هذا خيرا من الأول.

واعلم **أن من الناس من** قال: إن الآية واردة في التطوع، لأن الواجب لا يحل منعه، ولا رد السائل منه، وقد يحتمل أن يراد به الواجب، وقد يعدل به عن سائل إلى سائل وعن فقير إلى فقير.

ثم قال: والله غني عن صدقة العباد فإنما أمركم بها ليثيبكم عليها حليم إذا لم يعجل بالعقوبة على من يمن ويؤذي بصدقته، وهذا سخط منه ووعيد له ثم إنه تعالى وصف هذين النوعين على الإنفاق أحدهما:

الذي يتبعه المن والأذى والثاني: الذي لا يتبعه المن والأذى، فشرح حال كل واحد منهما، وضرب مثلا لكل واحد منهما.

فقال في القسم الأول: الذي يتبعه المن والأذى يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر وفي الآية مسائل، المسألة الأولى: قال القاضي: إنه تعالى أكد النهي عن إبطال

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٥/٢٢٠

الصدقة بالمن والأذى وأزال كل شبهة للمرجئة بأن بين أن المراد أن المن والأذى يبطلان الصدقة، ومعلوم أن الصدقة قد وقعت وتقدمت، فلا يصح أن تبطل فالمراد إبطال أجرها وثوابها، لأن الأجر لم يحصل بعد وهو مستقبل فيصح إبطاله بما يأتيه من المن والأذى.

واعلم أنه تعالى ذكر لكيفية إبطال أجر الصدقة بالمن والأذى مثلين، فمثله أولا: بمن ينفق ماله رئاء الناس، وهو مع ذلك كافر لا يؤمن بالله واليوم الآخر، لأن بطلان أجر نفقة هذا المرائي الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة من يتبعها المن والأذى، ثم مثله ثانيا: بالصفوان الذي وقع عليه تراب وغبار، ثم أصابه المطر القوي، فيزيل ذلك الغبار عنه حتى يصير كأنه ما كان عليه غبار ولا تراب أصلا، فالكافر كالصفوان، والتراب مثل ذلك الإنفاق والوابل كالكفر الذي يحبط عمل/ الكافر، وكالمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق." (١)

"[سورة آل عمران (٣) : آية ٥٥]

إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون (٥٥)

[في قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي إلى قوله تعالى يوم القيامة] في الآية مسائل:

المسألة الأولى: العامل في إذ قوله ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين أي وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول، وقيل التقدير: ذاك إذ قال الله.

المسألة الثانية: اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات:

الصفة الأولى: إني متوفيك ونظيره قوله تعالى حكاية عنه فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم [المائدة: ١١٧] واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما: إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها والثاني: فرض التقديم والتأخير فيها، أما الطريق الأول فبيانه من وجوه الأول: معنى قوله إني متوفيك أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن والثاني: متوفيك أي مميتك، وهو مروي عن ابن عباس، ومحمد بن إسحاق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه أحدها: قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع وثانيها: قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه الثالث: قال الربيع بن أنس: إنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها [الزمر: ٤٢] .

الوجه الرابع: في تأويل الآية أن الواو في قوله متوفيك ورافعك إلي تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي

وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه سينزل ويقتل الدجال»

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٤٣/٧

ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك.

الوجه الخامس: في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي، وهو أن المراد إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال: ورافعك إلي وذلك لأن من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

والوجه السادس: أن التوفي أخذ الشيء وافيا، ولما علم الله **أن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: وما يضرونك من شيء

[النساء: ١١٣] .

والوجه السابع: إني متوفيك أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الوجه الثامن: أن التوفي هو القبض يقال: وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه، كما يقال: سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه، وقد يكون أيضا توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من." (١)

"إذا عرفت هذا الأصل ففي تأويل الآية وجوه الأول: قال القفال رحمه الله قوله يلوون ألسنتهم معناه وأن يعمدوا إلى اللفظة فيحرفونها في حركات الإعراب تحريفا يتغير به المعنى، وهذا كثير في لسان العرب فلا يبعد مثله في العبرانية، فلما فعلوا مثل ذلك في الآيات الدالة على نبوة محمد عليه الصلاة والسلام من التوراة كان ذلك هو المراد من قوله تعالى: يلوون ألسنتهم وهذا تأويل في غاية الحسن الثاني: نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن النفر الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم كتبوا كتابا شوشوا فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم وخلطوه بالكتاب الذي كان فيه نعت محمد صلى الله عليه وسلم ثم قالوا هذا من عند الله.

إذا عرفت هذا فنقول: إن لي اللسان تنبيه بالتشدق والتنطع والتكلف وذلك مذموم فعبر الله تعالى عن قراءتهم لذلك الكتاب الباطل بلي اللسان ذما لهم وعيبا ولم يعبر عنها بالقراءة، والعرب تفرق بين ألفاظ المدح والذم في الشيء الواحد، فيقولون في المدح: خطيب مصقع، وفي الذم: مكثار ثرثار.

فقوله وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب المراد قراءة ذلك الكتاب الباطل، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله [البقرة: ٧٩] ثم قال: وما هو من الكتاب أي وما هو الكتاب الحق المنزل من عند الله، بقي هاهنا سؤالان:

السؤال الأول: إلى ما يرجع الضمير في قوله لتحسبوه؟.

الجواب: إلى ما دل عليه قوله يلوون ألسنتهم وهو المحرف.

السؤال الثاني: كيف يمكن إدخال التحريف في التوراة مع شهرتها العظيمة بين الناس؟.

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٣٧/٨

الجواب: لعله صدر هذا العمل عن نفر قليل، يجوز عليهم التواطؤ على التحريف، ثم إنهم عرضوا ذلك المحرف على بعض العوام وعلى هذا التقدير يكون هذا التحريف ممكنا، والأصوب عندي في تفسير الآية وجه آخر وهو أن الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كان يحتاج فيها إلى تدقيق النظر وتأمل القلب، والقوم كانوا يوردون عليها الأسئلة المشوشة والاعتراضات المظلمة فكانت تصير تلك الدلائل مشتبهة على السامعين، واليهود كانوا يقولون:
مراد الله من هذه الآيات ما ذكرناه لا ما ذكرتم، فكان هذا هو المراد بالتحريف وبلي الألسنة وهذا مثل ما أن المحق في زماننا إذا استدل بآية من كتاب الله تعالى، فالمبطل يورد عليه الأسئلة والشبهات ويقول: ليس/ مراد الله ما ذكرت، فكذا في هذه الصورة.
ثم قال تعالى: ويقولون هو من عند الله واعلم أن من الناس من قال: إنه لا فرق بين قوله لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب وبين قوله ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله [آل عمران: ٧٨] وكرر هذا الكلام بلفظين مختلفين لأجل التأكيد، أما المحققون فقالوا: المغايرة حاصلة، وذلك لأنه ليس كل ما لم يكن في الكتاب لم يكن من عند الله، فإن الحكم الشرعي قد ثبت تارة بالكتاب، وتارة بالسنة، وتارة بالإجماع، وتارة بالقياس والكل من عند الله.
فقوله لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب هذا نفي خاص، ثم عطف عليه النفي العام فقال:
ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله وأيضا يجوز أن يكون المراد من الكتاب التوراة، ويكون المراد من قولهم: هو من عند الله، أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مثل أشعياء، وأرمياء، وحيقوق،." (١)
"الوجه الثاني في الجواب: أن أهل بدر إنما أمدوا بألف على ما هو مذكور في سورة/ الأنفال، ثم بلغهم أن بعض المشركين يريد إمداد قريش بعدد كثير فخافوا وشق عليهم ذلك لقلة عددهم، فوعدهم الله بأن الكفار إن جاءهم مدد فأنا أمدكم بخمسة آلاف من الملائكة، ثم إنه لم يأت قريشا ذلك المدد، بل انصرفوا حين بلغهم هزيمة قريش، فاستغنى عن إمداد المسلمين بالزيادة على الألف.
وأما الحجة الثانية: وهي قولكم: إن الكفار كانوا يوم بدر ألفا فأنزل الله ألفا من الملائكة ويوم أحد ثلاثة آلاف فأنزل الله ثلاثة آلاف.
فالجواب: إنه تقريب حسن، ولكنه لا يوجب أن لا يكون الأمر كذلك، بل الله تعالى قد يزيد وقد ينقص في العدد بحسب ما يريد.
وأما الحجة الثالثة: وهي التمسك بقوله ويأتوكم من فورهم [آل عمران: ١٢٥] .
فالجواب عنه: أن المشركين لما سمعوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد تعرضوا للعير ثار الغضب في قلوبهم واجتمعوا وقصدوا النبي صلى الله عليه وسلم، ثم إن الصحابة لما سمعوا ذلك خافوا فأخبرهم الله تعالى: أنهم إن يأتوكم من فورهم يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة فهذا حاصل ما قيل في تقرير هذين القولين، والله أعلم بمراده.
المسألة الثانية: اختلفوا في عدد الملائكة، وضبط الأقوال فيها أن من الناس من ضم العدد الناقص إلى العدد الزائد،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٢٦٨/٨

فقالوا: لأن الوعد بإمداد الثلاثة لا شرط فيه، والوعد بإمداد الخمسة مشروط بالصبر والتقوى ومجيء الكفار من فورهم، فلا بد من التغاير وهو ضعيف، لأنه لا يلزم من كون الخمسة مشروطة بشرط أن تكون الثلاثة التي جزؤها مشروطة بذلك الشرط ومنهم من أدخل العدد الناقص في العدد الزائد، أما على تقدير الأول: فإن حملنا الآية على قصة بدر كان عدد الملائكة تسعة آلاف لأنه تعالى ذلك الألف، وذكر ثلاثة آلاف، وذكر خمسة آلاف، والمجموع تسعة آلاف، وإن حملناها على قصة أحد، فليس فيها ذلك الألف، بل فيها ذكر ثلاثة آلاف، وخمسة آلاف، والمجموع: ثمانية آلاف، وأما على التقدير الثاني: وهو إدخال الناقص في الزائد فقالوا: عدد الملائكة خمسة آلاف، ثم ضم إليها ألفان آخران، فلا جرم وعدوا بالألف ثم ضم إليه ألفان فلا جرم وعدوا بثلاثة آلاف، ثم ضم إليها ألفان آخران فلام جر وعدوا بخمسة آلاف،

وقد حكينا عن بعضهم أنه قال أمد أهل بدر بألف فقيل: إن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على المسلمين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهم: ألن يكفيكم

يعني بتقدير أن يجيء المشركين مدد فالله تعالى يمدكم أيضا بثلاثة آلاف وخمسة آلاف، ثم إن المشركين ما جاءهم المدد، فكذا هاهنا الزائد على الألف ما جاء المسلمين فهذه وجوه كلها محتملة والله أعلم بمراده.

المسألة الثالثة: أجمع أهل التفسير والسير أن الله تعالى أنزل الملائكة يوم بدر وأنهم قاتلوا الكفار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تقاتل الملائكة سوى يوم بدر وفيما سواه كانوا عددا ومددا لا يقاتلون ولا يضربون، وهذا قول الأكثرين، وأما أبو بكر الأصم، فإنه أنكر ذلك أشد الإنكار، واحتج عليه بوجوه:

الحجة الأولى: إن الملك الواحد يكفي في إهلاك الأرض، ومن المشهور أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه تحت المدائن الأربع لقوم لوط وبلغ جناحه إلى الأرض السابعة، ثم رفعها إلى السماء وقلب عاليها." (١)

"الجزء التاسع

[تتمة سورة آل عمران]

[سورة آل عمران (٣) : الآيات ١٣٠ الى ١٣٢]

يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون (١٣٠) واتقوا النار التي أعدت للكافرين (١٣١) وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون (١٣٢)

[يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا] اعلم **أن من الناس من** قال: إنه تعالى لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما قبلها، وقال القفال رحمه الله: يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم من جهة أن المشركين إنما أنفقوا على تلك العساكر أموالا

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٨/٣٥١

جمعوها بسبب الربا، فلعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر فيتمكنون من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك وفي قوله: أضعافا مضاعفة مسألتان:

المسألة الأولى: كان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم إلى أجل، فإذا جاء الأجل ولم يكن المديون واجدا لذلك المال قال زد في المال حتى أزيد في الأجل فربما جعله مائتين، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك، ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله: أضعافا مضاعفة.

المسألة الثانية: انتصب أضعافا على الحال.

ثم قال تعالى: واتقوا الله لعلكم تفلحون.

اعلم أن اتقاء الله في هذا النهي واجب، وأن الفلاح يتوقف عليه، فلو أكل ولم يتق زال الفلاح/ وهذا تنصيص على أن الربا من الكبائر لا من الصغائر وتفسير قوله: لعلكم تقدم في سورة البقرة في قوله:

اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون [البقرة: ٢١] وتمام الكلام في الربا أيضا مر في سورة البقرة.

ثم قال: واتقوا النار التي أعدت للكافرين وفيه سؤالات: الأول: أن النار التي أعدت للكافرين تكون بقدر كفرهم وذلك أزيد مما يستحقه المسلم بفسقه، فكيف قال: واتقوا النار التي أعدت للكافرين.

والجواب: تقدير الآية: اتقوا أن تجحدوا تحريم الربا فتصيروا كافرين.

السؤال الثاني: ظاهر قوله: أعدت للكافرين يقتضي أنها ما أعدت إلا للكافرين، وهذا يقتضي القطع بأن أحدا من المؤمنين لا يدخل النار وهو على خلاف سائر الآيات.

والجواب من وجوه: الأول: أنه لا يبعد أن يكون في النار دركات أعد بعضها للكفار وبعضها للفساق فقوله: النار التي أعدت للكافرين إشارة إلى تلك الدركات المخصوصة التي أعدها الله للكافرين، وهذا لا." (١)

"النفر الثاني، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق فلا إثم عليه في تأخره. واعلم أنه إنما يجوز التعجيل لمن نفر بعد الزوال من اليوم الثاني من أيام التشريق وقبل غروب الشمس، من ليلة ذلك اليوم وإن غربت عليه الشمس، وهو بمنى لزمه المبيت بها لرمي اليوم الثالث، هذا مذهب الشافعي وأكثر الفقهاء وقال أبو حنيفة: يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمي، بعد ورخص لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج ترك المبيت بمنى ليالي منى. فإن قلت: قوله ومن تأخر فلا إثم عليه فيه إشكال وهو أن الذي أتى بأفعال الحج كاملة تامة فقد أتى بما يلزمه، فما معنى قوله فلا إثم عليه إنما يخاف من الإثم من قصر فيما يلزمه. قلت فيه أجوبة أحدها أنه تعالى لما أذن في التعجيل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة، فإنه يأثم فأزال الله تعالى هذه الشبهة وبين إنه لا إثم عليه في الأمرين فإن شاء عجل وإن شاء أخر. الجواب الثاني أن من الناس من كان يتعجل ومنهم من كان يتأخر، وكل فريق يصوب فعله على فعل الفريق الآخر فبين الله تعالى أن كل واحد من الفريقين مصيب في فعله وأنه لا إثم عليه. الجواب الثالث إنما قال: ومن تأخر فلا إثم عليه لمشاكلة اللفظة الأولى فهو كقوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها ومعلوم أن

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٦٣/٩

جزاء السيئة ليس بسيئة. الجواب الرابع أن فيه دلالة على جواز الأمرين فكأنه تعالى قال: فتعجلوا أو تأخروا فلا إثم في التعجيل ولا في التأخير لمن اتقى أي ذلك التخيير ونفي الإثم للحاج المتقي وقيل لمن اتقى أن يصيب في حجه شيئا مما نهاه الله عنه من قتل صيد وغيره، مما هو محظور في الحج، وقيل: معناه أنه ذهب إثمه إن اتقى فيمن بقي من عمره، وذلك أن الحاج يرجع مغفورا له بشرط أن لا يرتكب ما نهي عنه فيما بقي من عمره وهو قوله: واتقوا الله أي في المستقبل والتقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحظورات واعلموا أنكم إليه تحشرون أي فيجازيكم بأعمالكم وفيه حث على التقوى. قوله عز وجل:

[سورة البقرة (٢): آية ٢٠٤]

ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام (٢٠٤)

ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة، واسمه أبي وإنما سمي الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بني زهرة، عن قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنه أشار على بني زهرة الرجوع يوم بدر، وقال لهم: إن محمدا ابن أختكم فإن يك كاذبا كفاكموه الناس وإن يك صادقا كنتم أسعد الناس به قالوا: نعم ما رأيت قال إني سأخنس بكم فاتبعوني فخنس فسمي الأخنس بذلك وكان الأخنس حلو الكلام حلو المنظر، وكان يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجالسه ويظهر الإسلام ويقول: إني لأحبك ويحلف بالله على ذلك وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدني مجلسه وكان الأخنس منافقا فنزل فيه، ومن الناس من يعجبك قوله، أي يروقك وتستحسنه ويعظم في قلبك في الحياة الدنيا، يعني أن حلاوة كلامه فيما يتعلق بأمر الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه يعني قوله: والله إني بك مؤمن ولك محب وهو ألد الخصام أي شديد الجدال في الباطل، وقيل: هو كاذب القول، وقيل: هو شديد القسوة في المعصية جدل بالباطل يتكلم بالحكمة ويعمل بالخطيئة (ق) عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم» يعني الشديد في الخصومة.

[سورة البقرة (٢): الآيات ٢٠٥ الى ٢٠٧]

وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد (٢٠٥) وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد (٢٠٦) ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد (٢٠٧) وإذا تولى أي أدبر وأعرض عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق سعى في الأرض أي سار ومشى." (١)

"الدليل. وقد ثبت في الحديث أن عيسى سينزل ويقتل الدجال وسنذكره إن شاء الله تعالى. الوجه الخامس: قال أبو بكر الواسطي: معناه أني متوفيك عن شهواتك وعن حظوظ نفسك ورافعك إلي ذلك أن عيسى عليه السلام لما رفع إلى السماء صارت حالته حالة الملائكة في زوال الشهوة. الوجه السادس: أن معنى التوفي أخذ الشيء وافيا ولما علم

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١٣٦/١

الله تعالى أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله إليه هو روحه دون جسده كما زعمت النصارى أن المسيح رفع لاهوته يعني روحه وبقي في الأرض ناسوته يعني جسده فرد الله عليهم بقوله إني متوفيك ورافعك إلي فأخبر الله تعالى أنه رفع بتمامه إلى السماء بروحه وجسده جميعا. الطريق الثاني: أن في الآية تقديما وتأخيرا تقديره أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك إلى الأرض وقيل: لبعضهم هل تجد نزول عيسى إلى الأرض في القرآن؟ قال: نعم قوله تعالى وكهلا وذلك لأنه لم يكتهل في الدنيا وإنما معناه وكهلا بعد نزوله من السماء. (ق) عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد زاد وفي رواية حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته وفي رواية كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم. وفي رواية فأمكم منكم قال ابن أبي ذؤيب: تدري ما أمكم منكم؟ قلت فأخبرني قال فأمكم كتاب ربكم عز وجل وبسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم وفي إفراد مسلم من حديث النواس بن سمعان قال: فبينما هما إذ بعث الله المسيح ابن مريم عليه السلام فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس بيني وبينه يعني عيسى نبي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض ينزل بين ممصرتين كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل فيقاتل الناس على الإسلام، فيدق الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويهلك الله الملل في زمانه كلها إلا الإسلام ويهلك المسيح الدجال ثم يمكث في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون أخرجه أبو داود ونقل بعضهم أن عيسى عليه السلام يدفن في حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقوم أبو بكر وعمر يوم القيامة بين نبيين محمد وعيسى عليهما السلام. قوله عز وجل: ومطهرك من الذين كفروا يعني مخرجك من بينهم ومنجيك منهم وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة يعني وجاعل الذين اتبعوك في التوحيد وصدقوا قولك وهم أهل الإسلام من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فوق الذين كفروا بالعز والنصر والغلبة بالحجة الظاهرة.

وقيل: هم الحواريين الذين اتبعوا عيسى على دينه وقيل: هم النصارى فهم فوق اليهود وذلك لأن ملك اليهود قد ذهب ولم يبق لهم مملكة وملك النصارى باق فعلى هذا القول يكون الاتباع بمعنى المحبة والادعاء لا اتباع الدين لأن النصارى وإن أظهروا متابعة عيسى عليه السلام فهم أشد مخالفة له وذلك أن عيسى عليه السلام لم يرض بما هم عليه من الشرك، والقول الأول هو الأصح لأن الذين اتبعوه هم الذين شهدوا له بأنه عبد الله ورسوله وكلمته وهم المسلمون وملكهم باق إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم يعني يقول الله عز وجل: إلي مرجع الفريقين في الآخرة الذين اتبعوا عيسى وصدقوا به والذين كفروا به فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون يعني من الحق في أمر عيسى ثم بين ذلك الحكم فقال تعالى:

[سورة آل عمران (٣): الآيات ٥٦ الى ٥٩]

فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين (٥٦) وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين (٥٧) ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٥٨) إن مثل عيسى عند

الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩)
فأما الذين كفروا الذين جحدوا نبوة عيسى وخالفوا ملته وقالوا فيه ما قالوا من الباطل ووصفوه بما لا ينبغي من سائر اليهود والنصارى فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا يعني بالقتل والسبي والذلة وأخذ الجزية منهم." (١)

"[سورة المائدة (٥): الآيات ٦٥ الى ٦٧]

ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم (٦٥) ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون (٦٦) يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين (٦٧)

قوله تعالى: ولو أن أهل الكتاب آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وصدقوه فيما جاء به واتقوا يعني اليهودية والنصرانية لكفرنا عنهم سيئاتهم يعني: لمحونا عنهم ذنوبهم التي عملوها قبل الإسلام لأن الإسلام يجب ما قبله ولأدخلناهم جنات النعيم يعني مع المسلمين يوم القيامة ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل يعني أقاموا أحكامهما بحدودهما وعملوا بما فيهما من الوفاء بالعهود والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن نعته وصفته موجودان فيهما.

فإن قلت: كيف يأمر أهل الكتاب بإقامة التوراة والإنجيل مع أنهما نسخا وبدلا. قلت: إنما أمرهم الله تعالى بإقامة ما فيهما من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباع شريعته وهذا غير منسوخ لأنه موافق لما في القرآن.

وقوله تعالى: وما أنزل إليهم من ربهم فيه قولان أحدهما أن المراد به كتب أنبيائهم القديمة مثل كتاب شعياء وكتاب أرمياء وزبور داود وفي هذا الكتب أيضا ذكر محمد صلى الله عليه وسلم فيكون المراد بإقامة هذه الكتب الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم.

والقول الثاني: أن المراد بما أنزل من ربهم هو القرآن لأنهم مأمورون بالإيمان به فكأنه نزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم يعني أن اليهود لما أصروا على تكذيب محمد وثبتوا على كفرهم ويهوديتهم أصابهم الله بالقحط والشدة حتى بلغوا إلى حيث قالوا يد الله مغلولة فأخبر الله أنهم لو تركوا اليهودية والكفر الذي هم عليه لانقلبت تلك الشدة بالخصب والسعة وهو قوله تعالى: لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم قال ابن عباس: معناه لأنزلت عليهم المطر وأخرجت لهم النبات والمراد من ذلك توسعة الرزق عليهم منهم أمة مقتصدة أي عادلة. والاقتصاد: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير. أصله من القصد، لأن من عرف مقصودا طلبه من غير اعوجاج عنه. والمراد بالأمة المقتصدة: من آمن من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام وأصحابه والنجاشي وأصحابه الذين أسلموا وكثير منهم يعني من أهل الكتاب الذين أقاموا على كفرهم مثل كعب بن الأشرف ورؤساء اليهود ساء ما يعملون يعني بئس ما يعملون من إقامتهم على كفرهم قال ابن عباس: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم.

قوله عز وجل: يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الآية روي عن الحسن أن الله تعالى لما بعث رسول الله صلى

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ١/٢٥٢

الله عليه وسلم ضاق ذرعا وعرف **أن من الناس من** يكذبه، فأنزل هذه الآية. وقيل: نزلت في عيب اليهود وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزئون به ويقولون: تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حنانا، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهم، سكت، فأنزل الله هذه الآية وأمره بأن يقول لهم:

يا أهل الكتاب لستم على شيء الآية.

وقيل: نزلت هذه الآية في أمر الجهاد وذلك أن المنافقين كرهوه فكان النبي صلى الله عليه وسلم يمسك في بعض الأحايين عن الحث على الجهاد لما علم من كراهية بعضهم له فأنزل الله هذه الآية.

وقيل: نزلت في قصة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود ومعنى الآية يا أيها الرسول بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك مجاهرا به ولا تراقبن أحدا ولا نترك شيئا مما أنزل إليك من ربك وإن أخفيت شيئا من ذلك في وقت من الأوقات فلما بلغت رسالته وهو قوله تعالى وإن لم تفعل فما بلغت رسالته وقرئ رسالاته قال." (١)

"أقصد ذلك **لأن من الناس من** يسرف في إطعام أهله ومنهم من يقتر عليهم فأمر الله بالعدل في أداء الكفارة.

وقيل: أراد بالأوسط في القيمة فلا يكون غالبا من أعلى الموجود ولا خسيس الثمن من أردأ الموجود بل الوسط في القيمة وقيل أراد بالأوسط الأفضل قال ابن عباس: كل شيء في كتاب الله أوسط فهو أفضل فعلى هذا يكون المعنى من خير ما تطعمون أهليكم وأفضله أو كسوتهم هو معطوف على محل أوسط أي كما تطعمون المساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم فكذلك فاكسوهم من أوسط الكسوة أو تحرير رقبة يعني عتق رقبة والمراد جملة الشخص.

((فصل في حكم الآية وفيه مسائل)) المسألة الأولى: في بيان الكفارة وهي أربعة أنواع:

النوع الأول: من الكفارة الإطعام فيجب إطعام عشرة مساكين واختلفوا في قدر ما يطعم لكل مسكين فذهب قوم إلى أنه يطعم لكل مسكين مد من الطعام بمد النبي صلى الله عليه وسلم وهو رطل وثلث بالبغدادي من غالب قوت البلد وكذلك سائر الكفارات وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه قال سعيد بن المسيب والقاسم بن محمد وسليمان بن يسار وعطاء والحسن وإليه ذهب مالك والشافعي ويروى عن عمر وعلي وعائشة أنه يطعم لكل مسكين مدان من بر وهو نصف صاع وبه قال أهل العراق. وقال أبو حنيفة: إن أطعم من الحنطة فنصف صاع وإن أطعم من غيرها فصاع وهو قول الشعبي والنخعي وسعيد بن جبير ومجاهد. وقال أحمد بن حنبل:

يطعم لكل مسكين مد من البر أو نصف صاع من غيرها مثل التمر والشعير: ومن شرط الإطعام تمليك الطعام للمساكين فلو عشاهم وغداهم لم يجزه وقال أبو حنيفة: يجزيه ذلك ولا يجوز إخراج القيمة في الكفارة كالدراهم والدنانير. وقال أبو حنيفة: يجوز ذلك ولا إخراج الدقيق والخبز في الكفارة بل يجب إخراج الحب، وجوزه أبو حنيفة ولا يجوز صرف الكل إلى مسكين واحد في عشرة أيام.

النوع الثاني: من الكفارات الكسوة واختلف العلماء في قدرها فذهب قوم إلى أنه يكسو كل مسكين ثوبا واحدا مما يقع

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٢/٦٢

عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء ونحو ذلك وهذا قول ابن عباس والحسن ومجاهد وعطاء وطاوس وإليه ذهب الشافعي. وقال مالك: يجب أن يكسو كل مسكين ما تجوز به الصلاة فيكسو الرجل ثوبا والمرأة ثوبين درعا وخمارا. وقال أحمد: للرجال ثوبا وللمرأة ثوبين درعا وخمارا وهو أدنى ما يجزى في الصلاة وقال ابن عمر: يجب قميص وإزار ورداء. وقال أبو موسى الأشعري: يجب ثوبان وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين وقال إبراهيم النخعي: يجب ثوب جامع كالملحفة.

النوع الثالث: من الكفارات العتق فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وكذلك يجب في جميع الكفارات وأجاز أبو حنيفة والثوري إعتاق الرقبة الكافرة في جميع الكفارات إلا كفارة القتل فإن الله قيد الرقبة بالإيمان في كفارة القتل ومذهب الشافعي أن المطلق يحمل على المقيد ولا يجوز إعتاق المرتد في الكفارات بالإجماع ويشترط أن تكون الرقبة سليمة الرق حتى لو أعتق في الكفارة مكاتبا أو أم ولد أو عبدا اشتراه بشرط العتق أو اشترى قريبه الذي يعتق عليه فكل هؤلاء لا يجزى في إعتاق الكفارة وجوز أصحاب الرأي عتق المكاتب في الكفارة إذا لم يؤد من نجوم الكتابة شيئا وجوزوا عتق القريب في الكفارة ويشترط أن تكون الرقبة سليمة من كل عيب يضر بالعمل فلا يجزى مقطوع اليد أو الرجل ولا الأعمى ولا الزمن ولا المجنون المطبق ويجوز عتق الأعور والأصم ومقطوع الأذنين والأنف لأن هذه العيوب كلها لا تضر بالعمل وعند أبي حنيفة كل عيب يفوت جنسا من المنفعة يمنع الجواز فيجوز عتق مقطوع إحدى اليدين ولا يجوز عتق مقطوع الأذنين في الكفارة.

النوع الرابع: من الكفارات الصوم وهو قوله تعالى: فمن لم يجد يعني الكفارة فصيام ثلاثة أيام." (١)

"ورجعت معه فإذا هم قد خرجوا فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بيني وبينه بالستر وأنزل الحجاب زاد في رواية قال دخل يعني النبي صلى الله عليه وسلم البيت وأرخى الستر، وإني لفي الحجرة وهو يقول يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى قوله والله لا يستحيي من الحق (ق) عن عائشة «أن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كن يخرجن بالليل، إذا تبرزن إلى المناصع وهو صعيد أفيح، وكان عمر رضي الله عنه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم، احجب نساءك فلم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ليلة من الليالي عشاء وكانت امرأة طويلة فناداها عمر ألا قد عرفناك يا سودة حرصا على أن ينزل الحجاب فأنزل الله الحجاب» المناصع المواضع الخالية، لقضاء الحاجة من البول أو الغائط والصعيد وجه الأرض والأفيح الواسع (ق)، عن أنس وابن عمر أن عمر قال «وافقت ربي في ثلاث قلت يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزل واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وقلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت الآية الحجاب واجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة فقلت عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن فنزلت كذلك. وقال ابن عباس: إنها نزلت في ناس من المسلمين كانوا يتحينون طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيدخلون عليه قبل الطعام قبل أن يدرك ثم يأكلون، ولا يخرجون وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأذى بهم، فنزلت الآية يا أيها

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٧٣/٢

الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم يعني إلا أن تدعوا إلى طعام فيؤذن لكم فتأكلون غير ناظرين إناه يعنى منتظرين نضجه ووقت إدراكه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم أي أكلتم الطعام فانتشروا أي فاخرجوا من منزله وتفرقوا ولا مستأنسين لحديث أي لا تطيلوا الجلوس ليستأنس بعضكم بحديث بعض، وكانوا يجلسون بعد الطعام يتحدثون فنهوا عن ذلك إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم أي فيستحيي من إخراجكم والله لا يستحيي من الحق أي لا يترك تأديبكم وبيان الحق حياء ولما كان الحياء مما يمنع الحيي من بعض الأفعال، قال لا يستحيي من الحق بمعنى لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحيي منكم وهذا أدب أدب الله به الثقلاء، وقيل:

بحسبك من الثقلاء أن الله لم يحتملهم وإذا سألتموهن متاعا أي وإذا سألتم نساء النبي صلى الله عليه وسلم حاجة فسئلوهن من وراء حجاب أي من وراء ستر فبعد آية الحجاب لم يكن لأحد أن ينظر إلى امرأة من نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم متنقبة كانت أو غير متنقبة ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن أي من الريب وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله أي ليس لكم أذاه في شيء من الأشياء ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا نزلت في رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال إذا: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأنكحن عائشة. قيل هو طلحة بن عبيد الله فأخبر الله أن ذلك محرم، وقال إن ذلكم كان عند الله عظيما أي ذنبا عظيما وهذا من إعلام تعظيم الله لرسوله الله صلى الله عليه وسلم، وإيجاب حرمته حيا وميتا وإعلامه بذلك مما طيب نفسه وسر قلبه واستفرغ شكره **فإن من الناس من** تفرط غيرته على حرمه حتى يتمنى لها الموت قبله لئلا تنكح بعده.

[سورة الأحزاب (٣٣): الآيات ٥٤ الى ٥٦]

إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليما (٥٤) لا جناح عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيدا (٥٥) إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما (٥٦)

إن تبدوا شيئا أي من أمر نكاحهن على ألسنتكم أو تخفوه أي في صدوركم فإن الله كان بكل شيء عليما أي يعلم سركم وعلانيتكم، نزلت فيمن أضمر نكاح عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: قال رجل من الصحابة ما بالنا نمنع من الدخول على بنات أعمامنا، فنزلت هذه الآية، ولما نزلت آية الحجاب قال الآباء." (١)

"وبالعكس، لتكون الموعظة جامعة بين الوعيد والوعد واللطف والعنف، **لأن من الناس من** لا يجذبه التخويف ويجذبه اللطف، ومنهم من هو بالعكس. والمأمور بالتبشير قيل:

النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: كل من يصلح للبشارة من غير تعيين. قال الزمخشري: وهذا أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه وفخامة شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به، انتهى كلامه. والوجه الأول عندي أولى، لأن أمره صلى الله عليه وسلم لخصوصيته بالبشارة أفخم وأجزل، وكأنه ما اتكل على أن يبشر المؤمنين كل سامع، بل

---

(١) تفسير الخازن لباب التأويل في معاني التنزيل الخازن ٤٣٤/٣

نص على أعظمهم وأصدقهم ليكون ذلك أوثق عندهم وأقطع في الإخبار بهذه البشارة العظيمة، إذ تبشيره صلى الله عليه وسلم تبشير من الله تعالى. والجملة من قوله: وبشر معطوفة على ما قبلها، وليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه، إنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين، كما تقول: زيد يعاقب بالقيد والإزهاق، وبشر عمرا بالعفو والإطلاق، قال هذا الزمخشري وتبعه أبو البقاء فقال: الواو في وبشر عطف بها جملة ثواب المؤمنين على جملة عقاب الكافرين، انتهى كلامه.

وتلخص من هذا أن عطف الجمل بعضها على بعض ليس من شرطه أن نتفق معاني الجمل، فعلى هذا يجوز عطف الجملة الخبرية على الجملة غير الخبرية، وهذه المسألة فيها اختلاف. ذهب جماعة من النحويين إلى اشتراط اتفاق المعاني، والصحيح أن ذلك ليس بشرط، وهو مذهب سيبويه. فعلى مذهب سيبويه يتمشى إعراب الزمخشري وأبي البقاء.

وأجاز الزمخشري وأبو البقاء أن يكون قوله: وبشر معطوفا على قوله: فاتقوا النار، ليكون عطف أمر على أمر. قال الزمخشري: كما تقول يا بني تميم احذروا عقوبة ما جنيتم، وبشر يا فلان بني أسد بإحسان إليهم، وهذا الذي ذهبا إليه خطأ لأن قوله: فاتقوا جواب للشرط وموضعه جزم، والمعطوف على الجواب جواب، ولا يمكن في قوله: وبشر أن يكون جوابا لأنه أمر بالبشارة ومطلقا، لا على تقدير إن لم تفعلوا، بل أمر أن يبشر الذين آمنوا أمرا ليس مترتبا على شيء قبله، وليس قوله: وبشر على إعرابه مثل ما مثل به من قوله: يا بني تميم إلخ، لأن قوله: احذروا لا موضع له من الإعراب، بخلاف قوله: فاتقوا.

فلذلك أمكن فيما مثل به العطف ولم يمكن في وبشر. وقرأ زيد بن علي: وبشر فعلا ماضيا مبنيا للمفعول. قال الزمخشري: عطفا على أعدت انتهى. وهذا الإعراب لا يتأتى على قول من جعل أعدت جملة في موضع الحال، لأن المعطوف على الحال حال، ولا يتأتى." (١)

"بالإلزام، ولم يجعل خبرا، وجعل خبر الجملة التي هي ساء ما يعملون، لأن الخبر ليس من شأنه اللزوم، فهم بصدد أن يسلم ناس منهم فيزول عنهم الإخبار بمضمون هذه الجملة، واختار الزمخشري في ساء أن تكون التي لا تنصرف، فإن فيه التعجب كأنه قيل:

ما أسوأ عملهم! ولم يذكر غير هذا الوجه. واختار ابن عطية أن تكون المتصرفة تقول: ساء الأمر يسوء، وأجاز أن تكون غير المتصرفة فتستعمل استعمال نعم وبئس كقوله: ساء مثلا.

فالمتصرفة تحتاج إلى تقدير مفعول أي ساء ما كانوا يعملون بالمؤمنين، وغير المتصرفة تحتاج إلى تمييز أي: ساء عملا ما كانوا يعملون.

يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك هذا نداء بالصفة الشريفة التي هي أشرف أوصاف الجنس الإنساني، وأمر بتبليغ ما أنزل إليه وهو صلى الله عليه وسلم قد بلغ ما أنزل إليه، فهو أمر بالديمومة. قال الزمخشري: جميع ما أنزل إليك، وأي شيء أنزل غير مراقب في تبليغه أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه. وقال ابن عطية: أمر من الله لرسوله بالتبليغ على

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ١٧٩/١

الاستيفاء والكمال، لأنه قد قال: بلغ، فإنما أمر في هذه الآية أن لا يتوقف على شيء مخافة أحد، وذلك أن رسالته عليه السلام تضمنت الطعن على أنواع الكفرة وفساد أحوالهم، فكان يلقى منهم عنتا، وربما خافهم أحيانا قبل نزول هذه الآية.

وعن ابن عباس عنه عليه السلام: «لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية» .

وقيل: هو أمر بتبليغ خاص أي: ما أنزل إليك من الرجم والقصاص الذي غيره اليهود في التوراة والنصارى في الإنجيل. وقيل: أمر بتبليغ أمر زينب بنت جحش ونكاحها. وقيل: بتبليغ الجهاد والحث عليه، وأن لا يتركه لأجل أحد. وقيل: أمر بتبليغ معائب آلهتهم، إذ كان قد سكت عند نزول قوله: ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله «١» الآية عن عيبها وكل واحد من هذا التبليغ الخاص. قيل: إنها نزلت بسببه، والذي يظهر أنه تعالى أمنه من مكر اليهود والنصارى، وأمره بتبليغ ما أنزل إليه في أمرهم وغيره من غير مبالاة بأحد، لأن الكلام قبل هذه الآية وبعدها هو معهم، فيبعد أن تكون هذه الآية أجنبية عما قبلها وعما بعدها.

وإن لم تفعل فما بلغت رسالته أي وإن لم تفعل بتبليغ ما أنزل إليك، وظاهر هذا الجواب لا ينافي الشرط، إذ صار المعنى: وإن لم تفعل لم تفعل، والجواب لا بد أن يغاير

---

(١) سورة الأنعام: ٦/ ١٠٨.." (١)

"وعلى قراءة ابن عامر وهي قراءة أبي جعفر فيما ذكر مكي يكون قوله: أو دما معطوفا على موضع أن يكون وعلى قراءة غيره، يكون معطوفا على قوله: ميتة ومعنى مسفوحا مصبوبا سائلا كالدم في العروق لا كالطحال والكبد، وقد رخص في دم العروق بعد الذبح. وقيل لأبي مجلز: القدر تعلوها الحمرة من الدم. فقال: إنما حرم الله تعالى المسفوح وقالت نحوه عائشة وعليه إجماع العلماء. وقيل: الدم حرام لأنه إذا زايل فقد سفح. والظاهر أن الضمير في فإنه عائد على لحم خنزير وزعم أبو محمد بن حزم أنه عائد على خنزير فإنه أقرب مذكور، وإذا احتمل الضمير العود على شيئين كان عوده على الأقرب أرجح وعورض بأن المحدث عنه إنما هو اللحم، وجاء ذكر الخنزير على سبيل الإضافة إليه لا أنه هو المحدث عنه المعطوف، ويمكن أن يقال: ذكر اللحم تنبيها على أنه أعظم ما ينتفع به من الخنزير وإن كان سائره مشاركا له في التحريم بالتنصيص على العلة من كونه رجسا أو لإطلاق الأكثر على كله أو الأصل على التابع لأن الشحم وغيره تابع للحم.

واختلفوا في هذه الآية أهي محكمة؟ وهو قول الشعبي وابن جبير فعلى هذا لا شيء محرم من الحيوان إلا فيها وليس هذا مذهب الجمهور. وقيل: هي منسوخة بآية المائدة، وينبغي أن يفهم هذا النسخ بأنه نسخ للحصر فقط. وقيل: جميع ما حرم داخل في الاستثناء سواء كان بنص قرآن أو حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالاشتراك في العلة التي هي

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤/ ٣٢١

الرجسية والذي نقوله: إن الآية مكية وجاءت عقيب قوله: ثمانية أزواج وكان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرمون من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي من هذه الثمانية، فالآية محكمة وأخبر فيها أنه لم يجد فيما أوحي إليه إذ ذاك من القرآن سوى ما ذكر ولذلك أتت صلة ما جملة مصدرة بالفعل الماضي فجميع ما حرم بالمدينة لم يكن إذ ذاك سبق منه وحي فيه بمكة فلا تعارض بين ما حرم بالمدينة وبين ما أخبر أنه أوحي إليه بمكة تحريمه، وذكر الخنزير وإن لم يكن من ثمانية الأزواج **لأن من الناس من** كان يأكله إذ ذاك ولأنه أشبه شيء بثمانية الأزواج في كونه ليس سبعا مفترسا يأكل اللحوم ويتغذى بها، وإنما هو من نمط الثمانية في كونه يعيش بالنبات ويرعى كما ترعى الثمانية.

وذكر المفسرون هنا أشياء مما اختلف أهل العلم فيه ونلخص من ذلك شيئا، فنقول:

أما الحمر الأهلية فذهب الشعبي وابن جبير إلى أنه لا يجوز أكلها، وأن تحريم الرسول لها إنما كان لعلة، وأما لحوم الخيل فاختلف فيها السلف وأباحها الشافعي وابن حنبل وأبو." (١)

"وينشؤوا ويبلغوا حد التكليف فأكلفهم. ويعضد هذه القراءة قوله ثم لتبلغوا أشدكم انتهى.

وقرأ يحيى بن وثاب ما نشاء بكسر النون والأجل المسمى مختلف فيه بحسب جنين جنين فساقط وكامل أمره خارج حيا ووحد طفلا لأنه مصدر في الأصل قاله المبرد والطبري، أو لأن الغرض الدلالة على الجنس، أو لأن معنى يخرجكم كل واحد كقولك:

الرجال يشبعهم رغيف أي يشبع كل واحد. وقال الزمخشري: الأشد كمال القوة والعقل والتمييز، وهو من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد كالأشدة والقيود وغير ذلك وكأنها مشدة في غير شيء واحد فبنيت لذلك على لفظ الجمع انتهى.

وتقدم الكلام في الأشد ومقداره من الزمان. **وإن من الناس من** قال إنه جمع شدة كأنعم جمع نعمة وأما القيود: فعن أبي عمرو الشيباني أن واحده قيد ومنكم من يتوفى وقرىء يتوفى بفتح الياء أي يستوفي أجله، والجمهور بالضم أي بعد الأشد وقبل الهرم، وهو أرذل العمر والخرف، فيصير إلى حالة الطفولية ضعيف البنية سخيف العقل، ولا زمان لذلك محدود بل ذلك بحسب ما يقع في الناس وقد نرى من علت سنه وقارب المائة أو بلغها في غاية جودة الذهن والإدراك مع قوة ونشاط، ونرى من هو في سن الاكتهال وقد ضعفت بنيته أوضح تعالى أنه قادر على إنهائه إلى حالة الخرف كما أنه كان قادرا على تدريجه إلى حالة التمام، فكذلك هو قادر على إعادة الأجساد التي درجها في هذه المناقل وإنشائها النشأة الثانية.

ولكيلا يتعلق بقوله يرد قال الكلبي لكيلا يعقل من بعد عقله الأول شيئا.

وقيل لكيلا يستفيد علما وينسى ما علمه. وقال الزمخشري: أي ليصير نساء بحيث إذا كسب علما في شيء لم ينشب أن ينساه ويزل عنه علمه حتى يسأل عنه من ساعته، يقول لك من هذا؟ فتقول: فلان فما يلبث لحظة إلا سألك عنه. وروي عن أبي عمرو ونافع تسكين ميم العمر.

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٦٧٤/٤

وترى الأرض هامدة هذا هو الدليل الثاني الذي تضمنته، والدليل الأول الآية، ولما كان الدليل الأول بعض مراتب الخلقة فيه غير مرتبين قال إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم فلم يحل في جميع رتبه على الرؤية، ولما كان هذا الدليل الثاني مشاهدا للأبصار أحال ذلك على الرؤية فقال وترى أيها السامع أو المجادل الأرض هامدة." (١)

"إلا ذكر وقرآن مبين. لينذر من كان حيا

أي حي القلب.

وقوله: «أو ألقى السمع» أي وجه سمعه، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له. وهذا هو شرط التأثير بالكلام.

وقوله: «وهو شهيد» أي شاهد القلب حاضر، غير غائب. قال ابن قتيبة: استمع لكتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساه.

وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثر. وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له، والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر، وهو القرآن، والمحل القابل، وهو القلب الحي، ووجد الشرط، وهو الإصغاء، وانتفي المانع، وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر: حصل الأثر، وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر.

فإن قيل: إذا كان التأثير إنما يتم بمجموع هذه. فما وجه دخول أداة «أو» في قوله «أو ألقى السمع» والموضع موضع واو الجمع، لا موضع «أو» التي هي لأحد الشيئين؟

قيل: هذا سؤال جيد. والجواب عنه أن يقال:

خرج الكلام بأو باعتبار حال المخاطب المدعو. فإن من الناس من يكون حي القلب واعيه، تام الفطرة. فإذا فكر بقلبه وجال بفكره دله قلبه على صحة القرآن، وأنه الحق، وشهد قلبه بما أخبر به القرآن. فكان ورود القرآن على قلبه نورا على نور الفطرة. وهذا وصف الذين قيل فيهم:

٣٤: ٦ ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق وقال في حقهم: ٢٤: ٣٥ الله نور السماوات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة، لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء.." (٢)

"بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء، يكاد يسقطك. قال الزجاج: يعني من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك.

وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إلي نظرا كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى: أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية، فيحدون إليه النظر بالبغضاء.

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور: قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى

---

(١) البحر المحيط في التفسير أبو حيان الأندلسي ٤٨٦/٧

(٢) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٤٨٤

تأثير النفس عند المقابلة. فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه. فإذا عاينه قبلا اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه. فيتأثر بنظره، حتى **إن من الناس من** يسقط، ومنهم من يحم، ومنهم من يحمل إلى بيته. وقد شاهد الناس من ذلك كثيرا.

وقد يكون سببه الإعجاب. وهو الذي يسمونه: بإصابة العين. وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في المعين. وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين. فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق: عن معمر عن هشام بن قتيبة قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «العين حق. ونهى عن الوشم» .

وروى سفيان عن عمرو بن دينار عن عروة عن عامر عن عبيد بن رفاعة «أن أسماء بنت عميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفنسترقي لهم؟ قال: نعم. فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين» .

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة. فهو نظر يكاد يزلقه.." (١)

"هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله تعالى: وبشروه بغلام عليم وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي أي العمل، ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا قال وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام قال وقد تقدم **أن من الناس من** ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك هذا ما اعتمد عليه في تفسيره وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم بل هو بعيد جدا والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى والله أعلم.

وقوله تعالى: وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين لما تقدمت البشارة بالذبيح وهو إسماعيل عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق وقد ذكرت في سورتي هود والحجر «١» ، وقوله تعالى: نبيا حال مقدرة أي سيصير منه نبي صالح.

وقال ابن جرير «٢» حدثني يعقوب حدثنا ابن علية عن داود عن عكرمة قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما الذبيح إسحاق قال وقوله تعالى: وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين قال بشر بنبوته قال وقوله تعالى: ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا [مريم: ٥٣] قال كان هارون أكبر من موسى ولكن أراد وهب له نبوته. وحدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت داود يحدث عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين قال إنما بشر به نبيا حين فداه الله عز وجل من الذبح ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان الثوري عن داود عن عكرمة عن ابن عباس وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين قال بشر به حين ولد وحين نبيء وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى: وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين؟؟ ما كان من أمره لما جاد لله تعالى بنفسه وقال الله عز وجل وباركنا عليه وعلى إسحاق وقوله تعالى: وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين كقوله تعالى: قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن

---

(١) التفسير القيم = تفسير القرآن الكريم لابن القيم ابن القيم ص/٦٤٠

معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم [هود: ٤٨] .

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ الى ١٢٢]

ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦) وآتيناهما الكتاب المستبين (١١٧) وهديناهما الصراط المستقيم (١١٨)

وتركنا عليهما في الآخرين (١١٩) سلام على موسى وهارون (١٢٠) إنا كذلك نجزي المحسنين (١٢١) إنهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢)

---

(١) انظر تفسير سورة هود الآية ٧١، وتفسير سورة الحجر الآية ٥٣.

(٢) تفسير الطبري ١٠/ ٥١٦. [.....]." (١)

"أبي سفيان، فذكروا الذبيح: إسماعيل أو إسحاق؟ فقال على الخبير (١) سقطتم، كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين. فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما الذبيحان؟ فقال: إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله أمرها عليه، ليذبحن أحد ولده، قال: فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا: افد ابنك بمائة من الإبل. ففداه بمائة من الإبل، وإسماعيل الثاني (٢) .

وهذا حديث غريب جدا. وقد رواه الأموي في مغازيه: حدثنا بعض أصحابنا، أخبرنا إسماعيل بن عبيد بن أبي كريمة، حدثنا عمر بن عبد الرحمن القرشي، حدثنا عبيد الله (٣) بن محمد العتبي -من ولد عتبة بن أبي سفيان- حدثنا عبد الله بن سعيد، حدثنا الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية، فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق، وذكره. كذا كتبته من نسخة مغلوطة (٤) .

وإنما عول ابن جرير في اختياره أن الذبيح إسحاق على قوله تعالى:: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ ، فجعل هذه البشارة هي البشارة بإسحاق في قوله: ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ [الذاريات:٢٨] . وأجاب عن البشارة بيعقوب بأنه قد كان بلغ معه السعي، أي العمل. ومن الممكن أنه قد كان ولد له أولاد مع يعقوب أيضا. قال: وأما القرنان اللذان كانا معلقين بالكعبة فمن الجائز أنهما نقلا من بلاد الشام. قال: وقد تقدم أن من الناس من ذهب إلى أنه ذبح إسحاق هناك. هذا ما اعتمد عليه في تفسيره، وليس ما ذهب إليه بمذهب ولا لازم، بل هو بعيد جدا، والذي استدل به محمد بن كعب القرظي على أنه إسماعيل أثبت وأصح وأقوى، والله أعلم (٥) .

وقوله: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ ، لما تقدمت البشارة بالذبيح -وهو إسماعيل- عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق، وقد ذكرت في سورتي (٦) هود" و "الحجر" (٧) .

---

(١) تفسير ابن كثير ط العلمية ابن كثير ٣١/٧

وقوله: ﴿نبيا﴾ حال مقدرة، أي: سيصير منه نبي من الصالحين.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة قال: قال ابن عباس، رضي الله عنهما: الذبيح إسحاق. قال: وقوله: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ قال: بشر بنبوته. قال: وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا﴾ [مريم:٥٣] قال: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد: وهب له نبوته.

وحدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان قال: سمعت داود يحدث، عن عكرمة، عن ابن عباس في هذه الآية: ﴿وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين﴾ قال: إنما بشر به نبيا حين فداه الله من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده (٨) .

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان الثوري، عن داود، عن عكرمة،

---

(١) في س: "الخبر".

(٢) تفسير الطبري (٥٤/٢٣) .

(٣) في أ: "عبد الله".

(٤) في أ: "من نسخة كذا والله أعلم".

(٥) وقد حرر هذه المسألة الإمام ابن تيمية -رحمه الله- في الفتاوى. انظر المواضع في: الفهرس العام (٣٢/٣٦) .

(٦) في ت: "سورة".

(٧) سورة هود، الآية: ٧١، وسورة الحجر، الآية: ٥٣.

(٨) تفسير الطبري (٥٧/٢٣) .." [1]

"والملائكة كانوا موجودين، فيلزم أن يكون الله – تعالى – قد اصطفى هؤلاء على الملائكة، وأيضا فهب أن تلك دخلها التخصيص لقيام الدليل، وها هنا فلا دليل يوجب ترك الظاهر، فوجب إجراؤه على ظاهره في العموم.

وخامسها: قوله تعالى: ﴿ومآ أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] والملائكة من جملة العالمين، فكان محمد – عليه الصلاة والسلام – رحمة لهم، فوجب أن يكون أفضل منهم.

وسادسها: أن الآدمي له شهوة تدعوهم إلى المعصية، وهي شهوة الرئاسة.

قلنا: هب أن الأمر كذلك، لكن البشر لهم أنواع كثيرة من الشهوات مثل شهوة البطن والفرج، وشهوة الرئاسة والملك ليس إلا شهوة واحدة، وهي شهوة الرئاسة، والمبتلى بأنواع كثيرة من الشهوات تكون الطاعة عليه أشق من المبتلى بشهوة واحدة. وأيضا الملائكة لا يعملون إلا بالنص لقوله: ﴿لا علم لنآ إلا ما علمتنآ﴾ [البقرة: ٣٢] وقوله: ﴿لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون﴾ [الأنبياء: ٢٧] والبشر لهم قوة الاستنباط والقياس، والعمل بالاستنباط أشق من العمل النص، وأيضا فإن الشبهات للبشر أكثر منها للملائكة؛ لأن من جملة الشبهات القوية كون الأفلاك والأنجم السيارة أسبابا

---

(١) تفسير ابن كثير ت سلامة ابن كثير ٣٥/٧

لحوادث هذا العالم، فالبشر احتاجوا إلى دفع هذه الشبهة، والملائكة لا يحتاجون إليها، لأنهم ساكنون في عالم السماوات، فيشاهدون كيفية افتقارها إلى المدبر الصانع، وأيضا فإن الشيطان لا سبيل له إلى وسوسة الملائكة، وهو مسلط على البشر في الوسوسة، وذلك تفاوت عظيم.

إذا ثبت أن طاعتهم أشق، فوجب أن يكونوا أكثر ثوابا للنص والقياس.

فأما النص قوله عليه الصلاة والسلام : «أفضل العبادات أحمزها» أي: أشقها، وأما القياس فإن الشيخ الذي ليس له ميل إلى النساء إذا امتنع عن الزنا ليست فضيلته كفضيلة من يمتنع عنه مع النيل الشديد، والشوق العظيم.

وسابعها: أن الله – تعالى – خلق للملائكة عقولا بلا شهوة، وخلق للبهائم شهوة بلا عقل، وخلق الآدمي وجمع فيه الأمرين، فصار الأدمي بسبب العقل فوق البهيمة بدرجة، فوجب أن يصير بسبب الشهوة دون الملائكة، ثم وجدنا الآدمي هواه عقله، فإنه بصير دون البهيمة على ما قال: «أولئك كالأنعام بل هم أضل» فيجب أن يقال: إذا غلب عقله هواه أن يكون فوق الملائكة اعتبارا لأحد الطرفين بالآخر.

وثامنها: أن الملائكة حفظة، وبنو آدم محفوظون، والمحفوظ أشرف من الحافظ، أجاب القائلون بتفضيل الملك عن الأول، فقالوا: قد سبق بيان **أن من الناس من** قال:." (١)

"والثاني: **أن من الناس من** حمل قوله: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين﴾ على صلاة الجنازة لا على هذا الطريق، قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبدا﴾ [التوبة: ٨٤] .

فصل

اختلفوا في السبب الذي تبين إبراهيم به أن أباه عدو لله. فقيل: بالإصرار والموت وقيل: بالإصرار وحده. وقيل: بالوحي. فكأنه تعالى يقول: لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه؛ فكونوا كذلك، لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله: ﴿اتبع ملة إبراهيم﴾ [النحل: ١٢٣] . قوله: ﴿إن إبراهيم لأواه حليم﴾ . الأواه: الكثير التأوه، وهو من يقول: أواه، وقيل: من يقول: أوه، وهو أنسب؛ لأن «أوه» بمعنى: أتوجع، ف «الأواه» : فعال مثال مبالغة من ذلك، وقياس فعله أن يكون ثلاثيا؛ لأن أمثله المبالغة إنما تطرد في الثلاثي وقد حكى قطرب فعله ثلاثيا، فقال: يقال: آه يئوه، ك «قام يقوم،» أوها .»

وأنكر النحويون هذا القول على قطرب، وقالوا: لا يقال من» أوه «بمعنى: أتوجع، فعل ثلاثي، إنما يقال: أوه تأويها، وتأوه تأوها؛ قال الراجز: [الرجز]

٢٨٥٠ – فأوه الراعي وضوضى أكلبه ... وقال المثقب العبدي: [الوافر]

٢٨٥١ – إذا ما قمت أرحلها بليل ... تأوه آهة الرجل الحزين

وقال الزمخشري:» أواه: فعال، من أوه، ك: «لئال» من اللؤلؤ، وهو الذي يكثر التأوه «.

قال أبو حيان» وتشبيه «أواه» من «أوه» ك «لئال» من اللؤلؤ ليس بجيد؛ لأن مادة «أوه» موجودة في صورة «أواه» ،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١/٥٣٧

ومادة «لؤلؤ» مفقودة في «لئال» ؛ لاختلاف التركيب إذ «لئال» ثلاثي، و «لؤلؤ» رباعي، وشرط الاشتقاق التوافق في الحروف الأصلية «.

قال شهاب الدين:» لئال «، و» لؤلؤ «كلاهما من الرباعي المكرر، أي: إن الأصل لام وهمزة ثم كررنا، غاية ما في الباب أنه اجتمع الهمزتان في» لئال «فأدغمت أولاهما في الأخرى، وفرق بينهما في» لؤلؤ «وقال ابن الأثير في قوله عليه السلام:» أوه عن الربا «كلمة يقولها الرجل عند الشكاية والتوجع وهي ساكنة الواو ومكسورة الهاء، وربما." (١)

"إن الكفار كلهم مغفور لهم؛ لأن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة.

وعن الثاني: أن الله تمدح بهذا، التمدح إنما يصحل بالتفضيل، أما أداء الواجب، فلا تمدح فيه، وعندكم يجب غفران الصغائر.

وعن الثالث: أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة؛ فسقطت الأسئلة.

قوله: ﴿على ظلمهم﴾ حال من «الناس» والعامل فيها، قال أبو البقاء «مغفرة» يعني: أنه هو العامل في صاحبها.

قوله تعالى: ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ الآية شلما بين تعالى أنهم طعنوا في النبوة بسبب طعنهم في الحشر والنشر ثم طعنوا في النبوة أيضا بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول العذاب، بين أيضا أنهم طعنوا في نبوته، وطلبوا منه المعجزة.

والسبب في كونهم أنكروا كون القرآن معجزة: أنهم قالوا هذا كتاب مثل سائر الكتب، وإتيان الإنسان بتصنيف معين لا يكون معجزا، وإنما يكون المعجز مثل معجزات موسى.

واعلم **أن من الناس من** زعم أنه لم يظهر معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم سوى القرآن، قالوا: لأن هذا الكلام إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزا ولم يظهر معجزا غيره؛ لأنه لو ظهر معجزة مغيره لم يحسن أن يقال: ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ وهذا يدل على أنه عليه الصلاة والسلام ما كان له معجزة سوى القرآن.

والجواب: عنه من وجهين:

الأول: لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها من حينين الجزع، ونبع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير الطعام القليل؛ فطلبوا منه معجزاتن قاهرة غير هذه، مثل: فلق البحر لموسى، وقلب العصا ثعبانا.

فإن قيل: فما السبب في أن الله منعهم، وما أعطاهم؟ .

فالجواب: أن الله تعالى لما أظهر المعجزة الواحدة، فقد تم الغرض، فيكون طلب الثاني تحكما، وظهور القرآن معجزةم، فما كان من ذلك حاجة إلى معجزات آخر.

وأيضا: فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور المعجزة الملتمسة وكونهم يصيرون حينئذ يستوجبون عذاب الاستئصال، فلهذا السبب ما أعطاهم ملطوبهنم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون﴾ [الأنفال: ٢٣] فبين أنه لم يعطهم مطلوبهم، لعلمه أنهم لا ينتفعون به.

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢٣/١٠

وأيضا: ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له، وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء آخر، وطلب معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهو باطل.." (١)

"السابع: **أن من الناس من** يقول: إن الحيوان إنما يبصر المرئيات لأجل أن الشعاع يخرج من عينيه ويتصل بالمرئيات، فإذا فتحنا العين، ونظرنا إلى شخص، رأيناه، فعلى قول هؤلاء انتقل شعاع العين من أبصارنا إلى الشخص في تلك اللحظة اللطيفة، وذلك يدل على أن الحركة الواقعة على هذا الحد من السرعة من الممكنات لا من الممتنعات، فثبت بهذه الوجوه أن حصول الحركة المنتهية في السرعة إلى هذا الحد أمر ممكن الوجود في نفسه.

المقدمة الثانية: في بيان أن هذه الحركة، لما كانت ممكنة الوجود في نفسها، وجب ألا يمتنع حصولها في جسم محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه ثبت بالدلائل القطعية أن الأجسام متماثلة في تمام ماهيتها، فلما صح حصول مثل هذه الحركة في حق بعض الأجسام، وجب إمكان حصولها في سائر الأجسام، وذلك يوجب القطع بأن حصول مثل هذه الحركة في جسد محمد صلى الله عليه وسلم أمر ممكن الوجود في نفسه.

وإذا ثبت هذا فنقول: ثبت بالدليل أن خالق العالم قادر على كل الممكنات، وثبت أن حصول الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد في جسد محمد صلى الله عليه وسلم ممكن؛ فوجب كونه تعالى قادرا عليه، فلزم من مجموع هذه المقامات: أن القول بثبوت هذا المعراج أمر ممكن الوجود في نفسه، أقصى ما في الباب أنه يبقى التعجب، إلا أن التعجب غير مخصوص بهذا المقام، بل هو حاصل في جميع المعجزات، فانقلاب العصا ثعبانا يبلع سبعين ألف حبل من الحبال والعصي، ثم تعود في الحال عصا صغيرة، كما كانت أمر عجيب، وخروج الناقة من الجبل الأصم أمر عجيب، وإظلال الجبل في الهواء أمر عجيب، وكذا سائر المعجزات، فإن كان مجرد التعجب يوجب الإنكار والدفع، لزم الجزم بفساد القول بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام، لكن القول بإثبات المعجزات فرع على تسليم أصل النبوة، وإن كان مجرد التعجب لا يوجب الإنكار والإبطال، فكذا هنا.

فصل في ترجيح القول بالإسراء بالجسد والروح

قال المحققون: إنه تعالى أسرى بروح محمد صلى الله عليه وسلم وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى؛ ويدل عليه القرآن والخبر: أما القرآن، فهذه الآية؛ وتقرير الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح، قال تعالى:

﴿أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى﴾ [العلق: ٩ – ١٠] وقال تعالى: ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩] .

وأما الخبر، فما روى أنس بن مالك: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل – عليه السلام – ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا، ففرغه في صدري، ثم أطبقه» .." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٥٦/١١

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٠٠/١٢

"هذه الآية على أنه «أحسن الخالقين» في اعتقادكم وظنكم كقوله: ﴿وهو أهون عليه﴾ [الروم: ٢٧] .

وجواب ثان، وهو أن الخالق هو المقدر، لأن الخلق هو التقدير، فالآية تدل على أنه تعالى أحسن المقدرين، والتقدير يرجع معناه إلى الظن والحسبان، وذلك في حق الله تعالى محال، فتكون الآية من المتشابه.

وجواب ثالث: أن الآية تقتضي كون العبد خالقا بمعنى كونه مقدرا لكن لم قلت إنه خالق بمعنى كونه موحدا.

فصل

قالت المعتزلة: الآية تدل على أن كل ما خلقه الله حسن وحكمة وصواب وإلا لما جاز وصفه بأنه أحسن الخالقين، وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون خالقا للكفر والمعصية، فوجب أن يكون العبد هو الموجد لهما.

وأجيب **بأن من الناس من** حمل الحسن على الأحكام والإتقان في التركيب والتأليف، ثم لو حملناه على ما قالوه فعندنا أنه يحسن من الله كل الأشياء، لأنه ليس فوقه أمر ونهي حتى يكون ذلك مانعا له عن فعل شيء.

فصل

روى الكلبي عن ابن عباس أن عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان يكتب هذه الآيات لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلما انتهى إلى قوله: «خلقا آخر» عجب من ذلك فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اكتب فهكذا نزلت» فشك عبد الله وقال: إن كان محمد صادقا فيما يقول، فإنه يوحى إلي كما يوحى إليه، وإن كان كاذبا فلا خير في دينه، فهرب إلى مكة، فقيل: إنه مات على الكفر، وقيل: إنه أسلم يوم الفتح وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب: فتبارك الله أحسن الخالقين. فقال رسول الله: «هكذا أنزل يا عمر» .

وكان عمر يقول: وافقني ربي في أربع: الصلاة خلف المقام، وضرب الحجاب على النسوة، وقولي لهن: أو ليبدله الله خيرا منكن، فنزل قوله: ﴿عسى ربه إن طلقكن﴾ [التحريم: ٥] ، والرابع قوله: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ قال العارفون: هذه الواقعة." (١)

"الرابع: أنه منصوب بإضمار فعل أي سخرنا له الطير. قاله أبو عمرو، وقرأ السلمي والأعرج ويعقوب وأبو نوفل وأبو يحيى وعاصم - في رواية - والطير بالرفع، وفيه أوجه: النسق على لفظ «الجبال» وأنشد:

٤١١٤ - ألا يا زيد والضحاك سيرا ... فقد جوزتما خمر الطريق

بالوجهين، وفي عطف المفرف بأل على المنادى المضموم ثلاثة مذاهب، الثاني: عطفه على الضمير المستكن في «أوبي» وجاز ذلك، للفصل بالظرف، والثالث: الرفع على الابتداء والخبر مضمير أي والطير كذلك أي مؤوبة.

فصل

لم يكن الموافقون له في التأويب منحصرا في الطير والجبال ولكن ذكر الجبال لأن الصخور للجمود والطير للنفور وكلاهما مستبعد منه الموافقة، فإذا وافقه هذه الأشياء فغيرها أولى ثم **إن من الناس من** لم يوافقه وهم القاسية قلوبهم التي

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ١٨٣/١٤

هي أشد قسوة.

قال المفسرون كان داود إذا نادى بالنياحة أجابته الجبال بصداها وعكفت الطير على من فوقه فصدى الجبال الذي يسمعه الناس اليوم من ذلك وقيل: كان داود إذا تخلل الجبال." (١)

"ثم قال: ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ والمعنى أنه تعالى لما ذكر انتقال الأجسام من كونها ترابا إلى أن بلغت الشيخوخة، واستدل بهذه التغييرات على وجود الإله القادر قال بعده: ﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي كما أن الانتقال من الحياة إلى الموت وبالعكس، يدل على الإله القادر.

(و) قوله: ﴿فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون﴾ فيه وجوه:

الأول: معناه أنه لم ينقل هذه الأجسام من صفة إلى صفة أخرى بآلة تعينه إنما يقول له كن فيكون.

الثاني: أنه عبر عن الإحياء والإماتة بقوله: ﴿كن فيكون﴾ فكأنه قيل: الانتقال من كونه ترابا إلى كونه نطفة إلى كونه علقة انتقالات تحصل على التدريج قليلا. وأما صيرورته حيا فهي إنما تحصل بتعليق جوهر الروح، وذلك يحدث دفعة واحدة فلهذا عبر عنه بقوله: «كن فيكون» .

الثالث: **أن من الناس من** يقول: إن الإنسان إنما يتكون من المني والدم في الرحم في مدة معينة بحسب الانتقالات من حال إلى حال، فكأنه قيل: إنه يمتنع أن يكون كل إنسان عن إنسان آخر؛ لأن التسلسل محال، ووقوع الحادث في الأزل محال فلا بد من الاعتراف بإنسان هو الناس وحينئذ يكون حدوث ذلك الإنسان لا بواسطة المني والدم بل بإيجاد الله تعالى، ابتداء، فعبر الله تعالى عن هذه المعنى بقوله: ﴿كن فيكون﴾ .." (٢)

"عمل له فهو همج إعدامه خير من وجوده. ﴿فإذا لقيتم الذين كفروا﴾ بعد ظهور أن لا حرمة لهم بعد إبطال عملهم فاضربوا أعناقهم قال البغوي: فضرب الرقاب نصب على الإغراء.

الثاني: إذا تبين تباين الفريقين وتباعد الطريقين بأن أحدهما يتبع الباطل وهو حزب الشيطان والآخر يتبع الحق وهو حزب الرحمن حق القتال (عند التحزب) فإذا لقيتموهم فاقتلوهم.

الثالث: **أن من الناس من** يقول لضعف قلبه وقصور نظره إيلام الحيوان من الظلم والطغيان ولا سيما القتل الذي هو تخريب بنيان. فيقال ردا عليهم: لما كان اعتبار الأعمال باتباع الحق والباطل فلمن يقتل في سبيل الله لتعظيم الله وبأمره له (من) الأجر ما للمصلى والصائم فإذا لقيتم الذين كفروا فاقتلوهم ولا تأخذكم بهم رأفة. فإن ذلك اتباع للحق والاعتبار به لا بصورة الفعل.

فصل

والحكمة في اختيار ضرب الرقبة دون غيرها من الأعضاء، لأن المؤمن هنا ليس بدافع، إنما هو مدافع وذلك لأن من يدفع الصائل لا ينبغي أن يقصد أولا مقتله، بل يتدرج ويضرب غير المقتل فإن اندفع فذاك، ولا يرقى إلى درجة الإهلاك،

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٢/١٦

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٨١/١٧

فأخبر تعالى أنه ليس المقصود دفعهم عنكم بل المقصود دفعهم عن وجه الأرض بالكلية، وتطهير الأرض منهم وكيف لا والأرض لكم مسجد، والمشركون نجس، والمسجد يطهر من النجاسة؟ فإذا ينبغي أن يكون قصدكم أولا إلى قتلهم بخلاف دفع الصائل. والرقبة أظهر المقاتل، لأن قطع الحلقوم والأوداج مستلزم للموت، بخلاف سائر المواضع ولا سيما في الحرب. وفي قوله «لقيتم» ما ينبىء عن مخالفتهم الصائل، لأن قوله: «لقيتم» يدل على أن القصد من جانبهم بخلاف قولنا «لقيكم» ، ولذلك قال في غير هذا الموضع

﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ [النساء: ٩١] .

فإن قيل: ما الفائدة في قوله ههنا: ﴿فضرب الرقاب﴾ بإضمار الفعل وإظهار." (١)

"فصل

لما ذكر خلق الإنسان وإنعامه عليه لتعليمه البيان، ذكر نعمتين عظيمتين، وهما: الشمس والقمر، وأنهما على قانون واحد وحساب لا يتغيران، وبذلك تتم منفعتهما للزراعات وغيرها، ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من المنافع الظاهرة، بخلاف غيرهما من الكواكب، فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثل ظهور نعمتهما، وأنهما بحساب لا يتغير أبدا، ولو كان مسيرهما غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها، ومعرفة فصول السنة.

ثم لما ذكر النعم السماوية وذكر في مقابلتها أيضا نعمتين ظاهرتين من الأرض، وهما: النبات الذي لا ساق له، وما له ساق؛ لأن النبات أصل الرزق من الحبوب والثمار، والحشيش للحيوان.

وقيل: إنما ذكر هاتين النعمتين بعد تعليم القرآن إشارة إلى أن من الناس من لا تكون نفسه زكية، فيكتفي بأدلة القرآن، فذكر له آيات الآفاق، وخص الشمس والقمر؛ لأن حركتهما بحسبان تدل على الفاعل المختار.

ولو اجتمع العالم ليبينوا سبب حركتهما على هذا التقدير المعين لعجزوا، وقالوا: إن الله حركهما بالإرادة كما أراد.

وقيل: لما ذكر معجزة القرآن بإنزاله أنكروا نزول الجرم من السماء وصعوده إليها، فأشار تعالى بحركتهما إلى أنها ليست بالطبيعة.

وهم يقولون بأن الحركة الدورية من أنواع الحركات لا يكون إلا اختياريا، فقال تعالى: من حركهما على الاستدارة أنزل الملائكة على الاستقامة، والثقيل على مذهبكم لا يصعد، وصعود النجم والشجر إنما هو بقدرة الله تعالى، فحركة الملك كحركة الفلك جائزة.

فصل في جريان الشمس والقمر

قال المفسرون: [المعنى] يجريان بحسبان معلوم فأضمر الخبر.

قال ابن عباس وقتادة وأبو مالك: يجريان بحساب في منازل لا تعدوها ولا يحيدان عنها.." (٢)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤٢٨/١٧

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٩٦/١٨

"أن أبا البقاء حمل التوفي على الموت، وذلك إنما هو بعد رفعه، ونزلوه إلى الأرض وحكمه بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الحديث. فعلى الأول ففيه وجوه:

أحدها: إني متمم عمرك، وإذا تم عمرك فحينئذ أتوفاك كما قدمناه.

الثاني: إني مميتك، والمقصود منه ألا يصل أعدؤه من اليهود إلى قتله. وهو مروي عن ابن عباس ومحمد بن إسحاق، وهؤلاء اختلفوا على ثلاثة أوجه:

الأول: قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع وأحيي.

الثاني: قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه.

الثالث: قال الربيع بن أنس: إنه – تعالى – أنامه حال رفعه إلى السماء، قال تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها﴾ [الزمر: ٤٢] .

وثالثها: أن الواو لا تفيد الترتيب، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت أنه حي، وأنه ينزل ويقتل الدجال ثم يتوفاه الله بعد ذلكز

رابعها: إني متوفيك عن شهواتك، وحظوظ نفسك، فيصير حاله كحال الملائكة – في زوال [الشهوات] والغضب والأخلاق الذميمة –.

خامسها: أن التوفي اخذ الشيء وافيا، ولما علم الله **أن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه، لا جسده، ذكر ذلك؛ ليدل على أنه – عليه السلام – رفع بتمامه إلى السماء – بروحه وجسده.

وسادسها: إني متوفيك، أي جاعلك كالمتوفى؛ لأنه إذا رفع إلى السماء، وانقطع خبره، وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

وسابعها: أن التوفي هو القبض، يقال: فلان وفاني دراهمي، ووافاني، وتوفيتها منه، كما يقال سلم فلان درامي إلي، وتسلمتها منه. فإن قيل: فعلى هذا يكون التوفي في عين الرفع، فيصير قوله: ﴿ورافعك إلي﴾ تكرارا، فالجواب: أن قوله ﴿إني متوفيك﴾ يدل على حصول التوفي، وهو جنس تحته أنواع، بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد، فلما قال: ﴿ورافعك إلي﴾ صار تعيينا للنوع، فلم يكن تكرارا.

ثامنها: أن يقدر حذف مضاف، أي: متوفي عملك، بمعنى مستوفي عملك،." (١)

"على الديمومة؛ كقوله: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ [الأحزاب: ١] ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ [النساء: ١٣٦] . وقوله: «ما» يحتمل أن تكون اسمية بمعنى «الذي» ولا يجوز أن تكون نكرة موصوفة؛ لأنه مأمور بتبليغ الجميع كما مر، والنكرة لا تفي بذلك؛ فإن تقديرها: «بلغ شيئا أنزل إليك» ، وفي «أنزل» ضمير مرفوع يعود على ما قام مقام الفاعل، وتحتمل على بعد أن تكون «ما» مصدرية؛ وعلى هذا؛ فلا ضمير في «أنزل» ؛ لأن «ما» المصدرية حرف على الصحيح؛ فلا بد من شيء يقوم مقام الفاعل، وهو الجار بعده؛ وعلى هذا: فيكون التقدير: بلغ الإنزال، ولكن الإنزال لا يبلغ فإنه

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٥/٢٦٦

معنى، إلا أن يراد بالمصدر: أنه واقع موقع المفعول به، ويجوز أن يكون المعنى: «اعلم بتبليغ الإنزال» ، فيكون مصدرا على بابه.

والمعنى أظهر تبليغه، كقوله تعالى: ﴿فاصدع بما تؤمر﴾ [الحجر: ٩٤] .

فصل

روي عن مسروق [قال] : قالت عائشة – رضي الله عنها –: «من حدثك أن محمدا – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – كتم شيئا مما أنزل الله، فقد كذب» وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿ياأيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك﴾ الآية.

وروي عن الحسن: أن الله لما بعث رسوله، وعرف أن من الناس من يكذبه، فنزلت هذه الآية، وقيل: نزلت في عيب من اليهود وذلك أن النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك، وجعلوا يستهزئون به فيقولون: تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذ النصارى عيسى حنانا، فلما رأى النبي – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – ذلك سكت، فنزلت هذه الآية، فأمره أن يقول لأهل الكتاب: ﴿لستم على شيء﴾ [المائدة: ٦٨] الآية.

وقيل: بلغ الإنزال ما أنزل إليك من الرجم والقصاص في قصة اليهود، وقيل: نزلت في أمر زينب بنت جحش ونكاحها.." (١)

"عليه الصلاة والسلام:» إن غم عليكم فاقدروا له «أيك فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة، ثم يقال لمن عرف شيئا: هو يقدر قدره، وإن لم يعرفه بصفاته: إنه لا يقدر قدره، فقوله:» وما قدروا الله حق قدره «صحيح في كل المعاني المذكورة ولما حكى عنهم أنهم ما قدروا الله حق قدره بين السبب فيه، وهو قولهم: ﴿مآ أنزل الله على بشر من شيء﴾ .

واعلم أن كل من أنكر النبوة والرسالة فهو في الحقيقة ما عرف الله حق معرفته، وتقديره من وجوه:

الأول: أن منكر البعث والرسالة إما أن يقول: إنه – تبارك وتعالى – ما كلف أحدا من الخلق [تكليفا أصلا] أو يقول: إنه – تبارك وتعالى – كلفهم، والأول باطل؛ لأن ذلك يقتضي أنه – تبارك وتعالى – أباح لهم جميع المنكرات والقبائح، نحو [شتم] الله ووصفه بما لا يليق به والاستخفاف بالأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – والرسل، والإعراض عن شكر الله – تعالى – ومقابلة الإنعام بالإساءة، وكل ذلك باطل.

وإن سلم أنه – تعالى – كلف الخلق بالأمر [والنهي فهاهنا لا بد] من مبلغ وشارع مبين، وما ذلك إلا للرسول.

فإن قيل لم لا يجوز أن يقال: العقل كاف في إيجاب الموجبات، واجتناب المقبحات؟

فالجواب: هب أن الأمر كما قلتم إلا أنه لا يمتنع تأكيد التعريف العقلي بالتعريفات المشروعة على ألسنة الأنبياء والرسل – عليهم الصلاة والسلام – فصبت أن كل من منع من البعثة والرسالة، فقد طعن في حكمة الله – تعالى – وكان ذلك جهلا بصفة الإلهية، وحينئذ يصدق في حقه قوله تبارك وتعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا﴾ .

والوجه الثاني في تقرير هذا المعنى: أن من الناس من يقول: إنه يمتنع بعثة الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام؛ لأن

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٧/٤٣٧

يمتنع [إظهار] المعجزة على وفق دعواه تصديقا له، والقائلون بهذا القول لهم مقامات.

أحدها: أن يقولوا: إنه ليس في الإمكان خرق العادات، ولا إيجاد شيء على خلاف ما جرت به العادة.

والثاني: يسلمون إمكان ذلك، إلا أنهم يقولون: إن بتقدير حصول هذه الأفعلا الخارقة للعادات، فلا دلالة لها على صدقه من الرسالة، وكلا القولين يوجب القدح في كمال قدرة الله – تعالى –.." (١)

"لما ذكر البراهين الخمسة من دلائل العالم الأعلى والأسفل على ثبوت الإلهية، وكمال القدرة الحكمة، ذكر بعد ذلك أن من الناس من أثبت لله شركاء، وهذه المسألة تقدم، إلا أن المذكور هنا غير ما تقم ذكره؛ لأن مثبتي الشريك طوائف منها عبدة." (٢)

"العاقل لا يختار الغواية مع العلم بكونها غواية، والثاني أيضا باطل، وإلا لزم إما التسلسل وإما اغلدور، والثالث هو المقصود.

فصل في المراد من الإقعاد

المراد من قوله: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أنه يواظب على الإفساد مواظبة لا يفتر عنها، ولهذا المعنى ذكر القعود؛ لأن من أراد المبالغة في تكميل أمر من الأمور قعد حتى يصير فارغ البال، فيمكنه إتمام المقصود. ومواظبته على الإفساد، هي مواظبته على الوسوسة بحيث لا يفتر عنها.

قال المفسرون: معنى ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ أي: بالصد عنه وتزيين الباطل؛ حتى يهلكوا كما هلك، أو يضلوا كما ضل، أو يخيبوا كما خاب.

فإن قيل: هذه الآية دلت على أن إبليس كان عالما بالدين الحق؛ لأنه قال ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ وصراطه المستقيم هو دينه الحق، ودلت أيضا على أن إبليس كان عالما بأن الذي هو عليه من الاعتقاد هو محض الغواية والضلال لأنه لو لم يكن كذلك لما قال: ﴿رب بمآ أغويتني﴾ [الحجر: ٣٩] ، وإذا كان كذلك فكيف يمكن أن يرضى إبليس بذلك المذهب مع علمه بكونه ضلالا وغواية، وبكونه مضادا للدين الحق، ومنافيا للصراط المستقيم، فإن المرء إنما يعتقد الاعتقاد الفاسد إذا غلب على ظنه كونه حقا، فأما من علم أنه باطل وضلال وغواية يستحيل أن يختاره، ويرضى به، ويعتقده.

فالجواب: أن من الناس من قال: إن كفر إبليس كفر عناد لا كفر جهل، ومنهم من قال: كفره كفر جهل. وقوله: ﴿فبمآ أغويتني﴾ ، وقوله: ﴿لأقعدن لهم صراطك المستقيم﴾ يريد به في زعم الخصم، وفي اعتقاده.

فصل في بيان هل على الله رعاية المصالح

احتج أهل السنة بهذه الآية على أنه لا يجب على الله رعاية مصالح العبد في دينه." (٣)

---

(١) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٢٧٥/٨

(٢) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٣٣٢/٨

(٣) اللباب في علوم الكتاب ابن عادل ٤١/٩

"وقال: ويؤتى بالرجل الصالح كان قد حمله، فيمثل خصما دونه، فيقول: يا

رب حملته إياي فخير حامل حفظ حدودي وعمل بفرائضي واجتنب معصيتي ".

والمراد بحفظ الحدود هنا: المحافظة على الواجبات والانتهاء عن

المحرمات.

وفي حديث النعمان بن بشير، عن النبي - صلى الله عليه وسلم -:

"الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يخالطه. ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله في أرضه محارمه ".

وهو حديث متفق على صحته.

فمثل المحرمات في هذا الحديث: بالحمى، وهو ما يحميه الملوك وتمنع من

قربانه، وجعل الحلال بينا والحرام بينا، ومراده: الحلال المحض والحرام

المحض، فإن لكل منها حدودا معروفة في الشريعة.

وجعل بينهما أمورا مشتبهة على كثير من الناس، لا يدرون هل هي من الحلال أم من الحرام.

فدل على **أن من الناس من** لا يشتبه عليه حكمها، فيعلم أنها حلال أو أنها

حرام.

فأما من اشتبه عليه حكمها: فإن الأولى له أن يتقيها ويجتنبها، كما قال

عمر: ذروا الربا والريبة) .

وأخبر أنه من وقع في الأمور المشتبهة وقع في الحرام، والمراد: أن نفسه." (١)

"لقوله «كذكركم آبآءكم» وقوله تعالى ﴿ومنهم من يقول ربنآ آتنا في الدنيا حسنة﴾ راجع إلى قوله «أو أشد ذكرا»

.

قيل لابن عرفة: (يعكر) عليه قوله «وما له في الأخرة من خلاق» (يدل على أنه كافر فيكف يذكر الله كذكره أباه؟ فقال: قد تقرر أن «وما له في الأخرة من خلاق» (معتبر) بأمرين لأن الواو فيه واو الحال فيحتمل أن يراد أنه في نفس الأمر ليس له نصيب في الآخرة، ويحتمل (أن) يريد من الناس المؤمنين من يطلب أمور الدنيا، ولم يتعلق له بال بطلب الثواب في الآخرة عليه، فقد يعمل العمل الصالح، ويطلب المعونة عليه، ولم يخطر بباله طلب الثواب عليه في الآخرة بوجه (أو بطلب الرزق الحلال من نعيم الدنيا ومستلذاتها، ويصرفه في وجهه وهو مع ذلك طائع، ولا يتشوق إلى طلب الآخرة بوجه) بل (يغفل) عن ذلك.

الوجه الثاني في تقرير السببية: أنه لما تقدم الأمر بذكر الله عقبه بهذا تنبيها على **أن من الناس من** لا يمتثل هذا الامر

---

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ابن رجب الحنبلي ١/٨٤

ولا يقبله، ومنهم من يمتثله ويعمل بمقتضاه فهو الذي يقول: ﴿ربنآ آتنا في الدنيا حسنة وفي الأخرة حسنة﴾ أو يرجع إلى القبول والأجر. وتقرر أن القبول أخص، فمن الناس من يفعل العبادة فلا يجزيه ويخرجه من عهدة التكليف فقط ولا يثاب عليها كمن يصلي رياء ومنهم من يفعلها بالإخلاص ونية فتقبل منه، ويثاب عليها في الدار الآخرة.." [١]

"الرجم والقصاص المذكورتين.

وقال الحسن: إن نبي الله قال: لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت أن من الناس من يكذبني واليهود والنصارى وقريش يخوفونني فنزلت الآية فزال الخوف.

وقالت عائشة: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فقلت: يا رسول الله ما شأنك؟

قال: ألا رجل صالح يحرسني الليلة. قالت: فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح فقال: من هذا؟ قال سعد وحذيفة: جئنا نحرسك. فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه فنزلت هذه الآية، فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قبة أدم فقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله.

وعن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس فكان يرسل معه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت هذه الآية. فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسونه فقال: يا عماه إن الله تعالى قد عصمني من الجن والإنس.

ومعنى قوله: ما أنزل إليك جميع ما أنزل إليك وأي شيء أنزل إليك وإن لم تفعل ما أمرتك به كما أمرتك به فما بلغت رسالته من قرأ على الوحدة فلأن القرآن كله رسالة واحدة، أو لأن الرسالة اسم المصدر فيقع على الواحد وعلى الجمع. ومن جمع فلأن كل آية أو حكم رسالة. فإن قيل:

معنى قوله: وإن لم تفعل فما بلغت رسالته إن لم تبلغ رسالته فما بلغت رسالته فما وجه صحته؟ فالجواب أن هذا جار على طريق التهديد والمراد إن لم تبلغ منها أدنى شيء فأنت كمن لم يبلغ شيئا لأن أداء بعضها ليس أولى من أداء البعض الآخر كما أن من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها. أو المراد إن لم تفعل فلك ما يوجبه كتمان الوحي كله فوضع السبب موضع المسبب، ويعضده ما

روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: بعثني الله برسالاته وضقت بها ذرعا فأوحى الله إلي إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك وضمن لي العصمة فقويت.

فإن قيل: أين ضمان العصمة وقد جرى عليه يوم أحد ما جرى؟ فالجواب أن الآية نزلت بعد يوم أحد. أو المراد أنه يعصمه من القتل وعليه أن يحتمل كل ما دون النفس والناس الكفار لقوله: إن الله لا يهدي القوم الكافرين أي لا يمكنهم مما يريدون. ثم لما أمره بتبليغ أي شيء كان طاب للسامع أو ثقل عليه أمره أن يقول لأهل الكتاب: لستم على شيء أي على دين يعتد به كما تقول: هذا ليس بشيء تريد تحقير شأنه، وباقي الآية مكرر للتأكيد. ومعنى فلا تأس لا تأسف ولا تحزن عليهم بسبب زيادة طغيانهم فإن وبال ذلك عائد عليهم، أو لا تأسف بسبب نزول اللعن والعذاب عليهم فإنهم

---

(١) تفسير ابن عرفة ابن عرفة ٢/٥٨٩

من الكافرين المستحقين لذلك. يقال:

آسى على مصيبته يأسى أسى أي حزن. ثم لما بين أن أهل الكتاب ليسوا على شيء ما لم يؤمنوا بين أن هذا الحكم عام في الكل وأنه لا يحصل لأحد منقبة ولا سعادة إلا إذا آمن وعمل صالحا، وذلك أن كمال القوة النظرية لا يحصل إلا بمعرفة المبدأ والمعاد- أعني." (١)

"يتخلف، فحذف إحدى القرينتين للعلم به كقوله سرابيل تقيكم الحر [النحل: ٨١] وكذا الكلام في قوله ولا الليل سابق النهار أراد ولا النهار سابق الليل أي لا يدخل شيء منهما في غير وقته. سلمنا أن المراد بالليل والنهار آيتهما لكنه يمكن أن يقال: إنه إشارة إلى الحركة الدورية لأنه لما قال: إن الشمس لبطء سيرها لا تدرك القمر. فهم منه أن القمر يسبق الشمس بحركته، فأشار إلى أن هذا السبق ليس على قياس المتحركات على الاستقامة ولكنه سبق هو بعينه موجب للقرب، وهذا معنى قول أهل الهيئة إن الكوكب هارب عن نقطة ما طالب لها بعينه. وأما قوله وكل في فلك يسبحون فقد مر تفسيره في سورة الأنبياء.

ولما بين ما هو كالضروري لوجود الإنسان من المكان والزمان وما يتبعه ويسبقه، شرع في تقرير ما هو نافع لهم في أحوال المعاش. قال بعض المفسرين: أراد بحمل الذرية حمل آبائهم وهم في أصلابهم. والفلك فلك نوح ومثله هو ما يركبون الآن عليه من السفن والزوارق. قال جار الله: وإنما ذكر ذرياتهم دونهم لأنه أبلغ في الامتنان عليهم وأدخل في التعجب من قدرته في حمل أعقابهم إلى يوم القيامة في سفينة نوح، ولولا ذلك لما بقي للآدمي نسل. ومن فوائد ذكر الذرية **أن من الناس من** لا يركب السفينة طول عمره ولكنه في ذريته من يركبها غالبا. وذهب آخرون إلى أن المراد حمل أولادهم ومن يهمهم حمله كالنساء. وقد يقع اسم الذرية عليهن لأنهن مزارع الأولاد.

في الحديث «إنه نهى عن قتل الذراري»

يعني النساء فكأنه قيل: إن كنا ما حملناكم بأنفسكم فقد حملنا من يهمكم أمره وعلى هذا يكون قوله وخلقنا لهم إلى آخره اعتراضا، ومثل الفلك ما يركبون من الإبل لأنها سفائن البر. وفي وصف الفلك بالمشحون مزيد تقرير للقدرة والنعمة فإن الفلك إذا كان خاليا كان خفيفا لا يرسب في الماء بالطبع. ثم ذكر ما يؤكد كونه فاعلا مختارا قائلا وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم وهو مصدر أو صفة أي لا إغاثة أو لا مغيث. وقوله إلا رحمة إشارة إلى أن الإنقاذ رحمة بالنسبة إلى المؤمن ومتاع إلى حلول الأجل بالإضافة إلى الكافر، أو المراد أن أحد لا يتخلص من الموت وإن سلم من الآفات ولله در القائل:

ولم أسلم لكي أبقى ولكن ... سلمت من الحمام إلى الحمام

التأويل:

يس إشارة إلى أنه بلغ في السيادة مبلغا لم يبلغه أحد من المرسلين تنزيل العزيز الرحيم فيه أنه لعزته لا يحتاج إلى تنزيل

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٦١٧/٢

القرآن ولكن رحمته اقتضت ذلك نحي القلوب الموتى ونكتب ما قدموا من الأنفاس المتصاعدة ندما وشوقا، وآثار خطا أقدام صدقهم وآثار دموعهم على خدودهم أصحاب القرية القلوب إذ أرسلنا إليهم اثنين من الخواطر الرحمانية والإلهامات الربانية بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار." (١)

"والسلام فيها فاش من بعضهم على بعض ومن الملائكة وغيرهم؛ والدعاء: طلب الفعل بما يقع لأجله، والدواعي إلى الفعل خلاف الصوارف عنه.

ولما أعلم - بالدعوة بالهداية بالبيان وأفهم ختم الآية بقوله: ﴿ويهدي من يشاء﴾ أي بما يخلق في قلبه من الهداية ﴿إلى صراط مستقيم*﴾ أن من الناس من يهديه ومنهم من يضله. وأن الكل فاعلون لما يشاء - كان موضع أن يقال: هل هم واحد في جزائه كما هم واحد في الانقياد لمراده؟ فقيل: لا، بل هم فريقان: ﴿للذين أحسنوا﴾ أي الأعمال في الدنيا منهم وهم من هداه ﴿الحسنى﴾ أي الخصلة التي هي في غاية الحسن من الجزاء ﴿وزيادة﴾ أي عظيمة من فضل الله فالناس: مزيد خرجت هدايته من الجهاد ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، ومراد خرجت هدايته من المشيئة، فالدعوة إلى الجنة بالبيان عامة، والهداية إلى الصراط خاصة لأنها الطريق إلى المنعم.

ولما كان النعيم لا يتم إلا بالدوام بالأمن من المضار قال: ﴿ولا يرهق﴾ أي يغشي ويلحق ﴿وجوههم قتر﴾ أي غبرة كغبره الموت وكربة، وهو تغير في الوجه معه سواد وعبوسة تركبهما غلبة ﴿ولا ذلة﴾ أي كآبة وكسوف يظهر منه الانكسار والهوان.

ولما كان هذا واضحا في أنهم أهل السعادة، وصل به قوله:." (٢)

"﴿ألم تروا﴾ دليلا على أول السورة، أي أشير إلى الآيات حال كونها هدى لمن ذكر والحال أن من الناس من يشتري اللهو، ألم تروا دليلا على أن من الناس المعاند بعد وضوح الدليل أن الله سخر لكم جميع العالم وأنعم عليكم بما أنعم والحال أن من الناس ﴿من يجادل﴾ فلا لهو أعظم من جداله، ولا كبر مثل كبره، ولا ضلال مثل ضلاله، وأظهر لزيادة التشنيع على هذا المجادل، وإشارة إلى قبح المجادلة من غير نظر إلى النعم فقال تعالى: ﴿في الله﴾ المحيط بكل شيء علما وقدرة.

ولما كان سبحانه في ظهور وجوده وأوصافه بحيث لا يخفى بوجه، وكان المجادل قد يكون فهما، قال: ﴿بغير﴾ أي بكلام متصف بأنه غير ﴿علم﴾ أي بل بألفاظ هي في ركاكة معانيها لعدم استنادها إلى حس ولا عقل ملحقة بأصوات الحيوانات العجم، فكان بذلك حمارا تابعا للهوى.

ولما كان المعنى قد يظهر لبعض القاصرين، لوروده على لسان من لا يعتبر، فإذا أضيف إلى كبير، تؤمل ولم يبادر إلى

---

(١) تفسير النيسابوري = غرائب القرآن ورغائب الفرقان النيسابوري، نظام الدين القمي ٥/٥٣٤

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٩/١٠٤

رده لاستعظامه، فظهر على طول حسه، قال معبرا بأداة النفي الحقيقة به، لأن الموضع لها، وعدل عنها اولا لئلا يظن أن المذموم إنما هو المجادل إذا كان غير متصف بالعلم." (١)

"وأبينها وأعلاها، اشرفها وأولاها، جعل سبحانه سورة القيامة كلها لها إعلاما بأن الأمر عظيم جدا يجب الاعتناء به والتأهب له والاجتهاد بغاية القوة وإفراغ الجهد، ثم اتبع ذلك الإنسان دلالة على أنه المقصود بالذات من الأكوان، فاليسوغ في الحكمة أن يجعله سبحانه سدى وبين كثيرا من أحوالها ثم أقسم في المرسلات أن أملاها حق لا بد منه ولا مندوحة عنه، ثم عجب في " عم " منهم في تساؤلهم عنها وتعجيبهم منها ثم أقسم على زقزعها في النازعات وصور من أمرها وهزاهزها ما أراد، ثم أولى ذلك الدلالة في سورة عبس على **أن من الناس من** طبع على قلبه فلا حيله في تصديقه بها مع ما تبين بالسورة الماضية وغيرها من أمرها، ثم صورها في "كورت " تصوير صارت من رأي عين لو
كشف الغطاء ما ازداد الموقنون بها يقينا، ثم بين في الانفطار أن الأمور فيها ليست على منهاج الأمور هنأ، بل الأسباب كلها منقطعة والأنساب مرتفعة، والكل خاضعون مخبتون خاشعون، أعظمهم في الدنيا تجبرا أشدهم هنالك صغارا وتحسرا، ثم أتبع ذلك من يستحق هنالك النكال والسلاسل والأغلال، ثم أولاه رفعة أهل الإيمان الذين طبعهم على الإقرار بها والعرفان، واستمر على هذا إلى آخر القرآن قل أن تأتي سورة إلا وهي معرفة بها غاية المعرفة إلى أن ختمك بالدين إشارة بذلك إلى أن معرفتها هي الدين." (٢)

"بما ملأ الخافقين وخصصناك به شكرا على سيرتك الحسنى التي كانت قبل النبوة، وتجنبك كل ما يدنس، فلما كان بتنزيلنا كان جامعا للهدى لما لنا من إحاطة العلم والقدرة، فلا عجب في كونه جامعا لهدى الخلق كلهم، لم يدع لهم في شيء من الأشياء لبسا، وهي ناظرة إلى قوله في القيامة ﴿لا تحرك به لسانك﴾ [القيامة: ١٦] الملتفتة إلى ما في المدثر من أن هذه تذكرة، الناظرة إلى ﴿أنا سنلقي عليك قولا ثقيلا﴾ المشيرة إلى ما في سورة الجن من أمر القرآن، فالحاصل أن أكثر القرآن في تقرير عظمة القرآن، فإنه المقصود بالذات من أمر الآية الكبرى التي إذا ثبتت تبعها جميع المراد من الشريعة وتفريق تقرير شأنه أتقن ما يكون في إحكام أمره، وذلك أن الحكيم إذا اهتم بشيء افتتح الكلام به، فإذا رأى من ينكره انتقل إلى غيره على قانون الحكمة، ثم يصير يرمي به في خلال ذلك، رميا كأنه غير قاصد له، ولا يزال يفعل ذلك حتى يتقرر أمره غاية التقرير ويثبت في النفس من حيث لا يشعر.
ولما تقرر **أن من الناس من** ترك الهدى الذي هو البيان، فعمي." (٣)

"على قراءة الجماعة ببنائها للفاعل: لا يعذب أحد عذابا مثل عذاب الله أي لا يعذب أحد غير الله أحدا من الخلق مثل عذاب الله له، والحاصل أنه لا يخاف في القيامة من أحد غير الله، فإنه ثبت بهذا الكلام أن عذابه لا مثل له، ولم يذكر المعذب من هو فيرجع الأمر إلى أن المعنى: فيومئذ يخاف الإنسان من الله خوفا لا مثل له، أي لا يخاف

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٨٦/١٥

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٣٨٧/٢٠

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ١٥٣/٢١

من أحد مثل خوفه منه سبحانه وتعالى، ويجوز أن يكون الضمير في «عذابه» للإنسان، أي لا يعذب أحد من الزبانية أحدا غير الإنسان مثل عذابه، وفي المبني للمفعول: لا يعذب عذاب الإنسان أحد لكن يعده أنه يلزم عليه أن يكون عذاب الإنسان أعظم من عذاب إبليس – ويجوز أن يكون المعنى: إنه لا يحمل أحد ما يستحقه من العذاب كقوله تعالى:

﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

ولما علم أن هذا الجزاء المذكور لا يكون إلا للهلوع الجزوع المضطرب النفس الطائش في حال السراء والضراء، الذي لا يكرم اليتيم ولا المسكين ويحب الدنيا، وكان من المعلوم **أن من الناس من** ليس هو كذلك، تشوفت النفس إلى جزائه فشفى عي هذا التشوف بقوله، إعلاما بأنه يقال لنفوسهم عند النفخ في الصور وبعثرة ما في القبور للبعث والنشور: ﴿يا أيتها النفس المطمئنة *﴾ أي التي هي في غاية." (١)

"مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون (٥٥) فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين (٥٦) وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم والله لا يحب الظالمين (٥٧) ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٥٨) إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون (٥٩) الحق من ربك فلا تكن من الممترين (٦٠) فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنت الله على الكاذبين (٦١) إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم (٦٢) فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين (٦٣)

* * *

(إذ قال الله) ظرف لمكر الله، (يا عيسى إني متوفيك) المراد من الوفاة ها هنا النوم، وعليه الأكثرون أو في الآية تقديم وتأخير تقديره إني رافعك إلي ومتوفيك يعني بعده أو توفاه الله ثلاث ساعات حين رفعه إليه أو سبع ساعات (١) ثم أحياه أو متوفيك من الدنيا، وليس بوفاة موت أي: قابضك من الأرض وافيا لم ينالوا منك شيئا من توفيت مالي، (ورافعك إلي) إلى محل كرامتي، (ومطهرك من الذين

---

(١) كلام باطل يتفق مع أساطير النصارى قاتلهم الله.

قال الإمام فخر الدين الرازي ما نصه:

اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات:

الصفة الأولى: إني متوفيك ونظيره قوله تعالى حكاية عنه فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم [المائدة: ١١٧] واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقين أحدهما: إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها والثاني: فرض التقديم والتأخير فيها، أما الطريق الأول فبيانه من وجوه الأول: معنى قوله إني متوفيك أي متمم عمرك، فحينئذ

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور برهان الدين البقاعي ٤٢/٢٢

أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن والثاني: متوفيك أي مميتك، وهو مروي عن ابن عباس، ومحمد بن إسحاق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه أحدها: قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع وثانيها: قال محمد بن إسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفعه الثالث: قال الربيع بن أنس: إنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها [الزمر: ٤٢].

الوجه الرابع: في تأويل الآية أن الواو في قوله متوفيك ورافعك إلي تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي

وورد الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أنه سينزل ويقتل الدجال»

ثم إنه تعالى يتوفاه بعد ذلك.

الوجه الخامس: في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي، وهو أن المراد إني متوفيك عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال: ورافعك إلي وذلك لأن من لم يصر فانيا عما سوى الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضا فعيسى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

والوجه السادس: أن التوفي أخذ الشيء وافيا، ولما علم الله **أن من الناس من** يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على صحة هذا التأويل قوله تعالى: وما يضرونك من شيء

[النساء: ١١٣].

والوجه السابع: إني متوفيك أي أجعلك كالمتوفى لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفى، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

الوجه الثامن: أن التوفي هو القبض يقال: وفاني فلان دراهمي وأوفاني وتوفيتها منه، كما يقال: سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه، وقد يكون أيضا توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجه من الأرض وإصعاده إلى السماء توفيا له.

فإن قيل: فعلى هذا الوجه كان التوفي عين الرفع إليه فيصير قوله ورافعك إلي تكرارا.

قلنا: قوله إني متوفيك يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء، فلما قال بعده ورافعك إلي كان هذا تعيينا للنوع ولم يكن تكرارا.

الوجه التاسع: أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير: متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ورافعك إلي أي ورافع عملك إلي، وهو كقوله إليه يصعد الكلم الطيب [فاطر: ١٠] والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه،

فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها.

الطريق الثاني: وهو قول من قال: لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير، قالوا إن قوله ورافعك إلي يقتضي أنه رفعه حيا، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر والله أعلم. اهـ (مفاتيح الغيب ٨/ ٢٣٧ – ٢٣٨)." (١)

"يقول: بمغن عنهم شيئا ﴿وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال: فلما سمعوا مقالته مقتوا أنفسهم فنودوا (لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم) (سورة غافر ١٠) الآية

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن الحسن – رضي الله عنه – قال إذا كان يوم القيامة قام إبليس خطيبا على منبر من نار فقال: ﴿إن الله وعدكم وعد الحق﴾ إلى قوله: ﴿وما أنتم بمصرخي﴾ قال: بناصري ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال: بطاعتكم إياي في الدنيا

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الشعبي – رضي الله عنه – في هذه الآية قال: خطيبان يقومان يوم القيامة إبليس وعيسى بن مريم فاما إبليس فيقوم في حزبه فيقول هذا القول

وأما عيسى عليه السلام فيقول: (ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد)

(سورة المائدة آية ١١٧) وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال: **إن من الناس من** يذلله الشيطان كما يذلل أحدكم قعوده من الإبل

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس – رضي اله عنه – في قوله: ﴿ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي﴾ قال: ما أنا بنافعكم وما أنتم بنافعي ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ قال: شركة عبادته

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله: ﴿ما أنا بمصرخكم﴾ قال: ما أنا بمغيثكم

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد – رضي الله عنه – في قوله: ﴿بمصرخي﴾ قال: بمغيثي

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة – رضي الله عنه – في قوله: ﴿إني كفرت بما أشركتمون من قبل﴾ يقول: عصيت الله فيكم." (٢)

"قوله: (إنها السبع المثاني إلخ) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعا من المثاني﴾ [الحجر: ٨٧] الآية وسيأتي تتمة في محله والقرآن بالرفع عطف على خبر إن والموصول صفته وأوتيته بضم التاء قيل: في الحديث ما يدل على أن القرآن العظيم في الآية بمعنى الفاتحة وأنه اسم لها ولم يذكروه هنا ولا في سورة الحجر ولم يعده أحد من أسمائها

---

(١) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن الإيجي، محمد بن عبد الرحمن ٢٥١/١

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور السيوطي ١٩/٥

كالسبع المثاني وأم القرآن، ولا يخفى أن القرآن العظيم يطلق على الفاتحة بالمعنى الكلي ولا يطلق عليها بمعنى الكل إلا مبالغة نحو أنت الرجل، فإن أريد هذا فلا مانع منه، وأما كونه اسما فلا وجه له لأنه لا يلزم من الحمل المساواة. قوله: (وعن ابن عباس رضي الله عنهما (١) إلخ) هو حديث رواه مسلم بمعناه ووسول الله مرفوع مبتدأ خبره مقدر أي جالس ونحوه، ويقال بينا وبينما وتقع بعدها إذا وإذ الفجائيتين وقال الرض اكثر في جواب بينما إذ وفي جواب بينا إذا وما زعمه الحريري من أنه خطأ خطأ وألف بينا للإشباع أو كافة أو بعض من ما، وقال الرضى ة لما قصد إضافة بين إلى جملة ومثله يلزم الإضافة إلى المفرد والإضافة إلى الجمل كلا إضافة زادوا عليها ما تارة وأشبعوها أخرى، وقيل: أصله بين أوقات كذا والجمل مما يضاف إليها أسماء الزمان ثم حذف المضاف الذي هو وقت، وأقيم بين مقامه، والملك في الحديث غير جبريل عليه السلام لما في مسلم بينا جبريل عنده عليه الصلاة والسلام إذ سمع نقيضا من فوقه فرفع رأسه وتال: " هذا باب من السماء فتح لم يفتح إلا اليوم نزل مته ملك لم ينزل إلا اليوم فسقم " (٢) إلخ والنقيض بمعجمات هنا صرير الباب، وأبشر كأكرم بمعنى صر ذا بشارة وخبر سار، وقوله بنورين أي أمرين عظيمين من الكلام الموحى إليك يدلان على علمين عظيمين من العلوم اللدنية، والعلم والوحي يطلق عليه النور كص تطلق الظلمة على مقابله قال تعالى: ﴿انظرونا نقتبس من نوركم﴾ [الحديد: ١٣] . وقوله: (لم يؤتهما) إلخ أي هو مخصوص به صلى الله عليه وسلم من بين الأنبياء، والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وفاتحة الكتاب وما عطف عليه بالجر عطف بيان أو بدل مما قبله ويجوز رفعه ونصبه، وخواتم سورة البقر من قوله: ولمن الرسول﴾ [البقرة: ٢٨٥] إلخ وخواتم بميم بعد المثناة وفي نسخة خواتيم بياء تحتية جمع خاتمة على خلاف القياس وهو مسموع كما نقله الثقات وفي الحديث: " الآعمال بخواتيمها " (١ (وقيل سميا نورين لاشتمالهما على الحروف النورانية، وهي أربعة عشر حرفا مذكورة في أوائل السورة وهو بعيد، والمخاطب النبي عليه الصلاة والسلام حقيقة وإن شمل أمته معنى. قوله: (لن تقرأ حرفا إلخ) الحرف واحد الحروف المعروفة، ويكون بمعنى الكلمة وكل محتمل هنا وضمير أعطيته راجع له وقيل إنه راجع لما وعده أي أعطيت ما وعدته من الثواب، وقيل إنه راجع للنور الشامل للنورين، وما قيل من أن المراد أعطيت ثوابا لأجل قراءة ذلك الحرف سوى ثواب كلماتها وثواب المجموع المؤلف منها أو المراد أعطيت به ما لا يحصيه إلا الله، أو لن تدعو بحرف منها وفيه دعاء كاهدنا إلا أجبت، أو المراد أعفيت ذلك الحرف بأن تتصرف به فيما تشاء، لأن الملك مظهر الأسماء ومتصرف الحروف العالية التي هي الملائكة لا يدفع ما أورد عليه من أن ما ذكر مشترك بينه وبين سائر القرآن الكريم، وان تشبث به ذلك القائل بزعمه. قوله: (وعن حذيفة بن اليمان (٢) إلخ) حذيفة بن اليمان العبسي من كبار الصحابة وكان أبوه يسمى حنبلا، فأصاب دما وهرب إلى المدينة فخالف بني عبد الأشهل فسماه قومه اليماني لكونه حالف اليمانية، وهو نسبة إلى اليمن وأصله يمني، فعوض عن إحدى ياءيه ألف ورسم بغير ياء كما هو معروف في علم الرسم وكان يقال له صاحب السر لقوله حذثني رسول الله صلى الله عليه وسفم عما كان، وما هو كائن إلى يوم القيامة ومات بالمدائن في ست وثلاثين، وكان عمر رضي إلله عنه استعمله عليها، وهذا الحديث أسند. الثعلبي، وقال العراقي: إنه موضوع. وقيل: إنه ضعيف. والمعنى **أن من الناس من** يبعث عليه بشؤم معاصيه الموجبة للعقاب عذاب، ثم يؤخر عنهم ببركة قراءة

صبيانهم ما

ذكر وحتما بمعنى واجبا ومقضيا بمعنى أنه تعلق به قضاء الله أزلا أو قدر، وسطر في اللوح المحفوظ، وفيه دليل على أن القضاء يكون غير مبرم فيغير أو يؤخر والمعني برفعه تأخيره لا إزالته لقوله أربعين سنة ولولاه صار حشوا، والكتاب بوزن رمان هنا بمعنى المكتب، وقد أثبته الجوهري واستفاض استعماله بهذا اله سنى كقوله:." (١)

"" رأس الأمر الإصلام وعموده الصلاة " (٢) وأما حديث " الزكاة قنطرة الإسلام " (٣ (فأخرجه الطبراني في الكبير والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي الدرداء رضي الله عنه مرفوعا بسند ضعيف، والعماد الدعامة من عمدت الحائط إذا دعمته والعمود معروف والقنطرة الجسر، وما ارتفع من الأرض وفي كتب الفقه أن الجسر ما يوضع ويرفع، والقنطرة ما يحكم كما في فتاوى قاضيخان، فكأنه معنى عرفي عندهم والدين الشريعة والإسلام، والإيمان متقاربان والكلام عليهما مفصل في الكتب الكلامية، وكون " الصلاة عماد الدين على التشبيه أو الاستعارة لأنها أشرف أعماله التي لا تسقط فرضيتها إلا نادرا) الزكاة قنطرة لأن مؤديها طهر ماله ونفسه وبين خلوصه، والقنطرة كالجسر يستعار للموصل كما قال أبو تمام:

لا يطمع المرء أن يجتاب لجته بالقول ما لم يكن جسرا له العمل

فإن قلت: وقع في الحديث الصحيح المشهور " بني الإسلام على خمس " وعد منها الزكاة

فيه، فجعلت ثمة عمادا داخلة وهنا قنطرة خارجة عنه فما النكتة فيه قلت: هو تجوز لا حجر فيه، فمن حيث أنها من شعائر الإسلام تعد ركنا منه ومن حيث أن المال بصرفه يجعل بازله داخلا في الإسلام تعد قنطرة أو ذاك باعتبار من رسخ إصلامه وقدم، وهذا باعتبار من حدث إيمانه فتأمل. قوله: (أو مسوقة للمدح بما تضمنه) أي المتقون وفي نسخة أو مادحة بما تضمنه، والمعنى واحد وهو معطوف على مقيدة أو موضحة، وترك كونها مؤكدة كنفخة واحدة لأن التاسيس أولى لا سيما إذا اشمل على نكتة. وقوله: (وتخصيص الإيمان إلخ) إشارة إلى جواب سؤال تقديره لم اختص المدح بهذه دون غيرها مما تضمنه. وقوله: (إظهار) أقحم لفظ الإظهار الحماء إلى أنها في الواقع كذلك، وأن في الوجه الأول إشارة إليه أيضا، وإنما الفرق بينهما بالقصد وعدمه، فلا يقال إنه يجوز جعل وجه التخصيص ما مر من كونها أمهات وأصولا، مع أنه مناسب للاستتباع دون المدح كما لا يخفى وقيل إن في قوله مسوقة إشارة إلى أنه أقل من أخوبه، ولذا أخر. لأن لفظ السوق يشعر بأنه لا يفيده بنفسه ولذا غير الأسلوب. وأعلم **أن من الناس من** قال: إن كون الذين يؤمنون مادحا إنما يحسن إذا حمل المتقين

على حقيقته دون المشارفة إذ ليس الإيمان، وما بعده حاصلا للضالين الصائرين للتقوى فجعل الصفة كاشفة إذا أريد بالتقوى ما في المرتبة الثانية، وجعلها مخصصة على الأولى وإذا جعلت مادحة فالمراد ما هو في المرتبة الثالثة. وقيل: إن كان المخاطب جاهلا بالمعنى فالصفة موضحة والا فهي مادحة، وفيه ما فيه كما سيأتي قريبا فتدبر. قوله: (أو على أنه ماخ منصوب إلخ) الجاز والمجرور معطوف على الجار والمجرور السابقين في قوله على أنه صفة مجرورة وجعل

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ١٥١/١

المصنف رحمه الله المنصوب والمرفوع موصولا بما قبله كالمجروو، لأنهما تابعان له معنى وصفة له بحسب الأصل، وان خرجا صورة ولفظا، ولذأ سماه النحاة قطعا بخلاف المستأنف، ووجه دلالته على ما قصد به في الاتباع، والقطع من المدح ونحوه أنه صفة حميدة علم ثبوتها فيفهم عها ذلئا، وقيل: إن هذا علم من تغييو الإعراب لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في استماعه ومزيدى اهتمام لشأنه لا سيما مع التؤام حذف الغعل، أو إ أحبتدأ ولا يخفى أن دلالة الإعواب المقدو على ذلك غير ظاهرة مع أنها مادحة على الاتباع أيضا كما صرحت به أيضا متون العربية، وفي قوله هم الذين تسامع لأن المقدر هم فقط*قوله:) وإما مفصول إلخ) معطوف على قوله موصولى، وإنما انفصك لأنه قصد الإخبار عنه بما بعده لا إثباته

لما قبله وان فهم ذلك ضمنا فهو، وان لم يجر عليه كالجاري ويكفي هذا في ارتباط الكلام سواء كان الاستئناف نحويا أو بيانيا، فيكون جوابا عن سؤال تقديره ما بال المتقين خصوا بذلك الهدى، فلا يتوهم ضعف هذا الوجه لعدم الارتباط فيه كما نقل عن أبي حيان، ولا إن الظاهر على هذا إن بينهما كمال الانفصال، وتقدير السؤال يقتضي الاتصال وكونه كالجاري عليه لا ينافي كون الوقف تاما كما ستسمعه قريبا، وقال قدس سره: حاصل ما قرره من الاحتمالات أن المتقي إن حمل على المعنى الشرعي، فإن كان خطابا لمن عرف مفهومه مفصلا كانت الصفة مادحة، والا كاشفة وأن حمل على مجتنب المعاصي كانت مخصصة، ولما كان الاستئناف أرجح لم يكن في الترجيح بين هذه الأقسام." (١)

"متصل بالسحاب كالشخص في جزء من البلد وهذا أقرب إلى المثال وذاك إلى عبارة الكتاب، وقد تبع فيه الشارح المحقز،، وترك ما فيه من **أن من الناس من** ذهب إلى أن المراد بالبلد جزؤه، وزعم أن الأعلى والمصب جزء من المطر وليس بذاك، ومنهم من جعله من إطلاق أحد المجاورين على الآخر والأعلى والمصب سحاب والتمثيل لمجرد التلبس، ولمجاورة ورد بأنه يكون المعنى حيحئذ في السحاب رعد وبرق لا في المطر على ما هو المطلوب.

ثم قال ردا لما في الكشف: فإن قلت الظلمة والرعد أي الصت والبرق أي النارية واللمعان كلها أعراض، والعرض لا يتمكن في المكان إلا بنوع توسع من غير فرق بين المطر والسحاب، وبين الظلمة والرعد غاية ما في الباب أن وجه التلبس يكون في البعض أوضح كالرعد بالنسبة إلى السحاب.

قك: معنى الظرفية التي تفيدها في أعم من أن يكون على وجه التمكن في المكان كالجسم في الحيز أو على وجه الحلول في المحل كالعرض في الموضوع أو على وجه الاختصاص بالزمان كالضرب في وقت كذا، وظلمة السحمة والتطبيق في السحاب حقيقة بخلاف ظلمة الليل، وكذا تمكن الجسم الذي يقوم به صوت الرعد وبريق البرق حقيقة في السحاب لا في المطر فاحتيج للتأويل، وما ذكره من أن ظرفية الزمان والمكان حقيقة تدل عليها في بالوضع مسلم عند الأدباء وأما كون ظرفية العرض في الموضوع كذلك فغير مسلم،

والظاهر أن إطلاق في على ما ذكره بطريق الاشتراك اللفظي أو المعنوفي لا الحقيقة والمجاز كما قيل، والذي في الكشف أن الظرفية الحقيقية أي كون الشيء مكانا لآخر لا تراد هنا فإنهما عرضاه والتمكن من خواص الأجسام وإنما يضاف

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٢٠٨/١

للعرض بواسطة معروضة، وهو وإن لم يرتضه الفاضل فهو الظاهر الموافق لكلام النحاة، وليس قصره الظرفية الحقيقية على المكانية لنفي الزمانية بل لأنه محل النزاع، ثم إن الذي أوقعهم في النزإع قوله أعلاه ومصبه فإن ضميربه للمطر وأصل إضافة اسم التفضيل أن يكون لما هو بعض منه فمنهم من أبقاه على ظاهره فجعل الظرف والمظروف قطرا ومنهم من صرفه عنه، وجعله غير مضاف لبعضه وهو الحق وكأنه استعمله ظرفا بمعنى فوق كما أن أسفل يكون بمعنى تحت من غير تفضيل أي إذا كانا في شيء فوقه وهو منشؤه ومصبه والمراد بمصبه محل ينصب منه لا فيه وإليه كما توهم، وفي حواشي ابن الصائغ حكى الشيخ عز الدين عن أبي علي فيه أي في وقته، وقال غيره في مصبه، وهو ضعيف لأن الرعد والبرق لا يكونان في الأرض وهو وهم لما عرفت.

وأعلم أن ألمصنف رحمه الله أتى بعبارة أوجز من عبارة الزمخشري، وقصد في تغييرها

مقاصد حسنة فعدل عن قوله مصبه إلى منحدره بضم الميم وفتح الدال المهملة، وهو اسم مكان أيضا لما في عبارة الكشاف من الغموض واحتمال إرادة الأرض! وهو فاسد كما مر، وحذف قوله في الجملة إذ لا طائلى تحتة، وترك قوله ألا تراك إلخ لأن المتبادر منه أن فلانا في البلد مجاز كما صرح به بعض شراحه، وهو مخالف لما يفهم من العرف، وقد صرحوا بأن صمت في الشهر حقيقة في صوم يوم منه كما صرحوا به وقياسه يقتضي أن هذا حقيقة أيضا كما صرح به في التلويح فقال في للظرف بأن يشتمل المجرور على ما قبلها اشتمالا مكانيا أو زمانيا تحقيقا ن! حو الماء في الكوز وزيد في البلد، أو تشبيها نحو زيد في نعمة، وفي الرضى الظرفية الشحقيقية نحو زيد في الدار وهو مما لا خفاء فيه، وقد يقال إنه تنظير بقطع النظر عن الحقيقة والمجاز فإن الكائن في بقعة من البلد يجعل في جميعها لما بينهما من الملابسة إلا أنه يرد حينئذ ما ذكر على شراحه فتدبر، وقد أطلنا هنا تحريرا وتقريرا إلا أن فيما أبدعناه ما يجعل ذنب الإسهاب (١) مغفورا، ويبدي لعين الإنصاف نضرة وسرورا. قوله: (وإن أريد به السحاب إلخ) ما مر كله على أن المراد بالصيب المطر وقدمه لأنه المعروف في اللغة والاستعمال، وسحمته بضم السين سواده وظلمته، وتطبيقه كون بعضه فوق بعض، وفيه تسامح ولم يقل وظلمة الليل لما مر وظلمة الليل مستفادة من التظلم كما مر وما قيل من أنه يجوز أن يعتبر ظلمات حصلت من إحاطة الغمام، بآفاق السماء على التمام فإن كل أفق إذا استتر بسحاب تتراكم الظلمات بلا ارتياب.

قلت: لم يزد شيئا على ما ذكروه، فإن ما تصلف به هو معنى تطبيقه بعينه غايته أنه جعل

جزء الوجه وجها مستقلا، وقوله وارتفاعها فضمير المؤنث لظلمات، وفي نسخة وارتفاعه بتذكيره لأنه لفظ والمراد أن." (١)

"قال المدقق في الكشف أصله فإن الناس مقل ومكثر على التقسيم فزيدت بين تصويرا للإحاطة وعدم التجاوز ليصير من باب الكناية التي هي أبلغ ثم زيدت من الاتصالية مبالغة كقول الشاعر:

والناس من بين مرحوب ومحجوب

كأنهم ناشئون من البين يبتدئ تقسيمهم منه البتة فجعل ابتداؤهم منه بمنزلة ابتداء التقسيم وجاز أن تجعل من بيانية نظرا

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٣٩٤/١

إلى إقحام بين والأول أبلغ اه فإن قلت الأقسام لا تنحصر فيما ذكر **فإن من الناس من** لا يطلب إلا الآخرة قلت ليس المقصود حصر أقسام الناس مطلقا بل لما ذكر قوله: ﴿أن تبتغوا فضلا من ربكم﴾ قسم أهل الطلب إلى مقل ومكثروهم لا يخلون عنهما ولو سلم فإن من لا يطلب إلا الآخرة سيذكره بقوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٧] فإن من باع نفسه لله صار كلا على مولاه، وقيل حصر المقل في طالب الدنيا لأن طالب الآخرة فقط بحيث لا يحتاج إلى طلب حسنة من الدنيا لا يوجد في الدنيا، وقيل: لأن ذلك ليس بمشروع لأن المرء مبتلي بآفات الدنيا فلا بد له منها، ورد بأن عدم المشروعية في طالب الدنيا فقط أشد، وأيضا التقسيم بمنهم ومنهم لا يفيد الحصر وفيه نظر، وقيل: قسم الله الناس هنا إلى أربع فرق الكافرون الذين لا هتم لهم إلا الدنيا وهم
الذين ليس لهم في الاخرة من خلاق والمقتصدون الذين يقولون ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، والمنافقون الذين حلت ألسنتهم ومرت عقائدهم وضمائرهم وهم الذين قيل فيهم ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٤] الخ والسابقون البائعون أنفسهم الرابحون رضا الله وهم المرادون بقوله: ﴿ومن الناس من يشري نفسه﴾ الخ والمراد بالإكثار الإكثار من ذكر الله وطلب ما عنده. قوله: (اجعل إيتاءنا الخ (إشارة إلى أنه منزل منزلة اللازم، والخلاق النصيب الذي خلق وقدر له وقوله: أو من طلب خلاق قيل: المراد حينئذ ما له في شأن الآخرة من طلب خلاق ليدفع به أنه لا طلب في الآخرة لأحد وإنما فيها الحظ أو الحرمان وقيل: إن كون الآخرة لا طلب فيها ممنوع فإن المؤمنين يطلبون زيادة الدرجات وكذا الكافرون يطلبون الخلاص لكن ما طلبوه ليس نصيبا مقدرا لهم وكون ما نقل تمثيلاظاهر إذ لا ينبغي الحصر وامرأة السوء بالإضافة ويصح فيه فتح السين وضمها. قوله: (١ شارة إلى الفريق) قدمه لأنه هو الجزل ولأن الفريق الأول قد بين حالهم بقوله ومالهم في الآخرة من خلاق فالمناسب تخصيص هذا بالثاني وعلى هذا ينبغي حمل قوله: ﴿والله سريع الحساب﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٠٢] على أنه لا يناقشهم ليسرع وصولهم إلى الفوز بالسعادة الأبدية. قوله: (أي من جنسه وهو جزاؤه) فمن بيانية والجنسية باعتبار كونه حسنة أو ابتدائية أو تبعيضية أو تعليلية، والمراد بما كسبوه الدعاء لأنه عمل لهم والأعمال توصف بالكسب، وكني بسرعة الحساب عن القدرة التامة لأنه يحاسب الأولين والآخرين في مقدار لمحة طرف وقوله: أو يوشك الخ يعني أنه أطلق ما يقع في يوم الجزاء عليه كما قيل في رحمة بمعنى في الجنة وقوله: فبادروا الخ إشارة إلى أن المقصود التحريض على إكثار الدعاء وطلب الآخرة وانتهاز الفرصة وهو وعيد للفريق الأول ووعد للثاني والله أعلم. قوله: (كبروه أدبار الصلوات وعند ذبح القرابين الخ) أدبار جمع
دبر بمعنى عقب، والقرابين جمع قربان وهو الذبيحة المتقرب بها وقوله: في أيام التشريق قيل: ينبغي أن لا يخص بها ليشمل يوم النحر وليس بشيء قال الجصاص لا خلاف بين أهل العلم أن المراد بالأيام المعدودات أيام التشريق وهو مروفي عن عمر وعليئ وابن عباس رضي الله عنهم وغيرهم إلا في رواية عن ابن أبي ليلى: أنها يوم النحر ويومان بعده وقيل: إنه وهم اص. فإن قلت الأيام واحدها يوم وهو مذكر والمعدودات واحدها معدودة وهو مؤنث فكيف يقع صفة له فالظاهر معدودة وصفا للجمع بالمؤنث المفرد وهو جائز، قلت: قيل: ليس هو جمع معدودة بل جمع معدود وجمع جمع مؤنث فيما لا يعقل كما قيل: حمامات وسجلات، وقيل: إنه قدر اليوم مؤنثا باعتبار ساعاته ولك أن تقول إن

المعنى أنها في كل سنة معدودة وفي السنين معدودات فهي جمع معدودة حقيقة فتأمل. قوله: (استعجل النفر) تعجل واستعجل يكون متعديا ومطاوعا ولازما ورجح الزمخشرفي الثاني لمقابل تأخر اللازم كما رجحه في قوله:." [١]

"صغير فنشأ عندهم ثم قدمت به مكة فاشتراه عبدلذ بن جدعان وأعتقه، وخباب عدة من الصحابة منهم من مسه الرق ورق سلمان رضي الله عنه مشهور وتفصيله في الاستيعاب، وفي كلام المصنف رحمه الله خلط بين حديثين، وقد وقع مثله في الكشاف، وهذا الحديث) ١ (يروى من طرق عدة كما في تخريج أحاديث الكشاف وليس هو قول عمر في بعض طرقه فلا معنى لإنكاره بناء على أنه لا يليق بمقام النبوة طرد المؤمنين لأجل غيرهم ظنا إنه ينافي في عصمته لأن الطرد لم يقع منه والذي هم به أن يجعل لهم وقتا خاصا ولهؤلاء وقتا خاصا ليتألف أولئك فيقودهم، إلى الإيمان والصحابة رضي الله عنهم يعلمون ما قصد فلا يحصل لهم إهانة وانكسار قلب منه صلى الله عليه وسلم. قوله: (والمراد بذكر الغداة والعشئ الدوام الخ) كما يقال فعله صباحا ومساء لما يداوم عليه، وقيل الغداة والعشي عبارة عن صلاتي الصبح والعصر لأن الزمان كثيرا ما يذكر، ويراد به ما يقع فيه كما يقال صلى الصبح ويراد بالصبح صلاته وكذا المغرب كما يعكس فيراد بالصلاة زمانها نحو قربت الصلاة أي وقتها، وقد يراد بها مكانها نحو: ﴿لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى﴾ [سورة النساء، الآية: ٤٣] أي المساجد والدعاء على هذا مراد به حقيقته، أو المراد الدعاء الواقع في الصلاة فلا حاجة إلى ما قيل إنه مسامحة أو المراد الصبح والعصر وذكر الصلاة لبيان الدعاء وقد فسر الدعاء هنا بالصلوات الخمس وبالذكر وقراءة القرآن. قوله: (وقرأ ابن عامر يالغدوة) وكذا قرأه في سورة الكهف أبضا وهي قراءة الحسن ومالك بن دينار وأبي رجاء العطاردي وغيرهم، وغدوة وان كان المعروف فيها أنها علم جنس ممنوع من الصرف ولا تدخله الألف واللام، ولا تصح إضافته فلا تقول غدوة يوم الخميس كما قاله الفراء لكنه سمع اسم جنس أيضا منكرا مصروفا فتدخله اللام، وقد نقله سيبويه في كتابه عن الخليل، وذكره جم غفير من أهل اللغة والنحو فلا عبرة بقول أبي عبيد إن من قرأ بالواو وأخطأ وأنه اتبع رسم الخط لأن الغداة تكتب بالواو كالصلاة والزكاة وهو علم جنس لا تدخله الألف واللام والمخطئ مخطئ لما مر، وقد ذكر المبرد عن العرب تنكير غدوة وصرفه وادخال الألف واللام عليه إذا لم يرد غدوة يوم بعينه، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ وكفى بوقوعه في القراءة المتواترة حجة فلا حاجة إلى ما قيل إنه علم لكنه نكر لأن تنكير علم الجنس لم يعهد ولا أنه معرفة ودخلته اللام لمشاكلة العشي كما في قوله:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركا

إذ قال اليزيد لمجاورة الوليد ومنه تعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة. قوله: (يدعون ربهم مخلصين الخ) إشارة إلى أن المراد بالوجه الذات كما في قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ [سورة القصص، الآية: ٨٨] على أحد التفاسير فيه وأن معنى إرادة الذات الإخلاص لها لأنه ذكر في الإشارات أن من الناس من أحال كون الله مرادا لذاته وقال إن الإرادة صفة لا تتعلق إلا بالممكنات لأنها تقتضي ترجيح أحد طرفي المراد على الآخر وذلك لا يعقل إلا في الممكنات، وقوله عليه أي الدعاء بالإخلاص. قوله: (ما عليك من حسابهم الخ) جوز في ما هذه أن تكون تميمية وحجازية وفي شيء أن

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٢/٢٩٣

يكون فاعل الظرف المعتمد على النفي أعني عليك، ومن حسابهم وصف له قدم فصار حالا ومن مزيدة للاستغراق لكن تشبيه الزمخشري بقوله إن حسابهم إلا على ربي الدال على الحصر بصريح النفي والإثبات يشعر بكون شيء مبتدأ، والظرف خبر قدم للحصر، وقوله: ليس عليك حساب إيمانهم يشير إلى تقدير مضاف أو إلى أنه المراد من النظم، أو أن الإضافة إليهم للملابسة المذكورة وأن حساب الإيمان إما بحسب المقدار أو بحسب الإخلاص، والضمير على هذا للمؤمنين كما يعلم من مقابله، ويجوز أن يكون الضمير للمشركين وضمير تطردهم للمؤمنين وضمير سؤالهم وايمانهم راجع إلى من، ولما مشددة حينئذ أو مخففة وما مصدرية. قوله: (فإن كان لهم باطن غير مرضئ الخ) قال أبو حيان كيف يفرض هذا وقد أخبر الله بإخلاصهم في قوله: ﴿يريدون وجهه﴾ واخباره هو الصدق الذي لا شك فيه وليس بشيء مع قوله كما ذكره المشركون. قوله: (فحسابهم الخ) هذا بعينه ما ارتضاه الزمخشري وأن الجملتين في معنى جملة واحدة تؤدي مؤذي ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ وأنه لا بذ منهما والا فالأولى تكفي للجواب وفي قوله كما أن إشارة إلى أن الثانية مسلمة ظاهرة حتى إنها تدل على الأولى لجعلها مقيسا عليها ولم يجعل المعنى أن حسابهم." (١)

"لا يعرفها فهو لازم معناه المتقدم عليه، والقيام بحقها هو معنى الشكر، وهو شامل لما كان باللسان، والأركان والجنان. قوله: (ولعل تخصيصه بتعقيب الشكر لأنه أقوى في باب الأنعام) إذ ركوب البحر مظنة الهلاك لأنهم كما قال عمرو رضي الله عنه دود على عود، وهو من كمال النعمة لقطع المسافة البعيدة في زمن يسير قريب مع عدم الاحتياج إلى الحل، والترحال كما في البر والحركة مع الاستراحة والسكون، ولله در القائل: وأنا لفي الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسري

وقد تقدم تحقيق الرواسي. قوله: (كراهة أن تميل بكم وتضطرب الخ) تقدم نظيره، وأنه بتقدير مضاف أي ككراهة وخوف أو بتقدير لئلا تميد. قوله: (وكان من حقها أن تتحرك

بالاستدارة) قيل لا وجه لهذا على مذهب أهل الحق، ولا على مذهب الفلاسفة أما الأول فلأن ذات الشيء لا تقتضي تحزكه، وإنما ذلك بإرادة الله تعالى، وأما الثاني فلأن الفلاسفة لم يقولوا إن حق الأرض أن تتحرك بالاستدارة لأن في الأرض ميلا مستقيما، وما هو كذلك لا يكون فيه صيد وميل مستدير على ما ذكروا ير العلم الطبيعي، وأورد أيضا على منع الجبال لها من الحركة أنه قد ثبت في الهندسة أن نسبة أعظم جبل في الأرض، وهو ما ارتفاعه فرسخان وثلث فرسخ إلى جميع الأرض نسبة خمس سبع عرض! شعيرة إلى كرة قطرها ذراع، ولا ريب في أن ذلك القدر من الشعيرة لا يخرج تلك الكرة عن الاستدارة بحيث يمنعها عن الحركة، وكذا حال الجبال بالنسبة إلى كرة الأرض فالصحيح أن يقال خلق الله الأرض مضطربة لحكمة لا يعلمها إلا هو، ثم أرساها بالجبال على جريان عادته في جعل الأشياء منوطة بالأسباب، وفيه أنه يرد عليه ما أورده، واعلم أن من أصحاب العلوم الرياضية من ذهب إلى أن الأرض متحركة على ما فصله في نهاية الإدراك مع رده، وأما كون الأرض ذات ميد وميل مستقيم فيمتنع أن تتحرك على الاستدارة بالطبع فهو مبرهن في محله لكن قال الإمام الجمهور على أنه تعالى لما خلق الأرضى على وجه الماء اضطربت فخلق عليها هذه الجبال الثقال

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٤/٦٦

فاستقرت على وجه الماء بسبب ثقل هذه الجبال كما أن السفينة إذا ألقيت على وجه الماء تميل من جانب إلى جانب فإذا وضعت فيها الإجرام الثقيلة استوت على وجه الماء، واستقرت، وهذا مشكل لأنه سطح الماء إن كان حيز الأرض الطبيعي وجب سكونها، واستقرارها وان لم يكن حيزها الطبيعي، وهي أثقل من الماء فلا بد من غوصها في الماء فلم تبق على وجه الأرض مضطربة، وأجاب بأن الأرض كرة من حقها أن تتحرك بالاستدارة كالفلك أو تتحرك بأدنى سبب فلما خلقت عليها الجبال توجهت نحو مركز العالم بثقلها العظيم فكانت جارية مجرى الأوتاد التي منعت الأرض عن الاستدارة فمنعها الأرض عن الميد والاضطراب هو الذي منعها من الحركة المستديرة، وقد تبعه المصنف رحمه الله تعالى على عادته، وأنت إذا تأملته علمت أن ما اعترضوا به غيروا رد لأنها من حيث هي كريتها تقتضي الحركة المستديرة بالذات والميل المستقيم عارض! لها بالثقل فلا منافاة بينه وبين ما تقرر في الطبيعي، وليس هذا محلا يسع تحقيقه، ولكن يكفي من القلادة ما أحاط بالعنق. قوله: (ما هي بمقر أحد على ظهرها) مقر بفتح الميم اسم مكان من القرار والباء زائدة، وقيل إن الظاهر أنه يضمها اسم فاعل من الإقرار بمعنى جعل الشيء قارا والتذكير باعتبار المكان، ولا داعي له. قوله: (وجعل فيها أنهار الخ الما كان الإلقاء بمعنى الطرح لا تتصف به الأنهار أشار إلى تسلطه عليه باعتبار ما فيه من معنى الجعل والخلق أو تضمينه إياه

ويجوز أن يقدر له فعل لأنه على حد قوله:

علفتها تبنا وماء باردا

وقد جوزوا فيه ذلك لكن المصنف رحمه الله تعالى اختار هذا لأن التقرير خلاف الظاهر. قوله: (لمقاصدكم) هذا بناء على الظاهر من أنه تعليل لقوله سبلا، وقوله أو إلى معرفة الله على أنه تعليل لجميع ما قبله لأن تلك الآثار العظام تدل على فاعل حكيم عظيم ففي قوله تهتدون تورية حينئذ. قوله: (معالم) جمع معلم، وهو ما يستدل به على شيء والسابلة الفرقة التي تسلك سبيلا، وتطلق على الطريق نفسها وليس! بمراد هنا، وقوله وريح هو إشارة إلى ما في التفسير الكبير من **أن من الناس من** يشم التراب فيعرف يشمه الطريق، وأنها مسلوكة أو غير مسلوكة، ولذا سميت المسافة مسافة لأنها من السوف بمعنى الشتم فالريح بمعنى الرائحة. قوله: (بالليل في البراري (جمع برية، وهي معروفة." (١)

"مضاف، وعبوديته مفعول يدعي، وقوله بعبد متعلق بقوله مثل، وقوله يتعاورونه بالعين والراء المهملتين من التعاور، وهو التداول بالمناولة، وقوله في مهماتهم، وفي نسخة من مهامهم، وقوله في نحيره متعلق به أيضا، وهو وجه الشبه، وتحيره بينها من ينفعه منها، والى أنها يتوجه مثلا، وقوله توزع قلبه بمعنى تفريق خواطره، وفكره، والموحد معطوف على المشرك. قوله: (ورجلا بدل الخ) بدل كل من كل أو مفعول ثان لضرب كما مر تحقيقه، وقوله وفيه صلة شركاء لأنه يتعدى بفي، يقال اشتركوا في الأمر وهو مبتدأ خبره متشاكسون، والظاهر أنه خبر مقدم لأن النكرة وإن وصفت يحسن تقدم خبرها، ولو كان صلة لم يكن لتقديمه نكتة ظاهرة، وحمل كلام المصنف رحمه الله على هذا، وان كونه صلة، كان قبل التقديم وبعده، وهو خبر مستقر كما في الحمد لله، كما قيل تعسف،

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٣١٨/٥

والجملة صفة رجلا أو الظرف صفته، وشركاء فاعل به لاعتماده، وقوله الاختلاف المراد تحالف آرائهم في استخدامه. قوله: (وقرأ نافع الخ) أخره وان كان معتاد. تقديم قراءة الأكثر، ليكون تفسير. على ما هو أظهر معنى، ولا تجوز فيه مع أن ما ذكر ليس ملتزما له، كما زعمه القائل، وسلم كعلم بمعنى خلص من مزاحمة شركة غيره فيه، والتعب بالمصدر للمبالغة، وقوله ورجل أي قرئ رجل الثاني بالرفع على أنه مبتدأ له خبر مقدم، وقوله وتخصيص الخ، أي ضرب المثل بالرجل دون الصبي، أو دون المرأة، وذكر ما يعمهما كشخصا مثلا. قوله: (صفة وحالا) تفسير للمثل هنا كما مر، وقوله ولذلك وحده لأنه لبيان جنسه ودفع إبهامه، وهو حاصل بالإفراد فلا يزاد على مقدار الحاجة ما لم يحصل لبس بإفراده، أو يقصد الدلالة على معنى زائد فيه كاختلاف نوعهما، أو يقال ضمير يستويان للمثلين، فلو لم يثن لم يحصل التمييز ويلتبس، وقوله: فإن التقدير الخ، دفع لما يتوهم من أن المثل مفرد، فكيف يرجع له ضمير التثنية بأنه وان كان بحسب الظاهر واحدا فهو متعدد، لأن قوله ورجلا بتقدير ومثل رجل. قوله: (كل الحمد له) إشارة إلى أن تعريف الحمد للاستغراق، وقوله: لا يشاركه الخ هو معنى لازم الاختصاص، وقوله: على الحقيقة دفع لما يخطر بالبال، **لأن من الناس من** ينعم إنعاما يستحق به الشكر والحمد حتى قيل:

لا يشكر الله من لا يشكر الناسا

بأن المنعم الحقيقي هو الله وكل ما سواه وسايط وأسباب، كما مر في الفاتحة، وقوله:

لا يعلمون، أي ليسوا من ذوي العلم، أو لا يعلمون أن الكل منه، وان المحامد إنما هي له. قوله: (وفي عداد الموتى) فهو مجاز لأنهم لكونهم يتصفون به بعده بمنزلة من مات الآن، وقوله لأنه مما سيحدث، هكذا في الكشاف الفرق بين الميت والمائت، إن الميت صفة لازمة كالسيد، والمائت صفة حادثة، فقوله زيد مائت غدا أي سيموت أنتهى، يعني أن اسم الفاعل يدل على الحدوث، والصفة المشبهة تدل على الثبوت مع قطع النظر عن دلالته، على الحال أو الاستقبال، لكن لما كان الحدوث فد يعتبر مع القرينة في المستقبل كما هنا، فإن القرينة عقلية، وهي الخطاب إذ الميت في الحلل لا يخاطب، وانم! يظهر الفرق بينهما في المستقبل لاشتراكهما في اتصافهما بالحدث حالا، مثل به كذلك اختيارا للقول بأنه حقيقة في الحال، والاستقبال وهو قول للنحاة، وأهل الأصول، كما في التسهيل ومنهاج المصنف رحمه الله وشرحه، فما قيل إنه يدل على أن اسم الفاعل وضع للاستقبال، والذي غره كلام الكشاف، ولا وجه له لأن قوله غدا قرينة للتجوز، والظاهر أنه من باب زيد أسد، كما في القراءة المشهورة غفلة عن إنه قول لهم اختاره الشيخان هنا فتدبر. قوله: (فنصج عليهم- الخ (جعل الخصام بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين أمة الدعوة، لكن لا على ما يتبادر منه بل على ما أشار إليه الطيبي طيب الله ثراه، من أول السورة إلى هنا، لما ذكرت البراهين القاطعة لعرق الشركة المستجلبة لفرط جهلهم، وعدم رجوعهم مع تهالكه–شبيه على ردهم إلى الحق، وحرصه على هدايتهم، اتجه السؤال منه بعدما قاساه منهم، بأن يقول ما حالي وحالهم، فأجيب بأنك مهدت من نشاط الدعوة ما أردناه، وتم لك من ذلك ما قضيناه، فلا تطمع في الزيادة على ذلك لأنك ستأتي أنت إلى عز الحضور ويساق هؤلاء إلى موقف ينتصف فيه الخصوم كما قيل:

إلى ديان يوم الدين تمضي وعند الله تجتمع الخصوم

قوله: (وقيل المراد الخ) قيل إنه مرضه، لدلالة قوله إنك ميت وانهم الخ، وكذا السياق على الوجه السابق." (١)

"الأولى: المسألة التي ضل بها كثير، وهي ظنهم أن صلاح آبائهم ينفعهم.

الثانية: البيان أن الذي ينفع الإنسان عمله.

الثالثة: أن الذي يضره عمله، ولا يضره معصية أبيه وابنه.

وأما الآية الثانية عشرة ١ ففيها مسائل وهي من جوامع الكلم أيضا:

الأولى: أن من دعا إلى أي ملة كانت وهي من الملل الممدوحة السالم أهلها قيل له: بل ملة إبراهيم لأنها إن كانت باطلة فواضح؛ وإن كانت صحيحة فملة إبراهيم أفضل، كما قال صلى الله عليه وسلم: "أحب الأديان إلى الله الحنيفيةالسمحة ٢") .

الثانية: وهي مما ينبغي التفطن لها أنه سبحانه وصفها بأن إبراهيم حنيفا بريئا ٣ من المشركين، وذلك لأن كلا يدعيها فمن صدق قوله بالفعل وإلا فهو كاذب.

الثالثة: أن الحنيف معناه المائل عن كل دين سوى دين الإسلام لله.

الرابعة: **أن من الناس من** يدعي أنه لا يشرك وأنه مخلص، ولكن لا يتبرأ من المشركين، وملة إبراهيم الجمع بين النوعين.

١قوله تعالى: (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) سورة البقرة آية: ١٣٥.

٢ صحيح البخاري (كتاب الإيمان) ، ورواه الترمذي وأحمد أيضا.

٣ في س (بري) .." (٢)

"السواد والبياض والطول والقصر إلا مقيدا بالأسود والأبيض والطويل والقصير. ونحو ذلك. لا مجردا عن كل قيد. وإنما يوجد مجردا في كلام المصنفين في اللغة. لأنهم فهموا من كلام أهل اللغة ما يريدون به من القدر المشترك.

ومنه قوله تعالى: فأذاقها الله لباس الجوع والخوف [النحل: ١١٢] ، **فإن من الناس من** يقول: الذوق حقيقة في الذوق بالفم. واللباس مما يلبس على البدن.

وإنما استعير هذا وهذا. وليس كذلك بل قال الخليل: الذوق في لغة العرب هو وجود طعم الشيء. والاستعمال يدل على ذلك. قال تعالى: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر [السجدة: ٢١] ، وقال ذق إنك أنت العزيز الكريم [الدخان: ٤٩] ، وقال: فذاقت وبال أمرها [الطلاق: ٩] ، وقال: قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون [الأنعام: ٣٠] ، فذوقوا عذابي ونذر [القمر: ٣٧] ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى [الدخان: ٥٦] ، لا يذوقون فيها بردا ولا

---

(١) حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي =عنايه القاضي وكفاية الراضي الشهاب الخفاجي ٣٣٧/٧

(٢) تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس) محمد بن عبد الوهاب ص/٣٨

شرابا إلا حميما وغساقا [النبأ: ٢٤- ٢٥] ،
وقال النبي: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا» «١»
وفي بعض الأدعية: أذقنا برد عفوك وحلاوة مغفرتك. فلفظ الذوق يستعمل في كل ما يحس به ويجد ألمه أو لذته، فدعوى المدعى اختصاص لفظ الذوق بما يكون بالفم- تحكم منه. لكن ذاك مقيد. فيقال: ذقت الطعام وذقت هذا الشراب. فيكون معه من القيود ما يدل على أنه ذوق بالفم. وإذا كان الذوق مستعملا فيما يحسه الإنسان بباطنه أو بظاهره، حتى الماء الحميم، يقال: ذاقه. فالثوب إذا كان باردا أو حارا، يقال: ذقت حره وبرده. وأما لفظ اللباس، وهو مستعمل في كل ما يغشى الإنسان فيلتبس به. قال تعالى:
وجعلنا الليل لباسا [النبأ: ١٠] ، وقال: ولباس التقوى ذلك خير [الأعراف: ٢٦] ، وقال: هن لباس لكم وأنتم لباس لهن [البقرة: ١٨٧] . ومنه يقال: لبس الحق بالباطل، إذا خلط به حتى غشاه فلم يتميز. فالجوع الذي يشمل ألمه جميع الجائع، نفسه وبدنه، وكذلك الخوف الذي يلبس البدن، لو قيل: فأذاقها الله الجوع والخوف، لم يدل ذلك على أنه شامل بجميع أجزاء الجائع. بخلاف ما إذا قيل: لباس الجوع والخوف. ولو قال: فألبسهم- لم يكن فيه ما يدل على أنهم ذاقوا ما يؤلمهم، إلا بالعقل. من حيث إنه يعرف الجائع الخائف يألم. بخلاف لفظ ذوق الجوع والخوف. فإن هذا اللفظ يدل على الإحساس بالمؤلم. وإذا أضيف إلى الملذ دل على

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، حديث ٥٦.." (١)
"سورة الأنعام
وهي مكية. وهي مائة وخمس وستون آية.
روى العوفي وعكرمة وعطاء عن ابن عباس قال: أنزلت سورة الأنعام بمكة.
روى أبو صالح عن ابن عباس قال: هي مكية، نزلت جملة واحدة، نزلت ليلا وكتبوها من ليلتهم، غير ست آيات منها، فإنها مدنيات، وهي قوله تعالى: قل تعالوا أتل ما حرم ربكم [الأنعام: ١٥١- ١٥٣] . إلى آخر الثلاث آيات. وقوله تعالى: وما قدروا الله حق قدره [الأنعام: ٩١] . الآية. وقوله تعالى: ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا [الأنعام: ٢١- ٢٢] إلى آخر الآيتين.
وذكر مقاتل نحو هذا وزاد آيتين، وهما قوله تعالى: والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك [الأنعام: ١١٤] . الآية. وقوله تعالى: الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه [الأنعام: ٢٠] . الآية.
وروي عن ابن عباس أيضا وقتادة أنهما قالا: إنها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة، قوله: وما قدروا الله حق قدره [الأنعام: ٩١] . وقوله: وهو الذي أنشأ جنات [الأنعام: ١٤١] الآية.
قال البيهقي في (الدلائل) : في بعض السور التي نزلت بمكة آيات نزلت بالمدينة، فألحقت بها. وكذا قال ابن الحصار:

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ١٤٩/١

كل نوع من المكي والمدني، منه آيات مستثناة. قالا: إلا أن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل. ثم ناقش هذه الآيات، قال: ولا يصح به نقل، خصوصا ما ورد أنها نزلت جملة.
ورد عليه السيوطي بأنه صح النقل عن ابن عباس، باستثناء: قل تعالوا." (١)

"ما للحجاب، وإدراك ما لشيء من تلك الأنوار، كان بها إيمانهم برسلهم فوق إيمان أهل البرهان، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أنه قال: لو كشف الحجاب ما ازددت يقينا.

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون، قد يكون من لهم سلامة الفطرة، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد، أو من سلطان إرادة قوية على إرادة ضعيفة، تصرفها عن حسها، وتوجه قواها النفسية إلى ما شاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها – قد يكون لهؤلاء الأفراد في بعض الأحوال من قوة الروح ما يلمحون به بعض الأشياء أو الأشخاص البعيدة عنهم، وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا.

الخوارق الحقيقية والصورية عند الأمم:

إن الأمور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة، أو الخارقة للعادات المألوفة منقولة عن جميع الأمم في جميع العصور نقلا متواترا في جنسه دون أفراد وقائعه وليست كلها خوارق حقيقية، فإن منها ما له أسباب مجهولة للجمهور، وإن منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص، وإن منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقوياء الإرادة، في ضعفائها ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الأمور، والتنويم المغناطيسي، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم، ومنها بعض أنواع العمى والفالج، فإن من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلمعان في وجهه، أو يغشاهما بياض عارض مع بقاء طبقاتهما صحيحة. وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغئورهما كالذي أبرأه المسيح عليه السلام بإذن الله تعالى. وقد بينا هذه الأنواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الأعراف، وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليلها في المجلد الثاني من المنار وأتممناها في المجلد السادس منه.

إن عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الأمم، وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب، وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل، يغترون بما عندهم منها، ويخضعون

للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلبونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها، ولا سيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الأولياء وعجائب القديسين، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التواريخ وما عند جميع الأمم من ذلك." (٢)

---

(١) تفسير القاسمي = محاسن التأويل القاسمي ٣٠٦/٤

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٨٥/١١

"الزكاة آية حسية على الإيمان لا يقدر أن يغش نفسه بها إنسان، فليحاسب كل مؤمن بالله وكتابه نفسه.

وقال الأستاذ الإمام: إن سياق الآية بل الآيات يدل على أن الإيمان هنا مستعمل في معناه، فإنه لما بين أمر الفتنة في تحويل القبلة وبين أن من الناس من ينقلب إلى الكفر ويترك الإيمان، ومنهم من يثبت على إيمانه عالما أن الاعتقاد في مثل مسألة القبلة على اتباع الرسول ؛ لأن الجهات في نفسها متساوية لا فضل لجهة منها على جهة،

بشر هؤلاء المؤمنين المتبعين بأنهم يجزون على إيمانهم الجزاء الأوفى، فلا يضيع الله أجرهم، ولا يلتهم من ثباتهم على اتباع الرسول شيئا. وهذا الذي قاله الإمام ظاهر لكل من يفهم هذا السياق العجيب، ومن عجيب شأن رواة أسباب النزول أنهم يمزقون الطائفة الملتئمة من الكلام الإلهي ويجعلون القرآن عضين متفرقة، بما يفككون الآيات ويفصلون بعضها من بعض، وبما يفصلون بين الجمل الموثقة في الآية الواحدة فيجعلون لكل جملة سببا مستقلا، كما يجعلون لكل آية من الآيات الواردة في مسألة واحدة سببا مستقلا، انظر هذه الآيات تجد إعجازها في بلاغة الأسلوب أن مهدت للأمر بتحويل القبلة ما يشعر به في ضمن حكاية شبهة المعترضين التي ستقع منهم، وبتوهين هذه الشبهة بإسنادها إلى السفهاء من الناس وإيرادها مجملة، وبوصلها بالدليل على فسادها، وبذكر هداية الصراط المستقيم الذي لا التواء فيه ولا اعوجاج، ولا تفريط عند سالكيه ولا إفراط، وبذكر مكانة هذه الأمة بدينها، واعتدالها في جميع أمرها، وببيان الحكمة في جعل القبلة الأولى قبلة ثم التحويل عنها، وبالتلطف في الإخبار عما سيكون من ارتداد بعض من يدعون الإيمان عن دينهم افتتانا بالتحويل وجهلا بالأمر، إذ أورد الخبر في سياق بيان الحكمة حتى لا يعظم وقعه على النبي والمؤمنين، وببيان أن المسألة كبيرة على غير المنعم عليهم بالهداية الإلهية التي سبق ذكرها، وهي الإيمان الكامل بمعرفة دلائل المسائل وحكم الأحكام، ثم بتبشير المؤمنين المهتدين الثابتين على اتباع الرسول – صلى الله عليه وسلم – بإثابة الله إياهم برأفته ورحمته وفضله وإحسانه.

وبعد هذا كله أمره بالتحول أمرا صريحا كما سيأتي في تفسير بقية الآيات. أفيصح في مثل هذا السياق الموثق بعض جمله وآياته ببعض أن نفك وثقه ويجعل نتفا نتفا، ويقال: إن كل جملة منه نزلت لحادثة حدثت، أو كلمة قيلت، وإن أدى ذلك إلى قلب الوضع، وجعل الأول آخرا والآخر أولا، وجعل آيات التمهيد متأخرة في النزول عن آيات المقصد؟ أتسمح لنا اللغة والدين بأن نجعل القرآن عضين ؛ لأجل روايات رويت وإن قيل: إن إسناد بعضها قوي بحسب ما عرف من تاريخ الراوين؟ ! (إن الله بالناس لرءوف رحيم) هذه الجملة استئناف لبيان علة النفي في التي

قبلها، وإن توفية المؤمن المخلص أجره هي من آثار رأفته ورحمته سبحانه، فلا يخشى أن تتخلف وأن يضيع أجر المؤمنين الصادقين. قال (الجلال) : والرأفة شدة الرحمة، وقدم الأبلغ." (١)

"في معانيهما من التكلف والتحري والطلب أو هو بعينه، إلا أنه لا يعبر به فيما يسند إلى الله تعالى كقوله: (فاستجاب لهم ربهم) (٣: ١٩٥) والمعنى: وإذ كنت قريبا منهم مجيبا لدعوة من دعاني منهم فليستجيبوا هم لي بتحري ما أمرتهم من الإيمان والأعمال النافعة لهم كالصيام وغيره مما أدعوهم إليه، كما أجيب دعوتهم بقبول عبادتهم، وتولي

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٠/٢

إعانتهم، فالآية تفيد أن المنفرد بإجابة الدعاء هو الذي يطاع طاعة العبادة، فإذا دعانا غيره إلى عبادة اخترعها باجتهاده لا دليل عليها فيما أوحاه الله إلى نبيه لا نجيبه إليها، كما أننا لا ندعو غيره تعالى.

وقال المفسرون في الأمر بالإيمان هنا: إنه أمر بالمداومة عليه ؛ لأن الخطاب للمؤمنين،

وذهب الأستاذ الإمام إلى أن الخطاب عام وأن حظ من استجاب لله وللرسول منه أن يحاسب نفسه ويطالبها بأن تكون أعماله الظاهرة التي عد بها مسلما صادرة عن الإيمان اليقيني والاحتساب والإخلاص لله تعالى، ففي ذكر الإيمان بعد الاستجابة إشارة إلى أن من الناس من يستجيب إلى الأعمال ويقوم بها وهو خلو من روح الإيمان (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) (٤٩: ١٤) .

(لعلهم يرشدون) أي: بالجمع بين الإيمان والإذعان للأمر والنهي. والرشد والرشاد ضد الغي والفساد، فعلمنا أن الأعمال إذا لم تكن صادرة بروح الإيمان لا يرجى أن يكون صاحبها راشدا مهديا، فمن يصوم اتباعا للعادة وموافقة للمعاشرين فإن الصيام لا يعده للتقوى ولا للرشاد، وربما زاده فسادا في الأخلاق وضراوة بالشهوات ؛ لذلك يذكرنا تعالى في أثناء سرد الأحكام بأن الإيمان هو المقصود الأول في إصلاح النفوس، وإنما نفع الأعمال في صدورها عنه وتمكينها إياه.

(أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون) .." (١)

"ذكر تعالى أن من الناس من يشري؛ أي: يبيع نفسه، وهم المؤمنون الخلص كما في الآيات الأخرى، والإخبار بذلك أقوى في طلبه من الأمر به وأدل على تقريره، لأن الأمر به لا يدل على امتثال المأمورين، والإخبار هو الذي يدل على الوقوع، فالقرآن يصور المؤمنين عاملين بمقتضى الإيمان.

ثم بين أنه ما شرع هذا إلا رأفة بعباده فقال: (والله رءوف بالعباد) إذ يرفع همم بعضهم ويعلي نفوسهم حتى يبذلوها في سبيله لدفع الشر والفساد عن عباده وتقرير الحق والعدل والخير فيهم، ولولا ذلك لغلب شر أولئك المفسدين في الأرض حتى لا يبقى فيها صلاح (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) (٢: ٢٥١) وإن هذا يؤيد ما قلناه في إزالة وهم من يتوهم أن بيع النفس يؤذن بترك الدنيا، وألا يمتع المؤمن نفسه بلذاتها، ولو كان كذلك – وهو من تكليف ما لا يطاق – لما قرنه الله تعالى باسمه الرءوف الدال على سعة رحمته بعباده، فيالله ما أعجب بلاغة كلام الله، وما أعظم خذلان المعرضين عن هداه.

ومن الدقة الغريبة في هذا التعبير الموجز بيان حقيقة عظيمة وهي أن وجود هذه الأمة في الناس رحمة عامة للعباد لا خاصة بهم، والأمر كذلك، بل كثيرا ما ينتفع الناس بعمل المصلحين من دونهم؛ إذ تظهر ثمرات إصلاحهم من بعدهم، وإن على من يبذل نفسه ابتغاء مرضاة الله تعالى في نفع عباده ألا يتهور ويلقي بنفسه في التهلكة، بل عليه أن يكون

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٣٩/٢

حكيما يقدر الأمور بقدرها؛ إذ ليس المقصود بهذا الشراء إهانة النفس ولا إذلالها، وإنما المراد دفع الشر وتقرير الخير العام رأفة بالعباد، وإيثارا للمصلحة العامة. وإن أمة يتصف جميع أفرادها أو أكثرهم بهذا الوصف لجديرة بأن تسود العالمين، وكذلك ساد سلفنا الصالحون، وإن أمة تحرم من هذا الصنف لخليقة بأن تكون مستعبدة لجميع المتغلبين، وكذلك استعبد خلفنا الطالحون، فهل نحن معتبرون؟

(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور)." (١)

"من المتوفي؟ فقال: ((الله تعالى)) وكان هذا من أسباب أمر علي كرم الله وجهه إياه بوضع بعض أحكام النحو. ومنها مسألة المطابقة بين المبتدأ وهو (والذين يتوفون) والخبر هو جملة (يتربصن) فإنها غير جلية على قواعد النحو، وإن كان المعنى جليا والتأليف عربيا، وقد قدر بعضهم لفظ (زوجات) مضافا محذوفا؛ أي: وزوجات الذين يتوفون منكم يتربصن إلخ. قال الأستاذ الإمام: ولا لزوم له؛ أي: لأنه لا يكون معه فائدة لقوله (ويذرون أزواجا) مع ما فيه من التكلف، ويروون عن سيبويه أن الخبر محذوف تقديره: فيما يتلى عليكم من حكم الذين يتوفون منكم. ورجح الأستاذ الإمام ما قاله الكسائي ومثله الأخفش، وهو أن الرابط بين المبتدأ والخبر في مثل هذا التعبير هو الضمير العائد إلى الأزواج الذي هو من متعلقات المبتدأ فهو راجع إلى المبتدأ كأنه قال: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن أزواجهم أربعة أشهر وعشرا. قال: وهو ينطبق على استعماله اللغة، وهناك وجه آخر يرجع إليه وهو صحة الإخبار عن المبتدأ بما يرجع إليه كقول الشاعر:

لعلي إن مالت بي الريح ميلة ... إلى ابن أبي ذبيان أن يتندما

فمراد الشاعر الإخبار عن تندم ابن أبي ذبيان، والأخبار في اللغة لا يراعى بها إلا صحة المعنى، وكونه مفهوما كما تقدم في تفسير: (ولكن البر من اتقى) (٢: ١٨٩) .

ولما كان من شأن الراغبين في التزوج بمن يتوفى زوجها المسارعة إلى خطبتها بين الله للمؤمنين ما يتعلق بذلك من الأحكام والآداب اللائقة بهم وبكرامة النساء في مدة العدة فقال: (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم في أنفسكم) فالمراد بالنساء المعتدات لوفاة أزواجهن، قالوا: ومثلهن المطلقات طلاقا بائنا، وأما الرجعيات فلا يجوز التعريض لهن؛ لأنهن لم

يخرجن عن عصمة بعولتهن بالمرة، والتعريض في الأصل إمالة الكلام عن منهجه إلى عرض منه وهو الجانب، ويقابله التصريح، فهو أن تفهم المخاطب ما تريد بضرب من الإشارة والتلويح يحتمله الكلام على بعد بمعونة القرينة، وفي الكشاف هو: أن تذكر شيئا تدل به على شيء لا تذكره، كما يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتك لأسلم عليك ولأنظر إلى وجهك الكريم. أقول: وللناس في كل عصر كنايات في هذا المقام، ومما سمعته من استعمال عامة زماننا في هذا

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٢/٢٠٤

ذكر الرغبة في الزواج مسندة إلى أناس مبهمين، نحو أن من الناس من يتمنى لو يكون له كذا أو يوفق إلى كذا، والخطبة – بالكسر من الخطاب أو الخطب وهو الشأن العظيم، وهي طلب الرجل المرأة للزواج بالوسيلة المعروفة بين الناس، وأما الخطبة – بالضم – فهي ما يوعظ به من الكلام، والإكنان في النفس هو ما يضمره مريد الزواج في نفسه ويعزم عليه من التزوج بالمرأة بعد انقضاء العدة، أباح الله تعالى أن." (١)

"المعبر بها عن صحته وكمال قواه المستلزم ذلك لصحة الفكر على قاعدة ((العقل السليم في الجسم السليم)) وللشجاعة والقدرة على المدافعة وللهيبة والوقار

(٤) توفيق الله تعالى الأسباب له وهو ما يعبر عنه بقوله: (والله يؤتي ملكه من يشاء والاستعداد هو الركن الأول في المرتبة فلذلك قدمه، والعلم بحال الأمة ومواضع قوتها وضعفها وجودة الفكر في تدبير شئونها، هو الركن الثاني في المرتبة، فكم من عالم بحال زمانه غير مستعد للسلطة اتخذه من هو مستعد لها سراجا يستضيء برأيه في تأسيس مملكة أو سياستها، ولم ينهض به رأيه إلى أن يكون هو السيد الزعيم فيها، وكمال الجسم في قواه ورووائه هو الركن الثالث في المرتبة، وهو في الناس أكثر من سابقيه.

وأما المال فليس بركن من أركان تأسيس الملك؛ لأن المزايا الثلاث إذا وجدت سهل على صاحبها الإتيان بالمال، وإنا لنعرف في الناس من أسس دولة وهو فقير أمي، ولكن استعداده ومعرفته بحال الأمة التي سادها، وشجاعته كانت كافية للاستيلاء عليها والاستعانة بأهل العلم بالإدارة والشجعان على تمكين سلطته فيها، وقد قدم الأركان الثلاثة على الرابع؛ لأنها تتعلق بمواهب الرجل الذي اختير ملكا فأنكر القوم اختياره فهي المقصودة بالجواب، وأما توفيق الله تعالى بتسخير الأسباب التي لا عمل له فيها لسعيه فليس من مواهبه ومزاياه فتقدم في أسباب اختياره، وإنما تذكر تتمة للفائدة وبيانا للحقيقة؛ ولذلك ذكرت قاعدة عامة لا وصفا له.

ولله در الشاعر العربي حيث قال في صفات الجدير بالاختيار لزعامة الأمة وقيادتها:

فقلدوا أمركم لله دركمو رحب ... الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفا إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عض مكروه به خشعا

(ومنها) وليس يشغله مال يثمره عنكم، ولا ولد يبغي له الرفعا

وأقول: إن من الناس من يظن أن معنى إسناد الشيء إلى مشيئة الله تعالى هو أن الله تعالى يفعله بلا سبب ولا جريان على سنة من سننه في نظام خلقه، وليس كذلك فإن كل شيء بمشيئة الله تعالى (وكل شيء عنده بمقدار) (١٣: ٨) أي: بنظام وتقدير موافق للحكمة ليس فيه جزاف ولا خلل، فإيتاؤه الملك لمن يشاء بمقتضى سنته إنما يكون بجعله مستعدا للملك في نفسه، وبتوفيق الأسباب لسعيه في ذلك؛ أي: هو بالجمع بين أمرين: أحدهما في نفس." (٢)

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٣٧/٢

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٧٩/٢

"تقرر الحجة حتى لا يشغل القارئ أو السامع عنها شاغل، فهو من الاختصار البليغ، ولكن المفسرين أبوا إلا أن يبحثوا عنها وعمن مر بها، فقال بعضهم: إنها قرية الذين خرجوا من ديارهم، وقيل غير ذلك. وقيل: إن الذي مر أرمياء، وقيل: العزير؛ رجما بالغيب أو تسليما للإسرائيليات.

وقوله: وهي خاوية على عروشها معناه: وهي خالية من السكان واقعة على عروشها، فقوله: على عروشها خبر بعد خبر، أو متعلق بخاوية على القول الثاني، أي ساقطة على عروشها. وقيل: المعنى وهي الخاوية من السكان وقائمة على عروشها، ومن أمثالهم: إذا نزعت القوائم سقطت العروش، والحال تأتي من النكرة خلافا لمن منع ذلك وأوقع المفسرين في التعسف في التأويل واختيار الجملة الحالية على الحال المفرد لتمثيل حال القرية في النفس بذكر ضميرها، وإسناد خاوية إليه، ولو قال: على قرية خاوية لما أفاد هذا التمثيل.

قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها يتعجب من ذلك ويعده غريبا لا يكاد يقع فأماته الله مائة عام ثم بعثه قالوا: معناه ألبثه مائة عام ميتا، وذلك أن الموت يكون في لحظة واحدة.

قال الأستاذ الإمام: وفاتهم أن من الموت ما يمتد زمنا طويلا، وهو ما يكون من فقد الحس والحركة والإدراك من غير أن تفارق الروح البدن بالمرة، وهو ما كان لأهل الكهف، وقد عبر عنه – تعالى – بالضرب على الآذان. أقول: ولعل وجهه أن السمع آخر ما يفقد من

إدراك من أخذه النوم أو الموت، وهذا الموت أو الضرب على الآذان هو المراد بالشق الثاني من قوله – تعالى –: الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها [٣٩: ٤٢] والبعث هو الإرسال ؛ فإذا كان هذا النوع من الموت يكون بتوفي النفس، أي قبضها فزواله إنما يكون بإرسالها وبعثها.

وأقول: قد ثبت في هذا الزمان **أن من الناس من** تحفظ حياته زمنا طويلا يكون فيه فاقد الحس والشعور، ويعبرون عن ذلك بالسبات وهو النوم المستغرق الذي سماه الله وفاة، وقد كتب إلى مجلة المقتطف سائل يقول: إنه قرأ في بعض التقاويم أن امرأة نامت ٥٥٠٠ يوما أي بلياليها من غير أن تستيقظ ساعة ما في خلال هذه المدة، وسأل هل هذا صحيح؟ فأجابه أصحاب المجلة بأنهم شاهدوا شابا نام نحو شهر من الزمان ثم أصيب بدخل في عقله، وقرءوا عن أناس ناموا نوما طويلا أكثره أربعة أشهر ونصف، واستبعدوا أن ينام إنسان مدة ٥٥٠٠ يوما أي أكثر من ١٥ سنة نوما متواليا. وقالوا: إنهم لا يكادون يصدقون ذلك. نعم إن الأمر غير مألوف، ولكن القادر على حفظ الإنسان أربعة أشهر ونصف، و١٥ سنة قادر على حفظه مائة سنة، وإن لم نهتد إلى سننه في ذلك، فلبث الرجل الذي ضرب على سمعه – هنا مثلا – مائة غير محال في نظر العقل، ولا يشترط عندنا." (١)

"لأن النصر يحصل بذلك، ويصح أن يتعلق بوصف يفيد هذا المعنى الذي يدل عليه الأسلوب كما قدرنا في بيان العبارة، وهو الذي جرى عليه المفسرون محافظة على القواعد الموضوعة.

ربنا آمنا بما أنزلت معطوف على قولهم نحن أنصار الله إلخ أي صدقنا بما أنزلت من الإنجيل واتبعنا الرسول عيسى ابن

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٢/٣

مريم، قال الأستاذ الإمام: ذكر
الاتباع بعد الإيمان ؛ لأن العلم الصحيح يستلزم العمل، والعلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملا وناقصا لا يقينا وإيمانا، وكثيرا ما يظن الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه فيتبين له أنه كان مخطئا في دعوى العلم. ثم قال: إن العلم بالشيء يظل مجملا مبهما في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيليا، فذكر الحواريين الأتباع بعد الإيمان يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصرف لها في العمل فاكتبنا مع الشاهدين للرسول بتبليغ الدعوة، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود، فحذف معمول الشاهدين ليعم المشهود له والمشهود عليهم.

أو يقال: الشاهدين على هذه الحالة أي حالة الرسول مع قومه، وهو الذي اختاره الأستاذ الإمام. قال: ومن المعروف في الفقه أن الشاهدين بمنزلة الحاكم ؛ لأن الفصل بين الخصمين يكون بشهادتهما، ولا تصح الشهادة إلا من العارف بالمشهود به معرفة صحيحة، وقد كان الحواريون كذلك كما علم من إقرارهم بالإيمان والاتباع.

ومكروا ومكر الله أي ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به، فحاولوا قتله وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه، وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة، كذا قال الجمهور، وأقرهم الأستاذ الإمام. ولكن ورد في سورة الأعراف إضافة المكر إلى الله – تعالى – من غير مقابلة بمكر الناس. قال: أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون [٧: ٩٩] والمكر في الأصل: التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب، ولما كان الغالب أن يكون ذلك في السوء لأن من يدبر للإنسان ما يسره وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره، غلب استعمال المكر في التدبير السيئ وإن كان في المكر الحسن والسيئ جميعا قال – تعالى –: استكبارا في الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله [٣٥: ٤٣] ووجه الحاجة إلى المكر الحسن **أن من الناس من** إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله فيحتاج مربيه أو متولي شئونه إلى أن يحتال عليه ويمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول ؛ إذ يوجد في الماكرين الأشرار والأخيار والله خير الماكرين فإن تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه وإتمام حكمه، وكلها خير في نفسها وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم.." (١)

"لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة من حديث أبي سعيد الخدري، وأنت ترى أن الخطاب فيه للأمة، وقد يقال: إنه إذن منه – صلى الله عليه وسلم – وهو حاكم المسلمين في زمنه فهو تشريع وتنفيذ. وقال الأستاذ الإمام في الدرس: هنا يخلطون بين النهي عن المنكر وتغيير المنكر الذي جاء في حديث من رأى منكم منكرا فليغيره وهذا شيء آخر غير النهي ألبتة، فإن النهي عن الشيء إنما يكون قبل فعله وإلا كان رفعا للواقع أو تحصيلا للحاصل، فإذا رأيت شخصا يغش السمن – مثلا – وجب عليك تغيير ذلك ومنعه منه بالفعل إن استطعت، فالقدرة والاستطاعة هنا مشروطة بالنص، فإن لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان وهو غير خاص بنهي الغاش ووعظه بل يدخل فيه رفع أمره إلى الحاكم الذي يمنعه بقدرة فوق قدرتك. أما التغيير بالقلب فهو عبارة عن

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣/٢٥٩

مقت الفاعل وعدم الرضى بفعله، وللنهي طرق كثيرة وأساليب متعددة ولكل مقام مقال.

قال: نعم إن دعوة الأمة غيرها من الأمم إلى الخير الذي هي عليه لا يطالب بها كل فرد بالفعل إذ لا يستطيع كل فرد ذلك، وإنما يجب على كل فرد أن يجعل ذلك نصب عينيه حتى إذا عن له بأن لقي أحدا من أفراد تلك الأمم دعاه، لا أنه ينقطع لذلك ويسافر لأجله، وإنما يقوم بهذا طائفة يعدون له عدته، وسائر الأفراد يقومون به عند الاستطاعة، فهو يشبه فريضة الحج، هي فرض عين ولكن على المستطيع، وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آكد من فريضة الحج، ولم يشترط فيها الاستطاعة لأنها مستطاعة دائما. عند هذا قال قائل: إن من الناس من لا يستطيع ذلك قطعا، فرد عليه قوله وضرب له مثلا طائفة الشيعة فإنهم لما كانت الدعوة ملتزمة عندهم صاروا كلهم دعاة عندما يعن لهم من يدعونه، وذكر أنه لما كان في بيروت احتاج إلى ظئر لإرضاع بنت له فجيء بظئر شيعية من المتأولة فكانت في الدار تدعو النساء إلى مذهبها. وقال: إن رعاة الإبل من الصحابة والتابعين كانوا يدعون كل أحد إلى الإسلام حتى الملوك والأمراء، فهذا يدل على أن الأمة إذا أرادت الدعوة لا يقف في سبيلها شيء، وقد تقدم قوله: إن الجهل ليس بعذر للمسلم لأنه يجب أن يكون عالما.

ثم قال ما حاصله: جملة القول أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض حتم على كل مسلم كما تدل عليه الآية في ظاهرها المتبادر، وغيرها من الآيات كقوله – تعالى –: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه [٥: ٧٩] وكذلك عمل الرسول – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه – رضي الله عنهم –. وكون هذا حفاظا للأمة وحرزا ظاهر ؛ فإن الناس إذا تركوا دعوة الخير وسكت بعضهم لبعض على ارتكاب المنكرات خرجوا عن معنى الأمة وكانوا أفذاذا متفرقين لا جامعة لهم ؛ ولهذا ضرب الرسول – صلى الله عليه وسلم – للمداهن مثل راكب." (١)

"يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التي أعدت للكافرين وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين اعلم أن وضع هذه الآيات الواردة في الترهيب والترغيب والإنذار والتبشير في سياق الآيات الواردة في قصة أحد هو من سنة القرآن في مزج فنون الكلام وضروب الحكم والأحكام بعضها ببعض، ومحل بيان سبب ذلك وحكمته مقدمة التفسير، وقد نشير إلى بعضها أحيانا في تفسير بعض الآيات، على أن هذه السنة لا تنافي أن يكون لاتصال كل آية أو آيات بما قبلها وجه وجيه تتقبله البلاغة بقبول حسن كما علم مما سبق.

قال الرازي هنا: " اعلم أن من الناس من قال إنه – تعالى – لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٢٩/٤

إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي الجهاد أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهي والترغيب والتحذير، فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا وعلى هذا التقدير تكون هذه الآية ابتداء كلام ولا تعلق لها بما
قبلها، وقال القفال – رحمه الله –: يحتمل أن يكون ذلك متصلا بما تقدم، من جهة أن المشركين أنفقوا على تلك العساكر أموالا جمعوها." (١)

"وذكر الفوز مطلقا غير متعلق به شيء يفيد أنه الفوز العظيم الذي يشمل كل ما يطلبه المرء من سلامة من مكروه، وفوز بمحبوب، وناهيك بالسلامة من النار، والفوز بالنعيم الدائم في دار القرار.
الأستاذ الإمام: ذكر توفية الأجور، ثم بين ذلك بأبلغ عبارة موجزة إيجازا معجزا فأعلم أن هنالك جنة ونارا، **وأن من الناس من** يلقى في تلك ومنهم من يدخل في هذه، وأبان عظيم هول النار، وشدتها بالتعبير عن النجاة عنها بالزحزحة كأن كل شخص كان مشرفا على السقوط فيها، وأن مجرد الزحزحة عنها فوز كبير، وفيه إيماء
إلى أن أعمال الناس سائقة لهم إلى النار ؛ لأنها حيوانية في الغالب حتى لا يكاد يدخل أحد الجنة إلا بعد أن يكون زحزح عما كان صائرا إليه من السقوط في النار، أما هؤلاء المزحزحون فهم الذين غلبت في نفوسهم الصفات الروحية على الصفات الحيوانية فأخلصوا في إيمانهم، وفي أعمالهم، وجاهدوا في الله حق جهاده حتى لم يبق في نفوسهم شائبة من إشراك غير الله في عمل من الأعمال. أفاد هذا الإيجاز كل هذه المعاني، ولم يحتج في هذه الآية إلى مثل ما ذكر في آيات أخرى من وصف الجنة والنار لما يقتضيه السياق هنالك من الإطناب، والتعريف بشيء من أمور عالم الغيب، وعبر بالفاء في قوله: فمن زحزح للترتيب، وبيان السبب. كذا كتبت عنه، وكتبت بجانبه " وفيه نظر " ولعلي كنت أريد مراجعته فيه فنسيت، والظاهر أن هذه الفاء عاطفة، وفيها معنى الترتيب دون السبب، وما بعدها تفصيل لتوفية الأجور.
وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور الدنيا صفة للحياة، وهي مؤنث الأدنى، والمتاع ما يتمتع به أي ينتفع به زمنا ممتدا امتدادا طويلا، أو قصيرا لأنه من المتوع، وهو الامتداد، يقال متع النهار ومتع النبات: إذا ارتفع وامتد، ويقال للآنية: متاع، قال – تعالى –: ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع [١٣: ١٧] وقال في إخوة يوسف: ولما فتحوا متاعهم [١٢: ٦٥] وهو الأوعية بما فيها من الميرة، والطعام، والغرور: الخداع، وأصله إصابة الغرة أي الغفلة ممن تخدعه وتغشه. قال في الكشاف: شبه الدنيا بالمتاع الذي يدلس به على المستام، ويغر حتى يشتريه، ثم يتبين له فساده ورداءته.
الأستاذ الإمام: الحياة الدنيا هي السفلى، أو القربى، والمراد منها حياتنا هذه، أي معيشتنا الحاضرة التي نتمتع فيها باللذات الحسية كالأكل، والشرب، أو المعنوية كالجاه، والمنصب، والسيادة، هذه الحياة هي أقرب الحياتين، وأدناهما، وأحطهما، وهي على كل حال متاع الغرور ؛ لأن صاحبها دائما مغرور مخدوع لها تشغله كل حين بجلب لذاتها ودفع آلامها، فهو يتعب لما لا يستحق التعب، ويشقى لتوهم السعادة، ويتعب نقدا ليستريح نسيئة، والعبارة جاءت بصيغة الحصر فهي تشمل حياة الأبرار الذين يصرفون أعمالهم في نفع الناس حبا بالخير، وتقربا إلى الله – عز وجل –." (٢)

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤/١٠٠

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤/٢٢٣

"إلى آخر الآيتين [٦٧، ٦٨] من سورة الأنفال. وكما عاتبه في الإعراض عن الأعمى المسترشد في أول سورة: عبس وتولى [٨٠: ١] إلخ، ولا يدخل في هذا المقام ما يقوله - صلى الله عليه وسلم - في الأمور الدنيوية المحضة كالعادات، والزراعة، ونحوها ؛ لأنه ليس دينا، ولا قضاء، ولا سياسة ؛ ولذلك قال - صلى الله عليه وسلم - في مسألة تأبير النخل: أنتم أعلم بأمر دنياكم كما في الصحيح.

الأستاذ الإمام: طاعة الرسول هي طاعة الله بعينها ؛ لأنه إنما يأمرنا بما يوحيه إليه الله من مصالحنا التي فيها سعادتنا في الدنيا والآخرة، وإنما يذكر طاعة الرسول مع طاعة الله **لأن من الناس من** كانوا يعتقدون قبل اليهودية، وبعدها، وكذلك بعد الإسلام إلى اليوم: أن الإنسان يمكن أن يستغني بعقله، وعلمه عن الوحي، يقول أحدهم: إنني أعتقد أن للعالم صانعا عليما حكيما، وأعمل بعد ذلك بما يصل إليه عقلي من الخير واجتناب الشر. وهذا خطأ من الإنسان، ولو صح ذلك لما كان في حاجة إلى الرسل، وقد تقدم في تفسير سورة الفاتحة أن الإنسان محتاج بطبيعته النوعية إلى هداية الدين، وأنها هي

الهداية الرابعة التي وهبها الله للإنسان بعد هداية الحواس والوجدان والعقل. فلم يكن العقل في عصر من عصوره كافيا لهداية أمة من أممه، ومرقيا له بدون معونة الدين.

أقول: يرد على هذا من جانب المرتابين والملاحدة: أننا نرى كثيرا من أفراد الناس لا يدينون بدين وهم في درجة عالية من الأفكار، والآداب، وحسن الأعمال التي تنفعهم، وتنفع الناس، حتى إن العاقل المجرد عن التعصب الديني يتمنى لو كان الناس كلهم مثله بل يسعى كثير من الفلاسفة لجعل الأمم مثل هؤلاء الأفراد في آدابهم، وارتقائهم.

وأجيب عن هذا (أولا) بأن الكلام في هداية الجماعات من البشر، والقبائل، والأمم الذين يتحقق بارتقائهم معنى الإنسانية في الحياة الاجتماعية سواء كانت بدوية، أو مدنية، وقد علمنا التاريخ أنه لم تقم مدنية في الأرض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين حتى مدنيات الأمم الوثنية كقدماء المصريين، والكلدانيين، واليونانيين، وعلمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير مرسل من الله - عز وجل - لهدايتها، فنحن بهذا نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها، كما سرت إلى من بعدهم من أهل الديانات التي بقي أصلها كله أو بعضه على سبيل القطع، أو على سبيل الظن. وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظا تاما إلا الديانة الإسلامية، وهو مع ذلك قد دون في أسفاره كيفية سريان الوثنية الجلية أو الخفية إلى كثير من المنتسبين إليها كالنصيرية، وسائر الباطنية، وغيرهم ممن غلب عليهم التأويل أو الجهل، حتى إنه يوجد." (١)

"هذا العصر علينا، يعترفون بأنهم أخذوا هاتين المزيتين - استقلال الفكر والإرادة - عنا وأقاموا بناء مدنيتهم عليهما، ولله در القائل منا: " لاعب ولدك سبعا وأدبه سبعا، وصاحبه سبعا، ثم اجعل حبله على غاربه " وسنعود إلى هذه المسألة إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: وبذي القربى أي: وأحسنوا بمعاملة ذي القربى وهم أقرب الناس إلى الإنسان بعد الوالدين الذين يلونهما في

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٥١/٤

الحقوق، وفي سورة البقرة: وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذي القربى (٢: ٨٣) ، إلخ، فأعيد الجار هنا ولم يعد هناك، قال بعض المفسرين: النكتة في ذلك أن الوصية بذي القربى مؤكدة في هذه الأمة زيادة عن تأكيدها في بني إسرائيل؛ لأن إعادة الجار للتأكيد، وعندي أنه يمكن أن تكون إعادة الجار لإفادة التنويع، فإن الإحسان بالوالدين غير الإحسان بالأقربين، إذ يجب للوالدين من الرعاية والتكريم والخضوع ما لا يجب لغيرهما، ومتى ارتقت الشرائع بارتقاء الأمة حسن فيها مثل هذا التحديد والتدقيق في الحدود والواجبات لاستعداد الأمة لها.

الأستاذ الإمام: إذا قام الإنسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته وصلحت أعماله، وقام بحقوق الوالدين فصلح حالهما وحاله، تتكون بذلك وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد، وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة، فإذا عاون أهله البيوت الأخرى التي إلى هذا البيت بالقرابة وعاونته هي أيضا يكون لكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه أن يحسن بها إلى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مؤنة الحاجة إلى الناس الذين لا يجمعهم بهم النسب، وهم الذين عطفهم على ذوي القربى بقوله: واليتامى والمساكين، فإن الله تعالى يوصي باليتامى في مثل هذا المقام ؛ لأن اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوي الغيور وهو الأب، أو تكون تربيته ناقصة بالجهل الذي هو جناية على العقل، أو فساد الأخلاق الذي هو جناية على النفس، وهو بجهله وفساد أخلاقه يكون شرا على أولاد الناس يعاشرهم فيسري إليهم فساده، وقلما تستطيع الأم أن تربي الولد تربية كاملة مهما اتسعت معارفها، وكذلك المساكين لا تنتظم الهيئة الاجتماعية إلا بالعناية بهم وصلاح حالهم، فإن أهمل أمرهم الأغنياء كانوا بلاء وويلا على الناس، وقلما ينظر الناس في المسكنة إلى غير العدم وصفر الكف، والمهم معرفة سبب ذلك، **فإن من الناس من** يكون سبب عدمه وعوزه ضعفه وعجزه عن الكسب، أو نزول الجوائح السماوية تذهب بماله من غير تقصير منه، وهذا هو المسكين الحقيقي الذي تجب مواساته بالمال الذي يقع موقعا من كفايته، ومنهم العادم: الذي ما عدم المال إلا بالإسراف والتبذير والمخيلة والفخفخة الباطلة، ومنهم العادم: الذي ما عدم المال إلا لكسله وإهماله للكسب طمعا فيما في أيدي الناس واتكالا عليهم،." (١)

"جعل المفسر (الجلال) الآية كلاما مستأنفا في اليهود، فجعل: الذين يبخلون، مبتدأ خبره محذوف تقديره: لهم وعيد شديد، والظاهر أنه بدل من قوله تعالى: من كان مختالا أو صفة

على القول بوقوع الموصول موصوفا وعليه الزجاج، وقيل: إنه منصوب أو مرفوع على الذم، وأقرب منه، ومن قول الجلال أنه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هم الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، والبخل بضم فسكون، وبه قرأ الجمهور، وبالتحريك: وبه قرأ حمزة والكسائي وقرئ بضمتين وبفتح وسكون وهما لغتان أيضا.

الأستاذ الإمام قال المفسر: يبخلون بما آتاهم الله من العلم والمال وهم اليهود، وهما قولان: فمن خص البخل بالبخل بالعلم جعل الكلام في اليهود، ومن قال: هو البخل بالمال لم يجعله في اليهود، فالمفسر جمع بين القولين وخص الكلام باليهود، واضطر لأجل ذلك إلى قطع الكلام وجعل الذين مبتدأ خبره محذوف، وإن لم يوجد في الكلام ما يدل عليه، ولمن يحمل الكلام على اليهود مندوحة عن هذا القطع إلى أهون منه، وهو القطع من ابتداء قوله تعالى: إن الله لا يحب

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٧٤/٥

إلخ، ومن العجيب أن مثل ابن جرير الطبري حمل الكلام على اليهود كأنه تعالى بعد تلك الأوامر بالإحسان ختم الكلام بقوله: إن الله لا يحب اليهود، وما هذا بأقرب إلى البلاغة من القطع الأول، وأعجب من قول ابن جرير تعليله إياه بأنه لا يوجد في الناس أمة تأمر الناس بالبخل على أنه دين، فتعين أن يكون المراد بالبخل البخل بغير المال، وكأن ابن جرير لم يخبر الناس، فإن من طبيعة البخيل الأمر بالبخل بحاله ومقاله ليسهل على نفسه خلقه الذميم ويجد له فيه أقرانا وأمثالا، وذكر الأستاذ أن من الناس من أمروه بالبخل مرارا، وأن أمرهم كان يؤثر في نفسه أحيانا حتى إنه ربما رد يده بالدراهم إلى جيبه بعد إخراجها إذا كان للبخيل المنفر شبهة قوية كقوله: إن هذا غير مستحق فإعطاؤه إضاعة، وإذا وضع ما يراد إعطاؤه إياه في موضع كذا يكون خيرا وأولى، وأقول: إن هذا وقع لي أيضا حتى في هذا الأسبوع الذي أكتب فيه وأنا في القسطنطينية، وليس لدي الآن تفسير ابن جرير فأراجع عبارته فإني أرى العجب العجاب فيما نقله عنه الأستاذ هو مخالفته للرواية التي نقلتها عنه آنفا عن بعض التفاسير في سبب النزول وهي مروية عنه، وعن ابن إسحاق، وابن المنذر، والذم على الأمر بالبخل لا يتوقف على الأمر به باسم الدين فليراجعه من شاء وليتذكر القارئ ما نبهنا عليه من قبل في سبب النزول وهو أنهم يذكرون فيه الحوادث التي اقترنت

بزمن نزول الآية إذا كانت تناسبها، وإن لم تكن الآية نزلت في الحادثة التي ذكروها خاصة بأن تكون نزلت في سياق هي متممة له، وإن الراوي رأى أنها تتناول تلك الحادثة، أو ظن أنها نزلت فيها خاصة، وقد يكون مخطئا في اجتهاده لمنافاة ذلك لأسلوب القرآن البليغ، ولنعد إلى سياق الأستاذ الإمام في الآية قال ما مثاله." (١)

"الثاني: قول أكثر المتكلمين: إن المراد منه أن القرآن كتاب كبير مشتمل على كثير من العلوم، فلو كان من عند غير الله لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة ؛ لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك.

الثالث: قول أبي مسلم: إن المراد الاختلاف في مرتبة الفصاحة حتى لا يكون في جملة ما يعد في الكلام الركيك، بل بقيت الفصاحة فيه من أوله إلى آخره على نهج واحد، ومن المعلوم أن الإنسان – وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة – إذا كتب كتابا طويلا مشتملا على المعاني الكثيرة فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قويا متينا وبعضه سخيفا نازلا، ولما لم يكن القرآن كذلك علمنا أنه المعجز من عند الله – تعالى –.

نقل الرازي ما نقله في هذا المقام عن مفسري المعتزلة، وهم الذين بينوا من بلاغة القرآن ومزاياه العجب العجاب، وقد سبق إلى تحقيق القول في هذه المسألة وتفصيله القاضي أبو بكر الباقلاني إمام الأشعرية ورافع لوائهم المتوفى ٤٠٣ هـ، فإنه بين في كتابه " إعجاز القرآن " وجه إعجازه بإخباره عن المغيبات، وباشتماله على العلوم والأخبار التي لا تعرف إلا بالتلقي والتعليم مع كون من جاء به أميا ثم قال:

والوجه الثالث: أنه بديع النظم عجيب التأليف، متناه إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه والذي أطلقه العلماء هو على هذه الجملة، ونحن نفصل ذلك بعض التفصيل ونكشف الجملة التي أطلقوها، فالذي يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للإعجاز وجوه:

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٨٠/٥

(منها) ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من جميع كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به، ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة، وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلا في وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له، وقد علمنا أن القرآن مخالف لهذه الوجوه ومباين لهذه الطرق، ويبقى علينا أن نبين أنه ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه، وكذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعي أن فيه شعرا كثيرا والكلام يذكر بعد هذا الموضع، فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم، أنه خارج عن العادة وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن، وتميز حاصل في جميعه.." (١)

"مع الثعلب، وسائر الحيوانات غير المفترسة مع السباع المفترسة، وإنما ألم الذبح لحظة واحدة، ويقول علماء الحياة: إن إحساس الأنعام والدواب بالألم أضعف من إحساس الإنسان به، فلا يقاس أحدهما على الآخر، على أن من الناس من لا يعظم ألمهم من الجرح، فربما يقطع عضو الواحد منهم لعلة به ولا يتأوه، وقد يغمى على غيره من مثل ذلك، ولا يحتمله الأكثرون إلا إذا خدروا تخديرا لا يجدون معه ألما ولا شعورا.

(مذهب الحنفية في ذبائح أهل الكتاب ومناكحتهم)

جاء في ص (٩٧) من الجزء الثاني من " العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية " لابن عابدين الشهير، صاحب الحاشية الشهيرة على الدر المختار ما نصه:

" سئل في ذبيحة العربي الكتابي هل تحل مطلقا أو لا (الجواب) تحل ذبيحة الكتابي ؛ لأن من شرطها كون الذابح صاحب ملة التوحيد حقيقة كالمسلم، أو دعوى كالكتابي ؛ ولأنه مؤمن بكتاب من كتب الله تعالى، وتحل مناكحته، فصار كالمسلم في ذلك، ولا فرق في الكتابي بين أن يكون ذميا يهوديا، حربيا أو عربيا تغلبيا ؛ لإطلاق قوله تعالى: وطعام الذين أوتوا الكتاب والمراد بطعامهم: مذكاهم، قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه: قال ابن عباس رضي الله عنهما: " طعامهم: ذبائحهم " ولأن مطلق الطعام غير المذكى يحل من أي كافر كان بالإجماع، فوجب تخصيصه بالمذكى، وهذا إذا لم يسمع من الكتابي أنه سمى غير الله ؛ كالمسيح والعزير، وأما لو سمع فلا تحل ذبيحته ؛ لقوله تعالى: وما أهل لغير الله به وهو كالمسلم في ذلك، وهل يشترط في اليهودي أن يكون إسرائيليا، وفي النصراني ألا يعتقد أن المسيح إله؟ مقتضى إطلاق الهداية وغيرها عدم الاشتراط، وبه أفتى " الجد " في الإسرائيلي، وشرط في " المستصفى " لحل مناكحتهم عدم اعتقاد النصراني ذلك، وكذلك في " المبسوط " فإنه قال: " ويجب ألا يأكلوا ذبائح أهل الكتاب إذا اعتقدوا أن المسيح إله، وأن عزيرا إله، ولا يتزوجوا نساءهم " لكن في " مبسوط شمس الأئمة ": وتحل ذبيحة النصراني مطلقا سواء قال ثالث ثلاثة أو لا، ومقتضى إطلاق الآية: الجواز، كما ذكره التمرتاشي في فتاواه، والأولى

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٢٣٦/٥

ألا يأكل ذبيحتهم ولا يتزوج منهم، إلا لضرورة كما حققه الكمال ابن الهمام، والله ولي الإنعام، والحمد لله على دين الإسلام، والصلاة والسلام على محمد سيد الأنام.

" قال العلامة قاسم في رسائله: قال الإمام: ومن دان دين اليهود والنصارى من الصابئة والسامرة، أكل ذبيحته وحل نساؤه، وحكى عن عمر رضي الله عنه أنه كتب إليه فيهم، أو في أحدهم، فكتب مثل ما قلنا، فإذا كانوا يعترفون باليهودية والنصرانية، فقد علمنا أن النصارى فرق، فلا يجوز إذا جمعت النصرانية بينهم أن نزعم أن بعضهم تحل ذبيحته ونساؤه، وبعضهم." (١)

"وبعض الأواني: كالقرع والمزفت، **وأن من الناس من** يسكر بها عند أدنى تغير يعرض لها، أو إذا أكثر منها وإن لم تختمر، ولأجل هذا اختلف العلماء في النبيذ، فذهب الجمهور إلى أنه إذا صار يسكر الكثير منه فشرب القليل منه يكون حراما لسد ذريعة السكر، وهو إنما يسكر كثيره إذا تغير ولو بحموضة قليلة، وذهب بعضهم إلى أنه لا يحرم منه حينئذ إلا المقدار المسكر، لأنه لا يسمى خمرا فيتناوله النص، فإذا كان ما يشرب منه لم يسكر فلا وجه لقياسه على الخمر، فإن صار بحيث يسكر فهو خمر لغة وشرعا، كما هو المتبادر من فهم الصحابة للآية، ومن تعليل عمر في خطبته لتسمية الخمر بأنها ما خامر العقل، أو شرعا فقط ودلالة الحقيقة الشرعية أقوى من دلالة الحقيقة اللغوية في الأحكام.

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر خمر وكل خمر حرام " رواه مسلم وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر، وفي رواية لمسلم والدارقطني "كل مسكر خمر وكل خمر حرام ".

وقد غلط ابن سيده في اقتصاره على قول صاحب العين: الخمر عصير العنب إذا أسكر، ولعل سبب ذلك أن خمر العنب كانت كثيرة في زمن تدوين اللغة، فظن بعضهم أن الإطلاق ينصرف إليها لكثرتها وجودتها، ونقل الصحيحين والمسانيد والسنن بيان معنى الخمر عن الصحابة أصح من نقل جميع اللغويين للغة.

ولما لم يجد من اطلع من الحنفية على الأحاديث السابقة ونحوها تفصيا منها للاتفاق على صحة الكثير منها حملوا إطلاق لفظ الخمر فيها على المسكر من غير العنب على مجاز التشبيه كما في فتح القدير، واستدلوا على ذلك بما رواه البخاري عن ابن

عمر قال: " لقد حرمت الخمر وما بالمدينة منها شيء، وهذه العبارة مبهمة لا يعرف لمن قالها وبأي مناسبة قالها، فيحتمل أن يكون بعض الناس قد ذكر خمر العنب، فقال ابن عمر ما معناه: إن الخمر لما حرمت لم يكن يوجد في المدينة شيء من خمر العنب، وإنما كانت خمور أهلها من التمر والبسر في الغالب، ويحتمل أن يكون معنى كلامه أن الله حرم الخمر ولأجل هذا لا يوجد في المدينة منها شيء بهذا يجمع بين سائر الأحاديث والآثار التي تقدم بعضها حتى عنه وعن أبيه وإلا كانت متعارضة، ولما كانت العبارة محتملة لعدة وجوه سقط الاستدلال بها على ما قالوه ولا يمكن الجمع بينها وبين ما عارضها بحمل ما خالفها على المجاز، لأن تلك العبارات تأبى أن تكون تشبيها كقول عمر

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٦/١٦٥

في خطبته: " ونزل تحريم الخمر وهي من خمسة العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير والخمر ما خامر العقل " فهل يمكن أن يقال: نزل تحريم خمرة العنب وهي من خمسة أشياء إلخ؟ أم يمكن أن يقال: نزل تحريم ما يشبه الخمر في." (١)

"والأرض المشار إليها بقوله: أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي (٢١: ٣٠) وقوله ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (٤١: ١١) إلخ. والظاهر أن هذه المادة المعبر عنها أو المشبهة بالدخان في هذه الآية هي المشبهة بالغمام المشابه للدخان في قوله – تعالى –: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة (٢: ٢١٠) فهذا كلام عن إعادة الخلق يوم القيامة وهي النشأة الأخرى، وذاك كلام في بدئه وهي النشأة الأولى وقد قال – تعالى –: قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة (٢٩: ٢٠) وقال كما بدأنا أول خلق نعيده (٢١: ١٠٤)

إذا تذكرت هذا فاعلم أن كل ما يشغل عن معرفة الله – تعالى – ومراقبته من أطوار الخلق وشئونه فهو حجاب له عنه، فالحجب بين العبد والرب كثيرة، وطوبى لمن آمن وعرف أن له ربا، وأن هذه المخلوقات حجب دونه، وأنه فوقها بائن منها لا تشبهه ولا يشبهها، فإنها حينئذ قد تكون من وسائل معرفته وشكره ومحبته، ولا تكون حجبا إلا دون إدراك كنهه وحقيقته، **وأن من الناس من** تكون حجبا له دون

الإيمان والمعرفة، وسيأتي الفرق بين الفريقين في شاهد آخر، وقد روى الطبراني في الأوسط من حديث أنس – رضي الله عنه – مرفوعا " سألت جبريل هل ترى ربك؟ قال إن بيني وبينه سبعين حجابا من نور، ولو رأيت أدناها لاحترقت " ورواه عنه سمويه بلفظ: " سبعين ألف حجاب من نور ونار " وفي النهاية لابن الأثير أن جبريل – عليه السلام – قال: " لله دون العرش سبعون حجابا لو دنونا من أحدها لأحرقتنا سبحات وجه ربنا " وهذه الروايات صحيحة المعنى، وإن كانت ضعيفة الإسناد لما يؤيدها من الصحاح. وعلماء الهيئة الفلكية يرون بما اكتشفوه بمناظيرهم المكبرة عيانا أن أكثر هذه النجوم التي نراها أو ما عدا الدراري والأقمار منها كلها شموس، منها ما هو أعظم من شمس عالمنا هذا وأبعد منها بسنين كثيرة من سني سير النور الذي يقطع به زهاء مائة مليون ميل في أقل من عشر دقائق، والنصوص تدل على أنها كلها دون العرش.

(٧) ومنها ما رواه الشيخان من حديث أبي موسى الأشعري مرفوعا " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن " قالوا: إن الرداء هنا بمعنى الحجاب الذي ذكر آنفا، وقد جعلوه من باب الاستعارة ولا إشكال في التعبير، وإنما الحديث صريح في عدم رؤية الذات بدون حجاب، وقال الحافظ ابن حجر في شرحه من الفتح نقلا عن الكرماني بعد عده من المتشابهات: ظاهره يقتضي أن رؤية الله غير واقعة، وأجاب – أي:." (٢)

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٤٦/٧

(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٢٤/٩

"موسى – والتكبر صيغة تكلف أو تكثر من الكبر الذي هو غمط الحق بعدم الخضوع له واحتقار الناس، فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق، أو يساوي نفسه بشخص، والأصل الغالب في التكبر أن يكون بغير الحق، وقد يتصور أن يتكلف الإنسان إعلاء نفسه على غيره أو إكثاره من الاستعلاء عليه بحق كالترفع عن المبطلين، وإهانة الجبارين، واحتقار المحاربين، فقوله – تعالى -: بغير الحق يكون على هذا صلة للتكبر، وهو قيد له، وإلا كان بيانا للواقع، أو المعنى: أنه يتكبرون حالة كونهم متلبسين بغير الحق أي منغمسين في الباطل، فأمثال هؤلاء لا قيمة للحق في نفسه عندهم، فهم لا يطلبونه ولا يبحثون عنه، وقد تظهر لهم آياته ويجحدونها وهم بها موقنون، كما قال – تعالى – في آل فرعون: وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا (٢٧: ١٤) وقال في طغاة قريش: فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون (٦: ٣٣) .

وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها هذا إما عطف على الجملة (سأصرف) أي: سأصرفهم عن آياتي المنزلة والكونية فينصرفون، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها – وإما عطف على (يتكبرون) فيكون هو وما بعده بيانا لصفات المتكبرين وأحوالهم، وأولها: أنهم إن يروا كل آية من الآيات التي تدل على الحق وتثبت وجوده لا يؤمنون بها، فإن كثرة الآيات بتعدد أنواعها وأفرادها إنما تفيد من كان طالبا للحق، ولكنه جاهل أو شاك أو سيء الفهم، فإذا خفيت عليه دلالة بعضها فقد تظهر له دلالة غيره، وفي هذا إعلام للنبي – صلى الله عليه وسلم – بأن الذين يقترحون عليه الآيات من قومه إنما يقصدون التعجيز، لا استبانة الحق بالدليل، فهم إن أجيبوا إلى طلبهم لا يؤمنون، ولهذا نظائر تقدم بعضها في سورة الأنعام مفصلا تفصيلا.

وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا الرشد: الصلاح والاستقامة، وضده الغي؛ وهو الفساد، وفيه ثلاثة لغات: ضم أوله وسكون ثانيه، وبه قرأ الجمهور هنا – وفتحهما؛ وبها قرأ حمزة والكسائي – والرشاد، وقد وردت في سورة المؤمن – غافر – حكاية عن فرعون وما أهديكم إلا سبيل الرشاد (٤٠: ٢٩) ومثلها السقم والسقم والسقام – المعنى: أن من صفة هؤلاء الذين مرنوا على الضلال

واستمرءوا مرعى الغي والفساد، أن ينفروا من الهدى والرشاد، فإن رأى أحدهم سبيله واضحة جلية لا يختار لنفسه، جعلها سبيلا له بإيثارها وتفضيلها على ما هو عليه، وكل أحد يصل إلى هذه الدرجة من الغي؛ **لأن من الناس من** يسلك الغي على جهل، فإذا علم بما تنتهي به إليه من الفساد ورأى لنفسه مخرجا منها، تركها واختار سبيل الرشد عليها.

وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا وهذه الحالة شر مما قبلها فإن هذه إيجابية وتلك." (١)

"الله عاقبهم أولا بالبؤس والشقاء في المعيشة ؛ **لأن من الناس من** لا يربيه ويهذبه إلا الشدة والبؤس كما أن منهم من يربيه ويهذبه الرخاء والنعمة، وبكل يبتلي الله عباده ويمنحهم كما قال: ونبلوكم بالشر والخير فتنة (٢١: ٣٥) وقال في بني إسرائيل: وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون (٧: ١٦٨) ولكن هؤلاء القوم لم يزدهم البؤس والسوء إلا عتوا وإصرارا على الفسق والظلم فدمدم عليهم ربهم بذنبهم، ومسخهم مسخ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل، أو مسخ خلق ونفس، فكانوا كالقردة في طيشها وشرها وإفسادها لما تصل إليه أيديها، والأول قول الجمهور، والثاني قول مجاهد

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ١٧٠/٩

قال: مسخت قلوبهم فلم يوفقوا لفهم الحق.

وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من

يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم، وقطعناهم في الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون، فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه والدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون، والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين، وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون هذه الآيات خاتمة قصة بني إسرائيل في هذه السورة، وما سيأتي من نبأ الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها مثل عام ليس فيه ما يدل على أنه كان منهم كما روي عن بعض المفسرين." (١)

"فرسه مهرا حسنا أو ولدت امرأته غلاما أو كثر ماله وما شيته- رضى به واطمأن إليه وإن أصابه وجع أو ولدت امرأته جارية أو أجهضت رماكه (خيله) أو ذهب ماله.

أو تأخرت عنه الصدقة أتاه الشيطان وقال له: ما جاءتك هذه الشرور إلا بسبب هذا الدين فينقلب عنه.

الإيضاح

(ومن الناس من يعبد الله على حرف) أي على طرف من الدين لا فى وسطه وقلبه، فهو فى قلق واضطراب فيه لا فى سكون وطمأنينة، فمثله مثل الذي يكون على طرف من العسكر إن أحس بغنيمة قر وسكن، وإن كانت هزيمة فر وهام على وجهه، وهذا ما أشار إليه بقوله:

(فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه) أي فإن أصابه ورخاء وسعة فى العيش سكن واستبشر بهذا الخير والدين فعبد الله، وإن أصابه شر وبلاء فى جسمه أو ضيق فى معيشته ارتد ورجع إلى الكفر.

والثبات فى الدين إنما يكون إذا كان الغرض منه إصابة الحق وطاعة الرب والخوف من عقابه، أما إذا كان المقصد منه الخير المعجل فإنه يظهر فى السراء ويختفى لدى الضراء، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله فى المنافقين: «مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء» وقوله: «فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم» .

وخلاصة ذلك- **أن من الناس من** ليس له ثبات فى أمر دينه، بل هو مرجحن مضطرب مذبذب، يعبد الله على وجه التجربة انتظارا للنعمة، فإن أصابه خير بقي مؤمنا، وإن أصابه شر من سقم أو ضياع مال أو فقد ولد ترك دينه وارتد كافرا. ثم بين سوء عاقبة عمله فقال:." (٢)

---

(١) تفسير المنار محمد رشيد رضا ٣٢٠/٩

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٩٤/١٧

"الإيضاح

(ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) أي ومن الناس فريق يقول: آمنا بالله وأقررنا بوحدانيته، فإذا آذاه المشركون لأجل إيمانه، جعل فتنة الناس فى الدنيا كعذاب الله فى الآخرة، فارتد عن إيمانه، ورجع إلى كفره، وكان يمكنه أن يصبر على الأذى، ويجعل قلبه مطمئنا بالإيمان، ولكنه جعل فتنة الناس صارفة له عن الإيمان، كما أن عذاب الله صارف للمؤمنين عن الكفر، وعذاب الناس له دافع، وعذاب الله ليس له دافع، وعذاب الناس يترتب عليه ثواب عظيم، وعذاب الله بعده العقاب الأليم، والمشقة إذا كانت مستتبعة للراحة العظيمة تطيب النفس لها ولا تعدها عذابا.

قال الزجاج: ينبغى للمؤمن أن يصبر على الأذى فى الله.

أخرج أحمد والترمذي وابن ماجه وأبو ليلى عن أنس قال: قال صلى الله عليه وسلم: «لقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد، ولقد أخفت فى الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت على ثالثة، ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا ماوارى إبط بلال» .

وخلاصة ذلك: إن من الناس من يدعون الإيمان بألسنتهم، فإذا جاءتهم محنة وفتنة فى الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى منهم، فارتدوا عن الإسلام، ورجعوا إلى الكفر الذي كان متغلغلا فى حنايا ضلوعهم وشغاف قلوبهم.

ونحو الآية قوله: «ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه» .

(ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) أي ولئن جاء نصر قريب من لدى ربك بالفتح والمغانم ليقولن هؤلاء المنافقون: إنا كنا معكم إخوانا فى الدين ننصركم على أعدائكم، وهم كاذبون فيما يدعون.

ونحو الآية قوله: «الذين يتربصون بكم، فإن كان لكم فتح من الله قالوا." (١)

"[سورة البقرة (٢) : آية ٢٥٩]

أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير (٢٥٩)

تفسير المفردات

القرية: الضيعة، والمصر: الجامع، وقد أبهم الله القرية فلم يذكر مكانها ولا المار عليها، بل اقتصر على موضع العبرة، وما به تقوم الحجة ولم يعن بما فوق ذلك حتى لا يشغل القارئ أو السامع به، ومن ثم اختلف المفسرون فيها فمن قائل إنها بيت المقدس وإن المار عليها هو عزير بن شرخيا، ومن قائل هى دير هرقل على شط دجلة والمار هو أرميا من سبط

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١١٩/٢٠

هارون عليه السلام، وخاوية: أي ساقطة من خوى البيت إذا سقط، والعروش: واحدها عرش وهو سقف البيت وكل ما هيئ ليستظل به، والمراد منه أن العروش سقطت أولا ثم سقطت الحيطان عليها، وأنى: بمعنى كيف، والحياة هنا العمران، والموت: الخراب، وأماته: أي جعله فاقدا للحس والحركة والإدراك بدون أن تفارق الروح البدن بتاتا مثل ما حدث لأهل الكهف، والبعث: الإرسال من بعثت الناقة إذا أطلقتها من مكانها، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا مستعدا للنظر والاستدلال، وقد دلت تجارب الأطباء في العصر الحديث على **أن من الناس من** يبقى حيا زمنا طويلا لكنه يكون فاقد الحس والشعور، وهو المسمى لديهم بالسبات وهو النوم المستغرق ويستعمله أهل الرياضيات في الهند، فقد شوهد شاب قد نام نحو شهر ثم أصيب بدخل في عقله، وآخرون ناموا أكثر من ذلك، ومتى ثبت هذا فالذى يحفظ الأجسام مثل هذه المدة قادر أن يحفظها مائة سنة وثلاثمائة سنة، فهذا من الممكنات لا من المستحيلات وقد تواتر به النص فيجب التسليم به، والتجارب التي." (١)

"تفسير المفردات

فى الأساس: أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر، وما أحسسنا منه خيرا، وهل تحس من فلان بخير، وفي الكشاف أحس: علم علما لا شبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس، والأنصار: واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف، والحواريون: واحدهم حوارى، وحوارى الرجل صفيه وناصره، ومسلمون: أي منقادون لما تريده منا، والمكر تدبير خفى يفضى بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب، وغلب استعماله في التدبير السيئ وإن كان يستعمل في الحسن والسيئ معا كما قال تعالى: «ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله» .

والداعي إلى المكر الحسن **أن من الناس من** إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله، فكانت حاجة المربي أو القوام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول إليه، والتوفى: أخذ الشيء وافيا تاما ثم استعمل بمعنى الإماتة كما قال تعالى: «الله يتوفى الأنفس حين موتها» وتطهيره من الذين كفروا: براءته مما كانوا يرمونه به بتهمة أمه بالزنا.

المعنى الجملي

كان الكلام قبل هذا في بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام، وكلامه الناس في المهد، وإيتائه الكتاب والحكمة والنبوة وإرساله رسولا إلى بنى إسرائيل وذكر براءة أمه التي تقدم ذكرها.

وهنا ذكر خبره مع قومه وما لاقاه منهم من الصد والإعراض ومقاساة الأهوال وهمهم بقتله وإنجاء الله إياه، ووعيد الكافرين به وعذابهم في الدنيا والآخرة، وطوى." (٢)

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ٢٢/٣

(٢) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١٦٦/٣

"مما لاقيت، فقد قتلوا كثيرا منهم كيحي وزكريا عليهما السلام- زاده هنا تسلية وتعزية أخرى، فأبان أن كل ما تراه من عنادهم فهو منته إلى غاية، وكل آت قريب فلا تضجر ولا تحزن على ما ترى منهم، وأنهم سيجازون على أعمالهم فى دار الجزاء كما تجازى، وحسبك ما تصيب من حسن الجزاء، وحسبهم ما أصيبوا به وما يصابون به من الجزاء فى الدنيا، وسيوفون الجزاء كاملا يوم القيامة.

الإيضاح

(كل نفس ذائقة الموت) أي كل نفس تذوق طعم مفارقة البدن وتحس به، وفى هذا إيماء إلى أن النفس لا تموت بموت البدن، لأن الذي يذوق هو الموجود، والميت لا يذوق. فالذوق شعور لا يجس به إلا الحي.

(وإنما توفون أجوركم يوم القيامة) أي وإنما تعطون جزاء أعمالكم كاملا وافيا يوم القيامة، وفى ذكر التوفية إشارة إلى أن بعض الأجور من خيرا وشر قد تصل إليهم فى الدنيا جزاء أعمالهم، ويؤيده ما أخرجه الترمذي والطبراني مرفوعا، «القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران» .

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) أي فمن خلص من العذاب ووصل إلى الثواب فقد فاز بالمقصد الأسمى والغاية التي لا مطلب بعدها،

وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه» .

والخلاصة- إن هناك جنة ونارا، **وإن من الناس من** يلقى فى هذه ومنهم من يلقى فى تلك، وإن هول النار عظيم، وعبر عن النجاة عنها بالزحزحة كأن كل شخص كان مشرفا على السقوط فيها، لأن أعمالهم سائقة لهم إلى النار، لأنها أعمال حيوانية تسوق إليها ولا يدخل الجنة أحد إلا إذا زحزح، فالزحزحة عنها فوز عظيم، وأولئك." (١)

"وقوله تعالى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» ..

هو إشارة إلى هذه المشاعر اليقظى، وتلك الأحاسيس المرهفة، التي ينبغى أن يكون عليها المؤمن، فإنه بقدر ما يكون عليه المؤمن من هذه المشاعر وتلك الأحاسيس، بقدر ما تكون منزلته فى الإنسانية..

والإيمان من شأنه أن يربى هذه المشاعر، وينمى هذه الأحاسيس، وبمقياس الإيمان، تقاس هذه المشاعر وتلك الأحاسيس..

والعلم، شأنه فى هذا شأن الإيمان، فى رفع إنسانية الإنسان، وإعلاء منزلته.. فالإيمان، هو فى حقيقته علم، والعلم فى حقيقته إيمان.. وإن إيمانا لا يقوم على علم، هو إيمان هزيل باهت، لا يؤثر أثرا، ولا يطلع زهرا ولا ثمرا..

وإن علما لا يفتح للعقل والقلب طريقا إلى الإيمان، ولا تنقدح منه شرارات مضيئة، تضىء للإنسان طريقه إلى الله، هو نار تحرق، أو دخان يعمى العيون، ويزكم الأنوف، ويخنق الصدور..

---

(١) تفسير المراغي المراغي، أحمد بن مصطفى ١٥٢/٤

وقد جمعت الآية الكريمة بين الإيمان والعلم، وجعلت كلا منهما صفة لموصوف، كما يقول سبحانه: «يرفع الله الذين آمنوا منكم، والذين أوتوا العلم» ولم يجىء النظم هكذا: يرفع الله الذي آمنوا منكم وأوتوا العلم» .. وذلك أن من الناس من يبدأ الطريق بالعلم، ثم يقوده هذا العلم إلى الإيمان.. ومنهم من يبدأ الطريق بالإيمان ثم، يقوده الإيمان إلى العلم.

فالمؤمن حق الإيمان.. عالم..

والعالم حق العلم.. مؤمن..

قوله تعالى:

«يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ذلك خير لكم وأطهر فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم» .." (١)

"شيء ولا عن التابعين ؛ إلا عن إبراهيم النخعي. انتهى محل الغرض من (فتح الباري) بحذف ما لا حاجة إليه.

قال مقيده – عفا الله عنه –: تحريم قليل النبيذ الذي يسكر كثيره لا شك فيه ؛ لما رأيت من تصريح النبي – صلى الله عليه وسلم – بأن: «ما أسكر كثيره فقليله حرام» .

واعلم: أن قياس النبيذ المسكر كثيره على الخمر بجامع الإسكار لا يصح ؛ لأن النبي – صلى الله عليه وسلم – صرح بأن «كل مسكر حرام» ، والقياس يشترط فيه ألا يكون حكم الفرع منصوصا عليه كحكم الأصل. كما أشار له في مراقي السعود بقوله:

وحيثما يندرج الحكمان ... في النص فالأمران قل سيان

وقال ابن المنذر: وجاء أهل الكوفة بأخبار معلولة، وإذا اختلف الناس في الشيء وجب رد ذلك إلى كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم –. اه.

قوله تعالى: وأوحى ربك إلى النحل الآية، المراد بالإيحاء هنا: الإلهام. والعرب تطلق الإيحاء على الإعلام بالشيء في خفية ؛ ولذا تطلقه على الإشارة، وعلى الكتابة، وعلى الإلهام ؛ ولذلك قال تعالى: وأوحى ربك إلى النحل [١٦ \ ٦٨] ، أي: ألهمها. وقال: فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة الآية [١٩ \ ١١] ، أي: أشار إليهم. وسمى أمره للأرض إيحاء في قوله: يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها [٩٩ \ ٤، ٥] ، ومن إطلاق الوحي على الكتابة قول لبيد في معلقته:

فمدافع الريان عري رسمها ... خلقا كما ضمن الوحي سلامها

ف «الوحي» في البيت (بضم الواو وكسر الحاء وتشديد الياء) جمع وحي بمعنى الكتابة. وسيأتي لهذه المسألة – إن شاء الله – زيادة إيضاح.

قوله تعالى: ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا إن الله عليم قدير، بين – جل وعلا – في هذه

---

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم يونس الخطيب ١٤/٨٣٣

الآية الكريمة: أن من الناس من يموت قبل بلوغ أرذل العمر، ومنهم من يعمر حتى يرد إلى أرذل العمر. وأرذل العمر آخره الذي تفسد فيه الحواس، ويختل فيه النطق والفكر، وخص بالرذيلة ؛ لأنه حال لا رجاء بعدها لإصلاح ما فسد. بخلاف حال الطفولة، فإنها حالة ينتقل منها إلى القوة وإدراك الأشياء. وأوضح هذا المعنى في مواضع أخر ؛ كقوله في سورة الحج: ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا [٢٢ \ ٥] ، وقوله في الروم: الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من." (١)

"أنه لا حد عليه في شيء من هذه الألفاظ، وعليه التعزير، وآكد التعزير عند الحنفية تسعة وثلاثون سوطا، وأما لو قال له: يا كلب، يا تيس، يا حمار، يا خنزير، يا بقر، يا حية، يا حجام، يا ببغاء، يا مؤاجر، يا ولد الحرام، يا عيار، يا ناكس، يا منكوس، يا سخرة، يا ضحكة، يا كشخان، يا أبله، يا مسوس ؛ فلا شيء عليه في شيء من هذه الألفاظ عند الحنفية، ولا يعزر بها، قال صاحب «تبيين الحقائق» : لا يعزر بهذه الألفاظ كلها ؛ لأن من عادتهم إطلاق الحمار ونحوه بمعنى البلادة والحرص أو نحو ذلك، ولا يريدون به الشتيمة، ألا ترى أنهم يسمون به ويقولون: عياض بن حمار، وسفيان الثوري، وأبو ثور وجمل ؛ ولأن المقذوف لا يلحقه شين بهذا الكلام، وإنما يلحق بالقاذف، وكل أحد يعلم أنه آدمي، وليس بكلب ولا حمار وأن القاذف كاذب في ذلك، وحكى الهندواني أنه يعزر في زماننا في مثل قوله: يا كلب، يا خنزير ؛ لأنه يراد به الشتم في عرفنا.

وقال شمس الأئمة السرخسي: الأصح عندي أنه لا يعزر، وقيل: إن كان المنسوب إليه من الأشراف كالفقهاء والعلوية يعزر ؛ لأنه يعد شينا في حقه، وتلحقه الوحشة بذلك، وإن كان من العامة لا يعزر، وهذا أحسن ما قيل فيه، ومن الألفاظ التي لا توجب التعزير قوله: يا رستاقي، ويا ابن الأسود، ويا ابن الحجام، وهو ليس كذلك، اه من «تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق في الفقه الحنفي» .

قال مقيده - عفا الله عنه وغفر له -: أما الألفاظ التي ذكرنا عنهم أنها توجب التعزير فوجوب التعزير بها كما ذكروا واضح لا إشكال فيه، وأما الألفاظ التي ذكرنا عنهم أنها لا تعزير فيها، فالأظهر عندنا أنها يجب فيها التعزير ؛ لأنها كلها شتم وعيب، ولا يخفى أن من قال لإنسان: يا كلب، يا خنزير، يا حمار، يا تيس، يا بقر، إلى آخره، أن هذا شتم واضح لا خفاء به وليس مراده أن الإنسان كلب أو خنزير، ولكن مراده تشبيه الإنسان بالكلب والخنزير في الخسة والصفات الذميمة كما لا يخفى، فهو من نوع التشبيه الذي يسميه البلاغيون تشبيها بليغا ولا شك أن عاقلا قيل له: يا كلب، أو يا خنزير مثلا أن ذلك يؤذيه، ولا يشك أنه شتم، فهو أذى ظاهر، وعليه فالظاهر التعزير في الألفاظ المذكورة، وكونهم يسمون الرجل حمارا أو كلبا لا ينافي ذلك ؛ لأن من الناس من يسمي ابنه باسم قبيح لا يرضى غيره أن يعاب به، والظاهر أنه إن قال لرجل: يا ابن الأسود، وليس أبوه ولا أحد من أجداده بأسود، أنه يلزمه الحد لأنه نفي لنسبه، وكذلك

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٢/٤٠٩

قوله: يا ابن الحجام إن لم يكن أبوه ولا أحد من أجداده حجاما فهو قذف ؛ لأنه نفي لنسبه وإلصاق له بأسود أو حجام ليس." (١)

"قدر ما عندهم من الإيمان ؛ كقوله – صلى الله عليه وسلم –: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل» .

قوله تعالى: أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون. قد قدمنا الآيات الموضحة له.

قوله تعالى: ووصينا الإنسان بوالديه حسنا. قد قدمنا الآيات الموضحة له في سورة «بني إسرائيل» ، في الكلام على قوله تعالى: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا [١٧ \ ٢٣] .

قوله تعالى: ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله يعني **أن من الناس من** يقول: آمنا بالله بلسانه، فإذا أوذي في الله، أي: آذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس صارفة له عن الدين إلى الردة، والعياذ بالله ؛ كعذاب الله فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصي. ومعنى فتنة الناس، الأذى الذي يصيبه من الكفار، وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، وهذا قال به غير واحد.

وعليه فمعنى الآية الكريمة ؛ كقوله تعالى: ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين [٢٢ \ ١١] .

قوله تعالى: ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم. ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن المنافقين الذين يقولون: آمنا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، إذا حصل للمسلمين من الكفار أذى، وهم معهم جعلوا فتنة للناس، أي: أذاهم كعذاب الله، وأنه إن جاء نصر من الله لعباده المؤمنين فنصرهم على الكفار، وهزموهم وغنموا منهم الغنائم، قال أولئك المنافقون: ألم نكن معكم، يعنون: أنهم مع المؤمنين ومن جملتهم، يريدون أخذ نصيبهم من الغنائم.

وهذا المعنى جاء في آيات أخر من كتاب الله ؛ كقوله تعالى:." (٢)

"وقيل فيها: كالحمصة والعدسة، والضمير في عليهم راجع لأصحاب الفيل، وقصتهم طويلة مشهورة.

تنبيه

قد أوردنا نصوص معنى سجيل، وترجيح الشيخ رحمة الله تعالى علينا وعليه: أنها حجارة من طين شديد القوة تنبيها على ما قيل من استبعاد ذلك، وردا على من صرف معناها إلى غير الحجارة المحسوسة.

أما من استبعدها، فقد حكاه الفخر الرازي بقوله: واعلم **أن من الناس من** أنكر ذلك.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٥/٤٥٥

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٦/١٥٦

وقالوا: لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليا عن الثقل، وأن يكون في وزن التبنة، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات.

فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار، ولا نراها، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير، حتى يكون هو بالمشرق، ويرى قطعة من الأرض بالأندلس، وكل ذلك محال.

ثم قال: واعلم أن ذلك جائز في مذهبنا، إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

وهذا القول يحكيه الفخر الرازي المتوفى سنة ٦٠٦ ستمائة وست، فنرى استبعادهم إياها مبني على تحكيم العقل، وهذا باطل ؛ لأن خوارق العادات دائما فوق قانون العقل، بل إن تصورات العقل نفسه منشؤها من تصوراتنا لما نشاهده.

وإذا حدث العقل بما لم يشهده أو يعلم كنه وجوده لاستبعده كما هو في واقعنا اليوم، لو حدثت به العقول سابقا من نقل الحديث، والصورة على الأثير، وتوجيه الطائرات وأمثالها، لما قوي على تصورها لأنها فوق نطاق محسوساته ومشاهداته.

وحتى نحن لو لم يسايرها من علم بما يحمله الأثير من تيار كهربائي، وما له من دور فعال في ذلك لما أمكننا تصوره.

ثم من يمنع شيئا من ذلك على قدرته تعالى.

وقد أخبرنا أن تلك الجبال سيأتي يوم تكون فيه كالعهن المنفوش أخف من التبنة." (١)

"إذا أضيف إلى اسم الجلالة يراد به عباد مقربون قال تعالى: إن عبادي ليس لك عليهم سلطان في [سورة الحجر: ٤٢] .

ومناسبة هذا التذييل للجملة أن المخبر عنهم قد بذلوا أنفسهم لله وجعلوا أنفسهم عبيده فالله رءوف بهم كرأفة الإنسان بعبده فإن كان ما صدق (من) عاما كما هو الظاهر في كل من بذل نفسه لله، فالمعنى والله رءوف بهم فعدل عن الإضمار إلى الإظهار ليكون هذا التذييل بمنزلة المثل مستقلا بنفسه وهو من لوازم التذييل، وليدل على أن سبب الرأفة بهم أنهم جعلوا أنفسهم عبادا له، وإن كان ما صدق (من) صهيبا رضي الله عنه فالمعنى والله رءوف بالعباد الذين صهيب منهم، والجملة تذييل على كل حال، والمناسبة أن صهيبا كان عبدا للروم ثم لطائفة من قريش وهم بنو كلب وهم لم يرأفوا به، لأنه عذب في الله فلما صار عبد الله رأف به.

وفي هذه الآية وهي قوله: ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا [البقرة: ٢٠٤] إلى قوله رؤف بالعباد معان من معاني أدب النفوس ومراتبها وأخلاقها تعلم المؤمنين واجب التوسم في الحقائق ودواخل الأمور وعدم الاغترار بالظواهر إلا بعد التجربة والامتحان، **فإن من الناس من** يغر بحسن ظاهره وهو منطو على باطن سوء ويعطي من لسانه حلاوة تعبير وهو يضمر الشر والكيد قال المعري:

وقد يخلف الإنسان ظن عشيرة ... وإن راق منه منظر ورواء

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين ٩/١٠٤

وقد شمل هذا الحال

قول النبيء صلى الله عليه وسلم «إن من البيان لسحرا»

بأحد معنييه المحتوي عليهما وهو من جوامع الكلم وتبلغ هلهلة دينه إلى حد أن يشهد الله على أن ما يقوله صدق وهو بعكس ذلك يبيت في نفسه الخصام والكراهية.

وعلامة الباطن تكون في تصرفات المرء فالذي يحب الفساد ويهلك الحرث والنسل ولا يكون صاحب ضمير طيب، وأن الذي لا يصغي إلى دعوة الحق إذا دعوته إليه ويظهر عليه الاعتزاز بالظلم لا يرعوي عن غيه ولا يترك أخلاقه الذميمة، والذي لا يشح بنفسه في نصرة الحق ينبئ خلقه عن إيثار الحق والخير على الباطل والفساد ومن لا يرأف فالله لا يرأف به.." (١)

"(فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) الفاء عاطفة وأخذهم الطوفان فعل ومفعول به مقدم وفاعل مؤخر والواو حالية وهم مبتدأ وظالمون خبر. والطوفان ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل أو ظلام ليل أو نحوهما قال العجاج:

حتى إذا ما يومها تصببا ... وعم طوفان الظلام الأثأبا

والبيت للعجاج يصف بقرة وحشية وما زائدة بعد إذا عم بالمهملة ويروى بالمعجمة والمعنيان متقاربان والأثأب نوع من الشجر يشبه شجر التين الواحدة أثأبة ونسبة التصبب لليوم مجاز عقلي من باب الإسناد للزمان أي تصبب المطر وستر ظلامه الشجر الذي كان فيه.

(فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين) الفاء عاطفة وأنجيناه فعل وفاعل ومفعول به وأصحاب عطف على الهاء أو مفعول معه وجعلناها الواو عاطفة وجعلناها فعل وفاعل ومفعول به آية مفعول به ثان وللعالمين صفة لآية.

البلاغة:

١- مجيء الأمر بمعنى الخبر:

في قوله «ولنحمل خطاياكم» الكلام أمر بمعنى الخبر يعني أن أصل ولنحمل خطاياكم: إن تتبعونا نحمل خطاياكم، فعدل عنه الى ما ذكر مما هو خلاف الظاهر من أمرهم بالحمل، وفي قوله:

«انهم لكاذبون» نكتة حسنة يستدل بها على صحة مجيء الأمر بمعنى الخبر **فإن من الناس من** أنكره ولا حجة له لأن الله تعالى أردف قولهم." (٢)

"(١) تساءل المؤلف في سياق جملة أو كصيب من السماء [البقرة:

١٩] ، عن فائدة ذكر السماء مع أن الصيب لا يكون إلا من السماء وأجاب بقوله إن ذلك لئلا يظن احتمال نزول الصيب من بعض جوانب السماء دون بعض، فلما ذكرت السماء دل على أنه عام مطبق آخذ بآفاق السماء جميعها.

---

(١) التحرير والتنوير ابن عاشور ٢/٢٧٤

(٢) إعراب القرآن وبيانه محيي الدين درويش ٧/٤١٠

ثم استطرد فقال **إن من الناس من** قال إن المطر يحصل من ارتفاع أبخرة من الأرض إلى الهواء فتنعقد هناك من شدة برد الهواء ثم تنزل مرة أخرى فذاك هو المطر فأبطل الله ذلك المذهب حيث بين أن الصيب نزل من السماء، وأكده في آيات أخرى مثل وأنزلنا من السماء ماء طهورا [الفرقان: ٤٨] ، وو ينزل من السماء من جبال فيها من برد [النور: ٤٣] ، والتكلف في التساؤل واضح كما أنه ربط في استطراداته نظرية ماهية المطر بنصوص قرآنية وفي هذا تعريض للقرآن للنقاش الجدلي.

(٢) قال في سياق تعبير يا أيها الناس [البقرة: ٢١] ، إنه روى عن علقمة والحسن أنهما قالا إن كل شيء في القرآن يبدأ بهذا النداء فإنه مكي وما ابتدأ بنداء المؤمنين فهو مدني. ثم قال إن القاضي قال إن هذا الذي ذكروه إن كان مرجعه النقل فمسلم به وإن كان السبب فيه حصول المؤمنين في المدينة على الكثرة دون مكة فهو ضعيف لأنه لا يجوز أن يخاطب المؤمنون مرة بصفتهم ومرة بجنسهم، وقد يؤمر من ليس بمؤمن بالعبادة كما يؤمر المؤمن بالاستمرار عليها فالخطاب في الجميع ممكن. وغفل هو والقاضي ومن نقل عن علقمة والحسن أو هذان إذا كانا قالا القول الذي نقل عنهما عن واقعية وقطعية مدنية آيات فيها الخطاب بنداء المسلمين مثل آية النساء الأولى والآية [١٧٠] منها ومثل آية الحجرات [١٣] مثلا فأراد القائلون أن يحلوا المسألة بالمنطق أو التسليم بالنقل مهما كان بادي الوهن دون الواقع الراهن.

(٣) قال في سياق جملة الذي جعل لكم الأرض فراشا [البقرة: ٢٢] ، إنها دليل على أن الأرض ساكنة غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فلو كانت." (١)

"الجدل والاحتجاج، وتبرير ما هم عليه من شرك وتقاليد باطلة ومما علقنا عليه تعليقا يغني عن التكرار. والرد الوارد عليهم في الآيات موجه إلى العقل والقلب معا، وفيه إنذار للكفار وتطمين وتسلية للنبي عليه السلام. فهذا القول ليس جديدا فقد كان يقوله الكفار المشركون من الأمم السابقة. ولقد أرسل الله إلى كل أمة رسولا لبيان الحق والباطل والحلال والحرام، وعبادة الله وحده واجتناب الشرك والأوثان لأن الناس قد لا يدركون هذا من أنفسهم فكان منهم المهتدي ومنهم الضال. وليس على الرسل إلا البلاغ فمن هداه الله اهتدى ومن حقت عليه الضلالة ضل. وفي الآية الأخيرة التفات للنبي على سبيل التطمين فالله يعلم أنه حريص على هداية الجميع ولكن الله لا يمكن أن يهدي من حقت عليه الضلالة وضل فلا محل للاغتمام والحزن، ولن يجد هؤلاء لهم ناصرا ولا منقذا.

وقد آمن معظم الذين ضلوا وكفروا برسالة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة فيما بعد وحسن إسلامهم مما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الآيات على سبيل تطمين النبي صلى الله عليه وسلم، ومما ينطوي فيه ما ذكرناه في مناسبة سابقة مماثلة من قصد تقرير واقع الكفار الضالين حين نزول الآيات، وليس قصد التأبيد في الإضلال الذي قد يعني عدم التوفيق والسداد والذي ليس إلا بالنسبة للذين كفروا وضلوا وماتوا على ذلك.

وبالنسبة لما احتوته الآيات من كون الذين يهديهم الله يهتدون ومن يضلهم الله يضلون، **وإن من الناس من** هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة.

---

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ٢٥٢/١

نقول إنه إذا لحظ التخصيص الذي احتوته آية البقرة [٢٦] : يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين وآية إبراهيم [٢٧] :
ويضل الله الظالمين وآية الرعد [٢٧] : قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب زال ما يمكن أن توجده عبارة الآيات من وهم ولم يبق محل لتشاد." (١)

"المقصود بها تطمينه من قريش الذين كان يهابهم. وروي عن محمد بن كعب القرظي أن جملة والله يعصمك من الناس نزلت في مناسبة مجيء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو وحده في ظل شجرة فاخترط سيفه ثم قال من يمنعك مني؟ قال:
الله، فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه وضرب رأسه بالشجرة حتى انتثر دماغه فأنزل الله الجملة. وروى ابن كثير عن عكرمة عن ابن عباس قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالا من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه فقال: إن الله قد عصمني من الجن والإنس» . وروى البغوي عن الحسن أن الله لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف **أن من الناس من** يكذبه فأنزل الله الآية. وقال البغوي بعد هذه الرواية وقيل إنها نزلت في عتب اليهود حيث دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم فاستهزأوا به وقالوا تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى فسكت عنهم فنزلت.
وقيل إنها نزلت في قضية الرجم والزنا اليهودية. وقيل إنها نزلت في مسألة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش. وقيل في الجهاد حيث كرهه المنافقون وكان النبي يمسك أحيانا عن الحث عليه فأنزل الله الآية. وهناك روايات يرويها الشيعة سنوردها ونعلق عليها فيما بعد. ونعلق على الأقوال والروايات السابقة فنقول إنه لم يرد شيء منها في الصحاح. والنفس لا تطمئن إلى معظمها التي يقتضي بعضها أن تكون الآية نزلت متفرقة في مناسبات مختلفة. ويقتضي بعضها أن تكون نزلت في مكة. والتكلف والتلفيق ظاهران فيها. وإذا كان بعض الآيات المكية احتوى إشارة إلى ما كان يعتري النبي صلى الله عليه وسلم من أسى وضيق بتكذيب الناس ومناوأتهم له فهذه الحالة لم تعد قائمة في العهد المدني الذي قويت فيه الدعوة وكثر المسلمون وتبدل حالهم من الضعف إلى القوة. ولم ترو رواية ما بأن الآية مكية. وهذا فضلا عن أن ما أشارت إليه الآيات المكية من أسى النبي صلى الله عليه وسلم وضيقه لم يكن خوفا من الناس يحمله على عدم تبليغ ما أنزل إليه. ولقد أنزل الله عليه في مكة آيات كثيرة فيها إنذارات قارعة وحملات قاصمة ونعوت لاذعة فكان يتلوها علنا دون ما خوف من زعماء قريش وأغنيائهم الأقوياء وجماهير الناس الذين رضخوا لتحريضهم." (٢)

"المعتاد، وذلك أن الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل إرسالا فتطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف وإن لم يكن

(١) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ١٣١/٥

(٢) التفسير الحديث محمد عزة دروزة ١٨١/٩

معتدلا فى وزنه، وذلك شبيه بجملة الكلام الذى لا يتعمل ولا يتصنع له. وقد علمنا أن القرآن خارج من هذه الوجوه ومباين لهذه الطرق. ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه، وليس من قبيل الشعر، **لأن من الناس من** زعم أنه كلام مسجع، ومنهم من يدعى أن فيه شعرا كثيرا، فهذا إذا تأمله المتأمل تبين بخروجه عن أصناف كلامهم وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة وأنه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن وتميز حاصل فى جميعه.

ومنها: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعانى اللطيفة والفوائد الغزيرة والحكم الكثيرة والتناسب فى البلاغة، والتشابه فى البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها ما نبينه بعد هذا من الاختلال، ويعترضها ما نكشفه من الاختلاف، ويقع فيها ما نبديه من التعمل والتكلف والتجوز والتعسف، وقد حصل القرآن على كثرته وطوله متناسبا فى الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال عز من قائل: الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا فأخبر أن كلام الآدمى إن امتد وقع فيه التفاوت وبان عليه الاختلال، وفى ذلك معنى ثابت وهو أن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها، من ذكر قصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها. ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود فى المدح." (١)

"٨ التحدى

ومن حكم المعجزات إذا ظهرت على الأنبياء أن يدعوا فيها أنها من دلالتهم وآياتهم، لأنه لا يصح بعثة النبى من غير أن يؤتى دلالة ويؤيد بآية، لأن النبى لا يتميز من الكاذب بصورته، ولا بقول نفسه ولا بشيء آخر سوى البرهان الذى يظهر عليه فيستدل به على صدقه، فإذا ذكر لهم أن هذه آيتى وكانوا عاجزين عنها صح له ما ادعاه، ولو كانوا غير عاجزين عنها لم يصح أن يكون برهانا له، وليس يكون ذلك معجزا إلا بأن يتحداهم إلى أن يأتوا، فإذا تحداهم وبأن عجزهم صار معجزا، وإنما احتيج فى باب القرآن إلى التحدى **لأن من الناس من** لا يعرف كونه معجزا، فإنما يعرف أولا إعجازه بطريقه، لأن الكلام المعجز لا يتميز من غيره بحروفه وصورته، وإنما يحتاج إلى علم وطريق يتوصل به إلى معرفة كونه معجزا، فإن كان لا يعرف بعضهم إعجازه فيجب أن يعرف هذا حتى يمكنه أن يستدل به، ومتى رأى أهل ذلك اللسان قد عجزوا عنه بأجمعهم مع التحدى إليه والتقريع به والتمكين منه صار حينئذ بمنزلة من رأى اليد البيضاء وانقلاب العصا ثعبانا تتلقف ما يأفكون. وأما ما كان من أهل صنعة العربية والتقديم فى البلاغة ومعرفة فنون القول ووجوه المنطق، فإنه يعرف حين يسمعه عجزه عن الإتيان بمثله، ويعرف أيضا أهل عصره ممن هو فى طبقته أو يدانيه فى صناعته عجزهم عنه فلا يحتاج إلى التحدى حتى يعلم به كونه معجزا، ولو كان أهل الصنعة الذين صفتهم ما بينا لا يعرفون كونه معجزا حتى

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٢/٣٤٣

يعرفوا عجز غيرهم عنه لم يجز أن يعرف النبى صلى الله عليه وسلم أن القرآن معجز حتى يرى عجز قريش عنه بعد التحدى إليه.

وإذا عرف عجز قريش لم يعرف عجز سائر العرب عنه حتى ينتهي إلى." (١)

"وعندما تسمع كلمة ﴿إنما﴾ فافهم أنه يراد بها القصر، فإن قلت «إنما الرجل زيد، أي: أنك قصرت الرجولة على زيد. وإن قلت: إنما الكريم حاتم، تكون قد قصرت الكرم على حاتم. وقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿إنما الصدقات﴾ معناها: أن الصدقات محصورة في هؤلاء ولا تتعداهم.

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة؟ وما المراد هنا بالصدقة؟ هل هي صدقة التطوع أو الزكاة؟ نقول: ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهي الزكاة، ولسائل أن يسأل: لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة؟

ونقول: ألا ترى - في المجتمعات غير الإيمانية الملحدة - **أن من الناس من** يكفرون في إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزي خلقه الله فينا جميعا، ولذلك." (٢)

"آخر يشاركك الحس والحركة، لكن ليس له عقل واختيار بين البدائل؛ لأنه محكوم بالغريزة منضبط بها، وهذا هو الحيوان الذي لا ينفك عن الغريزة أبدا.

وسبق أن ضربنا مثلا لذلك بالغريزة الجنسية عند الإنسان وعند الحيوان، وأن الله تعالى إنما جعلها لتكاثر وحفظ النوع، فالحيوان المحكوم بالغريزة يؤدي هذه المهمة للتكاثر ويقف بها عند حدها، فإذا لقح الذكر الأنثى يستحيل أن تمكنه من نفسها بعد ذلك، وهو أيضا يشم رائحة الأنثى، فإن كانت حاملا ينصرف عنها.

أما الإنسان فغير ذلك؛ لأن له شهوة تتحكم فيه، فالمرأة تتحمل مشقة الحمل وألم الولادة، ثم تربية المولود إلى أن يكبر، ولولا أن الله تعالى ربط حفظ النوع في الإنسان بشهوة هي أعنف شهوات النفس ما أقدمت المرأة على الحمل مرة أخرى.

وما قلناه في غريزة الجنس نقوله في الطعام والشراب، الحيوان محكوم فيها بالغريزة المطلقة التي لا دخل للهوى فيها، فإذا شبع لا يأكل مهما حاولت معه، بل ونرى الحمار الذي نقول عنه إنه حمار لا يأكل عودا واحدا بعد شبعه، ويمر على النعناع الأخضر مثلا أو على الملوخية فلا يأكلها، ويذهب إلى الحشائش اليابسة، فهو يعرف طعامه بالغريزة التي جعلها الله فيه.

أما الإنسان فيأكل حتى التخمة، ثم لا ينسى بعد ذلك الحلو والبارد والمهضم. . الخ ذلك؛ لأنه أسير لشهوة بطنه، حتى **إن من الناس من** يغضب؛ لأنه شبع فهو يريد ألا يفارق المائدة.

---

(١) الموسوعة القرآنية إبراهيم الإبياري ٣٦٢/٢

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ٥٢٢٠/٩

وقد حدثنا رجال حديقة الحيوان بعد زلزال ١٩٩٢ أنهم شاهدوا هياجا في الحيوانات المحبوسة في الأقفاص قبل حدوث الزلزال، كان." (١)

"حسناتك، والله تعالى يريد أن ينتفع الناس بعضهم ببعض ليثرى حركة الحياة.

ثم يقول تعالى: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [لقمان: ٢٠]

المجادلة: الحوار في أمر، لكل طرف فيه جنود، وكل منهم لا يؤمن برأي الآخر، والجدل لا يكون إلا في سبيل الوصول إلى الحقيقة، ويسمونه الجدل الحتمي، وهذا يكون موضوعيا لا لدد فيه، ويعتمد على العلم والهدى والكتاب المنير، وفيه نقابل الرأي بالرأي ليثمر الجدال.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ... ﴾ [العنكبوت: ٤٦] أما الجدل الذي يريد فيه كل طرف أن يعلي رأيه ولو بالباطل فهو مماراة وسفسطة لا توصل إلى شيء.

والجدل مأخوذ من الجدل أي الفتل، والشيء حين يفتل على مثله يقويه، كذلك الرأي في الجدل يقوي الرأي الآخر، فإذا ما انتهيا إلى الصواب تكاتفا على إظهاره وتقويته، فالجدل المراد به تقوية الحق وإظهاره.

فإن كان الجدل غير ذلك فهو مماراة يحرص فيها كل طرف على أن يعلي رأيه ولو بالباطل.

والحق سبحانه يبين لنا أن من الناس من ألف الجدل في الله على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فيقولون مثلا في جدالهم: أللكون إله موجود؟ وإن كان موجودا، أهو واحد أم متعدد؟ وإن كان موجودا أيعلم الجزئيات أم الكليات؟ أيزاول ملكه كل وقت؟ أم أنه." (٢)

"راضية مرضية. فادخلي في عبادي. وادخلي جنتي﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠] . وأما الأمارة بالسوء ففي قوله تعالى: ﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ [يوسف: ٥٣] . وأما اللوامة ففي قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة. ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ [القيامة: ١، ٢] .

والإنسان يحس بنفسه بهذه الأنفس؛ يرى في نفسه أحيانا نزعة خير يحب الخير ويفعله وهذه هي النفس المطمئنة، ويرى أحيانا في نفسه نزعة شر فيفعله وهذه النفس الأمارة بالسوء، وتأتي بعد ذلك النفس اللوامة التي تلومه على ما فعل فتجده يندم على ما فعل من المعصية، أو لوامة أخرى تلومه على ما فعل من الخير، فإن من الناس من قد يلوم نفسه على فعل الخير وعلى مصاحبة أهل الخير ويقول: كيف أصاحب هؤلاء الذين صدوني عن حياتي.. عن شهواتي.. عن لهوي، وما أشبه ذلك. فاللوامة نفس تلوم الأمارة بالسوء مرة، وتلوم المطمئنة مرة أخرى، فهي في الحقيقة نفس بين نفسين تلوم النفس الأمارة بالسوء إذا فعلت السوء، وتندم الإنسان، وقد تلوم النفس المطمئنة إذا فعلت الخير. ﴿فإن الجنة هي المأوى﴾ الجنة هي دار النعيم التي أعدها الله عز وجل لأوليائه فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قال الله تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] . هكذا جاء في

---

(١) تفسير الشعراوي الشعراوي ١١٤٠٦/١٨

(٢) تفسير الشعراوي الشعراوي ١١٦٨٧/١٩

القرآن، وجاء في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» (١) ، هذه الجنة يدركها الإنسان قبل أن يموت، إذا حضر الأجل ودعت الملائكة النفس للخروج قالت: أخرجي أيتها النفس المطمئنة إلى رضوان الله (٢) ،

---

(١) أخرجه البخاؤي كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٣٢٤٤) ، ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب صفة الجنة (٢٨٢٤) (٢) .

(٢) تقدم تخريجه ص (٤٠) .." [١]

"**أن من الناس من** نام على فراشه في صحة وعافية ثم حمل من فراشه إلى سرير تغسيله؟! ألم تعلم أن بعض الناس جلس على كرسي العمل يعمل ثم حمل من كرسي العمل إلى سرير الغسل؟! كل هذا واقع، لذا يجب أن تبادر بالتوبة قبل أن تغلق الأبواب.

الحال الثانية: إذا طلعت الشمس من مغربها، فإن الشمس إذا طلعت من مغربها ورآها الناس آمنوا لأن الله يقول:) يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا) (الأنعام: من الآية١٥٨) . والمراد ببعض الآيات طلوع الشمس من مغربها.

﴿إن الذينءامنوا وعملوا الصلحت لهم جنت تجرى من تحتها الانهر ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدىء ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا فى تكذيب * والله من ورآئهم محيط * بل هو قرءان مجيد * فى لوح محفوظ﴾ .

ثم لما ذكر عقاب المجرمين ذكر ثواب المؤمنين، وهذه هي طريقة القرآن في عرض الترغيب والترهيب، والقرآن الكريم مثاني، تذكر فيه المعاني المتقابلة، فيذكر فيه عذاب أهل النار ونعيم أهل الجنة، صفات المؤمنين وصفات الكافرين، من أجل أن يكون الإنسان سائرا إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء، فيعرف نعمة الله عليه بالإسلام، ويعرف حكمة الله تعالى في وجود هؤلاء الكافرين المجرمين. ويزداد حذرا من ذلك ﴿إن الذين آمنوا﴾ هم الذين آمنوا بالله،." [٢]

"الذي بعث الله منه محمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم. قال العلماء: ومعنى قوله: ﴿وطور سينين﴾ أي طور البركة لأن الله تعالى وصفه أو وصف ما حوله بالوادي المقدس. ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ هذا هو المقسم عليه، أقسم الله تعالى أنه خلق الإنسان في أحسن تقويم، وهذه الجملة التي فيها المقسم عليه مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، أقسم الله أنه خلق الإنسان ﴿في أحسن تقويم﴾ في أحسن هيئة وخلقة و ﴿في أحسن تقويم﴾ فطرة وقصدا، لأنه لا يوجد أحد من المخلوقات أحسن من بني آدم خلقة، فالمخلوقات الأرضية كلها دون بني آدم في

---

(١) تفسير العثيمين: جزء عم ابن عثيمين ص/٥٤

(٢) تفسير العثيمين: جزء عم ابن عثيمين ص/١٣٣

الخلقة، لأن الله تعالى قال: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ هذه الردة التي ذكرها الله عز وجل تعني أن الله تعالى يرد الإنسان أسفل سافلين خلقة كما قال الله تعالى: ﴿ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ [النحل: ٧٠] .

فكلما ازدادت السن في الإنسان تغير إلى أردأ في القوة الجسدية، وفي الهيئة الجسدية، وفي نضارة الوجه وغير ذلك يرد أسفل سافلين، وإذا قلنا إن أحسن تقويم تشمل حتى الفطرة التي جبل الله الخلق عليها، والعبادة التي تترتب أو تنبني على هذه الفطرة، فإن هذا إشارة إلى **أن من الناس من** تعود به حاله ـ والعياذ بالله ـ إلى أن يكون أسفل سافلين بعد أن كان في الأعلى والقمة من الإيمان والعلم، والآية تشمل المعنيين جميعا ثم قال تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾ هذا استثناء من قوله: ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾ يعني إلا المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم لا يردون إلى أسفل السافلين، لأنهم متمسكون بإيمانهم وأعمالهم، فيبقون عليها إلى أن يموتوا. وقوله: ﴿فلهم أجر﴾ أي ثواب ﴿غير." (١)

"خوف ولا تعب ولا ملل. أما المقسم عليه فهو الإنسان فقال: ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ والمراد بالإنسان هنا الجنس، أي أن جنس الإنسان، إذا لم يوفق للهداية فإنه ﴿لكنود﴾ أي كفور لنعمة الله عز وجل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾ [الأحزاب: ٧٢] . وقيل: المراد بالإنسان هو الكافر، فعلى هذا يكون عاما أريد به الخاص، والأظهر أن المراد به العموم، وأن جنس الإنسان لولا هداية الله لكان كنودا لربه عز وجل، والكنود هو الكفر، أي كافر لنعمة الله عز وجل، يرزقه الله عز وجل فيزداد بهذا الرزق عتوا ونفورا، **فإن من الناس من** يطغى إذا رآه قد استغنى عن الله، وما أكثر ما أفسد الغنى من بني آدم فهو كفور بنعمة الله عز وجل، يجحد نعمة الله، ولا يقوم بشكرها، ولا يقوم بطاعة الله لأنه كنود لنعمة الله. ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ ﴿إنه﴾ الضمير قيل: يعود على الله، أي أن الله تعالى يشهد على العبد بأنه كفور لنعمة الله.

وقيل: إنه عائد على الإنسان نفسه، أي أن الإنسان يشهد على نفسه بكفر نعمة الله عز وجل.

والصواب أن الآية شاملة لهذا وهذا، فالله شهيد على ما في قلب ابن آدم، وشهيد على عمله، والإنسان أيضا شهيد على نفسه، لكن قد يقر بهذه الشهادة في الدنيا، وقد لا يقر بها فيشهد على نفسه يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ [النور: ٢٤] . ﴿وإنه﴾ أي الإنسان ﴿لحب الخير لشديد﴾ الخير هو المال كما قال الله تعالى ﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية﴾ [البقرة: ١٨٠] . أي: إن ترك مالا كثيرا. فالخير هو المال، والإنسان حبه للمال أمر ظاهر، قال الله تعالى: ﴿وتحبون المال." (٢)

---

(١) تفسير العثيمين: جزء عم ابن عثيمين ص/٢٥٣

(٢) تفسير العثيمين: جزء عم ابن عثيمين ص/٢٩٣

"(إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا) (الكهف: ٨٤)

قوله تعالى: (إنا مكنا له في الأرض) وذلك بثبوت ملكه وسهولة سيره وقوته.
(وآتيناه من كل شيء سببا) أي شيئا يتوصل به إلى مقصوده، وقوله: (من كل شيء) لا يعم كل شيء؛ لكن المراد من كل شيء يحتاج إليه في قوة السلطان، والتمكين في الأرض، والدليل على هذا أن "كل شيء" بحسب ما تضاف إليه، فإن الهدهد قال لسليمان عليه السلام عن ملكة اليمن سبأ: (وأوتيت من كل شئ) (النمل: ٢٣) ، ومعلوم أنها لم تؤت ملك السموات والأرض، لكن من كل شيء يكون به تمام الملك، كذلك قال الله تعالى عن ريح عاد: (تدمر كل شئ) (الأحقاف: ٢٥) ، ومعلوم أنها ما دمرت كل شيء، فالمساكن ما دمرت كما قال تعالى: (فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) (الاحقاف: الآية٢٥)

) فأتبع سببا) (الكهف: ٨٥)

قوله تعالى: (فأتبع سببا) أي: تبع السبب الموصل لمقصوده فإنه كان حازما، انتفع بما أعطاه الله تعالى من الأسباب؛ لأن من الناس من ينتفع، ومن الناس من لا ينتفع، ولكن هذا الملك انتفع () فأتبع سببا) وجال في الأرض.

***." (١)

"حفيظ لما أمره الله به، وهذا كقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لعبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -: «احفظ الله يحفظك» (١) والمعنى أنه حفيظ لأوامر الله، لا يضيعها ولا يقابلها بكسل وتوان بل هو نشيط فيها، وإذا عصى بترك واجب، أو فعل محرم تجده يرجع إلى الله، فهو أواب رجاع إلى الله تعالى من المعاصي إلى الطاعات، وكذلك حفيظ حافظ لما أمر الله به، محافظ عليه، قائم به ﴿من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ من بدل مما سبقها ﴿خشي الرحمن﴾ أي: خافه عن علم وبصيرة، لأن الخشية لا تكون إلا بعلم، والدليل قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فهي خشية أي خوف ورهبة وتعظيم لله عز وجل، لأنها صادرة عن علم، وقوله: ﴿من خشي الرحمن بالغيب﴾ لها معنيان:
المعنى الأول: أنه خشي الرحمن مع أنه لم يره، لكن رأى آياته الدالة عليه.
المعنى الثاني: خشيه بالغيب، أي: بغيبته عن الناس، فهو يخشى الله وهو غائب عن الناس، لأن من الناس من يخشى الله إذا كان بين الناس، وإذا انفرد فإنه لا يخشى الله، مثل المرائي المنافق، إذا كان مع الناس تجده من أحسن الناس خشية، وإذا انفرد لا يخشى الله، كذلك أيضا من الناس من يكون عنده خشية ظاهرية، لكن القلب ليس خاشيا لله عز وجل - فيكون بالغيب، أي ما غاب عن الناس، سواء كان عمله في مكان خاص، أو ما غاب

---

(١) تفسير العثيمين: الكهف ابن عثيمين ص/١٢٦

(١) أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب ٥٩ (٢٥١٦) والإمام أحمد (١/٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.." (١)

"على السماء أبدا؛ وإنما استوى على العرش؛ فالصواب ما ذهب إليه ابن كثير رحمه الله وهو أن الاستواء هنا بمعنى القصد التام، والإرادة الجازمة؛ و ﴿السماء﴾ أي العلو؛ وكانت السماء دخانا. أي مثل الدخان؛

﴿فسواهن سبع سموات﴾ أي جعلها سوية طباقا غير متناثرة قوية متينة..

قوله تعالى: ﴿وهو بكل شيء عليم﴾ ؛ ومن علمه عز وجل أنه علم كيف يخلق هذه السماء..

الفوائد:

. ١ من فوائد الآية: منة الله تعالى على عباده بأن خلق لهم ما في الأرض جميعا؛ فكل شيء في الأرض فإنه لنا. والحمد لله. والعجب **أن من الناس من** سخر نفسه لما سخره الله له؛ فخدم الدنيا، ولم تخدمه؛ وصار أكبر همه الدنيا: جمع المال، وتحصيل الجاه، وما أشبه ذلك ...

٢ ومنها: أن الأصل في كل ما في الأرض الحل. من أشجار، ومياه، وثمار، وحيوان، وغير ذلك؛ وهذه قاعدة عظيمة؛ وبناء على هذا لو أن إنسانا أكل شيئا من الأشجار، فقال له بعض الناس: "هذا حرام"؛ فالمحرم يطالب بالدليل؛ ولو أن إنسانا وجد طائرا يطير، فرماه، وأصابه، ومات، وأكله، فقال له الآخر: "هذا حرام"؛ فالمحرم يطالب بالدليل؛ ولهذا لا يحرم شيء في الأرض إلا ما قام عليه الدليل..

. ٣ ومن فوائد الآية: تأكيد هذا العموم بقوله تعالى: ﴿جميعا﴾ مع أن ﴿ما﴾ موصولة تفيد العموم؛ لكنه سبحانه وتعالى أكده حتى لا يتوهم واهم بأن شيئا من أفراد هذا العموم قد خرج." (٢)

"قوله تعالى: ﴿وآتوا الزكاة﴾ أي أعطوا الزكاة؛ و "آت" التي بمعنى "أعط" تنصب مفعولين؛ المفعول الأول هنا الزكاة؛ والمفعول الثاني محذوف؛ والتقدير: أهلها؛ و ﴿الزكاة﴾ هي المال المدفوع امتثالا لأمر الله إلى أهله من أموال مخصوصة معروفة؛ وسمي بذل المال زكاة؛ لأنه يزكي النفس، ويطهرها، كما قال الله تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ [التوبة: ١٠٣] ..

---

(١) تفسير العثيمين: الحجرات - الحديد ابن عثيمين ص/١٠٦

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ١/١١٠

قوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي صلوا مع المصلين؛ وإنما قلنا ذلك؛ لأنه لا يتعبد لله بركوع مجرد

الفوائد:

. ١ من فوائد الآية: أن الصلاة واجبة على الأمم السابقة، وأن فيها ركوعا كما أن في الصلاة التي في شريعتنا ركوعا؛ وقد دل على ذلك أيضا قول الله تعالى لمريم: ﴿يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ [آل عمران: ٤٣] ؛ فعلى الأمم السابقة صلاة فيها ركوع، وسجود..

. ٢ ومنها: أن الأمم السابقة عليهم زكاة؛ لأنه لابد من الامتحان بالزكاة؛ **فإن من الناس من** يكون بخيلا. بذل الدرهم عليه أشد من شيء كثير.؛ فيمتحن العباد بإيتاء الزكاة، وبذل شيء من أموالهم حتى يعلم بذلك حقيقة إيمانهم؛ ولهذا سميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان صاحبها..

. ٣ ومنها: الإجمال في موضع، وتبيينه في موضع آخر؛ لقوله تعالى: (وآتوا الزكاة) ولم يبين مقدار الواجب، ولا من يدفع إليه، ولا الأموال التي فيها الزكاة؛ لكن هذه الأشياء مبينة." (١)

"معاداة الله، أو لا، فالله عدو له، ثالث: بيان العلة. وهي في هذه الآية: الكفر..

الفوائد:

. ١ من فوائد الآيتين: **أن من الناس من** يكون عدوا لملائكة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قل من كان عدوا لجبريل﴾ : ووجه ذلك: أن مثل هذا لكلام لو لم يكن له أصل لكان لغوا من القول؛ والقرآن منزه عن هذا اللغو..

. ٢ ومنها: فضيلة جبريل. عليه الصلاة والسلام. لأن الله تعالى دافع عنه..

. ٣ ومنها: ذكر الوصف الذي يستحق أن يكون به وليا لجبريل؛ لقوله تعالى: ﴿فإنه نزله على قلبك﴾ يعني: ومن كان هذه وظيفته فإنه يستحق أن يكون وليا..

. ٤ . ومنها: إثبات علو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فإنه نزله﴾ ؛ وإنما نزل به من عند الله؛ والنزول لا يكون إلا من أعلى..

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ١٥٦/١

. ٥ ومنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وعى القرآن وعيا كاملا لا يتطرق إليه الشك؛ لقوله تعالى: ﴿نزله على قلبك﴾ ؛ لأن ما نفذ إلى القلب حل في القلب؛ وإذا حل في القلب فهو في حرز مكين..

. ٦ ومنها: أن هذا القرآن إنما نزل بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿نزله على قلبك بإذن الله﴾ ؛ والإذن هنا كوني؛ وقد ذكر العلماء أن إذن الله تعالى نوعان:.

كوني: وهو المتعلق بالخلق، والتكوين، ولا بد من وقوع." (١)

"لا تقولوا عند مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم راعنا؛ و ﴿راعنا﴾ من المراعاة؛ وهي العناية بالشيء، والمحافظة عليه؛ وكان الصحابة إذا أرادوا أن يتكلموا مع الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا: "يا رسول الله، راعنا"؛ وكان اليهود يقولون: "يا محمد، راعنا"؛ لكن اليهود يريدون بها معنى سيئا؛ يريدون "راعنا" اسم فاعل من الرعونة؛ يعني أن الرسول صلى الله عليه وسلم راعن؛ ومعنى "الرعونة" الحمق، والهوج؛ لكن لما كان اللفظ واحدا وهو محتمل للمعنيين نهى الله عز وجل المؤمنين أن يقولوه تأدبا، وابتعادا عن سوء الظن؛ **ولأن من الناس من** يتظاهر بالإيمان. مثل المنافقين. فربما يقول: "راعنا" وهو يريد ما أرادت اليهود؛ فلهذا نهي المسلمون عن ذلك..

قوله تعالى: ﴿وقولوا انظرنا﴾ يعني إذا أردتم من الرسول أن ينتظركم فلا تقولوا: ﴿راعنا﴾ ؛ ولكن قولوا: ﴿انظرنا﴾ : فعل طلب؛ و"النظر" هنا بمعنى الانتظار، كما في قوله تعالى: ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ [البقرة: ٢١٠] ، أي ما ينتظر هؤلاء..

قوله تعالى: ﴿واسمعوا﴾ فعل أمر من السمع بمعنى الاستجابة؛ أي اسمعوا سماع استجابة، وقبول، كما قال تعالى:." (٢)

"يتمتع به معها؛ لأنه يؤدي إلى الفتنة، ويكون ذريعة إلى الفاحشة؛ فيجب اتقاء ذلك؛ حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر من سمع بالدجال أن يبتعد عنه حتى لا يقع في فتنته (١) .

٨- ومن فوائد الآية: حكمة الله سبحانه وتعالى بتنويع العبادات؛ لأننا إذا تدبرنا العبادات وجدنا أن العبادات متنوعة؛ منها ما هو مالي محض؛ ومنها ما هو بدني محض؛ ومنها ما هو مركب منهما: بدني، ومالي؛ ومنها ما هو كف ـ ليتم اختبار المكلف؛ **لأن من الناس من** يهون عليه العمل البدني دون بذل المال؛ ومنهم من يكون بالعكس؛ ومن الناس من يهون عليه بذل المحبوب؛ ويشق عليه الكف عن المحبوب ومنهم من يكون بالعكس؛ فمن ثم نوع الله سبحانه وتعالى بحكمته العبادات؛ فالصوم كف عن المحبوب قد يكون عند بعض الناس أشق من بذل المحبوب؛ ومن العجائب في زمننا هذا **أن من الناس من** يصبر على الصيام، ويعظمه؛ ولكن لا يصبر على الصلاة، ولا يكون في قلبه من تعظيم الصلاة

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣١٦/١

(٢) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣٣٨/١

ما في قلبه من تعظيم الصيام؛ تجده يصوم رمضان لكن الصلاة لا يصلي إلا من رمضان إلى رمضان ـ إن صلى في رمضان؛ وهذا لا شك خطأ في التفكير؛ لكن الصلاة حيث إنها تتكرر كل يوم صار هينا على هذا الإنسان تركها؛ والصوم يكون عنده تركه صعبا؛ ولهذا إذا أرادوا ذم إنسان قالوا: إنه لا يصوم، ولا يصلي ـ يبدؤون بالصوم.

---

(١) راجع أحمد ص١٤٥٧، حديث رقم ٢٠١١٦؛ وأبا داود ص١٥٣٧، كتاب الملاحم، باب ١٤: خروج الدجال، حديث رقم ٤٣١٩؛ ومستدرك الحاكم ٥٣١/٤، كتاب الفتن والملاحم، وقال الحاكم: "حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم، ولم يخرجاه"، وأقره الذهبي (المرجع نفسه) ؛ وقال الألباني في صحيح أبي داود: "صحيح" (٣٠/٣، حديث رقم ٤٣١٩) .." [١]

"ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده﴾ .

٩ – ومن فوائد الآية: أن الله عز وجل عند الابتلاء يرحم الخلق بما يكون فيه بقاء حياتهم؛ لقوله تعالى هنا: ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾ ؛ لأنهم لا بد أن يشربوا للنجاة من الموت.

١٠ – ومنها: الرد على الجبرية؛ لقوله تعالى: ﴿فمن شرب﴾ ، وقوله تعالى: ﴿إلا من اغترف﴾ ، حيث أضاف الفعل إليهم.

١١ – ومنها: أن القليل من الناس هم الذين يصبرون عند البلوى؛ لقوله تعالى: ﴿فشربوا منه إلا قليلا منهم﴾ .

١٢ – ومنها: أن من الناس من يكون مرجفا، أو مخذلا؛ لقوله تعالى: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ ؛ هؤلاء مخذلون؛ وفي نفس الوقت أيضا مرجفون.

١٣ – ومنها: أن اليقين يحمل الإنسان على الصبر، والتحمل، والأمل، والرجاء؛ لقوله تعالى: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ ؛ مع اليقين قالوا هذا القول لغيرهم لما قال أولئك: ﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾ ؛ فردوا عليهم.

١٤ – ومنها: إثبات ملاقاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ ، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه﴾ [الانشقاق: ٦] .

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٣١٩/٢

١٥ – ومنها: أن الظن يأتي في محل اليقين؛ بمعنى أنه يستعمل الظن استعمال اليقين؛ لقوله تعالى: ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾ .." [(١)]

"لما فيها من عظات وعبر وصدق الله إذ يقول وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون.

ورحم الله القائل: ألا إن لله كتابين: كتابا مخلوقا وهو الكون، وكتابا منزلا وهو القرآن.

وإنما يرشدنا هذا إلى طريق العلم بذاك بما أوتينا من العقل. فمن أطاع فهو من الفائزين، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون.

وبعد أن ذكر– سبحانه– جانبا من الآيات الدالة على ألوهيته ووحدانيته أردف ذلك ببيان حال المشركين، وما يكون منهم يوم القيامة من تدابر وتقاطع وتحسر على ما فرط منهم فقال– تعالى–:

[سورة البقرة (٢) : الآيات ١٦٥ الى ١٦٧]

ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب (١٦٥) إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب (١٦٦) وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار (١٦٧)

الأنداد: جمع ند، وهو مثل الشيء الذي يضاده وينافره ويتباعد عنه. وأصله من ند البعير يند ندا ونِدادا ونُدودا، أي: نفر وذهب على وجهه شاردا. ويرى بعض العلماء أن المراد بالأنداد هنا الأصنام التي اتخذها المشركون آلهة للتقرب بها إلى الله، وقيل: المراد بها الرؤساء الذين كانوا يطيعونهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم. والأولى أن يكون المراد بهذه الأنداد كل مخلوق أسند إليه أمر اختص به الله– تعالى– من نحو التحليل، والتحريم وإيصال النفع وغير ذلك من الأمور التي انفرد بها الخالق– عز وجل–.

والمعنى: **أن من الناس من** لا يعقل تلك الآيات التي دلت على وحدانية الله وقدرته، وبلغت." [(٢)]

"وعبر عن الكتاب بالآيات، للإشعار بأنها في غاية الظهور والدلالة على كونها من عند الله– تعالى–، وأنه ما يكذب بها إلا من غطى الحق بالباطل عن تعمد وإصرار.

فأنت ترى أن الآية الكريمة قد بينت **أن من الناس من** قابل هذا القرآن بالتصديق والإذعان، ومنهم من قابله بالجحود والنكران.

ثم ساق– سبحانه– أبلغ الأدلة وأوضحها على أن هذا القرآن من عنده– تعالى–، فقال: وما كنت تتلوا من قبله من

---

(١) تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة ابن عثيمين ٢٢٥/٣

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٣٣٦/١

كتاب، ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون.

أى: أنت- أيها الرسول الكريم- ما كنت في يوم من الأيام قبل أن ننزل عليك هذا القرآن- تاليا لكتاب من الكتب، ولا عارفا للكتابة، ولو كنت ممن يعرف القراءة والكتابة، لارتاب المبطلون في شأنك، ولقالوا إنك نقلت هذا القرآن بخطك من كتب السابقين.

ومن في قوله من كتاب لتأكيد نفى كونه صلى الله عليه وسلم قارئا لأى كتاب من الكتب قبل نزول القرآن عليه.

وقوله: ولا تخطه بيمينك لتأكيد نفى كونه صلى الله عليه وسلم يعرف الكتابة أو الخط.

قال الإمام ابن كثير: وهكذا صفته صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة، كما قال- تعالى-:

الذين يتبعون الرسول النبي الأمي، الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل.. وهكذا كان صلوات الله وسلامه عليه- إلى يوم القيامة، لا بحسن الكتابة، ولا يخط سطرا ولا حرفا بيده، بل كان له كتاب يكتبون بين يديه الوحى والرسائل إلى الأقاليم ... » «١» .

والمراد بالمبطلين، كل من شك في كون هذا القرآن من عند الله- تعالى-، سواء أكان من مشركي مكة أم من غيرهم.

وسماهم- سبحانه- مبطلين، لأن ارتيابهم ظاهر بطلانه ومجانبته للحق، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد لبث فيهم قبل النبوة أربعين سنة، يعرفون حسبه ونسبه، ويعلمون حق العلم أنه أمى لا يعرف الكتابة والقراءة.

ثم بين- سبحانه- حقيقة هذا الكتاب المعجز فقال: بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم....

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٦ ص ٢٩٥.." [1]

"وأنهار من خمر لذة للشاربين أى: وفيها كذلك أنهار من خمر هي في غاية اللذة لمن يشربها، إذ لا يعقبها ذهاب عقل، ولا صداع.

وقال- سبحانه- لذة للشاربين للإشعار بأنها لذيذة لجميع من يشربونها بخلاف خمر الدنيا **فإن من الناس من** ينفر منها ويعافها حتى ولو كان على غير دين الإسلام.

وأنهار من عسل مصفى أى: وفيها- أيضا- أنهار من عسل لا يخالطه ما يخالط عسل الدنيا من الشمع أو غيره.

ولهم أى: للمؤمنين فيها أى: في الجنة فضلا عن كل ذلك من كل الثمرات التي يشتهونها، وأهم من كل ذلك أنهم لهم فيها: مغفرة من ربهم أى: لهم ثواب عظيم وفضل كبير من ربهم، حيث ستر لهم ذنوبهم، وأزالها عنهم، وحولها إلى حسنات بكرمه وإحسانه.

وقوله- سبحانه-: كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميما فقطع أمعاءهم أى:

أمثل جزاء المؤمنين الذي هو الجنة التي فيها ما فيها من أنهار الماء واللبن والخمر والعسل..

كمثل عقاب الكافرين والمتمثل في نارهم خالدين فيها أبدا، وفي ماء في أشد درجات الحرارة، يشربونه فيقطع أمعاءهم؟

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٤٧/١١

لا شك أن كل عاقل يرى فرقا شاسعا، بين حسن عاقبة المؤمنين، وسوء عاقبة الكافرين.

وبذلك نرى أن هاتين الآيتين قد فرقت بين الأخيار والأشرار في المنهج والسلوك، وفي المصير الذي يصير إليه كل فريق.

وبعد هذا الحديث المفصل عن حال المؤمنين وحال الكافرين وعن مصير كل فريق. انتقلت السورة إلى الحديث عن المنافقين، وعن موقفهم من النبي صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم الذي أنزله الله- تعالى- عليه، فقال- سبحانه- :

[سورة محمد (٤٧) : الآيات ١٦ الى ١٩]

ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (١٦) والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧) فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم (١٨) فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم (١٩)." (١)

"وقوله: مبشرا من التبشير، وهو الإخبار بالأمر السار لمن لا علم له بهذا الأمر.

وقوله: ونذيرا من الإنذار، وهو الإخبار بالأمر المخيف، لكي يجتنب ويحذر.

أى: إنا أرسلناك- أيها الرسول الكريم- إلى الناس، لتكون شاهدا لمن آمن منهم بالإيمان، ولمن كفر منهم بالكفر، بعد أن بلغتهم رسالة ربك تبليغا تاما كاملا.

ولتكون مبشرا للمؤمنين منهم برضا الله عنهم ومغفرته لهم ونذيرا للكافرين وللعصاة بسوء المصير إذا ما استمروا على كفرهم وعصيانهم.

والحكمة في جعله صلى الله عليه وسلم شاهدا مع أن الله- تعالى- لا يخفى عليه شيء: إظهار العدل الإلهى للناس في صورة جلية واضحة، وتكريم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الشهادة.

وجمع- سبحانه- بين كونه صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا **لأن من الناس من** ينفعه الترغيب في الثواب، ومنهم من لا يزجره إلا التخويف من العقاب. وانتصاب شاهدا ومبشرا ونذيرا على الحال المقدرة.

وفي معنى هذه الآية وردت آيات كثيرة، منها قوله- تعالى-: وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس، ويكون الرسول عليكم شهيدا ... «١» .

وقوله- سبحانه- ويوم نبعث في كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء.. «٢» .

وقوله- عز وجل-: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا «٣» .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٤٣.

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٣١/١٣

(٢) سورة النحل الآية ٨٩.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤٥.." (١)

"قال الإمام الرازي ما ملخصه: اعلم **أن من الناس من** قال: إن الله– تعالى– لما شرح عظيم نعمه على المؤمنين فيما يتعلق بإرشادهم إلى الأصلح لهم في أمر الدين وفي أمر الجهاد، أتبع ذلك بما يدخل في الأمر والنهى والترغيب والترهيب فقال: يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافا مضاعفة.

وقال القفال: يحتمل أن تكون هذه الآية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا، ولعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر، ويتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك.

وكان الرجل في الجاهلية إذا كان له على إنسان مائة درهم– مثلا– إلى أجل، فإذا حل الأجل ولم يكن المدين واجدا لذلك المال قال: زدني في المال حتى أزيد في الأجل، فربما جعله مائتين، ثم إذا حل الأجل الثاني فعل مثل ذلك ثم إلى آجال كثيرة، فيأخذ بسبب تلك المائة أضعافها فهذا هو المراد من قوله أضعافا مضاعفة «١» .

---

(١) تفسير الفخر الرازي ج ٩ ص ٣. طبعة عبد الرحمن محمد. [.....]." (٢)

"**وإن من الناس من** يتوكل على الله في أمور دينه فقط، وهذا توكل ناقص، ومنهم من يتوكل على الله في أمور دنياه فقط، وهذا أيضا توكل ناقص، ومنهم من يتوكل على الله في بعض أمور دينه أو في بعض أمور دنياه أو في حاجة واحدة، وهذا غلط ونقص في التوكل، والحق أن يتوكل العبد على الله في جميع أمور دينه ودنياه.

وتقديم المعمول؛ أي: ﴿وإياك﴾ وتكريره: للاهتمام والحصر؛ أي: لا نعبد إلا إياك، ولا نتوكل إلا عليك، وهو كمال الطاعة، والدين كله يرجع إلى هذين المعنيين.

وإن من المؤسف والمحزن أن بعضا ممن ينتسب إلى الإسلام في زماننا يقرؤون: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ في صلاتهم وفي غيرها؛ ولكن ما ينتبهون لمعناها؛ فلا يخلصون العبادة لله تعالى وحده؛ بل يشركون في العبادة بدعائهم مع الله آلهة أخرى؛ كمن يدعو الرسول – صلى الله عليه وسلم – ويستغيث به، أو يدعو الحسين أو عبد القادر الجيلاني، أو البدوي، أو زينب أو العيدروس؛ فيقول: «يا بدوي» الغوث أو المدد أو انصرني أو أغثني أو أنا في حسبك، ونحو ذلك؛ هذا كله من الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر لمن مات على ذلك.

وكذا الذي يذبح لغير الله من الجن والكواكب والأموات؛ كمن يذبح للبدوي ونحوه.

ولا ريب أن من يصلي وحالته هذه فصلاته باطلة، ومثله الذي يصلي بغير وضوء وثيابه نجسة؛ صلاته باطلة، لكن الذي يصلي بوضوء وثيابه طاهرة ولم يتطهر من الشرك الأكبر أسوأ حالا وأبطل عملا وأحبط من الذي يصلي بغير وضوء، وهو

---

(١) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٦٤/١٣

(٢) التفسير الوسيط لطنطاوي محمد سيد طنطاوي ٢٥٨/٢

ليس بمشرك.

فإن قال قائل: هل الذي يذبح للأموات ويستغيث بهم، وهو يدعي الإسلام ويصلي الصلوات الخمس ويصوم ويحج، هل هذا مسلم أم مشرك.

الجواب: نقول إنه مشرك بالله، عابد مع الله غيره، ولو صلى وصام؛ فإن هذا هو شرك المشركين الذين قاتلهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

قوله تعالى: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾: الهداية على نوعين:." (١)

"– وحدثني عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال مروا أبا بكر فليصل للناس فقالت عائشة إن أبا بكر يا رسول الله إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصلي للناس قال مروا أبا بكر فليصل للناس قالت عائشة فقلت لحفصة قولي له إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء فمر عمر فليصل للناس ففعلت حفصة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكن لأنتن صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل للناس فقالت حفصة لعائشة ما كنت لأصيب منك خيرا ، (ط) ٤٧٣

– نا محمد بن يحيى، ومحمد بن رافع قال: محمد بن يحيى: سمعت عبد الرزاق، وقال ابن رافع، نا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح فأعهد إلى الناس". قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس، وسكبنا عليه الماء منهن حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج حدثنا به محمد بن يحيى مرة، نا عبد الرزاق مرة، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة بمثله، غير أنه لم يقل من نحاس، ولم يقل ثم خرج ، (خز) ١٢٣

– نا محمد بن يحيى، نا معاوية بن عمرو قال: نا زائدة، نا موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله قال: دخلت على عائشة فقلت: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: بلى، ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أصلى الناس؟ " فقلنا: لا هم ينتظرونك يا رسول الله، فقال: "ضعوا لي ماء في المخضب". قالت: ففعلنا، فاغتسل ثم ذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أصلى الناس؟ " فقلنا: لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله. فقال: "ضعوا لي ماء في المخضب" ففعلنا قالت: فاغتسل، ثم ذهب لينوء فأغمي عليه ، ثم أفاق فقال: "أصلى الناس؟ " فقلنا: لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة ثم ذكر الحديث بطوله ، (خز) ٢٥٧

– نا محمد بن رافع، نا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة أو عمرة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: "

(١) تفسير سورة الفاتحة ويليه المسائل المستنبطة منها ص/١١

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح فأعهد إلى الناس ". قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس ، وسكبنا عليه الماء منهن حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن ، ثم خرج نا به محمد بن يحيى نحوه وقال: سمعت عبد الرزاق يذكره، عن معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة نحوه. غير أنه لم يقل: "من نحاس" حين جعل الحديث، عن عروة بلا شك ، (خز) ٢٥٨

– نا القاسم بن محمد بن عباد بن عباد المهلبي، وزيد بن أخزم الطائي، ومحمد بن يحيى الأزدي قالوا: ثنا عبد الله بن داود، ثنا سلمة بن نبيط، عن نعيم بن أبي هند، عن نبيط بن شريط، عن سالم بن عبيد قال: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أحضرت الصلاة؟ " قلت: نعم قال: "مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس" – فذكروا الحديث، وقالوا في الحديث – وأذن وأقام، وأمروا أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم أفاق فقال: "أقيمت الصلاة؟ " قلت: نعم قال: " جيئوني بإنسان أعتمد عليه، فجاءوا ببريرة ورجل آخر، فاعتمد عليهما، ثم خرج إلى الصلاة، فأجلس إلى جنب أبي بكر، فذهب أبو بكر يتنحى، فأمسكه حتى فرغ من الصلاة ثم ذكروا الحديث وهذا حديث القاسم، (خز) ١٥٤١ قال الألباني: إسناده صحيح رجاله كلهم ثقات

– نا سلم بن جنادة، ثنا وكيع، ح وثنا سلم أيضا، نا أبو معاوية كلاهما عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: لما مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه جاءه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، قلنا: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، ومتى يقم مقامك يبك، فلا يستطيع، فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس قال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" – ثلاث مرات – "فإنكن صواحبات يوسف" قالت: فأرسلنا إلى أبي بكر، فصلى بالناس، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم خفة، فخرج يهادى بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض، فلما أحس به أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم: أن مكانك قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، فجلس إلى جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يأتم بالنبي صلى الله عليه وسلم، والناس يأتمون بأبي بكر رضوان الله عليه هذا حديث وكيع وقال في حديث أبي معاوية: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاعدا، وأبو بكر قائما، قال أبو بكر: قال قوم من أهل الحديث: إذا صلى الإمام المريض جالسا صلى من خلفه قياما إذا قدروا على القيام، وقالوا: خبر الأسود وعروة عن عائشة ناسخ للأخبار التي تقدم ذكرنا لها في أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالجلوس إذا صلى الإمام جالسا. قالوا: لأن تلك الأخبار عند سقوط النبي صلى الله عليه وسلم من الفرس وهذا الخبر في مرضه الذي توفي فيه قالوا: والفعل الآخر ناسخ لما تقدم من فعله وقوله. قال أبو بكر: وإن الذي عندي في ذلك – والله أسأل العصمة والتوفيق – أنه لو صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه لكان الأمر على ما قالت هذه الفرقة من أهل الحديث، ولكن لم يثبت عندنا ذلك؛ لأن الرواة قد اختلفوا في هذه الصلاة على فرق ثلاث ، (خز) ١٦١٦

- ففي خبر هشام عن أبيه، عن عائشة، وخبر الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان الإمام، وقد روي بمثل هذا الإسناد عن عائشة أنها قالت: من الناس من يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من يقول: كان النبي صلى الله عليه وسلم المقدم بين يدي أبي بكر، (خز) ١٦١٧ قال الأعظمي: إسناده صحيح

- ثنا بذلك محمد بن بشار، ثنا أبو داود، نا شعبة، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة.، (خز) ١٦١٨ قال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم

- وروي عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، ومسروق بن الأجدع، عن عائشة، أن أبا بكر، صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف، (خز) ١٦١٩ قال الألباني: إسناده صحيح

- نا بندار، نا بكر بن عيسى صاحب البصري، ثنا شعبة، عن نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل، عن مسروق، عن عائشة، أن أبا بكر، صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه، (خز) ١٦٢٠ قال الألباني: إسناده صحيح

- نا بندار، ثنا بدل بن المحبر، ثنا شعبة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة، أن أبا بكر صلى بالناس ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الصف خلفه قال أبو بكر: فلم يصح الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان هو الإمام في المرض الذي توفي فيه في الصلاة التي كان هو فيها قاعدا، وأبو بكر والقوم قيام؛ لأن في خبر مسروق، وعبيد الله بن عبد الله عن عائشة أن أبا بكر كان الإمام، والنبي صلى الله عليه وسلم مأموم، وهذا ضد خبر هشام، عن أبيه، عن عائشة، وخبر إبراهيم عن الأسود عن عائشة، على أن شعبة بن الحجاج قد بين في روايته عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة **أن من الناس من** يقول: كان أبو بكر المقدم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنهم من قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم المقدم بين يدي أبي بكر، وإذا كان الحديث الذي به احتج من زعم أن فعله الذي كان في سقطته من الفرس، وأمره صلى الله عليه وسلم بالاقتداء بالأئمة وقعودهم في الصلاة إذا صلى إمامهم قاعدا، منسوخ غير صحيح من جهة النقل، فغير جائز لعالم أن يدعي نسخ ما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم بالأخبار المتواترة بالأسانيد الصحاح من فعله وأمره بخبر مختلف فيه على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زجر عن هذا الفعل الذي ادعته هذه الفرقة في خبر عائشة الذي ذكرنا أنه مختلف فيه عنها، وأعلم أنه فعل فارس والروم بعظمائها، يقومون وملوكهم قعود، وقد ذكرنا هذا الخبر في موضعه، فكيف يجوز أن يؤمر بما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم من الزجر عنه استنانا بفارس والروم من غير أن يصح عنه صلى الله عليه وسلم الأمر به وإباحته بعد الزجر عنه؟ ولا خلاف بين أهل المعرفة بالأخبار أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى قاعدا وأمر القوم بالقعود، وهم قادرون على القيام، لو ساعدهم القضاء، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المأمومين بالاقتداء بالإمام والقعود إذا صلى

الإمام قاعدا، وزجر عن القيام في الصلاة إذا صلى الإمام قاعدا، واختلفوا في نسخ ذلك، ولم يثبت خبر من جهة النقل بنسخ ما قد صح عنه صلى الله عليه وسلم مما ذكرنا من فعله وأمره، فما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم واتفق أهل العلم على صحته يقين، وما اختلفوا فيه ولم يصح فيه خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم شك، وغير جائز ترك اليقين بالشك، وإنما يجوز ترك اليقين باليقين. فإن قال قائل غير منعم الروية: كيف يجوز أن يصلي قاعدا من يقدر على القيام؟ قيل له إن شاء الله: يجوز ذلك أن يصلي بأولى الأشياء أن يجوز به، وهي سنة النبي صلى الله عليه وسلم، أمر باتباعها، ووعد الهدى على اتباعها، فأخبر أن طاعته صلى الله عليه وسلم طاعته عز وجل، وقوله كيف يجوز لما قد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر به، وثبت فعله له - بنقل العدل عن العدل موصولا إليه بالأخبار المتواترة - جهل من قائله وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم عند جميع أهل العلم بالأخبار الأمر بالصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا، وثبت عندهم أيضا أنه صلى الله عليه وسلم صلى قاعدا بقعود أصحابه لا مرض بهم، ولا بأحد منهم. وادعى قوم نسخ ذلك، فلم تثبت دعواهم بخبر صحيح لا معارض له، فلا يجوز ترك ما قد صح من أمره صلى الله عليه وسلم، وفعله في وقت من الأوقات، إلا بخبر صحيح عنه، ينسخ أمره ذلك وفعله. ووجود نسخ ذلك بخبر صحيح معدوم، وفي عدم وجود ذلك بطلان ما ادعت، فجازت الصلاة قاعدا إذا صلى الإمام قاعدا اقتداء به على أمر النبي صلى الله عليه وسلم وفعله، والله الموفق للصواب، (خز) ١٦٢١ قال الألباني: إسناده صحيح على شرط البخاري لكن لفظه مخالف لروايته في الصحيح قال الأعظمي: انظر البخاري: الأذان ٥١ من طريق ابن أبي عائشة وفيه: فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم

- نا القاسم بن محمد بن عباد بن عباد المهلبي، وأبو طالب زيد بن أخزم الطائي، ومحمد بن يحيى الأزدي قالوا: ثنا عبد الله بن داود، نا سلمة بن نبيط، عن نعيم بن أبي هند، عن نبيط بن شريط، عن سالم بن عبيد قال: مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغمي عليه، ثم أفاق فقال: "أحضرت الصلاة؟ " قلنا: نعم قال: "مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس"، ثم أغمي عليه ثم أفاق فقال: " أحضرت الصلاة؟ قلنا: نعم قال: مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس "، ثم أغمي عليه، ثم أفاق، فقالت عائشة: إن أبي رجل أسيف، فلو أمرت غيره، ثم أفاق فقال: "أحضرت الصلاة"؟ قلنا: نعم، فقال: "مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس" قالت عائشة: إن أبي رجل أسيف، فلو أمرت غيره، فقال: "إنكن صواحبات يوسف، مروا بلالا فليؤذن، ومروا أبا بكر فليصل بالناس"، ثم أغمي عليه، فأمروا بلالا فأذن، وأقام، وأمروا أبا بكر أن يصلي بالناس، ثم أفاق فقال: "أقيمت الصلاة؟ " قلت: نعم قال: "جيئوني بإنسان أعتمد عليه"، فجاءوا ببريرة، ورجل آخر، فاعتمد عليهما، ثم خرج إلى الصلاة، فأجلس إلى جنب أبي بكر، فذهب أبو بكر يتنحى، فأمسكه حتى فرغ من الصلاة. هذا حديث القاسم بن محمد، (خز) ١٦٢٤ قال الأعظمي: إسناده صحيح

- أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلت على عائشة فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله

صلى الله عليه وسلم؟ قالت: بلى، ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "أصلى الناس؟ " فقلت: لا هم ينتظرونك يا رسول الله قال: "ضعوا لي ماء في المخضب" قالت: ففعلنا فاغتسل، ثم ذهب لينوي فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: "أصلى الناس؟ " فقلت: لا هم ينتظرونك يا رسول الله والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة العشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر الصديق أن صل بالناس فأتاه الرسول فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلي بالناس فقال أبو بكر وكان رجلا رقيقا: يا عمر صل بالناس، فقال له عمر: أنت أحق بذلك، قال: فصلى بهم أبو بكر تلك الأيام، قالت: ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر وأبو بكر يصلي بالناس، قالت: فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، وقال لهما: "أجلساني إلى جنبه" فأجلساه إلى جنب أبي بكر فجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة النبي صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بصلاة أبي بكر والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد قال عبيد الله: فدخلت على عبد الله بن عباس فقلت: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة، عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: هات فعرضت حديثها عليه، فما أنكر منه شيئا. (رقم طبعة با وزير: ٢١١٣) ، (حب) ٢١١٦ [قال الألباني]: صحيح.

- أخبرنا محمد بن إسحاق بن إبراهيم مولى ثقيف، قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة العبسي، قال: حدثنا حسين بن علي، عن زائدة، عن عاصم *، عن شقيق، عن مسروق، عن عائشة، قالت: أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أفاق فقال: "أصلى الناس؟ " قلنا: لا قال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس؟ " فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، - قال عاصم: والأسيف الرقيق الرحيم - قال: "مروا أبا بكر أن يصلي بالناس" قال ذلك ثلاث مرات كل ذلك أرد عليه قالت: فصلى أبو بكر بالناس، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد من نفسه خفة فخرج بين بريرة ونوبة إني لأنظر إلى نعليه تخطان في الحصا وأنظر إلى بطون قدميه، فقال لهما: "أجلساني إلى جنب أبي بكر" فلما رآه أبو بكر ذهب يتأخر، فأومأ إليه أن اثبت مكانك فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قالت: فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم "يصلي وهو جالس وأبو بكر قائم يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والناس يصلون بصلاة أبي بكر". [رقم طبعة با وزير] = (٢١١٥) ، (حب) ٢١١٨ [قال الألباني]: حسن - انظر التعليق. * [عن عاصم] قال الشيخ: هو ابن بهدلة، أبي النجود، وهو حسن الحديث، كما تقدم - مرارا - وقد توبع كما يأتي، وبقية الرجال ثقات معروفون. وعثمان بن أبي شيبة العبسي: هو صاحب "المسند" المعروف به، وهو أخو أبي بكر بن أبي شيبة صاحب "المصنف" المشهور به. وقد تابعه فيه، فقال فيه (٢/ ٣٣١): حدثنا حسين بن علي به. ويأتي الحديث (٢٢٢١) من طريق نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل (وهو شقيق) - أحسبه - عن مسروق به. ومن هذا الوجه أخرج الجملة الأخيرة، وهي مخالفة لرواية ابن بهدله؛ لأنها صريحة بأنه صلى الله عليه وسلم صلى خلف أبي بكر: أخرجه البيهقي (٣/ ٨٢)، وأحمد (٦/ ١٥٩)، وكذا ابن أبي شيبة (٢/ ٣٣٢). وفي رواية ابن بهدلة: أن أبا بكر صلى خلف النبي صلى الله عليه وسلم يقتدي به، ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر. وقد جمع المؤلف بين الروايتين على أنهما صلاتان فراجعه.

- أخبرنا محمد بن إسحاق بن خزيمة، وعمر بن محمد بن بجير، قالا: حدثنا سلم بن جنادة، قال: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: لما مرض النبي صلى الله عليه وسلم مرضه الذي مات فيه جاءه بلال يؤذنه بالصلاة، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس" قلنا: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف ومتى يقم مقامك يبك فلو أمرت عمر أن يصلي بالناس قال: "مروا أبا بكر ليصلي بالناس" ثلاث مرات، "فإنكن صواحبات يوسف"، قالت: فأرسلنا إلى أبي بكر فصلى بالناس فوجد النبي صلى الله عليه وسلم من نفسه خفة فخرج يهادى بين رجلين ورجلاه تخطان في الأرض، فلما حس * به أبو بكر ذهب يتأخر، فأومأ إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن مكانك قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فجلس إلى جنب أبي بكر فكان أبو بكر يأتم بالنبي صلى الله عليه وسلم والناس يأتمون بأبي بكر. [رقم طبعة با وزير] = (٢١١٧) ، (حب) ٢١٢٠ [قال الألباني]: صحيح - مضى (٢١١٥). * [حس]: قال الشيخ: في الأصل: "أحس".

- أخبرنا الحسن بن سفيان، قال: حدثنا عبيد الله بن معاذ بن معاذ، قال: حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، قال: حدثنا نعيم بن أبي هند، عن أبي وائل، أحسبه عن مسروق، عن عائشة، أنها قالت: أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما أفاق قال: "هل نودي بالصلاة؟ " فقلنا: لا فقال: "مري بلالا فليبادر بالصلاة وليصل بالناس أبو بكر" قالت: فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر رجل أسيف لا يستطيع أن يقوم مقامك قالت: فنظر إلي حين فرغ من كلامه، ثم أغمي عليه فلما أفاق قال: "هل نودي بالصلاة؟ " قالت: فقلت: لا قال: "مري بلالا فليناد بالصلاة وليصل بالناس أبو بكر" قالت: فأومأت إلى حفصة فقالت: يا نبي الله إن أبا بكر رجل رقيق لا يستطيع أن يقرأ إلا يبكي قال: فنظر إليها حين فرغت من كلامها، ثم أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما أفاق قال: "هل نودي بالصلاة؟ " قالت: فقلت: لا فقال: "مري بلالا فليناد بالصلاة وليصل بالناس أبو بكر، فإنكن صواحبات يوسف"، ثم أغمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: فأقام بلال الصلاة وصلى بالناس أبو بكر، ثم أفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بنوبة، وبريرة فاحتملاه قالت عائشة: فكأني أنظر إلى أصابع قدمي رسول الله صلى الله عليه وسلم تخط في الأرض قالت: فلما أحس أبو بكر بمجيء النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستأخر فأومأ إليه أن يثبت قالت: وجيء بنبي الله صلى الله عليه وسلم فوضع بحذاء أبي بكر في الصف. [رقم طبعة با وزير] = (٢١٢١) ، (حب) ٢١٢٤ [قال الألباني]: صحيح - مضى (٢١١٥).

- أخبرنا عمر بن محمد الهمداني، حدثنا محمد بن إسماعيل البخاري، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس *، قال: أخبرني أخي، عن سليمان بن بلال، عن محمد بن أبي عتيق، عن ابن شهاب، أخبرني سعيد بن المسيب، أنه سمع أبا هريرة، يقول: دخل أبو بكر المسجد وعمر يكلم الناس حين دخل بيت النبي صلى الله عليه وسلم الذي توفي فيه، وهو بيت عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فكشف عن وجهه برد حبرة كان مسجى به، فنظر إلى وجهه، ثم أكب عليه،

فقبله، وقال: "بأبي أنت، فوالله لا يجمع الله عليك موتتين، لقد مت الموتة التي لا تموت بعدها" (رقم طبعة با وزير: ٣٠١٩) ، (حب) ٣٠٣٠ [قال الألباني]: حسن صحيح - انظر التعليق. * [إسماعيل بن أبي أويس] قال الشيخ: هذا مع كونه من رجال الشيخين، ففيه كلام من قبل حفظه. وأخوه اسمه: عبد الحميد، أبو بكر بن عبد الله بن أبي أويس، ثقة من رجالهما. ومحمد بن أبي عتيق نسب إلى جده، واسم أبيه: عبد الله، وهو ثقة؛ خلافا للحافظ. وسائر الرجال ثقات رجال الشيخين؛ فالإسناد حسن. وهو صحيح، فقد توبع إسماعيل فقال ابن سعد (٢/ ٢٦٨): أخبرنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي أويس به. وهذا إسناد صحيح. ثم روى له شاهدا من حديث عائشة نحوه: رواه البخاري وغيره، وهو مخرج في "أحكام الجنائز" (٢٠ - ٢١).

- أخبرنا الحسن بن سفيان، حدثنا عمرو بن هشام الحراني، حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن عائشة، قالت: رجع إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم من جنازة بالبقيع، وأنا أجد صداعا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه، قال: "بل أنا يا عائشة، وا رأساه"، ثم قال: "وما ضرك لو مت قبلي، فغسلتك، وكفنتك، وصليت عليك، ثم دفنتك؟ "، قلت: لكأني بك أن لو فعلت ذلك قد رجعت إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بدئ في وجعه الذي مات فيه (رقم طبعة با وزير: ٦٥٥٢) ، (حب) ٦٥٨٦ [قال الألباني]: حسن - "أحكام الجنائز" (٥٠)، "الإرواء" (٧٠٠)، "دفاع عن الحديث" (٥٣ - ٥٤).

- أخبرنا ابن خزيمة، حدثنا عبد الجبار بن العلاء، حدثنا سفيان، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، قال: سألت عائشة قلت: أخبريني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: "اشتكى، فعلق ينفث، فجعلنا نشبه نفثه بنفث آكل الزبيب، قالت: وكان يدور على نسائه، فلما ثقل استأذنهن أن يكون عندي ويدرن عليه، قالت: دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بين رجلين تخطان رجلاه الأرض، أحدهما عباس" قال: فحدثت به ابن عباس، فقال لي: "ما أخبرتك بالآخر؟ قلت: لا، قال: هو علي" (رقم طبعة با وزير: ٦٥٥٤) ، (حب) ٦٥٨٨ [قال الألباني]: صحيح: خ (٦٨٧).

- أخبرنا عمران بن موسى بن مجاشع السختياني، حدثنا محمد بن عبد الله العصار، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر، عن الزهري، عن عروة، أو عمرة، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح، فأعهد إلى الناس" قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة من نحاس، وسكبنا عليه من الماء حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج فحمد الله، وأثنى عليه، واستغفر للشهداء الذين قتلوا يوم أحد (رقم طبعة با وزير: ٦٥٦٢) ، (حب) ٦٥٩٦ [قال الألباني]: صحيح: خ (١٩٨).

- أخبرنا الفضل بن الحباب، حدثنا علي بن المديني، حدثنا هشام بن يوسف، حدثنا معمر، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم في وجعه الذي قبض فيه: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس"، قالت: فأجلسناه في مخضب لحفصة، فما زلنا نصب عليه حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن [رقم طبعة با وزير] = (٦٥٦٥) ، (حب) ٦٥٩٩ [قال الألباني]: صحيح - مضى قريبا (٦٥٦٢).

- أخبرنا محمد بن الحسن بن قتيبة، حدثنا ابن أبي السري، حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهري، أخبرني عروة، وعمرة، أحدهما أو كلاهما، عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه: "صبوا علي من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أستريح، فأعهد إلى الناس"، قالت عائشة: فأجلسناه في مخضب لحفصة بنت عمر من نحاس، فسكبنا عليه الماء حتى طفق يشير إلينا أن قد فعلتن، ثم خرج إلى المسجد (رقم طبعة با وزير: ٦٥٦٦) ، (حب) ٦٦٠٠ [قال الألباني]: صحيح - انظر ما قبله.

- أخبرنا عبد الله بن محمد الأزدي، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فقلت: يا رسول الله إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس، فقال: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فقلت مثلها، فقال صلى الله عليه وسلم: "مروا أبا بكر فليصل بالناس"، فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر، ففعلت حفصة، فقال صلى الله عليه وسلم: "مروا أبا بكر فليصل بالناس، فإنكن صواحبات يوسف"، فقالت حفصة: ما رأيت منك خيرا قط، قالت: فخرج أبو بكر يؤم الناس، فلما كبر أبو بكر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذهب أبو بكر يتأخر، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امكث مكانك، فمكث مكانه، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم بحذائه، فكان أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والناس يصلون بصلاة أبي بكر حتى قضى الصلاة [رقم طبعة با وزير] = (٦٥٦٧) ، (حب) ٦٦٠١ [قال الألباني]: صحيح - "الإرواء" (٢/ ٣٣٥ / ٥٤٨): ق، سيأتي برقم (٦٨٣٤).

- أخبرنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا أبو أسامة، حدثنا زائدة، حدثني موسى بن أبي عائشة، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، قال: دخلت على عائشة، فقلت لها: ألا تحدثيني عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت: بلى، ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "أصلى الناس؟ "، فقلت: لا يا رسول الله، هم ينتظرونك، فقال: "ضعوا لي ماء في المخضب"، ففعلنا، فاغتسل صلى الله عليه وسلم، ثم ذهب لينوء، فأغمي عليه ثم أفاق، فقال: "أصلى الناس؟ "، قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك، قالت: والناس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشاء الآخرة، قالت: فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فأتاه الرسول، فقال له: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تصلي بالناس، فقال أبو بكر - وكان رجلا

رقيقا أو رفيقا -: يا عمر، صل بالناس، فقال عمر: أنت أحق بذلك، ففعل وصلى بهم أبو بكر تلك الأيام، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد في نفسه خفة، فخرج بين رجلين أحدهما العباس بن عبد المطلب، وأبو بكر يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، فقال لهما: "أجلساني إلى جنب أبي بكر"، فأجلساه إلى جنب أبي بكر، قالت: فجعل أبو بكر يصلي بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائم، والناس يصلون بصلاة أبي بكر، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد، قال عبيد الله: فدخلت على ابن عباس، فقلت له: ألا أعرض عليك ما حدثتني عائشة عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "نعم"، فحدثته بحديثها عن مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما أنكر منه شيئا غير أنه قال: "لم تسم لك الرجل الذي كان مع العباس؟ "، فقلت: لا، فقال: "هو علي" (رقم طبعة با وزير: ٦٥٦٨) ، (حب) ٦٦٠٢ [قال الألباني]: صحيح.." [١]

"(طب) ، وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " يبعث مناد عند حضرة كل صلاة ، فيقول: يا بني آدم، قوموا فأطفئوا عنكم ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون فيتطهرون ، وتسقط خطاياهم من أعينهم، ويصلون ، فيغفر لهم ما بينهما، ثم يوقدون فيما بين ذلك، فإذا كان عند صلاة الأولى نادى: يا بني آدم، قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم، فيقومون ، فيتطهرون ويصلون ، فيغفر لهم ما بينهما، فإذا حضرت العصر فمثل ذلك، فإذا حضرت المغرب فمثل ذلك، فإذا حضرت العتمة (١) فمثل ذلك، فينامون وقد غفر لهم، ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: فمدلج في خير، ومدلج في شر (٢) " (٣)

---

(١) أي: العشاء.

(٢) الإدلاج: السير أول الليل ، والمراد هنا: **أن من الناس من** ينام على طاعة ، ومنهم من ينام على معصية. ع

(٣) (طب) ١٠٢٥٢ ، الصحيحة: ٢٥٢٠ ، صحيح الترغيب والترهيب: ٣٥٩." [٢]

"معصية الله ورسوله والإعراض عن كتابه وهدي نبيه صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى ﴿ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم﴾ أي لجعلهم يسمعون آيات الله وما تحمله من بشارة ونذارة وهذا من باب الفرض لقوله تعالى ﴿ولو أسمعهم لتولوا عنه وهم معرضون﴾ هؤلاء طائفة من المشركين١؟ توغلوا في الشر والفساد والظلم والكبر والعناد فحرموا لذلك هداية الله تعالى فقد هلك بعضهم في بدر وبعض في أحد ولم يؤمنوا لعلم الله تعالى أنه لا خير فيهم وكيف لا وهو خالقهم وخالق طباعهم، ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾ .

هداية الآيات

من هداية الآيات:

١- وجوب طاعة الله ورسوله في أمرهما ونهيهما، وحرمة معصيتهما.

---

(١) المسند الموضوعي الجامع للكتب العشرة صهيب عبد الجبار ٢٣١/٢٠

(٢) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد صهيب عبد الجبار ٤٧/٧

٢- حرمة التشبه بالمشركين والكافرين وسائر أهل الضلال وفي كل شيء من سلوكهم.

٣- بيان **أن من الناس من** هو شر من الكلاب والخنازير فضلا عن الإبل والبقر والغنم أولئك البعض كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا.

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون (٢٤) واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خآصة واعلموا أن الله شديد العقاب (٢٥) واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٦)

---

١ في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ قال: هم نفر من بني عبد الدار، والآية عامة في من تلك حالهم.." (١)

"بين الحق والباطل، وكان لا بد من عقاب العصاة وإثابة المؤمنين، فكان الهلاك والتدمير لبعض الأمم، ونزعت البركة من الناس، وعوقبوا بنقص في الأموال والأنفس والثمرات كي يتوبوا ويثوبوا إلى رشدهم، وهذا معنى قوله تعالى: ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون فكان القحط ونزع البركة وحلول بعض الآفات جزاء في الدنيا لأعمال الكفار والعصاة لعلهم يرجعون عماهم فيه، **فإن من الناس من** لا يستقيم أمره إلا بإيقاع العذاب عليهم سريعا.

ثم أكد تسبب المعاصي لغضب الله ونكاله حيث كلفهم بأن يسيروا في الأرض لينظروا كيف أهلك الله الأمم السابقة، وأذاقهم سوء العذاب لطغيانهم وسوء أعمالهم وكأن قوله- سبحانه وتعالى-: كان أكثرهم مشركين كالبرهان على أن الشرك وحده لم يكن سبب التدمير وإيقاع العذاب، بل قد يكون ما دونه مما تحقر من الأعمال هو سبب البلاء والعذاب، نعم فالمسلمون الآن يؤمنون بالله، ولكنهم يأتون أعمالا هي سبب خذلانهم وضعفهم وإيقاع العذاب بهم، فهل من مدكر؟!

لما نهى الكافر عما هو عليه، أمر المؤمن بالواجب عليه فقال مخاطبا الرسول إيذانا بخطر المأمور به، وعناية به:

إذا كان الأمر كذلك فأقم وجهك، واجعل قصدك خالصا للدين القيم الذي هو الإسلام فهو دين الفطرة الإنسانية، ولا تلتفت لغيره أبدا من قبل أن يأتي يوم الحساب والجزاء، وهو يوم لا يرده راد، ولا يتهيأ لأحد دفعه من دون الله. يومئذ يصدعون ويتفرقون، فريق في الجنة وفريق في السعير، وهذا شحذ للهمة، وتحريض على انتهاز الفرصة من قبل هذا اليوم. من كفر فعليه وزر كفره وعاقبته، ومن عمل صالحا بعد الإيمان فلنفسه طلب الخير، ولها مهد مقعدا كريما وهيأ لها مسكنا مناسبا يتناسب مع ما قدم من العمل.

كل ذلك ليجزي ربك الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إذ لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله، ولكن بمحض فضل الله.

---

(١) أيسر التفاسير للجزائري أبو بكر الجزائري ٢/٢٩٦

أما الكفار فإن ربك لا يحبهم، وناهيك بعدم المحبة فهي عنوان العذاب الدائم والألم الشديد بما كانوا يكسبون، وما ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون..." (١)

"عبد الله – قال: سألت النبي – صلى الله عليه وسلم –: أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: "الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين. قال: ثم أي؟.

قال: الجهاد في سبيل الله –قال حدثني بهن، ولو استزدته لزادني".

(صحيح البخاري ٤١٤/١٠ – ك الأدب، ب البر والصلة ح٥٩٧٠) .

وانظر حديث مسلم عند الآية رقم (٩٠) من سورة المائدة.

أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة (ووصينا الإنسان بوالديه حسنا) ...

إلى قوله (فأنبئكم بما كنتم تعملون) قال: نزلت في سعد بن أبي وقاص لما هاجر قالت أمه: والله لا يظلني بيت حتى يرجع، فأنزل الله أن يحسن إليهما، ولا يطيعهما في الشرك.

وحديث مسلم السابق في سورة المائدة آية (٩٠) يشهد لهذا الأثر.

وانظر سورة الإسراء آية (٢٣) .

قوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين)

انظر حديث الطبري عن ابن عباس المتقدم عند الآية ٩٧ من سورة النساء.

قال الشيخ الشنقيطي: يعني **أن من الناس من** يقول: آمنا بالله بلسانه، فإذا أوذي في الله: أي أذاه الكفار إيذاءهم للمسلمين جعل فتنة الناس، صارفة له عن الدين إلى الردة، والعياذ بالله، كعذاب الله فإنه صارف رادع عن الكفر والمعاصي. ومعنى فتنة الناس: الأذى الذي يصيبه من الكفار؟ وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، وهذا قال به غير واحد. وعليه فمعنى الآية الكريمة كقوله تعالى: (ومن الناس من يعبد الله على حرف، فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين) .." (٢)

"المناسبة: لما حذر تعالى المؤمنين من موالاة الكافرين، وكانت رسالته صلى الله عليه وسلم تتضمن الطعن في أحوال الكفرة والمخالفين، وهذا يستدعي مناصبتهم العداء له ولأتباعه أمره تعالى في هذه الآيات بتبليغ الدعوة، ووعده بالحفظ والنصرة، ثم ذكر تعالى طرفا من عقائد أهل الكتاب الفاسدة وبخاصة النصارى الذين يعتقدون بألوهية عيسى وأنه ثالث ثلاثة، ورد عليهم بالدليل القاطع والبرهان الساطع.

اللغة: ﴿يعصمك﴾ العصمة: الحفظ والحماية ﴿طغيانا﴾ الطغيان: تجاوز الحد في الظلم والغلو فيه ﴿تأس﴾ تحزن يقال: أسي، والأسى: الحزن قال:

---

(١) التفسير الواضح محمد محمود حجازي ٣٣/٣

(٢) الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور حكمت بشير ياسين ٦٥/٤

وانحلبت عيناه من فرط الأسى ... ﴿خلت﴾ مضت ﴿صديقة﴾ الصديق: المبالغ في الصدق وفعيل من أبنية المبالغة كما يقال رجل سكيت أي مبالغ في السكوت أي كثير السكر ﴿يؤفكون﴾ يصرفون عن الحق يقال: أفكه إذا صرفه ومنه ﴿أجئتنا لتأفكنا﴾ [الأحقاف: ٢٢] ﴿تغلوا﴾ الغلو: التجاوز في الحد والتشدد في الأمر يقال: غلا في دينه غلوا فيه حتى جاوز الحد. سبب النزول: أ – عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعا وعرفت **أن من الناس من** يكذبني فأنزل الله ﴿ياأيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك﴾ الآية» .

ب – وعن ابن عباس قال: «جاء جماعة من اليهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ألست تقر أن التوراة حق من عند الله؟ قال: بلى فقالوا: فإنا نؤمن بها ولا نؤمن بما عداها» فأنزل الله ﴿قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ... ﴾ الآية.

التفسير: ﴿ياأيها الرسول بلغ مآ أنزل إليك من ربك﴾ هذا نداء تشريف وتعظيم ناداه تعالى بأشرف الأوصاف بالرسالة الربانية أي بلغ رسالة ربك غير مراقب أحدا ولا خائف أن ينالك مكروه ﴿وإن لم تفعل فما بلغت رسالته﴾ قال ابن عباس: المعنى بلغ جميع ما أنزل إليك من ربك فإن كتمت شيئا منه فما بلغت رسالته، وهذا تأديب لحملة العلم من أمته ألا يكتموا شيئا من أمر شريعته ﴿والله يعصمك من الناس﴾ أي يمنعك من أن ينالوك بسوء قال الزمخشري: هذا وعد من الله بالحفظ والكلاءة والمعنى: والله يضمن لك العصمة من أعدائك فما عذرك في مراقبتهم؟ «روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحرس حتى نزلت فأخرج رأسه من قبة أدم وقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله عز وجل» ﴿إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي إنما عليك البلاغ والله هو الذي يهدي من يشاء فمن قضي له بالكفر لا يهتدي أبدا ﴿قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة." (١)

"أهل السنة في هذه الصفات: " أمروها كما جاءت بلا كيف "، ﴿ينفق﴾ [المائدة: ٦٤] يرزق، ﴿كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا﴾ [المائدة: ٦٤] أي: كلما أنزل آية كفروا بها فازدادوا طغيانا وكفرا، ﴿وألقينا بينهم العداوة والبغضاء﴾ [المائدة: ٦٤] يعني: بين اليهود والنصارى، قاله الحسن ومجاهد، وقيل بين طوائف اليهود جعلهم الله مختلفين في دينهم متباغضين ﴿إلى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾ [المائدة: ٦٤] يعني: اليهود أفسدوا وخالفوا حكم التوراة، فبعث الله عليهم بختنصر، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم طيطوس الرومي، ثم أفسدوا فسلط الله عليهم المجوس، ثم أفسدوا فبعث الله عليهم المسلمين، وقيل: كلما أجمعوا أمرهم ليفسدوا أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأوقدوا نار المحاربة أطفأها الله، فردهم وقهرهم ونصر نبيه ودينه، هذا معنى قول الحسن، وقال قتادة: هذا عام في كل حرب طلبته اليهود فلا تلقى اليهود في بلد إلا وجدتهم من أذل الناس، ﴿ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين﴾ [المائدة: ٦٤]

[قوله تعالى ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا] عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم. . . .

---

(١) صفوة التفاسير محمد علي الصابوني ٣٢٨/١

[٦٥] ﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا﴾ [المائدة: ٦٥] بمحمد صلى الله عليه وسلم، ﴿واتقوا﴾ [المائدة: ٦٥] الكفر، ﴿لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم﴾ [المائدة: ٦٥]

[٦٦] ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل﴾ [المائدة: ٦٦] يعني: أقاموا أحكامهما وحدودهما وعملوا بما فيهما، ﴿وما أنزل إليهم من ربهم﴾ [المائدة: ٦٦] يعني: القرآن، وقيل: كتب أنبياء بني إسرائيل، ﴿لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ [المائدة: ٦٦] قيل: من فوقهم هو المطر، ومن تحت أرجلهم نبات الأرض. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لأنزلت عليهم القطر وأخرجت لهم من نبات الأرض. قال الفراء: أراد به التوسعة في الرزق كما يقال فلان في الخير من قرنه إلى قدمه ﴿منهم أمة مقتصدة﴾ [المائدة: ٦٦] يعني: مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه، مقتصدة أي عادلة غير غالية، ولا مقصرة جافية. ومعنى الاقتصاد في اللغة: الاعتدال في العمل من غير غلو ولا تقصير، ﴿وكثير منهم﴾ [المائدة: ٦٦] كعب بن الأشرف وأصحابه، ﴿ساء ما يعملون﴾ [المائدة: ٦٦] بئس ما يعملون، بئس شيئا عملهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عملوا بالقبيح مع التكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم.

[٦٧] قوله عز وجل: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] قالت عائشة: من حدثك أن محمدا صلى الله عليه وسلم كتم شيئا مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] (١) روى الحسن: أن الله تعالى لما بعث رسوله ضاق ذرعا وعرف أن من الناس من يكذبه،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٨ / ٢٧٥، ومسلم في الإيمان رقم (١٧٧) ١ / ١٥٩.." [1]

"البخاري عن مصعب قال: سألت أبي: قل: هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا أهم الحرورية؟ قال: لا، هم اليهود والنصارى. أما اليهود فكذبوا محمدا صلى الله عليه وآله وسلم، وأما النصارى فكفروا بالجنة، فقالوا: لا طعام فيها ولا شراب، والحرورية (أي الخوارج) الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وكان سعد يسميهم الفاسقين.

والحقيقة أن الآية تشمل جميع أهل الضلال سواء من أهل الكتاب أو من المشركين.

٥- في هذه الآية: قل: هل ننبئكم.. دلالة على أن من الناس من يعمل العمل، وهو يظن أنه محسن، وقد حبط سعيه، والذي يوجب إحباط السعي: إما فساد الاعتقاد أو المراءاة.

٦- إن سبب خسارة أعمال أهل الضلال هو الكفر بآيات الله وبالبعث، وهذا يشمل مشركي مكة عبدة الأوثان، وأهل الكتاب أيضا لأن إيمان هؤلاء بالبعث مشوة غير صحيح.

٧- إن عقاب هؤلاء الضالين على أعمالهم الباطلة ثلاثة أنواع: إحباط الأعمال، وإهدار الكرامة والاعتبار، والعذاب في نار جهنم، فلا ثواب على أعمالهم ولا نفع فيها، ولا يقيم الله عز وجل لهم وزنا، ويصلون جهنم، قال عبيد بن عمير: يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب، فلا يزن عند الله جناح بعوضة. وهذا في حكم المرفوع،

وقد ثبت معناه في صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه

---

(١) مختصر تفسير البغوي المسمى بمعالم التنزيل عبد الله الزيد ٢٣٩/١

قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا إن شئتم: فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا» . والمعنى: أنهم لا ثواب لهم، وأعمالهم مقابلة بالعذاب، فلا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار.." (١)

"رسالة القرآن

[سورة النمل (٢٧) : الآيات ١ الى ٦]

بسم الله الرحمن الرحيم

طس تلك آيات القرآن وكتاب مبين (١) هدى وبشرى للمؤمنين (٢) الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون (٣) إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون (٤)

أولئك الذين لهم سوء العذاب وهم في الآخرة هم الأخسرون (٥) وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم (٦)

الإعراب:

هدى.. إما منصوب على الحال من الكتاب، أي تلك آيات القرآن هاديا، وبشرى عطف عليه، أي مبشرا وإما مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أي هو هدى، أو خبر بعد خبر، فإن قوله تعالى: تلك مبتدأ، وآيات القرآن خبره، وهدى خبر بعد خبر.

في الآخرة هم الأخسرون في الآخرة تبيين، وليس بمتعلق بالأخسرين، **فإن من الناس من** خسر الدنيا وربح الآخرة، وهؤلاء خسروا الآخرة.

البلاغة:

تلك آيات القرآن إشارة بالبعيد بدلا عن القريب، لبيان رفعة القرآن وعلو شأنه.

وكتاب مبين التنكير للتفخيم والتعظيم، أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر.

هدى وبشرى التعبير بالمصدر بدلا عن اسم الفاعل للمبالغة، أي هاديا ومبشرا.

وهم بالآخرة هم يوقنون وهم في الآخرة هم الأخسرون بينهما مقابلة، وتكرار الضمير فيهما لإفادة الحصر والاختصاص.." (٢)

"وهي خاوية جملة اعتراضية. وفسر قوم: وهي خاوية على عروشها أي ساقطة سقوفها، فلا يكون هناك اعتراض.

كم لبثت: كم: في موضع نصب على الظرفية الزمانية، وتقديره: كم لبثت يوما.

لم يتسنه إما أصله: يتسنن، من قوله: حمإ مسنون أي متغير، قلبت النون الثالثة ياء كراهية اجتماع ثلاث نونات، ثم قلبت

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٣٨/١٦

(٢) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٢٥٥/١٩

الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار «يتسنى» ثم حذفت الألف للجزم، فصار: يتسن، وأدخلت عليه هاء السكت، وإما مأخوذ من «تسنه وسانهت» تفعل من السنة، فيكون المعنى: لم يتغير بمر السنين، وأصل سنة: سنهة.
ولنجعلك الواو عطف على فعل مقدر، تقديره: انظر إلى حمارك لتتيقن ما تعجبت منه، حين قلت: أنى يحيي هذه الله بعد موتها، ولنجعلك آية للناس.

البلاغة:

بعد موتها أي موت سكان القرية، مجاز مرسل من قبيل إطلاق المحل وإرادة الحال.
ثم نكسوها لحما فيها استعارة الكسوة للحم الذي غطى العظم، كما يستر الجسد باللباس، ثم حذف المشبه به وهو الثوب، وأتى بشيء من لوازمه وهو الكسوة على سبيل الاستعارة المكنية.

المفردات اللغوية:

أو كالذي مر على قرية أي عزير الذي مر على ضيعة هي بيت المقدس، راكبا ومعه سلة تين وقدح عصير خاوية ساقطة، أو خالية من السكان، والعروش: السقوف، لما خربها بختنصر. أنى يحيي كيف، وهو استبعاد منه للإحياء بعد الموت، والمراد بالإحياء هنا: العمارة بالبناء والسكان بعد موتها خرابها فأماته الله أي جعله فاقدا للحس والحركة والإدراك بدون أن تفارق الروح البدن بتاتا، كما حدث لأهل الكهف ثم بعثه أرسله من بعثت الناقة:
إذا أطلقتها من مكانها، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا كامل المدارك. ويرى الأطباء **أن من الناس من** يبقى حيا زمنا طويلا، لكنه يكون فاقد الحس والشعور، وهو المسمى لديهم بالسبات: وهو النوم المستغرق، ومرد كل ذلك إلى قدرة الله بالحفظ مائة سنة أو ثلثمائة سنة أو أكثر أو أقل، وقال القرطبي: وظاهر هذه الإماتة أنها بإخراج الروح من الجسد. طعامك التين وشرابك العصير لم يتسنه لم يتغير مع طول الزمان، والهاء إما للسكت من سانيت، وإما من أصل الكلمة وهي سانهت وانظر إلى حمارك كيف هو، فرآه ميتا وعظامه باقية ولنجعلك فعلنا ذلك لتعلم ولنجعلك آية على البعث، أي علامة على قدرة." (١)

"الإعراب:

شركاء الجن شركاء: منصوب لأنه مفعول أول. والجن: مفعول ثان.
واللام في لله تتعلق بشركاء. ويجوز أن نجعل الجن بدلا من شركاء، واللام في لله تتعلق ب (جعل) . أو قرئ الجن بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره: هم الجن.

المفردات اللغوية:

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٣٢/٣

وخرقوا مثل اختلفوا، والخرق والاختلاق للكلام: ابتداع الكذب. وأما الخلق: فهو فعل الشيء بتدبير ورفق. وأما الإبداع فهو إنشاء الشيء بلا اقتداء بأحد، والبديع من أسمائه تعالى:
أي مبدع الأشياء ومحدثها على غير مثال سابق، ومنه البدعة في الدين لأنه لا نظير لها فيما سلف.
لا تدركه الأبصار أي لا تراه، والإدراك: اللحاق والوصول إلى الشيء، والبصر: حاسة الرؤية، اللطيف الرفيق بعباده وأوليائه الخبير بشؤون خلقه.

المناسبة:
بعد أن ذكر تعالى البراهين الخمسة على ثبوت الألوهية، وكمال القدرة والرحمة، ذكر عقب ذلك **أن من الناس من** أثبت لله شركاء من عالم الجن، أو من اختراع نسل له من البنين والبنات.

التفسير والبيان:
هذه الآيات رد على مشركي العرب الذين عبدوا مع الله غيره، وأشركوا به في عبادته أن عبدوا الجن، فجعلوهم شركاء له في العبادة، وأما عبادتهم الأصنام فلم تكن إلا بطاعة الجن وأمرهم إياهم بذلك، كقوله تعالى: إن يدعون من دونه إلا إناثا، وإن يدعون إلا شيطانا مريدا. لعنه الله، وقال: لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا. ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر." (١)
"وأخرج العوفي عنه أنه فسره بالصبح، وعليه فتعليق العياذ باسم الرب المضاف إلى الفلق المنبئ عن النور عقيب الظلمة، والسعة بعد الضيق هو عدة كريمة بإعاذة العائذ مما يتعوذ، وإنجائه منه، وتقوية لرجائه بذكر بعض نظائره، ومزيد ترغيب له في الجد والاعتناء بقرع باب الالتجاء إليه عز وجل.
وقيل: إن تخصيص الفلق بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة، **لأن من الناس من** يغدو فيلقى وينال خيرا، ومنهم من يجد ما يضره ويكرهه.
وفي رواية عن ابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين أن الفلق: جب في جهنم، أو واد فيها.

٢ - (من شر ما خلق):
أي: من شر الذي خلقه من الثقلين وغيرهما، وقال بعض الأفاضل، هو عام لكل شر في الدنيا والآخرة، وشر الإنس والجن والشياطين، وشر السباع والهوام، وشر النار، وشر الذنوب والهوس، وشر النفس، وشر العمل.

٣ - (ومن شر غاسق إذا وقب):
في هذا تخصيص لبعض الشرور بالذكر مع اندراجه فيما قبل، لزيادة مساس الحاجة إلى الاستعاذة منه؛ لكثرة وقوعه،

---

(١) التفسير المنير للزحيلي وهبة الزحيلي ٣١٣/٧

ولأن تعيين المستعاذ منه أدل على الاعتناء بالاستعاذة، والغاسق إذا وقب، أي: الليل إذا اعتكر سواده وعم ظلامه كل شيء، من قوله تعالى: "إلى غسق الليل" (١)، والتقييد بهذا الوقت لأن حدوث الشرفية أكثر، والتحرز منه أصعب وأعسر، ومن أمثالهم (الليل أخفى للويل) وقولهم: أغدر من ليل، إذ أنه ستار يختفي في ظلامه المجرمون والعابثون بالأمن، وهو عون لأعدائك عليك، وتفسير الغاسق إذا وقب ذكر هو المأثور عن ابن عباس ومجاهد، وقيل معناه: القمر إذا امتلأ نورا، على أن الغسق: الامتلاء، ووقوبه: دخوله في الكسوف واسوداده، أو دخوله في المحاق

-

(١) سورة الإسراء: من الآية ٧٨.." [1]

(١) التفسير الوسيط - مجمع البحوث مجموعة من المؤلفين ٢٠٥٥/١٠